لجنة التأليف والترجمة والنشر

اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي

تاريخ الأدب الجغرافي العربي

نقله إلى اللغة العربية

صلاح الدين عثمان هاشم

قام بمراجعته

إيغور بليايف

القسم الثاني

اختارته

الإدارة الثقافية

في

جامعة الدول العربية

هذه ترجمة كتاب

IGNATI IULIANOVICH KRACHKOVSKI

ISTORIA ARABSKOI GEOGRAFICHESKOI LITERATURY

MOSKOVA - LENINGRAD
1957

محتويات الكتاب

القسم الثانى

الصفحة

تاريخ الأدب الجغرافي العربي

القسم الثاني

الفصل السابع عشر

المقريزى وجغرافيو مصر إلى الفتح العثمانى

---

459 أصبحت مصر فى القرن الخامس عشر كما رأينا مثابة للأدب العربى بأجمعه ، وظلت تشغل هذه المكانة إلى الفتح العثمانى. وفيما يتعلق بالتأليف الجغرافى فإن الأمر الجدير بالملاحظة هو أن جميع الأنماط الجغرافية المعروفة لنا بالتقريب قد نمت وترعرعت بها ؛ ويصدق هذا بصورة خاصة على نمط الموسوعات الذى بلغ الأوج فى بداية القرن الخامس عشر وكان أكثر آثار ذلك العهد إبداعاً وأصالة . وتسترعى النظر كما هو الحال من قبل الجغرافيا الإقليمية الإدارية (Administrative-regional Geography) التى نمت نمواً مطرداً فى أوساط عمال دولة المماليك ، أما الجغرافيا الإقليمية فتقدم لنا نمط « الخطط » التاريخى الطوبوغرافى الذى بلغ ذروته فى مصنف المقريزى المشهور. وإلى جانب هذا فإن المؤرخين أنفسهم لم يكتفوا بضم مادة جغرافية كبيرة إلى مصنفاتهم فى التاريخ العام أو التاريخ المحلى بل عالجوا أحياناً الكتابة فى الأنماط الجغرافية المختلفة .

وخير ممثل لهذا الصنف من المؤلفين فى بداية ذلك العصر هو صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق المصرى الذى غلب عليه اسم ابن دقماق[1] ؛ وقد شغل لبعض الوقت أثناء سلطنة محمد الناصر منصب الوالى بدمياط ، غير أن اهتمامه الأكبر كما يبدو كان منصرفاً إلى كتابة التاريخ ، كما وأنه كان يعد فى مجال الفقه من غلاة الحنفية وهو أمر جر عليه بعض المتاعب فى مصر التى غلب عليها مذهب الشافعى . ومن مصنفاته سفر ضخم فى التاريخ فى إثنى عشر جزءاً وصل به إلى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ وأتمه فى عام ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ ، ولم يتبق منه سوى بضعة أجزاء بخط يد المؤلف نفسه موجودة بمكتبة غوتا Gotha بألمانيا ؛ كما عهد إليه الظاهر برقوق (توفى فى عام ٨٠١هـ = ١٣٩٨) بكتابة تاريخ ولاة مصر فوصل به إلى عام ٨٠٤هـ = ١٤٠٢ . أما مصنفه الجغرافى فكان على ما يظهر من أواخر آثاره العلمية ولعله لم يكمله ؛ ومن المحتمل أنه

460 حاول تحت تأثير نمط « الفضائل » القديم من جهة والجغرافيا الإقليمية الإدارية من جهة أخرى أن يصف الأمصار العشرة الكبرى فى العالم الإسلامى مولياً اهتمامه الأكبر إلى مدن مصر ومبيناً فضلها على بقية المدن ، ولهذا فقد أطلق على كتابه اسم « كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار »[2] . وقد حفظ لنا من هذا الكتاب الجزآن الرابع والخامس فى مخطوطة بدار الكتب المصرية بخط يد المؤلف ولم يكن قد انتهى من صياغتها فى صورتها النهائية . هذان الجزآن يعالجان الكلام على القاهرة والإسكندرية ويحملان فى بعض الأحيان عنواناً منفصلا أبعد من أن نرجع إلى المؤلف نفسه وهو « الدرة المضية فى فضل مصر والإسكندرية » .

والمصنف لايتمتع بأية ميزات أدبية بل يقتصر على تعداد جاف لمعالم المدينة الهامة مع الاكتفاء بتعليقات تختلف طولا وقصراً ، وهو يبدأ بالكلام على مدينة الفسطاط مفصلا القول على أحيائها وأسواقها وبركها ومساجدها ومعاهدها وأبنيتها وأديارها وكنائسها الخ . وابن دقماق يستشهد من وقت لآخر بالأشعار التى يرد فيها ذكر المواضع التى يعالج الكلام عليها ولو أنه لايبالغ فى ذلك كما هو الشأن مع المؤلفين الآخرين؛ ومن الطبيعى ألا تتساوى من حيث الأهمية جميع الموضوعات التى يتكلم عنها فجزيرة الروضة مثلا تحتل أهمية خاصة لديه وذلك لارتباطها بذكريات أدبية معينة . وهو يطبق الطريقة التى يلجأ إليها فى وصف الفسطاط فى كلامه على بقية حواضر مصر فيبدأ بالقريبة من القاهرة مثل اطفيح وأسيوط الخ ويعقبها بالبعيدة؛ ثم يرجع إلى الكلام مرة أخرى على القاهرة قبل أن ينتقل إلى الإسكندرية ، ومن الملاحظ أن القسم الذى أفرده للكلام على هذه المدينة الثانية لايبدو أنه قد أتمه إذ يقتصر فى حقيقة الأمر على سرد للأساطير المتعلقة بها دون أن يتعرض لوصفها .

والكتاب يوحى بصورة عامة أنه لم يتمم إذ كثيراً ما نلتقى فى النسخة الموجودة بخط يد المؤلف ببياض فى الأصل يمس الأرقام بشكل خاص ، ومن حقنا أن نفترض أنه لم يقدر للمؤلف أن ينفذ خطته بالتمام لذا فلم يتمكن إلا من تدوين جزئين[٣] من العشرة التى كان ينوى كتابتها ؛ وقد وصل إلى نفس هذه النتيجة ناشر الكتاب العلامة فولرز Vollers عند فحصه لمسألة استعمال المقريزى لمصنف ابن دقماق فى كتابه فى « الخطط » . وكان المقريزى من تلامذة ابن دقماق[٤] فلاعجب أن عرف مؤلفاته جيداً ، غير أن الغريب فى الأمر هو أنه لايشير فى أى موضع إلى «كتاب الانتصار» بل ويصرح عند تعداده لمصادره أن آخر من كتب فى الخطط هو ابن المتوج المعروف[٥] . وبما أن المقريزى بدأ نشاطه العلمى بدراسة العلوم الشرعية فقد دفع ذلك فولرز إلى الافتراض بأنه اشتغل بالتاريخ عقب وفاة ابن دقماق[٦] وبذلك لم يتعرف على مصنفاته هذه ؛ ومن الممكن أنه قد أغفل ذكره عن عمد لأن المقريزى كان شافعياً متعاراً . ووجود الكتاب فى مخطوطة وحيدة يدفع إلى الاعتقاد بأن نسخة المؤلف قد وقعت فى وقف أحد مساجد القاهرة وظلت مجهولة من الجميع[٧] ؛ وعلى أية حال فإن تاريخ تدوينه يقع بعد عام ٧٩٣هـ = ١٣٩١[٨] .

461

وكان ابن دقماق رجلا واسع الاطلاع إذا حكمنا من مصنفاته التاريخية ، وهو يستقى مادته الجغرافية من مؤلفين معروفين لنا فينقل عن الحوقلى (ابن حوقل) والمؤلفين الذين يعالجون الكلام بصورة خاصة على مصر كالكندى وابن عبد الحكم والقضاعى وابن زولاق كما ينقل أيضاً عن ابن سعيد والإدريسى[٩] . ويقرر فولرز أن ابن دقماق قد استعان بمصادر أفضل من تلك التى يلجأ إليها المقريزى وأنه وقف منها موقفاً أكثر جدية فلم تجتذبه الغرائب والعجائب كما حدث مع الأخير[١٠] . هذا وتتعارض المصادر حول تاريخ وفاته ولكن أقربها إلى الواقع هو عام ٨٠٩ هـ = ١٤٠٧[١١] .

وعلى نقيض ابن دقماق كان إدارياً أكثر منه عالماً خليل بن شاهين الظاهرى (المتوفى فى عام ٨٧٢ هـ =

١٤٦٨)[١٢] أحد كبار رجال دولة المماليك ؛ وكان أبوه من مماليك السلطان الظاهر سيف الدين وإليه نسب الابن[١٣] . وقد ولد خليل الظاهرى بالقدس فعرفها معرفة مباشرة[١٤] ولكنه تلقى تعليمه بمصر وشغل منذ السنوات الثلاثينات للقرن الخامس عشر عدداً من المناصب الهامة فى حكومة المماليك فكان والياً على الإسكندرية لبعض الوقت وأميراً للحج لعام ٨٤٠هـ = ١٤٣٦ ، وأصبح فيما بعد والياً على نواح من فلسطين مثل الكرك وصفد وأخيراً تولى منصباً هاماً بدمشق . وكان لتقلبه فى مناصب الدولة المختلفة أن مكنه هذا من التعرف عن كثب على ولاياتها الكبرى وهى مصر والشام والحجاز أيضاً التى كانت تعترف بالتبعية السياسية لدولة المماليك ؛ ولعل نشاطه الإدارى هو الذى دفعه فى عهد السلطان جقمق (٨٤٢ هـ — ٨٥٧ هـ = ١٤٣٨ — ١٤٥٣)[١٥] إلى التفكير فى وضع مدخل من أجل عمال الدولة فبدأ عمله بكتابة مجلدين ضخمين فى أربعين باباً ولكنه لما أبصر ضخامة مؤلفه اختصره فى اثنى عشر باباً بعنوان « زبدة كشف الممالك فى بيان الطرق والمسالك[١٦] » . ومن العبث أن نحاول الاستقراء من عنوان الكتاب أن 462 المؤلف أراد أن يضع مصنفاً من نمط « المسالك » المعروف لنا جيداً ، فالأمر ليس كذلك ؛ ووجود لفظ « المسالك » اقتضاه العنوان المسجوع للكتاب وبخلاف هذا فإن الكتاب فى واقع الأمر يمثل شيئاً أقرب إلى تقويم حكومى لأراضى دولة المماليك الغرض منه أن يكون مرجعاً لموظفى الدولة وللمهتمين بالمسائل السياسية والدبلوماسية[١٧] ؛ وأقرب شبيه له فى هذا المضمار هو كتاب « التعريف » للعمرى ؛ ورغماً من فقدان الصلة المباشرة بين الكتابين[١٨] إلا أن الشبه بينهما لم يأت عفواً كما أثبت ذلك هارتمان Hartmann الذى أخضعهما لتحليل دقيق .

ومما لاشك فيه أن المقارنة بين هذين الأثرين ليست فى صالح الظاهرى بأية حال ؛ وسبب ذلك أن الظاهرى لم يقصد بكتابه الفائدة والمعرفة فقط بل أراد به أيضاً المتعة والتهذيب[١٩] فخرج الكتاب كما يقول هارتمان مليئاً بالهراء من حيث أراد صاحبه التسلية والمتعة ومفعماً بالغث من حيث أراد منه التهذيب والتوجيه . ومن ثم فلا يمكن مقارنته فى أى شيء بكتاب العمرى[٢٠] لأن هذا الأخير جمع بجد واهتمام كل ما هو ضرورى من أجل كتاب الإنشاء ببلاط السلطان على عكس خليل الظاهرى الذى استهدف الإمتاع[٢١] وأراد من وقت لآخر إشباع نزعاته الأدبية رغماً عن افتقاره التام إلى الذوق الأدبى . وهو يورد فى كتابه عدداً كبيراً من الأقوال المأثورة وقصص التقى والورع[٢٢] ولكنه يسبغ على مضمونها طابعاً مميزاً من سماته الشخصية التى يوجد من بينها على حد تعبير هارتمان المغالاة فى إظهار التدين وفى الاهتمام بالدين وهى صفة تقرب كثيراً بين خليل الظاهرى وعدد من الكتاب المتأخرين كالرحالة المعروف عبد الغنى النابلسى ، وتدفعه إلى سرد أخبار لاتحصى عن المواضع المقدسة[٢٣] . كذلك من سماته الرضى عن النفس ويتمثل هذا فى الاقتباسات التى ينقلها من قصائد المدح التى قيلت فيه وأيضاً فى العدد الضخم من قصائده هو التى أضافها فى آخر الكتاب هذا بالرغم من افتقارها البين إلى الجودة[٢٤] . وهو لم يجهد فى استيعاب مادته

الحربية أو يتوخى الدقة فى روايتها[٢٥] ، مثال ذلك أنه لا يفصّل الكلام على نظام الإدارة فى دولة المماليك وأنه كثيراً ما ينقل إحصائياته لا من الوثائق الرسمية المعاصرة بل من مؤلفات قديمة طال عليها العهد[٢٦] ؛ وعلى خلاف العمرى فإنه لايقدم نماذج لصيغ المكاتبات الرسمية من ذلك الضرب الذى حفل به كتاب « التعريف »[٢٧] .

وأمام هذا التحليل القاسى فإن الحكم على مؤلفنا قد يبدو سلبياً للغاية ، غير أن خليل الظاهرى لحسن الحظ لا يفتقر إلى بعض 463 المميزات فهو قد جهد فى تقديم صورة متكاملة الجوانب للنظام الإدارى بمصر كما أن الباب الأول من كتابه الذى يعد أوسع فصوله جميعاً يعرض لنا تحليلا جغرافياً عاماً للحجاز وبعض فلسطين ومصر وسوريا ، وفى الباب الثانى ينتقل إلى الكلام على نظام السلطنة وما يتحلى به السلطان من الصفات ويصف الموكب الشريف والملبوس . . وفى الباب الثالث والأبواب التى تليه وهى أصغر بكثير من سابقتها من حيث الحجم يرد الكلام بالتوالى على الخليفة « أمير المؤمنين » وقاضى القضاة وأئمة الدين وعلى الوزارة وما يرتبط بها من مناصب ودواوين . وقد أفرد بعض الأبواب القصيرة للكلام على أولاد الملوك وعلى الأمراء ، كما يتعرض فيها للكلام على بعض المناصب مما لم يعالجه فى الأبواب السابقة . وفى الباب السابع يصف بعض دور الحكومة على حين يفرد الثامن للكلام على ملحقات الدور السلطانية والتاسع للكلام عن صيانة الجسور والطرق وعن تقسيم الولايات . وأغلب الظن أن الأبواب الثلاثة الأخيرة للكتاب قد أضيفت بالتدريج وهى تسوق العرض وفقاً لمنهج مغاير بعض الشىء ، فالباب العاشر أشبه بوصف لنظام الجيوش عند المماليك هذا بينما يعالج الحادى عشر الكلام على العربان والتركمان والأكراد خاصة من زاوية تزويدهم مصر بالمماليك . أما الباب الثانى عشر فيحمل طابعاً يسوده الخلط والصدفة إذ يضم أساطير عن شداد وفرعون ، كما يضم قصائد للأمراء المعاصرين للمؤلف . ورغما من التلون الذى يغلب على مادة الكتاب وعدم تمسك المؤلف بخطته فى الأبواب الأخيرة منه فإنه لا يمكن بأية حال إنكار أن المادة التى تحتويها الأبواب الأولى ضخمة وهامة ولو أنه يجب الاعتراف بأنها تتراوح من حيث أهميتها . وعلى أية حال فقد استطاع خليل الظاهرى بفضل منصبه الحكومى أن يفيد أحياناً من الوثائق الحكومية[٢٨] ، ويلاحظ هارتمان هذا بصورة خاصة فى القسم الذى أفرده للكلام على البريد وهو أقيم ما فى الكتاب بأجمعه[٢٩] ، ويكتسب أهمية خاصة تعداده لمنازل البريد ومحطاته لا لأنه يذكر أسماء مواضعها الرئيسية فحسب كما فعل معظم المؤلفين قبله بل لأنه يقدم لنا تفاصيل ذات أهمية كبرى ؛ ومما يوصف له حقاً أن متن الكتاب فى هذا الموضع ليس فى حال تبعث كثيراً على الرضى[٣٠] . وإلى جانب المادة الإخبارية التى يوردها والتى كما رأينا لاتخلو من القيمة فإنه يجب الاعتراف بأن الكتاب لايخلو من أهمية فى حد ذاته لأنه ينتمى إلى عصر لم تصلنا منه مادة جغرافية وفيرة ، أضف إلى هذا أن المطبوع منها فى صورة مرضية أقل من ذلك بكثير[٣١] . وهو معروف حتى الآن فى الملخص الذى عمله المؤلف والذى أشرنا إليه فى حينه ؛ وأغلب

الظن أن المسودة الأصلية قد فقدت . وقد ظهر أكثر من مرة الرأى القائل بأنها هى التى رجع إليها فى القرن الثامن عشر الرحالة المعروف ڤولنى Volney فى وصف رحلته بمصر وسوريا (١٧٨٧) ، غير أن التحليل الذى قام به هارتمان أثبت 464 أن المسودة التى وجدت بين يدى الرحالة هى نفس الملخص المعروف لنا[٣٢] .

لقد حدث وأن أشرنا إشارة عابرة أثناء كلامنا عن مصر فى القرن الرابع عشر إلى أحد معاصرى خليل الظاهرى ، وهو سليل أسرة من تلك الأسر القبطية التى اعتاد حكام مصر استخدامها فى وظائف الدولة آنذاك[٣٣] واسمه الشيخ أبو البقاء بن الجيعان[٣٤] ؛ وقد ساق التشابه فى الأسماء إلى الخلط بينه وبين سميه السابق له والذى كان من موظفى الديوان أيضاً[٣٥] . وحمل صاحبنا لقب « مستوفى ديوان الجيش »[٣٦] أى أشبه ما يكون برئيس لكتبة الإدارة العسكرية ؛ ومن المحتمل أنه قد وضع مصنفه فى البداية ليكون مرشداً للعاملين فى تلك الإدارة ؛ وهو كتاب جاف للغاية ولكنه لا يخلو من الفائدة وعنوانه « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » . ويقول المؤلف فى مقدمة كتابه « فهذا كتاب أذكر فيه ما بإقليم مصر من البلدان وعبرة* كل بلد وكم مساحتها من فدان ، أولا بذكر الإقليم على وجه الإجمال وأذكر عبرة الأقاليم المذكورة على ما استقر عليه الحال فى أيام الأشرف شعبان ، وإن تغيرت عبرة بلدة عما كانت عليه ذكرت عبرتها الآن »[٣٧] . والمؤلف كما يبصر من ألفاظه يستدرك بقوله إن مادته ترجع إلى عهد السلطان شعبان ، وكما رأينا من قبل فإن المرجع الرئيسى فى هذا الصدد هو « تقويم البلدان المصرية فى الأعمال السلطانية » الذى تم تأليفه بالديوان السلطانى حوالى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ ومما يقف دليلا على الأهمية العملية لكتاب ابن الجيعان فيما يتعلق بإدارة مصر هو أنه نقل إلى التركية[٣٨] .

ولابن الجيعان مؤلف آخر ذو طابع جغرافى يمثل بالنسبة لنا أهمية كبرى ، ففى عام ٨٨٢ هـ = ١٤٧٧ قام السلطان قايتباى برحلة فجائية إلى الشام أخفى الغرض من زيارتها حتى على من أخذوا طرفاً فيها ويلوح أن المقصود منها كان التأكد من أن التحصينات القائمة على الحدود مع آسيا الصغرى فى حالة جيدة تستطيع معها الوقوف ضد العثمانيين إذا ما فكروا فى مهاجمة الشام[٣٩] . وكان من بين رجال حاشيته ابن الجيعان الذى ترك لنا وصفاً لهذه الرحلة فى كتاب صغير بعنوان « القول المستظرف فى سفر مولانا الأشرف » أخرجه فى طبعة حجرية المستشرق الإيطالى لانتزونى R. Lanzone فى عام ١٨٧٨ وله ترجمة إنجليزية 465 بقلم ديڤونشير R. Devonshire (١٩٢٢) ؛ هذا وقد نسب الناشر سهواً تأليف الكتاب إلى ناسخه[٤٠] إبراهيم الطيبى[٤١] . وابن الجيعان يذكر نفسه ضمن الحاشية وقد جاء بألفاظه أنه وجد بينها « العبد أبو البقاء بن الجيعان »[٤٢] ، ومما يؤكد مشاركته فى هذه الرحلة أن المؤرخ ابن إياس يذكر ذلك بل ويضيف إلى هذا أن قايتباى ، قد حفظ أمرها سراً[٤٣] .

---

* عبر البلد أو عبرتها خراجها وغلتها . (المترجم)

وتكمن الميزة الأساسية لهذا الأثر فى بساطته وفى معلوماته المباشرة ، ويلوح أن ابن الجيعان قد دون الجزء الأكبر منه دون أن يعمل فيه بيد التنقيح لذا فقد كثرت فيه الألفاظ والعبارات المكررة مما يحمل على الاعتقاد بأنه قد كتبه فى الأصل على شكل يوميات لم يلبث أن ضم بعضها إلى بعض دون إضافات أو تعديلات ذات بال . وعلى نقيض كتابه « التحفة » فقد كان هدفه هنا وضع أثر أدبى إن لم يكن فى أسلوب رفيع على الدوام فهو قريب منه على الأقل ، لذا فإنه تقابلنا فى مواضع عديدة منه جمل مسجوعة وأشعار متكلفة ليست بذات قيمة تذكر . ونظراً لأنه قد شغل فى هذه الرحلة وصفاً أشبه بوضع مؤرخ للبلاط فقد وجد نفسه بطبيعة الحال خاضعاً لالتزامات معينة فكان من الضرورى عليه مثلا أن يفسح المجال لمدح ولى نعمته ولعل هذا هو السبب فى اختتامه الكتاب بمقارنة بين قايتباى والظاهر بيبرس (٦٥٨ هـ - ١٢٧٧) بصدد ما قام به كل منهما بالشام ، أخرج منها الأخير بصفقة المغبون[٤٤] وهو أمر لايقره عليه أحد . غير أن أسلوب الكتاب يجب ألا يقف حائلا دون الاعتراف بقيمته وبصحة معطياته ، فوصفه للطريق بين مصر والشام كان ذا فائدة كبرى للمستشرق هارتمان فى بحثه الخاص الذى أفرده لهذا الموضوع[٤٥] .

وقتل ابن الجيعان عام ٩٠٢ هـ = ١٤٩٧ فى أحد شوارع القاهرة بيد مملوك مجهول وهو فى سن الستين بحسب رواية ابن إياس[٤٦] . وكتابه « المستظرف » لايمثل بطبيعة الحال النموذج الوحيد لتدوين رحلة أمير كبير بقلم أحد رجال حاشيته إما بتكليف منه أو لنيل عطفه ؛ وقد استمر هذا الضرب من الرحلات مزدهراً لعدة قرون بل إننا نلتقى به فى القرن العشرين فى مصنف مشابه ولكنه يقوم على أساس يخالف كل المخالفة أعنى رحلة البتانونى التى رفعها إلى خديو مصر عباس حلمى .

لقد شهد عصر المماليك كما أبصرنا انتعاش وازدهار نمط الموسوعات ، ولكنه إلى جانب هذا بلغ فيه المقريزى القمة بنمط آخر هو نمط « الخطط » . وسنرى فيما يلى أن المقريزى وإن لم يكن آخر المؤلفين فى هذا الباب إلا أنه أعظمهم مكانة .

466

والمقريزى بوجه عام شخصية ضخمة بين مؤرخى مصر الإسلامية ليس فقط لدقة روايته التى لاتنفك دائماً فوق مستوى النقد بل قبل كل شىء لنشاطه الجم الذى لايعرف الكلل ولاتساع أفق دراساته واهتمامه الكبير بالجانب الاجتماعى والديموغرافى (Demographic) للتاريخ[٤٧] . ويمكن إلى حد ما اعتباره أبا لتلك المدرسة التاريخية التى ازدهرت بمصر فى ذلك العصر وقدمت لنا أسماء لامعة كمعاصريْه العينى وابن حجر وتلميذه ثم منافسه أبى المحاسن[٤٨] ، ومن ممثلى الأجيال التالية السخاوى الذى كان يضمر له بعض السوء ثم العلامة الكبير السيوطى ، وأخيراً المؤرخ ابن إياس الذى شهد الفتح العثمانى[٤٩] . وسنلتقى ببعضهم ممن عالجوا الكلام فى موضوعات جغرافية فى سياق هذا الفصل .

والمقريزى[٥٠] أو ابن المقريزى كما يدعى أحيانا هو تقى الدين أحمد بن على ، ولد بالقاهرة فى عام ٧٦٦هـ - ١٣٦٤ وأحس من نفسه دائماً مواطناً مصرياً غيوراً كما سنبصر هذا من مقدمته لكتابه « الخطط » . وكان

من أساتذته ابن خلدون ، وقد بدأ دراسته على ما يبدو بالتخصص فى العلوم الشرعية وكان من غلاة الشافعية على عكس أحد أساتذته وهو ابن دقاق الحنفى ؛ وكما لاحظ أحد معاصريه وهو أبو المحاسن[٥١] فإن بغضه للحنفية قد انعكس فى مؤلفاته . وقام المقريزى بتدريس الحديث فى سن مبكرة بالقاهرة ثم تقلب فى الوظائف فشغل منصب القضاء بها وولى الحسبة بعد ذلك . وانتقل إلى دمشق عام ٨١١ هـ = ١٤٠٨ فى مهام مشابهة جمع إليها التدريس وإدارة الوقف ؛ ورجع إلى القاهرة بعد عشرة أعوام ومنذ تلك اللحظة كرس حياته كلية للكتابة فى التاريخ الذى شعر دائماً بميل شديد نحوه كما سنرى من مقدمة كتابه . وقد أدى المقريزى فريضة الحج مع أسرته فى عام ٨٣٤ هـ = ١٤٣٠ واغتنم هذه الفرصة فأقام بعض الوقت بالحجاز وهناك استطاع أن يتعرف عن طريق الحجاج على بلاد العرب الجنوبية بل والحبشة أيضاً ، مما تردد صداه بالتالى فى مصنفاته التاريخية . ورجع من الحجاز فى عام ٨٣٩ هـ = ١٤٣٥ واستقر نهائياً بالقاهرة إلى وفاته بها فى عام ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ .

ويبدو أن التاريخ قد تملك على المقريزى فعلا شغاف قلبه ، وهو على نقيض غالبية العلماء العرب لم يترك بالتقريب مصنفاً فى ميدان آخر بخلاف التاريخ . ولكنه فى مقابل هذا فإن عدد مصنفاته التاريخية كبير للغاية ، أضف إلى هذا أن قسما كبيراً منها قد حفظ لنا أحياناً بخط يد المؤلف نفسه[٥٢] . ورغماً من مرور قرن من الزمن فلا نستطيع إلا أن نوافق كاترمير Quatremère فى حكمه الأساسى على المقريزى حينما قال : «إنه لمن دواعى الدهشة حقاً أن نتصور مدى وأهمية إنتاج المقريزى فهو قد ألقى ضوءاً ساطعاً فى أبحاثه الواسعة التى لاتعرف الكلال على كل ما يمس التاريخ السياسى والأدبى للشرق وبوجه خاص مصر»[٥٣]. وإذا ألقينا نظرة إلى ثبت مؤلفاته العديدة بان لنا هدفه واضحاً تمام الوضوح ، فمركز الصدارة بالنسبة له يحتله تاريخ مصر الطبوغرافى (الخطط) والمحلى ولكنه فى ذات الوقت لايهمل جيرانها إلى حدود المغرب والحبشة وبلاد العرب الجنوبية ، كما يولى أهمية خاصة للمسائل التاريخية والحضارية المتصلة بالموازين والنقود[٥٤] ، ولعل هذا الموضوع الأخير يعكس تأثير وظيفة المحتسب التى شغلها لبعض الوقت . ولمصر كرس المقريزى سلسلة كبيرة من المصنفات تشمل جميع الأنماط التاريخية بالتقريب ، فقد كتب فى تاريخ الفاطميين وفى تاريخ الأيوبيين والمماليك (ساقه إلى عام ١٤٤٠) ووضع معجماً كبيراً فى السير لم يتمه هذا بخلاف عدد من الرسائل فى موضوعات مختلفة .

أما الموضوعات الجغرافية فقد مسها بطبيعة الحال فى مؤلفاته التاريخية ولكنه أفرد لها إلى جانب هذا مجهوداً خاصاً فنحن نعلم مثلا أنه قام بتعديل وتنقيح المسودة الأولى للمعجم الجغرافى للحميرى « الروض المعطار »[٥٥] الذى مر بنا الكلام عليه . بيد أن هذا ليس هو السبب الذى يجعلنا نقف للكلام عليه فى عرض عام للأدب الجغرافى ، بل إن السبب فى ذلك هو مصنفه الرئيسى الذى يكاد يكون الأثر الأكبر فى مجهود حياته العلمية أعنى كتابه المشهور « الخطط » الذى يرتبط بالتاريخ وبالجغرافيا التاريخية على حد السواء .

نشأ نمط الخطط بمصر وكان له فيها تاريخ مجيد معروف لنا جيداً بل وحدث أن لمسنا أكثر من مرة لحظات معينة فى تطوره الخلاق . ويقدم لنا المقريزى فى كتابه حصيلة هذا المجهود ويدفعه إلى الأمام بصورة ملحوظة محدداً فى ذات الوقت أهدافه وأغراضه وموقفه هو منه ؛ وقد عرض المقريزى أفكاره هذه فى مقدمة كتابه . فبعد أن حدد الدوافع التقليدية المعهودة التى كأنما يوردها « دفاعاً » عن نفسه أو ربما خضوعاً منه للالتزامات الأدبية المعمول بها يأخذ المقريزى فى توضيح الاعتبارات والعوامل الشخصية التى حدت به إلى تأليف الكتاب ويعكس خلال هذا حباً عميقاً لوطنه مصر وشغفاً كبيراً بتخليد آثارها[٥٦] . وأقل طرافة من هذا تلك الأقسام من مقدمته التى يسوق فيها[٥٧] الكلام المعهود فى تبرير الاشتغال بالعلوم التاريخية وبالجغرافيا وذلك عن طريق الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وبعد أن يورد الصيغ المعروفة والتى نلتقى بها عادة لدى جميع المؤلفين ينتقل المقريزى إلى جوهر موضوعه فيقول :

« وبعد فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً ، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً ، لما يحويه من المواعظ والإنذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها ، 468 واستعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النُّهَى ، لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به وامقة ، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة ، وقد صنف الأئمة فيه كثيراً ، وضمّن الأجلة كتبهم منه شيئاً كبيراً .

وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعشّ مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره ، لازلت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الكثير من آثارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتّبة على منوال ، ولا مهذبة بطريقة واحدة ومثال ، فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، وما بقى بفسطاط مصر من معاهد غيرها أو كاد البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار القصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المبانى البديعة الأوضاع ، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل ، وأنثر خلال ذلك نكتاً لطيفة ، وحكماً بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ، ولا إجحاف مخلّ بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين بين ، فلهذا سميته كتاب المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار .

وإنى لأرجو أن يحظى إن شاء الله عند الملوك ، ولاينبو عنه طباع العامىّ والصعلوك ، ويجلّه العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى ، وترضاه خلائق العابد الناسك ، ولا تمجه سمع الخليع الفاتك ، ويتخذه أهل الرفاهية والبطالة سمراً ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبراً ، يستدلون به على عظيم

قدرة الله تع فى تبديل الأبدال ، ويعرفون به عجائب صنع الله سبحانه من تنقل الأمور من حال بعد حال »[٥٨] .

470 من هذا يبدو جلياً كيف عمل المقريزى حساباً لاعتبارات تثقيفية تعليمية وسط المادة العلمية التى يصوغها وكيف يفسح عرضه العلمى أحياناً الطريق إلى اتجاهات بلاغية ، فعقب القطعة التى مرت بنا يجتذبه الدافع الأدبى قدماً فيحاول استدرار عطف القارئ (captatio benevolontine) باصطناع التواضع والمذلة وذلك بتصوير ضعفه والظروف القاسية التى تم فيها تأليف الكتاب[٥٩] ؛ وهو فى أثناء كلامه هذا يستشهد بأشعار معروفة على وجه العموم ولا تمثل بأية حال أهمية خاصة بالنسبة لنا ؛ ولكن يتلو هذا عبارات ، تكتسب أحياناً أهمية جوهرية ، من ذلك قوله :

« اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهى ؛ الغرض ، والعنوان ، والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أى صناعة هو ، وكم فيه من الأجزاء ، وأى أنحاء التعاليم المستعملة فيه .

فنقول ، أما الغرض فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال ملكها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر وهى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة ويقص أحوالها من ابتدأها من حلّها وكيف كانت مصاير أمورهم وما يتصل بذلك على طريق الأتباع لها بحسب ما تحصل منه الفائدة الكلية بذلك الأثر .

وأما عنوان هذا الكتاب أعنى الذى وسميته به فإنى لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلفة متفرقة فلم يتهيأ لى إذا جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لاسيما فى الأعصر الخالية ولا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أخر تظهر عند تصفح هذا التأليف فلهذا فرقتها فى ذكر الخطط والآثار فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر ولم أتحاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه بطريقة يستحسنها الأريب ، ولا يستهجنها الفطن الأديب ، كى يستغنى مطالع كل فصل منه بما فيه عما فى غيره من الفصول فلذلك سميته كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

وأما منفعة هذا الكتاب فإن الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه أعنى أن منفعته هى أن يشرف المرء فى زمن قصير على ما كان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة فتتهذب | بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه 471 ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالاجتناب عنها والإقبال على ما يبقى .

وأما مرتبة هذا الكتاب فإنه من جملة أحد قسمى العلم اللذين هما العقلى والنقلى فينبغى أن يُتفرّغ لمطالعته ويُتدبّر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية والعلوم العقلية فإنه يحصل بتدبره لمن

أزال الله أكنّة قلبه وغشاوة بصره نتيجة العلم بما صار إليه أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال والجنود ، من الفناء والبيود ، فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم النقلية والعقلية ليُعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل .

وأما واضع هذا الكتاب ومرتبه فاسمه سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد ويُعرف بابن المقريزى رحمه ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبعمائة من سنى الهجرة المحمدية ورتبته من العلم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألفه .

وأما من رأى علم هذا الكتاب فإنه من علم الأخبار وبها عُرفت شرائع الله التى شرعها وحفظت سنن أنبياء الله ورسله ودُوّن هديهم الذى يقتدى به من وفقه الله إلى عبادته وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته وبها نُقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة وكيف حل بهم سخط الله لما أتوا ما نُهوا عنه وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة مادونوه من العلوم والصنائع وتأتى لهم علم ماغاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأمصار المتباينة وغير ذلك مما لا ينكر فضله ولكل أمة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم أخبار معروفة عندهم مشهورة ذائعة بينهم ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر ولو استقصيت ما صنف علماء العرب والعجم فى ذلك لتجاوز حد الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره .

وأما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة ، أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها[٦٠] ، وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس | أهلها[٦١] ، وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها[٦٢] ، ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وماكان لهم من الآثار[٦٣] ، وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال[٦٤] ، وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها[٦٥] ، وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر ، وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء عدة أقسام .

472

وأما أى أنحاء التعاليم قصدت فى هذا الكتاب فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهى ، النقل من الكتب المصنفة فى العلوم ، والرواية عمن أدركت من مشيّخة العلم وجلة الناس ، والمشاهد لما عاينته ورأيته ، فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلت منه لأتخلص من عهدته وأبرأ من جريرته فكثيراً ممن ضمنى وإياه العصر واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لايعرفه ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ماتضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يُقْطع عليه ولايُحتاج فى الشريعة إليه وحسبُ العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه ، وأما الرواية عمن أدركت من المشايخ والجلة فإنى فى الأكثر والغالب أصرح باسم من حدثنى إلا أن لايُحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقلّ مايتفق مثل ذلك، وأما ماشاهدته

فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين ، وقد قلت فى هذه الرؤوس الثمانية ما فيه مقنع وكفاية ولم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت به وعزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط وفى كل أثر من الآثار على حدة ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع وأكثر فائدة وأسهل تناولاً والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وفوق كل ذى علم عليم »[٦٦] .

وإذا ما تركنا جانباً العبارات البلاغية المتناثرة فى هذه المقدمة فإن المؤلف يوضح بجلاء كاف موقفه من فن التاريخ وآراءه الشخصية حول مصنفه والأهداف التى وضعها نصب عينيه ، | ثم مضمون الكتاب. 473 وبهذا يوفر علينا الكلام على هذه النقاط بحيث نقتصر على إيراد زيادات طفيفة ونركز بهذا اهتمامنا على سؤال أساسى هو إلى أى درجة وفق المقريزى فى تحقيق أهدافه ، وهل يوجد لديه اختلاف كبير بين النظرية والتطبيق كما حدث وأن لاحظنا ذلك لدى مفكر ممتاز كابن خلدون ؟

والمقريزى لايذكر فى مقدمته شيئاً عن تاريخ تدوينه للكتاب ولكن نستطيع أن نستنتج من خلال فصوله أن ذلك أخذ وقتاً طويلا وأن المؤلف لم يتوقف عن الإضافة إليه على مر الزمن . وتشير الدلائل على أن البدء فى تدوين المصنف قد حدث بين عامى ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ و٨٢٥ هـ = ١٤٢٢[٦٧] ، أما نهايته فيجعلها غست Guest عام ٨٤٠ هـ = ١٤٣٦[٦٨]، ولكن كما بين محمد عبد الله عنان فإن المقريزى ظل يضيف إلى كتابه إلى عام ٨٤٣ هـ = ١٤٣٩[٦٩] أى إلى ما قبل وفاته بنحو عامين .

ومحتويات الكتاب خاصة قرب نهايته تختلف بعض الشىء عن خطة المؤلف الأولى كما فصل الكلام عليها فى المقدمة[٧٠]، فهناك يذكر المقريزى أنه رتبه على سبعة أجزاء ولكننا نبصر فى الواقع أن الجزء السادس الذى أفرده للكلام عن القلعة يتداخل فى الجزء الخامس الذى يعالج فيه الأحداث المعاصرة له ؛ ويلى هذا قسم ليس بالكبير يتحدث فيه عن الأيوبيين والمماليك[٧١] ثم يفصل فيه الكلام على تاريخ المساجد والمنشآت الأخرى بمدينة القاهرة[٧٢] وكأنه بمثابة تتمة للجزء الخامس . ثم يختم الكتاب بفصول فى تاريخ اليهود والقبط مع تعداد الأديرة وكنائس هؤلاء الأخيرين[٧٣] . وإذا كان ترتيب الجزئين الخامس والسادس فى صلب الكتاب يختلف بعض الشىء عما وعد به المؤلف فى المقدمة فإن الجزء السابع الذى يشير إليه هناك والذى وعد بأن يعالج فيه أسباب « خراب إقليم مصر » لا وجود له البتة مع أن المؤلف قد مس هذا الموضوع فى مواطن كثيرة من كتابه[٧٤] وتناوله من وقت لآخر فى شذور موجزة ومن ثم فيجب الافتراض بأن هذا الجزء إما أنه لم يكتبه إطلاقاً أو فضل عدم ضمه إلى مصنفه . ومهما يكن من شىء فإن هذا يقف دليلا على أن المقريزى لم ينقح مقدمة كتابه بصورة نهائية ، كما يجب أن نضيف إلى هذا أن المقريزى لم ير من الضرورى أن يشير فى المقدمة إلى بعض الأقسام الصغرى من كتابه مثل ذلك العرض القصير الذى يلى المقدمة مباشرة والذى يعالج فيه الكلام على من سبقوه فى ميدان التأليف فى خطط

مصر[٧٥] ، وكبحثه القصير فى علم الجغرافيا الذى جعله بمثابة مدخل إلى الطوبوغرافيا التاريخية[٧٦]
474 والذى يتبع فيه المنهج القديم المعروف | لنا جيداً أولا يكشف عن أية أصالة .

ورغما من التزامه للتواضع كما هى شيمة المؤلفين المسلمين فإن للمقريزى فكرة عالية عن كتابه . وفى الواقع أن قيمة المادة التى جمعها بين دفتى هذا السفر قد نالت تقدير العلماء الأوروبيين الذين اتخذوا فى مقابل هذا موقفاً صارماً من منهجه . وفى عام ١٨٥٦ كتب واحد من خيرة العارفين بالمقريزى وهو المستشرق الفرنسى كاترمير Quatremère ، وذلك بمناسبة ظهور الطبعة الأولى (editio Princeps) « للخطط » فى عام ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ ، يقول إن المقريزى قد جعل هدفه التعريف تعريفاً مفصلا بكل ما يتصل بمسقط رأسه القاهرة وأنه قد حقق هذا الهدف فلم يترك أثراً أو مؤسسة إلا ووصفه بدقة متناهية وحكى بإسهاب تاريخ بنائه والتوسيعات التى زيدت عليه ، وإلى جانب هذا يروى سيراً حياة الأمراء والكبراء الذين باشروا بناءه أو أقاموا فيه كما يدون أيضاً الحوادث الهامة التى اقترنت بهذه الدور والتقاليد والعادات والمراسم المتعلقة بها فى صورة أو أخرى . وقد بين بحق كل من كاترمير والعلامة المعاصر مرجليوث Margoliouth أنه لا توجد مدينة شرقية يمكن أن تفخر بمؤلف يبلغ مرتبة كتاب « الخطط » من حيث الاكتمال والطرافة كما هو الحال مع القاهرة[٧٧] ؛ غير أن كاترمير يستدرك على هذا بقوله إن وصف المقريزى لمصر كان بمثابة مقدمة لوصفه للقاهرة وأن المدن الأخرى لاتتمتع بمادة قيمة كالتى أفردها لمسقط رأسه . وكثيراً ما يبدو وصفه جافاً ويعكس مادة أسطورية صرفة ؛ حقاً إنه يورد مادة حافلة عن العصور القديمة ولكن معظمها من نسج الخيال[٧٨] وترجع كما رأينا من مثال ابن وصيف شاه لا إلى مصادر عربية بل إلى ذلك التاريخ الأسطورى الذى عرف فى الأوساط القبطية بمصر ونما وترعرع فى تربة « شعوبية » على ما يبدو .

وعندما أخذ المستشرق غست على عاتقه فى أواخر القرن التاسع عشر فحص مسألة مصادر « الخطط » اضطر إلى موافقة كاترمير فى رأيه مع بعض التحفظات ؛ وهو يعتقد أن نصيب الكوزموغرافيا والجغرافيا لدى المقريزى لاقيمة له وأن مادته فى التاريخ القديم أسطورية بأكملها . أما أكثر الأقسام قيمة فى الجزء الأول فهو وصف نظام الضرائب وجميع القسم الخاص بالفاطميين ؛ ويمكن أن يعتبر كلاسيكياً وصفه لخطط القاهرة ولآثار الفسطاط[٧٩] . ويجب أن نستدرك بهذه المناسبة أن مدينة الفسطاط التى درست آثارها بسرعة فى عهد المقريزى لم تحظ منه سوى بوصف موجز ناقص ، كما وأن وصفه لحوادث عصره يسوده خلط شديد ويهمل فيه ذكر تفاصيل هامة ؛ وأحد عيوبه الخطيرة هو إشارته إلى الجهات بصورة مشوشة تجعل من
475 تحديد مواقع الأماكن بشكل دقيق أمراً عسيراً | بل وضرباً من المستحيل أحياناً[٨٠] . ورغما من جميع هذه التحفظات فيجب موافقة هؤلاء العلماء فى أن اجتهاد المقريزى ومعرفته الواسعة شىء مذهل حقاً ، كما أن

بجانباً كبيراً من المادة التى حفظها لنا كان فى حكم المفقود لولا نقله إياه ؛ وهو فى العادة دقيق فى سرد مادته ويجهد ما أمكن فى نقلها عن الشخصيات المعاصرة للحوادث ، أما أسلوبه فيمتاز بالبساطة والوضوح وبأنه مقبول للنفس ، كما يتحاشى الإسهاب والعاطفية فى كتابته[٨١] .

أما من حيث المنهج فإن الكتاب أشبه ما يكون بمجموعة من المقالات المتفرقة منه بمصنف متماسك ، وفيه يختلط التاريخ بعلم الآثار (archaeology) بحيث لا يمكن أحياناً كما يقول غست معرفة ما إذا كان الكتاب مؤلفاً فى التاريخ أم مصنفاً فى الطبوغرافيا . وكما هو الحال مع معظم المؤلفين العرب فإن روح النقد ضعيفة لديه كما يفتقر افتقاراً بيناً إلى الإحساس بالتناسق فهو يولى اهتمامه أحياناً بنسب متعادلة إلى الكلام على الهرم الأكبر ومقبرة صغيرة . وعندما تتناقض مصادره فى رواياتها فإنه يترك الحكم للقارئ ، أما رواياته فإنه فى كثير من الأحيان لم يمحصها بما فيه الكفاية بحيث تمثل فى مجموعها مواد فى تاريخ مصر وطوبوغرافيا مدينة القاهرة وليس تاريخاً أو طوبوغرافيا فى حد ذاتها[٨٢]. ورغما من كل هذا فيجب أن نعترف له ببعض الأصالة ، وقد أبصرنا من خلال مقدمته أنه يطرح المنهج الزمنى (chronological) التقليدى تفادياً للخلط فى التواريخ ، ويوزع مادته بحسب « الخطط » والآثار المختلفة متبعاً فى ذلك منطقاً قائماً بذاته . ولا يمكن أن نحرمه من قدر معين من حب الاستطلاع فهو يبدى أحياناً اهتماماً غريباً بمسائل شتى من بينها مسائل جيولوجيه[٨٣] فيعتقد مثلا النيل كان يغطى جميع أرض مصر فى الأزمنة الغابرة وأن أهلها قبل إنشاء مدينة ممفيس كانوا يعيشون داخل الكهوف . والمقريزى يمتاز بمنهج واسع فى معالجته لتاريخ الشعوب التى قطنت مصر ، ولم يحدث أن جمع مؤرخ إسلامى قبله مادة مسهبة كالتى جمعها القزوينى عن القبط الذين يفرد لهم ثمانية فصول فى الجزء الثالث من كتابه . وهو يعالج فى هذه الفصول أيضاً تاريخ الكنيسة القبطية منذ أول بطريرك إلى حملة الاضطهاد التى تعرضوا لها فى عام ١٣٥٤ ويورد تعداد ستة وثمانين ديراً قبطياً واثنين وسبعين كنيسة مسيحية مع سرد معلومات تاريخية وجغرافية وافرة عنها[٨٤]. وحتى فى هذا الصدد تنعكس بجلاء شخصيته الفريدة فهو عندما يتحدث مثلا عن عيد الشهداء الذين يربط القبط بينهم وبين فيضان النيل لا يستطيع أن يمنع نفسه من قدر معين من التهكم « جدير» كما يقول كارا دافو Carra da Vaux « بأفضل مؤلفى عصر النهضـــة الإيطالية »[٨٥] . ولا يخلو من الطرافة أن نذكر أن المقريزى قد رجع فى صياغة هذا القسم من كتابه ليس فقط إلى كتاب معروف لنا جيداً هو « كتاب الديارات » للشابشتى بل وأيضاً إلى مؤلفات مؤرخ عربى مسيحى هو المكين .

476 لكل هذه الاعتبارات فقد اتفق الجميع بما لا يدع مجالا للتنازع على أن كتاب المقريزى كتاب قيم جداً بالنسبة للمادة التى يحويها بين دفتيه . وقد استطاع المقريزى الرجوع إلى جميع المصادر السابقة له والتى هلك أكثر من ثلاثة أرباعها بالنسبة لنا ؛ وهو فى العادة ينقل منها بدقة[٨٦] ولكن فى حدود المنهج الذى سار عليه المؤلفون العرب عامة . غير أننا إذا فحصنا هذه المسألة عن كثب فسنصطدم بصورة جدية بمشكلة عويصة تتعلق بأمانة المقريزى فى استعماله لمصادره ؛ إذ يقع عليه عبء

الاتهام بالسرقة الأدبية من طرفين مختلفين . أحدهما مؤرخ عربي يكاد يكون من بين معاصرى المقريزى ويعبر عن اتهامه بصورة عنيفة ، أما الآخر فهو مستشرق أوروبى معاصر يعد من خيرة المتخصصين فى دراسة المقريزى . وأمام هذا فلا محيص لنا من الوقوف بالتفصيل أمام هذه المسألة ذات الأهمية الجوهرية .

أما صاحب الاتهام الأول فهو المؤرخ المصرى السخاوى (٨٣١ هـ - ٩٠٢ هـ = ١٤٢٧ - ١٤٩٧) الذى بالإضافة إلى وضعه معجماً ضخماً فى السير ومؤلفات تاريخية أخرى عرف أيضاً بمحاولة أصيلة لا تخلو من الفائدة لوضع مقدمة فى فن التوريخ عند العرب . وهو يشير فى مؤلفاته إلى المقريزى أكثر من مرة ولكن دائماً مع ميل لم يفلح فى إخفائه بمهارة للتقليل من شأنه ونسبة السرقة إليه . فى معجمه المذكور يختتم الكلام عن المقريزى بقوله :

« وأقام ببلده عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر ذكره وبعد فيه صيته وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائلة »[٨٧].

ويكرر السخاوى هذه التهمة فى مصنفه فى فن التوريخ الذى أشرنا إليه فيقول .

« وكذا جمع خططها المقريزى وهو مفيد . قال لنا شيخنا إنه ظفر به مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه »[٨٨] .

وأخيراً فى ترجمته للأوحدى فى نفس ذلك المعجم يرجع السخاوى مرة أخرى إلى هذه التهمة مع إضافة زيادات طريفة فيقول :

« وبرع فى القرآن والأدب وجمع مجاميع واعتنى بالتاريخ وكان ملجأ به وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأجاد وبيض بعضها فبيضها التقى المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات .. وفى ترجمته فى عقود المقريزى | فوائد واعترف بانتفاعه بمسوداته فى الخطط . . »[٨٩] . 477

والملاحظة الأخيرة التى ترد الإشارة فيها إلى معجم السير الذى وضعه المقريزى تخفف كثيراً من حدة التهمة التى وجهها إليه السخاوى إذ من الواضح أن المقريزى لم يحاول إخفاء ما يدين به للأوحدى وبهذا يضحى من العسير أن نبصر أين يقع الاتهام بعدم الأمانة هاهنا . بقيت الشذرتان الأوليان للسخاوى ؛ ولا يتضح منهما هل يحاول السخاوى التعبير عن آرائه الشخصية أم أنه يعتمد على شهادة شيخه الذى يشير إليه . وهو عادة عندما يتحدث عن شيخه فإنما يقصد بذلك ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ هـ - ٨٥٢ هـ = ١٣٧٢ - ١٤٤٩) المحدث والمؤرخ الكبير ، معاصر المقريزى وصديقه . وهذا الرأى الذى ينسبه السخاوى إلى ابن حجر لم نعثر عليه فى مؤلفات هذا الأخير مع أنه تحدث عن المقريزى مراراً عبر فى كل واحدة منها منها عن احترامه وإجلاله له[٩٠] . ومن الواضح أن المقريزى لا يولى حقيقة استعماله للأوحدى أهمية أكبر مما يوليها لاستعماله للمصادر الأخرى ؛ ومما يخفف من حدة اتهام السخاوى اعتبار خاص ذو طابع

زمنى : فالأوحدى (٧٦١ هـ — ٨١١ هـ = ١٣٦٠ — ١٤٠٨) الذى لانعلم شيئاً عن وجود مصنفه إلا من هذه الشذرات قد توفى قبل المقريزى بزمن طويل ومن ثم فلم يكن بوسعه أن يسوق مصنفه إلى الفترة التى ساق فيها الأخير « الخطط » ، أضف إلى هذا أنه معلوم لدينا جيداً أن وصف أحوال مصر المعاصرة له يشغل أكثر من نصف كتاب المقريزى بحيث يضحى من غير المعقول أن يكون قد استعاره من الأوحدى[٩١].
ثم إن أخلاق السخاوى نفسه تجعلنا نقف موقف الحذر من كلامه عن المؤرخين الآخرين ؛ وقد تبين لنا من الشذرات التى سقناها عنف مهاجمته للمقريزى . وفى الواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره وانتقاصه لأقدارهم لم يقف عند المقريزى ؛ وقد جر هذا إلى معارك قلمية مع معاصره السيوطى تبادلا فيها الحملات والاتهامات[٩٢] . هذا وقد وجد رأى السخاوى عن المقريزى بعض التعضيد لدى غولد زهر Goldziher [٩٣] وبروكلمان Brockelmann[٩٤] بيد أن هذا لايعنى بأية حال اعتبار كتاب « الخطط » اختلاساً لكتاب الأوحدى . وقد أخضع جميع تلك المسألة لتحليل دقيق وفريد العلامة المصرى المعاصر محمد عبد الله عنان[٩٥] وخرج من ذلك بنتائج حازت القبول لدى الجميع .

ومما لاشك فيه أن طريقة تناول المقريزى لمصادره أبعد من أن تستوفى مطالب البحث العلمى المعاصر ، ورغما من ذلك فإننا لانستطيع موافقة غاستون فييت G. Wiet فى نقده المتشدد للمنهج الذى اتبعه المقريزى فى كتاب الخطط . وقد كتب فييت يقول « إن كل فصل من الخطط عبارة عن أمشاج من النقول ألصقت جنباً إلى جنب دون ما أى تمحيص ؛ ولعل المؤلف لم يكلف نفسه مؤونة تبييضها من جديد »[٩٦]. لقد سنحت الفرصة لفييت ليدرس جيداً عدداً من مخطوطات مصنفات المقريزى التى وصلتنا بخط يد المؤلف نفسه ، غير أن هذا لا يعطيه الحق ليرى فيها مسودات نهائية بدلا من تدوينات لم يكن قد جرى فيها بعد قلم المؤلف بالتصحيح والتبييض ؛ ونحن نعلم تمام العلم أن معظم مؤلفات المقريزى تكاد تكون غير تامة أى أن مؤلفها لم يعطها صورتها النهائية . ولاشك أيضاً أن طريقة استعمال المقريزى لمصادره قد أثارت بعض الشىء سخط فييت ، وهو فى تحليله المفصل لعلاقة المقريزى بمؤرخ وجغرافى مصر المبكر الكندى الذى وقفنا عنده فى حينه قد خرج برأى يسترعى الانتباه حقاً حين يقول : « ولكنه أعمل يد النهب بصورة خاصة فى كتاب ولاة مصر ، ويتضح هذا بصورة جلية فى أن المقريزى قد نقل أكثر من نصف الكتاب حرفاً حرفاً أى ما يقرب من ثلاثين صفحة من القطع الكبير من طبعة بولاق دون أن يشير فى معظم الأحايين إلى اسم الكندى . . . ومن بين الأربعة آلاف وثمانمائة وست وستين سطراً التى تحتويها دفتا كتاب تاريخ ولاة مصر . . . أسقط المقريزى ثمانمائة وأربع وتسعين سطراً فقط ذات مضمون تاريخى صرف[٩٧]* .

* ولكن راجع مثلا قول فييت : "Y a — t — il malhonnêteté, plagiat dans le vrai sens du mot ? Je ne le crois pas : les auteurs Arabes écrivaient pour un nombre très restreint de lettrés, qui n'étaient pas susceptibles d'être trompés. Maqrizi se croit quitte envers un auteur en le citant une fois, même s'il doit lui emprunter des pages entières."

(راجع مقال G. Wiet : Kindi et Maqrizi الذى ظهر بصحيفة Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Tome XII, p. 63, Le Caire, 1915) (المترجم)

ومما يقف دليلا على أن هذه الحالة حالة استثنائية هو ضخامة حجم كتاب المقريزى والكمية الهائلة من النقول التى ضمنها إياه ، فلو كان قد سار على هذا النهج الذى طبقه على كتاب الكندى مع كل مؤلف آخر لنما كتابه بالتالى فبلغ العشرين جزءاً على الأقل .

لا مناص من التسليم بأن بعض أقسام « الخطط » تمثل فى بعض الأحايين نقلا صريحاً عن مؤلفين أخر ، غير أن هذه المواد المنقولة قد تم التأليف بينها بصورة لا تخلو من المهارة والإبداع ، واستخرجت من عدد هائل من الآثار الأدبية فقد بعضها تماماً بالنسبة لنا ، أضف إلى هذا أن المقريزى فى العادة لا يهمل الإشارة إلى مؤلفيها . وخير مثال لهذا الفصل القصير الذى أفرده للكلام على أهرامات مصر والذى أخضعه لبحث خاص غريفه Graefe ، ففيه يشير المقريزى إلى أكثر من عشرين مؤلفاً بخلاف من استشهد به من الشعراء[٩٨] ، ومن بين أولئك نلتقى بعدد من الجغرافيين ممن حدث وأن تعرفنا عليهم فيما مر من هذا الكتاب ، ولكن إلى جانب هذا نلتقى أيضاً بأسماء مؤلفات لم تصل إلينا مثل « أخبار الزمان » للمسعودى أو الكتاب المجهول المؤلف بعنوان « عجائب البنيان » الذى لايخلو من صلة ما « بوصف مصر » لعبد اللطيف البغدادى المعروف لنا جيداً .

وعدد المصادر التى يذكرها المقريزى هائل حقاً ولا شك أن دراستها تحتاج إلى بحث خاص فى المستقبل لن يخلو من الأهمية ، وإلى حين تحقيق هذا يمكننا الاعتماد بصورة موقتة على الخطوط العريضة التى بينها روثن غست R. Guest فى مقاله المسهب عن مصادر المقريزى ، ويشغل ثبت أسماء المؤلفين والمصنفات التى يشير إليها المقريزى أكثر من خمس عشرة صفحة من هذا المقال[٩٩] . فإذا ما اقتصرنا على محيط المادة الجغرافية ، فإننا نلتقى فى قائمة غست بلا أقل من ثلاثين مؤلفاً سبق وأن عالجنا الكلام على غالبيتهم العظمى . وإذا ما صنفناهم فى مجموعات بحسب العصور فيمكن أن نقرر أن المقريزى قد استعان فيما يخص الفترة الأولى من تاريخ مصر الإسلامية | بابن عبد الحكم فى مجال التاريخ والمسعودى فى مجال 479 الجغرافيا والكندى فى مجال الطبوغرافيا[١٠٠] ، هذا إذا ما قصرنا أنفسنا على ذكر الأسماء الرئيسية . أما فيما يخص العهد الفاطمى فقد كان مرشده فى التاريخ ابن زولاق وفى الآثار القضاعى[١٠١] ؛ ولكن حتى فيما يتعلق بنقاط معينة فإن المقريزى عرف كيف يحصل على مواد ذات قيمة كبرى تقتصر معرفتنا بها فى أحايين كثيرة على ماحفظه لنا هو منها . وقد نال الشهرة منذ أمد طويل ذلك الفصل الذى أفرده لكنوز الفاطميين[١٠٢] بما يتصل به من تفاصيل حول مراسيم البلاط الفاطمى ؛ وقد كتب المستشرق الروسى اينوستر انسف Inostrantsev بحثاً قيما فى هذا الموضوع . ورواية المقريزى فى هذا الصدد تعتمد بصورة خاصة على مصنف آخر لم يصل إلينا لابن الطوير القيسرانى[١٠٣] . ويذكر المقريزى أن آخر من كتب فى نمط الخطط هو ابن المتوج المعروف[١٠٤] ، وقد حدث وأن توقفنا عند هذا حينما تساءلنا لماذا لم يستعن المقريزى بمصنف ابن دقماق . والمقريزى يفرد فصلا خاصاً للكلام على المؤلفين الذين عالجوا الكتابة فى الخطط قبله ويوكد علاقته القوية بهم . ولانستطيع

إلا أن نوافقه فى هذا لأن المقريزى وإن كان مؤرخاً واقتصادياً وعالماً فى الآثار ومتخصصاً فى الآداب الشعبية (folklorist) إلا أن المكانة الأولى فى مصنفه هذا إنما تحتلها الجغرافيا التاريخية ، وهذا هو السبب الذى حدى بنا إلى إدخاله فى عرضنا للأدب الجغرافى بوصفه أكبر ممثل لنمط الخطط ، ذلك النمط الذى يمس الدين كما يمس الطوبوغرافيا والتاريخ والذى تمتع بحيوية فائقة فى مصر الإسلامية . وفى خلال القرن السابع عشر اختصر مصنف المقريزى ليس أقل من مرتين وزيد عليه[١٠٥]، بل إننا نلتقى حتى فى القرن التاسع عشر بمصنف يسير على منهج المقريزى ويتمم مذهبه أعنى بذلك كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى باشا مبارك .

ولم يخل الأمر بين ممثلى المدرسة التاريخية المصرية من معاصرى المقريزى من اهتمام معين بالجغرافيا ولو أن ذلك لايبلغ المدى الذى بلغه لديه . ويمكن أن نسوق على سبيل المثال منافسه فى منصب الحسبة بدر الدين العينى (٧٦٢ هـ — ٨٥٥ هـ = ١٣٦٠ — ١٤٥١)[١٠٦]. وفى الحقيقة لايوجد لدينا الكثير لنقوله عنه فيما يتعلق بالأدب الجغرافى ولكن شخصيته فى الواقع لا تخلو من بعض الطرافة لأنها توحى إلينا باقتراب عهد جديد وميلاد علاقات ثقافية جديدة تربط الأدب العربى باستنبول النائية . ولد مؤلفنا بعينتاب وهى مدينة صغيرة تقع بين حلب وأنطاكية ، وقد ساعده قرب مسقط رأسه من الحدود التركية على إجادة هذه اللغة منذ سن مبكرة وكان لها بالتالى تأثير غير يسير على مجرى حياته . وقد أقام العينى بالقاهرة ما يقرب من الثلاثين عاماً مرت عليه فيها لحظة من التصوف ، واشتغل لبعض الوقت بالتدريس وشغل مرة منصب القضاء ومرة أخرى كان محتسباً وطوراً ثالثا ناظراً للأوقاف ؛ وهى مناصب نافسه عليها معاصراه الشهيران المقريزى وابن حجر . وقد أفاد العينى كثيراً من معرفته بالتركية ؛ وهو قد أجاد الكتابة بالعربية والتركية على حد سواء فقربه هذا إلى سلاطنة المماليك الذين كانت معرفتهم بالعربية لاترتفع إلى المستوى المطلوب وكانوا يفضلون الإنصات إليه وهو يترجم لهم بمهارة إلى التركية تاريخه الذى وضعه آنذاك ، ولو أنه من المستبعد أن يكون بمقدورهم تقدير القصائد العربية التى رفعها إليهم . ولعل معرفته بالتركية كانت من أقوى الأسباب التى أدت إلى تكليفه ذات مرة برئاسة سفارة إلى استنبول .

480

واكتسب العينى الشهرة كمؤلف لعدد من الآثار التاريخية يشغل مكان الصدارة بينها « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » الذى يمثل فى جوهره كتاباً فى التاريخ العام يقع فى أربعة أجزاء ضخمة ويعالج تاريخ البشرية منذ بداية الخليقة إلى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ . والكتاب مبوب على الطريقة التقليدية للمصنفات التاريخية مع عرض متناسق للمادة ولكنه لايتمتع بأهمية ذات بال سواء من حيث الشكل أو الأسلوب ولو أن مادته الحافلة قد استرعت الأنظار منذ وقت طويل فأفاد منها كاترمير فى بحثه فى تاريخ المماليك كما وضح تيزنهاوزن Tiesenhausen قيمتها بعد ذلك بالنسبة لتاريخ الأردو الذهبى Golden Horde

وبين روزن Rosen أهميتها بالنسبة لتاريخ الخلافة[؟]؛ وإلى هذه اللحظة لم يهتم علماؤنا بشكل جدى بدراسة الأجزاء الثلاثة الأخيرة من تاريخه الموجودة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية بلينينغراد . وقد رأى العينى لزاماً عليه أن يكتب مقدمة جغرافية قائمة بذاتها فى بداية الجزء الأول من تاريخه ، ومن العسير علينا أن نصدر حكماً مرضياً على هذه المقدمة أو حتى على الجزء الأول بأكمله وذلك لأن مخطوطته لا توجد فى متناول أيدينا .ويتضح من الخلاصة التى عملها أحمد زكى باشا لهذه المقدمة أنها تضم دراسة عن الأندلس مع تعداد لمدنها حسب حروف المعجم ، ويرجع العينى فى مادته إلى ابن عبد الحكم والرازى وابن عبد البر وابن سعيد[١٠٧] ؛ويقف مثال العينى شاهداً على الاهتمام الكبير الذى أولاه المؤرخون فى ذلك العصر للموضوعات الجغرافية[١٠٨] . وثمة دليل على اهتمام الأتراك بالعينى أن الداماد إبراهيم باشا قد كلف لجنة كبيرة فى عهد السلطان أحمد (سنة ١١٣٨ هـ = ١٧٢٥) بترجمة تاريخه إلى اللغة التركية .

ويستحق مكانه بجدارة أكثر من العينى فى عرض عام للأدب الجغرافى العلامة الذى ضرب بسهم فى كل فرع من فروع العلم | جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (٨٤٩هـ — ٩١١ هـ ١٤٤٥. — ١٥٠٥)[١٠٩] ، 492 أكبر أدباء عصر التدهور قاطبة ؛ وهو إن كان لا يمثل أهمية تذكر من وجهة نظر الجغرافيا إلا أن شخصيته تعتبر مثالا لطراز العلماء فى ذلك العصر . وسيرة حياته التى كتبها بقلمه[١١٠] لا تحوى شيئاً ذا أهمية ؛ ويمكن أن نذكر من فضل القول أن أسرته من أصل فارسى عاشت طويلا ببغداد ثم استقر بها المطاف بأسيوط منذ عهد قريب . وإذا استثنينا فريضة الحج فإن السيوطى لم يغادر مصر على الإطلاق وأمضى حياته فى القاهرة تقريباً مشتغلا معظم وقته بالتدريس ؛ وتوفى السيوطى بالقاهرة ولا تزال مقبرته قائمة بها ووصفها لنا العلامة أحمد تيمور باشا فقضى بذلك نهائياً على أسطورة وجودها بموطنه أسيوط . بدأ السيوطى التأليف منذ سن السابعة عشر[١١١] ولم تلبث مقدرته أن تفتحت فى هذا المجال فاكتسب الشهرة سريعاً حتى أصبح أكثر المؤلفين قرباً إلى جمهرة القراء لأكثر من ثلاثة قرون ، لا فى البلاد العربية وحدها بل وفى العالم الإسلامى عامة . وبلغ عدد مصنفاته ، التى وضع لها فهرساً بنفسه ، السمائة تقريباً ، معروف لنا منها أكثر من ثلثمائة وخمسين ؛ ويوجد من بينها بالطبع مقالات قصيرة لاتتجاوز بضعة صفحات ولكن إلى جانب هذا نلتقى لديه أيضاً بمصنفات ضخمة من عدة أجزاء . ومن العسير تعيين فرع من العلوم لم يدون فيه السيوطى شيئاً فقد كان هذا بالنسبة له رياضة فريدة وموضعاً للاعتزاز ؛ وقد جهد عن قصد فى أن يترك فى كل فرع من فروع العلوم خلاصة من ذلك النوع الذى تطلبه العصر والذى خلد اسمه لدى الأجيال التالية ؛ ويجب الاعتراف بأنه حقق ذلك على وجه العموم وبلغ شأواً بعيداً فى بعضها . ولا تزال مؤلفاته تدرس حتى الآن بالشرق كما استرعى البعض منها انتباه العلماء الأوروبيين كمداخل مفيدة بالنسبة للعلوم التى تعالجها ، مثال ذلك مصنفاته فى علوم القرآن (« تفسيره » ومقدمته « الإتقان ») والحديث (« الجامع ») فى مختلف مسوداتها ، ودراساته اللغوية والأدبية (« المزهر ») والتاريخية (« تاريخ

الخلفاء ») . وبما أن الجغرافيا لم تكن من ضمن العلوم التى يمكن أن تحظى باهتمام دوائر واسعة من القراء فإن السيوطى لم يولها اهتماماً خاصاً ولم يترك لنا فيها مدخلا أوكتاباً جامعاً . غير أن هذا لا يمنع وجود مصنفات جغرافية لديه لا تخلو من بعض الأهمية نذكر مثالا لها أنه عمل ملخصاً لمعجم ياقوت تم الكشف عن مسودته منذ وقت غير بعيد .

واثنتان من مقالات السيوطى مكرستان للحبش[١١٢] وتمسان بعض الشىء علم الأجناس (الاثنوغرافيا) ويجب ألا يفهم من هـذا بأية حال أن مقصده كان وضع دراسة أثنوغرافية إذ فى الواقع أن السيوطى أراد أن يسير على منوال تلك الآثار الأدبية التى دونت فى « فضائل » الشعوب البسيطة التى لم تبلغ درجة عالية من الحضارة ؛ ومثل هذه الرسائل قد اعتمد على الأحاديث النبوية | فى المساواة بين الشعوب جميعها تحت راية الإسلام ، وخير مثال لهذا الحديث الذى ساوى فيه محمد بين « شريف قرشى » و « عبد حبشى » . وقد استطاع الكتاب ذوو الموهبة أن يطوروا هذا الموضوع بصورة ممتعة للغاية خاصة الجاحظ فى القرن العاشر وذلك فى رسائله عن الترك والسودان ؛ وفيما بعد لم ترتفع أمثال هذه الرسائل إلى المستوى الذى بلغه الجاحظ وانحصرت بصورة خاصة فى المصادر الفقهية . بيد أن سلسلتها لم تنقطع كما يبدو من خلال البحث الذى عمله فى هذا الصدد المستشرق ڤيسڤيلر Weisveiler ؛ وقد خمن السيوطى بحق شوق الجماهير إلى هذا الضرب من الأدب فقرر أن يستجيب لرغبتهم بتدوين هذه الرسائل ذات الطابع النقلى الصرف . وقد حازت هاتان الرسالتان فعلا إقبال الجمهور ، بل إن مؤلفاً مجهولا أفاد منهما فى القرن السابع عشر وذلك فى رسالة له تعالج نفس الموضوع باللغة التركية ولو أنها ترتفع فى أغلب الظن إلى أصل عربى ؛ وهى موجودة فى مخطوطة فريدة بقصر كاترينا ببوشكين Pushkin[١١٣]* :

ويود بعض العلماء أن يبصر فى أحد مؤلفات السيوطى الكبرى علاقة ما « بخطط » المقريزى ، ذلك هو كتابه المعروف « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة »[١١٤]. غير أن هذا الرأى لن يثبت طويلا على محك النقد . والسيوطى قد أفاد بالطبع من كتاب « الخطط » وهو يذكره ضمن المراجع الثلاثين الأساسية التى قرأها من أجل تاريخه[١١٥] ؛ حقاً ان بعض أقسام كتاب السيوطى تحمل طابعاً جغرافياً ولكن أهداف الكتاب مغايرة لأهداف كتاب المقريزى فضلا عن أن مضمونه غير مترابط ويفتقر إلى الترتيب أكثر من كتاب « الخطط » . ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بين مقدمة المقريزى العميقة المفصلة وبين تلك الألفاظ الباهتة التى يقدم بها السيوطى عرضه التاريخى حيث يقول « أوردت فيه فوائد سنية وغرائب مستعذبة مرضية تصلح لمسايرة الجليس وتكون للوحيد نعم الأنيس » . وكان من المتوقع بعد قراءة هذه العبارة أن نجد بين أيدينا مصنفاً من طراز المنتخبات الأدبية ، غير أن الكتاب مفعم بروح الجدية وأقل إمتاعاً من أن يصلح

---

* على مقربة من ليننغراد وكانت تدعى قبل الثورة تسارسكوى سيلو Tsarskoe Sielo ، ثم أطلق عليها اسم بوشكين تخليداً للشاعر الكبير الذى تلقى العلم بمدرستها الشهيرة . (المترجم)

لهذا الغرض : وهو يبدأ بعرض عام لجغرافيا مصر وتاريخ فتحها ويلى هذا قسم السير[١١٦] الذى يمثل من ناحية الحجم الجزء الرئيسى من الكتاب . وفى عرض موجز للغاية تمر أمام أعيننا سير من دخل مصر من الصحابة والتابعين ثم سير الفقهاء والعلماء والأمراء كذلك يرد سرد موجز للقضاة[١١٧]، والوزراء[١١٨]، والكتاب[١١٩]؛ وفقط عقب هذا يبدأ القسم الطوبوغرافى الخاص بالمساجد[١٢٠] | والمدارس والخانقات[١٢١]. 484 ولايخلو من بعض الطرافة رغماً من مضمونه التاريخى الصرف ، الفصل الذى يفرده للكلام عن « الحوادث الغريبة »[١٢٢] من قحط وغلاء ووباء وزلزال . والكتاب يفتقر إلى الترتيب حتى فى آخره ، فبعد وصفه للطريق بين مصر ومكة[١٢٣] يأتى فصل فى ختام الرسائل[١٢٤] وعندئذ فقط يبدأ كلامه عن مصر دون التزام لترتيب أونظام فبعد أن يتحدث عن « لطائف » مصر[١٢٥] ينتقل إلى الكلام على النيل[١٢٦] وجزيرة الروضة[١٢٧] ومواضع متفرقة من القاهرة[١٢٨]؛ وقرب النهاية تغلب المادة الأدبية تماماً على العرض فيقدم لنا المؤلف مختارات شعرية فى الأنهار والأشجار[١٢٩] والزهر[١٣٠] والفواكه[١٣١] والخضروات[١٣٢] المعروفة بمصر . وليس من العسير أن نبصر من خاتمة الكتاب أنه لا ينتمى بأية حال إلى نمط الخطط ، فهو ينضم من ناحية إلى نمط تواريخ المدن التى تتحول أحياناً إلى مجموعة أدبية فى سير مشاهيرها وعلمائها ومن ناحية أخرى إلى المنتخبات الأدبية المقصود بها الإمتاع لا الفائدة . و« حسن المحاضرة » لايعتبر من كتب السيوطى الجيدة فالعرض فيه يغلب عليه الإيجاز ولايقدم شيئاً جديداً فى معظم الأحوال[١٣٣] كما وأن قيمته كتاريخ لا يمكن مقارنتها بمصنفات مؤرخين كالمقريزى وابن تغرى بردى . بالطبع لايخلو الحال من أن يورد لنا السيوطى معلومات قيمة ترتفع إلى عهد سابق ولكن ذلك يحدث فى صورة مغايرة وموجزة للغاية ومع خروج واضح على المذهب القديم . وهو يميل فى أسلوبه إلى تبسيط المادة بحيث لايخلو الأمر من حالات يعطى فيها فكرة مخالفة للأصل مما حدا بالمستشرق بيكر Becker إلى أن ينصح[١٣٤] بالتزام الحيطة والحذر عند استعمال « حسن المحاضرة » حينما ينقل مؤلفه أقوال المؤلفين الآخرين . ومن الملاحظ أن السيوطى عاد إلى معالجة بعض الموضوعات التى مسها فى كتابه هذا فى صورة رسائل منفصلة فلديه رسالة عن النيل وأخرى عن جزيرة الروضة وثالثة عن الأهرامات[١٣٥] ، وهى تتلخص فى العادة فى إيراد نقول مختارة من ميدانى النثر والشعر لاتمس الجغرافيا إلا بصورة غير مباشرة .

485 وقد خلف لنا أحد تلامذة السيوطى[١٣٦] مصنفاً عاماً فى الجغرافيا يمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة لأن مؤلفه أتمه فى سبتمبر من عام ٩٢٢ هـ = ١٥١٦ ، أى قبل عام من فتح العثمانيين لمصر وبهذا يمكن اعتباره حصيلة لإنتاج ذلك العصر بأجمعه . أما المؤلف فهو محمد بن أحمد بن إياس الحنفى (٨٥٢ هـ - حوالى ٩٣٠ هـ = ١٤٤٨ - ١٥٢٤)[١٣٧] الذى عرف عادة فى الأوساط العلمية الأوروبية بابن إياس فقط ؛ والاسم يمكن نطقه على طريقتين كلاهما صحيحة فهو إما بكسر الهمزة أو فتحها غير أن النطق الأخير أى بفتح الهمزة أقرب إلى الدارجة ولو أنه من الممكن أن المؤلف نفسه قد فضل استعماله فى مخطوطات تاريخه

التى وصلتنا بخط يده ؛ وعلى أية حال فإن الشكل الأول هو الشكل المستعمل فى كتب الأدب ومن المستحسن أن نتمسك به[١٣٨] . وابن إياس سليل أسرة من المماليك الجراكسة ، وكان بمقدوره أن يستمر فى نشاطه العلمى دون أن تدفعه الحاجة ليشتغل بالتدريس أو بوظيفة حكومية يرتزق منها كما هو الحال مع بقية علماء ذلك الوقت[١٣٩] . وقد سمح له هذا الوضع إلى حد ما بالتزام الحياد فى تأليفه ولم يضطره إلى أن يعكس وجهات نظر الدوائر الرسمية ولو أنه حرمه من الوصول إلى الوثائق الحكومية ؛ بيد أن النتائج الإيجابية لهذا قد رجحت كفتها فى آخر الأمر فنال ابن إياس بجدارة الشهرة كمؤرخ كبير .

وصل ابن إياس بتاريخه إلى عام ٩٢٨هـ = ١٥٢٢ ، وهو يمتاز فى الأقسام الأخيرة بالإسهاب والإفاضة بحيث يتحول إلى حوليات تاريخية (Chronique) بل وإلى سجل للحوادث اليومية فى بعض مواضعه ؛ وبصرف النظر عن محتوياته فإن الكتاب يكتسب أهمية خاصة لأن ابن إياس هو المؤرخ العربى الوحيد الذى دون أخبار الفتح العثمانى وآخر مؤرخ لمصر المملوكية فهو بهذا يختم سلسلة الآثار التاريخية الجيدة التى تقف شاهداً على انتعاش هذا الفرع من الأدب فى تلك العهود . وتاريخ مسودات ابن إياس حافل بما فيه الكفاية ، فقد وصلنا عدد كبير من الأجزاء بعضها بخط يد المؤلف نفسه وبعضها منقول من النسخ التى بخط يده ، كما وصلنا أيضاً ثلاث مسودات مختلفة لتاريخه هى المطولة والوسطى والمختصرة . ونتيجة لنشر الأقسام الأخيرة من تاريخه ، وهى أقيمها ، على يد باول كاله Paul Kahle فإنه يوجد بين أيدينا الآن أساس متين لدراسة تاريخ ابن إياس دراسة دقيقة تشمل لغته الكتابية التى تعكس أسلوب الكلام البسيط بل ولا تخلو من تأثير العامية أحياناً[١٤٠] . | وقد اعتمد الناشر فى طبعه لهذا القسم من تاريخ ابن إياس على المخطوطة الفريدة الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية . 486

وكما ذكرنا من قبل فإن ابن إياس قد انتهى من تدوين سفره فى الجغرافيا قبل سفره التاريخى وذلك فى الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٩٢٢ هـ = ١٢ سبتمبر ١٥١٦[١٤١] ، وهو يحمل عنوان « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولا يمكن بأية حال مقارنته بكتابه فى التاريخ . وتحدث قراءته خيبة أمل كبيرة لولا أنه يجب أن نأخذ فى حسابنا الأهداف التى وضعها المؤلف نصب عينيه والتى وضحها كما هى العادة فى مقدمته كتابه حيث ترتسم بوضوح أمام ناظرنا هذه الأهداف المشوشة التى يختلط فيها التاريخ بالجغرافيا دون نظام . فهو يقول فى مقدمته إنه سيتحدث فى كتابه عن « عجائب مصر وأعمالها وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء وما صنعوا من الأبنية المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد . . وأخبار النيل والأهرام وعجائب البلاد التى من أعمال مصر وخططها وأقطارها » ؛ وتضيف نسخة خطية موجودة بالقاهرة إلى هذا فى صفحة العنوان ما يلى : « وأخبار البلدان والبحار والأشجار والجزائر والجبال والعيون والأبيار والدور والكنائس والقصور »[١٤٢] . ولا يقتصر الأمر على مصر وحدها ولو أنه يفرد لها المكانة الأولى فى الأقسام المختلفة من الكتاب ؛ غير أن الخلط فى العرض يتفق اتفاقاً تاماً

مع الخلط الذى يسود مادة الكتاب . والكتاب يبدأ وفقاً للتقاليد بعرض موجز للجغرافيا الفلكية وتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ؛ ويبدأ وصف المناطق من المغرب الأقصى متدرجاً نحو المغرب الأوسط فالمغرب الأدنى . وهو يولى اهتماماً خاصاً للإسكندرية ولخراج مصر والنيل والسودان . وفى وسط الكتاب يقحم نفسه وصف للطريق من مصر إلى الشام ؛ ويلى هذا محاولة من المؤلف ليلتزم بعض الترتيب حينما يأخذ فى الكلام على الشام تليها أرمينيا فأرض الجزيرة فالعراق ، ثم ينقطع حبل التسلسل عقب هذا . وحتى فى هذه الأقسام يرد ذكر المواضع الجغرافية تارة وفقاً لحروف المعجم وطوراً تتكرر داخل الأقسام المختلفة عدة مرات . بعد هذا يعالج المؤلف الكلام على موضوعات مختلفة ومتنوعة مثل المدن والأقطار والبحار والجزر والأنهار والجبال والأهرامات والأديرة والأعياد والتقويم القبطى . ويتناول ابن إياس فى كتابه طرفاً من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة التى يتحدث عن بعض آثارها وصروحها ، بل ولا ينسى الكلام عن الروس والبلغار . وبهذا نجد أنفسنا أمام مصنف يمثل أنموذجاً جيداً لذلك الضرب من التأليف الذى قصد به إمتاع الأدباء ، فهو بذلك ينتمى إلى تلك السلسلة التى بدأها ابن الفقيه بل ويختتمها فى واقع الأمر .

ومصنف ابن إياس فى الجغرافيا لم يطبع إلى الآن ولكن يمكن الحكم عليه بصورة وافية من القطع التى نشرها فى بداية القرن التاسع عشر لانجليه L. M. Langlès وارنولد F.A.Arnold ، ثم من مقال فون كريمر A. V. Kremer . وقد وصفه أمارى Amari فى منتصف القرن الماضى بأنه مصنف « نقلى ثانوى للغاية »[١٤٣] una mediocrissima compilazione ، | هذا مع اعترافه بأن ابن إياس ربما كان قد رجع إلى مسودة للإدريسى غير معروفة لنا . ونفس هذا الحكم يصدق على بقية أقسام الكتاب فمادته نقلية صرفة ولكن نجد طريقها إليه من آن لآخر ومضات مشرقة ؛ فهو مثلا فى وصفه لبلاد النوبة يرجع كالمقريزى إلى مصنف من القرن العاشر مفقود بالنسبة لنا هو كتاب الأسوانى[١٤٤] ، كما أنه يقدم لنا فى القسم الذى أفرده لمصر قائمة بمقاييس فيضان النيل على ممر السنين تعتبر من أوسع ما عرف فى هذا المجال ؛ وقد لفت لانجليه الأنظار إلى هذه القائمة ونشرها فى كتابه المومإ إليه . بيد أن هذا لا يمنعنا بالطبع من أن نسلم بأن ابن إياس يعتمد فى جميع الأقسام الأخرى من مصنفه على مصادر كتابية لا يظهر مهارة خاصة فى اختياره لها . وطريف فى هذا الصدد القسم الذى يفرده للروس والبلغار ، فبالرغم من أنه كانت قد تجمعت معلومات جمة عن جنوبى روسيا فى عهد دولة المماليك نتيجة لتوطد العلاقات مع دولة الأوردو الذهبى وأن عدداً من المؤلفين المصريين قد أفاد منها كالعمرى والقلقشندى والعينى فإن ابن إياس يأبى إلا أن يورد معلومات قديمة ترجع إلى القرن العاشر مضيفاً إليها رواية الأقليشى ، أى أبى حامد الغرناطى ، عن البلغار دون أن يرى لزاماً عليه أن يستدرك على ذلك بقوله إنها ترجع إلى فترة تاريخية سابقة ؛ وهو كبقية المؤلفين السابقين عليه يقسم الروس إلى ثلاث طوائف[١٤٥]

488

ويصل بحر قزوين بالمحيط المتجمد الشمالى[١٤٦] . ولإعطاء فكرة عن تصور ابن إياس والوسط الذى عاش فيه للعالم آنذاك قوله بأن المحيط الأطلنطى لايُعلم عنه شىء « لأن أحداً لم يجرؤ على الضرب فيه »[١٤٧] . هذه الملاحظة قد تم تدوينها بعد قرن من كشف كولومبس للعالم الجديد وبعد مدة طويلة من طواف ڤاسكو داغاما حول الطرف الجنوبى للقارة الإفريقية وتمكنه من الوصول إلى الهند مستعيناً فى ذلك بملاح عربى . ويلوح أن ابن إياس قد فاته أيضاً إلى جانب هذا معلومات أقرب عهداً إليه كرواية المقريزى عن وصول سفارة صينية إلى مصر بطريق البحر فى عام ١٣٣٨ –١٣٥٢[١٤٨] .

كل هذا يضطرنا بطبيعة الحال إلى ضم مؤلفه إلى الاتجاه القديم فى الجغرافيا العربية الذى يعتبر امتداداً للمذهب القديم الذى ساد من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر ؛ وليس فى مصنفه ما يشير إلى أنه كان على علم بما حدث من اتساع كبير فى الأفق الجغرافى لدى أهل الغرب ، مما تردد صداه لدى بعض المشارقة أحياناً . وقد وجد إلى جانب الجغرافيين من طراز ابن إياس طراز جديد ممن يمكن اعتبارهم متممين للنماذج الغربية فى الجغرافيا وحدث أن التقينا ببعضهم من بين الجغرافيين المغاربة ؛ ويلوح أن نشاط الملاحة فى حوض البحر الأبيض المتوسط قد عاون كثيراً فى إيصال هذا التأثير من أوروبا . كما وأننا سنبصر فى الفترة التالية لهذه 489 كيف نشطت الجغرافيا الملاحية بين العرب حتى أصبحت أكثر فروع الأدب الجغرافى تقدماً وإبداعاً ، وفى هذا الميدان الأخير ترتبط الآثار الجغرافية باللغتين العربية والتركية ارتباطاً وثيقاً بحيث يصعب أحياناً فصلها عن بعضها البعض دون إحداث خلل فى متابعة التطور العام لهذا الاتجاه . وسنبصر أيضاً من نشاط هذه الفترة كيف أنه إلى جانب المذهب التقليدى فى الأدب الجغرافى الذى ظلت جذوره ممتدة إلى القرن العشرين قد بدأ يرفع رأسه اتجاه جديد أخذ يسير بموازاة الاتجاه القديم ، ذلكم هو الاتجاه التجديدى الذى عكس التغيرات البعيدة المدى التى مرت عليها الحضارة البشرية فى تلك الآونة . ولكن قبل أن نلج هذا الموضوع يجدر بنا أن نلقى نظرة على حالة الأدب الجغرافى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالشام ، ثم أبعد من ذلك إلى الشرق فى الأقطار التى تستعمل اللغة الفارسية .

حواشي الفصل السابع عشر

(١) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 199-200, No 457—Brockelmann, GAL, II, p. 50, No 10; SBII, p. 49-50 No 10a —Pedersen, EI, II, p. 397—Wiet, Manhal, p. 10, No 63—Sarkis, p. 103-104—Vollers, Ibn Doukmak

راجع في الفهرس : محمد البلادى

(٢) – Vollers, Ibn Doukmak, p. 5

(٣) شرحه ، ص ٦

(٤) – Pedersen, EI, II, p. 397

(٥) – Vollers, Ibn Doukmak, p. 6

(٦) شرحه

(٧) شرحه ص ٧

(٨) – Sarkis, p. 104

(٩) – Vollers, Ibn Doukmak, p. 4

(١٠) شرحه

(١١) شرحه ، ص ٣ Pedersen, EI, II, p. 397

(١٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 135, No 6; SB II, p. 165-166—Hartmann, Halil – Ravaisse

(١٣) – Sarkis, p. 133

(١٤) – Hartmann, Halil, p. 1

(١٥) شرحه ص ١ ، ٣ Ravaisse, p. ٤ ٣

(١٦) – Ravaisse, p. ٤

(١٧) – Hartmann, Halil, p. 3

(١٨) شرحه ، ص ٦

(١٩) شرحه ، ص ٣

(٢٠) – Hartmann, ZDMG, 70, 1916, p. 8

(٢١) – Hartmann, Halil, p. 6

(٢٢) شرحه ، ص ٣

(٢٣) شرحه ، ص ٢

(٢٤) شرحه

(٢٥) شرحه ، ص ٤ Hartmann, ZDMG, 70, 1916, p. 11—

(٢٦) - Hartmann, Halil, p. 3-4

(٢٧) شرحه ، ص ٦

(٢٨) شرحه ، ص ٧

(٢٩) شرحه

(٣٠) شرحه ، ص ٦٨

(٣١) شرحه ، ص ٨٨

(٣٢) شرحه ، ص ٣

(٣٣) - Devonshire, BIFAO,XX, p. 5 — 6, Note 5

(٣٤) راجع : Brockelmann, GAL, II, p. 30, No 9; SB II, p. 26, No 9:

ولكن قارن Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 5 and SBII, p. 163, No 10 a - Moritz Ibn al - Gian, p. III - Kramess, EI, EB, p. 71 - Devonshie BIFAO, XX,

(٣٥) عالم الدين شاكر القبطى المصرى بن جيعان ولد بعد عام ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ .

راجع : Wiet, Manhal, p' 166, No 1102

(٣٦) - Moritz Ibn al - Gian, p. III

(٣٧) شرحه ، المتن ، ص ٢

(٣٨) - Taeschner, GLO, p. 40 - 41, note 1

(٣٩) - Devonshire, BIFAO, XX, p. 2

(٤٠) - Lanzone, p. 4

(٤١) شرحه ، المتن ، ص ٤٨

(٤٢) شرحه ، المتن ، ص ٤

(٤٣) - Devonshire, BIFAO, XXV, p. 2

(٤٤) راجع شرحه ، ص ١

(٤٥) - Hartmann, Die Strasse, p. 694 - 696

(٤٦) - Kalile, Ibn Ijas, III, p. 354 — Devonshire BIFAO, XX, p. 5 - 6, note 5

(٤٧) - Gibb, EI, EB, p. 258

(٤٨) - Quatremère, خطط المقريزى ، ص ٣٢٣

(٤٩) عنان ، ص ٤٤

(٥٠) ترجمة حياته راجع :

Brockelmann, GAL, II, p. 38 - 41, No 7; SBII, p. 36 - 37, No 7 — Brockelmann, Al - Makrisi, p. 190 - 191

(٥١) - Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 147.

(٥٢) راجع أنموذج خط المقريزى لدى :

(W. Wright, Palaeographical Society, No 72, — 1420-1421 ويرجع لعام)

(٥٣) خطط المقريزى ، ص ٣٢٥ – Quatremère

(٥٤) – Brockelmann, Al-Makrisi, p. 190.

(٥٥) شرحه ، ص ١٩١ .

(٥٦) ترجمة المقدمة ص ٣٢٧ – ٣٣٧ و خطط المقريزى و – Quatremère,

(٥٧) – Wiet, El-Maqrisi, Khitat, I, p. 1—3

(٥٨) شرحه ، ص ٣ – ٥ .

(٥٩) شرحه ، ص ٥ – ٧ .

(٦٠) خطط المقريزى ، طبعة ١٢٧٠ هـ ، الجزء الأول ، ص ٥ – ١٢٨ .

(٦١) شرحه ، ص ١٢٨ – ٢٨٥ .

(٦٢) شرحه ، ص ٢٨٥ – ٣٤٧ .

(٦٣) شرحه ، ص ٣٤٨ – ٤٩٨ .

(٦٤) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٢ – ٢٠١ .

(٦٥) شرحه ، ص ٢٠١ – ٢٣٠ .

(٦٦) – Wiet, El-Maqrisi, Khitat, I, p. 7-11

(٦٧) عنان ، ص ٤٧ – ٤٨ .

(٦٨) Quest, El-Maqrisi, p. 103.

(٦٩) عنان ، ص ٤٨ – ٤٩ .

(٧٠) راجع : Quest, p. 104-105 وعنان ، ص ٤٩

(٧١) المقريزى ، الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٢ – ٢٤٤ .

(٧٢) شرحه ، ص ٢٤٤ – ٤٦٣ .

(٧٣) شرحه ، ص ٤٦٤ – ٥١٩ ؛ قارن : عنان ، ص ٤٩ – ٥٠ .

(٧٤) عنان ، ص ٥٠ .

(٧٥) – Wiet, El-Maqrisi, Khitat, I, p. 11-14.

(٧٦) شرحه ، ص ١٥ – ٥٠

(٧٧) خطط المقريزى ، ص ٣٢٦ Quatremère,

قارن : Margoliouth, p 158

(٧٨) شرحه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٧٩) – Quest, El-Maqrisi, p. 105

(٨٠) شرحه ، ص ١٠٦

(٨١) شرحه

(٨٢) شرحه ، ص ١٠٧

(٨٣) – Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 153

(٨٤) – Bolotov, Lektsii, p. 205

قارن : Strothmann, kopt. Kirche, p. 106

(٨٥) – Carra de Vaux. Les Penseurs, I, p. 151

(٨٦) – Guest, El-Maqrisi, p. 107

(٨٧) عنان ، ص ٥٢ .

(٨٨) شرحه ، ص ٥٣

(٨٩) شرحه ، ص ٥٣ – قارن أيضاً ص ٥٨

(٩٠) شرحه ، ص ٥٧ – ٥٨

(٩١) شرحه ، ص ٥٥ – ٥٦

(٩٢) شرحه ، ص ٥٧

(٩٣) – Goldziher, Muh. Studien, II, p. 269

(٩٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 39. note — Brockelmann, Al-Makrisi, p. 190

(٩٥) عنان ، ص ٥٢ – ٥٩

(٩٦) – Wiet, BIFAO, XII, p. 62

(٩٧) شرحه ، ص ٦٣

(٩٨) – Graefe, p. XII-XIII

(٩٩) – Guest, El-Maqrisi, p. 108-121, 121-125

(١٠٠) شرحه ، ص ١٢٣ – ١٢٤

(١٠١) شرحه ، ص ١٢٤

(١٠٢) شرحه

(١٠٣) – Inostrantsev, p. 34, 47 — Guest, p. 117

(١٠٤) – Guest, p. 125.

(١٠٥) – Brockelmann, Al-Makrisi, p. 191 — عنان ص ٦٢ – ٦٤

(١٠٦) – Brockelmann, GAL, II, p. 52-53, No 14; SBII, p. 50-51 – Marçais, EI, I, p. 225-226

(١٠٧) – Ahmed Zaki, Homenaje, p. 462

(١٠٨) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم س ٣٥٠

(١٠٩) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 226-232, No 506 — Brockelmann, GAL, II, p 143-158, No 7; SBII, p. 178-198 — Brockelmann, Al-Suyuti, p. 620 622 — عنان ص ٦١

(١١٠) السيوطي ، حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، ص ١٨٨ – ١٩٥

(١٠١) صورة شمسية لخط السيوطى لدى تيمور ، ص ٢٤

(١١٢) – Weisweiler, p. 7-10

(١١٣) – Krachkovski, DAN, V, 1929, p. 166-168

(١١٤) عنان ، ص ٦١

(١١٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، ص ٢

(١١٦) شرحه ، ص ٩٩ – ٣٣٤ ؛ والجزء الثانى ، ص ١ – ١٠٨

(١١٧) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١١٣ – ١٤٦

(١١٨) شرحه ، ص ١٤٧ – ١٧١

(١١٩) شرحة ، ص ١٧١ – ١٧٥

(١٢٠) شرحه ، ص ١٧٦ – ١٨٤

(١٢١) شرحه ، ص ١٨٤ – ١٩٤

(١٢٢) شرحه ، ص ١٩٥ – ٢١٩

(١٢٣) شرحه ، ص ٢١٩

(١٢٤) شرحه ، ص ٢٢٠

(١٢٥) شرحه ، ص ٢٢٨ – ٢٣٦

(١٢٦) شرحه ، ص ٢٣٨ – ٢٦٣

(١٢٧) شرحه ، ٢٦٣ – ٢٧٠

(١٢٨) شرحه ، ص ٢٧١ – ٢٧٢

(١٢٩) شرحه ، ص ٢٧٣ – ٢٨٠

(١٣٠) شرحه ، ٢٨١ – ٢٩٧

(١٣١) شرحه ، ص ٢٩٧ – ٣٠٤

(١٣٢) شرحه ، ص ٣٠٤ – ٣٠٨

(١٣٣) عنان ، ص ٦١

(١٣٤) – Becker, p. 82

(١٣٥) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 196, No 280-285, p. 198, No 320

(١٣٦) – Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 24

(١٣٧) – Reinaud, Introduction, p. CLXIV - CLXV — Brockelmann, GAL, II, p. 295, No 1; SBII, p. 405-406 — Sobernheim, p. 414-415 — Amari (—Nallino), I, p. 62, No 29 — عنان ص ٦١ – ٦٢ — Margoliouth, Lectures, p. 158-159 —Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 1-29 —Langlès, Cosmographie— Kremer, SBAW, V, p. 77 sui — Ferrand, Relations, II, p. 475-483 — F. A. Arnold, Chrestomathia, I, Ch. V, p. 54-76.

(١٣٨) – Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 22-23

(١٣٩) شرحه ، ص ٢٥ – ٢٦

(١٤٠) – Devonshire, BIFAO, XXV, 1925, p. 117

(١٤١) – Langlès, p. 5

(١٤٢) عنان ، ص ٦١ – ٦٢ وقارن : حاجي خليفة ، الجزء السادس ، ص ٣٤٤ – ٣٤٥ ، رقم ١٣٧٩٣

(١٤٣) – Amari (—Nallino), I, p. 62, No 29

(١٤٤) – F. A. Arnold, Chrestomathia, p. 54

(١٤٥) شرحه ، ص ٧٤

(١٤٦) – Peschel-Ruge, p. 109, Note 2

(١٤٧) – Reinaud, Introduction, p. CLXV

(١٤٨) – Hennig, III, p. 187-190

الفصل الثامن عشر

الجغرافيا الإقليمية بالشام وفلسطين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

490 لم ينتعش الأدب الجغرافى بصورة تسترعى النظر فى الأقطار الواقعة إلى الشرق من مصر فى القرون التى سبقت الغزو العثمانى مباشرة ، ومن بين المصنفات ذات الطابع العام يمكن للشام أن تشير إلى مصنف واحد فى الكوزموغرافيا اكتسب فى الحقيقة رواجاً منقطع النظير ولو أنه يمثل فى واقع الأمر تدهوراً لهذا النمط أكثر مما يمثل تقدماً له . أما العدد غير القليل من المصنفات الذى ظهر فى هذا العصر فيدخل فى مجال الجغرافيا الإقليمية (regional) ويعالج الكلام بصورة خاصة على المدن الكبرى ، ويمكن لنا فى هذا الصدد أن نتتبع وجود سلسلة يكمل بعضها البعض لا بصورة آلية بل تتميز عن بعضها البعض فى اختلاف أغراضها . أما الأقطار الواقعة إلى الشرق من الشام فإنها لم تترك فى هذا العصر أى أثر فى الأدب العربى يستحق أن نقف عنده .

وبالرغم من أن المصنف الكوزموغرافى الذى أشرنا إليه يوجد فى عدد من الطبعات والمخطوطات وأنه لم يختلف أحد حول عنوانه وهو « خريدة العجائب وفريدة الغرائب[1] » إلا أن بعض الإبهام يحيط بشخص مؤلفه . وتتفق معظم الآراء فى الوقت الحاضر على أنه سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردى (توفى فى عام ٨٦١ هـ = ١٤٥٧[2]، وفى رواية أخرى حوالى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦)[3]. وقد نسب تأليف الكتاب لمدة طويلة إلى سميه زين الدين ابن الوردى الذى عاش قبل ذلك بقرن من الزمان (توفى عام ٧٤٩هـ = ١٣٤٩)[4] . وقد نشأ هذا الخلط فى الوسط العربى نفسه وتردد صداه فى بعض المخطوطات والمصنفات البيبليوغرافية ومنها نفذ إلى الأوساط العلمية بأوروبا . وفيما يتعلق بابن الوردى الأول فإن معلوماتنا مفصلة

491 أكثر ، من ذلك أنه عاش بالشام وكان لبعض الوقت قاضياً بحلب وخلف عدداً من المؤلفات فى مجال الفقه والأدب كما نال الشهرة كشاعر ، ولعل ذيوع صيته هو المسئول أحياناً عن نسبة المصنف الكوزموغرافى إليه . وفى مقابل هذا فإننا لانعرف شيئاً عن ابن الوردى الأصغر ويلوح أنه سليل نفس الأسرة . وبما أن المصنف مرفوع إلى قائد قلعة حلب شاهين المؤيدى[5] فيوجد أساس متين للقول بأن المؤلف كان شامياً من أهل حلب[6] .

وينضم المصنف من حيث النوع إلى نمط الكوزموغرافيات المعروف لنا من مثال كوزموغرافيا القزوينى والدمشقى وغيرهما . وهو يورد فى البداية خارطة مستديرة للعالم مع وصف لها مفصل بما فيه الكفاية ، بعد هذا ينقسم العرض إلى أربعة عشر فصلا (خمسة عشر أحياناً)[7]، وهذه الفصول وما بداخلها من تقسيمات

لاتتفق فى جميع مخطوطات الكتاب ولكن التركيب العام للكتاب لايتغير فى العادة ويشبه فى حقيقة الأمر تركيب معظم المؤلفات الكوزموغرافية الأخرى . فنى الفصل الأول وهو أوسع الفصول ويشغل أكثر من ثلث الكتاب بأجمعه يرد الكلام عن الأقطار والبلدان مع تعداد مدنها المختلفة ، وفى الفصل الثانى يتحدث عن الخلجان والبحار ، وفى الثالث عن الجزر[٨] ، وفى الرابع عن العجائب التى يراد بها العبرة ، وفى الخامس عن الأنهار المشهورة ، وفى السادس عن العيون والآبار ، وفى السابع عن الجبال الشاهقة ؛ وابتداء من الثامن الذى يتحدث فيه عن خواص الأحجار الكريمة يدخل الكتاب فى بعض التخصص فيلى هذا الفصل التاسع فى المعادن والجواهر ، ثم العاشر عن النبات والفواكه مع ذكر خواصها ، فالحادى عشر عن البقول ، والثانى عشر عن الحشائش المختلفة . وفى الفصل الثالث عشر يتكلم عن البذور ، ويفرد الرابع عشر للحيوانات والطيور . وفى مخطوطات الكتاب ومسوداته المختلفة كثيراً ما يلى هذا الفصل الأخير زيادات متنوعة لعلها من عمل النساخ ، مثال ذلك المسائل المشهورة التى سأل عنها عبد الله بن سلام النبى محمداً عليه الصلاة والسلام . وقد أضيف إلى الكتاب قسم كبير يبحث فى أصل العالم ويوم القيامة وتختتمه قصيدة طويلة لشاعر مغمور يصف فيها نهاية العالم[٩] . ولاشك أن المؤلف قد اعتمد فى هذا القسم الكوزمولوجى cosmological على «كتاب البدء» للمقدسى بل إنه يشير إليه فى خلال كلامه ؛ وهو يتحدث فى هذا القسم عن الزمان الذى انقضى منذ خلق العالم ومدته وعن الخلق الذى وجد قبل آدم ، وعن عدد العوالم وحساب الوقت من آدم إلى لحظة تأليف الكتاب . وبعض فقرات هذا القسم ينقل مادة المقدسى بحذافيرها وبعضها يدخل عليها تعديلات كبيرة أوصغيرة[١٠] .

492 ومحتويات الكتاب بوجه عام لاتختلف عما نجده فى الكوزموغرافيات ولكن لعله ليس من باب الصدفة أن يهتم العنوان بإبراز عنصر العجائب والغرائب فهى التى تجتذب منذ البداية اهتمام المؤلف وتترك طابعها المميز على الكتاب بأجمعه ، بل وهى المسئولة قبل غيرها عما تمتعت به كوزموغرافيا ابن الوردى من رواج فى الشرق وعن تسرب العدد الكبير من مخطوطات الكتاب إلى الغرب . ولنذكر بهذه المناسبة أنه ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر وإلى ما بعد قرن من ذلك كانت كوزموغرافيا ابن الوردى مقربة إلى نفوس المستشرقين الأوروبيين أيضاً ولكنها لم تلبث أن فقدت سحرها شيئاً فشيئاً وتراجعت إلى الصف الثانى مفسحة المجال لمؤلفات من هذا الطراز أكثر جدية منها . هذا وقد أحاطت الريبة بقيمة هذا الكتاب قبل ذلك بعهد طويل وفى محيط الأدب العربى نفسه ، ولايخلو من أهمية فى هذا الصدد رأى مؤرخ الكتب والعالم الببليوغرافى المشهور حاجى خليفة الذى كان له باع طويل فى الجغرافيا أيضاً . فنى تعليقه الطويل عن هذا المصنف نراه يخرج بعض الشيء عما عهدنا فيه من التحفظ والاعتدال ويعبر عن رأيه فيه بحدة وببعض التهكم فيقول :

« وهو مجلد نصف أوله فى ذكر أقاليم وبلدان والباقى فى بعض أحوال المعدن والنبات والحيوان ولكنه

أورد فى أوله دائرة مشتملة على صور الأقاليم والبحار زعما منه أنه كذلك فى نفس الأمر وهو الضلال البعيد عن الحق المطابق للواقع فإن الرجل ليس أهل فن جغرافيا وتصويره لايقاس على سائر النقوش والتصاوير ومع ذلك أورد أخباراً واهية وأموراً مستحيلة كما هو دأب أهل العربية والأدباء الغافلين عن العلوم العقلية ان هذا الكتاب متداول بين أصحاب العقول القاصرة كأمثاله أوله الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب الخ ، ولعل المصنف أشار إلى هذا التأليف وأمثاله من الذنوب »[١١] .

ولانستطيع إلا أن نوافق حاجى خليفة فى تقديره العام للكتاب فهو مدخل عادى للغاية فى الجغرافيا والتاريخ الطبيعى ولكن غفل من أية قيمة علمية ذات بال[١٢] . ثم إن ميله الصريح إلى الخرافات والعجائب[١٣] تجعل منه شبيهاً لحكايات « القصاص » ، تلك الحكايات التى كسبت لنفسها سمعة سيئة منذ الأيام الأولى للحضارة العربية ولو أن ذلك لم يحل دون رواجها بين العامة . ويغلب على القسم الأكبر من الكتاب القصص الخيالية والعجائب والغرائب المختلفة[١٤] بينما لاتجد فيه الأخبار الواقعية سوى مجال محدود[١٥] . وهو يحتل مكانته لا بين الآثار الجغرافية الكبيرة بل بين المتوسطة العادية ولو أنه يجب ألا ننفى بصورة كلية كما فعل حاجى خليفة[١٦] وجود بعض الفائدة لديه .

493

فابن الوردى رغما من كل هذا قد حفظ لنا أحياناً مواد لم تصلنا فى مصادرها الأولى[١٧] ، وتعتبر « خريدة العجائب » فى العادة انتحالا لمصنف الحرانى من أهل القرن الرابع عشر[١٨] والذى حدث أن توقفنا عنده فيما مر من هذا الكتاب ، غير أن الفحص الدقيق للمسألة يحول دون قبول هذا الرأى على علاته . وابن الوردى نفسه يسرد مراجعه التى نجد من بينها بطلميوس والبلخى والمسعودى والمراكشى ونصير الدين طوسى وآخرين غيرهم[١٩] ؛ ونحن قد تعودنا بالطبع أن نذكر أحياناً فى الإشارات إلى المؤلفين المختلفين ضرباً من الدفاع عن النفس ، وهذا يصدق بدوره على ابن الوردى . فمن الملاحظ أن اسم الحرانى لايوجد فى ثبت مصادره بينما يدين له ابن الوردى فى واقع الأمر بالكثير ولو أنه لا يدين له وحده ؛ ومما يؤسف له حقا أننا لسنا فى وضع يسمح لنا بمقارنة المتنين . ولعب دوراً ليس أقل من هذا تأثير القزوينى عليه[٢٠] . وقد عرف ابن الوردى مصنفه معرفة جيدة ولاشك ، ويؤكد هذا بالتالى المستشرق الروسى مدنيكوف N. A. Mednikov[٢١] فى فحصه للأقسام الخاصة بفلسطين . وبنفس الدرجة يمكن أن نبصر تأثير الدمشقى والإدريسى عليه ، والأخير قد استعمله ابن الوردى عند كلامه على مواضع متباعدة كصقلية[٢٢] وفلسطين[٢٣] ؛ كذلك عرف جيداً مؤلفين أقل شهرة من أولئك كالمقدسى صاحب « كتاب البدء »[٢٤] . كل هذا يضطرنا إلى التسليم بأن محيط اطلاعه كان واسعاً بما فيه الكفاية ولم يقتصر بأية حال على الحرانى وحده .

ونادراً ما نلتقى على صفحات كتابه بذكر لأوروبا أو آسيا الشمالية أو الهند ، أما أكثر مادته طرافة فهى تلك التى تخص إفريقيا وبلاد العرب والشام[٢٥] . وهو يعتمد فى كلامه عن الروس وأوروبا الشرقية

على المسعودى وسلام الترجمان[٢٦] ، ويلوح أن معرفته بابن فضلان كانت عن طريق مصدر آخر . 494
ونظراً لما يتميز به مصنفه من تنوع كبير فى المادة فإنه يمكن العثور على تفاصيل قيمة وسط أقسامه المختلفة ، وقد أثبت مؤرخ صقلية أمارى أنه الوحيد الذى يورد الرواية المتعلقة بوجود جسر كبير طوله مائة وخمسون متراً يصل ترابانى Trapani بأرض صقلية[٢٧] ؛ كما وأن تيشنر Taeschner فى دراسته عن القسطنطينية قبل الفتح العثمانى يبين أن أكمل رواية لوصف المدينة الذى تناقلته المصادر الإسلامية منذ عهد الإسلام الأول هى التى حفظها لنا ابن الوردى بالذات[٢٨] . ومن هذا نبصر مرة أخرى أنه حتى مثل ذلك الكتاب الذى تكونت لدينا عنه بوجه عام انطباعات سلبية لا يمكن اطراحه ظهرياً بشكل نهائى .

ويمكن أن نستشف بعض التحيز فى موقف حاجى خليفة من خارطة ابن الوردى ، وهى معروفة منذ بداية القرن التاسع عشر عندما نشرها يوهانسن Johanssen اعتماداً على مخطوطة باريس وتورنبرج Tornberg اعتماداً على مخطوطة ابسالا ، ثم تلاهما مجيك Mzik فنشر صورة فوتوغرافية لها عن مخطوطة بغوتا[٢٩] . وفى الآونة الأخيرة نشر ميلر Konred Miller سبعة عشر نموذجاً لهذه الخارطة فى مؤلفه الضخم معتمداً على عشرين مخطوطة[٣٠] . وجميع هذه النماذج تعكس خارطة العالم المستديرة المعروفة لنا جيداً وهى تلك الخارطة التى ثبتت صورتها فى ما اصطلح على تسميته « بأطلس الإسلام » والتى ترتفع بالتوكيد إلى طراز خارطة الاصطخرى[٣١] ؛ أما من الناحية الفنية فإن خارطة ابن الوردى ليست بأردأ من غيرها من الخارطات من نفس النوع ومن ثم فإن الحكم القاسى الذى أصدره عليها حاجى خليفة غير مفهوم لنا تمام الفهم . ويرى ميلر أن وجود عدد هائل من المخطوطات قد ساق إلى تنويع صور هذه الخارطة بحيث يمكن تصنيفها على مجموعات[٣٢] ، وهو محق فى افتراضه أن الاختلاف فيما بينها يرجع فى أغلب الظن لا إلى المؤلف نفسه بل إلى الناسخ[٣٣] الذى يستطيع بحسب ما أوتى من الخبرة أن يجرى فى الخارطة ما يعن له من إضافات أو تعديلات لا وجود لها فى النموذج الأصلى . هذا وقد حازت الخارطة نفس الرواج والانتشار الذى حازه المتن وزحمت جميع الخارطات الأخرى ، كما وأن النزعة إلى الموضوعات الأسطورية قد انعكست بدورها فى بعض التسميات الموجودة بها ولكن هذه الظاهرة ليست وقفاً على ابن الوردى وحده . ونحن نلتقى لديه بموضع جبل قاف وعرش إبليس وينبوع الحياة[٣٤] ، ولكن توجد أيضاً إلى جانب هذا حالات أغنى فيها المصطلح الجغرافى ، ففى أوروبا تظهر البلقان و« الألمان وغيرهم من شعوب النصرانية » وذلك لأول مرة على خارطة عربية[٣٥] ؛ ولنستدرك على هذا بقولنا إن تحليل ميلر لا يخلو فى بعض نقاطه من الإبهام ويحتاج إلى التثبت . وبخلاف خارطة العالم المستديرة فإن معظم مخطوطات مصنف ابن الوردى تحتوى على 495 « خارطة للقبلة » مبين عليها اتجاهات القبلة باختلاف مواقع البلاد[٣٦] .

وقد تجاوز صيت « خريدة العجائب » نطاق العالم العربى بحيث يمكن أن تنازع فى هذا الميدان « عجائب

المخلوقات » للقزويني ، وهي معروفة في ترجمة فارسية(٣٧) غير أن الرواج كان على ما يظهر من نصيب ترجماتها التركية(٣٨) التي يذكر تيشنر الخبير في تاريخ الجغرافيا عند الأتراك ليس أقل من خمس منها(٣٩) ؛ ومما يلفت النظر أن أقدمها قد ظهرت بعد قليل من ظهور الأصل العربي وذلك قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية(٤٠) أما الترجمات الباقية فيرجع معظمها إلى القرن السادس عشر(٤١) ؛ وقد ضمن محمد عاشق في حوالي عام ١٠٠٦ هـ - ١٥٩٨ الأخيرة منها في سفره الجغرافي الكبير « مناظر العوالم »(٤٢) الذي سنقف عليه طويلا فيما سيمر من هذا الكتاب .

وكان من جراء العدد الكبير من مخطوطات ابن الوردي الذي وجد طريقه إلى أوروبا أن لفت إليه هذا أنظار العلماء الأوروبيين في وقت مبكر خاصة المبتدئين من بينهم الذين اضطروا حين لم يجدوا مواد أخرى إلى استخراج موضوعات أبحاثهم منه . وهم بالطبع لم تجتذبهم تلك الجوانب التي عملت على رواج الكتاب في الشرق ، فالعلامة المشهور سلسيوس Celsius قد وجه الأنظار إلى أهمية قسم التاريخ الطبيعي خاصة الجزء منه الذي يعالج الكلام على النبات ؛ ومنذ اللحظة التي ترسم فيها خطاه أور يفليوس Aurivillius فنشر في عام ١٧٥٢ الفقرة عن النخيل فإن دراسة « فريدة العجائب » أصبحت إلى حد ما من تقاليد العلم السويدي فنشر عدداً من فصوله هيلاندر Hylander (١٧٨٤ - ١٨٢٣)(٤٣) وفكس Faks (١٧٨٦)(٤٤) وتورنبرج Tornberg (١٨٣٥ - ١٨٣٩)(٤٥) ؛ غير أن علماء الأقطار الأخرى قد أدلوا أيضاً بدلوهم فالعلامة كولر Koehler الذي وضع دراسة قيمة عن أبي الفدا نشر الجزء من مصنف ابن الوردي المتعلق بالشام (١٧٦٦(٤٦) و ١٧٨٦) وقدم لنا دي غين De Guigne في عام ١٧٨٩ تحليلا عاماً للكتاب(٤٧) ساعد إلى حد ما في تدعيم صيته . ومن الملاحظ أن علامتنا الكبير فرين Frähn بدأ نشاطه العلمي بابن الوردي بالذات فقد ظهر أول بحث علمي له في سنة ١٨٠٤ وهو عبارة عن متن ابن الوردي عن مصر مع ترجمة وتعليقات(٤٨) . وعندما تم في أوروبا اكتشاف المصنفات الكبرى القيمة بدأ نجمه في الأفول منذ منتصف القرن التاسع عشر | 496 بحيث اقتصرت أهميته بالنسبة لنا في الوقت الحاضر في أنه يمثل آخر نموذج لنمط الكوزموغرافيا في الأدب العربي ، ذلك النمط الذي بلغ الأوج في كتاب القزويني وبدأت تظهر عليه علامات التدهور إن لبس السقوط في كتاب ابن الوردي .

لقد ظل التأليف في مجال الجغرافيا الإقليمية مزدهراً بغزارة في الشام وفلسطين طوال هذا العصر ولكن نماذجه اختلفت بعض الشيء من حيث الشكل عما عهدناه بمصر فلم يهتم بمسائل الإدارة ونشاط الدواوين الحكومية بالقدر الذي اهتم به المؤلفون المصريون ؛ ولا غرو فقد بقيت مصر على الدوام مقر الدولة أضف إلى هذا أن جميع المراجع الإدارية التي ظهرت فيها قد وجهت اهتماماً ليس بالضئيل للشام أيضاً . ونادراً ما ترسمت الآثار التي صنفت بالشام خطو « الخطط » المصرية أي وصف المدن والحواضر بحسب

أحيانها ، وكانت نقطة التقائهما الوحيدة هى أنه بقدر ما ركزت الخطط اهتماماً قبل كل شىء على القاهرة فإن المصنفات الشامية قد ركزت بدورها اهتمامها الأساسى على المدن الكبرى كدمشق والقدس وحلب بعض الشىء . وهى ترتبط أكثر مما ترتبط الخطط بذلك النمط القديم نمط « الفضائل » و« المحاسن » الذى تمتد جذوره إلى القرنين الثامن والتاسع ؛ ولم تكن هذه الصلة قد انفصمت بالطبع ولكن ظهور الأنماط الأخرى وازدهارها قد دفع أحياناً إلى تناسيها ولكننا نراها الآن لأسباب عديدة تجمع قواها من جديد بل وتحتل مركز الصدارة . وتكمن طرافة هـذا النمط فى تشبثه الشديد بتقاليده الأدبية فهنا يتمم المصنفُ المصنفَ السابق عليه بل وقد يقتصر أحياناً على مجرد إدخال تجديدات بسيطة عليه . وفى القرن السادس عشر أى تحت سلطان العثمانيين كان هذا النمط أكثر أنماط الأدب الجغرافى قرباً إلى نفوس القراء .

وقد أبصرنا من قبل ، وذلك خلال فحصنا للآثار المحلية المرموقة ، كيف انعكس هذا الاهتمام بالجغرافيا الإقليمية لدى مؤرخ الشام فى القرن الثالث عشر عز الدين بن شداد الذى يحمل الجزء الثانى من مصنفه فى بعض الأحيان عنواناً قائماً بذاته هو « محاسن إقليم دمشق » كأنما ينوه بذلك إلى محور اهتمامه الرئيسى . ويمثل هذا النمط فى القرن الخامس عشر بصورة أكثر جلاء مصنف عبد الله بن محمد البدرى الدمشقى[٤٩] ولو أن قيمته الأدبية ليست بالكبيرة ؛ ونحن لا نعلم شيئاً عن المؤلف نفسه سوى أنه أتم مصنفه حوالى عام ٨٨٧ هـ = ١٤٨٢[٥٠] وأن له مصنفات أخرى يرجع تأليفها إلى الربع الأخير من القرن الخامس عشر وأن تاريخ وفاته ينسب أحياناً إلى عام ٩٠٩ هـ = ١٥٠٣[٥١] ، ويوجد أساس قوى للاعتقاد بأنه أمضى شطراً طويلا من حياته بدمشق وعرفها معرفة جيدة لأن هذا ينعكس بجلاء من تضاعيف مصنفه « نزهة الأنام فى محاسن الشام » | الذى اجتذب أنظار العلماء منذ عهد دى ساسى[٥٢] وكاترمير[٥٣] 497 بفضل مخطوطته الباريسية ، كما وأن المستشرق الفرنسى سوڤير Sauvarie نشر مقتطفات منه مترجمة إلى الفرنسية[٥٤] . وقد ظهر الكتاب فى طبعة قاهرية منذ عهد ليس بالبعيد[٥٥] ؛ وتوجد له مخطوطة جيدة بمكتبة معهد الدراسات الشرقية[٥٦] .

يقدم لنا المؤلف فى كتابه هذا وصفاً لمشاهد دمشق الجديرة بالاهتمام ، أو كما يعبر هو بلفظه الخاص « محاسن » دمشق ، وللمواضع القريبة منها ؛ وفيه يعالج الكلام على مساجدها المختلفة وحماماتها ومتنزهاتها كما لا يهمل الحديث عن قراها ومواضعها المشهورة بأزهارها ونباتها وأشجار فاكهتها . وفيما يتعلق بالمجموعة الأولى فهو يورد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية أما فيما يتعلق بالثانية فيفصل أحياناً الكلام على طرق جمعها ووسائل تسويقها . ويختتم المؤلف كتابه بالكلام عمن عاش بدمشق من الصحابة ومشاهير الرجال وعن مقابرها وجباناتها وما بها من قبور معروفة . أما توزيع مادة الكتاب فغير متجانس ويلوح أن المؤلف قد افتتن بصورة خاصة بالأشجار والأزهار والبقول والثمار التى تنمو بدمشق ونواحيها فخصص لهذا ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً ، وهو ينقل عن مصنفات مختلفة فى الطب والنبات ويقدم لنا من وقت

لآخر من التفاصيل مما قد يكون ذا أهمية للمتخصصين[٥٧] . أما أسلوبه الكتابى فلايخلو أحياناً من التكلف وتنتثر فيه الاستشهادات الشعرية وفقاً للموضوع الذى يعالجه ؛ أما تبويبه للمادة فبدائى للغاية وهو يبدأ كلامه دائماً بالصيغة الآتية تقريباً : « ومن محاسن (دمشق) الشام كذا وكذا . . . . »[٥٨] .

ولإعطاء فكرة عن منهجه فى التأليف بل ومنهج غيره نذكر أنه رغماً من إقامته بدمشق ومعرفته الجيدة بها على ما يبدو فإن هذا لم يمنعه فى وصفه لمسجدها الجامع من أن يفضل الرجوع إلى رواية الرحالة الأندلسى ابن جبير[٥٩] التى ترتفع إلى القرن الثانى عشر ؛ وهى ظاهرة كما نعلم موجودة لدى جميع الجغرافيين العرب . ويلوح أن وصف أبى البقاء قد اكتسب بعض الشهرة بالشام فى القرن السادس عشر أفاد منه البصروى[٦٠] عند معالجته لنفس الموضوع ، وسنلتقى بهذا الأخير فيما سيمر من هذا الكتاب .

وإذا حدث وأن لاحظنا بعض الحيوية فى ميدان الجغرافيا الإقليمية فيما يتعلق بدمشق والشام عامة فإنه لا يمكن | مقارنة ذلك بأية حال بالنشاط المفعم فيما يخص فلسطين والقدس بصورة خاصة ، فمن السهل علينا أن نعد فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ليس أقل من عشرة مؤلفين تركوا أحياناً مؤلفات ضخمة فى هذا الميدان . وهذه الظاهرة بطبيعة الحال ليست وليدة المصادفة لأنها تتصل فى الواقع بتقاليد موغلة فى القدم ترتبط بالاتجاهين الحديثى واللغوى للقرنين التاسع والعاشر ، وإلى جانب هذا فقد وجدت فيما يتعلق بفلسطين أسباب خاصة جعلتها فى فترات معينة من التاريخ محط أنظار العالم الإسلامى بأجمعه ؛ وهذا هو السر فى أن مؤلفى هذه المصنفات لم يكونوا من أهل فلسطين أو الشام وحدهما بل كانوا أيضاً من المصريين .

498

ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أن مصر والبلاد المرتبطة بها كانت تقف فى القرون الأخيرة السابقة لخضوعها للعثمانيين على رأس الحركة الرامية إلى تحرير فلسطين والمناطق المجاورة لها من أيدى الصليبيين . وتاريخ هذه الحركة قد تردد صداه فى عدد هائل من الآثار الأدبية ، ويستحق من وجهة النظر هذه بحثاً خاصاً يعالج الفترة بأجمعها منذ عهد صلاح الدين الأيوبى إلى عهد محمد الفاتح . ووجهة النظر الإسلامية فيما يتعلق بفلسطين كانت مشابهة كل الشبه لوجهة النظر المسيحية التى تشكلت وأخذت قالبها فى عهد الصليبيين فقد انبعث أدب دعاية ذو أصالة كبرى انصبت فكرته فى أن فلسطين بل وجميع أرض الشام إنما هى أرض المعاد بالنسبة للمسلمين لاينازعهم فى شرعيتها أى منازع . ولم تلبث مقابر الأنبياء القديمة الموجودة بها وأيضاً المعابد والمساجد العتيقة أن اكتسبت قداسة لاتفوقها سوى قداسة مكة والمدينة ؛ وفى العصور المتوسطة الأخيرة أصبح الحج إليها فريضة كالحج إلى مكة ودفع هذا بدوره إلى ازدهار المؤلفات المرتبطة بها والتى احتيج إليها لأغراض الدعاية من جهة وأغراض تعريف المسلمين بتلك البلاد نفسها من جهة أخرى .

وكان الدعاة يشيرون دائماً إلى أنه يجب ابتغاء مرضاة الله بزيارة تلك البلاد وإنفاق الصدقات على المؤسسات الموجودة بها كمؤسسات العبادة وفعل الخير والعلم . . . .

ولم تقم الدعاية على استثارة العواطف الدينية فحسب بل إن العلماء قد اهتموا أيضاً بتوضيح جانب آخر دنيوى يتعلق بفلسطين فأخذت تتشكل وتنمو الفكرة القائلة بأن الشام تمتلك تسعة أعشار ثروة العالم بأجمعه ؛ ولا يخفى ما تسوق إليه مثل هذه الأفكار من التزامات نفسية معينة فقد أحس المسلمون بأن عليهم أن يرتحلوا إلى تلك البلاد لا خضوعاً لتلك العواطف الدينية وحدها بل وأيضاً ليستغلوا خيراتها لأنفسهم ولغيرهم سواء فى مجال التجارة أو الزراعة . ولعله لم يكن من قبيل الصدفة أن يولى أبو البقاء مثل ذلك الاهتمام لأزهار وفاكهة وادى دمشق مبيناً فى ذات الوقت ما يلقاه كل منها من إقبال فى البلدان الأخرى وفى أى صورة كان ذلك .

499 وجميع هذا الأدب الجغرافى ذو الطابع الدعائى وما اصطبغ به من أغراض دينية أو دنيوية | قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً على جميع مراحل تطوره بنمو الحركة التى أطلقنا عليها اسم حركة « التحرير » . وترجع بداية هذه الحركة إلى عهد صلاح الدين الأيوبى أو إلى ما قبل ذلك بقليل حينما مر ما يقرب من مائة عام على وجود بيت المقدس فى أيدى الصليبيين (٤٩٢ هـ – ٥٨٣ هـ = ١٠٩٩ – ١١٨٧)[٦١] وتنتهى الفترة الأولى لهذه الحركة باسترداد المسلمين لعكا وطرابلس فى عام ١٢٩١ . أما الفترة الثانية منها فتصل إلى عام ١٣٧٥ عندما قضى المماليك على مملكة أرمينيا وضموها إلى مصر فوجدوا بذلك أنفسهم وجهاً لوجه مع الأتراك العثمانيين الذين كما اكتشف المماليك بالتالى لم يكونوا أقل حماساً دينيا منهم أو ضراوة فى القتال . وقد كانت أنظار المماليك معلقة بحوض البحر الأبيض المتوسط حيث توقعوا على الدوام خطر الغزو من أوروبا يهدد سواحل مصر والشام لذا فإن الفترة الثالثة والأخيرة لحركة « التحرير » الإسلامى ضد الصليبيين تبدأ بالعمليات الحربية الموجهة ضد جزيرة قبرص فى عام ١٤٢٤ والتى ربما كانت بمثابة انتقام من الصليبيين لتخريبهم الإسكندرية فى عام ١٣٦٥ ، وتنتهى هذه الفترة بحملة المماليك الفاشلة للاستيلاء على جزيرة رودس حيث التقوا هناك بالأتراك العثمانيين الذين كان يحدوهم نفس الأمل . وحتى هؤلاء الأخيرين لم يحالفهم التوفيق بالإستيلاء على الجزيرة إلا فى عام ١٥٢٢ بالرغم عن أن عملياتهم العسكرية ضدها ترجع بصورة جدية إلى منتصف القرن الخامس عشر[٦٢] .

أمام هذه التحديدات الزمنية التى بيناها بوضوح كاف يضحى أكثر فهماً لنا سبب النمو غير العادى الذى تمتع به الأدب الجغرافى عن فلسطين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالذات . ولا يجب بأية حال الاعتقاد بأن هذا الأدب يرجع فى نشأته إلى هذين القرنين إذ أنه يرتبط فى الواقع بتقاليد أدبية ضاربة فى القدم سنضطر إلى الوقوف على لحظات معينة منها ؛ وقد كشفت هذه التقاليد عن استعداد غريب للاستمرار والتماسك وسنرى كيف اشترك أحياناً علماء من أسرة واحدة أو من مدرسة واحدة فى معالجة موضوع واحد ، كما سنتبين كذلك النزعة للاحتفاظ بعنوان واحد لعدد من المصنفات . ومما يؤسف له أن ما يتميز به هذا الأدب من ناحية الكم لا تعادله ميزاته من ناحية الكيف فهو أدب نقلى بكل ما يحمله

هذا اللفظ من معنى ، وبهذا نرى لزاماً علينا الاقتصار على تلك المصنفات المبكرة التى هى بمثابة الأساس فى بنائه والتى تعتبر أنموذجاً للمؤلفات التى أعقبتها . وسنرى فيما يلى كيف أن هذا الطابع النقلى يغلب تماماً بحيث نلتقى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بمصنفات متشابهة يكرر بعضها البعض بصورة يمكن اعتبارها معها مسودات متعددة لمؤلف واحد ؛ وتكمن قيمة هذه المؤلفات فى المادة التى تحويها والتى تنتظم أحياناً مدى واسعاً فلا تقتصر على الموضوعات التى تمس الأغراض التى لفتتنا النظر إليها بل تعالج إلى جانب ذلك مسائل هامة بالنسبة لنا من مجال التاريخ والجغرافيا بل ومن مجال الآثار والطبوغرافيا أحياناً .

هذا الأدب الواسع المدى لم ينشر منه إلى الآن إلا جزء ضئيل للغاية ، كما أن ما أخضع منه للدراسة أقل من ذلك بكثير . وبالرغم من أن نقاط معينة منه قد اجتذبت أنظار العلماء الأوروبيين أكثر من مرة إلا أنه لم تعمل حتى الآن محاولة لتقديم عرض موجز له تأخذ فى حسابها الاعتبارات التى أشرنا إليها منذ قليل 500 ؛ وقد مس هذه المسائل فى بداية القرن التاسع عشر وذلك فى بحث له عن مؤلف من أهل القرن الخامس عشر العلامة الدنمركي الشاب لمنغ Lemmnig (١٨١٧) ، وفى بداية القرن العشرين فقط تمكن المستشرق الروسى مدنيكوف Mednikiov (١٨٩٧ — ١٩٠٣) وذلك فى تحليله لآثار ثلاثة من مؤلفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أن يلقى ضوءاً ساطعاً على المسألة المتعلقة بمصادرهم وبعلاقتهم ببعضهم البعض[٦٣] . وقد تجمعت منذ ذلك الوقت مادة ضخمة فى هذا الميدان ولو أن تحليلها لم يتقدم فى جوهره بأبعد من النتائج التى وصل إليها مدنيكوف .

ومن خصائص هذا الأدب « الفلسطينى » ، وذلك فى الفترة الأولى التى ترتفع إلى عهد سابق لعهد صلاح الدين ، أن فلسطين نفسها لاتنال فيه أهمية مستقلة بل تدخل ضمن الشام التى احتلت فيه المكانة الأولى . ومصنف أبى الحسن على الربعى الذى تم تأليفه حوالى عام ٤٣٥ هـ ١٠٤٣ يحمل عنوان « الاعلام بفضائل الشام ودمشق وذكر ما فيهما من الآثارات والبقاع الشريفة »[٦٤] ؛ وإذا لم يكن من المعروف لنا أنه قد رجع إليه المتخصصون فى الأدب « الفلسطينى » كبرهان الدين الفزارى من أهل القرن الرابع عشر أو كشمس الدين السيوطى من أهل القرن الخامس عشر[٦٥] لما استبان لنا من عنوانه أن الكلام يدور فيه عن فلسطين كذلك . وفى الفترات التالية من تطور هذا الأدب تبدأ القدس فى التمتع بحقوقها كاملة من حيث العناوين شأنها فى هذا شأن دمشق ؛ وخير مثال لهذا مؤلف نال الصيت فيما بعد وهو أبو المعالى المشرف بن المرجى بن إبراهيم المقدسى[٦٦] وليس لنا علم بالزمن الذى عاش فيه وقد حاول عبثاً مجير الدين[٦٧] فى القرن الخامس عشر أن يثبت تاريخ الفترة التى عاش فيها ولكنه لم يوفق فى ذلك ؛ غير أنه من الممكن إرجاعه إلى نهاية القرن الخامس الهجرى أى الحادى عشر الميلادى لأن ثمة إشارة وردت لدى ياقوت تفيد بأنه كان معاصراً لمكى بن ريان الذى قتل عند استيلاء الصليبيين على

بيت المقدس[٦٨] . ويحمل مصنف المقدسى عنوان « فضائل البيت المقدس والشام » ، ولايزال معروفاً إلى هذه اللحظة فى مخطوطة فريدة موجودة بتيبنغن Tübingen . ويبدأ العرض بتاريخ موجز لبيت المقدس القديمة وفتح العرب لها فى عهد عمر وبناء عبد الملك فى الحرم[٦٩] ؛ ويلى هذا الكلام على فضائل القدس وفضل الصلاة فيها ؛ وينصب العرض فى جوهره على سرد الأحاديث النبوية التى قيلت فى فضل القدس وهو منهج اكتسب رواجاً كبيراً لدى المؤلفين التالين فنسج على منواله برهان الدين الذى مر ذكره للتو وابن عساكر (الابن)[٧٠] وأحمد 501 المقدسى[٧١] . وأخيراً نلتقى بالعنوان منفرداً قائماً بذاته على هيئة « فضائل بيت المقدس » ، وذلك فى حوالى عام ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ لدى أبى بكر بن محمد بن أحمد الواسطى وهو أيضاً من المؤلفين الذين ورد ذكرهم لدى مجير الدين الذى لم يستطع التثبت من الزمن الذى عاش فيه على وجه الدقة[٧٢] .

هذا وقد حافظ الأدب « الفلسطينى » لأسباب مفهومة لنا كل الفهم على ازدهاره الأول إلى ما بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس واسترجاعها على يد صلاح الدين ، وأخذت طرفاً فيه أحياناً شخصيات كبرى كالمؤرخ الداعية المشهور أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (توفى فى عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠)[٧٣] . وإن نشاط دعوته التى نالت الحظوة لدى الجماهير حتى خرجت أحياناً إلى الشوارع ليساعدنا على تفهم الأسباب التى حدت بمثل هذا الرجل ليجعل من فلسطين موضوعاً لخطبه ولماذا اعتبرت أحياناً رسالته « فضائل القدس » مجرد فصل من مصنفه الكبير « مثير الغرام إلى ساكنى الشام[٧٤] » . ومما يثبت أن الأدب الجغرافى من هذا الطراز كان يرتبط ارتباطاً فعلياً بالدعوة « التحريرية » التى لم تقف عند حد القول فقط بل خرجت أحياناً إلى حد الفعل حادث صغير فى حياة سبطه وتلميذه الذى نال الشهرة أكثر منه أعنى المؤرخ سبط ابن الجوزى (توفى عام ٦٥٤ هـ = ١٢٥٧) ؛ فهو لم يكتف بدعوة أهل دمشق إلى جهاد الفرنجة بل اشترك بنفسه على رأس حملة عسكرية موفقة على مدينة نابلس[٧٥] . وبعد قرن ونصف من هذا كان مصنف ابن الجوزى من مصادر رسالة مماثلة لكاتب كبير هو تاج الدين عبد الوهاب السبكى[٧٦] .

وفى وقت واحد مع ابن الجوزى وذلك فى الحد الفاصل بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر يأخذ طرفاً فى الأدب « الفلسطينى » اثنان من أسرة دمشقية اشتهرت بمؤرخيها هى بنو عساكر . وأحدهم وهو القاسم بن عساكر (توفى فى عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣) ابن لصاحب معجم السير المشهور[٧٧] وقد سلك سبيل والده فاشتغل بالوعظ بدمشق وزار القاهرة والقدس حيث قرأ فى عام ٥٩٦ هـ = ١٢٠٠ مصنفه عن المسجد الأقصى[٧٨] . ومن الممكن أن نتصور ما تمتعت به مثل هذه الموضوعات من رواج ولما ينقضى على تحرير المدينة من أيدى الصليبيين أكثر من عشرين عاماً . واسم مصنفه هو « الجامع المستقصى فى فضائل 502 المسجد الأقصى » ؛ وكان من مراجعه أبوالمعالى المشرف[٧٩] الذى مر ذكره تواً ؛ كما أنه لايوجد

شك فى أن ابن عساكر أفاد من مؤلفات أبيه وهذا من شأنه أن يرفع من قيمة كتابه لأن الأب اشتهر بأمانته العلمية[٨٠] . هذا المصنف لابن عساكر الابن الذى لم يصلنا حتى فى المخطوطات قد تمتع بانتشار واسع وساعدت شهرة الأب فى أنه لم يكن من النادر نسبة المصنف إليه فى الأدب العربى ولدى الدوائر العلمية الأوروبية المبكرة ، ولكن يلوح أن اسم المؤلف الحقيقى قد ثبت الآن بصورة نهائية . ويوشك هذا المصنف أن يكون المصدر الأساسى لجميع من عالجوا الكتابة عن القدس إلى جمال الدين المقدسى فى القرن الرابع عشر [٨١] ؛ وقد استعمله على حد سواء كل من الفزارى[٨٢] والسبكى[٨٣] .وكما هو تقليد أسرتهم فقد شغل بنفس الموضوع أيضاً ابن عمه أمين الدين أحمد بن محمد الذى تقتصر معرفتنا بمصنفه «كتاب الأنس بفضائل القدس[٨٤] » أيضاً على ذكر الآخرين له ونقلهم منه . وهو قد قرأ مصنفه بدمشق فى عام ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦[٨٥] ويبدو من النقول أنه قد اعتمد فيه اعتماداً أساسياً على مصنف ابن عمه المشار إليه[٨٦] ، كما كان هو بدوره مصدراً للسبكى[٨٧] .

وإذا كانت الفترة الأولى لازدهار هذا الأدب الدعائى بفلسطين والشام ترتبط كما رأينا بمصير بيت المقدس وحروب صلاح الدين فإن الفترة الثانية الواقعة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر والتى تعتبر أكثر إنتاجاً فى هذا الميدان يمكن أيضاً تحليلها على ضوء وقائع من تاريخ حركة « التحرير » ، فتحرير الشام جميعها باستيلاء المسلمين على عكا وطرابلس فى عام ١٢٩١ قد خدم كثيراً قضية هذا الأدب ؛ ومما يثبت وجود صلة لهذا الأدب بمسائل الجدل والخلاف (Polemics) ضد الفرنجة أن بداية القرن الثالث عشر قد شهدت وصول الرسالة المسماة « بالمسائل القبرصية » إلى الشام وهى التى أخذ طرفاً فى تفنيدها لا الفقيه المشهور ابن تيمية وحده بل وأيضاً الكوزموغرافى الدمشقى كما نذكر جيداً[٨٨] . ومما يقف دليلا على حيوية هذا الاهتمام أن مخطوطات بعض مصنفات ذلك العصر قد حفظت إلى أيامنا هذه . 503

وأول مؤلفى القرن الرابع عشر من الناحية الزمنية هو برهان الدين إبراهيم بن الفركاح (توفى عام ٧٢٩ هـ = ١٣٢٩[٨٩]) الذى مر بنا اسمه أكثر من مرة ، وقد اشتغل بالتدريس بدمشق وزار مصر وتخصص إلى حد ما فى هذا الأدب الذى كرس لفلسطين كما يبدو من اثنين من كتبه حازا رواجاً لدى الجمهور أكثر من غيرهما . وأحد هذين الكتابين على ما يلوح ليس سوى تنقيح لكتاب الربعى الذى مر بنا الكلام عليه بل ويحمل نفس عنوانه وهو « الأعلام بفضائل الشام »[٩٠] ، وأما الكتاب الثانى والذى نال انتشاراً أكثر من سابقه فيحمل عنوان « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » ويوجد فى « عدد كبير من المخطوطات ؛ وقد قام دى غين De Guignes بتحليل محتويات المخطوطة الباريسية منذ عام ١٧٩٠[٩١] . ويبدو لنا من عنوان الكتاب نفسه أن الأمر لايتعلق بمصنف فى تاريخ القدس أو جغرافيتها بل بضرب من الدعاية الصريحة إلى زيارة ذلك المركز الدينى حتى يفوز العبد بحسن المثوبة والمكافأة فى الدار

الأخرى ؛ ولهذا السبب فإن الكتاب يحمل طابعاً شاعرياً* لايمكن إنكاره هذا إلى جانب فقرات معينة من تاريخ تغلب عليه الأسطورة[٩٢] ، ولو أنه لا يخلو من معطيات ذات قيمة من مجالى الجغرافيا التاريخية والآثار المختلفة . وهو يقع فى ثلاث عشرة فصلا[٩٣] تبدأ من لحظة بناء المسجد الأقصى ويتخلل العرض شواهد دينية فى فضل الحج إلى المسجد الأقصى والصلاة فيه وما فى الحج من بيت المقدس إلى مكة من مزايا وفى أهمية الزكاة فى بلد كبيت المقدس . وبعض فصول الكتاب تتناول الكلام على تفاصيل معينة من المسجد وبعض مواضع القداسة الأخرى بالمدينة ، أما الفصل الأخير فيعالج الكلام على فضائل الخليل (حبرون) التى ستنال كما سنرى اهتماماً خاصاً بها ومفرداً لها . ومما لاشك فيه أن الكتاب لايتمتع بأية أصالة فقد اعتمد المؤلف اعتماداً أساسياً على ابن عساكر وأبى المعالى[٩٤] ، بل هو نفسه لايخفى ذلك إذ يصرح فى مقدمة الكتاب بأنه قد اعتمد قبل كل شىء على المؤلف الأول وأقل من ذلك على الثانى[٩٥] . وقد أصبح مصنفه بالتالى مصدراً لعدد من المؤلفين الآخرين نخص بالذكر منهم السبكى[٩٦] .

ومن بين جميع الجغرافيين الذين تخصصوا فى المسألة الفلسطينية من منتصف القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر يسترعى النظر بشكل خاص ثلاثة هم المقدسى والسيوطى ومجير الدين العليمى ؛ وهؤلاء الثلاثة بالذات هم الذين رأى | أن يوجه إليهم عناية خاصة فى مصنفه الكبير لنهاية القرن التاسع عشر 504 وبداية القرن العشرين المستشرق الروسى مدنيكوف N. A. Mednikov ؛ ومما يؤكد صواب مدنيكوف فى هذا الاختيار أن واحداً من خيرة المتخصصين فى جغرافيا فلسطين وهو المستشرق الألمانى هارتمان R. Hartmann[٩٧] قد وصل إلى نفس هذه النتيجة مستقلا عنه ؛ ونحن بدورنا لا نستطيع إلا أن نترسم خطاهما . غير أنه يوجد إلى جانب هؤلاء الثلاثة مؤلفون من الدرجة الثانية (dii minorum gentium) ؛ وهؤلاء بدورهم لا نستطيع إسقاطهم فى عرض عام كهذا يتوخى الشمول ولكننا سنقف عندهم بإيجاز شديد . ومما يزيد فى صعوبة دراسة هؤلاء المؤلفين أنه لم يطبع من بين مؤلفاتهم سوى مصنف مجير الدين وذلك فى طبعة لاترضى مطالب النقد العلمى .

وأول هؤلاء الثلاثة يدعى أحمد بن محمد المقدسى (توفى فى عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٤)[٩٨] ، ولقبه مختلف عليه ولكن مدنيكوف يفضل جمال الدين[٩٩] . وهو لم يكن فلسطينى الأصل فحسب بل إنه يسوق نسبه إلى صحابى جليل هو تميم الدارى[١٠٠] بطل واحدة من أغرب الرحلات الأسطورية فى الأدب الجغرافى العربى ، وقد حدث أن عالجنا الكلام عليه فى الفصل الأول من كتابنا هذا ؛ ولعل مؤلفنا اعتمد على ما تواتر لدى أسرته من أخبار تميم فوضع كتاباً بعنوان «إفحام المارى بأخبار تميم الدارى»[١٠١] ، ويبدو من هذا العنوان أن المؤلف قصد بالكتاب إثبات حقيقة تلك الرحلة . وقد اشتغل المقدسى بالتدريس

* من المحتمل أن هذه غلطة مطبعية فى الأصل الروسى وأن المؤلف إنما أراد أن ذلك الكتاب إنما يحمل طابعاً تديلياً (Piety) وليس شاعرياً (poetical) . (المترجم)

لمدة طويلة بالقدس ولكنه توفى بالقاهرة ، ويحمل مصنفه الذى أتمه فى عام ٧٥٢ هـ = ١٣٥١[١٠٢]عنوان « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » وهو معروف إلى الآن من مخطوطاته فقط ومن المقتطفات التى نشرها لوسترانج Le Strange[١٠٣] والتى اعتمد عليها مدنيكوف فى وضع ترجماته الروسية[١٠٤] ؛ ومما يؤسف له أن الدراسة المسهبة التى قام بها كنيغ König « لمثير الغرام » لم تر النور بأكملها . والكتاب ينقسم إلى قسمين الأول فى فضائل الشام وفلسطين عامة والثانى فى فضائل المسجد الأقصى خاصة وفى سير بعض الشخصيات التى ارتبط اسمها به : وتقدم ترجمات مدنيكوف فكرة واضحة عن القسم الثانى بإيرادها لقطع مهمة من الفصول الخامس والسادس والسابع ، ويتضح من مضمون الكتاب أن المقدسى قد سار على تقاليد المصنفات التى تجمع فى مجال واحد بين فلسطين والشام بحسب ما بينا هذا فيما سبق من كلامنا .

505 والكتاب بالطبع ليس مصنفاً تاريخياً جغرافياً بالمعنى الذى يفهم عادة من هذا بل هو مصنف لرجل من رجال الدين كان هدفه الأول كما بين كنيغ[١٠٥] هو الدعوة إلى الحج ، وهو فى هذا لايختلف عن بقية المؤلفات التى نعالج الكلام عليها الآن بل يمثل حلقة فى سلسلة تطورها . وأهميته ضئيلة من ناحية المصادر التى اعتمد عليها لأنه يستقى مادته من مصادر ثانوية[١٠٦] هى مصنفات المؤلفين الذين مر بنا الكلام عليهم للتو ؛وهو يرتبط ارتباطاً أوثق بابن عساكر الذى يعتبر مصدره الأساسى[١٠٧] ولكنه ينقل أيضاً بشكل ملحوظ من أبى المعالى المشرف[١٠٨] وأبى بكر الواسطى[١٠٩] . وبنفس هذا القدر اعتمد عليه الأدباء التالون له فعرض السيوطى يتفق معه فى معظم الأحوال[١١٠] بينما ينقل مجير الدين تسعة أعشار مادته عن المقدسى بالحرف الواحد[١١١] . وقد نال المصنف فى مجموعه بعض الرواج ، ويوجد له مختصر يرجع إلى نهاية القرن الرابع عشر ومعروف فى إحدى المخطوطات[١١٢] .

وابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع عشر نبصر أن المسائل الفلسطينية لم تعد وقفاً على أهل الشام وحدهم أو أصحاب الجغرافيا والطبوغرافيا ، ويمكن أن نقدم مثالا لقولنا هذا الفقيه الكبير محمد بن بهادور التركى المصرى الزركشى (توفى فى عام ٧٩٤ هـ = ١٣٩٢)[١١٣] الذى يمكن الاستدلال على أصله وموطنه من اسمه هذا . وقد تلقى تعليمه بالقاهرة ودمشق وحلب ، ولعل إقامته بالشام هى التى أثارت فى نفسه الاهتمام بالمسائل المحلية ولو أنه يبدو أن فهمه لها كان قائماً على إلمام واسع . وإلى جانب مؤلفاته الفقهية العديدة توجد له رسالة بعنوان «إعلام الساجد بأحكام المساجد » وهى معروفة فى عدد قليل من المخطوطات[١١٤] ولكن بما أن معاصره السبكى قد رجع إليه كثيراً فى مصنفه عن فلسطين[١١٥] فمن الجلى أن القدس قد فازت بمكانة كبرى فى تلك الرسالة .

والسبكى هو تاج الدين عبد الوهاب من مواليد القاهرة ، ولكنه اشتغل بالتدريس بدمشق وبها توفى فى عام ٧٧٦ هـ = ١٣٧٠[١١٦] . وقد نال كسابقه شهرة عريضة كفقيه مع ميل واضح إلى التاريخ . 506 انعكس فى مصنفه الكبير عن طبقات الشافعية . أما مؤلفه عن فلسطين فيمكن تحديد موضوعه

من العنوان وهو « الروض المغرس فى فضائل البيت المقدس » ؛ ولاعلم لنا بوجود أية مخطوطات له ، كما أن حاجى خليفة يشير إليه إشارة عابرة فى كلامه عن « الاتحاف » (لشمس الدين السيوطى)[١١٧] . بيد أن العدد الهائل من الاقتباسات المنقولة عنه فى أدب « فلسطين » يسمح لنا دون تردد بتحديد موضعه فى سلسلة المؤلفات التى نعالج الكلام عليها فى هذه اللحظة . أما مصادره فأوسع إذ نلتقى لديه من بين المؤلفين الذين مر ذكرهم بابن الجوزى وابن عساكر وأمين الدين والفزارى والزركشى[١١٨] ؛ كما كان بدوره مصدراً من مصادر « الاتحاف »[١١٩] المار ذكره ومنه وجد طريقه بالطبع إلى مجير الدين وغيره من المؤلفين . وهكذا فبالرغم من أن الكتاب غير معروف لنا معرفة مباشرة إلا أنه لعب دون شك دوره فى هذا الأدب المختص « بفلسطين » ويجب أن يحتل مكانه فى هذه السلسلة من المصنفات .

ونفس هذا الحكم يصدق على المؤلفين التاليين له من الناحية الزمنية رغما من أن مخطوطات مصنفاتهم موجودة فى متناول الأيدى . وكان أحدهما مصرياً أيضاً وهو شهاب الدين أحمد بن محمد الأقفهسى المصرى (توفى فى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥) واشتهر أيضاً بمؤلفاته الفقهية كالزركشى ولو أن شهرته لم تبلغ شهرة الأخير . ومؤلفه عن فلسطين ذو طابع عام على ما يبدو ويحمل عنوان « تسهيل المقاصد لزوار المساجد » وقد أتمه فى عام ٧٨٦ هـ = ١٣٨٤ وتقابل مخطوطاته فى الشرق بين آن وآخر ولكنها نادرة بأوروبا[١٢٠] ؛ وهو معروف لنا بشكل خاص بوصفه مصدراً من مصادر « الإتحاف » التى يذكرها السيوطى فى مقدمة كتابه[١٢١] وهذا يجعلنا نفترض أن فلسطين قد احتلت أهمية خاصة لديه . أما المؤلف الثانى فكان أيضاً من بين المتخصصين فى المسائل الفلسطينية وعاون على ذلك مكان إقامته ، فإسحاق بن إبراهيم التدمرى الخطيب الخليلى (توفى فى عام ٨٣٣ هـ = ١٤٢٩)[١٢٢] أصله من تدمر كما تشير نسبته ولكنه عمل خطيباً بمسجد الخليل وهى حبرون القديمة التى اشتهرت بين المسلمين بمقام إبراهيم الخليل . ويحمل مصنفه العنوان التقليدى « مثير الغرام فى زيارة الخليل عليه السلام » ، وفيه يتحدث المؤلف عن هذا المقام المعروف له جيداً والذى كان على ما يبدو موضوعاً لخطبه ومواعظه بالمسجد . ومن الجلى أن الكتاب ينتمى إلى طراز أدب الدعاية القائم على أساس تاريخى جغرافى مع قدر معين من التخصص ؛ ولاشك أن مكانة حبرون الخليل لدى المسلمين تبرز بوضوح تام السبب فى احتلالها مركزها إلى جانب بيت المقدس . وهذا الأثر الذى تم تأليفه فى عام ٨١٤ هـ = ١٤١١ قد تمتع بشهرة كافية فى أوساط المتخصصين فى الشئون الفلسطينية ، إذ أمكن القول بهذا ؛ فقد ذكره السيوطى بين مصادره[١٢٣] كما عرفت مخطوطات له تضم زيادات إلى القرن السابع عشر[١٢٤] ؛ أما فى أوروبا فإن مخطوطاته نادرة للغاية ولهذا السبب فإن استعمال العلماء الأوروبيون له قد اقتصر على الشذور المتفرقة التى نقلها منه المؤلفون التالون له .

واثنان من بين هؤلاء الأخيرين اللذين ارتأينا أن نختتم بهما هذه السلسلة قرب نهاية القرن الخامس عشر كانا أغزر مادة من غيرهما وأوسع ذكراً فى الأدب الأوروبى عن فلسطين ؛ وقد التقينا مراراً بمصنف أحدهما فى الصفحات السابقة لهذه لما له من فضل فى حفظ معلومات ذات أهمية نقلها عن كتب لم تصل

507

إلينا وعنوانه الكامل هو « إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى » ؛ ورغماً من وضوح العنوان ودلالته ووجود عدد من مخطوطات الكتاب إحداها بمعهد الدراسات الشرقية (رقم B 1037)[١٢٥] فإنه يوجد جدل كبير حول شخص مؤلفه[١٢٦]. فقد نسب الكتاب أحياناً ، كما لدى حاجي خليفة وفي بعض المخطوطات ، إلى كمال الدين محمد بن أبي شريف (توفي في عام ٩٠٦ هـ = ١٥٠٠) ، وأحياناً أخرى ، 508 وذلك بسبب اختلاط الأسماء إلى العلاقة الكبير جلال الدين السيوطي . غير أنه اعتماداً على أقدم مخطوطاته المؤرخة فإنه يوجد أساس قوى لنسبة الكتاب إلى شمس الدين محمد بن أحمد السيوطي ؛ وقد مال إلى هذا الرأى مدنيكوف ويمكن القول بأنه ثبت نهائياً في الآونة الأخيرة[١٢٧] . ولا نعلم عن سيرة حياته إلا ما يمكن استجلاؤه من صفحات كتابه ، أما نسبته فتشير إلى أنه من مصر التي أمضى فيها سنى شبابه يحلم بالضرب في الآفاق ؛ وكانت أسهل وسيلة في ذلك الزمان لتحقيق هذا الهدف هي أداء فريضة الحج فني عام ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ نراه بمكة حيث أمضى تسعة أعوام رجع بعدها إلى مصر . وقد اضطر مراراً إلى تأجيل حجته إلى فلسطين التي كانت تشوقه بصورة خاصة ، وأخيراً في عام ٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ تمكن من السفر إلى بيت المقدس وماكاد يجد نفسه بها حتى بدأ مباشرة في تدوين مؤلفه الذى فرغ منه في عام ٨٧٥ هـ — ١٤٧٠ . ويمكن إرجاع الاختلاف الواضح بين مخطوطات كتابه إلى أن المؤلف قد أجرى قلمه فيه بالتعديل حوالى عام ٨٨٠ هـ = ١٤٧٦ فكان ذلك بمثابة إخراج طبعة ثانية للكتاب إذا جاز هذا التعبير الحديث . وهو وإن كان في جوهره تاريخاً ووصفاً لمسجد القدس كما يؤكد ذلك عنوانه إلا أن فصوله الثمانية أبعد من أن تقتصر على ذلك الموضوع الضيق وحده[١٢٨] ؛ وكما هو الحال مع غيره فإنه توجد به فصول في الدعاية الصرفة تدعو إلى زيارة فلسطين وإلى إنفاق الصدقات في المواضع المقدسة بها ، كما توجد به أقسام مخصصة للقصص الإسلامية المرتبطة ببيت المقدس كالإسراء والمعراج . وهو يتحدث بإسهاب عن الرسل المختلفين أو مشاهير الرجال الذين أقاموا بفلسطين ، كما وأنه يولى عناية خاصة لتاريخ إبراهيم الخليل وإقامته ببلاد العرب مع ابنه إسماعيل ، ولاشك أن معرفته بالحجاز قد أعانته على اختيار مادته لهذا الموضوع . أما أنبياء التوراة (العهد القديم) فيعرض تاريخهم عن طريق توضيح الأسطورة من الناحية الجغرافية ومن ثم فإنه يفرد أقساماً مسهبة للكلام على حبرون وقبر موسى ومسجد دمشق كما لا يهمل الكلام عن آثار ومواضع الشام المشهورة في الفصل الثانى عشر والأخير من كتابه . من هذا يتضح لنا أنه حتى في مصنف مثل هذا ترتبط فلسطين ارتباطاً وثيقاً بالشام خلال جميع صفحات هذا الأدب الجغرافي الذى يفيض بالدعاية .

ومما يكتسب أهمية خاصة بالنسبة لنا من وجهة نظر التأليف التاريخي (historiography) هو أن المؤلف قد أعطى في المقدمة تحليلا عاماً لمصادره وعرضاً سريعاً لكل الأدب « الفلسطيني » السابق له ؛ وقد حدث وأن أفدنا من عرضه هذا مراراً في كتابة هذا الفصل ، كما وأن لم نغ نقل لعهده معلومات من هذه

509 المقدمة | صححها بالتالى مدنيكوف بعناية تامة[١٢٩]. ويتضح من ألفاظ السيوطى نفسه أن المصادر الرئيسية « للإتحاف » هم المؤلفون الخمسة المعروفون لنا بمؤلفاتهم ، أعنى الربعى والمقدسى بكتابه « مثير الغرام » والسبكى والأقفهسى والتدمرى . غير أن الفحص الدقيق لمصنفه قد أحدث تعديلا أساسياً فى ألفاظه هذه إذ اتضح أن مصدره الرئيسى كان المقدسى قبل غيره ؛ وقد استطاع كينغ عند مقابلته للفصل العاشر من « الإتحاف » الذى نشره لمنغ مع متن « مثير الغرام » أن يثبت أنه من بين الصفحات الاحدى والأربعين تتفق سبع عشرة صفحة اتفاقاً حرفياً[١٣٠]. وإلى نفس هذه النتيجة بالتقريب كانت ستسوقه أيضاً مقابلته مع الترجمة القديمة من عمل رينولدز Reynolds[١٣١] ؛ وإذا حدث وأن امتنع عن إصدار حكم نهائى فى هذا الصدد بسبب رداءة تلك الترجمة فإن أبحاث مدنيكوف[١٣٢] قد ساقت إلى نتائج ليست أقل إدهاشاً من تلك ، فقد اتضح أن جميع القطع التى ترجمها مدنيكوف من « الإتحاف » قد نقلت حرفياً من « مثير الغرام » . وليس من السهل بالطبع القول بأن هذا كله كان من قبيل المصادفة أو وقوع الحافر على الحافر ، ومن ثم فيجب الاعتراف بأنه فى حالات التطابق بين الاثنين فإن السيوطى لم يفعل شيئاً سوى أن قدم لنا نسخة ثانية من كتاب المقدسى . وكما لاحظنا غير ذات مرة فإن مثل هذه الظاهرة تتكرر كثيراً فى سلسلة هذا الأدب عن فلسطين وهى من بعض النواحى لا تخلو من الفائدة لأنها تقدم فرصة طيبة لتصحيح أصول المؤلفات الكبرى عندما يكون متنها فى حال غير جيدة . ومصنف السيوطى رغماً من أنه لايزال موجوداً فى المخطوطات إلا أنه معروف لنا بصورة مرضية عن طريق الدراسات القديمة العهد التى قام بها دى غين De Guignes (١٧٩٠) ولمنغ Lemming (١٨١٧) ورينولدز Reynolds (١٨٦٣) . ثم الأجد منها للسترانج Le Stranges (١٨٨٧) وكينغ König ومدنيكوف Mednikov . أما المؤلف الوحيد الموجود مصنفه فى طبعة شرقية ولو أنها ترتفع فى الواقع إلى عهد قديم (١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦) فهو آخر مؤلف عرفته هذه السلسلة ، أعنى بذلك مجير الدين عبد الرحمن بن أحمد العليمى العمرى (توفى فى عام ٩٢٨ هـ = ١٥٢٢)[١٣٣] الذى يحمل مصنفه عنوان « كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

وكما حدث مراراً فى تاريخ الأدب العربى فقد زحمت الآثار المتأخرة الآثار المتقدمة عليها وطردتها ووصلت إلى متناول الأيدى قبلها ، ونفس هذا القول يصدق على مصنف العليمى ، غير أنه مما أعان على ذلك فى هذه الحالة الأخيرة هو أن المصنف الذى نحن بصدده يعتبر أوسع وأحفل وصف تاريخى طوبوغرافى يعالج الكلام على القدس وحبرون وبقية مدن فلسطين . وهو من حيث طابعه النقلى لايختلف كثيراً عن المصنفات السابقة ، | أما مؤلفه العليمى فأصله من القدس ، ولكنه تلقى تعليمه بالقاهرة ثم تولى منصب 510 القضاء بمدن فلسطين المختلفة . وقد بدأ تأليف كتابه فى عام ٩٠١ هـ = ١٤٩٦ وأتمه فى خلال أربعة أشهر بالتقريب وذلك فى نفس العام ؛ ومثل هذه السرعة فى تصنيف مؤلف كبير الحجم كهذا تدعو إلى الوقوف موقف التحرز من المنهج الذى اتبعه فى التأليف ؛ وهو قد اهتم فيما بعد باكمال القسم التاريخى فساقه إلى عام

٩١٤ هـ = ١٥٠٨[١٣٤] . والكتاب بصفته مصنفاً نموذجياً فى هذه السلسلة يمكن تقسيمه إلى أربعة أقسام : الأول منها فى وصف القدس ، والثانى فى وصف المسجد الأقصى والكلام على مدارس وأديرة فلسطين ومدنها ، والثالث يحوى تراجم السلاطين والعلماء بحسب المذاهب الأربعة ومشاهير القضاة والوعاظ والفقهاء ، أما القسم الرابع فيعالج الكلام على تاريخ الولاة ويختتمه بتاريخ سلطنة قايتباى . ومن هذا يتضح لنا أن الكتاب لايخلو من بعض المزج من حيث موضوعه فهو فى جوهره يرتبط بالجغرافيا الدينية وذلك على طراز الكتب التى تدعو إلى الحج ولكنه من ناحية أخرى يفسح المجال لتاريخ الشعوب على أساس معالجة سير مشاهير رجالها ؛ أما هيكله العام فيعتمد قبل كل شىء على ما نقله من مؤلفين اثنين هما المقدسى صاحب « مثير الغرام » والسيوطى صاحب « إتحاف الاخصاء » . ويلعب الدور الرئيسى بالنسبة له المؤلف الأول حيث تبلغ نقوله عنه فى بعض المواضع إلى ما يمثل تسعة أعشار المتن الأصلى[١٣٥]

ونظراً لوجوده فى عدد هائل من المخطوطات ولأنه من المؤلفات القليلة المطبوعة فقد اجتذب هذا الكتاب أنظار المستشرقين ، وتوجد مخطوطتان له بمعهد الدراسات الشرقية[١٣٦] . وهو معروف فى أوساط المستشرقين منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وقد قدم هامر Hammer مقتطفات منه منذ بداية القرن التاسع عشر لا تتميز كما هو الحال دائماً مع أعمال هذا المستشرق بأية قيمة ذات بال ولو أننا لا نستطيع أن نغمطه حقه فى الأسبقية . ومجير الدين هو المؤلف الوحيد من بين جميع حلقات هذه السلسلة الفلسطينية الموجود كتابه ولو بصورة مختصرة فى ترجمة أوروبية كاملة (١٨٧٦) ندين بها لعالم النُّميّات (Numismatics) والمؤرخ المشهور سوفير Sauvaire الذى أثبت فى غضون عشرة أعوام من هذا أنه خبير كبير بالأدب الطوبوغرافى (الخطط) لمدينة دمشق وذلك فى مؤلف آخر له اعتمد فيه كثيراً على معرفته بالأدب الفلسطينى .

وتقدم فكرة جلية عن جميع هذه السلسلة فى أشخاص ممثليها الثلاثة الكبار تلك المقتطفات التى ترجمها إلى الروسية وعلق عليها مدنيكوف . ومما لاشك فيه أن هذه السلسلة من المؤلفات لا تمثل حدثاً مرموقاً أو جديداً من وجهة نظر التطور العام للأدب الجغرافى العربى ولكنها تعتبر من وجهة نظر التاريخ الحضارى شيئاً طريفاً خاصة على ضوء ظروف الحروب الصليبية ؛ وهى تمثل فى ضخامة عددها 511 واتساع مداها شيئاً متفرداً ترك طابعه الخاص على الأدب الجغرافى لهذه البلاد إلى الفتح العثمانى . وسنبصر فيما بعد تأثير جوانب معينة من هذا الأدب على أدب العصور التالية لذلك .

هذا وقد استمرت الجغرافيا الإقليمية عائشة بالطبع فى الأقطار الأخرى ولكنها حملت فى كل مكان طابعاً فقيراً شاحباً عند مقارنة ذلك بما كان عليه الحال مع الشام وفلسطين . ومن الطريف فى هذه المناسبة أن نذكر أن العلامة اللغوى المعروف الفيروز ابادى (توفى عام ٨١٧ هـ = ١٤١٤) ، الذى ينتمى أصلا إلى شيراز ولكن ضرب فى الآفاق حتى توفى بزبيد فى اليمن[١٣٧] ، قد ترك رسالتين معروفتين من عنوانهما فقط هما « أحاسن اللطائف فى محاسن الطائف »[١٣٨] و« الوصل والمنى فى فضل منى »[١٣٩]

ينتميان دون شك إلى النمط المعروف لنا جيدا وهو نمط « الفضائل » ، ولو أنه من الممكن أن اهتمام المؤلف بالمسائل اللغوية قد ترك طابعه عليهما وأن وجود رباط بينهما وبين نمط المعاجم الجغرافية غير مستبعد . وسيبدولنا هذا بوضوح كبير عند الكلام على « تاج العروس » وهو شرح لقاموس الفيروزابادى يرجع إلى القرن الثامن عشر .

ولم تقدم الأقطار الواقعة إلى الشرق من الشام وفلسطين أية مصنفات ذات قيمة فى مجال الجغرافيا باللغة العربية على مدى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وثمة مسودة معدلة لجغرافيا القزوينى | ترجع 512 إلى تاريخ متأخر ويمكن ربطها بمدينة باكو النائية ، هذا فى حالة إذا ما وجدت أسس قويمة تبرر ذلك بما فيه الكفاية بخلاف اسم المؤلف الذى لا يمكن القول بأن قراءته قد ثبتت بصورة يقينية . فى حوالى عام ٨٠٦ هـ = ١٤٠٣ وضع عبد الرشيد بن صالح بن نورى الباكوى مصنفه « تلخيص الآثار وعجايب الملك القهار»[١٤٠] . ويبدو أنه يختبئ وراء هذا العنوان إشارة خفية إلى مصدره الأساسى « آثار البلاد » للقزوينى . ولانعلم عن المؤلف شيئاً ولو أن نسبته تشير إلى أنه هو أو أسرته على علاقة بمدينة باكو ؛ وكان فرين[١٤١] قد لفت الأنظار إلى أن إحدى مخطوطات مصنف حاجى خليفة تحدد بأنه توفى بالقاهرة ولكن لمّا كان تاريخ الوفاة الذى تورده وهوعام ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ غريباً للغاية فإن هذا يحول دون إعطاء الرواية بأجمعها أى وزن . هذا وقد احتفظ الباكوى بمنهج القزوينى فى توزيع المواضع الجغرافية بحسب الأقاليم ثم توزيعها داخل كل إقليم وفقاً لحروف المعجم ؛ أما مادته فمستقاة بأجمعها تقريباً من القزوينى وهو يخالفه فقط فى إيراده لخطوط الطول والعرض ولو أنه يفعل هذا دون انتظام ويتبع المذهب القديم فى ابتداء حسابه من جزر الكنارى[١٤٢] . وفى مقدمته القصيرة يعرض المؤلف المادة الجغرافية العامة بالطريقة التى عهدنا من قبل فيتكلم عن شكل الأرض والأقاليم السبعة وتوزيع المحاصيل فى عالم الطبيعة[١٤٣] . وفى حوالى عام ١٧٩٠ قدم لنا دى غين De Guignes ترجمة موجزة لجميع محتويات الكتاب معتمداً فى ذلك على المخطوطة الباريزية ، هذا بالرغم من أنه لم يكن آنذاك فى وضع يسمح له بالتعرف على المؤلف . وليس بمقدورنا الآن أن نوافق على تقديره المبالغ للكتاب والذى يمكن تفسيره بعدم معرفة علماء ذلك العهد معرفة كافية بالمصنفات الجغرافية الأخرى للعلماء العرب ؛ مثال ذلك أنه يزعم أن الباكوى يقدم تفاصيل كثيرة عن محصولات البلاد المختلفة وعن سلع التجارة وعن المعادن مما لا يوجد فى مصنفات أخرى[١٤٤] . وعلى أية حال فإن دى غين لم يتنكب الصواب حينما ذكر أن أهمية المصنف هى فى أنه يعطى فكرة عامة عن مدى المعلومات الجغرافية التى كانت تحت تصرف الطبقة الوسطى من القراء فى ذلك العهد[١٤٥] . وفى بحثه عن ابن فضلان الذى رجع فيه مراراً إلى الباكوى بين فرين أنه يمكن استخراج بعض الفائدة من مصنفه حتى ولو اضطر القارئ إلى الرجوع إلى ترجمة غير مرضية كالتى يقدمها دى غين والتى تستلزم بعض الحذر عند استعمالها[١٤٦] . وقد أثبتت الدراسات التى قام بها ياكوب Jacob فيما بعد | أنه توجد 513

تفاصيل ذات قيمة لدى الباكوى حتى مع وجود متن القزوينى بل إنه يمكّن من تصحيح بعض القراءات المغلوطة فى مخطوطات الأخير أو التيقن من صحة المشكوك فيها[١٤٧] . ورغماً من هذا فيجب الاعتراف بأن كتابه ليس سوى حلقة فى سلسلة مختصرى القزوينى ولا يمكن له فى الوقت الحاضر أن يدعى لنفسه أهمية مستقلة ؛ وهو بلاشك قد نال بعض الرواج فى الشرق بل ومن الملاحظ أن عدد مخطوطات ترجمته الفارسية[١٤٨] لا يقل عن عدد مخطوطات الأصل العربى المعروفة لنا .

وجدير بنا ونحن بسبيل وضع خاتمة لهذا الفصل أن نلفت النظر ، كما حدث وأن فعلنا مع بقية الفصول ، إلى أنه توجد إلى جانب ما تورده لنا المصنفات الجغرافية مادة جغرافية متناثرة لدى المؤرخين ؛ ولعلنا لن نتنكب الصواب لو اختصصنا بالذكر من بين هؤلاء أحد أبناء دمشق وهو ابن عربشاه المشهور (توفى فى عام ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠) صاحب سيرة تيمور . فهو فى اقتفائه المتواصل لأثر حياة بطله يسوق مادة ليست بالضئيلة عن مختلف الشعوب والبلدان ، ومما يجعل مادته هامة بالنسبة لنا أنها تمس بلاداً وشعوباً تدخل الآن ضمن الاتحاد السوفيتى . ومادة ابن عربشاه تعتمد فى معظم الأحوال على انطباعاته الشخصية كشاهد عيان وتتمتع بقيمة كبرى كما اتضح من الأبحاث ؛ ولا شك أن أسلوبه المنمق المتكلف هو المسئول الأول على ما يبدو عن عدم وجود ترجمة جديرة به . ويجب بالطبع ألا يغيب عن الذهن أن ابن عربشاه مؤرخ أديب وليس بجغرافى ؛ هذا وسيتبين لنا بعد برهة أن عدداً من أهم المصنفات الجغرافية للقرن الخامس عشر لم يحفظها لنا الأدب العربى بقدر ما حفظها لنا الأدب الفارسى .

حواشي الفصـــل الثامن عشر

(١) Brockelmann, GAL, II, p. 131-132, No 8; SBII, p. 162-163- Mohammed Ben Cheneb Ibn al-Wardi, p. 455 - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 175-176, No 412 - Girgas, Ocherk, p. 212 - Kramers, EI, EB, p. 70 — Reinaud, Introduction, p. CLIV-CLV — Amari (Nallino), I, p. 60, No 26 — Mieli p. 278-279 — Ferrand, Relations, II, p. 408-425 — Mednikov, Palestina. Translation, p. 611-612, 1189-1193 –

(٢) Mohammed Ben Cheneb, Ibn al-Wardi, p. 455 –

(٣) Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 8 –

(٤) شرحه

(٥) De Guignes, Ebn al-Ouardi, p. 20 —Fraehn, Ibn al-Vardi, p. 17 –

(٦) قارن ; Freund, p. 11

(٧) قارن مثلا : Freund, p. 12, note 1

(٨) لدى تورنبرج (Tornberg, Ibn el-Vardi)

ترتيب الفصول كالآتي : القسم الأول ، الفصل الأول ، الثاني ، الخامس ، السادس ، السابع .

(٩) نشر Freund

(١٠) Huart, le livre de la créatian, II, p. VIII –

(١١) حاجي خليفة ، الجزء الثالث ، ص ١٣٢ – ١٣٣ ؛ رقم ٤٦٨٨ استعملت مخطوطة برلين لدى : Tornberg, Ibn el-Vardi. Pars Posterior, p. V-VI, (Text), p. IV-V (translation)

(١٢) Mohammed Ben Chedeb, Ibn al-Wardi, p. 455 –

(١٣) Fraehn, Ibn al-Vardi, p. 20-21 — Tornberg, Ibn al-Vardi. Pars Posterior, p. I-III –

(١٤) Freund, p. 18-19 –

(١٥) Taeschner, Bericht, p. 85 –

(١٦) Tornberg, Ibn al-Vardi, Pars Posterior, p. VI –

(١٧) شرحه ، ص ٧ – ٨

(١٨) Mohammed Ben Cheneb, Ibn al-Wardi, p 455 - Brockelmann, GAL, II, p. 131. Mzik, Ptolemaeus, p. 168, note 30 : راجع أيضا –

(١٩) De Guigres, Ebn al-Ouardi, p. 21 — Fraehn Ibn al-Vardi, p. 23-24 –

— Brockelmann, OAL, II, p. 131 — Kramers, EI, EB, p. 70
(٢٠) – Tornberg, Ibn al - Vardi. Pars Posterior p. III — Freund, p. 19 - 22
(٢١) -- Mednikov, Palestina. Translation, 1189, 1192 - 1193
(٢٢) -- Amari (—Nallino), I, p. 60, No 26
(٢٣) – Mednikov, Palestina. Translation, شرحه
(٢٤) -- Huart, Le Livre de la création, II, p. VIII sui
(٢٥) -- Fraehn, Ibn al - Vardi, p. 22
(٢٦) شرحه ، ص ٤٧
(٢٧) -- Amari (—Nallino), I, p. 60, No 26
(٢٨) -- Taeschner, Bericht, p. 85
(٢٩) – Mzik Ptolemaeus, Taf, VII, cf. p. 168, note 30
(٣٠) – Miller, V, p. 134 - 139; Beiheft, Taf. 73 - 79
(٣١) – Kramers, EI, EB, p. 70
(٣٢) – Miller, V, p. 135
(٣٣) شرحه ، ص ١٣٥ ... ١٣٦
(٣٤) شرحه ، ص ١٣٨
(٣٥) شرحه ، ص ١٣٩
(٣٦) شرحه ، ص ١٥٠ – ١٥١ مع صورتين
(٣٧) -- Brockelmann, OAL, SBII, p. 163
(٣٨) -- Tornberg, Ibn el - Vardi. Pars Posterior, p. XI - XIII – Brockelmann, OAL, II, p. 132; SBII, p. 163 — Taeschner, Geogr. Lit., p. 39
(٣٩) -- Taeschner, Bericht, p. 86 - 87
(٤٠) شرحه ، ص ٨٦
(٤١) شرحه ، ص ٨٦ ... ٨٧
(٤٢) شرحه ، ص ٨٧
(٤٣) -- Hylander, Ibn el Vardi
(٤٤) راجع : Fraehn, Ibn al - Vardi :
(٤٥) -- Tornberg, Ibn al - Vardi - Brockelmann, OAL, II, p. 131, No 8
(٤٦) -- Koehler, Tabulae Syriae ... ex Ibn el Vardi
(٤٧) – De guignes, Ebn al – Ouardi
(٤٨) – Fraehn, Ibn al - Vardi
(٤٩) -- Brockelmann, OAL, II, p. 132, No II; SBII, p. 163
(٥٠) – Ahlwardt, V, p. 394 -- Brockelmann, OAL, II, p. 132, No 11

(٥١) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 163,
ولكن يشير إلى عام ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ (ا) على أنه عام ميلاده . قارن : سركيس ص ٥٤٢

(٥٢) – De Sacy, Relation, p, 574-580

(٥٣) – Quatremère, Histoire d. Sultans Mamlouks, II, p. I, p. 277-285

(٥٤) – Sauvaire, JA, 9, III, p. 254; VII, p. 425-453; notes p. 454-459

(٥٥) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 163 (سنة ١٢٤١ هـ)
عنخوري ، ص ٣٢٧ – ٣٣٠ ، ٣٩٢ – ٣٩٩

(٥٦) – Rosen, Notices Sommaires, p. 185-187, No 239,2

(٥٧) شرحه ، ص ١٨٧

(٥٨) راجع : Ahlwardt, V, p. 393-394,No 6079-6080

(٥٩) – De Sacy, Relation, p. 577

(٦٠) شرحه ، ص ٥٧٤

(٦١) راجع : Mednikov, Palestina. Issled. p. 239

(٦٢) راجع ثبت المراجع ص ٥٤٥ – ٥٤٦ – Atiya, The Crusade, p. 468-476

(٦٣) راجع على الأخص :
Mednikov, Palestina, Issled., p. 236-237, Notes with corrections on Lemming

(٦٤) – Lemming, p. XXVII — Brockelmann, GAL, I, p. 330-331; SBI, p. 566

(٦٥) – Mednikov, Palestina. Issled, p. 237

(٦٦) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 567, No 1a = p. 876, No 2a; cf: Sauvaire, Histoire de Jérusalem, p. 65

(٦٧) – Mednikov, Palestina. Issled., p, 234

(٦٨) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧٧٩

(٦٩) – Buhl, Al-Kuds, p. 1179

(٧٠) – Mednikov, Palestina, Issled. p. 234-235

(٧١) – Koenig, p. 15, No 28

(٧٢) شرحه ، ص ١٦ – ١٧ ، رقم ٣٢

(٧٣) – Brockelmann, GAL, I, p. 499-506, No 5 ; SBI p. 914-920

(٧٤) شرحه ، الجزء الأول : ص ٥٥٥ – ٥٠٦ ، رقم ٧٨ ، ٧٩ ؛ SBI, p. 920

(٧٥) – Brockelmann, GAL, SBI., p. 589

(٧٦) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237, cf. also p. 236, 239

(٧٧) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 105, No 292 — Lemming, p. XXVI — Brockelmann, GAL, I, p. 331, No 1, SBI, p. 567-568 — Brockelmann, Ibn Asakir, p. 386 — Wüstenfeld, Stammtafel, p. 5-7, No 78

(٧٨) – Koenig, p. 13, No 19 — Mednikov, Palestina. Issled., p. 232

(٧٩) شرحه ، ص ٢٣٤ .. ٢٣٥

(٨٠) شرحه ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩

(٨١) شرحه ، ص ٢٣٥ .. ٢٣٦ Koenig, p. 13, No 19

(٨٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 130, No 2; SBII, p. 161

(٨٣) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237

(٨٤) – Lemming, p. XXVI, A – Mednikov, Palestina. Issled., p. 233, 235-237, 239, 508 — Wüstenfeld, Stammtafel, p. 8, No 7

(٨٥) – Mednikov, Palestina' Issled., p. 234, 237, 508 — Wüstenfeld, Stammtafel, p. 8

(٨٦) – Mednikov, Palestina. Issled., p. 235-236

(٨٧) شرحه ، ص ٢٣٧

(٨٨) – Fritsch, p. 28 sui, 33 sui

(٨٩) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 160, No 394 — Brockelmann, GAL II, p. 130, No 2; SBII, p. 161 – Mednikov, Palestina, Issled., p. 236, 237, 239, 332 - 334, 341-342.

(٩٠) – Lemming, p. XXVII, E — Brockelmann, GAL, I, p. 330-331

(٩١) – De Guignes, Bourhaneddin, p. 605-609

(٩٢) شرحه ، ص ٦٠٥

(٩٣) المحتويات راجع : شرحه ص ٦٠٥ .. ٦٠٨

(٩٤) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 236, 237

(٩٥) – Steinschneider, p. 181

(٩٦) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237

(٩٧) – Hartmann, Halil, p. 8

(٩٨) – Brockelmann, GAL, II, p. 130-131, No 4; SBII, p. 162 — Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 180, No 425 — Mednikov, Palestina, Issled., p. 225-230 — Steinschneider, p. 168-169, No 1 – Koenig

(٩٩) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 225

(١٠٠) – Koenig, p. 24

(١٠١) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٧١ ، رقم ١٠٠٨ – Bassst, Temim. p. 6

(١٠٢) – Koenig, p. 23.

(١٠٣) – Le Strange, JRAS, XIX, p. 258-305 – Mednikov, Palestina, Transl., p. 613

(١٠٤) – Mednikov, Palestina-Issled., p. 613-627

(١٠٥) – Koenig, p. 27

(١٠٦) شرحه ، ص ١٠ ، رقم ٩ Mednikov, Palestina – Issled., p. 225-229

(١٠٧) – Koenig, p. 13, No 19 – Mednikov, Palestina, Issled., p. 230,235

(١٠٨) – Koenig, p. 15, No 28; cf: Sauvaire, Hist. de Jéruslalem, p. 65

(١٠٩) – Koenig, p. 16-17, No 32

(١١٠) شرحه ، ص ١٨ – ١٩ Mednikov, Palestina. Issled, p. 237, note

(١١١) – Koenig, p. 20

(١١٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 131; SBII, p. 162

(١١٣) شرحه ، ص ٩١ – ٩٢ ، رقم ١٨ ؛ SBII, p. 108

(١١٤) شرحه ، ص ٩٢ ، رقم ٧

(١١٥) – Mednikov, Palestina. Issled., p. 237

(١١٦) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 182, No 431 – Brockelmann, GAL, II, p. 89-90, No 14; SBII, p. 105-107 – Mednikov, Palestina. Issled., p. 236, 237, 239.

(١١٧) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٤٩١ ، رقم ٦٥٩٩ .

(١١٨) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 236-237.

(١١٩) شرحه ، ص ٢٣٧

(١٢٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 93-94, No 22; SBII, p. 110-111

(١٢١) – Mednikov, Palestina. Issled., p. 237.

(١٢٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 7; SBII, p. 162.

(١٢٣) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237

(١٢٤) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 162

(١٢٥) – Rosen, Coll. scient., III, p. 21-22, No 42

(١٢٦) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 224 – Steinschneider, p. 170-173,180 – Koenig; p. 18, note 1 – Mednikov, Palestina. Transl., p. 1194-1195

(١٢٧) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 223-224, No 496 – Brockelmann, GAL, II, p. 132-133, No 13; SBII, p 163-164 – Koenig, p. 29-30 – Mednikov, Palestina. Issled., p. 283-290; Transl. p. 1194-1216 – Steinschneider, p. 169-176, No 2;

(١٢٨) المحتويات لدى : De Guignes, Bourhaneddin, p. 611-614

(١٢٩) – Mednikov, Palestina, Issled, p. 236-237, note 4

(١٣٠) – Koenig, p. 18-19

(١٣١) شرحه ، ص ١٩

(١٣٢) – Mednikov, Palestina. Issled, p. 283,286,288

(١٣٣) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 235, No 512 — Brockelmann, GAL, II, p. 43, No 43 ; SBII, p. 41-42 — Steinschneider, p. 177-181, No 3 — Mednikov, Palestina. Issled., p. 239, 290-291 ; Transl., p. 1217-1304 — Brockelmann, Al-Olaimi, p. 1052-1053 — Buhl, Al-Kuds, p. 1182.

(١٣٤) – Brockelmann, Al-Olaimi, p. 1052

(١٣٥) – Koenig, p. 20 — Mednikov, Palestina. Transl., p. 1217 — Hartmann, Halil. p. 15

(١٣٦) – Rosen, Notices sommaires, p. 124, No 180

(١٣٧) – Brockelmann, GAL, II, p. 181-182; SBII, p. 234-236 · Brockelmann, EI, II, p. 119-120

(١٣٨) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ١٦٣ ، رقم ١١٣
= Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 203, No 8

(١٣٩) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٢ ، رقم ٢٣١٧
= VI, p 446, No 14272 ; = Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 203, No 9

(١٤٠) – Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 36 (59), No 109 – Brockelmann, GAL I, p. 481, No 12, a ; II, p. 213; SBI, p. 883, a — Reinaud, Introduction, p. CLXI-CLXII – Streck, Al-Kazwini, p. 903 · Ferrand, Relations, II, p. 462-465 Amari (– Nallino), I, p. 61-62, No 28

(١٤١) توجد الملاحظات التى دونها فرين على هامش مقال دى غين (De Guignes, Notices et Extraits, II) فى نسخة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

(١٤٢) – De Guignes, Notices et Extraits, II, p. 388

(١٤٣) شرحه ، ص ٣٩١

(١٤٤) شرحه ، ص ١٨٦

(١٤٥) شرحه ، ص ٣٩١

(١٤٦) راجع فهرس : Frähn, Ibn-Foszlan, p. 269

(١٤٧) – Jacob, Studien, II, p. 43-44

(١٤٨) – Brockelmann, GAL, SB, I, p. 883, a.

الفصل التاسع عشر

الأدب الجغرافى الفارسى من القرن الخامس عشر إلى الآونة الحاضرة

سبق أن بينا مراراً أن المصنفات الجغرافية التى كتبت باللغة الفارسية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخطوط 514
الرئيسية لتطور الأدب الجغرافى العربى بل وتسير فى نفس اتجاه ذلك الأدب وتتمم مهمته ، فهى تارة تحفظ لنا مواد لم تصلنا فى أصولها العربية وطوراً تكوّن فى ذاتها مصدراً لآثار مدونة باللغة العربية . وبعد الغزو المغولى بدأ خط تطور الأدب الجغرافى الفارسى يسير فى اتجاه مستقل تماماً فلم يكد القرن الخامس عشر يشارف الانتهاء حتى انتهت به سلسلة الآثار التى كانت تمثل لأسباب عديدة أهمية خاصة بالنسبة لنا . وبالطبع فإن تطور هذا الأدب لم يتوقف عقب ذلك ، غير أن تتبعه فى جميع خطوات تطوره كما حدث وأن فعلنا مع الأدب العربى لايخدم أى غرض لأن هذا الأمر يحتاج إلى أبحاث خاصة يجب أن تخرج من أوساط المشتغلين بالدراسات الإيرانية ، أما فيما يختص بالعصور التالية لهذا وذلك ابتداء من القرن السادس عشر فسنكتفى بالإشارة العابرة إلى نماذج أدبية معينة لا لأنها تمثل أهمية خاصة فى حد ذاتها بل لمشابهتها لظواهر مماثلة نلتقى بها فى نفس تلك اللحظات فى الأدب العربى .

وقد ظل المذهب العربى فى الجغرافيا متمتعاً بكامل قوته فى القرن الخامس عشر نفسه ويبدو هذا بجلاء من تأثيره على مصنف المؤرخ النابه حافظ آبرو[1] ؛ واسمه كما أورده بارتولد[2] هو شهاب الدين عبد الله بن لطف الله الخوافى . ولد حافظ آبرو بهرات وتعلم بهمدان وتوفى بزنجان عام ٨٣٣ هـ = ١٤٣٠ ، وكان من رجال البلاط منذ عهد تيمور واكتسب بعض الشهرة أيضاً كلاعب للشطرنج ؛ وقد جعل منه حفيد تيمور شاهرخ الذى أخذه فى معيته خلال حملاته | العسكرية[3] بمثابة مؤرخ رسمى 515
لدولته وكلفه بمهام علمية مختلفة ، وإحدى هذه المهام ارتبطت بوضع مصنف جغرافى[4] لاعلم لنا بعنوانه ولو أنه يمثل أهمية خاصة بالنسبة لنا :

فى عام ٨١٧ هـ = ١٤١٤ حُمل إلى شاهرخ كتاب فى الجغرافيا باللغة العربية لم يبن اسمه بتفصيل كاف فكلف حافظ آبرو بترجمته إلى الفارسية وإتمامه من المصادر الأخرى المعروفة له . وقد سار العمل ببطء ملحوظ فى البداية إلى أن اتخذ الكتاب صورته النهائية فى قسمين ؛ ويمكن أن نحكم على هذا من التواريخ الدقيقة الواردة فى آخر الاقتسام فمنها يتبين لنا أن المقدمة قد فرغ منها فى عام ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ والقسم الأول فى عام ٨٢٢ هـ = ١٤١٩ هذا فى حين انتهى القسم الثانى فى عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ . ومن المحتمل أن المؤلف

لم يتمه لانشغاله بتآليف أخرى فقد كلفه شاهرخ منذ عام ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ بمهمة وضع مصنف تاريخي مفصل وصلنا قسم كبير منه ، وأغلب الظن أنه هو أيضاً لم يتم . ولعل العمل فى مصنفين فى وقت واحد هو السبب فى أن مقدمة كتابه فى التاريخ بل وعناوين الكتاب نفسها قد وجدت سبيلها إلى مخطوطات مصنفه الجغرافى[٥].

ولا يوجد ما يشير إلى الأثر الجغرافى الذى اعتمد عليه حافظ آبرو بالذات فى وضع مصنفه الجغرافى ، غير أنه لا يحوم شك فى أنه كان من آثار المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا من طراز البلخى — الاصطخرى . ومما يؤكد هذا طريقة ترتيب البلاد لديه التى تذكرنا بما سار عليه جغرافيو القرن العاشر ، فهو يبدأ كلامه ببلاد العرب فالمحيط الهندى فأفريقيا فالأندلس ، ويلى هذا جزر البحر الأبيض المتوسط فمصر فالشام فالشرق الأدنى وإيران ؛ ويسير الترتيب من الغرب إلى الشرق[٦] ؛ كما تبدو واضحة لنا بما فيه الكفاية المصادر الإضافية التى نقل عنها والتى يشير إلى بعضها فى خلال العرض . ويمكن أن نتبين لديه فكرة واضحة ليقدم مصنفاً تركيبياً ، واهتماماً بالتقاليد الجغرافية السائدة فى الأدبين العربى والفارسى سواء بسواء ، ومن الطريف أن نلاحظ أن حافظ آبرو عرف الجغرافيين العرب المغاربة كما عرف أيضاً الإدريسى[٧] وابن سعيد[٨] . وهو قد حفظ لنا شذرات من مؤلف مفقود يرجع إلى العصر الفاطمى هو « الكتاب العزيزى» للملهبى[٩] . أما من بين المؤلفين الفرس فيرد لديه بانتظام محمد نجيب بكران و محمد بن يحيى فى كتابه « صور الأقاليم »[١٠]. ويرى كريمسكى Krymski أن حافظ آبرو قد ألف كتابه « على غرار » حمد الله قزوينى[١١] ، غير أن هذا الرأى محصور للغاية ولو أن اعتماد حافظ آبرو على قزوينى إلى جانب اعتماده على المصادر الفارسية الأخرى أمر ليس فى الوسع إنكاره[١٢] ؛ وهو يقترب كثيراً فى بعض 51 أقسامه | من رشيد الدين[١٣] . من كل هذا يبدو لنا أن محيط مصادره واسع ومتين ، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن تأثير الأدب الجغرافى العربى لم يقف عند المغرب والعلم الأوروبى وحدهما بل ضرب أيضاً فى الأقطار الإسلامية الواقعة إلى الشرق .

أما من حيث مضمونه فإن مصنف حافظ آبرو يعتبر مكملا لتقاليد الأوصاف العامة فى الجغرافيا المعروفة لنا جيداً ؛ ففى البداية توجد مقدمة ذات طابع كوزموغرافى تحوى التفاصيل المعهودة فى شكل الأرض والأقاليم والبحار والبحيرات والأنهار والجبال ، ويلى هذا القسم الأول الذى يعالج فيه وصف الأقطار المختلفة من الغرب إلى الشرق مبتدئاً من بلاد المغرب ومنتهياً بمقاطعة كرمان بإيران ، هذا بينما يحتوى الفصلان الأخيران المفردان لفارس وكرمان على إضافات تاريخية تصل إلى عصر المؤلف . أما القسم الثانى فكان من المفروض أن يشمل وصفاً أكثر تفصيلا لخراسان ولبلاد ماوراء النهر ولكن لم يتم الكشف عنه بتمامه[١٤] ؛ وينتهى العرض فى أكثر مخطوطات الكتاب عند عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ بخراسان ، وفى مخطوطة اكسفورد يلى هذا وصف لبلاد ما وراء النهر ووعد من المؤلف بأنه سيقدم عرضاً موجزاً لتاريخها . ولكن غير معروف لنا هل قام فعلا بكتابة هذا القسم التاريخى أم لم يفعل[١٥] .

ورغماً من أن مصنف حافظ آبرو فى الجغرافيا كان معروفاً فى مخطوطاته لعدد من العلماء أهل التخصص منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر[١٦] إلا أن المسئول عن كشف النقاب عنه بصورة شاملة من أجل العلم هو المؤرخ الكبير بارتولد Bartold ، فقد وضع الأساس لدراسة جدية لهذا المصنف فى مقاله الذى نشره ضمن مجموعة المقالات التى قدمت إلى ڤكتور روزن V. Rosen (١٨٩٧)[١٧] ؛ ورجع بارتولد مراراً إلى الكلام عن هذا الأثر فى أبحاث تالية ووضّح باستيفاء كاف أهمية هذا الكتاب وأهمية المادة التى يحويها بين دفتيه . هذا وقد أولى بارتولد عناية خاصة لروايات حافظ آبرو التى توكد أن نهر آمودريا (جيحون) كان يصب فى بحر قزوين فى الأزمنة التاريخية[١٨] . وبنفس الإسهاب والتفصيل يلقى ضوءاً على وصفه لبلاد ما وراء النهر ويقتطف شذرات هامة من المتن مع ترجمتها إلى اللغة الروسية[١٩] .

ومع اعتراف بارتولد فى حالات عديدة بقيمة مادته التى لا يضارعها شىء إلا أنه اضطر إلى التسليم بأن حافظ آبرو ليس غريبا على العيوب والنقائص المعهودة فى الأدب الجغرافى العربى ؛ فوصفه مثلا لغرائب بلاد ما وراء النهر ومعادنها ومنتجاتها مستعار بحذافيره بالتقريب من مؤلفى القرن العاشر[٢٠] ونادراً ما ينطبق مع واقع الأحوال فى العصر الذى عاش فيه المؤلف .

وصلة مصنف حافظ آبرو بتقاليد المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ترجع علاوة على ماسبق ذكره إلى عامل إضافى ، وهو أنه كان من المفروض أن يحتوى الكتاب على خارطات تصور بلاد الإسلام المختلفة كما وردت الإشارة إلى ذلك أكثر من مرة | بالمتن . وأغلب الظن أن جميع الخارطات المعروفة 517 « لأطلس الإسلام » قد وجدت لديه بأكملها غير أنه لم يعثر فى المخطوطات الموجودة بين أيدينا إلا على خارطتين للعالم واثنتين أخريين لبعض الأقاليم وذلك فى مخطوطة بالمتحف البريطانى[٢١]. والخارطتان الأوليان[٢٢] تمثلان تعديلا طفيفاً لما يسمى « بخارطة العالم المستديرة » التى ترتفع إلى البلخى ، غير أن خارطتى حافظ آبرو تتميزان بخاصية غريبة على الخارطات الجغرافية العربية فقد بين عليهما فى الحالتين ولو بطريقة بدائية شبكة لخطوط الطول والعرض[٢٣] . والمدقق فى صورة الخارطة يتبين له أن هذه العملية قد عملت بصورة آلية بحتة عقب الفراغ من رسم الخارطة وربما لاتتصل فى شىء بالنموذج الأوّلى لها . غير أنه لإصدار حكم نهائى على هذه المسألة فإن الأمر يحتاج إلى دراسة باليوغرافية (paleographic) دقيقة للمخطوطة ولو أن هذا لايمنع من القول منذ هذه اللحظة بأن توضيح خطوط الطول والعرض فى هذه الحالة أبعد من أن يكون من عمل حافظ آبرو أو الرسام الكارتوغرافى الذى خطط الأصل الأول للخارطة .

أما فيما يتعلق بالخارطات الإقليمية للأقطار فنحن نعرف حتى هذه اللحظة | اثنتين فقط إحداهما للبحر الأبيض 518 المتوسط والأخرى للخليج الفارسى[٢٤] ، وهما أيضاً بدورهما ترتفعان إلى أنموذجين من خارطات « أطلس الإسلام » غير أنه يلاحظ فى رسمهما تدهور واضح إن ليس سقوطاً تاماً . ومما يثبت أن الخارطات الأخرى قد وجدت فعلا أن ثمة إشارة إلى خارطة لما وراء النهر فى القسم الخاص بها غير أن هذه الخارطة لا وجود

لها فى الموضع المخصص لها من مخطوطة أكسفورد ، وهى المخطوطة الوحيدة التى حفظ لنا متنها القسم المخصص لبلاد ما وراء النهر من مصنف حافظ آبرو[٢٥] .

ولم يقتصر ما تركه لنا حافظ آبرو من آثار أدبية على مصنفه الجغرافى وحده بل توجد له أيضاً آثار تاريخية ليست أقل شهرة ؛ غير أن بارتولد يقف منها موقفاً أكثر صراحة مما فعل مع المصنف الجغرافى ويعتبرها « أقل قيمة منه وأكثر طابعاً نقليا »[٢٦] ، وهو يقرر بوجه عام وبما عرف به من ميل إلى الإيجاز والتركيز أن حافظ آبرو قد حفظ لنا بوصفه مؤلفاً نقالة كثيراً من المادة المفقودة وأنه يعد مصدراً من الدرجة الأولى بالنسبة لتاريخ عصره[٢٧] . وأحد البحاثة المعاصرين يعبر عن رأيه بحماس أكثر[٢٨] عندما يقرر أن حافظ آبرو يفوق رشيد الدين من حيث استكمال المادة ولو أنه اعتمد اعتماداً تاماً على منهجه وآرائه . ولعله من الضرورى أن نوكد بصورة خاصة أن عباراته بوجه عام بسيطة للغاية وهذا ما أعطاه ميزة على بقية المؤلفين الآخرين ، كما يصدق هذا أيضاً على الأقسام التى نقلها عنه عبد الرزّاق[٢٩] .

ونتيجة لنشاطه المزدوج فى مجالى التاريخ والجغرافيا فقد عاون هذا فيما يبدو على تسرب كمية كبيرة من المعطيات التاريخية بل وأحياناً أقسام بحالها إلى مصنفه الجغرافى ، كما يمكن أيضاً أن نلحظ الظاهرة المضادة وهى أن تاريخه قد حفظ لنا كمية كبيرة من المادة الجغرافية . وبحسب المنهج الذى اتبعناه فإننا لن نقف عندها ولكننا نستثنى قسما طريفاً منها هو وصفه للسفارة التى بعث بها شاهرخ إلى الصين فى عام ٨٢٢ هـ ـ ٨٢٥هـ = ١٤١٩ — ١٤٢٢ .

هذا الوصف معروف من قبل عهد كاترمير[٣٠] ، فقد ضمنه المؤرخ الفارسى عبد الرزّاق السمرقندى تاريخه المعروف وأصبح فى متناول الأيدى بفضل ترجمة فرنسية منذ عام ١٨٤٣[٣١] . غير أنه كما لاحظ بارتولد من قبل فإن عبد الرزّاق قد نقل هذا القسم بحذافيره كغيره من الأقسام عن كتاب حافظ آبرو[٣٢] ، وأنه لما يدعو إلى الأسف أن عدم وجود طبعة لمصنف هذا الأخير قد اضطر البحاثة إلى الرجوع إلى الوصف الذى حفظته لنا رواية عبد الرزاق[٣٣] كما كان عليه الحال من قبل ، رغما من أن مخطوطة اكسفورد | لمصنف حافظ آبرو تحوى تفاصيل قيمة أسقطها عبد الرزاق . ومما يضيف إلى طرافة هذه السفارة التى بعث بها شاهرخ وأحفاد تيمور فى صحبة الصينيين العائدين إلى بلادهم أن بايسنغر أدخل ضمن جماعتها نقاشاً يدعى غياث الدين كلفه بأن[٣٤] « يقيد على هيئة يوميات وذلك منذ لحظة مغادرته لعاصمة الدولة هراة إلى يوم رجوعه إليها كل ما يقع عليه بصره فى جميع المدن والولايات التى يمر بها مما يستحق التسجيل كطريق الرحلة ووصف البلاد والعمارات ونظم المدن وعظمة الملوك وطريقة حكمهم لبلادهم وسياستهم وعجائب تلك البلاد والديار ورسوم هؤلاء الملوك » .

غادرت السفارة هراة فى الرابع من ديسمبر عام ٨٢٢ هـ = ١٤١٩[٣٥] ووجهتها سمرقند ، ثم خرجت من سمرقند فى فبراير عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ فوصلت إلى خانباليق فى ديسمبر من نفس العام

519

وأقامت بعاصمة الصين خمسة أشهر ثم أخذت طريق العودة فى مايو عام ٨٢٤ هـ = ١٤١٢١ ، وبعد عام من هذا وذلك فى يوليوسنة ٨٢٥ هـ = ١٤٢٢ بلغت سواحل نهر سرداريا (سيحون) ووصلت إلى هرات فى اليوم الثانى من سبتمبر[٣٦] من نفس العام . والأمد الطويل الذى استغرقته الرحلة والطريق الطويل الذى قطعته يقف دليلا على أن غياث الدين قد وجد فرصة ذهبية لتدوين ملاحظاته ، وهو بخلاف ملاحظته للغرائب والعجائب يورد لنا كثيراً من الأشياء القيمة عن الصين وسكانها ويسوق تفاصيل شيقة عن أخلاقهم وعاداتهم ويصف لنا أيضاً نظام ومراسيم البلاط الإمبراطورى[٣٧] . ولا يخلو من أهمية بالنسبة لنا وصفه للمكانة الرفيعة التى نالها فى عهد حكم بغديخان القاضى حاجى يوسف أحد كبار العسكريين فى حكومة الصين ورئيس المجلس الاستشارى بها[٣٨] ، وليس بأقل أهمية من ذلك ما يذكره عن وضع المسلمين الصينيين الذين كان عددهم كبيراً فى ذلك الوقت .

هذا وقد أصبحت قصة غياث الدين معروفة للدوائر العلمية الأوروبية بفضل الرواية التى نقلها عبدالرزاق عن حافظ آبرو . ويرتبط اسم ذلك المؤرخ ارتباطاً وثيقاً بهذه القصة ولكنه يستحق أيضاً الذكر فى كتابنا هذا لما أورده من معلومات جغرافية فى مصنفه التاريخى ؛ واسمه الكامل هو كمال الدين عبد الرزّاق بن إسحق السمرقندى[٣٩] . وقد ساق التشابه فى الأسماء إلى الخلط بينه وبين الفيلسوف والفقيه المشهور كمال الدين عبد الرزاق القاشانى الذى عاش قبل قرن ونصف منه (توفى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠)[٤٠] ووضع رسالة فى الجبر والاختيار نشرها | المستشرق غويار Guyard . أما عبد الرزاق الذى نعنيه 520 فإنه ولد بهرات (فى سنة ٨١٦ هـ = ١٤١٣) وتوفى بها فى عام ٨٨٧ هـ = ١٤٨٢ ، ونسب إلى سمرقند لأنه أقام بها طويلا . وكان أبوه من المقربين إلى بلاط شاهرخ كإمام وقاض ، أما الابن الذى لم يبلغ ما بلغه أبوه من نفوذ فى البلاط فقد وجد الرعاية هناك بفضل معارفه العلمية والأدبية ولو أنه لم يتميز بشخصية تلفت النظر . وقد ظهر منه بلاشك استعداد للدبلوماسية فكلفه شاهرخ بمهام دبلوماسية فى الأقطار الأجنبية ، مثال ذلك أنه بعث به فى عام ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ إلى الهند فأمضى بها حوالى ثلاث سنوات[٤١] ، وفى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ نجده بكيلان[٤٢] ، وفى العام التالى أرسل به إلى مصر . غير أن وفاة شاهرخ غيرت من هذا الوضع[٤٣] ، وابتداء من عام ٨٦٧ هـ = ١٤٦٢ إلى آخر أيام حياته تولى عبد الرزاق الإشراف على خانقاه شاهرخ بهرات[٤٤] .

واكتسب عبد الرزاق شهرته العلمية من مصنفه التاريخى الكبير الذى يقع فى جزئين وهو «مطلع السعدين ومجمع البحرين» الذى أتم تأليفه فى حوالى عام ٨٧٢ هـ – ٨٧٥ هـ = ١٤٦٧ – ١٤٧٠ والذى كرسه بصورة خاصة لتاريخ المغول وتيمور وشاهرخ . وليس واضحاً تمام الوضوح الغرض الذى استهدفه من هذا العنوان ، وأغلب الظن أنه يشير بذلك إلى بطلى روايته الرئيسيين ؛ ويرى البعض أن الإشارة ترتبط ببداية الكتاب ونهايته حيث يدور الكلام عن اثنين من الملوك حملا اسم أبى سعيد[٤٥] ، والمقدمة التى تعالج الكلام عن المغول يتلوها عرض منظم ومتناسق لتاريخ الفترة من عام ٧١٧ هـ = ١٣١٧

إلى عام ٨٧٥ هـ = ١٤٧١ ؛ وهو يصل بالجزء الأول فى سرده التاريخى إلى وفاة تيمور فى عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ بينما يفرد الجزء الثانى بصورة خاصة للكلام على شاهرخ ، وهذا هو المعروف منذ أكثر من مائة عام فى ترجمة كاترمير . وتاريخ عبد الرزّاق من الناحية الزمنية (Chronological) ينضم إلى كتاب رشيد الدين وكأنما يكمله ابتداء من عام ٧٠٤ هـ = ١٣٠٤ ، أما خاتمة الكتاب فتقف فى عهد الأمير التيمورى التاسع الذى ظل عبد الرزاق متمتعاً تحت ظله بنفس الرعاية التى لقيها فى عهد شاهرخ .

وفى تلك الأقسام من الكتاب التى تعزى إلى المؤلف نفسه يسير العرض فى أسلوب منمق للغاية فيغلب عليه السجع وتنتشر فيه الاستشهادات الشعرية ، ومن الطريف فى هذا الصدد إيراد رأى عالم لاينتسب إلى فئة المستشرقين بل يعد من المتخصصين فى الأدب الروسى القديم وهو سرزنفسكى Sreznevski الذى درس بالتفصيل الأقسام التى كتبها عبد الرزاق عن الهند وذلك أثناء تحضير تعليقاته على رحلة افناسى نيكتين Afanasi Nikitin . فالمؤلف كما يبدو واضحاً من ألفاظه « لم يفكر فى إفادة قارئيه وسامعيه بقدر ما فكر فى إمتاعهم ، وهو فى محاولته لإثارة حب الاستطلاع فى نفوسهم يجهد فى ذات الوقت ليستولى على ألبابهم بعباراته | المنمقة من مجالى الشعر والنثر ، ولاشك أن هدفه الأول هو التأثير على « الخاقان السعيد » شاهرخ [٤٦] . 521

وفى أقسام كتابه التى نقلها عن مصادر أخرى يجهد عبد الرزاق عادة فى أن يورد لنا الأصل كما هو ، وتكتسب هذه الحقيقة أهمية جوهرية إذا ماعلمنا أن مصدره الرئيسى لتاريخ الفترة السابقة لعام ٨٣٠ هـ = ١٤٢٦ هو حافظ آبرو [٤٧] ؛ وبهذا فإن أقسام معينة من تاريخ حافظ آبرو لم تعرف إلى أيامنا هذه إلا عن طريق عبد الرزاق [٤٨] ، أما فيما يتعلق بتاريخ الفترة من عام ٨٣٠ هـ = ١٤٢٦ إلى ٨٧٥ هـ = ١٤٧١ فإنه يعتبر واحداً من أهم مصادرها الأولية . وعدم وجود طبعة كاملة لهذا الأثر* حالت بالطبع دون إمكان الحكم على المؤلف بصورة جامعة ولو أنه يجب ألا يفهم من هذا مطلقاً أن عبد الرزاق مؤلف مغمور . أما مادته الجغرافية فموزعة بحسب الموضوعات التى تمسها فى الأقسام المختلفة من الكتاب ؛ ولبعض الأقسام صلة مباشرة بتاريخ شعوب الاتحاد السوفيتى مثل روايته عن حملة تيمور فى سهوب القبجاق فى عام ٧٩٣ هـ = ١٣٩١ ، وهى معروفة منذ أكثر من مائة سنة بفضل بحث شارموا Charmoy (١٨٣٥) [٤٩] . ومن الممكن القول بأن أسفاره الشخصية قد شحذت من انتباهه إلى الأدب الذى من هذا الطراز ولعله لهذا السبب ضمن كتابه قصة غياث الدين عن سفارة الصين بأجمعها ، كما لايقل أهمية عن ذلك وصفه هو لرحلته إلى الهند . وقد بدأ عبد الرزاق هذه الرحلة فى يناير من عام ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ فعبر ولاية كرمان حتى وصل إلى جزيرة هرمز بالخليج الفارسى فأقام بها لمدة شهرين وترك لنا وصفاً يفيض بالحماس عن حياتها التجارية التى كانت آنذاك فى عنفوان نشاطها . وتعداده للأمم التى يمكن الالتقاء بها

(*) نشر البروفسور محمد شفيع الجزء الثانى من « مطلع السعدين » بلاهور فى ثلاثة أقسام (١٩٤١ - ١٩٤٩) ، وهى طبعة لاأعتقد أن قيمتها العلمية كبيرة . (المترجم)

هناك وللسلع التجارية التى تجلب إليها يقف دليلاً على أن هرمز كانت بحق إحدى مراكز التبادل التجارى العالمية فى ذلك العصر[٥٠]. ومن هرمز عبر البحر إلى الساحل الشرقى لبلاد العرب وأخذ السفينة من مرفأ قلهات فبلغ كاليكوت بعد ثمانية عشر يوماً فى أكتوبر من عام ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ وكانت آنذاك أكبر موانى الساحل الغربى للهند (« مليبار ») ، وهو يصفها لنا بنفس الحماس الذى وصف به هرمز ؛ ثم غادرها إلى بيجانكر Bijanagar بجنوبى الهند فبقى بها إلى ديسمبر من عام ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ ومنها ارتفع بطريق البحر إلى منكلور Mangalor متحاشياً مرفأ بندران Pandaran الذى حط به فيما بعد فاسكودا غاما . ولم يغادر الهند نهائياً إلا فى مارس من عام ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ فوصل مرة أخرى إلى مسقط[٥١] على شبه الجزيرة العربية ومنها إلى هرمز التى بلغها فى العشرين من أبريل عام ١٤٤٤[٥٢] ؛ ووصفه هذا على الرغم مما يحفل به من محسنات بديعية يعتبر من أهم أقسام كتابه من وجهة النظر الجغرافية | ويقدم 522 وصفاً مفصلا بما فيه الكفاية لنواحى الهند فى ذلك العصر يفيض بالحيوية فى بعض نقاطه ويعد جديراً بالثقة على وجه العموم . ويمثل القسم عن الهند أهمية خاصة بالنسبة لنا لأن عبد الرزاق زار الهند قبل فترة ليست بالبعيدة من رحلة التاجر الروسى افناسى نيكيتين Afanasi Nikitin (١٤٦٦ – ١٤٧٢) من أهل تفر Tver* ؛ وعلى الرغم من أن كلا منهما قد سلك طريقاً لا يتفق تماما مع الطريق الذى سلكه الآخر إلا أنهما يساعدان فى فهم بعضهما البعض . ويعود الفضل إلى سرزنفسكى Sreznevski الذى استطاع فى بحث له رجع فيه إلى الترجمة الفرنسية لهذا القسم من كتاب عبد الرزاق[٥٣] أن يثبت جوانب الشبه بين الأثنين ويؤكد أن وصف عبد الرزاق للهند يقارب وصف نيكيتين أكثر مما يقارب تلك الملاحظات المقتضبة التى دونها معاصرهما نيقولا كونتى Niccolo Conti[٥٤] .

وعلى أية حال فيجب الاعتراف بأن أكثر أقسام كتاب عبد الرزاق السمرقندي شهرة ورواجاً يكاد يكون وصف الصين لغياث الدين الذى استعاره مؤلفنا من حافظ آبرو ، وعنه أخذه المؤرخ الفارسى خوندمير وانتقل منه إلى عدد من الكتاب الأتراك ومنهم إلى أوروبا الغربية حيث عرف منذ القرن الثامن عشر[٥٥]. وقد ترجم هذا الوصف بأكمله إلى التركية فى سنة ١١٤٠ هـ = ١٧٢٧ المؤرخ إسماعيل عاصم چلبى زاده (المتوفى فى سنة ١١٧٣ هـ = ١٧٦٠) بعنوان « عجائب اللطائف »[٥٦] ونشر هذه الترجمة فى القرن العشرين العلامة التركى على أميرى (توفى فى ٢٣ يناير ١٩٢٤)[٥٧]. ومما عاون على رواجه بين الأتراك أن ثمة مصنفا فارسياً آخر فى وصف الصين لمؤلف يدعى على أكبر تم تدوينه بعد مدة من ذلك قد اعتبر أحياناً مجرد تعديل لهذا القسم من كتاب عبد الرزاق مع أنه مستقل تماما عنه :

(*) رغماً من أن المعلومات الأولى التى حصلت عليها أوروبا عن الهند قد جلبها الإيطاليان ماركوبولو Marco Polo ونيقولا كونتى Niccola Conti إلا أن يوميات التاجر الروسى افناسى نيكيتين Afanasi Nikitin من أهل تفر Tver التى دونها بعنوان « رحلة وراء البحار الثلاثة » Khojenie za tri moria تتميز بالتفصيل وعمق الملاحظة وبما تحفل به من وصف للأحوال الاجتماعية بالهند . هذا وتوجد لها طبعة علمية جديدة قام بنشرها العلامة الروسى غريكوف Grekov . (المترجم)

وقد ظهر هذا المصنف الأخير فى وسط يختلف تماماً عن وسط عبد الرزاق ويرتبط ببلاد أخرى من العالم الإسلامى كانت قد بدأت فى ذلك الوقت تلعب دوراً رئيسياً فى مصير الشرق الأدنى أعنى بهذا الدولة العثمانية . والمؤلف على أكبر[٥٨] شخصية مغمورة وكان يريد رفع مصنفه الذى أتمه فى حوالى عام ١٥١٦ إلى السلطان سليم ولكنه بعد وفاة الأخير قدمه إلى السلطان سليمان القانونى (الذى ارتقى العرش فى عام ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠)[٥٩] ؛ وقد دون على أكبر مصنفه معتمداً على انطباعاته المباشرة عن الصين التى أقام بها مدة ليست بالقصيرة حوالى عام ١٥٠٦[٦٠] ، وقد استعمل فى تأليفه اللغة الفارسية وهو أمر يجب ألا ندهش له إذا ما تذكرنا دورها كأداة للثقافة الرفيعة بالدولة العثمانية وما تمتعت به من تقدير خاص بين سلاطنة آل عثمان أنفسهم . غير أن لهذا المصنف ترجمة تركية[٦١] ترجع إلى عهد السلطان مراد وعملت على ما يبدو فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ ؛ ومن الملاحظ أن معرفتى الدوائر العلمية بهذا الكتاب 523 ظلت حتى الآونة الأخيرة قائمة على أساس الترجمة التركية لا عن طريق الأصل الفارسى .

وذكره حاجى خليفة فى معجمه للكتب تحت عنوان « قانون نامه چين وختا* »[٦٢] ؛ وكما سنرى فإن هذا العنوان أبعد من أن يحيط بكل موضوع الكتاب . ولعل حاجى خليفة بذكره لاسم على القوشجى تحت هذه الملاحظة قد لعب أكبر دور فى إشاعة الزعم القائل بأن على القوشجى كان وراء تأليف هذا الكتاب وأنه هو الذى قدم بعض المعلومات للمؤلف على أساس ملاحظاته الشخصية[٦٣] ، وهذا الزعم يستحيل تماماً من الناحية الزمنية ولكنه لا يخلو على أية حال من طرافة مرجعها فى أنه يعكس ذكريات بعض أهل العلم عن العلاقات الثقافية فى ذلك العصر . وقد حدث أن ذكرنا من قبل أن على القوشجى (المتوفى عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤)[٦٤] كان من أكبر معاونى ألوغ بيك فى مرصده بسمرقند وأنه عقب وفاة الأخير استقر فى آخر الأمر بالدولة العثمانية وهناك ساهم مساهمة فعالة فى تدعيم النشاط العلمى فى مجالى الرياضة والفلك . أما رحلته إلى الصين التى ربط البعض أحياناً بينها وبين « قانون نامه » فلا توجد لدينا أية معلومات بصددها ، غير أن اهتمامه بتلك الأقطار ليس موضعاً للتشكك ولعله هو مؤلف كتاب « تاريخ ختاى » الذى يشير إليه حاجى خليفة[٦٥] ؛ ويعتقد بابنجر Babinger أن مخطوطة هذا المصنف موجودة بين مخطوطات استنبول[٦٦] . ويلوح أن القوشجى حمل معه هذا الاهتمام والولع بالصين إلى أراضى الدولة العثمانية التى خرج منها فى رحلته إلى تلك البلاد رحالتنا المجهول على أكبر . وعلى أكبر يطلق على نفسه اسم قلندر (أى الدرويش المتجول) ، ولا نعلم شيئاً عن الظروف التى تمت فيها رحلته هذه ؛ وإقحام اسم

(*) يطلق على الصين فى المصنفات باللغة الفارسية اسم چين ولعله هو المسئول عن انتشار الرسم الأوروبى لاسم الصين Chin ؛ كما عرفت الصين لفترة ما من العصور الوسطى فى المصادر الإسلامية باسم بلاد الخطا أو ختاى وهو فى الأصل اسم لقبيلة من آسيا العليا استولت على مقاليد الأمور بالصين لبعض الوقت . وقد لاقى هذا الاسم الأخير رواجاً كبيراً فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ولايزال يقابلنا فى الآثار الشعرية فى صورة كاثاى Cathay . ومن الطريف أن الصين لاتزال معروفة لدى الروس باسم كيتاى Kitay . (المترجم)

على قوشجى فى هذه الرحلة يستند فى أغلب الظن على سوء فهم لألفاظ المؤلف نفسه كما عبر عنها فى مقدمة كتابه على ما سنرى . وقد خرج ياكوب Jacob فى الآونة الأخيرة برأى مؤداه أن على أكبر قد بعث به إلى الصين السلطان سليم نفسه الذى اهتم بالأوضاع السياسية السائدة فى شرق آسيا وأراد أن يحصل على معلومات وثيقة عن أحوالها العسكرية[٦٧] .

أما معرفة حاجى خليفة بالمصنف فهى معرفة واقعية ، أضف إلى هذا أن معلوماته عنه لا يستقيها من مصادر أخرى كما يحدث أحياناً فى كتابه ؛ وإلى جانب هذا فهو ينقل عنه مراراً فى مصنفه الجغرافى « جهانيما »[٦٨] . ومعرفة الدوائر العلمية الأوروبية مبكراً بهذا الكتاب ترجع إلى ما تمتع به من رواج فى الدولة العثمانية نفسها ، وقد رجع إليه منذ القرن الثامن عشر المستشرق السويدى نوربرج M. Norberg (١٧٤٧ — ١٨٢٦) فى بحثه عن « بلاد الصين » De Regno Chataja الذى يتكون من خمسة فصول 524 عالج فيها الكلام على العاصمة خانبالق Kımbalu وعن رونق البلاط الإمبراطورى وفخامته ، وعن الدين والأدب ، وعن القوانين ، وأخيراً الأحوال العسكرية ؛ وهو قد أفاد فى هذا من وصف غياث الدين . وقد عاون وجود مخطوطتين للترجمة التركية بأوروبا (بدرسدن وبرلين)[٦٩] فى التعرف منذ منتصف القرن التاسع عشر على بعض أقسامه بصورة دقيقة فقدم لنا فليشر Fleischer إلى جانب معلومات ذات طابع عام ترجمة للفصل الرابع الذى يبحث فى الحاميات الموزعة على المدن المختلفة (١٨٥١)[٧٠] وتلاه تسنكر Zenker الذى أفاد من نسخة فليشر المأخوذة عن المخطوطة ليقدم عرضاً موجزاً لمادة على أكبر عن تلك البلاد وحكومتها ودياناتها وحضارتها (١٨٦١) . وفى حوالى ذلك الوقت (١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣) ظهرت طبعة حجرية للكتاب باستنبول ، وقد أصبحت نادرة للغاية ولم تجتذب الاهتمام بصورة خاصة[٧١] ؛ أما العلماء الأوروبيون فقد استمروا رغماً من ذلك فى الاعتماد على الترجمة التركية . ولم ينشر شيفير Schéfer الترجمة الفرنسية لثلاثة فصول (هى الأول والسابع والخامس عشر) إلا فى عام ١٨٨٣ معتمداً فى ذلك على الأصل الفارسى الموجود فى مخطوطة فريدة باستنبول اعتقد المستشرق الفرنسى خطأ[٧٢] أنها بخط يد المؤلف[٧٣] . هذا ولم يقدر لشيفير بالتالى أن يحقق مشروعه[٧٤] بإخراج طبعة كاملة للكتاب[٧٥] ، ولكن إلى جانب هذا أثبتت الدراسة الدقيقة التى عملها كاله Kahle للأصل فى الثلاثينيات من هذا القرن صحة ما ذهب إليه شيفير من قبل[٧٦] ، وهو أن الترجمة التركية لا تتصف بعدم الدقة فحسب بل إنها أيضاً عرضة لتصحيحات كثيرة[٧٧] ، أضف إلى هذا أنها تحتوى على تواريخ أضافها المترجم سهواً مما أدى إلى بعض الخلط فيما يتعلق بتاريخ الكتاب[٧٨] . ومن هذا تتضح ضرورة الحاجة إلى الرجوع إلى الأصل الفارسى الذى لم ير النور إلى الآن[٧٩] فى كل ما يتعلق بدراسة هذا الأثر دراسة جدية ؛ غير أن المواد الموجودة حالياً تحت تصرفنا تساعد على تكوين فكرة عامة عن هذا الأثر الذى لا يخلو بأية حال من الأصالة .

ويجب قبل كل شيء أن نلاحظ أن هذا الأثر ليس بقصة رحلة كما يفهم عادة من هذا اللفظ بل هو عبارة عن وصف منتظم لبلاد الصين فى عشرين فصلا[٨٠] تعالج الكلام على أقسامها الأربعة وهى الخطا وختن وچين وماچين ، أى بلاد الصين الشمالية والجنوبية الغربية* (طرفان) والوسطى والجنوبية[٨١].

525 ويبدو من محتويات الفصول العشرين ، حتى فى الترجمة التركية ، أن موضوع الكتاب متكامل الجوانب فعلا ومتنوع ، وهو باستثناء فصوله الأخيرة منتظم وفقا لترتيبه الخاص به فالفصل الأول يبحث فى الحدود والتحصينات وطرق المواصلات من طبيعية وممهدة ، بينما يبحث الفصل الثانى فى الديانة وطقوس العبادة ، أما الثالث فعن الأبنية والمدن والقلاع والإدارة الداخلية والبريد واستقبال الأجانب ويبحث الرابع عن الجيش ، والخامس عن الخزينة والمستودعات الأميرية ، والسادس فى الإدارة العليا وشئون البلاط الإمبراطورى والإدارة المركزية للمقاطعات الاثنى عشر ، والسابع فى السجون ، والثامن فى الأعياد القومية . والتاسع فى تقسيم البلاد إلى اثنى عشرة مقاطعة ، والعاشر فى الاعتناء بالحدائق والمتنزهات ، والحادى عشر فى المطاعم وبيوت اللهو ، والثانى عشر فى العلوم والفن والحرف والألعاب ووسائل التسلية ، والثالث عشر فى أصل نظام الحكم لدى أهل الصين ومجتمعهم ، والرابع عشر فى مدارسهم ، والخامس عشر فى علاقتهم بالغرب وفى بلوغ الإسلام أرض الصين ، والسادس عشر فى علاقات الصين بأهل السهوب وبالتبت والهند ، والسابع عشر فى زراعة الأرض وما يتخذونه من احتياطات لمكافحة الجوع والحريق وفى الحصول على حجر المطر وفى طواحينهم كما يبحث فى معابدهم وحججهم وطرائق أهل الزهد فيما بينهم ، والثامن عشر فى سكتهم واستعمالهم لأوراق النقد وفى ألعابهم النارية ، والتاسع عشر فى قوانينهم وفى عقاب المجرمين بالإشراف المتبادل ، والعشرون فى صورهم ومجموعاتها وفى الدعوات من أجل الجمهور والترويح عنهم وفى أناقتهم فى الملبس وتزيينهم لقبورهم وفى حساب الوقت عندهم وعصور تاريخهم وفى سكان الصين وحرث الأرض لديهم وحروبهم مع سكان السهوب الغربية وموافقة المؤلف لأهل الصين فى اعتقادهم بتفوقهم على غيرهم فى القانون والنظم[٨٢] .

من هذا السرد يتبين لنا فى يسر ووضوح أن الفكرة الأساسية بالنسبة لعلى أكبر لم تكن ملاحظة الأحوال العسكرية فى الصين فحسب ، ومن ثم فمن العسير القول بما قاله البعض من أن الهدف الرئيسى من وصفه كان إقناع سلاطنه آل عثمان بضرورة غزو بلاد الصين ونشر الإسلام فيها . إن هدفه كان بلاشك أعرض من ذلك وهو التعريف ببلاد مشهورة من حيث الاسم ولكن مجهولة من حيث الواقع وأن يدلل من وراء ذلك التعريف على أنها يمكن أن تصبح قدوة لنظاما لحكم عند العثمانيين فى نواح معينة كالقانون والإدارة كما نستبين ذلك من الفصل الأخير فى كتابه[٨٣] . والمؤلف يشير إشارة صريحة فى موضع

(*) أليس من الأفضل قراءتها الشمالية الغربية ؟ (المترجم)

من مقدمة كتابه إلى أن هدفه الرئيسى هو الإعلام ؛ ويكتسب هذا الموضع من المقدمة أهمية بالنسبة لنا لسبب آخر ، ففيه يقول :

« أما الدافع الآخر (الذى حدا بى لوضع الكتاب) فهو أن المرحوم السلطان ألوغ بيك كان قد بعث إلى خطاى العالم مولانا على قوشجى وأرسل معه أسداً (هدية) وقال لهم دونوا كل ما ترونه وتعرفونه من غرائب أحوال تلك البلاد لأن ناقل الكفر ليس بكافر . وهذا العبد الفقير يذكر ما رآه رأى العين وجميعه فى الحقيقة من الغرائب »(٨١) .

وتشير جميع الاحتمالات إلى أن هذه السطور بعينها هى التى أوحت بالزعم القائل بأن رحلة على أكبر كانت من وحى على قوشجى ، 526 غير أن الأمر الآن وبعد توضيح التواريخ يجعلنا نجزم بأن هذه الفكرة مستحيلة تماماً . وشيفير يميل إلى الاعتقاد بأن رحلة على قوشجى إلى الصين قد وقعت فعلا وأنه ترك وصفاً لها عرفه على أكبر وأفاد منه فى تدوين كتابه(٨٥) ، وهو رأى غير مقبول لأنه من المستبعد ألا يوجد خبر عنها فى مصادر أخرى . أما الإشارة إلى ألوغ بيك فإنها تدل على أية حال على أن لعلى أكبر علاقة ما بآسيا الوسطى ولعل شيفير لم يتنكب الصواب فى هذه المرة حينما افترض أنه كان فى الأصل تاجراً من آسيا الوسطى استقر فيما بعد بالقسطنطينية(٨٦) ؛ ومما يؤكد وجاهة افتراضه هذا أن لغة المؤلف الفارسية ليس فيها ما يجتذب النظر ولعلها تعكس اللغات التركية لآسيا الوسطى التى اعتاد عليها المؤلف(٨٧) . أما أسلوبه فليس بالرفيع(٨٨) وهو يحمل طابعاً مملياً رغم أن المقدمة تغلب عليها الاستعمالات البلاغية المعروفة لنا ورغم أننا نلتقى فى الكتاب باستشهادات شعرية ليست من النوع الجيد(٨٩)، هذا بالإضافة إلى أن المؤلف يختتم كتابه بمدح مسجوع فى حق السلطان سليمان القانونى(٩٠) .

أما القول بعد التعرف على الأصل الفارسى بأن وصف على أكبر ليس سوى نقول من المصادر الأخرى للقرنين الثالث عشر والرابع عشر ولايعتمد على ملاحظة واقعية ، كما افترض ولو ببعض الحذر فليشر(٩١) وتبعه فى ذلك تسنكر(٩٢) ، فهو قول مردود فى الوقت الحاضر لأنه يتعارض مع الاستقراءات الباطنية والمقارنات التى أجريت مع مصادر أخرى . والمؤلف يروى أساساً ما أبصره بعينه أوعلمه من أهل البلاد ، وقد استغرقت رحلته داخل الصين أكثر من ثلاثة أشهر(٩٣) . ووصفه لمقابلته مع الإمبراطور يحمل جميع علامات الصحة شأنه فى هذا شأن وصفه لسجون الصين التى سنحت له فرصة التعرف عليها فى ظروف مؤلمة فقد أمضى ستة عشرين يوماً فى الحبس مع بقية رفاقه فى الرحلة وعددهم إحدى عشر لأن واحداً منهم قتل فى مشاجرة رجلا من أهل التبت(٩٤) . وكمسلم فلم يكن من الممكن ألا يثير دهشته مشاركة النساء فى الأعياد(٩٥)وفى الحياة الاجتماعية بل وفى الجهاز الحكومى حيث شغلن وظيفة « المراجعات» للشئون المتعلقة بالمقاطعات الاثنى عشرة للدولة فى الإدارة المركزية . وقد دفعه أحياناً شوقه إلى معرفة وضع المرأة فى المجتمع الصينى إلى حد بعيد بحيث يشعرنا 527 فى الفصل الحادى عشر الذى أفرده للكلام على المطاعم وبيوت اللهو ان مادته إنما تعتمد على تجربة شخصية .

وكان لعلى أكبر من بين السكان المحليين من يمده بالأخبار والمعلومات ، ويبدو أن هؤلاء كانوا على معرفة جيدة بالأوضاع ؛ ويفترض كاله أنه يدين بالكثير لإخوانه فى الدين من بين الخصيان الذين كانوا يلعبون دوراً كبيراً فى إدارة الدولة[٩٦] . وهذا أمر ممكن للغاية سواء اعتماداً على القصة التى يحكى فيها عن نفوذهم فى الجهاز الحكومى[٩٧] أو مما يذكره عن انتشار الإسلام فى الصين حتى أن العاصمة خانبالق وحدها كان بها أربعة مساجد . وأحياناً تؤكد مصادر أخرى صحة رواياته ، فقصته عن دور زعيم القالموق* المدعو اسان تايشى Esen Taichi فى أسر بغديخان فى عام ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ قد وكدته المصادر الصينية تماماً بما فى ذلك توافق التواريخ[٩٨] . أما اهتمام على أكبر بالمسائل التجارية فيبدو جلياً فى تركيز انتباهه على تجارة الصين مع البلدان الإسلامية ، وهو يفرد أهمية خاصة من بين السلع التى يذكرها للخيل والأنسجة والجوهرات[٩٩] . وقد اجتذب أنظاره بصورة خاصة الخزف الصينى الذى يصفه بالتفصيل ويقدره تقديراً عالياً ؛ ولعل هذا لم يكن من قبيل الصدفة إذ بدأت المصنوعات الخزفية الصينية فى هذه الآونة بالذات تظهر بكميات كبيرة فى قصور السلاطين باستنبول[١٠٠] .

ويمكن استناداً على أقسام كتابه الموجودة فى متناول الأيدى ، وأيضاً على الدراسات التى كرست له أن نقرر بثقة تامة أن العلم يدين له بوصف مفصل وهام للغاية لبلاد الصين فى عهد أسرة المنغ Ming عندما تولى العرش تشنغ – ته Cheng-te حوالى عام ١٥٠٦ ، أو بمعنى آخر فى ذلك العصر بالذات الذى ينفرد بعدم وجود أى شىء بصدده فى مصادر غير صينية . والوصف يعتمد من جهة على ملاحظات المؤلف الشخصية التى يمكن الاعتماد عليها ، أما من جهة أخرى فهو يعتمد على المعلومات التى جمعها داخل الصين ؛ ويمكن مقارنته من حيث سعة المادة وقيمتها بأفضل وأحفل ما عرف من أوصاف الصين[١٠١] .

وبالرغم من كل ما حظى به الأدب الفارسى من رعاية فى كنف سلاطين آل عثمان فإن مصنف على أكبر يمثل بالنسبة للأدب الفارسى فى حد ذاته حالة عرضية . أما إحدى المراكز الكبرى للأدب الفارسى فى القرن السادس عشر فكانت الهند حيث نلتقى فى أواخر ذلك القرن بأثر لايتمتع فقط بحق الانضواء إلى الآثار التى تعالج الجغرافيا بل إنه يحتل مركزاً ليس بالضئيل وسط المؤلفات ذات السمعة العالمية من نفس الطراز ، ذلكم هو « آئين أكبرى » المشهور لأبى الفضل .

كان أبو الفضل العلامى (٩٥٨ هـ – ١٠١١ هـ = ١٥٥١ – ١٦٠٢)[١٠٢] كاتماً لأسرار السلطان أكبر (١٥٤٢ – ١٦٠٥) ووزيره الأول . وهو ينحدر من أسرة عريقة اشتغلت بالأدب والعلم أصلها عربى ولكنها سكنت الهند منذ وقت بعيد . وقد اكتسب أخوه فيضى الشهرة كشاعر باللغة الفارسية وكانت له هو نفسه صلة وثيقة بالأدب وترك لنا ترجمة « لكليلة ودمنة » بالفارسية بعنوان « عيار

(*) قبيلة من المغول الغربيين تقطن حالياً الأراضى الروسية على حوض الفولجا الأدنى . (المترجم)

دانش»[١٠٣]. غير أن اهتمامه اتجه منذ سن مبكرة إلى الأبحاث الدينية ؛ وفى عام ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ قُدّم إلى السلطان أكبر على أنه أديب شاب يرجّى منه الكثير فأصبح على الفور معاونه وشريكه الغيور فى تثبيت قواعد دين شامل ، بل إن المصادر الشرقية وبعض البحاثة الأوروبيين ينسبون إليه دوراً رئيسياً فى هذه الحركة أحياناً .

وبشخص أكبر يرتبط مؤلفه الأساسى وهو تاريخ « أكبر نامه » الذى يقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة ؛ والمجلد الأول منها أتمه فى عام ١٥٦٥ وينقسم إلى قسمين أحدهما يعالج تاريخ الأسرة التيمورية خاصة بالهند كما يعالج أيضاً تاريخ سلاطنة الأسرة السابقين لأكبر خاصة بابر وهمايون . والمجلد الثانى خصصه لتاريخ السلطان أكبر وقد ساقه المؤلف إلى لحظة تأليفه للكتاب أى أنه يشتمل على أخبار ستة وأربعين عاماً . أما المجلد الثالث فيحمل عنواناً مستقلا هو « آئين أكبرى » وقد أتمه قبل وفاته بقليل ، أى فى حوالى عام ١٠١١ هـ = ١٦٠٢ ويمثل فى جوهره عرضاً كاملا لأحوال الهند فى ذلك العصر يعالج فيه مسائل الإدارة والإحصاء والاثنوغرافيا فى أوسع مفاهيمها ؛ وأبو الفضل باستعماله للمنهج الإحصائى بصورة جدية قد سبق بهذا كما يرى بعض البحاثة العالم الفيلسوف ليبنتز Leibniz[١٠٤] . وفى نهاية هذا المجلد ترجمة لحياة المؤلف بقلمه تمثل فى حد ذاتها أهمية ليست بالضئيلة . أما أهمية المصنف فى مجموعه فتكمن فى أن المؤلف قد استطاع أن يضم إلى المراجع الأدبية العديدة الوثائق الرسمية أيضاً والذكريات الشخصية ، هذا وقد أضاف أكبر نفسه زيادات خاصة إلى الكتاب الذى كانت تقرأ عليه فصوله كلما فرغ منها أولاً بأول .

وينقسم «آئين أكبرى » من حيث تبويبه إلى خمسة كتب متنوعة للغاية من حيث محتوياتها بصورة لا يمكن معها الإحاطة بها من مجرد ذكر العناوين القصيرة داخل كل كتاب . والكتاب الأول مخصص لشخص السلطان وداره وبلاطه والمراسيم المتعلقة بذلك وكيفية تطبيقها و ذلك بطريقة مسهبة للغاية ؛ أما الكتاب الثانى فيبحث فى الجهاز الضخم للحكومة بما فيه من موظفين عسكريين ومدنيين كما يتحدث عن الأدباء والموسيقيين المقربين إلى البلاط ، هذا بينما يبحث الكتاب الثالث فى النظم القانونية | ويعطى جدولا بالدخل ، وفى الكتاب الرابع يتحدث عن الوضع الاجتماعى للهندوس وفلسفتهم وقانونهم وعن أشهر الغزاة وعن الرحالة والطوائف بالهند ، هذا بينما يخصص الكتاب الخامس للكلام على تعاليم السلطان أكبر وأقواله المأثورة . وجميع هذه العناوين لا تكفى لإعطاء فكرة متكاملة عن مضمون هذا المصنف المتنوع فى مادته ، ولعلنا نوفق فى إعطاء فكرة أدق عن الكتاب إذا أوردنا حكم رينو Reinaud عليه[١٠٥] عندما وصفه بأنه سفر جامع يقدم وصفاً شاملا للدولة من النواحى الجغرافية والطبيعية والتاريخية تصحبها جداول إحصائية مسهبة . ويقدم لنا المؤلف وصفاً مفصلا لكل واحدة من المقاطعات الستة عشر فيحدد مواضع المدن والأماكن المختلفة ويعطى قائمة بالمحاصيل الطبيعية والصناعية كما يورد أسماء الجماعات

الوثنية والمسلمة ، وهو يولى اهتماماً خاصاً كما رأينا إلى الوضع العسكرى للدولة ونظام بلاطها الخ . وفى الخاتمة يفرد قسما للكلام على البراهمية Brahmanism وفلسفة الهندوس والفرق المحلية المختلفة . ويمكن إعطاء فكرة من تنوع مادة الكتاب من أقسامه تلك التى أدخلها فيران Ferrand فى مصنفه الجامع عن الشرق الأقصى[١٠٦] مثل تحضير العطور والمسائل البحرية ووصف بلاد البنغال وتوزيع المقاطعات بحسب الأقاليم .

أما من وجهة نظر المادة الجغرافية الصرفة فمن الملاحظ أن «آئين أكبرى» يقدم لنا جدولا مفصلا للأقاليم السبعة مع الإشارة إلى خطوط الطول والعرض فيما يتعلق بمواقع النقاط الجغرافية الرئيسية[١٠٧] وهو يعتمد فى هذا اعتماداً أساسياً على البيرونى[١٠٨] ؛ ولعله ليس دون تأثير هذا الأخير يرد لدى أبى الفضل ذكر قلعة كنكدز الأسطورية الواقعة فى الطرف الشرقى للمعمورة والتى مر بنا الكلام عليها من قبل[١٠٩] . وعلاقة أبى الفضل بالبيرونى لم تأت عرضاً فهو قد أفاد منه كثيراً وبصورة منتظمة[١١٠] ، بل إن كتاب «الهند» للبيرونى هو أقرب النماذج «لآئين أكبرى» ، هذا إذا تركنا جانباً موسوعات عهد المماليك التى ربما لم يكن له علم بها . ويرى أحد المتخصصين فى دراسة «آئين أكبرى» ، وهو جاريت Jarrett ، أن أبا الفضل قد أخذ فكرة كتابه عن كتاب البيرونى بل واستعار منه طريقة تبويبه للمادة[١١١] ، غير أنه من الصعب فى الحقيقة المقارنة بين المؤلفين ناهيك بما يوجد بينهما من اختلاف هائل . ولا يكمن هذا الاختلاف فقط فى أن أبا الفضل على خلاف البيرونى لم يكن يعرف السنسكريتية[١١٢] أولم تكن له معرفة البيرونى العميقة بالعلم اليونانى ، كلا بل إن الاختلاف بين الاثنين يتركز بصورة خاصة فى أن مؤلف كتاب «الهند» كان | علامة بمعنى الكلمة وقام شخصياً بفحص جميع المسائل التى كتب عنها هذا على 530 حين كان أبو الفضل فى معظم الأحوال نقالة ولو أنه يجب الاعتراف بأنه كان أميناً ودقيقاً فى نقله[١١٣] ، وحفظ لنا إلى جانب ذلك كمية من المعلومات من مصادر مفقودة[١١٤] .

هذا وقد تم الاعتراف بأهمية هذا الأثر منذ القرن الثامن عشر كمصدر هام لاتقتصر أهميته بالنسبة لعصره وحده ، ولا يزال يتمتع إلى أيامنا هذه بتقدير كافة العلماء رغماً مما وجه إليه من نقد لايخلو من الصحة . ويرى ناشر الكتاب ومترجمه إلى الإنجليزية بلوتشمان Blochmann أن «أكبر نامه» فريد فى أهميته من بين جميع تواريخ الهند الإسلامية[١١٥] ويمتاز بالصدق والأمانة ويكشف عن معرفة متينة بالوثائق وبكافة فروع الإدارة الحكومية[١١٦] ؛ وفضلا عن هذا فإن الكتاب لانظير له بين المؤلفات الأخرى لأنه يعكس بصورة جلية صادقة حياة الشعب الهندى فى تلك الآونة التاريخية[١١٧] . وقد أضر بأبى الفضل بعض الشىء أسلوبه المتكلف المصنوع الذى يذكر بأسلوب النثر الفارسى المتأخر هذا إلى جانب ما يعتريه أحياناً من غموض يجعل فهمه عسيراً فى بعض الحالات ؛ ويعتقد جاريت أن ميزات أبى الفضل ككاتب قد بولغ فيها[١١٨] وجاء على لسانه مانصه حرفياً : «إن الميزة بل والميزة الوحيدة لآئين أكبرى تكمن فى المادة التى يرويها لا فى أسلوب عرضه لها الذى لايرتفع إلى درجة عالية . وهو جدير بالتخليد بين

الأجيال التالية بسبب منهجه الفريد فى جمع ما يتعلق بنظم الإدارة والإشراف فى دواوين الحكومة المختلفة فى دولة كبرى مسجلا إياها بأمانة فى أدق تفاصيلها ومدعماً عرضه بمجموعة هائلة من الأمثلة الواقعية التى تبين ضخامة هذه الدولة وسعة إمكانياتها وأحوال سكانها وصناعاتها الخ »[١١٩] .

ويمكن القول بكثير من الثقة أن قيمة « آئين أكبرى» لاتقتصر حتى فى أيامنا هذه على جانبه التاريخى وحده ، وقد عبر واحد من كبار مؤرخى التطور الحضارى للشرق الأدنى وهو كارا دى ڤو عن رأيه فى هذا الكتاب بما يأتى : « وبالاختصار فهذا أثر لا مثيل له ، وهو يفيض بالحياة والحركة وبالأفكار والمعرفة الجمة فقد بحثت فيه جميع مظاهر الحياة الاجتماعية وتم تنظيمها وتصنيفها بصورة مدهشة . وبهذا فهو يمثل وثيقة هامة يحق للحضارة الشرقية أن تفخر بها »[١٢٠] .

وبعد استماعنا لهذه الآراء السديدة فلسنا بحاجة إلى تبرير إدخال « آئين أكبرى » فى عرض عام للجغرافيا ؛ ولن يكون السبب الوحيد لذلك بالطبع علاقته بمؤلف البيرونى العظيم .

وثمة أثر آخر باللغة الفارسية ظهر فى حوالى ذلك الوقت وارتبط بعض الشىء بالوسط الذى ظهر فيه كتاب أبى الفضل يمكن أن يجتذب أنظارنا | بعنوانه وهو « هفت إقليم » (أى الأقاليم السبعة) رغما 531 من أنه ليس مصنفاً فى الجغرافيا العامة كما يمكن الاستنتاج بسهولة من عنوانه بل يمثل معجما فى السير وزعت مبادئه على أساس جغرافى ، فليس غريباً إذن أن يطغى عنصر السير على الكتاب[١٢١] . غير أن هذا الكتاب يحتوى على مادة جغرافية ضخمة جعلت البحاثة المعاصرين يعترفون بأهميته بالنسبة للسير وللجغرافيا على السواء[١٢٢] . ومؤلفه أمين أحمد رازى[١٢٣] غير معروف لنا جيداً ؛ وأصله من الرى وينحدر من أسرة غنية من أهل المناصب كان لبعض أفرادها صلة بالهند أيام السلطان أكبر ، ويلوح أن مؤلفنا نفسه قد زار الهند فى تلك الآونة . وقد أتم مؤلفه الضخم* فى عام ١٠٠٢ هـ = ١٥٩٤[١٢٤] بعد عمل دام ستة أعوام ، وهو يحتوى على ألف وخمسمائة وستين ترجمة لسير مشاهير الصوفية والكتاب والشعراء وعظماء التاريخ موزعة بحسب أماكن ميلادهم على المناطق المختلفة للأقاليم الجغرافية السبعة المشهورة ؛ ونحن نعلم جيداً أن كل إقليم كان يرتبط وفقاً للمذهب القديم بكوكب سيار[١٢٥] . ويوجد فى البداية جدول يبين مواقع الأماكن الجغرافية فى الأقاليم المختلفة[١٢٦] ، ثم إن كل إقليم على حدة يحتوى على مقدمة تمهيدية موجزة ذات طابع عام من ميدانى الجغرافيا والتاريخ ، فبلاد هندستان مثلا يصحبها ملخص تاريخى عن فتوح المسلمين بها . ولا يخلو الحال مع مدينة أو منطقة من إيراد تاريخها وعجائبها ومحاصيلها الرئيسية[١٢٧] . ويبدأ العرض بالطبع بالإقليم الأول الذى يضم اليمن وبلاد الزنج والنوبة والصين (چين) وسرنديب (سيلان) وجابلسا ، وينتهى بالإقليم السابع الذى يضم بلغار وصقلاب وباطك وباطن الروم وجابلقا ويأجوج ومأجوج . ومن هذا السرد يتبين لنا أن ذكر البلاد الأسطورية ما زال باقياً ، مثل جابلسا أو جابلقا التى ورد ذكرها عند المفسر والمحدث المشهور ابن عباس فى القرن الثامن الميلادى اعتماداً على أساطير مرتبطة بالكتاب المقدس ،

(*) ظهر فى ثلاثة أجزاء بطهران فى طبعة غير علمية . (المترجم)

كما لايزال المذهب القديم فى توزيع البلاد الذى رسخ وثبتت جذوره لدى ممثلى الجغرافيا الكلاسيكية والرحالين منذ القرن العاشر محتفظاً بكامل قوته . وبالطبع فأحمد أمين رازى لم يورد أية سير لشخصيات ترتبط بهذه البلاد الأسطورية ؛ كما أن قائمة البلاد فى الأقاليم الأخرى تحمل طابعاً أكثر واقعية فالإقليم الثانى مثلا يرد فيه ذكر البلاد الآتية مع تقسيمها أحياناً إلى أجزاء أصغر : مكة والمدينة واليمامة وهرمز والدكن (بنواحيها السبع) وأحمد أباد وكنبال وسورات وسومنات وناكور والبنغال (مع عدد من النواحى) وأوريسا*. وهكذا تشغل الهند مكانة رئيسية بحيث تشاطر إيران فى ذلك فى بقية الأقاليم | 532 . وإلقاء نظرة على القائمة الكاملة للبلدان(١٢٨) خير دليل على ما تمتعت به النظرية القديمة للجغرافيا التقليدية من تماسك ومقاومة فى جميع تفاصيلها إلى نهاية القرن السادس عشر ، وذلك رغما من الاتساع غير المعهود الذى طرأ آنذاك على الأفق الجغرافى من وجهة النظر العملية .

هذا وترد السير داخل الأقاليم المختلفة وفقاً للتتابع الزمنى ، فتمر أمام ناظرينا أسماء من ولدوا فى كل منطقة من الشعراء والعلماء والمشايخ والأمراء الذين تولوا الحكم فى نقاطها المختلفة ؛ ويولى المؤلف اهتماماً خاصاً لكبار الصوفية ويحتل مركز الأهمية فى الكتاب بالطبع ممثلو الثقافة الفارسية ، وبما أن الكتاب تغلب عليه المادة الأدبية فإننا نجد أنفسنا بحسب ألفاظ باربييه دى مينار Barbier du Meynard (١٢٩) أمام « ضرب من الجغرافيا الأدبية يخلو من أية قيمة علمية ولكنه يحفل بتفاصيل هامة عن كبار الكتاب الفرس » . وفى الحقيقة فإن لكتاب أحمد أمين رازى أهمية غير عادية بالنسبة لتاريخ الأدب الفارسى خاصة الشعر(١٣٠) ، غير أن المؤلف لايكشف بصدد الموضوعات الأخرى عن أية معرفة كبيرة ويسوق فى معظم الحالات قصصاً عادية للغاية استقاها من مصادر متداولة(١٣١) . ورغما من هذا فإنه يمكن العثور لديه حتى فيما يخص موضوعات جغرافية صرفة على تفاصيل غير متوقعة . ويميل أحمد زكى وليدى إلى الاعتقاد بأن المؤلف كانت فى متناول يده جغرافيا رشيد الدين التى لم يعثر عليها حتى الآن** (١٣٢) . غير أنه يجب الاستدراك على هذا بقولنا إن إشارة أحمد أمين رازى إلى كتاب يرتفع إلى العصر المغولى بعنوان « صور الأقاليم » وهى التى استند عليها أحمد زكى وليدى فى استنتاجه هذا ، لايوجد ما يجعلها تقتصر بالضرورة على مؤلف رشيد الدين بالذات . ومهما يكن من شىء فإن مصنف أحمد أمين رازى ذو أهمية كبرى بالنسبة لموضوع دراستنا لأنه يقف دليلا على الحيوية الفائقة التى تمتعت بها نظرية قديمة هى نظرية تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة بما يتبعها من تقسيمات داخلية . هذا بالرغم من أن وقائع الأحوال أخذت تتعارض مع مضمون هذه النظرية . وللبرهنة على هذا يجب ألا يعزب عن بالنا أن كتاب « هفت إقليم » قد تم تدوينه بعد مائة عام من اكتشاف أمريكا .

بل إنه بعد قرن من هذا عندما وجدت المادة الجديدة طريقها عرضاً إلى الجغرافيين الفرس ، فإنها

(*) فى النص المطبوع يرد كنايت وسورت بدلا من كنبال وسورات ، كما يرد اديسه بدلا من أوريسا (المترجم)

(**) من الأفضل مراجعة ملاحظتنا بصدد كلام المؤلف على مصنف رشيد الدين الجغرافى . (المترجم)

م تترك أثرها لا على مادة المؤلفات أو نمطها ولا على مضمونها العام ؛ وخير مثال لهذا مصنفان صغيران لميرزا أحمد صادق الأصفهانى الآزادانى (توفى حوالى عام ١٠٩١ هـ = ١٦٨٠)[١٣٣] ، وكلاهما معروف فى ترجمة إنجليزية منذ عام ١٨٣٢ يرجع الفضل فى ظهورها إلى أوزلى V. Ouseley[١٣٤] . ويبدو من نسبة الآزادانى أنه ينتمى إلى محلة صغيرة قرب اصفهان[١٣٥] | ولكن يلوح أن لديه معرفة مباشرة بالهند[١٣٦] لأن مواضعها الجغرافية تكثر فى مصنفيه لدى مقارنة ذلك بالأقطار الأخرى باستثناء إيران بالطبع . وتنسب إليه مؤلفات أخرى معظمها فى مجال التاريخ نذكر من بينها مؤلفاً كبيراً فى التاريخ العام[١٣٧] يرجع تأليفه إلى حوالى عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥[١٣٨] . 533

ومصنفاه الجغرافيان ينتميان إلى طراز الجداول الفلكية ويبدو أنهما يرتبطان ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً . وعنوان أولهما وهو « تقويم البلدان »[١٣٩] يذكرنا بأبى الفدا ، وهو يعتمد عليه اعتماداً كبيراً فى حقيقة الأمر[١٤٠] . والكتاب عبارة عن قائمة أبجدية لمختلف البلدان والمدن والأنهار وغير ذلك من الظواهر الجغرافية ، ويصحب هذا توضيحات موجزة مع الإشارة إلى خطوط الطول والعرض مبتدئا حسابها كما هى العادة من جزر الخالدات . أما الكتاب الثانى الذى كما يبدو قد حمل عنوان « تحقيق الاعراب فى أسماء البلاد »[١٤١] فإنه يقدم لنا بالتقريب نفس مادة الكتاب الأول وهدفه على ما يبدو هو ضبط الأسماء الجغرافية الموجودة بالقائمة الأولى ، وتوضيحاته فى هذا الصدد مفصلة بعض الشىء ولو أنه يخلو بطبيعة الحال من أى ذكر لخطوط الطول والعرض . وكما بين أوزلى Ouseley[١٤٢] فإن محمد صادق يضيف أحياناً إلى قائمته أسماء غير موجودة فى مصادر أخرى ، ولو أننا لانفهم ما المقصود من إقحامه لأسماء شخصيات تاريخية من وقت لآخر فى قائمة جغرافية (كاسم مزدك وططش)[١٤٣] .

ومن الملاحظ أن كلا الكتابين يخلو من مقدمة أو أية إشارة إلى المصادر ؛ غير أن مصادرهما واضحة بالنسبة لنا . فإلى جانب أبى الفدا يعتمد المؤلف اعتماداً أساسياً على الجداول الفليكة لنصير الدين طوسى ولألوغ بيك[١٤٤] ومن وقت لآخر على مصنف حمد الله قزوينى[١٤٥] . وقد اعتقد أوزلى عند نشره لترجمة الكتابين أن قائمتى محمد صادق تستطيعان من حيث الأهمية أن تقفا جنباً إلى جنب مع جداول طوسى وألوغ بيك ، غير أن هذا الرأى لم يكتب له القبول ، فقد كتب رينو بعد ذلك بسنوات قليلة يقول بأن هذين الأثرين ليسا على أهمية تذكر من الوجهة الجغرافية[١٤٦] لأن معلومات المؤلف فى مجال الجغرافيا الرياضية غير شاملة كما أن آراءه فى هذا الصدد لاتتمتع بقيمة ذات بال[١٤٧] .

ويمكن أن تحظى ببعض الطرافة بالنسبة لنا ملاحظة صغيرة وردت لديه ، فالموضع الأخير فى قائمة « تحقيق الاعراب » يحتابها لفظ « ينكى دنيا »[١٤٨] (أى الدنيا الجديدة ، يريد بذلك أمريكا) ؛ وهذه التسمية التى ترجع إلى أصل تركى وأيضاً الأسطر التى يعالج فيها الكلام عليها تبين لنا من أين وقع هذا الاسم الجديد إلى هذه القائمة العتيقة فى مجموعها . وهو يعلم تمام العلم عن اكتشاف ذلك الجزء الجديد من 534

العالم المدعو أمريكا ، ولكن متى تم هذا وكم مضى عليه من القرون فإن محمد صادق ليس بمقدوره أن يشبع رغبتنا فى هذا الصدد ولو أنه يعلم أن الأوروبيين أبحروا مراراً إلى تلك الجهات وأن خبر ذلك موجود لدى الأتراك العثمانيين . وعن هؤلاء الأخيرين بالطبع أخذ المؤلف هذا الخبر ؛ وسنرى فيما يلى من الكتاب أن الجغرافيا لدى الأتراك العثمانيين قد تفوقت بكثير على الجغرافيا عند الفرس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ليس ذلك فحسب بل إنهم تفوقوا فى نواح معينة على الجغرافيين العرب أنفسهم . هذا وقد ظلت الجغرافيا الفارسية حتى بعد عهد محمد صادق متردية إلى النظريات القديمة بحيث لم تستطع المعلومات الجديدة التى وجدت طريقها عرضاً إليها أن تخرجها من إطارها البالى . غير أن هذا لم يمنع من ظهور مؤلفات كبيرة فى خلال القرن السابع عشر نفسه ، ولو أن ذلك تم خارج حدود إيران فى مناطق أخرى انتعشت فيها الفارسية أيضاً . ولنقدم لهذا مؤلفاً عاش ببخارى هو محمد بن أمير ولى الذى ألف كتاباً فى التاريخ العام فى ستة أجزاء بعنوان « بحر الأسرار فى (معرفة) مناقب الأخيار » . وقد كلفه بذلك أمير بخارى من أسرة الجنيديين وهو نادر محمد (١٠٥١ هـ — ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٢ — ١٦٤٥) ، وبدأ تأليفه فى عام ١٠٤٤ هـ = ١٦٣٤ . والجزء الأول منه ينقسم إلى أربعة « أركان » ويعالج بإسهاب مسائل الكوزموغرافيا وذلك بحسب الطريقة التقليدية المعروفة لنا جيداً . وأهم مصادره رشيد الدين وحافظ آبرو[١٤٩] . أما أهميته كمصدر تاريخى فقد انعكست بوضوح كاف فى أبحاث بارتولد وزكى وليدى .

وقد تم اطراح المذهب القديم السائد فى الأدب الجغرافى الفارسى شيئاً فشيئاً خلال القرن التاسع عشر فقط ، وبعض ظواهره تمثل طرافة معينة لدى مقارنتها بما سنقوله عن الأدب العربى فى نفس ذلك العصر*

ولكن حتى فى خلال تلك الفترة يمكن أن نلتقى أحياناً بعدد من الآثار التى تحتل أهمية بالنسبة للأدب الجغرافى لا من وجهة نظر الوقائع التى توردها فحسب بل أحياناً لمحاولتها الأصيلة فى الجمع بين الأنماط المختلفة . وبما أن القول بالقول يذكر فمن الملاحظ أن عدداً كبيراً من أوصاف الرحلات إلى الخارج قد ظهر بالفارسية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين (أى الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى) ؛ وكان اتجاه معظم هذه الرحلات كما كان الحال قديماً إلى الهند ، غير أن عدداً منها ليس بالضئيل اتجه إلى أوروبا بأغراض دبلوماسية أو تجارية ، وبعضها مس روسيا سواء بطريق مباشر أو غير مباشر[١٥٠]. 635
ومما يؤسف له أن جميعها معروف إلى أيامنا هذه فى مخطوطات متفرقة لم تمسها يد البحث إطلاقاً بالرغم من أن جميع الدلائل تشير إلى أن إخضاعها لدراسة خاصة سيعود بفوائد جمة سواء بالنسبة لدراسة الجغرافيا التاريخية للبلدان التى زارها هؤلاء المؤلفون أو بالنسبة لتحليل العصر الذى عاشوا فيه .

وتشهد بداية القرن التاسع عشر نفسه (١٢١٥ هـ — ١٢١٦ هـ = ١٨٠٠ — ١٨١٠) ظهور أثر

(*) مما يؤسف له حقاً أن الأجل لم يفسح للمستعرب الكبير ليتم مصنفه بعرض تاريخ تطور الأدب الجغرافى العربى الحديث والمعاصر ، فكتابه يقف عند الفصل الرابع والعشرين الذى يعالج الكلام على القرن الثامن عشر . (المترجم)

طريف عرف قسم منه فى طبعة حجرية ظهرت ببمباى فى عام ١٨٤٧ ، وهو ينتمى إلى طراز من المؤلفات سنلتقى به من وقت لآخر فيما بعد هو طراز من الجغرافيا الإقليمية المشوبة بوصف للرحلة مع معطيات عن حياة المؤلف وأسرته . وعنوانه « تحفة العالم »[١٥١] قد أفسح المجال لبعض الخلط لما يرتبط به من لعب بالألفاظ ؛ فاللفظ الثانى من العنوان توجد فيه إلى جانب معناه الأصلى إشارة إلى لقب « العَلَم » وكان يحمله وزير نظام حيدر أباد مير عالم الذى رفع المؤلف مصنفه إليه* .

ومؤلف هذا الكتاب عبد اللطيف الشسترى (أو الششترى) ولد كما تشير النسبة بمدينة ششتر فى عام ١١٧٢ هـ = ١٧٥٨ وينتمى إلى أسرة محلية عريقة ؛ وقد ترحل كثيراً فزار أجزاء من إيران مثل شيراز وكرمانشاه كما زار بغداد أيضاً . وفى عام ١٢٠٢ هـ = ١٧٨٨ أخذ سفينة من ميناء البصرة فنزل بأرض البنغال وأمضى فترة طويلة بالهند ؛ ومما يثبت هذا تاريخ تصنيف الكتاب والشخص الذى رفعه إليه . ويبدأ المصنف بوصف مسهب لمسقط رأس المؤلف ششتر مورداً تفاصيل عديدة عن إنشائها ووصفاً هاماً لنظام الرى بها . وتحظى بنفس الوصف المفصل المدن القريبة منها ومنطقة الأهواز ودزفول والمدائن ؛ ويلى هذا استطراد مسهب يحتوى تراجم لأفراد أسرة نورى سيد التى ينتمى إليها المؤلف نفسه ، وفى القسم المضاف إلى هذا والذى يعالج الكلام على سيرة مؤلف الكتاب يرد الكلام عن تاريخ الهند ووصف لكلكتا والبنغال ولحيدر أباد والدكن . وفى خلال هذا يقدم لنا المؤلف معلومات مفصلة بما فيه الكفاية عن توطيد بريطانيا لأقدامها بالهند وعن الإنجليز أنفسهم كما يعالج الكلام عن أمريكا وبعض دول أوروبا معتمداً فى ذلك على المعلومات التى جمعها أثناء رحلته من أناس مختلفين كان من بينهم بعض الأوروبيين. وهكذا فالكتاب يقترب إلى حد ما من الأوصاف الجغرافية العامة للعالم ، مبرراً بهذا اختيار المؤلف للعنوان الذى أعطاه إياه . ومن المؤكد أن أهمية أقسامه الأخيرة تتركز فيما تقدمه لنا من معلومات عن المؤلف نفسه أكثر مما تقدمه عن الموضوعات التى يطرقها ؛ أما الأقسام الأولى التى تعالج الكلام بصورة خاصة على منطقة إيران الغربية فإنها تحتوى على مادة لا بأس بها من مجال الجغرافيا التاريخية لتلك المنطقة .

وفى وقت واحد بالتقريب مع ظهور « تحفة العالم » ظهر بالهند وصف لرحلة إلى أوروبا اكتسب بالتالى رواجاً نسبياً فى الغرب بفضل الترجمات التى عملت له ؛ أما مؤلفه ميرزا أبو طالب خان بن حاجى محمد بيك خان فهو تركى الأصل ولكنه ولد بلكنو بالهند فى سنة ١١٦٥ هـ = ١٧٥٢ واتصل منذ وقت مبكر بالإنجليز وشغل معهم عدة وظائف فى الفترة ما بين ١٧٩٥ و١٨٠٢ . ثم صحب أحد هؤلاء وهو الكابتن ريتشاردسون D. Richardson الذى أقام فترة طويلة بالهند فى رحلة إلى أوروبا فزار انجلترا وغيرها من البلاد ورجع إلى وطنه عن طريق القسطنطينية حيث تعرف فيها بفون هامر Hammer ؛ ومن المؤسف أن الأخير لا يذكر عنه شيئاً فى « ذكرياته » (Erinnerungen) باستثناء حكاية

536

(*) لابد وأن المستعرب الكبير قد التبس عليه الأمر ها هنا ، فخلط بين لفظى عالم وعلم . (المترجم)

تافهة[١٥٢] . وعقب رجوعه إلى كلكتا وضع فى عام ١٨٠٣ وصفاً لرحلته بعنوان « مسير طالبى فى بلاد افرنجى » ، طبع بكلكتا فى عام ١٨١٢ وذلك بعد وفاة المؤلف (توفى فى حوالى عام ١٨٠٦) . ويرجع الفضل إلى الإنجليز فى تعريف أوروبا سريعاً بهذه الرحلة ، فقد ظهرت ترجمة إنجليزية لها حوالى عام ١٨١٤ بلندن بقلم استوارت Stewart تلتها ترجمة أخرى مختصرة فى عام ١٨٢٧ بكلكتا بقلم ماكفرلين Macfarlane نقلها إلى الفرنسية منذ عام ١٨١٩ مالو Malo[١٥٣] .

ويقترب المصنف من حيث طرازه من أوصاف الرحلات التركية العديدة المعروفة باسم « سفارتنامه » التى ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وهى أوصاف للسفارات التى بعث بها الباب العالى إلى مختلف الحكومات الأوروبية . ويقدم لنا المؤلف فى مواضع من مصنفه لوحة حية لما رآه من البلاد ولمن قابلهم من الشخصيات ولو أن الوصف لا يخلو فى العادة من بعض السطحية ؛ وكما يحدث مراراً فى مثل هذه الأحوال فإن الكتاب أكثر قيمة لتفهم شخصية المؤلف نفسه مما بالنسبة للموضوعات التى يطرقها ؛ أما اهتمام أوروبا المعاصرة له بمثل هذه الأشياء فأمر مفهوم للجميع .

وأكثر أهمية من تلك الرحلة بل وأوسع مدى من وجهة النظر الجغرافية مع ميول أدبية واضحة وصف لرحلة بعنوان « بستان السياحة » تم تأليفه فى عام ١٢٤٧ هـ - ١٨٣١ - ١٨٣٢ ويوجد فى طبعة حجرية ترجع إلى عام ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ - ١٨٩٣[١٥٤] ؛ وأول من عرف الدوائر العلمية الأوروبية بهذه الرحلة (وذلك تحت عنوان « رياض السياحة ») هو المستشرق الروسى خانيكوف Khanikov وذلك فى خطاب بعث به إلى المستشرق دورن Dorn من نعمتاباد يحمل تاريخ ٤ - ١٦ سبتمبر ١٨٥٦[١٥٥] وكانت موجودة بين يديه مخطوطة تضم القسم الأول وحده . ومؤلفه زين العابدين الشروانى يمثل طرازاً من الناس نلتقى به كثيراً بين الفرس فى جميع العصور ، وهو الباحث عن الحقيقة المجردة الذى يدفعه شوق لا يكبح جماحه ليصير درويشاً متجولا يضرب فى الآفاق . والرجل يمثل أهمية خاصة بالنسبة لنا فى الاتحاد السوفيتى لأنه ولد فى عام ١١٩٤ هـ - ١٧٨٠ بشماخة والحق والده آخنده وهو فى سن الخامسة عندما قرر مغادرة القوقاز سنوات المحنة ليقيم بكربلاء معقل الشيعة . وهناك عاش زين العابدين إلى أن بلغ سن السابعة عشرة يدرس خلال ذلك العلوم الإسلامية المعهودة ؛ ولكن فى تلك السن ساوره الشك حول موضوع دراسته ووقع فريسة لقلق فكرى شديد فبدأ تجواله الذى امتد لسنوات طويلة كان يبحث فى خلالها عن العلم الصحيح والحقيقة . فزار العراق (بغداد) وعاش طويلا بكيلان وزار مسقط رأسه شروان ومر فى طريقه على مناطق عديدة فى القوقاز وآذربيجان ، ثم ضرب صوب الشرق فمر على خراسان فى طريقه إلى أفغانستان ثم إلى الهند فكشمير فبدخشان ، ومن هناك انتقل إلى تركستان وبلاد ماوراء النهر ومنها اتجه جنوباً صوب الخليج الفارسى ثم زار اليمن والحبشة والحجاز ومصر وسيناء وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ؛ ويلوح أنه زار أيضاً جزر البحر الأبيض المتوسط ومراكش . ورجع عقب هذا إلى

إيران ماراً فى طريقه على أرمينيا وأقام بعض الوقت بطهران وهمدان واصفهان وشيراز وكرمان . واختار فى آخر الأمر مقراً له فى محلة صغيرة على مقربة من اصفهان تسمى قومشه وهناك وافاه أجله فى فى الثلاثينيات من القرن الماضى . وهو بالطبع لم يعثر على الحقيقة التى كان يجرى وراءها ، لذا فإن خاتمة قصته التى دونها لسيرة حياته تفيض بالتشاؤم التام ويطغى عليها شعور بالحسرة وخيبة الأمل(١٥٦) ؛ إزاء هذا فلم يتبق له كما يقول هو سوى رغبة واحدة هى تدوين جميع ما مر به خلال خمس وعشرين سنة وإعطاء فكرة عن العدد الهائل من الناس الذين حادثهم فى المسائل التى أقلقت باله(١٥٧) . ويلوح أنه كان مخلصاً فى هذا الشعور ؛ وعلى أية حال فهو لم يتحرج عن التعبير بصراحة عن رأيه فى الفرق الإسلامية المختلفة الذى حدث له وأن التقى بها(١٥٨) . فهو إذن درويش مأشكك جعل هدفه قبل كل شىء مقابلة العلماء والمتصوفين الذين كان ينهى محادثته معهم عادة بجدل وخصومة شديدين .

وكتابه بالطبع لا يمثل سرداً متتابعاً للرحلة ، كما أن ميله إلى الصنعة والتدبيق قد خيم على روح القصة خاصة استعماله لعناوين متكلفة مثل « سير » (نزهة) و« كلشن » (بستان الورد) و« بهار » (الربيع) . ويمكن أن نستبين من مادة الكتاب أنه ينقسم إلى أربعة فصول ، أحدها عن الأنبياء وأئمة الشيعة الاثنى عشر ، والثانى عن العلماء والمتصوفين والشعراء ، والثالث عن الطوائف والتعاليم الدينية المختلفة ، والرابع عن المدن التى زارها مع توزيعها بحسب حروف المعجم إلى ثمان وعشرين مجموعة . أما من وجهة النظر الجغرافية فإن المادة الأخيرة التى تتضمن إلى جانب الوصف الجغرافى عرضاً قصيراً لتاريخ كل مدينة فهى ذات أهمية كبرى خاصة وأنه استقى مادته فى كثير من الأحايين من مصادر غير معروفة لنا . وتكتسب روايته أهمية خاصة عندما تعالج الكلام عن تلك المناطق التى تعد بحسب تعبير خانيكوف « أراض مجهولة » Terrae Incognitae مثل كوهستان وزابلستان من جهة وجوف الجزيرة العربية والسودان والحبشة من جهة أخرى(١٥٩) . والمؤلف يتمتع بدرجة عالية من حب الاستطلاع ويخلو من الميل إلى التعصب الدينى على عكس غالبية الدراويش . وهو قد التقى فى طريقه ببعض الرحالة الأوروبيين وسألهم عن بلادهم . ومؤلفنا يقصد بلفظ افرنجى ثلاث مجموعات هم الفرنسيون والنمساويون والإنجليز ؛ وليس من النادر أن نلتقى لديه بآراء سطحية بالية مثال ذلك أنه يرى الروس مهرة كبقية الفرنجة (« مورتكرى ») ولكنهم يفتقرون تماماً إلى الروح (« جان ندارند »)(١٦٠) . وليس ثمة ما يدعونا إلى التوكيد بصورة خاصة أن كتابه يحفل إلى جانب المادة الجغرافية الخالصة بمعلومات ذات قيمة كبرى عن الأدباء والطوائف الدينية المختلفة بآسيا(١٦١) ؛ وكتاب الشروانى وإن اعتبر وثيقة إنسانية طريفة إلا أنه ينتمى بأجمعه إلى العصور الوسطى للأدب الإسلامى .

ويمكن اعتبار الفترة الطويلة التى رقى فيها عرش إيران لمدة تقرب من نصف قرن الشاه ناصر الدين (١٨٤٨ — ١٨٩٦)(١٦٢) بمثابة فاتحة عهد جديد انتعش فيه التأليف الجغرافى بصورة منقطعة النظير ؛ حقاً ان الأنماط القديمة كالرحلة والمعجم والوصف الإقليمى (regional) لم يقل الاهتمام

بها ولكن أسلوب الكتابة قبل كل شيء طرأ عليه ولو بالتدريج تغير جوهرى فقد اطرح النثر المتكلف المشحون بالمحسنات البديعية الذى غلب على القرون السابقة وحلت محله لغة مبسطة ذات طابع عملى سادت بدورها على المجالات الأدبية والعلمية الأخرى وعلى المؤلفات التى قصد بها دوائر أوسع من القراء .

وواحد من أوائل هذه المصنفات التى بشرت بميلاد عهد جديد ندين به إلى قلم رجل من كبار رجالات هذا العصر وهو المؤرخ الأديب الشاعر رضاقلى خان (١٨٠٠ - ١٨٧١) أحد كبار معاونى الشاه ناصر الدين ومن المقربين اه ، وأول مدير لأول معهد عال بإيران « دار الفنون »[١٦٣] . وقد بعث به الشاه فى عام ١٨٥١ بسفارة إلى خيوه لتسوية بعض الخلافات الناشبة بين إيران وخانات خيوه فخلف لنا وصفاً لرحلته على هيئة يوميات تحفل بالكثير من الاستطرادات . وقد نشر الأصل والترجمة الفرنسية المستشرق شيفير Schefér وبهذا دخل الكتاب منذ السبعينات من القرن الماضى فى مجال تدريس اللغة الفارسية بالقارة الأوروبية .

ولاتقتصر مادة الكتاب على خيوه وحدها لأن رضاقلى خان يقدم إلى جانب هذا وصفاً عاماً لطبرستان ومازندران ، كما يصف فى القسم الأخير من كتابه بخارى وفرغانه وتركستان الصينية وهرات ومرو . ولكن خيوه تحتل بالطبع مركز الصدارة لديه فهو يتكلم عن المدينة والمقاطعة على السواء بمحالها والشخصيات الكبرى التى أقامت بها ، كما يولى عناية خاصة لتاريخ خانات خيوه بالذات ، ولكنه ليس أقل اهتماماً بعادات أهلها المعاصرين بل وبكل ما هو جدير بالاهتمام فيها ؛ وله فى هذا الصدد محادثات طويلة | مع الخان فى مسائل مختلفة تمس التاريخ الإسلامى . وفى الخاتمة يدون المؤلف بعض الحوادث التى تمس تاريخ العلاقات بين خيوه وإيران وجرت بعد حدوث الرحلة . 539

والكتاب إلى جانب أهميته بالنسبة لسيرة حياة مؤلفه يعتبر وثيقة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ خانات خيوه استقى منه المؤرخون المتأخرون وبالذات تلميذ رضاقلى خان المدعو محمد حسن خان الذى سيمر بنا الكلام عليه بعد لحظة وجيزة . وفضلا عن هذا فهو لا يقل قيمة فيما يتعلق بمعطياته التاريخية والجغرافية والأثرية ، كما أنه يساعد كثيراً على تفهم أخلاق وعادات تلك الفترة التاريخية بأجمعها ولا يقتصر على ما لاحظه المؤلف أثناء الرحلة فحسب . وفيه يرسم المؤلف لوحات واضحة للحياة المحلية بل ويعطى أوصافاً جميلة لمناظر الطبيعة[١٦٤] ؛ ويتخلل القصة جميعها أمانة شديدة فى السرد وميل إلى عدم التحيز عند إصدار حكمه ، أضف إلى هذا قوة ملاحظته النافذة . أما أسلوبه فبسيط وطبيعى ولكنه يتصف بالرشاقة ولايخلو أحياناً من اتجاه واضح نحو القديم ، ويمكن أن نتبين إعجابه بهذا القديم فى العدد الهائل من الاقتباسات الشعرية التى تنتثر فى كتابه والتى استقى معظمها من آثار سعدى أو من شعره هو[١٦٥] . أما من حيث المنهج فإن الكتاب يمثل أنموذجاً جيداً لطراز محبب إلى الجمهور هدفه المزج بين الجغرافيا الإقليمية التى تستند على قاعدة تاريخية وبين وصف الرحلة الذى تتخلله ترجمة شخصية لحياة المؤلف .

ومن العسير القول إلى أية درجة يمكن أن تنسب إلى الشاه ناصر الدين شخصيا تلك المؤلفات الجغرافية المرتبطة عادة باسمه[١٦٦] ، هذا ولو أن اهتمامه بالجغرافيا ، ولو فى مفهومها البدائى ، ليس موضعاً للشك . ويبدو هذا قبل كل شىء فى رحلاته العديدة التى قام بها فى إيران نفسها حيث زار مازندران[١٦٧] وخوزستان وكربلاء وخراسان ، كما ينعكس أيضاً فى رحلاته الثلاثة إلى أوروبا (١٨٧٣ ، ١٨٧٨[١٦٨] ، ١٨٨٩)[١٦٩] وهو شىء لم يكن ليفكر فيه أحد من حكام الشرق فى العهود السابقة . وكل رحلة من هذه الرحلات بالتقريب لها وصفها الخاص بها ، وقد كان وصف الرحلة الأولى أول كتاب يخرج من المطبعة الأميرية الجديدة وذلك فى عام ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤[١٧٠] ؛ وجميعها طبع أكثر من مرة بالحجر بإيران وتحمل اسم الشاه كمؤلف كما أن عدداً منها قد ترجم إلى اللغات الأوروبية البعض فى ترجمات كاملة والبعض الآخر على شكل نصوص مختارة . ومن المعروف بوجه التحديد أن بعضها « حررته » أقلام شخصيات أخرى مثل رحلته إلى كربلاء التى ينسب تدوينها إلى محمد حسن خان | أحد معاونى الشاه المقربين إليه والذى صحبه فى أكثر من رحلة . وقد لعبت هذه الشخصية دوراً ليس بالضئيل فى تطور التأليف الجغرافى فى العصر الحديث بإيران وسنقف للكلام عليه بعد لحظة وجيزة ، ومن الممكن القول بأنه لعب دوراً مشابهاً فى تحضير مسودات الأوصاف الأخرى لرحلات الشاه أو استعان فى هذا بمعاونيه العديدين.

ومهما يكن من شىء فإن أوصاف رحلات الشاه ناصر الدين من الظواهر المهمة فى الأدب الفارسى للقرن التاسع عشر ، وهى من وجهة النظر هذه قد استحقت تقدير الدوائر العلمية الأوروبية منذ عهد طويل . أما بالنسبة لنا فيهمنا قبل كل شىء رحلاته داخل إيران التى بدأت بها هذه السلسلة ؛ ويغلب على أسلوبها الرتابة والجفاف بعض الشىء ولكنها تقدم كمية هائلة من مختلف المعلومات فى محيط الاثنوغرافيا والحياة الاجتماعية والآثار والجغرافيا الطبيعية مصحوبة بملاحظات المؤلف الشخصية . وأغلب عنايته موجه بالطبع إلى مجالى الجغرافيا والطبوغرافيا فهو يبين بالتفصيل الطرق والمسافات بين المنازل وأسماء القرى والمحال والجبال والأنهار ، وكثيراً ما ترد لديه معلومات عن مواضع كان بلوغها مستحيلا على أى شخص بخلاف الزائر العظيم[١٧١] . ويتفق المتخصصون فى الدراسات الإيرانية بالإجماع على أن أسلوب هذه الأوصاف يتمتع بميزات عديدة فهى مكتوبة بلغة منتقاة تتصف بالبساطة والوضوح وتطرح المحسنات البديعة التى كانت ما تزال غالبة فى ذلك الوقت على لغة أدباء البلاط[١٧٢] ، كما أنها تخلو من آثار الصنعة فلا توجد بها التشبيهات والاستعارات بل يحس من خلالها ميل واضح إلى التعابير المتداولة وإلى الوضوح المطلق بحيث لا تفسح مجالا للغموض أو الإبهام[١٧٣] وجميع هذه الأوصاف مكتوبة باللغة المتداولة فى الحياة اليومية[١٧٤] وبهذا فقد ساهمت بنصيب وافر فى تبسيط النثر الفارسى فى القرن التاسع عشر[١٧٥] .

وجميع ما ذكرناه فى هذا الصدد يصدق بدوره على يوميات الشاه المتعلقة برحلاته إلى القارة الأوروبية . وقد كانت هذه الرحلات شيئاً جديداً بالنسبة للفرس فى ما يتعلق بمضمونها ، فدورها فى تعريفهم بأوروبا

كان كبيراً للغاية ، أما بالنسبة لنا فإنها تنضم إلى سلسلة طريفة أعني رحلات ملوك الشرق إلى أوروبا التي سنلتقي بعدد كبير منها عندما نعالج الكلام على الأدب العربي في هذا العصر . وأهميتها بالنسبة لنا ليست بالطبع في وصفها للدول التي تتكلم عنها بقدر ما في تصويرها للانطباعات التي حدثت في نفسية مؤلفيها ؛ وبهذا فإن اليوميات تقدم لنا مادة حافلة وصلت إلى أيدي غير المتخصصين بفضل الترجمات المختلفة التي عملت لها باللغات الأوروبية[١٧٦] .

541 وقد لعب دوراً ليس أقل من هذا إن لم يكن أكبر في تطوير الأدب الجغرافي الفارسي محمد حسن خان (توفي في ٢١ مارس ١٨٩٦)[١٧٧] ، رغماً من أن الشك أحاط أحياناً بحقيقة تأليفه للمصنفات التي تحمل اسمه[١٧٨] . وهو قد شغل مناصب هامة في الدولة وحمل ألقاباً مشرفة مثل « صنيع الدولة » و « اعتماد السلطنة » ، كما كان بلاشك القوة الدافعة المحركة وراء عدد من المؤلفين والمصنفات بل إن اسمه قد ظهر تحت عناوين مؤلفات ذات طابع جماعي . هذا وقد ترك لنا عالم الإيرانيات الروسي جوكوفسكي Jukovski الذي عرفه جيداً تحليلا لنشاطه الأدبي لا يخرج منه بصفقة المجنون ، أما مكانته الأدبية فلا يرقى إليها بالطبع أدنى شك .

كان محمد حسن خان بمثابة أول خريج لأعلى معهد بإيران وهو « دار الفنون » الذي تم افتتاحه في عام ١٨٥٢ والذي التحق به محمد خان منذ السنة الأولى ؛ وقد لعب هذا المعهد دوراً كبيراً في تطور الثقافة الإيرانية الحديثة وارتبط اسمه بنشاط أول مدير له وهو رضاقلي خان . ثم أمضى مؤلفنا بعد هذا ثلاثة أعوام ونصف يعمل بسفارة إيران بفرنسا[١٧٩] ، وعقب رجوعه إلى وطنه صحب الشاه في رحلته إلى خراسان وفي زيارته الأولى إلى أوروبا[١٨٠] ؛ وكما ذكرنا في حينه فهو الذي يقف وراء تدوين وصف رحلة الشاه إلى كربلاء[١٨١] . وفي مؤلفاته العديدة تتجه عنايته الكبرى إلى المسائل المتعلقة بالجغرافيا التاريخية ؛ وقد كان لمعرفته باللغات الأجنبية واطلاعه على بعض المؤلفات الأوروبية[١٨٢] أن يسر عليه ذلك مهمة تبسيط الأفكار الجغرافية لبني وطنه من ناحية ووضع دراسات خاصة بجغرافيا بلاده من ناحية أخرى . ومما تجدر الإشارة إليه مثلا أنه قد نشر في عام ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ كتاباً في تاريخ اكتشاف أمريكا[١٨٣] ، وفي عام ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ — ١٩٠٠ كتاباً في وصف رحلات استانلي Stanley في جوف أفريقيا[١٨٤] ، كما أخذ طرفاً في ترجمة حكاية أسفار الكابتن هتراس Le Capitaine Hatteras إلى القطب الشمالي[١٨٥] وملحمة أسفار روبنسون كروزو Robinson Crousoe[١٨٦] . وترتبط باسمه 542 أيضاً رسالة تاريخية طوبوغرافية عن جبال شروين (سوادكوه) بمازندران (« التدوين في جبال شروين » ظهرت في طبعة حجرية في عام ١٣١١ هـ = ١٨٩٣ — ١٨٩٤)[١٨٧] . أما مؤلفاته الأكثر جدية فإنها كثيراً ما تعتمد على مواد لم تصل إلى متناول أيدي العلماء الأوروبيين[١٨٨] ، وهو يستعمل عدداً من الوثائق الأصلية[١٨٩] التي استطاع أن يصل إليها بفضل مركزه الحكومي . ومما يرفع من قيمة مؤلفاته أن محمد حسن خان يتمتع بأسلوب سهل للغاية ،

ولو أن آثاره المختلفة ، سواء العلمية منها أوتلك التى عملها من أجل جمهرة القراء ، لاتعكس لغة الحياة اليومية بالدرجة التى نلتقى بها فى يوميات الشاه[١٩٠] .

ومن بين مؤلفاته التى تهمنا والتى كانت لها قيمة كبيرة بالنسبة لعصره ومازالت محتفظة إلى حدما ببعض هذه القيمة إلى أيامنا هذه ، يجب أن تفرد مكانة خاصة لاثنين منها كلاهما يتمم سلسلة أنماط قد ما معروفة لنا جيدا : أحدهما وهو « مرآة البلدان »[١٩١] عبارة عن معجم جغرافى ضخم يقوم أساساً على فكرة واسعة و توزع المادة فيه وفقاً لحروف المعجم ؛ وهدف هذا المعجم ليس تقديم معلومات جغرافية فحسب بل وتاريخية أيضاً عن أهم الولايات والمدن والقرى الوارد ذكرها فيه . غير أن المؤلف لم يستطع تحقيق هذا المشروع الضخم ، وكأنما طغت المادة فانفجرت من الإطار الذى أحاطه بها فتوقف نشر الكتاب فى أواخر السبعينيات من القرن الماضى عند الجزء الرابع[١٩٢] ولما يتجاوز الحروف الخمسة الأولى من الأبجدية[١٩٣] . ولعل من العوامل التى تسببت فى تعطيل سير الكتاب أن المؤلف عند بلوغه إلى مدينة « تهران » فى الجزء الثانى من معجمه رأى من الضرورى أن يفرد المجال للكلام على تاريخ إيران فى السنوات المائة الأخيرة خاصة فى عهد ناصر الدين فشغل بذلك القسم الأساسى من الجزئين الثانى والثالث ، هذا إذا غضضنا النظر عن التقويم الذى ذيل به هذين الجزئين وأيضاً عن قائمة بحوادث الأعوام الأخيرة . وكمرشد عام فإن الكتاب فيما نشر منه يقف على مستو رفيع من حيث القيمة العملية خاصة فيما يتعلق بإيران ولو أن المؤلف يعتمد فى ذلك اعتماداً أساسياً على المادة التقليدية المعروفة لنا ، سواء استقاها من مصادرها العربية أو الفارسية . وهو فى حالات معينة يوسع من نطاق مادته بإضافة ملاحظاته الشخصية وبعض المعطيات المختلفة عن الوضع فى زمانه ؛ ولايخلو من الطرافة فيما يتصل بالطابع العام للكتاب أن نلاحظ أن المؤلف يدخل فى إضافاته للجزء الرابع معلومات عن الدول الأوروبية والأمريكية موزعة بدورها وفقاً للطريقة الأبجدية . وهو يذكرنا فى هذا بما فعله أحد الناشرين العرب المعاصرين عندما أضاف ذيلا مشابهاً إلى طبعته التى أصدرها لمعجم ياقوت .

548

وفى منتصف السنوات الثمانينات[١٩٤] وذلك عقب الرحلة التى قام بها الشاه الى خراسان نشر محمد حسن خان أثراً ضخماً فى ثلاثة أجزاء بعنوان « مطلع الشمس »[١٩٥] ، وهو « مصنف أساسى » كما وصفه جوكوفسكى[١٩٦] ويمكن اعتباره إلى حدما تتمة لمعجمه الجغرافى «مرآة البلدان» . وبما أنه من المفروض أن تشغل خراسان مكاناً هاماً فى الأحرف الأولى للأبجدية فقد أفرد لها المؤلف جانباً خاصاً اعتمد فيه على رحلة الشاه إلى مزار مشهد[١٩٧] ، ونتيجة لهذا نجد أمامنا أثراً من طراز الجغرافيا الإقليمية يرتبط من ناحية بوصف الرحلة ومن ناحية أخرى بنمط المعاجم ويحوى وصفاً مفصلا لخراسان وتاريخها مع الاهتمام بصورة خاصة بمدينة مشهد التى تشغل الجزء الثانى بتمامه . أما المادة فيعالجها بالطريقة المعروفة لنا جيداً من المصنفات العربية المشابهة ، فيتلو وصف وتاريخ كل موضع جغرافى الكلام على مشاهير رجاله ،

وأحياناً قد يفسح هذا المجال لاستطرادات مطولة تتحول إلى مختارات أدبية إذا ما تعلق الأمر بشاعر ما[١٩٨].
ولقد أصبح هذا الكتاب مصدراً من الدرجة الأولى عن خراسان فى القرن التاسع عشر وذلك لاقتصاره على موضوع محدود عند مقارنته « بمرآة البلدان » ولإيراده لعدد عن الانطباعات المباشرة والحية من رحلة الشاه القريبة الأمد ، أضف إلى هذا أنه يقدم معلومات عن مواضع ليس فى مقدور الرحالة بلوغها ، وينعكس تأثير المنهج الجديد على المؤلف فى تزويده كتابه برسوم وتخطيطات للآثار التى يتحدث عنها كما نبصر من مثال مشهد ؛ وهو يصف فى الجزء الأول الطريق إلى مشهد ماراً بدماوند وفيروزكوه وبسطام وبجنرد Budjnurd وكوشان مع ذكر جميع المنازل الواقعة بينها . أما الجزء الثانى فكرس لوصف مفصل للغاية لمدينة مشهد وآثارها وتاريخها ابتداء من ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ إلى ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٥ ومشاهير رجالها وقائمة بأسماء الكتب الموجودة بمكتبتها ، ويشمل هذا الجزء إلى جانب ذلك على جميع سيرة حياة الشاه طهماسب التى كتبها بنفسه والتى يسوقها إلى عام ٩٦٩ هـ = ١٥٦١ . أما الجزء الثالث فيصف طريق عودة الشاه وهو طريق الحج المعهود الذى يمر بنيشابور وسبزور وشاهرود ودامغان وسمنان ؛ والمؤلف يترك لنا وصفاً مفصلا لجميع الأماكن المأهولة وسير الشخصيات التى ارتبطت بها[١٩٩].
544 ورغما عن جميع العيوب التى ترتبط بهذا الكتاب من جهة تبويبه فإنه لا يمكننا إلا أن نوافق بجوكوفسكى فى تقييمه للمادة التى يحويها .

ولاشك أن نمو الاهتمام بالأدب الجغرافى فى إيران خلال هذه السنوات العشر يرجع إلى حد كبير إلى تأثير مؤلفات محمد حسن خان . وقد اشتد الطلب بصورة ماسة على المؤلفات الجغرافية من كل نوع بما فى ذلك التقاويم ، فنى عام ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧ — ١٨٨٨ نشر محمد تقى خان تحت عنوان « كنج دانش » شيئاً أشبه بدائرة معارف للأسماء الجغرافية الفارسية فى خمسمائة وأربع وسبعين صفحة ، ويمكن أن نحس بعض تأثير المذهب التجديدى من أن المؤلف قد ذيل كتابه بقائمة تشمل أسماء المؤلفين الذين رجع إليهم[٢٠٠].

وبعد عشرة أعوام من تأليف وصف خراسان لمحمد خان ظهر بإيران ثانى كتاب فى الجغرافيا الإقليمية لا يقل قيمة عن الكتاب السابق له . وهو مخصص لوصف ولاية فارس بعنوان « فارسنامه ناصرى » لحاجى ميرزا حسين فسائى . وقد وصف براون Browne هذا الأثر الضخم الذى يقع فى أكثر من سبعمائة صفحة[٢٠١] بقوله إنه « وصف مفصل وهام »[٢٠٢] . وهو ينقسم إلى قسمين ، الأول منهما يعالج فى جوهره التاريخ والثانى الجغرافيا . ويمكن أخذ فكرة عن أسلوبه فى العرض من الأوصاف المعهودة للمدن والولايات التى التقينا بها ، فيرد فيه فى البداية معلومات من محيط الجغرافيا العامة ويعقب ذلك ملاحظات مدخلية يليها وصف مفصل لمدينة شيراز يكاد يحظى بالنصيب الأوفر من الكتاب ؛ وبعد الوصف يترجم لعدد من علمائها وكتابها وشعرائها و« الأعيان » عامة ؛ وهو يطبق نفس هذا المنهج فى كلامه على مدن الولاية وأقسامها الأخرى . وإذا صرفنا النظر عن المظهر العام للكتب المطبوعة التى

ظهرت بإيران في ذلك العهد والتي خرجت من مطابع حجرية فإن هذا الكتاب يبدو عليه بوضوح تأثير المنهج الأوروبي ، فهو مزود بعدد كبير من الرسومات ولو أنها في الحقيقة بدائية بعض الشيء ومزود بفهارس مفصلة ومتنوعة للغاية . وقد ذيل الكتاب بخارطة فارسية كبيرة تبين النقاط المأهولة ومجاري المياه ، وقد قدرها تقديراً كبيراً لوسترانج Le Strange واقتنع أثناء دراسته « لفارسنامه » لابن البلخي بأن مجهود شيرازي يعد مجهوداً قيما ولا يقتصر على دراسة الأحوال المعاصرة بالولاية بل يعاون أيضاً في تحديد وتصحيح المواضع الجغرافية الواردة « بفارسنامه » ، سواء الموجودة حالياً أو التي اختفت بمرور الأيام وكر العصور[٢٠٣] . والكتاب يحدث أثراً قوياً بالنسبة لما يحفل به من مادة تاريخية ، وقد لاحظ المستشرق براون أكثر من مرة أنه يحتفظ بمعطيات هامة عن تاريخ المظفرية بكرمان[٢٠٤] .

545 من كل هذه الأمثلة يتضح لنا على وجه التحديد كيف أن الأدب الجغرافي لإيران الحديثة رغما من اتباعه للأنماط القديمة المعهودة في الأدب الجغرافي العربي قد حفظ لنا مادة قيمة تكمل بعض نواحي النقص الموجودة في الأخير ، بل إنه أسهم من ناحية أخرى بعض الشيء في استكمال المناهج التي سار عليها الأدب الجغرافي العربي . ولم يلبث أن أرغمته قوانين التطور التي أرغمت الأدب العربي كذلك على اطراح هذه التقاليد القديمة وإفساح الطريق لدخول المنهج الأوروبي الحديث ، ويمكن ملاحظة بداية هذا التغير في بعض مؤلفات القرن التاسع عشر ولكنه ما لبث أن غلب نهائياً في القرن العشرين . ولعبت دوراً هاماً في هذا المجال المعاهد الدراسية المختلفة التي احتاجت إلى الكتب الدراسية لمناهجها الحديثة ، وما مثال « دار الفنون » ببعيد عن أذهاننا ، وقد خرجت من أقلام المدرسين مؤلفات أساسية لعبت دوراً هاماً في دراسة إيران لا يقل عن دور المؤلفات الأوروبية المماثلة . ويمكن لإعطاء فكرة عن هذا الاقتصار على مثال واحد ، فعندما بدأ أحد مدرسي « دار المعلمين العالي » وهو مسعود كيهان ينشر في عام ١٣١١ هـ = ١٩٣٣ مؤلفه الكبير « جغرافياى مفصل إيران »[٢٠٥] تبين لأول وهلة أن الأنموذج الذي سار عليه لم يكن تلك المؤلفات المرتبطة بالمذهب العربي القديم بل المؤلفات الأوروبية الحديثة . فأجزاء الكتاب الثلاثة التي يتجاوز عدد صفحاتها الخمسمائة تعرض لنا في تسلسل منطقي مكتمل الجغرافيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية لإيران ، وجميعها مزود بعدد هائل من الرسوم والتخطيطات والخارطات والجداول الاقتصادية . وإذا كانت رسومها لا ترتفع إلى مستوى المؤلفات الأوروبية من نفس النوع من حيث القيمة الفنية فإن غناها بالتفاصيل وطريقة تبويبها ووضوح عناوينها لا يقل في شيء عن مستوى أرفع المداخل والكتب المنهجية الموجودة باللغات الأوروبية .

وبالكلام على هذا المصنف الأخير نختتم الحديث عن الأدب الجغرافي الفارسي في القرون الأخيرة ، وقد كانت أهمية هذا الأدب بالنسبة لنا أهمية جانبية (auxiliary) فقد مكننا من إلقاء ضوء على جوانبه التي وقعت تحت تأثير المذهب العربي ، ولم يكن هدفنا بالطبع تقديم قائمة مكتملة بأسماء المؤلفات

الفارسية فى هذا الميدان إذ من الضرورى ابتداء من القرن الخامس عشر الاكتفاء بالإشارة إلى بعض نماذجه الهامة فحسب : وإذا حدث أن لوحظ فى وسطها بعض الفجوات فلعل مرد هذا من ناحية إلى أنه لايوجد بين أيدينا الآن بحث جامع فى هذا الصدد أو حتى عرض تخطيطى عام مثل الذى عمله بالنسبة للأدب التركى المستشرق الألمانى تيشنر Taeschner . وبالإضافة إلى هذا فإن العصر الحديث للأدب الجغرافى الفارسى يحتاج إلى بحث منهجى قائم بذاته لايمثل بالنسبة لنا أهمية جوهرية ويجب أن يعمل فيه حساب لدراسة تأثير العامل الجغرافى فى مؤلفات أدبية صرفة مثل « سياستنامة ابراهيم بيك » (فى ثلاثة أجزاء ظهرت فى عام ١٩٠٥ و١٩٠٩)* ، وهى قطعة فكاهية (Satire) يسخر فيها المؤلف من النظم الإدارية والأوضاع الاجتماعية السائدة بإيران وذلك على | لسان مواطن إيرانى نشأ بمصر وقام بزيارة لإيران ؛ وتدور وقائع القصة الأساسية بمصر . ومؤلفها زين العابدين المراغى توفى عام ١٩١٦ وقد صاغ مؤلفه فى أسلوب سهل قوى وهو يعتبر من أوائل الكتب فى الأدب الفارسى المعاصر المشبعة بروح الثورة على التقاليد والأوضاع . والكتاب موجود فى ترجمة ألمانية غير كاملة ، ويمكن إجراء مقارنة طريفة بينه وبين المصنفات الأدبية المشابهة له فى الأدبين الأوروبى والعربى من طراز المذكرات والمقامات والأدب التى تستند على قاعدة جغرافية[٢٠٦] . غير أن فحص دور أثر الأدب الجغرافى على المؤلفات الأدبية من هذا الطراز يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها يقوم بها أحد المتخصصين فى الدراسات الإيرانية .

546

* The Persian text was printed in three volumes, the first at Cairo without date, the second at Calcutta in 1321/1905, though Publication was apparently delayed until 1907 ; the third at Constantinople in 1327/1909. The name of the author appears only on the title page of Vol. III. A german version of the first volume by Dr. Walter Schulz was Published at Leipzig in 1903 with the title Zustände im heutigen Persien wie sie das Reisebuch Ibrahim Begs enthüllt." (Browne, A Literary History of Persia, IV, p. 469-468). (المترجم)

حواشى الفصل التاسع عشر

(١) - Bartold, Khafizi Abru, p. 1—28—Bartold, ZVO, XVIII, p. 0138 — 0144 Bartold, Turkestan, p. 56—57 (= Barthold, Turkestan, p. 55 — 56) — Barthold, Hafizi Abru, p. 225 — 226 — Bartold, Iran, p. 81 — 83— Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 55 — 60 (Geography — p. 56, note 1) — Romaskevich, MITT, I, p. 56—57 — Volin, Orda, II, p. 104 — 105 — Browne, Literary History, III, p. 424—426

(٢) - Barthold, Hafizi Abru, p. 225 (cf. Bartold, Khafizi Abru, p. 2, note 1; krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 55.)

(٣) - Barthold, Hafizi Abru, p. 225

(٤) - Bartold, Iran, p. 82

(٥) - Bartold, Khafizi Abru, p. 3, 24 — Bartold, ZVO, XVIII, p. 0138

(٦) - Bartold, Iran, p. 82

(٧) - Miller, V, p. 112

(٨) - Bartold, Khafizi Abru, p. 3

(٩) شرحه ، ص ٣ - ٤

(١٠) شرحه

(١١) - Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 56

(١٢) - Validi, GZ, XL, p. 366, note 1

(١٣) - Romaskevich, MITT, I, p .57

(١٤) شرحه ، ص ٥٦

(١٥) - Bartold, Iran, p. 82

(١٦) - Bartold, Khafizi Abru, p. 2—3

(١٧) شرحه

(١٨) شرحه ، ص ٤ - ١١

(١٩) شرحه ، ص ١٢ - ٢٤

(٢٠) شرحه ، ص ١٣

(٢١) - Miller, V, p. 111-112, 122-123, 178

(٢٢) شرحه Beiheft, tabl. 72,1 and 82,1; legends on them : Ibid, V, p. 122-123

(٢٣) شرحه ، ص ١٧٨

(٢٤) فرسه Beiheft, Tabl. 72, 2-3

(٢٥) – Bartold, Khafizi Abru, p. 13

(٢٦) – Barthold, Hafizi Abru, p. 226

(٢٧) فرسه

(٢٨) – Romaskovich, MITT, I, 57

(٢٩) فرسه

(٣٠) – Reinaud, Introduction, p. CLXII — CLXIII, CDXXXII — CDXXXIV — Quatremère, Notices et Extraits XIV, p. 308-341 (text), 387-426 (transl.).

(٣١) – Rehatsek, p. 75-83 — Yule — Cordier, Cathay, IV2, p. 271-289 — Hennig, IV, p. 23-28

(٣٢) – Bartold, Khafizi Abru, p. 26-27 — Barthold, EI, I, p. 68

(٣٣) – Schefer, Notice, p. 26-28 — Browne, Literary History, III, p. 397

(٣٤) – Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 308 (text), 287 (transl.)

(٣٥) – Browne' Literary History, III, p. 397

(٣٦) فرسه

(٣٧) – Schefer, Notice, p. 27-28

(٣٨) فرسه ، ص ٢٧

(٣٩) – Reinaud, Introduction, p. CLXII — CLXIII — Quatrémère, Notice et extraits, XLV, p. 1-13 — Bartold, Abd al-Razzak, p. 67-68 — Bartold, Iran, p. 83 — Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 62-65 — Romaskevich, MITT, I, p. 59-60 — Volin, Orda, II, p. 190 — Schefer, Notice, p. 26-28 — Browne, Literary History, III, p. 389-390, 428-430

(٤٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 204, No. 1; SBII, p. 280-281; cf.: Macdonald, Abd al-Razzak, p. 65

(٤١) – Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 60

(٤٢) – Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 6

(٤٣) فرسه ، ص ٦

(٤٤) فرسه ، ص ٧

(٤٥) – Krymski, Istoria Persii, p. 61 – Browne, Literary History, III, p. 429

(٤٦) – I. I. Sreznevski, Khojenie Afanasia Nikitina, p. 254, note 73

(٤٧) – Bartold, Khafizi Abru, p. 26 — Barthold, Abd al-Razzak, p. 68 — Minorsky, Les études, p. 287

(٤٨) – Barlold, Iran, p. 83

(٤٩) – Volin, Orda, II, p. 190

(٥٠) – Ferrand, Relations, II, p. 473-474 — Browne, Literary History, III, p. 397-398

(٥١) – Reinaud, Introduction, p. CLXIII, note 3

(٥٢) – Browne, Literary History, III, p. 397

(٥٣) – I. I. Sreznevski, Khojenie Afanasia Nikitina, p. 254, note 73

(٥٤) شرحه ، ص ٢٨١

(٥٥) – Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 10, 11-13 — Krymskii, Istoria Persii, III, 1, p. 64 — Babinger, GOW, p. 293-294

(٥٦) – Babinger, GOW, p. 293-294

(٥٧) اسماعيل عاصم چلبى زاده ، عجائب — Deny, J A, CCIV, p. 378 — Babinger, GOW, p. 404

(٥٨) – Fleischer, Chatai-name — Zenker, Das chin. Reich — Schefer, Khitay-Nameh — Schefer, Notice, p. 29-30 — Ali Akbar, Khitai, p. 305

(٥٩) – Kahle, Khitayname, p. 94

(٦٠) شرحه ، ص ١٠١

(٦١) شرحه ، ص ٩٢ — Taeschner, GLO, p. 40, note 3

(٦٢) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ٥٠١ – ٥٠٢ ، رقم ٩٣٦٠ — Kahle, Khitayname, p. 59, note 2

(٦٣) – Fleischer, Chatai-name, p. 216 — Kahle, Khitayname, p. 95

(٦٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 234-235; SB II, p. 329-330

(٦٥) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ص ١٢٧ ، رقم ٢٢٠٩

(٦٦) – Babinger, GOW, p. 29, note 1

(٦٧) – Kahle, Columbuskarte, p. 5

(٦٨) – Fleischer, Chatai-name, p. 216 — Schefer, Khitay-Name, p. 37-38

(٦٩) – Fleischer, Chatai-name, p. 214-215 — Kahle, Khitayname, p. 92

(٧٠) – Fleischer, Chatai-name, p. 220-225

(٧١) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 37 — Kahle, Khitayname, p. 92

(٧٢) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 34-35

(٧٣) – Kahle, Khitayname, p. 93-94

(٧٤) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 41

(٧٥) راجع : Schefer, Notice, p. 30

(٧٦) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 37

(٧٧) – Kahle, Khitayname, p. 93

(٧٨) نفسه ، ص ١٠٠ ، رقم ١

(٧٩) المخطوطات الأخرى الموجودة بكيل Kiel ترتبط بالأول ، راجع :
Schefer, Khitay-Nameh, p. 92, note 1; 100

(٨٠) – Kahle, Khitayname, p. 94-95

(٨١) – Fleischer, Chatai-name, p. 215

(٨٢) نفسه ، ص ٢١٨ – ٢١٩

(٨٣) نفسه ، ص ٢١٧

(٨٤) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 39
قارن : Kahle, Khitayname, p. 96

(٨٥) – Schefer, Khitay-Nameh; p. 39-40

(٨٦) نفسه ، ص ٤١ ، قارن : Fleischer, Chatai-Name, p. 215

(٨٧) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 40

(٨٨) نفسه ، ص ٤١

(٨٩) – Fleischer, Chatai-name, p. 217

(٩٠) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 36-37

(٩١) – Fleischer, Chatai-name, p. 217

(٩٢) – Zenker, Das chin. Reich, p. 785

(٩٣) – Kahle, Khitayname, p. 96

(٩٤) نفسه ، ص ٩٧

(٩٥) نفسه

(٩٦) نفسه ، ص ٩٧ – ٩٨

(٩٧) – Schefer, Notice, p. 30

(٩٨) – Kahle, Khitayname, p. 99
قارن : Barthold, EI, II, p. 750

(٩٩) – Schefer, Notice, p. 29

(١٠٠) – Kahle, Khitayname, p. 106

(١٠١) نفسه ، ص ١٠٩

(١٠٢) – Reinanud, Introduction, p. CLXII - CLXIX — Beveridge, p. 89-90 — Carra de Vaux, Les penseurs, I, p. 318-330 — Krymski, Istoria persii, III, 1, p. 186 — 192 — Blochmann and Jarrett.

(١٠٣) – Horn, p. 215

(١٠٤) – Carra de Vaux, Les penseurs, I, p. 330

(١٠٥) – Reinaud, Introduction, p. CLXVII – CLXIX

(١٠٦) – Ferrand, Relations, II, p. 542-555

(١٠٧) – Blochmann and Jarrett, III, p. 46-105

(١٠٨) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 183

(١٠٩) – Blochmann and Jarrett, III, p. 20,49 - Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 140, note 3

(١١٠) – Blochmann and Jarrett, III, p. V — VII

(١١١) شرحه ، ص ٥

(١١٢) شرحه ، ص ٤

(١١٣) شرحه ، ص ٦

(١١٤) – Validi, OZ, XL, p. 369

(١١٥) – Blochman and Jarrett, I, p. V

(١١٦) شرحه ، ص ٥

(١١٧) شرحه ، ص ٤ – ٥

(١١٨) شرحة ، الجزء الثانى ، ص ٤

(١١٩) شرحه ، ص ٧

(١٢٠) – Carra de Vaux, Les penseurs, I, p. 329

(١٢١) – Browne, Literary History, IV, p. 448

(١٢٢) – Minorsky, Les études, p. 292

(١٢٣) – Reinaud, Introduction, p. CLXIX— Browne, Literary History, IV, p. 448 — Berthels, Razi, p. 1228 — 1229 — Abdul Muqtadir, p. IV — V

(١٢٤) – Browne, Literary History, IV, p. 448

التاريخ : ١٠٢٨ ﻫ = ١٦١٩ غير صحيح

(١٢٥) – Reinaud, Introduction, p. CLXIX

(١٢٦) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 183

(١٢٧) – Abdul Muqtadir, p. IV

(١٢٨) – Berthels, Razi, p. 1229 (غير صحيح) — Abdul Muqtadir, p. IV - V

(١٢٩) – Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. XX

(١٣٠) – Berthels, Razi, p. 1229

(١٣١) – Reinaud, Introduction, p. CLXIX

(١٣٢) – Validi, OZ, XL, p. 369 and note 3

(١٣٣) – Reinaud, Introduction, p. CLXXIII, note 1, CDLIV — Ferrand, Relations, II, p. 559 - 562

(١٣٤) راجع Ouseley

(١٣٥) – Quseley, p. VI

(١٣٦) فرسه – Ferrand, Relations, II, p. 559

(١٣٧) – Quseley, p. V - VI

(١٣٨) فرسه ، p. VI

(١٣٩) فرسه ، ص ١٠ – ١١٧

(١٤٠) – Reinaud Introduction, p. CDLIV

(١٤١) – Quseley, p. 1 - 57

(١٤٢) فرسه ، p. VIII

(١٤٣) فرسه ، p. X

(١٤٤) – Reinaud, Introduction, p. CDLIV

(١٤٥) – Quseley, p. V, VII

(١٤٦) – Reinaud, Introduction, p. CLXXIII, note 1

(١٤٧) فرسه ، ص CDLIV

(١٤٨) – Quseley, p. 56 - 57

(١٤٩) – Bartold, ZVO, XV, p. 232 - 260 — Validov, ZVO, XXII, p. 306-Validov, ZVO, XXIII, p. 255 - 257 — Validi, OZ, XL, p. 369

(١٥٠) – Rieu, Catalogue of the Pers. Manuscripts, I, p. 381, No Or. 1119; p. 387 - 388, No Add. 22, 034

(١٥١) راجع منه ؛ فرسه ، p. 383 - 384, No Add. 23, 533

(١٥٢) – Hammer, Erinnerungen, p. 138 - 139

(١٥٣) – References : EI, I, p. 115 - 116, with reference to : Elliot and Dowson, Hist. of India, VIII, p. 298 sui; Rieu, Catalogue of Pers. Manuscripts, I, p. 384, No. Add. 8145 - 8147. Transl. : Stewart, London, about 1814; D. Macfarlane, Calcutta, abridged, 1827, Malo, Mirza Aboul Taleb Khan

(١٥٤) – Browne, Literary History IV, p. 450-452

(١٥٥) – Khanikov, Mél. As., III, p. 50-59

(١٥٦) متن ترجمة زين العابدين الشروانى لسيرة حياته لدى : Khanikov, Mél. As., III, p. 56-58

(١٥٧) شرحه ، ص ٥٦ – ٥٧

(١٥٨) شرحه ، ص ٥٨

(١٥٩) شرحه ، ص ٥٩

(١٦٠) – Minorsky, Rus, p. 1278

(١٦١) – Browne, Literary History, IV, p. 452

(١٦٢) – Jukovski, ZVO, II, p. 280-281 — Bertels, Ocherk Ist. pers. lit., p. 107-108, 201 (bibliography) — Horn., p 213, 216-222

(١٦٣) – Schefer, Relation, IV, p. XVI — XIX (biography); same, p. XIX – XXI (opera) — Bertels, Ocherk Ist. pers. Lit., p. 110-113 — Massé, EI, III, p. 1245-1246

(١٦٤) – Massé, EI, III, p. 1246

(١٦٥) – Schefer, Relation, IV, p. XXIV

(١٦٦) – Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 108

(١٦٧) طبعة طهران ، ١٢٩٤هـ – الترجمة : Korlander, 1887

(١٦٨) الترجمة الانجليزية فى عام ١٨٧٤ و ١٨٧٩ ؛ راجع : Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 201

(١٦٩) طبعة حجرية عام ١٨٩١ ؛ شذور منه لدى : Horn, p. 213, 216-222

(١٧٠) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 286

(١٧١) – Jukovski, ZVO, II, p. 281

(١٧٢) – Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 108

(١٧٣) – Horn, p. 216

(١٧٤) شرحه ، ص ٢١٣

(١٧٥) شرحه ، ص ٢١٦

(١٧٦) من ترجمات اليوميات راجع : Bertels, Ockerk ist. pers. lit., p. 201
نماذج لدى : Horn, p 216-222

(١٧٧) – Jukovski, ZVO, X, p. 187-191 — Horn, p. 216 — Bertels, Ocherk Ist. pers. lit., p. 113-115 — Browne, press, p. 156, 164-166 (numbering 12 works; with Jukovski, ZVO, X, p. 189-190, rising to 15 works) — Browne, Literary History, IV, p. 453-456 — Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741-742

(١٧٨) Browne, Press, p. 156 – Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 114 — Browne, Literary History, IV, p. 454 — Minorsky, Muhammed Hasan, Khan, p. 741 –

(١٧٩) Browne, Press, p. 156 — Bertels, Ocherk ist. lit., p. 114 — Minorsky Muhammed Hasan Khan, p. 741 –

(١٨٠) Jukovski, ZVO, X, p. 188 –

(١٨١) شرحه ، ص ١٩٠

(١٨٢) شرحه

(١٨٣) شرحه ، ص ١٨٩

(١٨٤) ألفاظ A. A. Romaskevich من طبع كتاب محمد حسن خان عن رحلة استانبل

(١٨٥) Jukovski, ZVO, X, p. 189, No 6 –

(١٨٦) شرحه ، ص ١٨٩ ، رقم ٧

(١٨٧) Browne, Press, p. 165, No 159 — Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741 –

(١٨٨) Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 115 –

(١٨٩) Jukovski, ZVO, X, p. 190 –

(١٩٠) Horn, p. 216 –

(١٩١) Browne, Press, p. 165, No 152 — Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 114 Browne, Literary History, IV, p. 454-455 — Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741 –

(١٩٢) محمد حسن خان ، مرآت البلدان ، الجزء الأول ، ١٢٩٣ ﻫ = ١٨٧٦ ؛ الجزء الرابع ، جمادى الأول ١٢٩٦ ﻫ = مارس ١٨٧٩ .

(١٩٣) أضيف كذيل الكتاب جدول مواقيت (calendar) ولا فهرس (ا) . راجع :
Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 114 — Browne, Press, p. 165, No 152

(١٩٤) ١٣٠١ﻫ – ١٣٠٣ ﻫ = ١٨٨٤ – ١٨٨٦

(١٩٥) Browne, Literary History, IV, p. 455-456 — Minorsky, Muhammad Hassan Khan, p. 741 –

(١٩٦) Jukovski, ZVO, X, p. 189 –

(١٩٧) Browne, Literary History, IV, p. 455 –

(١٩٨) Bertels, Ocherk ist. pers lit, p. 115 –

(١٩٩) Browne, Literary History, IV, p. 455-456 –

(٢٠٠) الرسه ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧

(٢٠١) شرحه الجزء الثالث ، ص ٣٥٧ ، رقم ١ - ٣٧٢ صفحة !

(٢٠٢) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٣٥٧ ، رقم ١

(٢٠٣) – Le Strange, Description of the Province of Fars, p. 16-17

(٢٠٤) – Browne, Literary History III, p. 162; 165, note ; 168, note ; 274, note; 275, note; 357

(٢٠٥) – Kramers, EI, EB, p. 74

(٢٠٦) – Browne, Literary History IV, p. 467-468 — Browne, Press, p. 22, 164, No 44 — Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 139-140.

الفصل العشرون

الجغرافيا الملاحية لدى العرب والترك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

547 استنفد الأدب الجغرافى العربى طاقته الخلاقة بشكل نهائى خلال القرن الخامس عشر ؛ والرأى القائل بإرجاع تلك الظاهرة إلى القرن الثالث عشر وفترة الغزو المغولى لايستند على أسس وجيهة إذ أنه لا يمكن القول بأية حال إن الإنتاج الأدبى قد ضعف من حيث الكم بعد ذلك التاريخ فقد ظل متمتعاً خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوة كافية جعلته يرتقى إلى القمة بفن الكوزموغرافيا بل ويقدم نمطاً جديداً هو نمط الموسوعات الأدبية . ولكن كأنما قد جفت بهذا ينابيعه واستنفد قواه فلا يقابلنا بعد ذلك انتعاش لأنماطه كما كان عليه الحال من قبل ؛ وقد مرت عهود اقتصرت فيها النماذج على الجغرافيا الإقليمية ووصف الرحلات وحدهما وظل هذان النمطان يتمتعان على الدوام بمقاومة وصلابة شديدتين وبالرواج بين جمهرة القراء . وأكثر من هذا نلاحظ أن الأفق الجغرافى قد تجمد فى إطاراته التقليدية ولم تستطع أن تخرجه من ذلك النطاق تلك الأحداث التاريخية العظمى وتلك التطورات الهائلة التى كان مسرحها العالم الغربى فى ذلك العصر ؛ وليس ثمة ما يدعو بصورة خاصة إلى التذكير بأن أواخر القرن الخامس عشر قد شهدت نجاح البرتغاليين فى الطواف حول القارة الإفريقية وكشفهم الطريق البحرى إلى الهند، هذا إلى جانب كشف كولومبس الطريق إلى أمريكا . وجميع هذه الأحداث إما جرت دون علم العرب على الإطلاق أو أنهم لم يقدروها حق قدرها ؛ وفى هذه المرة أيضاً نلحظ ذلك النقص الجوهرى فى أدبهم الجغرافى وهو وجود فارق هائل يفصل بين النظرية والواقع ؛ ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك لديهم .

غير أن التجربة العملية التى كانت تحت تصرفهم فى تلك اللحظة ، أى لحظة انتقال السيطرة من الشرق إلى الغرب ، قد وقفت على مستو عال ، وهو شىء اضطر إلى الاعتراف به أهل الغرب أنفسهم عندما قدر لهم أن يتصلوا اتصالا مباشراً بمظاهر هذا النشاط . وعندما وضع فرا مورو Fra Mauro مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ذكر أن ملاحاً عربياً أبحر حوالى عام ١٤٢٠ من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى[1] ؛ وقد أبصر ڤاسكو دا غاما Vasco da Gama فى عام ١٤٩٧ - ١٤٩٨ سفناً عربية إلى الشمال من موزمبيق تحمل البوصلة « بيت الإبرة » وخارطات بحرية ، وهو يذكر ذلك حرفيا بقوله « ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » ؛ وعلى

548 إحدى هذه السفن وجد ڤاسكو دا غاما مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك مانويل Manoel . أما مواطنه الشهير البوكرك Albuquerque فإنه يدين بفتوحاته فى منطقة عمان والخليج الفارسى ليس بالقليل

إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربى يدعى عمر[٢] ، بل ويقول فى مذكراته Commentarios إن ملاحاً مسلما وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى «كان رباناً عظيما ذا معرفة جيدة بهذا الساحل وقد أعطاه مرشداً للطرق البحرية (Routier) مبينة عليه جميع موانى مملكة هرمز وهو من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صحبه ذلك الربان فى البحر»[٣] . ومن تقرير للبوكرك رفعه إلى ملك البرتغال بتاريخ أول أبريل ١٥١٢ نعرف أنه قد بعث إلى الملك « بصورة منقولة عن خارطة كبيرة عملها ربان أصله من جاوه ويظهر فيها رأس الرجاء الصالح وأملاك البرتغال . . . والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر الملوكاس والطرق البحرية لأهل الصين وأهل فورموزا وقد بينت الخطوط والطرق التى تسلكها السفن كما بين عليها أيضاً الأجزاء الداخلية لتلك البلاد . . . وكتبت الأسماء بالحروف الجاوية وقد أرسلت فى طلب رجل من أهل جاوه يعرف القراءة والكتابة ليفسرها لى . . . »[٤] .

وسنبصر بعد وهلة أن ڤاسكو داغاما نفسه قد وفق فى الإفادة من تجربة العرب العملية ، فالمؤرخ البرتغالى باروش Barros يذكر فى كتابه «آسيا البرتغالية» Asia Portugueza أن ڤاسكو دا غاما التقى فى مالندى Malindi « بمسلم من كجرات يدعى المعلم كانا Malem Cana » وُجد لديه عدد كبير من الخارطات والآلات[٥] ، هذا وقد تمكن البحاثة فى بداية القرن العشرين من الكشف عن شخصية « المعلم كانا » هذا ، الذى دل ڤاسكو دا غاما على الطريق من مالندى إلى قاليقوت Calicut بالهند . هذا ما كان عليه الوضع فى أواخر القرن الخامس عشر عند ما تم الاتصال بين تينك الحضارتين .

غير أنه مضت مائة سنة على ذلك قبل أن يفطن أهل الشرق جيداً إلى أن السيادة قد انتقلت نهائياً من أيديهم إلى أهل الغرب الذين فاقوهم من الناحية النظرية ؛ وقد أرسل السلطان العثمانى مراد الرابع (١٦٢٣— ١٦٤٠) إلى المستعرب الهولندى المشهور غوليوس Golius ، الذى عرفه العثمانيون من زيارته لبلادهم ، يعرض عليه القيام بمسح جغرافى لأراضى الدولة ووضع خارطة لها[٦] . من هذا يتضح لنا أن الخلاف الضخم بين النظرية والخبرة العملية كان فى غير صالح العلم والأدب الجغرافى الإسلامى وأن أوروبا عرفت كيف تستغل هذا الموقف لصالحها .

وفى القرن الخامس عشر بالذات تغير الوضع بصورة جوهرية بحيث نجد أنفسنا أمام لوحة جديدة تماماً ، فقد تمكن علماء أوربا بفضل الرحلات البحرية والطواف حول العالم من التحرر سريعاً من النظريات التقليدية البالية للعصور الوسطى التى كانت تعتمد إلى حد كبير على ترجمات عملت فى القرن الثانى عشر لمصنفات عربية من محيط الجغرافيا الرياضية كمصنفات الفرغانى والبتانى . وفى العصر الذى نعالج الكلام عليه بالذات ظهرت أولى الخارطات البرتغالية والإيطالية مما أطلق عليه اسم « البورتولانات » Portolans* .

* بورتولان Portolan أو Portulan اسم يطلق على الأطالس الملاحية التى كانت تستعمل فى العصور الوسطى فى مقابل استعمال القدماء للبربلوس Periplus ، وكانت تشمل وصفاً للسواحل ومداخلها والتيارات والشعب . وقد أجمع البحاثة على أن اللفظ إيطالى الأصل . (المترجم)

وكان لاتساع الأفق الجغرافى بأوروبا والذى بخلاف ما عليه الحال فى العالم العربى قد انعكس فى الجانبين العملى والعلمى أن وضح سريعاً أن معظم الآثار الجغرافية سواء الموضوعة منها بأوروبا أو المدونة بالشرق لم تعد تفى بالمطلوب ؛ ولعل هذا كان من الأسباب التى دعت فى ذلك العصر بالذات إلى التوقف بشكل نهائى عن وضع مؤلفات فى الفلك والجغرافيا العامة تقوم على المذهب القديم(٧) ، ذلك أن الحاجة إليها قد سقطت فى الشرق والغرب معاً خاصة وأن الغرب لم يعد تلميذاً للشرق كما كان عليه الحال من قبل بل أخذ يسير فى اتجاهه الخاص به . 549

ورغماً من ذلك لقد وجد ميدان آخر فى هذا العصر بالذات ، أى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أبرز لنا فيه الأدب الجغرافى العربى مؤلفين كباراً ومصنفات ذات شهرة أعنى بذلك ميدان الجغرافيا الملاحية . ونظراً لأنها ظهرت فى المنطقة الجغرافية للمحيط الهندى والبحار والخلجان المتفرعة منه وذلك فى تلك اللحظة بالذات التى حدث فيها الاتصال بين أوروبا وآسيا فإنها تعكس ظروفاً مغايرة لتلك التى تم فيها الاتصال بين الغرب والشرق فى أزمنة سابقة على هذه . وفيها تتشابك المصنفات العربية بالمصنفات التركية فى وحدة متماسكة بحيث يضحى من المستحيل فصلها عن بعضها البعض دون أن يحدث ذلك خللا فى سير تطورها العام . ويجب ألا ندهش للازدهار الكبير فى هذا الميدان إذا ما تذكرنا إلى أى حد ارتبط ذلك بواقع الأحوال فى ذلك العصر وبطبيعة الحياة نفسها آنذاك ، بيد أن هذا لايعنى إطلاقا أن الجغرافيا الملاحية قد برزت فى تلك الظروف التاريخية فجأة وكأنها من العدم إذ على العكس من ذلك نجد لها جذوراً ممعنة فى القدم فى الأدب العربى ولو أن حلقات تطورها لم تحفظ لنا جميعها . وينبغى أن نبين باختصار الخطوط العريضة لهذا التطور حتى نتمكن من تقدير هذه الظاهرة تقديراً صحيحاً فهى تكاد تكون أهم ظاهرة فى الأدب الجغرافى للقرنين الخامس عشر والسادس عشر .

550 وفى خط من خطوط تطورها لاترتبط هذه الجغرافيا الملاحية بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب التى غلب عليها الطابع العلمى بعض الشىء بقدر ما ترتبط بتلك المجموعة من القصص والأسفار البحرية للقرنين العاشر والحادى عشر من أمثال قصص التاجر سليمان وأبى زيد السيرافى بل وحتى « عجائب الهند » لبزرج بن شهريار مما حدث وأن وقفنا عنده بالتفصيل . غير أن هذه كانت فى واقع الأمر مجرد حكايات ذات أهداف أدبية فنية فى بعض الأحيان ولم تكن مداخل علمية أو عملية مثل التى سيرد الكلام عليها ؛ ذلك أنه وجد فى وسط ملاحى الخليج الفارسى والمحيط الهندى والبحر الأحمر إلى جانب هذه القصص والأسفار أدب المرشدات البحرية وهى ما أطلق عليها اسم « الراهنامج » أو « الرهمانى » ، وكانت تحوى خبرة الربابنة فى جميع المسائل الملاحية بما فى ذلك دون ريب دلائل الطرق البحرية (Routier) .

ولا يمكن القول بأن هذا الضرب من الأدب كان فقيراً ، فابن ماجد الذى سيمر بنا الكلام عليه يشير مثلا إلى ثلاثة مؤلفين من العصر العباسى من السابقين له فى هذا المضمار وهم محمد بن شاذان وسهل بن أبان والليث بن كهلان(٨) . غير أنه لم يصلنا من هؤلاء المؤلفين أثر ما ، كما وأن معرفتنا بالفترة الأولى لهذا الأدب إنما مستقاة بأجمعها تقريباً من الآثار التى دونت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. أضف إلى هذا أن تأثير ذلك الأدب الأول على المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا وعلى الأدب الكوزموغرافى فيما بعد لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ غير أنه لا يمكن إرجاع هذا إلى الجهل به بقدر ما يمكن إرجاعه إلى عامل جوهرى هو أن النظريات التجريبية لهؤلاء الملاحين قد سارت فى وجهة مضادة تماما لوجهات النظر العلمية التى سادت فى تلك الأزمنة والتى ترتفع أساساً إلى المذهب اليونانى أو إلى التصورات الموجودة بالتوراة . فكبار الجغرافيين قد عرفوا هؤلاء الملاحين وعرفوا آثارهم ، وهم لم يستطيعوا موافقتهم فى أحوال معينة على أهمية المعلومات التى يوردونها أو الاستقراءات الكارتوغرافية التى ينبغى استخراجها منها . ويقص علينا المقدسى بحيوية فائقة عن ملاحظاته على سواحل جزيرة العرب من القلزم إلى عبادان وعن آثار مدونة كان يستعملها الملاحون وعن محادثة له مع شيخ عارف بصورة البحر(٩) ؛ ثم يخرج من كل هذا بنتيجة مؤداها أن هذه المعلومات مخالفة للتصورات الجغرافية المعروفة آنذاك . ولنستمع إليه يقول :

« وأما أنا فسرت فيه نحو ألفى فرسخ ودُرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبّادان سوى ماتوهت بنا المراكب إلى جزائره ولججه وصاحبت مشايخ فيه وُلدوا ونشئوا من ربّانيين وأشاتمة . . . ووكلاء وتجار ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعوّلون عليها ويعملون بما فيها فعلّقتُ من ذلك صدراً صالحاً بعدما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التى ذكرت وبينا أنا يوماً جالس مع أبى على ابن حازم أنظر فى البحر ونحن بساحل عدن إذ قال لى مالى أراك متفكراً ؟ قلت أيد الله الشيخ ، قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من أعلم الناس به لأنه أمام التجار ومراكبه أبداً تسافر إلى أقاصيه فإن رأى أن يصفه لى صفة أعتمد عليها وأرجع من الشك إليها فعل ، فقال على الخبير بها سقطت ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لا طيلسان(١٠) ولا طير(١١) وجعل له معارج متلسنة وشعباً عدّة ثم قال هذه صفة البحر لا صورة له غيرها . وأنا أصوره ساذجاً وأدع الشعب والخلجان إلا شعبة وَيَلْة لشهرتها وشدة الحاجة إلى معرفتها وكثرة الأسفار فيها وأدع ما اختلفوا فيه وارسم ما اتفقوا عليه »(١٢) .

551

وهو يذكر عن قصد ولكن ليس دونه سخرية أن هذا الشيخ العارف بالبحر قد صور له البحر دون « طيلسان » أو « طير » . ولعله لم يغب عن ذاكرتنا أن اللفظ الأول أى « طيلسان » كان يستعمل فى مصورات الخوارزمى التى تطورت عن بطلميوس ، هذا فى حين ينبغى أن نبصر فى لفظ « الطير » إشارة إلى نظرية وجدت عند الأمم السامية وسردها عدد من الجغرافيين العرب وهى تصور الأرض فى صورة طائر ؛ وقد

حدث وأن وقفنا عند ذلك فيما مر من هذا الكتاب . ونفس موقف المقدسى هذا يقفه المسعودى أيضاً الذى وإن اعترف بأهمية المعرفة العملية فى هذا المجال إلا أنه يقرر أن معلومات « ربابنة » سيراف وعمان عن المحيط الهندى لاتتفق مع نظريات « الفلاسفة » ، بل ويضيف إلى ذلك أن هذا الحكم يصدق أيضاً على البحر الأبيض المتوسط وذلك وفقاً لما سمعه من ملاحى الشام الذين عرفوه جيداً والذين يذكر من بينهم اثنين . ونص متنه كالآتى(١٣) :

« ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين عن البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ماذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة وأن ذلك لا غاية له فى مواضع منه وكذلك شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة والنواتية وأصحاب الأرجل والروسا ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيها مثل لاوى المكنى بأبى الحارث 552 غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق وذلك بعد الثلاث ماية [... ٩١٢] يعظمون طول البحر الرومى وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشام ولم يبق فى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة أبصر منه بالبحر الرومى ولا أسن منه وليس فيمن يركبه من أرباب المراكب من الحربية والعمالة إلا وهو ينقاد إلى قوله ويقر له بالبصر والحذق وما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيه »(١٤) .

وأغلب الظن أن آراء المقدسى والمسعودى إنما تمثل فى هذا الصدد شيئاً أقرب إلى الاستثناء منه إلى قاعدة عامة يتفق عليها الجغرافيون أصحاب الكتب . وفى الواقع أن الاختلاف الماثل بين النظرية والتطبيق العملى يبدو جلياً هاهنا بصورة قاطعة ولم يكن فى صالح الأخير ، وجميع الأدب الذى ينتمى إلى هذا الميدان أى ميدان الجغرافيا الملاحية لم يجد طريقه إلى الأدب الواسع المدون ولهذا السبب فإنه لم يصل إلى أيدينا .

ويمكن القول بالكثير من الدقة أن موطن نشأة أدب المرشدات البحرية « الرهنامجات » ، بل وأيضاً موطن القصص البحرية التى سبق وأن أشرنا إليها ، هو سيراف وعمان . ويشير إلى هذا بوضوح من بين عوامل أخرى ورود ذكر « السيرافيين » و« العمانيين » فى نص المسعودى الذى مر بنا قبل قليل . ومن المعلوم جيداً أن سيراف كانت لعهد طويل مركزاً للتجارة البحرية ومنها كانت تخرج السفن إلى جنوبى آسيا والجزر الشرقية وإلى سواحل أفريقيا الشرقية ؛ ولما بدأ دور سيراف يضمحل بابتداء سيادة البويهيين (حوالى عام ٣٢٠ هـ = ٩٣٢) رحل جانب من سكانها إلى عمان خاصة عقب نكبة الزلازل الكبرى فى عام ٣٦٦ هـ — ٣٦٧ هـ = ٩٧٧* — ٩٧٨(١٥) .

* هذه القراءة أفضل من عام ٩٧٦ التى وردت فى الأصل الروسى . (المترجم)

وتواريخ المصنفات الأولى من طراز « الرهنامجات » غير معروفة لنا بطبيعة الحال ولكن يغلب الظن بأنها ظهرت فى وقت واحد مع القصص البحرية فى القرنين التاسع والعاشر ؛ ومعروف لنا إلى جانب هذا وصف رحلة خواشير بن يوسف الأركى الذى أبحر على سفينة دَبَوْكَرَه الهندى فى بداية القرن الحادى عشر[١٦] ، كما يمكن أن نرجع إلى نهاية ذلك القرن أوبداية القرن الثانى عشر تاريخ حياة المعلمين الثلاثة المشهورين[١٧] الذين يدعوهم ابن ماجد بأشياخه ؛ وقد وقع بصر هذا الأخير على « رهنامج » فى مخطوطة يمتلكها حفيد أحدهم يرجع تاريخها إلى عام ٥٨٠ هـ = ١١٨٤[١٨] . ولفظ « رهنامج » الذى أطلق على هذا النمط من المؤلفات قد اكتسب فى ذلك العهد انتشاراً واسعاً خرج به من الحدود الضيقة للأوساط الملاحية ، فهو يظهر فى صورة « رهنامه » لدى الشاعر الفارسى نظامى وذلك فى ملحمته المشهورة « اسكندرنامه » حوالى عام ٥٧٨ هـ = ١١٩١[١٩] . وكان ابن المجاور وهو مؤلف معروف لنا بما يقدمه من معلومات قيمة عن سكان جنوب الجزيرة العربية (حوالى عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣) على معرفة جيدة بالجغرافيا الملاحية بل ويورد لنا شذرة نقلها عن « مؤلف كتاب الرهمانج» يدور فيها الكلام عن بعض طيور البحر التى تشير إلى قرب الساحل[٢٠] ؛ ولم يلبث هذا اللفظ أن تم الاعتراف به فى اللغة العربية نفسها وظل معمولا به إلى الوقت الحاضر ، وفى أواخر القرن السابع عشر يشرحه لنا إلى جانب اصطلاحات ملاحية أخرى مؤلف « تاج العروس »*[٢١] الذى يرجع أصله كما نعلم جيداً إلى زبيد فى جنوب الجزيرة العربية وعرف عنه ميل شديد إلى البحر . هذا وقد وضح المستشرق الفرنسى فيران[٢٢] بالتفصيل الأشكال المختلفة التى ورد فيها هذا اللفظ وبين أصلها ؛ وهو يرتفع أساساً إلى الفارسية الوسطى (البهلوية) « راهنمك » التى تحولت فى الفارسية الحديثة إلى «راهنامه» . أما فى الوسط العربى فإلى جانب الشكل العادى « راهنامج » يقابلنا أيضاً الشكل المقلوب (métathétique) « رهمانج » (وجمعه « رهمانجات ») ، والشكل الذى تطور عنه فيما بعد وهو « رهمانى » بل وحتى أيضاً « رمانى » . وجميع هذه الألفاظ كان يقصد بها فى عهد ابن ماجد ضرب من « المرشدات البحرية » أشبه « بالبورتولانات » Portulans [٢٣] .

553

إن هذه التسميات تقف خير دليل يشير إلى الوسط الذى ظهرت فيه هذه المرشدات البحرية وإلى أى حد كانت مشحونة بالألفاظ الفارسية فيما يتعلق بالاصطلاحات البحرية أوالمتصلة بالبحر ؛ وعدد هذه المصطلحات كبير للغاية بحيث نجد أنفسنا مضطرين إلى الاكتفاء بنماذج معينة منها . فإلى جانب «الراهنامج»

---

* جاء فى « تاج العروس فى شرح القاموس » للسيد مرتضى الزبيدى (ص ٥١ من الجزء الثانى) ما نصه : « الراهنامج بسكون الهاء وفتح الميم فارسية استعملها العرب وأصلها راه نامه ومعناه كتاب الطريق لأن راه هو الطريق ونامه الكتاب وهو الكتاب الذى يسلك به الربابنة جمع الربان كرمان العالم فى سفر البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها كالشعب ونحو ذلك » . بل إن القاموس نفسه يورد هذا اللفظ فقد جاء فيه « الراهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها » . (المترجم)

يقابلنا بنفس المعنى « راهدان » أو « راهدار »[٢٤] (أى « المرشد » أو « الدليل ») ، ثم لفظ نال رواجاً كبيراً هو « ناخدا »* (وجمعها « نواخذة » ، أى « سيد السفينة » أو « صاحبها »)[٢٥] الذى وجد إلى جانبه لفظ عربى ذا صيغة فريدة وهو « ربّان » (وجمعها « ربابنة » ، أى « القبطان » أو « قائد السفينة » [٢٦]) ولفظ آخر مجهول الأصل هو « إشتيام » (جمعها « أشاتمة »)[٢٧] . ويكثر عدد هذه الألفاظ عند التعرف على الاصطلاحات الفلكية فى مؤلفات ابن ماجد الذى سيرد الكلام عليه للتو ، وأهمها لفظ « خنّ » (وجمعها « أخنان » ، ويقصد بها منازل البوصلة أو أجزاؤها Les rumbs de vent)[٢٨] ، ولفظ « الجاه » (أى النجم القطبى)[٢٩] و « باشى » (أى ارتفاع النجم)[٣٠] الخ . وجميع هذه الألفاظ تقف دليلا قاطعاً على أن العرب قد استعاروا من الفرس جميع اصطلاحات الجغرافيا الملاحية تقريباً . وفى العصور القديمة عندما | اقتصرت الملاحة عند العرب على الملاحة الساحلية[٣١] فإنه لم تكن لهم معرفة بهذه الاصطلاحات 554 ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا شيئاً فشيئاً من الفرس « وردة الرياح » (Rose de vent) التى عرفناها من قبل فى صورتها المعربة فقط ، كما أخذوا أيضاً « الراهنامجات » المختلفة التى مكنتهم بالتدريج من أن يصبحوا منافسين خطيرين للفرس فى الملاحة بالمحيط الهندى بأجمعه[٣٢] .

وتوجد بالطبع أسباب أخرى غير التى ذكرناها حالت دون بقاء هذه « المرشدات » البحرية » إلى أيامنا هذه رغماً من عددها الكبير . وعلى أية حال فواقع الأمر هو أننا نلتقى لأول مرة بمصنفات فى هذا الصدد فى حدود القرنين الخامس عشر والسادس عشر وندين بها على وجه التحديد لاثنين من المؤلفين ، وهى التى فتحت أنظارنا لأول مرة على هذا الأدب فى مضمونه الواسع .

وقد ورد اسما هذين المؤلفين من وقت لآخر لدى العلماء الأوروبيين من قبل وذلك اعتماداً على المصادر التركية ، غير أن معرفة الدوائر العلمية بآثارهما معرفة مباشرة إنما تدين بها إلى المستشرق الفرنسى غابرييل فران Ferrand (G) وهو عالم ممتاز تركز نشاطه العلمى فى الثلث الأول من القرن العشرين ويعد من كبار المتخصصين فى الجغرافيا التاريخية للمحيط الهندى والجزائر الشرقية المنتشرة من ساحل أفريقيا الشرقى إلى سواحل الصين . ويعتمد نشاطه العلمى فى هذا المجال على تدريب بعيد المدى وسعة فى الأفق العلمى لا مثيل لها ؛ وقد كان فران فى بادئ الأمر من تلامذة رينيه باسيه R. Basset وتخرج عليه فى محيط الدراسات العربية والأفريقية ثم أمضى جميع حياته بالتقريب فى الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات الفرنسية بالمحيط الهندى من مدغشقر إلى الهند الصينية ؛ وتمثل أهمية كبيرة فى هذا الصدد دراساته عن اللغة الملغاشية وآثار مدغشقر القديمة . ولم يلبث أن اجتذبه هذا الاتجاه إلى الاهتمام بأرخبيل الملايو ودفعه لا إلى دراسة لغة الملايو وحدها بل ولغات الشرق الأقصى الأخرى وإلى التعرف على تاريخ تطور علم الفلك فى تلك النواحى ؛

---

* ناخذا وصورها المتعددة الأخرى ناخذاه وناخوذا وناخوذة وناوخذا بالذال أو الدال معرب الفارسية ناو خدا أى سيد السفينة . (المترجم)

ولم يكتف بهذا بل ألم بجميع ما يمت بصلة إلى ذلك العالم القائم بذاته ، أعنى ذلك المحيط الحضارى الذى امتزجت فيه الحضارة العربية بالحضارتين الهندية والملايوية . وقد توج جانباً من مجهوده فى هذا الصدد بإخراج مؤلفه الأساسى الذى جمع فيه المادة العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالجغرافيا التاريخية للهند والشرق الأقصى بعنوان « قصص الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالشرق الاقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر ، ترجمها وألف بينها وعلق عليها غ . فيران ، جزآن . باريس ١٩١٣ — ١٩١٤ » Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême — Orient du XIIIe au XVIIIe siècles, traduits, revus et annotés par G. Ferrand, I — II, Paris. 1913 — 1914

وهو نفس ذلك السفر الضخم الذى رجعنا إليه مراراً فيا مر من هذا الكتاب . وقد حالف التوفيق فيران أثناء جمعه لمادة هذا الكتاب فى أن يكشف عن مصنفات لمؤلفَينْ عربيَّينْ من الذين دونوا فى محيط الجغرافيا الملاحية هما أحمد بن ماجد وسليمان المهرى . وإذا كان الكشف عن هذه المؤلفات وليد الصدفة البحتة إلا أن توضيح الأهمية الكبرى لهذه النصوص وإلقاء الضوء على محتوياتها ما كان ليتأتى إلا لعالم متعدد النواحى من طراز فيران الذى كرس جميع حياته العلمية لهذا الميدان ، بل إن آخر خطوة فى نشاطه العلمى كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه المصنفات الأخيرة | التى كشفت عن آخر صفحة مشرقة فى تاريخ الأدب 555 الجغرافى العربى .

وكما يحدث عادة مع الاستكشافات الكبرى فإن هذه أيضاً قد أحاط بها صعوبات ليست بالضئيلة ، بل إن تحديد شخصية المؤلف الأول استدعى تطبيق مناهج فى البحث معقدة ولاتخلو من الطرافة ؛ ولم يتحقق هذا إلا بعد مقارنة المصادر البرتغالية والعربية والتركية بعضها بالبعض .

لقد حدث وأن سقنا قبل لحظة روايات لبعض المؤلفين البرتغاليين تبين كيف دار ڤاسكو دا غاما حول الطرف الجنوبى لأفريقيا عند رأس الرجاء الصالح إلى أن وصل فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس عام ١٤٩٨ إلى ملندى على الساحل الشرقى لأفريقيا ، وهى تقع إلى الجنوب من خط العرض الثالث جنوبى خط الاستواء[٣٣] ؛ وفى خلال الشهر الذى أمضاه هناك تعرف ڤاسكو دا غاما بربان « مسلم من كجرات (بالهند) » يدعى « المعلم كاناكا » Malemo Canaqua ، وفى بعض الروايات « كانا » Cana[٣٤] ، ودله على طريق الهند وأوصل سفنه فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل من نفس العام إلى ميناء قليقوت[٣٥] على ساحل ملبار[٣٦] . وقد أخذ الكشف عن هذه الأسماء الغامضة بعض الوقت ، إذ ثبت أنها تشير إلى ألقاب احترام لا إلى أسماء أعلام . وقد أثبت فيران أن لفظ Malemo ليس سوى تحريف للفظ العربى « معلم » بلغة السواحيلى Swahili السائدة بأفريقيا الشرقية[٣٧] ؛ وقد دخل هذا اللفظ فى الاصطلاح الملاحى وأطلق فى الأدب الكلاسيكى على الشخص الذى نال خبرة عملية ونظرية فى المسائل البحرية (وجمعه « معالمة ») . وفى شكل مقارب لهذا هو Malim دخل هذا اللفظ فى لغة

الملايو(٣٨) ، وهو منتشر فى جميع بقاع المحيط الهندى(٣٩) بل وعرف منذ ذلك العهد فى اللهجة البرتغالية المستعملة فى آسيا(٤٠) . أما لفظ «كاناكا» فهو الشكل الذى استعمل فى ملبار(٤١) وفى لغة التامل(٤٢) ليؤدى اللفظ السنسكريتى ganika ويقصد به «الحاسب» و«المنجم» . وإلى بداية القرن السادس عشر نرى المؤلف البرتغالى دوارت باربوسا Duarte Barbosa يتحدث عن طبقة (caste) الكاناكا بملبار الذين كانت مهنتهم التنجيم ويؤكد أن الملوك لم يكونوا ليتصرفوا فى شىء قبل معرفة رأيهم وأن التجار كانوا يستشيرونهم فى طالع تجاراتهم ورحلاتهم(٤٣). أما فى ذلك النص الذى يتعلق برحلة ڤاسكودا غاما 556 فيبدو أن المقصود بهذا اللفظ هو «الخبير بالشئون الملاحية والفلكية» ؛ وبهذا يمكن الجزم بأنه لاتوجد فى هذا اللفظ أية إشارة إلى اسم علم . غير أن الشخص الذى يختفى وراء هذه التسمية أمكن الكشف عنه بالرجوع إلى نص لمؤلف عربى واتضح أنه ملاح عربى معروف .

فقطب الدين النهروالى (٩١٧ هـ — ٩٩٠ هـ = ١٥١١ — ١٥٨٢) الذى مر بنا الحديث عنه كخبير بخطط مكة ، وسيمر بنا اسمه فيما بعد بصدد رحلته إلى استنبول ، والذى ترجع تآليفه إلى ما بعد خمسين عاما بالتقريب من ذلك الحادث الخطير أى كشف البرتغاليين لطريق الشرق ، أقول إن قطب الدين هذا قد حفظ لنا فى كتابه عن فتح العثمانيين لليمن «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» رواية هامة عن ظهور البرتغاليين فى المحيط الهندى* ؛ وكان هذا الحادث الخطير لا يزال عالقاً بأذهان المتقدمين فى السن فى عهد قطب الدين . وقد عُرف نص هذه الرواية منذ عهد طويل فى دراسة لسلفستر دى ساسى (١٧٩٤) ثم فى ترجمة أحدث من ذلك باللغة البرتغالية للعلامة داڤيد لوپز David Lopes (١٨٩٢)(٤٤) ؛ غير أن فيران وحده هو الذى تمكن من تقديم ترجمة دقيقة لهذا النص وتزويده بتعليقات وافية . كتب قطب الدين يقول : «وقع فى أول القرن العاشر [ابتداء من عام ١٤٩٥] من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبتة [مضيق جبل طارق] فى البحر ويلجّون فى الظلمات [أو بحر الظلمات وهو المحيط الأطلنطى] ويمرون خلف جبال القمر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أى أبيض وهى مادة أصل بحر النيل ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى فى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج(٤٥) لا تستقر به سفاينهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولايخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص منهم غراب [سفينة صغيرة Caravelle] إلى (بحر) الهند فلازالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندى [بالشكل العربى للفظ البرتغالى Almirante أى الأميرال] وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم لا تقربوا

* لا بد وأن ذكر الخليج الفارسى بدلا من المحيط الهندى لدى المؤلف كان من قبيل السهو . (المترجم)

الساحل من ذلك المكان [أى الساحل الأفريقى] وتوغلوا فى البحر ثم عودوا [أى إلى ساحل الهند] فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا كوة بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء [Goa] اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن (و) من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا[٤٦] ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم 557 من البرتقال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ [٩١٧ هـ – ٩٣٢ هـ = ١٥١١ – ١٥٢٥] إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى [٩٠٦ هـ – ٩٢٢ هـ = ١٥٠١ – ١٥١٦] يستعين به على الافرنج »[٤٧].

يجب أن نطرح من هذا المتن الحكاية الخاصة « بسكر » الربان المسلم إذ من الواضح أن المؤلف إنما أراد بها على ما يبدو إيجاد تبرير لموافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجة ، كما ويجب أيضاً أن نطرح الأخطاء الصغيرة فى الوقائع التاريخية مثال ذلك أن هرمز قد فتحها البوكرك عام ١٥٠٧ أى قبل بناء جوا البرتغالية (Nova Goa)[٤٨] ؛ أما بخلاف هذا فإن الرواية تعكس بحق الوقائع التاريخية كما تصورها سكان سواحل المحيط الهندى والبحار المتفرعة منه . وتجتذب الأهمية بالنسبة لنا نقطتان ، فلفظ « الملندى » كما أثبت فيران إنما هو تحريف للفظ البرتغالى « الميرانتى » Almirante وهو اللقب الذى كان يحمله على ما يظهر ڤاسكو دا غاما . ومن الطريف أن نذكر فى هذا الصدد أن ذلك اللفظ قد ورد بهذا الشكل العربى لدى ابن خلدون من قبل[٤٩] ؛ ثم أهم من ذلك كله أن المتن يقدم لنا دليلا ذا قيمة كبرى إذ يعطى اسم الربان على أنه أحمد بن ماجد[٥٠]. وقد دفع هذا العلماء بالتالى لأن يتذكروا أن مصنفات شخص بهذا الاسم ذاته هى التى كانت المصدر الأساسى لمصنف فى الجغرافيا الملاحية وضعه أمير البحر التركى سيدى على ريس الذى قذف به مصيره إلى الخليج الفارسى والهند بعد خمسين عاماً بالتقريب من الحوادث التى نتكلم عنها . فهذا الأميرال التركى يذكر فى مقدمة كتابه الذى أشرنا إليه عدداً من مصنفات أحمد بن ماجد بعناوينها[٥١] ، وبفضل هذا وجد اسم ابن ماجد طريقه إلى الدوائر العلمية الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر؛ غير أن الكشف عن الأصول العربية لمصنفاته تأخر إلى عام ١٩١٢ .

وقد تم هذا الكشف بين جدران المنزل نفسه إذا جاز هذا التعبير ، وهو أمر ليس بالنادر فى تاريخ العلم . فبينما كان المستعرب المعروف غودفروا ديمومبين يبحث فى محفوظات المكتبة الأهلية بباريس عن مواد لزميله فيران وذلك من أجل مؤلفه الضخم من الشرق الأقصى كشف من مخطوطتين تضمان مصنفات لأحمد بن ماجد ولسليمان المهرى[٥٢] . وقد بقى لغزاً حتى ذلك الوقت كيف أن حافظ المخطوطات بالمكتبة الأهلية المستشرق رينو Reinaud لم يفطن لوجودهما على الرغم من أنه يتكلم عن سليمان المهرى فى مؤلفه الجامع « مقدمة عامة لدراسة الجغرافيا عند المشارقة » Introduction Générale à la Géographie

des Orientaux مستقياً معلوماته فى هذا الصدد من المصنف التركى لسيدى على ريس . ولعله يمكن تفسير هذا بأن إحدى المخطوطتين [558] قد اشترتها المكتبة الأهلية من أستاذ عربى كان يقيم بفرنسا هو سليمان الجزائرى[٥٣] فى عام ١٨٦٠[٥٤] أى فى السنوات الأخيرة من حياة رينو ؛ بيد أن المخطوطة الأخرى كانت موجودة بالمكتبة الأهلية منذ القرن الثامن عشر[٥٥] ؛ هذا وقد تم العثور بالتالى على مذكرة موجزة بخط يد رينو تشير إلى معرفته بهذه المخطوطة ولكن لم يقدر لتلك السطور أن ترى النور[٥٦] . ومن الغريب حقاً أن ذلك الكشف الضخم كان عليه أن ينتظر إلى عام ١٩١٢ رغماً من أن كلا المخطوطتين قد ورد ذكرها فى فهرس المكتبة الذى عمله دى سلان De Slane وتم طبعه فى عام ١٨٩٥[٥٧] . هذا وقد ساق الكشف عن هاتين المخطوطتين الفريدتين إلى الكشف شيئاً فشيئاً عن مخطوطات أخرى ومواد مماثلة ؛ ففى أوائل السنوات العشرينات من هذا القرن عُرفت مخطوطة دمشق[٥٨] التى اجتذبت بالتالى أنظار فيران ، كما ظهرت إشاعة بوجود مخطوطة أخرى بجدة[٥٩] . وقد تم الكشف فيما بعد عن مصنفات أخرى لابن ماجد لا وجود لها بمخطوطات باريس وذلك بالموصل[٦٠] وبمعهد الدراسات الشرقية بلنينغراد ؛ ولم يكتب لفيران أن يفحص هذه الكشوف الأخيرة ، كما وأن بعض أقسام مخطوطة الموصل تحتاج إلى فحص دقيق للتوكد من صحتها . هذا وقد عاجل الموت فيران دون أن يكمل دائرة البحث الذى بدأه وذلك بترجمة المصنفات التى نشرها والتعليق عليها ؛ ورغماً من ذلك فإن الطبعة المصورة للمتن التى نشرها فيران وأيضاً سلسلة الأبحاث والمقالات التى دبجها يراعه حول نقاط عامة وخاصة تتعلق بهذه المؤلفات ، كل هذا يمكننا من تكوين فكرة واضحة للغاية عن أهمية هذا الكشف بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العربى . ويمكن أن تمثل حصيلة لجميع دراساته فى هذا الصدد تلك الأبحاث المفصلة التى أسهم بها فيران فى « دائرة المعارف الإسلامية »[٦١] ، وبصورة خاصة أيضاً كتابه « مقدمة فى الملاحة الفلكية عند العرب » Introduction à l'Astronomie Nautique Arabe (١٩٢٨)[٦٢] الذى يحوى إلى جانب هذا أبحاثاً مستقلة تعالج مسائل ذات طابع تخصصى وندين بها إلى قلم العلامة السويسرى ليوبولد دى سوسير Léopold de Saussure (١٨٦٦ — ١٩٢٥)[٦٣] الخبير فى الفلك لدى الصينيين وفى المسائل البحرية ، وهو أخ للعالم اللغوى المشهور* .

هذا ولم يمكن العثور على أية معلومات عن سيرة حياة هذين المعلمين اللذين حفظت لنا مصنفاتهما مخطوطتا باريس فى أى مصدر آخر حتى الآن ، وكل ما استطاع أن يجمعه البحاثة عنهما كانت معلومات نزرة أمكن استقراؤها من اسميهما [560] ومن بعض الإشارات النادرة فى مؤلفاتهما نفسها . فالأول يدعى

* يقصد فردينان دى سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ — ١٩١٣) العلامة اللغوى الشهير صاحب كتاب « دروس فى علم اللغة العام » Cours de linguistique Générale (١٩١٦) الذى لعب دوراً كبيراً فى نشأة علم اللغة المعاصر . (المترجم)

شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى النجدى فهو بهذا ينتمى إلى نجد وهى حالة نادرة لأن الملاحين كانوا فى عهد ازدهار الحضارة العربية من بين الفرس عادة ؛ غير أنه ولد بجلفار على الساحل العربى لخليج عمان . وعندما تصفه المصادر البرتغالية بأنه « مسلم من كجرات » فينبغى أن نبصر فى هذا انعكاساً لصلته بالهند ليس إلا ، وربما كانت مركزاً لعملياته البحرية ؛ ويلوح أنه كان من الشيعة وهو أمر مفهوم على ضوء علاقاته الدائمة مع الفرس[٦٤]. وغير معروف لنا عام ميلاده أو عام وفاته ، ويمكن أن نستدل من تاريخ تأليف مصنفاته على أن نشاطه يقع فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ؛ وهو يذكر فى إحداها أن له تجربة أربعين عاماً فى الملاحة الشىء الذى دفع فيران إلى الافتراض بأن تاريخ ميلاده يرجع إلى السنوات الثلاثينات من القرن الخامس عشر[٦٥] . ومن هذا يتضح لنا أن إرشاده لسفن فاسكو دا غاما كان فى الغالب من أواخر أعماله الملاحية الكبرى .

وينحدر ابن ماجد من صلب أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن[٦٦] ، فجده وأبوه كانا «مُعَلِّمَيْن»[٦٧] أيضاً وخلفا اسمهما فى عالم الملاحة وفى الأدب بل وفى الأرسطورة كذلك . ويقص علينا الرحالة المشهور برتون Sir Richard Burton أن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ولى من أهل الشام يدعى الشيخ ماجد ويقرءون الفاتحة على روحه قبل ركوبهم البحر[٦٨] . ويحكى لنا ابن ماجد نفسه أن اسم « ظهرة* ابن ماجد » (reel) كان يطلق على موضع بالساحل الشرقى للبحر الأحمر قريباً من جزيرة المرما وذلك لأن أباه كان يربط سفينته فى ذلك الموضع[٦٩] ؛ وكان أبوه يلقب «بربّان البرين» (أى ساحلى البحر الأحمر)[٧٠] . ويذكر ابن ماجد فى موضع آخر كيف حدث وأن كتبت له السلامة أثناء ركوبه البحر الأحمر عند ساحله الغربى فى عام ٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ لاعتماده على قول أبيه بأنه لا يوجد ممر بين جزيرة أسما ومسند (إلى الجنوب من خط ١٧ درجة شمالا) وذلك على خلاف زعم بقية الربابنة[٧١] . هذا وقد دون الأب تجاربه البحرية فى مصنف ضخم هو « الأرجوزة الحجازية » التى كانت تضم أكثر من ألف بيت فى وصف الملاحة على سواحل البحر الأحمر[٧٢] ؛ وقد أمكن للابن أن يستدرك بعض التصحيحات على أبيه اعتماداً على ملاحظاته الشخصية ويضيف إليه بطريقة منتظمة[٧٣] .

561 غير أن الذى يستحق الفضل الأكبر من بين جميع أفراد هذه الأسرة هو بلا شك أحمد بن ماجد ، أو كما دعى نفسه « ناظم القبلتين مكة وبيت المقــدس » و « حاج الحرمين الشريفين »

* لم أستطع العثور على هذا المعنى الاصطلاحى للفظ « ظهرة » حتى فى معجم محدث كمعجم الزبيدى ؛ غير أن اشتقاق اللفظ واستعماله فى هذا المعنى فيه الكثير من الصواب والتوفيق . وقد جاء فى لسان العرب أن الظهرة السلحفاء وأن الظواهر هى أشراف الأرض ، فليس ثمة ما يحول دون استعماله فى معنى الصخور التى لا يكاد يسترها الماء والتى تمثل خطراً كبيراً بالنسبة للملاحين . والإدريسى يستعمل فى هذا المعنى لفظ تروش . (المترجم)

و « أسد البحر الزخار » و« خلاف الليوث » و « المعلم العربى »[٧٤] ، و « رابع الثلاثة » و « رابع الليوث »[٧٥] ؛ ويمكن أن نؤكد الآن بأن مصنفاته تمنحه الحق لأن يفخر بنفسه بمثل هذه الطريقة . ورغماً من ندرتها فإن مخطوطات مصنفاته على جانب كبير من الجودة ، فالمخطوطة الرئيسية بباريس تمثل نسخة مأخوذة من الأصل وترجع إلى عام ٩٨٤ هـ = ١٥٧٦ [٧٦] ؛ أما مخطوطة دمشق فقد نسخت بمكة فى سنة ١٠٠١ هـ = ١٥٩٢[٧٧] ، كما وأن نسخ المصنفات الثلاث الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر[٧٨] .

وآثار ابن ماجد كثيرة ويبلغ عدد الموجود منها فى الآونة الحاضرة الأربعين ، ومعظمها قد تمت صياغته شعراً وفقاً للمنهج التذكيرى (mnemotechnique) القديم . غير أن واحداً من مصنفاته الكبرى الهامة قد كتب بالنثر ويحمل عنوان «كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد» وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظرى والعملى للمسائل الملاحية معتمداً من جهة على من سبقوه فى هذا المضمار ومن جهة أخرى على تجاربه الشخصية بصورة خاصة . وميدان هذا الكتاب الرئيسى هو البحر الأحمر ، والخليج الفارسى والمحيط الهندى وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو) ، أما تاريخ تدوينه فيتأرجح بعض الشىء أثناء العرض مما يستدل منه على أن المؤلف قد أضاف إليه مرات عديدة وأعاد تنقيحه بصورة يمكن القول معها بأن الكتاب قد خضع لثلاث مسودات ، وذلك فى أعوام ٨٨٠ هـ = ١٤٧٥ و ٨٨٢ هـ = ١٤٧٨ و٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ بالتعاقب[٧٩] ؛ وهو ينقسم بحسب تبويبه إلى اثنى عشر قسما يطلق المؤلف على كل منها اسم « فائدة » ، كأنما يريد بهذا التذكير بعنوان الكتاب . فالفائدة الأولى تبحث فى نشأة الملاحة مع إيراد تفاصيل يغلب عليها الطابع الأسطورى كما يعالج فيها أيضاً الكلام على الإبرة الممغنطة ، أما الفائدة الثانية فهى ما يجب معرفته من الشئون البحرية « للمعلم » الأصيل ، هذا بينما تعرّف الفائدة الثالثة بمنازل القمر والرابعة بمنازل وردة الرياح الاثنين والثلاثين التى تظهر على البوصلة وتسمى « بالأخنان » (مفردها « خن »)[٨٠] ؛ ولعله لا يخلو من الفائدة لو أضفنا إلى هذا أن نفس تلك الطريقة لا تزال مستعملة إلى الآن فى نفس تلك النواحى فملاحو البحر الأحمر لايطبقون على البوصلة الأوروبية الحديثة نظام التقسيم المعهود بل | يقسمونها إلى اثنين وثلاثين قسما ترتبط بطلوع ومغيب نجوم معينة وتبينها هذه « الأخنان »[٨١] . 502

وأما الفائدة الخامسة فتعالج الكلام على الجغرافيين والفلكيين الأول ، بينما تفصل السادسة الكلام فى الطرق البحرية والسابعة فى الأرصاد الفلكية ؛ وكانت هذه تتم فى الغالب عن طريق قياس المسافات بين النجم القطبى (الجاه)[٨٢] واثنين من نجوم الدب الأصغر (الفرقدين) والنعش ا من نجوم الدب الأكبر[٨٣] . وهى نفس النجوم التى لاتزال تلعب نفس الدور لدى ملاحى البحر الأحمر حاليا[٨٤] . ولاتقاس العروض فى مصنفات ابن ماجد بالدرجات بل بواسطة ما يسمى فى مصطلحه « بالإصبع » . ولعل هذه التسمية تشير إلى الطريقة البدائية للراصدين الأوائل ؛ وقد تمكن دى سوسير من أن يحدد مقاسه بالكثير من الدقة

بما يعادل درجة واحدة وسبع وثلاثين دقيقة(٨٥) . وكانت هذه الطريقة واسعة الانتشار ويبدو أنه وجدت اصطرلابات مقسمة لا بالدرجات بل بهذه الأصابع(٨٦) . وأصل هذه الطريقة غير معروف وفيران لم يستطع أن يتتبعه سواء بين اليونان أو بين الفرس أو لدى أهل الصين أو الهند أو فى اندونيزيا . وأحمد بن ماجد ومدرسته هو الجغرافى العربى الوحيد الذى لم يتبع مذهب بطلميوس فى تقسيم خطى الاستواء والزوال إلى ثلاثمائة وستين درجة ، فلديه يوجد مئتان وأربعة وعشرون* إصبعاً يمكن الوصول إليها عن طريقتين إحداهما أن كل بيت من بيوت وردة الرياح يحتوى على سبعة أصابع والأخرى هو أن كل منزل من المنازل القمرية الثمانية والعشرين به ثمانية أصابع ؛ ويشير الحاصل فى كلا الحالتين إلى أن الإصبع يعادل درجة وسبعاً وثلاثين دقيقة(٨٧) . أما القسم الباقى من «كتاب الفوائد» فيغلب عليه الطابع العملى التطبيقى ، فالفائدة الثامنة تبحث فى العلامات التى تشير إلى اقتراب اليابس وفى توجيه السفينة وقيادتها وفى مرافئ كجرات** التى شغلت مكاناً رئيسياً على ما يبدو فى نشاط ابن ماجد الملاحى . والفائدة التاسعة تعالج الكلام على السواحل ابتداء من رأس الحد فى الجزيرة العربية ، والعاشرة فى «الجزر الكبار المشهورات المعمورات وهى جزيرة العرب وجزيرة القمر وهى مدكسكر وشمطرة وجاوة والجور [فورموزا] وسيلان وزنجبار والبحرين وجزيرة ابن جاوان وسقطرة» . أما فى الفائدة الحادية عشرة فيرد الكلام على المواسم والسفر فى البحر ؛ ثم يختتم كتابه بالفائدة الثانية عشرة «فى صفة بحر القازم [البحر الأحمر] وجزره وشعبانه»(٨٨) .

أما بقية مصنفات أحمد بن ماجد فمنظومة شعراً وتحمل عادة اسم «الأراجيز» رغما من أنها لم تنظم فى كل الحالات ببحر الرجز ؛ وتتراوح أحجامها بين عشرين وثلاثمائة بيتاً . وفى معظم | الأحوال تعالج كل واحدة منها الكلام على طريق بحرى معين ، أى أنها أشبه ما تكون بمرشدات بحرية بالنسبة لعصرها وأحياناً قد تمس الكلام على مسائل تخصصية ترتبط بالملاحة وعلم الفلك البحرى(٨٩) . وإحدى هذه الأراجيز قد تم تأليفها قبل «كتاب الفوائد» فهى بهذا أشبه ما تكون بمسودة مبدئية لمادته ؛ تلك هى أرجوزته الكبرى الواقعة فى ألف بيت بالتقريب والتى تحمل عنوان «حاوية الاختصار فى أصول علم البحار»(٩٠) التى فرغ منها بمسقط رأسه جلفار فى عام ٨٦٦ هـ = ١٤٦٢(٩١) . وهى تقع فى إحدى عشر فصلا يبحث الأول منها فى العلامات التى تشير إلى اقتراب اليابس ، والثانى فى منازل القمر وبيوت البوصلة وفى الأصابع و«الترفا» . وهذا اللفظ الأخير وفقاً لتحقيق دى سوسير(٩٢) هو المعادل (équivalent) الجغرافى للفظ الإصبع ويساوى سبعة وتسعين ميلا بحرياً بالتقريب ، أى رحلة يوم بحرى وذلك بمعدل سرعة متوسط يساوى أربعة أميال بحرية فى الساعة أو بعبارة أخرى أربع عقد (noeud) . ويعالج الفصل الثالث الكلام على مسائل التوقيت والرابع فى المواسم ؛ ومن الخامس إلى الثامن يرد وصف طرق الملاحة المختلفة فى المحيط الهندى وبحاره وخلجانه ؛ ثم يلى هذا الفصل التاسع فى الأرصاد والعاشر

563

* ورد فى الكتاب سهواً مئتان وأربعون بدلا من مائتين وأربعة وعشرين . (المترجم)

** يكتبها ابن ماجد دائماً جوزرات . (المترجم)

والحادى عشر فى مسائل مختلفة تتعلق بالملاحة من بينها تفسير لفظ يستعمل فى القياس هو « زام » (وجمعها أزوام) كان قد ورد من قبل فى كتاب « عجائب الهند » ؛ وكما وضح حالياً فهو يساوى ثُمن يوم بحرى بليلته أى ما يعادل ثلاث ساعات بالتقريب .

هذان المصنفان ، المنثور والمنظوم ، أعنى « كتاب الفوايد » و « حاوية الاختصار » ، هما أهم ما دونه يراع ابن ماجد من بين جميع مصنفاته الموجودة بين أيدينا سواء من حيث الحجم أو المضمون . وبعض مصنفاته الصغرى تعالج أحياناً مسائل متفرقة تتعلق بالملاحة أو توضح مصطلحات فنية خاصة ، غير أن غالبيتها تقدم لنا أوصافاً مفصلة للطرق البحرية ، أى أنها تمثل « مرشدات بحرية » . وخير مثال لهذا ثلاث أراجيز محفوظة بين مخطوطات معهد الدراسات الشرقية ولم تجد مكانها بالتالى بين المادة التى وصلت إلى يد فيران* ، إحداها (فى حوالى ستمائة بيت) تصف الطريق من ملبار إلى « سفالة الزنج » على الساحل الشرقى لأفريقيا فى حين تصف الثانية (فى مائتين وثمانين بيتاً) الطريق بين الهند وسيلان وجاوه ، أما الأخيرة وهى أصغرها (فى حوالى خمسة وخمسين بيتاً) فتتناول وصف الطريق فى البحر الأحمر بين جدة وعدن . وبهذا فإن تلك الأراجيز الثلاث ترسم لنا صورة حية لذلك الميدان الذى نشط فيه بشكل خاص « المعلم العربى » [٩٣] .

وبين التاريخين اللذين أتم فيهما تأليف « حاوية الاختصار » و « كتاب الفوايد » أى بين عامى ١٤٦٢ و ١٤٩٠ يمكن توزيع بقية مصنفات ابن ماجد الأخرى التى أمكن معرفة تواريخ تأليفها على وجه التحديد[٩٤] . وتبقى أرجوزة واحدة فقط من بينها يرجع تاريخها إلى عام ٩٠٠ هـ ١٤٩٤ ــ ١٤٩٥[٩٥] ، فهى تقف بذلك دليلا آخر على أن نشاط حياته الملاحية لم يتجاوز حدود القرن الخامس عشر فيما يبدو . ونتيجة لهذا يمكن القول بأن « كتاب الفوايد » يتوج معرفته النظرية وتجاربه العملية ويمثل الأوج الذى بلغته خبرته فى الملاحة وتطبيقه العملى لنظرياتها .

وابن ماجد يقدر السابقين له فى هذا المضمار تقديراً عالياً خاصة الثلاثة الذين ذكرهم بأسمائهم[٩٦] مضافاً إليهم والده وجده ؛ ولكن هذا لم يمنعه على أية حال من توجيه النقد إليهم فهو يقول ما نصه[٩٧] :

« وقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدورهم رحمة الله عليهم بقولنا أنا رابع الثلاثة وربما فى العلم الذى اخترعناه فى البحر ورقة واحدة تقيم فى البلاغة والصحة والفايدة والهداية والدلالة بأكثر ما صنفوه ...

« وهم مولفين لا مجربين ولم أعلم لهم رابع غيرى وقد وقرتهم بقولى إنى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة

---

* نشر أحد تلامذة كراتشكوفسكى وهو شوموفسكى هذه الأراجيز الثلاث مع ترجمتها إلى الروسية وتزويدها بتعليقات وافية بعنوان « ثلاث مرشدات بحرية غير معروفة لأحمد بن ماجد الدليل العربى لفاسكو دا غاما ، موجودة فى مخطوطة فريدة بمعهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم السوفيتية ، موسكو - ليننجراد ١٩٥٧ » .
T.A. Shumovski, Tri neizvestnie lotsii Akhmada ibn Madjida arabskogo lotsmana Vasko da Gami, v unikalnoi rukopisi Instituta Vostokovedenia AN SSSR, M—L., 1957 (المترجم)

564

فقط وسيأتى بعد موتى زماناً ورجالا يعرفون لكل أحد منزلته ولما اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيف بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وصححتها وجربتها عام بعد عام فى نظم الأراجيز والقصايد . . . . »*(٩٨) .

وابن ماجد قارئ مطلع فى مجال الأدب ولايقتصر محيط قراءته على أهل الجغرافيا الملاحية « كالليوث الثلاثة »(٩٩) وغيرهم من ممثلى هذا الاتجاه الذين لم يكن عددهم بالقليل رغماً من أن « راهنامجاتهم » لم تصل إلينا وأن معرفتنا بمعظمهم ترجع إلى مصنفات ابن ماجد وحدها(١٠٠) . ومعرفة ابن ماجد بالأدب الجغرافى عامة ليست أقل من معرفته بالأدب الملاحى ، وتحتل المكانة الأولى بالنسبة له بطبيعة الحال الجغرافيا الرياضية فيرد لديه ذكر المجسطى والبتانى وعبد الرحمن الصوفى والمراكشى والطوسى وأولوغ بيك(١٠١) ، أى بالتقريب جميع حلقات تلك السلسلة التى عالجنا الكلام عليها من قبل . ومن ناحية أخرى تقابلنا لديه أسماء ابن حوقل وابن سعيد وياقوت(١٠٢) ، أضف إلى هذه أنه لايهمل إيراد أسماء مصنفات أدبية صرفة(١٠٣) كما يستشهد بأبيات لعدد من الشعراء ابتداء من العصر الجاهلى إلى القرن الخامس عشر(١٠٤) .

565 واطلاع ابن ماجد الواسع وتجربته العريضة يبرران إلى حد كبير الفكرة الرفيعة التى كونها عن نفسه وعن مصنفاته ؛ ولهذا السبب فإن فيران وهو خير خبير فى هذا النمط من الأدب لم يبالغ حين رأى فى « كتاب الفوايد » « أثراً يدعو إلى الإعجاب » (l'Oeuvre est admirable) واعتبره ذروة التأليف الفلكى الملاحى لعصره ، كما اعتبر ابن ماجد أول مؤلف للمرشدات البحرية Instructions Nautiqnes الحديثة . ووصفه للبحر الأحمر لم يفقه بل ولم يعادله ، باستثناء بعض التصحيحات فى العروض ، أى مرشد أوروبى فى الملاحة الشراعية (marine à voile) كما وأن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح المحلية وطرق الملاحة الساحلية (au cabotage) والبعيدة المدى تتميز بأقصى درجة من الدقة والتفصيل يمكن أن نتوقعها فى ذلك العصر . ومن الملاحظ أن معرفته بأندونيزيا كانت أقل من معرفته بسواحل المحيط الهندى وجزره ، ولسبب لاندرى كنهه تصور ابن ماجد جزيرة جاوة ممتدة من الشمال إلى الجنوب على نقيض اتجاهها الفعلى ، وتتكرر نفس هذه الغلطة لدى المؤلف التالى له سليمان المهرى بل ووجدت طريقها إلى الترجمة التركية لسيدى على ريس ، وهذا كما يعتقد فيران هو التصحيح الوحيد الهام الذى يمكن إجراؤه فى مؤلفاته(١٠٥) .

أما علاقته بالمذهب الهندى فكانت قوية للغاية وليست أقل من علاقته بالأدب العربى . وفى تحليله

---

* نقلنا النص حرفيا دون أن نجرى فيه أى تصحيح ، ولن يخفى على القارئ العربى أن ابن ماجد لم يحفل كثيرا لقواعد اللغة أو النحو . (المترجم)

للصفات التي يجب أن يتحلى بها المعلم الماهر يسوق ابن ماجد في هذا الصدد وفي القرن الخامس عشر نفس الألفاظ تقريباً التي وردت في المصنف الهندي المشهور للقرن الأول للميلاد « جاتكا مالا » Jātaka-Māla[١٠٦] . وبعد قرن من ابن ماجد عندما عالج أبو الفضل العلامي وزير أكبر الكلام عن المسائل البحرية في مصنفه « آئين أكبري » عبر عن نفس تلك الآراء فيما يتعلق بصفات « المعلم » بل وبنفس الأسلوب تقريباً[١٠٧] . وبهذا نبصر أمام أعيننا كيف اندمجت عناصر مختلفة من الحضارات العربية والإيرانية والهندية على ممر قرون طويلة لتخرج لنا مزيجاً مركباً في مجال الجغرافيا الملاحية[١٠٨] .

وقد حفظت ذكرى ابن ماجد إلى عصرنا هذا ، ففي الثلاثينيات من القرن الماضي وجد في يد أحد النواخذة سفر بعنوان « ماجد كتابي » محلى ببعض التصاوير ويمثل في الغالب أحد مصنفاته . ولم يكن بوسع ذلك الملاح أن يستغنى عنه في رحلته[١٠٩] .

أما الممثل العربي الثاني للجغرافيا الملاحية الذي أصبح معروفاً لنا بفضل أبحاث فيران فإنه لم يكن على ما يبدو في نفس القدر من الأصالة والإبداع كزميله السابق له . وأصل سليمان المهري من بلاد العرب أيضاً فهو من مدينة الشحر على الساحل الجنوبي لحضرموت ، وقد اشتهر سكان هذه المواضع منذ القدم بالمهارة في الملاحة وكانت لهم صلات عن طريق البحر بسواحل أفريقيا الشرقية | وأرخبيل الهند الشرقية على 566 السواء . ومن المؤسف أنه لا توجد لدينا أية تفاصيل تتعلق بسيرة حياة هذا الملاح العربي حتى في مصنفاته نفسها ، وبهذا فإننا لانستطيع تحديد الفترة التي عاش فيها إلا اعتماداً على تعليلات ثانوية ، فإحدى مصنفاته يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧ هـ = ١٥١١[١١٠] ولكن عندما صنف سيدي على ريس كتابه « محيط » في عام ٩٦١ هـ = ١٥٥٤ فإن سليمان المهري لم يكن في عداد الأحياء[١١١] . لهذا فإن فترة نشاطه تقع على ما يبدو في النصف الأول من القرن السادس عشر ، أي بعد مضي بعض الوقت على رسوخ قدم البرتغاليين بالمحيط الهندي* .

وعلى نقيض الحال مع ابن ماجد فإن جميع المصنفات الخمس التي تبقت لنا عن سليمان المهري مكتوبة نثراً ومحفوظة بأجمعها في إحدى مخطوطتي باريس المشار إليهما (رقم ٢٥٥٩)[١١٢] . وهي من حيث مضمونها تكرر إلى حد كبير مادة ابن ماجد ، وليس ثمة ما يدعو إلى الكلام عليها جميعها بالتفصيل ؛ وينقسم أكبرها وهو « العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية »[١١٣] الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧ هـ = ١٥١١[١١٤] إلى سبعة أبواب تنقسم بدورها إلى فصول . فالباب الأول يبحث في أصول الفلك البحري مع التعريف بمعظم الاصطلاحات التي مرت بنا ؛ وفي الباب الثاني يتحدث عن النجوم وجميع ما يتعلق بها من شئون الملاحة ، أما الباب الثالث ففي الطرق البحرية الواقعة « فوق الريح وتحت الريح »

* لا أدري ما الذي دفع المؤلف مرتين إلى الكلام عن الخليج الفارسي بدلا من المحيط الهندي . وقد اعتمدت على سياق العبارة لأجري هذا التصحيح . (المترجم)

أى إلى الغرب والشرق من رأس كومورين Comorin . ويبحث الباب الرابع فى الطرق المارة على الجزر الكبرى المختلفة ، بينما يبحث الخامس فى القياسات (latitudes) التى مرت بنا من قبل مثل قياس النجم القطبى (الجاه) والفرقدين (ب ، ج من الدب الأصغر) والنعش (ا ، ب ، ج ، د من الدب الأكبر) . وأما الباب السادس فيفصل فيه الكلام على الرياح الموسمية السائدة بالمحيط الهندى بينما يفرد السابع لوصف البحر الأحمر ويشفع ذلك بإعطاء وصف لحوالى الثلاثين من طرق الملاحة مبيناً فى ذات الوقت المخاطر التى ينبغى أن يتجنبها الملاحون .

وأما المصنف الثانى الكبير لسليمان المهرى فيحمل عنوان «كتاب المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر» وينقسم هو أيضاً إلى سبعة أبواب[١١٥] تسبقها مقدمة يفسر لنا فيها معنى الاصطلاحين « زام » و « ترفا » . أما الباب الأول فيصف فيه السواحل القارية للمحيط الهندى ، بينما يفرد الثانى للكلام على عروض الموانى الموجودة على السواحل المشهورة والمعمورة ، والثالث لوصف الجزر الكبار المعمورة المشهورة ، والرابع فى المسافات بين بلاد العرب وساحل الهند الغربى وموانى خليج البنغال من ناحية ، وبين ساحل أفريقيا الشرقى وموانى سومطرة وجاوة وبالى من ناحية أخرى . أما الباب الخامس ففرد لذكر الرياح والعواصف والمخاطر التى تتعرض لها السفن ، والسادس يعالج الكلام على العلامات التى تشير إلى اقتراب الأرض على سواحل الهند الغربية وجزيرة العرب وأفريقيا الشرقية ، هذا بينما يبحث الفصل السابع فى حلول الشمس والقمر منطقة البروج (Signes du zodiaque) ؛ وفى الخاتمة يقدم مرة أخرى وصفاً لخمس طرق ملاحية . 567

ويلوح أن الرقم « سبعة » كان محبباً إلى سليمان ، وواحد فقط من مصنفاته وهو رسالة غير كبيرة فى حساب التقويم (القمرى والشمسى والرومى والقبطى والفارسى) ينقسم إلى ستة أبواب[١١٦] . وله رسالة أخرى غير كبيرة أيضاً ذات مضمون عام بعنوان « تحفة الفحول فى تمهيد الأصول » عمل لها شرحاً وافياً[١١٧] على طريقة العلماء القدامى فى مختلف فروع العلوم ؛ وتتداخل مادتها بوجه عام مع مضمون المصنفات السابقة ؛ فالباب الأول فى صفة الأفلاك والنجوم وفى المغناطيس وبيت الإبرة ، والثانى فى تقسيم الدائرة إلى اثنين وثلاثين جزءاً هى « الأخنان » ، والثالث يورد تحديداً مفصلا للفظ « زام » مع وصف لاستعماله ؛ أما الباب الرابع ففى الطرق البحرية الساحلية منها والتى فى عرض البحر ، والخامس فى تحديد ارتفاع النجوم ، والسادس فى المسافات بين الموانى ونقاط أخرى ، ويختم ذلك بالباب السابع فى الرياح خاصة الموسمية بالمحيط الهندى .

وسليمان المهرى يصل فى نهاية الشوط إلى نفس النتيجة التى وصل إليها ابن ماجد بالتقريب وهى أن المعرفة بالشئون البحرية إنما تقوم على أساس مزدوج من سلامة التفكير والخبرة العملية[١١٨] .

وقد زاول سليمان نشاطه بعد نصف قرن بالتقريب من أحمد بن ماجد ، ورغماً من ذلك فإنه لاينعكس

فى تآليفه أى أثر لنفوذ البرتغاليين الذين حدث له وأن التقى بهم دون شك خلال أسفاره البحرية ، لأن السيادة على المياه الغربية للمحيط الهندى كانت قد انتقلت إلى أيديهم منذ بداية القرن السادس عشر كما رأينا . وقد ظلت مصنفاته عربية صرفة[١١٩] ولكنها تقدم لنا بالطبع مزيجاً مركباً (synthesis) من تجربة عدد كبير من الشعوب إن لم يذكر من بينهم ممثلى العلم الغربى فقد ذكر على الأقل أهل التجربة العملية منهم ؛ فنى كلام له عن بعض المعالمة نراه يشير إلى « معالمة البحر الهندى وهم العرب والمرامزة وأهل الهند والشوليان [cholas سكان ساحل كروماندل] والزنوج وكذا معالمة الغرب كالمغاربة والفرنج والروميين »[١٢٠] ، وذكر الأخيرين يقف دليلا على أن محيط تجربته العملية كان واسعاً للغاية رغما من أن مصنفاته تبدو قاحلة وفقيرة إذا ما قورنت بمصنفات ابن ماجد من وجهة نظر الاطلاع الأدبى والمستوى الثقافى العام .

ودراسة آثار ابن ماجد وسليمان لا تخلو من صعوبات معينة ، وقد أعرب دى سلان De Slane ، وهو أول من وصف هذه المخطوطات ، عن ريبته الشديدة فى إمكان فهم مادتها يوماً ما ؛ وهو يقول ما نصه « إن أسلوبها يحفل بالكثير من الحوشى الغريب وتكثر به الاصطلاحات الفنية | التى لا يتسنى 568 فهمها إلا للملاحى المحيط الهندى دون غيرهم »[١٢١] . ويجب فى البداية أن نقف موقف المعارضة من الشطر الأول لهذه القضية ذلك لأن لغة ابن ماجد وسليمان بسيطة على وجه العموم ، هذا إذا أخذنا فى حسابنا الحدود الضيقة التى أملاها الالتزام بالوزن الشعرى فى معالجة موضوع فنى كهذا ؛ وقد يلاحظ أحياناً لدى ابن ماجد رغماً من اطلاعه الواسع فى محيط الأدب وجود بعض الألفاظ العامية بل والخروج على الفصيح ، بيد أن هذه ظاهرة عادية بالنسبة للعصر والوسط الذى عاش فيه وأولى بنا أن نعجب لارتفاع مستوى أسلوبه فى الكتابة . وقد رأى فيران لزاماً عليه أن يصحح أيضاً الشطر الثانى من حكم دى سلان تصحيحاً جوهرياً[١٢٢] ، فهو يعتقد بأن هذه المرشدات والتعليمات الملاحية والفلكية إنما عملت بواسطة ملاحين من أجل ملاحين فلا محيص من أن تكتب باللغة الملاحية الفلكية الخاصة بذلك الوسط الملاحى ، وبما أن هذه اللغة قد بقيت إلى الآونة الحاضرة مجهولة تمام الجهل ولم تخضع بعد لدراسة دقيقة فمن المنطقى أن يحتاج عدد من ألفاظها إلى إعمال الجهد وإلى البحث والتقصى ؛ وكما يبدو من مجهودات فيران ودى سوسر فإن هذه المهمة وإن كانت عسيرة للغاية إلا أنها أبعد من أن تكون مستحيلة بل كان نصيبها التوفيق فى حالات عديدة وأسهمت بهذا فى غنى المعجم العربى .

ومهما يكن من شىء فإن الكشف عن مصنفات ابن ماجد وسليمان وإن تم للأسف فى عهد متأخر إلا أنه يعتبر حدثاً كبيراً ليس بالنسبة لموضوع دراستنا وحده ، أعنى الأدب العربى الذى بدت لنا فيه صفحة مشرقة لم تكن معروفة من قبل ، بل وأيضاً لأن هذه المصنفات تحتل مكانة مرموقة فى تاريخ الحضارة البشرية جمعاء ؛ فهى تصور لنا بدقة كبرى طبيعية الأوضاع الملاحية الأوقيانوسية فى النصف الثانى

من القرن الخامس عشر وذلك فى المجال البحرى الممتد بين ساحل أفريقيا الشرقى ابتداء من رأس الرجاء الصالح بالتقريب وبين ميناء الزيتون الشهيرة بالصين* وهو يشمل البحر الأحمر والخليج الفارسى وجميع جزر المحيط الهندى وأرخبيل آسيا الشرقية باستثناء الفلبين واليابان وحدهما . والى نجانب هذا فهى تمثل أهم مصدر للمعلومات الجغرافية التى كانت تحت تصرف العصور الوسطى المتأخرة عن البحار الجنوبية ؛ وكما اعترف ابن ماجد نفسه فهى تعتمد إلى حد ما على تلك المرشدات البحرية التى وصفها أبوه وجده من قبل وأيضاً على معلومات الملاحين عاشوا فى عهود سابقة لذلك ثم صححها وأضاف إليها ابن ماجد من أجل ملاحى القرن الخامس عشر . فهذه المصنفات يمكن اعتبارها إلى حد كبير جماعاً للمعارف التى وجدت تحت تصرف جميع ملاحى بحر الهند بما فيهم العرب والزنوج والهنود الغربيون والشوليان والاندونيزيون بل وحتى الصينيون ، وعلى هذا فهى تمثل أهم مصدر لتاريخ الملاحة والتجارة فى البحار الجنوبية فى الفترة السابقة للفتح البرتغالى مباشرة[١٢٣] .

559

ومن الواضح أن ابن ماجد وسليمان المهرى قد اقتصرا فى مادتهما على المذهب الشرقى وحده ولا يوجد أى أثر للنفوذ البرتغالى عليهما البتة رغما من أن الثانى قد وقع نشاطه الملاحى فى عهد سيطرة البرتغاليين ؛ وعلى النقيض من هذا فإن النفوذ العربى يبدو قوياً على البرتغاليين الذين تعرفوا على التجربة العربية فى الملاحة منذ لحظة دورانهم حول رأس الرجاء الصالح ، بل إن أقدم مادونوه فى هذا المجال يحمل آثار النفوذ العربى بوضوح أضف إلى هذا أن بعض الاصطلاحات الفنية البرتغالية ليست سوى ترجمة صرفة لمثيلاتها العربية[١٢٤] . وإذا كان تأثير أدب الجغرافيا الملاحية العربية على أهل الغرب فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر جلياً بهذا القدر فقمين أن يكون تأثيره على أهل المشرق أوسع وأعمق ؛ ويمكن تتبع هذا بصورة خاصة على الجغرافيا الملاحية فى الأدب التركى التى مرت فى القرن السادس عشر على فترة من الازدهار والانتعاش تدين بها ليس قليلا إلى هذه المصنفات العربية التى فرغنا للتو من الكلام عليها .

لقد حدث وأن ذكرنا أن اسمى ابن ماجد وسليمان قد وجدا طريقهما إلى الدوائر العلمية الأوروبية فى بداية القرن التاسع عشر بفضل كتاب ألفه الملاح والشاعر والكاتب التركى سيدى على ريس ؛ فمصنفه فى « الأوقيانوغرافيا » Oceanography إذا جاز هذا التعبير ، قد اعتمد إلى حد كبير على آثار هذين المؤلفين العربيين بصورة يضحى معها من العسير فى الظروف الحاضرة موافقة رأى القائلين بأصالة كتابه هذا . وعلى ممر الزمن الذى ظلت فيه هذه الآثار منزوية فى طى النسيان فإن مصنفه بقى متمتعاً بالإعجاب والتقدير الشديدين اللذين هو جدير بهما ؛ غير أنه حدث تبدل جوهرى فى الصورة بمجرد اكتشاف تلك الأصول إذ وضح أن جميع ذلك الثناء الذى أغدق عليه إنما ينبغى أن يكون فى الحقيقة من نصيب تلك المصادر العربية التى اعتمد عليها . ومن ثم فقد حدث نتيجة لهذا الكشف رد فعل معين ، إذ سقطت

* ورد بالكتاب سهواً الهند الصينية بدلا من الصين . (المترجم)

قيمته بعض الشيء ووضع فى المكان اللائق فيه كنقالة فحسب ؛ وسنرى فيما بعد أن هذا الحكم الأخير أبعد من أن يكون مقبولا من الجميع .

وقد حمل سيدى على بن حسين إلى جانب رتبته «كريس» أو «قبودان» لقب «چلبى» ، كما عرف أيضاً بمخلصه «كاتب رومى» أو «كاتبى» أو «رومى»[١٢٥] وكان يمهر بها أشعاره التى نالت بعض الشهرة فى الأدب الفنى العثمانى . وينسب إليه إلى جانب هذا ترجمة لرسالة فى الفلك أتمها بحلب فى عام ٩٥٦ هـ = ١٥٤٩ وهى من تأليف أحد معاونى أولوغ بيك العلامة على قوشجى المعروف لنا جيداً والذى لعب فى النصف الثانى 570 من حياته العلمية دوراً كبيراً فى نشر العلوم الدقيقة بين الأتراك العثمانيين ؛ ويمكن الالتقاء بمخطوطة هذه الترجمة من آن لآخر مما يشير إلى أنها قد تمتعت يوماً ما بقدر من الرواج[١٢٦] . غير أن ما ناله سيدى على ريس من شهرة كبرى إنما يرجع فى الواقع إلى الدور الذى لعبه فى تاريخ الدولة العثمانية من ناحية وإلى ما دونه من آثار تجريبية ونظرية فى الشئون البحرية من ناحية أخرى .

وقد بلغ الاهتمام بالشئون البحرية والملاحية فى الدولة العثمانية درجة رفيعة فى ذلك العصر ، وسنلتقى فى هذا الفصل من كتابنا بعدد هائل من الشخصيات الكبرى التى لعبت دوراً آخر فى هذا المجال . ويرجع أصل سيدى ريس إلى أسرة من عمال الدولة لذا فإنه نال خبرة عملية جيدة فى شبابه واشترك فى عدد من الحملات البحرية فى أرخبيل بحر إيجه وفى الحملة العسكرية التى انتهت بإخضاع جزيرة قبرص فى عام ١٥٢٢ ، ثم أخذ طرفاً لبعض الوقت فى العمليات العسكرية التى قام بها خير الدين بربروسا الشهير على الساحل الشمالى لأفريقيا . وبعد أن اكتسب الشهرة اشترك فى حملة السلطان سليمان الثانية على بلاد الفرس وهى الحملة التى عبرت القوقاز وآذربيجان فى عام ١٥٤٨ . كما شارك أيضاً فى حملته الثالثة التى أمضى السلطان فى خلالها بعض الوقت بمدينة حلب وهناك أكمل مؤلفنا ترجمته لرسالة قوشجى التى أشرنا إليها . وفى حلب بالذات كلفه السلطان بأن يذهب لإحضار الأسطول العثمانى المصرى من البصرة إلى السويس بعد أن نكبه البرتغاليون[١٢٧] .

وكانت تلك آخر محاولة بالتقريب للعثمانيين لوضع حد لتفوق البرتغاليين فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، فقد أبحر الأسطول العثمانى إلى تلك المياه لأول مرة فى عام ١٥٣٨ بهدف كسر شوكتهم ولكن لم يكتب له التوفيق وكان المكسب الوحيد للعثمانيين من تلك المحاولة العسكرية هو أن ميناء عدن قد أصبحت منذ تلك اللحظة فى قبضتهم . وفى عام ١٥٥١ أبحر الأسطول العثمانى المصرى من السويس إلى عمان فاستولى على مسقط ولكن محاولته الاستيلاء على هرمز باءت بالفشل فلم يوفق فى الرجوع إلى مصر سوى سفينتين على حين التجأت خمس عشرة سفينة أخرى إلى ميناء البصرة ، وكانت تلك هى التى كلف على ريس بقيادتها من البصرة إلى السويس . وعلى الرغم مما أظهره من البطولة فقد منى هو أيضاً بالفشل إذ هزم البرتغال بتفوقهم الراسخ الأسطول العثمانى شر هزيمة ففقد عدداً من سفنه ولم تنجح فى الإفلات سوى تسع سفن

وصلت إلى سورات بكجرات فى حال يرثى لها ؛ وهناك اشتراها أمير سورات ووعد بإرسال ثمنها إلى القسطنطينية . ثم تم تسريح بحارتها واختار على ريس من بينهم خمسين فقط ليصحبوه فى العودة إلى أرض الوطن بطريق البر ؛ وقد قوبل على ريس باحترام كبير فى أحمد أباد عاصمة كجرات وأفاد من وقت فراغه هناك ، وذلك بعد ثمانية أشهر أمضاها فى كفاح عنيف فى البحر ، فأنهى كتابه الرئيسى فى المحرم من سنة ٩٦٢هـ = ١٥٥٤ وهو الكتاب الذى يهمنا هاهنا والذى اشتهر بعنوانه المختصر « محيط »[١٢٨] ، أو فى صورته الكاملة كما يبدو من مخطوطة ڤينا « المحيط فى علم الأفلاك والأبحر »[١٢٩]. | غير أن مسودته النهائية تم تدوينها 571 عقب ذلك لأن المؤلف ذكر فيها وصفاً لطريق عودته إلى أرض الوطن ، ويرجع هذا إلى عام ٩٦٤هـ = ١٥٥٦[١٣٠] . وهذا الكتاب لم ير النور إلى الآن فى صورته الكاملة . غير أن كلا مخطوطتيه المعروفتين لنا تتمتع بقيمة كبيرة ، فإحداهما وهى مخطوطة ڤينا نقلت عن أصل الكتاب بديار بكر فى عام ٩٦٦ هـ = ١٥٥٩ أى والمؤلف لايزال على قيد الحياة ؛ أما الثانية المحفوظة بنابلى فيرجع تاريخ تدوينها إلى عام ٩٧٩ هـ = ١٥٧١[١٣١] . هذا وقد نشر قسما كبيراً من كتاب « محيط » فى ترجمة إنجليزية وذلك فى النصف الثانى من السنوات الثلاثينات للقرن التاسع عشر المستشرق همر Hammer[١٣٢] وظلت هذه الترجمة إلى آخر ذلك القرن المصدر الوحيد للتعرف على الأثر وعلى مصادره العربية . ويمثل خطوة هامة فى دراسته ما تم نشره وترجمته من أقسامه على يد بونيللى Bonelli وبتنر Bittner فى منتصف السنوات التسعينات من القرن الماضى ، وأيضاً بشكل خاص ذلك البحث الجغرافى الجدى الذى ندين به لقلم الخبير الكبير بالجغرافيا التاريخية توماشك Tomaschek[١٣٣] . وكان كتاب على ريس قبل اكتشافات فيران يعد بالإجماع أتم وصف للبحار الجنوبية ، وليس هذا فحسب بل الأثر الوحيد حتى تلك اللحظة الذى يقدم لنا فكرة عما بلغته الجغرافيا الملاحية لدى المسلمين فى نهاية العصور الوسطى ؛ وإلى جانب هذا فقد وضح أن المؤلف لم يكن جاهلا بأخبار اكتشاف الأسبان والبرتغاليين للعالم الجديد كما تبين أن أبعد موضع يذكره فى الشرق الأقصى هو جور (كوريا أوفورموزا)[١٣٤] . وان نظرة عاجلة إلى فهرس موضوعات كتابه لتبين لنا دون حاجة إلى برهان أو دليل مدى اعتماده على مصادره العربية[١٣٥] :

ينقسم كتاب « محيط » إلى مقدمة وعشرة أبواب تنقسم بدورها إلى عدد من الفصول يختلف عددها من باب لآخر ؛ ففى المقدمة القصيرة يتكلم المؤلف عن الظروف التى وضع فيها كتابه ويذكر أنه اعتمد فى تأليفه على محادثات مثمرة طيلة ثمانية أشهر مع « المعالمة » المهرة الذين التقى بهم فى الخليج الفارسى ، وعلى تلك المصنفات العربية الخمس التى يذكرها بعناوينها ؛ واثنان من هذه المصنفات لابن ماجد أما الثلاثة الأخرى فلسليمان[١٣٦] وهى الموجودة غالباً فى متناول الأيدى فى الأصل الذى نشره فيران . ويبحث الباب الأول من كتاب « محيط » فى الاتجاهات الجغرافية وتقسيم القبة السماوية وأبعاد النجوم وارتفاعها ، وهنا يرد لأول مرة بالنسبة للعلم الأوروبى تفسير لفظ « إصبع » . أما فى الباب الثانى فيعالج

الكلام على حساب الوقت فيبحث فى أسس السنين الشمسية والقمرية كما يبحث أيضاً فى السنين البزيطية والقبطية والفارسية . وفى الباب الثالث يتناول الكلام على تقسيم بيت الإبرة وعلى منازلها وعلى « الترفا » ؛ ولم يصبح معنى هذه الألفاظ مفهوماً بتمامه إلا بعد تحليل المصادر | العربية . أما الباب الرابع فيصف الطرق البحرية الساحلية إلى الغرب والشرق من رأس كومورين ، كما يتحدث فيه المؤلف عن « الدنيا الجديدة » أميريكا ؛ وهو يدين بمعلوماته فى صددها [١٣٧] إلى مسيحى من الذين دخلوا حظيرة الإسلام[١٣٨] ؛ وفى حديثه عنها يؤكد على ريس أن « الدنيا الجديدة » ليست من ضمن « الربع المعمور » من الأرض أو من « الأقاليم السبعة » كما أنه على علم باكتشاف البرتغاليين لها « منذ أكثر من خمسين عاما »[١٣٩] . ويفرد الباب الباب الخامس خاصة للكلام على الحساب والمصطلحات الفنية المستعملة بين الملاحين ، على حين يفرد الباب السادس للكلام على ارتفاع بعض النجوم التى تستعمل فى قياس (عرض) الموانى والجزر (كالنجم القطبى والفرقدين ونعش) ، والمقياس الرئيسى لديه هو الإصبع . ويبحث الباب السابع فى المسافات بين الموانى والطرق المستعملة فى تحديدها خاصة مقياس « الزام » ، ويليه الباب الثامن فى الرياح الموسمية مع تحديد مواقيت هبوبها ، ثم الباب التاسع فى وصف ثلاثين طريقاً بحرياً (القسم الجنوبى من البحر الأحمر والسواحل الأفريقية والآسيوية للمحيط الهندى) ؛ وأخيراً يأتى الباب العاشر الذى يتحدث فيه عن المخاطر التى يتعرض لها الملاحون خاصة الأعاصير (cyclones) . من هذا التعداد يتضح لنا إلى أى حد ارتبط « محيط » بمصادره العربية ارتباطاً وثيقاً ، وإلى أى حد كان بمستطاعه قبل الكشف عن تلك المصادر أن يحدث أثراً بالغاً فى نفس كل من قرأه بما يحفل به من مادة قيمة وما يمتاز به من طرافة وأصالة .

ويمكننا لتكوين فكرة عن هذا أن نكتفى بالتحليل الذى عمله له توماشك ، وهو علامة اشتهر بمعرفته الواسعة بالجغرافيا والتاريخ ولكنه لم يكن من المتخصصين فى الاستشراق بل كان بحاثة يهتم بفحص المسائل من وجهة نظر تاريخ الجغرافيا العامة . وهو يعتبر « محيط » أثراً نادراً بل يرى فيه الأثر الوحيد من نوعه فى الشرق الذى يبحث فى المسائل البحرية فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى ، كما يعتقد أيضاً أنه يجمع بين دفتيه مادة نقلية لا مثيل لها بحيث يمكن مقارنته بأفضل الآثار البرتغالية من هذا الطراز[١٤٠] : أما مضمونه فحافل للغاية وهو أشبه ما يكون بمرشد شرقى للملاحة (Sailing Directory) فريد فى نوعه يفوق بكثير جميع ما عرف إلى تلك اللحظة ولا يبلغ مرتبته إلا بضعة مصنفات أوروبية مثل مرشدات الملاحة (Seespiegel) التى كانت تصدرها مدن الهانز[١٤١] : وتتركز أهميته بصورة خاصة فى أنه يعاون على رسم خارطة لسواحل المحيط الهندى وجميع الأرخبيل الشرقى تفوق بشوط بعيد من حيث الدقة والصحة تلك الخارطات الخيالية لمصنفات العصر الكلاسيكى ولا تقل شأناً من خارطات البرتغاليين المعاصرة لها ، ويميل توماشك إلى الاعتقاد وبأن هذه الأخيرة قد خضعت بعض الشىء لتأثير الخارطات الشرقية وهو أمر يوافقه عليه كونتى روسينى Conti Rossini[١٤٢] . وكتاب « محيط »

يمثل إلى حدما | انتقالا جوهرياً من مجال الملاحظات المتناثرة والإرصادات المبعثرة للعهود السابقة إلى مجال 573 المعرفة المدروسة للعصور الحديثة ، ويتدارك النقص فى معلوماتنا عن بلاد كبيرة وهامة كالهند ؛ هذا وينتظم مجال بحثه جميع السواحل والجزر الممتدة من جدة إلى كوريا[١٤٣] . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن تسجيل جميع تلك التفاصيل قد تم بتطبيق مناهج بدائية فى الرصد الفلكى ورثت عن العهود الأولى لنشأة علم الفلك ولكن اعتمدت من ناحية أخرى على تجارب حافلة وخبرة طويلة لأجيال عديدة من الملاحين الفرس والعرب والهنود . ويمكن القول بأنه لم يصلنا من العهود السابقة للعهد البرتغالى أى شبيه لهذه الأرصاد التى تعتمد على مراقبة النجم القطبى ونجوم الدبين الأكبر والأصغر ، ولهذا السبب فإن الخارطة التى تم تصويرها بناء على ملاحظات كتاب « محيط » تكتسب أهمية كبرى لأنها تمثل ذروة ما بلغه فن الكارتوغرافيا فى الشرق . أما نقطة التحول التالية لهذه فى ذلك الميدان فيبصرها توماشك فى الخارطات البرتغالية ، وهى تلك الخارطات الممتازة التى ظلت المرشد الأول للملاحة فى بحر الهند حتى عام ١٦٤٨[١٤٤] .

وباكتشاف المصادر العربية « للمحيط » فقد ثبت أن ذلك التقدير والإطراء الذى تمتع به الكتاب وكان له ما يبرره إنما ينبغى أن يتجه إلى ناحية أخرى ؛ وفى أبحاثه العديدة حول هذه المسألة ابتداء من عام ١٩١٣ يصر فيران إصراراً شديداً يصل به أحياناً إلى درجة التطرف على أن « محيط » بأجمعه لا يمثل سوى ترجمة ، بل وترجمة حرفية فى بعض الأحايين ، لمصنفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى حيث لم يفعل سيدى على ريس شيئاً سوى أن نقل كلا مهما بحذافيره[١٤٥] . وفى خاتمة بحث من أبحاثه الأخيرة يصرح بما نصه « لم يعد « محيط » يمثل بالنسبة لنا تلك الأهمية التى أثارها فى القرن الماضى ، وذلك منذ اللحظة التى تم فيها الكشف عن أصوله العربية . وفى الواقع أن سيدى على ريس لم يفعل شيئاً سوى أن ترجمها ترجمة حرفية مع إضافات تافهة أتت بنتيجة عكسية أحياناً »[١٤٦] .

إن رأى فيران هذا لا يخلو من التعسف ، وقد لاحظ توماشك أن سيدى على ريس قد أضاف إلى مادة مصادره الكثير من معلوماته الشخصية ، مثال ذلك ملاحظاته عن المحاصيل الرئيسية للأقطار المختلفة وعن الجهات المقابلة من الكرة الأرضية (antipodes) وعن اكتشافات الأسبان والبرتغاليين فى « الدنيا الجديدة »[١٤٧] . وإلى هذا يضيف كاله P. Kahle زيادات هامة بفحصه لأوصاف الآلات الفلكية الملاحية (nautische Instrumente) التى يعرضها بوضوح كتاب « محيط » وكانت غير معروفة لدى العرب[١٤٨] ، ثم يبين كيف كان يعرفها المؤلف[١٤٩] | وكيف كان يجيد 574 استعمالها[١٥٠] . وكاله لا ينفى أن كتاب « محيط » قد فقد بوجه عام أهميته عقب العثور على مصادره العربية ، غير أن الملاحظات التى بيناها تدل على أننا بإزاء ملاح ماهر استطاع الإفادة من مصادره بالكثير من الذكاء ؛ أما تلك الأقسام من كتابه التى لاتوجد فى المصادر العربية فستحتفظ على الدوام بأهميتها كاملة غير منقوصة ،

وبهذا فإن كتاب « محيط » لا يستحق فى هذه النقطة بالذات تلك الإدانة الشديدة التى وجهها إليه فيران ، وإن وجد ثمة ما يبررها.

وكتاب « محيط » لم يظفر برواج ما بين الأتراك أنفسهم ، ولعل مرد ذلك إلى أن مادته ذات لون تخصصى يحول دون تداولها إلا بين المتخصصين فى الشئون البحرية أو المهتمين بدراسة المسائل الجغرافية . وقد بدا هذا الاتجاه التخصصى فى الأسلوب نفسه فغلب عليه نتيجة لذلك طابع فنى (technical) صرف لا يمكن أن يحس منه اطلاقاً أن المؤلف كان كاتباً كبيراً على حد سواء ، ويصف توماشك لغته بأنها « مرهقة ومطنبة » (schleppened und weitshweifig) . أما من عنوا بتلك المسائل التى يعالجها فقد عرفوه جيداً ، فحاجى خليفة مثلا ينقل عنه فى كتابه فى الجغرافيا « جهاننما » جميع القسم من الباب الرابع الذى يعالج الكلام على جاوه وسومطره وسيلان ، كما ينقل عنه بالحرف الواحد تقريباً وصفه لجزر نيكوبار وملديف(١٥١) .

وباسم سيدى على ريس يرتبط مصنف آخر ذو طابع جغرافى هو « مرآت الممالك » ، ولعله يمثل أهمية أكبر بالنسبة لجماهير القراء . وفيه يعرض المؤلف اوصف تجواله على مدى أربعة أعوام فى طريق عودته من الهند إلى وطنه بطريق البر حين حدث له أن اجتاز عدداً من الأقطار ومر بعدد كبير من المدن . فمن كجرات عبر سيدى على نهر السند إلى لاهور ومن هناك اتجه إلى دلهى حيث بلاط السلطان همايون ، وقد استقبله السلطان بالكثير من العطف فى نوفمبر من عام ١٥٥٤ بل وجهد فى إقناعه بالبقاء فى خدمته ، غير أنه رغما من جميع عروضه المغرية فإن سيدى على غادر دلهى إلى بلاده حاملا رسالة من همايون إلى السلطان سليمان القانونى لايزال أصلها محفوظاً إلى أيامنا هذه(١٥٢) ، ووصل سيدى على إلى كابل ثم اجتاز بدخشان وختلان وبلاد ما وراء النهر وخوارزم وكان قصده أن يجتاز سهوب (دشت) قبچاق ليصل إلى استراخان ، غير أن العمليات العسكرية لجنود دولة المسكوف فى تلك الأصقاع اضطرته إلى الرجوع القهقرى إلى خراسان ، وزاد فى تعقيد سير الرحلة وإبطائها اشتعال نيران الحرب آنذاك بين الدولة العثمانية وبلاد الفرس . وفى قزوين تشرف على ريس بمقابلة الشاه طهماسب ولكنه لم يشأ الانضمام إلى سفارته التى بعثها إلى السلطان سليمان بل حمل منه هو أيضاً رسالة خاصة إلى السلطان لا يزال أصلها محفوظاً إلى اليوم(١٥٣) . وبلغ سيدى على ريس القسطنطينية فى أبريل عام ٩٦٤ هـ - ١٥٥٧ ، ثم غادرها إلى أدرنه حيث رفع تقريره إلى السلطان سليمان ، وقد حظيت توضيحاته بالقبول لدى السلطان الذى لم يلبث أن عينه دفتردار لولاية دياربكر ، وقد توفى سيدى على ريس فى عام ٩٧٠ هـ = ١٥٦٢(١٥٤) .

وبفضل الترجمة القديمة الموجزة التى ندين بها للمستشرق الألمانى ديتس Dietz فإن هذا المصنف الذى كان معروفاً فى المخطوطات فقط قد اجتذب أنظار أوروبا منذ عام ١٨١١ : ثم نقل موريس M. Morris

الترجمة الألمانية إلى الفرنسية فى عام ١٨٢٦ — ١٨٢٧ ؛ بيد أن الأصل التركى لم يطبع إلا فى عام ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥[١٥٥] ، وذلك على يد الأديب التركى المعروف أحمد جودت . واعتماداً على هذه الطبعة ترجم ڤامبرى A. Vambery الكتاب إلى الإنجليزيه (١٨٩٩) ؛ وحتى هذه الترجمة الأخيرة لاتقف عند المستوى المطلوب[١٥٦] . و « مرآت الممالك » هو النموذج الوحيد لوصف رحلة يصلنا عن العهد الكلاسيكى للأدب العثمانى[١٥٧] ، ويمكن الحكم من وصفه القصير على العدد الكبير من البلاد التى عبرها المؤلف والشخصيات الكبرى لعصره التى التقى بها . وأسلوبه فى هذا الكتاب يختلف اختلافاً أساسياً عن أسلوب مصنفه الآخر « محيط » ، فنحن هاهنا بإزاء مصنف حاول فيه مؤلفه أن يظهر نفسه كأديب بكل مايحمل هذا اللفظ من معنى ، ولعل هذا الاتجاه الأدبى للكتاب لم يكن فى صالح السرد الجغرافى من وجهة نظرنا إذ تتناثر فيه المقتطفات الشعرية من شعره هو ومن شعر الغير وتغلب على أسلوبه المحسنات البديعية والتشبيهات الشعرية مما يولد الإحساس بأن المادة الجغرافية إنما تشغل المكانة الثانية لدى المؤلف ؛ ولكن لا يمكن بأية حال إنكار أن الكتاب يتمتع فى بعض جوانبه بحيوية كبيرة ويقدم على وجه العموم تفاصيل كثيرة قيمة ذات طابع واقعى . أما بالنسبة للمناطق الواقعة على المجرى الأعلى لنهر أمودريا (جيحون) فإن معلوماته تتميز بأهمية خاصة كما وضح ذلك من دراسات فتشنكو Fedchenko[١٥٨] وميناييف Minaev[١٥٩] .

ويمكن أن نلاحظ لدى على ريس ظاهرة طريفة تقف دليلاعلىبقاء النظريات الجغرافية القديمة وصلابة مقاومتها من جهة وعلى استمرار الاختلاف القديم بين النظرية والتطبيق من جهة أخرى ، وهو شىء كان من العسير أن نتوقع وجوده لدى رجل ذى خبرة بالجغرافيا الملاحية كعلى ريس . فهو مثلا عندما وضح للسلطان همايون فى عام ١٥٥٦ السبب فى تلقيب السلطان العثمانى « بسلطان الأقاليم السبعة » نراه يفسر هذا بقوله إن سلطانه يمتد على مدن وأقطار تقع فى نطاق الأقاليم السبعة ففى الإقليم الأول توجد اليمن وفى الثانى مكة وفى الثالث مصر وفى الرابع حلب وفى الخامس استنبول وفى السادس كفا (فيودوسيا Feodosia) وفى السابع بودا Buda وڤينا[١٦٠] . إزاء هذا التقسيم الذى يرتفع إلى العصور الوسطى والذى أضحى مجرداً من كل صلة بالواقع فإنه لا يمكننا إلا أن نوافق توماشك فى ألفاظه وإن كان قد أصدرها فى مناسبة أخرى ، فهو يقول « لقد بلغ الأمر مع العلماء آنذاك حداً جعلهم يروا من الأفضل أن يحنوا هاماتهم للعلماء الأوائل بدلا من أن يفيدوا من التجارب العملية التى تجمعت فى عصرهم وبين ظهرانيهم ، ذلك أن العنجهية العلمية قد دفعت باتباع مذهب بطلميوس إلى الاعتقاد بأنه من العار عليهم أن ينزلوا إلى مستوى الجماهير فيأخذوا العلم من تجارب الملاحين »[١٦١] . وكما أبصرنا من قبل فقد اهتم على ريس بدور التجربة فى كتابه « محيط » وانعكس ذلك فى كتابته ، غير أن النظرية القديمة قد استطاعت ولو بطريقة غير شعورية أن تسيطر عليه وتبعث فيه أحياناً ضرباً من الإصرار على التمسك بالقديم وتكرار النظريات البالية . ورغما

من اعترافنا بما يدين به لمصادره العربية فلنا الحق كل الحق فى القول بأن كتاب على ريس يمثل ظاهرة كبرى فى الجغرافيا الملاحية لدى الأتراك ، هذا مع اعتقادنا أن تقدير العلامة التركى المعاصر ع . عدنان (اديفار) له مبالغ فيه بصورة كبيرة(١٦٢) .

وما قام به سيدى على ريس بالنسبة للمحيط الهندى قام به بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه معاصر له لم تنته حياته نهاية سعيدة وهو پيرى ريس الذى استند بجهوده العلمى على قاعدة أوسع مما كان عليه الحال مع سيدى على ريس . وإذا كان الأخير قد اعتمد اعتماداً كلياً على النظرية والتجربة الشرقيتين فإن پيرى ريس قد أفاد من المادتين الشرقية والغربية على السواء ، زد على هذا أنه لم يكتف بالجمع بينهما جنباً إلى جنب بل مازج بينهما وتمثلهما فى تأليف عضوى متناسق . أما من حيث المنهج فهو قد فاق على ريس بشوط بعيد ، وتعتبر آثاره التى ظهرت فى القرن السادس عشر أقصى ما بلغته الجغرافيا والكارتوغرافيا الملاحية بين الأتراك فى عهد ازدهار قوتهم وسلطانهم .

وشخصية پيرى ريس نموذج جيد (typical) لهذه الفترة فى تاريخ الملاحة العثمانية ، فهو لا يقف نسيج وحده بل يكمل حلقات تلك السلسلة من الشخصيات الكبرى التى تولت قيادة الأسطول العثمانى آنذاك، وهو كمعاصره الشهير خير الدين بربروسا أو كخاله كمال ريس الذى تدرب عليه فى الشئون البحرية لم يفرق دائماً فى نشاطه البحرى بين دور القرصان الغاشم وأمير البحر التركى الذى يعمل فى خدمة الدولة العثمانية ، ويلوح أن الدولة نفسها لم تستطع أن تفصل بدقة بين هذين الدورين : وخير مثال لهذا خير الدين بربروسا Barbarossa (حوالى عام ١٤٨٣ - ١٥٤٦) بكلربك الجزائر وواضع أسس السيادة العثمانية على شمال أفريقيا ، فإنه قد رجع القرصنة أكثر من مرة(١٦٣) .

واسم پيرى ريس غير معروف لنا فى أصله على وجه الدقة ، ويبدو أنه كان يدعى محى الدين ابن محمد لأن پيرى كان مخلصه الأدبى(١٦٤) ، وهو كخاله كمال ريس الذى غرق فى يناير من عام ٩١٦ هـ - ١٥١٠(١٦٥) والذى عرفته وثائق وحوليات جمهورية البندقية(١٦٦) باسم Camalli كان على ما يبدو مسيحياً فى الأصل وربما من أصل يونانى(١٦٧) ، ويلوح أنه شارك فى المغامرات البحرية الكبرى لخاله فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط عندما أرسله السلطان العثمانى فى عام ٨٩٢ هـ = ١٤٨٧ لتقديم العون إلى آخر أمراء غرناطة من دولة بنى نصر ، غير أن محاولاته لم تسفر عن أية نتائج إيجابية(١٦٨) . ومما لاشك فيه أن پيرى ريس قد شهد استسلام الأسطول البندقى للأتراك عند ليبانتو Lepanto فى عام ٩٠٥هـ = ١٤٩٩(١٦٩)* ، وإلى حوالى هذا العهد ترجع بعض المصادر مغامرة معينة فى تاريخ حياته وهى نشاطه كجاسوس بالبندقية حوالى عام ١٥٠٢(١٧٠) . وهو يدين بالكثير لمدرسة كمال ريس ، وهذا الأخير لم يكن قائداً بحرياً من الطراز المقاتل ولكنه كان

* هذه ليست واقعة ليبانتو البحرية المشهورة لعام ١٥٧١ التى هزم فيها الأسطول المسيحى أسطول العثمانيين . (المترجم)

يتمتع فى مقابل ذلك ببراعة سياسية كبيرة حتى اضطر جمهورية البندقية إلى التراجع مراراً[١٧١] ومن صلة الدولة العثمانية بشمال أفريقيا بشكل ملحوظ[١٧٢] ، فلا غرو أن أشاد الشعراء الأتراك بأعماله المجيدة فى قصائد خاصة تحتوى إحداها على عشرة ألف مثنوى[١٧٣]. ويلاحظ مؤرخ سيرة حياته (biographer) أن ما قام به پيرى ريس لم يكن ليتأتى دون رحلات كمال ريس وخبرته وأثره الكبير عليه ، بل إن نفس القول يصدق على ما ناله پيرى ريس من مكانة مرموقة[١٧٤] .

ولعل الفضل يرجع إليه أيضاً فى معرفة پيرى ريس الواسعة بمصر ، إذ أن صلة كمال ريس بها ترجع إلى عام ١٤٩٨[١٧٥] عندما قام بمهمة من أجل الدولة ؛ غير أن الحظ لم يبسم هناك بالتالى لابن أخته فقد حدث بعد ذلك بمدة طويلة أن شغل منصب قبودان مصر ثم كلفه السلطان بالمهمة التى أشرنا إليها من قبل وهى قيادة الأسطول العثمانى المصرى من السويس إلى الخليج الفارسى لقتال البرتغاليين . وفى طريقه أخضع پيرى ريس عدن فى عام ٩٤٥ هـ = ١٥٣٨ وانتهب مسقط فى عام ٩٥٩ هـ = ١٥٥١ ثم حاصر هرمز بيد أنه فشل فشلا كاملا أمام البرتغاليين الذين هزموه شر هزيمة فلم يستطع الإفلات إلا بثلاث سفن وصل بها إلى السويس . ثم قدم إلى المحاكمة فى القاهرة ولعب دوراً ليس بالضئيل فى إدانته شكوى والى البصرة مما جرى على يده من سبى ونهب على طول سواحل الخليج الفارسى ، فحكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ ذلك فى حوالى عام ٩٦٢ هـ = ١٥٥٤ أو قبل ذلك بقليل[١٧٦] .

هذه الحياة المتقلبة المليئة بالأحداث لم تمنعه على أية حال ، وذلك على النقيض من خاله ، أن يخلف صيتاً واسعاً فى الأدب الجغرافى يستند | بصورة خاصة على أطلس ملاحى كبير يعرف باسم « بحرية » وخارطة كبيرة للعالم ينعكس فيها بعض الشىء تأثير خارطة كولومبس التى لم تصل إلى أيدينا[١٧٧] . 578

ويحيط بالتاريخ الأدبى لوضع المصنف الأول تعقيد شديد لايقتصر سببه فى أنه وجدت للكتاب مسودتان كما اتضح فى الآونة الأخيرة ، بل لأن المؤلف نفسه قد أحاطه ببعض الغموض . فهو يذكر أن الدافع إلى تأليف الأطلس كان مناسبة اعتلاء السلطان سليمان للعرش عندما حاول أهل كل مهنة أن يقدموا إليه هدية من مجال فنهم ، لهذا فقد بدأ المؤلف عمله فى عام ٩٢٧ هـ (ابتداء من ديسمبر عام ١٥٢٠) ورفع الأطلس كاملا إلى السلطان سليمان فى عام ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ [١٧٨] . غير أنه يبدو من أقسام معينة فى المقدمة أن پيرى ريس قد بدأ عمله فى الأطلس قبل ذلك بمدة طويلة أى فى عهد السلطان سليم وكان يريد رفعه إليه ولكن لما وافته منيته رفعه إلى السلطان سليمان القانونى[١٧٩] . وتشير جميع القرائن إلى أن العمل قد سار جنباً إلى جنب فى كل من الأطلس والخارطة المشار إليها وذلك بمدينة غليبولى التى كانت المركز الإدارى للأسطول العثمانى آنذاك ووجدت بها المادة اللازمة التى استعان بها المؤلف فى شكل واسع . وإلى جانب هذا فقد كانت وراء المؤلف تجربة عشرين أو ثلاثين عاما[١٨٠] من المران العملى فى الشئون البحرية بحيث تردد صدى ذلك فيما تميز به المصنف من نضج واكتمال :

وكتاب « بحرية » وإن كان يمثل فى أساسه أطلساً ملاحياً إلا أنه كان يستهدف ولو بقدر متواضع أن يكون دليلا للملاحة الشراعية ببحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط[١٨١] وأن يخدم فى نفس الوقت كمرشد فى معرفة المواضع المبينة على الخارطات ، ولهذا السبب فإن المصنف يقدم وصفاً مفصلا بما فيه الكفاية لجميع السواحل مع بيان التيارات والشعب والمراسى والخلجان والمرافئ والمضايق ومنابع المياه العذبة والمواضع المحصنة والقلاع والمبانى والخرائب[١٨٢] ، كما يتعرض خلال ذلك للحديث عن الجغرافيا السياسية والوضع الإدارى للأماكن المختلفة . ولا يخلو من طرافة فى هذا الصدد أن نلاحظ أن تعليقاته البدائية على الآثار القديمة تمثل رغماً من سذاجتها أهمية كبيرة فى بعض الأحايين[١٨٣] . ولنذكر على سبيل المثال أن البحوث الأثرية الحديثة التى أجريت فى منطقة ملطية وفى الجزر والسواحل المجاورة قد أثبتت أن پيرى ريس محل للثقة فمن بين جميع التفاصيل التى يوردها لا توجد واحدة لم تدعمها الأبحاث المعاصرة[١٨٤] .

580 وتشمل المسودة الأولى لكتاب « بحرية » مائة وثلاثين فصلا يعالج كل واحد منها الكلام على موضع جغرافى أو ناحية غير كبيرة وذلك بحسب ترتيب معين لا تتفق فيه جميع مخطوطات الكتاب . وكل قسم من هذه الأقسام تصوره فى العادة خارطة ويقف أشبه ما يكون مستقلا بنفسه بحيث يفتقد أى رباط عام داخل الكتاب باستثناء التتابع الجغرافى على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط ابتداء من غليبولى .

أما المسودة الثانية للمصنف فقد بدأ فيها بعد قليل من الأولى ، وكانت المناسبة التى دعت إلى ذلك هو أن السلطان سليمان القانونى كان قد بعث بالصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر فى أكتوبر عام ٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ ، وكان يقود الأسطول پيرى ريس الذى حمل معه نسخة من كتابه « بحرية » وكان قد انتهى من تأليفه قبل ذلك بقليل ولكنه كان يمثل « أوراق مبعثرة »[١٨٥] على حد قول مؤلفه . وقد رجع پيرى ريس أثناء اللحظات الحرجة من الرحلة إلى كتابه أكثر من مرة بحيث استطاع إبراهيم باشا أن يقدر قيمته ومن ثم فأشار عليه بأن يؤلف بين هذه الأوراق على صورة كتاب كامل فاستجاب پيرى ريس لرغبته وبدأ يعيد النظر فى المتن والخارطات[١٨٦] حتى انتهى من المسودة فى فى خلال عامين من ذلك ، أى فى عام ٩٣٢ هـ = ١٥٢٦[١٨٧] .

والتغيرات الأساسية التى طرأت على الكتاب والتى يمكن تتبعها من التحليل الذى قام به تيشنر Taeschner معتمداً فى ذلك أساساً على مخطوطات استنبول[١٨٨] قد قبلها فى جوهرها كاله Kahle رغماً من أنه أظهر فى البداية بعض التردد حول نسبة المسودة الثانية إلى المؤلف نفسه . ولا تزال بعض النقاط التى تمس تفاصيل معينة غير واضحة وان يتم توضيحها إلا بعد دراسة دقيقة منظمة لجميع الأثر خاصة النماذج الموجودة باستنبول والتى لم تفحص بعد بصورة وافية .

والتعديل الذى أجرى فى المسودة الثانية للمصنف يمس قبل كل شىء الخارطات التى زيد فى عددها بشكل كبير ، ففى المسودة الأولى حظى كل قسم من الأقسام المائة والثلاثين بخارطته الخاصة به ، أما الآن

فإن عدد الخارطات ارتفع إلى مائتين وعشرة خارطة بخلاف خارطات أخرى ذات طابع مستقل(١٨٩) .
وينمو عدد الخارطات فى المخطوطات التى ترجع إلى تاريخ متأخر عن ذلك ولعلها لاتقتصر فى هذا على مادة پيرى ريس وحده ، ويتضح هذا بصورة خاصة من مثال البحر الأدرياتيكى حيث تنفرد الفصول الستة المكرسة له (من الثامن والخمسين إلى الثالث والستين) باثنين وأربعين خارطة ، لعلها هى التى تبقت من أربع وأربعين(١٩٠) وتبدو هذه الزيادة أيضاً فى أقسام أخرى ، فالنيل مثلا (الفصلان الثامن والتسعون والتاسع والتسعون) يفوز هنا بلا أقل من عشر خارطات(١٩١) .

ولم يقتصر التعديل الذى أجرى فى المسودة الثانية على المادة الكارتوغرافية وحدها بل امتد إلى المتن أيضاً ، فالمقدمة قد غيرت معالمها تماماً | لأن المؤلف أضاف إليها رسالة منظومة فى خمسين فصلا تعالج 581 موضوعات شتى مما يحتاج إليه الملاحون(١٩٢) كالخبرة والاستعداد الفطرى فى هذه المهنة واستعمال البوصلة والخارطات والمعرفة بالجغرافيا الملاحية ، كما يرد عرض لبعض أقسامها مثل منابع النيل وزنزبار وبحر عدن والمحيط الهندى وبحر الصين والمحيط الأطلنطى والاكتشافات البرتغالية وتوضيح خطوط الزوال وخطوط العرض(١٩٣) . وتنتهى المقدمة بقصيدة طويلة أشبه بخاتمة فى مائة بيت يعرض فيها المؤلف للأسباب التى حدت به لوضع المسودة الثانية للكتاب(١٩٤) .

والتنوع الذى طرأ على هذه المسودة الثانية ، التى ترد بعض مادتها نثراً وذلك عند توضيحه للخارطات وبعضها شعراً ، يرجعه المؤلف إلى عوامل خارجية صرفة ؛ مثال ذلك أن الحاجة إلى استعمال الأطلس قد تطرأ ليلا فى لحظات خطر ماثل لذا فمن الضرورى أن تكون المعلومات فى متناول اليد سريعاً ولن يتأتى هذا بالنسبة لأثر شعرى(١٩٥) . وهذا القول لا يخلو بالطبع من وجاهة ، غير أننا إذا أمعنا النظر فى محتويات الفصول المنظومة شعراً فإنه لن يفوتنا ملاحظة الشبه فى بعض النقاط بين هذه المقدمة ورسائل أحمد بن ماجد بحيث يدعو الأمر إلى التساؤل أليس من الممكن أن يكون پيرى ريس قد اطلع خلال الفترة الزمنية بين المسودتين على أراجيز الربان العربى وأنه قد صاغ بالتالى مقدمته على منوالها . وبالطبع فإن الشبه بين الاثنين يقف عند هذا الحد ، ومن المستحيل تصور وجود علاقة أيا كانت بينهما لأن پيرى ريس ينتمى إلى مجموعة أخرى لا تمت بصلة ما إلى وسطسيدى على ريس . ويرى المتخصصون أن لغة « بحرية » سهلة ولو أنها لاتخلو من وقت لآخر من استعمال بعض الصيغ المهجورة مما يرفع من قيمتها لدى المشتغلين بدراسة اللغات التركية(١٩٦) .

أما فيما يتعلق بمصادره الكارتوغرافية فإن أطلس پيرى ريس يرتبط ارتباطاً كلياً بالمادة الغربية ، ويكفى مجرد إلقاء نظرة على أية واحدة من خارطاته ليقتنع المرء فوراً بعدم وجود أى أثر للتقاليد العربية المعروفة لنا جيداً . هذه الانطباعة الأولى قد وكدها بالتالى عدد من الأبحاث المتعلقة بالأقسام المختلفة والتى ساقت إلى نتائج ملموسة فى هذا الصدد ، ولو أنه يجب الاعتراف أن بعضها لايخرج بطبيعته عن محيط

الافتراضات نسبة لأن الأصول التى اعتمد عليها پيرى ريس لم تصل إلينا . وقد ثبت بوجه عام أنه قد سار فى الغالب على منوال النماذج التى عملها البنادقة والتى كانت تحت تصرفه بغاليبولى ؛ وتمثل هذه النماذج خارطات مستقلة وهى التى عملت على أساسها البورتولانات الغربية ولكنها أكثر قيمة منها بفضل أحجامها الكبيرة . | وپيرى ريس لم يكتف بالطبع بتقليدها تقليداً أعمى ؛ فمثلا نراه يجرى تصحيحاً جوهرياً فى رسم 582 بحر إيجه معتمداً فى ذلك على ملاحظاته الشخصية(١٩٧) . ونظراً لأن هذه الخارطات الخاصة لم تحفظ لنا فإن كتاب « بحرية » يكتسب بهذا أهمية مضاعفة بصفته مصدراً لامثيل له للتعرف على الكارتوغرافيا الأوروبية المبكرة(١٩٨) . ويمكن أحياناً تتبع المادة التى استقى منها پيرى ريس بالكثير من اليقين فقد ثبت أن لرسومه الجغرافية التى تصور بحر الأرخبيل علاقة بالأثر المعروف باسم « ايزولاريو Isolario » للإيطالى بارتولوميو دا لى سونتى Bartolomeo da li Sonetti المطبوع بالبندقية فى عام ١٤٨٥ أو بعد ذلك بقليل ؛ وتبدو صلة الرحم بين الاثنين واضحة بما لايدع مجالا للشك بمجرد وضعهما جنباً إلى جنب(١٩٩) ، ويرتفع أصل الاثنين على ما يبدو إلى الخارطات القديمة التى كان يستعين بها ربابنة السفن فى الملاحة ، ولكن مع فارق بسيط هو أن پيرى ريس يقدم لنا مجموعة كاملة من الخارطات لجميع سواحل البحر الأبيض المتوسط على حين يقتصر بارتولوميو على بحر إيجه وحده(٢٠٠) . ولعله يجب أبصار اسمه فى « بورتولوميه » الذى يذكره پيرى ريس فى الفصل السابع والأربعين من مقدمته الشعرية ؛ ومن الطريف أن كاله Kahle لسهو وقع فيه هاهنا قد جهد فى أن يرى فى هذا الشكل رسم بطلميوس(٢٠١) رغماً من أن الأخير يرد لدى پيرى ريس فى الشكل الذى استعملته العرب . ومن المحتمل أنه قد وجدت بين يديه مرشدات الملاحة الشراعية التى نالت انتشاراً واسعاً آنذاك والتى لم يصلنا شىء عنها من العصور الوسطى الأوروبية(٢٠٢) . ونظراً لأن مصنفه يعكس إلى حد ما المرشدات الإيطالية . لا فى الخارطات وحدها بل وفى المتن أيضاً ، فإنه يمكن القول بأنه لم يحفظ لنا سر فرع واحد من الملاحة فقط بل قد حفظ لنا جميع علم البحار تقريباً(٢٠٣) .

ومما لاشك فيه أن پيرى ريس قد جمع معلومات شفوية من عدد من الملاحين ذوى التجربة ، فقد التقى بملاحين برتغاليين عرفوا الصين(٢٠٤) ، كما يغلب أنه التقى بأحد الذين أخذوا طرفاً فى رحلة ماجلان حول الأرض وهو المدعو انتونيو بيغافتا F. A. Pigafetta(٢٠٥) . وقد ثبت أن روايته عن مختلف الشعوب الغريبة فى بحار الشرق الأقصى إنما ترتفع إلى مصدر صينى وصله فى أغلب الظن عن طريق البرتغاليين(٢٠٦) .

واعتماداً على هذه المادة المتشاكلة المصادر والتى دون بعضها على ما يبدو بالإغريقية والإيطالية ، وهما لغتان عرف إحداهما جيداً بحكم مولده(٢٠٧) ، فقد استطاع پيرى ريس أن يخرج لنا مؤلفاً باللغة التركية مستقلا بذاته . ونظراً لمعرفته الجيدة بالبحر الأبيض المتوسط فقد عرف كيف يستعمل مصادره

583 بالكثير من الذكاء وحسن الفهم وأن يضيف إليها الكثير | مما حصل عليه عن طريق تجربته الشخصية : وتتميز بأهمية خاصة وقيمة كبرى تلك الأقسام من كتابه التى تعتمد على معرفته المباشرة بنقاط جغرافية معينة ؛ وعلى أية حال فإنه لا يمكن الإحساس من تصفح المصنف بأنه مصنف نقلى بل يغلب أن يكون أثراً مستقلا قائماً بذاته(٢٠٨) . وكما لاحظ بلوشيه Blochet بالكثير من الصواب فإنه لا يمكن بأية حال مقارنة خارطاته بمدرسة الصفاقسى الذى لم يكن فى هذا المضمار سوى ملاح تافه اقتصر فى وصفه على السواحل(٢٠٩) . ويقف كتاب « بحرية » فى جميع الأدب التركى فريداً فى نمطه ، بل إن المؤلف نفسه يذكر فى فاتحة كتابه أنه يمثل بالنسبة لمواطنيه شيئاً لم يعهدوه من قبل ، كما وأن حاجى خليفة الذى كان خبيراً فى الجغرافيا الملاحية يؤكد بالتالى أنه لم يدون بعده شىء شبيه به فى هذا المضمار(٢١٠) . أما فى الأوساط الحديثة فقد قيل أحياناً فى وصف « بحرية » إنه « أهم ما دونه الأتراك فى محيط الجغرافيا »(٢١١) .

وخير دليل على تفوق پيرى ريس على معاصريه ومن خلفوه فى هذا الفن أنه لم يوجد بعده من يستطيع أن يجرى أى تجديد فى متنه ؛ وإذا كانت الخارطات كما لاحظنا قد زيد فى عددها وأضيف إليها الكثير فإن المتن لم تضف إليه سوى معلومات ضئيلة ليتفق مع الأوضاع السائدة فى عهود متأخرة هذا بينما بقيت مادته الأساسية كما هى لم يعترها أى تغيير . ولعل هذا قد عاون بدوره على احتفاظ الترك بمرشداتهم البحرية المستعملة فى الملاحة الشراعية ، وذلك على عكس رصيفاتها الغربية التى لم تكن سوى توضيحات للجوانب العملية ولم يلبث أن بطل استعمالها سريعاً وطوتها زوايا النسيان ؛ أما « بحرية » فكان أثراً أدبياً مرموقاً كتب له البقاء(٢١٢) . أما بالنسبة للمتخصصين فقد كان الوضع على النقيض ، إذ أن الخارطات لعبت بالنسبة لهم دوراً جوهرياً على حين كانت أهمية المتن ثانوية(٢١٣) ؛ وهو لم يعتريه تغيير كبير وكان يدون تارة على المساحات الشاغرة فى الخارطات أو يهمل تماماً طوراً آخر(٢١٤) . وقد أثبت البحث أن الخارطات التركية للبحر الأبيض المتوسط التى ترجع إلى القرن السابع عشر إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعمل پيرى ريس(٢١٥) .

هذا وقد قدر العثمانيون المصنف حق قدره وأفادوا منه بصورة أوسع بكثير مما فعلوا مع كتاب سيدى على چلبى ، وهو أمر مفهوم بالنسبة لأهمية المنطقة التى يعالجها . وقد ورد ذكره لدى حاجى خليفة فى مرجعه الضخم « كشف الظنون » وفى مصنفه الجغرافى الكبير « جهاننما » وفى كتابه فى تاريخ الأسطول العثمانى « تحفة الكبار »(٢١٦) ؛ كما وأن أوروبا قد تعرفت عليه منذ بداية | القرن التاسع عشر وذلك بفضل 584 مجهود المستشرق ديتس Dietz ، وهو نفس البحاثة الذى قدم أول معلومات عن كتاب سيدى على ريس(٢١٧) ؛ فنى عام ١٧٨٩ وذلك عند ارتقاء السلطان سليم الثالث للعرش تمكن ديتس من الحصول على مخطوطة أنيقة ذات قيمة كبرى لأنها كانت ملكاً لسلاطنة آل عثمان أنفسهم ولعلها رفعت كهدية إليهم ، ثم انتقلت بمرور الزمان إلى الحرملك لتسلية الجنس اللطيف لأن خارطاتها قد تم تصويرها بمهارة

فائقة وفى ألوان متعددة . وانتقال هذا الأثر القيم من يد إلى أخرى لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى الحفاظ عليه ، فلما انتهى إلى يد ديتس لم يكن فى صورته الكاملة بل على شكل خارطات منفردة ومنزوعة ، فضلا عن أنه لم يكن معروفاً له لا اسم المؤلف ولا شكل المصنف العام . ورغماً من ذلك فإن مقاله الذى حلل فيه المصنف بشكل عام يمثل أهمية لاشك فيها بالنسبة لعصره ويلقى الضوء على دور الأتراك فى ميدان الكارتوغرافيا ، وهو أمر كانت المعرفة به ضئيلة آنذاك . ولايخلو من الطرافة اختياره للمصور الذى يبين جزيرة رودس مع وصفها ، وهو الذى تبدأ به المخطوطة فى الهيئة التى وجدها عليها ديتس ، وقد نشر متنه مع ترجمة ألمانية . هذا وقد فتح العثمانيون رودس فى عام ١٥٢٢ أى بعد بضعة أعوام من وضع پيرى ريس لأطلسه ويعتقد ديتس أن عمله هذا ربما ساعد بعض الشىء فى إنجاز تلك المهمة[٢١٨] . ولقد كان مقال ديتس بمثابة حجر الأساس لدراسات متفرقة لأقسام الأطلس فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، أما المخطوطة نفسها فقد وجدت طريقها فى آخر الأمر إلى المكتبة الأميرية بتركيا[٢١٩] . وليست أقل قيمة من ذلك المخطوطة الموجودة ببولونيا Bologna من مجموعة مارتشيلى Marcelli والتى وصفها لنا روزن V.R. Rosen ، ويرجع تاريخها إلى عام ٩٧٧ هـ = ١٥٧٠[٢٢٠] . ووجود عدد من مخطوطات هذا الأطلس ضمن مجموعات المخطوطات الكبرى مثل باريس[٢٢١] وبصورة خاصة درسدن التى ترتفع نسختها إلى عام ٩٦١ هـ = ١٥٥٤ ، أى والمؤلف على قيد الحياة[٢٢٢] ، قد عاون كثيراً على دراسة عدد من فصول الكتاب المختلفة المتصلة بمسائل معينة ، فمثلا تم نشر وترجمة الأوصاف والخارطات ، إما قسما منها أو بتمامها ، الخاصة بأثينا واسبوس وديلوس وملطية ولمنوس وبيروت وقبرص واستنبول وصقلية وألبانيا والبندقية[٢٢٣] هذا إلى جانب رودس كما ورد فى أعلاه . وقد تم من وقت لآخر فحص أقسام أخرى من الأطلس مع تحقيق فريد يستند على التجربة الواقعية ، فباوشيه مثلا قد قام مستعيناً بخارطاته برحلة بحرية صغيرة على ساحل فرنسا الجنوبى ، ومن الطبيعى أنه كشف أثناء ذلك عن بعض الأخطاء فى الأطلس[٢٢٤] . وكان ما أحاط بتركيب المصنف من تعقيد أن لم يجرؤ أحد على إخراج طبعة كاملة له أو ترجمته إلى لغة أجنبية إلا فى السنوات العشرينات من هذا القرن . وقد تم ذلك على يد بول كاله Paul Kahle الذى اعتمد على مخطوطة بولونيا فنشر المتن فى عام ١٩٢٦ مع ترجمة ألمانية مزودة بالتعليقات وذلك لثمان وعشرين فصلا منه ، أى ما يعادل ربع الكتاب بالتقريب ، ومما يؤسف له حقاً أن الطبع وقف عند هذا .

580

وإذا كان كتاب « بحرية » قد عرف بهذه الطريقة مدة تقرب من القرن ونصف القرن للدوائر العلمية الأوروبية فإن الأثر الثانى لپيرى ريس لم يتم الكشف عنه إلا منذ عهد قريب وأثار ما يستحقه من تجديد الاهتمام بالمؤلف فظهر فى هذا الصدد عدد من الأبحاث لا باللغات الأوروبية وحدها بل وباللغتين التركية والعربية أيضاً[٢٢٥] . وتوجد فى كتاب « بحرية » إشارة لپيرى ريس نفسه يفهم منها أنه قد أكمل رسم

لخارطة كبيرة للعالم بغليبولى فى عام ١٥١٣ ورفعها بعد أربعة أعوام من هذا إلى أعتاب السلطان سليم فى عام ١٥١٧ وذلك أثناء وجوده بمصر . هذه الإشارة قد قفزت إلى الأذهان فى عام ١٩٢٩ عندما كشف عالم الآثار التركى المشهور خليل أدهم والبروفسور ديسمان Deissmann بمكتبة السراى باستانبول عن نصف ممزق لخارطة للعالم رسمت بدقة وزوقت بالألوان على رق (Pergame) ؛ وهى تمثل القسم الغربى من العالم شاملة للمحيط الأطلنطى وأمريكا والقسم الغربى من العالم القديم ومبينة عليها سواحل أوروبا الغربية وأمريكا ؛ أما التفاصيل الجغرافية فمكتوبة فيها بالتركية ولكن نطق الأسماء يرد على الطريقة الإيطالية وربما يمكن تفسير هذا بأنه استقى مادته الأساسية من مصادر إيطالية ، مكتوبة أو شفوية[٢٢٦] . وقد تتحول البيانات الجغرافية أحياناً إلى قوائم مفصلة فى أجزاء مختلفة من الخارطة .كنت البحاثة بالتدريج من إثبات تاريخها بالكثير من اليقين ، ويرجع الفضل الأكبر فى هذا المجال إلى الخبير الكبير بالكارتوغرافيا التركية پول كاله الذى عرف فى عدد من المقالات بهذا الكشف وقدم دراسة جامعة له فى عام ١٩٣٣ ؛ وقد ترجع صدى هذا الكشف بين عدد من الدوائر العلمية فى جميع أنحاء العالم ومن بينها الجمعية الجغرافية السوفيتية[٢٢٧] . ولم تلبث الخارطة أن أصبحت فى متناول أيدى الجميع عندما تم نشرها فى صورة فوتوغرافية ملونة أنيقة بواسطة الجمعية التاريخية التركية (١٩٣٥) .

هذا وقد تمكن پول كاله فى أبحاثه الدقيقة من أن يدلل بسرعة فائقة ، آخذاً فى حسابه إشارة پيرى ريس التى ترتفع إلى عام ٩١٩ هـ=١٥١٣ ، على أن هذا النموذج يمثل نفس تلك الخارطة التى رفعها پيرى ريس إلى السلطان سليم عام ١٥١٧ . ويتضح من الطرف الممزق من الجانب الأيمن أن هذا القسم من الخارطة قد فصل بطريقة آلية وحشية عن القسم الشرقى الذى لم يلبث أن فقد بالتالى . ومن العسير بالطبع التخمين عن الدافع الذى جر إلى هذا ، ويرى البعض أن السلطان سليم نفسه هو الذى انتزع ذلك القسم من الخارطة الذى يضم الصين ليتمكن من استعماله بسهولة . إذ من المعلوم أن السلطان سليم كان يولى اهتماماً خاصاً لتلك البلاد يتفق مع أطماعه السياسية فيما يتعلق بالجزء الشرقى من آسيا ؛ ولنعيد إلى الأذهان مرة أخرى أن البعض قد ربط بين هذا وبين رحلة على أكبر كما بينا فى حينه[٢٢٨] . ومهما يكن من شىء فإن هذا الاكتشاف قد لعب دوراً هاماً للغاية فى إلقاء ضوء على شخصية پيرى ريس وعلى جميع الوضع الثقافى لذلك العصر . وتحليل العلماء للمصادر التى اعتمد عليها فى رسم خارطته قد أسبغ على هذه المسألة أهمية عالمية ، فپيرى ريس يذكر فى إحدى قوائم خارطته أنه قد أفاد من أربع عشر خارطة من بينها ثمانية بطلميوسية « يسميها العرب « جغرافيا » وواحدة عربية تبين الهند وأربع برتغالية تبين السند والهند والصين وواحدة كولومبسية»[٢٢٩] . والملاحظة الأخيرة تكفى فى حد ذاتها لإثارة قدر كبير من الاهتمام ، بيد أن وجود عامل آخر قد رفع من قيمتها إلى حد يفوق العادة ؛ فقد وضح بالتالى أن پيرى ريس اعتمد على أقدم خارطة لأمريكا كان قد عملها كولومبس نفسه أو أشار بعملها ليبين مسير الاستكشافات فى تلك النواحى

وأرسل بها فى عام ٤٩٨ من جزيرة هايتى إلى أسبانيا . وتوجد تفاصيل محددة عن هذه الخارطة فى الأدب الأوروبى القديم ، إلا أن نسختها نفسها قد اختفت تماماً ولايوجد أثر لها إلا فى عمل الكارتوغرافى التركى الذى وقع أصل خارطة كولومبس فى يده عند نهب سفينة مسيحية بالبحر الأبيض المتوسط عام ١٥٠١ ، فاستغل الخارطة فى رسم خارطته عام ١٥١٣[٢٣٠] ، ولاشك أن هذا الظرف يكفى فى حد ذاته ليضمن لاسم پيرى ريس مكانة مرموقة فى تاريخ الكارتوغرافيا العالمية . ويبدو أن پيرى ريس قد ظل مهتماً « بالدنيا الجديدة » إلى ما بعد هذا التاريخ ، بل ويوجد أساس للافتراض بأنه ترجع إليه خارطة أخرى رفعها إلى سليمان القانونى فى عام ٩٣٥ هـ = ١٥٢٩ ، أى بعد ثلاثة أعوام من إتمامه لمصنف « بحرية » ، ومبينة عليها الاستكشافات البرتغالية الجديدة فى أمريكا الجنوبية والوسطى وفى نيوفوندلاند ، وهى أيضاً بدورها محفوظة بالسراى وفى شكل ممزق أيضاً للأسف[٢٣١] .

وهكذا فالجغرافيا الملاحية عند الأتراك فى القرن السادس عشر قد ساقتنا فى آخر الأمر لا خارج حدود الشرق وحده بل وحدود أوروبا أيضاً ، ولاشك أن ارتباطها بالمذهب العربى قد ضعف بالتدريج ولكنه لم ينفصم كلية كما يمكن أن نتبين من مصادر الخارطة العالمية لپيرى ريس . غير أن ذلك الارتباط يختلف اختلافاً تاماً عن ارتباط الآثار العربية للقرن الخامس عشر بذلك المذهب ، فابن ماجد كما رأينا قد اعتمد اعتماداً كاملا على المذهب العربى وترسم خطاه فى هذا كل من سليمان المهرى والملاح التركى سيدى على چلبى رغم معرفتهما بالبرتغاليين واحتمال استفادتهما من التجربة العملية لهؤلاء الأخيرين . أما بالنسبة لپيرى ريس فإن المذهب العربى لايمثل سوى عنصر من العناصر العديدة فى مؤلفاته ، بل وعنصر من الدرجة الثانية إلى جانب ذلك ؛ ولعل مرجع هذا إلى حد كبير هو المناطق التى وجه إليها پيرى ريس اهتمامه الرئيسى . وقد أفاد پيرى ريس بمهارة من المراجع الأوروبية التى ارتفعت قيمتها فى ذلك العصر بالذات ، وبذل جهده فى أن يتمثلها بشكل عام حتى غدت جزءاً من تجربته الشخصية . ورغماً من الاختلاف الضخم بينهما من حيث المنهج والمادة فإن ابن ماجد وپيرى ريس يتبوءان عن جدارة مركز الصدارة فى الأدب الجغرافى الملاحى لدى العرب والترك فى عصرهما بصورة تجعلنا نقول إن ما بلغه هذا الأدب من عظمة ومجد إنما يرجع إليهما شخصياً .

588

ومن الطبيعى أن نتتبع فى هذا الفصل تطور الأدب الجغرافى الملاحى لدى العرب بتفصيل أكثر بحيث يمكن القول بأنه قد تم توضيح خطوطه الجوهرية بصورة متكاملة ، وهو يحتل المكانة الأولى فى الأدب الجغرافى العربى للقرنين الخامس عشر والسادس عشر ويمثل آخر تيار أصيل فى هذا الميدان إلى القرن العشرين . ومما لاشك فيه أنه بالنسبة للأدب التركى فى ذلك العصر أيضاً فإن الجغرافيا الملاحية تمثل صفحة من أنصع صفحاته ، وهى بالطبع لا يمكن فصلها عن التطور العام للأدب الجغرافى التركى . ذلك الأدب الذى بدأ ينتعش قبل قليل من هذا فى القرن الخامس عشر والذى يقدم لنا فى القرن السابع عشر شخصيات

كبرى فى ميدان الجغرافيا . وفى تتبعنا لهدفنا العام الذى جعلناه نصب أعيننا فى هذا الكتاب فإنه ليس بوسعنا أن نغض النظر عن هذا الأدب فى خطوطه العامة ، إذ من الضرورى بالنسبة لنا أن نبين أى الجوانب من المذهب التقليدى العربى تركت عليه أكبر الأثر ، وكيف تم تعديل وتحوير هذه الجوانب ، وفى أى مجال بالذات انتعشت وازدهرت الأصالة المستقلة للأتراك أنفسهم ، وأى الأنماط بالذات نال الرواج لديهم فى الغالب . وسنبصر بالتدريج كيف أخذ هذا الأدب يتجه أكثر فأكثر نحو المنهج والمراجع الأوروبية وكيف تم الانفصال نهائياً بينه وبين المنهج العربى بحيث لم يعد يلعب أى دور بالنسبة لعرضنا هذا باستثناء آثار منفصلة منه . وعندما نبلغ تلك النقطة فسنجد أنفسنا مضطرين إلى تركه نهائياً ، ولكن قبل هذا يجدر بنا أن نكرس الفصل التالى بأجمعه للكلام على الأدب الجغرافى لدى الأتراك العثمانيين مبينين العلاقة الحيوية التى ربطت بين الأدبين الجغرافى التركى والجغرافى العربى فى تلك العهود .

حواشي الفصل العشرين

(١) – Hennig, IV, p. 41

(٢) – Reinaud, Introduction, p. CLXVII

(٣) – Ferrand, Introduction, p. 235

(٤) فريحه ، ص ٢٣٦ (مع الإحالة إلى المقالة عن الخارطة)

(٥) – Reinaud, Introduction, p· CDXXXIX - CDXLIV

(٦) قارن : – Juynboll, Arabisch in Nederland — Kramers, EI, EB, p. 72

(٧) – Kramers, EI, EB, p. 71

(٨) – Ferrand, EI, IV, p. 394 — Sarton, II, p. 221 — Ferrand, Introduction, p. 223, 225 — 227

(٩) المقدسي ، BOA, III2 ، ص ١٠ – ١١

(١٠) قارن خارطات الخوارزمي

(١١) قارن صورة الأرض على شكل طائر

(١٢) المقدسي ، BOA III ، 1906 ، ص ١٠ – ١١. الترجمة إلى : Ranking and Azoo
p. 14 – الملاحظات إلى : Ferrand, Introduction, p. 234 – 235

(١٣) المسعودي مروج الذهب الجزء الأول ، ٢٨١ – ٢٨٣

(١٤) فريحه .

(١٥) – Ferrand, L'Element persan, p. 250-257 : Le port de Siraf

(١٦) فريحه ، ص ٢٠٧ و Ferrand, Introduction, p. 225

(١٧) – Ferrand, Introduction, p. 226

(١٨) – Ferrand, L'Element persan, Text, p 196, 208 Ferrand, Introduction p 223

(١٩) – Ferrand, Iranica, p. 124

(٢٠) – Ferrand, L'Element persan, p. 213-214, 257

(٢١) – T'A, II, p. 51, sui – Hess, p. 31 – Ferrand, L'Element person, p. 212

(٢٢) – Ferrand, L'Element persan, p. 209 215, 234 – Ferrand, Iranica, p. 123-124

(٢٣) – Ferrand, Introduction, p. 237

(٢٤) – Ferrand, Iranica, p. 125-126

(٢٥) Ferrand, L'Element persan, p. 238-239 — T'A, II, p. 581, 7 infra — Hess, p. 30-31 –

(٢٦) T'A, II, p. 51, 13 — Hess, p. 30-31 –

(٢٧) (المقدسى والجواليقى) Ferrand, Introduction, p. 235—Ferrand, Sayabidja, p. 215 –

(٢٨) Ferrand, L'Element persan, p. 221-222 –

(٢٩) شرحه ، ص ٢١٨

(٣٠) Ferrand, Introduction, p. 259 –

(٣١) Ferrand, L'Elément persan, p. 235 –

(٣٢) شرحه ، ص ٢٤٧

(٣٣) Ferrand, Introduction, p.183, 191 -- Ferrand, Annales, p. 289, note 1 –

(٣٤) Ferrand, Introduction, p. 183-184 –

(٣٥) شرحه ، ص ١٩٢

(٣٦) شرحه ، ص ١٩٤

(٣٧) Ferrand, Annales, p. 292, note 2 — Ferrand, Introduction, p. 182 –

(٣٨) Ferrand, Introduction, p. 179, 182 –

(٣٩) Ferrand, Annales, p. 292, note 2 –

(٤٠) Ferrand, Introduction, p. 182 –

(٤١) Ferrand, Annales, p. 292 –

(٤٢) Ferrand, Introduction, p. 196 –

(٤٣) Ferrand, Annales, p. 292 — Ferrand, Review in : JA, CCIV, p. 114 — Ferrand, Introduction –

(٤٤) Ferrand, Introduction, p. 184 –

(٤٥) بحسب كتاب :

فإن المقصود فى أغلب الظن رأس الرجاء الصالح Ferrand, Introduction, 187, note 4,

(٤٦) القلمة بالسنسكريتية : Ferrand, Introduction, p. 186, note 2

(٤٧) Ferrand, Introduction, text, transl. and commentary, p. 185-190 –

(٤٨) شرحه ص ١٩٠ ، حاشية ٢ – Stübe, p. 346

(٤٩) Ferrand, Introduction, p. 188-189, note 3 –

(٥٠) كان أول من أثبت أن أحمد بن ماجد هو المرشد الذى تتكلم عنه المصادر البرتغالية هو أحمد زكى باشا ، وذلك فى عام ١٩١٧ ، قارن : Ferrand, Le Kouen — Louen, p. 492, note

(٥١) Ferrand, Introduction, p. 196-198 –

(٥٢) – Gaudefroy - Demombynes, Muhit, p. 547 - 550 — cf. Ferrand, Relations, II, p. 485, note 2 — Ferrand, Introduction, p. 255, note 1

(٥٣) من سليمان الجزائري ، راجع : طرازي ، صفحة ١١٩ : و Cheikho, La Littérature, I2 , p. 103 - 104

(٥٤) – Ferrand, Introduction, p. 199, 246

(٥٥) شرحه ، ص ٢٥٤ (نسخة ا. عسكري عام ١٧٣٢)

(٥٦) – Gaudefroy - Demombynes, Muhit, p. 549 — Ferrand, Introduction, p. 247

(٥٧) – Brockelmann, GAL, II, p. 179

(٥٨) سعيد الكرى ، ص ٣٣ – ٣٥ – Ferrand, Introduction, p. 199 - 200

(٥٩) – Ferrand, EI, IV, p. 396, note 2

(٦٠) د. چلبي ، مخطوطات ، ص ٢٨٠ – ٢٨٢ ، رقم ٦٧ – د. چلبي ، لغة العرب ، المجلد التاسع ، ١٩٣١ ، ص ٤٠١ – ٤١٢ – Brockelmann, GAL, SB II, p. 231 No No 7 - 8

(٦١) – Ferrand, Madagaskar, p. 68 - 60 — Ferrand, Sayabidja, p. 214 - 215 — Ferrand, Sofala, p. 507 - 510 — Ferrand, Zabag, p. 1270 - 1281

(٦٢) – Ferrand, Introduction,

(٦٣) – Saussure, Commentaire

(٦٤) – Ferrand, Introduction, p. 228 -- Ferrand, L'Elément persan, p. 194

(٦٥) – Ferrand, Introduction, p. 220

(٦٦) شرحه ، ص ٢٢١ – ٢٢٢

(٦٧) – Ferrand, L'Element persan, p. 197 - 200

(٦٨) – Ferrand, Introduction, p. 227 - 228

(٦٩) – Ferrand, L'Element persan, p. 207

(٧٠) شرحه ، ص ٢٠٥

(٧١) Ferrand, Annales, p. 299 - 300

(٧٢) – Ferrand, L'Elèment persan, p. 205 — Ferrand,Annales, p. 299

(٧٣) – Ferrand, Annales, p. 299

(٧٤) – Ferrand, Introduction, p. 220 - 221

(٧٥) ثدري حافظ طرقان ، ابن ماجد ، ص ١٢٣ – ١٢٦ — Ferrand, Introduction, p. 224

(٧٦) – Ferrand, Introduction, p. 199, 246

(٧٧) شرحه ، ص ١٩٩ – ٢٠٠

(٧٨) – I. Iu. Krachkovski, Nad arabskimi rukopisiami, Izbrannye Sochinenia, I, p. 74-78 [- Shumovski, tri neizvestnye lotsii Akhmada ibn Madjida]

(٧٩) - Ferrand, Introduction, p. 201-202 — Taeschner, review of : G. Ferrand, Introduction, DI, XIX, 1930, p. 35 - 38 — Ferrand, L'Element persan, p. 195, 197, 208-209

(٨٠) قارن : Ferrand, L'Elment persan, p. 221-222

(٨١) - Gobbée, p. 144, 150

(٨٢) راجع : Ferrand, L'Elment persan, p. 218

(٨٣) - Saussure, p. 129-152 - Ferrand, Annales, p 303

(٨٤) - Gobbée, p. 145

(٨٥) - Saussure, p. 152-153

(٨٦) شرحه ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ، حاشية ١ (مع المراجع)

(٨٧) - Ferrand, Gèographes arabes p. 132

(٨٨) - Ferrand, Annales, p. 294 — Ferrand, Introduction, p. 202

(٨٩) المحتويات لدى : Ferrand, Introduction p. 208-218 :

(٩٠) - Ferrand, Annales, p. 294-295 — Ferrand, Introdution, p. 203-206

(٩١) - Ferrand, Annales, p. 295 — Ferrand, Introduction, p. 206-207

(٩٢) - Saussure, p. 171

(٩٣) راجع : Krachkovski, Arabskie Geografy, p 760, مع الصورة p. 759

(٩٤) - Ferrand, L'Elèment persan, p. 193 — Ferrand, Introduction, p. 219

(٩٥) - Ferrand, Introduction, p. 212 (No VI)

(٩٦) شرحه ، ص ٢٢٣ - ٢٢٧

(٩٧) راجع : شرحه ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥

(٩٨) Ferrand, L'Elèment persan, p. 197

(٩٩) - Ferrand, Introduction, p. 223, 225 - 227

(١٠٠) شرحه ، ص ٢٢٣ - ٢٢٦ - Ferrand, L'Elèment persan, p. 196, 208

(١٠١) - Ferrand, Introduction, p. 230 - 232

(١٠٢) شرحه ، ص ٢٣٢

(١٠٣) شرحه ص ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣

(١٠٤) شرحه ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠

(١٠٥) شرحه ، ص ٢١٩ - ٢٢٠

(١٠٦) شرحه ، ص ١٨٠ - ١٨١

(١٠٧) شرحه ، ص ١٨١ - ١٨٢

(١٠٨) راجع على وجه العموم : شرحه ، ص ١٧٧ - ١٨٣

(١٠٩) – Prinsep, p. 10 – Ferrand, Introduction, p. 227

(١١٠) – Ferrand, Introduction, p. 243

(١١١) شرحه ، ص ٢٣٧ .

(١١٢) شرحه

(١١٣) شرحه ، ص ٢٣٩ ٢٤٣

(١١٤) شرحه ، ص ٢٤٣

(١١٥) شرحه ، ص ٢٤٣ -- ٢٤٤.

(١١٦) شرحه ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(١١٧) شرحه ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ، ٢٤٤ · ٢٤٦

(١١٨) شرحه ، ص ٢٣٩ .

(١١٩) – Ferrand, Annales, p. 312

(١٢٠) – Ferrand, L'Element persan, p. 215 - 216 — Ferrand, Introduction, p. 39, note 2

(١٢١) – De Slane, Catalogue, 1883 - 1895, p. 401

(١٢٢) – Ferrand, Introduction, p. 246 - 247 — Ferrand, Annales, p. 294

(١٢٣) – Ferrand, Introduction, p. 247

(١٢٤) – Ferrand, Annales, p. 312

(١٢٥) – Süssheim, Ali (Sidi Ali), p. 301

(١٢٦) – Taeschner, OLO, p. 40, note 2

(١٢٧) – Ferrand Introduction, p. 248 - 250 Tomaschek, SBAW, VIII, p. 3

(١٢٨) – Tomaschek, Mohit, p 2 - 3 Ferrand, Introduction, p. 251 — Bonelli, p. 751

(١٢٩) – Bittner, WZKM, X, p. 21

(١٣٠) – Bonelli, p. 752

(١٣١) شرحه Ferrand, Introduction, p. 251

(١٣٢) – Hammer, Geschichte

(١٣٣) تناولها لدى : Ferrand, Introduction, p. 251 - 254

(١٣٤) – Süssheim Ali (Sidi Ali), p. 301

(١٣٥) – Tomaschek, Topographie, p. 7-8 · Ferrand, Introduction, p. 251 - 254

(١٣٦) – Tomaschek, Topographie, p. 5 — Bittner, Mohit, p. 53 — Ferrand شرحه ، ص ١٩٧ – ٢٠٢ .

(١٣٧) – Bonelli, p. 753 - 777 — Bittner, Mohit, p. 75 - 76

(١٣٨) – Conti Rossini, p. 447

(١٣٩) – Bittner, Mohit, p. 75-76

(١٤٠) – Tomaschek, Topographie p. 6

(١٤١) شرحه ، ص ٨

(١٤٢) – Conti Rossini, p. 450

(١٤٣) – Tomaschek, Topographie, p. 31

(١٤٤) شرحه

(١٤٥) – Ferrand, Relations, II, p. 485, note 2 — Ferrand, Introduction, p. 116, note 2, 198, 248

(١٤٦) – Ferrand, Introduction, p. 255

(١٤٧) – Tomaschek, Topographie, p. 6-7

(١٤٨) – Kahle, Nautische Instrumente, p. 176

(١٤٩) شرحه ، ص ١٨٢

(١٥٠) شرحه ، ص ١٨٣

(١٥١) – Tomaschek, Topographie, p. 7

(١٥٢) – Schefer, Chrestomathie persane, II, p. 222 and Text, p. ٢٠٧ – ٢٠٩

(١٥٣) شرحه ، ص ٢٢٣ و ص ٢٠٩ – ٢١٢

(١٥٤) – Ferrand, Introduction p. 249-250 (= Schefer, شرحه) — Tomaschek Topographie, p. 7 sui

(١٥٥) – Barbier de Meynard, review : JA, 9 Série, VII, p. 367-368

ملاحظات عامة فقط

(١٥٦) – Ferrand, Introduction, p. 250

(١٥٧) قارن : – Taeschner, OLO, p. 43; cf. Kramers, EI, EB, p. 73 :

(١٥٨) – Fedchenko, Ocherk geografii

(١٥٩) – Minaev, p. 80-81

(١٦٠) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 108, نقلا عن : Vambery, Travels of Sidi Ali Reis, p. 52

(١٦١) – Tomaschek, Topographie, p. 27

(١٦٢) – Mieli, p 281

(١٦٣) - Yver, Khair al-Din, p. 934-936

(١٦٤) - Babinger, Piri Reis, p. 1156 -- Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XVI

(١٦٥) - Burski, p. 83; cf. p. 9, note 2 and p 75

(١٦٦) فرسه ، ص ٧٦ وما يليها

(١٦٧) فرسه ، ص ١٥ ، ٢٠ — Babinger, Piri Reis, p. 1155

(١٦٨) - Burski, p. 21-23

(١٦٩) Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VI

(١٧٠) Burski, p. 39-40, note 1

(١٧١) فرسه ، ص ٧٧ - ٧٩

(١٧٢) فرسه ، ص ٨٠ .

(١٧٣) .. Babinger, GOW, p. 49, No. 29

(١٧٤) .. Burski, p. 62, note 2

(١٧٥) فرسه ، ص ٢٨ — ٣٢

(١٧٦) .. Babinger, Piri Reis, p. 1156

(١٧٧) .. cf : Krachkovski, Kolumbovskia karta, p. 184 — 186

(١٧٨) - Babinger, Piri Reis, p. 1156

(١٧٩) Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XVI - XVII

(١٨٠) فرسه ، p. VI

(١٨١) فرسه ، p. XIII

(١٨٢) - Babinger, Piri Reis, p. 1156 - Menzel, OLZ, 4, 1928, review, p. 280 - Herzog, cf : Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. V — VI

(١٨٣) - Herzog, cf : Kahle, فرسه , p.VI

(١٨٤) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VI

(١٨٥) - Kahle, Piri Reis, p. 61, 63

(١٨٦) فرسه ، ص ٦٣

(١٨٧) فرسه ، ص ٦٢ cf : review : Taeschner, DI, XVII, p. 115

(١٨٨) - Review : Taeschner, DI, XVII, p. 114 - 115

(١٨٩) - Kahle, Piri Reis, p. 63

(١٩٠) - Bräunlich, Islamica, p. 296

(١٩١) - Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXXIII

(١٩٢) – Kahle, Piri Reis, p. 60-61

(١٩٣) – Bräunlich, Islamica, p. 297

(١٩٤) – Kahle, Piri Reis, p. 61

(١٩٥) شرحه ، ص ٦٤

(١٩٦) – Bräunlich, Islamica, p. 299

(١٩٧) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. V, ألفاظ هرتسغ

(١٩٨) – Taeschner, GLO, p. 42

(١٩٩) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VII

(٢٠٠) شرحه ، p. VIII

(٢٠١) – Kahle, Piri Reis, p. 66

(٢٠٢) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. IX

(٢٠٣) شرحه ، p. X

(٢٠٤) – Kahle, Piri Reis, p. 68, 71

(٢٠٥) شرحه ، ص ٧٦

(٢٠٦) شرحه ، ص ٦٨ – ٦٩ ، ٧٢ – ٧٣ ، ٧٥

(٢٠٧) شرحه ، ص ٦٥

(٢٠٨) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. X

(٢٠٩) – Blochet, L'Etude, p. 25

(٢١٠) – Kahle Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VII XII – Kahle, Piri Reis, p. 65

(٢١١) – Kahle, Columbus – Karte, p. 13

(٢١٢) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II Einleitung, p. X

(٢١٣) شرحه ، p. XII

(٢١٤) – Bräunlich, Islamica, p. 297

(٢١٥) – Taeschner, DI, XVII, p. 116, note 2

(٢١٦) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XIV - XV

(٢١٧) – Diez, Denkwürdigkeiten, I, p. 33-71 = Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXX – XXXIII

(٢١٨) – Diez, Denkwürdigkeiten, I, p. 66-68

(٢١٩) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXX – XXXIII

(٢٢٠) شرحه ، p. XXIV–XXVII

(٢٢١) لوصف مخطوطة باريس لپيرى ريس راجع : Blochet, L'Etude p. 21-26

(٢٢٢) Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXII — XXIV -

(٢٢٣) Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 185 Babinger, Piri Reis, p. 1156 -

(٢٢٤) Blochet, L'Etude, p. 25-26, note 2 -

(٢٢٥) Babinger, Piri Reis, p. 1157 — Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 184 -

(٢٢٦) Babinger, Piri Reis, p. 1156 1157 — Brockelmann, GIV, p. 282 - Bräunlich, Zwei türkische Weltkarnte, p. 24 -

(٢٢٧) Krachkovski, Kolumbovskia Karta -

(٢٢٨) Jacob, in : Kahle, Columbus - Karte, p. 5 -

(٢٢٩) Bräunlich, Zwei türkische Weltkarten, p. 19 -

(٢٣٠) Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 186 -

(٢٣١) Bräunlich, Zwei türkische Weltkarten, p. 24 -

الفصل الحادي والعشرون

الأدب الجغرافى التركى من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر

589 تحت يدنا بحث قيم جدير بالثقة يمكننا من تتبع سير تطور الأدب الجغرافى لدى الأتراك العثمانيين بصورة يصعب توفرها لا بالنسبة للأدب الفارسى وحده بل وحتى بالنسبة لجوانب معينة من الأدب العربى نفسه . ففى عام ١٩٢٢ وقع اختيار الأستاذ فرانتس تيشنر F. Taeschner على هذا الموضوع ليحاضر فيه تلامذته ، ثم لم يلبث أن أجرى فيه قلمه بالتعديل وأضاف إليه زيادات هامة ونشره على هيئة مقال كبير يقع فى خمسين صفحة[1] . وقد كان هدفه الأساسى بالطبع هو أن يبين الخطوط العامة لتطور الأدب الجغرافى عند الأتراك ولكنه جهد فى ذات الوقت ليستوعب ما استطاع أسماء أهم المؤلفين وأهم الآثار وأن يجمع ثبتاً بأسماء المراجع الهامة فى هذا الصدد . ومجهوده من هذه الناحية بل ومن نواح أخرى يفوق بمدى كبير المحاولة القديمة المماثلة التى قام بها فستنفلد فيما يتعلق بالأدب الجغرافى العربى ، ويقدم لأول مرة عرضاً متتابعاً يمكن الاطمئنان إليه ويغنى الباحث عن فحص كل مسألة على حدة . وقد اعتمد كرامرس اعتماداً كبيراً على بحثه هذا حين معالجته الكلام على الجغرافيا لدى العثمانيين فى مقاله الذى ظهر « بدائرة المعارف الإسلامية » ، ذلك المقال الذى لا يخلو من أهمية كبرى بوصفه عرضاً عاماً لتطور الأدب الجغرافى فى الشرق الأدنى بأجمعه .

وقد تجمعت بالطبع خلال العشرين عاماً الأخيرة مادة جديدة وظهرت طبعات ودراسات جديدة حتى أصبح الأمر يستدعى قدراً ليس بالقليل من الزيادات إلى مقال تشنر المذكور ؛ وفى هذا الصدد لا يخلو من فائدة عامة بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العثمانى كتاب بنجر Babinger الضخم عن مؤرخى آل عثمان Die Geschichtsschreiber der Osmanen ، فقد كان من الطبيعى أن يعالج فيه المؤلف الكلام عن آثار جغرافية فى جوهرها[2]. وفى معرض الدراسات المستقلة المكرسة لمعالجة موضوعات خاصة يلفت النظر بشكل خاص عدد من المقالات لتشنر نفسه الذى ظل يعمل بجد وإخلاص فى هذا الميدان لإلقاء الضوء على مسائل جغرافية معينة فى هذا المجال . والأدب الجغرافى التركى كما بينه تشنر فى خطوطه العامة لن يحتل بالطبع مركز الصدارة فى بحثنا هذا إذ أن ما يهمنا فى هذا الصدد هو توضيح علاقته بالأدب الجغرافى العربى وتبيان الأنماط التى حظيت فيه بازدهار خاص . وتشنر قد مس هذه المسائل بالطبع ونحن أيضاً قد فصلنا القول فيها أحياناً بصورة وافية | ، كما أننا سنعرض فيما يلى من 590 هذا الفصل بالإيجاز لأهم نقاط ذلك الأدب :

لقد أسبق وأن عالجنا الكلام فى الفصل السابق لهذا على ما حظيت به الجغرافيا الملاحية من ازدهار

بين الأتراك العثمانيين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ولكن من الملاحظ انبعاث ضرب من الحيوية والانتعاش فى ميدان الأدب الجغرافى بوجه عام حتى قبل تلك الفترة ؛ ويمكن ربط هذا بحركة تاريخية فريدةهى « إحياء العلوم الكلاسيكية » (Revival of classical learning) . وإذا كانت الثقافة اليونانية قد لعبت ذلك الدور بالنسبة لأوروبا اللاتينية فإن هذا الدور نفسه قد لعبته الثقافة العربية بالنسبة للأتراك ، حيث برزت هذه النهضة لديهم قبل كل شىء فى الاهتمام الخاص بالآثار الجغرافية وترجمتها إلى التركية بصورة منتظمة ؛

ولقد تجدد الاهتمام بالمصادر الجغرافية العربية لدى الأتراك العثمانيين منذ النصف الثانى للقرن الخامس عشر وذلك فى عهد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ هـ - ٨٨٦ هـ ١٤٥١ - ١٤٨١) ؛ فترجمت جغرافيا بطلميوس فى ذلك العهد مرتين . وأغلب الظن أن اللغة التركية لم تكن قد اكتسبت مرونة كافية بعد لذا فقد نقل الكتاب إلى اللغة العربية وفقاً للمذهب القديم الذى كان سائداً فى القرنين الثامن والتاسع . ويمكن تكوين فكرة جيدة عن إحدى هاتين الترجمتين من الطبعة المصورة (facsimile) التى نشرها البحاثة المصرى الأمير يوسف كمال (١٩٢٩) المشهور بخبرته فى ميدان الجغرافيا التاريخية [٣]. وقد حظيت بنفس هذا القدر من الاهتمام أيضاً « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيين العرب للقرن العاشر ، فى عهد محمد الثالث فى نهاية القرن السادس عشر ترجم شريف أفندى إلى اللغة التركية كتاب الإصطخرى المعروف[٤] ؛ وفى نفس الوقت تقريباً فإن المؤرخ على چلبى الذى سيمر بنا الكلام عليه فى هذا الفصل قد ضم إلى كتابه «كنه الأخبار» ترجمة تركية مختصرة ومصلحة للنسخة الفارسية لكتاب الاصطخرى « صور الأقاليم »[٥] ؛ أما فى محيط الجغرافيا الرياضية الفلكية فإن هذه النهضة ترتبط ارتباطاً قوياً بنشاط عالم من علماء النصف الثانى للقرن الخامس عشر أيضاً وهو على القوشجى (توفى فى عام ٨٧٩ هـ - ١٤٧٤) الذى عرفناه كواحد من معاونى أولوغ بيك فى مرصده بسمرقند والذى التجأ إلى أراضى الدولة العثمانية عقب مصرع ولى نعمته ؛ وقد تمتعت رسالته فى الجغرافيا الرياضية والفلكية برواج كبير هنالك من بين جميع المصنفات التى على شاكلتها ونقلت إلى التركية أكثر من مرة ؛ وإحدى ترجماتها كما رأينا ندين بها لسيدى على ريس المعروف بينما قام بالترجمة الثانية بعد ذلك بثلاثين عاماً ملا پرويز (المتوفى عام ٩٨٧ هـ - ١٥٧٩)[٦] . من هذا يتبين لنا أن انبعاث الاهتمام بالجغرافيا لم يقف عند حد الجغرافيا الكلاسيكية وحدها بل تجاوزه إلى الاهتمام بالجغرافيا المعاصرة فى مختلف أنماطها . وفى عهد السلطان مراد الثالث فى نحو عام ٩٦٠ هـ - ١٥٨٢ تمت كما سبق أن ذكرنا ترجمة الوصف الفارسى للصين الذى دونه على أكبر[٧] ، كما ترجم فى القرن الخامس عشر إلى اللغة التركية الوصف الجغرافى لمصر ذو الطابع التخصصى وهو من عمل ابن الجيعان وذلك اعتماداً على المسودة التى ترجع إلى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ وقد حدث أن بينا فى حينه أن هذا الكتاب لايتمتع فى الواقع بأهمية كبرى وأغلب الظن أن هذه الترجمة التركية التى توجد فى مخطوطة بفينا بعنوان «ذكر

501

أقاليم ديار مصرية » كان مبعثها هو اهتمام العثمانيين بعصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ومن بين جميع فروع الأدب الجغرافى التى ازدهرت فى الفترة التالية للعصر الكلاسيكى أحس الترك كما أحس العرب من قبلهم بميل خاص نحو الكوزموغرافيا ، وهى تلك الأوصاف العامة لجميع العالم التى أفرد فيها مكان معين للجغرافيا إلى جانب الفلك والانثروبولوجيا والحيوان والنبات والمعادن وجميع ضروب الأساطير(٨) . وقد حظى القزوينى بمكانة خاصة فى هذا المجال وترجم مصنفه « عجائب المخلوقات » عدة مرات إلى التركية(٩) ولخصه المؤلف التركى أحمد بيجان منذ عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ وسنلتقى بهذا الأخير كمؤلف مستقل فى خلال هذا الفصل ؛ أما الترجمات الكاملة للكتاب فترجع إلى القرن السادس عشر(١٠) .
وقد أثار أهمية أكثر من ذلك كتاب « خريدة العجائب » لابن الوردى فترجم إلى التركية لا أقل من خمس مرات ترجع أولاها إلى القرن الخامس عشر وتمت قبل استيلاء العثمانيين على القسطنطينية(١١) ، أما الترجمات الأخرى فيرجع معظمها إلى القرن السادس عشر وتحمل إحداها تاريخ ٩٦٣ هـ = ١٥٥٦(١٢) .
ومحمود عاشق الذى سيرد الكلام عليه بعد قليل ، وهو أول مؤلف لأثر جامع فى الجغرافيا باللغة التركية ، قد ضمن مصنفه ترجمة ملخصة لمؤلف ابن الوردى فى الكوزموغرافيا وذلك حوالى عام ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٨(١٣) . وعلى غرار نمط الكوزموغرافيا تمتع بنفس هذه الدرجة من الرواج بين الأتراك العثمانيين مصنف أبى الفدا فى الجغرافيا ، وقد ذكرنا فى حينه أن سپاهى زاده (المتوفى عام ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨) قد أعاد صياغته بالعربية على هيئة معجم وزاد عليه إلى العصر الذى عاش فيه ، ثم لم يلبث أن عمل له ترجمة موجزة باللغة التركية(١٤) . أما مصنف أبى الفدا فى التاريخ فقد نقل إلى التركية منذ القرن الخامس عشر(١٥) كما أن الترجمات التركية العديدة لتاريخ الطبرى ، وهى تستند فى معظم الأحوال على ترجمته الفارسية من عمل البلعمى ، قد بدأت فى الظهور منذ السنوات العشر الأولى للقرن الخامس(١٦) عشر.

إن هذه الأسماء العديدة التى مرت سريعاً أمام ناظرينا تكفى لإعطاء فكرة عن النشاط الكبير الذى قام به العثمانيون لتمثل التراث العربى فى محيط الأدب الجغرافى القديم والحديث ، ولم يكن ليقدر لهذا النشاط أن يبلغ ذلك المدى لولا أن وجدت المخطوطات العربية طريقها فجأة فى ذلك العصر | إلى الدولة العثمانية 592 خاصة إلى العاصمة استنبول حتى أصبحت مجموعاتها فى المخطوطات تضارع ، إن لم تفق ، مثيلاتها فى البلدان العربية الأخرى . هذا وقد بدأت تركيا تمارس منذ القرن السادس عشر حقها كبلد فاتح فتم نقل المخطوطات بصورة منتظمة من مصر ، وبهذا وجدت طريقها إلى استنبول مجموعات كاملة من مختلف « الأوقاف » الحكومية والمخطوطات الشخصية لعدد من أمراء المماليك خاصة أولئك الذين حاق بهم لسبب ما سخط الدولة العثمانية . وقد سار هذا السيل من المخطوطات فى صورة منتظمة وسريعة حتى أنه توجد حالات تم فيها الكشف بعد قرون طويلة عن وجود مجموعات كاملة من المصنفات التى ألفت بمصر والتى افتقدها الباحثون عقب الغزو العثمانى لها ، مثال ذلك الموسوعات الكبرى لعهد المماليك التى أبنا عن أهميتها

بالنسبة للأدب الجغرافى العربى فيما مر من الكتاب : ويرجع معظم المخطوطات التى وجدت طريقها إلى استنبول إلى عهد المماليك ، ومن بينها عدد ليس بالقليل من النسخ التى رفعت هدايا إلى السلاطين والأمراء وكتبت بخط أنيق وزينت برسوم فنية رفيعة ، كما يوجد بينها أيضاً عدد من المخطوطات الأولى التى كتبت بيد المؤلفين أنفسهم والتى ترجع إلى عهود سابقة . ولم يقتصر وجود المخطوطات على المجموعات العامة الموجودة بالمساجد الكبرى بل وجدت أيضاً فى المجموعات الشخصية وبدكاكين الوراقين ؛ ونحن نذكر جيداً كيف تحدث الرحالة العربى التمجروتى فى حماس بالغ عما حفل به سوق الوراقين باستنبول من مخطوطات عربية متنوعة . ومنذ ذلك التاريخ نافست استنبول بمحتوياتها فى المخطوطات العربية أمهات الحواضر العربية الكبرى كالقاهرة ودمشق بل وفاقتها فى بعض الأحايين ، وكما عاون وصول المخطوطات اليونانية إلى إيطاليا على إحياء الثقافة الكلاسيكية القديمة فقد نشأ عن وصول المخطوطات العربية إلى تركيا قيام حركة مشابهة فى الأدب التركى خاصة فى ميدان الجغرافيا ؛ وقد ظلت هذه المخطوطات لعهد طويل مجهولة لدى الدوائر العلمية الأوروبية باستثناء القليل منها الذى وصل علمه إليها عن طريق المصادفة البحتة فى الغالب ؛ غير أن السنين العشرة الأخيرة قد وكدت احتمال العثور على مخطوطات مختلفة فى شتى فروع العلوم بين مجموعات المخطوطات هناك ، ويرجع الفضل الأكبر فى إلقاء الضوء على هذا إلى مجهودات المستشرق الألمانى ريتر Ritter . وكما وضح فيما بعد فإن عدداً كبيراً من هذه المخطوطات يدخل فى محيط الأدب الجغرافى بل إن بعضاً منها مما يتعلق بالعصر الكلاسيكى قد دفع إلى التفكير فى إعادة طبع بعض أجزاء « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum[١٧] ؛ أما فيما يتعلق بالعصور التالية لذلك فقد تم الكشف عن مواد فى غاية من الأهمية فيما يتصل بالإدريسى ، كما أن الكوزموغرافيات المختلفة تجد مكانها بصورة حافلة للغاية بين هذه المجموعات من المخطوطات . هذه النهضة الفريدة للأدب العربى التى دعمها ترجمة عدد كبير من آثاره إلى التركية ووصول عدد هائل من المخطوطات إلى أراضى الدولة العثمانية كان من شأنها أن تساهم فى خلق ونمو أدب أصيل باللغة التركية نفسها ، بالرغم من أن هذا الأدب لم يقدم لنا فى عهده الأول أية آثار ذات قيمة .

503 ويعد أول مؤلف لأثر من هذا النوع يازجى أوغلو أحمد بيجان الذى كما أسلفنا القول قد قام فى عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ بعمل مختصر « لعجائب المخلوقات » للقزوينى ؛ ومخطوطات هذا المختصر ليست بالنادرة[١٨] بل إن الكتاب نفسه قد طبع بقازان فى عام ١٨٨٨ ، وهى طبعة من العسير الحصول عليها الآن[١٩] ولكن مجرد الاهتمام بطبعه يقف دليلا واضحاً على انتشار هذا المختصر فى الماضى حتى بين شعوب الاتحاد السوفيتى . ومن المحتمل أن تكون معرفته بالمذهب الجغرافى هى التى دفعته لوضع رسالة مستقلة بعنوان « در مكنون » كثيراً ما نلتقى بمخطوطاتها هى أيضاً ؛ وعلى الرغم من هذا فإن صلته بالآثار الكلاسيكية العربية ضعيفة ، وهو يعالج موضوعه فى الغالب من الوجهة الأسطورية الشعبية وتحتل

العوامل الدينية لديه مكانة واضحة كما أنه لايعنى كثيراً بما يدور على الأرض بقدر عنايته بالآثار السماوية وجهنم وأدوار الخليقة وسير الأنبياء ويوم القيامة والإرهاصات التى تشير إلى اقتراب الساعة ؛ أما فى كلامه على الظواهر الأرضية فهو يفرد أهمية خاصة لكل أصناف الغرائب والخوارق[٢٠] . ولمصنف أحمد بيجان هذا ذيل على هيئة رسالة صغيرة مجهولة المؤلف بعنوان « مرآت العوالم » تنسب فى مخطوطة ڤينا إلى المؤرخ المشهور على (توفى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٩) وهى تنتمى إلى نفس تلك السلسلة من الكوزموغرافيات التى لم تكن غريبة على عالم الواقع فحسب بل وغلبت عليها المادة الأسطورية تماماً[٢١] .

وبعد فيجب القول بصورة عامة بأن الأدب الجغرافى التركى لم يقدم لنا خلال القرن الذى تلى أحمد بيجان سوى عدد قليل من الآثار التى يمكن أن توصف بالأصالة ؛ والاستثناء الوحيد فى هذا الصدد تمثله كما رأينا الجغرافيا الملاحية التى تقف برهاناً ساطعاً على النتائج القيمة التى يمكن الوصول إليها عن طريق مزج التجربة العملية بالأسس العلمية المستمدة من الاتجاهات النظرية القديمة[٢٢] ، وفيما عدا هذا فإن الأنماط الجغرافية الأخرى تبدو شديدة الهزال وشاحبة فالجغرافيا العلمية لم يكتب لها نجاح كبير بل اكتفت فى العادة بتلك الرسائل من طراز مؤلف على القوشجى الواسع الانتشار . ولم توجد إلى جانبه سوى بضعة قوائم جافة تحدد المواقع الجغرافية للمدن المختلفة وأوصاف الطرق العديدة التى تربط بين مختلف الأماكن ، كما وجدت فى بعض الأحايين رسائل صغرى تبحث فى تقسيم الأقطار أو فى الإحصائيات الحكومة المختلفة .

ويجب أن نولى عناية خاصة لليوميات السلطانية العديدة التى تتضمن وصف تنقلات سلاطنة آل عثمان وسير حملاتهم العسكرية وتحركاتهم فى أنحاء الإمبراطورية ؛ وقد أخذ عددها يزداد منذ عصر السلطانين سليم الأول[٢٣] وسليمان[٢٤] ، ويوجد قدر كبير منها فى ترجمات غير كاملة وملخصات باللغات الأوروبية المختلفة (خاصة الفرنسية والألمانية) منذ القرن السابع عشر ؛ ويمكن لهذه اليوميات أن تقدم مادة هامة بالنسبة للأوصاف الطبوغرافية والجغرافيا السياسية للدولة العثمانية ولكن لا يمكن بالطبع أن تعد أدباً جغرافياً[٢٥] : وليس ثمة ما يدعو إلى الزيادة فى القول بأن الآثار التاريخية العثمانية الأولى مثل « بهجة التواريخ » لشكر الله (توفى عام ٨٩٤ هـ = ١٤٨٩) لا تخلو أحياناً من بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا[٢٦] .

594

وقد نالت رواجاً خاصاً فى العهد الأول للأدب العثمانى تلك المصنفات التى تقف على الحد الفاصل بين الجغرافيا والتاريخ ، بل وفى كثير من الأحيان لاتخلو من عنصر الشعر والأسطورة ، وهى المتعلقة بوصف المدن والمواضع المختلفة : وهذه المصنفات تذكرنا أحياناً بنمط « الفضائل » القديم ، بل وأكثر من ذلك بتلك الأوصاف الأدبية لمدينة رومة التى نجدها عند الجغرافيين القدامى والتى قام بتحليلها المستشرق غويدى Guidi ، أو بوصف القسطنطينية الذى ورد بتفصيل أكثر فى كوزموغرافيا ابن الوردى ؛

وإلى هذه المدينة الأخيرة وإلى آثارها القديمة اتجهت بطبيعة الحال عناية المؤلفين والمترجمين العثمانيين . والمصنفات التى تحمل عنوان « تاريخ قسطنطينية » أو « تاريخ أيا صوفيا » والتى توجد فى المخطوطات يبلغ عددها حداً بعيداً ، وهى نادراً ما تشابهت فى تبويبها وتمثل فى العادة تاريخاً أسطورياً للمدينة ووصفاً لخططها قبل الفتح العثمانى . بل إن أحد المصنفات من هذا الطراز يرتبط باسم على القوشجى المعروف لنا جيداً (توفى فى عام ٨٧٩هـ - ١٤٧٤)[٢٧] وبعض هذه المصنفات كما بين موردتمان Mordtmann[٢٨] لا يمثل فى واقع الأمر سوى تعديل طفيف للحكايات البيزنطية وعلى العكس من هذا فإن بعضها يرتفع إلى مصادر أبعد من ذلك . وخير مثال للمجموعة الثانية مسودة بعنوان « تاريخ قسطنطينية » موجودة فى مخطوطة بالمتحف البريطانى كان قد نشر قسماً منها ودرسها ف . اسميرنوف V. Smirnov فى عام ١٨٩٨ ؛ وكلا المخطوطة والمصنف يرجعان إلى ما قبل القرن الخامس عشر أو كما يفترض ريو Rieu إلى بداية القرن السادس عشر[٢٩] . وقد أعرب الناشر عن أمله فى أن يقدم الكتاب بعض المادة بالنسبة للتاريخ الطوبوغرافى للمدينة وآثارها فى العصر القريب من عصر المؤلف ، غير أن التحليل الدقيق الذى قام به روزن Rosen[٣٠] والذى يكشف عن عمق وذكاء كما هو شأن هذا العالم دائماً قد أثبت أن هذا الأثر منقول برمته عن مؤلفات سابقة وأن أهميته لاتتعدى مجال التاريخ الأدبى حتى أنه لا يمثل أهمية بالنسبة للعصر الذى تم تدوينه فيه . وينبغى أن نلاحظ منذ البداية أن الكتاب لايتميز بالأصالة وأنه كما تم الافتراض من قبل إنما يرتفع إلى مصنف فارسى للقرن العاشر ثم تدوينه فى عهد السامانيين[٣١] ؛ أما مادته الأساسية فمأخوذة من أوصاف نصف أسطورية لمؤلفين عرب من طراز ابن الفقيه وابن رسته كما يمكن أن تكون قد وجدت طريقها إليه تفاصيل ترجع إلى مصادر سريانية بيزنطية . ولعلنا نذكر جيداً كيف أمكن لغويدى Guidi أن يكشف عن هذا عند تحليله للمادة المشابهة لهذه فى المصادر العربية فى وصف أنطاكية وروما ؛ ومن الأوفق أن نضرب صفحاً عن أى أمل فى العثور على معلومات بيزنطية ذات قيمة ترجع إلى عهود متأخرة فى هذه المصنفات التركية فى « تاريخ قسطنطينية » .

وقد ظهرت شيئاً فشيئاً آثار مشابهة وبنفس هذا الأسلوب عن حواضر ومواضع أخرى إما لأنها ارتبطت بنمو سلطان العثمانيين أو تقليداً للمذهب العربى القديم ، ويصدق هذا على بروسه المهد الذى نشأت فيه دولة آل عثمان ، أو دمشق حيث يشير عنوان الرسائل « فضائل الشام » إلى ارتباطها الوثيق بنمط سابق معروف لنا جيداً ، أو على مصر والنيل . وعدد الرسائل التى تحمل عنوان « فضائل الشام » كبير للغاية فى اللغة التركية ، وهى تعرض لفضائل ذلك القطر خاصة مدينة دمشق بنفس الأسلوب المعروف لنا من النماذج العربية ، ويحظى بعناية خاصة فى هذا الصدد وصف المسجد الأموى والكلام عن الأنبياء والعلماء والمتصوفين الذين توفوا ودفنوا بالشام ثم ذكر المواضع المشهورة بدمشق . وجميع المصنفات من هذا الطراز على وجه التقريب ترتفع إلى أصول عربية ولو أن علاقتها بعضها بالبعض غير واضحة لأنها

لاتزال محفوظة فى العادة على هيئة مخطوطات[٣٢] . وهذا الطابع نفسه تحمله أوصاف المدن المقدسة وهى مكة والمدينة والقدس التى تحتل مكانة كبيرة فى الأدب التركى الطبوغرافى والتاريخى لكافة ذلك العهد ؛ وهى ترتبط أحياناً بالعدد المتزايد من الحجيج التركى وقد صيغ وصفها فى أسلوب خاص سنعرض لتحليله فيما سيأتى من هذا الكتاب . وهذه المصنفات تحمل فى معظم الأحايين عنوان « الفضايل » وتوجد فى عدد كبير من المخطوطات التى تهمل أحياناً ذكر اسم المؤلف ، كما وأنه من العسير استجلاء مصادرها دون القيام ببحث خاص فى هذا الميدان . ولإعطاء فكرة عن رواج هذا النمط من الأدب نذكر أن هناك ثلاثة آثار متشابهة من حيث الصيغة ترجع إلى مؤلف واحد هو محمد يحيى أفندى (حوالى عام ١٠٢٠ هـ = ١٦١١) وهى « فضائل مكة مكرمة » و« فضائل مدينة منورة » و« فضائل قدس شريف» ؛ وهذه الآثار الثلاثة موجودة فى عدد كبير من المخطوطات إلا أنها ليست بذات أهمية كبيرة على وجه العموم من الناحيتين التاريخية والجغرافية[٣٣] .

ويلى هذا فى نحو عام ١٠٤٦ هـ = ١٦٣٦ ظهور رسالة مماثلة عن مدينة أدرنة بعنوان « أنيس المسامرين » تتمتع على النقيض من ذلك بأهمية لامثيل لها بالنسبة للجغرافيا المحلية ؛ ومؤلفها وهو عبد الرحمن بن حسين حبرى ، الذى يخلط اسمه أحياناً بأسماء مؤلفين آخرين مثل جورى وخبرى بل وحتى بروورى[٣٤] ، أصله من أدرنه واشتغل فيما بعد بالتدريس بها | وكان يحمل لمسقط رأسه حباً عميقاً . ويقدم لنا مصنفه تاريخ هذه المدينة ، التى كانت ذات يوم عاصمة للدولة العثمانية ، بين عامى ٧٦٠ هـ = ١٣٥٩ و ١٠٤٣ هـ = ١٦٣٣ فى أربعة عشر فصلا يطرق جزء كبير منها موضوعات جغرافية . فالفصل الأول يعالج الكلام على فتح أدرنة بواسطة العثمانيين يليه الفصل الثانى الذى يتحدث عن قلعتها وشوارعها وميادينها ، ثم الفصل الثالث عن مساجدها ومؤسسات البر فيها ، والرابع فى مدرستها وزوايا الدراويش بها ، والخامس فى منازل القوافل وأماكن الضيافة ، بينما يبحث الفصلان السادس والسابع فى الأنهار وفى بساتينها وجسورها وعيونها وآبارها . أما الفصل الثامن فيتحدث عن تحصينات أدرنه وضواحيها والريف المحيط بها ، بينما يتحدث التاسع عن مقابرها . وبهذا فإننا نلتقى إلى جانب الموضوعات التاريخية بدراسة نموذجية لحاضرة كبيرة تشبه إلى حد كبير نمط « الخطط » العربى ؛ هذا وقد أفاد حاجى خليفة من هذه الرسالة وأشاد بها كثيراً .

596

وفى القرن التاسع عشر ظهر مواطن آخر من أهل أدرنه يكمل حبرى ذلك هو بادى أحمد (توفى عام ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨) الذى يقدم لنا وصفاً تاريخياً جغرافياً فيما لمدينته فى ثلاثة أجزاء بعنوان « رياض بلدة أدرنة » لايزال معروفاً من مخطوطاته فقط . ولايزال الغموض يكتنف حقيقة وضع « تاريخ » آخر ينسب لشخص اسمه « جورى چلبى » يتفق مع كتاب « أنيس المسامرين » من حيث مادته التاريخية والجغرافية[٣٥] .

وقد تلى المحاولات الأولى لوضع مصنفات كبرى ذات طابع دينى أسطورى فى الكوزموغرافيا ظهور مصنفات كوزموغرافية صغرى فى عهد السلطان سليمان يغلب على مضمونها الجانب العلمي وتتميز

عن تلك ببعض الرزانة . وإحدى هذه الكوزموغرافيات الصغرى وهى « تحفة الزمان وخريدة الأوان » قام بتأليفها شخص يدعى مصطفى بن على وصلتنا عنه بعض رسائل فى الرياضة والفلك وكان يعمل « موقتاً » بمسجد سليمية باستنبول ، ولا تزال تقابل فى المخطوطات شذور من كتابه « تحفة المجالس » الذى يعالج فيه الكلام على مائة مدينة ومواقعها الجغرافية وذلك من بين المدن المحيطة باستنبول[٣٦] . وأغلب الظن أنه يرتبط بهذا الاتجاه مخطوطة موجودة بڤينا لرسالة بعنوان « إعلام العباد بأعلام البلاد » تقدم قطعة موجزة فى الجغرافيا الرياضية والوصفية ، وهى بدورها تم تأليفها فى عهد السلطان سليمان إلا أن اسم مؤلفها لا يزال مجهولا[٣٧] .

وربما ظفر بعناية أكبر ذلك العرض للجغرافيا الوصفية وفقاً للمذهب القديم الذى نلتقى به فى مقدمة تاريخ « كنه الأخبار » لمؤرخ لايفتقر إلى بعض الشهرة هو على مصطفى بن أحمد چلبى (توفى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٩)[٣٨] . 597 وقد أضاف هذا المؤلف إلى القسم الأول من كتابه « تذنيباً » يعرض فيه سريعاً لوصف الأرض معتمداً أساساً على ثلاثة مؤلفين معروفين لنا جيداً هم أبو الفدا ، وسپاهى زاده التركى الذى قام بعمل مسودة جديدة لجغرافيا أبى الفدا كما سبق أن رأينا ، ثم كتاب « صورة الأرض » الذى يمكن أن نبصر فيه الترجمة الفارسية المصلحة لمصنف الإصطخرى . ومؤلفنا يوافق المؤلفين العرب فى فكرتهم التى تقول بأن الأوضـــاع الجغرافيـــة القديمة التى عرضها لنا المؤلفون السابقون لمّا تزل صحيحة فى أسسها إلى القرن السادس عشر ؛ أما عرضه الجغرافى هذا الذى احتوته المقدمة والذى يعد أشبه بالمدخل لمصنفه التاريخى الكبير فهو عرض موجز للغاية ولايتعدى إيراد ملاحظات ذات طابع عام دون أن يدخل فى تفصيلات ما ، وهو بهذا لم يلعب أدنى دور فى التطور العام للأدب الجغرافى التركى[٣٩] .

إلا أننا فى نهاية هذا القرن السادس عشر نفسه نواجه بأهم مصنف جغرافى باللغة التركية يعرض لنا لأول مرة خلاصة عامة للمذهب العربى القديم وهو « مناظر العوالم » الذى فرغ مؤلفه محمد عاشق من تأليفه بدمشق عام ١٠٠٦ هـ - ١٥٩٨ معتمداً فى ذلك على مواد أدبية وعلى معلومات جديدة جمعها أثناء تجواله بمناطق نائية[٤٠] والكتاب يتوج تاريخ الفترة الشرقية ، إن جاز هذا التعبير ، للأدب الجغرافى التركى ؛ بل إن المؤلف نفسه قد عبر عن أمله فى أن يكون مصنفه فاتحة عهد جديد فى ازدهار هذا الضرب من الأدب لدى الأتراك . وأول من حلل هذا المصنف وبين طابعه الأساسى على ضوء التطور العام للأدب الجغرافى هو المستشرق تيشنر الذى وإن قدر الكتاب حق قدره[٤١] إلا أنه قلل من أهميته حين اعتبره « آخر مسودة شرقية لبطلميوس » ؛ ذلك أن تيشنر فى الواقع لا يرى فى جميع الجغرافيا الوسيطة (Medieval) سوى حلقات متتابعة لتعديلات جديدة لبطلميوس[٤٢] . ومما لاشك فيه أن محمد عاشق كان يحس بارتباطه الوثيق ببطلميوس فهو يعترف بأنه قد وزع القسم الجغرافى من « كوزموغرافيته » بحسب « الأقاليم الحقيقية » لبطلميوس ، ثم وزع مادة هذه الأخيرة بحسب « الأقاليم العرفية » (أى المناطق الجغرافية Geographical Regions) وفقاً لطريقة أبى الفدا[٤٣] . ولعل حاجى خليفة لم يتنكب

الصواب عندما ذكر أنه قد أتم مسودة كتابه ولكنه لم يبيضها ؛ ومخطوطات الكتاب فى الواقع نادرة للغاية ولم تعرف فى أوروبا إلى عهد قريب سوى مخطوطة واحدة موجودة بفينا[٤٤] زد على هذا أن الكتاب لم ينشر منه سوى مقتطفات موجزة . أما المؤلف نفسه فإن معلوماتنا عنه لاتتعدى تلك الإشارات العارضة التى وردت فى مصنفه .

ولد محمد عاشق ابنا لمدرس بطربزون فى نحو عام ٩٦٢ هـ = ١٥٥٥ فيما يبدو[٤٥] ، وغادر مسقط رأسه منذ بلوغه سن العشرين | فبدأ تجواله الطويل الذى دام عدة أعوام وكان هدفه فيما يغلب على الظن أن 598 يجمع المادة من أجل كتابه ؛ وقد تخللت هذا التجوال الطويل زيارات متقطعة إلى مسقط رأسه .

وهو قد أقام فى بعض المواضع فترات طويلة شغل خلالها عادة وظيفة كاتب صغير فى الشئون القضائية ؛ واستغرقت إقامته بالروملى والأناضول فترة أطول وكان هدفه من ذلك كما يفترض تيشنر أن يستكمل معلوماته عنها بالملاحظة المباشرة لأن المصادر المكتوبة عنها كانت قليلة ، خاصة فى اللغة العربية . وبلغ محمد عاشق فى تجواله مدينة دربند وذلك فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ ، وابتداء من عام ١٠٠٥ هـ = ١٥٩٦ استقر بدمشق نهائياً ؛ وليس فى كتابه أدنى ذكر لأدائه فريضة الحج . وقد أتم كتابه خلال عامين فى أثناء وجوده بدمشق ؛ ويبدو أنه قد توفى بعد ذلك بقليل ، هذا إذا ما أخذنا برأى حاجى خليفة من أن الكتاب ظل فى شكل مسودة[٤٦] .

وكتاب « مناظر العوالم » يمثل من حيث تبويبه نموذجاً جيداً لنمط الكوزموغرافيا كما عرفناه لدى القزوينى والدمشقى وحمد الله مستوفى قزوينى ، فالقسم الأول وهو قصير بعض الشىء إذ لا يزيد على العشرين صفحة يبحث فى « العالم العلوى »[٤٧] ويتضمن الكلام على السماء وسكانها والأجسام السماوية وعلى الجحيم . وباستثناء بعض المادة الفلكية فإن مضمون القسم الأول ليس فى واقع الأمر سوى مقدمة للقسم الثانى الذى يبحث فى « العالم السفلى » ، فالأرض وسكانها تشغل أكثر من نصف المصنف أى نحو مائتين وخمسين صفحة . ووفقاً للطريقة المتبعة عادة فى المصنفات الكوزموغرافية فإن المؤلف يقدم لنا وصفاً عاماً للأرض فيتحدث عن البحار والجزر والبحيرات والأنهار ومنابع المياه والجبال وأخيراً عن المدن التى يفرد لها أهمية خاصة . ويلى وصف الأرض الكلام على التاريخ الطبيعى وهو يشغل حيزاً يقرب من ذلك إذ يصل إلى نحو المائتى صفحة . ومعالجته لأقسامه يذكرنا بدوره بالكوزموغرافيات العربية فهو يتحدث عن المعادن فى صورها الصلبة والمائعة والغازية ثم عن الطيب والنباتات والحيوان والإنسان[٤٨] .

وجميع المادة الجغرافية موزعة لديه كما ذكرنا من قبل على الأقاليم السبعة البطلميوسية أو « أقاليم حقيقية » كما يدعوها المؤلف نفسه ، ثم إلى ثمانية وعشرين إقليما « عرفية » وفقاً لتقسيم أبى الفدا[٤٩] ؛ ومحمد عاشق يتبع هذا التقسيم الأخير حرفياً[٥٠] باستثناء حالات قليلة يعالج فيها الكلام على مواضع لم ترد عند أبى الفدا . وفى مقابل هذا فإن مصادره عديدة وتكاد تشمل الأسماء الرئيسية من بين مصنفات الأدب الجغرافى العربى المعروفة لنا ؛ وأكثر ما يقابلنا لديه أسماء ابن خرداذبه وابن الوردى والقزوينى

599 وياقوت وحمد الله مستوفى . غير أن المكانة الأولى عنده يحتلها « تقويم البلدان » لأبى الفدا | فهو لم يستق منه نظام تقسيم البلدان فحسب بل ومعظم مادته الجغرافية التى ضمنها جميع كتابه بحيث يمكن اعتبار مصنف محمد عاشق من هذه الناحية « مسودة موسعة باللغة التركية لأبى الفدا » كما يقول تيشنر (ein erweiterte türkische Ausgabe des Abulfida)[٥١] . ولكنه إلى جانب هذا لايهمل المصادر الأخرى بل يشير إليها بمنتهى الدقة ويضمن المادة المأخوذة عنها داخل الأقسام المختلفة التى أخذ تبويبها عن أبى الفدا كما رأينا ؛ وأما تلك المواضع التى لم يرد ذكرها لدى أبى الفدا فإنه يضيفها إلى داخل كل قسم « كذيل » قائم بذاته ، ومعظمها بالطبع يعالج الكلام عن المواضع الجغرافية الكائنة بالأناضول والروملى .

ويكمل المؤلف المادة النقلية بمعلوماته الشخصية التى تتميز بدورها بالتفصيل والدقة ويصحبها فى العادة ذكر الشخص الذى استقى منه هذه المعلومات ؛ وهى تمس فى الغالب تواريخ مدن معينة والكلام على أبنيتها وسكانها[٥٢] . ومن الملاحظ اختفاء أى أثر للنفوذ الأوروبى على كتاب محمد عاشق ، وكل ما يورده عن أوروبا ضحل للغاية ولايتجاوز فى العادة ما عرفه الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى ؛ وبنفس الطريقة نفتقد لديه أية إشارة إلى الاكتشافات الجغرافية الكبرى والرحلات الأوروبية التى تمت فى العهد القريب منه[٥٣] ، ولا يمكن بالطبع إرجاع هذا إلى محض المصادفة لأن قرائن الأحوال تشير إلى أنه قد فعل ذلك عن قصد ؛ ويقف مثال پيرى ريس دليلا بيناً على توفر المادة والمعلومات عن ذلك بقدر واف فى نطاق الدولة العثمانية وذلك فى فترة تسبق الفترة التى عاش فيها محمد عاشق بعشرات السنين ؛ ولم يكن بوسع مؤلف « مناظر العوالم » بما عهد فيه من سعة الاطلاع وتعدد الميول أن يجهل هذا ، غير أن كتابه على ما يبدو يمثل رد فعل ما ضد الاتجاهات الجديدة الوافدة من الغرب فهو يحاول معارضتها بالتراث القديم الذى جهد فى جمعه فى مؤلف شامل يلم بجميع أطراف الموضوع . ونتيجة لهذا فإنه على الرغم من كل ما يتمتع به هذا الكاتب من مكانة بوصفه آخر ممثل للأدب الجغرافى للعصور الوسطى فى الشرق فى صورته العربية ، وعلى الرغم أيضاً من الأهمية التى تتمتع بها روايته فى بعض الأحيان ، فإن المصنف فى مجموعه أشبه ما يكون بشىء متقادم لايتفق مع واقع الأحوال التى وجد فيها بل يعكس عصوراً تاريخية سابقة (anachronism)[٥٤] ، وبهذا فلم يكن بمقدوره إرضاء مطالب معاصريه ولعل هذا هو السبب فى عدم انتشاره فى الشرق نفسه . والشخص الوحيد الذى عرفه جيداً هو حاجى خليفة ومن المحتمل أنه من آثار تلك المعرفة ودوافعها أن شرع فى وضع مؤلفه « جهانما » ولو أنه لم يكن يرجع إلى محمد عاشق بصورة منتظمة[٥٥] .

لقد وجد النفوذ الأوروبى طريقة إلى الدولة العثمانية فى عهد محمد عاشق دون أن يواجه أية مقاومة

600 تذكر وحمل معه أخبار الاكتشافات الجغرافية الجديدة بحيث لم يكن | من المستطاع تجاهلها أو ضرب صفح عنها . فنى نحو عام ٩٤٧ هـ = ١٥٤٠ ، وعقب وفاة خير الدين بربروسا التى حدثت فى عام ٩٥٣ هـ = ١٥٤٦ ، ظهر كتاب بعنوان « تاريخ الهند الغربى » كان الدافع إليه على ما يظهر الاستجابة للمطالب

المتزايدة من جانب القراء : وبالطبع فهو لايمثل فى واقع الأمر تاريخاً ما بل حكاية مشحونة بتفاصيل خرافية عن كشف الأوروبيين لجزر الهند الغربية مع وصف لعادات وطبائع سكانها(٥٦) ؛ وهو فى الحقيقة ترجمة لمصنف « فرنجى » قصد به تعريف الجمهور فى أوروبا باكتشاف العالم الجديد أمريكا(٥٧) ، وتشير قرائن الأحوال إلى أن الدولة العثمانية استطاعت أن تعرف خبر هذه الواقعة بعد لحظه وجيزة من انتشاره بين جيرانها الأوروبيين وذلك على يد أحد المسيحيين ممن دخلوا حظيرة الإسلام (renegade) : وقد ظل هذا المصنف متمتعاً بالرواج بين جماهير القراء حتى القرن الثامن عشر وكان من أوائل الكتب التى خرجت من مطبعة مؤسس الطباعة بتركيا ابراهيم متفرقة المشهور وذلك فى عام ١١٤٢ هـ = ١٧٢٩ ؛ وتمثل هذه الطبعة فى الآونة الحاضرة شيئاً نادراً وتعد من أشهر آثار الطباعة العربية فى الدولة العثمانية : هذه الطبعة من قطع الثمن (octavo) تضم إحدى وتسعين صفحة من الحجم المزدوج وهى مزودة بأربع خارطات وبجدول يبين النجوم ، هذا إلى جانب عدد من اللوحات المنقوشة (engraved) التى تصور سكان أمريكا وحيوانها ونباتها(٥٨) . وتاريخ تدوين هذا المصنف لم يثبت بصورة قاطعة فأحياناً يرجع إلى عهد السلطان مراد الثالث وذلك فى نحو عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ وينسب تأليفه إلى شخص غير معروف تماماً يسمى محمد بن يوسف الهروى(٥٩) . وقد وقع كارا دى ڤو Carra de Vaux فى خطأ كبير حين نسب تأليف هذا الكتاب إلى حاجى خليفة(٦٠) ، ووجد هذا الخطأ طريقه إلى مؤلفات أخرى حتى أيامنا هذه . ذلك أن المسألة المحيطة بشخص المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب يجب أن تظل مفتوحة ؛ ومخطوطة ليدن لمصنف حاجى خليفة الببلوغرافى الضخم والتى ترجع إلى عام ١٧٢٩ وتختلف أحياناً فى قراءتها مع النسخة المطبوعة(٦١) تضم زيادة كبيرة عند معالجتها الكلام على هذا المصنف(٦٢) ، فتحت عنوان واحد يرد ذكر كتابين أحدهما باللغة العربية لمؤلف يدعى محمد بن يوسف الهروى نقله إلى التركية وزاد عليه شخص غير معروف أيضاً هو أبو المخلف محمود بن يوسف المصرى ويرد فيه الكلام عن رحلات الهنود أولا إلى أمريكا ثم عن رحلات الأسبان . أما الرسالة الثانية والتى ترجع إلى عهد تال لهذا فقد ترجمها أحد الأتراك من اللغة « الفرنجية » وأضاف إليها تعليقاته من « تذكرة » ما . وإزاء هذا الخلط الواضح فإن من العسير أن نخرج بنتيجة ملموسة عن شخص المؤلف ، ليس ذلك فحسب بل ومن العسير أيضاً أن نوضح طبيعة علاقة هذين المصنفين اللذين عرفهما حاجى خليفة بذلك المصنف الذى خرج فى طبعة قشيبة منذ الفترة الأولى لظهور فن الطباعة بالدولة العثمانية . 601

ويمكن أن نعتبر نهاية القرن السادس عشر خاتمة فترة معينة فى تاريخ الأدب الجغرافى التركى عند ما قدم لنا محمد عاشق خلاصة المذهب العربى القديم . وقد رأينا كيف استطاعت الجغرافيا الملاحية فى بداية ذلك القرن أن تشق لنفسها مسالك جديدة وصل علمها إلى أهل الغرب وأدت شيئاً فشيئاً إلى ظهور فروع جديدة فى ميدان الجغرافيا : غير أن هذا بالطبع لايعنى أن المذهب القديم قد اختفى بدوره تماماً

إذ أن اثنين من كبار ممثلى الأدب التركى فى المحيط الجغرافى فى القرن السابع عشر قد مزجا بين الاتجاهين القديم والجديد بصورة واضحة وأعنى بهما العالم الكبير ومؤرخ الأدب والجغرافيا حاجى خليفة ، ثم الرحالة الشهير أوليا چلبى .

ولقد تردد اسم الأول منهما مراراً عديدة على جميع صفحات كتابنا هذا بالتقريب وذلك لأهمية سفره البيبليوغرافى الضخم الذى طبقت شهرته الآفاق والذى لا يستطيع الاستغناء عنه من يريد الغوص فى الأدب العربى بل وفى الأدبين الفارسى والتركى إلى حد ما . ونرى لزاماً علينا أن نوليه عناية مزدوجة فهو لم يكن جغرافياً تركياً فحسب بل وكان كاتباً باللغة العربية دوّن بعض مصنفاته الجغرافية بهذه اللغة الأخيرة . ونحن عندما نصفه بأنه جغرافى تركى كبير ينبغى ألا نغالى من هذه الناحية فهو أبعد من أن يكون بحاثة أصيلا كبعض من ورد ذكرهم خلال صفحات هذا الكتاب ، إذ يحول دون ذلك انغماسه التام فى الثقافة الأدبية المدونة بحيث لاتجد الخبرة العملية أو التجربة الشخصية سبيلها إلى مصنفاته . ولكنه يعوض هذا باطلاع واسع المدى فقد تشرب الثقافة الإسلامية فى جميع فروعها الثلاثة وهى الأدب العربى والفارسى والتركى . وقد أحس حاجى خليفة بعاطفة جياشة نحو العلم فأولاه مخلصاً كل جهده ونشاطه ؛ وقد منعته أمانته من أن يغمض عينيه عن التأثيرات والحقائق التى قدمت من الغرب فجهد دائماً فى أن يفيد منها ولم يخش فى ذلك الاتهام بالبدعة أو الإدانة بالزيغ . وعلى الرغم من اعتماده الأساسى على الثقافة الشرقية فهو لم يرفض المصادر الغربية أو يطرحها ظهرياً بل كان على أتم استعداد ليتفهم ما وقع إليه منها عرضاً عن طريق الآخرين وذلك وفقاً لمنهجه الخاص ولمفهومه الثقافى . وهو وإن انتسب إلى عصر يعد بحق عصر تدهور إن لم يكن عصر سقوط تام بالنسبة للثقافة العربية إلا أنه ينهض دليلا واضحاً على أن تلك الثقافة لم تمت فى ذلك العصر بل على العكس من ذلك تطلبت من ممثليها بذل مجهود مضاعف لا مكان فيه للكلال والملل ولو لطرفة من الزمان ؛ ولاتخلو سيرة حياة حاجى خليفة من عبرة فى هذا الصدد لأنه لم يستطع أن يقتطع للعلم خالصاً وفقاً لمفهومه سوى فترات قصيرة من حياته . ومعرفتنا بسيرة حياته تعتمد على مصادر جديرة بالثقة ، فهى من ناحية مستقاة من ترجمة حياته التى كتبها بقلمه (autobiography) وألحقها بأحد مصنفاته | الذى يحمل عنوان « ميزان الحق فى اختيار الأحق[٦٣] » وتسوق تاريخ حياته إلى العام السابق لوفاته ؛ ومن ناحية أخرى على مواد جمعها الناشر لأحد كتبه فى عام ١١٤٦هـ = ١٧٣٣-٣٠ (« تقويم التواريخ »)[٦٤] .

602

ولد حاجى خليفة بالقسطنطينية عام ١٠١٧هـ ١٦٠٩ فى أسرة موظف صغير يعمل بديوان العسكرية ؛ واسمه فى الأصل هو مصطفى بن عبد الله لكن غلب عليه على الدوام لقبا كاتب چلبى وحاجى خليفة . وبعد أن حصل على التعليم الأولى المعهود آنذاك سلك خطو أبيه فالتحق منذ عام ١٠٣٢ هـ = ١٦٢٣ بالديوان ليتدرب على الأعمال الكتابية ولم يلبث أن شغل وظيفة كتابية متواضعة هى وظيفة « محاسب » بوحدات الجيش بالأناضول وبهذا أخذ طرفاً فى الحملة العسكرية على بلاد الفرس التى لم توفق فى حصارها لبغداد فى عام ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٦ ، وحضر حصار أرضروم عام ١٠٣٦ هـ - ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ - ١٦٢٨

عند قتال آبازه باشا للانكشارية[٦٥] ؛ وبعد أعوام من هذا رجع إلى القسطنطينية ليشغل وظيفة رئيس للكتبة ولذلك لقب بكاتب چلبي ؛ هذا وقد أيقظت فى نفسه دروس شيخ العلماء قاضى زاده الشوق نحو العلم ووجد فى هذا تشجيعاً من أبيه فاتجه فى بادئ الأمر إلى دراسة العربية ، غير أن اندلاع نيران الحرب مع الفرس اضطره إلى إيقاف تلك الدراسة فى عام ١٠٣٩ = ١٦٢٩ فتبع القوات العثمانية إلى همدان وبغداد ولم يرجع إلى موطنه إلا فى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٠ حيث شغل نفسه بدراسة التفسير وتعمق فى فهم البيضاوى والغزالى على قاضى زاده المذكور ؛ وفى عام ١٠٤٣ هـ = ١٦٣٣ – ١٦٣٤ ذهب إلى سوريا مع جيش الصدر الأعظم محمد باشا واشترك فى الحملة الكبرى على بلاد الفرس لعام ١٠٤٣ هـ – ١٠٤٥ = ١٦٣٣ = ١٦٣٥ التى قادها السلطان مراد الرابع بنفسه : وعندما عسكر الجيش بحلب لتمضية فصل الشتاء اغتنم حاجى خليفة هذه الفرصة فأدى فريضة الحج ثم اشترك فى حصار اريڤان (روان) Erivan عام عام ١٠٤٤ هـ = ١٦٣٥[٦٦] . وكان شوقه وتشوفه إلى العلم قد قوى لديه عقب إقامته بحلب التى كانت لا تزال محتفظة بمكانتها الثقافية آنذاك ، وقد دفعه هذا إلى المطالبة باحالته إلى الاستيداع ورجع إلى القسطنطينية حيث انصرف انصرافاً تاماً لمدة عشرة أعوام إلى دراسة التفسير والحديث والمنطق واللغة ، ثم تحول بعد ذلك إلى دراسة الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب : وقد عاونه على أن يتفرغ إلى الدراسة ثروة ورثها عن بعض قرابته ؛ وهو يفصل لنا فى ترجمته لسيرة حياته كيف كان يصرف مبالغ طائلة لاقتناء الكتب[٦٧] ؛ ثم لم يلبث أن اتسعت شهرته وبدأ يخطو شيئاً فشيئاً فى مجال التدريس . وقد هرع إلى مديد العون إليه قائد الجيش العثمانى الذى كان يعرفه شخصياً وهو محمد باشا فعينه فى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ نائباً ثانياً بالإدارة المالية الرئيسية لديوان الجيش (« باش محاسبه ده ايكنجى خليفه») | وبهذا ثبت عليه 603 بالتالى لقب حاجى خليفة* ؛ وكانت هذه الوظيفة اسمية فقط فقد كلف بالحضور إلى الخدمة مرتين فى الأسبوع . غير أن خبرته فى الشئون المالية لم تكن بأقل شهرة من سمعته العلمية فدعى فى عام ١٠٦٣ هـ = ١٦٥٣ إلى الاشتراك فى لجنة خاصة برئاسة السلطان محمد الرابع لبحث الوسائل الناجعة لإجراء التحسينات على ميزانية الدولة . وقد وضع حاجى خليفة بهذه المناسبة مذكرة رفعت بعد أعوام إلى المفتى الأكبر[٦٨] ، وترجمها إلى الألمانية فى القرن التاسع عشر برناور Bernauer بوصفها مصدراً هاماً للمسائل التى تتناول الكلام عليها[٦٩] ؛ ثم نشرها فى عام ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٣ الكاتب التركى أحمد وفيق (توفى عام ١٣٠٨ هـ = ١٨٩١) الذى عرف عنه بوجه عام الاهتمام بمثل هذه المسائل[٧٠] .

وظل حاجى خليفة مدة أربعة أعوام بعد هذا يعمل فى البحث والتدريس إلى أن وافاه الأجل بمسقط

* « لقبوه بذلك بعد أن حج وترقى بين الكتاب إلى رتبة النيابة عن رئيس القسم على مصطلح العثمانيين ، وذلك أن صغار الكتاب يسمون فى مصطلحهم الملازمين وفوقهم الخلفاء وفوقهم الرئيس الأعلى للكتاب . ومؤلف الكشف معروف بين المستشرقين باسم « حاجى قالفه » على طبق ما يلهج به العوام فى عاصمة الخلافة » [عن مقال الشيخ محمد زاهد الكوثرى] (المترجم) .

رأسه فى سبتمبر من عام ١٦١٧ هـ = ١٦٥٧[٧١] نتيجة لتوعك طارئ ألم به ؛ وقد يرجع البعض تاريخ وفاته إلى عام ١٠٦٨ هـ =١٦٥٨[٧٢] وهو أقل دقة من سابقة ؛ ولم يكن حاجى خليفة قد جاوز الخمسين من عمره حين وافته منيته[٧٣] * .

ومن الواضح أن بابنجر Babinger لم يتنكب الصواب حين عد حاجى خليفة « أكبر مؤرخ أدبى (Polyhistor) بين العثمانيين ، انتظمت معرفته جميع فروع العلوم المعروفة آنذاك[٧٤] . غير أننا إذا قارنا تراث حاجى خليفة الأدبى بآثار كاتب من نفس الطراز كالسيوطى مثلا لظهر الاختلاف الجوهرى بين الاثنين بصورة جلية سواء من حيث الأهداف أو الكم . وينعكس تملكه لناصية جميع العلوم المعروفة لعصره قبل كل شىء فى مصنفه الضخم «كشف الظنون» ، وهو أشبه ما يكون بدائرة معارف وسجل عام فى تواريخ المصنفات المختلفة ؛ غير أن حاجى خليفة على نقيض السيوطى لم ير البتة ما يستوجب وضع مؤلف خاص فى كل فرع من فروع العلم المعروفة له . أما من حيث الكم فإن إنتاجه العلمى أقل بكثير من إنتاج السيوطى ولو أن ميوله الشخصية تنعكس فيه بصورة أكثر جلاء . وكما رأينا فإن لديه فى الواقع مصنفات تعالج المسائل المالية والاقتصادية ؛ وهو قد عالج التأليف أيضاً فى الموضوعات الأدبية والفقهية كما هو الشأن عادة مع المؤلفين الإسلامية ، بيد أن الغالبية العظمى من تآليفه إنما تعنى قبل كل شىء بالتاريخ بل وبالجغرافيا أيضاً بنفس القدر . فحاجى خليفة قد أحس بميل خاص نحو هذين الفرعين من الأدب ، ولا غرابة فى ذلك فإن أثرهما فى مجال الأدب كان أكثر دواماً واستمراراً بل إنهما مازالا محتفظين بقيمتهما العلمية إلى أيامنا هذه | . والتباين الكبير بين عدد مصنفات حاجى خليفة الذى يتراوح بين العشرين والثلاثين وبين مصنفات السيوطى التى تقارب الخمسمائة يمكن رده إلى حدما إلى أن فترة النشاط التأليفى الفعال لحاجى خليفة لم تكن طويلة . فهو قد انتهى من تدوين أول مؤلف له ، وهو مصنف ذو طابع تاريخى كتبه باللغة العربية ، فى عام ١٠٥١ هـ ١٦٤١[٧٥] ، أما مؤلفه الأخير والذى يمس أحياناً سيرة حياته فقد انتهى منه قبل عام من وفاته وذلك فى نوفمبر من عام ١٠٦٧ هـ ١٦٥٦[٧٦] . من هذا يتبين لنا أن حاجى خليفة قد استطاع أن يدون عدداً من المؤلفات الكبرى التى قفزت إلى أجزاء عديدة فى فترة لا تتجاوز الخمسة عشر عاماً ؛ ولعله يمكن تفسير هذا بأن المؤلف قد بدأ فى جمع مادته بلا شك قبل ذلك بعهد طويل أى منذ سنى شبابه الأولى ثم ظل يزيد فيها على مر الأيام غائصاً فى مختلف فروع العلم زد على هذا أنه قد اضطر مرات عديدة إلى عمل مسودات جديدة لتحل محل القديمة .

أما بالنسبة لنا فتشغل المكانة الأولى بالطبع مؤلفاته المخصصة للجغرافيا أو المتصلة بها اتصالا مباشراً ،

60،

---

* احتفل بتركيا فى عام ١٩٥٧ بمرور ثلاثمائة عام على وفاته ، وظهر بهذه المناسبة كتيب يضم مجموعة من المقالات من حياته ومصنفاته وذلك بعنوان Katip Celebi, Hayati ve Eserleri hakkinda Incelemeler, Tilk Tarih Kurumu Yayinlarindan, VII Seri, No 33 — Ankara, 1957. (المترجم)

وعددها أربعة هي : معجمه البيليوغرافي الضخم الذي وضعه باللغة العربية والذي يحيط بجميع فروع العلم والأدب ؛ ثم سفره الأساسي في الجغرافيا العامة باللغة التركية ؛ وأخيراً مصنفان باللغة التركية يحملان طابعاً أكثر تخصصاً أحدهما صياغة معدلة لأطلس أوروبي للعصر القريب منه والآخر مصنف تاريخي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا الملاحية . وقد اكتسب شهرة واسعة النطاق معجمه البيليوغرافي الكبير أو Lexicon Bibliographicum وهو العنوان اللاتيني الذي أعطاه إياه ناشره الأوروبي : وأهمية هذا السفر كبيرة بالنسبة لجميع فروع العلوم ومن ثم فإننا لن نبحث صلته بالجغرافيا وحدها بل سنمس أيضاً بعض المسائل المتصلة بأهدافه العامة وبالمادة التي يحتويها بين دفتيه :

ويتبين لنا من ترجمة المؤلف لسيرة حياته أنه قد بدأ بجمع المادة لمصنفه هذا منذ عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ أي عقب رجوعه من الحملة العسكرية التي أمضى وقتاً منها بمدينة حلب حيث أدهشه غنى دكاكين الوراقين والكتبيين بالكتب فبدأ في فحص محتوياتها وتدوين عناوين المخطوطات ومضمونها[٧٧] ؛ ولا غرو فقد كانت حلب من أكبر المراكز الثقافية بالبلاد العربية منذ عهد الحمدانيين في القرن العاشر وظلت محتفظة بهذه المكانة إلى عهد حاجي خليفة . وإذا كان العثمانيون كما رأينا قد سابوا القاهرة كنوزها المخطوطية وأن عدداً ضخماً من هذه الكتب قد وجد طريقه إلى القسطنطينية فإن مصير سوريا كان أفضل من ذلك بكثير . وعلى النقيض من دمشق فإن حلب قد امتازت بخاصية أخرى ، هي أنها لم تقف عند حد كونها مركزاً للثقافة العربية القديمة بل | فتحت أبوابها أيضاً للتأثيرات الجديدة حتى أصبحت في بعض الأحيان 605 مهداً لحركات أدبية مجددة . ولنذكر في هذا الصدد أنه قبل أعوام من زيارة حاجي خليفة لها عاش بهذه المدينة لفترة طويلة المستشرقان بوكوك Pococke وغوليوس Golius مؤسسا الاستعراب في أوروبا . ويتبين من مجموعة مخطوطات الأخير الموجودة بليدن أن القسم الأهم منها قد جمعه بحلب ؛ كما نذكر أيضاً أنه بعد عشرين عاماً من حاجي خليفة خرج من مدينة حلب في طريقه إلى بلاد « المصكوف» النائية البطريرك مكاريوس الأنطاكي الذي وإن انتمى إلى وسط مغاير تماماً إلا أنه جهد بقدر استطاعته في أن يوقظ الميل نحو الثقافة بين مواطنيه من العرب النصارى ؛ وبعد قرن من هذا عاش بحلب جرمان فرحات الذي يعد من القوى المحركة التي أدت إلى انبعاث النهضة الأدبية العربية في القرن التاسع عشر . وظلت حلب محتفظة بأهميتها كمركز ثقافي حتى القرن التاسع عشر ، ومن الملاحظ أن أفضل مخطوطات مجموعة روسو Rousseau التي تزين معهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم السوفيتية قد جاءت من حلب ، بل إن حلب كان ينظر إليها في استنبول على عهد هامر Hammer على أنها أنسب مركز للتمكن في دراسة اللغة العربية والأدب العربي ، ويصدق هذا على الفارسية أيضاً[٧٨] :

فليس غريباً إذن أن يدهش غناها بالمخطوطات في القرن السابع عشر شخصاً كحاجي خليفة ، بل وليس بعيداً أن تكون الجالية الأوروبية المقيمة بها هي التي أطلعته على المؤلفات الأوروبية في ميدان

الجغرافيا ، تلك المؤلفات التى لعبت بالتالى دوراً كبيراً فى نشاطه العلمى : وليست المادة العلمية التى أمدته بها استنبول بأقل أهمية من تلك التى حبته بها حلب ؛ فقد أصبحت استنبول منذ بداية القرن السادس عشر كما رأينا سوقاً حافلا للمؤلفات العربية . ويتضاءل بصورة واضحة إلى جانب هذين المركزين الكبيرين دور المراكز الأخرى خاصة وأن إقامته بها كانت على أغلب الظن قصيرة الأمد ولو أنه يتبين من دلائل متفرقة أن حاجى خليفة قد جهد دائماً فى الاتصال بالعلماء المحليين فى كل موضع زاره كما جهد فى ذات الوقت فى الاطلاع على جميع مجموعات المخطوطات التى مر عليها محاولا على الدوام أن يستكمل مادته إلى آخر أيام حياته .

وقد سار العمل فى تأليف هذا الكتاب ببطء شديد فأكمل الجزء الأول بعد خمسة عشر عاماً ، أى فى سنة ١٠٦٤ هـ — ١٦٥٣[٧٩] . ويبدو أن الكتاب لم يأخذ صيغته النهائية إلى لحظة وفاة المؤلف شأنه فى هذا شأن جميع المؤلفات التى من هذا القبيل ؛ كما وأنه يقابلنا فيه من لحظة لأخرى بياض بالأصل .

والكتاب لا يمثل فى طابعه مرجعاً ببليوغرافيا مكرساً لوصف الكتب فحسب بل إنه يقدم لنا بنفس الدرجة عرضاً جامعاً للعلوم . لا على طريقة موسوعات عهد المماليك الكبيرة بل على أسلوب المراجع الموجزة فى العلوم التى يشغل مصنفه بينها مركزاً هاماً ويتم سلسلة موغلة فى القدم ولو أنه أبعد من أن يمثل آخر حلقاتها . | ومقدمة هذا الكتاب تعطينا فكرة جيدة عن أهدافه وقيمته الخاصة بل وعن المصادر التى اعتمد عليها ؛ وهو بعد أن يورد الألفاظ المعهودة فى بدء الكلام لدى علماء المسلمين كحمد الله وشكره والصلاة على نبيه الخ يلج موضوعه مباشرة فيقول : ٥٥

« أما بعد لما كان كشف دقائق العلوم وتبيين حقائقها من أجل المواهب وأعز المطالب قيّض الله سبحانه فى كل عصر علماء قاموا بأعباء ذلك الأمر العظيم وكشفوا عن ساق الجد والاهتمام بالتعليم والتفهيم سيما الأئمة الأعلام من علماء الإسلام الذين قال فيهم النبى عليه الصلوة والسلام علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل فإنهم سباق غايات وأساطين روايات ودراسات فمنهم من استنبط المسائل من الدلائل فأصّل وفرّع ومنهم من جمع وصنف فأبدع ومنهم من هذّب وحرّر فأجاد وحقّق المباحث فوق ما يراد رحم الله أسلافهم وأيد أخلافهم غير أن أسماء تدويناتهم لم تدوّن بعد على فصل وباب ولم يرد فيه خبر كتاب . ..

ولاشك أن تكحيل العين بغبار أخبار آثارهم على وجه الاستقصاء لعمرى أنه أجدى من تفاريق العصاء إذ العلوم والكتب كثيرة والأعمار عزيزة قصيرة والوقوف على تفاصيلها متعسر بل متعذر وإنما المطلوب ضبط معاقدها والشعور على مقاصدها وقد ألهمنى الله تعالى جمع أشتاتها وفتح علىّ أبواب أسبابها فكتبت جميع ما رأيته فى خلال تتبع المؤلفات وتصفح كتب التواريخ والطبقات ولما تم تسويده فى عنفوان الشباب بتيسير الفياض الوهاب أسقطته عن حيز الاعتداد وأسبلتُ عليه رداء الأبعاد غير أنى كلما وجدت شيئاً ألحقته إلى أن جاء أجله المقدر فى تبييضه وكان أمر الله قدراً مقدوراً فشرعت بسبب من الأسباب وكان ذلك فى الكتاب سطوراً ورتبته على الحروف المعجمة كالمغرب والأساس حذراً من التكرار والالتباس .

وراعيت فى حروف الأسماء إلى الثالث والرابع ترتيباً فكل ما له اسم ذكرته فى محله مع مصنفه وتاريخه ومتعلقاته ووصفه تفصيلا وتبويباً وربما أشرت إلى ماروى عن الفحول من الرد والقبول وأوردت أيضاً أسماء الشروح والحواشى لدفع الشبهة ورفع الغواشى مع التصريح بأنه شرح كتاب فلانى وأنه سبق أو سيأتى فى فصله بناء على أن المتن أصل والفرع أولى أن يذكر عقيب أصله وما لا اسم له ذكرته باعتبار الإضافة إلى الفن أو مصنفه فى باب التاء والدال والراء والكاف برعاية الترتيب فى حروف المضاف إليه كتاريخ 607 ابن أثير وتفسير ابن جرير وديوان المتنبى ورسالة ابن زيدون وكتاب سيبويه وأوردت القصائد فى القاف وشروح الأسماء الحسنى فى الشين وما ذكرته من كتب الفروع قيدته بمذهب مصنفه على اليقين وما ليس بعربى قيدته بأنه تركى أوفارسى أو مترجم ليزول به الإبهام وأشرت إلى ما رأيته من الكتب بذكر شيء من أوله للإعلام وهو أعون على تعيين المجهولات ودفع الشبهة وقد كنت عينت بذلك كثيراً من الكتب المشتبهة أما أسماء العلوم فذكرتها باعتبار المضاف إليه فعلم الفقه مثلا فى الفاء وما يليه كما نبهت عليه مع سرد أسماء كتبه على الترتيب المعلوم وتلخيص ما فى كتب موضوعات العلوم كمفتاح السعادة ورسالة المولى لطفى الشهيد والفوائد الخاقانية وكتاب شيخ الإسلام الحفيد وربما ألحقت عليها علوماً وفوائد من أمثال تلك الكتب بالعزو إليها وأوردت مباحث الفضلاء وتحريراتهم بذكر ما لها وما عليها وسميته بعد أن أتممته بعون الله وتوفيقه كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . وأهديته إلى معشر أكابر العلماء وزمرة الفحول والفضلاء وما قصدت بذلك سوى نفع الخلف وإبقاء ذكر أثر السلف وقد ورد فى الأثر عن سيد البشر من ورخ مؤمناً فكأنما أحياه والله الميسر لكل عسير نعم المبشر ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وهو على مقدمة وأبواب وخاتمة »[٨٠] .

وتمضى المقدمة بعد هذا مكونة فى حد ذاتها رسالة مستقلة تتحدث عن ماهية العلم وقيمته وتقسيم العلوم ومراتب العلم وشرفه وما يلحق به وما يجب أن يتصف به المؤلفون ، وعن الشروط اللازمة لنجاح البحث العلمى والالتزامات التى يتطلبها . وهى تنقسم إلى خمسة أبواب وينقسم كل باب بدوره إلى عدد من الفصول تحمل عناوين مرهقة على الطراز القديم واستطرادات شتى . وليس ثمة ما يكشف عن أصالة فى هذا القسم من كتاب حاجى خليفة لأن المؤلف يعتمد فيه اعتماداً كبيراً على المراجع السابقة له فى هذا المضمار . وتتبع هذه المصادر لا يمثل شيئاً عسيراً خاصة وأنها جميعاً ترجع إلى العصر السابق لعصر المؤلف مباشرة وتنتمى إلى فئة المراجع فى العلوم التى أشرنا إليها من قبل . ويحتل المكانة الأولى من بينها لدى 608 حاجى خليفة كتاب « مفتاح السعادة » لطا شكبرى زاده الشهير وهو مؤلف عاش قبل ذلك بقرن من الزمان (توفى فى عام ٩٦٨ هـ = ١٥٦١) وضرب بسهم وافر فى جميع فروع العلم (Polyhistor) ؛ والكتاب موجود الآن فى متناول أيدى القراء فقد طبع أصله العربى وترجمته التركية بل وترجمة جزئية إلى اللغة الألمانية بقلم ريشر Rescher . وقد وضح من فحص هذا المصنف إلى أى مدى اعتمد

عليه حاجي خليفة اعتماداً جوهرياً لا من حيث المادة فحسب بل ومن حيث تصنيفه للعلوم وتبويبه العام[٨١]؛ بل إن عرضه فى بعض الأحايين لا يمثل سوى إعادة لصياغة الأقسام المقابلة من مصنف طاشكبرى زاده. أما المؤلفون الثلاثة الأخر الذين يشير إليهم فى مقدمة كتابه فأولهم المولى لطفى الشهيد أو بصورة أدق لطف الله الطوقاتى (توفى فى عام ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤)[٨٢]، وهو يسبق طاشكبرى زاده بخمسين عاماً. وينقسم مؤلفه فى العلوم إلى قسمين كبيرين أحدهما فى «علوم العربية» والآخر فى «علوم الشريعة»، وهو يعالج فى القسم الأول الكلام على واحد وثلاثين علما وفى الثانى على أربع وأربعين علماً. وقريب من عهده عاش «شيخ الإسلام الحفيد» أحمد بن يحيى التفتازانى (توفى فى عام ٩١٦ هـ - ١٥١٠)[٨٣] وهو أيضاً يعالج العلوم على مجموعتين الشرعية والفلسفية. أما أقرب الثلاثة إليه من الناحية الزمنية فهو مؤلف «الفوائد الخاقانية» محمد أمين الشروانى الذى أتم كتابه عام ١٠٢٩ هـ = ١٦١٤[٨٤] وأقام تصنيفه على رقم مصطنع هو رقم ثلاثة وخمسين، وهو مجموع حروف اسم أحمد، والمؤلف يصف العلوم على التتابع مبتدئاً بالعلوم الشرعية ثم اللغوية فالفلسفية.

ومما لاشك فيه أن حاجي خليفة قد رجع إلى أصحاب الموسوعات الأولى فى تصنيف العلوم كالأكفانى مثلا (توفى فى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤٨)[٨٥] ولكنه لم يعبأ بالإشارة إلى أسمائهم، غير أنه اتبع منوال طاشكبرى زاده فى تصنيفه الواسع للعلوم حتى وصل بعددها إلى أكثر من الثمانائة، ومرد هذا كما سنرى إلى ذكره أحياناً لعلم واحد تحت عناوين مختلفة وإيراده أحياناً لأقسام مختلفة لعلم واحد على أنها علوم مستقلة. وعلى الرغم من تقسميه للعلوم على خمس مجموعات داخل رسالته العامة فإنه لم يقتصر فى الكلام عليها فى هذا القسم من كتابه وفقاً للخطة التى عرض لها فى المقدمة بل عاود الكلام عليها من جديد داخل القسم الأساسى من مصنفه مفرداً لكل منها فقرات ليست بالطويلة فى ثنايا ملاحظاته الجمة عن أسماء الكتب. وهو فى هذا المجال يعيد بوجه عام ما قاله فى المقدمة ولكنه يضيف فى العادة إلى هذا تقسيم العلم إلى فروعه المختلفة مع ذكر أهم المؤلفات فى كل ميدان. هذه الفقرات التى أفردها للكلام على العلوم المختلفة تتفاوت من حيث الحجم والأهمية تبعاً لمكانة كل علم بالنسبة للعصر الذى عاش فيه حاجي خليفة نفسه، | ونتيجة لهذا فإن بعض تلك الفقرات قد تتحول إلى رسائل قصيرة قائمة بذاتها بينما لا يوجد تحت العنوان فى بعض الحالات سوى مكان شاغر بالأصل. ومهما كان موقف البحاثة من أصالة هذه الرسالة الفذة فى تصنيف العلوم وما يجب أن يتصف به العلماء فإنه مما لاشك فيه أنها تستحق اهتماماً جدياً من وجهة النظر التاريخية الأدبية لأنها تقدم لنا خلاصة للخبرة النظرية والعملية التى تجمعت لدى المسلمين فى هذا المجال على مدى الفترة التاريخية الطويلة التى تمتد من القرن التاسع إلى القرن السابع عشر. 609

وقد كان هامر Hammer موفقاً فى محاولته التى ترجع إلى ما يقرب من قرن ونصف القرن عندما وضع فى عام ١٨٠٤ «موسوعة فى العلوم الشرقية» Encyclopädische Ubersicht der

في أكثر من سبعمائة صفحة معتمداً في ذلك اعتماداً أساسياً على سفر Wissenschaften des Orients حاجي خليفة . وهو يقدم لنا ترجمة مشطرة للرسالة التي تحويها مقدمة حاجي خليفة[٨٦] ضاماً إليها الأقسام المختلفة في وصف العلوم التي يحتويها صلب الكتاب[٨٧] ، ويردف على هذا بضم خاتمة المصنف[٨٨] التي سنقف عندها فيما سيمر من هذا الفصل . وكما هو الحال دائماً مع دراسات هذا المستشرق الكبير فإنه لما يؤسف له حقاً أن تنفيذ هذا المشروع الذي يعد في الحقيقة أول مجهود علمي له والذي بدأه منذ عام ١٧٩٤[٨٩] لم يرتفع إلى مستوى الغرض الذي أراده ؛ وستكون مهمة مشكورة لو فكر أحد الباحثين في أن يعيد الكرة على أسس جديدة تضع في حسابها من جهة تطور العلم منذ أيام هامر ومن جهة أخرى المسائل المتعلقة بإخراج متن علمي موثوق به لهذا الأثر الكبير . ومنذ عهد ليس بالبعيد (١٩١٩) قدم ڤيدمان Wiedemann عرضاً دقيقاً للغاية ولكن يغلب عليه الإيجاز لتصنيف حاجي خليفة للعلوم الطبيعية والرياضية وضم إلى ذلك مادة طاشكبرى زاده وغيره من المؤلفين في هذا الميدان : غير أن ڤيدمان حصر نفسه في سرد الأسماء وترجمة بعض التعريفات[٩٠] ولو أنه يجب الاعتراف بأن مجهوده يمثل خطوة مفيدة في سبيل تفهم الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا التصنيف العام :

وموقف حاجي خليفة من الجغرافيا داخل تصنيفه هذا معروف لنا بعض الشيء فيما مر بنا من هذا الكتاب ، ففي الفصل الذي أفردناه للكلام على الجغرافيا الرياضية أوردنا القسم الذي يعالج فيه هذا الموضوع من صلب مصنفه[٩١] ومنه يتبين لنا أن حاجي خليفة يعد الجغرافيا قبل كل شيء علماً « بطلميوسياً » ، فضلا عن أنه يبدى اهتماماً خاصاً بالجغرافيا الفلكية بل ويعتبر جميع تطور الجغرافيا عند العرب بمثابة امتداد لمذهب بطلميوس : وهو يفرد داخل علم الفلك مكاناً خاصاً «لعلم الزيجات والتقاويم[٩٢]» ويثبّت بهذا استعمال هذين اللفظين اللذين مر بنا كثيراً ؛ كما يوجد لديه داخل قسم « الهندسة » قسم خاص « للملاحة »[٩٣] يقرب كثيراً من الجغرافيا الملاحية ، وفيه يعرف الملاحة تعريفاً خاصاً ربما يرجع في الأصل إلى محرر كتابه عربه جي باشي . ونصه كالآتي : 610

« هو علم باحث عن كيفية صنعة السفن وكيفية ترتيب آلاتها وكيفية إجرائها في البحر ويتوقف على معرفة سموت البحار والبلدان والأقاليم ومعرفة ساعات الأيام والليالي ومعرفة مهاب الرياح وعواصفها ورخائها وممطرها وغير ممطرها ومن مباديه علم الميقات وعلم الهندسة »[٩٤] .

ومن هذا المثال يتضح لنا أن حاجي خليفة قد عدل كثيراً من موقفه النظري إزاء الجغرافيا ، ولعل السبب في ذلك هو اتساع أفق معرفته بالتالي عندما تعرف على الجوانب العملية في محيط الأدب الجغرافي باللغة العربية . فهو لم يعد يقتصر على الكلام على الجغرافيا « الرياضية » وحدها بل ويتكلم عن الجغرافيا « التاريخية » أيضاً[٩٥] ؛ وأهم من ذلك بكثير هو اعترافه بالأهمية المستقلة لعدد من كبير من الأقسام والفروع التي اكتسبت في الوسط العربي وجوداً مستقلا نتيجة لاحتياجات عملية معينة مما سبق أن عالجنا

الكلام عليه فى حينه . فمثلا نراه يفرد أقساماً خاصة لموضوعات شتى مثل « علم مسالك البلدان »[٩٦] و « علم خواص الأقاليم والبلدان »[٩٧] و « علم خواص البر والبحر[٩٨] » و « علم البرد ومسافاتها »[٩٩] مع أن ذلك يدخل تحت موضوع الفلك ؛ وفى هذا الصدد نبصر أحياناً فى تعريفاتها ضرباً من الصراع بين الآراء النظرية ونتائج التجربة العملية . ويصلح نموذجاً لهذا تعريفه للقسم الأخير ، أى الخاص بالبريد والمسافات، ففيه يقول :

« وهو علم يتعرّف منه كمية مسالك الأمصار فراسخ وأميالا وأنها مسافة شهرية أو أقل أو أكثر ذكره أبو الخير من فروع علم الهيئة وذلك أولى بأن يسمى علم مسالك الممالك مع أنه من مباحث جغرافيا »[١٠٠] .

611 وليس من العسير أن نبصر من هذا المثال كيف أن الأقسام النظرية من كتاب حاجى خليفة لاتقدم أية مادة جديدة فى إيضاح تاريخ تطور الأنماط الجغرافية لدى العرب ؛ ومن الجائز ألا يكون هو نفسه قد قصد إلى ذلك بل اكتفى كما هو الحال مع بقية الأقسام الأخرى بعرض أمين للآراء المشهورة أو المتعارفة فى عصره .

وعلى الرغم مما تتمتع به مقدمة الكتاب من أهمية بالنسبة للتاريخ الثقافى عامة ، وعلى الرغم أيضاً من قيمة آرائه النظرية فيما يتعلق بالعلوم المختلفة التى عبر عنها فى تلك المقدمة ، فإن الحيوية الكبرى التى يتميز بها مصنفه والتى يحتفظ بها إلى أيامنا هذه لايرجع الفضل فيها إلى تلك المقدمة العامة فى العلوم بل إلى القسم البيبليوغرافى الذى يمثل صلب الكتاب . ففيه يقدم لنا حاجى خليفة وفقاً للمنهج الذى عرضه فى المقدمة واحداً وخمسمائة وأربعة عشر ألف عنوان للمصنفات والعلوم سائراً فى هذا على النظام الأبجدى . وهو عدد لايستهان به بالنسبة لذلك العصر خاصة إذا ما وضعنا فى حسابنا أن عدد الكتب والرسائل التى يسجلها يتجاوز هذا بكثير فهو يسوق تحت رقم ما أسماء عدد من الشروح والتعليقات بصدد مصنف ما ، كما أنه حين يتكلم عن أحد العلوم تظهر لديه مجموعة من أسماء المراجع الأساسية فى ذلك العلم . وتفوز بنصيب الأسد بطبيعة الحال المصنفات المدونة باللغة العربية ، غير أن أهمية المصنفات فى مجالى الأدب الفارسى والتركى لاتقل عن ذلك كثيراً . وقد رأينا خلال دراستنا هذه كيف أننا اضطررنا إلى الالتجاء إلى مصنف حاجى خليفة بصدد كل أثر تقريباً يمس المسائل الجغرافية ؛ ومن الملاحظ أن كتاب فستنفلد Wüstenfeld الذى طال عليه الأمد والذى يمثل أول محاولة لتقديم بحث جامع فى « الأدب الجغرافى لدى العرب » (١٨٤٢) Die Literatur der Erdbeschreibung bei den Arabern لايمثل فى الواقع سوى نقول غير كاملة من كتاب حاجى خليفة . ومن الثابت أن الكتاب يتمتع بنفس القدر من الأهمية بالنسبة لجميع فروع الأدب والعلم العربى الأخرى بحيث لايوجد فرع منها لم يكن هذا الكتاب هو المرجع الأول فيه . وهذه المكانة الكبرى للمصنف قد تم الاعتراف بها بين الأوساط العلمية الأوروبية ولما يمض على وفاة المؤلف بضع عشرات من السنين ، فعليه يعتمد كل الشطر البيبليوغرافى تقريباً لكتاب « المكتبة الشرقية » Bibliothèque Orientale لدربلو d'Herbelot

(١٦٢٥ — ١٦٩٥) ، وهو ذلك المرجع الشهير الذى نال صيتاً واسعاً فى القرن الثامن عشر وظهرت طبعته الأولى عقب وفاة المؤلف وذلك فى عام ١٦٩٧ عنى بنشرها وزاد عليها المستشرق الفرنسى غالان A. Galland (١٦٤٦ — ١٧١٥) المشهور بترجمته « لألف ليلة وليلة » إلى الفرنسية ؛ ولم يلبث أن أعيد طبعه خمس مرات خلال مائة عام (١٧٧٦، ١٧٧٧ — ١٧٧٩ ، ١٧٨٠ ، ثم طبع بالألمانية عام ١٧٨٩ — ١٧٩٠ [١٠١]. وقد خلف المستشرق الفرنسى بتى دى لاكروا Petit de la Croix عند وفاته (فى عام ١٧١٣) مسودة ترجمة تقع فى ثلاثة أجزاء لكتاب حاجى خليفة ترجع إلى الفترة ١٦٩٨ — ١٧٠٥[١٠٢] . أما المتن العربى الكامل للكتاب فقد نشره مع ترجمة لاتينية المستشرق الألمانى فليغل G. Flügel (١٨٠٢ — ١٨٧٠) فى الفترة ١٨٣٥ — ١٨٥٨ فى خمسة أجزاء من المزدوج in folio ، ومنذ تلك اللحظة أصبح المرجع الذى لا يستغنى عنه جميع المشتغلين بدراسة الحضارة الإسلامية[١٠٣]. والطبعتان اللتان تلتا طبعة فليغل وهما طبعتا بولاق (١٢٧٤هـ = ١٨٥٧— ١٨٥٨) واستنبول (١٣١١هـ = ١٨٩٣ — ١٨٩٤) لا تمثلان أية خطوة إلى الأمام عند مقارنتهما بالطبعة الأوروبية ولا يُرْجع إليهما إلا فى حالة افتقاد الأولى ، زد على هذا أنهما لا ترتفعان إلى مستوى طبعة فليغل بأية حال من الأحوال[١٠٤]* ؛ ويجب ألا يغيب عن البال أنه بالنظر للمادة الضخمة المتنوعة التى يحتويها الكتاب بين دفتيه فإن المتن أبعد من أن يعتبر قد ثبت بصورة علمية نهائية إذ أن هذا يتطلب فى واقع الأمر دراسة مستقلة لكل حالة على حدة .

612

ونحن بوجه عام إزاء مصنف قيم لا تقف أهميته كما ذكرنا من قبل عند محيط الأدب الجغرافى وحده بل تمتد لتشمل جميع الأدب والحضارة العربية . ولهذا يصبح فى مقدورنا أن نفهم ذلك الشعور بالفخر والزهو الذى ختم به حاجى خليفة مصنفه فى تعابير بلاغية رفيعة ؛ وهذه الخاتمة وإن لم تأت بجديد إلا أنها لا تخلو من بعض القيمة سواء من ناحية الأسلوب أو من ناحية رأيه الشخصى فى نفسه ؛ وهو رأى لا نستطيع القول بأنه قد جاوز فيه الحد . قال :

« قد انتهى القول بنا فيما قررناه وانتجز الغرض الذى انتحيناه واستوفى الشرط الذى شرطناه مما أرجو أن يكون فيه فى كل نوع من العلوم للطالب مقنع وفى كل باب منهج إلى بغيته ومنزع وقد سفرت فيه عن نكت وفوائد تستغرب وتستبدع وأوردت من النوادر ما لم يرد لها قبل فى أكثر التصانيف مشرع وودت او وجدت من بسط قبل الكلام فيه أو مقتدى يفيدنيه عن كتابه أو فيه لا كتفى بما أرويه عما أروّيه وإلى الله عز وجل جزيل الضراعة فى المنة فى قبول ما منه لوجهه والعفو عما تخلله من تزيّن وتصنع لغيره وأن يهب لنا بجميل كرمه وعفوه ما أودعناه من الكلام على بعض الكتب والمصنفين ومن ذكر كتب الأوائل وأصحاب

---

* ظهرت باستنبول طبعة جديدة فى جزئين (١٩٤١ — ١٩٤٣) تعتمد على نسخة المؤلف نفسه ، وذلك بعناية محمد شرف الدين يالتقايا و رفعت بيلكه الكليسى . (المترجم)

الأديان وما يتعلق بالمجون والخلاعة والخذلان ويحمي أعراضنا من ناره الموقدة بحرمة أمين وَحَبِيه ويجعلنا ممن لا يُذَادُ إذ ذيد عن حوضه ويجعله لنا ولمن تَهمَّم باستكتابه سبباً يصلُنا بأسبابه وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير (١٠٥) محضراً انحرز بها رضاه وجزيل ثوابه ويحشرنا في أصحاب اليمين | من أهل 613 شفاعته ونحمده سبحانه تعالى على ما هداني إليه من جمعه وألهم وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفهم ونستعيذه جل اسمه من دعاء لايسمع وعلم لاينفع وعمل لايرفع فهو الجواد الذى لايخيب عن أمله ولاينتصر من خذله ولايردّ دعوى القاصدين ولايصلح عمل المفسدين وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلوته على نبيه محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين »(١٠٦) .

وبالطبع فقد أولى العلماء الأتراك والعرب هذا الكتاب اهتماماً لا يقل بأية حال عن اهتمام العلماء الأوروبيين به وأصبح مرجعاً من المراجع الأساسية بالنسبة لهم كذلك ، وقد استدرك عليه البعض وزاد عليه واختصره البعض الآخر أكثر من مرة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ناهيك عن الحالات التى لايحصيها العد فيما يتعلق بالإفادة منه فى مختلف الأبحاث والدراسات . ويمكن تكوين فكرة عامة عن ذلك من طبعة فليغل التى ضاعف من قيمتها بالنسبة للطبعات الشرقية أن الناشر استغل بانتظام المسودة المنقحة التى عملها بعد أكثر من قرن من ذلك ابراهيم افندى عربه جى باشى (المتوفى عام ١١٩٠ هـ = ١٧٧٦)(١٠٧)؛ لهذا ينبغى ألا يغيب عن ذهننا أننا إنما نستعمل مصنف حاجى خليفة فى رواية عربه جى باشى وأنه من الضرورى فى حالات معينة أن نميز بين الأصل والزيادة . والخاتمة التى وضعها عربه جى باشى تقدم لنا فكرة عن مجهوده كما تبين لنا فى ذات الوقت أن حاجى خليفة لم يكن قد أجرى قلمه بتصحيح التفاصيل بشكل نهائى ، وهو أمر طبيعى فيما يتعلق بالمصنفات البيبليوغرافية من هذا الطراز ؛ هذه الخاتمة كما نشرها فليغل تمس جوهر الموضوع مباشرة على النحو الآتى :

« قد اتفق الفراغ عن تصحيح هذا الكتاب بعون عناية الملك الوهاب المشتهر بأسماء الكتب لدى أعيان الأفاضل والكتاب وقد أمرنى بتصحيحه من هو ولى للعلماء الأعلام وصدر للفضلاء والنبلاء الفهام والحال أن النسخ من هذا الكتاب قد تطرق فيها التحريف والتصحيف بكثرة الاستكتاب فامتثلت أمره بين الإقدام والإحجام لعلمى بما انطوى عليه من الإعجام مع ما فىّ من العجز والقصور والعى والفتور واشتغال الأفكار ومصابرة الأقدار فاعتمدت على عوائد مولاى الجليل فى أقداره الجميل | فشمرت ساعد الاجتهاد 614 وأعملت فى تحرير ما به قد أشاد بعد أن حصلت مسودة المؤلف لتكون الغلط من النساخ إذ الغالب عليهم أن يكونوا للكتب مسّاخ فتتبعت كل ما فيه من كتب ورسائل وحواش وشروح ومراسل بمراجعة كتب الطبقات والتواريخ التى تنوف عن أربعمائة مجلد حتى جعلت كل كتاب بربه مؤيد وجررت وفيات المصنفين الأمجاد بعد أن كانت متفاوتة الأعداد وربما كان بعضهم خال عن ذكر زمن الوفاة فذكرته ليكون مكملا غير مفتقر لما سواه وأدرجت على ترتيب ما صنّف بعده مما يُعدّ وما فاته من الكتب والحواشي

مما يوجد وكل ما ذكر فيه من بعد تأريخ وفاته فهو مضموم وما فات مصنفه مما ألّف قبله وهو مفهوم حتّى أشرق تمامه فى وقت الإشراق من يوم الأحد الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة سبعين ومائة بعد الألف السابع [= ٢٧ ديسمبر ١٧٥٦] فنسأل الله سبحانه أن يجيزنا عليه من كرمه العميم وأن يجزل صلتنا برحمته إنه البرّ الرؤوف الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين»[١٠٨]

وبقدر ما يمكن الحكم لا من ألفاظ المؤلف نفسه فحسب بل ومن آراء العلماء الذين تعمقوا فى دراسة هذه المسألة كفليغل ونالينو[١٠٩] فإن كتاب عربه جى باشى أهل للثقة ويتصف بالدقة ، وذلك وفقاً لمفهوم العصر الذى عاش فيه . وقد سار العلماء الأتراك الذين اهتموا بتاريخ تأليف الكتب على هذا النهج فذيلوا الكتاب وزادوا عليه زيادات قيمة ، ففى أواخر القرن السابع عشر* أضاف إليه أحمد طاهر حنيف زاده (توفى فى عام ١٢١٧ هـ = ١٨٠٢) خمسمائة عنوان جديد فى مصنفه «آثار نو» (الآثار الجديدة) فبلغ بالرقم سبعة وخمسة عشر ألف عنوان (١٥٠٠٧)[١١٠] تتعلق فى معظم الحالات بأزمنة متأخرة وتمس أساساً المصنفات المدونة باللغتين الفارسية والتركية ، وينبغى عند الرجوع إليه أن يميز القارئ بين معطيات حنيف زاده وبين المتن الأصلى لحاجى خليفة . وقد ظلت التذييلات من هذا الضرب تتعاقب إلى أيامنا هذه بالتقريب ، ففى منتصف القرن التاسع عشر قام بذلك عارف حكمت (توفى فى عام ١٢٧٥ = ١٨٥٨) ، وفى بداية القرن العشرين قام به بغدادى اسماعيل باشا (توفى فى عام ١٣٣٨ هـ = ١٩٢٠) الذى وصل بالرقم إلى تسعة عشر ألف . غير أنه[١١١] من العسير علينا الحكم على هذه التذييلات وذلك لسبب بسيط هو أنها لم تطبع حتّى أيامنا هذه** .

615 وقبل فترة طويلة من انتهائه من الجزء الأول من مصنفه البيليوغرافى أخذ ميل حاجى خليفة نحو الجغرافيا يظهر بصورة واضحة فبدأ فى وقت واحد يعالج التأليف فى عدد من المصنفات فى ذلك المجال . وهو يعترف أن من الأسباب التى دفعته إلى ذلك كانت حملة كريت (« اقريطش ») لعام ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥ التى حفزته إلى التهام جميع ما وصل إلى متناول يده فى الجغرافيا ، أعنى باللغات الشرقية المعروفة له[١١٢] . ولما اتسعت معارفه فى هذا المجال بدأ فى حوالى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ فى وضع مصنفه الذى اكتسب بالتالى شهرة ليست بالضئيلة وهو « جهاننما »[١١٣] (وصف العالم)[١١٤] ؛ وأغلب الظن أن النموذج الأدبى الذى حذا حذوه فى هذا الصدد كان كتاب محمد عاشق « مناظر العوالم » المعروف ، فهو قد اعتمد كثيراً على متنه على الرغم من أن كتابه يختلف اختلافاً جوهرياً من حيث المنهج عن كتاب محمد عاشق[١١٥] . وقد دون حاجى خليفة مصنفه منذ البداية باللغة التركية ، أما الزعم القائل بأنه قد دونه

* من الجلى أن المؤلف إنما يريد القرن الثامن عشر . (المترجم)

** طبع مصنف بغدادى إسماعيل باشا فى جزئين باستنبول (١٩٤٥ — ١٩٤٧) . (المترجم)

فى الأصل باللغة العربية فيرجع إلى رينو[١١٦] ؛ وعلى الرغم من أن فستنفلد[١١٧] قد أثبت منذ عهد طويل خطل هذا الزعم إلا أنه ما فتئ يتجدد إلى أيامنا هذه وبتفاصيل مغربة فى الخيال كقول بلوشيه[١١٨] مثلا إن « جهاننما » قد كتب فى الأصل باللغة العربية ثم نقله إلى التركية هنغارى من الذين دخلوا حظيرة الإسلام .

وقد بقيت المسودة الأولى للمصنف غير مكتملة رغماً من أن المؤلف رفعها إلى السلطان محمد الرابع[١١٩] ؛ وقد حال دون إتمامها اشتغال حاجى خليفة بوضع مؤلفات أخرى ذات طابع جغرافى أيضاً ولكنها تنتمى إلى اتجاه آخر يرتبط بتعرفه على الأدب الجغرافى الأوروبى فى تلك الآونة . ولقد أحس حاجى خليفة من نفسه حاجة ملحة إلى التعرف على هذا الأدب لأسباب معينة أولها رغبته فى أن يضم إلى مصنفه الجغرافى بعض الخارطات وكانت وسيلته الوحيدة إلى ذلك هو نسخها من المصنفات الأوروبية[١٢٠] ؛ وثانيها أنه كان يريد الحصول على مادة أكثر وفرة عن العالم الغربى ؛ وهو قد ذكر هذا بوضوح فى ترجمته لسيرة حياته (autobiography) وفى مقدمته لترجمة كتاب أوروبى لم يلبث أن ضمنه بالتالى المسودة الثانية « لجهاننما »[١٢١] . وبالطبع فقد كان من العسير عليه أن يقتحم هذا الميدان اعتماداً على مجهوده الفردى ، غير أنه وفق فى حوالى عام ١٠٦٤ هـ ١٦٥٤ كما يذكر فى ترجمته لسيرة حياته[١٢٢] فى الحصول على معاون نشط فى شخص راهب فرنسى متفقه اعتنق الإسلام وتسمى الشيخ محمد الإخلاصى ، فدرس على يده المؤلفات الأوروبية الكبرى فى مجال الجغرافيا والكارتوغرافيا كالأطالس والمؤلفات المختلفة لعلماء ذلك العصر مثل أورتلى Ortelius (انتورب ١٥٧٠) واورنزو دانانيا J.L. d'Anania (البندقية ١٥٨٢) وكلوڤريوس Cluverius (امستردام ١٦٣٥)[١٢٣] وانعكس معظم هذا فى المسودة الثانية ، أو « الأوروبية » إن صح القول بذلك ، لكتابه « جهاننما » . وهو لم يكتف بالرجوع إليها كمصادر أو بالنقل عنها فحسب بل نراه يخرج فى عام ١٠٦٤ هـ - ١٠٦٥ هـ ١٦٥٤ - ١٦٥٥ بمساعدة محمد الإخلاصى المذكور ترجمة كاملة « للأطلس الأصغر » Atlas Minor لجيرارد مركاتور Gerard Mercator تحت عنوان « لوامع النور فى ظلمات أطلس مينور » ؛ وقد أمكن للبحاثة أن يثبتوا على وجه التحديد أنه اعتمد فى ذلك على المسودة المصلحة للأطلس التى نشرها هوندس J. Hondus فى أرنهيم Arnheim عام ١٦٢١[١٢٤] . ويوجد باستنبول عدد هائل من مخطوطات هذا الأطلس الفريد فى نوعه والذى خرج نتيجة لمجهود مشترك لعالمين ، بل إن النسخة الأصلية التى ترتفع إلى حاجى خليفة[١٢٥] لا تزال موجودة أيضاً باستنبول ؛ وفيما عدا هذا فإننا بكل أسف نفتقر إلى أى لون من المعلومات عن هذا المجهود العلمى لحاجى خليفة .

وعندما بلغ حاجى خليفة بالأطلس الثلثين ، أى قبل أن يفرغ منه نهائياً ، بدأ فى تحضير المسودة الثانية لكتابه « جهاننما » ؛ وأغلب الظن أنه لم يتم الأطلس[١٢٦] شأنه فى هذا شأن المسودة الأولى « لجهاننما » .

ويمكن بوجه خاص الحكم على المسودة الثانية « لجهاننما » من فحص مخطوطة بڤينا تحوى إلى جانب قدم كامل بتمامه تخطيطات غير كاملة للأقسام التالية بقلم حاجى خليفة نفسه[١٢٧] ، كما تحوى أيضاً تصحيحات وملاحظات أجريت على نفس هذه المسودة الثانية ولكنها بقلم شخص آخر لعله فيما يغلب على الظن مكمل حاجى خليفة المدعو أبو بكر بن بهرام[١٢٨] . ويكفى لتكوين فكرة عن الطابع العام لهذه المسودة إلقاء نظرة على القسم المفرد للروملى والبوسنه والذى قام بدراسته هامر Hammer منذ عام ١٨١٢ . وقد ساد الاعتقاد وقتاً طويلا بأن المخطوطة التى اعتمد عليها هامر قد فقدت بالتالى[١٢٩] غير أن الفحص الدقيق الذى أجراه تيشنر Taeschner أثبت أنها هى نفس مخطوطة ڤينا التى مر ذكرها[١٣٠] .

ولم يكن مصير المسودة الثانية « لجهاننما » بأفضل من مصير السابقات عليها فهى أيضاً بدورها لم تكمل ؛ وبقدر ما يمكن الحكم عليها ، وذلك اعتماداً على القسم المفرد لآسيا والذى نشره فى عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ مؤسس فن الطباعة بتركيا إبراهيم متفرقة ، فإنه يحيط بهذه المسودة عدد من المسائل الشائكة المرتبطة بتاريخها الأدبى ؛ وكما قال تيشنر فإن مصيرها يحيط به ظلام كثيف وذلك منذ اللحظة التى بدأ فيها المؤلف تدوين ألفاظه إلى اللحظة التى تم فيها طبع ذلك القسم من المسودة[١٣١] . وفوق هذا فإن الطبعة تحتوى على زيادات كبيرة ذكر الناشر أنها ليست من عمل حاجى خليفة ، زد على ذلك أنه يهمل الإشارة إلى أقسام معينة لايشك فى أنها ليست لحاجى خليفة . ولعل التفسير الوحيد لهذا هو أنه قد وجدت بين يدى الطابع مسودة مصلحة غير معروفة لنا وأنه قد قنع بالإشارة إلى الزيادات التى أضافها هو نفسه[١٣٢] على حين عجز عن التمييز بين المواد المختلفة التى وقعت فى يده أو لم يجد حاجة إلى تبيان ذلك .

617

وعلى الرغم من كل هذه التفاصيل المعقدة فإن الفكرة العامة للكتاب وتركيبه واضحة كل الوضوح ، وينحصر الاختلاف الأساسى بين المسودتين الأولى والثانية فى أن هذه الأخيرة قد استقت مادتها لا من المصادر الشرقية وحدها كما كان عليه الحال من قبل بل ومن المصادر الأوروبية أيضاً بحيث يبدو تأثير هذه الأخيرة واضحاً للعيان[١٣٣] ؛ ثم إن تبويب المادة نفسه يختلف اختلافاً جوهرياً مع أسلوب المدرسة القديمة فى الأدب الجغرافى العربى بحيث لا تظهر أقاليم بطلميوس السبعة وأقاليم أبى الفدا « العرفية » الثمانية والعشرون إلا عرضاً إذ يبرز هاهنا تقسيم جديد للمادة بتوزيعها وفقاً للقارات أطلق على الخامسة منها اسم القارة « الماجلانية » ، أما فى داخل القارات نفسها فإن التقسيم يسير وفقاً للوحدات السياسية وهذه بدورها تفسح المجال للأقسام الإدارية (وهى « الإيالات » و« الألوية » بالنسبة للدولة العثمانية) . ويوجد بالمقدمة عرض للخطوط العريضة للجغرافيا الرياضية والفلك وفقاً للمذهب الأوروبى ، وهو يعتمد فى هـــذا أساساً على كلوڤريوس ويحاول من آن لآخر إجراء مقارنة بين المذهبين الأوروبى والشرقى[١٣٤] ؛ وعلى أية حال فإن حاجى خليفة لم يكن من هدفه لا فى هذا المصنف ولا فى مصنفاته الأخرى أن يقوم ببحث علمى أصيل فى ميدان الفلك والرياضيات . وقد قيل فى حقه أكثر من مرة

إنه ليس بعالم بحاثة بل هو ناقل قبل كل شىء ؛ وتتمثل مكانته بالنسبة للأدب الجغرافى العربى التركى فى أنه أول من حاول الإفادة من نتائج الأبحاث العلمية الأوروبية الحديثة إلى جانب استعماله المصادر الشرقية القديمة وأن ذلك لم يحدث لديه عرضاً بل حدث بصورة منظمة ، زد على هذا أن اختياره لمادته يتسم بالكثير من التوفيق ويكشف عن فطرة سليمة . ويرى بارتولد فى نشاطه فى هذا المجال أول محاولة للمزج بين معطيات العلم الأوروبى ومعطيات العلم الإسلامى ويؤكد أنه لم يحدث أن قام أحد بمثل هذه المحاولة فى الأدب الجغرافى الأوروبى لذلك العهد(١٣٥) . وكان هدفه الثابت هو تأليف « مدخل » (Handbuch) جديد من أجل القارئ العادى فى القرن السابع عشر يبين فيه النتائج العملية التى سادت فى ذلك العصر ، أى أنه لم يكن من غرضه البتة أن يقوم بأبحاث علمية مستقلة(١٣٦) .

618 وكما نبصر من مقدمة « جهانما » فإن حاجى خليفة قد اعتمد فى وضع كتابه على عدد من المصادر باللغة العربية(١٣٧) ، فهو قد رجع إلى المؤلفين الكلاسيكيين من طراز المقدسى كما أفاد إلى مدى بعيد من جميع ضروب كتب « المسالك » كمصنفات البلخى وابن حوقل والمسعودى والبكرى وابن سعيد والمهلبى والعذرى . وهو على معرفة جيدة بمعجم ياقوت وبمصنفاته الأخرى فى مسوداتها وتنقيحاتها المختلفة كما عرف جيداً الإدريسى وأبا الفدا ومعجم الحميرى ، على الرغم من أن المعرفة بهذا الأخير كانت أمراً نادر الحدوث ؛ وهو لا يكتفى بالنقل من أصحاب المصنفات ذات الطابع العام كالهروى والقزوينى وابن الوردى بل أخذ أيضاً من « المتخصصين » كخليل الظاهرى ، ولمعرفته بالأدب الملاحى نجده يشير إلى عدد من مصنفات سليمان المهرى . وهو يسلك نهج المذهب القديم باستعماله لترجمات بطلميوس ولكنه لا يهمل المؤلفات الحديثة سواء كانت باللغة الفارسية مثل « هفت إقليم » أو بالتركية مثل مصنف سپاهى زاده و« بحرية » و« تحفت الزمان » و« مناظر العوالم » الذى يحتل بالطبع المكانة الأولى من بين مصادره الرئيسية .

وأول ما يجب على الباحث الذى يتفرغ لفحص متن « جهانما » هو أن يميز بين المادة التى ترتفع إلى حاجى خليفة نفسه ، أى إلى فترة سلطنة مراد الرابع وإبراهيم ومحمد الثانى (منتصف القرن السادس عشر) ، وبين المادة التى استقاها من السابقين له . ويحيط بمثل هذا العمل صعوبات جمة لأن حاجى خليفة وقف من مصادره موقفاً مغايراً لموقف محمد عاشق فلم يشر إليها فى صلب الكتاب بل اكتفى بالإشارة إليها فى المقدمة وحدها ؛ وفى حالات نادرة قد يحدث الضد كما هو الحال مع « أنيس المسامرين » الذى يعالج الكلام على أدرنة فإن حاجى خليفة لم يشر إليه فى المقدمة(١٣٨) . ولهذا السبب فإن على الباحث أن يتجنب خطأ شائعاً يرتبط بمتن حاجى خليفة كما يرتبط بالمتون الجغرافية السابقة له ، وهو الاعتقاد بأن جميع ما لم يرد على هيئة اقتباسات من مؤلفين آخرين إنما هو لحاجى خليفة وحده(١٣٩) .

وهو قد استقى مقداراً كبيراً من مادته فى واقع الأمر من « مناظر العوالم » ، غير أن عرضه فى جميع نقاطه أوسع من ذلك بكثير . وفيما يتعلق بالدولة العثمانية فإن مصنفه يمتاز بالكثير من التفصيل والسعة حتى

أنه يمكن أن يعد فى الحقيقة الوصف الجغرافى الأول والوحيد للإمبراطورية الذى ندين به لقلم مؤلف عثمانى.
وحاجى خليفة لم يتجول بطريقة منتظمة كمحمد عاشق بهدف جمع المادة الجغرافية من أجل مصنفه ولكننا نعلم تمام العلم أنه سافر كثيراً وشارك فى عدد من الحملات العسكرية وأن منصبه الحكومى قد ساعده كثيراً فى الإفادة من الوثائق الرسمية . ولاتزال الحاجة ماسة للغاية لعمل دراسة لمتن «جهانْنما» وفقاً للمنهج النقدى فى دراسة النصوص ، ذلك أن هذه المهمة لاتزال فى بداية شوطها . ويرجع فضل كبير فى هذا المضمار إلى مجهودات تشنر الذى ألقى الضوء فى عدد من مقالاته على مسائل ذات أهمية بالغة تتعلق | بالتاريخ الأدبى 619 لهذا المصنف، غير أن هناك الكثير مما لايزال ينتظر البحث فى هذا الصدد . وقد أصبح «جهانْنما» المصنف الجامع الأول بالنسبة للأجيال التالية ، وكما هو الشأن مع عدد من المؤلفات التى لقيت الرواج والانتشار بين القراء فإن الحد الفاصل بين الرواية الأولى للمؤلف والزيادات التى أدخلت عليها قد انمحى تماماً وساق هذا بدوره إلى تعقيد مهمة الباحث بشكل ملحوظ[١٤٠] .

ولاتقل عن هذا تعقيداً المسألة المتعلقة بالخارطات والرسوم التى يتراوح عددها وفقاً للنسخ بين التسعة والثلاثين والأربعين والواحد والأربعين . وتوجد هذه الخارطات مع اختلافات ضئيلة فى نسخ متفرقة من الطبعة التى أخرجها إبراهيم متفرقة فى عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ للقسم الخاص بآسيا من «جهانْنما» ؛ وهى لاترتبط من قريب أوبعيد بالمذهب العربى لذا فقد كان من الطبيعى ألا تجد لها مكاناً فى المجموعة الضخمة التى نشرها كونراد ميلر K. Miller ، زد على هذا أن المخطوطات نفسها لم تفحص فحصاً دقيقاً من وجهة نظر الكارتوغرافيا . ويقدم لنا بلوشيه Blochet معطيات طريفة بصدد المخطوطة الباريسية التى لم يتعرف عليها بابنجر Babinger[١٤١] والتى ترتفع إلى عام ١١٤٢ هـ = ١٧٢٩[١٤٢] ؛ وقد قام بنسخها شخص يدعى محمود بن عبد الله ولكن الرسم على ما يبدو من عمل شخص آخر . ومعظم خارطاتها وأشكالها الكوزموغرافية ليست سوى تقليد صرف لنظيراتها الأوروبية ، وهذا يمس بصورة خاصة «شكل العالم» و«وردة الرياح» اللذين تم تخطيطهما بطريقة محكمة . أما الجهات فتشبه الحال التى عليها الأطالس الأوروبية أى بوضع الشمال فى أعلى الخارطة ، وكذلك تم تبيان المدن وفقاً للمذهب الأوروبى السائد آنذاك برسم مجموعة من المنازل حيث يمكن تمييز المدن الإسلامية بظهور مآذن المساجد . ومن بين الخارطات ذات الطابع العام خارطة مزدوجة للعالم وخارطات لأوروبا وآسيا وأمريكا والمناطق القطبية الشمالية والجنوبية ؛ وقد بين على جميع الخارطات شبكة خطوط الطول والعرض مما يشير مرة أخرى إلى تأثير النماذج الأوروبية . وعلاقة هذه المخطوطة الباريسية بالمتن الأصلى لحاجى خليفة ومصوراته لاتزال تحتاج إلى دراسة دقيقة ؛ ويدعونا ضيق الحد الزمنى الذى يفصل بين تاريخ المخطوطة وهو عام ١١٤٢ هـ = ١٧٢٩ وتاريخ الطبعة وهو عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ لأن نفترض أن هذه الأخيرة قد اعتمدت على الأولى أو أنها على الأقل إحدى المسودات الأخيرة لهذا المصنف ولا يمكن بأية حال أن ترتفع إلى عصر حاجى خليفة ؛

وكما ذكرنا من قبل فإن حاجى خليفة لم يكمل أيضاً المسودة الثانية «لجهاننما» وقد قام بهذا العمل أبو بكر ابن بهرام (توفى عام ١١٠٢ هـ = ١٦٩١) وذلك فى غضون القرن الذى عاش فيه حاجى خليفة نفسه . وجميع الدلائل تشير إلى أنه هو الذى أعطاها صورتها النهائية ، وعلى أية حال فإنها هى التى اعتمدت عليها طبعة عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ التى تنسب الزيادات العديدة الواردة فى المتن إلى هذا الشخص بعينه(١٤٣) . ولأبى بكر ابن بهرام مصنف ضخم فى ستة أجزاء بعنوان « جغرافياى كبير » أتمه قبل ذلك ، أى فى عام ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥ وسنعالج الكلام عليه فى مكانه من هذا الفصل : ولم يخل القرن الثامن عشر من مكملين ومقلدين « لجهاننما » فالمصادر تربط به | مصنفاً لمحمد سعيد شهرى زاده (توفى فى عام ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤) بعنوان 620 « روضة الأنفس فى تاريخ » وتصفه بأنه تتمة « لجهاننما » ؛ ويرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠(١٤٤) . ولعله تحت تأثيره أيضاً الذى ينعكس فى العنوان نفسه ظهر مصنف لمحمد بن حسن شيخى بعنوان « جهاننماى أوروبا » الذى تم تأليفه فى عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢(١٤٥) ؛ ومما يعزز هذا الافتراض أن ذلك المؤلف كان بوجه عام ذا معرفة جيدة بمؤلفات حاجى خليفة ووضع تذييلا لمصنفه التاريخى « تقويم البلدان » تناول فيه تاريخ الفترة بين عامى ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ و ١١٤٤ هـ = ١٧٣١(١٤٦) .

وجميع هذه المحاولات تتضاءل أمام الطبعة الجزئية التى نشرها إبراهيم متفرقة عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ والتى تعد بحق مجهوداً ممتازاً بالنسبة لذلك العصر حتى من وجهة النظر الفنية (technical) وتذكرنا فى هذا بالمطبوعات العربية التى أخرجتها مطبعة المديتشى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهذه الطبعة تحتوى على القسم المخصص لآسيا مضافاً إليه التكملة التى عملها أبو بكر بن بهرام والزيادات التى وضعها الناشر نفسه وهى تمثل أكثر من ثلث الكتاب الذى ظهر فى ثمان وتسعين وستمائة صفحة من القطع الكبير . والطبعة مزودة بتسع وثلاثين خارطة فاخرة بعضها ملون ، وقد أثار ظهور هذه الطبعة كبقية نشاط هذه المطبعة اهتمام أوروبا وإعجابها نتيجة لما أغدقه عليها الرحالة والدبلوماسيون والعلماء من ثناء عاطر وتقدير عال . ويبدو من ألفاظ الراهب تودرينى Toderini الذى عاش باستنبول فى أواخر القرن الثامن عشر وعرف بتفقهه فى الأدب التركى أن الأتراك كانوا يرون فيها آنذاك خير ما أخرجته مطبعة إبراهيم متفرقة(١٤٧). وهى تعد فى الوقت الحاضر شيئاً نادراً للغاية إلا أنه يوجد منها لحسن الحظ نسخة بمعهدنا الشرقى .

هذه الطبعة التى تبرز جانباً فقط من كتاب حاجى خليفة كانت فى حقيقة الأمر المصدر الرئيسى للعلماء الأوروبيين فى جميع أبحاثهم المتعلقة « بجهاننما » إلى أيامنا هذه ، ولكن بعد كل الذى ذكرناه فإنها لم تعد وافية بالغرض إذ يجب لمواصلة البحث فى هذا المصنف الاستعانة ببقية المادة الموجودة فى مخطوطات الكتاب العديدة التى تحفل بها دور المخطوطات باستنبول والتى أبعد من أن تكون قد فحصت فى مجموعها(١٤٨). واعتماداً على الطبعة ظهر فى القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عدد من الترجمات الجزئية ؛ أما مشروع إخراج ترجمة كاملة لها فقد وقف عند حد محاولة فريدة لعالم التركيات السويدى الكبير نوربرج

M. Norberg (١٧٤٧ – ١٨٢٦) الذى بدأ فى تنفيذ ذلك المشروع منذ عام ١٧٨٤ ثم نشر جزئين من ترجمته اللاتينية فى عام ١٨١٨ فيما يقرب من ألف ومائتى صفحة . وتقتصر الترجمة على المتن الرئيسى للكتاب أى أنها أسقطت المقدمة ، ويبدأ الجزء الأول باليابان | أما الثانى فيبدأ بالعراق[١٤٩] . وبالرغم 621 مما تمتع به كتاب نوربرج من مكانة بالنسبة للعصر الذى ألف فيه فمن الطبيعى أنه لم يعد ذا قيمة كبيرة بالنسبة للعصر الحاضر . وعلى أية حال فإن دراسة « جهاننما » قد توقفت منذ منتصف القرن التاسع عشر لأن البحاثة انصرفوا إلى دراسة العهود السابقة فى تاريخ الأدب الجغرافى ؛ ولكن لم يلبث أن تجدد الاهتمام به فى العشرينيات من القرن العشرين بفضل أبحاث تيشنر التى تمخضت عن اهتمامه بدراسة محمد عاشق فقد أثار هذا المستشرق طائفة من المسائل التى تتعلق فى جوهرها بمتن الكتاب وسار قدماً فى طريق حلها ، ولاتزال أبحاث تيشنر العديدة فى هذا الصدد تمثل آخر ماوصل إليه العلم فى دراسة « جهاننما » .

أما المصنف الرابع لحاجى خليفة الذى يجتذب اهتمامنا من وجهة النظر الجغرافية فإنه يرتبط بميدان أنجز الأتراك فيه أعمالا مجيدة ، أعنى ميدان الجغرافيا الملاحية . وقد حزت فى نفس حاجى خليفة الهزائم التى منى بها الأسطول العثمانى فى زمنه فرأى لزاماً عليه أن يذكر مواطنيه بماضيهم المجيد فوضع فى هذا مصنفاً كبيراً أتمه فى نوفمبر عام ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٦ بعنوان « تحفة الكبار فى أسفار البحار »[١٥٠] ؛ والكتاب فى أساسه مصنف تاريخى ولكنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجغرافيا ، وهو ينقسم إلى قسمين غير متجانسين يقع الأكبر منهما فى تسعة فصول ويبحث فى تاريخ الأسطول القديم وانتصاراته مركزاً اهتمامه على الحروب مع البندقية وجنوا وغيرهما من دول النصرانية . وإلى جانب هذا فهو لا يهمل تفصيل الكلام على ما قام به العثمانيون فى البحر الأسود والبحر الأحمر والخليج الفارسى والمحيط الهندى . أما العرض فيرد فى صورة تراجم لقادة الأسطول الكبار وفقاً للتتابع الزمنى ، وهكذا يمر أمام ناظرينا واحداً تلو آخر قبودانات البحر العثمانيون ممن سطروا صفحات مجيدة فى تاريخ الكفاح البحرى واكتسبت شخصياتهم لوناً أسطورياً بالنسبة للأجيال التالية ابتداء من خير الدين بربروسا وعروج إلى كمال باشا المعروف لنا من قبل ثم الملاحان العالمان پيرى ريس وسيدى على چلبى ومعاصروهما الذين يصغرونهما سناً وخلفوهما فى قيادة الأسطول وهم پياله باشا وطرغود وعلى باشا وغيرهم . وبهذا تنكشف أمام أبصارنا لوحة حافلة متنوعة تتميز بالكثير من الحيوية ويمتزج فيها وصف الحملات البحرية بالآراء الجغرافية السائدة فى ذلك العصر .

أما القسم الثانى والأصغر من الكتاب فيقع فى سبعة فصول تتسم بالقصر ويتناول فيها المؤلف الكلام على ديوان البحرية (admiralty) والأسطول على أيامه ، وهنا يقدم لنا المؤلف قائمة بجميع قادة الأسطول مع تحليل لنظامه الإدارى ووصف مفصل لأنواع السفن المختلفة ولأساليب القتال البحرى. هذا ويبدأ الكتاب بمقدمة موجزة ذات طابع جغرافى عام تعالج الكلام على البحار وسواحل أوروبا مع وصف مفصل تفصيلا وافياً لجمهورية البندقية والأراضى التابعة لها . ويجب ألا يغيب عنا أن البندقية كانت تحتل آنذاك المكانة الأولى بين الدول التى تقيم لها الدولة العثمانية وزناً خاصاً .

622 ويتبين لنا بجلاء من سيرة حاجي خليفة أنه كان بصفة دائمة شخصاً « بريًّا » ، أى أنه لم يكن على معرفة جيدة بالبحر ؛ بيد أنه يبرهن فى كتابه هذا على معرفة عريضة بالجغرافيا الملاحية وبالأدب البحرى هذا فيما عدا معلوماته الواسعة فى كل ما يتصل بهذا الموضوع : وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ذكرى ماضيهم المجيد كانت لاتزال حية فى مخيلة جميع الأتراك وأن التعرف على هذا الماضى كان مما يعتز به علماؤهم . وأغلب الظن أن عدداً من أهل جيله كانوا معاصرين لأحداث ذلك الماضى المجيد إذ أن جانباً من قصصه قد دون عن طريق المشافهة .

وليس ثمة ما يدعو بالطبع لأن نذكر بصورة خاصة أن المصادر الكتابية لحاجي خليفة كانت حافلة للغاية بالنسبة لموضوعه هذا ، فقد انتظمت فى الواقع نواحى عديدة وكان من بينها على سبيل المثال «غزوات خير الدين باشا» وهى ذكريات أمير البحر التركى والقرصان المشهور التى أملاها على سنان چاوش فى عهد السلطان سليمان القانونى[١٥١] . ومن الثابت أيضاً أن مادته المتعلقة ببقية أبطال الكتاب قد اعتمدت على مصادر مماثلة .

والعدد الكبير لمخطوطات « تحفة الكبار » يشير إلى أن هذا المصنف قد نال رواجاً كبيراً وهو يوجد فى مجموعات المخطوطات المختلفة بأوروبا واستنبول بل إن مخطوطة المؤلف التى كتبها بخط يده موجودة بهذه المدينة[١٥٢] ، غير أن الذى أكسب الكتاب شهرة خاصة هى الطبعة التى أخرجها إبراهيم متفرقة فى ثلاثة أجزاء فى عام ١١٤١ هـ = ١٧٢٩ ، أى قبل ثلاثة أعوام من ظهور طبعته « لجهاننما » ، وهى مشابهة لتلك من حيث الجودة والإتقان ولكنها تتسم بالروعة والنفاسة فى حد ذاتها[١٥٣] . فهى تضم خمساً وسبعين صفحة من القطع المزدوج (in folio) إلى جانب سبع صفحات على هيئة مقدمة وصفحتين لتصويب الأخطـــاء الواردة فى صلب الكتاب ؛ وقد ألحقت بها خمس خارطات تصور نصف الكرة (hemisphere) والبحرين الأبيض المتوسط والأسود والجزر التابعة للدولة العثمانية وبحر الأدرياتيك وجزره ثم قمباص (بيت الإبرة) مزدوج من النوع الذى تعرفنا عليه فى الفصل المعقود للجغرافيا الملاحية . والذى قام بتصوير رسوم هذه الطبعة رسام أصله من ڤينا وعمل ذلك تحت إشراف راهب اسبانى من أهل العلم ، على حد قول أوروبى عاصر ظهور طبعة الكتاب .

أما أوروبا فقد تعرفت على المصنف عن طريق مخطوطات متفرقة وقبل أن يخرج من المطبعة . ولاهتمام الأوروبيين بتركيا وبالنزاع من أجل سيادة البحار فقد ظهرت له ترجمات عديدة منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر ولو أنها لاتزال موجودة على شكل مخطوطات ؛ وإحدى هذه الترجمات ندين بها لقلم المستشرق الفرنسى پتى دى لا كروا Pétis de la Croix (توفى فى عام ١٧١٣)[١٥٤] . وبعد قرن من هذا ظهرت الترجمة الإنجليزية التى اعتمدت على النص المطبوع وهى من عمل متشل J. Mitchell (١٨٣١) ولكنها لاتتجاوز الأربعة فصول ، أى ما يقرب من نصف القسم الأول للكتاب[١٥٥] . وترجم المستشرق كاله Kahle فصلين من القسم الثانى هما الخامس والسادس (ويشملان الصفحات

١٦٩ – ١٧٢ من الطبعة الأولى و١٥١ – ١٥٨ من الطبعة الثانية) فى تجهيز السفن ومعداتها وتكاليفها ، وقد شرح كاله ترجمته هذه ونشرها فى مقدمة مؤلفه عن كتاب « بحرية » لپيرى ريس[١٥٦] : أما بين الأتراك أنفسهم فقد تمتع « تحفة الكبار » بنفوذ طويل الأمد دام إلى القرن العشرين تقريباً .

وفى القرن الثامن عشر وضع محمد سعيد شهرى زاده (توفى عام ١١٧٨ هـ = ١٧٦٤) مصنفين فى تاريخ مشاهير قادة الأسطول العثمانى[١٥٧] ؛ وقد ظل هذا التقليد حياً فى الأدب التركى إلى القرن التاسع عشر[١٥٨] حينما أخرج على رضا سيفى مؤلفاته فى سير حياة كمال ريس وعروج (١٣٢٥هـ = ١٩٠٧ – ١٩٠٨) وطرغود ريس (١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩) وبربروسا (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠)[١٥٩] . ويمكن أن نلاحظ فى القرن العشرين تجدد الاهتمام بمصنف حاجى خليفة وذلك بفضل مجهود اثنين من ضباط البحرية العثمانية كرسا نشاطهما بصورة خاصة لدراسة تاريخ الأسطول العثمانى ؛ أما أحدهما وهو صفوت بك (توفى عام ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣)[١٦٠] فقد اهتم بإخراج طبعة ثانية للطبعة الأولى (Incunabula) لكتاب حاجى خليفة فى عام ١٣٢٩ هـ = ١٩١١[١٦١] وزودها بعدد من الخارطات والرسوم نقلها عن الطبعة الأولى للكتاب وعن مصادر أخرى ، إلا أنه يلاحظ أحياناً أنه لا علاقة لبعضها بمادة الكتاب . وأما الثانى وهو محمد شكرى (توفى عام ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠)[١٦٢] فإنه إلى جانب بعض المؤلفات فى تاريخ الأسطول العثمانى قد فكر فى إخراج سفر ضخم بعنوان « أسفار بحرية عثمانية » (« الحملات البحرية العثمانية ») ولكن لم ير النور منه سوى الجزء الأول الذى ظهر فى عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٧ فى أكثر من خمسمائة صفحة ، وهو أيضاً يشمل عدداً كبيراً من الرسوم . ونصف هذا الكتاب بالتقريب مكرس للكلام على تاريخ الحقبة السابقة للعثمانيين وذلك منذ العصور القديمة ، وهو يعتمد فى هذا القسم على مصادر تتفاوت من حيث القيمة أما الفصل الرابع الطويل (الصفحات ٥٩ – ١٣١) فيعالج الكلام بصفة خاصة عن العرب وعن الأسطول العربى . وعلى الرغم من وجود بعض الخلط ومن انصراف المؤلف إلى الاهتمام بمسائل أخرى تتعلق بالحضارة العربية فإن هذا الفصل لايخلو من بعض الأهمية بالنسبة لموضوع دراستنا : أما تاريخ الأسطول العثمانى فيبدأه منذ لحظات نشاطه الأولى عند حصار القسطنطينية ثم يعرض للمعارك البحرية من عهد بربروسا فيفصل القول فى ذلك أكثر مما فعل حاجى خليفة ويسوق عرضه إلى العهد الذى انتهى عنده الأخير على وجه التقريب . ولا يمكن إنكار الصلة المباشرة بين الكتابين بحيث يمكن القول بأن « تحفة الكبار » يمثل مصدراً من المصادر الأساسية للمؤلف فى الجزء الأول من كتابه ؛ ومن هذا يتبين لنا أن اهتمام الأتراك بالجغرافيا الملاحية ظل محتفظاً بحيويته إلى أيامنا هذه وأن تأثير حاجى خليفة لعب دوراً كبيراً فى هذا المجال ؛ وكندرمان Kindermann الذى يعد من خيرة العارفين بتاريخ الشئون البحرية لدى المسلمين يلاحظ بالكثير من الصواب أنه وإن لم يوجد حتى الآن عرض عام لتاريخ الملاحة عند العثمانيين إلا أنه يوجد فى متناول أيدينا أبحاث تحضيرية جيدة للقيام بمثل هذا العمل ؛ ويمكن

624 أن ننسج على منوال كندرمان فنضيف إلى ما ذكرناه أو لم نذكره من المصنفات التركية | فى هذا الميدان تلك المواد الحافلة (articles) التى ازدانت بها صفحات « دائرة المعارف الإسلامية » والتى ندين بها فى معظم الأحوال لقلمى بابنجر Babinger ودنى Deny(١٦٣).

لقد أدى بنا تحليلنا للمصنفات الأربعة الأساسية لحاجى خليفة والتى تمس الجغرافيا إلى الإقرار بأن جامعه الضخم « جهاننما » ، وسفره الخاص فى محيط الجغرافيا الملاحية « تحفة الكبار » ، ومرشده الببليوغرافى العظيم « كشف الظنون » قد ظل كل منها محتفظاً بنفوذ كبير وتأثير فعال على سير تطور الأدب الجغرافى العربى التركى ، كما وأن العلم الأوروبى لم يهمل تقديرها حق قدرها وبهذا نستطيع القول ونحن مطمئنون بأن حاجى خليفة يستحق عن جدارة أن يعترف به كأكبر جغرافى ظهر بالشرق الأدنى فى القرن السابع عشر.

أما الشخصية الثانية التى برزت فى محيط الجغرافيا فى نفس ذلك القرن فقد كان الرحالة الأكبر أوليا چلبى ، أو « ابن بطوطة التركى »(١٦٤) كما يروق للبعض أن يدعوه . وكما هو الشأن دائماً فإن هذه المقارنة لاتخلو من جانب من الصحة ولكنها تتطلب من ناحية أخرى بعض الحذر ، فأسفاره لم تبلغ المدى الذى بلغته أسفار ابن بطوطة كما أنها لم تمتد فى اتجاه الشرق إلى أبعد من العراق ولهذا فمن العسير الموافقة على لقب « سياح عالم »(١٦٥) الذى ما زال الأتراك يطلقونه عليه أحياناً إلى أيامنا هذه . أما من حيث ثقافته الجغرافية فقد كان بلاشك أكثر قراءة واطلاعاً من ابن بطوطة وجاً أكثر منه إلى استعمال المصادر الأدبية.

والمادة التى يقدمها أوليا چلبى عن سنى حياته الأولى من خلال وصفه الضخم لرحلته مادة متفرقة للغاية ويعوزها التماسك ، ولكنه يسوق فى مقابل ذلك معلومات طريفة عن أسلافه وهى على الرغم من أنها لاتخلو من عنصر الخرافة إلا أنها تعين على تفهم الوسط الذى نشأ فيه « ابن بطوطة التركى » . فقد كان جده حاملا للواء السلطان محمد الثانى الفاتح واشترك فى فتح القسطنطينية ، وقد بلغ أفراد أسرته فى العادة أعماراً طويلة فجده عاش ليبلغ سن المائة وسبع وأربعين أما والده درويش محمد فقد كان جواهرى « قويومجى باشى » البلاط السلطانى وكان فى معية السلطان سليمان القانونى فى أكثر من حملة عسكرية وخدم عشرة من السلاطين وتوفى عام ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ عن مائة وسبعة عشر عاماً . ولاشك أن مركزه كان مشرفاً بما فيه الكفاية لأن أم والده أوليا چلبى كانت أختاً للصدر الأعظم ، أما رحالتنا فقد ولد عام ١٠٢٠ هـ = ١٦١١ ولكن على الرغم من أصله الرفيع فإنه لم يلتحق لا بالجيش الذى كان قريباً منه طول حياته ولا بالبلاط ؛ ولاشك فى أنه قد ظهرت لديه منذ البداية ميول علمية ومن المعروف أنه كان يحب أحياناً عرض معارفه على الرغم من أنها لم تكن عميقة الجذور . ومهما يكن من شىء فإننا نلتقى به منذ عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٦ « حافظاً » بمسجد أيا صوفيا | وهناك اجتذب اهتمام السلطان مراد الذى ضمه إلى حاشيته فى عمل يتعلق 625 فى أغلب الظن بالبلاط (« مصاحب ») . غير أننا نراه بعد هذا يلتحق بالجيش النظامى برتبة « سباهى » ؛ ومن الملاحظ أنه لم يرتفع عالياً فى سلك الرتب العسكرية ولعل ذلك يرجع من ناحية إلى أن اتجاهاته كرحالة بدأت تتبلور منذ تلك اللحظة ولم تلبث أن لعبت الدور الرئيسى فى مجرى حياته بأجمعه.

ونستطيع القول بأن أسفاره بدأت منذ عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ وذلك عندما أخذ يتجول بانتظام في نواحي القسطنطينية والمواضع المحيطة بها وقد كرس لهذا فيما بعد الجزء الأول من وصفه الضخم الذي يقع في عشرة أجزاء والذي يفصل فيه القول عن أسفاره التي انتظمت واحد وأربعين عاماً والتي دونها في الغالب على شكل يوميات(١٦٦). وقد صاغ وصفه للرحلة على هيئة قصص مسهبة يصف فيها ما عاناه من مصاعب وما مر به من تجارب، وهي لاتخلو من تأثير عامل الخيال مما يذكرنا من بعيد بالبارون منشاوزن Baron Münchausen(*)، ولكنها تتسم من ناحية أخرى بدقة منقطعة النظير بحيث تمكننا من تتبع خط سير هذا التركي الذي لم يقر له قرار فأخذ يجوب الآفاق مرة في لبوس إمام أو مؤذن في الحملات العسكرية ومرة ككاتب للسر في معية شخصيات من كبار رجالات الدولة وطوراً كمبعوث خاص لهم إلى العاصمة. وقد ساقته أسفاره إلى بلاد الفرس والقوقاز وبغداد وسوريا ومكة ومصر وجنوبي روسيا والأفلاق Wallachia والبوسنه والنمسا والمجر بل وإلى أعماق بلاد ألمانيا وربما إلى الأراضي الواطئة والسويد وبولندا. وآخر تاريخ يذكره في وصف أسفاره هو عام ١٠٨٩هـ = ١٦٧٨ ولهذا فيفترض أنه قد توفي عقب ذلك بقليل وذلك في عام ١٠٩٠ هـ = ١٦٧٩ ولم تتقدم به السن كثيراً كأسلافه القريبين منه.

وأفضل وسيلة لتتبع طريق رحلته هو أن نساير حكايته لها لأنه جهد بوجه عام في أن يحتفظ بالتتابع الزمني لتحركاته(١٦٧)، فالجزء الأول مخصص للكلام على استنبول والنواحي المحيطة بها وكان قد بدأ في جمع مادته منذ عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١. أما الجزء الثاني فيتناول فيه الكلام على بروسه (١٩٥٠ هـ = ١٦٤٠) وازميد (نيقوميدية) ورحلته إلى باطوم وطربزون وبلاد الأبازة Abkhazia (١٠٥٠هـ — ١٠٥٤ هـ = ١٦٤٠ — ١٦٤٤) والحملة على كريت (١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥) ورحلته إلى أرضروم وآذربيجان وكرجستان Georgia وأماكن أخرى (١٠٥٦ هـ — ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٦ — ١٦٤٨). وفي الجزء الثالث يصف رحلته إلى دمشق وسوريا وفلسطين وأرميه وسيواس وكردستان وأرمينيا (١٠٥٨ هـ — ١٠٦٠ هـ = ١٦٤٨ — ١٦٥٠) والروملي، خاصة منطقتي بلغاريا ودوبروجه (١٠٦١ هـ — ١٠٦٢ هـ = ١٦٥١ — ١٦٥٢). وفي عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ أدى أوليا چلبي فريضة الحج ولكنه أرجأ وصفها إلى الجزء التاسع من مصنفه. وفي الجزء الرابع يصف لنا وان وتبريز وبغداد والبصرة (١٠٦٥هـ — ١٠٦٦ هـ = ١٦٥٥ — ١٥٥٦)، أما الخامس فيحوي خاتمة وصف رحلته السابقة من وان إلى البصرة ووصف رحلته إلى أوتشاكوف Ochakov (قره كرمان) والحملة ضد راكوتشي Rakoczi والغارة على روسيا وذلك في عام ١٠٦٦ هـ — ١٠٦٨ هـ = ١٦٥٦ — ١٦٥٨، ثم الحملة على العصاة بالأناضول ورجوعه من بروسه عن طريق الدردنيل إلى أدرنه (١٠٦٩ هـ — ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩)؛ ويلي

(*) اشتهر باللغة الإنجليزية كتاب تم تأليفه في القرن السابع عشر باسم رحلات البارون منشاوزن نال بالتالي شهرة عريضة وترجم إلى عدد من اللغات؛ وهي بالطبع رحلات من صنع الخيال تضم أمشاجاً من مواد ترجع إلى عصور تاريخية مختلفة. (المترجم)

هذا وصفه للسفارة إلى البغدان Moldavia والحملة على ترانسلفانيا Transylvania* والبعثة إلى البوسنة والحملة على دلماسيا ثم رجوعه إلى صوفيا (١٠٧٠ هـ - ١٠٧١هـ = ١٦٦٠). والجزء السادس تشغله الحملة على ترانسلفانيا والبعثة إلى ألبانيا ورجوعه إلى استنبول (١٠٧١هـ - ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ - ١٦٦٢)، والحملة ضد المجر ومحاصرة ايوار (Ersekujvar أو Neu Häusel)، ورحلته فى النمسا وألمانيـا وهولندا حتى بلوغه بحر الشمال. ويحتوى هذا الجزء على تفاصيل مغربة فى الخيال عن جيش من التتار عدده أربعون ألف جندى وعن الاستيلاء على ايوار وبعض قلاع المجر الأخرى وتمضيتهم الشتاء بقشلاق بلغراد (١٠٧٣ هـ - ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣ - ١٦٦٤)، ثم البعثة إلى بلاد الهرسك ورحلته إلى راغوزه Ragusa والحملة على الجبل الأسود Montenegro وكانجه Kaniza بالمجر وكرواتيا. أما الجزء السابع فمخصص لوصف النمسا والمجر والبغدان والأفلاق والقرم وداغستان وغيرها من نواحى القوقاز ودشت قبجاق واستراخان والطريق إلى ازاق Azov؛ وفى الجزء الثامن يصف القرم ابتداء من ازاق Azov، ثم كريت وسلانيك والروملى بما فى ذلك أدرنة، والجزء التاسع أفرده لوصف حجته فى عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ منذ بدايتها من استنبول وفيه يرد وصف مفصل للأناضول وسوريا والحجاز؛ أما العاشر والأخير فيحوى وصف مصر مع استطرادات تاريخية مسهبة، ثم الكلام على السودان وبلاد الحبش. هذا ويضم الجزء السابع وصفه لفينا وأوربا الوسطى حيث بلغ أوليا چلبى مدينة دنكرك؛ ويبدو أنه كان فى بداية الأمر ضمن حاشية السفير قره‌محمدباشا عام ١٠٧٥هـ = ١٦٦٤ التى كانت تضم مائة وخمسين شخصاً، ثم لم يلبث أن أتم تجواله منفرداً ولم يرجع إلى استنبول إلا بعد ثلاثة أعوام ونصف وذلك فى سنة ١٩٧٠ هـ = ١٦٦٨ مجتازاً فى طريقه بلاد السويد وبولندا وروسيا والقرم[١٦٨]. وفى العام التالى لهذا أى فى سنة ١٠٨٠ هـ = ١٦٦٩ اشترك أوليا چلبى فى حملة ضد كريت، ثم فى الحملة ضد المينا (les Mainotes) وقد تردد صدى هذا فى الجزء الثامن من كتابه:

ومصنف أوليا چلبى الذى يقع فى عشرة أجزاء بعنوان «تاريخ سياح» أو «سياحتنامه» يعد من أهم الوثائق التى تصف العصر الذى عاش فيه، فهو مصدر تاريخى فى المكانة الأولى بالنسبة لتلك الفترة ويقدم لنا فى ذات الوقت وصفاً للبلاد والشعوب التى رآها بما لايدانيه فيه أحد؛ وهو معين لاينضب فى تفاصيله التى تمس جميع مظاهر الحضارة البشرية[١٦٩]. والمتخصصون لايغضون النظر عن عيوبه ولكنهم فى الوقت نفسه لايتناسون مزاياه الساطعة، وعنه يقول موردتمان Mordtmann الذى يعد من خيرة العارفين بتركيا:

* استعمل المؤلف للتعبير عن هذا الإقليم اسم «المدن السبع» Semigrad مترجماً بهذه التسمية الألمانية المنطلقة وهى Siebenbürgen، وذلك إشارة إلى مدنه السبع الكبرى التى أنشأها المهاجرون الألمان. أما اسم ترانسلفانيا ومعناه باللاتينية «الأرض الواقعة وراء الغابة» فهو الذى شاع فى الفرنسية والإنجليزية وانتقل منهما إلى بقية اللغات. وقد عرف الترك المنطقة باسم «اردل»، وهو من التسمية المجارية Erdely أى «وراء الغابة» ومنها انتقل إلى الرومانية Ardel. والمنطقة الآن تكون جزءاً من جمهورية رومانيا. (المترجم)

« لقد كان أوليا چلبي كاتباً خصب الخيال مع جنوح واضح إلى الغريب وإلى المخاطر ؛ وهو يفضل الأسطورة على الوقائع التاريخية الجافة ويلذ له الدخول فى المبالغات بحيث يبلغ فى ذلك حد الاسفاف ؛ فإذا ما وضعنا فى حسابنا هذه النقائص فإنه يجب الاعتراف من جهة أخرى بأن كتابه ذخيرة لا تنفد فى جميع ما يمس الحياة الاجتماعية والأدب الشعبي والجغرافيا وأنه يعرض كل هذا فى أسلوب يمتاز بالبساطة والحيوية معاً »[١٧٠] . 627

أما بارتولد مع ما عهد فيه من صراحة فإنه لم يستطع إلا أن يوفيه حقه حين قال : « ومن الآثار ذات الأصالة التى دونت باللغة التركية وصف رحلة أوليا چلبي الذى يفوق كثيراً آثار الجغرافيا العربية الكلاسيكية فى غزارة مادته (الجغرافية والاثنوغرافية واللغوية) على الرغم من أنه قد أعمل فيه خياله بصورة كبيرة »[١٧١] . وقد كرر بارتولد هذا الحكم على اوليا جلبي بإيجاز فى كتابه « الحضارة الإسلامية » Kultura Musulmanstva فقال : « أوليا چلبي الذى يفوق من حيث وفرة المادة وغزارة المعلومات مصنفات خيرة الجغرافيين العرب ، على الرغم من جنوحه الواضح إلى الخيال »[١٧٢] :

وإلى مدرسة الجغرافيين العرب يجب أن نضم اسم أوليا چلبي ، فمصنفه الفذ الذى يقف نسيج وحده ينتمي بأجمعه إلى المذهب الإسلامى القديم ولايكشف عن أية معرفة بالأفكار الجغرافية الأوروبية[١٧٣] ، وهو فى هذا يقف على طرف نقيض مع معاصره الذى يكبره سناً حاجى خليفة ؛

ومما لاريب فيه أن أوليا چلبي الذى كان يزهو من وقت لآخر بما ناله من معرفة واسعة قد وجد تحت تصرفه مصادر شرقية من جميع الألوان ، بيد أن وصف رحلته يعتمد أساساً على ملاحظاته الشخصية الدقيقة كرحالة يتميز بذهن صاف ودرجة عالية من حب الاستطلاع . ومن الطبيعي أنه أخذ بعض وصف الرحلة من مصادر أخرى ، ويصدق هذا مثلا بصورة خاصة على الإحصائيات والمداخل التاريخية التى ضمنها بعض فصول كتابه . وكثير من الحكايات التى يرويها عن كرامات الأولياء والصالحين ، وهو أمر أحس على الدوام بميل شديد نحوه ، قد أخذه عن مختلف كتب « المناقب » و« الزيارات» كما أن بعض معطياته التاريخية التى ترجع إلى عهود مبكرة قد نقلها عن « تواريخ آل عثمان»[١٧٤] ؛

وليس من اليسير الجزم بأنه قد استمد مادته بطريق مباشر عندما يعالج الكلام على المسائل التى تمس الجغرافيا المحلية والمتعلقة بصفة خاصة ، ولو أن هذا لا ينفى من جهة أخرى أن ما دونه فى هذا المجال ربما كان صدى لقراءاته فى الماضى لمؤلفين جغرافيين أولحصوله على معلومات ذات طابع جغرافى : وقد أثبت تيشنر بما لايدع مجالا للشك أن أوليا چلبي لم يكن على معرفة « بجهاننما » لمعاصره حاجى خليفة الذى يكبره فى السن ، ولكنه فى مقابل هذا عرف عن كثب« مناظر العوالم » لمحمد عاشق الذى كان أقرب إليه فى روحه . وتنعكس معرفته بهذا الأخير فى أنه عرف جيداً نظام توزيعه الجغرافى للأقاليم إلى أقاليم بطلميوسية « أقاليم حقيقية » من جهة ، وإلى أقاليم وفق منهج أبى الفدا « أقاليم عرفية » ، أى 628

مناطق جغرافية (geographical regions) ، من جهة أخرى[١٧٥] . ولعل معرفته بالجغرافيين العرب والفرس التى تنعكس فى بعض صفحات كتابه قد جاءته عن طريق «مناظر العوالم» المذكور ؛ وتكثر هذه المعلومات بوجه خاص عندما يعالج الكلام على المناطق الإسلامية القديمة مثل العراق[١٧٦] التى يقدم لنا مجموعة وافرة من المعطيات عن تاريخها القديم . أما ذكر المصـــادر الغربية لديه فإنه عند المقارنة بالمصادر الشرقية إنما يأتى عرضاً ولايلعب دوراً ذا أهمية سواء من حيث الكم أو من حيث مكانة المصدر نفسه ، ولا يتجاوز ذلك «أطلس مينور» Atlas Minor (الأطلس الصغير) الذى قد عرفه بلاشك عن طريق مسودة حاجى خليفة ، ثم خارطة للعالم Mappa Mundi يحيط بها الشك ويبدو أنها ذات طابع عام يجعل من العسير التثبت من أصلها[١٧٧].

من كل هذا يتضح لنا أن المصادر المكتوبة لاتلعب دوراً كبيراً فى مصنف أوليا چلبى وأن وصفه للموضوعات الجغرافية فى جميع الأقطار التى زارها إنما يعتمدفى معظم الأحوال على ملاحظاته الشخصية المباشرة . ولهذا فإن مادته تتميز بالأصالة والشخصية أكثر من مادة محمد عاشق وحاجى خليفة وتعد مصدراً قائماً بذاته فيما يتعلق بالأقطار والشعوب التى تناول الكلام عليها هؤلاء المؤلفون الثلاثة . ومع ذلك فإنه يجب الاحتراز من الإفراط فى الثقة بروايته ، خاصة وأنه ليس من عادة أوليا چلبى أن يشير إلى المصادر التى قد يحدث أن تتسرب إلى المتن فى بعض الأحايين دون أن يلتفت القارئ إلى ذلك . كما يجب أن نضيف إلى هذا أن المؤلف لايخلو من بعض العجب بنفسه ومن الميل إلى المبالغة ، وأسوأ من ذلك أنه يعمد أحياناً إلى العبث بالحقائق ومن ثم فليس غريباً أن تجد طريقها إلى الكتاب بعض الأخطاء وبعض الأحكام المتعسفة . لهذا كله فإن دراسة المصنف والإفادة منه فى البحث العلمى يحتاج دائماً إلى اعمال التحفظ وبذل العناية الشديدة ؛ ولاشك فى أن النتائج التى يمكن الحصول عليها بعد ذلك ستكون ذات قيمة كبرى بالنسبة للباحث[١٧٨] . وكما هو الشأن مع العلماء الذين أوردنا رأيهم فى أوليا چلبى فإن تيشنر بدوره لم يتنكب الصواب حينما عد أوليا چلبى جغرافيا كبيراً بل وبوأه مركز الصدارة فى الجغرافيا الوصفية بين الأتراك العثمانيين . وإذا كان محمد عاشق قد اختتم المذهب القديم فى الجغرافيا التقليدية الذى ساد فى العصور الوسطى فإن أوليا چلبى يختتم هو الآخر أيضاً سلسلة الجغرافيين الرحالة من أهل الشرق الذين جابوا الآفاق ودوخوا البلاد[١٧٩]

ولايمكن القول بأن المجهودات التمهيدية التى بذلت فى دراسة أوليا چلبى ومتنه ، أوالأبحاث التى أجريت فى هذا الصدد ، تتناسب مع ما هو عليه من أهمية ؛ وقد عقد من المسألة تلك الأوضاع التى أحاطت بالطباعة فى تركيا أوعلى الأصح بالرقابة على المطبوعات بحيث لم ير النور منذ عام ١٢٥٨ هـ = ١٨٤٣ سوى مختارات من الجزء الأول ومقتطفات ضئيلة من الأجزاء التالية وهذه لم يكن من شأنها أن تقدم أية فكرة عن الكتاب فى مجموعه . فقط وفى عام ١٣١٤ هـ — ١٣١٥ هـ = ١٨٩٦ — ١٨٩٧ بدأ نجيب عاصم

620

فى إخراج طبعة كاملة تعتمد على مخطوطة محفوظة باستنبول ولم تلبث الطبعة أن توقفت لفترة طويلة بعد صدور الجزء السادس فى عام ١٣٠٨ هـ = ١٩٠٠ ؛ وفى عام ١٩٢٨ ظهر الجزآن السابع والثامن[١٨٠] ثم تلاهما فى عام ١٩٣٥ التاسع وأخيراً الجزء العاشر فى عام ١٩٣٨ ؛ وقد ظهرت هذه الثلاثة الأخيرة بالأحرف اللاتينية . وإلى جانب ما يسود هذه الطبعة من تباين واختلاف مرده إلى أنها استغرقت نصف قرن بالتقريب لتخرج كاملة فإنه لا يمكن بأية حال القول بأنها طبعة علمية أو أنها ترضى مطالب البحث العلمى الحديث ، فالمتن من ناحية لم يتم إعداده بطريقة نقدية منهجية زد على هذا أن الرقابة قد ناخت بكلكلها على الأجزاء الستة الأولى[١٨١] فأحدثت بها الكثير من التشويه ، لكل هذا فإن الحاجة ماسة للغاية إلى ظهور طبعة علمية جديدة تعمل حساباً لكل المخطوطات العديدة التى تم الكشف عنها إلى الآن[١٨٢] .

وفى بداية القرن التاسع عشر ترجم هامر Hammer بعض مواد لغوية جمعها أوليا چلبى عن اللغتين الكردية والتتارية[١٨٣] وأتبع ذلك بترجمته للجزئين الأول والثانى من الكتاب وذلك فى الأعوام ١٨٣٤ و١٨٤٦ و١٨٥٠ معتمداً فى هذا على مخطوطة فى حوزة الجمعية الأسيوية الملكية The Royal Asiatic Society . وكما هو الحال دائماً مع هذا المستشرق فقد قام هنا أيضاً بدور الرائد الذى يكشف عن طريق جديد ولكنه جمع إلى ذلك العيوب المعهودة فى تآليفه . وفى خلال القرن الذى تلا هذا لم يظهر أى إنتاج بالتقريب بخلاف الترجمة الهنغارية للجزء السادس المكرس فى معظمه لبلاد المجر ؛ أما الأجزاء الأخرى فلم يظهر منها فى الترجمة سوى شذرات متفرقة داخل أبحاث شتى وهذا يصدق مع الأسف على الأقسام التى تناول فيها الكلام على جنوبى روسيا وشعوب الاتحاد السوفيتى بوجه عام خاصة وأن المادة التى جمعها عنهم أوليا چلبى ليست بالقليلة ولم تدرس إلى الآن إلا فى أبحاث ومقالات قليلة ومتفرقة بحيث يمكن القول بأن هذه المادة لاتزال تنتظر البحث . كذلك لاتزال فى حاجة إلى الدراسة المسائل المتعلقة بالتاريخ الأدبى « لتاريخ سياح » ، ولعل البحث الوحيد الذى مسها بصورة عامة وعاجلة هو دراسة رتشارد هارتمان R. Hartmann عن رحلة أوليا چلبى فى أرض الجزيرة[١٨٤] .

وقد ركز هارتمان اهتمامه بصورة رئيسية على نقاط معينة فى وصف أوليا چلبى كخط سير الرحلة ومجارى الأنهار وموقفه من الآثار التاريخية والمعتقدات الشعبية . وجميع هذه المسائل بلاشك ذات مغزى كبير بالنسبة للمصنف فى مجموعه وبالنسبة للمنهج العام الذى اتبعه المؤلف . من الغريب أن نجد مؤلفاً متأخراً مثله تكون لرواياته أهمية كبرى بالنسبة للجغرافيا التاريخية للشعوب القديمة ، فطرق المواصلات قد احتفظت فى حالات عديدة بنفس اتجاهها على مر قرون طويلة . مثال ذلك أن الطريق من سيواس إلى ملطية يتفق فى جوهره مع الوصف القديم الموجود فى « وصف طريق انطونينوس » Itinerarium Antonini بصورة يقدم لنا معها أوليا چلبى أفضل تعليق على وصف الطريق القديم[١٨٥] ؛ وفى حالات أخرى لاتخلو معطياته من الطرافة فهى فى ذلك أشبه ما تكون بتعليقات بلينيوس Plinius[١٨٦] .

ووصفه للطرق بوجه عام يوكد وجهة النظر الغالبة والتى مؤداها أن أوليا چلبى لم يعمد إلى الخداع بل إن روايته توحى بالثقة منذ اللحظة الأولى [١٨٧] . وإذا حدث أن وقف القارئ موقف الحذر من مادته فإن هذا لا يمس سوى ناحية تناوله لمصادره وموقفه ممن زودوه بالمعلومات . ففكرته مثلا عن روافد دجلة ليست سوى هراء وهى غير جديرة بالثقة لدى مقارنتها بمادة حاجى خليفة التى تنم عن معرفة جيدة بهذا الموضوع [١٨٨]، وعلى الرغم من هذا فلا ينبغى أن تغطى عيوبه على محاسنه لأنه كان شاهد عيان لكثير مما وصفه ولو أن لديه بلا شك نقاطاً عديدة اتبع فيها مصادر غير جديرة بالثقة وهو عندما يقف عند حد تدوين ما شاهده بعينى رأسه فإنه يستحق ثقتنا إلى درجة كبيرة على الرغم من أخطائه ومبالغاته [١٨٩] ، أما حين يتبع رواية الآخرين فإنه يتردى بسهولة فى الخطأ نتيجة لسرعة تصديقه ولو أنه يجب ألا يدان فى صرامة على هذا الموقف [١٩٠] .

وأوليا چلبى يتمتع بدرجة كبيرة من حب الاستطلاع ، مثال ذلك أنه أولى اهتماماً خاصاً للآثار « الكلدانية » القديمة بالعراق وآسيا الصغرى ، وهى نفس تلك الآثار التى أخذت تلعب دوراً هاماً فى العلم الأوربى فى القرن العشرين [١٩١] ؛ ولقد أثارت عجبه أكثر من مرة هذه الآثار المنحوتة فى الصخور كما أثارت من بعد عجب الرحالة فى العصور التالية [١٩٢] ، كذلك اجتذبت اهتمامه الأبنية ذات السراديب التى تكثر فى تلك النواحى [١٩٣] . ولاشك أن المسافر الذى جال كثيراً فى تلك البقاع سيدهش لدقته الكبرى فى وصف الجسور التى مر عليها أو التى وردت فى روايته [١٩٤] بحيث يتضاءل أمام وصفه لها وصفه للخانات (الفنادق) التى نزل بها [١٩٥] .

ـ وتكمن الصلة الحقيقية بين ابن بطوطة وأوليا چلبى بصورة قوية فى أن كليهما يجعل الآدميين محور اهتمامه : ورحالتنا يولى اهتماماً شديداً لتفصيل الكلام على الأوضاع السياسية فى البلاد التى زارها ويقدم 631 نماذج للغاتها ولهجاتها ، الأمر الذى لا يتوفر لدى معظم الرحالة . ومما لاشك فيه أنه لا يفتقر إلى المقدرة على وصف أخلاق وعادات الجماعات التى مر عليها ، زد على ذلك أن مادة ضخمة ذات طابع حضارى وتاريخى قد تناثرت خلال صفحات كتابه الضخم . ولكن مما يؤسف له حقاً أنه قد استقى معلوماته فى هذا الصدد من شتى ألوان الخرافات التى اعتقد فى صحتها بمنتهى السهولة ولو أنه لم يتخل أبداً عن مقدرته فى الملاحظة . وهو كثيراً ما يعالج خلال كلامه على المدن الكبرى الحديث على الأطعمة وعلى حرف الأهالى ، ويصف ذلك فى العادة فى خطوط حية ومعبرة تقدم لنا لوحة واضحة متعددة الجوانب والألوان لحياة السكان المحليين :

وكما هو أمر طبيعى بالنسبة لشخص من وسطه وعصره فإن أوليا چلبى يولى اهتماماً خاصاً للكلام على الدين وطقوس العبادة فى الأماكن التى زارها . وفى كلامه على القرى فإنه يلاحظ دائماً بالكثير من الدقة أحوال سكانها وما إذا كانوا مسلمين أم نصارى أم من الأرمن [١٩٦] ، كما أنه فى وصفه للمدن يقف

بانتظام للكلام على مواضع الزيارات فيها ويقص معجزات الأولياء وبركات المواضع المقدسة[١٩٧] مما يقرب كثيراً بينه وبين على الهروى السابق عليه فى هذا المضمار . وحتى فى رواياته هذه أيضاً فإنه يتصف بالصدق من وجهة النظر الذاتية بل ويستحق الثقة على الرغم من أنه يقف موقف غير الناقد من كل هذه المعجزات والغرائب التى عدها حقائق واقعية[١٩٨] . وهو يولى أحياناً اهتماماً ليس بالقليل للمعتقدات الدينية بين النصارى[١٩٩] ، ومما هو جدير بالثناء أنه لا يركز اهتمامه فى المعتقدات الرسمية السائدة بين صفوة النصارى والتى يعرفها جيداً بقدر ما يجهد فى تصوير معتقدات الكتل الشعبية[٢٠٠] . وكل هذا يعطى الحق الكامل للدوائر العملية المعاصرة لتعترف به كآخر رحالة كبير يختتم بحق سلسلة الرحالة الكبار للشرق الأدنى* .

لقد كان القرنان السادس عشر والسابع عشر عهد ازدهار وانتعاش بالنسبة للأدب الجغرافى التركى ، ففى البداية يقابلنا التطور المزدهر فى محيط الجغرافيا الملاحية ، أما فى نصفه الثانى فيقدم لنا ثلاث شخصيات متباينة كل التباين ولكن كل واحدة منها تمثل أهمية خاصة وتشغل مكانة كبيرة وتتصف بالأصالة ، أعنى بذلك محمد عاشق وحاجى خليفة وأوليا چلبى . فهم قد بزّوا غيرهم فى هذا المجال ولا يمكن بأية حال مقارنة الآخرين بهم . ومن الطبيعى أن تستحق بعض شخصيات القرن السابع عشر اهتماماً معيناً ، كما أنه من الممكن أن تكشف الدراسة العميقة بمرور الزمن عن دورهم بصورة أكثر جلاء مما هو عليه الآن .

ومثل هذا الحكم يصدق على متمم حاجى خليفة ومكمل عمله الذى غطى عليه أيضاً هذا الأخير رغماً مما يتمتع به من قدر معين من الأصالة | لا يرقى إليه الشك ، ذلك هو أبو بكر بن بهرام (توفى عام ١١٠٢هـ = 632 ١٦٩١) الدمشقى مولداً والذى أمضى معظم أيام حياته باستنبول وحلب[٢٠١] . فهو قد امتاز باطلاعه الواسع ، وإذا حدث أن كان اسمه غير معروف بالتقريب إلى أيامنا هذه فإن مرد ذلك إلى حد كبير على ما يبدو إلى أن مؤلفاته ظلت باقية على هيئة مخطوطات ولو أن عددها كبير بشكل ملحوظ . وإلى جانب

* بمناسبة انتهاء كلامه على أوليا چلبى ، يجب أن نوافق المؤلف على رأيه فى الطبعة التركية (والوحيدة) لمصنفه ؛ ولاشك أن الحاجة لاتزال ماسة الى خروج طبعة علمية منقحة ومزودة بالتعليقات بقلم المتخصصين . ويجب أن نعترف بالفضل لبعض العلماء الأوروبيين ممن عالجوا جوانب مختلفة من المصنف . وفى هذا الصدد أشير إلى الدراسات التى ظهرت فى الآونة الأخيرة :

١ — عن رحلته فى الاتحاد السوفيتى :

— Evliya Celebi, Kniga Puteshestvia, Izvlechenia iz Sochinenia Turiskogo Puteshestvennika 17 veka. Perevod I Kommentarii, Sostavitel A. D. Jeltyakov, red. A. S. Tveritinova Vypusk I, Zemli Moldavii I Ukrainy, Moskva, 1961.

٢ — عن رحلته فى يوغوسلافيا :

— Evlija Celebija, Putopis Odlomici o Jugoslobenskim Zemljama. Preveo, Uvod I Kommetar Napisse Hazim Shabanovic, 2 vols, Sarajevo, 1957.

٣ — عن رحلته إلى فيينا :

— Im Reiche des Goldenen Apfels. Des türkischen Weltenbummlers denkwürdige Reise. in das Giauerenland und in die Stadt und Festung Wien anno 1665 Übers., eingeleitet u. erklärt von R. Kreutel. Graz, 1957. (المترجم) .

تتمته « لجهاننما » التي ذكرناها في موضعها فقد وضع في عام ١٠٨٦ هـ = ١٦٧٥ بتكليف من السلطان محمد الرابع مصنفاً في ستة أجزاء بعنوان « جغرافياى كبير » ، اختصره فيما بعد في جزئين . وكلا المصنفين معروف في نسختين فاخرتين رفعتا إلى الأعتاب السنية وفي مسودات لم يبيضها المؤلف . ويرى بعض المؤلفين الأتراك في مصنفه هذا ترجمة مصلحة لمؤلف كتب أصلا باللاتينية ، وقد استطاع بابنجر أن يدلل أن نفس هذا المصنف يحمل عنواناً آخر هو « نصرة الإسلام والسرور في تحرير أطلس مينور » وأن يرى مصدره في « الأطلس الكبير » Atlas Major للعلامة الهولندي بلاى W. — J. Blaeu (١٥٧١ — ١٦٣٨) الذي نال رواجاً كبيراً في أوربا لذلك العصر ؛ وهو فرض مغر خاصة وأن السفير الهولندي قد رفع نسخة من هذه الطبعة اللاتينية بالذات كهدية إلى السلطان العثماني في عام ١٦٦٨ ولهذا فمن حقنا أن نضع ابن بهرام في عداد الجغرافيين ذوي المكانة ممن نحوا في الجغرافيا منحى حاجي خليفة بل وربما ترسم خطاه في هذا الميدان(٢٠٢) .

ويقف دليلا على الرباط الوثيق الذي ربط في ميدان الجغرافيا بين النواحي المختلفة للإمبراطورية العثمانية في تلك الآونة مصنف ينتمي إلى نمط الجغرافيا الإقليمية من جهة وإلى نمط الخطط من جهة أخرى . وصفي الدين عيسى القادري أحد كبار رجال طائفة النقشبندية ، وأصله من مندلي بإيران ، وضع مصنفاً باللغة التركية عام ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦ بعنوان « جامع الأنوار في مناقب الأخيار » وهو عبارة عن تاريخ من دفنوا ببغداد ونواحيها من الأولياء والصالحين ؛ وقد أكمله المؤلف بنفسه إلى عام ١٠٩٢ هـ = ١٦٨١(٢٠٣) . وإذا كان المؤلف قد اعتمد أساساً فيما يتعلق بتاريخ الأزمنة السالفة على المؤلفات المشهورة لابن خلكان وبصورة خاصة للكاتبين الفارسيين جامي وميرخوند فإنه يمكن أن يعد فيما يتعلق بالأزمنة المتأخرة مصدراً من الدرجة الأولى في مجالي الطبوغرافيا والأثنوغرافيا ، وينعكس هذا جلياً في الأبحاث التي كتبها عن بغداد المستشرقان الفرنسيان هوار Huart وماسينيون Massignon اللذان أفادا كثيراً من مادته . ومن الطبيعي أن يثير مصنف صفي الدين اهتمام العلماء العرب ببغداد فنقله إلى العربية في القرن التاسع عشر بعض أفراد أسرة الآلوسي المشهورة التي قدمت لنا عدداً من العلماء .

وتقدم لنا الآثار التاريخية المختلفة التي دبجتها أقلام المؤلفين الأتراك في القرن السابع عشر مادة جغرافية حافلة ؛ ويجب ألا يدهشنا هذا في شيء فقد كان ذلك أمراً معتاداً في العصور الأدبية المختلفة بل وحدث أن أشرنا في خلال عرضنا إلى أمثلة عديدة من هذا القبيل . ولكننا سنقتصر في هذه المرة على مثالين أحدهما مصنف معروف جيداً للمؤرخ حسين هزارفن(٢٠٤) بعنوان « تلخيص البيان في قوانين آل عثمان » الذي توجد أفضل مخطوطاته بمعهد الدراسات الشرقية(٢٠٥) وترتفع إلى عام ١٠٨٠هـ = ١٦٦٩ ؛ وينقسم الكتاب إلى ثلاثة عشر فصلا وهو أشبه ما يكون بعرض عام للتشريعات القانونية الكبرى لعهد السلطان محمد الرابع وللنظم الحكومية في ذلك العصر . ومن البديهي أن فصولا منه تدخل بأجمعها في نطاق الجغرافيا ،

633

فالفصل الثانى مثلا مفرد لبناء القسطنطينية وآثار الأباطرة البيزنطيين وللأبنية التى شيدت فى العهد العثمانى ووصف القصر السلطانى وكنوز السلاطنة العثمانيين. ويتناول عدد من فصوله الكلام على الضرائب وإدارة الأراضى مع تحليل مفصل لأشكالها المختلفة. ويعالج الفصل العشرون الكلام على التعدين والملاحات وتخطيط بعض المدن الخ. وأقرب المؤلفات شبهاً إلى كتاب هزارفن هى تلك المداخل الإدارية الدواوينية لعصر المماليك من نوع كتاب خليل الظاهرى التى وقفنا عندها حيناً من الوقت؛ ومثل هذه الأخيرة فإن كتاب هزار فن يمثل أهمية كبيرة بالنسبة للجغرافيا السياسية وبوجه خاص الجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية.

أما المثال الثانى الذى وقع عليه اختيارنا فهو المؤرخ منجم باشى (توفى عام ١١١٣ هـ = ١٧٠٢) الذى عالج التأليف عن منطقة تتصل اتصالا مباشراً بوطننا السوفيتى. وهو تركى أصله من سلانيك وكما يبدو من اسمه فقد شغل وقتاً ما وظيفة منجم بالبلاط ولكنه أمضى الأعوام الأخيرة من حياته بمكة والمدينة مغضوباً عليه؛ وهو قد دون مصنفه الأساسى «جامع الدول» باللغة العربية ولكنه اعتمد فيه على مصادر باللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية، ويشمل الكتاب تاريخ الفترة السابقة لعام ١٠٨٣ هـ = ١٦٧٢ ولم يترجم الكتاب إلى اللغة التركية إلا عقب وفاته، وذلك فى الأعوام ١١٣٢ هـ – ١١٤٢ هـ = ١٧٢٠ – ١٧٣٠، بعنوان «صحائف الأخبار»، ثم طبعت هذه الترجمة فى عام ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ فى ثلاثة أجزاء تضم نحواً من ألفين ومائتى صفحة[٢٠٦]. ومنذ عهد ليس بالبعيد أثبت أحمد زكى وليدى اعتماداً على المخطوطة العربية الموجودة باستنبول أن منجم باشى قد اعتمد على مصنف تاريخى جغرافى مشهور تم تدوينه باللغة العربية هو «دربند نامه» الذى يبحث فى تاريخ باب الأبواب وما وراء القوقاز[٢٠٧]. ويكتسب هذا الرأى أهمية خاصة إذا ما أخذنا فى حسابنا أن المؤرخ الكبير بارتولد قد نفى نفياً باتاً وجود الأصل العربى لهذا المصنف الأخير[٢٠٨]؛ ويبدو أن البحث الخاص الذى وعد زكى وليدى بكتابته حول هذه المسألة لم ير النور إلى لحظة تدوين هذه السطور.

634 وعلى الرغم من هذين المثالين اللذين وقفنا عندهما فإن من المستحيل أن ينكر أحد أن المذهب العربى، والإسلامى عامة، قد خبا نوره بين الأتراك العثمانيين بعد حاجى خليفة وأوليا چلبى فقد أخذ تأثير الأدب الأوروبى ونفوذه يزداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ فى بعض الأحايين درجة من القوة استطاع معها أن يطرد المؤلفات الأدبية الأصيلة ويرجع بها إلى الصف الخلفى[٢٠٩]؛ غير أن فن التاريخ وحده هو الذى أبدى مقاومة عنيفة أمام هذا التأثير وذلك لارتباطه الوثيق بنظام الدولة نفسها، ويتمثل هذا من جهة فى وجود المؤرخين الرسميين للبلاط الذين بقوا يشغلون هذا المنصب مابقى نظام الحكم العثمانى العتيق أى حتى عهد ثورة «تركيا الفتاة» Yeni Osmanlilar بالتقريب؛ وليس ثمت داع إلى أن نضيف أن معظم أولئك المؤرخين قد قنعوا بتقليد النماذج القديمة[٢١٠]. وقد أخذت أوروبا بما بلغته من شأو وتقدم تجتذب أنظار العثمانيين

فى جميع مجالات الحضارة الروحية والمادية بشكل مضطرد ووجدت الاتجاهات الحضارية القادمة من أوروبا فى ذلك العهد مدخلا سهلا إلى العثمانيين فى أثناء فترة الانتفاضة التى حاولوا فيها استعادة مجدهم القديم أثناء سلطنة أحمد الثالث ووزيره الداماد إبراهيم باشا عندما حدث ما اصطلح البعض على تسميته « استعادة المجد القديم فى زى جديد » ؛ وتتمثل إحدى مظاهر هذه الحركة التجديدية فى إدخال فن الطباعة بالحروف العربية فى عام ١١٤١ هـ = ١٧٢٩[٢١١] . ولعلنا نرى لهذا السبب أن من حقنا أن نقول إن أهم ظاهرة فى محيط الأدب الجغرافى للقرن الثامن عشر لم تكن تلك المصنفات المختلفة أو المؤلفين المختلفين الذين عالجوا التأليف فى هذا المجال بقدر ما تمثلت فى قيام فن الطباعة بتركيا الذى ساهم منذ اللحظة الأولى تقريباً فى نشر وترويج عدد من أهم الآثار الجغرافية القديمة والحديثة .

ويرتبط ميلاد هذه الفكرة بل وإخراجها إلى عالم الوجود ارتباطاً وثيقاً باسم إبراهيم متفرقة (حوالى عام ١٦٧٤ — ١١٦٠ هـ = ١٧٤٧)[٢١٢] ، وهو مجرى الأصل وكان يتهيأ فى صباه ليكون من رجال الدين ولكنه وقع فى أسر الأتراك منذ عام ١٦٩٣ ودخل فى الإسلام ؛ وقد عاونه ميله إلى الدراسات التاريخية والجغرافية وموهبته التى لا يتطرق إليها الشك فى مجال التنظيم فى أن يصبح من كبار رجالات العلم والأدب فى الدولة العثمانية ومن أكثرهم نشاطاً وحيوية[٢١٣] . وتاريخ إدخال فن الطباعة إلى الدولة العثمانية مدروس فى جميع جوانبه بفضل عدد من الأبحاث الجادة التى ظهرت فى الآونة الحاضرة ، وإن ظروف ذلك العهد لتكشف لنا بوضوح تام لماذا كان من شروط السماح بدخول آلة الطباعة هو أن تقلع تماماً عن طبع أى كتاب له علاقة بالقرآن والحديث . وقد كان هذا نعمة كبرى بالنسبة للعلوم « الدنيوية » خاصة التاريخ والجغرافيا اللذين اجتذبا عناية إبراهيم متفرقة بشكل خاص[٢١٤] حتى أنه لا يوجد أقل من ستة كتب ترتبط بموضوعات ذات طابع جغرافى من بين السبعة عشر كتاباً التى تقع فى ثلاثة وعشرين جزءاً التى أخرجتها مطبعته . ففى العام الأول لنشاطها أخرجت المطبعة (١١٤١ هـ = ١٧٢٩) « تحفة الكبار » لحاجى خليفة[٢١٥] ؛ وفى العام الذى تلاه (١١٤٢ هـ = ١٧٢٩) خرجت الترجمة التركية لمصنف باللاتينية من وضع علامة يسوعى عاش طويلا بإيران هو الأب كروزينسكى Krusinski بعنوان « ترجمة تاريخ سياح » ، وهو يبحث فى الحرب مع الأفغانيين وسقوط دولة الصفويين[٢١٦] . وبالنسبة لظروف العلاقات السائدة آنذاك بين العثمانيين وإيران فإن هذا الموضوع كان يهم بصورة خاصة الدوائر الرسمية العثمانية ، كما أن الكتاب فى حد ذاته لم يكن خلواً من الأهمية فى تفاصيله الجغرافية والتاريخية . وفى عام ١١٤٢ هـ = ١٧٣٠ ظهر « تاريخ الهند الغربى »[٢١٧] ، ثم ظهرت خلال عامين من هذا رسالة موجزة فى ثلاث وعشرين صفحة من القطع الكبير من تأليف إبراهيم متفرقة نفسه بعنوان « فيوضات مغنطيسية » وبالنسخة مصوران منقوشان يمثلان « الوردة المغناطيسية » ؛ ولم يمكن التثبت من مصـــدره حتى الآن . ويذكر تسلسيوس Celsius أن المؤلف قد جمع معطياته من كتاب عربى ،

635

غير أن افتتاحية الكتاب نفسه تتحدث عن « كتب لاتينية »[٢١٨]. ولعل أكبر خدمة قدمتها هذه المطبعة هي نشرها لكتاب « جهاننما » لحاجي خليفة في عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢[٢١٩] . أما آخر السلسلة الجغرافية فيمكن أن نعده مصنف علامة بوسنوى من أهل نوڤى Novi يدعى عمر ويحمل عنوان « أحوال غزوات درديار بوسنه » ، وقد تم طبعه في عام ١١٥٤ هـ = ١٧٤١[٢٢٠] ؛ وهو قصة ممتعة للغاية من وجهة نظر التاريخ الحضارى مكتوبة بأسلوب سهل يتميز بالحيوية[٢٢١] ومسرودة على لسان حكيم أوغلو على باشا عن الحوادث التي جرت في البوسنة بين عام ١١٤٩ هـ = ١٧٣٦ ومارس ١١٥٢ هـ = ١٧٣٩ أثناء الحرب مع النمسا . وكان المؤلف معاصراً لهذه الحوادث وأخذ طرفاً فيها ، ولأهمية روايته فقد ترجمت إلى الألمانية (١٧٨٩) والإنجليزية (١٨٣٠) . ومن هذا يتضح لنا أن المطبعة قد دفعت بمطبوعاتها إلى رواج المؤلفات الكبرى القديمة من جهة وإلى استيفاء المطالب المعاصرة من جهة أخرى ، وكانت خدماتها بالنسبة لأدب التاريخ ليست بأقل مما هو عليه الحال مع أدب الجغرافيا ، ويكفي أن نذكر في هذا المجال « تقويم التواريخ » لحاجي خليفة (١١٤٦ هـ = ١٧٣٣)[٢٢٢] ، ثم طبعتها الأساسية لتواريخ آل عثمان الكبرى (١١٤٧هـ — ١١٥٣ هـ = ١٧٣٤ — ١٧٤١)[٢٢٣] . ومما يؤسف له حقاً أن نشاط المطبعة قد توقف منذ عام ١١٥٥هـ = ١٧٤٢ عقب نشرها للمعجم الفارسى التركى الضخم لشعورى[٢٢٤] ؛ وليست واضحة لنا تمام الوضوح الأسباب التي تقف وراء هذا .

636 وفيما يتعلق بالجغرافيا فإنه يجب ألا نغفل ذكر أن إبراهيم متفرقة قد طبع بضعة خارطات متفرقة ليس من السهل دائماً تحديد زمنها بدقة . ومن الطريف أن كلا النقاشين اللذين قاما برسم الخارطات من أصل شرقى على ما يبدو ، فأحدهما كان يدعى أحمد القريمى أما الآخر فأرمنى يدعى مغردج الغلطوى ؛ ومن الواضح أن الخارطات الثلاث التي بقيت قد عملت بأهداف تتصل بسياسة الدولة العثمانية في ذلك العصر فإحداها تمثل خارطة لبلاد الفرس مع جزء كبير من الأناضول وبعض أراضى الدولة العثمانية أما الثانية فخارطة للبحر الأسود مبينة عليها الموانى وبعض الأراضى المتاخمة من القارتين[٢٢٥] الأوروبية والأسيوية على حين أفردت الثالثة لمصر وحدها . هذه الخارطات على ما يبدو لا ترتبط في شيء بالخارطات التي تزين طبعة « جهاننما » ولو أنه توجد بين هذه الأخيرة خارطات قصد بها أن تكون منفصلة ؛ وهذا يدفعنا بدوره مرة ثانية إلى الرجوع إلى المسألة المتعلقة بمصورات مصنف حاجي خليفة إذ لا يوجد ثمة شك في أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنشاط إبراهيم متفرقة وليست لها علاقة بحاجي خليفة نفسه . وفيما عدا هذا فإن جميع المسائل الأخرى يجب أن تبقى مطروحة على بساط البحث .

ونسخ هذه الطبعة تمثل شيئاً نادراً للغاية ، وأكثر ندرة من ذلك أن تحتفظ النسخ بالمجموعة الكاملة للرسوم التي تبلغ الأربعين في عددها ؛ ومما يزيد في صعوبة دراستها افتقارها إلى الترقيم زد على هذا أن الملازم قد اختلطت عند جمعها ووقعت في غير مواضعها المعينة لها . وفي نسخة معهد الدراسات الشرقية

التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية والتى رقمها المستشرق فرين Frähn يبلغ عدد المصورات وفق ترقيمه الأربعين ، أو التسعة والثلاثين مصوراً على الأصح[٢٢٦] لأن فرين أعطى الرقمين الرابع والخمس لخارطة العالم المرسومة على ورقة مطوية . وتحفل المقدمة بشكل خاص بعدد من الرسوم فيها عدد من الرسوم التخطيطية والجداول ، ثم يلى هذا الخارطات التى تتعاقب الواحدة تلو الأخرى إلى آخر الكتاب . وهذه الخارطات هى الآتية : (١) الدائرة السماوية (أمام عنوان الكتاب) ، (٢) نماذج لأشكال هندسية (ص ٨) ، (٣) رسوم توضح كروية الأرض (ص ١٩) ، (٤) و(٥) العالم وفقاً لبطلميوس (ص٢١) ، (٦) مصور آخر للعالم (ص ٢٥) ، (٧) خارطة السماء (ص ٢٧) ، (٨) القباب السماوية وفقاً لبطلميوس (ص ٣٣) ، (٩) توزيع اليابس والماء (ص ٤٩) ، (١٠) «الربع» المعمور وجداول الأقاليم (ص ٥١) ، (١١) جدول الأقاليم والمسافات (ص ٥٧) ، (١٢) «وردة الرياح» (ص٥٩) ، (١٣) بيت الإبرة «البوصلة» (ص ٦٥) ، (١٤) نصف الكرة (ص٧١) ، (١٥) البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود (ص ٧٥) ، (١٦) البحر الأدرياتيكى (ص ٧٧) ، (١٧) سواحل تركيا على البحر الأبيض المتوسط (فى نفس الصفحة) ، (١٨) خارطة مسطحة لنصفى الكرة (ص ٩١) ، (١٩) أوروبا (ص ٩٩) ، (٢٠) أفريقيا (ص ١٠١) ، (٢١) آسيا (ص١٠٣) ، (٢٢) أمريكا (ص١١٣) ، (٢٣) القطبان الشمالى والجنوبى (ص١١٩) ، (٢٤) اليابان (ص ١٢٥) ، (٢٥) غينيا (فى نفس الصفحة) ، (٢٦) جزر الهند الصينية (ص ١٣١) ، (٢٧) خارطة أخرى لها ، (٢٨) خارطة جزر «ملوكه Moluccas» (ص ١٣٥) ، (٢٩) سومطرة (ص ١٤٣) ، (٣٠) أرخبيل الملايو وجزر الفلبين (ص ١٤٥) ، (٣١) الصين (ص ١٥٣) ، (٣٢) دول السهوب الكبرى «ممالك دشت كبير» (أى سيبريا — وآسيا الوسطى ، ص ١٦٥) ، (٣٣) الهند (ص ١٩٣) ، (٣٤) إيران فى عهد الصفويين (ص ٢٨٩) ، (٣٥) ماوراء النهر (ص ٣٢٧) ، (٣٦) القوقاز (ص ٤٣١) ، (٣٧) جزيرة العرب (ص ٣٨٤) ، (٣٨) آذربيجان (ص ٤٨٧) ، (٣٩) آسيا الصغرى (ص ٦٢٩) ، وأخيراً (٤٠) البوسفور «خليج القسطنطينية» (ص٦٧١) .

637

وجميع هذه المصورات ترتفع إلى أصل أوروبى صرف ولايوجد بها من العنصر التركى سوى التسميات الجغرافية ؛ غير أن بعضها يستحق أن نقف عنده بوجه خاص فمثلا مصور العالم (رقم ٦ على صفحة ٢٥) المرسوم على ورقة مطوية يحمل عنوانا خاصاً لا بالتركية وحدها بل وبالعربية أيضاً وذلك على عكس ما هو عليه الحال مع بقية الخارطات ، وفوق هذا فقد بيّن عليه تاريخ منفصل بالعربية نصه كالآتى : «رسمت وطبعت هذه الصورة المرغوبة بدار الطباعة العامرة فى البلدة الطيبة قسطنطينية سنة اثنا وأربعين ومائة وألف» ؛ وقد أضيفت أسفل هذا عبارة بالعربية أيضاً نصها «على يد الحقير إبراهيم الجغرافى من متفرقكان دركاه عالى» . وإذا كان المقصود من ذكر هذا التاريخ الذى يسبق فى الواقع تاريخ الطبعة بثلاثة أعوام هو الإشارة

إلى أن إعداد الطبعة قد أخذ وقتاً طويلا فإن أسلوب هذا التوقيع كله ليقف دليلا على أن المصور ذو طابع مستقل وأنه قد نشر فى أغلب الظن منفصلا ثم ضم بالتالى إلى « جهانما » . أما المصور الذى يبين « بيت الإبرة » (الرسم رقم ١٣ بصفحة ٦٥) فقد نص بالتحديد على أنه يرتبط بالكتاب الآخر لإبراهيم متفرقة بعنوان « فيوضات مغنطيسية » الذى ظهر قبل عام من هذا فى سنة ١١٤٤ هـ = ١٧٣٢ ؛ ومن الواضح أن الرسم قد استعمل فى الحالتين .

أما عبارة « على يد ... إبراهيم » التى وردت فى الفقرة السابقة فليس هناك ما يدفعنا إلى أخذها أخذاً حرفياً وأن نعد المصور من عمل يده شخصياً ، فقد كان معاوناه الأولان فى هذا المجال رسامين أو نقاشين مشهورين مر بنا اسماهما منذ لحظات ؛ وعدد الرسوم التى تحمل توقيع أحمد القريمى أحد عشر رسما هى الأول والثالث والثامن والعاشر والحادى عشر والرابع عشر والخامس والعشرون والثامن والعشرون والرابع والثلاثون والسادس والثلاثون والسابع والثلاثون ، وتلك التى تحمل توقيع مغردج الغلطوى سبعة هى السابع والثانى عشر والسابع والعشرون والثانى والثلاثون والثالث والثلاثون والخامس والثلاثون والتاسع والثلاثون . وهذا الأخير يعطى اسمه مرة على شكل مغردج « غلطة » كما فى الرسمين السابع والثانى عشر ، ومرة على شكل مغردج « غلطوى » وذلك فى بقية الرسوم ؛ وكلاهما يستعمل لفظ « عمل » ولو أنه ليس من الممكن أن نحدد بدقة أكثر ما الذى يجب فهمه من هذا اللفظ . وفى المصور رقم ٣٩ (ص ٦٢٠٩) يوجد إلى جانب التوقيع العادى « عمل مغردج غلطوى » توقيع آخر هو « رسمه إبراهيم طوبخانوى » ؛ ويجب أن يفهم من هذا أن الأولين كانا نقاشين(٢٢٧) بينما كان الأخير رساماً . وعلى الخارطتين الختاميتين لآسيا الصغرى والبوسفور (الرقمان ٣٩ و٤٠ بصفحتى ٦٢٩ و٦٧١) يبرز فجأة وبطريقة غير متوقعة على الإطلاق المذهب القديم وذلك بوضع الجنوب فى أعلى الخارطة مما يحمل على الاعتقاد أن إبراهيم قد اعتمد فى هذه الحالة بالذات على مصادر مغايرة . وكل هذه المسائل لاتزال تحتاج إلى البحث وهى تقف دليلا جديداً على أن كلاً من « جهانما » 638 وطبعة إبراهيم متفرقة برسومها العديدة لم يدرسا بعد دراسة علمية جادة .

من كل ما تقدم يتبين لنا بصورة لاتقبل الشك أن إبراهيم متفرقة لم يكن ذلك الطابع (Printer) الكبير فحسب بل كان فى ذات الوقت جغرافيا مبرزاً يقف فى مستوى واحد مع علماء الجغرافيا الأوروبيين المعاصرين له ؛ ويبدو هذا بصورة واضحة إلى جانب مجهوده العلمى الشخصى الذى أشرنا إليه أيضاً فى إعداده لطبعة « جهانما » وفيما زاده عليها من تذييلات ؛ وهو يقدم لنا فى هذه التذييلات معلومات قيمة عن الجغرافيا والكوزمولوجيا لدى الشعوب الأوروبية كما وأنه يقدم عرضاً عاماً لتاريخ الكوزمولوجيا وفق المصادر الأوروبية يمكن أن يعد أول محاولة لتعريف القارئ التركى بصورة العالم لدى الجغرافيين والفلكيين الكبار مثل بطلميوس وكوبرنيك وتيخو براهى(٢٢٨) . أما عن الفترة التى تلى توقف نشاط المطبعة

فلعل مما يجتذب اهتمامنا بصورة خاصة واقعة معينة من تاريخ سيرة حياة إبراهيم ، فى عام ١١٥٦ هـ = ١٧٤٣ بعث به الباب العالى إلى داغستان لتنصيب أحمد خان أو سمى على القيتاق*(٢٢٩) .

ان إدخال فن الطباعة إلى الدولة العثمانية والذى كان يعد فاتحة عهد جديد فى تاريخ الثقافة التركية الحديثة قد أحدث رد فعل عظيم فى أوروبا لذلك العهد وفى الأوساط العلمية المعاصرة ؛ بل وحتى قبل ظهور الطبعات المختلفة فإن نبأ قيام المطبعة قد تردد صداه فى الصحف وتلى ذلك أن حظيت كل طبعة بإشارة خاصة كحدث هام قائم بذاته ؛ ومعظم الطبعات التى كانت تمثل أهمية خاصة قد تم تحليلها بتفصيل مستفيض أو ترجمت إلى اللاتينية أو إلى إحدى اللغات الأوروبية الحديثة . وفى عام ١٧٥١ قدم ساسيوس فى تاريخه لمكتبة استكهولم تحليلا خاصاً لجميع ما نشرته المطبعة(٢٣٠) ، ومنذ ذلك التاريخ تعاقبت المؤلفات والأبحاث عن المطبعة وعن مؤسسها أحياناً وظل عددها يطرد إلى أيامنا هذه حتى توجت بالبحث المركز الذى ندين به لقلم بابنجر (١٩١٩)** .

ولم تكن روسيا فى ظروف ذلك العهد على علم بظهور هذه الحركة الثقافية الجديدة فى الدولة العثمانية ، إلا أن اسم إبراهيم متفرقة على الرغم من ذلك لم يكن مجهولا هناك فقد نقل إلى الروسية اثنان من الكتب التى طبعها وذلك فى عهد الإمبراطورة كاترينا رغما من أنهما فى حقيقة الأمر لم ينتميا إلى محيط الجغرافيا أو إلى المؤلفات التى تناولنا الكلام عليها ؛ ومن الطريف أن كليهما ظهر فى عام ١٧٧٧ وربما كان ذلك نتيجة للحرب التى اندلعت منذ زمن غير بعيد بين الدولتين وانتهت بصلح كوچوك قينارجى (١٧٧٤) . أما الكتاب الأول فيحمل فى ترجمته الروسية عنوان « شرح التكتيك أو فن قيادة الجيش ، نشره وطبعه بالقسطنطينية باللغة التركية إبراهيم أفندى متفرقة ونقله إلى الروسية الكسى لفاشيوف سان بطرسبورغ ١٧٧٧ » .

Izobrajenie Taktiki, ili iskusnii obraz pravlenia voiskogo, obnarodovano i napichatano v Konstantinopole na turetskom iazyke Ibrakhimom Efendiem Mutteferikom. Perevedeno. Alekseem Levashevim SPb., 1777.(٢٣١)

639 ولايترك العنوان أدنى شك فى أن هذه الترجمة إنما اعتمدت على الترجمة الفرنسية التى ظهرت بڤينا فى عام ١٧٦٩ لرسالة باللغة التركية نشرت عام ١١٤٤ هـ = ١٧٣٢ بمطبعة إبراهيم متفرقة بعنوان « أصول الحكم فى نظام الأمم » . ومؤلفها هو البارون بونيڤال Bonneval (١٦٧٥ — ١٧٤٧) الذى اعتنق الإسلام واتخذ اسم أحمد باشا وشغل فى ذلك الوقت منصب قائد الطوبجية العثمانية(٢٣٢) ، وقد اقتضت عوامل عسكرية معينة ترجمة الرسالة أولا إلى الفرنسية ثم بالتالى إلى الألمانية التى تلتها الترجمة الروسية .

---

* أوسمى لقب أمير القيتاق ويعتقد البعض أن أصل اللفظ هو مسمى العربى . (المترجم)

** مما لاشك فيه أن كلام كراتشكوفسكى عن إبراهيم متفرقة فى هذا الفصل يعتبر خطوة إلى الإمام فى دراسة نشاط إبراهيم متفرقة وذلك لدى مقارنته بمقال موردتمان الذى ظهر « بدائرة المعارف الإسلامية » . (المترجم)

. أما الأثر الثانى من بين مطبوعات إبراهيم متفرقة الذى وجد طريقه إلى البلاد الروسية فقد كان الأجرومية التركية لهولدرمان التى ظهرت باللغة الفرنسية فى القسطنطينية سنة ١٧٣٠ ؛ وكانت أول كتاب بالفرنسية يطبع بالحروف المسبوكة . وكان طبع إبراهيم متفرقة لهذا الكتاب بمثابة استجابة لحاجة « الافرنج » المقيمين بالدولة العثمانية . أما ما ثار من نزاع حول شخصية المؤلف فيمكن القول بأنه قد سوى الآن إذ ثبت أنه المبشر Missionary الجزويتى هولدرمان J. B. Holdermann (١٦٩٤ — ١٧٣٠) من أهالى استراسبورج وقد اعتمد فى أجروميته على الأجرومية المشهورة من تأليف منسكى F. Meninski (١٦٢٣ — ١٦٩٨) ؛ وقد توفى المؤلف بعد ثلاثة أشهر من خروج مصنفه من المطبعة . هذا وقد قوبل الكتاب بحماس شديد من الصحافة العلمية للملك العهد[٢٣٣] وظهرت منه طبعتان فى روسيا فى وقت واحد بالتقريب[٢٣٤] فالطبعة الأولى أخرجتها مطبعة أكاديمية العلوم فى عام ١٧٧٦ أما الثانية فظهرت فى عام ١٧٧٧ بمناسبة إدخال تدريس اللغة التتارية بجامعة موسكو ، وندين بهذه الترجمة الأخيرة لطالب يدعى غابليتزل Gablitzl وهى لا تختلف عن الترجمة الأولى إلا من ناحية العنوان والافتتاحية ولعلها هى نفس تلك الترجمة ولكن تحت غلاف جديد . وثمة حقيقة أخرى لاتخلو من مغزى وهى أنه إذا كانت أجرومية هولدرمان هى أول كتاب فرنسى يطبع فى القسطنطينية بالحروف الفرنسية المحلية فقد كانت الترجمة أيضاً بالنسبة لروسيا أول كتاب تستعمل فى طبعه حروف الطباعة العربية المتحركة لا النقش على المعدن (gravure) .

ولقد كان بمقدور القراء الروس فى عهد كاترينا أن يكونوا فكرة عامة عن نشاط إبراهيم متفرقة وعن الطبعات التى خرجت من مطبعته ، فكتاب «قراءات من أجل الذوق والذهن والشعور » Chtenie dlia vkusa i razuma i chustvovanii الذى ظهر عام ١٧٩١[٢٣٥] يحتوى على « قطوف من الأدب التركى» مأخوذة عن كتاب « الأدب التركى » Letteratura Turchesca Izvlechenia iz turetskoi literature لتوديرينى المطبوع بالبندقية عام ١٧٨٧[٢٣٦]. وقد أقام الأب توديرينى G. Toderini (١٧٢٨—١٧٩٩) لمدة خمس سنوات بالقسطنطينية (١٧٨١ — ١٧٨٦) ووضع مؤلفاً عاماً فى ثلاثة أجزاء يعرض فيها تاريخ الأدب العثمانى | بلى وجميع جوانب الثقافة لدى العثمانيين ، وكان الكتاب يعد بالنسبة لعصره المؤلف الأساسى 640 فى هذا الموضوع ، ولم يلبث أن ترجم سريعاً إلى الفرنسية (١٧٨٩) والألمانية (١٧٩٠)[٢٣٧] ؛ والمؤلف يولى أهمية خاصة فى كتابه هذا للطبعات الأولى التى ظهرت بتركيا[٢٣٨] . من كل هذا يستبين لنا أن « المتشوفين إلى المعرفة من بين الروس » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كان بمقدورهم أن يتعرفوا لا على إسم ابراهيم متفرقة فحسب بل وأيضاً على مطبوعاته الجغرافية وعلى نشاطه كجغرافى ذى مكانة ؛

ونشاط هذه الشخصية التى جهدت كثيراً فى إدخال فن الطباعة إلى الدولة العثمانية ونشر المعلومات الجغرافية بين رعاياها ، الأمر الذى يعد بحق أهم ظاهرة فى الأدب الجغرافى التركى للقرن الثامن عشر .

يجب ألا يخفى عن ناظرنا جوانب أخرى جديدة فى أدب ذلك العصر لا يمكن القول بأنها كانت فقيرة فى مادتها : وبالطبع فإنه لم تظهر أنماط جديدة لم تكن معروفة لنا من قبل ، كما أن الأنماط السابقة قد تباورت واكتسب بعضها أهمية خاصة بل ورواجاً خاصا فى بعض الأحايين . فإلى عهود قريبة جداً ظلت تظهر الأوصاف الطبوغرافية والمنطقية (regional) وفقاً للمنهج القديم فى مختلف بلاد الدولة العثمانية ، إلا أن النمط الذى اكتسب الرواج والذيوع لدى القراء كان نمط الرحلة فى أشكاله المتعددة . فإلى جانب الترجمات (translations) التى ربما كان مبعثها دوافع شخصية ، والرحلات التى اتجه معظمها إلى الشرق ، اتسعت بشكل ملحوظ حلقة الحجيج الذى كان يخرج من مختلف بلدان الدولة وانعكس ذلك فى مختلف الصور الأدبية . كما نما بصورة خاصة طراز ما يسمى « سفارتنامه » وهى أوصاف للسفارات التى بعث بها الباب العالى إلى الحكومات الأجنبية . هذا وقد تمخض النشاط الدبلوماسى للدولة العثمانية فى ذلك العهد عن قيام علاقات قوية مع عدد كبير من الدول فى الشرق والغرب ، غير أن ما دون من آثار فى هذا الصدد يمس بصورة خاصة دول أوروبا التى كانت تمثل بالنسبة للأتراك طرافة الشىء الجديد . وبفضل نمط « سفارتنامة » هذا الذى ظل يصدر فى سلسلة لا تنقطع وفى أشكال متنوعة فإنه قد وجدت تحت تصرفنا أوصاف متعددة لبلدان مختلفة يمثل بعضها أهمية خاصـــة كبولندا وروسيا . أما أدب الترجمة ، أعنى ترجمة الآثار الجغرافية الأوروبية وصياغتها بصورة تلائم عقلية القارئ التركى فقد أخذ ينمو بصورة ملحوظة فى القرن الثامن عشر[٢٣٩] بحيث يستطيع كل نمط من الأنماط المعروفة لنا أن يقدم فى هذا الصدد نماذج جديرة بالاهتمام .

وفى محيط الطبوغرافيا (أى تخطيط المدن) والجغرافيا التاريخية بوجه عام فإن المكانة الأولى يحتلها بالنسبة لنا أثر لا يزال محتفظاً بكل قيمته كمدخل عام إلى أيامنا هذه وهو « حديقة الجوامع » لحسين بن إسماعيل الإيوانسرائى (توفى عام ١٢٠١ هـ = ١٧٨٦) ، والذى ولد بضاحية من ضواحى القسطنطينية ومنها أخذ نسبته[٢٤٠] . وهو يقدم لنا فى مصنفه هذا وصفاً لكل « الجوامع » و« المساجد » | و« المعابد » وزوايا الدراويش والمدارس وتكايا المساكين والمستشفيات والمقابر المشهورة سواء كانت باستنبول أو بالنواحى القريبة منها ، ذاكراً فى الوقت نفسه أسماء وأخبار مؤسسيها وبناتها . وهو يعدد هذه المنشآت وفق حروف المعجم مع تواريخ بنائها إلى عام ١١٩٣ هـ = ١٧٧٠ ، وقد يصل بذلك فى بعض المواضع إلى عام ١١٩٥ هـ = ١٧٧٢ وهو العام الذى انتهى فيه من تدوين كتابه إذا استندنا فى ذلك على خاتمة الكتاب . هذا المصنف الذى يرتفع إلى نمط « الخطط » القديم والمعروف لنا جيداً يمثل أهمية لا نظير لها بالنسبة لتاريخ المعمار والفن بوجه عام بخاصة وأن عدداً كبيراً من المبانى التى وصفها قد اندرس فيما بعد ، كما أن المادة التى يضمها بين دفتيه من مجالى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لا تقل أهمية عن ذلك ؛ وفوق هذا فهو كتاب موثوق به فيما يتعلق بجميع مسائل الجغرافيا التاريخية[٢٤١] . وقد قدر الأتراك

641

[قيمته فى القرن التاسع عشر فظهر عدد من المختصرات والتتمات بل ومصنفات جديدة من نفس الطراز يمثل بعضها تقليداً صرفاً لهذا الكتاب[٢٤٢] . وأشهر ذيوله مصنف لعلى ساطع أفندى (توفى عام ١٢٥٨ هـ = ١٨٤٢) الذى امتاز بمعرفته العميقة بخطط استنبول وقد وصل بالكتاب إلى عام ١٢٥٣هـ = ١٨٣٧ ؛ وقد طبعت هذه النسخة المصاحة فى جزئين عام ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ . وإلى جانب هذا فإن هناك ذيلا آخر لايزال على هيئة مخطوطة ويصل إلى عام ١٢٧٦ هـ = ١٨٥٩ . ومن هذا يتبين لنا أن النمط القديم « للخطط » قد ظل يتمتع بالحيوية إلى العصر الحديث لا فى الوسط العربى وحده بل وبين الأتراك العثمانيين أيضاً .

ويصدق هذا الحكم بصورة أدق على الرحلات التى تكاثر عددها بشكل واسع فى القرن الثامن عشر والتى يمكن توزيعها على الأنواع المختلفة التى ذكرناها . ومن بين الرحلات التى اتجهت شرقاً إلى إيران نكتفى بذكر الاثنين فقط حدثتا فى وقت واحد حوالى منتصف ذلك القرن . فمؤلف الرحلة الأولى التى إلى جانب هذا تعكس سيرة حياته الطريفة بالنسبة لنا هو نعمان أبو سهل صالح زاده[٢٤٣] ، وأصله من الأناضول الشرقية ولكنه عاش طويلا ببلاط منكلى كراى خان القريم وشغل منصب قاضى عسكر بكفا (فيودوسيا) ، وعقب صلح بلغراد مع النمسا فى عام ١١٥٤ هـ = ١٧٤١ عين مندوباً فى لجنة تخطيط الحدود ؛ ثم نجده فيما بعد ضمن أفراد سفارة أحمد باشا كسريلى إلى نادرشاه فى عام ١١٦٠ هـ = ١٧٤٧ . وقد تردد صدى جميع هذه الخطوات الثلاث لتاريخ حياته فى كتابه « تدبيرات پسنديده » (« التدبيرات المستحسنة ») الذى ينقسم إلى ثلاث مقالات ، فيلى الافتتاحية المقالة الأولى التى يتناول فيها الكلام على رحلاته بالقريم وإقامته ببلاط منكلى كراى ، أما الثانية فتتحدث عن نشاطه كمندوب للجنة الحدود بالنمسا ، بينما تعالج الثالثة ، وذلك بعد افتتاحية جديدة تمس الحوادث السابقة ، رحلته الإيرانية التى بلغ فيها همدان . ومن هذا يبدو لنا أن أفق رحلته متسع بما فيه الكفاية من الناحية الجغرافية ومتنوع ، كما أن مادته حافلة وتتميز بالطرافة فى كل جانب من | جوانبها . ولكن مما يؤسف له أن المصنف مازال معروفاً 642 إلى الآن فى مخطوطاته فقط .

وقد شارك فى نفس هذه السفارة إلى إيران زميل آخر له ترك لنا وصفاً لها هو مصطفى رسمى (توفى عام ١١٦٤ هـ = ١٧٥١) الذى تتركز أهميته بالنسبة لنا قبل كل شىء فى أن أصله من بغچه سراى بالقريم . وقد شغل بالتالى عدداً من الوظائف الكتابية بعاصمة الدولة نفسها ثم ضم إلى هذه السفارة فى مهمة « مؤرخ رسمى » . غير أن مصنفه « سفارتنامه إيران » غير معروف إلى الآن بصورة مباشرة ، ويبدو أن ذكرى مسقط رأسه قد ترددت لديه فى مصنف بعنوان « تاريخ تتار » لعله يمس تاريخ خانات القريم[٢٤٤] .

وكما ذكرنا قبل قليل فقد حظى بازدهار خاص بين نمط الرحلة فى ذلك العهد وصف الحج الذى يسير على نهج تقليد ضارب فى القدم فى البلاد العربية ؛ وليس ثمة ما يبرر تقديم قائمة بهذه الأوصاف

ويجدر بنا كما حدث فى حالة سابقة مماثلة أن نكتفى بعرض بعض النماذج إما لأنها معروفة بصورة أفضل لدى الدوائر العلمية أولأنها تنفرد لسبب ما بصفات تميزها عن غيرها . ومن أكثر هذه الأوصاف تفصيلا كتاب « مناسك الحج » لمحمد أديب الذى يرجع إلى عام ١١٩٣ هـ = ١٧٧٩ ، وهو معروف فى طبعة استنبولية قديمة ترجع إلى عام ١٢٣٢ هـ = ١٨١٦ — ١٨١٧ وفى ترجمة فرنسية غير كاملة بقلم بيانكى Bianchi (١٨٢٥)[٢٤٥] . هذا الكتاب يتميز على بقية أوصاف الحج بأنه لايقنع بوصف طقوس الحج التى تتكرر إلى ما لانهاية مع تغيرات طفيفة فى عدد لايحصى من المؤلفات بل يفضل الكلام فى وصف الرحلة نفسها وبذا يصلح كمرشد لمن يريدون زيارة بيت الله مبيناً لهم جميع معالم الطريق خاصة تلك التى ترتبط بتاريخ السيرة النبوية[٢٤٦] ، ويمكن أن نتبين أحياناً تأثير المصادر الأدبية فى هذا الكتاب فقد ثبت أنه يعتمد فى بعض أقسامه على « جهانما »[٢٤٧] .

وأكثر من هذا نلتقى بين مجموعات المخطوطة الحافلة بما يسمى « بوصف طريق الحج » الذى يكتفى بسرد جاف لمنازل الطريق[٢٤٨] ، وهذه الأوصاف لاتخلو فى ذاتها من بعض الأهمية أحياناً بالنسبة للطبوغرافيا وتاريخ بعض المواضع التى يرد ذكرها فيه ، غير أن الوصف يتكرر على الدوام فى هذه الكتيبات المختلفة ولايعتريه أدنى تغير ملحوظ . ولما كان العرض تغلب عليه العجلة وعدم الاكتراث فإن الأخطاء كثيراً ما تجد طريقها إليه كما تجد طريقها إليه فوق ذلك النقول والاقتباسات من المؤلفين السابقين[٢٤٩] .

043 ويمكن أن نميز من بين هذه الأوصاف مجموعة خاصة ذات أهداف أدبية ، أى تلك التى تهدف بجانب أغراض الإفادة والتعليم تقديم وصف ذى طابع أدبى ؛ وخير مثال لهذا مؤلف أصله من أورفا (الرها) ولكنه عاش طويلا بحلب ثم شغل فيما بعد منصباً كبيراً بالعاصمة استنبول واسمه يوسف نابى توفى عام ١١٢٤هـ = ١٧١٢)[٢٥٠] ؛ وله عدد من المصنفات التاريخية المكتوبة بأسلوب معنى به يجمع بين النثر والشعر ، كما أن له أيضاً ملحمة تهذيبية نالت رواجاً كبيراً كان قد وضعها من أجل ابنه وصاغها فى وزن شعرى معقد[٢٥١] . وجميع هذه المصنفات قد كسبت فى عصره وفى العصور التالية شهرة واسعة حتى أصبحت أنموذجاً أدبياً يحتذى وجعلت المؤلف يفوز بلقب « ملك الشعراء » . وفى أسلوب مصنوع أيضاً صاغ وصف رحلته إلى الحجاز فى عام ١٠٨٩ هـ = ١٦٧٨ الذى يحمل عنوان « تحفة الحرمين » ، وقد بدأها من اسكدار ماراً بقونيه وأورفا وحلب ودمشق والقدس ، وأتم تدوينها حوالى عام ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ وطبعت باستنبول عام ١٢٥٦ هـ = ١٨٤٩ . أما مضمونها الذى تمت صياغته فى أسلوب رشيق فإنه كما يقول تيشنر غير مستساغ بالنسبة لنا[٢٥٢] ، ويصدق هذا بشكل أكبر على الأوصاف الأخرى التى صيغت نظماً والتى يمكن القول بأن معظمها لاقيمة له بالنسبة للأبحاث الطبوغرافيـــة والجغرافية بوجه عام[٢٥٣] .

ويمكن لأوصاف السفارات « سفارتنامه » المختلفة أن تنافس من حيث الكم أوصاف الحج إذ لم

تفقها ، وهى على وجه العموم تعتبر من أكثر ما يميز هذا العهد بل إنها تركت طابعها الخاص على جميع 644 الأدب الجغرافى التركى للقرن الثامن عشر بنفس القدر الذى ترك به حاجى خليفة وأوليا چلبى طابعهما على القرن السابع عشر . ويعدد لنا تيشنر من بينها ثمانية عشر مصنفاً[٢٥٤] ارتفع بها بابنجر إلى ستة وعشرين مصنفاً[٢٥٥] ؛ وهى فى الواقع أكثر من هذا[٢٥٦] بل إن من بينها عدداً غير قليل يمس روسيا مساً مباشراً . ويوجد عدد منها فى ترجمات وتعديلات قديمة وحديثة باللغات الأوروبية ، بل إن بعضها قد نقل إلى البولندية والروسية فى النصف الأول من القرن الماضى.

وتقفز إلى مقدمة السفارات التى تركت أثرها فى الأدب سفارة قره محمد باشا فى عام ١٠٧٥ هـ = ١٦٦٥ إلى ڤينا ؛ وقد أحاط بهذه السفارة الكثير من مظاهر العظمة والأبهة وضمت حاشيته مائة وخمسين شخصاً كان من بينهم كما ذكرنا فى حينه الرحالة أوليا چلبى الذى واصل بمفرده فيما بعد رحلته فى أوروبا الوسطى . والوصف الذى حفظه لنا أوليا چلبى عن هذه السفارة والذى ضمنه الجزء السابع من مؤلفه الضخم يمكن أن يعد فى هذه الحالة أقدم « سفارتنامه » مفصلة باللغة بالتركية[٢٥٧] .

هذا وكانت الصلة بين الأدبين التركى والعربى وثيقة للغاية فى بعض الأحايين داخل هذا النمط ، وينعكس هذا بصورة خاصة فى سفارة محمد سعيد المشهورة إلى فرنسا التى بعث بها السلطان أحمد فى عام ١١٣٢ هـ - ١١٣٣ هـ = ١٧٢٠ — ١٧٢١ إلى بلاط لويس الخامس عشر[٢٥٨] . وقد أثارت زيارته لباريس اهتماماً كبيراً وتردد صداها بقوة فى الصحافة الفرنسية المعاصرة بل وحتى فى فن التصوير[٢٥٩] . ومصنفه « سفارتنامه » معروف فى روايتين إحداهما مفصلة والأخرى مجملة ، وقد طبع عدة مرات وترجم أكثر من مرة إلى الفرنسية منذ منتصف القرن الثامن عشر. وقد وصف المبعوث بتفصيل كبير طريق رحلته من طولون إلى باريس ومشاهد العاصمة المشهورة واستقبال الملك له وما لقيه من تقدير وإكرام[٢٦٠] ؛ وقد اكتملت لنا من كل هذا لوحة فنية حية طريفة بالنسبة للأتراك والأوروبيين على السواء . هذا وكان وصفه ، وأكثر من هذا دعاية ابنه سعيد الذى صحبه فى هذه الرحلة ، عاملا كبيراً فى إدخال فن الطباعة إلى تركيا[٢٦١] . ولايخلو من مغزى أن يجتذب هذا الأثر أنظار العرب بصورة خاصة ؛ ونصه العربى موجود فى عدد كبير من المخطوطات[٢٦٢] توجد من بينها واحدة بمعهد الدراسات الشرقية ضمن 645 مجموعة روسو[٢٦٣] ، ولا يزال الأمر يتطلب بحثاً خاصاً لتحديد العلاقة بين هذه المخطوطات مع بعضها البعض بل وبين النصوص التركية والفرنسية والعربية المعروفة لنا ؛ ولاشك أن مثل هذا البحث سيؤكد مرة أخرى الطابع التركيبى (synthetic) للأدب الجغرافى فى ذلك العصر .

ويمكن أن تختتم سلسلة السفارات العديدة إلى فرنسا والتى سارت متتابعة الحلقات على ممر القرن الثامن عشر بالوقوف عند بعثة عبد الرحيم محب التى أرسلت عام ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٦[٢٦٤] ، وكان الغرض منها حمل هدايا إلى نابليون وتهنئته وأن تبذل قصارى جهدها فى ذات الوقت لإقناعه بالدفاع عن مصالح

تركيا عند عقد الصلح مع روسيا . وفى ذلك المصنف الضخم الذى يقع فى ٣٦١ ورقة من القطع المزدوج أدرج عبد الرحيم أيضاً تقاريره إلى الصدر الأعظم التى تنتظم مدى ستة أعوام كما ضمنه جميع تعليقات سفراء الدول الأجنبية فيما يتعلق بوضع الدولة العثمانية ووصف فيه محادثاته مع تاليران Talleyrand ومع الكونت روميانتسف Rumiantsev وتلستوى Tolstoy ، كذلك عرض فيها خواطره الشخصية ؛ ومما يسبغ على الكتاب أهمية أكثر هو أن المؤلف ضمنه الإجابات والتعليمات التى تسلمها من قبل حكومته . وفى مقابل هذا تقتصر الرواية المجملة بصورة خاصة عند حد تحليل الأوضاع الداخلية بفرنسا ووصف المعالم المشهورة مما يمكن من إجراء مقارنة طريفة مع وصف محمد سعيد الذى يرجع إلى عام ١١٣٢ هـ = ١٨٢٠ والذى مر بنا الكلام عليه قبل قليل ، بحيث يمكن ملاحظة التغيرات التى طرأت منذ تلك الزيارة الأولى . والمؤلف يكشف دائماً عن مقدرة فائقة فى الملاحظة الدقيقة وعن معرفة جيدة بقواعد السلوك الدبلوماسى . أما أهمية وصفه بالنسبة للجغرافيا فى مفهومها الواسع فلا يحتاج إثباتها إلى عناء فهو يقدم لنا لوحة للرحلة نفسها وفى ذات الوقت يقدم تحليلا عميقاً للأوضاع السائدة بأوروبا لذلك العهد مما كان يمثل إلى جانب غيره من الأهداف إحدى المهام الأساسية للبعثة[٢٦٥] . وبالنظر إلى أننا بسبيل تحليل آثار حافلة غنية كهذه فإنه لا يمثل سوى عنصر من الطرافة إشارتنا إلى أنه قد وجدت أيضاً أوصاف سفارات منظومة بالشعر ، أى بالأسلوب والطريقة التى التقينا فيها ببعض أوصاف الحج المنظومة . وخير مثال لذلك سفارة حاجى على أغا زشتولى المتوفى عام ١١٧٤ هـ = ١٧٦١ وتشير النسبة إلى أنه من زشتوه أى مدينة سستوفا Sistova البلغاريا ، فقد بُعث به بولندا فى عام ١١٦٨ هـ = ١٧٥٤ لينقل خبر ارتقاء السلطان عثمان الثالث عرش آبائه[٢٦٦] . وفى المصنفات التى من هذا النوع الأخير يغلب الشكل على المضمون تماماً ، كما أنها قليلا ما تقدم أية مادة جغرافية يؤبه لها .

وقد شغلت بولندا وروسيا على مر هذه القرون مكانة هامة فى نشاط الدبلوماسية التركية ، لهذا فليس من الغريب أن اتجه عدد كبير من هذه السفارات إلى تلك البلاد بأهداف متعددة . وبعض هذه السفارات حفظ لنا أوصافاً متشابهة نقل بعضها إلى لغات تلك البلاد فى صورة ترجمات | كاملة أو معدلة . 648 وعند هذه الأخيرة فقط نسمح لأنفسنا بالتوقف للحظة قصيرة ، خاصة وأن ذيول النسيان كادت أن تغطى عليها ؛ ويرجع فضل كبير فى دراستها إلى المستشرق سنكوفسكى Senkovski وذلك فى الفترة المبكرة لنشاطه العلمى فقد لفت النظر منذ عام ١٨٢٥ فى الجزء الثانى من مجموعة مقالاته Collectanea باللغة البولندية إلى ثلاث من هذه السفارات مع إيراد ترجمة مختصرة لها تعتمد فى أغلب الأحيان على النص الموجود بتاريخ أحمد واصف أفندى (توفى عام ١٢٢١ هـ = ١٨٠٦)[٢٦٧] . وأول هؤلاء الثلاثة من الناحية الزمنية هو درويش محمد الذى سافر مبعوثاً إلى روسيا فى عام ١١٦٨ هـ = ١٧٥٥[٢٦٨] لينقل خبر اعتلاء السلطان الجديد العرش ؛ وإلى جانب وصفه للطريق من استنبول إلى بطرسبرغ يصف لنا بتفصيل كافٍ استقباله فى مختلف المدن الروسية وزياراته للمستشار بستوجف Bestujev ولنائب

المستشار ، ولا يخلو وصفه أحياناً من تفاصيل تفيض بروح الفكاهة ، كما لا تخلو من الطرافة ملاحظاته عن كييف ونوفغورود وعن الحفل التنكرى الذى شهده بالبلاط الامبراطورى وعن مرفأ كرونشتات Kronstadt وقصر بيترهوف Peterhof اللذين أجال فيهما النظر بصورة خاصة(٢٦٩) . وفى عام ١٨٢٦ نشر سنكوفسكى ترجمة لوصفه باللغة الروسية فى « الأرشيف الشمالى » Severnii Arkhiv(٢٧٠) ؛ وفى ذات الوقت ظهرت الترجمة الفرنسية بقلم ديموريه Dumoret فى « المجلة الأسيوية » الفرنسية Journal Asiatique(٢٧١) . وتقرب منه من الناحية الزمنية رحلة محمد أغا إلى بولندا عام ١٧٥٧ التى نقلها سنكوفسكى إلى البولندية معتمداً على تاريخ واصف أيضاً(٢٧٢) ؛ ومن الملاحظ أن بابنجر لا يذكر عنها شيئاً عند كلامه على السفارات(٢٧٣) . أما أهم هؤلاء المؤلفين الثلاثة الذين عرّف بهم سنكوفسكى القراء فى بولندا ثم فى روسيا فقد كان دون نزاع أحمد رسمى أفندى (توفى عام ١١٩٧ هـ = ١٧٨٣) ، وهو دبلوماسى كبير وكاتب مؤرخ موهوب(٢٧٤) إلى جانب إجادته التامة للغة العربية التى ترك لنا بها « مقامات » وتآليف أخرى من مجال الأدب المصنوع(٢٧٥) . وفى عام ١١٧١ هـ = ١٧٥٧ رحل أحمد رسمى أفندى إلى ڤينا كسفير ، وفى عام ١١٧٦ هـ = ١٧٦٣ اجتاز بولندا فى طريقه إلى بلاط ملك بروسيا ببرلين وخلف لنا وصفاً مفصلا لانطباعاته عن السياسة البروسية وعن مدينة برلين وعن سكانها وعن كل ما يتصل برحلته فى بولندا . وفى خلال إقامته ببرلين فى عام ١٧٦٤ تبادل معه المستشرق المكلنبرجى Mecklenburg الشهير تيخسن O. G. Tychsen أستاذ فرين عدداً من المكاتبات باللغة العربية لم يلبث أن نشرها هذا الأخير فيما بعد ضمن مختاراته العربية (١٧٩٢)(٢٧٦) .

649 هذا وقد تعرف القراء الأوروبيون على هاتين السفارتين منذ عهد هامر (١٨٠٩) ، كما أن سنكوفسكى قدم فى نفس مجموعته المذكورة ترجمة بولندية لوصف الرحلة الثانية(٢٧٧) . وبعد أعوام طويلة من هذا وبمناسبة اندلاع حرب القريم نشر تلميذه غريغورييف Grigoriev الذى صار فيما بعد الأستاذ الأول لتاريخ الشرق بجامعة بطرسبرغ الترجمة الروسية فى مجلة « موسكڤتيانين » Moskvitianin (١٨٥٥)(٢٧٨) ؛ وقد ظل هذا الأثر يجتذب الأنظار فى الأدب الأوروبى فى القرن التاسع عشر .

وبفضل مجهود سنكوفسكى تعرف القراء الروس على أثر ثان لأحمد رسمى أفندى يرتبط ارتباطاً مباشراً بروسيا هو رسالته « خلاصة الاعتبار » التى تكشف عن ذكاء وفطنة وتتعلق بنتائج الحرب الروسية التركية ١٧٦٩–١٧٧٥ . هذا الأثر الذى لا يخلو أسلوبه من الفكاهة ولكنه يفيض بسخرية مريرة قد صيغ فى لغة بسيطة للغاية أقرب إلى لغة الكلام اليومية ويعد أنموذجاً من النماذج الكلاسيكية الكبرى فى الأدب العثمانى(٢٧٩) . وهو إلى جانب هذا يقدم لنا لوحة حية لتطور الحوادث التاريخية على مدى عشرة أعوام بالتقريب ؛ والكتاب فى مجموعه يحفل بتفاصيل جغرافية وافرة صيغت فى نفس الأسلوب الساخر .

وقد ظهرت أول ترجمة له بالألمانية فى عام ١٨١٣ وقام بها المستشرق المشهور دييتس Dietz الذى كان

بعد غوته Goethe بالمعلومات عن الشرق ، وهو يعد من أوائل المشتغلين بالدراسات التركية فى أوربا . ولم يكن بوسع الكتاب ألا يجتذب نظر سنكوفسكى خاصة وأن أسلوبه تربطه به رابطة الرحم ، ففى عام ١٨٤٢ قدم ترجمة كاملة أو على الأصح معدلة بطريقته الساحرة الجذابة ونشرها فى مصنفه « مكتبة القراءة » Biblioteka dlia chtenia ؛ وقد اعتمد سنكوفسكى فى ترجمته على مخطوطتين كانتا بمكتبة جامعة بطرسبرغ ليس لهما الآن من أثر(٢٨٠) . وبمناسبة اندلاع حرب القرم أعيد طبع الترجمة فى عام ١٨٥٤ ، ثم نشرها فيما بعد مزودة بملاحظاته تلميذ سنكوفسكى المستشرق ب. سافيليف B. Saveliev ضمن « مجموعة مصنفات سنكوفسكى » Sobranie Sochinenii (٢٨١). ولا شك فى أن هذه الترجمة تدخل فى عداد أفضل ماسطره يراع هذا المستشرق الأديب . غير أن رسالة أحمد رسمى تمثل فى ذاتها مصنفاً طريفاً فيما يتعلق بتوضيحها للمادة الجغرافية ومعالجتها لها وهذا هو السبب الذى جعلنا نفرد لها سطوراً فى عرضنا هذا إلى جانب سفارته البرلينية .

هذه النماذج الثلاثة للسفارات التى وجدت طريقها إلى الأدب الروسى بفضل مجهود سنكوفسكى وغريغوريف لاتستوعب جميع السفارات « سفارتنامه » التى تتصل بروسيا ؛ ولايزال أمام علماء التركيات الروس مهمة قومية لدراسة هذه المادة فى المستقبل وإلقاء الضوء على جوانبها الغامضة . وهى ترجع بأكملها تقريباً إلى القرن الثامن عشر ولانعرف عن بعضها شيئاً ما بخلاف وجود أو صافها بين مجموعات المخطوطات ؛ وإذا ما حاولنا أن نرتبها ترتيباً زمنياً فسنلتقى بالأسماء الآتية : محمد أمين (توفى عام ١١٦٣ هـ = ١٧٥٠) الذى ‖ ذهب سفيراً إلى روسيا فى عام ١١٥١ هـ = ١٧٣٨(٢٨٢) ؛ وعثمان شهدى الذى زار بلاط كاترينا عام ١١٧١ هـ = ١٧٥٧ وخلف لنا وصفاً للعاصمة يفيض بالحيوية وتحليلا لشخصيات كبار رجال الدولة(٢٨٣) ؛ ومحمد أمين نحيفى الذى وصف سفارة عبد الكريم باشا الذى عقد الصلح مع رومیانتسف وكان سفيراً ببطرسبرغ عام ١١٨٥ هـ = ١٧٧٢(٢٨٤) ؛ ونجاتى الذى ترك لنا وصف السفارة التالية التى وصلت بعد ثلاثة أعوام من هذا وذلك فى سنة ١١٨٩ هـ = ١٧٧٥(٢٨٥) . ويختتم سلسلة هؤلاء الرحالة المعروفين لنا مصطفى راسخ (توفى عام ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣) الذى بعث به الباب العالى عقب صلح ياسى (فى عام ١٢٠٥ هـ = ١٧٩٠) إلى العاصمة الروسية فى عام ١٢٠٧ هـ = ١٧٩٣ والذى رجع إلى استنبول فى العام التالى لهذا ؛ ومما يسبغ على وصفه أهمية خاصة هو تحليله لعدد كبير من شخصيات البلاط الروسى معتمداً فى ذلك على ملاحظاته الشخصية(٢٨٦) كما وأنه لايهمل إلى جانب هذا الكلام عن البلاد نفسها . وبجانب هذه الشخصيات التى ذكرناها فستكون من مهمة المتخصصين فى الدراسات التركية أن يبينوا بوجه التحديد المصادر التى اعتمد عليها كتاب صدر بالروسية هو « رحلة التركى قره بولاد الذى كان يعمل كاتماً للسر لدى السفير العثمانى بروسيا » Puteshestvie turka Karabulata byvshego sekretaria posolstva pri turetskom pocle v Rosii . ويقال إن هذا الكتاب قد نقله عن التركية

650

شخص يدعى يرميا شبينكوفسكى Y. Shpynkovski فى عام ١٧٨٢[٢٨٧] ، ومن الملاحظ أنه لم يرد له ذكر له فى كتاب بابنجر[٢٨٨]

إن سلسلة السفارات المتتابعة الحلقات والتى لم تنقطع ولو لمدة خمسة أعوام متتالية لتقف دليلا على ما تمتع به هذا النمط من ذيوع ورواج فى ذلك العصر وتوكد مرة أخرى أنه قد ترك طابعه المميز على جميع الأدب الجغرافى التركى لتلك العصور . وبهذا النمط نستطيع الآن أن نختتم فحصنا للآثار الأصيلة فى محيط الجغرافيا التى ترتبط فى أساسها بالمذهب الشرقى التقليدى ، ذلك أن الترك المتعطشين إلى المعرفة قد بدأوا منذ القرن الثامن عشر بل ومنذ القرن السابق عليه يتجهون بأبصارهم إلى أوروبا ؛ وكما كان عليه الحال من قبل فقد نشطت بصورة خاصة حركة الترجمة من اللغات الأوروبية وكانت تضم بطبيعة الحال مؤلفات من ميدان الجغرافيا . ونحن نذكر جيداً عن العصر السابق لهذا ظهور ترجمات مثل « تاريخ الهند الغربى » أو « أطلس مينور » Atlas Minor ، أما الآن فقد نشطت بصورة أوسع ترجمة أوصاف الأقطار الأوروبية وأمريكا إلى جانب الأوصاف فى الجغرافيا العامة التى تعتمد على مصادر أوروبية[٢٨٩] .

فمن بين أوصاف أمريكا نشير إلى مصنف ظهرت طبعته فى السنوات الثلاثينات للقرن الثامن عشر[٢٩٠] تحت عنوان « حديث نو » (« حكاية جديدة ») ، وهو وإن ظهر بصدده عدد من الأبحاث ذات طابع ببليوغرافى إلا أن العلاقة بينه وبين الآثار التى من نفس هذا الطراز لم توضح بعد[٢٩١] ؛ وأغلب الظن أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطلس مركاتور Mercator كما أن بعض تفاصيله مستعار من مصنف فى الكوزموغرافيا من طراز مؤلفات مونستر S. Münster[٢٩٢] ؛ ومن المستحيل قبول الزعم القائل بنسبة الكتاب إلى حاجى خليفة[٢٩٣] . وثمة مصنف آخر قامت فكرته على قاعدة واسعة ، وربما حدث ذلك تحت تأثير « جهاننما » ، ذلكم هو السفر الضخم بعنوان « فنها جام جم فن جغرافيا » الذى وضعه فى عام ١١٤٤ هـ = ١٧٣١ أرمنى من أهل قيصرية يدعى بترو بارونيان Petro Baronian[٢٩٤] . وكما وضح فى الوقت الحاضر فإن هذا المصنف يمثل ترجمة معدلة لكتاب « الجغرافيا الملوكية » من تأليف جاك روب J. Robbe (١٦٤٣ — ١٧٢١) الذى طبع لأول مرة بباريس فى عام ١٦٧٨ ، وقد استعمل بارونيان الطبعة الرابعة للكتاب التى ظهرت بلاهاى عام ١٦٩١[٢٩٥] . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذه الطبعة قد وقعت فى يد المترجم من تركة سفير هولندا باستنبول كولييه Colier * الذى عاش لأعوام عديدة بتركيا منذ عام ١٦٦٨ وعاون كما أبصرنا فى حينه على نشر المعارف الجغرافية بالدولة العثمانية ؛ وكان بارونيان المذكور يعمل موظفاً لديه[٢٩٦] . ومن الملاحظ أن هذا الأخير قد اقتصر فى ترجمته على الفصول الأولى من الكتاب التى تمس الجغرافيا العامة ، وهى ترجمة تقرب كثيراً من الأصل[٢٩٧] .

وفى نهاية القرن الثامن عشر بدأت خطوة جديدة فى استيعاب الأتراك للعلم الأوروبى ترتبط إلى

651

* ورد هذا الاسم مغلوطاً فى المتن الروسى . (المترجم)

حد ما باستئناف المطبعة لنشاطها من جديد سوالى عام ١١٩٨ هـ = ١٧٨٤[٢٩٨] . ويمكن أن ينهض دليلا على هذا عناوين المصنفات التى وقع الاختيار عليها والتى تحتل الجغرافيا من بينها مكانة مرموقة ؛ ومن بين المصنفات الهامة فى هذا المجال يجب أن نشير على سبيل المثال إلى الترجمة التركية لأطلس فادن Faden الإنجليزى التى طبعت فى عام ١٢١٩ هـ = ١٨٠٤[٢٩٩] .

ولم يكن بوسع الأدب التركى أن يقدم مؤلفات جغرافية مستقلة باللغة التركية إلى تلك اللحظة ، ويجب ألا يدهشنا هذا فى شىء بإزاء افتقارهم التام إلى منهج علمى دقيق وفق مفهوم هذا اللفظ بين الأوروبيين[٣٠٠]. وليس معنى أن المنهج الأوروبى فى الجغرافيا قد توغل شيئاً فشيئاً فى الأدب التركى الحديث بل وفى الأدب الإسلامى عامة أن الأفق الجغرافى حتى بين الطبقات المثقفة والمسئولة قد تغير فى لمح البصر ابتداء من القرن السابع عشر ، فالنظريات القديمة قد ظلت حية فى بعض الأحايين على الرغم من كل التغيرات التى طرأت . وثمة مثال نسوقه فى هذا الصدد قد لايخلو من المبالغة والتهويل ولو أن صحته قد ثبتت من الوثائق المعاصرة ، ففى عام ١٧٦٩ عندما أصدرت الإمبراطورة كاترينا الأمر إلى أسطولها بالإبحار من بطرسبرغ إلى بحر إيجه فإن الأتراك لم يتخذوا التدابير اللازمة على الرغم من أنه قد سبق تحذيرهم من هذا فى اللحظة المناسبة ؛ ذلك أن وزراء السلطان لم يكن ليدور بخلدهم حتى فى عام ١٧٧٠ أن فى استطاعة الأسطول الروسى أن يعبر من بحر البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط[٣٠١] ؛ فلما ظهر الأميرال سبيريدوف Spiridov بأسطوله فعلا فى بحر إيجه احتج الباب العالى لدى حكومة البندقية لسماحها له بالمرور من بحر الأدرياتيك ، محتفظاً بالفكرة القديمة للعصور الوسطى عن وجود « خليج » يربط بين هذين البحرين[٣٠٢] .

وعلى أية حال فإن المادة الجغرافية الضخمة التى احتواها عدد من الآثار المتنوعة الكبرى لم تكن وقفاً على البحاثة الأوروبيين وحدهم بل إن العلماء المحليين فى تركيا وفى أقطار أخرى من العالم الإسلامى برهنوا على أنهم لم يتناسوا المادة الجغرافية القديمة المدونة عن بلادهم وأنهم يريدون أن يدعموا أوصافهم الحديثة بخير ما خلفته لهم الأجيال السالفة فى هذا المجال . وقد نشط ذلك الاتجاه بتركيا فى أواخر القرن التاسع عشر بصورة محسوسة بحيث يمكننا من أن نختتم هذا الفصل من كتابنا بتقديم أمثلة من إنتاج هذا العهد « الجديد » .

وأول ما يجب ملاحظته هو أن التناسب بين الأنماط قد تغير بعض الشىء فاحتلت مركز الصدارة مرة أخرى المعاجم الجغرافية متممة بهذا سير التراث القديم ومعدلة فى ذات الوقت من نفسها بما يلائم الظروف المعاصرة وذلك بإدخال المادة الجديدة الوافدة من الغرب بمقادير كبيرة . وكثيراً ما يحدث تحت تأثير النفوذ الأوروبى أن تتجاوز المادة إطارها فتتحول لا إلى معاجم تاريخية جغرافية فحسب بل إلى دوائر معارف عامة . وكمثال لهذا نسوق محاولة لأحمد رفعت يغلقجى زاده (توفى عام ١٣١٢هـ = ١٨٩٤) ،

الذى إلى جانب مصنف ضخم فى التاريخ العام ساقه إلى عام ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ وليست له أهمية فى ذاته ، يقدم لنا معجماً تاريخياً جغرافيا فى سبعة أجزاء تضم ألفين ومائة وعشرين صفحة بعنوان « لغت تاريخية وجغرافية » تم طبعه فى القسطنطينية عام ١٢٩٩ هـ – ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ – ١٨٨٣ . ويعتقد بابنجر أنه مرجع مفيد يضم معطيات كثيرة لا وجود لها فى المصادر الأخرى ويستحق اهتماماً أكثر مما خص به حتى الآن[٣٠٣] .

هذا وهناك مصنف متأخر شيئاً ما للصحفى والأديب والمعجمى الألبانى المشهور شمس الدين سامى بك فراشرى (١٨٥٠ – ١٩٠٤)[٣٠٤] ، قد اكتسب صيتاً واسعاً سواء بين الدوائر المثقفة فى تركيا أو الدوائر العلمية الأوروبية التى قدرته حق التقدير ؛ والمؤلف قد نال حظه من التعليم بيانينا Janina 653 ولكنه أمضى معظم حياته بالقسطنطينية هذا إذا ما استثنينا عامين قضاهما فى المنفى بطرابلس ، سيريا السلطان عبد الحميد . وقد خلف سامى بك أثراً كبيراً فى الأدب التركى ، غير أن الصيت الواسع والانتشار الكبير كان من حظ مؤلفاته المعجمية (lexical) . ويندرج فى هذه السلسلة معجمه الكبير « قاموس الأعلام » وهو أشبه بدائرة معارف تاريخية جغرافية ، وطبع فى الفترة ما بين عامى ١٣٠٦هـ = ١٨٨٩ و١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ فى ستة أجزاء يحوى كل واحد منها ثمانمائة صفحة . وقد استقى المؤلف مادته من مصادر شرقية وغربية ، ويحتل المكانة الأولى من بين هذا الأخيرة المصادر المدونة بالفرنسية . وينعكس بوضوح فى طريقة العرض ثقافة المؤلف الأوروبية لذا فليس من الغريب أن أطلق العلماء على هذا المعجم أحياناً اسم « لاروس التركى » ؛ وهو لايزال إلى أيامنا هذه أفضل مرجع فى بابه[٣٠٥] .

ولم تزحمه المؤلفات التالية أوتحل محله غير أنه ظهرت إلى جانب ذلك معاجم من ذات النمط ولكنها أكثر تخصصاً ، فالمؤلف التركى على جواد (توفى فى عام ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣) ، وهو ضابط سابق كرس نفسه للتأليف فى التاريخ والجغرافيا ، قد أخرج إلى جانب عدد من المصنفات الجغرافية معجماً فى أربعة أقسام يضم نحو ألف ومائتى صفحة بعنوان « ممالك عثمانيتك تاريخ وجغرافيا لغتى» تم طبعه فى الفترة ١٣١٣ هـ – ١٣١٧ هـ = ١٨٩٥ – ١٨٩٩ . ومما يزيد فى قيمته أنه مزود برسوم متخيرة تبين خارطات وتخطيطات المدن ، الأمر الذى يؤكد أكثر من ذى قبل تأصل المنهج الأوروبى فى نشر المصنفات التى من هذا الصنف[٣٠٦] .

وفى الواقع فإن الباب قد انفتح على مصراعيه أمام المناهج والطرق الحديثة حتى انتهت بالقضاء قضاء مبرماً على مناهج التأليف القديمة ؛ ولايخلو من مغزى فى هذا الصدد مثال عبد الرحمن شرف (١٢٦٩ هـ – ١٣٤٣ هـ = ١٨٥٣ – ١٩٢٥)[٣٠٧] الذى كان آخر مؤرخ رسمى لآل عثمان وشغل هذا المنصب إلى لحظة سقوط دولتهم (١٩٠٩ – ١٩١٨) ، فهو إلى جانب منصبه الرسمى هذا كان رئيساً للجمعية التاريخية العثمانية (التركية فيما بعد) التى أنشئت حديثاً كما كان أول محرر لمجلتها التى صدر العدد الأول منها عام ١٩١٠.

وهو يختلف فى منهجه التاريخى اختلافاً بعيداً عن السابقين له ويميل إلى تطبيق المنهج التجريبى (pragmatic) فى التأليف ؛ كما أنه قد جهد فى إدخال مناهج البحث الأوروبية بين أبناء وطنه وعاون إلى جانب هذا فى نشر الآراء الحديثة من محيط الإحصاء وعلم الجغرافيا . وفى هذا المجال الأخير الذى يهمنا بصورة خاصة بدأت مصنفاته تظهر مبكرة شيئاً ما وذلك منذ السنوات الثمانينيات للقرن الماضى وأولها هو مصنفه الضخم « جغرافياى عمومى » الذى يقع فى جزئين والذى طبع فى عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ ؛ وفيه تنعكس بصورة قاطعة ميوله التى أشرنا إليها ، وتبدو هذه الميول بشكل أكثر دقة فى مصنفه « استاتستيق وجغرافياى عمومى » الذى ظهر بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ١٣١٤ هـ = ١٨٩٦ . وعقب 654 هذا انصرف شرف انصرافاً تاماً إلى التأليف التاريخى حتى اكتسب فيه شهرته الأساسية ، غير أنه فيما يتعلق بالميادين التى أشرنا إليها قبل هذا فإنه يمكن أن نعده إلى حد ما رائداً وداعية لمناهج جديدة :

كذلك أخذت الجغرافيا الطوبوغرافية والمنطقية تغير أشكالها بالتدريج ويمكن أن نتابع تحت أبصارنا تطور تلك الحركة فى العصر الذى نعالج الكلام عليه ؛ فأحمد حلمى خوجه زاده (توفى عام ١٣٣٢ هـ = ١٩١٣) رئيس طائفة النقشبندية يقدم لنا فى كتابه « زيارات أوليا » الذى طبع عام ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ مرشداً على الطريقة القديمة يبين مواضع القداسة بمدينة استنبول ونواحيها[٣٠٨] مفعماً إياه بسير الأولياء الذين يصف أضرحتهم وفقاً للمنهج القديم المعروف لنا إلى عهد على الهروى . وفى وقت واحد معه ترك لنا محمد رئيف (توفى عام ١٣٥٥ هـ = ١٩١٦) ، وهو أيضاً ضابط سابق لم يلبث أن اجتذبه علم الآثار ، عدداً من المصنفات مكرسة بشكل خاص لتاريخ استنبول وعماراتها . ففى كتابه « مرآت استنبول » الذى ظهر عام ١٣١٤ هـ = ١٨٩٦ يقدم لنا وصفاً دقيقاً لأهم أبنية استنبول وضواحيها ؛ والذى يهمنا بصورة خاصة هو تسجيله للنقوش المكتوبة تسجيلا وافياً . وإلى جانب هذا المصنف الضخم فقد ألف عدداً من الرسائل الموجزة تنعكس موضوعاتها من عناوينها ، مثل « تاريخ قصر طوپ قاپو ومنتزهه » (Top qapu sarayi humayun ve parqinin tarikhi ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤) و « منتزه السلطان أحمد وآثاره القديمة » (Sultan Ahmed parqi ve asari atiqesi ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤) ؛ وكل هذا إن دل على شىء فإنما يدل على ظهور ضرب جديد من المؤلفات وعلى أن المذهب الأوروبى قد تم تمثله بصورة نهائية[٣٠٩] .

أما فى محيط الجغرافيا الإقليمية (regional) التى تعالج الكلام عن ولايات الدولة العثمانية فقد شغلت اليمن مكانة خاصة[٣١٠] ، ويرجع اهتمام الأتراك بتلك البلاد إلى عهد بعيد ؛ وقد تبين لنا من كتاب قطب الدين النهروالى « البرق اليمانى » شدة اهتمام الأتراك باليمن منذ بداية فتحهم لها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وانبعاث هذا الاهتمام فى الفترات التاريخية التالية كان فى معظم الحالات نتيجة لحملات عسكرية وجهت إلى تلك البلاد ، كما أن تجدد القتال ضد أئمتها فى القرن التاسع عشر قد

أدى إلى ظهور عدد كبير من المؤلفات عنها . وكان الدافع المباشر لظهور مصنف ما بوجه عام هو اشتراك مؤلفه الذى كان فى معظم الأحوال من طبقة العسكريين فى حملة عسكرية على اليمن . وهذا هو السر فى أن مادة معظم هذه المؤلفات كانت تنصب على وصف العمليات الحربية ، غير أن بعضها كان يحمل طابعاً جدياً يحس فيه محاولة لوضع مقدمة تاريخية تتضمن على الدوام معلومات جغرافية وفيرة بل إن الكتاب قد يحتوى أحياناً على عرض جغرافى عام قائم بذاته . وإلى جانب تنوعه الكبير فإنه مما يزيد فى أهمية هذا الأدب المتعلق باليمن أنه لم يدخل حتى الآن فى الأبحاث الأوروبية عن تلك البلاد .

655 وبعض هذه المصنفات معروف إلى أيامنا هذه فى مخطوطاته فقط ، مثل « يمن تاريخى» (« تاريخ اليمن ») لإبراهيم آكياه Agiah الذى يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر[٣١١] . غير أن عدداً من هذه المصنفات تم طبعه فى العشر سنوات الأولى من القرن العشرين وصحب عدداً من هذه الطبعات كمية من الرسوم والخارطات ، ويمكن أن نشير من بينها إلى « يمن تاريخى » («تاريخ اليمن ») الذى يقع فى جزئين لعاكف باشا (١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨) و« يمن وحياتى » (« اليمن وحياتها ») لحسن قدرى (١٣٢٨ هـ = ١٩١٠) و« يمن خاطره سى» (« ذكريات اليمن ») لرشدى (١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩)[٣١٢] ، وجميعها ترتبط بحملة عام ١٨٩٦[٣١٣] . غير أن أهم المصنفات التى من هذا الضرب كتاب يرجع إلى تاريخ أسبق من هذا وضعه قائد عثمانى موهوب هو أحمد رشيد باشا (توفى عام ١٣٠٩ هـ = ١٨٩١) وكان قد أمضى شطراً كبيراً من حياته فى حملات عسكرية بجنوبى الجزيرة العربية[٣١٤] . وقد أثار فيه الاهتمام بتلك البلاد إقامته الطويلة هناك والتى بدأت بحملة عام ١٨٧٠ فدفعه هذا إلى استيعاب الكتب العربية التى عالجت الكلام عليها والتى يوجد من بينها عدد لانعرف عنه شيئاً ، ثم اعتمد على مادتها وعلى ملاحظاته الشخصية فأخرج لنا كتابه « تاريخ يمن وصنعاء » (« تاريخ اليمن وصنعاء ») فى جزئين (١٢٩١هـ = ١٨٧٤) . وينقسم الجزء الأول إلى ثلاثة أقسام تعالج تاريخ الفترة الأولى لمحاولات الأتراك إخضاع تلك البلاد ابتداء من عام ٩٠١ هـ = ١٤٩٥ إلى انتهاء سيادتهم عليها فى عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥ ، ثم تاريخ اليمن فى عهد الأئمة مع تفصيل الكلام على طوائفها ، ثم أخيراً فتح العثمانيين الجديد لليمن فى عهد السلطان عبد المجيد . أما الجزء الثانى فيتناول الكلام على الحملة العسكرية لعام ١٨٧٠ على العسير واليمن وتنظيم إدارتها على وضع جديد ويقدم عرضاً وافياً لجغرافيتها يهتم فيه بالكلام بصورة خاصة على محاصيلها وسكانها وصناعتها وآثارها القديمة . ولايزال هذا الكتاب محتفظاً إلى أيامنا هذه بأهميته كمرجع قيم عن تاريخ تلك البلاد تحت السيادة العثمانية وعن جغرافيتها بشكل خاص . ويبدو أن مصنف أحمد رشيد باشا هو الكتاب الوحيد فى سلسلة المراجع اليمنية الذى تعرف عليه العلم الأوروبى وذلك بفضل مقال باربييه دى مينار Barbier de Meynard[٣١٥] الذى يقدم لنا ترجمة كاملة لكل القسم الجغرافى من الكتاب[٣١٦] .

ويختتم بابنجر مصنفه عن مؤرخى آل عثمان Die Geschichtsschreiber der Osmanen

بالكلام عن محمد طاهر البروسلي (١٢٧٨ هـ — ١٣٤٤ هـ = ١٨٦١ — ١٩٢٥) الذى يقدم لنا فى مصنفاته الببليوغرافية حصيلة ذلك الفرع من الأدب أى التاريخ ؛ ونحن بدورنا أيضاً نجد لأنفسنا الحق فى أن نختتم به عرضنا للأدب الجغرافى التركى[٢١٧] ففى سفره الضخم المعروف الذى ظهر فى ثلاثة أجزاء فى الفترة ١٣٣٤ هـ — ١٣٤٣ هـ = ١٩١٥ — ١٩٢٥ يترجم محمد طاهر لكبار علماء الدولة العثمانية من المشايخ والفقهاء والشعراء والأدباء والمؤرخين والأطباء وعلماء الرياضيات والجغرافيين. 656 وهو يولى هؤلاء الأخيرين عناية خاصة ؛ فقد استشعر اهتماماً معيناً بذلك الفرع من الأدب وحدث أن وضع ترجمة لسيرة حياة حاجى خليفة. ومن المستحيل القول بأنه من ممثلى النزعة العلمية الجديدة فهو قد اقتفى أثر القدماء، من أصحاب معاجم السير ومؤلفى «التذكرات»، بل إن كتابه يعد خاتمة لسلسلة المؤلفات من هذا الضرب. وميله إلى هذه الموضوعات أمر لايرقى إليه الشك، كما أن محاولته لإثبات أن الأتراك لم يكونوا شعباً محروماً من الثقافة تنطوى على شعور نبيل، ويمكن القول بأنه قد وفق فى التدليل على ذلك بطريقة مقنعة ؛ ولكن من ناحية أخرى قد لوحظ أكثر من مرة أن إشاراته إلى أسماء الكتب لاتخلو من الخطأ وأن كتابه من هذه الزاوية لايرقى إلى مرتبة المؤلفات الببليوغرافية الكبرى ولو أن هذا لايحول دون اعتباره المرجع الوحيد فى سير ومصنفات كبار المؤلفين العثمانيين. ومن الطريف بالنسبة لنا أن نلاحظ أن مذهبه فى عرض الأدب الجغرافى فى القرن العشرين لايرتبط فقط بمذهب حاجى خليفة فى القرن السادس عشر أو ياقوت فى القرن الثالث عشر بل كذلك بمذهب ابن النديم فى القرن العاشر الميلادى.

من هذا يتضح لنا أنه على الرغم من دخول المادة الجديدة واعتناق العلماء الأتراك لمناهج البحث الحديثة فإن المذهب العربى القديم قد ظل حياً بين العثمانيين حتى السنوات العشرينات من القرن العشرين ؛ وهذه الظاهرة الأخيرة تبرر لنا مرة أخرى ضرورة معالجة الأدب الجغرافى التركى فى عرض عام للأدب الجغرافى العربى لا فى تلك القرون وحدها فحسب حين كانت الصلة بين الاثنين واضحة للعيان بل كذلك فى العهد الذى حدث فيه الانفصام التام عن المنهج الشرقى فى كافة الاتجاهات وحين بدا أن التأثير الغربى الأوربى قد طرده نهائياً من مسرح الحوادث. ويلوح أن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة ، إذ بمقدورنا أن نلاحظ ظهور براعم جديدة لهذه المذاهب القديمة حتى فى أيامنا هذه تعلن عن حقها فى البقاء ولاتفتقر فى واقع الأمر إلى بعض القيمة العلمية. وهذا هو السبب كما ذكرنا الذى حدا بنا لأن نفرد قسما خاصاً فى عرض عام للأدب الجغرافى العربى نعالج فيه الكلام على الأدب الجغرافى التركى كما فعلنا من قبل مع رصيفه باللغة الفارسية :

حواشي الفصل الحادى والعشرين

---

(١) – Taeschner, OLO

(٢) – Babinger, OOW

(٣) – Kramers, EI, EB, p. 72

(٤) – Taeschner, OLO, p. 39-40 — Kramers, EI, EB, p. 72

(٥) – Taeschner, OLO, p. 40

(٦) شرحه ، ص ٤٠ ، ملاحظة ٢

(٧) شرحه ، ص ٤٠ – ٤١ ، ملاحظة ، ٣

(٨) شرحه ، ص ٣٥

(٩) شرحه ، ص ٣٨

(١٠) – Kramers, EI, EB, p. 72

(١١) – Babinger, OOW, p. 15-16 note 3 — Taeschner, Bericht, p. 86-87

(١٢) – Taeschner, OLO, p. 39

(١٣) – Taescher, Bericht, p. 87, note 21

(١٤) – Taescher, OLO, p. 39

(١٥) – Babinger, OOW, p. 15, note 3

(١٦) شرحه ، ص ٦٦ – ٦٧ ، ملاحظة ٢

(١٧) قارن ، BOA

(١٨) – Taeschner, OLO, p. 37

(١٩) – Orientalische Bibliographie, 3, (1889), 1890, p. 11 , No 213

(٢٠) – Taeschner, OLO, p. 37-38 — Kramers, EI, EB, p. 72

(٢١) – Taeschner, OLO, p. 38

(٢٢) قارن : Taeschner; OLO, p. 41-43

(٢٣) – Babinger, OOW, p. 50, No 31

(٢٤) شرحه ، ص ١٧٧ ، رقم ٥٩

(٢٥) – Taeschner, OLO, p. 43-44

(٢٦) – Babinger, OOW, p. 20

(٢٧) شرحه ، ص ٢٨ – ٢٩

(٢٨) شرحه ، ص ٢٩ – ٣٠

(٢٩) – Rozen, ZVO, XI, p. 370, 37

(٣٠) قارن : Babinger. GOW, p. 30-31

(٣١) – Rozen, ZVO, XI, p. 369, 402

(٣٢) – Babinger, GOW, p. 118-119, No 101 and note 2

(٣٣) شرحه ، ص ١٢٠ – ١٢١ ، رقم ١٠١ ، ملاحظة ٢

(٣٤) – Taeschner, OLO, p. 45-46, and note 8 – Babinger, GOW, p. 213, note 1

(٣٥) – Babinger, GOW, p. 212-214, No 184

(٣٦) – Taeschner, OLO, p. 46 – Kramers, EI, EB, p. 72

(٣٧) – Taeschner, OLO, p. 46-47, note 3 = Kramers, EI, EB, p. 72-73

(٣٨) – Süssheim, Ali, p. 295-296 – Babinger, GOW, p. 126-129, No 110 p. 128 خاصة

(٣٩) – Taeschner, OLO, p. 47 – Kramers, EI, EB, p. 73

(٤٠) – Babinger, GOW, p, 138-139, No 115

(٤١) – Taeschner, OLO, p, 48-56

(٤٢) شرحه ، ص ٤٩

(٤٣) – Honigmann, Die sieben Klimata, p. 108, according to : Taeschner, Das anatolische Wegenetz, p. 5, note 2

(٤٤) – Taeschner, OLO, p. 49, but cf : Babinger, GOW, p. 139

(٤٥) – Taeschner, OLO, p. 49

(٤٦) – Taeschner, OLO, p. 50; but cf : Babinger, GOW, p. 138, note 1

(٤٧) – Taeschner, OLO, p. 50

(٤٨) شرحه ، ص ٥١

(٤٩) شرحه ، ص ٥١ – ٥٢ قارن : Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 108

(٥٠) – Taeschner, OLO, p. 53, note

(٥١) شرحه ، ص ٥٣ – ٥٤

(٥٢) شرحه ، ص ٥٤ – ٥٥

(٥٣) شرحه ، ص ٥٥

(٥٤) قارن : Taeschner, OLO, p. 56

(٥٥) - Babinger, GOW, p. 139

(٥٦) شرحه ، ص ٣٦٥ ، ملاحظة ١

(٥٧) - Taeschner, GLO, p. 57

(٥٨) - Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 14 — Babinger, GOW, p. 365, note 1

(٥٩) - Taescher, GLO, p. 57

(٦٠) - Carra de Vaux, Les Penseurs, I p. 245, note 1

(٦١) حاجي خليفة ، الجزء الثاني ، ص ١٥٩ ، رقم ٢٣٤٠

(٦٢) - Gildemeister, Orientalische Literatur, p. 303-304

(٦٣) نقلا من كتاب Wickerhauser، ص ١٥٩ - ١٦٧ (المتن) وص ١٦٦ - ١٧٥ (الترجمة)

(٦٤) - Nallino, Al-Falak, p. 73 — Babinger, Stambuler Buchwesen p. 16b — Babinger, GOW, p. 197

(٦٥) - Huart, Abaza, p. 6 - Mordtmann, Hadjdji Khalifa, p. 217

(٦٦) - Hartmann, EI, II, p. 31

(٦٧) حاجي خليفة ، سيرة حياته بقلمه راجع : Wickerhauser, p. 168-169

(٦٨) - Smirnov, Ocherk, p. 497-498

(٦٩) - Babinger, GOW, p. 201, No 11

(٧٠) شرحه ، ص ٣٧٤

(٧١) - Brockelmann,GAL, SB II, p. 636 (1067 = 1657) = Mordtmann, Hadjdji Khalifa, p. 217 — Babinger, GOW, p. 195 — Taeschner, GLO, p. 57

(٧٢) - Taeschner, GLO, p. 57, note 2

(٧٣) - Nallino, Al-Falak, p. 73-75 (= Racc., p. 144-146), biography of Hadjdji Khalifa — Cf. Hammer, Encycl. Ubersicht, I, p. 3-15

(٧٤) - Babinger,GOW, p. 196

(٥٧) سيرة حياة حاجي خليفة بقلمه . راجع : Wickerhauser, p. 169 — Babinger, GOW p. 196, No 1 — Brockelmann, GAL, SB II, p. 636

(٧٦) - Wickerhauser, p. 174 — Babinger, GOW, p. 202 - 203, No 15 - Brockelmann, GAL, SB, II, p. 637

(٧٧) - Wickerhauser, p. 168 — Flügel, Lexicon Bibliographicum, I, p. XI — Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 275

(٧٨) – Hammer, Erinnerungen, p. 36, 38, 43

(٧٩) – Mordtmann, Hadjdji Khalifa, p. 217 — Babinger, GOW, p. 198.

(٨٠) حاجي خليفة ؛ الجزء الأول ، ص ٢ – ٥

قارن : Nallino, Al-Falak, p. 75-76 (= Racc., p. 145-146)

(٨١) – Flügel, Lexicon Bibliographicum, I, p. XV — XVI — Wiedemann, Beiträge, LVII, p. 3

(٨٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 235, No 5; SB II, p. 330

(٨٣) – Brockelmann, GAL, II, p. 218-219, No 5; SB II, p. 309

(٨٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 453, No 5; SB II, p. 673.

(٨٥) – Wiedemann, Beiträge, LVII, p. 3

(٨٦) – Hammer, Encycl. Übersicht, p. 41-196

(٨٧) شرحه ، ص ١٩٧ – ١٩٦

(٨٨) شرحه ، ص ٦٩٧ – ٦٩٩ (حاجي خليفة ، الجزء السادس ، ص ٥١٩ – ٥٢١)

(٨٩) – Hammer, Erinnerungen, p. 29

(٩٠) – Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, 14-30

(٩١) حاجي خليفة الجزء الثاني ، ص ٦٠١ – ٦٠٣ .. قارن :

Hammer, Encycl' Ubersicht, p. 375-377 — Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 17

(٩٢) حاجي خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٥ – ٣٦ (قارن الجزء الثالث ص ٥٦٦ ، رقم ٦٩٣٠) – Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 17

(٩٣) حاجي خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٥

(٩٤) شرحه ، الجزء السادس ، ص ١٠١ – Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 21

(٩٥) – Hammer, Encycl. Ubersicht, p. 384 — 386

(٩٦) حاجي خليفة ، الجزء الخامس ، ص ٥٠٧ ، رقم ١١٨٦٢

Hammer, Encycl. Ubersicht, p. 387—Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4p. 18.

(٩٧) حاجي خليفة ، الجزء الثالث ، ص ١٨٠

Hammer, Encycl. Ubersicht, p. 392-Wiedemann, Beitrage, LVII, No 4, p. 18

(٩٨) حاجي خليفة الجزء الثالث ، ص ١٨٠

(٩٩) حاجي خليفة الجزء الثاني ، ص ٤٢ ، رقم ١٧٦٩

قارن : « من جهانما » Hammer, Encycl. Ubersicht, p. 387 — 390

مع اضافات لابراهيم p. 390 — 392

(١٠٠) حاجي خليفة الجزء الثاني، ص ٤٢ (= Wiedemann, Beiträge, LVII, No 4, p. 29-30) –

(١٠١) – Babinger, GOW, p. 199 — Krymski, Khamasa

(١٠٢) – Babinger, GOW, p. 199

(١٠٣) – Flügel, Lexicon Bibliographicum

(١٠٤) – Nallino, Al-Falak, p. 79 (=Racc., p. 149); turkish edition 1941-1942

(١٠٥) القرآن ، ٢٨٣

(١٠٦) حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص ٥١٩ – ٥٢١ ؛ قارن : Hammer, Encyl. Ubersicht, p. 392

(١٠٧) حاجى خليفة ، الجزء الثانى p, VI, III, p. III, note 4 Nallino, Al-Falak, p. 78 (=Racc., p. 148-149)

(١٠٨) حاجى خليفة ، الجزء السادس ، ص ٥٢٢ – ٥٢٣

(١٠٩) – Nallino, Al-Falak, p. 78 (=Racc., p. 148-149)

(١١٠) – Flügel, Lexicon Bibligraphicum, VI, p. 525-646 — cf : Babinger, GOW, p. 198

(١١١) – Babinger, GOW, p. 198, 402, No 373

(١١٢) – Wickerhauser, p. 170

(١١٣) – Babinger, GOW, p. 197-198, No 3

(١١٤) – Taeschner, GLO, p. 57

(١١٥) شرحه

(١١٦) – Reinaud, Introduction, p. CLXXII

(١١٧) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 277, note

(١١٨) – Blochet, l'Etude, p. 26

(١١٩) – Babinger, GOW, p. 197-198, No 3

(١٢٠) – Wickerhauser, p. 173

(١٢١) – Taeschner, GLO, p. 58, note 4

(١٢٢) – Wickerhauser, p. 173

(١٢٣) – Taeschner, GLO, p. 59, note 4

(١٢٤) – Taeschner, GLO, p. 59, note 2 — Atlas minor Gerardi Mercatoris

(١٢٥) – Babinger, GOW, p. 199, No 6

(١٢٦) – Taeschner, GLO, p. 59

(١٢٧) – Taeschner, Die Vorlage, p. 309-310

(١٢٨) – Babinger, GOW, p. 198 من أعلى

(١٢٩) – Mordtman, Hadjdji Khalifa, p. 217, No 10 — Taeschner, Die Vorlage, p. 308

(١٣٠) – Taeschner, Die Vorlage, p. 309 = Babinger, GOW, p. 198 من أعلى

(١٣١) – Taeschner, GLO, p. 60, note 1 — Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 16

(١١٢) – Taeschner, GLO, p. 61-62

(١٣٣) راجع المصادر الأوروبية الأساسية لدى فستنفلد :

Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 277, note

(١٣٤) – Taeschner, GLO, p. 62

(١٣٥) – Bartold, Kult. mus. p. 104

(١٣٦) – Taeschner, GLO, p. 62

(١٣٧) حاجي خليفة، جهانِنما، المتن، ص ٨–١٤ — Hammer, Encycl Ubersicht, p. 377-384

(١٣٨) – Taeschner, GLO, p. 63, note 1

(١٣٩) شرحه ص ٦٣

(١٤٠) قارن : شرحه ص ٦٣ – ٦٤

(١٤١) – Blochet, L'Etude, p. 27-28

(١٤٢) – Babinger, GOW, p. 200

(١٤٣) شرحه، ص ١٩٩ – ٢٠٠، ٢٢٠ – ٢٢٥، متن بهرام ابتداء من ص ٤٢٧

(١٤٤) – Babinger, GOW, p. 227-228

(١٤٥) شرحه، ص ٢٦٨

(١٤٦) شرحه

(١٤٧) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 16

(١٤٨) – Babinger, GOW, p. 201

(١٤٩) – Norberg, Gihan numa

(١٥٠) – Babinger, GOW, p. 202, No 14

(١٥١) – Babinger, GOW, p. 78

(١٥٢) شرحه، ص ٢٠٢ رقم ١٤

(١٥٣) – Babinger, Stambuler Buchwesen,

(١٥٤) – Babinger, GOW, p. 202

(١٥٥) – Mitchell

(١٥٦) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXXIV—XLIV

(١٥٧) – Babinger, GOW, p. 296, No 4-5

(١٥٨) – Cf : anonym : Babinger, GOW, p. 296, note 2

(١٥٩) – Babinger, GOW, 388, note 1

(١٦٠) شرحه ، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ ، رقم ٣٦٦

(١٦١) شرحه ، ص ٢٠٢ ، رقم ١٤

(١٦٢) شرحه ، ص ٣٨٨ ، رقم ٣٥٦

(١٦٣) – Kindermann, Safina, p. 208, المراجع — Bowen Jr. Arab Dhows — Zayat, Al-Mashrik, p. 321-364 — Ritter, Flussfahrzeuge, p. 121-143

(١٦٤) – Babinger, GOW, p, 220

(١٦٥) شرحه

(١٦٦) – Taeschner, OLO, p. 64

(١٦٧) – Mordtmann, Ewliya celebi, p. 35 = حرنيا : Babinger, GOW, p. 220-221=with misunderstandings : Tveritinova, BV, 10. p. 203-204, No 33

(١٦٨) – Cf : Babinger, GOW, p, 324-325, No 1

(١٦٩) – Taeschner, OLO, p. 67 - 68

(١٧٠) – Mordtmann, Ewliya Celebi, p. 35

(١٧١) – Bartold, Ist. izuch. Vostoka[2], p. 114.

معلومات عن القيتاق مع مواد لغوية لدى :

Bartold, Etnograficheskoe obozrenie, 1910, No 1-2, p. 37-45; No 3-4, p. 283-284.

(١٧٢) – Bartold, Kult, mus., p. 140

(١٧٣) – Cf : Kramers, EI, EB. p. 73

(١٧٤) – Taeschner, OLO, p. 68

(١٧٥) – Taeschner, OLO, p. 68-69, note 2

(١٧٦) شرحه ، ص ٦٩ ، ملاحظة رقم ١

(١٧٧) شرحه ، ص ٦٨ – ٦٩ ، ملاحظة رقم ٢

(١٧٨) شرحه ، ص ٦٩ – ٧٠

(١٧٩) شرحه ، ص ٧٠

(١٨٠) – Tveritinova, BV, 10, p. 203

(١٨١) [يوجد الآن مختصر جديد ولكن متنه لا بأس به ، رئدين به لشخصية تركية معروفة :
Resad Ekrem Koçu, Evliya Çelebi seyahetnamesi]

(١٨٢) – Taeschner, OLO, p. 66, note 1; 70—Babinger, GOW, p. 222, note 1

(١٨٣) – Cf : Babinger, فرسه

(١٨٤) – Taeschner, OLO, p. 66, note 2

(١٨٥) – Hartmann, Ewlija Tschelebi, p. 195

(١٨٦) فرسه ، ص ٢٠٨

(١٨٧) فرسه ، ص ٢٠٥

(١٨٨) فرسه

(١٨٩) فرسه ، ص ٢٠٦

(١٩٠) فرسه ، ص ٢١١

(١٩١) فرسه ، ص ٢١٢

(١٩٢) فرسه ، ص ٢١٣

(١٩٣) فرسه ، ص ٢١٥

(١٩٤) فرسه ، ص ٢١٥ – ٢٢٢

(١٩٥) فرسه ، ص ٢٢٢

(١٩٦) فرسه ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣

(١٩٧) فرسه ، ص ٢٢٤

(١٩٨) فرسه ، ص ٢٢٧

(١٩٩) فرسه ، ص ٢٣٠

(٢٠٠) فرسه ، ص ٢٣٣

(٢٠١) – Kahle, China

(٢٠٢) راجع عنه : Babinger, GOW, p. 222-227, No 197

(٢٠٣) – Babinger, GOW, p. 215, No 185 ; cf : Brockelmann, GAL, SBII, p. 574 No 7

(٢٠٤) – Babinger, GOW, p. 228-230, No 199

(٢٠٥) – Smirnov, Manuscrits turks, p. 21-26

(٢٠٦) – Kramers, EI, III, p, 779-780 — Babinger, GOW, p. 234-235, No 205 — Brockelmann, GAL, II, p. 443, No 10 ; SBII, p. 637, No 9

(٢٠٧) – Validi, GZ, XL, p. 369 and note 3

(٢٠٨) – Bartold, Iran, I, 1927 p. 52; لدى وليدى خصاً Validi, فرسه II, 1930

(٢٠٩) – Kramers, EI, EB, p. 73

(٢١٠) – Taeschner, OLO, p. 70

(٢١١) – Smirnov, Ocherk, p, 517-518 — Taeschner, OLO, p. 71

(٢١٢) – Krachkovski, Ibrahim Mutafarrika, p. 120-126

(٢١٣) – Mordtmann, Ibrahim Muteferrika, p. 467 — Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 10 (المراجع note 2), 17-18

(٢١٤) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 18

(٢١٥) شرحه ، ص ١٢ – ١٣

(٢١٦) شرحه ، ص ١٣ – ١٤ ؛ قارن :

Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 14

(٢١٧) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 14

(٢١٨) شرحه ، ص ١٥

(٢١٩) شرحه ، ص ١٦

(٢٢٠) شرحه ، ص ١٧

(٢٢١) – Babinger, GOW, p. 276-277, No 247

(٢٢٢) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 16

(٢٢٣) شرحه ، ص ١٧

(٢٢٤) شرحه

(٢٢٥) شرحه ، ص ١٢ ب ، ملاحظة ١

(٢٢٦) شرحه ، ص ١٦

(٢٢٧) شرحه ، ص ١٦ ب ، الملاحظة

(٢٢٨) – Taeschner, OLO, p. 62, note 3

(٢٢٩) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 17b, note 1

(٢٣٠) شرحه ، ص ٣٢ ا

(٢٣١) – Mejov, I, p. 249, No 5613

(٢٣٢) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 15

(٢٣٣) شرحه : ص ١٤ – ١٥ ، ١٩

(٢٣٤) – Mejov, I, p. 277-278, No, 6294-6295 — Piatnitzki, p. 138-140

(٢٣٥) القسم الثاني ، ١٩٥ – ٢٤٦

(٢٣٦) – Mejov, I, p. 279, No 6827

(٢٣٧) – Babinger, Stambules Buchwesen, p. 5,15

(٢٣٨) شرحه ، ص ٣٢ ا

(٢٣٩) – Kramers, EI, EB, p. 73 — Taeschner, OLO, p. 71-78

(٢٤٠) – Babinger, GOW, p. 315-316, No 292

(٢٤١) – Taeschner, OLO, p. 71-72

(٢٤٢) – Babinger, OOW, p' 316 and note 1

(٢٤٣) شرحه ص ، ٢٧٥-٢٧٦ ، رقم ٢٤٦

(٢٤٤) – Babinger, OOW, p. 285, No 259; cf, p. 328, No 10

(٢٤٥) – Bianchi, p. 81 Sui. — the error of Bianchi in the date by a margin of 100 years remarked by Taeschner (Taeschner, OLO, p. 72).

(٢٤٦) – Taeschner, OLO, p. 72

(٢٤٧) شرحه ، ص ٧٣ ، ملاحظة I

(٢٤٨) شرحه ، ص ٧٢ – ٧٣ ، ملاحظة ٣

(٢٤٩) شرحه ، ص ٧٣

(٢٥٠) – Babinger, OOW, p. 237-239, No 209 — Babinger, Nabi, p. 867-868

(٢٥١) – Smirnov, Ocherk, p. 511-513

(٢٥٢) – Taeschner, OLO, p. 73

(٢٥٣) شرحه

(٢٥٤) شرحه ، ص ٧٥ – ٧٨

(٢٥٥) – Babinger, OOW, p. 323-332, No 299

(٢٥٦) – Cf. : Hammer, Geschichte, IX, p. 303-334

(٢٥٧) – Babinger, OOW, p. 324-325, No 1

(٢٥٨) – Taeschner, OLO, p. 76, No 4 — Babinger, OOW, p. 326-327, No 5— Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 253-259

(٢٥٩) – Martino, L'Orient, p. 95-101

(٢٦٠) – Cheikho, Catalogue raisonné, p.17 (229)

(٢٦١) Taeschner, OLO, p. 78 – Badinger, Stambuler Buchwesen, p. 9a.

(٢٦٢) – Gotha, No 1548 (Pertsch, III, p. 178-179); Beyrouth (Cheikho, Catalogue raisonné, p. 16-17 (228-229), No 293).

(٢٦٣) – Rosen, Notices sommaires, p. 196-197, No 243

(٢٦٤) – Babinger, OOW, p. 341-342, No 300

(٢٦٥) – Cf : Taeschner, OLO, p. 77-78

(٢٦٦) شرحه ، ص ٧٨ ، الملاحظة – Babinger, OOW, p. 329, No 14

(٢٦٧) – Sekowski, Collectanea, II, p. 290-304

(٢٦٨) – Babinger, OOW, p.335-337 No 301

(٢٦٩) – Mejov, I, p. 275, No 6233

(٢٧٠) – Senkovski, Dervish Mukhammed, p. 3-18

(٢٧١) – Babinger, GOW, p. 328, No 11

(٢٧٢) – Sekowski, Collectanea, II, p. 211-221

(٢٧٣) – Babinger, GOW, p, 328

(٢٧٤) شرحه ، ص ٣٠٩ – ٣١٢ ، رقم ٢٨٨

(٢٧٥) – Brockelmnn, GAL, II, p. 430, No 7

(٢٧٦) – Hartmann, Tychsen, II, 1. p. 351-352, 353-358 – Tychsen, p. VI-IX (dates – 1705 !)

(٢٧٧) – Sekowski, Collectanea, II, p. 222-289

(٢٧٨) – Mejov, I, p. 275, No 6236 Veselovski, Grigoriev, p. 95 — Grigoriev, Zapiska

(٢٧٩) – Smirnov, Ocherk, p. 498 500

(٢٨٠) – Senkovski, Sobr. Soch., VI, p. 234, note

(٢٨١) شرحه ، ص ٢٣٤ – ٢٤٣

(٢٨٢) – Babinger, GOW, p. 328, No 8

(٢٨٣) شرحه ، ص ٣٢٨ – ٣٢٩ ، رقم ١٣

(٢٨٤) شرحه ، ص ٣٢٩ ، رقم ١٥

(٢٨٥) شرحه ، رقم ١٦

(٢٨٦) شرحه ، ص ٣٣١ ، رقم ٢١

(٢٨٧) – Mejov, I, p. 264, No 5967

(٢٨٨) عن الحروب الروسية التركية وعن روسيا في الأدب التركي راجع :
Babinger, GOW, p. 310 and Index, p, 473.
وعن الضباط الأتراك في عهد كاترينا راجع : Smirnov, Obrazts, proizv., led., p. 228-243

(٢٨٩) – Taeschner, GLC, p. 74

(٢٩٠) شرحه ، ص ٧٤ ، ملاحظة ٣ . لا وجود له لدى بابنجر (Babinger, Stambuler Buchwesen)

(٢٩١) – Cf. : Harrisse, p. 137-138

(٢٩٢) – Harrisse, p. 133

(٢٩٣) – Cf : Gildemeister, Orientalische Literatur, p. 305

(٢٩٤) – Taeschner, GLO, p. 74 and note 5

(٢٩٥) شرحه ، ص ١٤٤ ، Nachtrag

(٢٩٦) شرحه ، ص ٧٤ ، ملاحظة ٥

(٢٩٧) شرحه ، ص ١٤٤ ، Nachtrag

(٢٩٨) – Babinger, Stambul. Buchwesen, p. 19, 22

(٢٩٩) – Taeschner, OLO, p. 78 and note 2

(٣٠٠) شرحه ، ص ، ٧٩

(٣٠١) – Reinaud. Notice, p. 14

(٢٠٢) – Kramers, EI, EB, p. 73

(٣٠٣) – Babinger, GOW, p. 376, No 347

(٣٠٤) شرحه، ص ٢٨٧ ، ملاحظة ١ – Kramers, Sami, p. 144 - 145 — Kramers, EI, EB p. 73 – Tveritinova, BV, 10, p. 211, No 182 a - Gordlevski, Ocherki, p. 57 - 63

(٣٠٥) – Gordlevski, Ocherki, p. 61

(٣٠٦) – Babinger, GOW, p. 398, No 367

(٣٠٧) شرحه ، ص ٤٠٤ – ٦٠٤ ، رقم ٣٧٥

(٣٠٨) – Babinger. GOW, p. 396 - 397, No 364

(٣٠٩) شرحه ، ص ٤٠٠ ، رقم ٣٧٠

(٣١٠) – Cf : Kramers, EI, EB, p. 73 - 74

(٣١١) – Babinger, GOW, p. 399, No 368

(٣١٢) شرحه ، ص ٣٩٩ ، ملاحظة ١

(٣١٣) – Tveritinova, BV, 10, p. 210, No 150

(٣١٤) – Babinger, GOW, p 374 - 376, No 346

(٣١٥) شرحه (غير مذكور)

(٣١٦) – Barbier de Meynard, Notice, p. 94 - 123

(٣١٧) – Babinger, GOW, p. 406 - 409, No 376

الفصل الثانى والعشرون

المصنفات الجغرافية للقرن السادس عشر بسوريا والأقطار المجاورة

657 رأينا لزاماً علينا ونحن بسبيل الكلام على الأدب الذى انتعش نتيجة لازدهار الجغرافيا الملاحية بين العرب والترك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر أن نتابع الحديث عن الأدب الجغرافى التركى إلى القرن العشرين . والآن إذا ما رجعنا القهقرى وأمسكنا بخيط التطور التاريخى للأدب الجغرافى حيثما تركناه فى القرن السادس عشر فسنقرر للوهلة الأولى أنه باستثناء اللحظات التى ألقينا عليها بعض الضوء فإن هذا الأدب يبدو فى الغالب شاحب اللون عقيما . وقد حدث أن تناولنا الكلام على حالات معينة من الأدب المغربى لذلك العهد وكانت لاتخلو من بعض الطرافة وترتبط ارتباطاً وثيقاً فى الوقت نفسه بالكارتوغرافيا والرحلات ؛ ولهذا السبب فستنصب عنايتنا فى هذا الفصل على البلاد العربية فى المشرق وفى المكانة الأولى سوريا التى تبرز لنا فى هذا العصر عدداً ممتازاً من الآثار المعروفة التى تفوق ما أنتجته الأقطار الأخرى . ولعله ليس من قبيل الصدفة أن مجموعة من أكبر وأهم مجموعات المخطوطات الشرقية الموجودة لدينا بالاتحاد السوفيتى والتى تضم عدداً من المخطوطات اليتيمة لهذا العهد إنما مصدرها سوريا بالذات .

ولا يمكن القول على وجه الدقة بأنه قد وجدت بينها مؤلفات ذات قيمة أدبية عامة ؛ وقد نال رواجاً ملحوظاً أكثر من غيره نمطان هما الجغرافيا الإقليمية من طراز « الفضائل » ، ثم « الرحلات » . هذا وقد كشفت سوريا عن إصرار شديد فى تمسكها بتقليد قديم هو وصف دمشق فلم تقف به عند القرن السادس عشر بل استمرت تنميه إلى ما بعد هذا .

وإلى هذا العصر بالذات ينتمى مصنف يكاد يعتبر أكثر المصنفات العربية شهرة بين الأوروبيين وذلك بفضل الترجمة الفرنسية التى ندين بها للمستشرق سوفير Sauvaire[1]. ومؤلفه عبد القادر بن محمد النعيمى (توفى عام ٩٢٧ هـ = ١٥٢١) أصله من دمشق وعرف بحبه لمسقط رأسه الذى تولى فيه لبعض الوقت منصب القضاء[2] . وتتضح فكرة الكتاب بجلاء من عنوانه المطول الذى قد يتنوع أحياناً 658 بتنوع المخطوطات[3] وهو « تنبيه الطالب وإرشاد الدارس لأحوال مواضع الفوائد بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس » . هذا وقد لخص الكتاب تلميذه ابن طولون الذى سنعالج الكلام عليه للتو ، غير أن معرفتنا الأساسية به تعتمد على مسودة من عمل دمشقى آخر من أهل الجيل التالى لها هو عبد الباسط العلماوى (توفى عام ٩٨١هـ = ١٥٧٣)[4] ؛ وهذه المسودة هى التى اعتمد عليها سوفير أساساً فى نقله الكتاب إلى الفرنسية . ولم تقل العناية بالكتاب بعد هذا العصر فقد اعتمد عليه اعتماداً كبيراً مؤلف دمشقى من أهل

القرن السابع عشر هو محمود بن محمد العدوى (توفى عام ١٠٣٢ هـ - ١٦٢٣) وذلك فى مصنفه بعنوان « الإشارات فى أماكن الزيارات »[٥] ، ويمكن القول بقدر كبير من الصحة إن كتاب النعيمى هو الذى تمتع من بين جميع أوصاف دمشق العديدة بأكبر حظ من الشهرة بين الجماهير .

والواقع أن الكتاب لايقدم لنا شيئاً جديداً سواء من ناحية المضمون أو ناحية الشكل عند مقارنته بالعدد الهائل من المصنفات من نفس الطراز التى فحصناها إلى هذه اللحظة ، أضف إلى هذا أن هدفه يبدو لنا واضحاً من طبيعة الوضع الذى شغله المؤلفان ، فإذا كان النعيمى بوصفه قاضياً قد اهتم بالموضوعات التى تتعلق بمهنته فإن العلماوى قد شغل فى البداية وظيفة مؤذن بالمسجد الأموى ثم خطيباً بإحدى مساجد دمشق ومن ثم فقد مس هذه الموضوعات أمام مستمعيه . لهذا فإن أصل الكتاب وأيضاً المسودة المتأخرة كانا يستهدفان الإعلام والدعاية مما لاحظناه من قبل فى حالات مماثلة .

وليس ثمة حاجة إلى التوقف بصورة خاصة عند مصادر الكتاب ، فمما لاشك فيه أن كلا من النعيمى والعلماوى كان على معرفة جيدة بآثار السابقين عليهما ؛ وقد رجع النعيمى إلى عدد من المؤلفات معظمها آثار تاريخية[٦] ، هذا على حين أنه يلاحظ أن العلماوى قد اعتمد كثيراً على ابن شداد الذى مر بنا ولو أنه لايشير إليه فى كل مرة يفعل ذلك ؛ كما وأنه أفاد أيضاً من كتاب ابن خلكان المشهور[٧] .

والنعيمى وإن كان من أشهر من كتبوا عن فضائل دمشق إلا أنه لم يكن الأخير من بينهم ، ففى نهاية القرن السادس عشر وبوجه الدقة فى عام ١٠٠٣هـ - ١٥٩٤ وضع شمس الدين أبو العباس أحمد بن الإمام البصروى كتاباً بعنوان معهود لنا هو « تحفة الأنام فى فضائل الشام »[٨] . | 659 | ورغماً من تعدد مخطوطاته فإن معرفتنا به هو أيضاً ترجع إلى حد كبير إلى سوفير الذى يرجع إليه[٩] وينقل منه[١٠] . وقد أفاد البصروى بصورة خاصة من مصنف لمؤلف سابق معروف لنا فى هذه السلسلة هو أبو البقاء البدرى[١١] . لهذا فلعله ليس من قبيل الصدفة المحضة أن وجد المصنفان جنباً إلى جنب فى مجموعة خطية محفوظة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية وأن نسخهما تم فى عام ١٠٦٠ هـ - ١٦٥٠ و ١٠٦١ هـ - ١٦٥٠ على يد ناسخ يدعى درويش محمد بن حسين البوسنوى[١٢] ؛ ويتضح من اسم الخطاط نفسه على أنه من البوسنة وهذا يقف دليلا على العلاقة الوثيقة التى ربطت بين الأدبين الجغرافى العربى والتركى فى العصر الذى ندرسه .

ومن بين جميع هذا العدد الهائل للمؤلفين ومصنفاتهم ، والذين يجب أن نشير إلى أنهم كانوا عاديين للغاية ، يكاد يكون أكثرهم أصالة دون منازع فى ميدان الجغرافيا الإقليمية أحد مواطنى دمشق وهو محمد بن على بن طولون (توفى فى عام ٩٥٣ هـ - ١٥٤٦)[١٣] الذى ينحدر من صلب الطولونيين من فرع خمارويه[١٤] . وهو وإن كان دمشقياً أصيلا إلا أن والدته رومية وكانت تجيد الكلام بلغتها الأصلية[١٥] ؛ وباستثناء سنى الدراسة التى أمضاها بالقاهرة فهو قد ظل طول حياته مقيماً بمسقط رأسه دمشق . ولايوجد سبب يدعو إلى ضمه إلى زمرة الجغرافيين فقد كان مؤرخاً فى جميع فروع العلوم (polyhistor)

ويذكرنا فى مصنفاته الصغرى بالسيوطى الذى كان يعتبره شيخاً له[١٦] ؛ ومن العسير الإحاطة بعدد مؤلفاته فثبتها الذى عمله بنفسه والمرفق بسيرة حياته التى سطرها بقلمه يشغل اثنين وعشرين صفحة بالخط الدقيق تضم حوالى سبعمائة وعشرين عنواناً[١٧] . وقد عالج ابن طولون الكتابة فى أكثر الموضوعات تبايناً ؛ ونظراً لاشتغاله بتدريس النحو والحديث والفقه بالصالحية إحدى ضواحى دمشق فمما لاشك فيه أن هذه الموضوعات قد شغلت الجانب الأكبر من اهتمامه ، ولكن محيط اهتمامه كان أوسع من ذلك بكثير ويقف دليلا على هذا أن واحدة من المخطوطات النادرة لتلك الرسالة الغريبة وهى « رسالة الملائكة » للمعرى قد حفظت لنا بخط يده[١٨] .

وكان له ولع خاص بالتاريخ وترك لنا مؤلفاً فى سيرة جده الأعلى أحمد بن طولون[١٩] ؛ وبفضل مصنفاته التاريخية نفذ اسمه فى الآونة الأخيرة إلى | الدوائر العلمية الأوروبية . كما حفظت لنا أيضاً يومياته 660 بخط يده وهى تمثل سجلا لحوادث دمشق أثناء حملة السلطان سليم العثمانى ؛ وكان أول من لفت الأنظار إلى هذا المصدر القيم بارتولد ولكن اسم المؤلف كان لايزال مجهولا آنذاك حتى حالف التوفيق هارتمان فى التعرف عليه ونشر القطعة التى تبقت من مصنفه هذا[٢٠] . وتلى ذلك أن ألقى يانسكى H. Jansky المتخصص فى فترة فتح العثمانيين لمصر ضوءاً على بعض مسائل هامة تتعلق بالتأليف التاريخى لذلك العهد وتبين أهمية مصنفه بالنسبة لحوادث تلك الفترة[٢١] .

وقد استطاع ابن طولون أن يكشف عن بعض الأصالة أيضاً فيما يتعلق بالجغرافيا التى اهتم لها اهتماماً لايقل عن اهتمامه بالتاريخ . وكان تلميذاً للنعيمى[٢٢] الذى طلب منه أن يترجم لنفسه ويذكر أسماء مؤلفاته وشيوخه فامتثل ابن طولون لذلك[٢٣] ؛ ولاشك أن صلته به هى التى تفسر أيضاً السبب فى أن ابن طولون قد عمل ملخصاً لكتاب النعيمى وهذبه وزاد عليه[٢٤] ؛ كما توجد له مؤلفات خاصة عن مساجد دمشق[٢٥] ومدارسها[٢٦] ودور القرآن[٢٧] والحديث[٢٨] بها . وإلى نفس هذا الطراز على مايظهر تنتمى أيضاً مؤلفاته مثل « بهجة الأنام فى فضل دمشق الشام »[٢٩] أو « نزهة الأفكار فيما قيل فى دمشق من الأشعار »[٣٠] وهى معروفة لنا من أسمائها فقط ؛ والمرجح أنها تنتمى إلى ذلك الطراز الذى يقرب من الأدب أكثر مما يقرب من الجغرافيا كالرسائل المماثلة للسيوطى . غير أن ابن طولون كان إلى جانب هذا يشعر بميل خاص إلى الرسائل الموجزة المفردة لموضوعات جغرافية محددة وأحياناً للمواضع الجديرة بالذكر فى دمشق . ومعرفتنا بهذه الرسائل ترجع إلى قائمة كتبه التى مر بنا ذكرها وأيضاً إلى أن بعض هذه الرسائل قد نشر بدمشق فى الأعوام الأخيرة ، وهى غفيرة العدد متنوعة المادة يعالج بعضها الكلام على على مواضيع معينة من المدينة كالقلعة[٣١] وباب جيرون المشهور[٣٢] والمقابر القريبة من باب الفراديس[٣٣] ؛ كما يعالج البعض الآخر الحديث عن القصص الدينية | المرتبطة بدمشق ونواحيها مثل 662 قبر موسى[٣٤] أو « مغارة الدم »[٣٥] . وبعض هذه الرسائل مكرس لأحياء معينة أوضواح وقرى

قريبة من المدينة يحتل المكانة الأولى بينها بالطبع موطن المؤلف وهو ضاحية الصالحية[٣٦] ، والبساتين المحيطة بالمدينة و« غوطة الشام »[٣٧] وقرية الربوة[٣٨] التى عاش فيها كما ذكرنا الدمشقى الكوزموغرافى وقريتا[٣٩] داريّا والمزة[٤٠] . كما امتد محيط اهتمامه إلى البساتين « النيربية »[٤١] المحيطة بالمدينة والتى يجب عدم الخلط بينها وبين الموضع القريب من حلب والذى اشتهر حالياً فى الدوائر العلمية بنقوشه الآزامية . ومن الطبيعى ألا نتوقع فى هذه الرسائل الموجزة أية أصالة من حيث المنهج أو الصياغة الأدبية ولكنها تقدم لنا فى مقابل ذلك مادة وافرة تربط بينها بطريقة فريدة ، وبهذا فقد استطاع ابن طولون أن يدخل روحاً جديدة فى أدب قديم متواتر فيما يتعلق بالجغرافيا الإقليمية للشام . ولقائمة مصنفاته جانب آخر طريف فهى تمكننا من تثبيت الأنماط والموضوعات الجغرافية التى عالج الكتابة فيها لذلك العصر مؤلف جغرافى عادى لا بحاثة أصيل . ويقابلنا من بينها مثلا وصف لطريق الحج من الشام إلى الحجاز (« منازل الحج الشامى »)[٤٢] وعدد من الرسائل من طراز الفضائل المعروف مكرسة للمواضع المقدسة كمكة (« معالم مكة المشرفة »)[٤٣] والمدينة (« معاهد المدينة »)[٤٤] والقدس (فضائل بيت المقدس »)[٤٥] ، ويوجد من بينها مقال خاص عن مقام إبراهيم المشهور بالكعبة (« مقام الخليل»)[٤٦] . وابن طولون يتمم فى نقاط معينة سلسلة المؤلفين المعروفين لنا ، فهو كالمقدسى (الأصغر) قد كتب فى تاريخ تميم الدارى[٤٧] ، وهو كالسيوطى قد كتب عن فضائل الأحباش على البيض[٤٨] . وليس واضحاً بالنسبة لنا ، نتيجة للخلط فى التعليقات ، ما هو المقصود بمصنفه الذى يحمل عنوان « لقط المرجان من معجم البلدان »[٤٩] ولكن من المحتمل أنه ملخص لمعجم ياقوت الجغرافى . وبوجه عام فإن مراجعتنا لثبت مصنفات ابن طولون توكد جيداً استنتاجاتنا السابقة فى أن الأنماط والموضوعات الجغرافية قد ثبتت بصورة نهائية فى ذلك العهد .

وكمعاصرين لابن طولون يقابلنا بالطبع فى البلاد الأخرى علماء محليون عالجوا التأليف فى الجغرافيا المنطقية لبلادهم . وخير مثال لهذا أحد أبناء الدوحة الهاشمية المدعو محمد بن عبد العزيز بن فهد القرشى الهاشمى (توفى عام ٩٥٤ هـ = ١٥٤٧)[٥٠] والذى عمل خطيباً بأحد مساجد جدة لأعوام طويلة ثم لقب بجار الله لإقامته الطويلة بمكة . وعن جدة وضع مصنفه المعروف لنا فى بعض المخطوطات تحت عنوان « السلاح والعدة فى فضائل بندر جدة »[٥١] والذى يتبع فيه الطراز المعروف لنا جيداً أى طراز الفضائل ، ولا شك أنه وجد لديه ميل إلى مثل هذا الضرب من الموضوعات فى الجغرافيا التاريخية المحلية لأنه عمل فى عام ٩١٥ هـ = ١٥٠٩ مختصراً لكتاب « تحفة اللطائف فى فضائل ابن عباس ووج والطائف»[٥٢] . وهو قد تناول أحياناً كابن طولون موضوعات تقليدية للغاية من نوع « التحفة اللطيفة فى أنباء المسجد الحرام والكعبة الشريفة »[٥٣] ، ولكنه عالج الكتابة بعض الأحايين فى موضوعات جغرافية صغرى كرسالته مثلا بعنوان « اختطاف النور بما ورد فى جبل ثور »[٥٤] .

إزاء هذا فلا يسعنا إلا الاعتراف بأن الجغرافيا المنطقية كانت حافلة للغاية فى ذلك العصر من حيث

الكم ، وقد تضاءلت إلى جانبها المصنفات فى الجغرافيا العامة بشكل بين حتى اقتصرت معرفتنا ببعضها على العنوان فقط ؛ فمن المعلوم لنا مثلا أن أحد كبار مؤرخى الفتح العثمانى لمصر وهو أحمد بن على بن زُنبل الرمّال(٥٥) قد وضع إلى جانب مؤلفه التاريخى الكثير التداول(٥٦) مصنفاً آخر فى الجغرافيا بعنوان « تحفة الملوك | والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب » . ونظراً لأنه محفوظ فى مخطوطة 664 فريدة بمكتبة بودليان بأكسفورد(٥٧) فإن تحليلنا له سيقف عند حد التخمين. إلى حين إخضاعه لدراسة علمية دقيقة ؛ ويمكن أن نستدل من عنوانه على أنه ينتمى إلى نمط الكوزموغرافيا المعهود مع الاهتمام بجميع صنوف العجائب Mirabilia . أما عن المؤلف نفسه فإن معلوماتنا تقف عند حد أنه كان شاهداً لحملات قنصوه الغورى وعمل منجماً للبلاط وكان حياً يرزق إلى عام ٩٥١ هـ = ١٥٤٤ .

وقد نجد أنفسنا فى وضع أفضل عند فحص مصنف جغرافى لمؤلف آخر هو بدوره أيضاً غير مغمور ولو أن سيرة حياته يحيط بها ظلام دامس ؛ فقد وضع عبد الله بن صلاح الدين الداثر فى عام ١٠١٠هـ = ١٦٠١ مصنفاً تاريخياً فى أسلوب تغلب عليه المحسنات البديعية من أجل السلطان مراد الثالث وهو تاريخ للعالم منذ بدء الخليقة إلى عام ١٠٠٤ هـ = ١٥٩٥ أولى فيه اهتماماً خاصاً للفتح العثمانى لليمن(٥٨) وهو موضوع قد نال كما ذكرنا عناية الأتراك على الدوام . وله إلى جانب هذا مصنف جغرافى معروف أيضاً فى مخطوطة فريدة باستنبول(٥٩) ويحمل عنواناً مألوفاً للغاية هو « أسنى المطالب وأنس اللبيب الطالب » ؛ غير أن العنوان الإضافى الذى يلى هذا يكشف لنا بوضوح عن مضمون الكتاب وعن العلاقة التى تربطه بالمذهب القديم ، ونصه كالآتى « فى معرفة الأقاليم الحقيقية والعرفية وتحديدها بالجهة الشمالية والجنوبية والأرجاء الغربية والشرقية وما عليها من المدن والممالك والمناهج والمسالك » . ويمكن أن نتبين من هذه الألفاظ ضرباً من تلك المحاولة القديمة للمزج بين الجغرافيا الرياضية والوصفية. ويؤكد هذا بصورة محددة محتويات الكتاب نفسه فهو يعالج فى المقدمة الكلام على كروية الأرض بينما تبحث المقالة الأولى فى تقسيمها إلى سبعة أقاليم وتوضيح مفهوم « الربع المعمور » ؛ أما المقالة الثانية ففى تحديد الأقاليم ومساحة الأرض ، على حين تعالج الثالثة الكلام على المدن الكبرى من وجهة نظر الجغرافيا الرياضية وتحديد أبعادها من مكة وخط الاستواء وعن تحديد القبلة وطول اليوم . ويلى هذا وصف تخطيطى « للأقاليم العرفية » الثمانية والعشرين مع تفصيل الكلام على بلاد العرب ومصر والمغرب والأندلس (التى كانت قد خرجت آنذاك عن نطاق العالم الإسلامى) وجزر « البحر الغربى » وسوريا والعراق ؛ ثم يفرد فى الخاتمة ثلاثة مقالات للكلام على البحار(٦٠) . ويمثل هذا المصنف | أنموذجاً جيداً بالنسبة لعصره ، وهو يقف 665 دليلا آخر على العلاقة الوثيقة التى ربطت الجغرافيا العربية بالجغرافية التركية فى ذلك العهد .

وعلينا أيضاً أن نمس مسألة ببليوغرافية تقع من الناحية الزمنية فى القرن السادس عشر ولاتتعلق بمخطوطة ما بقدر ما تتعلق بنص مطبوع ، أضف إلى هذا أن ذلك النص قد تم طبعه بروما فى عام ١٥٨٥ .

هذه الواقعة أى واقعة طبع المصنف فى أوروبا لذلك العهد وأنه إنما يمثل بذلك فى حقيقة الأمر أول كتاب عربى ذى طابع علمى[٦١] يخرج من المطبعة تجعل منه شيئاً طريفاً للغاية لولا أن ندرة نسخه قد جعلت الوصول إليه أمراً يقرب من الاستحالة[٦٢]. والمتفق عليه إلى الآن هو أن الكتاب كان معروفاً فى نسختين إحداهما بالمكتبة اللورنتية Laurentian بفلورنسة وهى مكتبة آل المديتشى والأخرى بمكتبة آل نى Nani بالبندقية[٦٣]؛ ولا يمكن الجزم هل لاتزال هذه النسخة الثانية موجودة هناك إلى هذه اللحظة[٦٤]. وقد تم وصف هاتين النسختين فى القرن الثامن عشر كل على حدة بواسطة اثنين من أفراد أسرة مارونية أقامت بإيطاليا وانصرفت إلى الدراسات الشرقية ، وهما اسطفان عواد السمعانى Stephanus Evodius Assemanus (١٧١١ — ١٧٨٢)[٦٥] وشمعون السمعانى Sim. Assemanus (١٧٥٢ — ١٨٢١)[٦٦]. ومن الغريب أنهما فى وصفهما للكتاب يختلفان حول اسم المؤلف ، هذا بخلاف تفصيلات أخرى تجعل مسائل عديدة من الكتاب لاتزال محتاجة إلى الحل .

أما عنوان المصنف وهو « البستان فى عجائب الأرض والبلدان » فيؤكده وجود مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس تحمل نفس العنوان[٦٧] ولو أن مسألة علاقتها بالنسخة المطبوعة لاتزال تحتاج إلى دراسة أعمق ؛ هذا ويرجع بروكلمان تاريخ تأليفه إلى القرن العاشر الهجرى[٦٨] . واعتماداً على نسخة البندقية يصف شمعون السمعانى هذا المصنف بأنه ذو طابع كوزموغرافى وأنه يحتوى على مائتين وأربع وثمانين صفحة[٦٩] موزعة على سبعة أقسام ويعالج فى معظمه الكلام على مصر غير أن مادته تغلب عليها الموضوعات الخرافية . أما اسم المؤلف فيورده فى شكل غريب وهو سلامش بن كندغدى الصالحى[٧٠] ، وهو غير معهود لنا فى أى واحد من المراجع ، بل إن إسطفان عواد السمعانى فى وصفه لنسخة مكتبة المديتشى يقدم لنا الاسم فى صورة أبسط من هذه على أنه أبو العباس أحمد بن خالد الصالحى[٧١] . وقد عاش المؤلف حسب اعتقاد اشنورر Schnurrer ، والذى يعتمد فى أغلب الظن على معجم روسى J. B. Rossi لعام ١٨٠٧ ، بالشام حوال عام ٥٤٥ هـ ١١٥٠ فى عهد خليفة « القاهرة وبغداد » المستنصر[٧٢] ؛ وهو يقصد بذلك الخليفة الفاطمى المعروف (٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ ١٠٣٦ - ١٠٩٤) . ومن ثم فإن هذا المصنف كان يجب أن يتخذ مكانه من الناحية الزمنية فى موضع مختلف من عرضنا هذا ولكن يجب أن نقرر بأنه لم يرد أى ذكر لهذا المصنف أو ذلك المؤلف فى المصادر العربية سواء فى القرن الحادى عشر[٧٣] أو القرن السادس عشر ، غير أنه مما يؤكد أنه قد عاش فى فترة تالية للقرن الحادى عشر هو أنه ينقل عن ابن خلكان وأبى الفدا[٧٤] . ومن ثم فمهما كان حكمنا على هذا الكتاب فيجب أن نترك تلك المهمة للبحاثة القادمين ، وهذا ينطبق بدوره على عدد من المسائل الهامة المتعلقة بهذه الطبعة والتى تلقى ضوءاً على تاريخ تطور طباعة المصنفات العربية[٧٥] .

وسنجد أنفسنا مستندين على قاعدة أكثر ثباتاً ومادة أكثر وفرة وطرافة إذا ما تحولنا إلى الكلام

666

على الرحالة العرب فى القرن السادس عشر . وعدد هؤلاء الرحالة كبير جداً غير أننا نرتطم بصعوبة هائلة إذا ما حاولنا معالجة الحديث عليهم فى عرض عام كهذا إذ سنجد أنفسنا مضطرين فى هذه الحالة إلى الاعتماد اعتماداً يكاد يكون كاملا على مصادر مخطوطة وذلك لانعدام الطبعات . وإزاء هذا فستقتصر بالطبع فى كلامنا على نقاط معروفة لنا إما عن طريق مباشر أو عن طريق مصادر ثانوية مرتبطة بها .

ويرتبط عدد كبير من رحلات هذا العصر بالدولة العثمانية التى كانت تلعب آنذاك دوراً رئيسياً فى جميع العالم الإسلامى . وقد حدث أن لاحظنا هذا فيما يتعلق بالمغرب فى أحد الفصول السابقة ؛ والآن نلتقى بنفس هذه الظاهرة فى سوريا أيضاً وهذا أمر جد مفهوم بالنسبة لقرب هذه الولاية من عاصمة الخلافة . ويمكن القول بأن العدد الغالب من الرحلات التى سنتناول الكلام عليها قد خرج من سوريا بالذات ؛ غير أن هذه الظاهرة قد شملت فى واقع الأمر جميع الأقطار العربية الأخرى . وإذا ما أجلنا النظر جنوباً فسنلتقى فى هذا النمط بواحد من معارفنا القدامى بدأ رحلته من مكة وهو قطب الدين النهروالى .

لقد التقينا بهذا المؤلف فيما مر من الكتاب كمتخصص فى الطبوغرافيا التاريخية لمكة ومؤرخ للفتح العثمانى لليمن الذى حفظ لنا بصدده روايته ذات المغزى الكبير عن دليل ڤاسكو دى غاما . وهو خير مثال للطبقة المثقفة بمكة فى ذلك العهد والعهود التالية له[٧٦] ؛ وأصل والده من كجرات أما الابن فقد ولد بمكة عام ٩١٧ هـ = ١٥١١ وتوفى بها فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ وهو يشغل منصب الإفتاء . وقد زار النهروالى استنبول مرتين . ففى المرة الأولى خرج بقصد استكمال دراسته وذلك فى عام ٩٤٣ هـ = ١٥٣٦ فأقام بالقاهرة واستنبول وحظى فى غضون هذه الزيارة الأولى | بمقابلة السلطان سليمان الذى ولاه العناية 667 بالمدارس الأربع[٧٧] التى أنشأها بمكة . أما الزيارة الثانية لاستنبول فقد تمت بعد عشرين عاماً من تلك وذلك فى سنة ٩٦٥ هـ = ١٥٥٧ ووصفها فى مصنف خاص بعنوان « الفوائد السنية فى الرحلة المدنية والرومية»[٧٨] ؛ وهذا المصنف الأخير لم يصبح معروفاً إلا فى الآونة الأخيرة جداً وذلك عقب التعرف على نسخة خطية بيد المؤلف نفسه محفوظة بإحدى مكتبات استنبول[٧٩] . ويرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى عام ٩٦٥ هـ = ١٥٥٧ ويلوح أنه قد دونه عقب الانتهاء من رحلته مباشرة أو ربما فعل ذلك أثناء إقامته بعاصمة الخلافة ؛ ونظراً لأنه قد رفعه إلى أحد الخاصة من أهل استنبول فلعل هذا هو سر بقاء الكتاب فى مخطوطة واحدة وعدم وصوله إلى البلاد العربية . وأول من عرّف به كان أحد العلماء الأتراك المعاصرين وهو أكرم كامل وذلك فى مقال خاص[٨٠] نوه فيه بأهمية مادته فى التعريف بأحوال دار الخلافة فى ذلك العصر .

وإلى نفس هذا العلامة التركى يدين العلم بمعرفته بأولى رحلات القرن السادس عشر التى اتجهت من سوريا إلى الدولة العثمانية ؛ ومؤلفها هو بدر الدين محمد الغزى العامرى المعروف بعدد كبير من التصانيف على المذهب القديم[٨١] ، وهو قد أمضى معظم حياته يشتغل بالتدريس فى موطنه دمشق وبها توفى عام ٩٨٤هـ

= ١٥٧٧ . وفى رمضان من عام ٩٣٦ هـ = مايو ١٥٣٠ توجه إلى القسطنطينية فى صحبة « قاضى القضاة » ليرفع مظلمته عن عزله من وظيفته دون وجه حق . وقد وصل إليها فى أول ذى القعدة (يوليو) بعد أن اجتاز آسيا الصغرى . وهو يقدم لنا وصفاً موجزاً للمدن التى مر عليها فى طريقه مثل بعلبك وحمص وحماة والمعرة وحلب والمصيصة وأدنه واركلى وقونيه وآق شهر وقره حصار وينكى شهر وازنيق (نيقيه) وأزميد (نقوميديه) واسكودار وأخيراً القسطنطينية . وجميع هذا الوصف لا يتمتع بأهمية كبيرة من وجهة النظر الجغرافية فالرحلة تمثل أنموذجاً جيداً لنمط « الرحلة » كما عرفناه فى المغرب والمكرس بوجه خاص لذكر العلماء الذين أراد المؤلف محادثتهم فى كل مكان ؛ وهو نفسه ينتمى إلى هذا الطراز من الرجال فقد ترك لنا عدداً من المؤلفات فى الفقه والأدب يقول عنها بكل بساطة إنها « لامثيل لها » . وقد تمتعت أسرته فى دمشق بمكانة مرموقة وكان والده الذى توفى قبل ابنه بقليل يحمل لقب « شيخ الإسلام » . وهو نفسه قد قوبل بالكثير من العطف والرعاية أثناء وجوده بالقسطنطينية من جانب شخصيات ذات نفوذ مثل إياس باشا الذى تولى لبعض الوقت منصب بكلاربك سوريا . وقد أهدى إليه رحالتنا عدداً من المخطوطات القيمة ورفع | إليه بعض مؤلفاته الصغرى . هذا وقد حالت الاحتفالات بقصر السلطان دون فحص شكواه . وفى أول ذى الحجة (سبتمبر) رفع شكواه مكتوبة غير أن سفر السلطان فى تلك اللحظة بالذات إلى بروسه يصحبه الصدر الأعظم جعله ينتظر إلى أواخر المحرم . ولكن الظروف قيضت له صديقاً عالماً فى شخص عبد الرحيم العباسى (توفى عام ٩٦٣ هـ - ١٥٥٦)[٨٢] وهو مؤلف لعدد من المصنفات فى البلاغة والشعر لاتزال متمتعة بالشهرة إلى أيامنا هذه . وبمعاونة هذا الأخير استطاع أن يجد لنفسه مسكناً مجاوراً لمنزل صديقه وكانا يمضيان معاً جميع وقتهما بالتقريب وقرءا على بعضهما البعض تآليفهما وتناشدا كمية هائلة من الأشعار وشرحا الحديث وجميع « المسائل » ثم أجاز كل واحد منهما الآخر برواية مؤلفاته[٨٣] ، ومما يؤكد هذا وجود مسودة لأحد مؤلفات العباسى المشهورة فى البلاغة مبين عليها أن الغزى قد انتهى من تحريرها فى عام ٩٣٧ هـ - ١٥٣٠[٨٤] بمنزل المؤلف باستنبول . وفى منتصف المحرم (سبتمبر) رحل مؤلفنا إلى أزميد وأمضى بها حوالى الشهر فى ضيافة أحد أصدقاء صاحبه العالم . وكان السلطان قد رجع فى تلك الآونة إلى القسطنطينية فأخذ مؤلفنا بدوره الطريق إليها ولكنه لم يستطع الوصول إليها لعوائق اعترضته بالطريق إلا فى أول ربيع الأول (العشرة الأخيرة من نوفمبر) ، وهو فى هذه المرة أيضاً يقدم لنا قائمة طويلة بأسماء الشخصيات الأدبية المعروفة التى التقى بها . وقد تمكن بفضل عدد كبير من أصدقائه ذوى النفوذ أن يفوز باستجابة مطالبه ضد الشانئين عليه وأن يأخذ طريق العودة إلى بلاده فى أول شوال (منتصف مايو ١٥٣١) على ما يبدو ، وفى هذه المرة أيضاً اخترق آسيا الصغرى ووصل سليما معافى إلى دمشق فى آخر ذى القعدة من عام ٩٣٧ هـ = منتصف يوليو ١٥٣١ بعد رحلة استغرقت الشهرين بالتقريب ولم تخل من جميع ضروب الصعاب ؛ وهو يورد لنا أسماء عدد كبير من المنازل فى طريقه ولو أن

668

هذا القسم من الرحلة بأجمعه يغلب على وصفه طابع العجلة . ويشير التاريخ المدرج فى آخر الكتاب إلى أن وصف الرحلة قد تم تدوينه فى ذى الحجة من عام ٩٤٠ هـ = يونيو ١٥٣٤[٨٥]. ويكفى لتكوين فكرة عن أسلوبه المتكلف عنوان الرحلة نفسه وهو « المطالع البدرية فى المنازل الرومية » ، وقد كتب فى نثر مسجوع تغلب عليه الصنعة والتكلف ويحفل بالاقتباسات الشعرية ومختلف ضروب المحسنات البديعية ، وهو بهذا يمثل أنموذجاً طريفاً لنمط « الأدب » بمدلوله الخاص مستنداً على قاعدة جغرافية كما يقدم مادة هامة لتصوير جميع ظروف ذلك العصر بما فى ذلك الجغرافيا بمفهومها العام .

669 هذا وقد عرّف بوصف الرحلة[٨٦] كما عرف أيضاً بوصف رحلة النهروالى العلامة التركى أكرم كامل معتمداً فى ذلك على مخطوطة استنبول[٨٧] ؛ على أن مما يعيب تحليله أنه لم يستعن بالمخطوطة التى كتبها المؤلف بخط يده والمحفوظة بالمتحف البريطانى[٨٨] ، أو بمخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية إن لم يكن فى أصلها فعلى الأقل من الوصف المفصل الذى دبجه يراع دكتور روزن[٨٩] . ومن الجلى أن هذا النمط الجغرافى كان محبباً إلى الغزى فقد حفظت لنا مخطوطة بدمشق لاتخلو من السقط تتضمن وصفاً لرحلته إلى مكة والمدينة[٩٠] غير أن معرفتنا بها تقتصر على هذه الإشارة الغامضة إليها .

وإلى نفس هذا النمط ينتمى مصنف معاصره الأصغر ومواطنه محمد بن أحمد سكيكر الدمشقى (توفى عام ٩٨٧ هـ - ١٥٧٩)[٩١] الذى سافر إلى استنبول بنفس الهدف تقريباً وترك لنا وصفاً لرحلته بعنوان « زبدة الآثار فيما وقع لجامعه فى الإقامة والأسفار » . ويمكن القول بأن الكتاب مجهول لدى الدوائر العلمية لأنه لاتوجد منه سوى مخطوطة واحدة بخط يد المؤلف محفوظة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية ، غير أن الوصف الذى تركه لنا عنها البارون روزن يقدم على أية حال فكرة ناصعة عن المصنف[٩٢] ؛ ويبدأ المؤلف كلامه بوصف رحلته من حماة حيث كان يقيم إلى حلب فيصف إقامته بها وعمله هناك خطيباً بأحد مساجدها ، ثم وصف رحلته إلى القسطنطينية . وكتابه أقرب ما يكون إلى يوميات تتضمن تصويراً

670 دقيقاً لحياة المؤلف من ١٦ ربيع الثانى عام ٩٧٣ هـ = ١٠ نوفمبر ١٥٦٥ إلى ١٣ محرم عام ٩٧٦ هـ = ٨ يوليو ١٥٦٨ . وفى افتتاحية كتابه يذكر المؤلف فيما يذكر العوامل المباشرة التى حفزته على تصنيف كتابه الذى يغلب عليه أيضاً الطابع الأدبى[٩٣] ؛ وقد غادر مؤلفنا حلب فى صحبة أحد مواطنيه من العلماء (هو أحمد بن محمد بن الملا الشهابى المتوفى عام ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤)[٩٤] ، وكان هذا الأخير يحمل معه معجماً تاريخياً لمشاهير أهل حلب من تأليف معاصر لهما هو محمد بن إبراهيم بن الحنبلى (المتوفى عام ٩٧١ هـ = ١٥٦٤)[٩٥] بعنوان « در الحبب فى تاريخ أعيان حلب » . وفى أثناء استنساخه لهذا الكتاب فى طريق الرحلة عثر فى سيرة شيخ الإسلام عمر بن الشماع على ذكر لمصنفه بعنوان « عيون الأخبار فيما وقع لجامعه فى الإقامة والأسفار » ، وقد أثر فيه هذا تأثيراً كبيراً صوره فى قوله : « فتحركت

الهمة لمضارعته وجمع ما يقع لكاتبه فى سفره وإقامته فاستفسرت فى ذلك مولانا الشهابى أحمد المذكور أعلاه بلغه الله فى الدارين مناه بمحمد ومن والاه فأجاب بأنه لاضرر فى ذلك بل إن هذا يكون تاريخاً وكتاباً أدبياً فاستخرت الله واقتفيت تلك المسالك وسميته زبدة الآثار الخ . . . وها أنا أبتدئ بذكر رحيلى من مدينة حماة المحروسة ورياضها الأنيقة المأنوسة فى يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وسبعين وتسعماية هجرية من هجرة المظلل بالغمام وسيد البرية وإنما أضربت عما تقدم من السنين لأننى لست فى ذلك على اليقين فإن قدر الله بعد ذلك التأمل فيما مضى تأملته وأثبته | 671 | وإلا نأيت عنه وبقيت على ما ابتدأت به واخترته»[٩٦] .

من هذا يتضح لنا أن كتابه ينتمى إلى طراز معروف هو طراز الرحلة « فى طلب العلم » مع اتجاه واضح إلى الترجمة لسيرة حياته (autobiography) وذكر لحظات سابقة منها . وبعض ما ذكره فى افتتاحية كتابه قد وجد التأييد من جانب المواد الموجودة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية ، فالمؤلف بوجه عام كان ذا اهتمام واسع بمختلف فنون الأدب وتوجد من بين المجموعات الأدبية بمعهد الدراسات الشرقية مخطوطة بنسخ يده[٩٧] ، كما عرفت أيضاً نسخة بخط يده للترجمة العربية « للشاهنامه »[٩٨] . أضف إلى هذا أن آثار نشاطه كناسخ للكتب تقابلنا كثيراً ، ففى عام ٩٧٨ هـ = ١٥٧٠ أهدى إلى صديقه الذى أشرنا إليه قبل قليل وهو أحمد بن الملا مخطوطة من نسخ يده لأحد مؤلفات عالم مصرى مشهور من معاصريهم هو الشعرانى وهى محفوظة أيضاً بمعهد الدراسات الشرقية[٩٩] . وفى ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ استنسخ سيرة تيمور المشهورة لابن عربشاه وهى محفوظة الآن بغوتا[١٠٠] ، وجميع هذا يشير بلاشك إلى اتساع أفق نشاطه الأدبى . ولايخلو من طرافة فى هذا الصدد أن نشير عرضاً إلى أن رفيق سفرته قد ترك بدوره وصفاً للرحلة إلى القسطنطينية لم يصل إلى أيدينا[١٠١] .

ولم يستغرق طريقه إلى حلب أكثر من أربعة أيام فقد وصلها فى العشرين من ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ = ١٤ نوفمبر ١٥٦٥ ونزل أولا بدار صديقه القديم حجيج الواحدى الذى سنلتقى به بعد قليل كمؤلف رحلة أيضاً . ويفصل لنا سكيكر بما فيه الكفاية عن إقامته بحلب وعن مكائد أعدائه ويورد لنا بعضاً من خطبه وأشعاره وشذوراً من رسائله وألغازه . وبعد هذا شغل منصب الإمام بمسجد العادلية كما اشتغل فى نفس الوقت بالتدريس بالمدرسة الأتابكية غير أن دسائس أعدائه نجحت فى إقصائه عن هاتين الوظيفتين فى أواخر شعبان من عام ٩٧٥ هـ = فبراير ١٥٦٨ فقرر الذهاب إلى استنبول لرفع مظلمته إلى الأعتاب السنية . وقد غادر حلب فى الثالث والعشرين من شوال عام ٩٧٥ هـ = ٢١ مارس ١٥٦٨ سالكاً بالتقريب نفس الطريق الذى سلكه الغزى قبله حتى بلغ دار الخلافة فى أواخر ذى القعدة (مايو) من نفس العام أما بقية الكتاب فقد أفرده بصورة خاصة للكلام على إقامته بالقسطنطينية وهو يقص فيه أخبار الحوادث يوماً بعد يوم بالتقريب إلى ١٣ محرم عام ٩٧٦ هـ = يوليو ١٥٦٨ . وهذا القسم إلى جانب وصف الرحلة

نفسه يمثل أهمية كبيرة لأنه يحتوى على عدد من التفاصيل الدقيقة مما يساعد كثيراً على تكوين فكرة عن حياة رجال العلم فى ذلك العصر ، كما يحتوى أيضاً على رواياته لمختلف الحوادث التاريخية المعاصرة كارتقاء السلطان 672 سليم الثانى لعرش الخلافة فى عام ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ وهو يروى هذا على لسان أحمد بن داود الحموى[١٠٢] الذى التقى به فى دار الخلافة ؛ ولعل هذا الأخير كان أخاً لأحد الرحالة ممن سيرد بنا الكلام عليهم فيما يلى من هذا الكتاب . وإلى جانب تسجيله للوقائع المختلفة فإن الكتاب كما هو الشأن دائماً مع الرحلات « العلمية » يفيض بالأشعار والألغاز والمعميات (charades) وغير ذلك من ضروب البديع ، سواء للمؤلف نفسه أو لأصدقائه . وكان المؤلف شخصاً ذا جوانب متعددة فى نشاطه نذكر من بينها أنه كان شطرنجياً مرموقاً فى عصره نال الشهرة فى الشطرنج لا كلاعب فحسب بل وأيضاً كصاحب نظريات وصلتنا عنه رسائل فى هذا الفن ؛ وقد احتل اسمه مكانة رفيعة فى تاريخ الشطرنج العام حتى قال عنه أحد كبار المتخصصين فى هذا الفن وهو فون درلازا Von der Laza « آخر من يستحق الذكر بين لاعبى المدرسة القديمة للشطرنج فى القرن السادس عشر »[١٠٣] . ونظراً لأن مخطوطة إحدى رسائله النظرية فى الشطرنج كان قد جلبها إلى اكسفورد فى القرن السابع عشر المستعرب بوكوك Pococke الذى عاش ببعض الوقت بحلب فقد أصبحت معروفة لدى الشطرنجيين الغربيين منذ عهد هيد Heyd (١٦٩٤)[١٠٤] ويرد ذكرها على الدوام فى المصنفات المفردة لهذا الفن[١٠٥] .

وصديقه الذى نزل عليه بحلب وهو حجيج بن قاسم الوحيدى عرف كرحالة أيضاً ولكن لا إلى استنبول بل إلى مكة . فقد أدى فريضة الحج فى عام ٩٩٢ هـ - ١٥٨٤[١٠٦] : ووصف رحلته الذى يحمل العنوان المعهود لنا « الرحلة » محفوظ أيضاً فى مخطوطة فريدة بمعهد الدراسات الشرقية ضمن 673 مجموعة روسو الحلبية ووصفها لنا روزن بدقته المعهودة[١٠٧] . وهى بوجه عام تنتمى إلى طراز من المؤلفات يختلف عن مصنفى الغزى وسكيكر ؛ ورغماً عن أنها أقل أهمية منهما إلا أنها لا تخلو من بعض الأصالة . وقد كان وصفه لرحلة الحج ذريعة لهدفه الأساسى وهو الكلام عن العلوم المعروفة لدى المسلمين وإعطاء فكرة عن معرفته الواسعة بجميع فروعها . وهو يذكر فى مقدمة كتابه أنه عزم على أداء فريضة الحج فى عام ٩٩٢ هـ على الرغم من أنه قد حج قبل ذلك ، ثم يستمر فى قوله :

« ومن عادتى أنى كلما سافرت سفرة أن أضع رحلة أذكر فيها المنازل وما يقع فى كل منزلة من النوادر ممن للأدب ينازل بل أذكر ما يقع من العوام ولو كان من مهمل الكلام وأضيف إلى ذلك أشعاراً رايقة وحكايات فايقة ونكت لسماعها الأسماع شايقة والأرواح وامقة تشتمل على ألفاظ أرق من النسيم وأحلى من التسنيم وتكون تذكرة لى فى حياتى وبعد مماتى »[١٠٨] .

أما تفاصيل حجته فإنه يرويها باقتضاب شديد كأنما ترد عرضاً ، هذا بينما يدخل فى استطرادات مسهبة بصدد الكلام على العلوم متذرعاً فى هذا بمختلف المناسبات فأحياناً يلقى عليه أحد زملائه فى السفر

أسئلة ليجيب عليها وتارة يلقيها المؤلف نفسه على صديقه وطوراً آخر يكشف أحد معارفه العابرين ، فارسى أو مصرى ، عن معرفته العميقة بمسائل من ميدان الفقه والنحو أو يستفسر لدى مؤلفنا عن بعض المسائل المغلقة . ومن النادر ألا تحفزه مناسبة ما حتّى ولو كانت قليلة الأهمية إلى الاستطراد ، فهو مثلا ينتهز فرصة ارتدائه لملابس الإحرام فيتحدث بتفصيل واف عن شعائر الحج ؛ ثم يرجع مرة أخرى إلى سرد رحلته ملتجئاً فى العادة إلى عبارة مألوفة لديه هى « رجعنا إلى ما كنا فى صدده من ذكر الرحلة والاجتماع بكل فاضل ورُحلة » . وهذه الجملة لايطرأ عليها تغيير كبير ولكنه ما يكاد يرجع إلى موضوعه الأساسى ، أى سرد الرحلة ، حتّى نراه بعد أسطر قليلة يدخل فى استطراد جديد على هيئة « فصــل » أو « مطلب » . ويوجد فى أول المخطوطة ثبت بهذه الاستطرادات كما أن روزن قد أفرد جدولا مفصلا للعناوين الداخلية بحيث نستطيع أن نتبين من بينها عدداً من الموضوعات الجغرافية المعروفة لنا والتى تمثل القاعدة الأساسية التى عالج الكلام فيها المؤلفون الجغرافيون لذلك العهد ، ففى البداية يوجد قسم عن « فضل حلب » يليه قسم « فى مدح دمشق وتغزل الشعراء بها » وفى « خصوصيات دمشق وبناء مسجدها » وفى « حمام دمشق وما اتفق له مع صانعها والأشعار والفوائد الجليلة فى الحمام » و« فى الرياح » وفى « ذكر أخلاق أهل البلد » و« فى علم الهيئة » وفى « الشهور » الخ ، كما يوجد استطراد خاص « فى البحث عن السفليات والأقاليم السبعة » . وبهذا فإن الوصف رغماً من طابع الأصالة والطرافة الذى يتميز به لايخلو كما أبصرنا من كمية كبيرة من المادة الجغرافية ، وهو يدخل سمة جديدة فى نمط الرحلة من أجل العلم بمحاولته المزج بينه وبين عرض عام لفروع العلوم المختلفة ولو أن ذلك يتم لديه بصورة بدائية . ولا شك أن مصنف حجيج هذا ومصنفات مواطنيه تثبت بصورة جلية أن نمط الرحلة قد لقى ازدهاراً ملحوظاً بسوريا الشمالية فى ذلك العصر . ليس ذلك فحسب بل ووجدت درجة معينة من التنافس بين المؤلفين أنفسهم . وهذا بدوره يقف دليلا على انتعاش الحياة الأدبية آنذاك ويفسر لنا السبب فى أن حاجى خليفة قد بدأ فى جمع مادة معجمه الببليوغرافى فى القرن السابع عشر بمدينة حلب بالذات .

هذا وقد ذكرنا من قبل أن سكيكر قد التقى فى استنبول بأحمد بن داود الحموى الذى تشير قرائن الأحوال إلى أنه أخ لمحب الدين محمد بن داود الحموى الدمشقى (ولد عام ٩٤٩ هـ = ١٥٤٢)(١٠٩) أحد ثلاثة يعدون أكبر علماء أسرة المحبى المشهورة بعلمائها وهو جد المؤرخ المعروف . وأصل صاحبنا من حماة وقد نال قسطه من التعليم بمسقط رأسه وبحمص وحلب . وتلى هذا قيامه فى رحلته الأولى إلى استنبول . ولدى رجوعه اشتغل بالتدريس بدمشق ثم صحب شيخ الإسلام فى زيارته للقدس والقاهرة عام ٩٧٨ هـ = ١٥٧١ ، وبهذه المدينة الأخيرة تولى منصب القضاء لبعض الوقت . وأعقب هذا رجوعه إلى دمشق (حوالى عام ٩٨١ هـ = ١٥٧٣) ورحلته الثانية إلى استنبول التى شهد فيها اعتلاء السلطان مراد الثالث (٩٨٢ هـ =

١٥٧٤) عرش السلطنة ثم عودته إلى سوريا حيث شغل عدداً من المناصب كقاض وإمام حتى انتهى الأمر بتعيينه مفتياً ووفاته عام ١٠١٦ هـ = ١٦٠٨ بمدينة دمشق . وبخلاف مصنفاته العديدة فى الحديث والأدب التى لاتتجاوز المألوف عادة فإننا ندين له بمصنفين معروفين فى المخطوطات يصف فيهما رحلاته ، واعتماداً على مخطوطات كل منهما(١١٠) فيمكن القول بأن الأول منهما نال رواجاً أكثر من الآخر وهو معروف بعنوان « حادى الأظعان النجدية إلى الديار المصرية » وقد ألفه عندما شغل منصب القضاء بمعرة النعمان وكان بدأ رحلته كما ذكرنا فى عام ٩٧٨ هـ = ١٥٧١ فى صحبة شيخ الإسلام ومفتى دمشق إلى القدس للتحقيق فى مسألة الأبنية التى سمح النصارى لأنفسهم بإقامتها بضريح المسيح ، ولما تبين لهم صحة ذلك أمروا بوضع حد له . ثم تابعوا طريقهم إلى القاهرة مارين بحبرون الخليل وغزه وبلبيس ؛ ويصف لنا المؤلف أثناء ذلك مشاهد الطريق التى تستحق الذكر ومن التقوا بهم من كبار الشخصيات لحين عودتهم إلى دمشق . ويحمل الوصف كما جرت العادة طابعاً أدبياً أكثر منه جغرافياً ويحفل بالاقتباسات العديدة من الرسائل والأشعار التى عملها المؤلف نفسه أو أصدقاؤه . وقد تركت أثرها أيضاً على الإنتاج الأدبى للحموى انطباعاته عن آسيا الصغرى إذ لديه مصنف بعنوان « بوادئ الدموع العندمية بوادى الديار الرومية » ، ولكنه معروف فى مخطوطة واحدة بكمبردج(١١١) لايمكن تكوين فكرة عنها من مجرد ذكرها المقتضب فى فهرس مكتبتها ، وأغلب الظن أنها من طراز الرحلة العلمية الذى يجنح نحو الأدب .

ولعلنا سنلجأ أكثر وأكثر إلى التخمين فيما يتعلق برحلة خرجت من سوريا فى اتجاه تركيا على أغلب الظن وهى أيضاً ترتبط بمؤلف معروف بما فيه الكفاية ، فقد حفظت لنا المكتبة الأهلية بباريس(١١٢) مخطوطة لرحلة شخص يدعى أحمد بن محمد الطالوى الدمشقى الذى لانعرف عنه شيئاً ما ؛ غير أن هذا الاسم يقرب كثيراً من اسم شخص معروف جيداً هو درويش محمد بن أحمد الطالوى الدمشقى (توفى عام ١٠١٤هـ = ١٠٦٥)(١١٣) وهو صاحب مجموعة من المختارات الشعرية المشهورة (Anthology) التى تنضوى تحت التتمات العديدة « ليتيمة الدهر » للثعالبى التى ترتفع إلى القرن الحادى عشر الميلادى .

ومن الممكن بطبيعة الحال أن يكون مؤلف الرحلة ابناً له ، غير أنه يوجد اعتبار ضئيل يجعلنا نتساءل ألم يحدث هنا خلط فى الأسماء وأليس من الجائز أن مؤلف الرحلة هو الأب نفسه ؛ ونحن نعلم من سيرة حياته أنه صحب قاضى القضاة فى عام ٩٢٢ هـ = ١٥٨٤ إلى استنبول وأنه عمل مدرساً بها لبعض الوقت لذا فمن الممكن جداً أن يكون قد ترك لنا كمعاصريه السوريين الأخر وصفاً لرحلته أيضاً . وتبدو ميوله الأدبية واضحة للعيان حتى بدون الكلام على مختاراته الشعرية ، فهو واحد من مثقفى ذلك العصر ونحن ندين له بحفظ مخطوطة نادرة بخط يد الأمير أسامة بن منقذ موجودة لدينا بقسم المخطوطات بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية(١١٤) . ويوجد ميل إلى الاعتقاد بأن وصف رحلته

قد حمل نفس الطابع « العلمى الأدبى » الذى حملته بقية المصنفات الأخرى الشبيهة فى ذلك العصر ، ولو أن هذا لايخرج عن حدود التخمين والافتراض .

ويمكن اعتبار آخر حلقة من الناحية الزمنية فى هذه السلسلة من الرحلات السورية التى اتجهت فى القرن السادس إلى استنبول مصنف محمد بن أحمد بن حافظ الدين القدسى (المتوفى عام ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥)[١١٥] الذى اشتغل بالقضاء والتدريس وزار استنبول أكثر من مرة ، وشغل منصب القضاء لا فى وطنه القدس وحده بل بدمشق وطرابلس والقاهرة أيضاً ثم بالبوسنه وتوفى وهو قاض بصوفيا . وقد خلف لنا عدداً من قصائد المديح التى قالها فى حق رعاته باستنبول[١١٦] ، كما ترك لنا أيضاً وصفاً لرحلة معروف فى مخطوطة يتيمة بمكتبة برلين[١١٧] يتحدث فيها عن زياراته للقاهرة والقدس ودمشق ويصف بتفصيل واف رحلته البحرية من القاهرة إلى استنبول فى عام ١٠١٣هـ = ١٦٠٤ ، وهو كالتمجروتى يهتم بوصف العواصف والأنواء البحرية . ويغلب على وصفه طابع التكلف الشديد فقد صاغه بالسجع الذى ينعكس فى عنوان الكتاب نفسه وهو « إسفار الأسفار | فى أبكار الأفكار » ، ولاشك أن المؤلف كان شخصاً واسع الثقافة خبيراً فى الأدب . 677

وإلى جانب هذه المصنفات الجغرافية ذات الطابع الأدبى نلتقى فى هذا العصر ، وباللغة العربية أيضاً، بجميع تلك الأنماط التى تربطها رابطة الرحم بأوصاف الرحلات والتى عرفناها عن نفس ذلك العصر باللغة التركية . وكما حدث مع المؤلفات التركية المشابهة لها فإن مجرد سرد أسمائها لايخدم أى غرض لأن هذا من مهمة الفهارس المكتبية والمصنفات البيليوغرافية المنظمة ، غير أننا سنكتفى من باب المثال بتقديم أنموذج واحد لها . فقد وضع مصرى لا علم لنا بتفاصيل حياته ويدعى محمد بن أحمد السنهورى ، وذلك فى عهد السلطانيين مراد الثالث (٩٨٢ هـ - ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ - ١٥٩٥) ومراد الرابع (١٠٣٢ هـ - ١٠٤٩ هـ = ١٦٢٣ - ١٦٤٠) ، تعداداً لمنازل البريد بين مكة والقاهرة[١١٨] أقرب ما يكون إلى طراز دليل الطريق من أجل الحاج مما مرت بنا أشكاله المختلفة فى فصل سابق ، وعلى أية حال فإن مصنفه لايخلو من الفائدة لأن المؤلف قد جهد فى تحديد المسافات بين المنازل بدقة كبرى معتمداً فى ذلك على طريقة خاصة[١١٩] .

ومما يضفى أهمية على هذا النموذج بالنسبة لنا فى صدد آخر هو أنه يؤكد مرة أخرى الصلة الوثيقة التى ربطت الأدب العربى بالأدب التركى فى ذلك العصر وأثر القوة المركزية التى اجتذبته إلى عاصمة الخلافة التى احتلت مكان الصدارة بالنسبة للبلاد العربية فلم تدانيها القاهرة نفسها . وفى هذا الصدد لم تلعب اللغة دوراً جوهرياً ، فقد لاحظنا حالات دوّن فيها مؤلفون عرب مصنفاتهم الجغرافية باللغة التركية ؛ وأكثر من هذا وجد مؤلفون أتراك دونوا مصنفاتهم باللغة العربية . وإذا ما أخذنا فى حسابنا أن انتعاش الجغرافيا الملاحية إنما يقع فى نفس هذه الفترة للنصف الأول من القرن السادس عشر وأن بعض ممثليها كالمؤلف التركى سيدى على ريس لايمكن فصلهم عن الأدب العربى ، أضف إلى هذا أن المؤلف المغربى

أحمد التونسى قد كتب أسماء خارطته بالتركية ، فإن جميع هذا يضطرنا إلى تسمية هذا العصر فى الأدب الجغرافى بالعصر « العربى التركى » . ويسمح لنا اسم حاجى خليفة بمد هذه التسمية على القرن السابع عشر ، بل إن اللوحة لاتختلف كثيراً حتى فى القرن الثامن عشر نفسه ولو أنه يمكن ملاحظة تعديلات معينة فيها . أما الأنماط فقد ظلت كما هى ؛ ومن الملاحظ أن نمط الرحلة بقى يشغل مركز الصدارة إلى العصر الحديث ولكنه لم يقتصر كما هو الحال من قبل على العالم القديم بل شمل العالم الجديد أيضاً . ولقد ظلت الدولة العثمانية تلعب الدور الأول فى اجتذاب الرحلات إليها غير أنها لم تعد تمثل الحلقة الأساسية التى تربط بين غالبية الأقطار العربية ، فقد أخذت تظهر فى هذه الأخيرة اتجاهات مستقلة | عن مركز الجاذبية ؛ ولا يعنى 678 هذا أن مصر وسوريا قد احتكرتا ولو من حيث الكم المكانة الأولى فى التصنيف الجغرافى ؛ وكما حدث فى عصور تاريخية سابقة فقد ظهرت هذه المصنفات فى أقطار أخرى أيضاً ظلت العربية متمتعة فيها بقيمتها الثقافية كالعراق وإيران وحتى الهند وهى وإن اعتبرت بوجه عام ذات قيمة بالنسبة لنا من زاوية خاصة ، إذ أنها فى الواقع مؤلفات ذات قيمة ثانوية فى معظمها ، إلا أنه بمقدورنا على أية حال أن نشير فى القرن السابع عشر بل وحتى فى القرن الثامن عشر إلى اسم أو اسمين يجب أن يحتلا مكانهما فى عرض عام للأدب العربى . ومثل هذا القول لا يصدق على القرن السادس عشر لأن جميع آثاره باستثناء الجغرافيا الملاحية تمثل أهمية محلية فحسب ولو أنها أهمية جوهرية فى حد ذاتها أحياناً ؛ لكل هذا فإننا لم نتنكب الصواب حينما وصفنا هذا القرن فى أول الفصل بأنه قرن شاحب من وجهة نظر الأدب الجغرافى

حواشي الفصل الثاني والعشرين

(١) – Sauvaire, JA, 9 série, III, p. 251 — 318, 385 — 501; IV, p. 242 — 331, 460 – 503; V, p. 269 – 315, 377 — 411; VI, p. 221—313, 409 — 484; VII, p. 185 285, 369 – 459.

(٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 133, No. 16; SB II, p. 164.

(٣) محمد كرد علي ، الخطط ، الجزء الأول ، ص ١٥ ، رقم ٨٦ – Cf :

(٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 360, No 2; SB II, p. 488.

(٥) – Brockelmann, GAL, II, p. 290, No 5, SB II, 964, No. 9 — Sauvaire, JA, 9 série, VII, p. 252 — محمد كرد علي ، الخطط ، الجزء الأول ، ص ١٦ ، رقم ٩٨

(٦) – Sauvaire, JA, 9 Série, III, p 253

(٧) شرحه ، ص ٢٥٢ – ٢٥٢

(٨) – Brockelmann; GAL, II, p. 361, No 7; SB II, p. 489

محمد كرد علي ، الخطط ، ص ١٥ (تاريخ التأليف ١١٥٩ هـ ؟)

(٩) – Sauvaire, JA, 9 série, III, p. 254

(١٠) شرحه ، VII, p. 422—424

(١١) – De Sacy, Relation, p. 574 — Sauvaire, JA, 9 série, VII, p. 425—454

(١٢) – Rosen, Notices Sommaires, p. 185, No. 239, 1 and p. 185 — 187, No. 239, 2

(١٣) – Brockelmann, GAL, II, p. 357 – 368, No. 1, SB II; p. 494 – 495

(١٤) الفلك ، ص ٦

(١٥) شرحه ، ص ٦

(١٦) الغزي ، الكواكب ، ص ٢ . الفلك ، ص ٠

(١٧) الفلك ، ص ٢٦ – ٢٨

(١٨) – Krachkovski, Abu-l-Ala, p. 12 – 19. [= Krachkovski, Izbr. soch., II, p. 402 — 403]

(١٩) الفلك ، ص ٣٥

(٢٠) – R. Hartmann, Ibn Tulun

(٢١) – Janski, Ibn Tulun, p. 24 — 33

(٢٢) الغزي ، ص ٢ – الفلك ، ص ٦

(٢٣) الفلك ، ص ٥

(٢٤) شرحه ، ص ٤٦

(٢٥) شرحه ، ص ٢٨

(٢٦) شرحه ، ص ٢٨

(٢٧) شرحه ، ص ٣٥

(٢٨) شرحه ، ص ٢٨

(٢٩) شرحه ، ص ٣٠

(٣٠) شرحه ، ص ٤٧

(٣١) شرحه ، ص ٣٨ – Brockelmann, GAL, SB II, p. 494, No 27, Edition of 1348 –

(٣٢) الفلك ، ص ٤٣

(٣٣) شرحه ، ص ٣٢

(٣٤) شرحه ، ص٣٤ – Brockelmann, GAL, SBII, p. 494, No 26, the manuscript in Leyden

(٣٥) الفلك ، ، ص ٣٢

(٣٦) شرحه ، ص ٤٣

(٣٧) شرحه ، ص ٤٠ – Brockelmann, GAL, SB II, p. 495, No 34;
مخطوطة المؤلف بإيران ، نشرها محمد كرد علي ، الخطط .

(٣٨) الفلك ، ص ٤٧

(٣٩) شرحه ، ص ٣٤

(٤٠) شرحه ، ص ٤٦ – Brockelmann,GAL, II, p. 494-495, No 29, ed. of 1348

(٤١) الفلك ، ص ٢٧

(٤٢) شرحه ، ص ٣٠

(٤٣) شرحه ، ص ٣٣

(٤٤) شرحه ، ص ٤٦

(٤٥) شرحه ، ص ٤١

(٤٦) شرحه ، ص ٤٧

(٤٧) شرحه ، ص ٤٣

(٤٨) شرحه ، ص ٣١

(٤٩) شرحه ، ص ٤٥

(٥٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 393, 12, No 1 = SB II, p. 538

(٥١) مخطوطات محمد . . . بن فهد القرشي كرسها بجدة : برلين ٦٠٦٣ ؛ فينا ٨٩١ –
Brockelmann, GAL, II p. 393, No 1

(٥٢) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ٢٢٧ ، رقم ٢٦٤٨

(٥٣) شرحه ، رقم ٢٦٤٩

(٥٤) مخطوطة ترلس ، راجع : Brockelmann, GAL, SB II, p. 538, No 1

(٥٥) Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 239—240, No 523 — Brockelmann, GAL, II, p. 298-299, No 1; SB II, p. 409-410 — Babinger, GOW, p. 56-58, No 38 –

(٥٦) Jansky, At-Tuhfa, p. 173, –

(٥٧) مخطوطة « تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب » لأحمد بن زنبل الرماح : Bodl., I, 892 = Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 240 = Brockelmann, GAL, II, p. 298, No 1 = Babinger, GOW, p. 135 No 111.

(٥٨) Brockelmann, GAL, II, p. 427 No 7; SB II, p. 635 — Babinger, GOW, p. 135 No 111. –

(٥٩) Brockelmann, GAL, II, p. 427, No 7 — Babinger, GOW, p. 135, No 111 = Tauer, p. 107-108 –

(٦٠) Tauer, p. 107-108 –

(٦١) راجع : شيخو ، المشرق ، الثالث ، ص ٨١ (مطبعة دومينيك باس Dominic Bas)

(٦٢) Wustenfeld, Erdbeschreibung, p. 18 (41), No 66 –

(٦٣) Rossi, Dizionario, p. 163 (Salamesc) –

(٦٤) Gabrieli, Manoscritti, p. 54 –

(٦٥) Schnurrer, p. 175 –

(٦٦) شرحه ، ص ١٧٤ — ١٧٥ ، ١٦٦ — ١٦٧

(٦٧) De Slane, Catalogue, No 2212 –

(٦٨) Brockelmann, GAL, SB II, p. 460, No 8 b (ed. 1585) –

(٦٩) سركيس ، ص ١٠٣٧ ، يشير إلى ١٠٦ صفحات

(٧٠) Schnurrer, p. 174 ..

(٧١) شرحه ، ص ١٧٥

(٧٢) شرحه ، ص ١٧٥

(٧٣) راجع عن المصنف الآخر : Brockelmann, GAL, SB II, p. 934, No 41

(٧٤) Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 18 (41), No 66 –

(٧٥) راجع : شيخو ، المشرق ، الثالث ، ص ٨١ – Schnurrer, p. 174-175

(٧٦) Brockelmann, GAL, II, p. 381-382, No 3; SB II, p. 514-515 –

(٧٧) سركيس ، ص ١٨٧١

(٧٨) قطعة من مصنف قطب الدين النهروالي عن مخطوطة درسدن رقم ٢٠٤ كانت : Schier, p. 444-445 — لفليشر Fleischer (غير مذكورة في الفهرس) تذكر مقابلته مع السلطان بايزيد في عام ٩٠٤ هـ ؛ ص ٤٤٥ — ٤٤٨ ترجمة القطعة .

(٧٩) — cf. : Brockelmann, GAL, SB II, p. 515, Welieddin, No 2440

(٨٠) — Ekrem Kamil, Tarih, p. 5-90

(٨١) — Brockelmann, GAL, II, p. 360-361, No 3; SB II, p. 488

(٨٢) — Brokelmann, GAL, I, p. 296

(٨٣) — Rosen, Notices sommaires, p. 189

(٨٤) — Brockelmann, GAL, I, p. 296

(٨٥) — Rosen, Notices sommaires, p. 190

(٨٦) — Köprulu, No 1390, cf : Ekrem Kamil, Tarih, p. 5-30

(٨٧) شرحه ، ص ٥ — ٣٠

(٨٨) — Brockelmann, GAL, II, p. 361, No 3, 1

(٨٩) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٧٩٩ — Rosen, Notices sommaires, p. 187-191, No 240 (1066 h.)

(٩٠) حبيب الزيات ، صيدنايا ، ص ٨٢ ، رقم ٥٩

(٩١) — Brockelmann, GAL, II, p. 351 No 5; SB II, p. 489

(٩٢) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠١ — Rosen, Notices sommaires, p. 190-193, No 241

(٩٣) — Rosen, Notices sommaires, p. 191-192

(٩٤) — Wüstenfeld, Muhibbi, p. 63-65, No 44

(٩٥) — Brockelmann, GAL, II, p. 368, No 2; SB II, p. 495-496

(٩٦) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠١ ، الورقتان ١٢ و ٢٧ ب— Rosen, Notices sommaires, No 241, p. 192

(٩٧) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم س ٦٧٩ « نثر الدر » الجزء الثاني ، الورقة ٢٣٣ ا

(٩٨) راجع عن هذا : الفردوسي ، الشاهنامه . نشر عبد الوهاب عزام ، الجزء الأول ، ص ١٣ — ١٤

(٩٩) — Ronsen, Notices sommaires, p. 31-32, No 70

(١٠٠) — Pertsch, III, p. 399, No 1841

(١٠١) حاجي خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٥١٣ ، رقم ٦٦٩٦

(١٠٢) – Rosen, Notice Sommaires, p. 193

(١٠٣) – Von der Laza, Schachspial, p. 20 — Von der Laza, Sokeikir, p. 320-322

(١٠٤) يوجد عرض لمحتوياتها وتقالـه (ص١٠٤–١٠٥) في كتاب :
Von der Linde, Geschichte, I, p. 5-6, 107

(١٠٥) – Cf : Von der Linde, Quellensludien – Murray, JRAS, p. 170 — Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No 5

(١٠٦) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 361, No 6

(١٠٧) – Rosen, Notices Sommaires, p. 193-196, No 242.
مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠٠

(١٠٨) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠٠ الورقة ١٦ .
Rosen, Notices Sommaires, p. 194, No 242

(١٠٩) – Brockelmann, GAL, II, p. 351, No 4; SB II, 448-Brockelmann, Al — Muhibbi, p. 755-Wüstenfeld, Muhibbi p. 5-9 No 1

(١١٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 351, No 4
وأيضا في بيروت ، راجع : Cheikho. Catalogue raisonné, p. 111-112, No 182

(١١١) – Brockelmann, GAL SB II, p. 488, No 4

(١١٢) – Blochet, Catalogue, p. 53, No 5048 = Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No 7

(١١٣) – Brockelmann, GAL. II, p. 273, No 11, SB, 384 —
زيدان ، الجزء الثالث ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦

(١١٤) – Salle, Usama, p. 13 — 14

(١١٥) زيدان ، الجزء الثالث ، ص ٢٧٦ ، رقم ١٢ — Brockelmann, GAL, II, p. 275, No 23 –

(١١٦) – Ahlwardt, VII, p. 131-132, No 7980 = Brockelmann, GAL, II, p. 275, No 23

(١١٧) – Ahlwardt, V, p 433, No 6134; Contents see:Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 8
Brockelmann, GAL, p. 382, No 8

(١١٨) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No, 8 — Flügel ZDMG, 18, p. 523-537

(١١٩) – Flügel, ZDMG, 18, p. 524 – 525

الفصل الثالث والعشرون

القرن السابع عشر

يشابه القرن السابع عشر القرن الثامن عشر فى أنه لايقدم شيئاً جديداً فى تطور الأدب الجغرافى 679 باللغة العربية لدى مقارنته بالعصور السابقة له ؛ وإذا كنا قد أفردنا له فصلا خاصاً فإن مرد ذلك إلى اعتبارات ذات طابع عملى بحت لاعلاقة لها البتة بالمادة الجغرافية . وقد ظلت معظم البلاد العربية فى هذا الوقت أيضاً ولايات تابعة للدولة العثمانية ، تربطها بها روابط ثانية أحياناً وثانوية غالباً ولكنها احتفظت بمراكز الثقافة المحلية التى انتعشت فيها التقاليد الأدبية وفقاً للمذهب القديم للعصور الوسطى . فالمغرب ، وعلى وجه الخصوص مراكش ، الذى تمتع كما كان عليه الحال من قبل بقدر كبير من الاستقلال السياسى قد حافظ بشدة على ميله القديم إلى التأليف فى مجال التاريخ وأخرج لنا فى هذا الميدان عدداً هائلا من المصنفات إلى القرن التاسع عشر تنتمى كلها إلى النماذج المعروفة لنا . وبصدد الاهتمام بأدب التاريخ يمكن أن يلفت النظر بصورة خاصة الرواج المنقطع النظير الذى تمتع به نمط الرحلة والذى ظل محتفظاً به إلى القرن التاسع عشر أيضاً .

ويمكن القول بوجه عام إن الأدب الجغرافى فى جميع البلاد العربية فى هذا العصر قد اقتصر اقتصاراً تاماً على نمطين فقط هما نمط الأوصاف الجغرافية المنطقية ونمط الرحلات . أما المجموعة الأولى فقد غلب عليها بصورة واضحة طراز « الفضائل » ، ونلتقى بها مرة ثانية وفى كمية غزيرة بسوريا أومكرسة « للمدن المقدسة » بالجزيرة العربية مع ميل واضح للتخصص ولتضييق أهدافها . وأما الرحلات فقد ظلت تجتذبها كما هى العادة العاصمة السياسية للخلافة أعنى استنبول التى اتجهت إليها كما كان الحال من قبل البعثات الدبلوماسية أو رعايا الدولة العاديين الذين رحلوا إليها ليرفعوا ظلاماتهم من الولاة المحليين ؛ كذلك استمر الحج يلعب دوراً مذكوراً فى الرحلة ولم يقتصر على المراكز الإسلامية وحدها بل ضم إليها المواضع المسيحية كالقدس وطورسيناء : وقد انبعث فى هذا الصدد أدب مستقل بين أوساط العرب المسيحيين بسوريا خاصة ، كان من الممكن أن نعتبره ظاهرة جديدة لولا جهلنا بخطوط تطوره التاريخى الأولى .

680 ومما يميز الأدب الجغرافى للقرن السابع عشر لدى مقارنته بالقرون السابقة لذلك هو أننا نلتقى فيه على الأقل بمصنفين كبيرين يفوقان بجلاء غيرهما من مصنفات ذلك العصر ، سواء من حيث المضمون أو من حيث الصياغة الأدبية . وكلا المصنفين ينتميان إلى النصف الأول من القرن السابع عشر ويرتبطان بسوريا ولكنهما ظهرا فى وسطين مختلفين تمام الاختلاف . أولها هو وصف رحلة مكاريوس الأنطاكى

إلى البغدان (مولداڤيا Moldavia) والأفلاق (ولاخيا Wallachia) والأوكراين (أوكراينا Ukraina) وبلاد المسكوف Moscovy ، وهو يمثل من ناحية موضوعه أهميـــة منقطعة النظير بالنسبة لتاريخ بلادنا وقد قدره المتخصصون بما هو أهل له من تقدير ولو أنه لم يخضع حتى الآن لدراسة وافية . وصاحب هذا المؤلف عربى مسيحى رضع لبان تقاليد تختلف عن تلك التى شغلتنا بها حتى هذه اللحظة فى الأدب الجغرافى ؛ وهو من الناحية الأدبية ليس بذى قيمة تذكر ولهذا السبب فمن العسير أن يجد مكانه فى عرض عام لتاريخ الأدب العربى . أما المصنف الآخر فإنه ذو طابع مخالف تماماً وأعنى به كتاب المقرّى المشهور عن الأندلس الذى يتمتع بالأهمية من وجهتى نظر الأدب والجغرافيا ؛ وهو أثر بارز فى محيط النثر الفنى المنمق ولو أن مؤلفه يذهب بعيداً فى هذا الصدد إلى درجة المبالغة ، وعلى أية حال فهو مصنف كلاسيكى وليس من المبالغة فى شىء أن اعتبره البعض أحياناً خاتمة لتطور الأدب العربى عامة . وأصل المؤلف من تلمسان بشمال أفريقيا ولكنه ألف كتابه بالقاهرة بعد إلحاح وتشجيع من أصدقائه الدمشقيين الذين كانوا يمثلون بالنسبة له السند الوحيد فى هذا الصدد كما يعترف هو نفسه . هذه الصلة بين المغرب وسوريا لم تكن بالطبع وليدة المصادفة وهى تؤكد مرة أخرى استمرار وحدة التقاليد الثقافية والأدبية بين الأقطار الإسلامية المختلفة حتى فى هذا العصر ؛ كما أنه من العسير أن ينسب إلى المصادفة أن العدد الأكبر من المصنفات الجغرافية التى ظهرت فى هذا العصر ينتمى إلى سوريا والمغرب بالذات .

والآن وقد وجدنا لأنفسنا الحق فى الابتداء بسوريا فلنتحول إلى معالجة الكلام على تلك المصنفات التى انبعثت فى وسط عربى مسيحى والتى لم تسنح لنا الفرصة من قبل لكى نقف عندها بصورة خاصة فيما مر من هذا الكتاب . والأدب الجغرافى لدى المسيحيين الشرقيين فقير على وجه العموم وقد أمكننا أن نتبين هذا إلى حد كبير عند كلامنا على السريان وإلى حد ما عن الحبش أوعن أولئك الذين دونوا مؤلفاتهم باللغة العربية : وهؤلاء الأخيرين قد ارتبطوا بحسب عقائدهم لابالتقاليد الهلنستية فى شخص بطلميوس بقدر ما ارتبطوا بالفترات المتأخرة لتطور الاتجاهات المماثلة فى بيزنطه ورومة : وقد لاحظنا خلال كلامنا على العهود السابقة ظاهرة لاتخلو من الطرافة وهى أن عدداً من أوصاف رومة (وأحياناً القسطنطينية وأنطاكية) التى وجدت عند بعض المؤرخين والجغرافيين المسلمين ترتبط بمصادر مسيحية شرقية ؛ وهذه الأوصاف منحولة فى العادة ويغلب عليها الطابع الأسطورى وقد وقعت إلى الأدب العربى فى معظم الأحايين عن طريق السريان ، ويمكن القول بصورة قاطعة بأن أصحابها قد زاروا تلك المواضع غير أن حكاياتهم عنها مشحونة بعنصر الخيال وليست سهلة الفهم بالنسبة للقارئ . أما فى العصر الحديث الذى نعالج الكلام عليه الآن فإن جميع الأدب الجغرافى للمسيحيين العرب يقتصر فى جوهره على أوصاف الحج إلى « الأرض المقدسة » (فلسطين) وإلى سيناء ؛ وأقدم الآثار فى هذا المجال غير معروفة لنا ومن المحتمل أنها لم تعش ؛ وهو شىء يجب ألا يدهشنا بإزاء الظروف التى حفظ فيها هذا الأدب العربى المسيحى .

581

وإلى فترة قريبة من هذا العهد تنتمى رحلة إلى طور سيناء قام بها شماس يدعى افرام لانعرف عنه شيئاً بخلاف اسمه هذا ؛ والرحلة معروفة لنا بفضل الترجمة اللاتينية التى عملها المستشرق الإيطالى اغناطيوس غويدى I. Guidi[١] معتمداً فى ذلك على مخطوطة الفاتيكان التى كان قد جلبها السمعانى Assemani من الشرق ، وأيضاً بفضل الطبعة العربية التى نشرها فى نفس الوقت العلامة شيخو اليسوعى[٢] معتمداً على مخطوطتين بيروتيتين ترجعان إلى أوائل القرن التاسع عشر . ويسمح لنا المصدر الأول بالافتراض بأن الرحلة إنما ترجع فى الغالب إلى أواخر القرن السادس عشر أوبداية السابع عشر ؛ ولعل الفحص الدقيق لبعض التفاصيل التاريخية والأثرية قد يمكّن البحاثة من تحديد تاريخها بصورة أكثر دقة . وفى تلك التفاصيل المعمارية الأثرية بالذات تكمن الأهمية الرئيسية لهذا المصنف الضئيل الحجم الذى لايزيد عدد صفحاته المطبوعة عن خمس عشرة صفحة ؛ وهو فى أساسه مكرس لوصف مفصل لدير القديسة كاترينا المعروف جيداً للبعثات العلمية الروسية فقد أسهمت بدورها فى فحص عدد من مخطوطاته المدونة بلغات مختلفة . وقد اتجهت عناية الشماس افرام بطبيعة الحال إلى جانب آخر ، وهو يقدم لنا أحياناً معلومات مفصلة عن جميع الكنائس السبع والعشرين[٣] التى وجدت لعهده موجهاً عناية خاصة إلى المسائل المعمارية ومسائل فنية أخرى ينطوى فهمه لها على السذاجة[٤]. وهو يصف جبل طورسيناء مولياً عناية خاصة للكنائس الموجودة به وأيضاً للأساطير المحلية المتعلقة بالدين والعبادة[٥] ؛ وإلى جانب هذا فهو لايهمل الكلام عن حياة سكان الدير خاصة فى علاقاتهم مع البدو المحليين[٦] . ومعظم مادته تجد سنداً لها فى المصادر الأوروبية التى تعرضت لوصف تلك المواضع .

وأغلب الظن أنه خرج فى رحلته من مصر لأنه يبدأ بوصف الطريق من القاهرة مع تعداد مفصل بما فيه الكفاية لجميع | المحال[٧] بما فى ذلك تلك التى حفظت أهميتها إلى القرن العشرين . أما طريق العودة 682 فيرد وصفه فى النهاية[٨] ، حيث يوجد إلى جانب ذلك وصف أقل تفصيلا للطريق من القدس إلى سيناء ماراً بغزة[٩] . وجميع العرض يغلب عليه أسلوب لا أثر للفن فيه وقد صيغ فى لغة بسيطة ولكن لم تغلب عليها العامية التى تحفل بها فى العادة آثار الأدب العربى المسيحى ؛ والمؤلف يكشف عن معرفة بتقاليد الأدب المسيحى الشرقى مما يشير إلى أنه شخص « مثقف » ولو أنه يجب بالطبع أن نفهم مدلول هذا اللفظ وفقاً للوسط الذى عاش فيه . وعلى أية حال فإن أهمية الوصف الذى دونه لاترتكز فى قيمته الأدبية بل فى المادة الواقعية التى سجلها والتى يجب الاعتراف بأنها لم تدرس بعد دراسة كافية بواسطة المتخصصين :

ومن نفس هذا الوسط المسيحى ولو أنه ينتمى إلى طبقة أخرى ظهر الرحالة الثانى لأواخر القرن السابع عشر والذى يتميز بطرافة أكثر سواء فيما يتعلق بطريق رحلته الذى لم يكن معهوداً للعرب وذلك فى أمريكا الجنوبية ، أوفيما يتعلق بشخصيته نفسها . ومما لاشك فيه أن « الشماس افرام » كان شخصاً بسيطاً اقتصرت صلاته على الطبقات المسيحية الشعبية ، أما إلياس بن حنا الموصلى فينتمى إلى تلك الأوساط

المسيحية التي خرج منها « أمراء الكنيسة »(١٠) لأنه من بيت عمون الذى ينتسب إليه عدد من بطاركة النساطرة والذى ارتبط عقب الاتحاد مع رومة فى عام ١٥٥٣ ارتباطاً وثيقاً « بالمدينة الأزلية » (the eternal city) وبممثلى مختلف الطوائف الدينية فى الشرق والغرب . هذا وقد استقرت أسرته ببغداد(١١) وله إخوة معروفون من أسمائهم لعبوا دوراً ما فى الموصل وحلب(١٢) ، كما أن ابن عمه يونان أتم دراسته فى عام ١٦٥٠ برومه ، ربما « بكلية الدعوة إلى الإيمان » Collegia de propaganda fide . وإن مجرد تفكير إلياس فى القيام برحلته إلى أمريكا إنما يقف دليلا على سعة أفقه وإمكانياته ؛ ولانستطيع التكهن بصورة دقيقة عن طبيعة الأغراض التى هدف إليها من ذلك ولو أنه يجب أن يحتل المكانة الأولى من بينها بالطبع جمع التبرعات من أجل كنيسته كما نعلم جيداً من أمثلة رجال الدين الذين زاروا روسيا الموسكوفية ؛ غير أن معاونة البابا والسلطات الإسبانية له فى هذه الرحلة يقف دليلا على أنه قد ذهب فى مهمة خاصة من المحتمل أنه قصد عدم الإشارة إليها . وهو قد زار رومه أكثر من مرة ؛ وقد أشار إلى إحدى زياراته لها فى عام ١٦٥٩ راهب كرملى ذو مكانة عمل بملبار بالهند وذلك فى كتاب له باللغة الإيطالية ، وكان إلياس قد التقى بهذا الراهب أكثر من مرة سواء خلال سفره بالعراق أو أثناء زياراته لرومه(١٣) .

683 ومر إلياس برومه فى طريقه إلى أمريكا الجنوبية ؛ فقد خرج من بغداد فى عام ١٦٦٨ فى رفقة طوبجى باشى المدفعية التركية بالشرق الأدنى ميخائيـــل كوندوليو(١٤) M. Condolen وأصله من قبرص ، وحملا معهما خطابات من الآباء الكرمليين ببغداد الذين كانوا يلعبون آنذاك دوراً كبيراً فى تلك المدينة(١٥) ؛ ويقف هذان المثالان دليلا على اتساع علاقات إلياس . وبعد أن أدى فريضة الحج إلى القدس زار فى طريقه حلب والإسكندرونة ثم أخذ طريق البحر إلى البندقية متوقفاً لمدد قصيرة بقبرص وكريت وزانتى Zante (« زانطية ») ؛ وابتداء من إيطاليا تأخذ الرحلة طابعاً أكثر تفصيلا . وفى رومة تشرف بمقابلة البابا كلمنت التاسع ، ثم ركب البحر من جنوه إلى مارسيليا فأقام لبعض الوقت بفرنسا واسبانيا ؛ ورجع عقب ذلك إلى إيطاليا لأسباب مالية ، ولنفس هذه الأسباب زار صقلية ثم رجع إلى اسبانيا ومنها سافر إلى البرتغال وهناك عقد العزم بصورة جازمة على زيارة أمريكا . ولكى يحصل على تصريح من السلطات العليا بهذا فقد اضطر إلى الذهاب إلى مدريد إلى بلاط كارلوس الثانى ، وفى فبراير من عام ١٦٧٥ أقلعت بهم السفن من قادس إلى أمريكا ؛ وقد مروا فى طريقهم على جزر الكنارى متجهين صوب كراكاس بفنزويله ؛ ثم بعد إبحار دام خمسة وخمسين يوماً وصلوا إلى قرطجنة (« كرتاخينا ») بكولومبيا وهنا توقفوا لأول مرة لبعض الوقت وبعد ذلك واصل المؤلف رحلته بطريق البحر والبر على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربى وكان يتخلل ذلك وقفات طويلة ، فمر على بنما ومنها إلى كولومبيا ثم إلى اكوادور حيث أقام مدة طويلة بمدينة كيتو . وقد أقام بليما عاصمة بيرو (« بلاد البيروه ») عاماً ونصف عام بالتقريب ؛ وأقصر من ذلك كانت زيارته لبوليفيا والأرجنتين وشيلى ؛ أما البرازيل ومدينتى

توكومان Tucuman وبوينس آيرس فإنه يورد وصفها اعتماداً على رواية الغير . وفى عام ١٦٨٠ نراه مرة ثانية بليما حيث دون القسم الأول من وصف رحلته والذى أضاف إليه وأكمله بالتالى . وفى طريق الرجعة عزم على زيارة ذلك الجزء من أمريكا الوسطى الذى كان يحمل التسمية التركية المعروفة لنا جيداً « ينكى دنيا » (أى « الدنيا الجديدة ») والذى يقصد به أساساً بلاد المكسيك (« ميخيكو ») ، فغادر ميناء كلخو (« الكلياو » El Callao) ببيرو فى ٢١ سبتمبر ١٦٨١ ومر على بنما ثم بسواحل كوستاريكا ونيكاراغوا وهوندوراس وغواتيمالا وزار نقاط متعددة من المكسيك من بينها العاصمة نفسها التى أمضى بها ستة أشهر وترك لنا وصفاً مفصلا لها . وتحت تأثير القصص التى سمعها عن الفلبين والتى يورد عدداً منها بتفصيل واف انبعثت لديه فكرة الرجوع إلى وطنه عن طريق تلك الجزر ماراً بالصين وبسورات (« سورط ») بالهند حيث وجد لديه بعض الأصدقاء . غير أنه اضطر بالتالى إلى الإقلاع عن هذه الفكرة فأخذ الطريق العادى من المكسيك خارجاً من ميناء فيراكروز (« ويراكروس ») إلى هافانا (« لاوانا ») ؛ وأثناء عبوره للمحيط فاجأتهم عاصفة هوجاء ولكنه وصل آخر الأمر سليما معا فى إلى قادس ، وبعد زيارة قصيرة | لأشبيلية لأغراض مالية تجارية وصل إلى رومه فى عام ١٦٨٣ وقدم إلى البابا إنوسنت الحادى عشر (« اينوسنسيوس الحادى عشر ») الهدايا التى جلبها من وراء البحار : 684

ويلوح أنه قد أمضى بقية سنى حياته برومه ؛ ومما يقف برهاناً على هذا أنه طبع على حسابه الخاص برومه وذلك فى عام ١٦٩٢ كتاباً « للصلاة » باللغة العربية فى عهد البابا إنوسنت الثانى عشر من أجل مواطنيه المشارقة[١٦] (un livre de prière pour les Orientaux) ؛ وقد بين فى هذا الكتاب الألقاب العالية التى أنعم بها عليه لا البابا وحده بل وإمبراطور اسبانيا مما يحمل على الاعتقاد مرة أخرى أنه قدم خدمات ما لهاته الشخصيات الكبرى . ويبدو أن الكتاب وجد بعض الرواج عند الأوساط التى عمل من أجلها فقد أعاد طبعه برومه فى عام ١٧٢٥ أحد الموارنة دون أن يشير إلى المصدر الذى أخذه عنه .

هذا وقد طبعت رحلة إلياس الموصلى اعتماداً على المخطوطة الوحيدة المعروفة آنذاك والموجودة بحلب وأيضاً على النسخة التى نقلت عنها ببيروت فى القرن التاسع عشر . وهى تتكون من قسمين مستقلين عن بعضهما البعض تمام الاستقلال يشمل أحدهما الوصف الأساسى للرحلة بعنوان « السياحة » ، على حين أفرد القسم الثانى الذى يقع فى نفس الحجم تقريباً ويضم سبعة عشر فصلا للكلام على اكتشاف أمريكا وتاريخها ؛ وهو يعتمد اعتماداً أساسياً فى هذا القسم الثانى على المصنفات المكتوبة باللغتين الإسبانية واللاتينية. هذا وقد تم نشر القسم الأول بعناية كبرى مع شرح مفصل لأسماء الأعلام وتعليقات مختلفة ودون أى حذف بواسطة ا . رباط[١٧] ؛ أما القسم الثانى الذى لا يمثل قيمة كبيرة فقد نشر منه رباط الفصل الحادى عشر فقط الذى يبحث فى « الآثار النصرانية فى أمركه المتوسطة والجنوبية » التى وجدها الإسبان عند اكتشافهم لتلك البلاد (les traditions chrétiennes en Amérique avant Colomb)[١٨] .

وموضوع هذه الرحلة يقف دليلا بما فيه الكفاية على أهمية المكانة التى تحتلها رحلة إلياس الموصلى فى الأدب العربى ، وهى لاتقل أهمية وطرافة من ذلك من حيث مضمونها . ويجب الاعتراف بأن قراءتها قد لا تخلو أحياناً من تأثير مؤلم على نفس القارئ فهى أثر من الآثار التى تصور عهد الاستعمار الذى أناخ بكلكله على أهل البلاد الأصليين واستغلهم استغلالا مشيناً ؛ والمؤلف يعرض لنا وقائعه بالكثير من الهدوء دون أن يعكس أية انفعالات عاطفية إزاء ما يسرده . وفى هذا بالذات تكمن أهميته كمصدر تاريخى جغرافى ذى قيمة بالنسبة لذلك العصر بأجمعه . ولاشك أن المؤلف يتمتع باطلاع واسع ولكنه يجمع إلى ذلك سذاجة مذهلة (sancta simplicitas) تنعكس بوضوح فى طريقة سرده لقصة الرحلة . وبالطبع فقد اقتصر وسطه أساساً على محيط رجال الدين والسلطات الإسبانية وكان ينزل أثناء أسفاره ضيفاً على رؤساء محاكم التحقيق (inquisition)* المحليين أو على حكام النواحى أو الأساقفة ، ولو أنه كان على الدوام يأخذ طرفاً فى الحياة اليومية المحيطة به ويتدخل فى النزاع بين | الطوائف المختلفة ويراقب عن كثب مجريات 685 الأحوال ويدون الحوادث التى يجدها جديرة بالتسجيل . أما سكان البلاد الأصليين من بين الهنود فقد حدث له أن التقى بهم فى أثناء أسفاره التى قام بها أحياناً مع دليل أودليلين من الهنود المحليين ؛ وهو قد رأى المزارع والمناجم التى كان يعمل بها الأرقاء كما رأى الأهالى يشتغلون بسوق البغال (muleteers) ؛ وروايته على العموم تتميز بالدقة والتفصيل فهو يسجل باهتمام كل ما يقع أثناء الرحلة بما فى ذلك الظواهر الطبيعية ؛ ونظراً لأنه كان صياداً ماهراً فهو لم يهمل الوقوف عند هذا الجانب من النشاط البشرى . وقد ظهر لديه معارف فى كل موضع سواء بروما وبباريس أو اسبانيا ، وكان يحمل خطاب توصية لكل شخص حتى من الشرق نفسه . وهو يحكى بنفس « السذاجة المذهلة » كيف كان يقرض أصدقاءه النقود ، بل ويذكر من وقت لآخر قيمة الربح الذى كان يطالبهم به ، وكيف كان يدخر الفضة وبعض السلع القيمة ؛ ويبدو أن غرضه من هذا لم يكن تقديم الهدايا فقط بل القيام أيضاً بصفقات تجارية . غير أن هذا كله لم يمنعه من القيام فى كل مكان بالخدمات الدينية فى المسوح الذى باركه البابا ولكن بلغته السورية ؛ وهو لاينسى أحياناً أن يذكر لنا قيمة الهدايا التى أغدقت عليه فى تلك المناسبات .

أما المادة الجغرافية الخالصة التى تحويها دفتا كتابه فتتسم عادة بالصحة كما أنه يمكن التثبت من أسماء المواضع التى يوردها دون كبير عناء ؛ وعدد هذه المواضع كبير ويقدم مادة لابأس بها عن أحوال ذلك العصر. وهو فى وصفه للحياة الاجتماعية وأسلوب المعيشة لايقتصر على الطبقات العليا للسكان الإسبان وحدهم بل يمس أيضاً السكان المحليين من الهنود الذين لاتختلف نظرة المؤلف إليهم بطبيعة الحال عن نظرة العصر والوسط الذى عاش فيه ؛ وهو يشارك هذا الوسط معتقداته فيدون قصصاً يمكن أن نجد لها مثيلا فى

* وهو يطلق عليها : « ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكى الذى يسمى فى لسان السبنيول الانكيزسيون Inquisicion »
(المترجم)

المصادر الإسبانية المعاصرة له ولو أنها لاتعدو أن تكون من صنع مخيلة العصور الوسطى كما أثبت البحث العلمى الحديث . ويجب أن نضيف إلى مزايا كتابه سلاسة الأسلوب وسهولته وخلوه من التنميق ، وذلك باستثناء المقدمة التى حاول أن يلتزم فيها أسلوباً أدبياً رفيعاً ويزينها بالاقتباسات والشواهد من محيط الأدب العربى المسيحى . أما فى بقية الكتاب فإنه لم يهتم كثيراً للشكل بل ركز اهتمامه فى عرض الوقائع ؛ ورغماً من أنه جهد فى استعمال اللغة الأدبية فكثيراً ما وجدت طريقها إليه الألفاظ المحلية والكلمات التركية[١٩] بل وحتى أساليب لغة المخاطبة اليومية . غير أن هذا لم ينتج عنه تعقيد ما فى فهم الكتاب ، ومن الممكن أن نعتبر رحلة إلياس الموصلى أثراً جغرافيا يتميز بالطرافة من نواح عدة ولو أن هذا لايعطيه بطبيعة الحال حق الانضواء إلى الآثار « الكلاسيكية » المعروفة لنا . ورأى المستشرق الروسى غوردليفسكى V.A. Gordlevski وإن كان لايخلو من التحفظ إلا أنه رأى صائب بوجه عام ، فهو يقول عنه « وهو قد دون فى يومياته جميع ما رآه واعتقده جديراً بالذكر ولو أن أفقه الفكرى | محدود بصورة لاتسمح له بالدخول فى مجال الاستقراءات والتعميمات الواسعة ؛ وهو نادراً ما يبدى ملاحظات تمثل أهمية ما من وجهة النظر العامة »[٢٠] .

586

وبعد مضى مدة طويلة على ظهور الطبعة تم الكشف عن مخطوطات أخرى لوصف رحلة إلياس الموصلى لا فى الموصل[٢١] وحدها بل أيضاً فى بغداد [٢٢] والقاهرة[٢٣] ، وحتى فى مكتبة « ديوان الهند » India Office بلندن[٢٤] ؛ وجميعها تسمح بإدخال تصحيحات على النص الذى نشره رباط . أضف إلى هذا أنه قد عرفت تفاصيل عنه وعن البيئة التى نشأ فيها بالعراق لذلك العصر ، غير أن معلوماتنا عن سنى حياته الأخيرة طفيفة كما هو الحال من قبل ويرجع آخر ذكر له إلى عام ١٦٩٣[٢٥] .

واستقراؤنا العام عن الأهمية الأدبية لرحلة إلياس الموصلى يمكن تكراره عن وصف رحلة أخرى خرج صاحبها من الوسط العربى المسيحى كذلك ولكن مع استثناء جوهرى هو أن الرحلة تمثل بالنسبة لنا أهمية لامثيل لها لعلاقتها المباشرة والأساسية بروسيا الموسكوفية . هذا وقد تم تدوين هذا الأثر فى « مركز الثقافة المحلى » الذى كانت تمثله حلب آنذاك والذى تحدثنا كثيراً عن أهميته فى هذه القرون المتأخرة ، وفى نفس ذات الوسط المسيحى أيضاً الذى لم تكن قد لمسته بعد النهضة الأدبية التى ارتبطت أساساً بالقرن الثامن عشر . وكان وضع السكان الأورثوذكس من وجهة النظر الثقافية أسوأ بكثير من وضع الطوائف المسيحية الأخرى التى كانت على صلة بروما وولت وجهها شطر الغرب . وقد كان بوسع هؤلاء الأخيرين أن يعتمدوا فى هذا على تقاليد ضاربة فى القدم ومعاونة فعالة سواء فى تزويدهم بالمدارس أوتطوير ثقافتهم الأدبية ، بل إن صلتهم بروما ظلت قائمة حتى قبل اتحادهم معها وبدأ يظهر من بينهم منذ القرن السادس عشر علماء وأدباء محليون لم يكن من النادر أن تلقوا تعليمهم بروما نفسها .

أما طبقة الإكليروس الأرثوذكسية فلم يوجد تحت تصرفها مثل هذه الإمكانيات فقد انفصمت

التقاليد الأدبية لديها منذ عهد طويل ولم يتم إحياؤها إلا مؤخراً جداً . ونظراً لأن اتجاهها الروحي كان صوب الأدب الإغريقي البيزنطي فإنه لم يوجد بالنسبة لها قطب تدور في فلكه كدور رومه بالنسبة للطوائف الأخرى ، فبطركية القسطنطينية كانت تحت وضع من التبعية لا يسمح لها بأن تلعب دور القاعدة الرصينة بالنسبة لغيرها أو تقدم توجيهات ترتبط بالتيارات الثقافية العربية ؛ أما دول البلقان فقد غلب عليها الضعف وعدم الاستقرار . إزاء هذا فقد أخذت الأنظار منذ القرن السادس عشر تتجه إلى روسيا ، غير أن مستوى معرفتها آنذاك لم يكن بالقدر الذي يسمح لها بتكوين فكرة جلية عن احتياجات العرب المسيحيين رغماً من أنه قد وجدت حالات مدت لهم فيها يد المساعدة المادية . وإذا حدث وأن أبصرنا بداية ظهور علاقة ثقافية في ذلك العصر فإن هذا قد تم أساساً | بفضل مجهودات شخصيات منفردة احتلت مراكز كبرى أو أفراد تملكتهم روح التنوير بالقدر الذي فهموا عصرهم والوسط الذي عاشوا فيه . ولا يجوز أن نقف موقف الريبة من صدق عاطفة هؤلاء الأفراد ولو أنه يجب الاعتراف بأن نطاق إمكانياتهم كان محدوداً وأن مجال معرفتهم كان أضيق من ذلك . وقد اقتصرت ثقافتهم على مجرد التمكن من القراءة باللغة العربية وهي لغتهم الكلامية ، وعلى معرفة طفيفة بمبادئ اللغة الإغريقية قد تسمح لهم في أفضل الأحوال إن ليس بترجمة المصنفات البيزنطية المتأخرة فعلى الأقل بفهم محتوياتها .

687

وإلى هؤلاء الذين تشربتهم تلك العواطف الرفيعة يمكن أن نضم مكاريوس بطريرك الكنيسة الأنطاكية الذي سافر إلى روسيا مرتين في عهد القيصر ألكسي ميخايلوفتش (وذلك في عام ١٦٥٤ — ١٦٥٦ وفي عام ١٦٦٦ — ١٦٦٨) والذي عرف عادة في الوسط العربي باسم مكاريوس بن الزعيم الحلبي الأنطاكي(٣٦) . وأصله من شمال سوريا وقد نشأ في وسط ديني فقير وتم انتخابه في عام ١٦٣٥ مطراناً لحلب وفي ١٢ ديسمبر من عام ١٦٤٧ انتخب ليشغل منصب بطريرك الكنيسة الأنطاكية التي كان مقرها آنذاك بدمشق . وقد أحس منذ صباه كما يذكر هو نفسه بميل خاص إلى المؤلفات التاريخية خاصة تلك التي لم تكن معروفة في اللغة العربية ، ونظراً لاهتمامه بتثقيف وتنوير أبناء جلدته فقد بذل جهده في نقل فصول أو مقتطفات من اللغة الإغريقية إلى اللغة العربية ، إما بنفسه أو بمساعدة الغير . ومعظم المصنفات التي خلفها لنا ذات طابع نقلي بعضها معروف في مخطوطات بخط يد المؤلف نفسه وبعضها في شكل مسودات لم يبيضها . وله إلى جانب هذا تدوينات متفرقة أشبه ما تكون « بكشكول عام » سجل فيه المؤلف دون أي تنظيم جميع ما استرعى انتباهه من وقت لآخر على هيئة مقالات متفرقة أو اقتباسات موجزة . وكثير من هذه المادة يتعلق بتاريخ الكنيسة ، وعندما يدور الكلام فيها عن الشرق فإن مكاريوس يعتبر في كثير من الأحيان مصدراً من الدرجة الأولى ، أما فيما عدا ذلك فهي نقول من مواد إغريقية لم يحدد مصادرها على الدوام بصورة دقيقة . ونلتقي لديه في بعض الأحايين بحكايات لوقائع شهدها بنفسه أثناء أسفاره أو سمعها ممن شهدوها ؛ وجميع هذا يوحي بأنه قد دون مادته على شكل مذكرات بالكثير من العجلة

ودون أن يبيضها بحيث عكست انطباعاته الحية المباشرة ، ويلوح أنه فى كثير من الأحيان لم يعاود النظر فيها أو يعيد صياغتها[٢٧] .

وقد قدر لمكاريوس أن يتجول كثيراً خاصة فيما يتعلق بمهام مطرانيته وبطركيته ، وفى عام ١٦٤٢ — ١٦٤٣ حج إلى القدس[٢٨] وتجول قبل هذا و بعد هذا فى نواح عديدة | من سوريا ؛ وقد كانت بطركيته مثقلة بالديون مما دفعه إلى البحث عن مخرج من هذا عن طريق جمع التبرعات (الزكاة)* كما جرت العادة . ونظراً لأن السكان المحليين أنفسهم كانوا يشكون العوز وضيق ذات اليد فقد اتجهت أنظار مكاريوس كما جرت العادة بين رجال الإكليروس الشرقيين إلى خارج حدود الدولة العثمانية وذلك إلى البلقان وأوكراينا وروسيا . هذا وقد حفظ لنا وصف رحلته الأولى فى كتاب مستقل نال من جرائه شهرة ليست بالضئيلة فى ميدان الأدب الجغرافى[٢٩] ولو أن الكتاب ليس من تصنيفه هو بل وضعه باللغة العربية ابنه الارشدياكون (Archdeacon أى كبير الشمامسة) بولس بن الزعيم الحلبى (ولد حوالى عام ١٦٢٧) الذى صحب أباه منذ سن مبكرة فى أسفاره العديدة وأصبح منذ عام ١٦٤٨ كبيراً لشمامسة البطركية[٣٠] ؛ وبفضل هذا الوضع فقد حصل بولس على نصيب معين من التعليم ولكن مستوى ثقافته لم يكن عالياً ، وعلى أية حال فقد كان على العكس من أبيه خطاطاً ماهراً ووصلنا منه عدد من المخطوطات بخط يده يقف دليلا على مهارته الفائقة فى هذا المجال . ولا تختلف مصنفاته الشخصية من حيث طبيعتها عن مصنفات مكاريوس فى كونها ترجمات ونقول من مصادر إغريقية[٣١] ؛ أما أهم مصنفاته على الإطلاق فهو الوصف الكبير والأصيل لرحلة البطريرك الأولى إلى تركيا وملداڤيا وولاخيا وأوكراينا وروسيا الموسكوڤية (المسكوف ») ** .

688

---

* كان اللفظ المستعمل آنذاك بين المسيحيين العرب هو « نورية » ولم أعثر له على أثر فى المعاجم العربية مما يدل على أنه محدث وعامى ، ولعله مستعار من نفس استعمالهم للفظ للكناية عن العذراء (« النورية ») . غير أن دوزى سجله فى معجمه الذى استدرك به على المعاجم العربية Dozy, Supplément aux Dictionnaires Arabes حيث يقول « النورية : La dîme qu'on paie à l'evêque » أى العشور التى تدفع للأسقف . (المترجم)

** جاء فى مقال للعلامة العربى حبيب الزيات ما نصه : « اشتهر البطريرك مكاريوس الزعيم الحلبى وابنه الشماس بولس بالبحث عن أخبار الكنيسة الأنطاكية واستقراء حوادثها وشؤونها والتنقيب عن ماضى أساقفتها والأعمال الراجعة إليها وتقييد تراجم كل من نشأ فيها وانتسب إليها من رجال الدين والنساك والقديسين . والأول منهما فى كل ذلك كتب وأجزاء شتى جمعها فى حضره وسفره ، كانت طائفة منها محفوظة عند الطيب الذكر البطريرك غريغوريوس حداد . وكان رحمه الله حريصاً عليها أشد الحرص يضن على كل أحد بمطالعتها أو استنساخ شىء منها . ولذلك يجب أن يعد من حسناته إهداؤه إياها سنة ١٩١٣ لنقولا الثانى قيصر روسية ، بحيث سهل هنالك لطلاب العلم مراجعتها عند الحاجة ونقل ما يراد منها . وللثانى مخطوط بقلمه جمع فيه أخبار أنطاكية وبطاركتها ولكنه لسوء الحظ مخروم ناقص من أوله وآخره . ولعله وقف فيه عند خراب أنطاكية على يد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وله فى ما سواه رحلة والده المشهورة إلى البلاد المسيحية . ومنها ثلاث نسخ فى لينينغراد وموسكو ، ونسخة فى لندرة . وهى كلها لا تخلو من بعض النقص ، وإن لم ينبه أحد عليه ممن ترجم هذه الرحلة إلى الإنكليزية والروسية . وخير من هذه النسخ جميعها الأصل المحفوظ بباريس ، وهو فى اثنين وثلاثين كراساً ، منها خمسة وعشرون بخط بولس نفسه ، وسبعة بقلم ناسخ آخر مجهول وفى أوله وآخره بعض صفحات جمع فيها الشماس ما وقف عليه من تاريخ البطاركة منذ انتقالهم من —

ولم يكن مكاريوس أول مواطن من بين العرب السوريين يزور بلاد الروس ، ففي عهد القيصر فيدور يوانوفتش قدم إلى روسيا بطريرك الكنيسة الأنطاكية يواكيم ضو (١٥٨٢ – ١٥٩٢) لبحث مسائل تتعلق بالبطركية ، وهو عربي أيضاً وقد أقام بموسكو لمدة شهرين وذلك منذ السابع عشر من يونيو إلى الحادي عشر من أغسطس عام ١٥٨٦ وسلك في سفرته طريق البر المعهود مخترقاً آسيا الصغرى وملداڤيا وولاخيا وأكراينا ، وكما سنرى في حينه فإنه وجد وصف مختصر لرحلته ولكنه للأسف لم يصل إلى أيدينا . وقد مكث هذا البطريرك طويلا بمدينة لڤوف Lvov وهناك أصدر في أول يناير من عام ١٥٨٦ وباللغة العربية منشوره إلى رعايا لڤوف المعروف جيداً لدى الدوائر العلمية[٣٢] ؛ هذا وقد أبصر مكاريوس وبولس صورة هذا البطريرك في قصر المطرانية بكييف تحمل توقيعه باللغة الإغريقية[٣٣] . ويجب أن نضيف إلى هذا أنه لم يكن لبولس فكرة واضحة عن تاريخ تلك الرحلة فهو يذكر تارة أنها حدثت « قبل خمسة وتسعين عاماً في عهد القيصر إيفان»[٣٤] وطوراً أنه قد « مر على ذلك اثنان وسبعون عاماً »[٣٥] ، وهذا الأخير أقرب إلى الصحة . ويناقض بولس نفسه | عندما يقول بأنه « لم يسافر أحد بعد ذلك »[٣٦] إلى روسيا ، فقد أرسل البطريرك أفتيموس (١٦٣٥ – ١٦٤٨) ، وذلك في عهد القيصر ميخائيل فيدوروڤتش ، المطران ارميا (وأصله من حلب) مطران عكار* بسوريا لجمع التبرعات (Pour faire des collecles) من أجل الكنيسة ، غير أن جشع حاكم پوتيڤل (« بوتيبليا ») Putivl قد تسبب في حجزه لدى الحدود وهناك توفي[٣٧] . وقد زار مكاريوس وبولس قبره بدير العذراء قرب پوتيڤل[٣٨] .

689

ولايبعد أن الدافع لزيارة مكاريوس لبلاد « المسكوف » كان شيئاً أشبه بدعوة شخصية ؛ ففي عام ١٦٥٢ مر بسوريا[٣٩] أرسيني سوخانوف Arseni Sukhanov الذي عرف فيما بعد كأمين « كلارجي » (cellarer) لدير الثالوث المقدس باسم القديس سرجيوس (The monastery of the Trinity of St. Sergius) ، وكان قد بعث به من موسكو بمهمة « وصف الأماكن المقدسة ومراسم الكنيسة الإغريقية »[٤٠] ؛ ولم تكن هذه أولى رحلاته في الشرق . وفي طريق عودته الذي مر به على جورجيا أمضى اليوم الخامس من مايو عام ١٦٥٢ بدمشق حيث « نزل ضيفاً على البطريرك الأنطاكي » ، وفي التاسع عشر من نفس الشهر وصل إلى حلب وأمضى حوالى الأسبوع « بقصر المطرانية » ؛ ولاشك أنه قد سنحت له الفرصة مراراً للتحدث مع مكاريوس[٤١] ، وقد التقى به فيما بعد بولاخيا[٤٢] ودعاه لزيارة دير القديس سرجيوس[٤٣] . ولم تطأ قدم سوخانوف موسكو إلا في يونيو من عام ١٦٥٣[٤٤] ، هذا على حين أن مكاريوس كان

— أنطاكية إلى دمشق ، وروى في خاتمتها أخبار والده وأحوال الكرسي بعد رجوعهما لدمشق . وهذه الروايات والنقول التاريخية الواردة في كتب البطريرك وابنه هي مصدر كل ما كتب عن الكنيسة الرومية الأنطاكية إلى اليوم . وعنها أخذ البطريرك اثناسيوس الدباس والخوري ميخائيل بريك ما دوناه في تاريخهما . فهي المعول الوحيد والمرجع الأول لكل من تكلف الكلام على الكرسي الأنطاكي منذ القرن السابع عشر » . (حبيب الزيات ، المشرق ، ١٩٣٢ ، ص ٥٦١) (المترجم)

* جاء في المتن الذي نشره رادو Radu : يوسف الحلبي مطران عكار ورحبه . (المترجم)

قد بدأ رحلته بعد شهرين من مقابلته معه بحلب ؛ وهى تلك الرحلة التى طال أمدها بصورة لم تكن فى الحسبان فاستغرقت سبعة أعوام (١٦٥٢ — ١٦٥٩) .

خرج البطريرك من حلب فى التاسع عشر من شهر يونيو وبعد جولات مختلفة فى نواحى بطركيته وصل إلى أنطاكية فى الثانى والعشرين من يوليو ، وقد مر فى طريقه بعد ذلك على إسكندرونه التى بلغوها فى الخامس من أغسطس ، ثم أدنه (١٤ أغسطس) ، وأعقب ذلك جولات محلية لجمع التبرعات ؛ ومروا بقونية (« ايقونيه ») (١١ سبتمبر) وبروسه (٢٨ سبتمبر) حتى بلغوا القسطنطينية فى العشرين من أكتوبر . ثم غادروها بعد نيف وشهرين وذلك فى السابع من يناير عام ١٦٥٣ عن طريق البحر إلى ميناء قسطانزا* التى بلغوها فى الثانى عشر من يناير ؛ وقد اضطروا إلى التخلف عاماً ونصف عام بالتقريب بمولداڤيا (« البغضان ») وولاخيا (« الفلاخ ») نظراً للتغير الذى حدث فى الحكام (hospodars) والعمليات العسكرية التى كانت تلك البلاد مسرحاً لها ؛ وفى خلال ذلك حدث لهم أن تعرفوا بابن بغدان خميلنتسكى Bogdan Khmelnitski المدعو تيموڤى Timofi والذى قتل بعد قليل فى إحدى المعارك . وفى العاشر من يونيو عام ١٦٥٤ فقط تمكنوا من اجتياز حدود ملداڤيا إلى الأوكراين** بعد أن عبروا نهر الدنيستر عند بلدة راشكوف Rashkov | . وفى بوغوسلاف Boguslav (فى الثانى والعشرين من يونيو) 690 قابلوا الآتامان Hetman خميلنتسكى الذين دعوه على الدوام باسم « خميل » ؛ وبتاريخ ٢٦ يونيو دخلوا كييف . وقد استبقاهم الأمير لمدة أسبوعين وذلك حتى العاشر من يوليو ، وفى العشرين منه بلغوا پوتيڤل وكانت النقطة الوحيدة المسموح للقادمين من الشرق بالعبور منها إلى داخل حدود دولة المسكوف . وتحركوا منها فى الرابع والعشرين فبلغوا كالوغا Kaluga فى الثانى من أغسطس ، واضطرهم وصول خبر انتشار الطاعون بموسكو إلى تغيير خط سيرهم المرسوم لهم ونقطة التوقف التى اختيرت لهم قبل بلوغهم موسكو وهى مدينة كولومنه Kolomna . فى الحادى عشر من أغسطس ، بعد أن أعدت لهم وسائل النقل النهرى ، قامت السلطات بتوجيه قافلة البطريرك على نهر أوكا Oka فمروا فى طريقهم على كاشيرا Kashira وغلوتڤين Golutvin حتى وصلوا فى السابع عشر من أغسطس إلى الموضع الذى عين لهم . هذا وقد قسرهم الطاعون الذى استشرى آنذاك والذى يرسم لنا عنه بولس لوحة مخيفة إلى التخلف بكولومنا لمدة نصف عام بالتقريب فلم يستطيعوا مغادرتها إلا فى الثلاثين من يناير عام ١٦٥٥ وبلغوا موسكو فى الثانى من فبراير . وكان القيصر الكسى ميخايلوڤتش متغيباً عنها فى حملته على بولندا مما أدى إلى مد إقامتهم بالعاصمة ما يقرب من ستة عشر شهراً . وفى خلال هذه الفترة زاروا الأديرة القريبة وعدداً من الأديرة البعيدة ، كما زاروا

* جاء فى المتن العربى : « إلى مينا يقال لها بمانيا قوصطانزا رومية وبالتركية كوستنجا » (Radu, p. 143) (المترجم)

** يطلق عليها بولس اسم « بلاد القزق » نسبة للقزاق (Cossacks) ؛ وهى تلك الجماعات من المقاتلين الذين رابطوا على ثغور روسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية متخذين من الجندية مهنة لهم . (المترجم)

أيضاً دير الثالوث المقدس باسم القديس سرجيوس فى اليوم التاسع من يوليو وكان فى رفقتهم أرسينى سوخانوف(٤٥) . وفى شهرى أغسطس وسبتمبر زاروا نوفغورود ومروا على دير ايڤرسكى Iverski على تلال ڤلداى Valda . ورجعوا إلى موسكو فى العشرين من سبتمبر ولكن القيصر لم يرجع من حملته العسكرية إلا فى العاشر من ديسمبر ١٦٥٥ . وقد أمضوا كل وقتهم إما فى زيارة الكنائس وغيرها من المواضع الجديرة بالمشاهدة ، وإما فى تبادل الرأى مع البطريرك نيكون Nikon حول مسائل تصحيح الأسفار الكنسية ومسائل دينية أخرى .

وفى الثالث والعشرين من مارس عام ١٦٥٦ غادروا موسكو أخيراً متجهين صوب كالوغا فى طريق سيئة للغاية ، ولكنهم لم يكادوا يبلغوا بيليف Belev وبلخوف Bolkhov حتى لحق بهم رسول خاص من القيصر يرجوهم الرجوع إلى موسكو للاشتراك فى مؤتمر كنسى خاص لم يكن فى الوسع تأجيله ، وبهذا لم يستطيعوا مغادرة موسكو للمرة الثانية وبنفس الطريق إلا فى يوم الثامن والعشرين من مايو وبلغوا الحدود عند بوتيڤل فى يوم ١٢ يونيو ١٦٥٦ ، وفى الثامن والعشرين من نفس الشهر دخلوا كييف . وبعد أن أمضوا بها أسبوعين تابعوا سيرهم فى بلاد الأوكراين بطريق آخر وقابلوا خميلنتسكى للمرة الثانية فى السابع والعشرين من يوليو ببلدة تشيغيرين Chigirin ، وفى الخامس عشر من أغسطس اجتازوا الحدود إلى ملداڤيا عند بلدة راشكوف نفسها . وهنا امتدت إقامتهم فى ملداڤيا وولاخيا فى هذه المرة إلى مايقرب من عامين فلم يستطيعوا مغادرتها إلا فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٦٥٨ عندما أبحروا من غالاتز Galatz على نهر الدانوب فخرجوا إلى البحر الأسود ثم مروا على ورنة Varna ومضيق القسطنطينية إلى أن بلغوا سينوب بآسيا الصغرى بعد إبحار استغرق خمسة وثلاثين يوماً . ومروا على طوقات وسيواس ومرعش إلى أن بلغوا طريقهم الأول فسلكوه حتى دخلوا حلب أخيراً فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أبريل ١٦٥٩ ومنها إلى «كرسى البطركية» مدينة دمشق فدخلوها فى اليوم الأول من يوليو ١٦٥٩ .

691 وطريق سير رحلة مكاريوس الأولى معروف لنا جيداً من الوصف المفصل الذى تركه لنا بولس الحلبى ، غير أن الوضع يختلف فيما يتعلق برحلته الثانية (١٦٦٤ ؟ - ١٦٦٩) ؛ وهى أيضاً قد شارك فيها بولس(٤٦) ولكنه توفى خلالها فى طريق عودتهم بجورجيا (بلاد الكرج) عام ١٦٦٩ . ولاشك أنه قد دون مذكرات عنها ولكن الأجل عاجله من أن يصوغها فى صورتها النهائية ، كما وأنه لم يعثر لها على أثر حتى الآن ؛ أضف إلى هذا أن مكاريوس نفسه قد ترك لنا كما هو ديدنه بضعة فصول متفرقة على شكل مسودة لم يبيضها . ولاعلم لنا بالظروف التى استدعت هذه الرحلة الثانية إلى روسيا بخلاف الحاجة المعتادة إلى جمع التبرعات ؛ ومن المحتمل أنه قد وجهت إليه دعوة صريحة للاشتراك فى المجمع الذى عقد لبحث محاكمة البطريرك نيكون . هذا وقد ظل البطريرك مكاريوس على صلته الوثيقة بموسكو ، ونحن

لعلم عن طريق المصادر الروسية أنه قد بعث فى عام ١٦٦٢ بأرشمندريته Archmandrite ناوفيطس Neophite الذى جمع من الهدايا ما يعادل خمسمائة روبل(٤٧) : وفى رحلته الثانية صحب مكاريوس بطريرك الإسكندرية بابيس .

وقد أخذت الرحلة فى هذه المرة الطريق الذى اعتاد المسافرون أخذه عندما يريدون تحاشى القسطنطينية وسواحل البحر الأسود الجنوبية والغربية ، أى طريق القوقاز وجورجيا إلى استراخان ثم يتجهون مصعدين على نهر الڤولجا إلى موسكو ؛ وهذا هو نفس الطريق الذى رجع منه أرسينى سوخانوف . وحتى فيما يتعلق بهذا الطريق فلم يكن مكاريوس أول من سلكه من العرب المسيحيين ، فقبل ثلاثين عاماً من هذا وذلك فى السنوات ١٦٣٠ — ١٦٤٠ أخذ هذا الطريق إلى جورجيا باخوم أسقف صيدنايا (قرب دمشق) كما يروى مكاريوس نفسه فى أحد مصنفاته(٤٨) . ويلوح أن العرب كانوا على معرفة جيدة بجورجيا ، وفى بداية القرن الثامن عشر عندما زارها مطران معلوله (بلبنان) لم يرغب فى الرجوع إلى وطنه « لكبر سنه » وذلك على الرغم من أن البطريرك الأنطاكى بعث وراءه برسولين خاصين كما يتضح لنا من منشوره لعام ١٧٢٤(٤٩) . ولسنا نعرف العام الذى بدأ فيه مكاريوس رحلته هذه المرة ؛ غير أنه كان بجورجيا على أية حال فى عام ٧١٧٣ (١٦٦٥) كما يذكر ذلك بولس فى إضافاته إلى وصف الرحلة الأولى(٥٠) ، بل وربما قبل ذلك فى عام ١٦٦٤ كما يتضح من كتابته على مخطوطة باللغة الكرجية تم الكشف عنها بتفليس منذ عهد غير بعيد . على أية حال فإنهم بلغوا استراخان فى ٢١ يونيو من عام ١٦٦٦(٥١) وشاركوا فى الاحتفالات بإقامة مطرانية بها . وفى السابع من يوليو غادرها مكاريوس ماراً فى طريقه على تشورنى يار Cherny Yar وتسارتسن Tsaritsyn* وساراتوف Saratov وسمبيرسك Simbirsk** ، وارزمس Arzamas ومورم Murom ؛ وفى الحادى والعشرين من أكتوبر مر على ڤلاديمير Vladimir إلى أن دخل موسكو فى اليوم الثانى من نوفمبر عام ١٦٦٦ . وفى ديسمبر من نفس العام حدثت محاكمة نيكون ، غير أن المجمع واصل نشاطه خلال عام ١٦٦٧(٥٢) فلم يتأت لمكاريوس مغادرة موسكو قبل العشرين من يونيو عام ١٦٦٨(٥٣) بعد إقامة استغرقت عاماً ونصف عام فى هذه المرة أيضاً ؛ وفى عودته أخذ نفس الطريق الذى سلكه فى المجىء فبلغ استراخان(٥٤) فى العاشر من أغسطس وغادرها فى أوائل سبتمبر . وكانت رحلة العودة غير موفقة فى هذه المرة فقد تعرض هو ومن معه فى شماخه لابتزاز أموالهم بل ونُهب الخان الذى كانوا يقيمون به ؛ وفى الرابع من فبراير عام ١٦٦٩ فقط أبلغ فى خطاب له

692

* هى التى أصبحت فيما بعد استالينغراد Stalingrad ذات الشهرة الكبرى فى الحرب العالمية الثانية ، ويطلق عليها حالياً اسم ڤولغوغراد Volgograd . (المترجم)

** يطلق عليها الآن أوليانوف Ulyanov نسبة إلى اسم أسرة لينين Lenin ، لأن الزعيم السوفيتى من مواليد تلك المدينة . (المترجم)

بعث به إلى يوساف بطريرك موسكو عن وصولهم إلى ايڤريا Iveria . وفى الثانى والعشرين من يونيو من نفس العام كتب إليه من تفليس(٥٥) قاصاً عليه تفاصيل الكوارث التى حلت به وفقدانه لجميع مقتنياته ووفاة ابنه بولس(٥٦) . ولم يحدد مكاريوس فى خطابه تاريخ وفاة ابنه على وجه الدقة ، وقد أخذ بعض البحاثة سهواً تاريخ الخطاب على أنه تاريخ الوفاة(٥٧) ؛ وهو يختم خطابه هذا بنغمة حزينة ودعوة إلى مديد المساعدة ، ولعل هذا يفسر الإشارة الموجودة بالمصادر الروسية عن إرسال هدايا إليه قيمتها مائتا روبل مع الهيروردياكون (Hierodiacon) مليتى Meleti (٥٨) . ولكن أغلب الظن أن موسكو لم تكن قد علمت آنذاك بالكوارث التى حلت به فى القوقاز واعتقدت أنه عاد إلى وطنه سليما معافى ؛ وعلى أية حال فقد بلغ مكاريوس أرض الوطن فى عام ١٦٦٩ نفسه وليس بعد عام ١٦٧٠ بأية شكل إذ يوجد خطاب بعث به من دمشق إلى موسكو يحمل تاريخ ٣٠ آغسطس ١٦٧٠(٥٩). هذا وقد استمرت علاقته قائمة مع موسكو ، ففى عام ١٦٧١ أرسلت إليه مع مطران صور وصيدا الذى كان قد بعث به إلى هناك ثلاثمائة قطعة من الذهب الخالص ومن فرو السمور ما تبلغ قيمته سبعمائة روبل(٦٠) ؛ وقد توفى مكاريوس الأنطاكى فى العام التالى لهذا وذلك فى الثانى عشر من شهر يونيو سنة ١٦٧٢ أى بعد ثلاثة أعوام من وفاة ابنه ومدون رحلته بولس الحلبى .

وكما رأينا فقد سبقهم إلى السفر إلى بلاد روسيا النائية نفر من مواطنيهم ، غير أن هذا لايعنى فى شيء أن وصف بولس الحلبى لرحلتهم إلى روسيا له أدنى ارتباط بتقاليد الأدب الجغرافى . ومن الطبيعى أن خط الاتجاه الإسلامى فى هذا الميدان كان غريباً عليه بل وأغلب الظن مجهولا منه على الإطلاق ، كما أن الاتجاه المسيحى كان يفتقر بدوره إلى نماذج مكتملة فى هذا الصدد تصلح لأن تكون قدوة لغيرها . ورغماً من هذا فمن الملاحظ أنه قد ارتبط برحلة يواكيم المذكور مصنف ينقل عنه بولس مراراً ولو أنه ينتمى إلى طراز وموضوع مغاير تماماً ، فقد صحب هذا البطريرك قس غير معروف لنا عن كثب يدعى عيسى وترك لنا قصيدة فى وصف تلك الرحلة . ومما يؤسف له أن معرفتنا بهذا الوصف تقتصر على إشارات بولس إليه وهى التى تعتمد عليها جميع الروايات التى يوردها الآخرون(٦١) ؛ أما المؤلف نفسه فلاتوجد بين أيدينا أية معلومات عنه | ، غير أن صياغة الموضوع نظماً ثم وقوع ذلك فى النصف الثانى من القرن السادس عشر كل هذا يغرى بالافتراض بأن « القس عيسى » إنما هو نفس « القوّال [أى القاص] عيسى المزار » الذى تمتع فى ذلك الحين بشهرة واسعة فى سوريا وذلك « بأناشيده » الدينية باللغة العامية(٦٢) . غير أنه حتى فيما يتعلق بهذا الأخير فإن معلوماتنا مضطربة للغاية ، فضلا عن أن إثبات مثل هذا الفرض يحتاج بدوره إلى مزيد من الوقائع والمواد التى يمكن الثقة فيها . امكن مخطوطات « قصائده » التاريخية التى تصف الرحلة والتى ترتفع على ما يبدو إلى مصدر واحد معروفة لنا ، ولو أن التعليقات عليها فى فهارس المخطوطات المختلفة نزرة للغاية . واثنتان من هاته المخطوطات موجودتان ببيروت وتبدو عليهما الجدة ، وأصلهما من

693

حلب وهو أمر لايخلو من مغزى[٦٣] . والأب شيخو فى موقفه المعتاد من مؤلف ملكى (Melkite) يصف المصنف بأنه « وصف عادى للغاية لكنائس وأديرة روسيا وبلاد الإفلاخ » (Description très banale des églises et des couvents de Russie et de Valachie) ، ولا يعبأ بأن يضيف إلى هذا أنه قد نظم شعراً . وفى مجموعة أخرى شبيهة لهذه من حيث مضمونها توجد « قصيدة » فى مخطوطة باريسية ، غير أن معلوماتنا عنها مع الأسف ليست أكثر من معلوماتنا عن تلك[٦٤] ؛ ووفقاً لملاحظة شيخو فإنها لاتشغل أكثر من خمس صفحات أى أن حجمها ضئيل للغاية ، ولكن الاقتباسات التى نقلها عنها بولس ترجح أن شيخو قد جنح فى حكمه عليها نحو التشكك هذا على الرغم من أن بولس نفسه يقف من الأثر موقفاً لايخلو من النقد ويقول إنه كان يحمل هذه القصيدة معه أثناء الرحلة ويستنزل « المغفرة » للشماس « كلما قرأنا قصيدته » . وهو محق فى ملاحظته التى يقول فيها « لا أستطيع أن أقول أنا العبد الفقير إننى فقت كثيراً وصفه ، إذ أنه لم يضع أكثر من كراسة بينما وضعت أنا كتاباً ضخماً »[٦٥] . وقد تتجه انتقاداته أحياناً صوب التفاصيل ، فهو عند كلامه عن مجمع أوسبنسكى Uspenski يسوق فقرة منه يتحدث فيها عن « محاسن تلك الناحية » ، ويصفها بأنها مقتضبة للغاية مضيفاً فى ذات الوقت بطريقة لايخلو من السخرية أنه « لم يبق عمود من عظام السلاحف أو غير ذلك لم يصفه بدقة حتى لاتفقد القصيدة وزنها »* . ولكنه لايلبث أن يستدرك على هذا سريعاً بقوله إنه لايريد توجيه اللوم إليه بل يريد أن يبين أنه « وصف جميع ما رآه بعينى رأسه وصفاً دقيقاً بحيث يستطيع القارئ أن يتصوره فى ذهنه وكأنما رآه بعينى رأسه » . أما الاختلاف فى الوصف بينهما فيرجعه بولس بكل بساطة إلى أن عيسى قد زار روسيا عندما كانت دولتها ضعيفة « أما نحن فقد وصلنا فى الوقت الحاضر الذى بلغت فيه دولتها أعلى مراتب الغنى والرفعة »[٦٦] .

694 ومما يقف دليلا على أن وصف عيسى كان فى بعض نقاطه مفصلا ومسهباً بما فيه الكفاية تلك الشذرات التى نقلها عنه فى كلامه عن مجمع ارخانغلسك Arkhangelsk (اركانجل Archangel)[٦٧] وعن الجرس الكبير[٦٨] ، ولكن حتى فى هذه المواضع فإن بولس يسوق أحياناً بعض التصحيحات فى الوقائع[٦٩] . ومما يقف دليلا على أنه لم يقصر كلامه كما يقول شيخو على وصف الكنائس والأديرة ملاحظاته عن سياسة التتار والليه** Leh ، الأمر الذى يبصر فيه بولس ضرباً من التنبؤ فيما يتعلق بحوادث عصره[٧٠] . وبولس بوجه عام محق فى موقفه ، ومن العسير مقارنة كتابه « بقصيدة » عيسى ليس من حيث الحجم فحسب بل وأيضاً من ناحية المادة التى يحتويها بين دفتيه ودقتها الكبرى . وقد عانه على هذا طول المدة التى قضاها هناك ، وشتان بين عامين وشهرين ، أضف إلى هذا أن بولس

* مما يؤسف له أن المتن الأصلى غير موجود بين أيدينا بصورة تسمح لنا بإيراد ألفاظ المؤلف كما دونها حتى يمكن فهم هذه الإشارة الغامضة . (المترجم)

** الاسم الذى كان يطلق فى شرق أوروبا وفى الدولة العثمانية على البولنديين . (المترجم)

قد عرف اللغة الروسية معرفة لا بأس بها إبان هذه المدة بحيث لم يكن فى حاجة إلى مساعدة الغير . وفى العادة لجأ مكاريوس وبولس إلى التحدث باللغة الإغريقية التى تعودا على استعمالها بالتدريج أثناء رحلتهما ، وفى حالات نادرة استعملا اللغة التركية ولكن بطريقة مستترة مثال ذلك حين محادثتهما مع تتار سيبريا[٧١] ومن المحتمل مع أمير قاسموف* أيضاً ولو أن الأخير كان يستطيع القراءة بالعربية كذلك[٧٢] . وهما بوجه عام قد تحاشيا استعمال اللغة التركية التى كانت تثير الريبة والازدراء فى نفوس المسكوف لاقترانها على الدوام فى أذهانهم بالإسلام والأتراك .

ونادراً ما حدث لرحالتينا أن تحدثا بلغتهما الوطنية باستثناء حالة واحدة تتميز بالكثير من الطرافة ؛ فقد بلغ أحد بنى وطنهم مرتبة الرئاسة فى دولة المسكوف حتى أصبح حاكماً (ڤويفودا Voevoda**) على كاشيرا Kashira وكولومنه Kolomna وسربوخوف Serpukhov ؛ وأصل هذا الرجل من دمشق وكان قد أخذه معه وهو صبى أحد الباشوات إلى حلب ومنها إلى القسطنطينية وأهداه عبداً رقيقاً إلى السلطان محمد الثالث . وفى أثناء الحملة على بلاد الفرس فى عام ١٦١٦ وقع فى الأسر ولكنه تمكن من الهرب ، ثم شغل مناصب مختلفة بالدولة العثمانية حتى أصبح حاكماً لمنطقة حماة بسوريا ونابلس بفلسطين بل إنه ترأس فى إحدى اللحظات إمارة قافلة الحاج الدمشقية . وأثناء حملة العثمانيين على بولندا فى عهد السلطان عثمان الثانى (١٦١٨ — ١٦٢٢) وقع مرة ثانية فى الأسر ولكنه هرب إلى كييف فى بادئ الأمر ثم التجأ إلى القيصر ميخائيل فيدوروفتش واعتنق المسيحية والتحق بخدمته . ويذكر عنه بولس أنه كان يجيد العربية[٧٣] وأنه عند نهاية رحلتهم كان قد تم تنصيبه حاكماً على كاشيرا للمرة الثانية[٧٤] ، وكان معهوداً فيه العدل والصدق .

ولم يوجد بين المترجمين الذين عملوا بدولة المسكوف آنذاك شخص يعرف العربية ، ويقول بولس فى هذا الصدد إنه «كان يوجد ببلاط القيصر | سبعون مترجماً يعرفون جميع اللغات ماعدا العربية »[٧٥]. 695 غير أن الأمر لم يخل من حالات استثنائية « فلدى القيصر عدد من الأسرى يقومون بالترجمة . وأحد هؤلاء كان يعرف اثنتى عشر لغة من بينها العربية فى لهجة مصر والتركية واليونانية والإفرنجية ولكنه من أصل موسكوفى[٧٦] » . وقد استطاع بولس نفسه فى أواخر أيام إقامته أن يتخاطب باللغة الروسية بطلاقة حتى أن البطريرك ونائب القيصر وبقية «الوزراء» ، على حد تعبيره ، قد طلبوا إليه أن يبقى بين ظهرانيهم مترجماً للغة العربية[٧٧] . وبالطبع فقد قيل هذا على أغلب الظن من قبيل المزاح ولكنه يبين على أية حال كيف بز بولس جميع الأجانب بالتقريب الذين زاروا روسيا .

* مدينة بمقاطعة بنزا Penza كان أمراؤها من التتار الخاضعين لقياصرة المسكوف . راجع المقال المنشور بدائرة المعارف الإسلامية . (المترجم)

** وقد عربها بولس هكذا « فويفوضا » ، وهو حاكم المقاطعة الذى يمثل القيصر . (المترجم)

وإن ما تنفرد به معلومات بولس من استقلال وأصالة لايقل شأناً عما انفرد به هو نفسه من أصالة واستقلال من حيث الاتجاه الأدبي ، وقدعاون هذا إلى حد كبير فى أن يسبغ على وصف الرحلة طابعاً من الأصالة والحيوية والسلاسة . فهى تمثل تدوينات مباشرة لانطباعاته الشخصية يوماً عن يوم ولم يكن قد أعاد النظر فيها على الدوام ، ولعله يجب أن نبصر شيئاً من التحايل الأدبى لديه عندما يذكر فى مقدمة مصنفه أنه أخذ فى تدوين مذكراته تحت إلحاح وإصرار من جانب صديقه الشماس جبرابيل قسطنطين رغماً من إحساسه بما يحيط بهذه المهمة من عناء ومشقة[٧٨] ؛ وهو قد عاد إلى الكلام عن هذا أكثر من مرة خلال كتابه* . غير أنه لاسبيل إلى إنكار واقعة هذا الإلحاح من جانب صديقه ، خاصة وأن الشماس جبرابيل شخصية تاريخية عاشت فعلا فهو من أسرة الصابغ التى اكتسبت الشهرة فى ميدان الأدب[٧٩] .

هذا وقد بدأ بولس فى تسجيل مدوناته منذ اليوم الأول للرحلة ولم ينقطع عن ذلك إلى لحظة رجوعه إلى أرض الوطن ، وأخذت هذه المدونات تتجمع بالتدريج كما وأن إقامته الطويلة فى بعض المواضع قد سمحت له لا بنسخ عدد من المخطوطات التى حفظ لنا بعضها بل وبتنظيم « الأوراق المبعثرة » أيضاً .

أما تبييض المادة فقد بدأ فيه قبل قليل من مغادرته لموسكو فى فبراير من عام ١٦٥٦ وسار قدماً فى هذا حتى بلغ فيه بالتقريب إلى ما قبل عام من ذلك التاريخ[٨٠] . وهكذا تشكل شىء أشبه ما يكون بمسودة أولية للرحلة يبدو أنها كانت موجزة بعض الشىء ؛ بل إن بولس نفسه كان رأيه فيها كذلك وكان يأمل أن يعيد صياغتها وتوسيعها عند رجوعه إلى أرض الوطن[٨١] . وقد حقق هذا الأمل فخرجت المسودة الثانية أوسع بكثير من الأولى ولابد أنه أكملها قبل خروجه فى رحلته الثانية إلى « المسكوف » | ،غير أن العمل فيها لم يتوقف عند ذلك الحد فقد ظل بولس يضيف زيادات إلى الكتاب فيما بعد حتى فى خلال رحلته الثانية وإقامته بالقوقاز كما يذكر هو بنفسه[٨٢] ، أى أنه بمعنى آخر كان يفعل ذلك إلى ما قبل وفاته عام ١٦٦٩ بقليل . وليس من العسير أن ندرك من هذا أن التاريخ الأدبى للأثر معقد بما فيه الكفاية ، فأمامنا على الأقل مسودتان للكتاب هما المسودة القصيرة أو الأولى والمسودة الكبيرة التى أضاف إليها بولس

696

---

* رأيت من الأفضل أن أسوق ألفاظ بولس فى هذا الصدد توضيحاً للمتن الروسى ورغبة فى إعطاء القارئ فكرة عن أسلوبه فى الكتابة العربية . قال :

« رغب إلى . . . . أن أجمع تاريخاً يتضمن حال سيرنا وذهابنا يوم فيوم كافة مدة غيابنا وأوصف محرراً جملة أمور البلاد التى نجوزها ليتحقق عند الكافة ما يسمع عنها من إشارات الأحاديث ورموزها فاعتذرت إليه أننى لست كفواً لهذه الصناعة سيما وأنا معوزا مما يناسبها من البضاعة أعنى من ترتيب تنميق الأقوال وإعراب الكلام ومن حسن تركيب الألفاظ كأهل هذا الفن السادة الكرام وسألته أن يعفينى مما لا يستطاع سيما إذ نحن سايرين بكد وإسراع فلم يقبل منى هذا الاعتذار وألح على بالمطلوب وواظب التكرار فانتهزت حينئذ همتى الثائرة ومددت للمقصود يدى القاصرة لالكى أنتظم فى جريدة المؤرخين ولكننى ابتغيت إثبات أمور كثيرة كانت تنكر على الناقلين ولم يكن أحد يصدقها ويظن أن كاتبها وناقلها لغواً ينمقها إلى أن تحققت ما بالنظر شاهدته وسماعاً صحيحاً سمعته وثبتت عندى صحته ليس البعض منه لكن الجميع بجملته أى ما لاحظته رؤية العين حتى ذهبنا إلى بلاد المسيحيين واتضح لنا ساير ما سنذكره اعنى كلما ثبت عندنا فى مسافة الطريق وإقامتنا هناك إلى أن عدنا إلى بلادنا » . (Radu, p. 21) . (المترجم)

تعليقاته على مدى عشر سنوات . وإلى جانب هذا فمن الممكن بالطبع وجود مختصرات ومسودات وروايات مصلحة عديدة قام بها أشخاص آخرون ، إما أثناء حياة المؤلف أو بعد وفاته ؛ وبهذا فقط يمكن تفسير الاختلاف بين مخطوطات الكتاب المعروفة حتى الآن والتي لم يمكن حتى هذه اللحظة كما سنرى تحديد نوع العلاقة التي تربط كل واحدة منها بالأخرى .

ولغة بولس الكتابية لا يمكن أن نحكم عليها بالطبع إلا على ضوء المستوى العام للأدب العربي المسيحي فى ذلك العصر ؛ وهذا المستوى لم يكن فى الحقيقة عالياً . ولقد أبصرنا من مثال إلياس الموصلي أنه حتى من بين المسيحيين المتكلمين باللغة العربية والذين ولوا وجوههم شطر الغرب وكانت لهم صلة أكبر بالمذهب العربي القديم بل ونالوا قسطاً من التعليم المدرسي المنتظم ، فإنه لم يوجد من بلغ شأواً كبيراً فى إجادة لغة الأدب ، وفى الواقع أن « النهضة » الأدبية بين العرب المسيحيين لم تبدأ إلا بعد قرن من ذلك وارتبطت ارتباطاً كبيراً بنشاط مارونى من أهل حلب هو جرمان فرحات الذى ولد (فى عام ١٦٧٠) بعد عام من وفاة بولس وقبل عامين من وفاة مكاريوس ، أما الوسط الذى ينتمى إليه الأخير فقد اعتمد على نفسه اعتماداً تاماً ولم يتوقع أية معونة فى ناحية التعليم من أية جهة . واعتماداً على عدد من القرائن نستطيع أن نفترض كما حدث من قبل أن بولس يقف من حيث ثقافته فى مستوى أعلى من مكاريوس ، ولو أن هذا لم يبلغ القدر الذى يسمح له بأن يحس من نفسه الانطلاق التام فى اللغة الأدبية . ومما لا شك فيه أنه اطلع على بعض مؤلفات الكتاب المسلمين إذ توجد لديه مثلا إشارات إلى تاريخ ابن تغرى بردى [٨٣] ، ولكن هذا الاطلاع لم يصل به أو بأبيه إلى تملك ناصية اللغة الأدبية المتداولة فى العالم العربي كما أنه هو نفسه لم يجهد فى أن يكتب بتلك اللغة الأدبية ، أما النموذج الذى اقتدى به فى كتابته فهو الأدب الديني الذى ساد بين المسيحيين العرب فى ذلك العصر ، ويمكن القول بأنه التزم ذلك النموذج بصورة مرضية . ومن الملاحظ أنه عندما يكتسب لديه العرض حيوية أكثر وقرباً من الواقع فإن بولس لم يستطع التزام ذلك النموذج بل انتقل إلى لغة الحديث اليومية ، وينعكس هذا لديه لا فى تركيب الجمل وحدها بل وكثيراً جداً فى النحو . ولغته مشحونة بالألفاظ المحلية والعامية ، وفى هذا تكمن قيمته الكبرى لأنه يقدم لنا فكرة عن أسلوب لغة الكلام فى ذلك العصر ولو من خلال تدوينها بحروف الكتابة العربية على ما عهد فيها من عسر ووعورة ؛ ومن ناحية أخرى فإن هذا يتضمن عدداً من الصعوبات ليس بالقليل إذ يجب لتفهم لغته أن يكون القارئ على معرفة ما باللهجة العربية السائدة بسوريا . وأسوأ من هذا فإن لغة بولس تعكس بعض علامات النثر المتكلف التى يعتبر مثلها الأعلى هو السجع ؛ وهو يلجأ إلى استعمال ذلك فى استطراداته العديدة أو فى المناسبات الخاصة بإصرار شديد ، مما يثير فى نفس القارئ أحياناً الشعور بالسخط والميل إلى الضحك والتندر . وسجعه مزود بالصور المحلية ويقدم صورة لا تتفق مع الواقع فى شيء ، هذا فضلا عن أنه قد جنى

697

على أسلوبه العادى ولم يبلغ ما أراده منه المؤلف . ويقدم لنا حبيب الزيات أمثلة ناصعة لهذا[٨٤]* ؛ ويجب أن نأسف من ناحيتنا لأن بولس لم يتقيد على الدوام بحدود الإطار العام للغة المتداولة آنذاك والتى تمثل بالنسبة لنا شيئاً له قيمته ، وعلى أية حال فإنه لم يكن الملوم فى هذا إذ غلبت عليه روح العصر الذى عاش فيه .

وليس هنا مجال الحديث عن قيمة الأثر من وجهة النظر الجغرافية بالمعنى العريض وذلك وفقاً لمحتوياته ومادته الواقعية إذ توجد فى هذا المجال دراسات عديدة ، خاصة باللغتين الروسية والرومانية ، ثم باللغة العربية أيضاً فى الأعوام العشرة الأخيرة . ومما يؤسف له أنه لايوجد بحث يلخص لنا تلك الأبحاث ولو باللغة الروسية ، بل إن مصنف غولوسوف A. Golosov (١٩١٦) الذى ظهر بهذه اللغة الأخيرة لم يستكمل فضلا عن أنه لايمكن اعتباره بحثاً علمياً جاداً[٨٥] . وقد تجول مكاريوس فى مناطق لم تجد فى هذا العصر صدى فى الأدب العربى المعاصر له ، وفيما عدا آسيا الصغرى التى لم تكن معرفة العرب بها ضئيلة فإن بلاداً كمولداڤيا وولاخيا والأوكراين لاتجد فى موضع آخر وصفاً مفصلا كهذا يشمل أحياناً استطرادات هامة من محيط الماضى . ونظراً لسير الرحلة البطىء والأمد الطويل الذى استغرقته فقد مكن هذا رحالتنا من أن يتعرف عن كثب على الشخصيات الكبرى لعصره مثـــل الآتمان (Hetman) خميلنتسكى والقيصر الكسى ميخايلوڤتش والبطريرك نيكون ، وذلك دون حاجة إلى ذكر عشرات الشخصيات الأقل أهمية من هؤلاء والتى كان لها دور كبير فى مختلف الميادين . كما وأنه كان شاهداً لحوادث تاريخية خطيرة مثل اتحاد الأوكراين مع روسيا والحرب ضد بولندا وابتداء حركة « أهل العقيدة القديمة » (Old - believers) واستشراء الطاعون (plague) . وبهذا يمكن القول بأن كتاب بولس الحلبى ليس أقل أهمية كمصدر تاريخى منه كمصدر جغرافى بالنسبة للتاريخ السياسى والروحى لعصره .

وبالطبع فيجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذا الجانب لم يشغل المكانة الأولى بالنسبة للمؤلف ، فهو

---

* جاء فى مقال حبيب الزيات المومأ إليه فى وصف أسلوب بولس ما نصه : « وكان أقصى همه الإكثار من التزويق والتنميق كلما وجد إليهما سبيلا دون أقل مراعاة منه لمقتضى الحال . وكان ككثير من كتبة زمانه المتحذلقين يرى أن الفصاحة قائمة فى الاستزادة من المترادفات وتكرار المعنى الواحد بألفاظ مختلفة لغير حاجة سوى المباهاة بكثرة المحفوظ منها ، وأن البلاغة الحقيقية منحصرة فى التزام الأسجاع فى كل معنى ولو بمخالفة كل ذوق وقياس . ولذلك جاء منها بالثقيل البارد ودسها بين كل سدى ولحمة وأطال بها ذيل رحلته بما كدر صفوها وجمل المطالع والناقل لها يتبرم منها ويحرج صدراً بكثرة اللغو والتكرار والفارغ وغلبة اللحن والسقط فيها ، فضلا عن اعتراض بعض الألفاظ العامية والمصطلحات الحلبية الدخيلة من التركية وهى ما لا يتهيأ فهمها وإدراك معناها الصحيح لكل أحد ممن حاول ترجمتها لقلة ألفته بها وعدم ورودها فى المعاجم . وقد وقفنا على بعض صفحات نقلت إلى الفرنسية من الترجمة الروسية بقلم وطنينا المرحوم جرجى مرقص الدمشقى فوجدناها لا تتبرأ من الوهم والخطأ فى بعض مواضع تصحف فيها الأصل عليه أو أساء فهمها فأساء تأديتها . فما الظن بغيره من النقلة الأجانب ؛ ومن بعض الأمثال على ولع الشماس بالمترادفات لغير طائل قوله فى كلامه . . . . . وأما السجع فقد بلغ به أنه التزمه فى كل مقام ومقال حتى فى حكاية بعض الأخبار التافهة وسرد بعض الأرقام أو فى تاريخ الأيام بما لا محل لأقل تأنق فيه . وربما خالف من أجله كل قياس كقوله . . . . » (المترجم)

قد كان محصوراً بشكل خاص فى وسط بلاطى وإكليروسى صرف لذا فقد تركز اهتمامه الرئيسى على الحياة الدينية ، أى بالذات ذلك الميدان الذى كان مقفلا وعسير الاتصال بل وأكثر من ذلك غير مفهوم بالكلية بالنسبة للرحالة العرب الذين زاروا روسيا . وفى هذا الصدد فإن « سفرة » أو « رحلة مكاريوس » أثر فريد فى نوعه بالرغم من مجاله الضيق المحدود الذى لايضم جميع جوانب الحياة الكنسية نفسها . ولايزال بعض المادة محتفظاً بقيمته إلى أيامنا هذه ، مثال ذلك رواية بولس المسهبة عن المسائل المتعلقة بالآثار الكنسية وهى فى هذا تمثل أهمية فى المكانة الأولى بالنسبة لتاريخ الفن الروسى القديم . وفى كلامه لايقتصر بولس على المعمار وحده بل يقدم لنا وصفاً مفصلا للكنائس وأبراجها ، كما أن نفس القدر من الاهتمام يوليه أيضاً للكلام على الايقونغرافيا (Iconography) فيحلل بالتفصيل الميزات الهامة لفن التصوير بروسيا الجنوبية ويبدى نفس هذه الدقة فى وصفه للرسوم المصورة على الجدران والتى سلبت لبه بشكل خاص ؛ ورواياته فى هذا المجال تمثل بالنسبة لآثار عديدة أهمية تاريخية عظمى بل وأحياناً تعد الشاهد الوحيد على مجرد وجود تلك الآثار .

698

وتمثل روايات بولس المفصلة عن طقوس الخدمة الدينية (Liturgy) فى الحياة الكنسية أهمية كبرى ، وهنا لايقتصر كلامه على العبادة بالمعنى الضيق لهذا اللفظ بل يمس أحياناً مسائل التلاوة والترتيل والإنشاد التى بدت لهم مختلفة تمام الاختلاف عما عهدوه بأرض الوطن . لاشك أن إقامتهم الطويلة بروسيا كانت فى صالح الدقة واكتمال الوصف ؛ فنى أثناء وجوده بموسكو تمكن بولس من أن يراقب بدقة لا الخدمات الدينية المعتادة كالعبادات التى تستمر الليل بطوله بل وأيضاً مجموعة الطقوس المتعلقة بالصيام الأكبر وعيد الفصح ، هذا إلى جانب عدد عديد من المناسبات الدينية النادرة ابتداء من الطقوس السرية إلى تتويج الملوك ؛ وقد أبصر هذه الأخيرة عند انتخاب أمير (Hospodar) ولاخيا (الأفلاق) الجديد . أما فيما يتعلق بالأناشيد الكنسية فقد عالج بولس الكلام عليها بالتفصيل ، أضف إلى هذا أنه كان لمكاريوس صلة مباشرة بها ؛ ذلك أن هذه كانت واحدة من المشاكل الدينية فى ذلك العصر التى أثارت الخواطر فى كل من دولة الموسكوف وأكرانيا ؛ ويوجد توقيع مكاريوس على منشور إدخال الغناء الجماعى فى الأناشيد الكنسية بروسيا ، وهو ذلك المنشور الذى تم طبعه فى عام ١٩١٥ . ويرتبط هذا المنشور بالرحلة الثانية لمكاريوس إلى روسيا ، وهى الرحلة التى قام بها بمناسبة انعقاد مجمع عام ١٦٦٦ — ١٦٦٧[٨٦] .

ومما لاشك فيه أن عدداً من التفاصيل التى يوردها بولس ذات أهمية محدودة ولاتهم سوى المتخصصين فى ميادين معينة ، وإذا حدث وأن لاحظنا لديه ميلا إلى المبالغة فى وصف جوانب معينة من الحياة فيجب ألا يغيب عن بالنا أن عرضه يقوم على قاعدة عريضة ويعكس جميع دلائل الواقعية وذلك فى أسلوب طليق لامحل فيه للصنعة والتكلف ؛ وهو وإن أظهر بعض السذاجة إلا أنه أسلوب مباشر ولايخلو أحياناً من أثر المرح . وفى هذا تكمن قيمة ذلك الأثر بوجه عام ؛ وهو وإن لم يمثل مصنفاً ممتازاً من حيث القيمة

الأدبية إلا أنه يشغل مكانة جديرة به ويمكن الاعتراف به كمصنف أصيل لايفتقر إلى الأهمية بأية حال .

ودراسة هذا الأثر سواء من الناحية اللغوية أو من حيث تحليل مادته الواقعية أبعد بكثير من أن تكون قد استوفت حقها ، بل على العكس من ذلك فإنها لم تتجاوز فى الناحية الأولى خطواتها البدائية . ويمكن إرجاع هذا من جانب إلى أن أوروبا لم تتعرف على مخطوطات الأثر إلا مؤخراً ، فقد عرفت أولى مخطوطاته فى السنوات العشرينات من القرن التاسع عشر وهى تلك المحفوظة بالمتحف البريطانى وتحمل تاريخ ١٧٦٥ ؛ 700 وقد تم اقتناؤها بحلب فى عام ١٨٢٤[٨٧] ولعبت بالتالى دوراً كبيراً فى التعريف بالكتاب إذ اعتمدت عليها ترجمة بلفور F. C. Belfour التى ظهرت خلال الفترة ١٨٢٩ — ١٨٣٦[٨٨] والتى ترتبط بها جميع الدراسات بالتقريب التى ظهرت عن مكاريوس بما فى ذلك الدراسات الروسية المبكرة ؛ هذا وقد نشر قطعاً من تلك الترجمة بالمر Palmer وريدنغ Ridding بانجلترا بعد مائة عام من ذلك ، أى سنة ١٩٣٦ . وإلى بداية العشرينيات من نفس ذلك القرن ترجع معلوماتنا عن مخطوطة أخرى مكتوبة بالقلم الكرشونى (وهو كتابة اللغة العربية بالحروف السريانية) الذى كان يستعمله الموارنة ، وكان قد أبصرها سنكوفسكى فى عينطوره (بلبنان) مع أستاذه المارونى المعروف أنطون عريضة[٨٩] ؛ وليس فى الإمكان التثبت من صحة هذا الزعم إلى أيامنا هذه إذ لم يتم الكشف عن أى أثر لهذه المخطوطة حتى الآن .

أما فى روسيا فقد بدأت مخطوطات الكتاب فى الظهور منذ السنوات الأربعينات من القرن الماضى وذلك بفضل مجهودات شخصيات مختلفة جذبت الأنظار الى أهمية هذا الأثر بالنسبة لتاريخ بلادنا ، والنسخ الثلاث التى ترجع إلى تلك اللحظة قد نقلت عن أصل واحد يرجع تاريخه إلى عام ١٧٠٠ ووجد آنذاك بدمشق ، فالنسخة الأولى التى يرجع تاريخها إلى عام ١٨٤٧ كان يمتلكها القسم التدريسى بوزارة الخارجية الروسية وهى الآن بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية وتحمل رقم C. 751 ، أما الثانية التى ترجع إلى عام ١٨٤٩ فموجودة بالمكتبة العامة بلنينغراد ، هذا على حين تحتل نسخة عام ١٨٥٩ مكانها فى مكتبة الأرشيف الرئيسى لوزارة الخارجية السوفيتية وهى التى تعتمد عليها أساساً الترجمة الروسية التى ندين بها لقلم ج . ا . مرقص (١٨٩٦ — ١٩٠٠) . وفى نهاية القرن التاسع عشر وقعت إلى المكتبة الأهلية بباريس من مجموعة شيفير[٩٠] مخطوطة من هذا الكتاب غير مؤرخة وترجع دون شك إلى القرن السابع عشر ، وهى مكتوبة بخطين الرئيسى منهما يرى فيه البعض خط بولس نفسه[٩١] وهو أمر ليس بمستبعد ولو أن إثباته لايزال فى حاجة إلى بعض أدلة نهائية يمكن إجراؤها عن طريق المقارنة مع مكاتيب من تدوينه لا يرقى الشك صحة نسبتها إليه . وهذه المخطوطة الأخيرة هى التى جعلها أساساً لترجمته الفرنسية للكتاب العلامة الرومانى ن . رادو Radu الذى أخرج القسم الأول من هذا المصنف[٩٢] . وفى نهاية السنوات التسعينات من القرن الماضى جلب كريمسكى من سوريا نسخة لاتخلو من السقط لمسودة مختصرة وذلك مخطوطة ترجع إلى القرن الثامن عشر . وهذه المسودة المختصرة لاترتفع إلى بولس نفسه بل إلى

الجيل التالى له وقد قام أليسنتسكى Olesnitski بعمل مقارنة جزئية بينها وبين المسودة الأكمل ، كما أنه توجد ترجمة لها من عمل كزما T. G Kezma محفوظة بأكاديمية العلوم الأوكرانية . وبعد ثورة أكتوبر (البلشفية) وجدت طريقها إلى مكتبة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية مخطوطة عام ١٧٠٠ التى تحمل رقم B 1230 وهى المخطوطة الأم التى ترجع إليها المخطوطات الثلاث الموجودة كما لاحظنا بروسيا ؛ ولم تجر الاستفادة من هذه المخطوطة حتى الآن إلا بصورة ضعيفة بواسطة ب . رادو فى مقدمته لطبعته التى أومأنا إليها (١٩٢٧) . ويرجع الفضل إلى العلامة السورى قسطنطين الباشا فى التعريف بمخطوطة أخرى موجودة | بحلب يرجع تاريخها إلى عام ١٧٥٠[٩٣] ؛ وبحسب ألفاظه فهى تتفق أكثر شىء مع مخطوطة باريس . وهكذا من بين جميع هذه المادة تظفر بأهمية خاصة ثلاث مخطوطات فقط هى المخطوطة الباريسية ومخطوطة لينينغراد لعام ١٧٠٠ ومخطوطة لندن . ويعد رادو مخطوطة باريس أقيم هذه الثلاث وله بعض الحق فى هذا ولو أن مخطوطة لندن هى أكمل مسودة لهذا الكتاب ؛ غير أن المشكلة المتصلة بعلاقة هذه المخطوطات ببعضها البعض وأيضاً علاقة مخطوطتى كريمسكى وحلب بها تحتاج إلى دراسة لغوية تفحص جميع مادتها ؛ ولايمثل مجهود رادو Radu فى هذا الصدد سوى خطوة أولية فى هذا الاتجاه .

701

ونفس الحكم يصدق على دراسة الكتاب فى مجموعه إذ لاتوجد حتى الآن ترجمة كاملة له يمكن وصفها بأنها علمية ، كما لايوجد أيضاً بحث موجز يقدم لنا صورة عما تم إنجازه حتى هذه اللحظة فى دراسة الكتاب . وتعتبر ترجمة بلفور كما بينا أول محاولة لتعريف أوروبا بهذا الأثر . وقد اعتمدت عليها الأبحاث الروسية الأولى التى صدرت على هيئة ترجمات جزئية أومقالات متفرقة . وكان أول من عرف بها الروس هو تلميذ سنكوفسكى ، الأثرى وعالم النّميات (numismatics) المعروف ب . س . سافيلييف B. S. Saveliev الذى نشر قطعاً كبيرة منها فى «مكتبة المطالعة» Biblioteka dlia chtenia عام ١٨٣٦[٩٤] ، أى قبل أن تكتمل طبعة بلفور ؛ وقد جعلت ملاحظاته النقدية وتعليقاته من هذه المقالة واحدة من أقيم المقالات بالنسبة لذلك العصر المبكر . وانتعشت العناية بهذا الأثر فيما بعد فى السنوات السبعينات وظهر عدد من الترجمات والمقالات التى تعالج مسائل متفرقة وندين بها لأقلام روشينسكى L. P. Rushinski (١٨٧١)[٩٥] وبلاغوفو D. Blagovo (١٨٧٥ - ١٨٧٦)[٩٦] ، وأبولنسكى Abolenskj (١٨٧٦)[٩٧] ، وغير ذلك مما لاترتفع أهميته إلى ماكتب هؤلاء[٩٨] ؛ ومن الملاحظ أنهم اعتمدوا على ذات المصدر . وعلى أية حال فقد ظل بلفور المصدر الوحيد بالنسبة للمؤرخين الروس للتعرف على أسفار مكاريوس لحين ظهور أبحاث وترجمة البروفسور ج . ا . مرقص G. A. Murkos فى التسعينيات من القرن الماضى . ونفس الوضع ينطبق على العلماء الرومانيين ؛ ومن الطريف أن نلاحظ أن الترجمة الجزئية الأولى التى ظهرت باللغة الرومانية وهى التى قام بها نغروتسى

Negruzzi (١٨٦٢) إنما ترتفع إلى المقتطفات التى نقلها إلى الروسية ساڤيلييف[٩٩] ، هذا على حين أن ترجمتى الأكاديمى ب . ب . خجداى[١٠٠] B. P. Hasdeu (١٨٦٥) وتشوران[١٠١] Cioran (١٩٠٠) إنما تعتمد على بلفور نفسه ؛ وفى السنوات الثمانينات ترجمت ثلاث قطع من العربية إلى الرومانية رأساً بواسطة المستعرب الرومانى غاستر M.Gaster[١٠٢] ، وأغلب الظن أنه اعتمد فى ذلك على مخطوطة المتحف البريطانى . وعلى وجه العموم فإن بولس يتمتع بمكانة كبرى كمصدر موثوق به لدى العلماء الرومانيين ؛ وكما يذكر يتزميرسكى A.I.Iatsimirski فإنه « من العسير أن نلتقى ببحث جاد فى تاريخ رومانيا لاتوجد فيه إشارة إلى رحلة الشماس بولس »[١٠٣] . 702

ومنذ بداية السنوات التسعينات أخذت فى الظهور ملاحظات متفرقة تمس مؤلفات مكاريوس ، ومقتطفات مترجمة من رحلته بقلم الأستاذ جرجى ا . مرقص الدمشقى الأصل ، وهى كأنما تفتتح عهداً ثانياً فى دراسة كتاب بولس الحلبى . وكان ما نشره أشبه ما يكون بخطوة تحضيرية لترجمة الكتاب ترجمة كاملة إلى الروسية ؛ وقد ظهرت هذه الترجمة بالفعل فى خمسة أجزاء فى الفترة ١٨٩٦ — ١٩٠٠ وتضم إلى جانب ذلك مواد إضافية مختلفة . ولكونه من أصل عربى وتلقى دراساته العليا بروسيا ، فكان بذلك يجيد العربية والروسية على قدم المساواة ، فإن مرقص كانت لديه جميع الميزات اللازمة لإنجاز هذه المهمة ؛ وترجمته تقف دون أدنى ريب فى موضع لاتصل إليه ترجمة بلفور ، ولكن ضره الافتقار إلى منهج علمى فيلولوجى رصين ، ثم أيضاً اقتصاره على مخطوطة واحدة . وفى اللحظة الحاضرة بعد اكتشاف مخطوطة باريس ، بل ومخطوطة لينينغراد لعام ١٧٠٠ بالذات وهى التى تمثل أصل المخطوطة التى اعتمد عليها مرقص فى ترجمته ، فإن الترجمة فى مجموعها يجب أن تعد الآن غير مرضية من الناحية العلمية وبالية إلى حد كبير ؛ وهى قد حظيت بتعليقات عديدة فى الصحف الروسية والرومانية عند ظهورها وكان معظم تلك التعليقات فى صالحها . ولم يظهر أى أثر كبير حول الرحلة باللغة الروسية منذ ترجمة مرقص هذه ؛ ولاتخلو من الفائدة مقالات متفرقة لكريمسكى ظهرت فى عام ١٩١٣ ويعالج فيها لأول مرة الكلام عن المسودة المختصرة للكتاب الموجودة بمخطوطة تخصه . كما لايخلو من الفائدة فيما يتعلق بالمسائل التى تمس الآثار والفنون والخدمة الدينية بحث بقلم غولوصوف A. Golosov (١٩١٦) اعتمد فيه على ترجمة مرقص ، غير أن بحثه هذا بقى غير تام فضلا عن أنه لدى مقارنته بالأبحاث السابقة يبدو وكأن الباحث قد تناول موضوعه كهاو (dilettante) وأن معرفته على وجه العموم سطحية ، وربما كان مرجع ذلك إلى أن المؤلف كان يعمل بالأقاليم .

وفى القرن العشرين تزايد عدد الأبحاث باللغة العربية عن مكاريوس وبولس ، ويجب أن نفرد من بينها مكانة خاصة لعدد من المقالات والملاحظات المتفرقة بقلم حبيب الزيات . أما طبعة قسطنطين الباشا (١٩١٢)[١٠٤] لمقدمة الرحلة اعتماداً على مخطوطة باريس ، ومع الاستعانة أيضاً بمخطوطة حلب ، فهى

كما بين حبيب الزيات[١٠٥] ليست بالمرضية . وقد أحرز العلماء الرومانيون فى الأعوام الأخيرة للمرة الثانية تقدماً محسوساً فى دراسة المصنف ، وإذاكانت الترجمة الرومانية الأولى التى تعتمد على المخطوطة الباريسية والتى قام بها بوبسكو تشوكانيل Popescu Clucanel (١٩٠٣) قد توقفت عقب صدور القسم الأول واقتصرت على وصف الرحلة فى آسيا الصغرى | ، أضف إلى هذا أنه لا يمكن اعتبارها وفقاً لرأى مواطنه ب . رادو ترجمة جيدة[١٠٦] ، فإن هذا الأخير قد تهيأ لمهمته بصورة أكثر جدية . وقد مكنته إقامته الطويلة بباريس من التعرف جيداً على مخطوطة باريس التى جعلها الأساس لعمله فى نشر المتن وترجمته إلى الفرنسية وهو قد استعان إلى جانبها بمخطوطتى لندن ولينينغراد لعام ١٧٠٠ . وفى عام ١٩٢٧ أخرج القسم الأول من مصنفه ، أشبه ما يكون « بمقدمة » لبقية الكتاب تحوى تفاصيل أساسية عن المخطوطات الثلاث الهامة ومحاولة من المؤلف لإثبات أفضلية مخطوطة باريس على مخطوطتى لندن ولينينغراد على أساس فحص دقيق للمتن ؛ ثم يلى هذا تحليل للترجمات التى ظهرت حتى ذلك الحين (بما فى ذلك ترجمة مرقص) على ضوء فحص للأقسام المتعلقة برحلتهم فى آسيا الصغرى وملداڤيا وولاخيا . وهو قد بين فيما يتعلق بالقسم الخاص بآسيا الصغرى السقط الموجود عند بلفور نتيجة لاعتماده على مخطوطة المتحف البريطانى وحدها (ولدى مرقص أيضاً إذا افتقدت تلك المواضع فى مصدره المسكوفى) . وبهذا فإن عمل رادو يمثل دون شك خطوة إيجابية يجب البدء منها فى المستقبل عند القيام بأية أبحاث تتعلق بفحص متن الرحلة . ويكمن عيب رادو الرئيسى فى معرفته الضئيلة بالأبحاث الروسية فى هذا المجال ، وربما أيضاً فى تقييمه المجحف لمخطوطة لينينغراد . وفى عام ١٩٣٠ ظهرت القطعة الأولى من المتن والترجمة وفقاً للقواعد التى عرض لها فى « المقدمة » وعندما يكتمل عمله فإنه سيكون بلاشك خطوة جديدة فى دراسة مصنف بولس الحلبى* . ومن سبق الحوادث بالطبع أن نصدر حكمنا على ما ستكون عليه الأقسام الخاصة بالأوكراين وروسيا والتى ستمثل بالنسبة لرادو صعوبة أكبر ، غير أنه يمكن الافتراض سلفاً بأن الفرصة أكثر مواتاة بالنسبة لعلماء بلادنا للاضطلاع ببحث مستوعب عن مكاريوس وبولس يشارك فيه مؤرخونا ومستعربونا على قدم المساواة ويشمل هذا فى المكانة الأولى إخراج متن علمى محقق ولو لتلك الأقسام من الرحلة التى تمس وطننا مساً مباشراً .

ولتنفيذ مثل هذا العمل العلمى الضخم يجب أن نأخذ فى حسابنا أيضاً مصنفات أخرى تتعلق بالجغرافيا لاندين بها لقلم بولس بقدر ما ندين بها لقلم مكاريوس . وعدد هذه المصنفات ليس بالكبير وهى تحمل فى أغلبيتها الطابع المعروف لنا جيداً ، أعنى فى صورة نقول بدائية أو مسودات أولية على هيئة « كراسات عامة » . وأهمها هى ملاحظاته عن جورجيا (بلاد الكرج) التى دونها أثناء رحلته الثانية إلى البلاد الروسية ، وقد تم نشرها مرتين المرة الأولى فى المتن العربى والترجمة الفرنسية بقلم لبيديڤا O. S. Lebedeva

* لا أعتقد أنه قد ظهر من مؤلف رادو Radu ما يتجاوز هذه القطعة . (المترجم)

(١٩٠٥)[١٠٧] والثانية فى ترجمة روسية بقلم ب . ك . جوزى (١٩٠٥)[١٠٨] ، واعتمد الاثنان على مخطوطة الفاتيكان لعام ١٧٥٦ | 704 | التى تضم عدداً من المؤلفات الصغرى لمكاريوس يوجد من بينها ترجمات عن الإغريقية ونقول شتى ومسودات تخطيطية لايربط بينها أى رابط من ناحية المضمون ولكنها تحمل ترقيما متسلسلا ، وتشغل من بينها ملاحظاته عن بلاد الكرج الفصول من الثامن والعشرين إلى الحادى والثلاثين . وهذه الملاحظات تعالج الكلام بشكل خاص على المسائل المتعلقة بالحياة الكنسية الدينية ، غير أن كمية التفاصيل التى تمس الحياة الاجتماعية والمسائل الجغرافية الخالصة كبيرة بصورة لا تقل مما هو عليه الحال مصنف بولس الضخم . والحكم الذى أصدرناه من قبل على دراسة مرقص ينطبق بدوره على دراستى يفا وجوزى ، فهما وإن كانتا بالنسبة لعصرهما ذاتى فائدة كبرى ومكنتنا فى الوقت نفسه من إعطاء صورة عن المعلومات التى يحتويها المصنف إلا أنه فى اللحظة الحاضرة وبعد أن وجدت طريقها إلى معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية المسودة الأصلية بخط يد المؤلف لجميع هذه التصانيف[١٠٩] ، فإن الحاجة ماسة إلى إصدار طبعة جديدة . ومثل هذه المهمة ينبغى أن يضطلع بها مستعرب يأخذ فى حسابه أيضاً فحص المادة المدونة باللغة الكرجية ويولى عناية خاصة لدراسة لغة مكاريوس نفسه التى وجدت اللهجة الدارجة طريقها إليها أكثر مما حدث مع لغة بولس . ومن المأمول أن يسد هذا النقص البحث العلمى الذى يقوم بتحضيره العلامة التفليسى تسرتيلى G. V. Tsereteli والذى يجرى إعداده للطبع[١١٠] .

ويمكن أن نستدل من نفس هذه المجموعة من تصانيف مكاريوس على أنه خضع فى تصوراته الجغرافية العامة لتأثير المصادر البيزنطية قبل غيرها ، فلديه مقالات بعناوين « فى الجزر الكبرى الموجودة بالبحر »[١١١] و« طبيعة عرائس البحر (sirens) والطيور المذكورة فى المزامير »[١١٢] الخ . واعتماداً على نفس تلك المصادر خلف لنا « وصفاً لرومة » لايزال فى المخطوطات[١١٣] ، وهو ينتمى إلى نفس ذلك الطراز لوصف رومه المعروف لنا من نماذج سابقة . غير أن الاعتماد على هذه المصادر الكتابية لم يضعف بأية حال اهتمامهم الحى المباشر بالبلاد التى زاروها بل أثار فى أنفسهم الرغبة لتعريف مواطنيهم بتاريخ وجغرافيا الشعوب الأخرى ؛ فبولس مثلا قد دون أثناء إقامتهم بكولومنه التى اضطرهم إليها انتشار الطاعون « تاريخ الملك باسيليوس ملك البغدان » وحملاته العسكرية وحروبه ، كما يذكر هو نفسه فى إحدى المخطوطات التى نقلها بخط يده آنذاك[١١٤] ؛ ثم إن مكاريوس نفسه قد ألف فى تاريخ الافلاخ[١١٥] أثناء إقامته الاضطرارية بجورجيا وكتب مقالة فى فتح القسطنطينية[١١٦] ، أثناء وجوده بتفليس . من كل هذا يتضح لنا أن كلا من مكاريوس وبولس كانا شخصين يفيضان بالحيوية والنشاط وتملكهما دافع شديد لتنوير القارئ العربى وتثقيفه بحسب ما تراءى لهما | 705 | فى ذلك الحين ، وهما يستحقان من هذه الناحية كل تقدير واعتراف بالجميل من بنى وطنهما . أما « رحلة مكاريوس » فستظل على الدوام أثراً ذا مكانة مرموقة بالنسبة للأجيال التالية .

ومثل هذا الحكم لم يمنع بالطبع بعض البحاثة من أن يقفوا موقفاً سلبياً بإزاء الدوافع الشخصية التى كانت وراء الرحلة ؛ فهم قد أبصروا فى سلوك الرحالتين ضرباً من الكدية والاتجار بالغفران (indulgence) [١١٧] ؛ وقد وصف أحد النقاد بولس بأنه « شاهد مرتشى ، قد رشاه الشعب الروسى بالتبرعات الوافرة التى حملها أبوه من بلادنا »[١١٨] . ومثل هذه الجوانب يجب بالطبع أخذها فى الحساب عند درس الأثر من الناحية التاريخية والاجتماعية .

ونستطيع الآن من وجهة نظر دراستنا هذه أن نختم كلامنا عن أوصاف الرحلات العربية التى خرجت من الوسط المسيحى فى القرن السابع عشر بقولنا إنها لاترتفع من حيث تركيبها الأدبى إلى مصاف المصنفات المبكرة من هذا الطراز التى دونها مؤلفون مسلمون والتى تستند على تقاليد ضاربة فى القدم . ورغما من هذا فإن اثنين منهما على الأقل وهما لبولس الحلبى وإلياس الموصلى يقفان دون منازع فوق جميع أوصاف الرحلات الأخرى التى خرجت من نفس ذلك الوسط من حيث أصالة الموضوع وحقهما فى أن يعترف بهما كمصادر ذات أهمية استثنائية بالنسبة لجغرافيا البلاد التى يصفانها .

وقد ظلت الأوصاف الإقليمية (regional) فى القرن السابع عشر والأزمنة التالية له ممثلة بعدد من المؤلفات لطائفة من النقلة المقلدين ، بحيث لا يمكن القول بأنها فاقت فى شىء غيرها من مؤلفات ذلك العصر . وبعض هذه الأوصاف يتعلق بسوريا وهى موجودة عادة فى المخطوطات ، أما المؤلفون فلم يكونوا فى أنفسهم من الشخصيات الهامة . مثال ذلك ناصر الدين السوائى الشفونى[١١٩] وكان خطيباً بأحد المساجد كما يشير حمله للقب الخطيب ، وقد وضع فى حوالى عام ١٠٥٤ هـ = ١٦٤٤ رسالة بعنوان « الجوهر المكنون فى زيارة جبل قاسيون » عالج فيها الكلام كما يتبين من العنوان على موضع من أشهر مواضع الزيارة بدمشق . غير أنه من بين الفصول السبعة لهذا الكتاب الكبير الحجم فإنه لاتعالج سوى ثلاثة منها الكلام على جبل قاسيون و« مغارة الدم » ومسجد إبراهيم ، أما بقية فصول الكتاب فتتحدث عن دمشق عامة وعن فضائلها والدور الذى خصص لها عند قيام الساعة[١٢٠] ؛ ولعله لهذا السبب حمل المصنف فى مخطوطة أخرى عنوانا مغايراً بعض الشىء هو « الجوهر المكنون فى فضائل الشام وجبل قاسيون وفى فضل التين والزيتون »[١٢١] . وإلى نفس هذا الوسط ينتمى محمد بن يحيى الحلبى الفرضى المتوفى فى عام ١٠٩٠ هـ = ١٦٧٩[١٢٢] والذى اشتغل بالتدريس لبعض الوقت بالمسجد الأموى بدمشق . وقد ترك لنا مصنفاً من نفس المضمون ، ليس فى ضخامة المصنف السابق ولو أنه يضاهيه من ناحية التبويب ، ويحمل عنوان « الإشارات إلى أماكن الزيارات » ؛ وهو يعالج فيه من الزاوية المعهودة لنا جيداً وفى نفس الصور التقليدية الكلام على « زيارات دمشق وما حولها من قبور الصحابة والتابعين والعلماء العاملين والأولياء والصالحين والمعابد المباركة والأماكن الشريفة »[١٢٣] . وقد حفظ هذا الضرب من الأدب بعض السمات التى ثبتت فى عهود سابقة ؛ فمثلا يرتبط باسم مؤلف غير معروف لنا عن كتب

706
707

هو التمرتاشي الذي ألف حوالى عام ١١٠٦ هـ = ١٦٩٤. مصنف بعنوان « الخبر التام في حدود الأرض المقدسة وفلسطين والشام »[١٢٤] ؛ ويمكن أن نحس من العنوان نفسه بذلك الاتجاه القوى الذي عهدناه في عصور سابقة للربط بين فلسطين وسوريا . ومن المؤسف أن هذا المصنف معروف في مخطوطة واحدة بمجموعة تيمور بالقاهرة[١٢٥] ، مما يجعلنا نقتصر في حكمنا عليه من العنوان وحده .

وثمة مؤلف آخر يمتاز بالطرافة والشهرة هو أحد مواطني مكة وبها اشتغل لمدة طويلة بالتدريس وكان كاتباً مثمراً للغاية حتى لقبه معاصروه « سيوطي عصره » ؛ ومما لاشك فيه أن محمد بن علان البكري الصديقي (توفي في عام ١٠٥٧ هـ = ١٦٤٨) يقرب كثيراً من السيوطي في طراز مؤلفاته فهي في معظمها رسائل موجزة تعالج موضوعات مستقلة من مختلف الأنواع[١٢٦] . وسنقتصر في هذه اللحظة على الكلام عن بعض رسائل له تعالج الجغرافيا الإقليمية وينعكس فيها حبه العميق لوطنه الحجاز ؛ وفيما يتعلق بها هي أيضاً نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقنع بعناوينها فقط التي يوردها لنا حاجي خليفة . وأحد هذه المصنفات يحمل عنوان « فضائل مكة المكرمة » ، مكوناً بهذا حلقة في سلسلة قديمة وحافلة من مؤلفات ذات طابع عام[١٢٧] ؛ والبعض الآخر منها يعالج موضوعات ذات طابع خاص ، مثال ذلك رسالة له في تاريخ عمارة البيت الحرام كان الدافع إلى تأليفها حدوث سيل عنيف سقط بسببه البيت الحرام[١٢٨] و وثمة رسالة أخرى أكثر تخصصاً من تلك يعالج فيها الكلام عن فضل الحجر الأسود بعنوان « العلم المفرد في فضل الحجر الأسود »[١٢٩] ؛ وفي نفس الأسلوب يفرد رسالة للطائف بعنوان « طيف الطائف بفضل الطائف » وهي بحسب قول حاجي خليفة « مختصر . . . . على مقدمة وبابين فرغ في صفر سنة ١٠٤٨ هـ [= ١٦٣٨] »[١٣٠] . وإن مجرد ذكر عدد مصنفات هذا « السيوطي المكي » ليقف دليلا واضحاً على 708 استمرار الرواج الذي تمتع به هذا الضرب من المصنفات إلى العصر الذي عاش فيه ذلك المؤلف .

أما نمط الرحلات الذي انتشر في هذا العصر فلعل خير مثال نقدمه له هو مصنفات مواطن دمشقي ينتمي إلى أسرة المحبي التي اشتهرت بعدد من العلماء ، أعني فضل الله بن محب الدين المتوفى سنة ١٠٨٢هـ = ١٦٧١[١٣١] . وقد غادر فضل الله دمشق وهو في سن الشباب لعدم رضاه بالمركز التدريسي الذي كان يشغله فسافر إلى حلب في عام ١٠٤٨ هـ = ١٦٣٨ وهو في سن السابعة عشر ولكنه لم يصب نجاحاً كبيراً فرجع إلى دمشق حيث تنازل له والده عن مركزه التدريسي ؛ وفي عام ١٠٥١ هـ = ١٦٤١ سافر إلى القسطنطينية ، فاشتغل بالتدريس لمدة عام ثم رجع لبعض الوقت إلى دمشق وغادرها في عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ في معية القاضي إلى مصر وكان نائباً له في القضاء وهناك اشتغل بالتدريس بالأزهر . وبعد أن أمضى أعواماً طويلة بمسقط رأسه سافر إلى القسطنطينية للمرة الثانية في عام ١٠٧٣ هـ = ١٦٦٢ وأقام بها في هذه المرة لمدة أربعة أعوام بالتقريب ؛ أما السنوات الأخيرة من حياته فقد أمضاها بدمشق . وقد ترك لنا انطباعاته عن جميع رحلاته في ثلاث مؤلفات يدعوها فستنفلد « الرحلة الحلبية Iter Halebenese »

و « الرحلة المصرية » Iter Aegyptiacum و « الرحلة إلى القسطنطينية » Iter Constantinopolitanum ؛ ولم تصلنا فى مجموعها[١٣٢] ولكن عناوينها توكد مرة أخرى ما ذكرناه من قبل عن دور مركز الجذب الذى أخذت تلعبه استنبول بالنسبة للبلاد العربية فى ذلك الوقت.

فهى قد اجتذبت أهل الأدب بصورة خاصة ومن مناطق مختلفة ، وكان بعض هؤلاء من « المدينتين المقدستين » مكة والمدينة ؛ وأحد سكان المدينة وممن نشأوا بها كان محمد كبريت المدنى (توفى فى عام ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩) الذى قام برحلة فى عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ هـ = ١٠٤٩ هـ - ١٦٢٣ - ١٦٣٩) إلى عاصمة الخلافة عام ١٠٣٩ هـ = ١٦٢٩ - ١٦٣٠ تركلنا وصفها فى مصنف بعنوان « رحلة الشتاء والصيف » معروف فى عدد كبير من المخطوطات[١٣٣] وفى طبعة قاهرية قديمة ليس من السهل الحصول عليها الآن[١٣٤] . هذا ويتسم وصف رحلته بالتنوع ، فهو قد غادر المدينة إلى العقبة ثم اجتاز سيناء إلى القاهرة وركب البحر من الإسكندرية إلى القسطنطينية ، أما فى طريق العودة فقد أخذ طريق البر ماراً على حلب وحماة ودمشق ومن هناك أخذ طريق الحاج الشامى إلى مكة . وأسلوبه على وجه العموم بسيط ولكنه مفعم | بالاستشهادات الشعرية من مختلف العصور ، وهو ينقل أحياناً عن المؤرخين والجغرافيين بصدد المواضع التى يرد ذكرها لديه[١٣٥] .

709

أما معاصره وابن وطنه ابراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدنى (المتوفى عام ١٠٨٢ هـ - ١٦٧١)[١٣٦] فهو ابن لعلامة مصرى كان استوطن المدينة[١٣٧] ، وقد كان الإبن خطيباً بمسجد النبى[١٣٨] ثم حدث أن فقد وظيفته هذه بغير وجه حق إثر نميمة من طرف أحد العلماء لذا فقد قرر | السفر إلى استنبول فى عام ١٠٨٠ هـ ١٦٦٩ ليسترد حقه . واستغرقت الرحلة ما يقرب من العامين ، وقد غادر المدينة فى اليوم الحادى عشر من شهر يونيو عام ١٠٨٠ هـ ١٦٦٩ ومر فى طريقه على تبوك ومعان سالكاً طريق الحاج الشامى حتى بلغ دمشق فى الرابع عشر من شهر يوليو . وبعد أسبوعين من هذا غادرها إلى القسطنطينية ماراً فى طريقه على حمص وأنطاكية والمصيصة حتى بلغ دار الخلافة فى التاسع من سبتمبر . وقد أخذ طريق العودة بعد عام بالتقريب وذلك فى سبتمبر من عام ١٠٨١ هـ ١٦٧٠ سالكاً نفس الطريق إلى دمشق التى بلغها فى السابع عشر من نوفمبر ؛ وأعقب هذا زيارته لنواحى فلسطين فمر بالرملة وزار بيت المقدس وجبل الخليل وغزة حتى وصل إلى القاهرة ، وفى مصر تخلف إلى الثالث والعشرين من شهر فبراير عام ١٠٨١ هـ ١٦٧١ ثم أخذ طريق الحاج المصرى فاجتاز سيناء ومر بالعقبة فى طريقه إلى المدينة التى بلغها فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس من نفس العام وذلك قبل قليل من وفاته . وقد استغرقت الرحلة واحداً وعشرين شهراً ووصفها فى مصنف بعنوان « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء »[١٣٩] ؛ وهى تحمل فى بعض مخطوطاتها زيادات بقلم ابراهيم الجينينى الدمشقى (توفى عام ١١٠٨ هـ = ١٦٩٦)[١٤٠] وكان على معرفة جيدة بنواحى سوريا وفلسطين[١٤١] . وكان الخيارى فقيهاً متضلعاً وقد ألقى دروساً

710

فى الحديث أثناء زيارته لدمشق وكان ممن استمع إليه المؤرخ المحبى[١٤٢] ؛ ومن الطبيعى أن تنضم رحلته فى جوانب منها إلى نمط الرحلات العلمية المعروفة لنا جيداً ولكنه يجب أن نستدرك على هذا بقولنا إنه كان يفضل ايراد ما أبصره بنفسه بدلا من الاعتماد على ألفاظ الغير . وقد اجتذب عنايته شيئان . فهو قد اهتم من ناحية « بالمواضع المقدسة » خاصة بفسلطين ويذكر فى هذا بكتب « الفضائل » عن المدن الشامية ؛ ومن ناحية أخرى نراه يوجه اهتمامه إلى العلماء المحليين وأهل الأدب بوجه عام الذين جهد فى أن يدخل معهم فى علاقات . أما وصفه فقد صاغه فى أسلوب كلاسيكى تغلب عليه « الصنعة » وتنتشر فيه الاستشهادات والمقتطفات من القرآن والحديث و « مقامات » الحريرى وعدد كبير من الأشعار[١٤٣] . وهو يسوق أحياناً مما دونه أقلام معاصريه فقد ضمن مثلا قطعاً من رسائل وجه بها إليه عالم دمشقى هو رمضان بن موسى بن عطيف الدمشقى (توفى عام ١٠٩٥ هـ = ١٦٨٤) وكان من المولعين بالشعر والتاريخ واشتغل بالتدريس هناك[١٤٤] ، وندين له بوصف رحلة إلى طرابلس الشام تم تدوينها فى عام ١٠٤٣ هـ = ١٦٣٣ وتم الكشف عن مخطوطها ببرلين منذ عهد غير بعيد[١٤٥] . وعلى أية حال فإن المعطيات الجديدة لدى الخيارى ليست بالقليلة ، ويتبين من القطعة فى وصف رحلته من دمشق إلى الرملة التى نشرها توخ Tuch أنه من الممكن أن يفيد منها العلماء المشتغلون بدراسة آثار الكتاب المقدس (biblical archaeology) ومؤرخو الحروب الصليبية أيضاً[١٤٦] . وقد فحص رتشارد هارتمان R. Hartmann الذى شغل خاصة بدراسة الطريق بين سوريا ومصر[١٤٧] مصنف الخيارى إلى جانب عدد كبير من المؤلفين ممن مر بنا الكلام عليهم واستطاع أن يخرج بنتيجة هامة مؤداها أن الطريق بين دمشق والقاهرة فى ذلك العهد ، أى حوالى عام ١٧٠٠ ، هى نفس الطريق المسلوكة فى عهد سلطنة قايتباى[١٤٨] . وقد كان أحد أبناء الخيارى عالماً أيضاً وساح فى مصر وسوريا والقسطنطينية ولكن لاعلم لنا بمصنفات له[١٤٩] .

711

وبالطبع فإن الحجاز ومكة بصفتها مركزاً دينياً مرموقاً قد اجتذبت إليها الرحالة بقدر ليس أقل مما عليه الحال مع القسطنطينية مركز الحياة السياسية والإدارية للدولة . غير أنه من بين المصنفات المطبوعة فى هذا الميدان ليس فى إمكاننا أن نشير إلا إلى واحد من المقلدين فقط وكان على صلة وثيقة بالدوائر الشيعية هو بدر الدين بن سالم الملقب بتابع الصديق . فهو قد دون فى حوالى عام ١٠٦٢ هـ = ١٦٥٢ قصة « رحلة » قام بها أحد شيوخه وتحمل عنواناً تغلب عليه الصنعة ويشير بصراحة إلى موضوع المصنف وهو « المجاز فى حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقى إلى الحجاز » ؛ والكتاب طبع فى القاهرة دون ذكر لسنة الطبع ونادر للغاية كما أنه لم يفحص إلى الآن بطريقة علمية[١٥٠] .

أما من بين الرحلات التى اتجهت فى ذلك العصر إلى بلاد أخرى بخلاف القسطنطينية فيجب أن نفرد بالذكر بعضها إما لشخصية مؤلفها أو لأهمية المواضع التى زاروها . وتقدم شخصية صدر الدين على بن أحمد بن محمد المعصوم الحسنى المدنى[١٥١] مثلاً طريفاً للوحدة الثقافية التى ربطت بين البلاد الإسلامية فى ذلك

العهد ، فهو وإن كان أصلا من أهل المدينة (وبها ولد فى عام ١٠٥٢ هـ = ١٦٤٢) إلا أنه ينحدر من أسرة من العلماء ورجال الحكومة ارتبطت بإيران والهند وبصورة خاصة بحيدر أباد . وقد غادر أبوه الهند إلى المدينة نتيجة للدسائس الحكومية ولكنه رجع إلى الهند فى عام ١٠٥٤ هـ = ١٦٤٤ ولحقت به أسرته
712 بعد اثنى عشر عاما من ذلك بعد إلحاحه الشديد وذلك فى عام ١٠٦٦ — ١٠٦٩ هـ = ١٦٥٥ — ١٦٥٨ . هذه الرحلة الأخيرة من مكة إلى كلكنده بالهند والتى سارت ببطء شديد مجتازة إيران والهند هى التى وصفها لنا على خان اعتماداً على ذكريات الأسرة فى عام ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣ تحت عنوان « سلوات الغريب وسلوة الأريب »[١٥٢] ، وهى معروفة إلى الآن فى مخطوطة يتيمة موجودة ببرلين[١٥٣] . وبعد وفاة والده فقد على خان عطف حكام حيدر أباد فالتجأ الى كنف السلطان أورنكزيب فى برهانبور حيث شغل وظيفة كتابية ، وفيما بعد قام برحلة إلى إيران وزار مشاهد الشيعة ببغداد والنجف وكربلاء ، ثم استقر بشيراز يعمل بالتدريس إلى أن وافته منيته بها فى عام ١١٠٤ هـ = ١٦٩٢ أوفى عام ١١٢٠ هـ = ١٧٠٨ . وهو قد نال الشهرة بين معاصريه كأديب منشىء ولازال يتمتع ببعضها إلى الآن ، وإلى جانب رسائل له فى البلاغة والشعر نال رواجاً خاصاً مختارات شعرية ترجم فيها للشعراء وأتمها فى عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١ بعنوان « سلافة العصر من محاسن أعيان العصر » ، وهى توجد فى عدد كبير من المخطوطات وظهر قسم منها فى طبعة قاهرية لاتبعث كثيراً على الرضى (١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦) . وهو ينضم فى هذا إلى المنهج القديم ويكمل مصنفاً مشابهاً للخفاجى الذى سبقه بقليل فيقدم مختارات لشعراء القرن الحادى عشر الهجرى موزعاً إياهم بحسب المناطق . وهذا المنهج الذى التقينا به عند بعض السابقين له منذ القرن الحادى عشر الميلادى لايخلو أحياناً من بعض الفائدة لأنه يتضمن معطيات جغرافية صرفة . والاتجاه العام لهذا المصنف يعاوننا على فهم السبب فى أن وصف رحلته كان كذلك ذا أهداف أدبية فى الغالب ويحمل طابع الرحلة « العلمية » التى تقوم على أساس ترجمة المؤلف لسيرة حياته وتستطرد أحياناً فى موضوعات أدبية صرفة لاتخلو من بعض الطرافة ولو أنها تفتقر إلى التنظيم .

وتمثل أهمية كبرى من وجهة نظر التاريخ العام والجغرافيا واحدة من الرحلات القليلة التى اتجهت من بلاد العرب الجنوبية إلى أرض الحبشة . أما المؤلف وهو الحسن بن أحمد الحيمى[١٥٤] الكوكبانى (توفى عام ١٠٧١ هـ = ١٦٦٠)[١٥٥] فينتمى إلى أسرة كبيرة وكان رجلا عالماً استعان به الإمام المتوكل من أئمة الزيديين فى مهام دبلوماسية عديدة فبعث به إلى حضرموت ثم وجهه فى عام ١٠٥٧ هـ = ١٦٤٧ ،
713 وهو لما يكد يرجع من حجته الثالثة إلى مكة[١٥٦] ، إلى فاسيلداس ملك الحبشة (١٦٣٢ - ١٦٦٧) وكانت عاصمته غندر . وقد أشيع آنذاك عن رغبته فى اعتناق الإسلام ، ورغما مما يحيط بهذه الرواية من عنصر الخيال إلا أنها تجد بعض التعضيد فى المصادر البرتغالية[١٥٧] . هذا وقد خرجت السفارة من قلعة شهارة الكبيرة الواقعة على مقربة من صنعاء وكان يقيم بها آنذاك أمام اليمن فبلغت مرفأ مخا وعبرت

إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر فنزلت بمحلة صغيرة تدعى بيلول بمنطقة قبائل الدناكلة وهناك أمضى الرحالة ما يقرب من شهرين . وقد مكنت هذه الأقامة المؤلف من أن يقف على عاداتهم البدائية التى كان من شأنها أن تسترعى أنظار رجل مسلم ينتمى إلى حضارة أرفع . ثم ضربوا بعدذلك براً فى أرض قبائل القالة Galla الذين يقول المؤلف عنهم إنهم كانوا يمثلون خطراً كبيراً لا على القوافل وحدها بل وأيضاً على السكان الحضر . ثم تخلفوا مرة ثانية لمدة أربعين يوماً بمدينة كبيرة تسمى أندرته ، وبعد ذلك اخترقوا أرض الفلاشة (« الفلاسه ») الذين يورد عنهم المؤلف تفاصيل شيقة ، حتى بلغوا مقر النجاشى بغندر .

ولم تكن إقامة السفارة اليمنية بالعاصمة هادئة على الدوام فقد تعرضوا للحريق مرتين من جانب السكان المحليين على ما يبدو ، والذين نقموا منهم تعضيدهم للمسلمين . ويقدم لنا المؤلف تفاصيل شيقة عن محادثاته مع قبطى كان يشغل مكانة رفيعة بين رجال الدين وكان مقرباً من مطران الحبشة « أبونا » الذى كان آنذاك منفياً فى إحدى « جزر النيل » كما ذكر محدثه ؛ ومن الطريف أن مترجم النجاشى كان رجلا من بخارا دخل فى المسيحية وكان يجيد العربية إجادة تامة[١٥٨] . هذا وقد امتدت إقامة السفارة بالعاصمة إلى مدة تقرب من تسعة أشهر[١٥٩] ورجعت بسلام إلى اليمن فى ربيع الأول سنة ١٠٥٩ هـ = مايو ١٦٤٩ سالكة طريقاً معروفاً مر بها على ميناء مصوع (« مسوع ») وجزيرة دهلك حتى بلغت مرفأ اللّحية . ويذكر مترجم سيرة الحيمى أن السفارة قد أثارت فى نفوس الأهالى ذعراً شديداً لأن أفرادها كانوا يحملون معهم أسلحة نارية ، مما لم يكن آنذاك تحت أيدى القالة أو الأحباش . وكان ذلك العهد عهد انتصار للأحباش فى نضالهم مع جيرانهم المسلمين ، ولو أن هذا لم يحل دون وجود عدد كبير من المسلمين داخل أرض الحبشة . وقد أبصرت السفارة قريباً من غندر نفسها بلدة جميع سكانها من المسلمين[١٦٠] ، كما وجد عدد كبير من أتباع مذهب الشافعى فى مواضع عديدة من تلك البلاد ؛ بل إن العاصمة نفسها كان بها حى خاص بالمسلمين[١٦١] . ونحن نعلم جيداً أن ملك الحبشة قد أصدر فيما بعد ، وذلك فى عام ١٦٦٨ ، مرسوماً لم يلبث أن تجدد العمل به فى عام ١٦٧٨ يقضى بمنع المسلمين من الإقامة | فى مكان واحد مع المسيحيين وهذا فى حد ذاته يقف دليلا على كثرة المسلمين فى تلك البلاد[١٦٢] . 714

ووصف هذه الرحلة الذى تم تدوينه بعد رجوعهم بقليل يحمل على ما يبدو عنوان « حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر »[١٦٣] . أما أسلوبه فقد صيغ فى لغة أدبية جيدة وعناية بالتنميق وتكلف للسجع ، كما يحوى من موضع لآخر مقتطفات شعرية . وقد ضمن المؤلف وصف رحلته قصيدتين وضعهما وهو بالحبشة يعبر فيهما عن شوقه وحنينه إلى أرض الوطن . وإلى جانب العرض الشيق فإن وصف الرحلة مفعم بالتفاصيل الطريفة ، وكان أول من وجه إليه الأنظار هو بريتوريوس F. Praetorius وذلك منذ عام ١٨٨٥ ، ثم أصبح بفضل البحثين اللذين عملهما بيزر Peiser فى متناول أيدى المشتغلين

بالدراسات الحبشية بوصفه مصدراً هاماً للتعرف على عهد فاسيلداس الذى لا توجد مادة عنه فى التواريخ الحبشية* .

ومن العسير أن نلتقى فى مصر فى القرن السابع عشر بأسماء كبيرة أو طريفة فى ميدان الجغرافيا ، حتى ولا من بين الرحالة . ورغما من ذلك ترفع رأسها فى وسط الفقهاء من وقت لآخر أصداء ضعيفة للأنماط التقليدية ؛ وخير مثال لهذا شهاب الدين القليوبى (المتوفى عام ١٠٦٩ هـ = ١٦٥٨) وهو على وجه العموم شخصية متعددة الجوانب بالنسبة لعصره[١٦٤] ، فقد كان من رجال الحديث ولكنه تابع باهتمام أيضاً دراسة الطب وأطرف من هذا أنه اكتسب الشهرة عقب وفاته بين مواطنيه وبين المستعربين الأوروبيين بكتاب له فى « النوادر » لا يزال يطبع فى الشرق إلى أيامنا هذه . وقد خلف القليوبى تصانيف عديدة يتناول بعضها شعائر الحج[١٦٥] ومواضع العبادة بالحجاز[١٦٦] ، فهى تكمل بهذا طراز « فضائل » المدن المقدسة . وأهم من هذا رسالة له بعنوان « رسالة فى معرفة أسماء البلاد وأطوالها وانحرافها »[١٦٧] يقدم فيها جداول غير كبيرة فى تسع ورقات تتضمن تعداداً لأهم المدن وفقاً لحروف المعجم مع تحديد أطوالها وعروضها وانحرافها ؛ وبهذا فإننا نقابل حتى فى القرن السابع عشر ترجيعاً لصدى « الزيجات » القديمة المعروفة لنا فى الجغرافيا الرياضية . ولم يقف القليوبى بالطبع بمفرده فى هذا الميدان إذ نلتقى من وقت لآخر « بالموقتين » الذين شغلوا نزولا على طبيعة أعمالهم بمعالجة أمثال هذه الموضوعات إلى منتصف القرن التاسع عشر . أما جداول القليوبى فلم تلق أى رواج ولا تزال معروفة حتى الآن فى مخطوطة وحيدة[١٦٨] .

715

وإلى جانب سوريا والجزيرة العربية أخرج لنا المغرب فى هذا العصر عدداً كبيراً من المصنفات ذات الطابع الجغرافى ؛ ولقد حدث أن لاحظنا غير ذات مرة أن المجال قد انفسح هناك ابتداء من القرن الخامس عشر لانتعاش كبير فى كتابة التاريخ دون غيره من العلوم حتى فاق المغرب فى هذا بقية الأقطار العربية وظل ذلك الفن يشغل اهتمام علمائه المحليين إلى القرن العشرين ، ولعل السبب فى ذلك كما يذكر بروكلمان[١٦٩] هو أن الانقلابات العديدة فى الحكومات قد عاونت كثيراً على أمدادهم بالمادة اللازمة . وإلى جانب هذا أيضاً يجب أن نضع وصف الرحلات التى كان الحج يمثل الدافع الأول بالنسبة لها ؛ ويغلب على هذه الرحلات فى العادة المادة المدونة فى التراجم وأيضاً الحكايات والقصص هذا على حين يقتصر وصف البلاد فى عديد من الأحيان على تكوين الإطار العام الذى تستند عليه تلك المادة . وبالنسبة لمراكش فقد وجد إلى جانب رحلة الحج فى ذلك العصر ، وفى العصور السابقة عليه والتالية له أيضاً ، الرحلة الدبلوماسية التى اتجهت فى الغالب إلى تركيا وأوربا وكثيراً ما اشتملت على مادة جغرافية ذات قيمة لا تجارى . ويعترض ليڤى بروڤنسال Levi-Provençal على زعم بروكلمان بأن المغرب آنذاك لم يخرج مؤرخين صرفين باستثناء الزيانى وأن معظم المؤلفين فى ذلك الوقت كانوا من مؤرخى الأدب عامة

* نشر هذا الكتاب بالقاهرة منذ أعوام الدكتور مراد كامل بعنوان « سيرة الحبشة » اعتماداً على مخطوطة عثر عليها حديثاً فى اليمن ويرجع تاريخ كتابتها إلى عام ١٠٦٠ هـ ، وهى محفوظة بمكتبة أحد أحفاد المؤلف . (المترجم)

(Polyhistor) وأسهموا بالتأليف فى كل فروعه[١٧٠] ؛ وبروكلمان محق فى حكمه هذا طالما حملت ألفاظه تلك على أن المقصود بها هو أن مصنفاتهم لم تخرج عن نطاق المنهج المعهود لدى المؤلفين المسلمين . غير أنه ليس بمقدور أحد أن ينكر أن انتشار التأليف فى مجالى التاريخ والجغرافيا التاريخية بالمغرب إنما يمثل ظاهرة تلفت النظر بالنسبة لذلك العهد بأجمعه عند مقارنة ذلك ببقية الأقطار العربية[١٧١] .

والعصر الذى نعالج الكلام عليه فى هذا الفصل بالذات يقدم لنا رحالتين يمثلان كلا الاتجاهين ، هما الحاج العياشى والدبلوماسى الوزير الغسانى . أما الأول وهو أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبى بكر العياشى[١٧٢] فمن البربر من قبيلة ايت عياش التى كانت تقيم بسجلماسة مركز واحة تفيلالت بأطلس الوسطى . وقد ولد رحالتنا فى عام ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٨ ، وهو كجميع معاصريه ممن دفعتهم الرغبة فى طلب العلم إلى الرحلة ارتحل وهو فى سن الشباب إلى مدينة فاس التى كانت تمثل آنذاك مركز الثقافة بأفريقيا الشمالية ، وقد وجه اهتمامه إلى ثلاثة فروع من علوم الدين هى الحديث والشريعة والتصوف . وفى عام ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ أدى فريضة الحج لأول مرة فمر فى طريقه بتوات وورجله وطرابلس حتى بلغ مصر ، ثم تابع دراسته لبعض الوقت فى كل من القاهرة ومكة كما أقام مرة ثانية ابتداء من عام ١٠٧٣ هـ – ١٦٦٢ مدة ليست بالطويلة بمكة والمدينة ، ولكنه توفى بموطنه | من الطاعون فى عام ١٠٩٠ هـ = ١٦٧٩ . وقد دون مذكراته المتقطعة أثناء 716 الحج ، غير أن رحلته الأخيرة دفعته إلى تبييض المسودة النهائية لوصف رحلته المعروف لنا بعنوانين أحدهما تقليدى صرف هو « الرحلة العياشية » والآخر تغلب عليه الصنعة هو « ماء الموائد » ؛ والكتاب موجود فى طبعة حجرية ظهرت فى جزئين بفاس فى عام ١٣١٠ هـ = ١٨٩٨[١٧٣] ؛ ويبصر من مضمونه أن المؤلف قد وجه عنايته فى المكانة الأولى بالطبع إلى الكلام عن الأولياء والعلماء والدراويش وأهل التصوف ويغلب على عرضه أحياناً طابع متعدد الألوان لمادة متنوعة من محيط الجغرافيا والعادات والدين وحياة المتصوفين وأهل الحديث ، كما أنه إلى جانب أهميته كمصدر جغرافى يجب ألا تغفل أهميته التاريخية بالنسبة لذلك العصر رغماً من أن أوصافه على وجه العموم جافة وتنقصها الحيوية . أما أسلوبه الأدبى فتنعكس فيه بالطبع علامات عصر التدهور ولكنه يتميز بالبساطة باستثناء الحالات التى يعالج فيها المؤلف الكلام على الموضوعات الصوفية ويرى لزاماً عليه أن يلجأ إلى لغة مغلقة ومتكلفة . أما تركيب الكتاب العام فقد أفسده إلى حد كبير ميل المؤلف المبالغ فيه إلى الاستطرادات المتتالية .

ويحتل أهمية خاصة فى مادته الواقعية وصفه لطرق القوافل من المغرب إلى مكة مع تبيان واف للمنازل المختلفة ؛ كما توجد لديه تفاصيل تمكن من تبيان الحد الذى يفصل بين الأراضى الصحراوية والأراضى الصالحة للزراعة ، وقد لفت الأنظار إلى هذا منذ الأربعينيات من القرن الماضى مترجم الرحلة بربروجه Berbrugger . غير أن المؤلف نفسه لم يعتبر كل هذا جديراً باهتمام الرحالة الجاد ؛ فهو قد صرف اهتمامه قبل كل شىء إلى فحص مناهج العلوم الإسلامية فى البلاد التى زارها بحيث يمثل كتابه إلى حد ما

دائرة معارف فريدة من نوعها فى العلوم والتصوف . وقد رأى لزاماً عليه أن يشير فى كل موضع إلى المخطوطات النادرة التى رآها فى الأماكن المختلفة ؛ والمؤلفون المتأخرون فى المغرب أفادوا كثيراً من كتابه[١٧٤] وهو يحتل آخر موضع فى سلسلة المنتخبات الجغرافية التى نشرها بلاشير Blachère والتى كثيراً ما رجعنا إليها فى تضاعيف كتابنا هذا ؛ ولايوجد بالطبع ما يبرر ذلك لأنه وجد بعد العياشى عدد من الكتاب من نفس الاتجاه يتممون التقاليد الجغرافية وإن لم يأتوا فيها بجديد ، غير أنه يمكن على أية حال أن نعترف به كنموذج لجميع مؤلفى هذا العهد الأخير الذى لم يطرأ فيه أى تقدم فى هذا الميدان إلى العصر الحاضر ، أو على الأقل إلى القرن التاسع عشر .

أما الرحلة الأخرى التى قام بها الدبلوماسى فهى تمثل أهمية أكبر من وجهة نظرنا . وأبو عبد الله محمد الوزير الغسانى من أسرة أصلها من الأندلس ولكنها استقرت بمراكش ، وكان يعمل كاتباً ببلاط الشرفاء العلويين بمكناس فى عهد مولاى اسماعيل الطويل الأمد (١٠٨٣ هـ - ١١٣٩ هـ : ١٦٧٣ - ١٧٢٧) ؛ وقد اكتسب الشهرة كخبير بأسماء الكتب (bibliograph) وخطاط وناثرفى[١٧٥] . وفى عام ١٦٨٩ عندما استرجع الشريف مدينة العرائش من الأسبان ووقعت حاميتهم فى يده فكر فى أن يعرض على ملك أسبانيا استبدال الحامية بخمسمائة أسير مراكشى ممن كانوا فى الأسر بأسبانيا وخمسة آلاف كتاب من الاسكوريال ، ووقع اختياره على الوزير الغسانى ليضطلع بهذه المهمة . ومن العسير القول بصورة محددة عما إذا كانت تلك هى حقاً أهداف الرحلة ، إلا أن الرحالة على أية حال يتحدث عن ذلك كثيراً فى خلال وصفه لرحلته . وهو فى الواقع يتكلم عن وجود أسرى مراكشيين بقادس وقرطبة ومدريد ولكنه لايذكر شيئاً عن ترحيلهم إلى أرض الوطن[١٧٦] ، أما المخطوطات فقد كان للمراكشيين فكرة مضطربة بعض الشىء بصددها ، وهم كانوا على علم بأن الأسبان نقلوا إلى مكتبة الاسكوريال « خزائن من قرطبة وإشبيلية وغيرها[١٧٧] » . ومن المعلوم أن مجموعة الإسكوريال ترجع فى الواقع إلى عهد متأخر وتمثل فى جوهرها قسماً من مكتبة مولاى الشريف زيدان (١٠١٢ هـ - ١٠٣٨ هـ : ١٦٠٣ - ١٦٢٨) التى سطى عليها القراصنة أثناء رحلة للشريف من آسفى إلى أغادير[١٧٨] ، وعندما علم المراكشيون بخبر الحريق الذى تعرضت له مكتبة الإسكوريال فى عام ١٦٧١ لم يصروا كثيراً على استرداد المخطوطات بل عرضوا أن يستبدلوها بخمسمائة أسير آخر . ونظراً لأن وصف الرحلة لا يذكر شيئا عما تم بصدد هذا العرض فإن بعض البحاثة يميل إلى الافتراض بأن هدفى الرحلة المشار إليهما لم يكونا إلا ذراً للرماد فى العيون وأن الهدف الحقيقى كان على أغلب الظن محاولة عقد معاهدة صلح بين الطرفين[١٧٩] . وعلى أية حال فقد رأى المؤلف من الضرورى أن يظهر اهتمامه بالهدف الأول للرحلة بأن يعنون كتابه « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » . ومما يؤسف له أن جميع المخطوطات المعروفة حتى الآن ليست كاملة وتنقطع

717

فى وصف طريق العودة عند طليطلة(١٨٠) ؛ و اعتماداً على إحداها قدم لنا سوڤير Sauvaire ترجمة مختصرة للكتاب* .

خرجت السفارة من سبتة فى الخامس عشر من المحرم سنة ١١٠٢ هـ = ١٩ أكتوبر ١٦٩٠ متجهة إلى جبل طارق ، ومرت فى طريقها على طريف وقادس وشريش و « ايشكا » Ecija وقرطبة وليناريس Linares ومانسنارس Manzanares وموا Mora حتى بلغت مدريد فى اليوم السابع من ربيع الثانى من نفس العام = ٨ يناير ١٦٩١ . ثم غادرت مدريد فى طريق الرجعة فى أول رمضان = ٢٩ مايو إلى طليطلة ، وينقطع بعد هذا وصف الطريق بانقطاع المخطوطة . هذا ويكشف الرحالة عن قوة ملاحظة وانتباه غريبين بالنسبة لعصره(١٨١) ، كما وأن سعة أفقه وما اتسم به من روح التسامح الشديد الغريب بالنسبة لمراكشى من عصره قد سمح له بأن يتجاذب أطراف الحديث بيسر مع رجال الدين(١٨٢) الذين كانوا يلعبون دوراً خطيراً فى أسبانيا لذلك العهد ، وأيضاً مع بقايا العرب المتنصرين . ومن الطريف فى هذا 718 الصدد أن نشير إلى محادثاته الطويلة فى محلة اندوخر Andujar قرب قرطبة مع « أولاد السراج » ، وهم أحفاد بنى سراج المشهورين الذين انتقلوا إليها من غرناطة فى أواخر القرن الخامس عشر(١٨٣) . وهو يولى نفس القدر من الانتباه لتفهم أسلوب المعيشة فى أديرة الراهبات التى تعرف عليها بصورة مباشرة .

والمؤلف يتحاشى القصص فى عرضه ولايثقل وصفه على عكس الكثيرين بالاستطرادات المنقولة عن مؤلفين آخرين ، بل إن مسجداً مشهوراً كمسجد قرطبة لايظفر لديه إلا بمكانة صغيرة . وفى مقابل هذا فهو يتحدث بتفصيل أكثر عن تاريخ أسبانيا الحديثة وعن آخر هجرة للموريسكيين منها ، كما يفصل الكلام بصورة خاصة عن سياسة أوروبا المعاصرة له . ومن اتجاهه العام يبدو كعالم اثنوغرافى واجتماعى أكثر منه مؤرخاً ، فهو يهتم قبل كل شىء بوصف الأخلاق والعادات والنظم ؛ وفى هذا المجال قد تفوق معطياته أحياناً الأوصاف الأوروبية المعاصرة له(١٨٤) . وهو على معرفة جيدة بنظام « ديوان التحقيق » Inquisition الذى تركز نشاطه فى ذلك العصر بصورة خاصة فى محاكمة المتهمين بالتهود ؛ وقد كان شاهداً لمصارعة الثيران التى يرجع أول ذكر لها فى العادة إلى القرن السابع عشر ولو أنها لم تكن قد اكتسبت فى تلك الآونة طابعها العنيف الذى تحيط به الطقوس الدينية بل كانت مناسبة شعبية لاتقتصر على المحترفين وحدهم إذ كان يأخذ طرفاً فيها كل من يدعى لنفسه الشجاعة ورباطة الجأش(١٨٥) . ورحالتنا يولى عناية خاصة لوصف الرقصات الشعبية التى عملت تكريماً له(١٨٦) ويقدم لنا تحليلا لشخص الملك كارلوس الثانى آخر سلالة الهابسبرج على العرش الأسبانى (١٦٦٥ — ١٧٠٠) معتمداً فى ذلك على انطباعاته الشخصية ؛ ويجب الاعتراف بأن هذا التحليل لايخلو من بعض الزيادة على ما سرده الرحالة الأوروبيون فى هذا

* نشر متن هذا الكتاب الفريد البستانى مع ترجمة اسبانية فى عام ١٩٤٠ بطنجة . (المترجم).

الصدد[١٨٧] . هذا وقد اقتصرت دائرة اتصاله بالطبع على الوسط الأرستقراطى ، وجهد رجال البلاط فى أن يحدثوا فى نفسه أثراً طيباً بأدبهم الجم وبشاشتهم وحسن معاملتهم ، كما بذلوا جهدهم فى أن يروه كل ما يمكن أن يكون ذا طرافة وأهمية بالنسبة له[١٨٨] . غير أن هذا لم يطغ على الجوانب الأخرى للحياة فهو يهتم بالجانب الاقتصادى ويوجه الكثير من انتباهه إلى طرق الزراعة وتربية الحيوان[١٨٩] ؛ أما فيما يتعلق بعالم الطبيعة فهو يقف موقف الملاحظ المهتم بنشاط الإنسان فيه ولا يولى اهتماماً خاصاً بالمناظر الطبيعية أو جمال الطبيعة نفسها أو يكلف نفسه نقل الأوصاف الشاعرية التى صاغها الغير[١٩٠] . وفى مقابل هذا فقد كان فى موقف يمكنه من أن يتثبت من الأثر السيء الذى تركه كشف أمريكا على أسبانيا والإسبانيين رغماً من الغنى الفاحش الذى عاد إلى البلاد نتيجة لذلك[١٩١] .

719 وبوجه عام فكتابه لا يخلو من الطرافة ومادته ذات أهمية فى العادة ، وهى تمس السكان والمدن والريف والطبقات العليا والدنيا ولا يوجد فى عرضه أى أثر للتحيز المقيت أو العصبية ضد الأجانب بل ينبض بالكثير من العاطفة الطيبة نحو الغير مما سمح له بتفهم أشياء كثيرة تعد غريبة بالنسبة للمسلمين . وإن ما يمتاز به العرض من حيوية وقوة ملاحظة ليقف كفئاً لأحسن أوصاف الرحلات الأوروبية لذلك العهد فهو يقدم لنا لوحة دقيقة للحياة الإسبانية وعلى الأخص حياة البلاط الإسبانى فى عهد كارلوس الثانى[١٩٢] . ولعلنا نذكر جيداً كيف أنه قبل عشرين عاماً من الغسانى وجد الرحالة العربى المسيحى إلياس الموصلى فى نفس تلك الظروف ، ولعل عقد مقارنة خاصة بين معطياتهما سيكشف لنا عن تفاصيل ليست بالقليلة من حيث طرافتها . ولنذكر عرضاً أن الغسانى يتحدث عن سفارة من « مسكوبيا » زارت أسبانيا قبل مجيئه بثلاثة أعوام[١٩٣] ، ومن المحتمل أنه إنما يشير بذلك إلى سفارة روسية زارت فرنسا وأسبانيا فى عام ١٦٨٧ - ١٦٨٨ كما يستفاد من مصادر أخرى[١٩٤] . ولم تمر سفارة الغسانى هكذا دون أن تترك أثرها على سير الأدب ، وسنرى فى القرن التالى لهذا رحلة مماثلة إلى أسبانيا قام فيها بمهمة دبلوماسية رجل آخر من أهل مراكش يدعى الغزال يمكن أن نلمح فى تضاعيف وصفه لرحلته انعكاساً معيناً لوصف رحلة الغسانى[١٩٥] . وأغلب الظن أن الشريف اعتبر رحلة الغسانى رحلة موفقة اذ نراه يبعث به فى العام التالى أى فى سنة ١١٠٣ هـ - ١٦٩٢ كاتماً لأسرار سفارة أخرى وجه بها إلى الأتراك فى الجزائر . ولم يحفظ لنا وصف لهذه الرحلة الأخيرة . هذا وقد توفى الغسانى بفاس فى سنة ١١١٩ هـ - ١٧٠٧ .

وكما هو الحال مع العهود السابقة فإن المغرب يقدم لنا فى القرن السابع عشر بعض المؤرخين الذين يلفتون النظر إما لميلهم الواضح نحو الجغرافيا أو لوجود معطيات جغرافية وافرة فى مؤلفاتهم . وقد اكتسب أكبر شهرة بينهم فى الأوساط العلمية الأوروبية محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى المعروف عادة بنسبته الأخيرة أو بكنيته الثانية « ابن أبى دينار »[١٩٦] ؛ ويوجد مصنفه « كتاب المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس » فى طبعة تونسية قديمة ترجع إلى عام ١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ وأخرى أحدث منها ترجع

إلى عام ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ ، وأيضاً فى ترجمة فرنسية قام بها پليسيية Pélissier ورموزا Rémusat على أساس إحدى مخطوطات الكتاب . أما الكتاب فقد تم تدوينه تبعاً لما جاء بالمخطوطة والطبعة فى عام ١١١٠هـ= ١٦٩٨ أو فى عام ١٠٩٢ هـ = ١٦٨١[١٩٧] ، ولايزال غير مفهوماً على الإطلاق ذلك السهو الذى جعل كرامرس يرجع ذلك إلى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦[١٩٨] . | وينقسم المصنف إلى سبعة أبواب وخاتمة 720 فالباب الأول فى وصف تونس والثانى فى ولاية أفريقية والثالث يعالج الكلام على فتح العرب لها على حين أفرد الباب الرابع للفاطميين والخامس للزيريين (من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر) والسادس للحفصيين (من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر) والسابع لعهد السيادة التركية . وتتضمن الخاتمة أربعة أقسام تحتوى على زيادات وتتمات بعضها ذو طابع عرضى ، مثل معلومات متفرقة عن تونس وما جرى فيها من تغييرات على مر التاريخ وعما اكتسبه صحيح البخارى من رواج فى شمال أفريقيا الخ . وفى بعض أقسامه ، خاصة الأول والثانى ، يقترب المصنف من طراز الجغرافيا الإقليمية أحياناً ومن نمط « الفضائل » أحياناً أخرى ، ورغماً من تاريخه المتأخر فإن الكتاب يظفر بتقدير عال ؛ وعنه يقول أمارى وهو خبير بمثل هذه المواد : « هذا مصنف نقلى دقيق للقرن السابع عشر جمع بين دفتيه عدداً كبيراً من الملاحظات الطبوغرافية والتاريخية عن افريقيا منذ الفتح العربى لها إلى الفتح العثمانى . والمؤلف لايفتقر إلى موهبة النقد وقد أفاد كثيراً من مواد جديدة لم تصل إلينا بطريق مباشر »[١٩٩] . ولاحظ كوديرا Codera أن كتاب القيروانى لا يخلو من الأهمية حتى بالنسبة لتاريخ أسبانيا[٢٠٠] .

ومهما يكن من شىء فإن أكبر شخصية فى محيط الأدب عامة فى القرن السابع عشر هو المقرى ؛ وفى مؤلفه الرئيسى تنعكس قبل كل شىء شخصية المؤرخ أو مؤرخ الأدب ، بل وأصح من هذا شخصية الأديب وذلك وفقاً للمفهوم الدقيق لهذا اللفظ فى الوسط العربى . غير أن شخصيته تقف أنموذجاً جيداً لجميع عصر التدهور ، كما أن المادة التى جمعها ذات فائدة بالنسبة لجميع المسائل المتعلقة بأسبانيا الإسلامية بصورة تجعل من المستحيل علينا أن نتجاهله فى دراسة عامة كهذه تعرض لتاريخ الأدب الجغرافى . وهو لا يخلو من الطرافة من ناحية أخرى إذ يعد أيضاً أنموذجاً جيداً للصلة الوثيقة فى مجال الثقافة التى ربطت بين البلاد العربية فى ذلك العصر[٢٠١] . ولد أحمد بن محمد بن أحمد المقرى التلمسانى حوالى عام ١٠٠٠ هـ = ١٥٩١ بتلمسان كبقية أسلافه المباشرين ؛ ونسبته الأخرى التى تعطى أحياناً فى صورة المقرى تشير إلى أن أسرته تنتسب إلى محلة صغيرة تقع قريباً من تلك المدينة ، وليس ثمة ما يدعو إلى أن نرى فيها تحريفاً للقب المقرئ التى تشير إلى العمل بتلاوة القرآن أو تدريسه للصبية[٢٠٢] . وكان أحد أسلافه معلماً للأديب الأندلسى المغربى المشهور فى القرن الرابع عشر ابن الخطيب ، ولعل تأثير هذه الصلة قد 721 إنعكس بالتالى فى أن أصبح المقرى قارئاً متحمساً لهذا الكاتب والشاعر الكبير وخصص له مصنفه الأساسى الذى سيرد بنا الكلام عليه . وقد تتلمذ المقرى فى صباه على عمه الذى كان يشغل منصب الإفتاء وأعاد

عليه سبع مرات قراءة صحيح البخارى الذى أصبح بمرور الزمن الموضوع المفضل لتدريسه حتى نال الشهرة فيه بين الناس . وكانت فاس فى ذلك العهد مركز الدراسات الدينية بالمغرب واشتهر فيها بذلك مسجد القرويين المعروف ، وإليها رحل المقرى وهو غلام فى عام ١٠٠٩ هـ = ١٦٠٠ ؛ وفى العام التالى لهذا زار مراكش ثم أغمات حيث يوجد قبر الأمير الشاعر المعتمد . وقد زار المقرى مسقط رأسه عدة مرات فى سنى حداثته ولكن نراه مرة ثانية بفاس فى عام ١٠١٣ هـ = ١٦٠٤ ، ثم مالبث أن استقر بها لمدة طويلة ابتداء من عام ١٠٢٢ هـ = ١٦١٣ وشغل بها منصباً محترماً كإمام ومفت بجامع القرويين رغماً من حداثة سنه . وكان موضوع تدريسه الخاص طول حياته هو الحديث ودوّن فى ذلك عدداً من التصانيف اعتمد عليها فى التدريس فى تلك الآونة وفيما بعد أثناء إقامته بالمشرق ؛ إلا أن ميوله الخاصة ، أوكما مقال « غير الرسمية » ، قد اجتذبته على ما يبدو منذ سن مبكرة نحو أدب الأندلس وتاريخها فليس غريباً إذا أن يهتم منذ أيام شبابه الأولى بالمعتمد وابن الخطيب . وثمة ظروف خاصة يمكن أن تكون قد تركت أثرها عليه ، ذلك أن أيام صباه تتفق مع لحظة طرد الموريسكيين نهائياً من أسبانيا فى عهد فيليب الثانى فى عام ١٦٠٩ ؛ وقد انتقلت هذه الفئة النشطة إلى شمال أفريقيا باعداد كبيرة واستقرت بمدنها الكبرى مثل تونس وفاس وتلمسان(٢٠٣) . وكان فى مستطاع المقرى أن يسمع منهم روايات حية كما كان بمقدورهم أن يحملوا معهم من أسبانيا بقايا المصادر الأدبية لا باللغة الألخميادوية وحدها بل وأيضاً بالعربية الخالصة ؛ ومهما يكن من شىء فلا يوجد ثمة شك فى أن المقرى لم تفته فى هذا العهد المبكر من حياته المواد المتعلقة بالحضارة العربية الإسبانية ، بل وربما يكون قد جمعها بكميات كبيرة . وقد تمكن المقرى من العثور على أشياء ذات أهمية بمكتبة سلاطنة السعديين بمدينة مراكش ولايخلو من مغزى أن احدى المخطوطات التى اشتغل بدراستها موجودة حالياً بالإسكوريال(٢٠٤) ، وأغلب الظن أن هذا قد تم دون نظام محدد أو خطة مرسومة . وهذه الاتجاهات لم تجد انعكاساً فى المؤلفات الأدبية للمقرى إلا قريباً من نهاية حياته عندما حمله أصدقاؤه على وضع أثر أدبى ميزه عن بقية المشتغلين بالعلوم الدينية .

وفى آخر رمضان من عام ١٠٢٧ هـ . سبتمبر ١٦١٨ غادر المقرى المغرب ووجهته الأساسية حج بيت الله . وأغلب الظن أنه اعتقد أن غيبته لن تطول 722 لأنه ترك وراءه القسم الأساسى من مخطوطته ومادته بالمغرب ؛ غير أنه لم يقدر له الرجوع مرة ثانية إلى أرض الوطن . وخط سير رحلته معروف لنا جيداً من إشاراته الشخصية فى مقدمة كتابه الذى يهمنا بصورة خاصة ، فقد أخذ طريق البحر إلى مصر ولكنه لم يقم طويلا بالقاهرة فى هذه المرة الأولى إذ غادرها فى رجب من عام ١٠٢٨ هـ . يونيو ١٦١٩ إلى مكة . ولم يلبث أن رجع إلى القاهرة فى المحرم من عام ١٠٢٩ هـ = ديسمبر ١٦١٩ فتزوج بها ، ويلوح أنه عقد العزم على الإقامة بها لمدة طويلة . ومن الجلى أن ظروف حياته لم تسر بحسب مايهوى ، وينعكس هذا فى شكايته التى نظمها شعراً وفى القلق الذى استولى على نفسه حتى دفعه إلى الترحال مرة ثانية . فنى ربيع

الأول من عام ١٠٢٩ هـ = فبراير ١٦٢٠ قام برحلة قصيرة إلى بيت المقدس ولكنه رجع بالتالى إلى القاهرة ؛ وقد حج إلى عام ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ خمس مرات زار خلالها المدينة سبع مرات وألقى دروساً فى الحديث بها أكثر من مرة . وبعد رجوعه إلى القاهرة فى صفر من عام ١٠٣٧ هـ = أكتوبر ١٦٢٧ بدأ يدرّس بالأزهر ، وفى رجب من نفس العام = مارس ١٦٢٨ زار القدس ولكنه لم يمض بها أكثر من خمسة وعشرين يوماً ؛ وفى شعبان (أبريل) زار دمشق لأول مرة وقد اجتذبه إليها دعوة من معارف جدد له فقد التقى أثناء الحج بمفتى سوريا العالم العمادى (توفى عام عام ١٠٥١ هـ = ١٦٤١)[٢٠٥] الذى تولى لعدد من السنين أمارة الحاج الدمشقى فدعاه لزيارة دمشق[٢٠٦] التى كانت تعتبر نفسها فى ذلك الوقت مركزاً ثقافياً لايقل قدراً عن القاهرة . وبدمشق التقى المقرى بشخص حمل له إعجاباً شديداً هو أحمد بن شاهين القبرصى (توفى عام ١٠٥٣ هـ = ١٦٤٣) ، وهو معلم وأديب من أهل البلاد[٢٠٧] . وبفضل علاقته به تيسرت له الإقامة بدمشق واستطاع أن يدرس الحديث بالمدرسة الجقمقية ؛ ومرة أخرى اضطلع المقرى بتدريس صحيح البخارى وختم ذلك فى هذه المرة خلال أربعين يوماً وذلك فى السابع عشر من رمضان من عام ١٠٣٧ هـ = ٢١ مايو ١٦٢٨ وسط جو من الحماس والاحتفال الشعبى . وقد وجد من بين تلامذته شخصيات نابهة يذكر معجم السير للمحبى عن أحدهم وهو يحيى بن أبى الصفا المحاسنى توفى (عام ١٠٥٣ هـ = ١٦٤٣) أنه «كان يصحبه كظله » ؛ وقد استمع هذا الشخص لجميع ما قاله المقرى ودون بالتالى ما أملاه عليهم الشيخ[٢٠٨] . وغادر المقرى دمشق فى الخامس من شوال عام ١٠٣٧ هـ = التاسع من يونيو ١٦٢٨ وأقام بالقاهرة حوالى ثلاث سنوات إلى شعبان من عام ١٠٤٠ هـ = مارس ١٦٣١ حينما غادرها فى زيارة ثانية لدمشق لم تطل أكثر من الأولى . هذا وقد سرته كثيراً دمشق كما سره أهلوها ؛ 723 ويبدو أنه قد نال هناك لأول مرة فى حياته التقدير والاعتراف الكامل بمكانته العلمية ، وينعكس هذا فى الأشعار والمكاتبات التى تبادلها مع صديقيه الدمشقيين العمادى[٢٠٩] وأحمد بن شاهين[٢١٠] والتى ترد شذرات منها فى مؤلفه وفى مختلف المجموعات الأدبية . وقد ألف ابن شاهين معجماً خاصاً للسير يتعلق بإقامته بدمشق وينعكس فيه صدى هذه التيارات الأدبية ، وهو محفوظ فى مخطوطة موجودة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية[٢١١] . وقد عنّت للمقرى الفكرة بأن ينتقل للإقامة نهائياً بدمشق فرجع إلى القاهرة وبدأ فى تصفية أعماله بها ولكن الموت اختطفه فى مرض فجائى فى جمادى الثانية من عام ١٠٤١ هـ = يناير ١٦٣٢ ولم يتجاوز الأربعين إلاّ بقليل .

ويعود الفضل بلاشك إلى الدمشقيين فى تشجيع المقرى على إخراج أكبر آثاره الأدبية ، وهو نفسه يقول إنه فى محادثاته مع أصدقائه وخاصة مع أحمد بن شاهين[٢١٢] كان كثيراً ما يتذاكر الأندلس[٢١٣] ؛ ويبدو أنه أثار فى نفس هذا الأخير تقديراً وإعجاباً كبيرين لشخصية وزيرها لسان الدين بن الخطيب ونبوغه فألح عليه بأن يصنف فى ذلك سفراً خاصاً[٢١٤] . وقد امتنع المقرى طويلا عن الاستجابة لهذه

الرغبة لعلل مختلفة ولكنه لم يلبث أن أذعن بعد ذلك(٢١٥) ، ويبدو أنه لم يكن بوسعه مقاومة ميوله الشخصية . ولما رجع المقرى إلى القاهرة ظل ابن شاهين يذكره فى خطاباته وقصائده بالوعد الذى قطعه على نفسه فبدأ المقرى العمل فى المصنف وفرغ منه فى أقل من عام وذلك بتاريخ ٢٧ رمضان من عام ١٣٠٨ هـ = ٢١ مايو ١٦٢٩ ، وأغلب الظن أنه أتم المسودة الأولى فقط دون أن ينقحها(٢١٦) . وفى شكلها هذا كانت مكرسة لابن الخطيب وحده ومن ثم فقد حملت لهذا السبب عنوان « عرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب »(٢١٧) ، وتوجد نسخة من هذه المسودة القصيرة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية(٢١٨) .

غير أنه منذ بداية العمل فى الكتاب عنت للمقرى فكرة ضرورة استكمال هذه الدراسة بمعالجة الكلام على تاريخ الأندلس وأدبها عامة مؤرخاً للعهد المبكر | والعهد المتأخر(٢١٩) ؛ وهكذا نشأ بالتدريج خلال 724 تحضيره للمسودة الثانية من الكتاب قسم جديد مستقل ذو طابع عام احتل المكانة الأولى من مصنفه وشغل بالتقريب ثلثى الكتاب كله . وفى هذه الصورة النهائية أتم المؤلف مصنفه فى اليوم الأخير من عام ١٠٣٩ هـ = التاسع من أغسطس ١٦٣٠(٢٢٠) وأعطاه عنواناً يجمع بين الموضوعين هو « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب »(٢٢١) . والقسم الأول منه مفرد للكلام عن الأندلس عامة ، ويوجد فى طبعة أوروبية قديمة قام بتحضيرها دوزى Dozy وديغا Dugat وكريل Krehl ورايت Wright (١٨٥٥ . ١٨٦١) وجمعت إلى هذا ملاحظات قيمة لفليشر Fleischer فى نقد المتن(٢٢٢) ؛ أما الكتاب فقد ظهر فى طبعة كاملة غير علمية بمصر (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ . ١٨٦٣ ؛ القاهرة ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤) .

ويمكن القول بأن المقرى قد خلد الدور الكبير الذى لعبه أصدقاؤه الدمشقيون فى خروج الكتاب(٢٢٣) ، فهو فى مقدمته العريضة يومئ أكثر من مرة وبالتفصيل إلى إلحاحهم الشديد وإلى محادثاتهم وتذكيراتهم الكتابية فى هذا الصدد إن نثراً وإن شعراً . وهو يبين أن مصنفه هذا المكرس لأسبانيا العربية يرتبط بالسوريين فى أربعة نقاط ، أولاها أن الدافع الأول لظهوره يرجع إليهم ، ثم إن أهل الشام هم الذين افتتحوا أسبانيا ؛ أضف إلى هذا أن الشطر الأكبر من سكانها العرب كان ينتمى إليهم ؛ وبخلاف ذلك فإن غرناطة التى أصبحت بالتالى آخر ملاذ للعرب بأسبانيا كان أول من أستوطنها عند إنشائها جماعة تتكون فى معظمها من أهل دمشق(٢٢٤) . ولعل عواطف المقرى نحو أصدقائه السوريين هى التى توضح السبب فى أنه وضع مصنفاً تاريخياً بعنوان « عرف النشق فى أخبار دمشق » تقتصر معرفتنا به حتى الآن على عنوانه فقط الذى ورد فى قائمة ببليوغرافية(٢٢٥) .

وإن الأمد الوجيز الذى أكمل فيه المقرى تأليف كتاب يضم ما يقرب من ثلاثة آلاف صفحة مطبوعة ليقف بالطبع دليلا على أن موضوع الكتاب كان يشغل جانباً من تفكيره على الدوام وأن مادته قد تم

اختيارها منذ وقت طويل . وفى الواقع فهو يذكر فى مقدمة كتابه أنه قد جمعها وهو لا يزال بأرض الوطن[٢٢٦] ولكنه تركها وراءه بالمغرب باستثناء قسم ضئيل منها[٢٢٧] ؛ وفضلا عن هذا فهو يشير أكثر من مرة من خلال العرض إلى أسماء مصنفات معروفة كانت تحت تصرفه بالمغرب ولكنه لم يعثر عليها اطلاقاً **726** بالمشرق[٢٢٨] فمثلا نراه يذكر بصدد الذخيرة لإبن بسام ما نصه : « فإن الذخيرة غريبة فى البلاد المشرقية وقد كان عندى بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به فخلفته هنالك والله يلم الشمل »[٢٢٩] . وعند اختتامه لأحد أبواب كتابه يضيف : « الوافدون من المشرق على الأندلس كثيرون جداً إلا أن عدم المادة التى أستعين بها فى هذه البلاد تبين عذرى ولو اجتمعت على كتبى المخلفة بالمغرب لأتيت فى ذلك وغيره بما يشفى ويكفى . . . »[٢٣٠] . وأمثال هذه الكتب كثير ، ولعل هذا كان هو العامل الأساسى الذى جعله يتردد فى البداية حول إمكان تحقيق هذا العمل الذى دفعه إليه أصدقاؤه . وقد كان الأمد الوجيز الذى استغرقه تأليف الكتاب هو السبب أيضاً للأسف فى أن هذا المصنف الذى وضع أساساً اعتماداً على الذاكرة وغلب عليه طابع العجلة يعكس بوضوح آثار هذا سواء فى الترتيب العام للكتاب أو فى تفاصيله . فهو يحفل بعدد غير قليل من الأخطاء كما يحفل بحالات عديدة للتكرار والسقط التى اعترف المؤلف نفسه أحياناً بوجودها ، غير أن جميع هذه المناقص يرجح بها من الجهة الأخرى غنى الكتاب بمادته التى لا يعادل له فيها أى مصدر من المصادر الموجودة بين أيدينا للتعريف بأسبانيا العربية .

وينقسم الكتاب فى مجموعه إلى قسمين ويسود الانتظام توزيع مادته فى الداخل وفقاً للتبويب الذى وضعه المؤلف ، ولو أنه يلاحظ أن المادة لا تسير وفقاً لذلك فى العناوين المتأخرة . وكل من القسمين الأول والثانى يحتوى على ثمانية أبواب[٢٣١] ، وتسبقهما مقدمة طويلة[٢٣٢] يعرض فيها المقرى لتفاصيل من سيرة حياته ولجميع تاريخ تصنيف الكتاب . أما بالنسبة للأنماط الجغرافية فهو ينضم إلى النماذج المعروفة لنا جيداً لنمط الرحلة « العلمية » ، ولكن إذا أجاز هذا التعبير فهو إنما يمثل أنموذجاً لتدهور ذلك النمط . وتكاد معطياته الواقعية تقتصر على إيراد التواريخ التى يبدأ فيها تنقلاته من موضع إلى آخر أو عدد وصوله إليه ، وهى فى العادة تتميز بالدقة رغماً من جنوحها إلى الاقتضاب ؛ بل إن أسماء العلماء المحليين ممن يرد ذكرهم عادة فى الرحلات من هذا الطراز لا وجود لها لدى المقرى باستثناء أصدقائه الدمشقيين الذين يتحدث عنهم بالتفصيل ويسوق نقولا من رسائلهم النثرية والشعرية . وبخلاف هذا فإن المقدمة كلها تمثل على وجه التقريب مجموعة من الأشعار فى تصوير حالته النفسية أثناء الرحلة ، مثال ذلك وصفه لحالة الهلع الذى استولى عليه من ركوب البحر وهو موضوع نلتقى به لدى جميع الرحالة بالتقريب . والمقرى يربط بين هذه المنتخبات الشعرية بجمل قصيرة مسجوعة ، أما اختياره للقطع الشعرية فكثيراً ما يغلب عليه طابع الصدفة كما أن العرض العام للكتاب يسوده الإطالة والإسهاب الشديدان ؛ ولا يخلو من طرافة فى هذا الصدد أن المؤلف يستشعر فى نفسه هذا العيب ولكنه يعجز عن توجيه تيار المادة **727**

الأدبية الجارف ويقتصر على ملاحظات يُحس منها عجزه وسذاجته ، مثال ذلك قوله : « وكأنى بعاتب يقول ما هذا التطويل »(٢٣٣) ؛ أو « وربما يقول من يقف على سرد هذه الأمداح النبوية إلى متى وهذا الميدان تكل فيه فرسان البديهة والروية »(٢٣٤) ؛ أو « وقد امتد بنا الكلام وربما يجعله اللاحى ذريعة لزيادة الملام فلنرجع إلى ما كنا بصدده »(٢٣٥) .

غير أن جميع هذه المآخذ التى اعترف هو نفسه بوجودها لم تمنعه من إعادة الكرة ، فلدى أقرب فرصة تتكرر لديه نفس اللوحة دونما أى تغيير حتى فى الأقسام الداخلية من الكتاب . والباب الأول من القسم الأول (الجزء الأول ، الصفحات من ٨٠ إلى ١٤٠) مكرس فى أساسه لجغرافيا الأندلس وآثارها ومدنها ، الكبرى أولا ثم تتلوها تلك التى تعتبر من الدرجة الثانية . وهذا الباب ينتمى وفقاً لمصادره وصياغته إلى طراز الفضائل المعروف لنا ولكنه عرضة لنفس تلك المآخذ التى ذكرناها بصدد المقدمة ؛ وهو يمثل فى جوهره خليطاً من النقول تربط بينها ألفاظ المؤلف ولو أنه يلاحظ ها هنا أن المادة حافلة للغاية ومتنوعة وتدعو إلى الثقة ، وهذا يفسر أهميتها الكبرى من أجل دراسة المسائل التى تعالج الكلام عنها. ويبحث الباب الثانى (الجزء الأول ، الصفحات ١٤٠ — ٢١٠) فى فتح العرب للأندلس وحكم الأمراء ، أما الثالث (الجزء الأول ، الصفحات ٢١١ — ٢٩٦) فيعالج الكلام على ازدهار الأندلس فى عهد الخلفاء وملوك الطوائف ثم إخضاع المرابطين والموحدين لها وعن الملاذ الأخير للعرب بغرناطة فى عهد بنى نصر . ويقدم الباب الرابع (الجزء الأول ، الصفحات ٢٩٧ — ٤٦٢) وصفاً مفصلا لقرطبة خاصة فى عهدى ازدهارها (تحت حكم الأمويين إلى عام ١٠١٣ ، وقبل استيلاء القشتاليين عليها فى عام ١٢٣٦) ؛ ويظفر بنصيب الأسد فى هذا الوصف كلامه عن جامعها المشهور وقصر الزهراء وغير ذلك من الآثار ؛ وهو يذكرنا بالنمط الجغرافى المعروف لنا أعنى نمط « الفضائل » . والباب الخامس الذى يحتل المكانة الثانية فى جميع الكتاب من حيث الحجم (الجزء الأول ، الصفحات ٤٦٣ ... ٩٤٣) يقدم لنا أكبر كمية من المادة التاريخية الأدبية فقد أفرده المؤلف لذكر من رحل من الأندلسيين إلى المشرق ، وهو يورد فيه سير ثلاثمائة وأربعة لمثل هؤلاء الرحالة ولا يخلو كلامه أحياناً من معطيات مفصلة للغاية ونقول كبيرة الحجم ؛ وفى هذا الصدد تقابلنا لديه استطرادات خاصة فى مدح دمشق . وهذه السير تختلف اختلافاً كبيراً فى أحجامها فتتراوح بين بضعة أسطر وعشرات الصفحات ، وأكبرها هى التى كرسها للكلام عن ابن العربى المتصوف (الجزء الأول ، الصفحات ٥٦٧ ... ٥٨٣ ، رقم ١١٣) ، وأبى حيان النحوى (الجزء الأول ، الصفحات ٨٢٩ — ٨٦٢ ، رقم ٢١٤) ، وعلى الأخص للرحالتين ابن سعيد (الجزء الأول الصفحات ٦٣٤ — ٧٠٧ ، رقم ١٦٦) وابن جبير (الجزء الأول ، الصفحات ٧١٤ — ٧٩٧ رقم ١٧٨) . وتفيض القطعة التى أفردها لابن سعيد بمقتطفات من ديوانه ومن كتابه « المغرب » حيث يرد وصفه الطريف للقاهرة . ومن بين الصفحات الثمانين التى أفردها للكلام عن ابن جبير لا يشغل

728 الكلام عن شخصه أو مصنفه | فى واقع الأمر أكثر من عشر صفحات ، أما بقية الصفحات فتقدم صورة حية عن منهج المقرى فى التأليف حيث تظفر دمشق كما هى العادة بمركز الصدارة . فهو بعد أن يسوق قطعاً من وصف ابن جبير لها ينتقل إلى الكلام عما قاله الآخرون فى مدح دمشق خاصة الشعراء (الجزء الأول ، الصفحات ٧١٩ — ٧٣٤) ، ثم عن المكاتبات والرسائل المنظومة والمنثورة التى تبادلها مع أصدقائه من أهل دمشق والتى تشغل القسم الأكبر من هذا الموضع (الجزء الأول ، الصفحات ٧٣٤ — ٧٨١) ، كما أن هذا يقدم له فرصة طيبة لإيراد قطع كبيرة من رسائله مع علماء المغرب (الجزء الأول ، ص ٧٨١ — ٧٩١) ؛ وأمام هذا المنهج الذى اتبعه المؤلف ينكشف لنا السر فى أن كتاب المقرى قد تضخم فى بعض مواضعه بصورة خرج بها من حد المألوف . ويماثل هذا الباب فى أسلوبه الباب السادس الذى كرسه للكلام عن الوافدين على الأندلس من المشرق (الجزء الثانى ، الصفحات ٢ — ١٠٣) والذى يقدم فيه ترجمات لسير اثنين وسبعين من القادة والإداريين والعلماء والرحالة . أما الباب السابع فيعرض فيه لمواضيع شتى وهو أكبر أبواب الكتاب (الجزء الثانى ، الصفحات ١٠٤ — ٦٧٠) ، وفيه يقدم المؤلف تحليلا لأخلاق أهل الأندلس وفضلهم فى مجال العلم والأدب ، ويمكن تكوين فكرة عن ضخامة المادة التى يسوقها فى هذا الصدد أنه ضمن فيه ثلاث رسائل بأجمعها فى فضل الأندلس للشقندى وابن حزم وابن سعيد ؛ وتحتوى هذه القطعة على معلومات وافية عن الأدباء والشعراء يوجد من بينها ترجمات لما بين خمس وعشرين وثلاثين من شاعرات الأندلس . أما الباب الثامن والأخير من القسم الأول (الجزء الثانى ، الصفحات ٦٧١ — ٨٣٥) فتغلب عليه المادة التاريخية وهو مفرد فى أساسه للكلام على الكفاح بين الإسبان والعرب ويسوق فيه العرض إلى سقوط غرناطة .

وأما القسم الثانى من هذا المصنف الضخم والذى كان يحمل فى البداية شكلا مستقلا فإنه يمثل فى ذاته دراسة واسعة عن الوزير والأديب الغرناطى المشهور للقرن الرابع عشر لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ هـ — ٧٧٦ هـ = ١٣١٣ — ١٣٧٤) ، ويبحث الباب الأول منه فى أصله وأسلافه ؛ أما الثانى فيسرد تاريخ حياته الخاصة هذا بينما يتحدث فى الباب التالى لهذا عن سير حياة شيوخه مع إيراد قطع مناسبة من مصنفاتهم . أما الباب الرابع فيورد فيه نماذج من أقواله فى مناسبات شتى ونقول من رسائله على حين ترد فى الباب الخامس منتخبات من نثره وشعره يغلب عليها السجع . ويوجد بالباب السادس ثبت تام لمؤلفاته فى جميع ميادين العلم والأدب ، الكاملة منها والتى لم يكملها هذا مع تحليل لمحتوياتها وإيراد نماذج منها . وقد أفرد الباب السابع للكلام على بعض من تلامذته ومن ساروا على نهج أسلوبه الأدبى ؛ وأخيراً يبحث الباب الثامن فى أولاده وأحفاده وما حفظ عنه من صنوف المواعظ والأقوال المأثورة . وهذه المناسبة الأخيرة تقدم الفرصة للمؤلف لاختتام كتابه بسوق عدد من الأشعار التى قيلت فى مدح النبى .

إن هذا التحليل الذى أجريناه لمحتويات الكتاب ليوضح بجلاء مقدار علاقة المقرى بالأدب الجغرافى .

وكما أبصرنا فإن المقدمة والبابين الأول والرابع من القسم الأول يمكن ضمهما دون أى اعتراض إلى أنماط جغرافية محددة ؛ وبنفس القدر يمكن القول بأن البابين الخامس والسادس يمثلان مقتطفات منقولة عن عدد كبير | من الرحلات . ومما لاشك فيه أن هذه الاعتبارات الشكلية لاتكفى فى حد ذاتها لإدخال « نفح الطيب» 729 فى عرض عام للأدب الجغرافى بل يجب أن نأخذ فى حسابنا إلى جانب هذا الأهمية الكبرى للمادة التى يحويها بين دفتيه بالنسبة للجغرافيا فى أوسع مفاهيمها . وكل النقص المحيط بهذا الكتاب إنما مرده فى واقع الأمر كما يقول ديغا Dugat فى تحليله العام له إلى أنه يمثل « مفازة لا يوجد بها دليل »(٢٣٦) خلال أكثر من ألفين من الصفحات ، غير أنه يجب ألا ننكر من ناحية أخرى أنه يعرض أمام أنظارنا جميع أسبانيا المسلمة من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر وذلك فى ميادين التاريخ والأدب والعلم والفن والاجتماع . فهو بهذا إنما يمثل لوحة هائلة لا تخلو من نصيب معين من الحيوية والوضوح نلتقى فيها بالآدميين وبالمدن والآثار والحوادث والرحلات والمعارك ومناظر من مختلف الأنواع مما لايوجد مثيل له فى جميع الأدب العربى .

ولا مشاحة فى أن المقرى يفتقر افتقاراً تاماً للأصالة ، غير أنه مالم يتم الكشف عن جميع المصادر التى استقى منها مادته ، وهو أمر بعيد الحدوث ، فسيظل محتفظاً على الدوام بأهميته وقيمته . والمقرى باعتباره أحد ممثلى الأسلوب « المتكلف » يكشف عن فقر كبير سواء فى ذوقه الأدبى أوفى مهارته ككاتب ، وذلك عند مقارنته بشخص كالعتبى مثلا بل وحتى بابن عربشاه ؛ ورغماً من هذا فإن حماسه الفطرى للأدب الفنى وحبه الشديد للأندلس ليس من شأنه أن يترك القارئ دون أن يمس شغاف قلبه ويحرك من عواطفه ؛ ولهذا السبب فإن مصنفه يمثل قبساً من الضوء فى فترة معتمة من تطور الأدب الجغرافى فى القرن السابع عشر .

حواشى الفصل الثالث والعشرين

(١) Guidi, RB, p. 433-442 -

(٢) شيخو ، وصف ، ص ٧٣٦ — ٧٤٣ ، ٧٩٤ — ٧٩٩ . راجع أيضا مصنفه :
Catalogue raisonné, I, p. 23, No 35; p. 79, No 133, 3 and p. 80, No 134; Catalogue, p. 37, No 112 وأيضا مصنفه : — VV, XIII, 1906, p. 711 - Benshevich, p. XXVII, No 312

(٣) شيخو ، وصف ، ص ٧٤١

(٤) شرحه ، ص ٧٣٩ — ٧٤٢

(٥) شرحه ، ص ٧٤٢ — ٧٤٣ ، ٧٩٤ — ٧٩٧

(٦) شرحه ، ص ٧٩٧ — ٧٩٨

(٧) شرحه ، ص ٧٣٧ — ٧٣٩

(٨) شرحه ، ص ٧٩٨ — ٧٩٩

(٩) شرحه ، ص ٧٩٩

(١٠) Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 16-17, No 29 – Cheikho, Catalogue, p. 99, No 120 -

(١١) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٥٠٨ — ٥١٠

(١٢) شرحه ، ص ٥٠٦ — ٥٠٨

(١٣) شرحه ، ص ٥١١ — ٥١٢

(١٤) رباط ، المشرق ، الجزء الثامن ، ص ٨٢٦ — Rabbath, Rihlat

(١٥) شرحه ، ص ٨٢٩

(١٦) رباط ، المشرق ، الجزء التاسع ، ص ٧٤٠—٧٤٤ — Schnurrer, p. 256-260, No 264 -

(١٧) رباط ، المشرق ، الجزء الثامن ، ص ٨٢١ — ٨٣٤ ، ٨٧٥ — ٨٨٦ ، ٩٣١ — ٩٤٢ ، ٧٩٤ — ٩٨٣ ، ١٠٢٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٨٠ — ١٠٨٨ ، ١١١٨—١١٢٩ .

(١٨) شرحه ، الجزء التاسع ، ص ٧٥ — ٨٠

(١٩) Cf : Gordlevski, ZKV, V, p. 277-278 -

(٢٠) Gordlevski, Etnograficheskoe obozrenie, 1906, No 3-4, p. 323 -

(٢١) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٥٢ — چلبى ، مخطوطات ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، رقم ٢٣

(٢٢) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٥٣

(٢٣) عن مجموعه اسبات راجع : Sbath, Catalogue, I, p. 62, No 108

— سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٤٩

(٢٤) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ٤٤٩-٤٥٢ = Loth, Catalogue, p. 207, No 719 –

(٢٥) سركيس ، لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٥١٨

(٢٦) – Murkos, Puteshestvie Makaria, V

(٢٧) – Cheikho, Catalogue, p. 51, No 162 –

[(توجد) في المخطوطة ملاحظة لكراتشكوفسكي : « اضافاتي »]

(٢٨) الباشا ، ص ٤٦ — ٤٩ — حبيب الزيات ، صيدنايا ، ص ٧٦

(٢٩) اقتبسها من قبل فستنفلد Wüstenfeld

(٣٠) – Murkos, Puteshestive Makaria, V, p. 196

(٣١) Krachkovski, Ruk. sobr. Grigoria IV, p. 15-16, No 30

(٣٢) – Krachkovski, Gramota Ioakima IV, p. 21-23 — Sukhanov, Letopis, p 613, 615-616

(٣٣) – Murkos, Puteshestvie Makaria, IV, p. 187

(٣٤) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ١٣

(٣٥) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ١٨٧

(٣٦) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ١٣

(٣٧) النعمة ، الجزء الرابع ، ص ٤٦ ، ملاحظة ٢ —

Makarii, rukopis Instituta Vostokovedenia AN SSSR, V 1230, leaf 115b

(٣٨) – Murkos, Puteshestvie Makaria, II, p. 112-115

(٣٩) – Krymski, Rikhlat Makariius, p. 6 a

(٤٠) – Belokurov, p. 185

(٤١) شرحه ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧

(٤٢) كان سوخانوف موجوداً بياسي منذ ٤ فبراير ١٦٥٤ : – Cf : Belokurov, I, p. 336

(٤٣) – Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 163; IV, p. 35-36

(٤٤) – Belokurov, I, p. 305 - Russki blog. slovar, II, p. 308

(٤٥) – Belkurov, I, p. 425-426

(٤٦) – Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 66, 85

(٤٧) Kapterev, p. 121, note –

(٤٨) حبيب الزيات ، صيدنايا ، ص ١٧٢

(٤٩) شرحه ، ص ٢٠٤

(٥٠) Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 66, 85 –

(٥١) Dmitrievski, p. 8 –

(٥٢) Sukhanov, Letopis, p. 661-662 –

(٥٣) Dmitrievski, p. 36 –

(٥٤) شرحه ، ص ٣٧

(٥٥) شرحه ، ص ٣٨

(٥٦) شرحه ص ، ٣٩ – Djuze, Gruzia v 17 - m stol., p. 4 — Lebedew, p. 6 –

(٥٧) راجع مثلا : المشرق ، الجزء الثانى والعشرين ، ص ٣٥٢ رقم ٢٦

(٥٨) Kapterev, p. 121, note –

(٥٩) Dmitrievski, p. 41 –

(٦٠) Kapterev, p. 121, note –

(٦١) Krachkovski, Gramota Ioakima IV, p. 22-23 — Cheikho, Catalogue, p. 151, No 571 –

(٦٢) شيخو ، شعراء النصرانية ، الجزء الرابع ، ص ٤٣٧ – ٤٤٠ – حبيب الزيات ، صيدنايا ، ص ٣٧ – ٣٨

(٦٣) Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 78, No 133 and p. 79, No 134 –

(٦٤) De Slane, Catalogue, p. 85, No 312, 3 –

(٦٥) Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 30 –

(٦٦) شرحه ، ص ١٠٢

(٦٧) شرحه ، ص ١٠٦

(٦٨) شرحه ، ص ١١٠

(٦٩) شرحه ، ص ١١٥

(٧٠) شرحه ، ص ١٥٥

(٧١) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ١٣٧ ، ١٣٨

(٧٢) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٩٠

(٧٣) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١٣٩ – ١٤٠

(٧٤) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ١٥٨

(٧٥) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٢١

(٧٦) شرحه ، ص ٨٠

(٧٧) شرحة ، الجزء الرابع ص ١٤٢

(٧٨) شرحه ، الجزء الأول ص ٢

(٧٩) الباشا ، ص ٨ ، رقم ١

(٨٠) – Murkos, Puteshestvie Makaria, III, p. 30

(٨١) شرحه

(٨٢) شرحه ، ص ٦٦ ، ٨٥ ؛ راجع الجزء الخامس ، الصفحة الثالثة

(٨٣) حبيب الزيات ، صيدنايا

(٨٤) حبيب الزيات ، مكاريوس ، ص ٥٦٥ – ٥٦٧

(٨٥) · Golosov

(٨٦) – Preobrajenski, p. 33-41

(٧٨) – Savellev, Bibl. dlia Chl., XV, No 3, p. 2

(٨٨) – Belfour, Travels of Macarius, 1829-1836

(٨٩) – Savellev, Bibl. dlia Chl., XV, No 3 p. 2

(٩٠) – Derenbourg — Schefer, p. 7

(٩١) حبيب الزيات ، مكاريوس ، ص ٥٦٢

(٩٢) – Radu, Voyage – Cf : Radu, Étude, p. 1, 3

(٩٣) حبيب الزيات ، مكاريوس ص ٥٦٣

(٩٤) – Savellev, Bibl. dlia Chl, XV, No 3, p. 1-25; No 4, p. 60-112 — Golosov, p. 50-51

(٩٥) – Golosov, p. 54, 290-292

(٩٦) شرحه ، ص ٥٢ – ٥٣

(٩٧) شرحه ، ص ٥٤

(٩٨) شرحه ، ص ٥٣ – ٥٤

(٩٩) – Radu, Étude, p, 38, 75

(١٠٠) – Golosov, (عن كتاب : Iatsimirski, p. 585), p. 63 — Radu, Étude, p. 38
– Radu, Étude, p. 38 (تحليل)
– Golosov, p. 63-64
– Iatsimirski, p. 587

(١٠٤) الباشا

(١٠٥) حبيب الزيات ، مكاريوس ، ص ٥٦١ - ٥٧٤

(١٠٦) - Radu, Ëtude, p. 38

(١٠٧) - Lebedeva

(١٠٨) - Djuze, Gruzia v 17 - m Stol.

(١٠٩) - Krachovski, Ruk. sobr. Grigoria IV, p. 15, No 29 = Rukopis Inst. Vost. AN SSSR V 1227, leaves 93 a — 112 a

(١١٠) نشر شذرة من هذا المصنف :

G. V. Tsereteli, Arabskia Khrestomatia. Tbilisi, 1949, p. 82 sui.

(١١١) - Rukopis Inst. vost AN SSSR V 1227, Ch. 35, leaf 113 a

(١١٢) شرحه ، Ch. 40-42, Leaves 115a — 116a

(١١٣) - Krachkovski, Ruk. sobr. Grigoria IV, p. 13, No 24, V = Ruk. Inst. vost. AN SSSR, A 507, leaves 85b — 103 a = Ruk. Brit. mus., Rieu, Pars II, p. 43, No XXVIII, 30

(١١٤) النعمة ، الجزء الأول ، ص ٣٩٤

(١١٥) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٤٦

(١١٦) المشرق ، الجزء الحادى والثلاثون ، ١٩٣٣ ، ص ٩١٠ - ٩٢٠

(١١٧) - Smirnov, Bogosl. vestn., p. 171 - 174 — Cf : Krymski, Rikhlat Makarius p. 6, v

(١١٨) - Smirnov, Bogosl. vestn., p. 174

(١١٩) - Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 9

(١٢٠) - Ahlwardt, V, p. 399 - 400, No 6086

(١٢١) شرحه ، ص ٤٠٠ ، رقم ٦٠٨٧

(١٢٢) - Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 11; SB II, p. 489

(١٢٣) - Ahlwardt, V, p. 427 - 428, No 6125

(١٢٤) - Brockelmann, GAL, SB II, p. 489, No 11 a

(١٢٥) - RAAD, III, 1923, p. 344, No 11 - 12

(١٢٦) Wüstenfeld, Gschichtschreiber, p. 270 - 272, No 567

(١٢٧) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ٤٥٢ ، رقم ٩١٤٤

(١٢٨) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١٥٢

(١٢٩) شرحه ، الجزء الرابع ، ص ٢٤٧ ، رقم ٨٢٨٤

(١٣٠) شرحه ، ص ١٧٤ ، رقم ٨٠١١

(١٣١) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, 282-284, No. 578 — Brockelmann, Al-Muhibbi, EI, III p. 755-756,2 — Wüstenfeld, Muhibbi, p. 15-19, No 9

(١٣٢) – Brokelmann, Al-Muhibbi, EI, III, p. 756

(١٣٣) مخطوطة مكتبة جامعة لننغراد ، رقم ٣٦٦ ف Indices, p. 40 = ZBO, III, p. 212

(١٣٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 393, No 2; SB II, p. 538 — محمد كرد علي ، خطط ، الجزء الأول ص ، ٢٤ رقم ٢٥٤ — Sarkis, p. 1630-1631

(١٣٥) – Tuch, p. 1

(١٣٦) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 538—Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 285, No 579.

(١٣٧) — Wüstenfeld, Die Çufiten, p. 129, No 211.

(١٣٨) – Brockelmann, GAL, II, p. 393-394, No 3; SB II, p. 538 — Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 284-285, No 579 — Wüstenfeld, Die Çufiten, p. 129-132, No 212

(١٣٩) – Seetzen, Al-khiyari

(١٤٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 314, No 16, 1, SB II, p. 432

(١٤١) – Tuch, p. 1

(١٤٢) – Wüstenfeld, Muhibbi, p. 21

(١٤٣) – Tuch, p. 2-3

(١٤٤) – Wüstenfeld, Muhibbi, p. 112, No 91

(١٤٥) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 666, 10 a (section : Rumelien und Anatolien)

(١٤٦) · Tuch, p. 11

(١٤٧) – Hartmann, Die Strasse, p. 699-702

(١٤٨) شرحه ، ص ٧٠٢

(١٤٩) – Wüstenfeld, Die Çufiten, p. 132, No 213

(١٥٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 10; SB II, p. 489 — Sarkis, p. 542

(١٥١) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 289-290, No 589 — Brokelmann, GAL, II, p. 421!; SB II, p. 627-628 — Sarkis, p. 244-245.

(١٥٢) – Griffini, Lista, RSO, III, p. 911 ; RSO, IV, p. 102

(١٥٣) – Ahlwardt, V, p. 434-435, No 6136

(١٥٤) هكذا النسبة ؛ غير أن غريفيني (Griffini, ZDMG, 69, p. 77, note 5) يعطيها صورة : الخيمى

(١٥٥) – Brokelmann, GAL, p. 402, No 7; SB II, p. 550 - 551 —

الشوكانى ، الجزء الأول ، ١٨٩ – ١٩١ — Wüstenfeld, Jemen, p.103, No 64 —

Pelser : تقريظه لكتاب Nöldeke,

(١٥٦) – Peiser; p. V, text, p. 7

(١٥٧) – Praetorius, p. 403 - 404

(١٥٨) – Peiser, text, p. 40 - 41, 47

(١٥٩) شرحه ، p. XII, p. 53, 75

(١٦٠) شرحه ، Text, p. 35

(١٦١) شرحه ، p. 41

(١٦٢) – Guidi, Abyssinien, p. 127

(١٦٣) – Peiser, Translation, p. III

(١٦٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 364 - 365, No. 5; SB II, p. 492 - 493 —
Brockelmann, El. II, p. 753 — Sarkis, p. 1525 - 1526

(١٦٥) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 493, 22

(١٦٦) – Brockelmann, GAL, II, p. 365, 11

(١٦٧) – Brockelmann, El, II, p. 753, 3

(١٦٨) – Garrett, Catalogue, p. 249, No 756

(١٦٩) – Brockelmann, GAL, II, p. 455

(١٧٠) – Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 23, note 1

(١٧١) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 677, note

(١٧٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 464, No 3; SB II, p. 711 — Mohammed ben Cheneb, Al — Alyashi, p. 231 - 232 — Lévi — Provençal, Hist d. Chorfa, p. 262 - 264 — Blachère, p. 369 - 370

(١٧٣) العياشى ، ماء الموائد

(١٧٤) – Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 454

(١٧٥) – Brockelmann, GAL, SB II, p. 712, No 4 a — Sauvaire, Voyage en Espagne — Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 284 — 286 — Pérès L'Espagne, p. 5 - 17

(١٧٦) – Pérès, L'Espagne, p. 9

(١٧٧) – Sauvaire, Voyae en Espagne

(١٧٨) من المراجع انظر : Pérès, L'Espagne, p. 7, note 1

(١٧٩) – Pérès, L'Espagne, p. 8

(١٨٠) شرحه ، p. 6, note 1

(١٨١) شرحه ، p. 8

(١٨٢) شرحه ، p. 9

(١٨٣) شرحه ، p. 10

(١٨٤) شرحه ، p. 11

(١٨٥) شرحه ، p. 12

(١٨٦) شرحه

(١٨٧) شرحه ، p. 13 - 14

(١٨٨) – Lévi - Provernçal, Hist. d. Chorfa, p. 285 - 286

(١٨٩) – Pérès, L'Espagne, p. 15 - 16

(١٩٠) شرحه ، ص ١٦

(١٩١) شرحه ، ص ١٢ – ١٣

(١٩٢) شرحه ، ص ١٧

(١٩٣) – Sauvaire, Voyage en Espagne, p. 88 - 89

(١٩٤) – Krylova, p 328 — Alkseev, p. 361

(١٩٥) – Lévi Provençal, Hist, de Chorfa, p. 329

(١٩٦) – Wüstenfeld, Geschichtschriber, p. 289, No 586 — Brockelmann, GAL, II, p. 457, No 4; SB, II, p. 682 — Sarkis, p. 30 — Basset, EI, II, p. 377 — Amari (- Nallino), I, p. 88, No 66

(١٩٧) – Pélissier, p. IV

(١٩٨) – Kramers, EI, EB, p. 71

(١٩٩) – Amari (– Nallino), I, p. 88

(٢٠٠) – Codera, Decadencia, p. 317, note 1

(٢٠١) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 265 - 267, No 559 — Pons Boigues, p. 417 - 419 — Brockelmann, GAL, II, p. 296 - 297, No 6; SB II, p. 407 - 408 — Lévi - Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 93 - 94, note 3 — Lévi - Provençal, Al - Makkari, p. 189 - 190 — Mohammed Ben Cheneb, Étude, p. 151 - 152, No 102 — Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 158 - 172 — Mieli, p. 272, 274 — Sarkis, p. 1776 - 1778 — Dugat, Analectes, I, p. XIX — XXVI, XXVII — XCVI

(٢٠٢) – Cf : Brockelman, GAL, SB II, p.407, note

(٢٠٣) – Dugat, Analectes, I, p. XCX

(٢٠٤) – Lévi-Provençal, Al-Makkari, p. 189

(٢٠٥) – Brockelmann, GAL, II, p. 291, No 7; SB II, p. 402

ابن معصوم ، السلافة ، ص ٣٧٢–٣٧٥ (مراسلات شعرية مع المقرى)

(٢٠٦) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٢ ، السطر الثانى من أسفل

(٢٠٧) – Brockelmann, GAL, II, p. 275, No 21; SB II, p. 385

ابن معصوم ، السلافة ، ص ٣٧٥ – ٣٨٥ (قصائده التى وجه بها الى المقرى ، ص ٣٧٦ – ٣٧٩) ، ص ٥٩٣ (قصائد المقرى اليه) – المقرى ، الجزء الاول ، ص ٤٣ –

Wüstenfeld, Muhibbi, p. 70-71, No 53

(٢٠٨) – Wüstenfeld, Muhibbi, p. 117-118, No 101

(٢٠٩) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧٣٤ – ٧٣٦ ، ٧٤٥ – ٧٤٩ ، ٧٦٣

(٢١٠) خطابه ، راجع : المقرى ، الجزء الأول ، ص ٦٦ – ٦٨ ؛ وقصائده : شرحه ص ٦٩ – ٧٠ ، ٧٣٦ – ٧٤٥ ، ٧٧٣ ، ٧٧٩

(٢١١) – Rosen, Notices Sommaires, p. 221, No 269, I

(٢١٢) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٤٣

(٢١٣) شرحه ، ص ٤٧

(٢١٤) شرحه ، ص ٤٨

(٢١٥) شرحه ، ص ٥٤

(٢١٦) شرحه ، ص ٦٥

(٢١٧) شرحه ، ص ٧٨

(٢١٨) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم د ١٠٩ –

Rosen, Collect. scient., p. 29-30 I, No 57

(٢١٩) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧١

(٢٢٠) شرحه ، ص ٧٠

(٢٢١) شرحه ، ص ٧٨

(٢٢٢) – Fleischer, Kleinere Schriften, II, p. 163-469

(٢٢٣) المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧٥ ، ٧٧٩

(١١٨) شرحه ، ص ٧٨

(٢٢٥) المحبى – المقرى ، الجزء الأول ، p. XCVIII ؛ من نيته فى تأليف الكتاب راجع : المقرى ، الجزء الأول ، ص ٧٩١

(٢٢٦) المقرى ، ص الجزء الأول ، ص ٧١

(٢٢٧) شرحه ، ص ٧٢

(٢٢٩) شرحه ، ص ١٠٢ ، ص ١١٦

(٢٢٩) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٨١

(٢٣٠) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١٠٣

(٢٣١) شرحه ، الجزء الاول ، ص ٧٥ – ٧٨

(٢٣٢) شرحه ، ص ٢ – ٧٩

(٢٣٣) شرحه ، ص ٢٢

(٢٣٤) شرحه ، ص ٣٨

(٢٣٥) شرحه ، ص ٦٥

(٢٣٦) – Dugal, Analecles, I, p. XCI.

الفصل الرابع والعشرون

القرن الثامن عشر

730 يقدم لنا القرن الثامن عشر لوحة للأدب الجغرافى معروفة لنا جيداً من العهود السابقة ، فقد انتعش فيه بصورة كثيفة نمطان فقط أحدهما هو الجغرافيا الإقليمية من طراز « الفضائل » والآخر نمط الرحلة . وكلا النمطين ارتبط ارتباطاً وثيقاً « بالأماكن المقدسة » الإسلامية والمسيحية على السواء ، إما على هيئة وصف لها أو رحلة إليها . وكما كان عليه الحال من قبل فإن الرحلة كثيراً ما استندت على أساس ترجمة شخصية لحياة الرحالة نفسه قد تتحول أحياناً إما إلى معجم للسير يترجم فيه لشيوخه وللعلماء الذين التقى بهم وإما إلى مختارات أدبية (anthology) تعطى فكرة جيدة عن الذوق الأدبى لعصره ولكن يحتل الجانب الجغرافى فيها مكانة ثانوية .

هذا وقد ظلت منتعشة فى ذلك العهد أيضاً سلسلة الرحلات التى خرجت من الوسط العربى المسيحى؛ وكان القرن الثامن عشر بالنسبة لذلك الوسط عهد نهضة أدبية فقد بلغت فيه أوصاف الرحلات ، بعكس ماكان عليه الحال من قبل ، درجة رفيعة من الصياغة الفنية . وهذه الرحلات الأخيرة قد اتجهت فى جوهرها إلى رومة وفلسطين وسينا ، كما أن بعضها وجد طريقه إلى مصر ؛ أضف إلى هذا أنه كان ينعكس فى بعضها الآخر من وقت لوقت صدى الاهتمام بروسيا .

وكما حدث من قبل فقد ظلت كل من سوريا والمغرب المورد الرئيسى للأدب غير أنه يجب أن نشير بصفة خاصة إلى أن زيادة الاهتمام بسوريا دون غيرها من البلاد إنما مرده إلى أن عدداً كبيراً من المصنفات التى تم تأليفها هناك موجود فى مجموعات المخطوطات بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية وأيضاً بمدينة برلين ، ومما يميز عدداً كبيراً من الرحالة السوريين هو معرفتهم الوثيقة بالقسطنطينية. أما فى بقية البلاد العربية فإن المصنفات الجغرافية يمكن تتبعها فى حالات منفردة ، والعراق مثلا تقدم لنا أثراً طريفاً يكشف عن جانب من ظروف الصراع بين الفرس والأتراك فى عهد نادرشاه ؛ وأما مكة فقد ظلت محتفظة بأهميتها كمركز للدراسات الدينية ووجد بها عدد كبير من المؤلفين ممن مسوا الموضوعات الجغرافية ولومساً رفيقاً ؛ وعلاقة هؤلاء المؤلفين الوثيقة بالهند قد جعلت من مصنفاتهم فى بعض الأحايين مصادر | ذات قيمة بالنسبة لجغرافيا الهند أو إيران أما المركز الثانى للعلوم الدينية الذى ظل يلعب دوراً 731 كبيراً فى العالم الإسلامى وهو الجامع الأزهر فإنه لم يهتم للجغرافيا إطلاقاً ؛ والاستثناء الوحيد فى هذا الصدد يمثله معجم ضخم يعكس صدى متأخراً لطراز المعاجم الجغرافية الذى مر بنا .

وقد سار المغرب على نهج المذهب القديم ، وتشير قرائن الأحوال إلى أنه كان فى الطليعة بين البلدان العربية فى إنتاجه الجغرافى . حقاً إن الأنماط هناك لم تكن كثيرة بطبيعة الحال ، بل يمكن القول بأنها كانت قاصرة على نمط الرحلة وحده ، ولكن فى مقابل هذا تنوعت أصنافه . وطبيعى أن تكون الكثرة الغالبة من بينها لرحلات الحج المختلفة ، ولكن وجدت إلى جانبها الرحلات فى داخل البلاد نفسها وكان الغرض من هذه الأخيرة فى الغالب كرحلات للتفتيش . وتتصف بالتنوع الطريف كما حدث من قبل السفارات الدبلوماسية التى اتجهت إلى أسبانيا والتى تقدم لنا مادة وافرة تساعدنا على فهم المؤلف نفسه والبلاد التى زارها ؛ أما المغرب فإنه يكاد يقدم لنا أكبر مؤرخ لهذا العصر ، وقد عرف عن هذا المؤرخ الاهتمام بالموضوعات الجغرافية وهو يسوقنا مع بعض المؤلفين الآخرين إلى القرن التاسع عشر بالتقريب . ومما يزيد فى صعوبة دراسة هذا العصر أن عدداً قليلا من بين آثاره قد رأى النور أضف إلى هذا أن المطبوع منها لم يكن دائماً فى متناول اليد ، كالطبعات الحجرية التى عملت بفاس مثلا .

أما مُدّاح « المدن المقدسة » بفلسطين فقد كانوا فى هذا العصر أيضاً من بين السكان المحليين قبل كل شىء ، وكمثال لهذا نذكر اسم محمد بن محمد بن شرف الدين الخليلى المقدسى الذى تشير نسبته إلى مدينة حبرون الخليل وأغلب الظن أنه ولد بها ؛ وهو قد أمضى أيام الدراسة بمصر ولو أنه عاش بالقدس وتوفى بها عام ١١٤٨ هـ = ١٧٣٥[١] ؛ وقد شغل منصب القضاء فى وطنه وارتبط بمسجد عمر وهذا يفسر بدوره اهتمامه بآثار فلسطين القديمة . أما رسالته الصغيرة الحجم والتى أتم تأليفها بعد عام ١١٢٢ هـ - ١٧١٠ فتحمل عنواناً لا يخلو من الخلط هو « تاريخ بناء البيت المقدس » ، ذلك أن الكتاب يمثل فى الواقع أنموذجاً لما اصطلحنا على تسميته بأدب فلسطين الدعائى المعروف لنا جيداً والذى يعالج الكلام على القدس[٢] . ويقول المؤلف فى مقدمة كتابه إن « المنصور المؤيد بالبرهان والسير فى ساير الزمان » هو من يزور بيت المقدس وما حولها ؛ ويبين الباب الأول فضل الإقامة ببيت المقدس والعمارة فيه وما ينطوى على ذلك من الخير ، هذا على حين يبحث الباب الثانى فى العيون والآبار ومنابع المياه ، والثالث فقط يبحث فى تاريخ المدينة ولو أنه يحفل بكمية من الأشعار فى مدح القدس وفلسطين ؛ أما الخاتمة فكرسة بالطبع للكلام عن الأنبياء والصالحين ممن ارتبط اسمهم بالقدس وفلسطين . من هذا يتبين لنا أن المصنف يفتقر افتقاراً تاماً إلى الأصالة ، بل إنه يعتمد اعتماداً أساسياً على مصنف مجير الدين المعروف لنا جيداً من القرن السادس عشر هذا إلى جانب زيادات ليست بذات بال تتناول الكلام عن المبانى التى زيدت مؤخراً وتتحدث عن بعض المتصوفين المدفونين بالقدس والمواضع المحيطة بها . وللمؤلف ميل واضح نحو الشعر ، | فإلى جانب أربع قصائد له ولغيره يحتويها هذا المصنف نجد أحياناً فى المخطوطات قصائد أخرى له فى مدح مسجد القدس[٣] . 732

وهناك مؤلفون من أقطار أخرى تشربوا حب فلسطين وتخصصوا فى دراسة تلك البلاد ؛ ومن بين

هؤلاء مصطفى أسعد بن أحمد بن محمدالدمياطى اللقيمىالذى وإن حمل بالتالى لقب المقدسى إلا أنه ولد بدمياط عام ١١٠٥ هـ = ١٦٩٣ . وقد أدى فريضة الحج منذ شبابه الأول فى صحبة والده ثم تلقى تعليمه بمكة والمدينة والقاهرة ودمشق والمقدس ولكنه عاش معظم حياته بالقاهرة ، ثم بدمشق[١] وهناك توفى فى عام ١١٧٣ هـ = ١٧٥٩[٥] أو عام ١١٧٨ هـ = ١٧٦٥ .[٦] وينعكس اهتمامه بالقدس فى المصنفين اللذين راجا فى ذلك العصر ، أعنى « الفضائل » و« الرحلة » ، فأول مصنفاته وهو « لطايف أنس الجليل فى تحايف القدس والخليل » مصنف كبير يقع فى ثمانية أبواب مع مقدمة وخاتمة[٧] . وهو يعالج فى البداية الكلام على حدود فلسطين ومدنها الكبرى ثم ينتقل إلى الكلام فى البابين الأولين على « أسماء البيت المقدس وشرفه » ويذكر أسماء ولاته ومن عاش فيه من الشخصيات البارزة . وبعد وصف المسجد الأقصى يرد الكلام على المدينة نفسها وآثارها الأخرى ، ثم على الخليل والمواضع الواقعة حول القدس . ووفقاً للتقليد المعروف لنا جيداً فإن الأنبياء والصحابة وغيرهم من الشخصيات التاريخية المشهورة التى دفنت هناك يشغلون جانباً بارزاً من اهتمامه ؛ وتلعب الأساطير فى هذا الصدد دوراً مرموقاً فالفصل الثامن مثلا مكرس بأجمعه للكلام على الخضر عليه السلام . وتبحث الخاتمة فى « ذكر الشام وفضلها وبهجتها وشرف محلها » ، وهو يتبع فى هذا نفس الطريقة القديمة فى وصف الأماكن المقدسة بفلسطين ويحس خلال العرض بأجمعه اهتمام المؤلف الكبير بالجانب الأدبى ، فهو كان شاعراً ومن أصحاب «المقامات» ؛ وقد حاز هذا الفن الأخير تقديراً عالياً بين معاصريه[٨] .

هذا وقد ترك لنا الدمياطى وصفاً لرحلته من دمياط إلى القدس فى مصنف خاص يحمل عنوان « موانح الأنس برحلتى لوادى القدس »[٩] ؛ استغرقت الرحلة نفسها ستة أشهر من عام ١١٤٩ هـ = ١٧٣١ ولكن وصفه لها لم يدونه إلا بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ فى عام ١١٦٤ هـ = ١٧٥١ معتمداً فى أغلب الظن على مذكرات سابقة . ويجهد المؤلف فى وصف ما رآه | من غريب فى طريقه ومن التقى بهم من العلماء وأهل التصوف ويسوق خلال ذلك مقداراً كبيراً من الأشعار له ولغيره . ولتكوين فكرة عن عقليته ومشربه يذكر أنه إلى جانب وصف الرحلة يوجد ما يشبه أن يكون ذيلا لها ، هو عبارة عن قصة ليست بالطويلة تدور حول زيارته لقبر نبى أسطورى يدعى أبلوقيا انتشرت القصص حوله حتى تردد صداها فى « ألف ليلة وليلة » ، وهذه القصة أيضاً تحفل بدورها بالأشعار التى قيلت فى بطل الرحلة . ولسنا فى حاجة بالطبع إلى أن نستدرك مرة أخرى بقولنا إن المصنفات من هذا الضرب ليست بذات أهمية بالنسبة للجغرافيا بقدر ما هى مهمة بالنسبة لتصوير الوسط والعصر اللذين ظهرت فيهما .

أما فيما يتعلق بتصوير ذلك الوسط حقاً فإن مصنفات بعض المؤلفين السوريين التى ظهرت فى تلك الآونة تتمتع بأهمية قصوى ، إذ نجد بينهم عدداً من الشخصيات ذات الصلة الوثيقة بالأدب بوجه عام كما نلتقى أيضاً برحالة زار تلك الأقطار ويمكن اعتباره أكبر رحالة لذلك العصر حركة ونشاطاً وإنتاجاً .

733

وأحد هؤلاء المؤلفين هو عبد الرحمن بن ابراهيم بن أحمد بن عبد الرزاق الخطيب[١٠] ، وليس لدينا فى الواقع ما نذكره عنه سوى اسمه هذا ؛ واللقب الأخير يشير إلى علاقته بأحد المساجد الكبرى . وقد وضع هذا الرجل فى عام ١١٤٠ هـ = ١٧٢٧ رسالة بعنوان « حدائق الأنام فى فضائل دمشق والشام » ، وهى معروفة إلى يومنا هذا فى مخطوطة يتيمة[١١] . ويمكن أن يستدل من اسم المصنف نفسه على ارتباطه الوثيق بتقليد معروف فى الكلام عن فضائل دمشق ، والكتاب فى الواقع أنموذج جيد لنمط « الفضائل » الذى ظل باقياً لقرون طويلة دون أن تمتد إليه يدالتغيير . وينقسم الكتاب إلى ثمانية أبواب تسير على النهج المعهود لنا من قبل ؛ فالباب الأول يبحث فى حدود الشام وأسماء الشام ودمشق ، بينما يشير الثانى إلى الآيات القرآنية الواردة فى ذلك ويسوق الثالث الأحاديث المتعلقة بها ويحلل الباب الرابع ذكرها فى فى التواريخ القديمة . أما القسم الثانى من الكتاب والذى يعتبره المؤلف أهم القسمين فهو يسير أيضاً وفقاً للتقاليد القديمة ، فالباب الخامس يتحدث عن مسجد دمشق الجامع وما به من الآثار والسادس عمن توفى بسوريا من الأنبياء والصحابة والسابع عن الأولياء والصالحين الذين دفنوا بها هذا بينما يحتوى الباب الثامن والأخير على طائفة من الأشعار قيلت فى مدح دمشق . ومن هذا السرد المفصل يتبين لنا بدقة أن هذا النمط لم يأت بجديد حتى فى القرن الثامن عشر[١٢] .

وعلى النقيض من معرفتنا بالخطيب تقف معرفتنا بمؤلف آخر يدعى محمد بن عيسى بن محمد بن كنّان الدمشقى المتوفى عام ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ والذى نال الشهرة لاكخطيب فحسب بل وكمؤرخ للأدب[١٣]. وكان مؤلفاً غزير المادة عالج الكتابة فى مختلف مسائل الحديث والأخلاق* وفى تاريخ مدارس دمشق . وقد اجتذبه بصورة خاصة تاريخ موطنه دمشق ، سواء فى الماضى أوفى العهد المعاصر له وترك لنا مذكرات يومية طريفة سجل فيها حوادث | الفترة بين عامى ١١١١ هـ = ١٦٩٩ و١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ يمكن أن تصلح كمصدر قيم بالنسبة للتاريخ المحلى[١٤] . وإلى جانب هذا فإن مصنفه الجغرافى أيضاً يرتفع بعض الشىء فوق المستوى العام لذلك العصر ، وهو يحمل العنوان المعهود « المواكب الإسلامية فى الممالك والمحاسن الشامية »[١٥] . وعند تحليله يتبين لنا أنه مصنف يجمع بين الجغرافيا والأدب الفنى ، فالمؤلف يفيد من ملاحظاته الخاصة ويجمع إلى هذا المادة التى استقاها من عدد كبير من المصادر . وفيه يرد وصف للمدن الكبرى مثل دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد ، ويتحدث أيضاً عن منازل الطريق إلى مكة ومراحل الطريق إلى مصر . وإلى جانب هذا يوجد بالكتاب أشعار كثيرة قيلت فى الأزهار والنباتات والأشجار التى يستشعر ابن كنان ميلا شديداً نحوها يذكرنا بأحد السابقين له فى هذا المضمار ؛ كما لديه أيضاً أشعار فى الاحتفالات والمواكب ، الأمر الذى يشير إليه عنوان الكتاب نفسه ؛ وهو يختتم

734

* اعتقد أن ايراد لفظ etiquette فى الأصل الروسى خطأ مطبعى ، وأنه يجب استبداله بلفظ ethics . (المترجم)

كتابه بالطريقة المعهودة فيتكلم عن فضائل الشام مع إيراد بعض الأشعار في ذلك :

هذا وقد اشتهر معاصره أحمد بن على المنينى المتوفى عام ١١٧٢ هـ = ١٧٥٩ لا بمصنفه الجغرافى بل بشرحه المشهور على سيرة السلطان محمود الغزنوى المعروفة والتى ألفها العتبى فى بداية القرن الحادى عشر[١٦].
وأصله من منين وهى قرية من قرى منطقة دمشق ، إلا أنه عاش منذ أن بلغ سن الثالثة عشرة | بدمشق نفسها 735 وهناك اشتغل لفترة طويلة بالتدريس بالجامع الأموى . وقد دفعه الاهتمام بمواضع دمشق إلى تأليف مصنف جغرافى يحمل العنوان التقليدى « الانعام بفضائل الشام » ويحتوى أيضاً على نفس المادة التقليدية ؛ وكان الأصل الذى دونه المؤلف بخط يده موجوداً بمكتبة جامعة القديس جوزيف ببيروت ولكنه فقد فى الحرب العالمية الأولى[١٧] . والكتاب يقع فى ثمانية فصول تبحث الموضوعات المعروفة لنا مثل سبب تسمية « الشام » والآيات أو الأحاديث الواردة فى فضلها والصحابة والتابعين الذين اتصل ذكرهم بها ؛ ويظفر بفصل خاص مسجدها وقبر يوحنا المعمدان ؛ أما الفصول الثلاثة الأخيرة فتعالج الكلام عمن دفنوا بدمشق وضواحيها من المشاهير ، وهى التى تمثل بالذات أهمية كبرى بالنسبة للطبوغرافية التاريخية كما أبان عن ذلك خبير كبير بماضى سوريا هو الأب لويس شيخو اليسوعى[١٨] . وعلى الرغم من أن المؤلفات من هذا الضرب قد اتبعت من حيث موضوعها ومحتوياتها تقليداً معروفاً لم تحد عنه إلا أنها ظلت بصفة عامة مرغوباً فيها من الجميع ؛ فمصنف المنينى هذا نقله إلى التركية شخص يدعى شريف محمد[١٩] وهذا بدوره يقف برهاناً جديداً على الصلة الوثيقة التى ربطت بين الأدبين العربى والتركى والتى انتعشت بصورة خاصة فى ذلك العهد . ويمكن أن نضيف عرضاً أن المنينى قد وضع أيضاً فى عام ١١٥٨ هـ = ١٧٤٥ مصنفاً خاصاً عن الحرب التى دارت رحاها بين الأتراك ونادرشاه[٢٠] ؛ هذا وقد تردد صدى النضال بين الطرفين فى أقطار عربية عديدة وسنرى فيما يلى أنه قد ظهر فى هذا الصدد مصنف بالعراق لا يخلو من بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا نفسها .

وكان من بين أساتذة المنينى بدمشق عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى (١٠٥٠ هـ — ١١٤٣ هـ = ١٦٤١ — ١٧٣١) الذى أوشك أن يكون أشهر صوفى ورحالة فى سوريا لذلك العهد والذى خلف وراءه عدداً هائلا من مختلف المصنفات[٢١] . وهو ينتسب إلى أسرة عرف أهلها على السواء بالتقوى وبالنشاط فى محيط الأدب ، ويرتبط اسم أبيه[٢٢] وعمه[٢٣] من وقت لآخر بمصنفات دينية . أما عبد الغنى نفسه فقد أصبح يتيماً منذ سن مبكرة واشتغل وهو لا يزال صبياً بدراسة مؤلفات اثنين من كبار المتصوفة هما ابن العربى | والتلمسانى . ولا شك أنه نتيجة لتأثيرهما عليه قد حدث له أن أمضى فى العزلة سبعة أعوام ، 736 ولم يقم بأولى رحلاته إلى بغداد إلا فى عام ١٠٧٥ = ١٦٦٤ ولكنه وهو فى سن الكهولة ملكت نفسه رغبة شديدة فى التجوال فأمضى ما يقرب من الأربعة أعوام ، ابتداء من سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ ، مترحلا من موضع إلى آخر وزار فى خلال ذلك لبنان فى عام ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ ، وفى عام ١١٠١ هـ = ١٦٩٠

زار القدس والخليل ، وفى عام ١١٠٥ هـ = ١٦٩٣ قام برحلته الكبرى إلى مصر والحجاز التى امتدت مع بعض التوقف إلى ثلاثة أعوام حتى عام ١١٠٨ هـ = ١٦٩٦ ؛ وفى عام ١١١٢ هـ = ١٧٠٠ زار طرابلس . وأخيراً ابتداء من عام ١١١٤ هـ = ١٧٠٢ استقر بموطنه وأمضى الثلث الأخير من حياته بدمشق .

وعلى الرغم من أن أربعة من مصنفات النابلسى الجغرافية التى يصف فيها تجواله معروفة لنا إلا أن شهرته فى الأقطار العربية لاتستند عليها ، كما وأن شخصيته كأديب لاتقوم عليها ؛ ذلك أن النابلسى كممثل نموذجى لعصره نال الشهرة قبل كل شىء كدرويش متصوف ومن ثم فقد احتلت المكانة الأولى بالنسبة له تجاربه الروحية الوجدانية التى ترتبط بالمسائل الدينية والاجتماعية التى واجهت أبناء جيله . وهو كثيراً ما دخل فى جدال عنيف حول هذه المسائل ونال شيئاً فشيئاً تقدير الجميع واعترافهم به كحجة فى هذا الميدان ، وليس أدل على ذلك من أنه فى يوم وفاته خرجت دمشق على بكرة أبيها تشيعه . وللنابلسى مؤلفات كثيرة فى التصوف صاغها نثراً وشعراً ؛ وهو يحذو حذو أساتذته من الصوفية فى خروجه على النماذج الكلاسيكية فى الشعر ، وكثيراً ما لجأ إلى استعمال الموشح . وقد لقيت رواجاً كبيراً قصيدته « البديعية » فى مدح الرسول ، التى جرب فيها مختلف بحور الشعر وأوزانه ؛ ولايزال متمتعاً بالشهرة إلى يومنا هذا شرحه لأشعار الشاعر الصوفى المصرى للقرن الثالث عشر عمر بن الفارض ؛ كما لايخلو من مغزى أن مصنفه فى تفسير الأحلام الذى طبع مرات عديدة ، هو أكثر المصنفات فى هذا الباب انتشاراً فى الأقطار العربية . وأخيراً نذكر أنه يرتبط باسمه عدد من التنبؤات عن مصير الدولة العثمانية ترجع إلى منتصف القرن الثامن عشر . وأمام هذه الاتجاهات العديدة فى نشاطه الفكرى فليس عسيراً أن نتصور ما ستكون عليه أوصاف رحلاته بالنسبة للجغرافيا ؛ ومن حسن الحظ فإن النتيجة العامة جاءت أفضل بكثير مما كان يتوقع من كاتب فى مثل اتجاهه . وهو بالطبع أبعد بكثير من أن يقدم لنا وصفاً للأوضاع المعاصرة للبلاد التى زارها ، فقد تركز اهتمامه بوجه خاص فى التاريخ الأسطورى للمدن المقدسة والذى يستقيه من مؤلفين كالهروى والعليمى . والصورة التى ترتسم لشخصه فى مصنفاته بما يحيط بها من الزهو بالنفس وإظهار التدين (sanctimoniousness) ليس من شأنها أن تحبب القارئ فيها : غير أن أسفاره فى مقابل هذا قد شغلت مجالا واسعاً بحيث لايمكن تجريدها كلية من بعض المعطيات الإيجابية بالنسبة للطبوغرافيا التاريخية[٢٤] ، ومن ثم فإنها تحفل بكمية هائلة من المعلومات فى مجالى الحضارة والتاريخ | تستحق معها فحصاً دقيقاً[٢٥] . ويمكن القول بأن هذه هى الفكرة العامة التى تكونت لدى العلماء الأوروبيين الأوائل الذين شغلوا فى منتصف القرن الماضى بدراسة رحلاته مثل كريمر Kremer وفليغل Flügel وغلدميستر Gildemeister ؛ وقد وكد هذه الصورة العامة فى الآونة القريبة منا ريتشارد هارتمان R. Hartmann عقب فحصه لمادة النابلسى بصدد دراسته للطريق بين دمشق والقاهرة فى الفترة التاريخية الممتدة من العصر الرومانى إلى القرن التاسع عشر .

737

ويبدو أن النابلسى نفسه قد صنف رحلاته الكبرى بطريقة منظمة فأطلق عليها على التوالى اسم الصغرى فالوسطى فالكبرى . أما الأولى فقد أفرد لها مصنفه « حلة الذهب الإبريز فى رحلة بعلبك والبقاع العزيز » التى وصف فيها فى ستين صفحة رحلته التى بدأها فى الثلاثين من أغسطس عام ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ وزار فيها المواضع التى يتبرك بها المسلمون بلبنان خاصة مقابر الأنبياء والأولياء المختلفين[٣٦] . أما الرحلة « الوسطى » فقد بدأها فى الثامن والعشرين من شهر مارس عام ١١٠١ هـ = ١٦٩٠ وكانت وجهتها بيت المقدس ، وقد أخذ فيها « طريق الماء » Via maris المشهور فى العصور الوسطى ماراً بطبرية ونابلس . ولم تطل إقامته بالقدس إلى أكثر من سبعة عشر يوماً ، وزار الخليل والمواضع القريبة ثم أخذ طريق الرجعة فى التاسع والعشرين من أبريل ماراً بنفس الطريق الذى جاء به حتى بلغ دمشق فى العاشر من مايو ؛ وقد جعل عنوان هذه الرحلة « الحضرة الأنسية فى الرحلة القدسية »[٣٧] . أما تلك التى حازت الرواج أكثر فقد كانت رحلته « الكبرى » التى وصفها تحت عنوان « الحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز »[٣٨] والتى بدأها فى الثانى من سبتمبر عام ١١٠٥ هـ = ١٦٩٣ واستغرقت ثلاثمائة وثمانية وثلاثين يوماً . ووفقاً للعنوان فإن وصف الرحلة ينقسم إلى ثلاثة أقسام تعالج الكلام على سوريا ومصر والحجاز . غادر عبد الغنى النابلسى دمشق متجهاً نحو الشمال فزار حمص وحماة واللاذقية وطرابلس ، ثم اجتاز جبال لبنان فزار بيروت ودير القمر وصيدة وصور وعكا والناصرة ونابلس والقدس . وكما حدث فى المرة الأولى فقد زار أيضاً المناطق المحيطة بالقدس ثم أخذ الطريق إلى الرملة ومنها إلى يافا وعسقلان ثم غزة ومنها إلى خان يونس حتى بلغ العريش ؛ ومما يقف دليلا على سعة اطلاعه إشارته بصدد هذه الرحلة إلى رحلة محمد كبريت الحافلة بالأشعار . ودخل النابلسى مصر عن طريق الصالحية وبلبيس حتى بلغ القاهرة وأقام بها اليوم الثانى عشر بعد المائة من بداية رحلته . أما مشاهد مصر المختلفة فإنه يعرضها لنا بالأسلوب المعهود عنه معتمداً فى ذلك من جهة على ملاحظاته الشخصية ومن جهة أخرى على مؤلفات المقريزى والسيوطى وبصورة خاصة على مصنفات صوفى من القرن السادس عشر هو الشعرانى. وبعد هذا أخذ طريق الحاج المصرى فمر على ينبع وبلغ المدينة فى اليوم الثامن والثلاثين بعد المائتين من ابتداء الرحلة ؛ ثم دخل مكة فى اليوم الحادى والثلاثين بعد الثلاثمائة من ذلك ، ورجع إلى دمشق بطريق الحاج السورى .

وفيما عدا هذه الرحلات الثلاث التى يمكن وصفها بأنها رحلاته « الدينية » (Canonized) فإن للنابلسى مصنفات جغرافية أخرى غير معروفة كثيراً ، أحدها تم تأليفه فى عام ١١١٢ هـ = ١٧٠٠ ويصف فيه رحلته إلى طرابلس وهو بعنوان « التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية[٣٩] » ؛ أما ذوقه الشعرى فينعكس فى مدحه لدمشق الذى صاغه على هيئة موشح[٤٠] على نمط « الفضائل » المعروف لنا جيداً . والعدد الكبير من المصنفات الذى وضع فى هذا الباب يفسر لنا لماذا نفذ الاهتمام بالمسائل الجغرافية إلى النابلسى من خلال دراساته الطويلة للمادة التصوفية ؛ ولاشك أن هذا الضرب من المصنفات كان على الدوام محل الإقبال والطلب حتى حازت أوصاف رحلاته رواجاً كبيراً بسوريا فى القرن الثامن عشر .

وبالطبع لم تكن الدوافع إلى الترحال بين أبناء جيله هي نفس تلك الدوافع السامية التي كانت ور رحلات النابلسي ، فأحدهم وهو مرتضى بك بن مصطفى بن حسن الكردي قد غادر موطنه دمشق في عام ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ إلى القاهرة ، هرباً من دائنيه ، وهناك توفي بعد عام ١١٣٣ هـ = ١٧٢١[٣١] ، وكان الميل إلى الأدب قوياً عنده فصاغ وصف رحلته سجعاً ؛ وهي تحفل بعدد هائل من الأشعار و باستطرادات مسهبة تطغى أحياناً على وصف الرحلة نفسه . ومصنفه « تهذيب الأطوار في عجائب الأمصار »[٣٢] يقدم لنا وصفاً للرملة وغزة والقاهرة ومصر بأجمعها ، وهو يعالج فيه شتى الموضوعات فيتحدث عن الأهرامات والنيل والجامع الأزهر وعلمائه بل وحتى عن الاضطرابات الشعبية بالقاهرة . وقد زار مصر العليا أيضاً فر على منفلوط ، غير أن عواطفه كانت موجهة دائماً نحو دمشق التي أفرد لها عدداً من قصائد المدح .

وقد ظل الحج بطبيعة الحال هدفاً لرحلات عدد كبير من أهل دمشق ، ففي نحو عام ١١٢٠ هـ = ١٧٠٨ أدى فريضة الحج إلى مكة مرتضى بن علي علوان[٣٣] . ونعلم من وصفه لرحلته الذي وصلنا بخط يده[٣٤] أنه أدى فريضة الحج لأول مرة قبل ثلاثين عاماً من ذلك أي في سنة ١٠٨٨ هـ = ١٦٧٧ ؛ وفي المرة الثانية صحب قافلة الحاج الشامي فأخذ طريق الحج المعهود واصفاً لنا بدقة كاملة منازله المختلفة 739 . وقد استغرقت منه هذه الرحلة عشرة أشهر وكرس لهذا الموضوع إلى جانب وصف الرحلة قصيدتين أيضاً .

والرحالة الذين خرجوا من سوريا معروفون لنا نسبياً أكثر من غيرهم . غير أن هذا لايعني أن بلاداً عربية أخرى لم تسهم بنصيبها في هذا إذ أن بعضها ترك أثراً محسوساً في هذا الميدان . وأحد أهل مكة وهو العباس بن علي بن نور الدين المكي الموسوي الحسيني[٣٥] غادر مسقط رأسه بعد عام ١١٣٠ هـ = ١٧١٨ وظل يتجول لمدة اثني عشر عاماً[٣٦] محتفظاً في خلال ذلك بمذكرات منتظمة[٣٧] . وفي عام ١١٤٨ هـ = ١٧٣٦ عندما كان بمدينة المخادون أخبار رحلته في كتاب بعنوان « نزهة الجليس وأمنية الأديب الأنيس » ، وهو واحد من المصنفات القليلة لذلك العهد التي وجدت في طبعة قاهرية[٣٨] . وقد رفع المؤلف كتابه إلى شخص كان يقيم باليمن اسمه أحمد بن يحيى الخازندار ، ويبدو أنه كان من بين أولئك الذين شجعوه على القيام برحلاته[٣٩] . ويفتقر وصف الرحلة افتقاراً تاماً إلى التنظيم والترتيب هذا بالرغم من أن مادته موزعة وفقاً للنواحي الجغرافية والمدن التي زارها المؤلف ؛ وهو يبدأ بمكة فيتحدث عن حدودها وعيونها[٤٠] ، ويليها المدينة التي يفرد لها وصفاً مبالغاً فيه[٤١] ، وتليها نجد[٤٢] ؛ ويلي هذا دون اتباع لنظام معين الكلام على الكوفة وبقية مدن العراق (بغداد وسامرا) ثم مصر فخراسان فالهند فاليمن . وهو يترجم خلال ذلك كله لعدد كبير من الشخصيات (خاصة بين أهل مكة) ؛ ويغلب على المصنف كله الطابع المعروف لنا جيداً للرحلة العلمية التي تشبه من ناحية المختارات الأدبية ومن ناحية أخرى معاجم السير ؛ ومن الملاحظ أن المادة الأدبية والسير تزحم فيه المعطيات الجغرافية بصورة واضحة ، غير أن هذه الأخيرة لاتخلو بدورها من بعض الطرافة والقيمة إذا ما عرضت لفحص دقيق خاصة من وجهة النظر التاريخية الحضارية .

هذا وقد حفظت لنا العراق عن هذا العهد مصنفاً محلياً ذا قيمة كبرى ولو أن معرفتنا به تقتصر حتى هذه اللحظة على جانب فقط منه ؛ وهو من تأليف عالم ينحدر من دوحة عراقية ذات ماض هى أسرة السويدى ، واحدة من تلك الأسر العربية الفاضلة التى حفظت لنا تقاليد العلوم الإسلامية القديمة فى هذه العصور المظلمة بالنسبة للأدب العربى ومهدت الطريق لنهضة ذلك الأدب فى القرن التاسع عشر . ولد عبد الله حسين السويدى ببغداد فى عام ١١٠٤ هـ = ١٦٩٢ ونال حظه من التعليم بها وبالموصل عاصمة العراق الثانية ، ثم أمضى أعواماً طويلة من حياته يعمل بالتدريس بمسقط رأسه إلى حين وفاته بها فى عام ١١٧٤ هـ = ١٧٦٠[٤٣] . وقد انعكست ميوله الأدبية | فى عدد من القصائد والمقامات التى شغل بتأليفها بشغف شديد فى أوقات فراغه من الدراسات الدينية . ويبدو أنه أدى فريضة الحج مرتين ، فى عام ١١٤٨هـ ــ ١١٥٠ هـ = ١٧٣٥ـــ١٧٣٧ وفى عام ١١٥٧هـ = ١٧٤٤ ؛ ويرتبط بحجته الثانية بوجه عام وصفه لرحلته بعنوان « النفحة المسكية فى الرحلة المكية » الذى ترجع معرفتنا به إلى قطعة قائمة بذاتها فى مصنفه « كتاب الحجج القطعية لاتفاق الفرق الإسلامية » . وهو كتاب لقى رواجاً وذيوعاً واسعين ويستبين هذا لا من مخطوطاته العديدة[٤٤] فحسب بل ومن أنه ظهر أيضاً فى طبعة قاهرية لعام ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ ثم من ظهوره فى ترجمة تركية بعد ثلاثة أعوام من ذلك[٤٥] . والكتاب يقف فى الطليعة بوصفه أثراً يقدم لنا فكرة دقيقة عن تلك المحاولة التى قام بها نادرشاه (١١٤٨ هـ ـــ ١١٦٠ هـ = ١٧٣٦ ـــ ١٧٤٧) للتوفيق بين السنة والشيعة ؛ وقد أشار غولدزهر فى حينه إلى غرابة هذه الواقعة وإلى الشخصيات التى سجلت حوادثها[٤٦] ؛ هذا كما وقد حلل ا. ا. شمت A.E. Shmidt بالتفصيل رواية السويدى عنها ونقل عنه قطعاً كبيرة[٤٧] . لقد عنت لنادر شاه فكرة إقامة مناظرة كبرى بين علماء الشيعة بالنجف وكربلاء وعلماء السنة من أهل أفغانستان وماوراء النهر ؛ وقد اضطر مؤلفنا تحت ضغط التهديد إلى أن يشارك فيها بأمر من والى بغداد المشهور أحمد باشا (توفى عام ١١٦٠ هـ = ١٧٤٧)[٤٨] كممثل لعلماء السنة بالدولة العثمانية . وجرت هذه المناظرة قرب النجف بتاريخ اليوم الثانى عشر من ديسمبر من عام ١١٥٦ هـ = ١٧٤٣[٤٩] ؛ وهى لم تترك أى أثر يذكر سواء فى ميدان التاريخ أو السياسة ولكن يرجع إليها الفضل فى ظهور مصنف طريف للغاية يحتوى على وصف ممتع لجميع هذه الأحداث ويقدم صورة تفيض بالحيوية للمناظرة نفسها . وقد قرر المؤلف أن يقوم بحج بيت الله[٥٠] شكراً له لخروجه سالماً من هذه المحنة ، وفى وصفه لحجته ضمن قصة تلك المناظرة .

وفى مقدمته لذلك الذيل يصف المؤلف الحوادث المعاصرة له والقريبة منه المتعلقة بتاريخ إيران والدولة العثمانية وظهور نادرشاه وحصاره لبغداد مرتين وانتخابه شاهاً لإيران بمرج مغان فى عام ١١٤٨هـ = ١٧٣٦ ثم محاولته الدخول فى علاقات مع الدولة العثمانية لنعترف بالمذهب الشيعى كمذهب رسمى للإسلام . ويحتل المكانة الرئيسية قصته التى تفيض بالحيوية والتى يصف فيها ظروف مقابلته | لنادرشاه الذى ترك فى نفسه أثراً طيباً للغاية منذ الوهلة الأولى ؛ وبطبيعة الحال فإن المادة الجغرافية عنده شحيحة للغاية ، هذا إذا استثنينا وصفه الذى يفيض بالحيوية لرحلته التى خرج فيها من بغداد وبقائه بالنجف لمدة يومين .

ويقابل هذا من الجانب الآخر أن التفاصيل التى أوردها فى مجالى التاريخ والثقافة لاتقل أهمية عن أسلوب الرحلة الذى يتسم بالوضوح والإبانة . والقطعة التى تبقت من وصف الرحلة تعطينا الحق الكامل فى الافتراض بأن وصف رحلة الحج الذى دونه يراع السويدى يرتفع فى مجموعه على المستوى العام ؛ ومما يؤسف له أن هذا الوصف معروف حتى الآن فى عدد محدود من المخطوطات التى من العسير الوصول إليها وبهذا فإنه لم يجتذب الأنظار بعد بصورة جدية . أما خط سير الرحلة فإنه لم يتجه إلى بلاد العرب رأساً فقد أخذ العلامة فى البداية طريق الشمال إذ خرج من بغداد إلى الموصل ومنها إلى حلب فدمشق(٥١) ، وأغلب الظن أن طريق الحاج المألوف لم يكن مأموناً تماماً أو أن المؤلف أراد فقط أن يزور الموصل التى أمضى فيها سنى دراسته ؛ وفيما عدا هذا فإن بقية تفاصيل رحلته غير معروفة لنا .

والصورة العامة للمادة الجغرافية التى نلتقى بها فى البلاد العربية الواقعة إلى الشرق من سوريا فى هذا القرن فقيرة وشاحبة للغاية ، بل إن سوريا نفسها تقتصر على اتجاه واحد فقط فى مجال الجغرافيا ولكنه تميز بالحيوية والنشاط ويمثل كلا متماسكاً على الرغم من تعدد العناصر المكونة له وتلونها . وأعنى بهذا وصف الرحلة ، خاصة رحلة الحج التى خرجت هذه المرة من وسط النصارى العرب .

ولقد حدث أن تعرفنا على عدد ملحوظ منها فى الفصل السابق على هذا ، غير أننا نلتقى فى الفترة التى نعالج الكلام عليها بشىء أشبه ما يكون بازدهار لهذا النمط . وخير دليل على هذا أنها بدأت تظهر فى أكثر الدوائر اختلافاً ، بل إنها استهدفت الارتفاع بالمستوى الفنى نفسه مرسلة فى هذا أول خيط لفجر النهضة الأدبية الحديثة فى الوسط المسيحى .

وقد اتجهت هذه الرحلات كما هو الحال من قبل إلى فلسطين وسوريا وروما قبل غيرها ؛ وترجع علاقة بعض رجال الإكليروس الشرقيين ممن كانوا يتكلمون العربية بمدينة روما إلى القرن السادس عشر. وإلى هذه العلاقة يرجع السبب فى الأحداث التى تمت فى غضون القرن السابق لهذا مثل رحلة إلياس الموصلى إلى أمريكا . ويعد خضر الكلدانى الذى جاء بعده بمدة قرن من الزمان شبيهاً له إلى حد ما ، وهو نسطورى الأصل ولد بمدينة الموصل فى عام ١٦٧٩(٥٢) وتلقى دراسة دينية جيدة ثم أنشأ مدرسة بمسقط رأسه لم تلبث أن تمتعت بسمعة طيبة . وقد جنح به ميل نادر منذ سن مبكرة إلى العلم وإلى قرض الأشعار الدينية ، كما ندين له أيضاً بمعجم كبير للغات الآرامية والعربية والتركية ، وله كذلك خطب وأغان وتسابيح باللغتين السريانية والعربية(٥٣) . وبعد أن تجاوز سن الثلاثين اعتنق خضر الكلدانى تحت تأثير الرهبان الكبوشيين (Capuccines) المحليين العقيدة الكاثوليكية وتعرض من جراء ذلك لاضطهاد أهل عقيدته السابقة حتى اضطر آخر الأمر إلى الهرب من موطنه فى أغسطس من عام ١٧٢٤ . وقد اتجه فى البداية إلى نصيبين ثم غادرها إلى ماردين ومنها إلى الرها ، وفى الرابع والعشرين من شهر فبراير عام ١٧٢٥ بلغ حلب ثم أبحر من ميناء الإسكندرونة فى السادس من شهر مايو . وقريباً من تونس تعرضت سفينتهم لعاصفة

742

بحرية شديدة ولم يبلغوا ميناء ليڤورنو Livorno إلا فى السابع عشر من شهر يوليو؛ وفى طريقه إلى رومه مر على پيزا Pisa وشقيته ڤكيا Civita Veccia حتى بلغوا أعتاب البابا بندكت الرابع عشر فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس . وبرومه استقر النوى بخضر الكلدانى ، وبها توفى حوالى عام ١٧٥٥[٥١].

ووصف هذه الرحلة وما سبقها من حوادث ، مضافاً إليها فترة إقامته بإيطاليا ، قد سجلها خضر جميعها فى مصنف خاص نشره الأب لويس شيخو اليسوعى معتمداً فى ذلك على مخطوطة فريدة يمتلكها أحد الأشخاص بالقاهرة[٥٥] ، وهى تشمل الفترة من عام ١٧١٩ إلى عام ١٧٣٤ وتقف فجأة بكل أسف عند اليوم السادس عشر من شهر يوليو من عام ١٧٣٤ . والمسائل التى شغلت بال المؤلف محدودة بالطبع ، فهو يروى بالتفصيل قصة اعتناقه الكاثوليكية واضطهاد أبناء جلدته له ، كما يصف لنا أعياد سنة اليوبيل برومه وطقوس « القنقلاوى »* والكنائس المختلفة وآثار القديسين والشعائر الدينية . ويجتذب اهتمامه بصورة خاصة المواكب والاحتفالات والألعاب النارية (fireworks) ؛ وكان يلفت نظره من حين لآخر بعض الظواهر الطبيعية كعاصفة غير مألوفة . وبالرغم من أنه زار بعض نواحى إيطاليا فكان مثلا فى عام ١٧٣١ على سواحل الأدرياتيك إلا أن الفاتيكان وحده وما يتعلق به هو الذى يمثل محور اهتمامه ؛ وهو يحكى عن جميع المنازل التى يقيم بها الرهبان ، بل إنه ليذكر خبر المبشرين الدينيين الذين أرسلوا إلى أمريكا ؛ ولعل أخبار رحلة الياس الحلبى الموصلى لم تكن غريبة عليه . ومنشأ الأهمية التى نالتها رحلته يرجع إلى أنها ذات كفتين متعادلتين فى تصويرها للعلاقات التى تربط بين الشرق والغرب فى ذلك العهد وفى نطاق معين ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فى أنها كشفت عن مشاعر وانطباعات رجل شرقى يزور أوروبا المعاصرة له .

ومبلغ علمنا برحلة خرجت من حلب إلى فلسطين وقام بها شخص يدعى إلياس الغضبان الحلبى[٥٦] يرجع إلى مجرد وصف لمخطوطتها الموجودة ببيروت ؛ وصاحب هذه الرحلة من طائفة الروم الكاثوليك Greek Uniates وكان من الشخصيات المرموقة بين أهل عقيدته فى حلب ؛ وقد خرج فى رحلة للحج فى صحبة راهبين بطريق البر فى الثالث عشر من شهر أبريل وعاد فى السابع والعشرين من مايو ، وذلك من عام ١٧٥٥ . وتشير مدة الرحلة القصيرة إلى أنها كانت رحلة خاطفة ، وعلى الرغم من هذا فإن وصفه لها كما بين شيخو يحفظ مقداراً من المعلومات القيمة فى مجالى التاريخ والطبوغرافيا . والرحلة تنقسم إلى قسمين يعالج الأول منهما الكلام على الرحلة نفسها بينما يصف الثانى الأماكن المقدسة .

744 وقبل ذلك بقليل ، وعلى التحديد فى عام ١٧٥٣ ، زار سيناء خليل الصباغ ، وهو من طائفة الملكيين Melkites ؛ وتوجد بالمكتبة الأهلية بباريس مخطوطة يصف فيها رحلته وقد نشرها الأب لويس شيخو اليسوعى اعتماداً على نسخة منقولة عنها وموجودة ببيروت[٥٧]. ووصف هذه الرحلة ليس بطويل ولا

---

* من الإيطالية Conclave ومعناها المكان المغلق الذى يعتزل فيه الكرادلة لانتخاب البابا الجديد . (المترجم)

يشغل فى مجموعه أكثر من اثنى عشر ورقة مخطوطة مكرسة كلها بالتقريب لمواضع سيناء المقدسة. وقد بدأ خليل الصباغ رحلته من مصر فى رفقة رئيس الدير الذى كان فى طريق عودته من القاهرة وكان بصحبته ستة وخمسون حاجاً مسيحياً . وقد أخذوا فى طريقهم أحد عشر يوماً ؛ وهو يذكر فى آخر وصفه بأن سير الرحلة من القاهرة إلى طور سيناء يتطلب على وجه الدقة مائة ساعة . ويسبق وصفه الموجز لسير الرحلة وصفه المفصل لكنيسة طورسينا وخزانة الدير ومواضع القداسة الأخرى الموجودة حوله . وهو يقدم لنا معلومات وافية عن بستان الدير ومقبرته وكذلك عن حياة الرهبان والحجاج التى راقبها عن كثب، سواء فى الأعوام العادية أو فى أثناء الاحتفالات الدينية الخاصة التى أقيمت فى يوم عيد القديسة كاترينا . وأسلوب قصته بوجه عام بسيط ومكتوب فى لغة لاتخلو أحياناً من الألفاظ الدارجة ، غير أن الميل إلى الصنعة الأدبية كان يظهر لديه بين آونة وأخرى ولهذا كان يعمد إلى السجع بطريقة بدائية جانبها التوفيق . وإذا كان وصف خضر الكلدانى قد أثار فينا إلى حدما ذكر كتاب إلياس الموصلى فإن خليل الصباغ من جهة أخرى يشابه كثيراً من أهل الفترة السابقة الشماس افرام « الساذج » .

لقد أخذ مستوى الثقافة الأدبية بين العرب المسيحيين يرتفع قرب ذلك العصر بصورة ملحوظة ، ويستبين لنا هذا بصورة جلية من مثال نسوقه لشخص آخر من مواطنى حلب أيضاً ترك لنا وصفاً لزيارته لمصر هو إبراهيم الحكيم الحلبى (توفى حوالى عام ١٧٧٠) من طائفة الروم الكاثوليك Greek Uniate ؛ وكانت مهنته الطب ولكنه كان يشعر بميل شديد نحو قرض الشعر[٥٨] كما كان وثيق الصلة بدائرة أتباع جرمان فرحات (توفى فى عام ١٧٣٢) باعث النهضة الأدبية فى مدينة حلب مركز الثقافة القديم بسوريا الشمالية* . وكان إبراهيم الحلبى إلى حدما تلميذاً لاثنين من أبناء عقيدته كانا أصغر سناً منه ، أحدهما هو الشاعر نقولا الصائغ (توفى فى عام ١٧٥٦) والآخر هو عبد الله الظاهر مؤسس إحدى دور الطباعة الأولى بلبنان والذى عرف أيضاً بمناظراته الدينية (توفى فى عام ١٧٤٨) [٥٩] . هذا وقد اضطره إلى القيام برحلاته التزامات مهنته من جهة والاضطهاد الدينى الذى تعرض له من جهة أخرى، ففى عام ١٧٤٠ كان بأدنة ، وفى عام ١٧٥٠ - ١٧٥٢ كان بحمص ، وفى عام ١٧٥٧ اضطر إلى الذهاب إلى سيواس[٦٠] فى معية الوالى التركى . غير أن حماية كبار رجال الدولة | الذين كانوا فى حاجة إلى خبرته كطبيب لم تجده نفعاً أمام الاضطهاد الدينى من قبل بنى وطنه حين زادت حدة الخصومة بين الأورثوذكس والروم الكاثوليك ، لذا فقد اضطر إلى الهرب إلى مصر فى عام ١٧٦٠ وأقام بالقاهرة مدة عامين. وفى رسالة طويلة له بعث بها إلى أحد أصدقائه وصف لرحلته التى اجتاز فيها لبنان ثم ركب السفينة من بيروت إلى

745

* المطران جبرائيل بن فرحات مطر الماروني ، أديب سورى من الرهبان عاش بحلب (١٦٧٠ - ١٧٣٢) ، ودرس اللاهوت وترهب سنة ١٦٩٣ ودعى باسم جرمانوس وانتخب أسقفاً على حلب سنة ١٧٢٥ . كان يجيد عدداً من اللغات ، وله عدد من المؤلفات باللغة العربية (المترجم)

دمياط ، كما يصف فيها أيضاً انطباعاته عن القاهرة . ولكونه شاعراً معروفاً له عدد من الأشعار وكان من أتباع الأسلوب المتكلف فقد جهد فى رسالته هذه أن يبين مهارته فى السجع وأن ينثر فى خلالها قطوفاً متنوعة من أشعاره الخاصة حتى بدت الرسالة فى بعض المواضع وكأنها مصنف أدبى يعكس مشاعره وعواطفه أثناء الرحلة لا وصفاً للرحلة نفسها . غير أنه من الممكن بلا أدنى جهد استنباط التفاصيل المتعلقة بالظروف الواقعية والأوضاع السائدة ؛ ومادته الجغرافية فى هذا الصدد جديرة بأن تجد من العناية والاهتمام نفس القدر الذى ظفرت به محاولته الأدبية .

وقد حفظ لنا القرن الثامن عشر أثراً من نفس ذلك الوسط يقف دليلا على أن الاهتمام بروسيا قد ظل يتردد صداه حتى بعد رحلة مكاريوس الأنطاكى فى القرن السابع عشر . فى مكتبة « ديوان الهند » India Office بلندن مخطوطة تضم مادة عن روسيا وضعها فيما يغلب على الظن أحد العرب الأورثوذكس من أهل سوريا لعله من رجال الدين وذلك فى عام ١٧٥٨ ، أى فى خلال حكم يلبزافيتا (اليصابات) بتروفنا[٦١] Ielizaveta Petrovna ، وهذه النسخة التى تتكون من تسعة وثمانين ورقة قد تم تدوينها فى عام ١٧٩٩ . ولا يوجد بالمخطوطة أى أثر سواء لاسم المؤلف أو لعنوان الكتاب ولكن ترد فى داخله الألفاظ الآتية : « ماقد احتوى عليه هذا الكتاب من أخبار المسكوف » . وبعد « مقدمة » ليست بالطويلة يعالج فيها الكلام على أوروبا عامة يفرد المؤلف خمسة عشر فصلا (« رأساً ») للكلام على روسيا ؛ ومن هذه الفصول ستة خالصة للجغرافيا . ويلى هذا تحليل ووصف لسمة الروس وأخلاقهم وعاداتهم ، ينتقل بعده للكلام على الحكومة وعلى النظامين المدنى والعسكرى وعلى الدين ، ثم يتكلم بعد ذلك عن الأباطرة والبطاركة ويسوق بعض المعلومات عن المدارس بروسيا . وهذه الرسالة تمثل أهمية خاصة ولو من ناحية الكشف عن المصادر التى استقت مادتها منها . وقد أولاها بعض الاهتمام وذلك فى بداية نشاطه العلمى ف . ر. روزن الذى وجدت بين أوراقه بعض مقتطفات من هذه المخطوطة[٦٢] ؛ وحتى يحين الوقت لإخضاعها لفحص دقيق فإنه من العسير إصدار أى حكم على هذا الأثر الفريد فى نوعه والذى يرتفع فى أغلب الظن إلى مصدر كتب أصلا بالإغريقية .

وينافس المغرب سوريا من حيث الكم فيما يتعلق بالمصنفات المتصلة بالجغرافيا ؛ وهنا أيضاً نجد أن الدافع الأول كان هو الرحلة إلى الأماكن المقدسة ، أى إلى الحج . ولم يخرج وصف الرحلة عن الإطار القديم ، وقد تم تدوينه فى الغالب على هيئة يوميات ؛ أما المؤلفون أنفسهم فإن أكثريتهم كانت تنتمى إلى الوسط الصوفى من بين العلماء المحليين .

746 ومن وسط هؤلاء الأخيرين خرج أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعى المتوفى على أغلب الظن بتمجروت فى عام ١١٢٩ هـ = ١٧١٧ ، وبها ولد فى عام ١٠٥٧ هـ = ١٦٤٧[٦٣] . وكان أبوه شيخاً لإحدى الزوايا وترك أثراً فى الأدب ؛ وخلفه الابن على تلك الزاوية ، وقد ظهر منه فى خلال رحلاته

الاهتمام بتنظيم طائفة الشاذلية . وينعكس ذوقه الأدبي بصورة واضحة في وصفه لرحلة الحج ، ذلك الوصف الذى يحمل عنوان « الرحلة الناصرية » ؛ وتعتمد شهرة الكتاب لا على طبعته الفاسية لعام ١٣٢٠ هـ = ١٩٠٢ في جزئين والنادرة الوجود بقدر ما تعتمد على الترجمة المختصرة التي عملها بالفرنسية بربروجيه Berbrugger ؛ وقد اقتصر المترجم على الأقسام المتعلقة بشمال إفريقيا إلى طرابلس[٦٤] ولكن ترجمته تعطي فكرة واضحة عن المؤلف وعن المصنف نفسه . ويقوم المصنف أساساً على وصفه لحجته التي استغرقت اثنى عشر شهراً بالتقريب ابتداء من أكتوبر حتى أكتوبر الذى يليه من عام ١١٢١ هـ - ١١٢٢ هـ = ١٧٠٩ - ١٧١٠ ؛ ويرد الكلام مرات عديدة خلال الكتاب عن حجاته السابقة الى مكة في عامى ١٠٩٦ هـ = ١٦٨٤[٦٥] و ١١٠٩ هـ - ١٦٩٧[٦٦] .

ولم يتنكب بربروجيه الصواب عندما وضع ترجمته لرحلة الدرعى في كتاب واحد مع ترجمته لرحلة العياشى ، إذ أنه يذكر بهذا الأخير سواء فيما يتعلق بطريق الرحلة الذى سلكه أو النهج الذى اتبعه في التأليف على هيئة يوميات[٦٧] . وهذا النهج لم يكن بالطبع شيئاً جديداً ، فالدرعى نفسه يذكرنا بعدد من السابقين له في هذا المضمار من بنى وطنه مثل التجانى الذى وصف حجته في القرن الرابع عشر . وقد خرج رحالتنا من مسقط رأسه ماراً في طريقه على سجلماسة حتى بلغ طرابلس ، ولكنه تخلف في طريقه عدة مرات لزيارة مواضع جانبية كزيارته لمضارب قبيلة لواته البربرية ولبسكره وقابس . وهو يفرد لهذه الأخيرة وصفاً وافياً ، أما بقية طريقه إلى مكة فقد كان طريق الحاج المغربى المعهود الذى يمر بمصر . ويتفق المؤلف كثيراً مع العياشى من حيث الموضوعات التي استرعت انتباهه فهو يقص بالتفصيل وبانتظام أخبار مقابلاته مع العلماء المختلفين في خلال رحلته ويتحدث عما رآه من المخطوطات في المجموعات المختلفة . ولم يكن غريباً عليه الاهتمام بالموضوعات التاريخية فهو يدخل في استطراد خاص يتكلم فيه عن فتوحات عقبة بن نافع بأفريقيا الشمالية كما أنه يعلق على الأحداث المعاصرة له فيصف مثلا بالتفصيل ضرب الفرنسيين لطرابلس الذى شهده بنفسه في أثناء حجته عام ١٠٩٦ هـ - ١٦٨٤ .

هذا وقد ظل ذلك اللون من الرحلات الأدبية متمتعاً بالقوة والحيوية ، وخير مثال لهذا رحلة أحد تلامذة الدرعى[٦٨] وهو الشاعر واللغوى محمد بن الطيب نور الله المدنى الشراغى الفاسى . هذا وقد أعدت له الأقدار مصيراً مختلفاً ، فهو قد ولد بفاس في عام ١١١٠ هـ - ١٦٩٨ ولكنه توفى عام ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦ بالمدينة التي عاش بها أعواماً طويلة | يشتغل بالتدريس[٦٩] ، وكان تشوقه إلى الرحلة قوياً وقام برحلة من المدينة إلى استنبول ماراً في طريقه على سوريا ولكنه رجع منها عن طريق مصر[٧٠] . وكان ، إن صح هذا التعبير ، من كبار أنصار التسفار وحفظت لنا في هذا الصدد إحدى قصائده التي يعدد فيها فوائد السفر ويمتدحها[٧١] ؛ وهذا الموضوع بالطبع ليس بجديد في الأدب ولكنه يقف على أية حال دليلا على اتجاهات المؤلف . ومعروف في إحدى المخطوطات وصفه لحجته في عام ١١٣٩ هـ - ١١٤٠ هـ =

747

١٧٢٧ — ١٧٢٨ من فاس إلى مكة ذهاباً وإياباً [٧٢] ، وقد خرج بتاريخ ٢٥ فبراير ١١٣٩ هـ = ١٧٢٧ وأخذت منه هذه الرحلة خمسة عشر شهراً وواحداً وعشرين يوماً . والمصنف على هيئة يوميات ولكنه مزود بمقدمة منسقة ؛ وكان هدفه كما يقول هو نفسه ثلاثة أشياء هى أن يبين منازل الطريق ، وأن يشير إلى جميع الشخصيات الهامة التى جاذبها أطراف الحديث حول أى موضوع ، وأن يسوق شواهد شعرية تتعلق بالرحلة . ويتضح من فصول المقدمة ميله الواضح نحو التنظيم والتنسيق ، وهو يتحدث فيها عن أهمية الحج وزيارة البيت الحرام وأهمية زيارة قبر النبى وعن الأسفار وفوائدها وعما يقع على المسافر من التزامات وأعباء ؛ بل إنه يقدم فى الخاتمة بعض القواعد الصحية التى يجب أن يتبعها المسافر ويشير إلى بعض الأشياء الضرورية اللازمة له فى أسفاره . والمؤلف على معرفة جيدة بالرحالة الحجاج المغاربة قبله ، وهو كثيراً ما يقتطف من العبدرى والعياشى ؛ أما مصنفه فلا يعتمد على ملاحظاته الشخصية فحسب بل وأيضاً على دراسة دقيقة للأدب فى هذا المضمار . وقد أثبت البحث إلى جانب هذا دقته الكبرى فى المعلومات التى يوردها من محيط الطبوغرافيا عن جميع المواضع التى تتصل بطريق رحلته ، هذا على الرغم من أنه لايعطى المسافات بدقة على نحو ما فعل الكثيرون قبله .

وأوصاف « الرحلات » المغربية ليست معروفة لنا جميعها معرفة مباشرة ؛ وقد تقتصر معرفتنا بالبعض على مجرد ذكره فى فهارس المخطوطات أو من عناوين طبعات من العسير الوصول إليها . مثال ذلك أنه فى حوالى عام ١١٦٣ هـ = ١٧٥٠ وضع عبد الرحمن بن محمد بن خرّوب الحاجى وصف « رحلة » إلى مكة محفوظاً لنا فى مخطوطة بالجزائر [٧٣] ؛ وبعد خمسة عشر عاماً من هذا وصف رحلته إلى الحجاز الحسين بن أحمد الورثيلانى (١١٢٥ هـ — ١١٩٢ هـ = ١٧١٣ — ١٧٧٨) [٧٤] الذى ينتسب إلى قبيلة تقيم قرب بجاية . وقد نال نصيبه من العلم بموطنه ثم بالقاهرة ؛ وفى سن متقدمة وذلك فى عام ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥ أدى فريضة الحج ووصف ذلك فى كتابه « نزهة الأنظار فى فضل علم | التاريخ والأخبار » الذى 778 اشتهر عادة بعنوان مختصر هو « الرحلة الورثيلانية » . والكتاب يتمتع برواج كبير فى شمال أفريقيا إذ ظهرت له طبعة تونسية بالحجر فى عام ١٩١٣ = ١٣٣١ هـ وطبعة أخرى جزائرية أيسر تناولا من تلك ظهرت فى عام ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ بعناية محمد بن شنب [٧٥] . والكتاب ليس بالكبير ولايزيد حجمه عن مائة وتسع وثمانين صفحة .

وإلى جانب رحلات الحج وصل إلينا من المغرب عدد من أوصاف الرحلات التى يمكن أن نعدها « دنيوية » ، وهى تمثل أحياناً أهمية كبرى فى مجالى التاريخ والحضارة كالرحلات إلى أسبانيا مثلا التى سيرد الكلام عليها فى حينها . ولاينطبق هذا على مذكرات أحمد بن حسن المتيبوى [٧٦] التى حفظت لنا بمحض الصدفة على ما يبدو ، إذ اهتم بدراستها المستشرق النمساوى للقرن الثامن عشر فون دومبى Von Dombay (١٧٥٥ — ١٨١٠) الذى اشتغل طويلا بدراسة تاريخ المغرب واللهجات المغربية ؛ ولعل دراساته

التاريخية هي التي جعلته يقوم بإعداد ترجمة لهذه المذكرات التي كانت محفوظة في مخطوطة بفينا[٧٧] يبدو أنه نقلها بخط يده . ويقدم لنا المؤلف بشكل موجز في ورقتين وصف رحلته التي استغرقت أحد عشر يوماً من فاس إلى تفيلالت بأمر من الشريف محمد بن إسماعيل وذلك في جمادى الثانية من عام ١٢٠١ هـ = أو آخر مارس من عام ١٧٨٧ ؛ ويلوح أن الوصف قد تم تدوينه آنذاك لأن تاريخ إتمام المخطوطة هو اليوم السابع من مارس عام ١٧٨٩ .

وبعض المغاربة ممن تربطهم بالجغرافيا علاقة غير مباشرة يسوقنا تاريخ وفاتهم أحياناً إلى القرن التاسع عشر . ويمثل أهمية معينة بالنسبة لموضوع دراستنا أحد المؤرخين القلائل الذين ظهروا في ذلك العصر ، وأعني به محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي المتوفى بعد عام ١٢٣٣هـ = ١٨١٨[٧٨] . وقد درس بمصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وكان من أساتذته الجبرتي والد المؤرخ المعروف ، وأمضى معظم حياته بمسقط رأسه صفاقس ولو أنه كما يبدو قد ساح كثيراً وزار مواضع كالبندقية مثلا . ومصنفه الرئيسي هو كتاب في التاريخ بعنوان « الدائرة » أو « نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار » المعروف في طبعة حجرية ظهرت في جزئين بتونس ولانبعث كثيراً على الرضى (١٣٢١ هـ = ١٩٠٣) . وقد أتم الجزء الأول من مصنفه في عام ١٢١٠ هـ = ١٧٩٦ ، ويبدو أنه قد مس فيه مسائل معاصرة لأن حكومة تونس صادرته على الفور . وتحمل « المقالة » الأولى لهذا التاريخ طابعاً تغلب عليه الجغرافيا إذ تمثل وصفاً لأقطار المغرب | وللأندلس . وكما يبدو من البحث الذي دونه يراع نالينو Nallino فإن الكتاب بأجمعه يغلب عليه طابع النقل والتجميع ، فالقسم الجغرافي مثلا يعتمد اعتماداً تاماً بالتقريب على الإدريسي وابن الوردي والقزويني والتجاني[٧٩] . وعلى النقيض من هذا فإن مصنفه فيما يتعلق بعرض الحوادث القريبة العهد منه يمثل أهمية كبيرة ، فهو مثلا يلقي الضوء على حوادث الحرب بين تونس والبندقية في عام ١٧٨٤ — ١٧٩٢ .

749

وتكتسب المادة الجغرافية أهمية أكثر في المصنفات المختلفة لأحد معاصري مقديش ، أعني أباراس (أبوراس) محمد بن أحمد الناصري[٨٠] الذي يعد من أنشط كتاب المغرب في ذلك الوقت وأحفلهم إنتاجاً ؛ ويبلغ مجموع تصانيفه في مختلف العلوم مائة وأربعين مصنفاً وهو نفسه قد قارن شخصه في شيء من الزهو والاعتزاز بشخص السيوطي الشهير . وقد تجول كثيراً ، ويبدو أنه وجدت تحت تصرفه معطيات وافرة مكنته من تقديم معلومات جغرافية قيمة غير أنه بكل أسف غلبت عليه اتجاهات أدبية مهتزة وركبه غرور شديد يجعله يدعي المقدرة على الكتابة في جميع فروع العلوم . وولد أبوراس بجبال أطلس في عام ١١٦٥ هـ = ١٧٥١ ومرت عليه في صباه حياة قاسية تراوحت بين العوز الشديد واكتساب عيشه من وقت لآخر « كطالب » متجول ؛ وقد وفق آخر الأمر في الاستقرار بمسكره حيث اشتغل في البداية بالتدريس ثم أصبح قاضياً وشغل فيما بعد منصب الإفتاء بها ؛ وفي عام ١٢١٤ هـ = ١٨٠٠ حين بلغ الخمسين بدأ في

زيارة عدد من المدن لا فى أفريقيا الشمالية وحدها فحسب كالجزائر وفاس بل إنه زار عدداً من المراكز العربية الكبرى كالقاهرة والقدس وذلك فى خلال رحلته إلى الحج. وهو قد حج مرتين على الأقل ، وذلك فى عامى ١٢٠٤هـ=١٧٩٠و١٢٢٦هـ=١٨١١واستطاع فى أثناء حجته الثانية أن يتعرف بطريق مباشر على حركة الوهابيين ؛ وقد توفى عام ١٢٣٨ = ١٨٢٣ . والتفاصيل الوافية المعروفة لنا عن حياته يرجع الفضل فيها إلى ترجمته لسيرة حياته التى دونها بعد عام ١٨١٨[٨١] ؛ وعلى الرغم من أنها صيغت بالأسلوب الذى عرف به الدراويش جيداً وهو أسلوب « التحدث بنعمة الخالق جل وعلا » (« فتح الاله ومنته فى التحدث بفضل ربى ونعمته ») ، فجاءت لذلك حافلة بالعواطف الوجدانية وبالتحدث عن نفسه ، أقول على الرغم من كل ذلك فإنها تقدم لوحة تذخر بالحياة لمتطلبات ذلك الوسط الذى نشأ فيه أبو الراس . وهى تنقسم إلى خمسة فصول عالج فيها الكلام بالتوالى عن نشأته وأساتذته ورحلاته أو عن بعض المسائل الدينية التى شغل بحلها ، وأخيراً أورد فى آخر ذلك ثبتاً لمؤلفاته . ويكفى لإعطاء فكرة عن اتجاهات المؤلف وميوله الرئيسية أن نذكر أن الفصل المتعلق بالمسائل الدينية يشغل وحده خمسى الكتاب بأجمعه ، أما الفصل المكرس لرحلاته والذى كان من المفروض أن يثير اهتمامنا قبل غيره فإنه ضئيل للغاية ولايتجاوز الصفحتين أو الثلاث . وينطبق هذا القول نفسه على محتويات ذلك الفصل إذ لم يرد فيه أى ذكر لبلاد زارها أو عادات رآها بل يدور الكلام فيه حول العلماء والمحادثات التى أجراها معهم ، وذلك فى نفس الأسلوب الذى غلب على الفصل الذى أفرده للمسائل الدينية . ومن الضروب المحببة إليه فى التأليف هى أن يضع شروحاً تاريخية جغرافية لقصائده ، وله شرح من هذا النوع لقصيدته فى الاستيلاء على وهران عام ١٢٠٥هـ – ١٢٠٦هـ = ١٧٩١ ، ولقد أخذ المؤلف نفسه طرفاً فى ذلك الحادث التاريخى . ويحمل هذا الشرح فى إحدى النسخ عنوان « عجائب الأسفار ولطائف الأخبار » ، والعنوان يوحى بدوره بأن الموضوع يتضمن مقداراً وافراً من المادة الجغرافية ، ولكن هذا لايتفق مع الواقع لأن أبا الراس فى هذه النسخة وفى عدد كبير غيرها من النسخ أبعد ما يكون عن جوهر موضوعه إذ ينسى نفسه تماماً ويضرب فى متاهة من الاستطرادات الجانبية التى لايربطها فى معظم الأحوال أى رابط بجوهر موضوعه ، بل إنه يعمد إلى المفاخرة والزهو بإظهار مدى معرفته حيناً ومهارته الأدبية حيناً آخر. فهو مثلا يستطرد فى الكلام عن بونابرت وعن السامريين وعن لندن والفلاندرز[٨٢] دون أن يهتم كثيراً بجوهر القصة بصورة مباشرة . أما من حيث الموضوع فإن قصائده تمس فى كثير من الأحيان تاريخ إفريقيا الشمالية وأسبانيا وجغرافيتهما ، من ذلك وصفه لجزيرة جربه ، أما شروحه ففقيرة بوجه عام . وبطبيعة الحال فإنه يجب ألا نستنتج من هذا أنه يفتقر بصورة قاطعة إلى المعلومات ذات القيمة ، ومما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه دراسة كوديرا Codera عن الأندلس[٨٣] ودراسة ماسينيون Massignon عن مراكش[٨٤] ؛ ومهما يكن من شىء فيجب الاعتراف بأنه على الرغم من كثرة مؤلفات أبى راس محمد فإنه بالنسبة لعصره ينتمى إلى المجموعة الوسط من المؤلفين .

ويمكن أن نشير فى هذا العصر أيضاً إلى رحالتين من المغرب زارا الأقطار الأوروبية وخاصة أسبانيا ، ولو أن أحدهما لم يحفل كثيراً بتسجيل انطباعاته المباشرة عن زيارته لتلك البلاد . وهذا الأخير هو أبو القاسم ابن أحمد بن على الزيّانى أكبر مؤرخى المغرب قاطبة لذلك العهد(٨٥) والذى امتد عمره الطويل حتى بلغ ماة عام طوت معها الربع الأول من القرن التاسع عشر (١١٤٧ هـ — ١٢٤٩ هـ = ١٧٣٤ — ١٨٣٣)(٨٦) . وأصله من فاس وهو ينحدر من أسرة بربرية ؛ وعلى الرغم من أنه كان من كبار موظفى الدولة ودبلوماسييها إلا أنه لم يحاول إخفاء أصله البربرى بل على العكس من ذلك عمل أحياناً على إبرازه وذلك على نقيض الغالبية من مواطنيه ممن تشربوا الثقافة العربية أو بلغوا مناصب عليا | فى الدولة . وهو على وجه العموم يكشف عن شخصية ذات أصالة فى ذلك العصر الملىء بالأحداث فهو يتمتع بقدر من الاستقلال والوضوح ، سواء من حيث العقيدة أو من حيث آرائه الشخصية حول موضوعات شائكة مثل موضوع الأولياء . ولهذا السبب لم يتمتع كثيراً بعطف العلماء المعاصرين له والذين انتموا إلى مجموعة أخرى من الناس لايلتزم هو لها بأدنى نوع من الولاء ؛ وكأنما لفه الصمت العميق فلم يرتفع له ذكر فى الوسط الذى عاش فيه ببلاده(٨٧) .

751

سافر الزيانى مرات عديدة ، وبدأ أسفاره فى سن مبكرة فقد أخذه والده معه إلى الحج فى عام ١١٦٩ هـ = ١٧٥٥ وكان الأب قد أزمع مغادرة المغرب إلى غير رجعة ليستقر بالحجاز ولكن غرق سفينتهم قرب ينبع حرمته من الأمتعة التى كان يود استعمالها فى الإقامة بموطنه الجديد ، لهذا فقد اضطر إلى العودة إلى بلاده . غير أن نشوب الحرب بين انجلترا وفرنسا قد حال دون تمكنه من سلوك طريق البر المعهود إلى شمال أفريقيا لذا فقد ركب السفينة من الإسكندرية إلى إيطاليا ، وهناك بميناء ليفورنو Livorno اضطرته نفس ظروف الحرب إلى البقاء مدة أربعة أشهر ، ثم أخذ يسير ببطء على سواحل فرنسا وأسبانيا وعند برشلونة فقط استطاع أن يستقل سفينة إلى جبل طارق ومن هناك بلغ تطوان فى عام ١٧٥٨ ؛ ولاشك أن مسيره البطىء على سواحل أوروبا الجنوبية قد مكنه من التعرف على بلاد الإفرنج بصورة أفضل مما أتيح لعدد كبير من الرحالة . أما رحلته الثانية فقد قام بها بعد ذلك بعهد طويل إذ كان عضواً فى سفارة ذهبت إلى استنبول فى عام ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٦ ، وسار فى طريقه من موغادور (الصويرة) إلى مالقة ثم بطريق البحر ماراً على تونس حتى بلغ القسطنطينية وفيها مكث مائة يوم وخلف لنا وصفاً مفصلا لعاصمة الدولة العثمانية وطريق عودته إلى طنجة . وبعد ثمانية أعوام من هذا ، وبدافع شخصى فيما يبدو ، زار استنبول مرة ثانية فى عام ١٢٠٨ هـ = ١٧٩٣ ماراً فى طريقه على تونس أيضاً ؛ وفى تركيا انضم إلى قافلة الحاج التى عبرت سوريا ، ثم نراه بالقاهرة ولكنه سافر مرة أخرى إلى سوريا وآسيا الصغرى حيث ركب السفينة من أزمير إلى تونس ومنها إلى موطنه .

غير أن هذه الرحلات ، مضافاً إليها عمله المجهد فى الجهازين الحكومى والكتابى والذى لم يكن له حياما ، لم تحل دون اهتمام الزيانى بالمسائل العلمية فتمكن من وضع مايقرب من خمسة عشر مصنفاً بعضها

من الحجم الكبير . وكان جل اهتمامه منصباً على التاريخ ، ففي عام ١٢٣٠ هـ = ١٨١٥ أكمل مصنفه الرئيسي والذي يتمتع بقيمة كبرى خاصة في ميدان التاريخ الحديث ؛ والكتاب يقع في قسمين غير متساويين من حيث الحجم ، الأول منهما بمثابة مقدمة موجزة يعرض فيها للتاريخ الإسلامي عامة أما الثاني فيعرض لتاريخ الأسر الحاكمة في الإسلام حتى عهد العثمانيين في المشرق ، ولتاريخ المغرب ابتداء من الأدارسة إلى عهد شرفاء سجلماسة . وكذيل للكتاب يسوق عرضاً اثنوغرافياً لمراكش ، ثم يختتمه بنظرة عاجلة لرحلاته .

ولم يمنعه تقدم السن من أن يشرع في تأليف مصنفه الجغرافي الضخم الذي يقدم فيه عرضاً وافياً لجميع 752 رحلاته على ضوء الجغرافيا العامة واستطرادات أخرى عديدة[٨٨] ؛ وقد أتم هذا المصنف في عام ١٢٣٣ هـ = ١٨١٨ وهو في سن السادسة والثمانين وكان يضيف إليه حتى لحظة وفاته . والكتاب يحمل في العادة عنوان « الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار (مدن) العالم براً وبحراً » ، أما العنوان الكامل فهو أوسع من هذا بكثير[٨٩] ويعكس تلك التقاليد القديمة التي ارتبط بها الزياني نفسه ، فهو يجري كالآتي : « الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم براً وبحراً ، وما تخللها من الأمصار ، والمدن والقرى والقفار ، والبحار والجبال والأنهار ، والعيون والمعادن والآبار ، وغير ذلك من عجائب خواص الحيوانات والأحجار ، ويؤيد ذلك من التفسير والآثار ، ونوازل الفقه ولغة العرب وشواهد الأشعار » . من هذا يتضح لنا أن الزياني إنما يسير على الطراز القديم المعروف لنا جيداً لنمط « الرحلة » والأوصاف العامة . والقطب الذي يدور حوله هذا الكتاب هو رحلاته نفسها ولكنه لم يلتزم بالطبع في هذا أي نظام .

فأول ما يرد في الكتاب هو وصف وطنه المغرب[٩٠] ، وتليه قصة رحلته إلى استنبول عام ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٦ . ويغتنم هذه الفرصة ليصف الأندلس والقسطنطينية وآثارها ؛ ثم ينتقل بعد هذا إلى وصف طريق عودته مع عرض قصير للجزائر وتونس . وتلي هذا أوصاف متقطعة تسوق إلى عرض عام لنظام الأقاليم السبعة ، ويعقب هذا وصف مصر ووصف رحلته إلى الحجاز الذي يقترن به استطراد في تاريخ ملوك الفرس القدماء . ويلي الوصف العام للبحار والجبال ثبت بمصنفات المؤلف واستطراد عن الأنبياء الأقدمين ويختتم كل هذا بتعداد لمدن العالم ابتداء من الغرب[٩١] . وليس من العسير أن ندرك من هذا العرض أن الزياني يعيد لنا في وضوح ذكرى معظم المؤلفين السابقين له ، بما في ذلك مؤلفي القرنين التاسع والعاشر ، وأن الجذور التي تربطهم به ظاهرة للعيان . وحتى في اتجاه الكارتوغرافيا يبدو أنه قد أراد إحياء تقليد قديم قد عفى عليه الزمن في المغرب ، وبغرض الوصول إلى هذا فقد قام برسم خارطة الإدريسي بطريقة بدائية للغاية مع تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم ، هذا إلى جانب قطع عديدة أخرى ولكن دون أن يدخل على ذلك تعديلا يذكر[٩٢] . وهذه المحاولة تبدو لنا وكأنها مثقلة بالوهن بعيدة عن الإتقان ، غير أنها كانت بالنسبة للمغرب في القرن التاسع ، كما يشهد ليفي بروفنسال ، النموذج الوحيد من نوعه[٩٣] بحيث لم تكن في متناول الفهم حتى بالنسبة لمعاصريه[٩٤] .

753 والمادة الغنية التي أوردها تغفر له النقص في النظام والترتيب ؛ وهي ظاهرة شملت عدداً غفيراً من المؤلفين آنذاك . وفي الواقع أنه حتى هذا المصنف من مصنفات الزياني لايمثل أهمية جغرافية فحسب بل يقدم لنا إلى جانب ذلك مواد جمة من تاريخ الفترة التي عاش فيها . والزياني هو المؤرخ الوحيد الذي شُغل بالجغرافيا خاصة ، واستطاع بفضل رحلاته أن يحصل على معلومات مباشرة عن بلاد البحر الأبيض المتوسط ، المسلمة وغير المسلمة ، مما لانجد مثيلا له عند معاصريه . وقد دفعه حب الاستطلاع ليحتفظ بمذكرات ومدونات عن المناطق التي زارها ، وتعد معطياته في هذا الصدد أغنى بكثير مما جمعه السابقون أو حتى معاصروه مثل العياشي والغزال[٩٥] . وهو بالطبع على معرفة جيدة بالمصنفات السابقة له وينقل عنها الكثير ، ولكنه لايبالغ في هذا النقل بل يعتمد اعتماداً رئيسياً على ملاحظاته وانطباعاته الشخصية . ولا يستوقف اهتمامه الجغرافيا السياسية وحدها بل إنه يتحدث عن كل ما يراه جديداً ، كما يتحدث عن الإصلاحات الاجتماعية ويورد المعلومات عن أي أثر يراه طريفاً ويقدم وصفاً طوبوغرافياً دقيقاً لمدينة فاس مفصلا الكلام على مساجدها ومدارسها وقناطرها وتحصيناتها[٩٦] . وتلك الأقسام من مؤلفاته التي يتحدث فيها من أوروبا تكشف عن معرفة جيدة بها[٩٧] ، وهي في هذا المجال وفي غيره لا تكتفي بحفظ ما يمكن أن يطلق عليه مادة تاريخية فحسب بل وتمثل أيضاً أهمية جوهرية بالنسبة لدراسة هذه المادة وتحليلها ؛ ومن الملاحظ أن المؤلفين من هذا الطراز قليلون في العصر التالي لعصر الزياني . وللزياني مؤلف آخر أشبه بجامع (Compendium) في الجغرافيا كما يبدو وهو يحمل عنوان « رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق »[٩٨] . وهذا العنوان يمكن أن يعكس بعض الصدى لمصنف الإدريسي المشهور ، غير أننا لانعرف عن الأثر نفسه شيئاً ما فيما عدا العنوان والذي حفظه لنا ثبت مؤلفات الزياني .

أما المؤلف المغربي الثاني ومعاصر الزياني الذي يكبره سناً فإنه يربطنا بتقاليد أوصاف أسبانيا التي كان سابقه المباشر فيها هو الوزير الغساني . واسم مؤلفنا هذا هو أحمد بن مهدي الغزال (توفي في عام ١١٩١هـ = ١٧٧٧)[٩٩] ويرجع أصل أسرته إلى الأندلس ، وكان أيضاً يشغل منصب كاتب أسرار مولاي محمد بن عبد الله الذي بعث به إلى أسبانيا في عهد كارلوس الثالث عام ١١٧٩ هـ = ١٧٦٦ للبحث في أمر تبادل الأسرى . وكانت ثمرة هذه الرحلة كتابه « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » ؛ وهو غير مطبوع ولكنه

754 معروف جيداً لدى الدوائر العلمية بفضل العدد الكبير من مخطوطاته . وقد اتبع الغزال في بداية رحلته نفس الطريق الذي سلكه الغساني قبله ، بل ويبدو أن وصف الرحلة قد وضع تحت تأثير مصنف الأخير* . وهو ينسج على منواله بإيراده وصفاً وافياً لجميع مراحل طريقه[١٠٠] ، ولكنه على نقيضه يحدد بوضوح الهدف الذي قام من أجله بالرحلة وهو إطلاق سراح الأسرى المسلمين الموجودين بأسبانيا عن طريق دفع الفدية ،

---

* لعل هذا من الأسباب التي دفعت عدداً من العلماء المعاصرين في الغرب والشرق إلى الخلط بين السفارتين ونسبة السفارة الأولى خطأ إلى الفقيه الكاتب أحمد بن المهدي الغزال . (المترجم)

ويسوق لنا فى خلال ذلك معطيات وافرة . ويعكس لنا الوصف بصورة جيدة جميع مارآه وحمعه المؤلف :

غادر مؤلفنا مكناس ماراً فى طريقه بطنجة وسبتة التى بلغها فى آخر يوم من عام ١١٧٩ هـ = ٢٥ مايو ١٧٦٦ . ثم عبر البحر إلى الجزيرة الخضراء Algéciras ومنها أخذ الطريق إلى إشبيلية Seville ماراً بطريف Tarifa وشذونه Sidonia ، ومن إشبيلية أخذ الطريق إلى مدريد ماراً بقرمونه Carmona واندوخر Andujar ومانساناريس Manzanares وموره Mora . وقد أقام بالعاصمة قرابة ثمانية أشهر حظى فى أثنائها بمقابلة الملك فى قصره بلاجرانخا La Granja ورجع مصحوباً بسفارة أسبانية ، غير أن كل فريق منهما أخذ طريقاً برياً مغايراً لطريق الآخر : وكانت مدينة قرطاجنة Carthagene الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط هى إحدى نقاط تجمع الأسرى وقد بلغها الغزال فى اليوم الأول من نوفمبر ١١٨٠ هـ = ١٧٦٦ ماراً فى طريقه على أرنخويس Aranjuez ومنها إلى طليطلة Toledo فوره Mora فالقصر Alcazar والبسيط Albacete ويكلا Yecla والچه Elche واريوله Orihuela ومرسيه Murcia . وحين فرغ من تسوية مشكلة الأسرى بمدينة قرطجنة أرسلهم بطريق البحر إلى قادس وفضل أن يسير هو نفسه بطريق البر فمر على لورقه Lorca ووادى آش Guadix وغرناطة Grenade ، ومنها فكر فى الذهاب إلى مالقة Malaga غير أن الأمطار حالت بينه وبين ذلك فاتجه إلى قادس ماراً فى طريقه على شنتفه Santa Fé ولوشه Loja وأرشيذونه Archidona وأسونه Osuna والبريجه Lebrija وشريش Jerez . وفى مدينة قادس التقى بالأسرى الذين بلغ عددهم ثمانمائة وستين شخصاً والذين تم إرسالهم إليها من نقاط التجمع الثلاثة برشلونة وقرطجنة والكركى La Carraca القريبة من قادس ، ثم رجع بهم إلى مراكش التى بلغها فى مايو من عام ١٧٦٧ . وفى خلال عام من هذا ، أى فى سنة ١١٨٢ هـ = ١٧٦٨ أرسل إلى الجزائر فى مهمة مشابهة ؛ وعلى نحو ما فعل الغسانى فإنه يبدو أن الغزال قد جلب معه من أسبانيا عدداً من المخطوطات العربية[١٠١] .

وقد انصرف اهتمامه منذ اللحظة الأولى إلى كل ما له علاقة مباشرة بغرض الرحلة نفسها ، ثم يلى هذا اهتمامه بالمسائل الدينية ؛ وهو قد أقلع منذ البداية عن تكرار ما دونه الآخرون قبله خاصة فى المسائل المتعلقة بالتاريخ[١٠٢] . ومؤلفنا يقف موقف المتشدد من الأخلاق والعادات والاحتفالات والأعياد كما أنه يتخذ موقفاً سلبياً من مصارعة الثيران[١٠٣] ؛ وعلى النقيض من الغسانى فإنه لايبدو عليه أى أثر لعالم الاجتماع أو المؤرخ ، ذلك أن نظرة الرحالة الفاحص المتأمل لما يراه قد شغلها لديه وجهة نظره بوصفه سفيراً ومسلما صاحب عقيدة . ولقاء هذا فإن هناك فى مصنفه ناحية تكشف عن مادة طريفة عند مقارنته بالأوصاف الأخرى ، فهو يقدم لنا فى كل خطوة من خطوات رحلته معطيات هامة عن الآثار والنقوش التى رآها وتفاصيل عن الأبنية[١٠٤] . ولا يمكن بالطبع أن يُعد عالماً من علماء النقوش (epigraphist) 755

ولكن من شأن روايته أن تجتذب أنظار عالم الآثار . أما أسلوبه فهو فى العادة أسلوب متزن يتمتع بالكثير من الدقة الفنية (technical) مما يعاون على وضع معجم خاص للألفاظ من ميدانى الآثار (archaeology) والفنون التصويرية[١٠٥](fine arts) ؛ ومن الملاحظ أنه يوجد من بينها عدد من الكلمات الإسبانية التى استعملت فى ذلك العصر[١٠٦].

وهذا الوصف فى مجموعه ذو أهمية كبيرة بوصفه وثيقة تاريخية تقدم لنا لوحة جيدة لأسبانيا فى القرن الثامن عشر ، وهو يمثل مصدراً هاماً للغاية للتعريف بها . ومعطياته عن المجتمع الإسبانى قد كيفتها بصورة قوية وجهة نظره الخاصة كمسلم ؛ وهى على أية حال لاتضيف كثيراً إلى مادة الغسانى . ولكن إلى جانب هذا فإن تصويره لافتكاك الأسرى وتسلم المخطوطات يشكل مادة أصيلة ذات قيمة قصوى لا وجود لها فى مصدر آخر سواه . ووصفه للآثار العربية بأسبانيا يسبغ على مصنفه لوناً فريداً لا يقابلنا فى الفترات التالية لهذا ، كما أنه ليس بمقدور مؤرخى الفن أن يلتقوا بهذا القدر الكبير من التفاصيل الفنية (technical) فى محيط المعمار (architecture) ؛ وهو فى هذا الباب يحتل مكانة خاصة بين جميع الرحالة العرب الذين زاروا أسبانيا[١٠٧] ويمكن فى نقاط معينة مقارنة وصفه لأسبانيا فى القرن الثامن عشر بوصف فرنسا فى عهد لويس الخامس عشر الذى دونه محمد أفندى . وليس بعيداً أن يكون قد ترك بعض الأثر على الأقسام المشابهة من مصنف الزيانى[١٠٨] . ولايخلو من طرافة أن نلاحظ أن رحلة الغزالى ربما كانت سبباً فى دفع الكاتب الأسبانى كادالسو Cadalso أوكاداهلسو Cadahalso (١٧٤١ — ١٧٨٢) لتأليف « الرسائل المراكشية » Cartas Marruecas التى يمكن مقارنتها من حيث الطرافة « بالرسائل الفارسية » Lettres Persanes لمونتسكيو ، ففيها يرد الكلام عن شخص يدعى غزال بن على Gazel ben Ali يقص على صديق له بمراكش ما رآه فى أسبانيا[١٠٩] .

ونستطيع أن نختتم عرضنا للأدب الجغرافى فى القرن الثامن عشر بالوقوف عند مؤلف يعد أنموذجاً مثالياً لهذا العصر ؛ وهو لم يكن من أهل الجغرافيا بالمعنى الضيق لهذا اللفظ ولكن المادة الجغرافية قد وجدت طريقها إلى معجمه الضخم الذى لايزال حتى هذه اللحظة المرجع الأول فى اللغة العربية لجميع المهتمين بدراستها ولايخلو منه مكتباتهم . بل إن سيرة حياته تعد فى ذاتها أنموذجاً صادقاً لهذا العصر الذى يسبق مباشرة عصر النهضة العربية الجديدة ، فقد ولد محمد مرتضى الزبيدى بالهند فى عام ١١٤٥ هـ ١٧٣٢ ولكنه ينتمى إلى أسرة عربية أصلها من العراق ودرس فى شبابه بمكة وعاش طويلا باليمن ومنها أخذ لقب الزبيدى نسبة إلى مدينة زبيد باليمن . ومنذ عام ١١٦٧ هـ = ١٧٥٣ استقر بالقاهرة ومن ثم اقتصرت أسفاره بعد ذلك التاريخ على مصر وحدها فزار مضارب القبائل العربية بمصر السفلى والعليا ، وتوفى بالقاهرة من الطاعون فى عام ١٢٠٥ هـ = ١٧٩١[١١٠] . وقد تمتع الزبيدى خلافاً لما كان عليه العلماء فى ذلك العهد باحترام كبير من معاصريه ومن السلطات الحاكمة لسعة اطلاعه ونشاطه الجم فى مجال التدريس ، وبسبب مصنفاته كذلك .

756

وتلميذه المؤرخ الشهير الجبرتى قد بين فضله الكبير فى إحياء التراث التعليمى بالأزهر ، بل إن أحد المستعربين الإنجليز يرى فيه « أعظم علماء عصره لا فى مصر وحدها بل وفى العالم الإسلامى قاطبة[111] » : ولايزال شرحه الكبير « لإحياء علوم الدين»[112] للغزالى متمتعاً بالرواج فى الأقطار الإسلامية حتى هذه اللحظة ، كما وأن أشعاره تكشف عن مهارة كبيرة ، وقد تشبه فيها بمجنون ليلى الذى بدأ به اتجاه جديد فى تطور الشعر الرومانسى عند العرب .

ورواية الجبرتى التى يقول فيها إن الزبيدى قد صنف بعض « رحلات » يصف فيها أسفاره بمصر وأنها ربما شغلت مجلداً بأجمعه تكتسب أهمية كبيرة بالنسبة لنا ، ولكنها فى أغلب الظن قد فقدت . ويمثل أحد الآثار الأساسية فى حياته معجمه الكبير الذى أمضى فى تأليفه أربعة عشر عاماً وأكمله فى سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ — ١٧٦٨[113] أو فى سنة ١١٨٨ هـ = ١٧٧٤[114] ، وهو « تاج العروس من (شرح) جواهر القاموس » الذى يمثل فى جوهره شرحاً لمعجم الفيروزابادى للقرن الرابع عشر ؛ ولعل فكرة وضع المعجم قد وافته وهو مازال بزبيد إذ من المعلوم جيداً أن الفيروزابادى قد عاش بعض الوقت بها . وأهمية هذا المعجم من وجهة نظر موضوعنا ينصب فى أنه يحوى قدراً من الأسماء الجغرافية ولو أن ذلك جاء بصورة أقل بالطبع مما هو عليه الحال مع المعاجم الجغرافية الخالصة مما مر بنا الكلام عليه . وفى معرض تعداده لمصادره يذكر الزبيدى بعض المصادر الجغرافية ، وهى رغم قلتها إلا أنها ذات أهمية بالنسبة لنا لأنها تبين أى المراجع بالذات فى ذلك الميدان قد وجد فى متناول أيدى الأوساط العلمية قرب نهاية القرن الثامن عشر . ومن بين المعاجم الجغرافية يذكر الزبيدى اثنين فقط هما ياقوت والبكرى[115] ، ولايخلو من مغزى فى هذا الصدد أنه لم يوجد بين يديه من مصنف ياقوت سوى ثلاثة أجزاء فقط هى الأول والثانى والعاشر . أما بقية مراجعه الجغرافية فترجع إلى عهود متأخرة ودونت بمصر بصورة خاصة ، وجميعها نماذج من الجغرافيا « الإقليمية » (regional) مثل « الإنس الجليل » لمجير الدين[116] ، 757 وابن مماتى ، وابن الجيعان ، وبالطبع « الخطط » للمقريزى[117] ؛ وهى كلها قد مرت علينا فى حينها . ويتضح من هذه القائمة أن المؤلفين القدامى قد طويت عليهم ذيول النسيان ، كما أن المحدثين لم يكونوا معروفين بالقدر الذى يبدو طبيعياً بالنسبة لمصر أو بالنسبة لما وصل إلى أيدينا . وعلى الرغم من هذا فإنه تقابلنا فى المعجم معطيات تمثل قيمة لاشك فيها ، لا فيما يتعلق بتصحيحها لتسمية جغرافية ما وردت فى الشعر الجاهلى أو بتبيان اشتقاقها فحسب بل بالنسبة للعصور المتأخرة كذلك . ولنقتصر فى هذا الصدد بذكر مثال واحد ، فهو يسوق تحت لفظ « قسط » أسماء خمسة مواضع جغرافية[118] وهى « قُسْطانة » (بإيران) و« قُسُنْطانة » (بالأندلس) و« قُسْطون » (قرب حلب) و « قُسَنْطينة » (بإفريقيا) و« قُسْطَنْطِينية » (بيزنطة = استنبول) ؛ وعن هذه الأخيرة يستفيض فى كلام طويل يمكن كما بين مقال تيشنر Taeschner[119] أن يحتل مكانه بين الروايات الإسلامية الأخرى فى وصف هذه المدينة : من كل هذا يتبين لنا أنه حتى

بالنسبة للنماذج التقليدية فى الأدب العربى ، وذلك فيما يتعلق بنمط المعاجم ، فإنه لا يمكن اطراحها جانباً إذا ما عرضت لفحص دقيق .

هذا وقد كتب للمعجم حظ يشابه الحظ السعيد الذى كان من نصيب المؤلف ؛ فقد تسلم هذا الأخير مائة ألف درهم[١٢٠] على النسخة الأولى منه ، كما وأن تقديره لم يقف عند بنى جلدته وحدهم فالمستعرب لين E.W. Lane (١٨٠١ — ١٨٧٦) قد تعرف عليه منذ فترة رحلته الأولى إلى مصر ووجدت تحت تصرفه فيما بعد نسخ جيدة من « تاج العروس » اعتمد عليها بالتالى اعتماداً أساسياً فى وضع معجمه العربى الإنجليزى Arabic-English Lexicon الذى طبقت شهرته الآفاق . غير أن القاموس لم يظهر كاملا فى طبعة عربية دفعة واحدة ، فالمحاولة الأولى فى هذا المجال كانت فى عام ١٢٨٦هـ - ١٢٨٧هـ - ١٨٦٩ — ١٨٧٠ ووقفت بصدور الجزء الخامس . وبعد عشرين عاماً من هذا ظهرت الطبعة الكاملة له فى عشرة أجزاء فى سنة ١٣٠٦ هـ — ١٣٠٧ هـ = ١٨٨٩ — ١٨٩٠ بفضل اهتمام الأديب والمربى الكبير إبراهيم المويلحى (١٨٤٦ — ١٩٠٦) ؛ ولايزال جميع المشتغلين بدراسة اللغة العربية يعترفون له بالفضل فى ظهور هذه الطبعة الهامة التى تعد أهم معين لهم فى أبحاثهم . إلا أن دور المعجم فى مجال الأدب الجغرافى ليس بكبير ، رغماً من أن شخص المؤلف نفسه يقف أنموذجاً حياً لذلك العصر فقد توفى الزبيدى قبل سبعة أعوام من حملة بونابرت على مصر ، وهى اللحظة التاريخية التى يبدأ بها تاريخ الأدب العربى الحديث .

والمصنف لايخلو من الفائدة فى مجال آخر ، فهو يقدم لنا فكرة عن تلك الآثار الجغرافية بالذات التى كانت معروفة لدى أحد كبار علماء ذلك العصر فى أعلى معهد علمى بالعالم الإسلامى ، كما يبين لنا ما كان يجتذب اهتمامه فى ميدان الجغرافيا بصورة خاصة . وبالطبع فإن الجغرافيا لم تجد طريقها إلى المنهج الدراسى آنذاك ؛ والمثال الوحيد الذى يمكن أن نسوقه لارتباطه بالجغرافيا من حين لآخر هو دراسة بعض مجموعات الحديث حيث ارتبط توزيع المادة | بعض القواعد الجغرافية ، مثال ذلك « الأربعين البلدانية » لأحمد السلفى (توفى حوالى عام ٥٧٦ هـ = ١١٨٠)[١٢١] التى يرتبط كل حديث فيها من بين الأحاديث الأربعين ببلد ما ويقدم بذلك فكرة عن أسفار المؤلف[١٢٢] ؛ وكان يرد من وقت لآخر ذكر لتدريس هذه المجموعة بالأزهر فى القرن الثامن عشر . أما المدارس القبطية بمصر فى ذلك العهد فمن الجلى أنها هى أيضاً لم تول عناية ما للجغرافيا[١٢٣]

758

حواشي الفصل الرابع والعشرين

(١) Brockelmann, GAL, II, p. 362-368, No 14; SB II, p. 409 –

(٢) Ahlwardt, V, p. 411-412, No 6101 = Cheikho, Catalogue raisonné, p. 103-104, No 171 –

(٣) Ahlwardt, VII, p. 151, No 8019, 1 –

(٤) المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ١٥٤

(٥) هكذا لدى الجبرتى (الجزء الأول ، ص ٢٤٢) ؛ أما لدى ألفارت (Ahlwardt, V, p. 443) فيوجد: ١١٧٨ هـ = ١٧٦٥ ؛ ووفقاً لألفارت (Ahlwardt, V, p. 412) ١١٧٨هـ = ١٧٣٠، ربع بعض الأخطاء : Brockelmann, GAL, II, p. 363, No 15; SB II, p. 490

(٦) المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ١٦٦

(٧) Ahlwardt, V, p. 412-413, No 6102 –

(٨) الجبرتى الجزء الأول ، ص ٢٢١ – ٢٤٢– Heyworth-Dunne, BSOS, IX, p. 686

(٩) Ahlwardt, V, p. 443, No 6151 –

(٠١) Brockelmann, GAL, SB II, p. 409, No 13 –

(١١) Houtsma, Catalogue, No 268 = Garrett, Catalogue, p. 249, No 757 –

(١٢) Garrett, Catalogue, p. 249, No 757 –

(١٣) Brockelmann, GAL, II, p. 299-300, No 6; SB II, p. 410-411 –

(١٤) Babinger, GOW, p. 283-284, No 257 – Ahlwardt, IX, p. 86-87, No 9479-9480 –

(١٥) Ahlwardt, V, p. 400 -- 401, No 6088 –

(١٦) Brockelmann, GAL, II, p. 282, No, 64; SB II, p. 391-392 –

(١٧) Cheikho, Catalogue raisonné, p. 106-107, No 176 –

(١٨) شرحه ، ص ١٠٧

(١٩) Babinger, GOW, p. 291, No 265; –
توجد مخطوطة (الترجمة التركية) المنينى بالمكتبة الأهلية بلنينغراد (Indices, p. 23, No 352)

(٢٠) Brockelmann, GAL, SB II, p. 392 –

(٢١) Brockelmann, GAL, II, p. 345-348, No 49; SB II, p. 473-476 – Brockelmann, Abd al-Ghani, p. 39-40 – Sarkis, p. 1832-1834 –

(٢٢) – Wüstenfeld, Muhibbi, p. 29-30, No 13; cf: Brockelmann, GAL, SB II, p. 476, No 49

(٢٣) – Wüstenfeld, Muhibbi, p. 28-29, No 11-12; cf: Brockelmann, GAL, SB II, p. 476, No 49 b

(٢٤) – Brockelmann, Abd al-Ghani, p. 40

(٢٥) – Gildemeister, Abd al-Ghani, p. 388 sui

(٢٦) – Brockelmann, GAL, II, p. 348; SB II, p. 475 — Brockelmann, Abd al — Ghani, p. 40 — Flügel, ZDMG, 16, p. 651-658

(٢٧) – Brockelmann, GAL, II, p. 348; SB II, p.475 — Brockelmann, Abd al-Ghani p. 40 — Kremer, SBAW, V, p. 316 — Gildemeister, Abd al-Ghani, p. 385-400 — Sarkis, p. 1833; طبعة القاهرة ١٣٢٠ هـ — Hartmann, Die Strasse, p. 700

(٢٨) – Brockelmann, GAL II, p. 348; SB, II, p. 474 — Brockelmann, Abd al-Ghani, p. 40 — Kremer, SBAW, V, p. 319 — Flügel, ZDMG, 16, p. 659-696 — Hartmann, Die Strasse, p. 699-700; والطريق : p. 700-702

الطبعات : دمشق ١٢٩٩ هـ ، والقاهرة ١٣٢٤ هـ ؛

(٢٩) – Brockelmann, GAL, II, p. 348 — Brockelmann, Abd al Ghani, p. 40

(٣٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 348 — Hartmann, Muwassah, p. 6 — Ahlwardt, VII, p. 224, No 8175, 1-Mohammed Ben Cheneb, Muwashshah, p. 860

(٣١) – Brockelmann, GAL, II, p. 362, No 13; SB II, p. 490

(٣٢) – Ahlwardt, V, p. 438, No 6142

(٣٣) – Brockelmann, GAL II, p. 362, No 12

(٣٤) – Ahlwardt, V, p. 435-436, No 6137

(٣٥) – Huart, Littérature, p. 392 — Sarkis, p. 1266 — Brockelmann, GAL, SB II, p. 512, No 17 a = p. 539, No 4 = p. 905, No 1

(٣٦) العباس المرسوى ، الجزء الأول ، ص ١٢ ، ١٥ ، ١٦

(٣٧) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٣

(٣٨) شرحه ، الجزء الأول والثانى ، ١٢٩٣ هـ و ١٣٢٣ هـ

(٣٩) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٤١١ ؛ الجزء الأول ، ص ١٤

(٤٠) شرحه ، الجزء الأول ، ص ١٧ – ٣٣

(٤١) شرحه ، ص ٣٩ – ٤٩

(٤٢) شرحه ، ص ٦٠ - ٦١

(٤٣) – Brockelmann, GAL, II, p. 377; SB II, p. 508, No 2 — Sarkis, p. 1066 1067 — Cheikho, Littérature, I1, p. 87 - 88; I2, p. 92-93

(٤٤) – Ahlwardt, V, p. 442 - 443, No 6150 —

عن مخطوطة الموصل راجع چلبي ، مخطوطات ، ص ٢١٦ ، رقم ٨٩ ، ١٠ وعن مخطوطة بغداد راجع عز الدين علم الدين ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الثامن ، ٤٥٠

(٤٥) – Shmidt, p. 7-8

(٤٦) – Goldziher, Vorlesungen I, p. 316 = (الترجمة الروسية) p. 271; Vorlesungen 2, p. 295 and 387

(٤٧) – Shmidt, p. 7-41

(٤٨) – Huart, EI, I, p. 213

(٤٩) – Shmidt, p. 17

(٥٠) شرحه ، ص ٩

(٥١) – Sarkis, p. 1066 - 1067

(٥٢) الكلداني ، المشرق ، الجزء الرابع ، ص ٨٥٢ ، رقم ٦ –

Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 87, No 149 — Cheikho, Catalogue, p. 94, No 332

(٥٣) عن نماذج من مصنفات خضر الكلداني راجع : شيخو ، المشرق ، الجزء السابع ، ص ١٠٩٦ – ١٠٩٧ – شيخو ، المشرق ، الجزء الثالث عشر ، ص ٥٨٣ وما يليها –

Cheikho, Catalogue, p. 94

(٥٤) شيخو ، المشرق ، الجزء الثالث عشر ، ص ٥٨٢ - الكلداني ، المشرق ، الجزء الرابع ، ص ٨٥٢ ولكن راجع سركيس (لغة العرب ، الجزء التاسع ، ص ٤٥١ ، الملاحظة الأولى) الذي يعطي تاريخ ١٧٥١

(٥٥) شيخو ، المشرق ، الجزء الثالث عشر ، ص ٥٨١ – ٥٩٢ ، ٦٥٦ – ٦٦٨ ، ٧٣٥ – ٧٥٥ ، ٨٣٥ - ٨٤٣

(٥٦) – Cheikho, Catalogue raisonré, II, p. 105 No 174 — Cheikho, Catalogue p. 155 - 156, No 585

(٥٧) شيخو ، المشرق ، الجزء السابع ، ص ٩٥٨ – ٩٦٨ ، ١٠٠٣ – ١٠١٢

— Cheikho, Catalogue raisonné, I, p. 23, No 35 – Cheikho, Catalogue, p. 132, No 486 - Beneshevich, I, p. XXXI, No 357

(٥٨) نشر وصف رحلة إبراهيم الحلبي العلامة لويس شيخو بالمشرق ، المجلد العاشر ، ص ٥٥٩ – ٥٦٤ ، ٥٨١

— ٥٨٦ ، ٧٠٨—٧١٤ . أما أشعاره فلشرها عيسى المعلوف بالمشرق، الجزء العاشر ٨٣٣ — ٨٤٤ ، ٨٩٠ — ٨٩٧، ١٠١٧—١٠٢٦ ، ١١٠٠ — ١١٢٠ — شيخو ، الشعراء ، ص ٤٧٨ — ٤٨٨ ، رقم ١٥

Cheikho, Catalogue rasonné, II, p. 112, No 183 — Cheikho, Catalogue, p. 92, No 325 Krachkovski, VV, XIV, 1907, p. 650

(٥٩) — Krachkovski, EI, EB, p. 79

(٦٠) شيخو ، الشعراء ، ص ٤٧٩

(٦١) — Loth, Catalogue, p. 211, No 729

(٦٢) — Krachkovski, Opis, p. 1338, No 65

(٦٣) — Brockelmann' GAL, II, p. 464, No 4; SB II, p. 711

(٦٤) — Berbrugger, p. VIII, X - XV, p. 106–113, 165 - 344

(٦٥) شرحه ، ص ١٠٩ ، وراجع ص ١١٣ ، ملاحظة ٢ ، ص ١٧٢ ، ١٨٢ ، ٢٠٣

(٦٦) شرحه ، ص ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٤

(٦٧) شرحه ، ص ١٧١

(٦٨) المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ٩١

(٦٩) — Brockelmann, GAL, II, p. 465, No 5; SB II, p. 522-523, No 6 c —

المرادى ، سلك ، الجزء الرابع ، ص ٩١ — ٩٤

(٧٠) المرادى ، سلك ، الجزء ، الرابع ، ص ٩١

(٧١) شرحه ، ص ٩١ — ٩٢

(٧٢) — Flügel, ZDMG, 18,, p. 537-569 (بحسب مخطوطة ليبزغ)

(٧٣) — Brockelmann, GAL., II, p. 465, No 6

(٧٤) — Brockelmann, GAL., SB II, p. 713, No 8 — Sarkis, p. 1913-1914

(٧٥) محمد بن شلب ، الرحلة الورثيلانية

(٧٦) — Brockelmann, GAL., SB II, p. 713, No 9

(٧٧) — Flügel, Handschriften, II, p. 424, No 1270, 2 - 3

(٧٨) — Brockelmann, GAL, SB II, p. 877, No 14 — Sarkis, p, 1209

(٧٩) — Nallino, Centenario, I, p. 313, note 315 - 316

(٨٠) — Brockelmann, GAL, II, p. 508 - 509, No 4; SB II, p. 880, No 18 — Sarkis, p. 1835

(٨١) — Faure — Biguet, p. 304 - 351, 388 - 420

(مقتطفات من سيرة حياة أبي راس الناصري بقلمه)

(٨٢) شرحه ، ص ٢٤١

(٨٣) – Codera, Decadencia, p. 287

(٨٤) – Massignon, Maroc, p. 20

(٨٥) – Lèvi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 199-200

(٨٦) – Brockelmann, GAL, II, p. 507-508, No I; SB II, p. 878-880, No 17 - Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 142 — 199 (خاصة p. 188-190) — Lévi — Provençal, EI, IV, p. 1300 — 1301 — Lévi — Provençal, Extraits, p. 8, No XXII — Kramers, EI, EB, p. 73 — Pérès, L'Espagne, p. 18-19 – من شكل الاسم راجع : Fischer, Ez-Zajani, p. 223-226

(٨٧) – Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 142-145, 198-199

(٨٨) – Salmon, AM, II, 1905, p. 330-340 - (محتويات مخطوطة الزياني)

(٨٩) – Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 185

(٩٠) – من الترجمة راجع Coufourier, Az-Zyany, p. 436-456 تائمة مدن المغرب Salmon AM, VI, p. 457-460 :

(٩١) – Lèvi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 186, note 2

(٩٢) – Kramers, EI, EB, p. 73

(٩٣) – Lévi — Provençal, Hist. de Chorfa, p. 188

(٩٤) شرحه ، ص ١٨١

(٩٥) شرحه ، ص ١٨٠ – ١٨١

(٩٦) شرحه ، ص ١٩٣ – ١٩٥

(٩٧) شرحه ، ص ١٩٥ – ١٩٨

(٩٨) راجع : شرحه ، ص ١٦٧

(٩٩) – Brockelmann, GAL, II, p. 465, No 7; SB II, p. 712-713 — Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 327-329 · Pérès, l, Espagne, p. 19-40

(١٠٠) – Lévi — Provençal, Hist. de Chorfa, p. 329 — Pérès, L'Espagne, p. 23-27

(١٠١) – Pérès, L'Espagne, p. 28-29

(١٠٢) شرحه ، ص ٣١

(١٠٣) شرحه ، ص ٣٢ – ٣٣

(١٠٤) شرحه ، ص ٣٣ – ٣٤

(١٠٥) شرحه ، ص ٣٥ — ٣٨

(١٠٦) شرحه ، ص ٣٨ — ٣٩

(١٠٧) شرحه ، ص ٣٩ — ٤٠

(١٠٨) Lévi — Provençal, Hist. d. Chorfa, p. 329 -

(١٠٩) Pérès, L'Espagne, p. 40, note 1 -

(١١٠) — Brockelmann, GAL, II, p. 287 — 288, No 18; SB II, p. 398 - 399 -
Brockelmann, Al - Zabidi, p. 343 - 744 — Sarkis, p. 1725 - 1728 —
تاج العروس ، الجزء العاشر ، ص ٤٦٩ — ٧٤٠ — الجبرتى ، الجزء الثانى ، ص ١٩٦ — ٢١٠ ؛
الترجمة : El Djabarti, V, p. 102 - 127

(١١١) Heyworth — Dunne, Introduction, p. 35 -

(١١٢) الزبيدى ، اتحاف السادة المتقين ، ١ — ١٣ ، فاس ١٣٠١ هـ — ١٣٠٤ هـ
(راجع Brockelmann, GAL, I, p. 422 : 1302 - 1304)
؛ ١ — ١٠ ، القاهرة ١٣١١ هـ — Vollers, ZDMG, 47, p. 538

(١١٣) الجبرتى ، الجزء الثانى ، ص ١٩٧ — Brockelmann, GAL, II, p. 288, 1
Sarkis, p. 1727 — Lane, I, p. XVII — XXIII

(١١٤) تاج العروس ، الجزء العاشر ، ص ٤٦٥ — المسودة الثانية ١١٨٨ هـ = ١٧٧٤ .. الجبرتى ، الجزء الثانى ، ص ١٩٩

(١١٥) تاج العروس ، الجزء الأول ، ص ٤

(١١٦) تاج العروس ، الجزء الأول ، ص ٤

(١١٧) تاج العروس ، الجزء الأول ، ص ٤

(١١٨) تاج العروس ، الجزء الخامس ، ص ٢٠٦

(١١٩) Taeschner, Bericht, p. 85, note 10 -

(١٢٠) الجبرتى ، الجزء الثانى ، ص ١٩٩

(١٢١) Brockelmann, GAL, I, p. 365, No 9; SB I, p. 624 -

(١٢٢) حاجى خليفة ، الجزء الاول ، ص ٢٣٣ ، رقم ٢٩٧

(١٢٣) Heyworth — Dunne, p. 85, note 5 -

ثبت المراجع

ا - ثبت المختصرات

BV	— Bibliografia Vostoka
VV	— Vizantiiskii Vremennik. SPb.
DAN — V	— Doklady Akademii Nauk SSSR, seria V, L.
DV	— Drevnii Vostok. M.
JMNP	— Jurnal Ministerstva narodnogo prosveshchenia. SPb.
ZVO	— Zapiski Vostochnogo otdelenia imp. Russkogo Archeologicheskogo obshchestva. SPb.
ZKV	— Zapiski Kollegii vostokovedov pri Aziatskom muzee Akademii Nauk SSSR L.
ZRAN	— Zapiski Rossiiskoi Akademii Nauk. Pgr.
IAN	— Izvestia Akademii Nauk SSSR. M. — L.
IAN, OON	— Izvestia Akademii Nauk SSSR, Otedelenie geograficheskikh Nauk. M. — L.
IVAN	— Institut vostokovedenia Akademii Nauk SSSR.
IGGO	— Izvestia Gosudarstvennogo Geograficheskogo Obshchestva. L.
IRAN	— Izvestia Rossiiskoi Akademii Nauk. SPb. — Pgr.
L'A	— Lugat al-ʿArab, Bagdad (لغة العرب ، بغداد)
MI	— Mir Islama. SPb.
MITT	— Materialy po istorii turkmen; Turkmenii, I. M — L. 1939
OON	— Otdelenie obshchestvennykh Nauk.
SV	— Sovetskoe Vostokovedenie. M. — L.
T'A	— Tadj al-ʿArus, I-X. Cairo, 1306-1307 (تاج العروس الزبيدى)
Trudy IVAN	— Trudy Instituta vostokovedenia Akademii Nauk SSSR. M. — L.
Trudy IKDP	— Trudy Instituta knigi, dokumenta i pismma. L
KHV	— Khristianskii Vostok. Pgr.
EV	— Epigrafika Vostoka. M.-L.

AKGWG	— Abhandlungen der königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen.
Abh KM	— Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes. Leipzig.
AGNT	— Archiv für die Geschichte der Naturwissenschaften und Technik. Leipzig.

AIÉO	— Annales de l'Institut d'Études Orientales. Paris.
AGMNT	— Archiv für Geschichte der Mathematik, Naturwissenschaft und Technik.
AO	— Archiv Orientální. Praha
AM	— Archives Marocaines. Publication de la Mission scientifique du Maroc. Paris.
BAH u. G	— Bibliothek arabischer Historiker und Geographen. Leipzig.
Beiträge	— Beiträge zur Geschichte der Naturwissenschaften Erlangen.
BGA	— Bibliotheca geographorum arabicorum. Edidit M. J. de Goeje. Lugduni Batavorum. I, 1870; II, 1873; III, 1876 (2-e éd. — 1906); IV, 1879; V, 1885; VI, 1889; VII, 1892; VIII, 1894.
BGA, III 2	— Bibliotheca Geographorum arabicorum, 2-e ed. 1—2 : ed. J. H. Kramers. Lugduni Batavorum —Lipsiae, 1938—1939.
BHG	- Beiträge zur historischen Geographie, Kulturgeographie, Ethnographie und Kartographie, vornehmlich des Orients, hrsg. von H. Mzik. Leipzig und Wien, 1929.
Bibl. arab-sic.	— Biblioteca arabo-sicula.
Bibl. Ind.	- Bibliotheca Indica.
BIFAO	— Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie orientale au Caire.
Brockelmann. GAL	— C. Brockelmann. Geschichte der arabischen Litteratur, I — II. Weimar Berlin, 1898 1900. (SB — Supplementband, I — III. Leiden, 1936-1942).
BSGI	— Bolletino della R. Società Geografica Italiana, Roma.
BSOS	Bulletin of the School of Oriental Studies, London.
Centenario	Centenario della nascita di M. Amari...
Collectanea	— Collectanea. The Ismaili Society. Series A, I—II Leiden.
Coll. orient.	— Collection orientale. Manuscrits inédits de la Bibliothèque royale traduits et publiés par ordre du roi. Paris, 1836-1898.
Cosmos	- Cosmos di G. Cora. Torino.
DI	— Der Islam. Hamburg.
DLZ	— Deutsche Litteraturzeitung. Berlin - Leipzig.
EI, EB	— Enzyklopaedie des Islam. Geographisches, ethnographisches und biographisches Wörterbuch der muhammedanischen Völker, I-IV. Leiden - Leipzig (1908), 1913-1936; Ergänzungsband, Lief. 1-5. Leiden - Leipzig, 1934-1938.
ÉLOV	— École des langues orientales vivantes. Paris.
GGA	— Göttingische gelehrte Anzeigen. Göttingen.

GIV — C. Brockelmann. Geschichte der islamischen Völker aud Staaten. München, 1939.

GJ — Geographical Journal.

GLO — Fr. Taeschner. Die geographische Literatur der Osmanen. ZDMG. 77(2), 1923.

GMS, N.S. — Gibb Memorial Series. New Series. London.

GOW — F. Babinger. Die Geschichtschreiber der Osmanen und ihre Werke. Leipzig, 1927.

GR — The Geographical Review. New York.

GSAI — Giornale della Società Asiatica Italiana. Roma - Firenze - Torino.

GZ — Geographische Zeitschrift. Leipzig.

Hespéris. — Hespéris. Archives berbères et Bulletin de l'Institut des Hautes-études Marocaines. Paris.

JA — Journal Asiatique. Paris.

JAOS — Journal of the American Oriental Society.

J. des Savants. — Journal des Savants. Paris.

JNES — Journal of Near Eastern Studies.

JRAS — Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland. London.

LB — Literaturblatt für orientalische Philologie, hrsg. von E. Kuhn, I - IV, Leipzig, 1883 - 1888.

Mél. As. — Mélanges Asiatiques. St.-Pétersbourg.

MFOB — Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth.

MGD — Mélanges Gaudefroy - Demombynes, Le Caire.

MIFAO — Mémoires publiés par les membres de l'Institut Français d'Archéologie orientale au Caire.

MSOS — Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen. Berlin.

OLZ — Orientalische Literaturzeitung. Leipzig.

Or. Bibl. — Orientalische Bibliographie, 3. Berlin, 1889.

OM — Oriente Moderno. Roma.

PÉLOV — Publications de l'École des langues orientales vivantes. Paris.

RAAD — Reveu de l'Académie Arabe de Damas.

Racc. — Carlo Alfonso Nallino, Raccolta di scritti .... I - VI. Roma, 1939 - 1948.

RB — Revue biblique internationale publiée par L'École pratique d'études bibliques établie au couvent dominicain Saint - Étienne de Jérusalem. Paris

RChrÉAr	— Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire.
REI	— Revue des Études Islamiques. Paris.
RO	— Rocznik Orientalistyczny. Kraków.
RRAL	— Rendiconti della Reale Accademi dei Lincei. Roma,
RSO	— Rivista degli Studi Orientali. Roma.
SBAW	— Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften in Wien.
SBPhMSocErl	— Sitzungsberichte der Physico-Medizinischen Societät in Erlangen.
Soc. Or. Fennica	— Societas Orientalis Fennica. Helsinki.
WZKM	Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes. Wien.
ZA	— Zeitschrift für Assyriologie. Weimar-Berlin-Strassburg.
ZDMG	Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. Leipzig.

ب – المؤلفون الروس

Alekseev M. P., Etiudy, iz istorii ispano - russkikh literaturnykh otnoshenie. Kultura Ispanii, M., 1940, p. 353 - 425
(دراسات فى تاريخ العلاقات الأدبية بين أسبانيا وروسيا)

Barthold W., Abd al - Razzak. EI, I, p. 67 - 68

Bartold V.V., Arabskie Izvestia o rusakh. SV, I, 1940, p. 15 - 50
(الروايات العربية عن الروس)

Barthold W., Bulghar. EI, I, p. 819 - 825

Barthold W., Gardizi. EI, II, p. 137 - 138

Bartold V., Geografia ibn Sa'ida. Recueil des travaux rédigés en mémoire du Jubilé Scientifique de M. Daniel Chwolson. Berlin, 1899, p. 226 - 241

Barthold W. Daghestan. EI, I, p. 924 - 929

Barthold W., Djuwaini. EI, I, p. 1115 - 1117

Bartold V., yeshche o samarkandskikh ossuariakh. ZVO, XIII, (1900), 1901, p. 099 - 0104
(من جديد حول مسألة الاسواريين بسمرقند)

Bartold V.V., Iran. Istoricheskoe Obzor. Tashkent, 1926

Bartold V. V., Istoria Izuchenia Vostoka v Evrope i Rossii. Izd. Ie, SPb., 1911 ; Izd. 2e, L., 1925. (تاريخ دراسة الشرق فى أوروبا وروسيا)

Barthold W., Kalmücken, EI, II, p. 750 - 751

Bartold V. V., K voprosu o Proiskhojdenii Derbendname. Iran, I, L., 1927, p. 42 - 58.
(حول مسألة أصل دربند نامه)

Bartold V., K voprosu o Proiskhojdenii Kaitakov. Etnograficheskoe Obozrenie, M, 1910, No 1 - 2, p. 37 - 45 ; No. 3 - 4, p. 283 - 284.
(حول مسألة أصل القايتاق)

Barthold W., Kirgizen, EI, II, p. 1101 - 1103

Bartold V.V. K istorii Oroshenia Turkestana. Gosudarstvennoe Upravlenie Zemledelia i Zemleustroistva, Otdel Zemelnykh uluchshenii, SPb., 1941
(من تاريخ الرى فى تركستان)

Bartold V. V., K istori i religioznykh dvijenii X veka. IAN, 1918, 758 - 798
(من تاريخ الحركات الدينية فى القرن العاشر)

Bartold V. V, Koran i More. ZKV, I, 1925, P. 106 - 110 (القرآن والبحر)

* أضفت إلى العناوين الروسية ترجمتها باللغة العربية فى الحالات التى تستوجب ذلك . (المترجم)

Barlold V. V., Kultura Musulmanstva. Pgr., 1918 (الحضارة الإسلامية)

Barlold V., Novoe musulmanskoe izvestie o russkikh. ZVO, IX, (1895), 1896, p. 262 - 267
(رواية عربية جديدة عن الروس)

Barlold V., O nekotorykh Vostochnykh Rukopisiakh v bibliotekakh Konstantinopolia i Kaira. ZVO, XVIII, (1907 - 1908), 1908, p. 0115 - 0154
(بعض المخطوطات الشرقية الموجودة بمكتبات استنبول و القاهرة)

Barlold V., Otchet o Komandirovke v Turkestan. ZVO, XV, (1902-1903) 1904, p. 173 - 276
(تقرير عن مهمة بتركستان)

Barlold V. V, Otchet o poezdke v Sredniu Aziiu s nauchniu tseliu. 1883 - 1894 Zapiski Imp. AN, VIII seria po istor - filol. otdel., I, No 4 SPb. 1897
(تقرير عن رحلة بآسيا الوسطى في مهمة علمية)

Barlold V., Persidskia Nadpis na Stene aniiskoi mecheti Manuche. SPb., 1911 (Aniiskia. Seria, No 5) (نقش بالفارسية على جدار مسجد منوچهر بآني)

Barlold V., نقد لكتاب : E. Blochet, Introduction à l'histoire des Mongols de Fadl Allah Rashid ed - Din. Leyden -- London, 1910 (OMS, XII) — MI, I, SPb., 1912, p. 56 - 107

Barlold V., نقد لكتاب : Chau Ju - Kua . . . by F. Hirth and W. W. Rockhill, ZVO (1911 - 1912), 1913, p. 0101 - 0109

Barthold W., Sandabil, EI, IV, p. 158

Barthold W., Toghuzghuz, EI, IV, p. 872 - 873

Barlold V., Turkestan v epokhu mongolskogo nashestvia, I, Texty, SPb., 1898; II, Issledovanie. SPb., 1900 (تركستان في عهد الغزو المغولي)

Barthold W., Turkestan Down to the Mongol Invasion. Second Edition, translated from the original Russian and revised by the Author with the assistance of H. A. Gibb, M. A. University Press, Oxford, 1928 (OMS, New Ser., V)

Barlold V. V., Ulughbek i ego vremia. ZRAN, seria VIII, XIII, No 5 Pgr., 1918
(الوغ بيك وعصره)

Barthold W., 12 Vorlesungen über die Geschichte der Türken Mittelasiens. Deutscher Bearbeitung von Theodor Menzel Berlin, 1935

Barthold W., Hafiz - i Abru, EI, II, p. 225 - 226.

Barlold V., Khafizi - Abru i ego sochinenia. Al - Muzaffaria Sbornik statei uchenikov Professora barona Viktora Romanovich Rozen ko dniu dvadtsatipiati — letia ego pervoi lektsii 13 go Noiabria 1872 — 1897 SPb., 1897, p. 1 - 28
(حافظ آبرو ومصنفاته)

Barlold, انظر : Hudud al - 'Alam

Belokurov S. A., Arsenii Sukhanov. Isslodovanie S. Belokurova, 1, M., 1891; 2 Vyp. 1, izd. 2e, M. 1894

Beliaev V. I., Vvedenie. Arabsk : istochniki Po istorii turkmen i Turkmenii IX – XIII vv. MITT, I, VII – XV vv., Arabskie i persidskie istochniki, pod redaktsiei S.L Volina, A. A. Romaskevicha i A. IU. Iakobovskogo. Trudy Instituta Vostokovedenia, XXIX, M. — L., 1939, p. 12 - 40

(مقدمة . المصادر العربية فى تاريخ التركمان وبلادهم من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر)

Beneshevich V.N., Pamiatniki Sinaia arkheologicheskie i Paleograficheskie, I Predislovie izdatelia, bibliografia o Sinae, obiasnenia K tabl 1 - 38 i sami tabl. 1 - 38. Izd. Rossiiskoi Akademii Nauk pod redaktsiei V. N. Benshevicha. L., 1925

(آثار سيناء الاركولوجية والپاليوغرافية)

Berthels E., Amin Ahmed Razi, EI, III, p. 1228 - 1229

Berthels E., Näsir-i Khusraw, EI, III, p. 939 - 940

Bertels E. E., Nasir-i Khusrau. Safar - Name. Kniga Puteshestvii Perevod; Vstupitelnia statia E. E. Bertels, M. — L., 1933)

(ترجمة سفرنامه ناصر خسرو إلى الروسية مع مقدمة بقلم برتلس)

Bertels E. E., Ocherk istorii persidskoi literatury. L., 1928

(موجز تاريخ الأدب الفارسى)

Berthels E., Rashid al — Din Tabib. EI, III, p. 1213 - 1215

Bolotov V., Lekstii po istorii drevnei tserkvi. I., SPb., 1907

(محاضرات فى تاريخ الكنيسة القديمة)

Validov A Z., Vostochnye rukopisi v ferganskoi oblasti. ZVO, XXII (1913 - 1914), 1915, p 303 - 320

(مخطوطات شرقية بمقاطعة فرغانة)

Validov A. Z, Meshkhedskia rukopis Ibnu l - Fakikha. IRAN, 1924, p. 237-248

(مخطوطة مصنف ابن الفقيه الموجودة بمشهد)

Validov A., O sobraniakh rukopisei v Bukharskom Khanstve. (Otchet o komandirovke). ZVO, XXIII, (1915), 1916, p. 245 - 262

(من مجموعات المخطوطات الموجودة بخانية بخارا)

Validov, انظر : Validi

Vasiliev A., Byzance et les Årabes, I. Bruxelles, 1935

Veselovski N. I., Vasili Vasilievich Grigoriev po ego pismam i trudam. 1816 - 1881. S prilojeniem portreta i faksimile sostavil N. I. Veselovski. Izd. Russkogo Arkheologichskogo Obshchestva. SPb., 1887

Volin S., Izvlechenia iz "Mafatikh al - ulum" Abu - Abdallakha al - khorezmi, po izdaniu Van Vloten'a (Liber Mafatih al olum auctore Abu Abdallah Mohammed al Khowarezmi. Lugduni Batavorum, 1895). Perevod S. Volina MITT, I, M. - L, 1939, p. 217 - 219

Volin S., Izvlechenia iz "Nuzkhat al - mushtak fi ikhtirak al - afak" ili " kitab Rodjar " al - Idrisi, po rukopisi Leningradskoi Publichnoi biblioteki im. M.E. Saltykova - Shchedrina, Ar. n s. 176, s privlecheniem perevoda P. A. Joubert (Géographie d'Edrisi. Paris, 1835 - 1840). Perevod S. Volina. MITT, I, M. - L, 1939, p. 220 - 222

Volin S. L., "Iz Sbornika letopisei" Rashid - ad - dina, gl. IV — Sbornik Materialov, otnosiashchkhsia K istorii Zolotoi Ordy, II. Izvlechenia, iz persidskikh sochinenii, sobrannye V. G. Tizengauzenom i obrabotannye A. A. Romaskevichem i S. L. Volinym. A N. SSSR, M. - L 1941, p. 27 - 79

Volin S., K istorii drevnego Khorezma. VDI, 1941, No 1, p. 192 - 196

(من تاريخ خوارزم القديمة)

Volin S. L., Novyi istochnik dlia izuchenia Khorezmiiskogo iazyka. Zap. I VAN, VI, 1937, p. 79 - 91

(مصدر جديد لدراسة اللغة الخوارزمية)

Garkavi A. Ia., Drevneishee arabskoe izvestie o Kieve, Trudy tretego Arkheologicheskogo siezda v Rossii, byvshego v Kieve v avguste 1874 goda, I, kiev, 1878, p. 345 - 352

(أقدم رواية عربية عن كييف)

Garkavi A. Ia., Skazania musulmanskikh pisatelei o slavianax i russkikh, SPb., 1870

(روايات المؤلفين المسلمين عن الصقلب والروس)

Girgas Vladimir, Abu Hanifa ad - Dinawari. Kitab al - akhbar at - tiwal. Publié par Vladimir Girgass, Leide 1888

Girgas V. F., Ocherk arabskoi Literatury. SPb., 1873

(موجز الأدب العربي)

Golosov A., Tserkovnaia jizn na Rusi v polovine XVII v. i izobrajenie ee v zapiskakh Pavla Aleppskogo, ch. 1, Zapiski arkhid. Pavla, kak tserkovno — istoricheski dokument. Jitomir, 1916

(الحياة الكنسية فى روسيا فى منتصف القرن السابع عشر وصورتها فى مذكرات بولس الحلبى)

Goldziher I., Lektsii ob islame. Prilojenno statia G. Vamberi : kulturnoe dvijenie sredi russkikh tatar, Perevod s nemetskogo A.N. Chernovoi, SPb., 1912, (Sovremennoe chelavechestvo, Biblioteka obshchestvoznania, pod obshchei redaktsiei I. M. Bikermana)

(محاضرات عن الإسلام ، مضافاً اليها مقال فامبيرى عن الحركة الثقافية بين تتار روسيا)

Gordlevski V. A., K voprosu o vlianii turetskogo iazyka na arabski (Leksicheski material) ZKV, V, 1930, p. 271 - 291

(مسألة تأثير اللغة التركية على اللغة العربية)

Gordlevski VI, Gosudarstvo Seljukidov Maloi Azii. M. - L., 1941

(دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى)

Gordlevski, VI., Ocherki novoi osmanskoi literature, M., 1912

(موجز الأدب العثمانى الجديد)

Gordlevski VI, نقد لكتاب . : P. Antoine Rabbath (édité et annoté par) : Le plus ancien voyage d'un oriental en Amérique Beyrouth, 1905, 91 p. (Ottick iz "al - Mashrika", 1905). Etnograficheskoe obozrenie 1906, No 3 - 4, p. 322 - 323

Grigoriev V.V., Zapiska turetskogo poslannika Sami el - khadj Akhmed efendi o posolstve ego v Prussiu v 1763 - 1764 godu. Perevod s turetskogo, " Moskvitianin ", 1855, No 17 - 18

(مذكرات المبعوث التركى سامى الحاج احمد افندى عن سفارته فى بروسيا عام ١٧٦٣ - ١٧٦٤)

Grigoriev V., Ob arabskom puteshestvennike X veka Abu - Dolefe i stranstvovania ego po Srednei Azii. SPb., 1872

(عن الرحالة العربى للقرن العاشر أبى دلف وعن تجواله فى آسيا الوسطى)

Grigoriev V., O mesto polojenii stolitsy Zolotoi Ordy Saraia. Jurnal Min. vnutr. del., SPb., 1845 (= Rossia i Azia, SPb, 1876, p. 258 - 321)

(عن موقع عاصمة الأوردو الذهبى سراى)

Grushevski M., Viimki z jerel do istorii Ukraini — Rusi. Lvov, 1895.

Dante Aligieri, Bojestvenia komedia. perevod M. Lozinskogo, M. - L., 1950.

(الترجمة الروسية للكوميديا الإلهية لدانتى)

Dmitrievski A., priezd v Astrakhan vostochnykh patriarkhov Paisia Aleksandriiskogo; Makaria Antiokhiiskogo i sviazannoe s nim uchrejdenie zdes mitropolii (Iz vtrogo puteshestvia patriarkha Antiokhiiskogo Makaria v Moskvu i obratno v Damask). Kiev, 1904. Ottisk iz jurnala " Trudy Kievskoi dukhovnoi akademii " No 3, 1904

(زيارة البطاركة الشرقيين لاستراخان)

Dorn V, Kaspii, O pokhodakh drevnikh russkikh v Tabaristan. SPb., 1875, انظر Dorn, Caspia

(بحر قزوين ، بصدد حملات الروس الأقدمين على طبرستان)

Juze P. (K), Gruzia v 17 stoletii po izobrajeniu patriarkha Makaria. Kazan, 1905

(بلاد الكرج (جورجيا) فى القرن السابع عشر وفقاً لوصف البطريرك مكاريوس)

Juze P. K., Divan lugat at - turk. Thesaurus linguarum turcarum, Izvestia Azerbaidjans-

kogo Gosudarstvennogo universiteta im. V. I. Lenina, Vostokovedenie I, Baku, 1926, p. 75-94; II, Baku, 1927, p. 27-35

Jukovski V, Mukhammed - Khasan - Khan (Itimad - al - saltana). ZVO, X, (1896), 1897, p. 187 - 191

Jukovski V, نقـد لـكتاب : Puteshestvie Shakha Nasr-ed-dina po Mazanderanu. (Sobstvennyi ego velichestva dnevnik). Perevod s Persidskogo gornyi injener E. Korlander, SPb., 1887, ZVO, II (1887); 1888, p. 280 - 282

(نقد لكتاب رحلة الشاه نصر الدين بمازندران)

Zaleman K. : Salemann C., Bericht über die Ausgabe des Mi'jar i Jamali. Mél. As., IX, St.-Pb. (1880-1888), 1888, p. 414-594

Zaleman K. : Salemann C., Zur Handschriftenkunde, I. Al-Biruni's al-Atar al-baqiyah. IAN, VI, Seria No 14, SPb., 1912, p. 861-870

Zaleman K., Rozen V., Spisok Persidskim, turetsko-tatarskim i arabskim rukopisiam Biblioteki i. SPb. universiteta. ZVO, II (1887), 1888, p. 241-266 : III (1888), 1889 p. 197-222; oit. : Salemann C. et Rosen V., Indices alphabetici codicum manuscriptorum persicorum turcicorum arabicorum qui in Bibliotheca Imperialis Literarum Universitatis Petropolitanae adservantur Peteropoli, 1888

Izvestia o turetskoi literature. Chtenie dlia vkusa, razuma i chustvovanii, 2, M., 1791, p. 195-240

(التعريف بالأدب التركي)

Inostrantsev K. A., Torjestvennyi Vyezd Fatimidskikh Khalifov. ZVO, XVII, (1906), 1907, p. 1-113

(مواكب الخلفاء الفاطميين)

Kapterev N F., Kharakter otnoshenii Rossii k Pravoslavnomu Vostoku v XV i XVII stoletiakh. Izd, 2-e. Sergiev Posad, 1914

(طبيعة علاقة روسيا بالشرق الأورثوذوكسي في القرنين الخامس عشر والسابع عشر)

Karaulov N. A., Svedenia arabskikh geografov IX ; X vv. po r. kh. o Kavkaze, Armenii i Azerbaidjane. Sbornik mater. dlia izuch. mestnostei i plemen Kavkaza, Tiflis, XXIX, 1901, otd. I, p. 1-73 (Ibn al-Istakhri); XXXI, 1902, otd. L, p. 1-57 (Ibn al-Fakikh); XXXII, 1903, otd. 1, p. 1-63 (Ibn Xordadbe, Kudama, Ibn Ruste, al-Iakubi).

(معلومات الجغرافيين العرب للقرنين التاسع والعاشر عن القوقاز وأرمينيا وأذربايجان)

Kovalevski A. P., Kniga Akhmed Ibn-Fadlana o ego Puteshestvii na Volgu v 921-922 gg. Kharkov, 1956

(كتاب أحمد بن فضلان عن رحلته إلى الفلغا في عام ٩٢١ — ٩٢٢)

Kovalevski A. P., Puteshestvie Ibn Fadlana na Volgu. Perevod i Kommentarii pod redaktsii akademika I. Iu. Krachkovskogo, M. - L., 1939

(رحلة ابن فضلان إلى الفلغا . ترجمة وتعليق)

Koran, Arabski tekst s russkom perevodom pod Gordia S. Sablukova. Izd. tretie, Kazan, 1907

Koriander E, Puteshestvie Shakha Nasr - ed - Dina po Mazanderanu. Sobstvennyi ego velichestva dnevnik. Perevod s persidskogo E. Koriander. SPb., 1887 — Jukovski, راجع : نقد

(ترجمة رحلة الشاه ناصر الدين إلى مازندران)

Krachkovskia V. A., Pamiatniki arabskogo Pisma v Srednei Azii i Zakavkazie do IX v. EV, VI, M - L., 1952, p. 46 - 100

(النقوش المكتوبة باللغة العربية في آسيا الوسطى وما وراء القوقاز قبل القرن التاسع)

Krachkovski I. Iu, Abu-l-Faradj al-Va'va Damasski, Pgr., 1914

Krachkovski Ignatii, Abu Hanifa al-Dinaweri. Kitab al-ahbar at-tiwal, préface, variantes et index publiés par Ignace Kratchkovsky. Leide, 1912

Krachkovski I., Arabica, VV, XIV, (1907), 1909, p. 648 - 661

Krachkovski I Iu, Arabskia Kultura v Ispanii, M. - L., 1937.

Krachkovski I. Iu., Arabskia Literatura, Vsemirnaia Literatura, Literatura Vostoka, I, Pgr., 1919, p. 24 - 33

Krachkovski I. Iu., Arabskie geografi i puteshestvenniki. IRGO, LXIX, No, 1937, p. 738-755

(الجغرافيون والرحالة العرب)

Krachkovski I. Iu, Arabskie rukopisi iz sobrania Grigoria IV, patriarkha antiokhiiskogo (kratkia opis) L., 1924 ott iz nevyshedshego toma Kh V, VII, 1921 - 1924.

(مخطوطات عربية من مجموعة غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية)

Krachkovski I. Iu, Arabskie entsiklopedii srednevekovia (Predvaritelnoe soobshchenie). Trudy IKDP, II, Stati po istorii entsiklopedii, L., 1932, p. 15-32

(الموسوعات العربية للعصور الوسطى)

Krachkovski I. Iu., "Blagodatny ogon" po rasskazu al-Biruni i drugikh musulmanskikh pisatelei X - XIII vv. Kh. V., III, (1914), 1915, p. 225-242

(النار المباركة حسب رواية البيروني و بقية المؤلفين المسلمين من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر)

Krachkovski I. Iu., Dve arabskie skazki iz Nazareta. Soobshchenia Rossiskogo Palestinskogo obshchestva, XXIX, L., 1926, p. 28 - 41

(حكايتان عربيتان من الناصرة)

Krachkovski I. Iu, Dopolnenia k bibliografii rabot barona V. R. Rozena i materialov k nim, ZKV, III, 1928, p. 267—278.

Krachkovski, I. Iu, Izbrannye Sochinenia, I - III, M.—L., 1955—1956.

Krachkovski I. Iu., Kolumbovskia Karta Ameriki turetskoi obrabotke. IGGO, LXIV, 1934, p. 184--186.

(خارطة كولومبية لأمريكا في صورتها التركية).

Krachkovski Ignatii. Krachkovsky Ignacio, Un manuscrito de las "Lataif al—Dajira" de Ibn Mammati en Leningrado. Al -Andalus, III, fasc. 1. 1935, p. 89—96.

Krachkovski I. Iu., Nad arabskimi rukopisiami. Listki vospominanii o knigakh i o liudiakh. Izbrannye sochinenia, I, M,—L., 1955. p. 11—140.

(بين المخطوطات العربية)

Krachkovski I. Iu., Neizvestnia Antologia Ibn Mammati, DAN, V, 1928, p. 1—6.

(مجموعة أدبية غير معروفة لابن مماتي)

Krachlovski I., Kratschkovsky I, Al -Nuwairi, EI, III, p. 1045—1047.

Krachkovsk I. Iu., Opis bumag barona V. R. Rozena, postupivshikh v aziatski muzei Rossiiskoi Akademii Nauk. IAN, VI seria, 1918, XII, p. 1323—1350.

Kratchkovski I. pamiati N. A. Mednikova. ZVO, XXV, (1917—1920), 1921, p. 423—428.

Krachkovski I. Iu. Biruni i ego rol v istorii vostochnoi geografii. Biruni, sbornik statei, AN SSSP, Otdelenie istorii i filosofii, M. - L, 1950, p. 55- 73.

(البيروني ودوره في تاريخ الجغرافيا الشرقية)

Krachkovski I, Iu., Vostochnie rukopisi Ekaterininskogo dvortsa v Detskom Sele. DAN, V, 1929, p. 161 - 168.

(المخطوطات الشرقية بقصر كاترينا في تسار سكوى سيلو).

Krachkovski I. Iu., Gramota Ioakima IV, patriarkha antiokhiiskogo, Ivovskoi pastve v 1586 godu. Izvestia Kavkazskogo istoriko askheologichkogo instituta v Tiflise, II, 1927, p. 21—30.

(منشور يواكيم الرابع البطريرك الانطاكي إلى رعايا اللوف في عام ١٥٨٦).

Krachovski I. Iu., Pervoe arabskoe opisanie Puteshestvia v Iujnuiu Ameriku. Trudy Moskovskogo Instituta vostokovedenia, sb No 4, 1917, p. 89 - 93

(أول وصف عربي لرحلة إلى أمريكا الجنوبية)

Krachkovski I. Iu., Turetski pervopechatnik Ibrahim Mutafarika i ego raboty po geografii. Tiurkologicheski sbornik, I, M. - L., 1951, p. 120 - 126

(إبراهيم متفرقة ، أول من أدخل فن الطباعة في الدولة العثمانية)

Krachkovski Ign., Kratschkowski Ign., Farhat Djarmanus, EI, EV,p. 79 - 80.

Krachkovski, I. Iu, Sheikh Tantavi professor S. — Petersburgskogo universiteta (1810 - 1861). Trudy Komissii po istorii znanii, 8, Ak, N. SSSR, L., 1929

Krachkovski I. Iu., تعليقة : L. Cheikho, La description du mont Sinai par le diacre Ephrem. Al - Mashrik, IX, 1906, p. 736 - 743, 794 - 799, - VV, XIII, 1906, p. 711 - Cf ; شيخو وصف

Krimski Agatangel, Istoria Persii ta ii pismenstva, I. Iak Persia zvoiovana arabami, vidrodilasia politichno, Kiiv, 1923

Krimski Ag., Rozvidki, statti ta zamitki, I - XXVII. Ukrainska Akad. Nauk, Zbirnik ist - filolog. vid., No 57, Kiiv, 1928.

Krimski Ag. i Shakhmatov Ol., Narisi z istorii ukrainskoi movi ta Khrestomatia z pamiatniki v pismenskoi staroukrainshchini XI - XVIII vv. Ukrainska Akad. Nauk Zbirnik ist - filolog. vid., No 12, Kiiv, 1924

Krylova T. K., Otnoshenia Rossii i Ispanii v pervoi Chetverti XVIII veka, Kultura Ispanii, M, 1940, p. 327 - 352.

(علاقات روسيا مع اسبانيا في الربع الأول من القرن الثامن عشر)

Krymski A., Idrisi, Abu Abdallakh Mokhammed. Novy entsiklopedicheski slovar, XIX, p. 55

Krymski A., Istoria Arabov i arabskoi literatury, svetskoi i dukhovnoi (Korana, fikha, sunny i pr.) I - III. Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochnykh iazykov, XV, M., 1914

Krymski A, Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii. Novoe izdanie, pererabotanoe sovmestno s K. Freitagom. Trudy no vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskom institutom Vostochnykh iazykov, XVI, No 1, M., 1909.

Krymski A., Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii, Ch. II, ot razlojenia Seljukskogo tsarstva do mongolov. Podgotovitelnye materialoy dlia Trudov po vostokovedeniu, izdavaemykh Lazarevskim instituom vostochnykh iazykov, XVI, 2, M, 1912

Krymski A., Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii, Trudy po vostokovedeniu izdavaemye Lazarevskim institutom vostochnykh iazykov, XVI, 1, No 2, M. 1914.

Krymski A, Istoria Persii, ee literatury i dervisheskoi teosofii, Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom Vostochnykh iazykov, XVI, III, No 1, M. 1915.

Krymski A.E, Istoria Persii, ee literatury; dervisheskoi teosofii. Trudy vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochykh iazykov, XVI, III, No 1, M 1915

Krymski A, Materialy dlia vyiasnenia tserkovnoi i literaturnoi deiatelnosti antiokhiiskogo patriarkha Makaria XVII v. i opisatelia ego puteshestvia na Rus Rikhiat Makarius arkhidiakona Pavla Aleppskogo. Izvlechenia iz dokladov v Vostochnoi komissii Moskovskogo arkheologicheskogo obshchestva, 1909 - 1912, Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochnykh iazykovXXXVIII, M., 1913,p. 6 - 7

(مواد لتوضيح النشاط الكنسي والأدبي لمكاريوس بطريرك أنطاكية في القرن السابع عشر وتحرر وصف رحلته إلى بلاد الروس)

Krymski, A., Sem spiashchikh otrokov efesskikh. Trudy po vostokovedeniu, izdavaemye Lazarevskim institutom vostochykh iazykov, Vyp. 41, M, 1914

(أهل الكهف)

Krymski A., Khamasa Abu Temmama Taiskogo (ok. 805 - 846). I - II, M. 1912

Kunik A. i Rozen V., Izvestia al - Bekri i drugikh avtorov o Rusi i slavianakh, I, SPb, 1878; II, SPb. 1903

(مادة البكري والمؤلفين الآخرين عن الروس والصقالبة)

Lebedva O., Histoire de la conversion des Géorgiens au christianisme par le patriarche Macaire d'Antioche . Traduction de l'Arabe par Mme Olga de Lebedew, Roma, 1905.

Marr Iu. N., Zametka k perevodu opisania kliucha ot vorot steny Goga i Magoga. Biulleten kavkazskogo instituta arkheologi i istorii, No 6, Tiflis, 1930, p. 11 - 13

(ملاحظة حول ترجمة وصف مفتاح بوابة سد يأجوج ومأجوج)

Mednikov N. A., Palestina ot Zavoievania ee arabami do krestovykh pokhodov po arabskim istochnikam, I, issledovanie, SPb, 1902; II, Perevod, 1897.

(فلسطين من الفتح العربي إلى الحروب الصليبية وفقاً للمصادر العربية ، الجزء الأول بحث ، والثاني ترجمة)

Mejov, Bibliografia Azii, Ukazatel knig i statei na russkom iayke i odnikh tolko knig na inostrannykh iazykakh kasaiushchikhsia otnoshenii Rossii k aziatskim gosudarstvam I. 2- ia seria, sostavil. M. I. Mejov, SPb., 1891

Melgunov G., Melgunoff G, Das Khazarische Meer. (Vyrezka iz kn : Das Südliche Ufer des Kaspischen Meeres oder die Nordprovinzen Persiens; Von G. Melgunoff. Leipzig, 1868. p. 291 334).

Miklukho - Maklai N. D., Geogrficheskoe. Sochinenie XIII v. na persidskom iazyke. (Novyi istochnik po istoricheskoi geografii Azerbaidjana i Armenii). Uchenye Zapiski Instituta vostokovedenia AN SSSR, IX, M.-- L., 1954, p 175 – 219.

(مصنف جغرافي من القرن الثالث عشر باللغة الفارسية) :

Miklukho - Maklai N. D., Opisanie tadjikskikh i Persidskikh rukopisei Instituta vostokovedenia A N SSSR M. L., 1955.

(وصف المخطوطات التاجيكية والفارسية الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية)

Minaev I. P., Svedenia o stranakh po verkhoviam Amu Dari (po 1878 god) .Sostavil I. P. Minaev, SPb., 1879.

(مواد متعلقة بالمجرى الأعلى لنهر أموداريا)

Mikhelson M. I., Russkia mysl i rech. Opyt russkoi frazeologii. Sbornik obraznykh slov i inoskazanii, I-II. SPb. (bez goda).

Murkos G. A., Arabskia rukopis puteshestvia antiokhiiskogo patriarkha Makaria v Rossiu v polovine XVII veka. Opisanie rukopisi, prinadlejashchei Biblioteke, Moskovskogo Glavn. arkhiva Minist. in. del, M., 1899.

(مخطوطة عربية تحوى وصف رحلة البطريرك الانطاكى مكاريوس إلى روسيا فى منتصف القرن السابع عشر)

Murkos G., Puteshestive antiokhskogo patriarkha Makaria v Rossiu v polovine XVII veka, opisannoe ego synom, arkhidiakonom Pavlom Aleppskim, I-V Perevod s arbskogo. Chtenia Obshchestva istorii i drevnostei, M. 1896 1900.

(الترجمة الروسية لرحلة البطريرك مكاريوس إلى روسيا)

Orbeli I. A. i Trever K. V, Sasandski metall. Khudojstvennye predmety iz zolota i bronzy. M.-L., 1935

Otchet Imperatorskoi Publichnoi Biblioteki za 1897 god SPb., 1900.

Petrun F. E., K. Voprosu ob istochnikakh "Bolshogo Cherteja". Jurnal Nauchno — issledovatelskikh Kafedr v Odess, I, 7, 1923, p. 37—43.

Petrushevski I. P., Khamdallakh Kazvini kak istochnik po sotsoialno— ekonomicheskoi istorii vostochnogo Zakavkazia. IAN, OON, No 4, 1937, p. 873 — 920.

(حمد الله قزوينى كمصدر بالنسبة للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى للمنطقة الشرقية لما وراء القوقاز).

Preobrajenski A., Iz pervykh let partesnogo penia v Moskve. Muzykalnyi sovremennik, SPb. 1915, No 3, p. 33 - 41

(الأعوام الأولى للأغانى الدينية الجماعية بموسكو)

Piatnitski VI., K istorii Knigopechatnia arabskim shriftom v Evropeiskoi Rossii i na Kavkaze. Publichia Biblioteka SSR imeni V. I. Lenina, sb. I, M.. 1928 I otd, ottisk, p. 131 – 154.

(من تاريخ الطباعة العربية فى روسيا الأوروبية والقوقاز) :

Rait V. – Kokovtsov P. K., kratki Ocherk istorii siriiskoi literatury. Perevod s anglii-skogo K. A. Turaevoi, pod redaktsiei i s dopoleniami prof. P. K. Kokovtsova, SPb, 1902.

(موجز تاريخ الأدب السريانى)

Rozen V. P., A. F. von Meren. Nekrolog. SPb., IAN, seria, 6,2, 1908, p. 39 - 44.

Rozen V. R, Byl li v 988 g. v Konstantinopole avtor Fihrista? ZVO, IV, (1889), 1890, p. 401 – 404.

(هل كان مؤلف الفهرست بالقسطنطينية فى عام ٩٨٨ ؟)

Rozen V. P., Impertor Vasili Bolgaroboitsa, Izvlechenia iz letopisi Iakhi Antiokhiiskogo. Izdal, perevel i obiasnnil baron V. R. Pozen; SPb., 1083.

Rozen V., Manuscrits persans décrits par V. Rosen, Collections scientifiques de l'Institut des langues orientales du Ministere des affaires étrangéres, III, SPb., 1886.

Rozen V., K Fihristu I, ٨٩, 22 (s dopoleniem I. Krachkovskogo) ZVO, XXIII, (1915), 1916, p. 233 - 244

Rozen V., Les manuscrits arabes de l' Institut des langues orientales décrits par V.

Salie M. A., Usama ibn Munkyz. Kniga nazidania. Perevod M. A. Salie, pod redaktsei, so vstupitelnoi statei i primechaniami I. Iu. krachkovskogo. p. — M., 1922, p. 7 - 21 : vstupitelnaia statia : "Usama ibn Munkyz i ego vospominania".

Sedelnikov A. D., Arabskia kniga v tsarskoi kazne. Sbornik statei k sorokaletiu ychenoi deiatelnosti akademika A. S. Orlova. L., 1934, p. 165 - 167.

Semenov A. Al - Biruni, velichaishi ucheniyi srednevekovogo Vostoka i Zapada. Literatura i iskusstvo Uzbekistana, I, Tashkent, 1938, p. 106 - 116

Senkovski O., Posolstvo Dervisha Mukhammed — Effendia v Rossiu, v 1168 godu egiry (t. e. 1775 posle R. kh.). Vziato iz ottomanskikh letopisei Vasifeffendia, T. I., p. 61. Perevod s turetskogo iazyka, Severnyi arkhiv, SPb., 1826, No I, p. 3 - 18.

(سفارة درويش محمد أفندى فى روسيا فى عام ١١٦٨ هـ — ١٧٧٥)

Senkovski O. I. (baron Brambeus). Sobranie sochinenii, I - IX, SPb., 1858 - 1859.

Senkovski O. I., Sok dostoprimechatelnogo. Zapiski Resmi — Akhmed - efendia, turetskogo ministra inostrannykh del. Perevod s turetskogo, Sobranie sochinenii, VI, SPb., 1859, p. 234 - 343.

(خلاصة الاعتبار لأحمد رسمى أفندى)

Smirnov V. D., Manuscrits turcs de l'Institut des langues orientales décrits par W. D. Smirnow. Collection scientifiques de l'Institut des langues orientales du Ministére des affaires étrangères, VIII, SPb., 1897.

Smirnov V. D., Obratsovye proizvedenia osmanskoi literatury v izvlecheniakh i otryvkakh. Vybral i izdal V. D. Smirnov, SPb., 1903

(نماذج من الأدب العثمانى)

Smirnov V. D., Ocherk istorii turetskoi literatury. Vseobshchia istoria literatury. Sostavil po istochnikam i noveishim issledovateniam pri uchastii russkikh uchenykh i literatorov. Nachata pod redaktsiei V. F. Korsha, okonchena pod redaktsiei prof. A kirpichenikova, T. IV, SPb., 1892, p. 425 - 554 (موجز تاريخ الأدب التركى)

Smironv S., نقد لكتاب : Puteshestvie antiokhiiskogo patriarkha Makaria v Rossiu v polovine XVII veka, opisannoe ego synom arkhidiakonom Pavlom Aleppskim. Perevod s arabskogo G. Murkosa (po rukopisi Glavnogo arkhiva Ministerstva inostrannykh del), I-IV — Chtenie Obshchestva istorii i drevnostei rossiiskikh 1897 - 1898 gg. Bogoslovski vestnik, izdavaemy Moskovskoiu dukovnoiu akademieiu, god vosmoi, iiul, avgust, sentiabr 1899, II, III, Sviatotroitskia Sergieva Lavra, 1899, p. 167 - 174

Sreznevski I. I., Khojdenie za tri moria Afanasia Nikitina v 1466 - 1472 gg. (Chtenia I. I. Sreznevskogo). Uchenye zapiski vtorogo otdelenia Akademii Nauk, II, vyp. 2, SPb., 1856.

(رحلة أفناسى نيكيتين وراء الثلاثة أبحر فى عام ١٤٦٦ - ١٤٧٢) .

Sukhanov Arsenii, Letopis tserkovnykh sobytii, 3e izd., 1900

(حوليات الأحداث الكنسية)

Tverltinova A, katalog knig po istorii na turetskom iazyke, nakhodiashchikhsia v bibliotekakh Leningrada. BV, 10 (1936), Institut vostokovedenia AN SSSR M.-L., 1937, p. 201 - 226.

Tizengauzen V., Zameta Elkalkashandi o Gruzinakh, ZVO, I, (1888) 1887, p. 208-216

(ملاحظه القلقشندى عن الكرج)

Tizengauzen V. G., "Iz sbornika letopisei" Rashid-ad-dina, Sbornik materialov, otnosiashchikhsia k istorii Zolotoi Ordy, II. Izvlechenia iz persidskikh sochinenii, sobrannye V. G. Tizengauzenom i obrabotannye A. A. Romaskevichem i S. L. Volinom, AN SSSR, M.-L., 1941, gl. IV, p. 27-29

Tizengauzen V., Sbornik materialov, otnosiashchikhsia k istorii Zolotoi Ordy, I. Izvelechenia iz sochinenii arabskikh, SPb., 1884.

(نقول من المصنفات العربية فى تاريخ الأوردو الذهبى)

Trever K. V., Terracotas from Afrasiab by Camilla Trever, Moscow - Leningrad, 1934

Tumanski A.G., Novootkryty persidski geograf X stoletia i izvestia ego o slavianakh i russakh, ZVO, X, (1895) 1897, p. 121-137

(الكشف عن جغرافى فارسى من القرن العاشر وروايته عن الصقالبة والروس)

Tumanski A., Rets. na kn. : Drevnosti Zakaspiiskogo kraia. Razvaliny Starogo Merva V.A. Jukovskogo. ZVO, IX (1895), 1896, p. 300-303

Umniakov I., Kompendium ispansko - arabskogo geografa Iskhaka ibn al-Khuseina i ego svedenia o khazarakh i tiurkakh. IOG O, 71, vyp. 8, 1939, p. 1138-1145

(مصنف الجغرافى العربى الأندلسى إسحاق بن الحسين ومعلوماته عن الخزر والترك)

Umniakov I., Rets. na kn. : Hudud al-Alam. The Regions of the World. A Persian Geography 372 A.H. - 982 A, D. Translated and explained by V. Minorsky, London, (GMS, N. S., XI), 1937. VDI, No 3 (4), M., 211-218

Umniakov I, Samia staria turetskogo karta Mira (XI v.). Ottisk iz "Trudov Samarkandskogo Gosudarstvennogo pedagogicheskogo instituta imeni A. M. Gorkogo", I, vyp. I, Samarkand, 1940

(أقدم خارطة تركية للعالم من القرن الحادى عشر)

Fedchenko A. P., Ocherk geografii i istorii verkhoviev Amu-Dari Genri Iulia. Perevod s angliiskogo O.A. Fedchenko, s dopolneniami i primechaniami A.P. Fedchenko N. V. Khanykova i G. Iulia. SPb., 1873

Forma i Velichina Zemli. "Globus", 1938, Spravochny otdel, p. 330.

Fren Kh. D.; Pismena drevnikh russov, Biblioteka dlia Chtenia, SPb., 1836, No XIV, p. 50 - 59 (perevod P.S. Savelieva stati : Ibn Abi Jacub el-Nedim's Nachricht Von der Shrift der Russen im X Jahrhundert).

Khanykov N., Khanikoff N., Analysis and Extracts of the Book of the Balance of Wisdom, an arabic work on the waterbalance, written by al - Khazini in The 12th Century, by N. Khanikoff, JAOS, VI, 1860, p. 1-128

Khanikoff, Letire de Khanykov à M, Dorn. (Avec uue planche). 23 Janvier 4 Février 1857. Mèl. As., III, (1857 - 1859), SPb., 1859, p. 50 - 81.

Khvolson D. A, Izvestia o khozarakh, burtasakh, bolgarakh, Medjarakh, Slavianakh i russakh Abu - Ali Akhmeda ben Omara Ibn - Dasta, neizvestnogo pisatelia X veka po rukopisi Britanskogo muzeia v pervy raz izdal, perevel i obiasnil D.A. Khvolson, SPb., 1869.

Khudud al - alam, Rukopis Tumanskogo. S vvedeniem i ukazatelem V. Bartolda, L., 1930.

Tsereteli. G. V., Arabskia Khrestomatia. Tbilisi, 1949

Shangin M. A., Grecheskii perevod Abu Mashara v rukopisi Biblioteka IAN. AN, No 10 - 11, L., 1926, p. 907 - 916

Shangin M. A., Epistola Messallah in pluviis et ventris. IAN, SSSR, Otdel geogr. nauk, L., 1929, p. 707 - 718.

Shangin M. A., Catalogus codicum astrologorum graecorum, Tomus XII, Codices rossicos descripsit M. A, Sangin, Bruxellis, 1936.

Shangin M. A., Latinskia parafraza iz utrachennogo sochinenia Mashallakha "Sem Kliochei". ZKV. V, 1930, p. 235 - 242.

Shmidt A. E., Iz istorii sunnitsko - shiitskikh otnoshenii. Sbornik " V. V. Bartoldy turkestanskie druzia, ucheniki i pochitateli», Tashkent, 1927, p. 69 - 107.

(من تاريخ العلاقات بين السنة و الشيعة)

Shumovski T.A., Tri neizvestnye lotsii Akhmada ibn Madjida, arabskogo lotsmana Vasko da Gamy, v unikalnoi rukopisi Instituta vostokovedenia AN SSSR, M.-L., 1957

(ثلاث مرشدات بحرية للملاح العربي أحمد بن ماجد)

Eberman V. A., Meditinskia shkolo v Djundishapure. ZKV, I, 1925, p. 47 - 72

(المدرسة الطبية بجنديسابور)

Etnograficheskoe obozrenie. Izdanie Etnograficheskogo otdela Imperatorskogo Obshchestva liubitelei iestestvoznania, antropologii i etnografii, sostoiashchego pri Moskovskom universitete, god 18., Kn. LXVIII - LXIX (1960), M , 1906 - 1907

Iatsmirski A. I., Reis. na Kn.; Puteshestvie antiokiiskogo patr. Makaria v Rossiu v polovine XVII v. Perevod s arabskogo G. Murkos, I - V, Moskva, 1896 - 1900. Jivia starina, X, vyp. IV, SPb., 1900, p. 584 - 589

ج – المؤلفون الأوروبيون

Abdel Hamid Mahmoud Samaha, The Arabic Names of the Stars. Lund, 1937. (Meddelande fran Lunds astronomiska Observatorium, Ser. II, Nò 89 · Historical Notes and Papers, Nò 11).

'Abdal - Wàhid ibn 'Ali at-Tamimi al-Marrakushi Abu Muhammed, cf : Dozy, The History of the Almohades.

[Abdul Muqtadir and Abdul Hamid]. V. C. S. O'Connor. An Eastern Library with two catalogues of its persian and arabic mss. compiled by Khan Sahib Abdul Hamid. Patna, 1920.

Abulfedae Chorasmiae et Mavaralnahrae descriptio ed. J. Gravius. London, 1650.

Abu Talib Khan, EI, I, 115 116

Aga Oghlu M, The Origin of Term Mina and its Meanings. JNES, V, Nó 4, 1946, p. 241 — 256.

Agha Mahdi Husain, Le gouvernement du sultanat de Delhi. Étude critique d'Ibn Battuta et des historiens indiens du 14e siécle. Paris, 1936.

Ahlwardt W. Verzeichniss der arabischen Handschriften, I X. (Die Handschriften-Verzeichnisse der Königlichen Bibliothek zu Berlin), Berlin, 1887-1899.

Ahmed Zeki, Mémoire sur les relations entre l'Égypte et l'Espagne pendant l'occupation musulmane. Homenaje à D. Francisco Codera. Zaragoza, 1904, p.455—481.

Ahmed Zeky, Mèmoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte une renaissance des lettres arabes. Kairo, 1910.

Ahmed Zèki Pacha, Une seconde tentative des musulmans pour découvrir l'Amérique. Bulletin de l'Institut d'Egypte, II, 1919 - 1920, p. 57.

Ahmet (Ahmed) Zeki Validi, انظر : Validi.

Ahrens Karl, Muhammed als Religionsstifter. Leipzig, 1935. (AbhKM, XIX, 4).

The Ain i Akbari, انظر : Blochmann H. and Jarrett H. S.

Alfraganus, انظر : Golius J.

Alemany J, Milicias cristianas al servicio de los sultanes musulmanes del Almagreb. Homenaje à D. Francisco Codera, Zaragoza, 1904, 133 - 169.

'Ali Akbar Khita'i, EI, I, p. 305.

'Ali b. Muhammed al-Kushdji. EI, p. 304.

Amari M., Biblioteca arabo-sicula raccolta da Michele Amari. Versione italiana, I — II. Torino e Roma, 1880—1881, Appendice. Torino, 1889.

Amari M., Biblioteca arabo-sicula ossia raccolta di testi arabici che toccano la geografia, la storia, la biografia e la bibliografia della Sicula. Lipsia, 1857.

Amari M., Frammenti del geografo arabo Ibn Sa'id su l'Italia. Bolletino Italiano degli Studii Orientali, Nuova ser., 1877-1881, fase. 11 (No 20-21), p. 388 — 392.

Amari, أنظر : Al-'Umarî.

Amari M., (—Nallino A.) Storia dei Musulmani di Sicilia. Seconda edizione modificata e accresciuta dall'autore, pubblicata con note a cura di Carlo Alfonso Nallino, I—III, Catania, 1933 — 1939.

[Amari M. e Schiaparelli C.]. L'Italia descritta nel "Libro del re Ruggero" compilato da Edrisi. Testo arabo pubblicato con versione e note da M. Amari e C. Schiaparelli. Roma (Lincei), 1878 — 1883.

Analectes, أنظر : Al-Makkari.

Ansbacher Jonas, Die Abschnitte über die Geister und wunderbaren Geschöpfe aus Qazwini's Kosomographie zum ersten Male ins Deutsche übertragen und mit Anmerkungen versehen. Kirchhain, 1905.

Arendonk C., van, Al-Hamdani. EI, EB, p. 87.

Arendonk C., van, Ibn Khaldun. EI, EB, p. 94.

Arnold F. A, Chrestomathia arabica quam e libres mss. vel impressis rarioribus collectam. Ed. F. A. Arnold, I—II. Halis, 1853.

Arnold T. W., Arab Travellers and Merchants, A. D. 1000 — 1500. In : A. P. Newton. Travel and Travellers of the Middle Ages. London. 1930. Chapter V, p. 88-103.

Arnold Th., The Legacy of Islam. Ed. Thomas Arnold. Oxford, 1931.

Asin Palacios M., Una description nueva del faro de Alejandria. Al-Andalus, 1, 2, 1930, p.241 — 292.

Asin Palacios Miguel, La eschatologia musulmana en la divina comedia seguida de la historia y critica de una polémica. Segunda edición, Madrid - Granada, 1943.

Asin Palacios Miguel., El "Libro de los Animales" de Jâhiz. Isis, No 43, XIV, 1, May 1930

Atiya A. S, XXme Congrès des Orientalistes, Programme, p. 77.

Atiya A. S., The Crusade in the later Middle Ages, by Aziz Suryal Atiya. London 1938.

Atiya A. S., Some Egyptian Monasteries. Bull. de la Société d'Archéologie Copte, V. 1939

Atlas minor Gerardi Mercatoris à J. Hodio plurimis aeneis tabulis auctus atque illusratus. Arnhemii, 1621.

D'Avezac, Note sur une mappemonde turke du XVI siècle conservée à la Bibliothèque de Saint-Marc à Venise avec une petite esquisse figurative de ce monument xylographique lu à l'Académie des Inscriptions et Belles-lettres de l'Institut et à la Société de Géographie en novembre 1865 par M. D'Avezac, Paris, 1866. (Extrait du Bulletin de la Société de Géographie, Décembre, 1865).

Awfi Muhammed b. Muhammed EI, I, p. 537—538.

Babinger F., Die Geschichtsschreiber der Osmanen und ihre Werke. Leipzig, 1927.

Babinger Fr, Nabi. EI, III, p. 867—868.

Babinger Fr., Piri Muhyi 'l-Din Re'is. EI, III, p. 1155—1157.

Babinger F., Stambuler Buchwesen im 18. Jahrhundert. Leipzig, 1919.

Baghdad. EI, I, p, 585 -592.

Barbier de Meynard C., Description historique de la ville de Kazvin, extraite du Tarikhé guzidèh de Hamd Allah Muslôfi Kazvini, JA, 5 série, X, 1857, p, 257—308.

Barbier de Meynard, Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes, extrait du Mo'djem elbouldan de Jaqout et complété à l'aide de documents arabes et persans pour la plupart inédits, par Barbier de Meynard, Paris, 1861.

Barbier de Meynard C, Le Livre des routes et des provinces, par Ibn-Khordadbeh, publié, traduit et annoté par C, Barbier de Meynard, JA, 6 série, V, 1865, p,5 127

Barbier de Meynard C, Al-Maçoudi, Les Prairies d'or, Texte et traduction par C, Barbier de Meynard I IX, Paris, 1861—1877.

Barbier de Meynard, Notice sur l'Arabie méridionale d'après un document turc par A, C, Barbier de Meynard, Mélanges Orientaux, Publication ELOV, II série, IX, Paris, 1883, p, 85—123,

Barbier de Meynard, [illegible] : "Le miroir des pays", Mir'at al-mamalik, texte turc publié par le journal l'Iqdam, 1313, Iv, in 12- JA, 9 série, VII, 1896, p, 367-368

Barthold, [illegible]

Basset R., Les aventures merveilleuses de Temim ed-dàri. OSAI, p. 3-26.

Basset R., Extrait de la description de l'Espagne tiré de l'ouvrage, du géographe anonyme d'Almérià Homenaje à D. Francisco Codera, Zaragoza, 1904, p. 619-647.

Basset René, Ibn Abi Dinar, EI, II, p, 377.

Battal, EI, I, p, 709,

Baumstark A, Geschichte der syrischen Literatur mit Ausschlus der christlichpalastinischen Texte, Bonn, 1922,

Bayer T, S, Sallam, Commentarii Academiae Scientiarum Imperialis Petropolitanae, I, SPb., 1728.

Beazley C, R, The Dawn of Modern Geography, I—II, London, 1897—1901; III Oxford, 1906,

Becker C, Beiträge zur Geschichte Agyptens unter dem Islam, I — II, Strassburg, 1902 - 1903,

Bel A, 'Ali b, Yusuf b, Tashfin, EI, I, p, 304-305,

Bel A, Les Benou Ghanya, Publications de l'Ecole des Lettres d'Algér, XXVII, 1903. Appendice,

Bel A, Ibn Khaldūn, 'Abd al-Rahman (Abu Zaid), EI, II, p, 419-420,

al - Belàdsori Liber expugnationis regionum, auctore Imàmo Ahmed ibn Jahja ibn Djàbir al-Beldsori, quem e codice leidensi et codice Musei Brittannici edidit M, J, de Goeje, Lugduni Batavorum, 1866,

Belfour, Travels of Macarius, patriarch of Antioch written by his attendant archdeacon Paul of Aleppo, in Arabic transl, by F, D, Belfour, I-II, 1829 — 1836 (Oriental translation fund, 3),

Belot J, B, Vocabulaire arabe-français, Beyrouth, 1893,

Berbrugger A, Voyages dans le Sud de l'Algérie et des Ètats barbaresques de l'Ouest et de l'Est par el-A'iachi et Moula Ahmed traduites sur deux manuscrits arabes de la Bibliothèque d'Alger, Paris, 1846, (Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842 publiée par ordre du gouvernement et avec les concours d'une comission académique, Sciences historiques et géographiques, IX),

Bergh Simon, van den, Umriss der muhammedanischen Wissenschaften nach Ibn Haldun Diss, Freiburg, Leiden, 1912,

Berthels, انظر المؤلفين الروس

Bevan A. A, The Naka'id of Jarir and Farazdak, I — III, Leiden, 1905 — 1912,

Beveridge A. S, Abu'l-Fadl (Fazl) 'Allami (Shaikh), EI, I, p, 89-90,

Bianchi M, Itinéraire de Constantinople à la Mecque, Recueil de Voyages et Mémoires de la Société de Géographie de Paris, 1835,

Bittner M., Die topographischen Capitel des Indischen Seespiegels Mohit, übersetzt von Dr M, Bittner mit einer Einleitung sowie mit 30 Tafeln versehen von Dr. W. Tomaschek, Festschrift zur Erinnerung an die Eröffnung des Seeweges nach Ostindien durch Vasco da Gama (1497), hrsg, von der K. K. Geographischen Gesellschaft in Wien, Wien, 1897,

Bittner M., Zum "Indischen Ocean des Seidi 'Ali", Bemerkungen zu einer Uberseizung aus dem Türkischen. WZKM, X, 1896, p. 21 — 36.

Björkman W., Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Agypten, Hamburg, 1928, (Abhandlungen aus dem Gebiete der Auslandskunde, 38),

Blachére R., Extraits des principaux géographes arabes du moyen âge, Bibliotheca arabica publiée par la Faculté des Lettres d'Alger, VII, Paris—Beyrouth, 1932.

Bloch S, E, Harawi's Schrift über die muhammedanischen Wallfahrtsorte, eine der Quellen Jaquts, Dissertation, Bonn, 1929.

Blochet E., Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisitions (1883 — 1924), Paris, 1925.

Blochet E., Contribution á l'étude de la cartographie chez les musulmans, ône, 1898. (Extrait du Bulletin de l'Académie d'Hippone, No 29).

Blochmann H, and Jarrett H, S, The Ain i Akbari by Abul-Fadl-i 'Allámi, translated from the original persian, I—III, Calcutta, 1873—1894, (Bibliotheca Indica, 64)'

Bodenheimer F, S, Materialien zur Geschichte der Entomologie bis Linné, von Dr F. S. Bodenheimer, I—II. Berlin, 1928—1929.

Boer T., Ikhwan al-Safa, EI, II, p. 489-490.

Boer T., de. Al-Kindi, EI, II, p. 1095 1096,

Bonelli L., Del Muhit o "Descrizione dei mari delle Indie" dell'ammiraglio turco Sidi 'Ali detto Kiàtib-i-Rum. RRAL, 5 série, III, 1894, p. 751—777.

Bouvat L., Ulugh Beg, EI, IV, p. 1077—1079.

Bowen Jr. le Baron Richard, Arab Dhows of Eastern Arabia. Rehoboth, Mass., 1949.

Brandel R, A., Om och ur den arabiske geografen Idrisi, Uppsala, 1894.

Bräunlich F., Zwei türkische Weltkarten aus dem Zeitalter der grossen Entdeckungen. Berichte über die Verhandlungen der Sächsischen Akademie der Wissenschaften zu Leipzig, Phil.-hist. Kl., 89, 1937, 1, p.1 29.

Bräunlich E, نقد كتاب : Piri Re'is, Bahrije. Das türkische Segelhanbduch für das Mittelländische Meer vom Jahre 1521, Hrsg., übersetzt und erklärt von Paul Kahle, Bd, I. Text. I. Lieferung, Kapitel 1-28; Bd. II. Ubersetzung, I, Lieferung, Kapitel 1 28, Berlin und Leipzig, 1926, 64 Tafeln, XLVIII + 88 S. — Islamica, III, 2, Lipsiae, July, 1927, p. 295 300.

Brockelmann C. 'Abd al-Ghani al-Nabulsi. EI, I, p. 39 40.

Brockelmaan C Al-'Abdari. EI, I, p. 72.

Brockelmann C. Barhebräus. EI, I, p. 684—685,

Brockelmann C, Al-Dimashki. EI, I, p, 1016,

Brockelmann C., Die Gedichte des Lebid nach der wiener Ausgabe übersizt und mit Anmerkungen versehen aus dem Nachlasse des A, Huber, hrsg, von C. Brockelmann, Leiden, 1891.

Brockelmann C., Al-Firuzabadi, El, II, p, 119 – 120.

Brockelmann C. Geschichte der Arabischen Litteratur, I – II, Weimar-Berlin, 1898-1902, Supplementband. I – III, Leiden, 1937 – 1942,

Brockelmann C., Geschichte der arabischen Litteratur, 2-te Ausg, mit Berichtigungen, C. F, Amelang, Leipzig, 1909.

Brockelmann Carl, Geschichte der arabischen Litteratur, Zweite den Supplementbänden angepasste Auflage. Erster Band, Leiden, 1943,

Brocklmann C., Geschichte der Islamischen Völker und Staaten, München, 1939.

Brockelmann C, Ibn 'Asakir, 2, El, II, p, 386,

Brocklmann C, Ibn Butlan, El, II, p. 392,

Brockelmann C., انظر : Ibn Qutaiba,

Brocklmann C, Al-Kalyubi, El, II, p, 753,

Brockelmann C, Al-Makrizi, El, III, p, 190 – 191,

Brockelmann C. Mitteltürkischer Wortschatz nach Mahmud Kasgaris Divan lugat at-turk. Budapest – Leipzig, 1928.

Brockelmann C. Muhammed Murtada b. Muhammed b. Muhammed 'Abd al-Razzak Abu'-l Faid al-Husaini al-Zabidi al-Hanafi El, III, p: 743 – 744.

Brockelmann C. Al-Muhibbi. El, III, p. 755 – 756.

Brockelmann C. Al-'Olaimi. El. III, 1052 – 1053.

Brockelmann C. Al Suyuti. El, IV, p. 620 – 622.

Brockelmann C. Die syrische und die christlich-arabische Litteratur. Leipzig, 1907. (Die Litteraturen des Ostens in Einzeldarstellungen, VII).

Brockelmann C, Al-Zamakhshari, El, IV, p, 1305 – 1307,

Browne E, A Literary History of Persia from the Earliest Times until Firdawsi [v. I], London, 1902,

Browne E, A Literary History of Persia from Firdawsi to Sa'di [v, II], London, 1906,

Browne E, History of Persian Literature under Tartar Dominion, (A, D, 1265 - 1502) [v, III], Cambridge, 1920,

Browne E, A, Literary History of Persia, Modern Times (1500 - 1924), IV, Cambridge, 1928,

Browne E, H., Lubàbu 'l-Albáb of Muhammad 'Awfi, II, Ed, E, G, Browne. London, 1903,

Browne E, G, The Press and the Poetry of modern Persia partly based on the Manuscript Work of Mirza Muhammad 'Ali Khàn „Tarbiyat" of Tabriz by Edward G, Browne, Cambridge, 1914,

Brunschvig R. Un aspect de la littérature historico géographique de l'Islam, MGD, Le Caire, 1935 – 1945, p, 147 - 158,

Büchner V, F, Kazwini, Hamd Allah, El, II, p, 904 – 906,

Büchner V, F, Saksin, EI, IV, p, 88 - 89,

Buhl F, Al-Kuds, EI, II, p. 1173 - 1184,

Burski Hans Albrecht, von, Kemal Re'is, Ein Beitrag zur Geschichte der türkischen Flotte, Dissertation, Bonn, 1928,

Busch. Aus Briefen an Prof, Brockhaus, Von Hrn, Dr, Busch, Attaché bei der K, Preuss, Gesandtschaft, Constantinpel im Mai 1862, ZDMG, 26, 1862, p. 756,

Byzantion, XII, 1937,

Caetani L, Annali dell' Islam, I—IV, Milano, 1905 - 1913,

Caetani Leone, Chronographia islamica ossia riassunto cronologico della storia di tutti popoli musulmani dall'anno 1 all'anno 922 della Higrah (622 - 1547 dell'Èra Volgare), I II, Roma, 1912,

Cahen Claude, La Djazira au milieu du treizième siècle d'après Izz ad-din ibn Chaddad. REI, année 1934, cahier I, p, 109 - 128,

Canard M, Une lettre du Sultan Malik Nâsir Hasan à Jean VI Cantacuzène (750/1349), AIÉO, III 4937, p, 27 - 52,

Carra de Vaux, L'Abrégé des merveilles traduit de l'arabe d'après les manuscrits de la Bibliothèque Nationale par Bon Carra de Vaux, Paris, 1898, (Actes de la Société Philogique, XXVI, 1897),

Carra de Vaux, Bahr Muhit, EI, I, p, 606 - 607,

Carra de Vaux, Maçoudi. Le Livre de l'avertissement et de la revision, Traduction par B, Carra de Vaux, Paris, 1897, (Société Asiatique, Collection d'ouvrages orientaux).

Carra de Vaux. Les penseurs de l'Islam, I V, Paris, 1921 1926,

Casanova M, Paul, Notes sur les voyages de Sindbâd le Marin. BIFAO, XX, 1922. p. 133 190

Castries, de, An Nafaha al-miskiya fi-s-sifara at-Turkiya. Relation d'une ambassade marocaine en Turquie 1589 1591 par Abou-l-Hasan Ali ben Mohammed et-Tamgrouti traduite et annotée par H. de Castries. Paris, 1929. (Publications de la Section historique du Maroc, Documents d'histoire et de géographie marocaines),

Catalogus codicum manuscriptorum orientalium qui in Museo Britannico asservantur, Pars II, cod, arab, amplectens, Londini, 1846.

Centenario della nascita di M, Amari, Scritti di filologia e storia araba; di geografia, storia, diritto della Sicilia medievale ; studi bizantini e giudaici relativi all'Italia meridionale nel medio evo ; documenti sulle relazioni fra gli stati italiani ed il Levante, I — II, Palermo, 1910,

Cerulli E,, OM, XXIII, 1943, No 1,

Chabot J. B., Littérature syriaque, Paris. 1934. (Bibliothèque catholique des sciences religieuses, 66. Littératures chrétiennes de l'Orient),

Al-Châlidî, Der Dîwân des Lebîd nach einer Handschrift zum ersten Male hrsg. Jûsûf Dijâ ad-Dîn al-Châlidî. Wien, 1880,

Charmoy F, B., Relation de Masoudy et d'autres musulmans sur les anciens Slaves, SPb., 1834. Mémoires de l'Acad, Impér, des Sciences de St-Pétersbourg, VI série, II, p. 297-408

Charmoy F, B., Sur l'utilité des langues orientales pour l'étude de l'histoire de Russie, SPb., 1834.

Chau Ju Kua, أنظر : Hirth,

Chauvin V., Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux arabes publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885, I-XI, Liège—Leipzig, 1892—1909,

Cheikho L, Catologue raisonné des mauscrits historiques de la Bibliothèque Orientale de l'Université St, Joseph, I—VI, Beyrouth, 1913—1929 (Extrait MFOB, t, VI, VII ; Mélanges de l'Université St, Joseph, t, VIII, X, XI, XIV),

Cheikho L, La Littérature Arabe au XIX siècle, 1800 — 1870, Seconde édition revue et augmentée, Beyrouth, 1924,

Cheikho L, Les Poètes arabes chrétiens après l'Islam, 3. Beyrouth, 1927,

Cherbonneau, Notices et extraits du voyage d'el-Abdery à travers l'Afrique septentrionale, au VII-e siècle de l'hégire, JA, 5 série, IV, 1854, p, 144—176.

Christensen A, L'Iran sous les Sassanides, Seconde édition, Copenhague, 1944,

Christ-Schmidt, Geschichte der griechischen Litteratur, II, 1920,

Clark W, E, Science, في كتاب : The Legacy of India, Oxford, 1937, p, 335—368,

Codazzi A, Il Compendio geografico arabo di Ishaq ibn al-Husayn publ, e tradotto di Angela Codazzi, Roma, 1929, RRAL, VI serie, V, p, 373—463,

Codera Fr, Decadencia y desaparición de los Almoravides en Espana por Fr, Codera, Colleccion de estudios arabes, III, Zaragoza, 1899,

Coedès G, Le Royaume de Çrivijaya, Hanoi, 1948,

Colin G.S, Lawata, EI, III, p, 21,

Colin G, نقد لكتاب : Muhammad al-Mahdi al-Hagwi, Hayat al-Wazzan al-Fasi wa ataruh "La vie et l'oeuvre d'Al-Wazzan al-Fasi", Rabat, 1354/1935, Hespéris, XX, fasc, I-II, Paris, 1935, p. 94-98,

Collin Davies C, نقد لمقال : Mahdi Husain, The Rehla of Ibn Battuta, Gaekwad's Oriental Series, No CYXII, Baroda, 1953, — IRAS, P, 1—2, 1957, p, 126—127,

Conti Rossini C, Chrestomathia arabica meridionalis epigraphica, Roma, 1934,

Conti Rossini C, Un portulano turco, BSGI, Serie III, X, fasc, XII, 1897, p. 444—450,

Cora G, e Nallino C, La Bibliotheca Geographorum Arabicorum di M, J, de Goeje, Cosmos, Serie II, v, XII, fasc, II, Torino, 1894—1895,

Coufourier E, Une description géographique du Maroc d'az-Zyâny, AM, VI, 1906, p.436-456.

De Boer, أنظر : Boer.

De Castries, أنظر : Castries.

De Goeje, أنظر : Goeje.

De Guignes, أنظر : Guignes.

De Jong, أنظر : Jong.

De la Roncière, أنظر : Roncière.

De Saussure, أنظر : Saussure.

De Slane أنظر : Slane

Decourdemanche J. A. Note sur l'estivation de la longeur du dégré terrestre chez les Grecs, les Arabes et dans l'Inde, JA, 11 série, I, 1913, p. 427—444.

Defrémery C. - Sanguinetti B. P., أنظر : Voyages d'Ibn Batoutah.

Deherain H. Silvestre de Sacy, ses contemporains et ses disciples. Paris, 1898.

Dehérain H. Quid Schemseddin al Dimaschqui geogrophus de Africa cognitum habuerit Paris, 1898.

Denison Ross. Haft-iqlîm, or the geographical and bibliographical Encyclopaedia of Amîn Ahmad Râzî. Edited by E. Denison Ross and Khân Sâhib Maulavî 'Abdul Muqtadir, fasc. I, Calcutta, 1948 (Bibliotheca Indica : Collection of Oriental Works published by the Asiatic Society of Bengal, New Séries, No 1336).

Deny J. Ali Emiri Efendi. (Mort à Constantinople, le 23 janvier 1924). JA, CCIV, 1924, p. 375—379.

Derenbourg. Al-Fakhrî. Histoire du khalifat et du vizirat depuis leurs origines jusq'à la chute du khalifat 'abbaside de Baghdâdh (11—656 de l'hégire 632—1258 de notre ère) ... par Ibn at Tiktaka. Nouvelle edition du texte arabe. Paris, 1895. (Bibl. de l'École des Hautes Etudes).

Derenbourg H. Les manuscrits arabes de la collection Schefer. Extrait du Journal des Savants, 1901, p 1 76.

Description de l'Égypte. Seconde édition, publ. par C.L.F. Ponceckoucke, IV. Paris, 1821.

Devic Marcel. Coup d'oeil sur la littérature géographique arabe au moyen âge. Bulletin de la Société Languedocienne de Géographie, V, No 3. Montpéllier, 1882, p. 366 400 (t. a. p. 1 39.

Devic L. M. Le pays des Zendjs ou la cote orientale d'Afrique au moyen-âge. Paris. 1883.

Devonshire R. L. Extrait de l'Histoire de l'Égypte, volume II, par Ahmed ibn Iyas el-Hanafy el-Maçry (Boulaq, 1311 A. H.). Traduit de l'arabe par R. L. Devonshire, BIFAO, XXV, 1925, p. 133-145.

Devonshire R. L. Al Kaul al-mustazraf fi safar maulana al-Malik al-Ashraf. Relation d'un voyage du sultan Qâitbây en Palestine et en Syrie traduit de l'arabe par M-me R. L. Devonshire, BIFAO. XX, 1922, p. 42. طرف

Dictionnaire de l'Académie Françaie, I—II, 8 éd., Paris, 1932—1935,

Dieterici Fr, Die Abhandlungen der Ichwàn es-safà, in Auswahl arab, Hrsg. von Fr Dieterici, Leipzig, 1883,

Dieterici Fr. Die Propaedeutik der Araber im zehnten Yahrhundert. Berlin, 1865,

Dieterici Fr, Der Streit zwischen Thier und Mensch, Berlin, 1865,

Dieterici Fr. Thier und Mensch vor dem König der Genien, Ein arabisches Märchen aus den Schriften der lautern Brüder in Basra, Im Urtext herausgegeben und mit einem Glossar versehen von Fr, Dieterici, Leipzig, 1879,

Diez H, Fr, Denkwürdigkeiten von Asien in Künsten and Wissenschaften, Sitten, Gebräuchen und Alterthümern, Religion und Regierungsverfassung aus Handschriften und eigenen Erfahrungen gesammelt von Heinrich von Diez, Erster Theil, Berlin, 1811; Zweiter Theil, Berlin und Halle, 1815,

El Djabarti. Merveilles biographiques et historiques ou Chroniques du Cheikh Abd-el-Rahman el Djabarti traduites de l'arabe par Chefik Mansour Beg Abdalaziz Kalil Bey, Gabriel Nicolas Kalil Bey et Iskender Ammoun Effendi, I— IX, Le Caire, 1888 - 1896.

Al - Djahiz, EI, I, p. 1043 - 1044.

Dorn B, Das Asiatische Museum der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St. - Petersburg, Von dem Director desselben Dr, Bernh. Dorn St. Petersburg, 1846.

Dorn B. Auszüge aus vierzehn morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspische Meer und angrenzende Länder, Mél, As., VI, (1869 — 1873), SPb., 1873, p. 627—669, 685—746; Mél, As., VII, (1873—1876), SPb., 1876, p. 19 - 44, 53 - 92,

Dorn B. Auszüge aus zwei morgenländischen Schriftstellern, betreffend das Kaspische Meer und angrenzende Länder. Mél. As., VI, (1869—1873), SPb., 1873, p. 344-381.

Dorn B, Bericht über eine Reise ins Ausland, Mél, As., VI, (1869 - 1873), SPb., 1873, p. 570 —579.

Dorn B, Caspia, Über die Einfälle der alten Russen in Tabaristan nebst Zugaben über andere von ihnen auf dem Kaspischen Meere und in den anliegenden Ländern ausgeführte Unternehmungen, St.-Pétersbourg, 1875,

Dozy R, Le calendrier de Cordoue de l'année 961, texte arabe et ancienne traduction latine, Leyde, 1873,

Dozy, Histoire de l'Afique et de l'Espagne, intitulée al-Bayáno 'l-Mogrib par Ibn-Adhari (de Maroc), publié par R. P. A. Dozy, I, Leyde, 1848—1851; II, 1849—1851,

Dozy R, Histoire des musulmans d'Espagne, I—IV, Leyde, 1861,

Dozy R, The History of the Almohades, preceded by a Sketch of the History of Spain, from the Times of the Conquest till the Reign of Yúsof Ibn - Teshufin, and of the History of the Almoravides by Abdo-'l-Wáhid al-Marrékoshi, Ed. by R, Dozy, Leyden, 1847, Second édition, 1881,

Dozy R, Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen âge, Troisième édition, I—II, Leyde, 1881,

Dozy R, Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le moyen âge. 1éd,, I—II, Leyde, 1849,

Dozy R, Supplément aux dictionnaires arabes I—II, Leyd, 1881,

Dozy R, et de Goeje M, Description de l'Afrique et de l'Espagne par Edrîsî, texte arabe avec une traduction, Leyde, 1866,

Dozy — Lévi - Provençal, Histoire des muslmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711 — 1110) par R, Dozy, Nouvelle édition revue et mise à jour par E, Lévi-Provençal, I—III, Leide, 1932,

Dubler C, E, Abu Hamid el Granad'no y su relación de viaje por tierras Eurasiaticas Por Cesar E. Dubler, Madrid, 1953,

Dugat G, أنظر : Al - Makkari, Analectes,

Dvorac R, Zemepis u Arabu Ibn Batûta, Zemépisny sbornik, II, 1887,

E, H, نفس المؤلف : Theorie und Grundlagen der darstellenden Erdkunde (I und II Vorwart). Des Klaudios Ptolemaios Einführung in die darstellende Erdkunde, Erster Teil ("Klotho", Edited by F, W, König, 5), Translated and edited by Hans v, Mzik, with Friedrich Hopfner, Wien, 1938, — G,J, XCIII, No, 3, 1939, p, 252,

Ekrem Kamil, Tarih Semineri Dergesi, 1/2, Istanbul, 1937, p, 5 - 90,

Elliot and Dowson, The History of India, as told by its own Historians, The Muhammadan Period, Ed, from the posthumous - papers of the Late sir H, M, Elliot, by Prof, John Dowson, I—VIII, London, 1867—1877,

Fabricius A, K, La première invasion des normands dans l'Espagne musulmane en 844, Mémoire destiné à la 10-ème session du Congrès International des orientalistes par le prof, Adam Kristoffer Fabricius, (Société de Géographie de Lisbonne), Lisbonne, 1892,

Fadl Allah al - Omari, EI, II, p. 38,

Fagnan E, L'Afrique septentrionale au XII-e siècle de notre ére, Description extraite du Kitab al - Istibçar et traduite par E, Fagnan, Constantine, 1900, Recueil des Notes et Mémoires de la Société Archéologique de Constantine, XXXII, 1899,

Fagnan E, Nouveaux textes historiques relatifs à l'Afrique du Nord et à la Sicile, Centenario, II, Palermo, 1910, p. 35—114,

Farmer H, G, A History of arabian Musik to the XIII - th Century, London, 1929.

Faure - Biguet G, Notice sur le Cheikh Mohammed Abou Ras en Nasri de Mascara, (Extraits de son autobiographie), JA, 9 série, XIV, 1899, p, 304—351, 388—420,

Ferrand G. L'Elément persan dans les textes nautiques arabes des XV-e et XVI-e siècles JA, CCIV, 1924, p. 193-257

Ferrand G. Les Géographes arabes et l'Océán Indien. Actes du XVIII-e Congrès des Orientalistes, Leiden, 1932, 131—133

Ferrand G, Introduction à l'astronomie nautique Arabe. Paris, 1928 (Bibliotheque des géographes arabes publiée sous la direction de G. Ferrand, I).

Ferrand G. Iranica. Oriental Studies in Honour of Cursetji Erachji Pavry. London, 1933 p. 123—126

Ferrand G, Le K'ouen-Louen et les anciennes navigations interocéaniques dans les mers du sud. Extrait du JA 9 série, XIII, Paris, 1919, p 469 — 483 (= t. à p., 131-153)

Ferrand G. Madagaskar EI, III, p 68—80

Ferrand G. Notes de géographie orientale JA, CCII, 1923, p 0—35

Ferrand G. Note sur le livre des 101 nuits. JA, 101 série, XVII, 1911, p. 309—318.

Ferrand G. Le pilote arabe de Vasco da Gama et les instructions nautiques des Arabes au XV-e siècle. Annales de géographie, XXXI-e année, No 172, 15 juillet, 1922, p 289—307

Ferrand G. Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême-Orient du XIII-e au XVIII-e siècles, traduits, revus et annotés par G. Ferrand, I—II Paris, 1913—1914

Ferrand G. Sayabidia EI, IV, p 214-215

Ferrand Gabriel. Shihab al-dīn Ahmed b. Madjid EI, IV, p 389 396

Ferrand G. Sofala. EI, IV, p 507—510

Ferrand G. Le Tuhfat al-albab de Abu Hamid al-Andalusi al-Garnati édité d'après les Mss 2167, 2168, 2170 de la Bibliothèque Nationale et le Ms d'Alger par G Ferrand JA, CCVII, 1925, p. 1—148, 193—304

Ferrand G. Voyage du marchand arabe Sulaymân. Paris 1922

Ferrand G. Le Wakwak est-il le Japon ? JA, CCXX, 1932, p. 193—243

Ferrand G. Wakwak oder Wakwak EI, IV, p. 1196-1200

Ferrand G. Zabag EI, IV, p. 1279—1281

Ferrand G. نقد کتاب : The Book of Duarte Barbosa, an Accouut of the countries bordering the Indian Ocean and their inhabitants, written by Duarte Barbosa, and completed about the year 1618 A D, traduit du texte portugais publié pour la première fois en 1812 (lire 1813) par l'Académie des Sciences de Lisbonne, édité et annoté par Mansel Longworth Dames; t II, comprenant les côtes du Malabar, de l'Inde orientale, de l'Inde transgangétique, de la Chine et de l'Indonésie,

Londris, 1921, XXI + 286 pages, Hakluyt Society, 2-e série, No XLIX, avec un portrait du zamorin de Calicut, deux cartes du Bengale et de Ceylan, et un index des deux volumes — JA, CCIV, 1924, p. 114—121

Ferrand G. نقد كتاب ; G. Coedès, Le Royaume de Çrivijaya, Hanoi, 1918—JA, 11 série, XIV, 1919, p. 191

Florini M. Le projezioni cartografiche di Albiruni BSOI, Serie II, v IV, fasc III — IV, Marzo —Aprile, 1891, p. 287 —294

Fischer A. Battuta, nicht Batuta. Kleine Mitteilungen ZDMG, 72, 1918, p. 289

Fischer A. Beitrage zum Verstandnis religioser muslimischer Texte. Leipzig, 1933

Fischer A. Der marokkanische Historiker ʻAbu-l-Qasim ez-Zajani ZDMG, 71, 1917, p. 223—220

Fischer A. Al-Maqdisi und al-Muqaddasi. ZDMG, 60, 1906, p. 404—410

Fischer A. Sitzungs-Berichte der Sächsischen Akademie der Wissenschaften, 81, 3 (1929).

Fleischer H. L. Kleinere Schriften von H. L. Fleischer. Gesammelt, durchgesehen und vermehrt, I- III Leipzig, 1885 1888

Fleischer H.L. Ueber das türkische Chatâï-nâme. Kleinere Schriften, III, Leipzig, 1888, p. 214 - 225

Florilegium ou Recueil de travaux d'érudition dédiés à monsieur le marquis Melchior de Vogüé. Paris, 1909

Flügel G. Die arabischen, persischen und türkischen Handschriften der Kaiserlich-königlichen Hofbibliothek zu Wien, I III Wien 1865 1867

Flügel G. Einige geographische und ethnographische Handschriften der Refaija auf der Universitätsbibliothek zu Leipzig ZDMG, 16, 1862, p 651 709

Flügel G. Die grammatischen Schulen der Araber, Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, II Leipzig, 1862

Flügel G. Lexicon Bibliographicum et Encyclopaedicum a Mustafa ben Abdallah Katib Jelebi dicto et nomine Haji Khalfa celebrato compositum. Ad codicum vindobonensium parisiensium et berolinensis fidem primum edidit latine vertit et commentario indicibusque instruxit G. Fluegel, I - VII. Leipzig— London. 1835 — 1858.

Flügel G. Kitâb al-Fihrist, I—II Leipzig, 1871—1872

Flügel G. Zwei Reisewerke der Refaija auf der Universitätsbibliothek zu Leipzig. ZDMG, 18, 1864, p. 523—569

Fraehn Christianus Martinus, Rostochiensis Aegyptus auctore Ibn al-Vardi Ex, apographo Escorialensi, una cum lectionibus variis e Codice Dresdensi, primus edidit, vertit, notulisque illustravit Chr. Martinus Fraehn Halae 1804

Fraehn Ch. M., Ein neuer Beleg, dass die Gründer des Russischen Staates Nordmannen waren, und zugleich Aufklärung über den bisher fast gar nicht gekannten Arabischen Reisenden, aus dessen Werke dieser Beleg entnommen. Bulletin scientifique publié par l'Académie Impériale des Sciences de Saint-Pétersbourg, IV, 1838, p. 131–147.

Frähn C. M, Ibn-Foszlan's und anderer Araber Berichte über die Russen älterer Zeit, Text und Übersetzung mit kritisch-philogischen Anmerkungen, SPb, 1823

Freund S., De rebus die resurrectionis eventuris Fragmentum ex libro cosmographico "Margarita mirabilium" Sein ed-dini Ibn al-Vardi ... editum Dissertatio quam scripsit Siegfriedus Freund. Vratislaviae, 1853

Fritch Erdmann, Islam und Christentum im Mittelalter. Beiträge zur Geschichte der muslimischen Polemik gegen das Christentum in arabischer Sprache. Breslau, 1930 (Breslauer Studien zur historischen theologie, XVII).

Fück J., Eine arabische Literaturgeschichte aus dem 10 Jahrhundert n. Chr. (Der Fihrist des Ibn an-Nadim). ZDMG, 84 1930, 111–124.

Fück J., Al-Nadim EI, III, p. 873–874

Fück J. Neue Materialien zum Fihrist. ZDMG, 90, 2, 1936, 298–321.

Furlani G., Le Carte dell'Adriatico presso Tolomeo ed al Idrisi. Compte-rendu du Congrès Intern. de Géographie au Cairo 1925, V, 2, p 196–206

Gabrieli Giuseppe, Manoscritti e carte orientali nelle biblioteche e negli archivi d'Italia. Dati statistici e bibliografici delle collezioni loro storia e catalogazione, Firenze, 1930

Gandz S., The Algebra of Inheritance. A Rehabilitation of al-Khuwarizmi. Osiris, V, Brugis, 1938, p 319–391

Garrett, انظر : Hitti

Gaudefroy-Demombynes, Les cent et une nuits. Traduites de l'arabe, Paris, s.n.

Gaudefroy-Demombynes, Les sources arabes du Muhit turc. JA, 10 série, XX, 1912 p 547–550

Gaudefroy-Demombynes, La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs Arabes. Description géographique, économique et administrative précédée d'une introduction sur l'organisation gouvernementale par Gaudefroy-Demombynes Bibliothèque archéologique et historique, III. Paris, 1923

Géographie d'Aboulféda. Texte arabe publié d'après les manuscrits de Paris et de Leyde aux frais de la Société Asiatique par M. Reinaud et Mac Guckin de Slane Paris, 1840.

Geyer R., Gedichte von Abû Basir Maimûn ibn Qais al-A'sâ. arabisch hrsg. von. R Geyer, London., 1928 (GMS, NS, VI).

Gibb H. A., The Arab Conquests in Central Asia. London, 1923

Gibb H. A. R., Arabic Literature, London, 1925

Gibb H. A. R. انظر Ibn Battûta.

Gibb H. A. R., Ta'rikh, EI, EB. p. 249—263.

Gildemeister J., Des Abd al-Ghani al-Nâbulsi Reise von Damascus nach Jerusalem. ZDMG, 36, 1882, p. 385—400.

Gildemeister J., Idrisi's Palaestina und Syrien im arabischen Text herausgegeben von J. Gildemeister. Bonn (Beilage zu der Zeitschrift des Deutschen Palaestina—Vereins. VIII. 1885).

Gildemeister J., Orientalische Literatur über die Entdeckung Americas. Zentralblatt für Bibliothekswesen. V, Leipzig, 1888, p. 303—306.

Gildemeister J., über den Titel des Masudischen Werkes مروج الذهب . Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, V, 1844, p. 202—204.

Giovanni Leone., Libellus de viris quibusdam illustribus apud arabes. Ed. J. H. Hottinger, Zürich, 1664.

Gobbée E., Enkele Termen bij de navigatie in gebruik in het dialect van Djeddah (Hidjâz). Tijdschrift voor Indische Tall-, Land-en Volkenkunde. LXVI, Afl. 1-2, 1926, p. 144—155.

Goeje M. J. de, Annales quos scripsit Abu Djafar Mohammed ibn Djarir al—Tabari. Ed. M. J. de Goeje, series I—III, Lugduni Batavorum, 1879—1901.

Goeje M. de., Communication sur le livre d'Ibn al-Modjâwir, Actes du Onzième Congrès International des Orientalistes. Paris, 1897, Troisième section, Langues et archéologie musulmanes. Paris, 1899, p. 23—33.

Goeje M. J. de, BGA, I — VIII, Lugduni-Batavorum, 1870—1894: Al-Istakhri, I, 1870; Ibn Haukal, II, 1873; al-Moqaddasi, III, 1877; III², 1906; Indices, Glossarium et Addenda et Emendanda ad Part. I—III, IV, 1879; Ibn al-Fakih, V, 1885; Ibn Khordâdhbeh, VI, 1889; Ibn Rosteh; al-Jakûbi, VII, 1892; al-Masûdi, VIII, 1894.

Goeje M. J. de, Eenige Mededeelingen over de Arabische Geografen door M. J. de Goeje. Tijdschrift van het Aradrijkskundig Genootschap. Leiden, 1874, No 1, p. 190—199; No 5, 1875.

Goeje M. J. de, Die Istakhri-Balkhi Frage, ZDMG, 25, 1871, p. 42—58.

Goeje M. J. de, La Légende de St. Brandan. Tiré des Actes du VIII^me Congrès International des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et a Christiania. Leide, 1890; 2^me partie, Leide, 1893.

Goeje M. J. de, al-Belâdsori.

Goeje M. J. de, De Muur van Gog en Magog. Amsterdam, 1888. Mededeelingen der Koninklijke Akademie van Wetenschappen, Afdeeling Letterkunde, 3de Reeks, Deel V, p. 87–124.

Goeje M. J. de, Les Russes-Normands. Actes du VIIIme Congrès International des Orientalistes, tenu en 1889 à Stockholm et Christiania. 2me partie, Leide, 1893 p. 37 41.

Goeje M. J. de, Siq, ZDMG, 54, 1900, p. 336–338.

Goeje M. J. de انظر Selections.

Goeje M. J. de, انظر : Wright William, The Travels of Ibn Jubayr. . .

Goldziher I., Muhammedanische Studien, I–II. Halle, 1888–1890.

Goldziher Ignaz., über die Benennung der "Ichwan al-safa". DI, I. 1910 p. 22–26.

Goldziher I., Vorlesungen über den Islam. Heidelberg, 1910.

Goldziher, Vorlesungen über den Islam von I. Goldziher. Zweite umgearbeitete Auflage von Dr. Franz Babinger, mit einem Bild des Verfassers und einem Geleitwort von C. H. Becker, Heidelberg, 1925.

Golius J., Muhammedis Fil. Ketiri Ferganensis, qui vulgo Alfraganus dicitur, Elementa astronomica, Arabice et Latine. Opera Jacobi Golii. Amstelodami, 1669.

Golius, Notae. انظر Golius J., Muhammedis Fil. Ketiri Ferganensis...

González Palencia A., Historia de la literatura arábigo-espanola, Barcelona—Buenos Aires, 1928.

Gottheil R., Contributions to the History of Geography, II. Candelabrum sanctorum and Liber radiorum. Hebraica, VII. 1890, p. 39–55.

Gottschalk H., Abū Ubaid al-Qasim b. Sallam. Studie zur Geschichte der arabischen Biographie. DI, XXIII, Berlin und Leipzig. 1936. p. 245–289.

Goutta G, von Der Agani-artikel über A'sa von Hamdan. Diss. Kirchhain N.-L., 1912.

Greafe E, Das Pyramidenkapitel in al-Macrizi's "Hitat". Leipzig. 1911.

Greaves J., Astronomica quaedam ex traditione Shah Cholgii Persae. London, 1652.

Griffini E., Estratti dalla geografia di az-Zuhri od Anonimo di Almeria. Centenario I, 1910, p, 416–420.

Griffini E. Die jüngste ambrosianische Sammlung arabischer Handschriften. ZDMG 69, 1915 p. 63–88.

Griffini E., Lista dei manoscritti arabi nuovo fondo della Biblioteca Ambrosiana di Milano RSO, III, 1910, p. 253–278, 571–594, 901–921; IV. 1911–1912, p. 87-106, 1021–1048.

Grimme H., Mohammed, I–II Münster i. W., 1892, 1895.

Gronovius Jacobus (Gronovius), De geographiae origine, progressu ac dulcedine. Lugdini, 1703.

Guest R., The Delta in the Middle Ages. JRAS. 1913. p' 305 sui.

Guest Rhuvon, The Governors and Judges of Egypt or Kitâb el 'Umarâ (el Wulâh) wa Kitâb el Qudâh of el Kindi together with an Appendix derived mostly from Raf' el Isr by Ibn Hajar. Leyden, 1912, (GMS. XIX).

Guest A. R., A List of Writers, Books, and other Authorities mentioned by El Maqrisi in his Khitat. JRAS, 1902, p. 103 – 125.

Guidi I., Abyssinien EI, I, p. 126 – 128.

Guidi I, L'Europa occidentale negli antichi geografi arabi. Florilegium ou Recueil de travaux d'érudition dédiés à monsieur le marquis Melchior de Vogüé. Paris. 1909, p. 263 -269.

Guidi I., Muhadarat adabyat al-djugrafiyâ wa-t-ta'rikh wa-l-luga 'inda-l-'arab bi i'tibar alaqatiha bi auruba wa hususan bi italiya. 1908 – 1909.

Guidi M., Roma e il mondo islamico. Estratto degli"Atti del IV Congresso Nazionale di Studi Romani", 1938.

Guidi I., Une Description arabe du Sinai. (Ephraemi diaconi monachi expositio de monte Sinai). RB, Nouvelle série. III, Paris – Rome. 1906, p. 433 442.

Guignes, de., Ithaf al ahissa fi fada'il al-masdjid al-aksa. Des prérogatives de la Mosquée Alacsa, ou de Jérusalem. Par Ebn aboul Scherif, Auteur du XVe siècle de l'ère chrétienne. Par de Guignes. Notices et extraits. III, Paris, 1790. p. 610 – 616.

Guignes, de, Kitab ba'it an-nufus ila zijarat al-Quds al-Mahrus. Exhortation aux âmes sur le pélerinage de Jérusalem. Par Bourhaneddin Ibrahim, surnommé Al Kazaoui, ou selon d'autres Alkarari, qui vivait avant le XVe siècle. Notices et Extraits, III, Paris, 1790 p. 605 – 609.

Guignes, de, Kitab talhis al-atar wa 'adja'ib al-malik al-qahhar. Exposition de ce qu'il ya de plus remarquable (sur la terre) et des merveilles du roi tout-puissant par Abdorraschid, fils de Saleh, fils de Nouri, surnommé Yakouti; ouvrage de géographie, composé dans le XV siècle. Par M. De Guignes, Notices et Extraits, II, 1789, p. 386 – 545.

Guignes, de, Haridat al-'adja'ib. Perle des merveilles. Mélanges de géographie et d'histoire naturelle, par Zein-eddin Omar, fils d'Aboul Modhaffer, surnommé Ebn al-Ouardi, écrivain du XIII siècle. Notices et Extraits, II, Paris, 1789, p. 19 – 59.

Günther S., Der arabische Geograph Edrisi und seine maronitischen Herausgeber. AGNT, I, 1909. p. 113 – 123.

Günther S., Geschichte der Erdkunde Leipzig und Wien, 1904

Günther S., Die Lehre von der Erdrundung im Mittelalter bei Arabern und Hebräern. Halle, 1877.

Guyard St., Géographie d'Aboulféda traduite de l'arabe par St. Guyard. II, deuxième partie. Paris, 1883.

Haffner A., Al-Asma'i El, I. p. 509.

Haffner A., Drei arabische Quellenwerke über die 'Addad. Beirut, 1913.

Al-Hamdani, Al-Iklil. Buch I und 2. Facsimile Ms. Or. oct 968. Berlin, 1943. (Vorwort: M. Weisweiler. 20 Januar 1943).

Hamdani H., Baht ta'rihi fi rasa'il Ihwan as—Safa' wa 'aqua'id al-Isma'iliya. Bombay, 1354/1935.

Hammer J., von, Geschichte des osmanischen Reiches, grossentheils aus bisher unbenützten Handschriften und Archiven durch J. von Hammer, I—X. Pest, 1827—1835.

Hammer J., von, Encyclopädische Ubersicht der Wissenschaften des Orients, aus sieben arabischen persischen und türkischen Werken übersetzt. Den Freunden und Kennern der orientalischen Literatur gewidmet von einem derselben Beflissenen in Konstantinopel, I—II. Leipzig, 1804.

Hammer Jos., Erinnerungen. Wien und Leipzig, 1940.

Hammer Jos., von, Rumelie und Bosna geographisch beschrieben von Mustafa Ben Abdalla Hadschi Chalfa. Wien, 1812.

Hammer J., Sur les origines russes, SPb., 1825.

Harrisse Henry, Christoph Columbus im Orient. Centralblatt für Bibliothekswesen, V, Leibzig, 1888, p. 133 - 138.

Hartmann A. Th., Oluf Gerhard Tychsen oder Wanderungen durch die mannigfaltigen Gebiete der biblisch-asiatischen Literatur. Ein Denkmal der Freundschaft und Dankbarkeit von A. Th. Hartmann, I - II, Bremen, 1818.

Hartmann Joannes Melhior, Edrisii Africa. Curavit Joannes Melhior Hartmann, Editio altera, Gettingae, 1796.

Hartmann M., Das arabische Strophengedicht, I. Das Muwassah, Weimar, 1897. Semitistische Studien, 13/14.

Hartmann M., China, El, I, p. 875 - 890.

Hartmann R., Eriwan. El, II. 31.

Hartmann R., Die geographischen Nachrichten über Palästina und Syrien in Halil az-Zahiri's Zubdat Kasf al-Mamalik. (Dissertation, Tübingen). Kirchhain, 1907.

Hartmann R, Kleine Mitteilungen und Anzeigen. DI. XIX, 1931, p. 296 - 298.

Hartmann R, Die Strasse von Damaskus nach Kairo, ZDMG, 64, 1910, p. 665—702.

Hartmann R., Politische Geographie des Mamlukenreichs. Kapitel 5 und 6 des Staatshandbuchs Ibn Fadlallah al-Omari's eingeleitet, übersetzt und mit Anmerkungen versehen von R. Hartmann. ZDMG. 70, 1916, p. 1--40, 477 - 511: 71, 1917, p. 429 -431 - Nachträge zu ZDMG, 70, p. 477 sui.

Hartmann R., Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun. Geisteswiss., III, 2, 1926.

Hartmann R., Zu Ewlija Tschelebi's Reisen im oberen Euphrat-und Tigris-Gebiet. DI, IX, 1919, p. 184-244.

Hartner Willy, Mintaka oder Mintakat al-Burudj. EI, III. p. 577 - 581.

Hartner W., Zaman, I. EI, IV, p. 1307 - 1310.

Haschimi M. Jahya, Die Quellen des Steinbuches des Biruni. Dissertation, Bonn, 1935.

Al-Hachimi M. Jahya, Les théories économiques d'al-Bayrouni, RAAD, XV, 1937, p. 456 - 465.

Al-Hachimi M. Jahya, Les sciences physiques et naturelles chez Ikhwan es - Safa. RAAD, 1932, p. 513 520.

Hassan Z. M., Les Tulunides. Étude de l'Egypte musulmans à la fin du IX e siècle, 868 905. Paris, 1933.

Heer G., Die historischen und geographischen Quellen in Jaqut's Geographischen Wörterbuch. Strassburg, 1898

Heffening W., Al-Darakutni. EI, EB, p. 49 50.

Hell J., Der Diwan des Abu Du'aib hrsg. und übersetzt von Joseph Hell. Hannover, 1926.

Hell J., Al-Farazdaks Loblied auf 'Ali ibn al-Husain (Zain al 'Abidin). Festschrift Eduard Sachau zum siebzigsten Geburtstage gewidmet von Freunden und Schülern. Berlin, 1915, p. 368 374.

Hell Joseph, Die Kultur der Araber. Leipzig, 1919.

Hennig R., Terrae incognitae. Eine Zusammenstellung und kritische Bewertung der wichtigsten vorkolumbischen Entdeckungsreisen an Hand der darüber vorliegenden Originalberichte Leiden, E. J. Brill. I. Altertum bis Ptolemäus, 1936; II. 200 1200 n. Chr., 1937; III. 1200 1415 n. Chr. 1938; IV. 1416 - 1497 n. Chr., 1939.

Hermann A., Die älteste türkische Weltkarte (1076 n. Chr.). Imago Mundi, Jahrbuch der alten Kartographie, I, Berlin, 1935.

Hermann A., Die Karte der nordwestlichen Länder تركتاب : Southern Tibet. Discoveries

in former Times compared with my own Researches in 1906 - 1908 by Sven Hedin, VIII, 2 : Die Westländer in der Chinesischen Kartographie). Stockholm, 1922, p. 277—282.

Herzog R., Ein türkisches Werk über des Aegäische Meer aus dem Jahre 1520, Athenische Mitteilungen, XXVII, 1902.

Hess J. J., Bemerkungen zu einigen arabischen Wörtern des abessinischen Glossars, ZA, XXXI, Strassburg, 1917/1918, p. 26 - 37.

Heyworth - Dunne J., Arabic Literature in Egypt in the Eighteenth Century with same Reference to the Poetry and Poets. BSOS, IX, 3, p. 675 - 689.

Heyworth - Dunne J., An Introduction to the History of Education in modern Egypt. London, (1939).

Hirschberg I.W, Jüdische und christliche Lehren im vor - und frühislamischen Arabien Krakow, 1939.

Hirschfeld H., The Diwan of Hassan b. Thabit, ed. Hartwig Hirschfeld, Leyden — London, 1910. (GMS, XIII).

Hirth Friedrich and Rockhill W. W., Chau - Ju - Kua : His Work on the Chinese and Arab Trade in the twelfth and thirteenth centuries, entitled Chu - fan - chï. Translated from the Chinese and annotated by F. Hirth and W.W. Rockhill. SPb., 1911.

Hitti Ph. K., Faris N.A, 'Abd al-Malik B., Descriptive Catalog of the Garrett Collection of Arabic Manuscripts in the Princeton University Library. Princeton, 1938, (Princeton Oriental Text, V).

Hitti, Kitab al-I'tibar. Arabic Text, ed. Ph. Hitti, Princeton, Oriental Texts, I, 1930.

Hjelt A., Études sur l'Hexameron de Jacques d'Edesse, notamment sur ses notions géographiques, contenues dans le 3 - ième traité, Helsingfors, 1892, ch. III, p. 19 - 31.

Hoenerbach W, Deutschland und seine Nachbarländer nach der grossen Geographie des Idrisi (+ 1162). Stuttgart, 1938. Bonner Orientalistische Studien, 21.

Hoenerbach W., Das nordafrikanische Itinerar des 'Abdari vom Jahre 688/1289, Leipzig, 1940. (Abh KM, XXIV, 4; XXV, 4).

Hoenerbach W., ZDMG, 94, 3, 1940, انظر : Hoenerbach, Das nordafrikanische Itinerar des'Abdari.

Honigmann E., Die Ostgrenze des Bysantinischen Reiches von 363 bis 1071 nach griechischen, arabischen, syrischen und armenischen Quellen. Bruxelles, 1935.

Honigmann E, Die sieben Klimata und die πολεις ἐπίσημοι. Heidelberg, 1929.

Honigmann E., نقد كتاب : BHG, III. - Islamica, III, 1927, p. 160—163.

Honigmann? E. أنظر : New Ptolemy Studies. Text und Karten des Ptolemäus, by Paul Schnabel, 1931. Theorie und Grundlagen der darstellenden Erdkunde, by F.W. Koenig. Translated and edited by Hans v. Mzik, 1931 G J. XCIII, No 3, March 1939, p 252.

Horn P., Geschichte der persischen Literatur. Leipzig, 1901.

Horovitz J., Koranische Untersuchungen. Berlin und Leipzig, 1926.

Houtsma M. Th., 'Abd al-Latif. EI, I, p. 50.

Houtsma M. Th., 'Abd al-Rahman b. 'Awf. EI, I, p. 57.

Houtsma M. Th., Catalogue d'une collection de manuscrits arabes et turcs appartenant à la maison E. J. Brill à Leide by Brill—M. Th. Houtsma. Leyde, 1889.

Huart Cl., Abaza. EI, I, p. 6 7.

Huart Cl, L'Afrique de la Géographie mozhaffèrienne. Paris, 1906, Actes du XIVe Congrès International des Orientalistes), III. Alger, 1905, p. 13 27.

Huart Cl., Ahmed Pasha. EI, I, p. 213.

Huart Cl., Histoire des Arabes, I II. Paris, 1912 - 1913.

Huart Cl, Littérature arabe. Paris, 1902; N 34, 4-e, Paris, 1923.

Huart Cl., Le Livre de la Création et de l'histoire d'Abou-Zéid Ahmed ben Sahl el-Balkhi publié et traduit d'après le manuscrit de Constantinople par Cl. Huart, I - VI, Paris, 1899 - 1919. Publication de l'ÉLOV, séries XVI - XVIII.

Huart Cl., Le Livre de la création et de l'histoire. Manuel arabe de controverse Xe siècle de l'ère chrétienne. JA, 8 série, X, 1887, p. 160 - 164.

Huart Cl., Le véritable auteur du Livre de la Création et de l'histoire. JA, 9 série, XVIII, 1901, p. 16 21

Huber - Brockelmann, أنظر : Brockelmann. Die Gedichte.

Hudud al-'Alam. The Regions of the World. A Persian Geography 372 A.H. — 982 A. D. Translated and explained by V. Minorsky with the Preface by V. V. Barthold (+ 1930) translated from the Russian. London, 1937. (GMS, N S., XI).

Al-Huwarizmi, أنظر : Nallino.

Hylander Andr., أنظر. Operis cosmographici Ibn Vardi caput primum de regionibus. Ex cod. Ups. ed. lat. vert Andr. Hylander. Lectiones nonnullus variantes collegit et indicem geographicum adjecit Sven Hylander. Lundae, 1823.

Ibn Battûta, Travels in Asia and Africa 1325—1354 Translated and selected by H. A. R Gibb, with an Introduction and Notes, London, 1929.

Ibn Dukmak, أنظر : Vollers.

Ibn Fadlan أنظر : Validi. Ibn Fadlan.

Ibn al-Qifti's Ta'rih al-Hukama'. Auf Grund der Vorarbeiten Aug. Müller's hrsg. von Julius Lippert, Leipzig, 1903.

Ibn Qutaiba, Kitab 'Ujun al-ahbar, I–IV. Hrsg. von C. Brockelmann. Weimar-Strassburg, 1898–1908.

Ibn Qutaiba, Liber Poësis et Poëtarum. Ed. M. J. de Goeje, Lugduni Batavorum, 1904

Ibn Saad, Biographien Muhammeds, seiner Gefährten und späteren Träger des Islams bis zum Jahre 230 der Flucht. Hrsg. von E. Sachau, I–IX. Leiden, 1904–1928.

Ibn Shaddad. EI, II, p. 445.

Ibn Said. EI, II, p. 440.

Ideler, Untersuchungen.

Idrisi, La Finlande et les autres pays baltiques orientaux (Géographie, VII,4). 50 N. 10. Édition critique du texte arabe, avec facsimilés de tous les manuscrits connus, traduction, étude de la toponymie, aperçu historique, cartes et gravures ainsi qu'un appendice donnant le texte de VII, 3 et de VII, 5 par O. J. Tallgren-Tuulio. A. M. Tallgren. Helsingforsiae, 1930. (Soc. Or. Fennica, Studia Orientalia, III).

Al-Idrisi, Oblectatio desiderantis in descriptione civitatum principalium et tractuum et provinciarum et insularum et urbium et plagarum mundi. Romae, 1592.

Iltutmish. EI, II, p. 501.

Imago Mundi. Jahrbuch der alten Kartographie, I. Berlin, 1935,

Indices. أنظر : Zaleman K., Rozen V. Spisok ...

Jacob G., Altarabisches Beduinenleben. Zweite Ausgabe, Berlin, 1897.

Jacob G, Arabische Berichte von Gesandten an germanisch Fürstenhöfe aus dem 9. und 10. Jahrhundert. Berlin und Leipzig, 1927.

Jacob G, Ein arabischer Berichterstatter aus dem 10. Jahrhundert über Fulda, Schleswig, Soest, Paderborn und andere deutsche Städte. Studien in arabischen Geographen von G. Jacob, I, Berlin, 1891,

Jacob G., Des spanisch-arabischen Reisenden Abû Hâmid Kosmographie "Tuhfat al-albâb" und ihre wissenschaftlichen Ausbeute. Studien in arabischen Geographen von G. Jocob, III, Berlin, 1892.

Jacob G., Studien in arabischen Geographen, Heft I–IV. Berlin, 1891–1892.

Ja'kubi, Les pays. Traduction par G. Wiet. Le Caire, 1937. (Textes et traductions d'auteurs orientaux, I).

Janicsek Stephan, Al-Djaihani's lost Kitab ul-Masalik val-Mamalik is it to be found at Mashhad? BSOS, V, 1928, p. 15–26.

Janicsek St., Ibn Battuta's Journey to Bulghar. JRAS, 1929, p. 791 – 800.

Jansky H., Die Chronik des Ibn Tulun als Geschichtsquelle über den Feldzug Sultan Selim's I gegen die Mamluken. DI, XVIII, 1929, p. 24 — 33.

Jansky H., At-Tuhfa al-bahiya. Mitteilungen zur osmanischen Geschichte, II, Vienna, 1923 — 1926.

Jansky H., نقد كتاب Tallgren. La Finlande, – OLZ, 36, 1933, p. 633 – 695.

Jaubert P. A., Géographie d'Édrisi traduite de l'arabe en français d'après deux manuscrits de la bibliothèque du roi et accompagnée de notes par P. Amédée Jaubert, I — II, Paris, 1836 — 1840.

Jong P., de, Homonyma inter nomina relativa, auctore Abu'l Fadhl Mohammed ibn Táhir al-Makdisi vulgo dicto Ibno'l-Kaisaráni, quae cum appendice Abu Musae Ispahanensis e codd. Leyd. et Berolini, ed. P. de Jong. Lugduni Batavorum, 1865 Kitab al-ansab al-muttafika fi-l-hatt al-mutamatila fi-n-nukat wa-d-dabt).

Juynboll T. G., Lexicon geographicum, cui titulus est, Marâsid al ittilâ' 'alâ asmâ' al-amkina wa-l-biqâ', ed. T. G. Juynboll. I — VI, Lugduni Batavorum, 1852 — 1864.

Juynboll W. M. G, Zeventiende-eeuwsche beoefenaars van het Arabisch in Nederland. Utrecht, 1932.

Kahle Paul, China as described by Turkish Geographers from Iranian Sources. Proceedings of the Iran Society, II, 4 (25 I 1940), p. 48 - 59.

Kahle P. und Mustafa M., Die Chronik des Ibn Ijâs in Gemeinschaft mit Moritz Sobernheim, hrsg. von Paul Kahle und Muhammed Mustafa, III—V. Istanbul—Leipzig, 1931 — 1936. (Bibliotheca Islamica, V, c, d, e).

Kahle P. Eine, islamische Quelle über China um 1500. (Das Khitayname des 'Ali Ekber). AO, XII, 1934, p. 90 - 110.

Kahle P., Nautische Instrumente der Araber im Indischen Ocean, Oriental Studies in Honour of Dasturji Pavry. Oxford, 1933, p. 176 - 184.

Khale P., Piri Re'is, Bahriye. Das turkische Segelhandbuch für das Mittelländische Meer vom Jahre 1521. Hrsg., übersetzt erklärt von P. Kahle, I, Text, I Lieferung, Kapitel 1—28; II, Übersetzung, I. Lieferung, Kapitel 1—28. Berlin und Leipzig, 1926.

Kahle P., Piri Re'is und seine Bahriye. Beiträge zur historischen Geographie, Kulturgeographie, Ethnographie, Kartographie.,, hrsg. v. H. von Mzik., Leipzig und Wien, 1929, p. 60—76.

Kahle Paul, Die verschollene Columbuskarte von 1498 in einer türkischen Weltkarte von 1513. Von Paul Kahle, Berlin und Leipzig, 1933.

Kamal Joussouf, Hallucinations scientifiques (les portulans). Leiden, 1937.

Kamil Ayad M., Die Geschichts-Gesellschaftslehre Ibn Haldans. (Forschungen hrsg. von K. Breysig, 2). Leipzig, 1930.

Kassner Karl, Eine neue Kopie von Edrîsîs "Geographie". A. Petermanns geographischen Mitteilungen, 79, Gotha, 1933 p. 304.

Kayser C., Das Buch von der Erkenntniss der Wahrheit oder der Ursache aller Ursachen. Nach den syrischen Handschriften ... hrsg. von C. Kayser. Leipzig, 1889 — Aus dem syrischen Grundtext ins Deutsche übersetzt von C. Kayser. Strassburg. 1893.

Kimble G. H. T., Geography in the Middle Ages, London, 1938.

Kindermann H., Al-Safina. El, EB, p. 206 — 208.

Kmoskó M., Die Quellen Istakhrî's in seinem Berichte über die Chasaren. Körösi Csoma Archivum, I, 2, 1921, p. 141 - 148.

Koehler I. B., Tabulae Syriae c. excerpto geogr. ex Ibn ol Wardi geographia et historia natur. ar. et lat. Ed. notis explan. I. B. Koehler. Lipsiae, 1766.

Koenig C., Der Kitab mutir al-garam ila zijarat al-Kuds wa's-Sam des Sihabeddin Abu Mahmud Ahmed al-Mukaddasi. (Diss. Leipzig). Kirchhain, 1896,

Köprulu M. F., XIII asirda Maraga rasathanesi hakkinda bazi notlar. Türk Tar. Kurumu. Belleten, VI, 1942, p. 208.—227.

Kotwicz Wl. i Kotwiczówna M, Orjentalista Antoni Muchlinski. Zycie i dzieła Wilno. 1935 (Collectanea Orientalia, No 8)

Kowalski T., Die ältesten Erwähnungen der Türken in der arabischen Literatur. Körösi Csoma Archivum, II, Budapest, 1920, p. 38 - 41.

Kowalski T., Relacja Ibrahima ibn Ja'kuba z podrózy do Krajów slowiánskich w przekazie al-Bekriego. Kraków, 1946, (Pomniki dziejowe Polski, Seria, II, 1).

Kowalski T., Z hadan nad relacja o Slowianach Ibrahims ibn Ja'kuba zagadnienie Ibrahim — Turtusi. Odbicie ze Sprawozdan Polskiej Akademii Umiej., XLIV, 1939, 4, p. 133 — 137.

Kowalski T., Zjazdy orientalistovo polskich. III — VI. Wilno, 1934 (Collectanea Orientalia, No 6).

Kramers J. H., Djughrafiya EI, EB, p. 63 — 75*.

Kramers J. H., L'Érythrée, décrite dans une source arabe du Xe siècle. Atti del XIX Congresso degli Orientalisti, Roma, 1938, p. 573 - 574.

Kramers J. H., Geography and Commerce. (The Legacy of Islam ed. by Sir Thomas Arnold and Alfred Guillaume). Oxford, 1931, p. 79—107.

* يجب الآن مراجعة مادة « جغرافيا » في الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية، وهي بقلم مقبول أحمد وفرانتس تيشنر. (المترجم)

Kramers J. H., Die muhammedanische geographische Literatur als Kulturerscheinung. ZDMG, 13, 1934, p. 20 — 22.

Kramers J. H., Al-Mukaddasi EI, III, p. 765

Kramers J. H., Munadjdjim Bashi. EI. III, p. 779 — 780.

Kramers J. H., Al-Nil. EI, III, p. 989 — 995.

Kramers J. H., Notices sur les cartes d'Edrisi فى كتاب : Kamal, Joussouf, Hallucinations scientifiques (les portulans). Leiden, 1937.

Kramers J. H., Opus geographicum auctore Ibn Haukal (Abu 'l-Kasim ibn Haukal al-Nasibi) ... "Liber imaginis terrae" edidit collato textu primae editionis aliisque fontibus adhibitis J. H. Kramers. BGA, II, Editio secunda, fasc. 1 — 2. Lugduni Batavorum, 1938—1939.

Kramers J. H., La question Balkhi-Istakhri et l'atlas de l'Islam. AO, XI, 1931, p. 9—30.

Kramers J. H., Sami, EI, IV, p. 144—145.

Kraus P., Épître de Beruni contenant le répertoire des ouvrages de Muhammad b. Zakariya ar-Razi publié par Paul Kraus. Paris, 1936.

Krause M., Al-Biruni, Ein iranischer Forscher des Mittelalters. DI, 26, 1940, p. 1 — 15.

Krause M, Zu "Der Islam", Band 22, S. 207, DI, 25, 1938, p. 196.

Krause M. نقد كتاب ; Meyerhof Max, Das Vorwort zur Drogenkunde des Beruni eingeleitet, übersetzt und erläutert. Berlin, 1932, DI, 22, 1934, p. 266 — 269.

Kratchkovsky (Kratschkovsky), انظر : Krachkovski

Kremer A., von, Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, I — II. Wien, 1875 1877.

Kremer A., Des Scheich's 'Abd-ol-Ghanî en-Nabolsi's Reisen in Syrien, Aegypten und Hidschâs. SBAW, Phil-hist., Cl., V, 1850, 6 — 10, p. 313 - 356, 823 — 841; VI, 1851, 1 - 5. p. 100 139.

Kremer A., Über zwei arabisch-geographische Werke. SBAW, Phil-hist. Cl., V. 1850, p. 77 sui.

Krenkow F., Abu'r-Raihan al-Beruni. Islamic Culture, VI, 4, 1932, p. 528 — 534.

Krenkow F., The Elegy upon al-Mughira ibn al-Muhallab, Islamica, II, 1926, p. 344 — 354.

Krenkow F., Al-Safadi, al-Hasan b. Abi Muhammed 'Abd Allah al-Hashimi. EI, IV, p. 57—58.

Kretschmer K., Die Entdeckung America's in ihrer Bedeutung für die Geschichte des Weltbildes. Berlin, 1892.

Kurdian H., The Date of the Oriental Geography of Ibn Haukal. JAOS, 54, 1934, p. 84 — 85.

Kválen Eivind, The Early Norwegian Settlements on the Volga, Vienna (A. Holzhausen), 1937.

Kválen [Eivind], Det norske gurdarikl. Andre bandet, Fyrste Heftet. Oslo, 1931.

Lammens H., Causeries géographiques sur la Syrie. Beyrouth, 1911.

Lane E. W., Madd al-qamus. An Arabic-English Lexicon, I—VIII, London, 1863—1893

Landberg C., Études sur les dialectes de l'Arabie Méridionale, I — II, Leide, 1901 — 1913.

Lane Poole Stanley, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.

Langlès E., Cosmographie composée en arabe par le savant historien Mohhammed ben-Ahhmed ben-Ayâs, de la secte ortodoxe d'Abou Hhanifah, natif de Circassie, Notices et extraits, VIII, Paris, 1910.

Lanzone R. V., Viaggio in Palestina e Soria di Kaid Ba XVIII sultano della II dinastia Mamelucca fatto nel 1477. Testo arabo Torino, 1878.

Lasa T., von der, Sokeikir aus Damascus, Zeitgenosse des Ruy Lopez. Schachzeitung, 1850, p. 320 — 322.

Lasa T., von der, Zur Geschichte und Literatur des Schachspiels. Leipzig, 1897.

Le Srange : انظر Strange.

Ledit Ch., Al-A'lak al-hatira, un manuscrit d'Ibn Saddad. المشرق XXXIII, 1935, p. 161 — 223.

Ledit Ch., 'Izz-ed-Din Ibn Saddad, sa valeur historique. المشرق XXXIII, 1935, p. 161 — 223, 586 — 608.

Lelèwel, Géographie du Moyen Age étudiée par Joachim Lelewel, I—II, Bruxelles, 1852; Épilogue, 1857.

Lemming F., Commentatio philologica exhibens specimen libri Ithaf al-akhissa bi-fada'il al-Masdjid al-Aksa auctore Kemaloddino Muhammede ben Abu Scherif ex codice manuscripto Nieburiano Bibliothece Regiae Hauniensis excerptum,.. obtulit. Hauniae, 1817.

Levi Della Vida G., Elenco dei manoscritti arabi islamici della Biblioteca Vaticana. Vaticani Barberiniani Borgiani Rossiani. Roma. 1935.

Levi Della Vida G., Kusaiy. EI, II, p. 1243 — 1244.

Levi Della Vida G., Il regno di Granata nel 1465-66 nei ricordi di un viaggiatore egiziano. Al-Andalus, I, 2, 1933, p. 307—334.

Levi Della Vida G., Tamim al-Dari. EI, IV, p. 700—702.

Lévi-Provençal E., La Civilisation arabe en Espagne. Paris, 1948.

Lévi-Provençal E., L'Espagne musulmane au V-ème siècle. Paris, 1932.

Lévi-Provençal E., Extraits des historiens arabes du Maroc, textes d'explication, a l'usage des étudiants. Paris, 1923.

Lévi-Provençal, La Fondation de Fès. Annales de l'Innstitut d'Études Orientales, IV, 1938.

Lévi-Provençal E., Les Historiens des Chorfa. Essai sur la littérature historique et biographique au Maroc du XVI ème au XX-éme siècle Paris, 1922.

Lévi-Provençal E., El-Makkari. EI, III, p. 189—190

Lévi-Provençal, La Péninsule Ibérique au moyen-âge d'après le Kitab ar-rawd al-mi'tar fi habar al-aktar d'Ibn 'Abd al-Mun 'im al-Himyari. Texte arabe des notices relatives à l'Espagne, au Portugal et au sud ouest de la France, publié, avec une introduction, un répertoire analytique, une traduction annotée, un glossaire et une carte par E. Lévi-Provençal. Leiden, 1938.

Lévi-Provençal E., Ar-raud al-mi'tar... Actes du XVIII Congrès des Orientalistes. Leyden, 1932, p. 240—241.

Lévi-Provençal, Al-Razi. EI, III, p. 1228.

Lévi-Provençal E., Al-Tamgruti, Abu l-Hasan 'Ali b. Muhammed b. 'Ali b. Muhammed, EI, IV, p 696.

Lévi-Provençal E., Wattasiden (Banu Wattas). EI, IV, p 1227—1228.

Lévi-Provençal E., Al-Zaiyani, EI, IV, p. 1300 1301.

Lévi-Provençal E., Al-Zallaka. EI, IV, p 1304 1305.

Levy R., An Introduction to the Sociology of Islam, I—II. London, 1931—1933.

Lewicki Tadeusz, Les premiers commerçants arabes en Chine RO, XI (1935), Lwów, 1936.

Lewicki T., La voie Kiev Vladimir (Wodzimierz Woynaki), d'après le géographe arabe du XII siècle, al-Idrisi. RO, XIII (1937), Lwów, 1938, p. 91—105.

Lewicki T., Wegry i muzulmanie wegierscy w swietle relacji podróznika arabskiego z XII w. Abu Hamid Al-Andalusi al-Garnati'ego. RO, XIII (1937), Lwów, 1938, p. 106 122.

Lewis B, The Origins of Ismailism. Cambrige, 1940.

Linde A., von der, Geschichte und Literatur des Schachspiels, I. Berlin, 1874.

Linde A., von der, Quellenstudien zur Geschichte des Schachspiels. Berlin, 1881.

Lippert J. انظر Ibn al-Qifti.

Lith, van der, Kitab 'agâ'ib al-Hind. Livre des merveilles de l'Inde par le capitaine Bozorg fils de Chahriyar de Ramhormoz. Texte arabe publié par P. A. Van der Lith. Traduction française par L. Marcel Devic. Leide, 1883—1886.

Löfgren O., Arabische Texte zur Kenntnis der Stadt Aden im Mittelalter. I. Zur Topographie. Uppsala (1936). (Arbeten utgivna med understöd av Vilhelm Ekmans Universitetsfond, Uppsala, 42 : 1).

Löfgren, Ein Hamdani-Fund über das Berliner Unicum der beiden ersten Bücher des Iklil von Oscar Löfgren. Uppsala Universitets Arsskrift 1935 : 7, Uppsala, 1935. (Recueil de travaux, publiés par l'Université d'Uppsala).

Lokotsch Karl, Etymologisches Wörterbuch der europäischen (germanischen, romanischen und slavischen) Wörter orientalischen Ursprungs. Heidelberg, 1927.

Loth O., A Catalogue of the Arabic Manuscripts in the Library of the India Office by O. Loth. London, 1877.

Lund J P., Aardrijkskundige Fragmenten vit de syrische Literatuur der zesde en zivende Eeuw. Amsterdam, 1887. (Verslagen en Mededeelingen der Koninklijke Akademie van Wetenschappen. Afdeling Letterkunde, Derde Reeks, Derde Deel, p. 164—193.

Lyall Ch., The Dîwâns of 'Abîd ibn al-Abras, of Asad and 'Amir ibn at-Tufail, of 'Amir ibn Sa'sa'ah. Edited and supplied with a Translation and Notes by Charles Lyall, Leyden, 1913. (GMS, XXI).

Macdonald H., 'Abd al-Razzak. EI, I, p. 65—67.

Macdonald D. B., Malahim. EI. III, p. 204—205

Macdonald D. B., Djafr. EI, I, p. 1037—1038.

Mahdi Husain انظر : Collin Davies C.

Mahmassany Sobhi, Les idées éconmiques d'Ibn Khaldoun. Lyon, 1932.

Al-Makkari. Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne, par al-Makkari, Publiés par R. Dozy, G. Dugat, L. Krehl et W. Wright, I, Leyde, 1885-1860; II, Leyde, 1858—1861.

Malo Ch., Mirza Aboul Taleb Khan. Voyages en Afrique, en Europe écrits par lui-même Paris, 1819.

Al-Maqrizi, G. Wiet, El-Khitat.

Marçais, Al-'Aini. EI, I, p. 225—226.

Marçais W, Al-Khatib al-Baghdadi. EI, II, p. 997—998.

Margoliouth D. S., The Kitab al-Ansab of 'Abd al-Karim ibn Muhammad al-Sam 'ani reproduced in Facsimile from the Manuscript in the British Museum Add. 23, 355. With an introduction by D. S. Margoliouth. Leyden — London, 1912. (GMS, XX).

Margoliouth D. S., Lectures on Arabic Historians. Calcutta, 1930.

Margoliouth D. S. نقد كتاب : Muallim M. Gevdetin Hayati, Eserleri ve Kutuphanesi (The Life, Works, and Library of Professor M. Jevdet). By Osman Ergin, Secretary of the Istanbul Vilayet. 10 X 6 1/2, pp. 748. Istanbul : Bozkurt Press, 1937. — JRAS, 1939, pp. 622 — 623.

Margoliouth, The Table-Talk of a Mesopotamian Judge being the first Part of the Nishwar al-Muhadarah or Jami' al-Tawarikh of Abu 'Ali al-Muhassin al-Tanukhi Ed. D. S. Margoliouth, London, 1921 (Oriental Translation Fund, New Series, XXVII).

Markwart J, Ein arabischer Bericht über die arktischen (uralischen) Länder aus dem 10. Jahrhundert. Sonderabdruck aus "Ungarischer Jahrbucher", IV, Heft 3/4, Berlin, 1924.

Markwart J., Osteuropäische und Ostasiatische Streifzüge. Leipzig, 1903.

Markwart Josef, Wehrot und Arang. Untersuchungen zur mythischen und geschichtlichen Landeskunde von Ostiran. Leiden, 1938.

Martino Pierre, L'Orient dans la littérature française au XVII-e et XVIII-e siècle. Paris, 1906.

Massé H, Rida Kuli Khan. EI, III, pp. 1245 1246.

Massignon L., Leo Africanus, al-Hasan b. Muhammed al-Wazzan al-Zaiyati. EI, III, pp. 24.

Massignon L, Le Maroc dans les premières années du XVI-e siècle, Tableau géographique d'après Léon l'Africain par Louis Massignon. Préface de L.-G. Binger. Alger, 1906. (Mémoires de la Société historique Algérienne, I).

Massignon L., Nawbakhti. EI, III, pp. 958 959.

Massignon L., Sur la date de la composition des „Rasa'il ikhwan al-safa". DI, IV, 1913, 324.

Mehmet Aga Oghlu, The Origin of the Term Mina and its Meanings. JNES, V, No 4, 1946, pp. 246—247.

Mehren A. F., Cosmographie de Chems-ed-din Abou Abdallah Mohammed ed-Dimichqui. Texte arabe, publié d'après l'édition commencée par M. Fraehn d'après les manuscrits de St.-Pétersbourg, de Leyde et de Copenhague. SPb., 1866.

Mehren A., Udsigt over de islamiske folkes geographiske kundskaber. Kjöbenhavn, 1858. (Annaler vor nordisk Oldkyndighed).

Melgunoff, انظر Melgunov.

Menzel Th. نقد كتاب : Piri Re'is Bahriye : Das türkische Segelhandbuch für das Mittelländische Meer von Jahre 1521 herausgegeben, übersetzt und erklärt von Paul Kahle, I—II. Berlin, 1926. — OLZ, 1928, No 4, عمود 285 — 288.

Meyer E, Geschichte der Botanik, III. Königsberg, 1856.

Meyerhof M, Allgemeine Pharmakologie und Botanik bei Edrisi. AGMNT, XII, 1929, pp. 45 sul., 225 sul.

Meyerhof M,, Kitab al-saidana, Berlin, 1932.

Mez A., El Renacimento del Islam, Traducción del alemán por Salvador Vila, Madrid—Granada, 1936.

Mez A., Die Renaissance des Islams, Heidelberg, 1922.

Mielck R., Terminologie der Müller und Bäcker im islamischen Mittelalter (Dissertation Breslau), Glückstadt und Hamburg, 1914.

Mieli A., La science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale par Aldo Mieli avec quelques additions de Henri-Paul-Joseph Renaud (Rabat), Max Meyerhof (Misr al-Qâhira), Julius Ruska (Berlin), Leiden, 1939.

Miller K., Mappae arabicae. Arabische Welt- und Länderkarten, I—VI, hrsg. von Konrad Miller, Stuttgart, 1926—1927.

Minorsky V., Abu-Dulaf Mis'ar ibn Muhalhil's Travels in Iran (circa A. D. 950). Arabic Text with an English Translation and Commentry, Egyptian Ministry of Education, Cairo University Press, 1955.

Minorsky V., Les Études historiques et géographiques sur la Perse depuis 1930. Acta Orientalia, X, Leiden, 1931, pp. 278 - 293.

Minorsky V., The Khazars and the Turks in the Akam al-Marjan. BSOS, University of London, IX, 1, 1937, pp. 141—150.

Minorsky V., Maragha, EI, III, pp. 284—290.

Minorsky V., Muhammed Hasan Khan, EI, III, pp. 741—742.

Minorsky V., Narshakhi, EI, III, pp. 914.

Minorsky V., Rus, EI, III, pp. 1276—1278.

Minorsky V., Une nouvelle source persane sur les hongrois au X siècle. Budapest, 1937. (Tirage à part de la "Nouvelle Revue de Hongrie", Avril, 1937).

Minorsky V. — Barthold V. V., انظر : Hudud al-'Alam.

Mitchell J., The History of the maritime Wars of the Turks translated from the Turkish of Haji Khalifeh, by J. Mitchell, London, 1831.

Mittwoch E., Ibn al-Kifti. EI, II, pp. 423.

Moberg A., Nasi', EI. III, pp. 924—925.

Moberg A., An-nasi' in der islamischen Tradition, Lund, 1931.

Mohammed Ben Cheneb, Al-'Abdari, EI, I, pp. 71—72.

Mohammed Ben Cheneb, Al-'Aiyashi. EI, I, 231—232.

Mohammed Ben Cheneb, Étude sur les personnages mentionnés dans l'Idjaza du Cheikh 'Abd el Qadir el Fasy par Mohammed Ben Cheneb. Extrait du tome IX des Actes du XIV Congrès International des Orientalistes, Paris, 1907.

Mohammed Ben Cheneb, Ibn al-Wardi. EI, II, pp. 455.

Moh. Ben Cheneb, Muwashshah, EI, III, pp. 859 860.

Moncada Crispo, Abû Hâmid da Granata, La descrizione di Roma nel secole XII, tolta da un codice arabo della Biblioteca nazionale di Palermo tradotta ed illustrata da Carlo Crispo-Moncada. Palermo, 1906.

Mordtmann J. H., Ewliya Celebi, EI, II, pp. 34—35.

Mordtmann J. H., Hadjdji Khalifa. EI, II, pp. 217—218.

Mordtmann J. H., Ibrahim Muteferrika, EI, II, pp. 467.

Moritz B., Description du Faiyoum au VIIme siècle de l'Hégire par Abou 'Osman il Naboulsi il Safadi Le Caire, 1898—1899. (Publications de la Bibliothèque Khédiviale, XI).

Moritz B, Ibn al-Ğî'ân. At-tuhfa as-sanija fi asmâ al-bilad al-Misrija, Ed. B. Moritz Kairo, 1898.

Moritz B, Ibn Sa'id's Beschreibung von Sicilien. Centenario, I, Palermo, 1910, pp. 292 305.

Moritz B., Izhâr sun'at al haij al qaijûm fi tartib bilâd al Faijûm. Hrsg. von B. Moritz, I—II, Kairo 1898—1899. (Publications de la Bibliothèque khédiviale. XI).

Motylinski A. M. el-Moqri. Les Mansions lunaires des Arabes, publiées, traduites et annotées par A. de Motylinski, Alger, 1899.

Moura, Viagens extensas e dilatadas do celebre arabe Abu Abdallah, mais conhecido pelo nome de Ben Batuta, traduzidas por Jose de Santo Antonio Moura, I—II. Lisboa, 1840—1855.

Muhammad Nizámu' d-din, Introduction to the Jawámi' u'l-hikáyát wa lawámi' u'l-riwáyát of Sadidu'd-din Muhammad al-'Awfi, London, 1929, (OMS, N. S., VIII).

Mühlinen E. Graf von, Das Grab Abu'l-Fida's in Hama, ZDMG, 62, 1908, p. 657 – 660, مع أربعة رسوم

Müller D. H., Das Buch der arabischen Halbinsel von Abu Hasan al-Hamdani (Bericht über die Ergebniss einer zu wissenschaftlichen Zwecken mit Unterstützung der k. Akademie der Wissenschaften unternommenen Reise nach Constantinopel. I). SBAW, Phil-hist. Cl., 90, 1878, pp. 299–333.

Müller D. H., Die Burgen und Schlösser Südarabiens. SBWA, Phil.-hist. Cl., 94, 1879, p. 355 sui.; 97, 1880, p. 955 sui — الهمداني « الاكليل » : انظر

Müller D. H, Al Hamdâni's Geographie der arabischen Halbinsel hrsg. von D. H. Müller. I—II. Leiden, 1884 - 1891

Mlleür D. H, Südarabische Studien. SBWA, Phi.-hist. Cl., 86 (1877), pp. 108 sui.

Müller Car., Fragmenta Historicorum Generorum collegit... Carolus Mullersis, IV. Parisiis, 1851.

Murray H. J. R., نقد لكتاب : The Earlier Arabic Literature of Chess. Libro del Ajedrez, de sus Problemas y Sutilezas, de Autor Arabe desconcido. Por Félix M. Pareja Casanas. Publicaciones de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada. Serie A. No 3, Madrid, 1935.—JRAS, 1937, pp. 169 - 176.

Mzik H, von, Africa nach der arabischen Bearbeitung der Γεωγραφική ὑφήγησις des Claudius Ptolemaeus von Muhammad ibn Musa al-Hwarizmi. Wien, 1916 (K. Akad. d. Wiss. in Wien, phil.-hist. Cl., Denkschriften, LIX, Abh. 4).

Mzik H., Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, I—V. Leipzig, 1926 - 1930.

Mzik H., von. Das Buch der Abbildungen der Länder Handschrift der Hofbibliothek in Wien, Mitt. der Geogr. Gesellschaft in Wien, LXII, 1919, pp. 145 — 149, tagv. I – IV.

Mzik Hans, von, Idrisi und Ptolemäus. OLZ, XV, 1912, pp. 403–406.

Mzik Hans, von, Das Kitab Surat al-ard des Abu Ga'far Muhammed Ibn Musa al Huwarizmi. Hrsg. nach dem handschriftlichen Unicum der Bibliothèque de l'Université et régionale in Strassburg (cod. 4247) von Hans v. Mzik. Leipzig, 1926 (BAH u. G, III).

Mzik Hans, von, Mythische Geographie. WZKM, XLV, 1—2, Wien. 1938, p. 85 — 108

Mzik H., von, Osteurropa nach der arabischen Bearbeitung der Γεωγραφική ὑφήγησις des Klaudius Ptolemaios von Mohammed ibn Musà al-Huwarismi. WZKM, XLIII, 1936, p. 161 — 193.

Mzik H., Parageographische Elemente in den Berichten der arabischen Geografen. BAH u. G., 1929.

Mzik H., von, Ptolemaeus und die Karten der arabischen Geographen. Vortrage gehalten in der Fachsitzung der kk. geographischen Gesellscaft am 4. Mai 191. Mitt. der k. k. Geogr. Ges. in Wien, LVIII, 1915, p. 152—176.

Mzik H., von, Die Reise des Arabers Ibn Batuta durch Indien und China (14. Jahrhundert), Bearbeitet von Dr Hans von Mzik, Hamburg, 1911, (Bibliothek denkwürdiger Reisen, 5).

Mzik Hans, von. : نقد كتاب Ernst Honigmann, Die sieben Klimata, Heidelberg, 1929, OLZ, No 34, 1931, p. 939—949.

Mzik Hans. : نقد كتاب Eivind Kválen, The Early Norwegian Settlements on the Volga. Ed. and printed by A. Holzhausens Nfg., Vienna 1937, VI u. 49 S. RM 3. — WZKM, XLVI, 1939, p. 317—318.

Nallino C. A., Astronomie EI, I, p. 517 - 520.

Nallino C. A., Al-Battani. EI, I, p. 709.

Nallino C.A., Al-Battani sive Albateni Opus Astronomicum. Arabice editum, Latine versum, adnotationibus instructum a C A. Nallino, I — III Milano, 1899 — 1907.

Nallino C. A., La Bibliotheca Geographorum Arabicorum di M. J. de Goeje. Cosmos, series II. XII, Torino, 1894 — 1895, fasc. II, p. 45 — 63.

Nallino C., Al-Huwârizmi e il suo rifacimento della geografia di Tolomeo. Memoria della Reale Accademia dei Lincei, series V, II, 1, Roma, 1894.

Nallino C, 'Ilm al-falak. Ta'rikhuhu 'inda-'arab fi-l-kurun al-wusta. Roma, 1911.

Nallino C., Al-Khuwarizmi et son remaniement de la Géographie de Ptolémée. Bull. de la Société Khédiviale de Géographie, IV série, No 8, Cairo, 1896. p.p. 525—543.

Nallino C. A., UN mappamoundo arabo disegnato nel 1597 da 'Ali Ibn Ahmad al-Sharafi di Sfax, BSOI, IX, 1961, p. 721 - 736 (Racc. V. p. 533 - 540).

Nallino Carlo Alfonso, Raccolta di Scritti editi e inediti. V, Astrologia-Astronomia-Geografia a cura di Maria Nallino, Roma, 1934, (Publicazioni dell' Istituto per l'Oriente).

Nallino Carlo Alfonso, Storia dell' astronomia presso gli Arabi nel Medio Evo. Lezioni 1909 — 1910 (= Nallino. 'Ilm al-falak). Racc., V, II, Roma, 1944.

Nallino C., Sun, Moon and Stars. Hastings Encyclopaedia of Religion and Ethics. XII, 1921, p. 88 — 101 (= Racc., V., p. 1 — 87).

Nallino C. A., Le Tabelle geographiche d'al-Battani, tradotte ed annotate dal C. A. Nallino. Cosmos, series II, XII, Torino, 1894 — 1896, fasc. VI, p. 161 — 183.

Nallino C., Tracce di opere greche giunte agli Arabi per trafila Pehlevica. A Volume of Oriental Studies presented to E. G. Browne, Cambridge, 1922.

Nallino C. A., Il valore metrico del grado di meridiano secondo geografi arabi. Cosmos, XI, 1892 — 1893, p. 20 - 27; 50 — 63, 105 — 121 (= Racc, V., Roma 1944, p. 408 — 457).

Nallino C., Venezia e Sfax nel secolo XVIII secondo il cronista arabo Meqdîsh. Centenario, I, Palermo, 1910, p. 306 — 356; Aggiunte e correzioni, Centenario, II, Palermo, 1910, p. 640 — 641.

Nallino C. : نقد كتاب R. Strothmann, Die Zwölfer-Schi'a, Zwei religionsgeschtliche Charakterbilder aus der Mongolenzeit, Leipzig, 1926 — OM, VIII, 1928, p. 43 — 44.

Nansen F., Nebelheim, Entdeckung und Erforschung der nördlichen Länder und Meere, II, Leipzig, 1911. (Die arabischen Geographen im Mittelalter).

Nau Fr., Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VII-e au VIII-e siècle. Par François Nau, Paris. 1933. (Cahiers de la Société asiatique, I-re série. 1).

Nau F., Le Livre de l'ascension de l'esprit sur la forme du ciel et de la terre Paris, 1899 — 1900 (Bibliothèque de l'École des hautes études, 121).

Nazim ; انظر Meyerhof, Kitab al-saidana p. 6, note 4.

Newton A. P., Travel and Travellers of the Middle Ages. London, 1930.

Nicholson, The Fársnáma of Ibnu'l Balkhi. Ed. by G. Le Strange and R. Nicholson, Cambridge, 1921 (GMS. N. S., I),

Nicholson R., A Literary History of the Arabs. Cambridge, 1930.

Nöldeke Th., Die arabischen Handschriften Spitta's. ZDMG, 40, 1886, p. 305 - 314.

Nöldeke Th, Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden. Leyden, 1879.

Nöldeke Th, Orientalische Skizzen, Berlin, 1892.

Nöldeke Th., ; نقد كتاب Peiser, Der Gesandschaftsbericht des Hasan ben Ahmed El-Haimî. Göttingische Gelehrte Anzeigen, 39, 1894, No p, 568 — 572.

Norberg Matthias, Gihan numa, geographia orientalis, ex turcico in latinum versa, I — II. Londini Gothorum, 1818.

Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque National et autres bibliothèques, publiés par l'Institut National de France, VII. Paris (بدون سنة الطبع)

Orientalische Bibliographie, hrsg. von A. Müller. und von L. Schermann, Berlin, 1887 — 1922.

Ouseley W., The geographical works of Sádlik Ishfaáni. Translated by J. C. from original Persian Mss, in the Collection of Sir William Ouseley. London, 1832.

Pardi G., Quando fu composta la geografia d'Edrisi. Rivista geografica italiana, 24. Firenze, 1917.

Paret R, Al-Tanukhi. EI, IV, p. 710.

Pedersen J., Ibn Dukmak, Sarim al-Din Ibrahim b. Muhammed al-Misri. EI, II, p. 397

Pedersen Johs, Masdjid. EI, III, p. 372 - 435.

Pelser F. E., Der Gesandtschaftsbericht des Hasan ben Ahmed El-Haimi, hrsg. von F. E. Pelser. Berlin, 1894.

Pelser F. E, Zur Geschichte Abessiniens im 17 Jahrhundert. Der Gesandtschaftsbericht des Hasan ben Ahmed El-Haimi. Übersetzt von F. E. Pelser, Berlin, 1898.

Pelliot P., Voyage du marchand arabe Sulaymân en Inde et en Chine rédigé en 851, suivi de remarques par Abû Zayd Hasan, traduit par Gabriel Ferrand. T'oung Pao, XXI, Leide, 1922, p. 399 413. (Les Classiques de l'Orient, VII, Paris, 1922).

Péllisier-Rémusat, Histoire de l'Afrique de Moh'ammed-ben-Abi-el-Raïni-el-K'airouâni. Traduite de l'arabe per E. Péllissier et Rémusat, Paris, 1845. Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840, 1841, 1842, publié par ordrè du gouvernement et avec le concours d'une commission académique, (Sciences historques et géographiques, VII).

Pérès H., L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930. Paris, 1937. Publication de l'Institut d'études Orientales. (Faculté des Lettres d'Alger. VI).

Pérès H, Le palmier en Espagne musulmane. Notes d'après les textes arabes, MOD, Le Caire, 1935 — 1945, p. 225 239.

Périer A., Jahya b 'Adl, un philosophe arabe chrétien du X siècle. Paris, 1920.

Pertsch W., Die arabischen Handschriften der Herzoglichen Bibliothek zu Gotha. Auf Befehl Sr. Hoheit des Herzogs Ernst II, von Sachsen-Coburg-Gotha verzeichnet von W. Pertsch, I — V. Gotha, 1878 1892.

Peschel - Ruge, O. Peschel's Geschichte der Erdkunde bis auf Alexander von Humboldt und Carl Ritter. Zweite vermehrte und verbesserte Auflage, hrsg. von S Ruge, München, 1877.

Pizzi I., Letteratura Arabe. Milano, 1903. (Manuali Hoepli).

Plessner M., Ta'rikh. El, EB, pp. 246 - 249.

Plessner M.; Al-Tidjani. El, IV, pp. 806 -807.

Pons Boigues F., Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles for F. Pons Boigues. Madrid, 1898.

Postell G. Cosmographiae compendium. Basileae, 1561.

Praetorius F. Ein arabisches Document zur athiopischen Geschichte. ZDMG, 39, 1885, pp. 403 – 410

Prinsep James; Note on the Nauical Instruments of the Arabs. JASB, 1836 (=Ferrand, Introduction, pp. 1—24).

Prolégomènes historiques d'Ibn-Khaldoun. Texte arabe, publié par M. Quatremère, Paris, 1858. (Notices et extraits, XVI — XVIII, première partie). Traduction par M. G. de Slane. Paris, 1862 — 1868. (Notices et extraits, XIX — XXI, première partie).

Prutz, Kulturgeschichte der Kreuzzüge. Berlin, 1883.

Quatremère M., Des sciences chez les Arabes. Mélanges d'histoire et de philologie orientale, Paris (بدون سنة الطبع)

Quatremère E., Histoire des sultans mamlouks de l'Égypte, écrite en arabe par Taki-eddin-Ahmed-Makrizi, traduite en français, et accompagnee de notes philologiques, historiques, géographiques par E Quatremere, I – II. Paris, 1837 – 1845.

Quatremère E., Mémoires géographipues et historiques sur l'Égypte, II. Paris, 1811.

Quatremère E., Notice de l'ouverage qui a pour titre : Mesalek alabsar fi memalek alamsar "Voyages des yeux dans les royaumes des différentes contrees". Notices et extraits, XIII. Paris, 1839, pp. 151—384.

Quatremère E., Notice de l'ouvrage persan qui a pour titre : Matla-assaadeïn ou madjma-albahreïn et qui contient l'histoire des deux sultans Schah - Rokh et Abou-Saïd. Par E. Quatremère. Notices et extraits, XIV, 1. Paris, 1843, 1 - 514.

Quatremère E., خطط المقريزى : نقد لطبعة بولاق — Journal des Savants, 1856, pp. 321 – 337.

Rabbath A., Rihlat auwal sarqi ila Amerika. Le plus ancien voyage d'un oriental en Amérique (1660 – 1683), voyage du curé Chaldéen Elias, fils du prêtre Jean de Mossoul, d'après le ms. de l'archévêché d'Alep, éd. et annoté par le père A. Rabbath. Beyrouth, 1906.

Radu B, Voyage du patriarche Macaire, étude préliminaire. Paris, 1927.

Radu B, Voyage du patriarche Macaire d'Antioche. Texte arabe et traduction française par Basile Radu. — Patrologia Orientalis, XXII, 1, Paris, 1930.

Ranking — Azoo, Ahsan at taqâsîm fî ma'rifet al aqâlîm. Translated from the

Arab. and ed. by G. S. A. Ranking aud R. F. Azoo, I, 1, Calcutta, 1897. (Bibl. Ind.).

Ravaisse P., Zoubdat Kachf el - Mamâlik. Tableau politique et administratif de l'Égypte, de la Syrie et du Hidjaz sous la domination des sultans mamloûks du XIII-e au XV-e siécle par Khalīl. ed - Dâhiry, Texte arabe publié par P. Ravaisse, Paris, 1894.

Recueil des historiens des croisades publie par les soins de l'Académie des Inscriptions et belles-lettres. Historiens orientaux, Paris, 1872 1906.

Rehatsek E., An Embassy to Khatá or China A. D. 1419. From the Appendix to the Rouzat-al-Ssafâ of Muhammad Khâvend Shâh or Mirchond. Translated from the Persian by Edward Rehatsek. (The Indian Antiquary. A Journal of Oriental Research in Archaeology, History, Literature, Languages, Folklore, etc., etc., Ed. by Jac. Burgess. II, 1873). Bombay, 1874, pp. 75 83.

Reinaud, Géographie d'Aboulfeda, I, Introduction générale a la Géographie des Orientaux, Paris, 1848.

Reinaud, Géographie d'Aboulféda traduite de l'arabe en français et accompagnée de notes et d'éclaircissements par M. Reinaud, II, première partie. Paris, 1848.

Reinaud M, Invasion des sarrazins. Paris, 1836.

Reinaud M., Notice sur les dictionnaires géographiques arabes. JA, 5 série, XVI, Paris, 1860, pp. 65 106.

Reinaud M. (J. F.). Notice des ouvrages arabes, persans, turcs et français, imprimés á Constantinople Bulletin universel des sciences, XIX. Paris, 1831 (cahier de novembre), section VII, pp. 271 288.

Reinaud M. et De Slane M. G., Géographie d'Abouulféda. Texte arabe publié d'après les manuscrits de Paris et de Leyde aux frais de la Société Asiatique par M. Rénaud et Mac Guckin de Slane, Paris, 1840.

Reitemeyer Else, 'Arram b. al-Asbag as-Sulami's K. asma' gibal Tihama was makaniha. DI, 1932, p. 247 - 254.

Renan E., Mélanges d'histoire et de vayages. Paris, 1878.

Renaud H. P. J. Isis, XXXIV, 1, No 93, 1942, p. 24.

Rescher O., Abriss der arabischen Litereturgeschichte, I, Konstantinopel Pera. 1925; II, Stuttgart, 1933.

Rieu Ch., Catalogue of the Persian Manuscripts in the British Museum, I—III London, 1879—1883. Supplement to the Catalogue of Persian Manuscripts in the British Museum. London, 1895.

Rieu C., Catalogus codicum manuscriptorum qui in muso Britannico asservantur. Pars secunda, Codices arabicos amplectens. Londini, 1846

Rieu Ch., Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the British Museum. London, 1894.

Ritter H., Arabische Flussfahrzeuge auf Euphrat und Tigris. (Mesopotamische Studien, I). DI, IX, 1919, p. 121 — 143.

Ritter H., Philologika, I, Zur Uberlieferug des Fihrist. DI, XVII, 1928, p. 15 — 23.

Ritter H. نقد لكتاب : Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, hrsg von Hans v. Mzik. Dritter Band. DI, XIX, 1930, p. 52 — 57.

Riza Qouly Khan, Relation de l'ambassade au Kharezm publié, traduit et annotè par Ch. Schefer. Paris, 1876 — 1879. (PÉLOV, I série, III — IV).

Robérto C. H., Catalogue of the Greek and Latin papyri in the John Rylands Library. III. Manchester, 1930.

Rohr-Sauer A, von, Des Abu Dulaf Bericht über seine Reise nach Turkestan, China und Indien, neu übersetzt und untersucht. Stuttgart, 1939. (Bonner Orientalistische Studien. 26).

Ronciére Ch. de la, La Carte qui a inspiré à Christophe Colomb la découverte de l'Amérque. Jacomet, Paris, 1924.

Rosen : انظر Rozen

Rosenthal F., Ahmed b. at-Tayyib as-Sarahsi. New Haven, 1943. (American Oriental Series, 26).

Rossi G., Dizionario siorico degli autori arabi piu celebri e delle principali loro opere. Compilato dal dottore Giambernardo de Rossi. Parma, 1807.

Rousseau A. انظر : Voyage du scheikh et-Tidjani.

Ruska J., 'Anbar. EI, I, p. 393 — 364.

Ruska J., Al-Manazil. EI, III, p. 252.

Ruska J, Das Quadrivium aus Severus bar Schakku's Buch der Dialoge. Leipzig. 1896.

Ruske J., Al-Tusi. EI, IV, p. 1062 - 1063.

Ruska Julius, Zur geographischen Literatur im islamischen Kulturbereich GZ XXXIII, 1927, p. 519 — 528, 589 — 599,

Saavedra E., La geografia de Espana nel Edrisi, Boletin de la Sociedad Geografica de Madrid, 18, Madrid, 1885. p. 225 — 242,

Sachau Edw., Ta'rikh al-Hind, Alberuni's India, an Account of the Religion, Philosophy Literatur; Chronology, Astronomy, Customs, Laws and Astrology of India about 1030. ed. by Edw. Sachua, London, 1887 (الترجمة I — II, London, 1888 ; الطبعة الجديدة London, 1910)

Sachau E., Arabische Erzählungen aus der Zeit der Kalifen, München, 1920, (Dichtungen des Ostens).

Sachau E., SBAW, Phil-hist, Kl. 73, 1873.

Sachau E., Vom Klosterbuch des Sábusti. Abbandlungen der Preussischen Akademie der Wissenschaften, Phil-Hist. Kl, 1919, No 10.

Sachau Ed., Zur Geschichte und Chronologie von Khárizm. SBAW, Phil-Hist. Cl, LXXIII, Wien, 1873, p. 471—506.

De Sacy S., Relation de l'Egypte, par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad suivie de divers Extraits d'Ecrivains Orientaux, et d'un état de Provinces et des Villages de l'Egypte dans le XIV-e siécle: le tout traduit et enrichi de notes historiques et critiques, par S de Sacy. Paris, 1810.

Salemann, : انظر Zaleman

Salihani, Kitab muhtasar ad-duwal, ed. Salihani. Beyrouth, 1890.

Salmon G., Une liste de villes marocaines, AM, VI, 1906, p. 457 — 460.

Salmon G., Note sur la flore du Fayyoum d'aprés an-Nâboulsi. BIFAO, I, Le Caire, 1901, p. 25 28.

Salmon G., Un voyageur marocain à la fin du XVIIeme siécle. La Rihla d'az-Zyany, AM, II, 1905, p. 330 340.

Salverda de Grave, Specimen e literis orientalibus exhibens az-Zamaksarii lexicon geographicum, cui titulus est Kitab al amkina wal gibâl wal miljâh, quod auspice T. G. J. Juynboll edidit Mathias Salverda de Grave, Lugduni Batavorum, 1856.

Samaha., Abdel Hamid Mahmud, The Arabic Names of the Stars. Lund, 1937, (Meddelande fran Lunds Astronomiska Observatorium, Serie II, No 89, Historical Notes and Papers, No 11).

Samaha A. H. Notes on the cosmological ideas in al-Quran, Lund, 1938. (Meddelande fran Lunds Astronomiska Observatorium. Serie II, No 90, Historical. Notes and Papers, No 13).

Sangin : انظر Shengin.

Sarkis J. E., Dictionnaire encyclopédique de bibliographie arabe comprenant 1 le nom de tous les ouvrages imprimes, tant en Orient qu'en Occident et en Amérique, depuis la création de l'imprimérie jusqu'a 1919 inclusivement, 2 une biographie succincte de la plupart des auteurs anciens et modernes, 3 les sources des notes biographiques, Le Caire, 1928—1930.

Sarton George, Introduction to the History of Science, I, From Homer to Omar Khayyam. Baltimore, 1927: اعيد طبعه في عام : 1946; II, From Rabbi ben Ezra to Roger Bacon, Parts I — II. Baltimore, 1931.

Sarton G., Isis, VI p. 146.

Sarton George, The Scientific Litarature transmitted through the Incunabula. Osiris, V. 1938, p. 41 — 245.

Saussure L., de, Commentaire des Instructions nautiques de Ibn Majid et Sulayman al-Mahri. (= Ferrand, Introduction p. 129 — 175).

Sauvaget J., Historiens arabes. Pages choisies, traduites et prèsentés par J. Sauvaget, Paris, 1946.

Sauvaget J., Relation de la Chine et de l'Inde rédigée en 851. Texte établi, traduit et commenté par J. Sauvaget, Paris, 1948.

Sauvaire, Description de Damas. Traduction de l'arabe par H. Sauvaire. JA, 9, série III, 1894, p. 251 — 318, 385 — 501; IV, 1894, p. 241 — 331, 460 — 503; V, 1895, p. 296 — 315, 377 — 411; VI, 1895, p. 221 - 313, 409 — 484; VII, 1896. p. 185 — 285, 422 - 459.

Sauvaire H., Histoire de Jérusalem et d'Hébron depuis Abraham Jusqu'à la fin du XV-e siècle de J. C, Fragments de la Chronique de Moudjîr-ed-dyn traduits sur le texte arabe par H. Sauvaire. Paris, 1876.

Sauvaire H., Voyage en Espagne d'un ambassadeur marocain (1690 - 1691) traduit de l'arabe. Paris. 1884, (Bibliothéque Orientale Elzévirienne, XXXVIII).

Savary, Mahomet, Le Koran, traduit de l'arabe accompagné de notes précédé d'un Abrégè de la vie de Mahomet tirè des écrivains orientaux les plus estimés par M. Savary, Paris, sans date (1883)

Sbath P., Bibliothéque de manuscrits Paul Sbath. prêtre syrien d'Alep, Catalogue, I — II, Cairo. 1928.

Schaade A., Al Farazdak EI, II, p. 62 - 64.

Schacht J. and Meyerhof M, The Medico-Philosophical Controversy between Ibn Butlan of Baghdad and Ibn Ridwan of Cairo. A Contribution to the History of Greek Learning among the Arabs, Cairo, 1937.

Schack A., Fr. von, Poesia e Artes de los Arabes en Eypana y Sicilia. Trad. por J. Valera, I—II. Madrid, 1930 — 1933.

Schefer Ch., Archives de l'Orient latin. I, 1881, p. 587 - 609.

Schefer Ch., Chrestomathie persane à l'usage des éléves de l'Ecole spéciale des Langues orientales vivantes. Publiée par Ch. Schefer, I — II. Paris, 1883 1885. (PELOV, IIe série, VII — VIII).

Schefer Ch., Description de l'Afrique tierce partie du monde escrite par Jean Leon Africain premiérement en Langue Arabesque, puis en Toscane et à présent mise en Français. Nouvelle édition annotée par Ch. Schefer, I—III, Paris, 1896—1898. (Recueil de voyage et de documents pour servir à l'histoire de la géographie depuis le XIII-e jusqu'a la fin du XVII-e siécle, XIII—XV)

Schefer Ch., Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois, depuis l'extension de l'Islamisme jusqu'à la fin du XV-e siécle. (Centenaire de l'ELOV 1895, p. 1—43),

Schefer Ch., : انظر Riza Qouly Khan, Relation,

Schefer Ch, Trois chapitres du Khitay-Naméh. Texté persan et traduction francaise Paris, 1883, (Mélanges Orientaux),

Schiaparelli C., Geografia Notizie d'Italia estratte dall, opera di Sihâb ad-din al-Umari, intitolata Masâlik al-absâr fi mamâlik al-amsâr. RRAL., Classe di Science morali, serie IV, 10, 1888 p. 304—316,

Schiaparelli C., Ibn Gubayr (Giobeir) Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, compiuto nel secolo XII, prima traduzione sull'originale arabo da C. Schiaparelli, Roma, 1906,

Schier Ch., Grammaire arabe. Dresde et Leipsic, 1849.

Schjellerup H. C. F. C., Description des étoiles fixes composée au milieu du dixiéme siécle de notre ére par l'astronome persan Abd-al-Rahman al-Sufi SPb., 1874.

Schleifer J, Hasik, EI, II, P, 305,

Schnurrer Fr., Bibliotheca arabica, Auctam nunc atque integram edidit D, Christianus Fridericus de Schnurrer, Halae ad Salam, 1811,

Schoy C., The Geography of the Moslims of the Middle Ages. GR, 1924, p. 257—269,

Schoy C., Kibla. EI, II, p. 1050—1064.

Schoy C., Erdmessungen bei den Arabern. Zeitschaft der Gesellschaft für Erdkunde zu Berlin, 1917, I—IV p. 431—445.

Schoy C. Die geschichtliche Entwicklung der Polhöhenbestimmungén bei den älterén Völkern. Diss. München, 1911,

Schoy C., Al-Shams. EI, IV, p, 331—333.

Schwarz P., Die ältere geographische Litteratur der Araber, GZ, III, 1894 p, 137—146.

Schwarz P., Iran im Mittelalter nach den arabischen Geographen von P. Schwarz, I—IX. Leipzig—Zwickau in Sachsen, Stuttgart, 1929—1936.

Seetzen U., Al-Khiyari. Zachs Monatliche Correspondenz, XIV, 1806.

Seippel A., Rerum Normannicarum Fontes Arabici ed. Alexander Seippel. Fasc. I. Christianiae, 1896, fasc. II, Osloae, 1928.

Sèkowski I, I, Collectanea,,, I—II, Warszawa, 1824—1825,

Selections from Arabic geographical Literature edited with Notes by M, J, de Goeje, (Semitic Study Series, No VIII), Leiden, 1907,

Seybold C, F, Analecta arabo-italica. Centenario, II, Palermo, 1910 p, 204–215,

Seybold C, F. Edrisiana, I Triest by Edrisi, ZDMG, 63, 1909, 591–596,

Seybold C, F, Al-Idrisi,, EI, II, p. 480—481,

Seybold C, F, Hispano—Arabica, I, 2, Zur Biographie von Ibn Gubeir's Vater, ZDMG, 63, 1909, p, 353 - 355.

Seybold C, F, نقد لكتاب : Abû Hamid da Granata. La descrizione di Roma nel secolo XII, tolta da un codice arabo della Biblioteca nazionale di Palermo tradotta ed illustrata da Carlo-Moncada. Palermo, 1906,—Deutsche Literaturzeitung XXVIII, 1907 p, 1716–1717.

Simonet F, J., don, Description del Reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas sacada de les autores arabes, y sequida del texto inèdito de Mohammed ebn Aljathib por Don F, J, Simonet, Madrid, 1861,

Simonet F,, Glosario de voces ibèricas y latinas usadas entro los mozârabes. Madrid, 1888,

Simonet F,, Historia de los mozàrabes de Espana, Madrid, 1903,

Slane, de, Autobiographie d'Abou l'-Fedâ, extraits de sa chronique. Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux, I, Paris, 1872, p, 166–186,

Slane, de, Catalogue des manuscrits arabes de la Bibliothéque nationale. Paris, 1883—1895,

Slane, de, Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique septentrionale par Ibn Khaldoun. Texte arabe, 1,2, publiè par de Slane, Alger, 1847--1851.

Slane M. G., de, Ibn Khallikan's Biographical dictionary, translated from the Arabic by Mac Guckin de Slane, I—IV, Paris, 1842–1871,

Slane M, G., de, نقد لكتاب : Jaubert, Géographie d'Edrisi . . . — JA, 3 série XI, 1841, p. 362—387,

Sobernheim M,, Ibn Iyas, Muhammed b. Ahmed. EI, II, p, 414–415,

Somogyi J, v,, Ein arabischer Bericht über die Tataren im "Ta'rih al-Islam" von ad Dahabi. DI, XXIV, 1937, p. 106—130.

Spies O., An Arab Account of India in the Fourteenth Century. Bonn, 1935,

Sprenger A,, Das Leben und die Lehre des Mohammed, Berlin, I, 1861; II. 1862; III, 1865.

Sprenger A., Die Post-und Reiserouten des Orients, Abh KM, III, No 3, Leipzig, 1864,

Sprenger, Two Works on Arabic Bibliography, Edited by A. Sprenger, I, Calcutta, 1849 (Bibl. Ind., VI, No 21).

Steinschneider M., Polemische und apologetische Literatur in arabischer Sprache, zwischen Muslimen, Christen und Juden, nebst Anhängen verwandten Inhalts, Abh KM, VI, No 3. Leipzig, 1877.

Storbeck F., Die Berichte der arabischen Geographen des Mittelalters über Ostafrika, MSOS, Zweite Abteilung, XVII, 1914, p. 97—169.

Strange Guy, le, Description of Mesopotamia and Baghdad, written about the Year 900 A. D. by Ibn Serapion. The Arabic Text edited from a Manuscript in the British Museum Library with Translation and Notes. JRAS, 1895, p. 1—76, 255—315,

Strange Guy, le, Description of the Noble Sanctuary at Jerusalem in 1740 A. D. by Kamâl (or Shams) ad-Dîn as-Suyûtî, Extracts Re-translated by Guy Le Strange, JRAS, XIX, 1887, p. 247—305,

Strange G. le, Description of Persia and Mesopotamia in the year 1340 A. D. from the Nuzhat al-Kulub of Hamd-Allah Mustawfi, with a Summary of the Contents of that Work, B. G. Le Strange. JRAS, 1902, p. 49 74, 237—266, 509—536, 733 -784.

Strange G., le, Description of the Province of Fars, in Persia, at the beginning of the twelfth Century A. D. Translated from the MS. of Ibn-al-Balkhi in the British Museum by G. Le Strange, JRAS, 1912 p. 1 30, 311 339, 865 - 889,

Strange Guy, le, Palestine under the Muslims, Exkurs IV: R. Röhricht, Geschichte des I. Kreuzzugs, London, 1890,

Streck M., Djudi, EI, I, p. 1105- 1107,

Streck M., Kaf. EI. II, p. 656 -660,

Streck M., Kais. EI. II, p. 695—697.

Streck M., Al-Kazwini-Zakariya. EI, II, p. 900—904.

Strothmann R., Die Koptische Kirche der Neuzeit, Tübingen, 1932,

Strothmann R., Die Zwölfer-Schi'a. Zwei religionsgeschichtliche Charakterbilder aus der Mongolenzeit, Leipzig, 1926.

Stübe R, Hormuz. EI, II, p. 345—347,

Süssheim K., 'Ali. EI, I, p. 295—296.

Süssheim K., Ali (Sidi 'Ali) b. Husain, EI, I, p. 301—302,

Suter H Abu Ma'shar. EI, I, p. 105—106,

Suter H., AGNT, IV, Erlangen, 1922,

Snter H., Algorithmus, EI, I, p. 290 - 291,

Suter H, Die astronomischen Tafeln des Muhammed ibn Musa al-Chwarizmi in der Bearbeitung des Mazlama ibn Ahmed al-Madjriti und der latein, Ubersetzung des Athelards von Bath ..., hrsg. und kommentiert von H. Suter, Cobenhavn, 1914 (Mémoires de l'Académie Royale des Sciences et des Lettres de Danemark, Copenhague, 7-me série, Section des Lettres, III, 1)'

Suter H., Al-Farghani, EI, II, p. 69—70,

Suter H., Ibn Junus. EI, II, p. 456,

Suter H., Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke, (Abhandlungen zur Geschichte der mathematischen Wissenschaften X), Leipzig, 1900, 1902.

Sven Hedin, Southern Tibet, Discoveries in former times compared with my own researches in 1906—1908, VIII, Stockholm, 1922.

At-Tabari انظر : Goeje M. J., de, Annales,

Taeschner F, Das anatolische Wegenetz nach osmanischen Quellen, Leipzig, 1924 (Türkische Bibliothek, 23),

Taeschner F, Der Bericht des arabischen Geographen Ibn al-Wardi über Konstantinopel BHG, 1929, p. 84-91,

Taeschner Fr, Die geographische Literatur der Osmanen, ZDMG, 77(2), 1923, p. 31 -80! Nachtrag, p. 144,

Taeschner Fr., نقد كتاب : Hudud al-'alam, "The Regions of the World", a Persian Geography 372 A, H.—982 A, D, Translated and explained by V. Minorsky, Oxford a. London, 1937—DI, XXVI, 1940 p, 66—67,

Taeschner F, Die Psychologie Kazwini's (Dissertation Kiel), Tubingen, 1912,

Taeschner F., انظر : Al-Umari's Bericht,

Taeschner Franz, Die Vorlage von Hammers "Rumeli und Bosna". Mitteilungen zur osmanischen Gescihchte, II. Vienna, 1923—1926,

Taeschner F, نقد كتاب : Bibliothéque des géographes arabes, publiée sous la direction de Gabriel Ferrand, I, Gabriel Ferrand, Ministre Plénipotentiaire, Introduction â l'astronomie nautique arabe, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1928; II, Ibn Fadl Allah al-Omari, Masalik el absar fi mamalik el amsar, I, L'Afrique, moins l'Êgypt, traduit et annoté avec une introduction et 5 cartes, par Gaudefroy-Demombynes. Paris, 1927, LXVIII, 284 S., 5 Karten, XII, 272 S.—DI, XIX, 1930, p. 34—41,

Taeschner F. نقــد كتاب : Piri Re'is Bahriye. Das türkische Segelhandbuch für das Mittelländische Meer vom Jahre 1521. Hrsg . . . . . von P. Kahle. Berlin und Leipzig, 1926. — DI. XVII, 1928, p. 113—117.

Taha Hussein, Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn-Khal-doun. Thése de doctorat d'Université . . . par T. Hussein. Paris, 1917. (Faculté des lettres de l'Université de Paris).

Tallgren O. J., Survivance arabo-romane du Catalogue d'etoiles de Ptolomée, Studia orintalia, II Helsingforsiae, 1928.

Tallgren-Tuulio O. J. — A M, Tallgren انظر : Idrisi, La Finlande,

De Tarrazi Ph., Ta'rih as-sihafa, al-'arabiya, I, Beirouth, 1913,

Tauer F., Geographisches aus den Stambuler Bibliotheken (Arabische Handschriften), AO, VI, No 1, Praha, 1933—1934, p. 95—111,

Taylor E. G. R., Some Notes on early Ideas of the Form and Size of the Earth, GJ, LXXXV, 1935, p. 65—68.

Tkatsch, Poetik des Aristoteles. Wien - Leipzig, 1928.

Tomaschek W., Die topographischen Capitel des indischen Seespiegels Mohît übersetzt von Dr. M Bittner mit einer Einleitung sowie mit 30 Tafeln versehen von Dr. W. Tomaschek, Festschrift zur Erinnerung an die Eröffnung des Seeweges nach Ostindien durch Vasco da Gama (1497), hrsg. von der k. k. Geographischen Gesellschaft in Wien. Wien, 1897,

Tomaschek W., Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter, I, Die Küstengebiete und die Wege der Kreuzfahrer, SBAW, Phil hist. Cl., 124 (1891), VIII,

Tomaschek W., Zur Kunde der Haemus-Halbinsel, II, Die Handelswege im 12, Jahrh nach den Erkundigungen des Arabers Idrîsî SBAW, Phil-hist, Cl., 113 (1887), p. 285 - 373,

Tomaschek Wilhelm, نقد كتاب : M. J. de Goeje, De Muur van Gog en Magog Amsterdam. 1888 Joh. Müller, 38 Seiten. - WZKM, III, 1889, p. 103—108,

Tornberg C. J., Fragmentum libri Margarita mirabilium, Auctore Ibn el-Vardi, Prooemium, Caput secundum, tertium, quartum et quintum continens . . . edidit C. J. Tornberg. Pars prior, Upsaliae, 1835; Pars secunda, Pars posterior, Upsaliae, 1839.

Torrey C. C., Ibn Abd al-Hakam. EI, II, p. 375—376,

Torrey Ch. C., Futuh Misr wal-Magrib, The History of the Conquest of Egypt, North Africa and Spain known as the Futûh Misr of Ibn 'Abd al-Hakam ed. from the mss. in London, Paris and Leyden by Ch. C. Torrey, New Haven 1922 (Yale Oriental Research series, III),

Le Tourneau R., Damas de 1075 à 1154, Traduction annotée d'un fragment de l'Histoire de Damas d'Ibn al-Qalanisi, Damas, 1952.

Trummeter F., Ibn Sa'id's Geschichte der vorislamischen Araber, Stuttgart, 1928,

Tuch F., Reise des Scheikh Ibrâhîm el-Khijarî el,Medenî durch einen Theil Palästina's. Leipzig, 1850.

Tuulio O. J., Du nouveau sur Idrisi, Sections VII3 — VII5. Èdition critique, traduc tion, études par O. J. Tuulio (=Tallgren), Studia Orientalia èd. Soc, Or. Fennica No VI, Helsinki, 1936,

Tychsen O. G, Elementale arabicum sistens L. A, elemente, catalecta maximam partem anecdota et glossarium, Rostoghii, ex officina libr, Koppiana, 1792,

Al 'Umarî, Condizioni degli Stati cristiani dell' Occidente secondo una relazione di Demenichino Daria da Genova, Testo arabo con versione italiana e note di M. Amari, Atti della R. Accademia dei Lincei, Classe di Scienze Morali, serie III, XI 1883, p. 67—103, 306—308.

Al-'Umari's Bericht über Anatolien in seinem Werke Masalik al-absar fi mamalik al-amsar. Zum ersten Male hrsg. von F. Taeschner, I, Text, Leipzig, 1929,

Validi Togan Ahmed Zeki, Ibn Fadlan's Reisebericht. Abh KM, XXXIV, 3. Leipzig, 1939,

Validi A, Z. Der Islam und die geegraphische Wissenschaft, GZ, XI, 1934, p. 361 — 372,

(راجع موجزا لها باللغة العربية ظهر بمجلة « المعرفة » المجلد السادس العدد ٧–٨، ابريل – مايو ١٩٣٤ ص ٥٦١ – ٥٧٠).

Validi A, Z, Die Nordvölker bei Biruni, ZDMG, 90, 1936, p, 38 - 51,

Validi A. Z. (Bonn), Die Schwerter der Germanen, nach arabischen Berichten des IX—XI Jahrhunderts. ZDMG, 90, 1936, p, 19 - 37,

Vambéry A., Travels and Adventures of the Turkish Admiral Sidi Ali Reïs ... during the Years 1553—1556. London, 1899,

Van Arendonk, انظر : Arendonk,

Van den Bergh, Simon, انظر : Berg Simon,

Vander Lith انظر : Lith,

Van Vloten, انظر : Vloten

Vila. S., Nombramiento de los gobernadores de la Espagna Musulmana antes de la llegada de los Omeyas, Atti del XIX Congresso Internazionale degli Orientalisti, Rome, 1938 p. p. 542—547.

Vloten, van, Ein arabischer Naturphilosoph im 9. Jahrhundert. Ubersetzt von O. Rescher, Stuttgart, 1918.

Vloten, G., van, Liber Mafâtîh al-olûm explicans vocabula technica scientiarum tam arabum quam peregrinorum auctore Abû Abdallah Mohammed ibn Ahmed ibn Jûsof al-Kâtib al-Khowarezmî. Ed G. Van Vloten, Lugduni Batavorum, 1895.

Vollers, Description de l'Egypte par Ibn Doukmak publié d'aprés le manuscrit autographe conservé à la Bibliothèque Khèdiviale. Kairo 1893.

Vollers Ch., La chronique égyptienne d'Ibn Iyas par Ch. Vollers. (Traduit de l'anglais par M. S. Schmeil). Revue d'Égypt, II. 1895—1896, p. 545- 573.

Vollers K., Ein marokkanischer Druck. ZDMG, 47, 1893, p. 538.

Von Burski انظر : Burski.

Von der Lasa, انظر : Lasa

Von der Linde, انظر : Linde

Von Mzik, راجع : Mzik,

Von Rohr-Sauer انظر : Rohr-Sauer.

Vorlesungen انظر : Goldziher.

Voyage du scheikh et-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant les années 706, 707 et 708 de l'Hégire (1306 - 1309). Traduit de l'arabe par A. Rousseau, JA, 4 série XX, 1852, p. 57—208; 5 série, I, 1853, p. 101- 168, 354 - 426.

Voyages d'Ibn Batoutah, texte arabe, accompagné d'une traduction par C. Defrémery et B. R. Sanguinetti, I—IV, Paris, 1853—1858.

Weijers H. F انظر : Wüstenfeld F, Stammtafel

Weisweiler M., Buntes Prachtgewand : über die guten Eigenschaften Abessiner von Muhammed ibn 'Abdalbâqî al-Buhârî al Makkî, Literarhistorisch untersucht and übersetzt von M. Weisweiler, Hannover, 1924.

Weisweiler, انظر : Al-Hamdani.

Wellhausen J, Das arabischen Reich und sein Sturz. Berlin. 1902.

Wellhausen J., Reste arabischen Heidentums. Gesammelt und erläutert von J. Wellhausen Zweite Ausgabe. Berlin. 1897.

Wensinck A. J., A'sha Hamdan. EI, I, p. 496.

Wensinck A. J., A Handbook of Early Muhammadan Tradition Alphabetically arranged by . . . Leiden, 1927.

Wensinck A, J, Mihna, EI, III, p, 558—559

Wensinck A. J., The Ideas of the Western Semites concerning the Navel of the Earth by A. J. Wensinck. Amsterdam, October, 1919. (Verhandelingen der Kon. Ak. van Wetenschappen te Amsterdam, Afd. Letterkunde, Nieuwe Reeks, Deel XVII, No 1).

Wensinck A. J., The Ocean in the Literature of the Western Semites. Amsterdam, 1918. (Verhandelingen der Kon, Ak. van Wetenschappen te Amsterdam. Afd. Letterkunde. N. Reeks, Deel XIX, No 2).

Wensinck A., Tree and Bird as cosmological Symbols in Western Asia. Amsterdam, 1921. (Verhandelingen der Kon. Ak. van Wetenschappen te Amsterdam, Afd. Letterkunde, M. Reeks, Deel XXII, No 1)

Wensinck A. J., Yadjudj. wa-Madjudj. EI, IV, p. 1236—1237.

White J., Abdallatîf's compendium memorabilium Aegypti ed. J. White (1782), praefatus est H. E. C. Paulus. Tubingae, 1789.

White J., Abdallatîf's historiae Aegypti compendium ar. et lat. partim ipse vertit, partim a Brookio versum edendum curavit J. White. Oxonii, 1800.

Wickerhauser, Wegweiser zum Verständniss der türkischen Sprache. Eine deutsch-türkische Chrestomathie von M. Wickerhauser. Wien, 1853.

Wiedemann E., Anschauungen der Muslime über die Gestalt der Erde. AGNT, I, Leipzig, 1909, p. 310 - 313.

Wiedemann E., Bestimmungen des Erdumfanges von al-Bêrûnî. AGNT, I, Leipzig, 1909, p. 66—69.

Wiedemann E., Definitionen verschiedener Wissenschaften und über diese verfasste Werke. Beiträge, LVII. SBPhMSozErl, 50—51 (1918—1919), 1920, p. 1—32.

Wiedemann E., Geographische Stellen aus den Mafâtîh. Beiträge, XXVII. SBPhMSozErl, 44 (1912), 1913, p, 37—40.

Wiedemann E, Geographisches von al Bêrûnî. Beiträge, XXVII, SBPhMSozErl, 44 (1912), 1913, p. 1—26.

Wiedemann E., Al-Kharaki. EI, II, p. 1027.

Wiedemann E, Al-Khazini. EI, II, p. 1006—1007

Wiedemann E., Al-Khwarizmi, Muhammed b. Musa, EI, II, p. 978—979.

Wiedemann E. Kutb al Din, al-Shirazi Mahmud b. Masud b. Muslih. EI. II, p. 1252—1253.

Wiedemann E., Nasir al-Dîn al Tûsî. Beiträge, LXXVIII. SPBhMSozErl, 60, 1928, p. 289—316.

Wiedemann E., Uber al Bîruûnî und seine Schriften. Beiträge, LX. SBdhMSozErl, 52—53 (1920—1921), 1922, p. 54—96.

Wiedemann E., Über den Abschnitt über die Pflanzen bei Nuwairī. Beiträge, LI. SBPhMSozErl, 48—49 (1916—1917), 1918, p. 151—176.

Wiedemann E., Über die Gestalt, Lage und Bewegung der Erde sowie philosophisch-astronomische Betrachtungen von Quṭb al-Dīn al Schīrāzī. AGNT, III, 1912, p. 395—422.

Wiedemann E., Über Tabit ibn Qurra, sein Leben und Werken. Beiträge, LXIV. SBPhMSozErl, 52—53 (1920—1921), 1922, pp. 198—219.

Wiedemann E., Über von den Arabern benutzte Drogen. Beiträge, XLIX. SBPhMsozErl, 48—49 (1916—1917), 1918, 16—60.

Wiedemann E., Zum Leben von Nasir al Din al Tusi. Beiträge, LXXV, SBPhMSozErl, 58—59 (1926—1927), 1928, p. 363-379.

Wiedemann E. und Frank J., Die Gebetszeiten im Islam, Erlangen, 1925.

Wiedemann E. und Kohl K., Einleitung zu den Werken von al Charaqi, Beiträge, LXX. SBPhMSozErl. (1926—1927), 1928, p. 203-218.

Wiener A., Die Farag ba'd as-Sidda Literatur, Von Mada'ini (+ 225 H.) bis Tanuhi, (+ 384 H.). Ein Beitrag zur arabischen Literaturgeschichte. DI, IV, 1913

Wiet G., Les biographies du Manhal Safi. Le Caire, 1932. Mémoires présentés à l'Institut Egyptien, 19.

Wiet G., Catalogue général du Musée Arabe du Caire, Objets en cuivre. Le Caire, 1932.

Wiet G., Kindi et Maqrizi, BIFAO, XII, 1916, p. 61-73.

Wiet G., Taqi el-din Ahmad ibn 'Ali ibn 'Abd el-Qâdir ibn Muhammed el-Maqrizi, El Mawa'iz wa'l-I'tibar fi dhiker el Khitat wa 'l-âthâr édité par G. Wiet. I—V, Le Caire, 1911—1927, (MIFAO, XXX, XXXIII, XLVI, XLIX, LIII).

Wiet G., Ya'Kubi, Les Pays. Trad. par G. Wiet, (Publ. de l'Institut Français d'Archéol. orientale, Textes et traductions d'auteurs orientaux, 1), Le Caire, 1937.

Wittek P., Zur Geschichte Angoras im Mittelalter, Festschrift für Georg Jacob zum siebzigsten Geburtstag, Leipzig, 1932, p. 329—354.

Wright J. K., The Geographical Lore of the Time of the Crusades. New York 1925. (American Geographical Society, Research Series No 15).

Wright J. K., Notes on the Knowledge of Latitudes and Longitudes in the Middle Ages, Isis, V, 1923, p. 75—98.

Wright R., The Book of Instruction in the Elements of the Art of Astrology by Abu'l Rayhan Muhammed ibn Ahmad al Biruni. Written in Ghaznah, 1029 A. D. Reproduced from Brit. Mus. Or. 8349. The Translation facing the Text by R. Ramsay Wright. London, 1934.

Wright W., The Palaeographical Society. Facsimiles of Ancient Manuscripts. Oriental Series, VII, London, 1882.

Wright W., The Travels of Ibn Jubair, ed. by W. Wright. Leyden, 1852.

Wright William, The Travels of Ibn Jubayr edited from a ms. in the University Library of Leyden by Wright William. Second Edition revised by M. J. de Geoje and printed for Trustees of the "E. J. W. Gibb Memorial". Leyden, 1907 (GMS. V).

Wüstenfeld F., Bahrein und Jemâma. Nach arabischen Geographen beschrieben. Göttingen, 1874. AKGWG, XIX, p. 173—222.

Wüstenfeld F., Die Cufiten in Süd-Arabien im XI (XVII) Jahrhundert. Göttingen, 1883. AKGWG, XXX, 4.

Wüstenfeld F., Die Gelehrten-Familie Muhibbi in Damaskus und ihre Zeitgenossen im XI (XVII) Jahrhundert. Göttingen, 1884.

Wüstenfeld F, Das geographische Wörterbuch des Abu 'Obeid 'Abdallah ben Abd el-Azîz el-Bekri nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand hrsg. von Ferdinand Wüstenfeld, I—II, Göttingen Paris, 1876 1877.

Wüstenfeld F., Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke. Göttingen, 1822 (Aus dem XXVII und XXIX Bande AKGWG).

Wüstenfeld F., Jacut's geographisches Wörterbuch aus den Handschriften Zu Berlin, St. Petersqurg und Paris ... hrsg von Ferdinand, I VI, Leibzig, 1866—1870.

طبعة جديدة بالقاهرة فى ثمانية أجزاء بعناية الشنقيطى ١٣٢٣ هـ — ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ ، مع زيادات تحت عنوان « منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان لمحمد أمين الخانجى » الجزآن التاسع والعاشر القاهرة ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ .

Wüstenfeld F., Jacut's Moschtarik, das ist : Lexicon geographischer Homonyme, Aus den Handschriften zu Wien und Leyden, hrsg. von F. Wüstenfeld, Göttingen, 1846

Wüstenfeld F., Jemen im XI (XVII) Jahrundert. Die Kriege der Türken, die arabischen Imâme und die Gelehrten. Mit einem geographischen Anhange. AKGWG, XXXII, Göttingen, 1884.

Wüstenfeld F., Das Leben Muhammed's nach Muhammed Ibn Ishâk, bearbeitet von 'Abd el-Malik Ibn Hischâm, hrsg. von F. Wüstenfeld, I—II. Göttingen, 1858-1860.

Wüstenfeld F., Die Literatur der Erdbeschreibung bei den Arabern, Zusammengetragen von F. Wüstenfeld. Lüdde und Berghaus Zeitschrift für vergl. Erdkunde, I, Magdeburg, 1842, p. 24—67.

Wüstenfeld F., Stammtafel der Familie Banu-'Asaker. Ein Beitrag zur Geschichte der arabischen Literatur von F. Wüstenfeld. Aus Leydener Handschriften ergänzt H. E. Weijers. Orientalia, II, Amstelodami, 1846, p. 161—194.

Wüsternfeld F, Zakarija Ben Muhammed el-Cazwini's Kosmographie. Erster Theil كتاب عجائب المخلوقات Die Wunder der Schöpfung hrsg. von F. Wüstenfeld. Göttingen, 1849.

Wüstenfeld F., Zakarija Ben Muhammed Ben Mahmud el-Cazwini's Kosmographie. Zweiter Theil كتاب آثار البلاد Die Denkmäler der Länder, hrsg. von F. Wüstenfeld. Göttingen, 1848.

Yakut, The Irshád al-arib ilâ ma'rifat al-adib or Dictionary of Learned Men of Yâqût. Ed. D. S. Margoliouth. I—VII. Leyden - London, 1907-1926.(GMS,VI).

Yamamoto Tatsuro, On Tawalisī described by Ibn Batuta. Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko (the Oriental Library), No 8. Tokyo, 1936, p. 93--133.

Youssouf Kamal, Hallucinations scientifiques (les portulans). Leiden, 1937.

Youssouf Kamal, Monumenta Cartografica Africae et Aegypti par Youssouf Kamal, I—XIII, Le Caire, 1344 - 1357 / 1926- 1938,

Youssouf Kamal, Quelques éclaircissements épars sur mes Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, Leiden, 1935.

Yule H., Cathy and the the Way thither: being a Collection of medieval notices of China, translated and edited by H. Yule, I - II, London, 1866.

Yule H., Cathay and the Way thither; being a Collection of Medieval notices of China, translated and edited by Henri Yule. New edition, revised throughout in the light of recent discoveries by Henri Cordier, I—IV. London, 1913 — 1916.

Yule H - Cordier H, Ibn Batuta's Travels in Bengal and China (circa 1247) London. 1915.

Yver G, Khair al-Din (Barbarossa). EI, II, p. 934—936.

Zaky Mohammed Hassan, Les Tulunides. Étude de l'Égypte musulmane à la fin du IXe siècle 868—905. Paris, 1933

Zayat H., Répertoire de noms de vaisseau et embarcations en Islam. المشرق XLIII, 1949, p 321 — 364.

Zenker J., Th, Das chinesische Reich, nach dem türkischen Khatai-name. ZDMG, 15, 1861, p. 785 805.

Zentralblatt für Bibliothekswesen. Hrsg. unter ständiger Mitwirkung zahlreiches Fachgenossen des In- und Auslandes von Dr. O. Hartwig. Fünfter Jahrgang, Leipzig, 1888.

Zettersléen K. V., Al-Maghribi. EI, III, p. 117—118.

Zettersién K. V., Yahya b. Khalid, Barmakide. EI, IV, p. 1245.

Zichy E., Le voyage de Sallam. Csoma Archivum, 1922, 1/3.

د – المؤلفون الشرقيون

الألوسى ، شكرى : المسك الأذفر فى تراجم علماء بغداد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . بغداد ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠

الأصمعى : أنظر Haffner

اباظه : انظر Huart

ابراهيم بن يعقوب : انظر Kowalski

ابراهيم متفرقه : انظر Mordtmann, Krachkovski

ابن اسحاق : انظر Wüstenfeld, Ibn Ishak

ابن أياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . القاهرة ١٣٠١ هـ – ١٣٠٦ هـ ؛ بولاق ١٣١١ هـ – ١٣١٢ هـ :

: انظ Sobernheim, Vollers, Langlès, Kahle, Devonshire

ابن بطلان : انظر Schacht, Brockelmann

ابن بطوطه : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . درس ومنتخبات بقلم فؤاد افرام البستانى . الروائع ، رقم ١٣ – ١٥ . بيروت ١٩٢٧ : انظر Defrémery, Aga Mahdi Hussain ر.م. جودت, Fischer, Dvorac, Moura, Janicsek, Gibb, Yamamoto, Mzik, Yule - Cordier,

ابن البلخى : فارس نامه ، انظر Nicholson, The Farsnama

: انظر Le Strange

ابن جبير : انظر Wright, Schiaparelli

ابن الجيعان : انظر Moritz

ابن حوقل : انظر De Goeje, B G A, II

ابن خرداذبه : انظر De Goeje, B G A, VI

: انظر Rozen

ابن الخطيب : انظر Simonet

ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ١٨٧٩ ، ١٩٠٠

: المقدمة ، الترجمة :

M. G. de Slane, JA, 4 série, III, p. 187 sui., 291 sui., 325 sui., Paris, 1844.

طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ .

طبعة جديدة مع مقدمة بقلم G. Bouthoul. Paris, 1922 — 1923

: انظر Prolégomènes, Mahmassani, T. Hussein, Van Arendonc, V. d. Bergh, Bel
وعمر فروخ

ابن خلكان : انظر De Slane

أبو الفدا : انظر Guyard, Géographie d'Aboul féda Abulfedae, Reinaud et De Slane, Mühlinen, De Slane,

أبو الفرج الاصفهانى : كتاب الأغانى ، ١ — ٢١ . مصر ١٣٢٣ هـ .

Tables alphabétiques du Kitab al-Aghani rédigées par I. Guidi, Leide, 1900

أبو معشر : انظر Shangin

أحمد باشا : انظر Huart

أحمد جودت : سيدى على ريس ، مرآت الممالك . اقدام : استنبول ١٣١٣ هـ . ترجمة مختصرة بالفرنسية بقلم M. Morris, JA, IX-X, 1826 . راجع تعليق C. Schefer على الترجمة فى Chrestomatie persane, II, Paris, 1885, p. 220 sui.

أحمد زكى باشا : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لإبن فضل الله العمرى بتحقيق الأستاذ أحمد زكى باشا . الجزء الأول ، القاهرة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ .

حمد بن زنبل الرمال : تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب. مخطوطة Bodl., I, 892

اخوان الصفا : انظر Al-Hashimi, Goldziher, Dieterici .

: اخوان الصفا وخلان الوفا ١ — ٤ . بمباى ١٣٠٥ هـ — ١٣٠٦ هـ

الادريسى : انظر Volin, Furlani, Günther, J. M. Hartmann, Jaubert, Kramers, Lewicki ، Pardi, Meyerhof, O. J. Tallgren, De Slane, Saavedra, Tuulio, Tomaschek

أسامة بن منقذ : انظر Salié, Krachkovski

اسماعيل عاصم جلبى زاده : عجائب اللطائف . استنبول ١٣١١ هـ .

الأصطخرى : انظر Kmosko, De Goeje

اعشى همدان : انظر Wensinck

قرام : انظر Krachkovski ، شيخو ، Guidi

الأكفانى : انظر Sprenger

الياس الموصلى : انظر Rabbath

أمين أحمد رازى : انظر Denison Ross

أمين الريحانى : ملوك العرب . رحلة فى البلاد العربية تشتمل على مقدمة وثمانية أقسام مزينة بالخرائط والرسوم ، ١—٢ بيروت ١٩٢٤ · ١٩٢٩

باشا ، قسطنطين الباشا : نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبى بقلم ولده الشماس بولس . عنى بنشرها الخورى قسطنطين باشا . حريصه (لبنان) ، ١٩١٢ .

البتانى : انظر Nallino

البستانى : انظر ابن بطوطة

بطرس نصرى وادى صلوبا : نبذة تاريخية فى بعض مشاهير طائفة الكلدان الكاثوليكية . المشرق، المجلد الرابع، ١٩٠١، ص ٨٤٧—٨٥٥

البغدادی : انظر W. Marçais

البكرى : انظر Wüstenfeld, De Slane, Rozen, Kunik

البلاذری : انظر Al-Beladsori

بولص الحلبی : انظر باشا Golosov, و حبيب الزيات Radu, Murkos,

البيرونی : كتاب الجماهر فی معرفة الجواهر . حيدر أباد ١٣٥٥ ه

: كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم (طبعة مصورة مرفقة بترجمة انجليزية عن مخطوطة المتحف البريطانی . انظر : (R. Wright, the Book

: انظر Sachau, Semenov, Fiorini, Krause, Kraus, Rozen, Krachkovski, Zaleman Meyerhof, Krenkow, R. Wright, Wiedemann, Validi'

پيری ريس : انظر Taeschner, Menzel, Kahle

التجانی : انظر Roussear, Plessner

التمجروتی : انظر Lévi-Provençal, De Castries

الترثانی : الخبر التام فی حدود الأرض المقدسة وفلسطين والشام . مجموعة أحمد تيمور القاهرة .

التنوخی : كتاب الفرج بعد الشدة ، ١ - ٢ ، القاهرة ١٩٠٣ — ١٩٠٤ .

تيمور ، أحمد : قبر الامام السيوطی وتحقيق موضعه . القاهرة ١٣٤٦ ه

ثابت بن قرة : انظر Wiedemann

الجاحظ : كتاب الحيوان . القاهرة ١٣٢٣ ه — ١٣٢٤ ه

: انظر Al-Djahiz, EI, I, p. 1043 - 1044 ، Asin Palacios ، الكرملی و عبد الوهاب ، Van Vloten

جامع التواريخ : راجع Romaskevich

الجبرتی : عجائب الآثار فی التراجم والأخبار ، ١ - ٤ . القاهرة ، ١٢٩٧ ه . انظر El Djabarti

جرجس المنذی صفا : تعريف ببعض مخطوطات مكتبتی . المشرق ، المجلد السادس عشر ، ١٩١٣ ، ص ١٦٨ - ١٧٨ و ٢٦٧ - ٢٧٦ و ٤٣٥ - ٤٤٦ و ٥٧٨ - ٥٩٠ .

جرير : انظر Bevan

جعفر الحسنی : نقد لكتاب — Damas de 1075 à 1154 par Roger le Tournean. Damas, 1952 RAAD, XXIX, 1954, p. 124-125

جمال الدين أبو المعالی محمود بن علی بهاء الدين الآلوسی شكری : انظر الآلوسی ، شكری

جودت : ذيل علی فصل الفتيان الأخی التركی فی كتاب الرحلة لإبن بطوطة استنبول ١٩٣٢ .

جوينی : انظر Djuwaini, Bartold

الجيهانی : انظر Janicsek

چلبی ، د . : ابناء ماجد النجديون . لغة العرب ، الجزء التاسع ١٩٣١ ، ص ٤٠١ - ٤١٢ .

: كتاب مخطوطات الموصل . بغداد ، ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ .

حاجى خليفه : جهاننما . استنبول ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢

: جهان نما Zur Geschichte des Djihan numa. MSOS, XXIX, 1926, 2, p. 99 sui.

: انظر Flügel, Lexicon bibliogaphicum, Mordtmann, Mitchell, Hammer, Wiedemann

حافظ آبرو : انظر Bartold

حبيب الزيات : Les Couvents Chrétiens en terre d'Islam . المشرق ، المجلد السادس والثلاثون ، ١٩٣٨ ، ص ٢٩١ — ٤١٨ .

: نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبى بقلم ولده الشماس بولس . المشرق المجلد الثلاثون ، ١٩٣٢ ، ص ٥٦١ — ٥٧٤

: فى تاريخ مملكة حلب : المشرق ، المجلد الثانى والثلاثون ، ١٩٣٤ ، ص ٥٠٥ — ٥٠٩

: خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا . حريصة ، ١٩٣٢

« حدود العالم » : مخطوطة Tumanski ، مع مقدمة وفهرس بقلم V. Bartold لينغراد ١٩٣٠ . انظر Minorsky

حسان بن ثابت : انظر Hirschfeld

حسن بن أحمد الهمدانى : انظر Peiser, Nöldeke

حسن حسنى عبد الوهاب : التبصر بالتجارة ، للجاحظ . RAAD, XII, 1932, p. 321-355

حمد الله مستوفى : انظر Le Strange

الحميرى : انظر Lévi-Provençal

الخازنى : انظر Wiedemann, Khanykov

خليل الظاهرى : انظر Ravaisse

الخوارزمى : انظر Miller, Kramers, Volin و Suter, Nallino, Mzik, Wiedemann, Van Vloten

الخيارى : انظر Tuch, Seetzen

خير الدين : انظر Yver

درويش محمد افندى : انظر Senkovski

الدمشقى : انظر Mehren, Dehérain, Brockelmann

الدينورى : انظر Abu Hanifa, Girgas

الذهبى : انظر Somogyi

الرازى : انظر Abdul Muqtadir و Haft-iqlim, Bertels و Lévi-Provençal

رباط : الآثار النصرانية فى اميريكا المتوسطة والجنوبية نقلا عن رحلة أول سائح شرق إلى أميريكا عنى ... الأب انطون رباط اليسوعى . المشرق ، المجلد التاسع ، ١٩٠٦ ، ٧٣ — ٨٠

: رحلة أول سائح شرقى إلى أميريكا (١٦٦٧ — ١٦٨٣) . عنى ... الأب أنطون رباط اليسوعى . المشرق ، المجلد الثامن ، ١٩٠٥ ، ص ٨٢١ — ٨٣٤ و ٨٧٥ — ٨٨٦ و ٩٣١ — ٩٤٢ و ٩٧٤ — ٩٨٣ و ١٠٢٢ — ١٠٣٣ و ١٠٨٠ — ١٠٨٨ و ١١١٨ — ١١٢٩ .

« رحلة القاص خضر الكلداني » : انظر شيخو

رضا قلي خان : انظر Riza Qouly Khan

الزبيدي : انظر Brockelmann

الزركلي ، خيرالدين : الأعلام . قاموس تراجم ، ١ — ٣ . مصر ١٣٤٥ هـ ١٣٤٨ هـ = ١٩٢٧ — ١٩٢٨ .

زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين . القاهرة ، ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧

الزلاتة : انظر Lévi-Provençal

الزمخشري : انظر Salverda de Grave

الزهري : انظر Griffini

الزياني : انظر Salmon, Lévi-Provençal, Coufourier

زيدان ، جرجي : كتاب تاريخ أدب اللغة العربية . تأليف جرجي زيدان ، ١ — ٤ . القاهرة ١٩١١ — ١٩١٤ ، فهارس عامة . القاهرة ، ١٩٢٢ .

السرخسي : انظر Rosenthal

سركيس : صاحب رحلة أول عراقي الى امريكا . لغة العرب ، الجزء التاسع ، ١٩٣١ ، ص ٤٤٧ — ٤٥٩

سليمان : انظر De Saussure, Sarton

السمعاني : انظر Margoliouth

سيدي علي : انظر Bonelli

سيدي علي ريس : انظر أحمد جودت، Vambery, Süssheim, Kahle,

السيوطي : انظر Le Strange, Brockelmann وأحمد تيمور

: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ١ — ٢ . القاهرة ، ١٢٩٩ هـ .

شكيب ارسلان : كتاب الأكليل للهمداني . RAAD, X, 1930, p. 439-444

الشنقيطي : انظر .... Wüstenfeld, Jacut's

الشوكاني ، محمد بن علي : نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار ، ١ — ٨ . بولاق ١٢٩٧ هـ

الشيخ الطنطاوي : انظر Krachkovski

شيخو ، لويس اليسوعي : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، الجزء الأول (١٨٠٠ — ١٩٠٠) ، بيروت ١٩٠١ ، الجزء الثاني (١٨٧٠ — ١٩٠٠) ، بيروت ١٩١٠ . الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٢٤ ؛ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين . المشرق ، المجلد الثالث والثلاثون إلى المجلد الخامس والثلاثون ، ١٩٣٢ — ١٩٣٤ .

: وصف طورسينا وابنيته . المشرق ، المجلد التاسع ، ١٩٠٦ ، ص ٧٣٦ — ٧٤٣ ، ٧٩٤ — ٧٩٩ .

: فريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبري . المشرق ، المجلد الأول ، ١٨٩٨ ، ص ٢٨٩ — ٢٩٥ ، ٣٦٥ — ٣٧٠ ، ٤١٣ — ٤١٨ ، ٤٤٩ — ٤٥٣ ، ٥٠٥ — ٥١٠ ، ٥٥٥ — ٥٦١ ، ٦٠٥ — ٦١٢ .

: كتاب شعراء النصرانية بعد الإسلام ، قسم ١ – ٤ ، بيروت ، ١٩٢٤ – ١٩٢٧ .

: مجانى الأدب ، ١ – ٤ ، بيروت ، ١٨٩٩ – ١٩٠٠ .

: مريم العذراء فى الشعر العامى . المشرق ، المجلد السابع ، ١٩٠٤ ، ص ١٠٨٧ – ١٠٩٩ .

: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية المشرق ، المجلد الثانى والعشرون ، ١٩٢٤ ، ص ٨٧ – ٩٥ ، ٢٦٢ – ٢٦٥ ، ٣٥١ – ٣٦٣ ، ٥٣٦ – ٥٤٧ .

: رحلة إبراهيم الحكيم الحلبى إلى مصر . المشرق ، المجلد العاشر ، ١٩٠٧ ، ص ٥٥٩ – ٥٦٤ ، ٥٨١ – ٥٨٦ ، ٧٠٨ – ٧١٤ .

: رحلة خليل الصباغ إلى طورسينا . المشرق ، المجلد السابع ، ١٩٠٤ ، ص ٩٥٨ – ٩٦٨ ، ١٠٠٣ – ١٠١٢ .

: تاريخ فن الطباعة فى المشرق . المشرق ، المجلد الثالث ، ١٩٠٠ ، ص ٧٨ – ٨٥ .

: رحلة القاضى خضر الكلدانى من الموصل إلى روميه . المشرق ، المجلد الثالث عشر ، ١٩١٠ ، ص ٥٨١ – ٥٩٢ ، ٦٥٦ – ٦٦٨ ، ٧٣٥ – ٧٤٤ – ٨٣٥ – ٨٤٣

صادق الأصفهانى : انظر Ouseley

صالحانى : انظر Salihani

الصفدى : انظر Krenkow

صور أقاليم سبعة : انظر Miklukho — Maklai

طاشكبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، ١ – ٢ ، حيدر أباد ، ١٣٢٨ هـ – ١٣٢٩ هـ .

الطبرى : انظر At-Tabari

الظاهرى : انظر Hartmann

عباس العزاوى : تاريخ علم الفلك فى العراق وعلاقته بالأقطار الإسلامية والعربية (فى العهد العثمانى) . RAAD, 1954 ، ص ٨٩ – ١٠٣ ، ٢١٩ – ٢٣٨ ، ٢٩٧ – ٤٠٥ ، ٥٥٣ – ٥٦٢ .

العباس بن على بن نور الدين المكى الموسوى الحسنى : نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ، ١ – ٢ القاهرة ، ١٢٩٣ هـ ١٣٢٣ هـ

عباس محمود العقاد : الفصول ، القاهرة ، ١٩٢٢

عبد الباقى البخارى المكى : انظر Weisweiler

عبد الرحمن الصوفى : انظر Schjellerup

عبد الرحمن بن عوف : انظر Houtsma

عبد الرزاق : انظر Macdonald

العبدرى : انظر Mohammed Ben Cheneb, Cherbonneau, Brockelmann و Hoenerbach

عبد اللطيف ، انظر De Sacy, White, و Houtsma

عبد الغنى : انظر Gildemeister و Brockelmann

عبد الواحد : انظر Abd al-Wahid

عبد الوهاب : كتاب التبصر بالتجارة للجاحظ . RAAD, XII, 1930 ، ص ٣٢١ – ٣٥٥ .

العبرى ، غريغوريوس : انظر شيخو .

عبيد بن الأبرص : انظر Lyall

عرام السلمى : انظر Rellemeyer

عز الدين علم الدين : خزائن الكتب العربية : RAAD, VIII, 1928 ، ص ٤٤٩ – ٤٥٣ .

على : انظر Süssheim

على (سيدى على) : انظر Süssheim

على أميرى : عجائب اللطائف ، انظر : اسماعيل عاصم .

على الشابشتى : انظر Sachau

على الشرقى : انظر Nallino

العليمى : انظر Brockelmann

عمر فروخ : دراسة عن مقدمة ابن خلدون . ألفها أبو خلدون ساطع الحصرى مصر ، ١٩٥٣ . RAAD XXIX, 1954
ص ٦٧ – ٧٦ ، ٢٠٣ – ٢١٥ .

العمرى : مسالك . . . انظر أحمد زكى باشا ، Fadl Allah , Hartmann
: انظر Al-Umari , Taeschner, Shiaparelli,

عنان ، محمد عبد الله : مصر الإسلامية . القاهرة ١٩٣١ .

عنحورى ، سليم : نزهة الأنام فى محاسن الشام تأليف أبى البقاء عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشق . طبع فى المطبعة السلفية بمصر على نفقة ناشره السيد نعمان الأعظمى صاحب المكتبة العربية ببغداد ، ١٣٤١ هـ . RAAD, IV, 1924
ص ٣٢٧ – ٣٣٠ ، ٣٩٢ – ٣٩٩ .

العوفى : انظر Browne , Awfi, Muh. Nizamud-din,

العياشى : ماء الموائد ، ١ ، ٢ طبعة حجر ، فاس ١٨٩٨ .
: انظر Berbrugger , Ben Cheneb, Mohammed

عيسى اسكندر المعلوف : أثر قديم للبطريرك مكاريوس بن الزعيم . المشرق ، المجلد الحادى والثلاثون ، ١٩٣٣ ،
ص ٩١١ – ٩٢٠ .

: نخبة من ديوان ابراهيم الحكيم الحلبى . المشرق ، المجلد العاشر ، ١٩٠٧ ، ص ٨٣٣ – ٨٤٤ ، ٨٩٠ ، ٨٩٧ ،
١٠١٧ – ١٠٢٦ ، ١١١٠ – ١١٢٠ .

: خزائن الكتب العربية . من نفائس الخزانة البارودية الكبرى فى بيروت . RAAD, V, 1925
، ص ٣٢ – ٣٤ ، ١٨٧ – ١٩٠ ، ٢٢٣ – ٢٢٥ .

: الخزائن الكتب العربية . من نفائس الخزانة التيمورية RAAD III, 1923, No 11-12 ،
ص ٣٣٧ – ٣٤٤ .

العينى : انظر Marçais

الغرناطي : Dubler, C, E, و Ferrand, Jacob, Moncada

الغزى : كتاب نزهة العيون فى أربعة فنون . RAAD, IX, 1929 ص ٦٨١ – ٦٨٧ ، X 1930, ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

الفسائى : انظر Sauvaire

الفاسى : انظر Mahammed Ben Chenb

الفخرى : انظر Derenbourg,

فرحات : انظر Krachkovski

الفرغانى : انظر Golius, Suter

الفردوسى : الشاهنامة . نظمها بالفارسية أبو القاسم الفردوسى ، ترجمها نثرأ الفتح بن على البندارى وقارنها بالأصل الفارسى وأكمل ترجمتها فى مواضع وصححها وعلق عليها وقدم لها عبد الوهاب عزام . الطبعة الأولى ، ١ – ٢ القاهرة ، ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ .

الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون . دمشق ، ١٣٤٨ هـ ؛ القاهرة ، ١٣٥٤ هـ (الرسائل التاريخية ، 1) .

الفهرست : انظر Krachkovski, Rozen, Flügel, Fück, Ritter,

القانونى ، جرجس افندى : تعريف ببعض مخطوطات مكتبتى . المشرق ، المجلد السادس عشر، ١٩١٣ ، ص ١٦٨ – ١٧٧ ، ٢٦٧ – ٢٧٦ ، ٤٣٥ – ٤٤٦ ، ٥٧٨ – ٥٩٠ .

قدرى حافظ طوقان : ابن ماجد أسد البحر الهائج . الرسالة ، العدد ٩٣ ، السنة الثالثة، ١٥ /٤/١٩٣٥ ، ص ٦٣٣ – ٦٣٦.

القرآن : المتن العربى مع الترجمة الروسية بقلم G. S. Sablukov . الطبعة الثالثة ، قازان ، ١٩٠٧ .

قزوينى ، حمد الله مستوفى : انظر Petrushevski و Büchner

القزوينى ، زكريا : عجائب المخلوقات ، انظر Wüstenfeld

: آثار البلاد ، انظر Wüstenfeld

: انظر Ansbacher , Streck,

قصى : انظر Levi della Vida

قطب الدين الشيرازى : انظر Wiedemann

القلقشندى : انظر Tizengauzen و Björkman

القليوبى : انظر Brockelmann , Garrett

القوشجى ، على بن محمد : انظر Brockelmann, GAL, II p. 234 sui, SB II, p. 329-330; Bel, EI, I, p. 304

القيروانى ، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم بن أبى دينار الرعينى القيروانى ، انظر E. Pélissier et Rémusat, و Maalouf

القيسرانى : انظر De Jong

كامل الغزى : انظر الغزى .

كتاب الأغانى : انظر أبو الفرج الأصفهانى .

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . انظر Prolégomènes

الكرديزى : انظر Bartold

الكرملى ، أنستاس : نظرات فى كتاب التبصر بالتجارة . RAAD, XIII, 1933 ، ص ٢٨٧ — ٢٩٥

الكرى : نفائس الآثار ، RAAD, 1921 ، ص ٣٣ — ٣٥

كرنكو ، ف : الجزء الثامن من كتاب الأكليل ، لغة العرب ، المجلد التاسع ، ١٩٣١ ، ص ٢٩١ — ٢٩٢ . ونفس المصدر ص ٦٢٦ — ٦٢٧ .

: ماذا يقول الأعاجم ، RAAD, XIII, 1935 ، ص ٤٢١ — ٤٢٢ .

الكلدانى : لمحة تاريخية فى مشاهير طائفة الكلدان الكاثوليكية . بقلم . . . . الكلدانيين . المشرق ، المجلد الرابع ، ١٩٠١ ، ص ٨٤٧ — ٨٥٥ .

كال ريس : انظر Von Burski

الكندى : انظر Guest

لبيد : انظر Brockelmann - Huber والخالدى

ليون الأفريقى ، الوزّان الزيّاتى : انظر Schefer , Giovanni Leone و Massignon

المتبى : انظر Brockelmann,

محمد البيلاوى : فهرس لأسماء الأعلام وفهرس لأسماء البلدان والجبال والأنهار الواردة فى الجزوين . على جمعها وترتيبها العالم الفاضل السيد محمد البيلاوى أمين دار الكتب المرية بوقتها ونقيب الأشراف بمصر . بولاق ، ١٣١٤ ه

محمد حسن خان : مرآة البلدان ، ١ — ٤ طهران ١٢٩٣ ه — ١٢٩٦ ه = ١٨٧٦ — ١٨٧٩

: انظر Minorsky

محمد خوانشاه (ميرخوند) : أنظر Rehatsek

محمد بن شنب : نزهة الانظار فى فضل علم التاريخ والأخبار . الرحلة الورثيلانية . الجزائر ، ١٣٢٦ — ١٩٠٨

محمد القيروانى : انظر Pelliot

محمد كرد على : خطط الشام ، ١ — ٤ ، دمشق ، ١٣٤٣ ه — ١٣٤٨ ه

محمد المُقْرى : انظر Motylinski

محمد المهدى الحجوى : حياة الوزان الفاسى وعصره . الرباط ، ١٣٥٤ ه = ١٩٣٥ . النقد : أنظر Colin

محمد نجيب بكران : انظر Romaskevich

محمد بن يحيى الهاشمى : مجلة اليقين . بغداد ١٩٢٢ — ١٩٢٥ .

محمد يونس الحسينى : أثر خالد فى تاريخ الفكر العربى . كتاب الفهرست لابن النديم . RAAD, XI,1931 ، ص ٦٧٨ — ٦٨٧

المحاسى : الرحلة . الجزائر ، ١٠٦٤ — ١٠٦٥ .

المدائنى : انظر Wiener

المرادى : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، ١ — ٤ ، بولاق ١٢٩١ ه — ١٣٠١ ه

مرآة الجنان وعبرة اليقظان : انظر اليافعى .

المراكشى : انظر Dozy

المسعودى : انظر De Goeje, BGA, Al-Maçoudi, Carra de Vaux,

: المروج . انظر Charmoy, Barbier de Meynard

المعلوف : انظر عيسى اسكندر المعلوف .

المغربى : مطبوعات حديثة . المراح فى المزاح : RAAD XI, 1931 ص ٣١٨ – ٣١٩ .

: محمد والمرأة . دمشق ، ١٩٢٩ .

المقدسى : انظر Fischer, De Jong

المقدسى : انظر De Goeje, BGA

: انظر Ranking, Kramers, Koenig

مقديش : انظر Nallino

المقرى : انظر Al-Makkari, Lévi-Provençal,

المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ١ – ٢ ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ .

: انظر Brockelmann, Graefe, Wiet, Quatremère, Guest

مكاريوس الأنطاكى : انظر باشا Juze, (جوزى) ، حبيب الزيات ، Lebedeva ، عيسى اسكندر المعلوف ، Murkos (مرقس) ، Saveliev, S. Smirnov, Iatzimirski, Belfour, Radu,

مناش : المناهج فى وصف المباهج لحضرة القس الفاضل جرجس مناش المارونى الحلبى . المشرق ، المجلد العاشر ، ١٩٠٧ ، ص ٧٢١ – ٧٢٩ ، ص ٧٧٤ – ٧٨٦ .

منجم باشى : انظر Kramers

المهدى الحجرى : انظر Colin

ميرزا أبو طالب خان بن حاجى محمد بك خان : مسير طالبى فى بلاد افرنجى . ترجمه إلى الإنجليزية Stewart ، لندن ، ١٨١٤ C. Macfarlane, كلكتا (مختصراً) ، ١٨٢٧ .

النابلسى : انظر Gildemeister ، Kremer, Moritz, Salmon

ناصر خسرو : انظر Bertels

النديم : انظر Flügel ، Fück ومحمد يونس الحسينى .

نصير الدين الطوسى : انظر Wiedemann

النعمة : صحيفة كانت تصدرها البطريركية الأنطاكية بدمشق ١٩٠٩ – ١٩١٥ .

النوبختى : انظر Massignon

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب . تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، ١ – ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٣ – ١٩٢٥ .

: انظر Krachkovski

الهمدانى : الاكليل ، انظر Krenkow, Löfgren, Müller و شپخر و Pelser

الهروى : انظر Bloch

الوأواء : انظر Krachkovski

الورثيلانى : انظر محمد بن شنب

اليافعى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الإنسان وتاريخ موت بعض المشهورين الأعيان . ١ — ٤ ، حيدر اباد ، ١٣٣٧ ه ٠ ١٣٣٩ ه .

ياقوت : المعجم ، منجم ، انظر Wüstenfeld

: إرشاد ، انظر Margoliouth

: مراصد ، انظر Juynboll

: كتاب المشترك ، انظر Wüstenfeld

يحيى بن خالد : انظر Zetterstéen

يحيى بن عدى : انظر Périer .

اليعقوبى : انظر De Goeje, BGA, VII

: انظر Wiet

تنبيـــــــه

بعد صدور الجزء الأول من كتاب « تاريخ الأدب الجغرافي » لاحظ بعض السادة القراء أن بالكتاب من الأقوال ما لا يتفق مع العقيدة الإسلامية ، فعهدت الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية إلى الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن بمراجعة الكتاب والتعليق على ما فيه من أقوال ودعاوي ، عن القرآن الكريم والإسلام .

تعليق

بقلم

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)
الأستاذة بجامعة عين شمس

من الإنصاف أن أقرر – بتقدير صادق – أن هذا الكتاب يحمل أثر جهد شاق صابر ، وثمرة عمل مخلص دائب استغرق نحو ثلث قرن من الزمان ، أمضاه الأستاذ «كراتشكوفسكي» فى جمع مادته الخصبة عن تاريخ الأدب الجغرافى للعرب ، من الإيماءات الأولى فى قديم ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى ، إلى قريب من العصر الحديث .

وواضح أن العنصر الجغرافى ، يكاد يكون العنصر الجوهرى الأول فى الكتاب ، إذ يتجه العمل فيه إلى استخلاص المادة الجغرافية من تراث العرب الأدبى ، ثم من رحلاتهم ومؤلفاتهم فى العلم الجغرافى . وقد يبدو أن هذا بعيد عن مجال تخصص «الأستاذ كراتشكوفسكى» فى الأدب العربى وتاريخه ، لكن المتعمقين فى دراسة العربية ، يقدرون أن الأدب خيط من نسيج الحياة العامة ، ويدركون مدى ارتباطه الوثيق بحضارة الأمة فى مختلف فروعها وشتى أنواع نشاطها .

ومن هنا لم يجز عند المستشرق «كراتشكوفسكى» أن يدرس الأدب بمعزل عن التاريخ الحضارى للعرب ، فكانت عنايته بتاريخهم الجغرافى ضرورة لا غنى عنها ، لفهم عقليتهم وأمزجتهم وتصوراتهم .

وهذا هو ما يبرر أيضا ، اشتغالى بالنظر فى هذا الكتاب والتعليق عليه ، على ما يبدو فى الظاهر من بعد الجغرافيا عن مجال تخصصى فى دراسة العربية والإسلام ، على أنى حريصة مع ذلك ، على ألا أتناول منه إلا ما هو من صميم اختصاصى فى نصوص العربية ولا سيما كتابها الأكبر : القرآن الكريم .

وفى كتاب «كراتشكوفسكى» أقوال خاطئة فى الإسلام والقرآن الكريم ، نخالفه فيها ونؤاخذه عليها بمنطق العلم . وأعترف مع ذلك بأنه من أحرص المستشرقين على ضبط قلمه من جموح الهوى وضلال التعصب ، ولعل الذى فى كتابه من مآخذ ، لا يخرج عن كونه أخطاء لا ينجو من مثلها دارس يتخصص فى غير لغته ، وينظر فى نصوص دينية متأثراً بموقفه من الأديان ورأيه فى إلهية كتبها . ومهما تبلغ فداحة هذه الأخطاء ، فالذى أطمئن إليه هو أنه تورط فيها عن غير عمد ، بسبب قصور فى منهجه جعله يقول فى القرآن الكريم بمنطق عقيدته ومذهبه ، وعجزه أحيانا عن إدراك سر العربية فى التعبير ، ولمح خصائصها البيانية فى كتابها المعجز .

* * *

وأحتاج إلى إطالة النظر فيما كتب الأستاذ «كراتشكوفسكى» عن القرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر الجاهلى ، وذلك فى الفصل الأول : «الجغرافيا عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية

الأولى » إذ يبدو أن هذا الفصل بوجه خاص ، هو الشوط الحرج من رحلة المؤلف عبر تاريخنا الجغرافى ، وذلك بحكم تعلقه بعصر ظهور الإسلام ، حيث لم يستطع الأستاذ المؤلف أن ينجو من عقدة إقحام العقيدة الدينية فى البحث العلمى الجغرافى .

وأقرر بادئ ذى بدء أننى لا أحاول هنا أن أناقش المستشرق الروسى بمنطق العقيدة ، أو أن أرد عليه بأدلة شرعية تلزمنا ولا تلزمه ، وإنما أناقشه بمنطق البحث العلمى الحر ، وأحتكم فيما أخالفه فيه إلى أصول منهجية ملزمة لكل من يتصدى للبحث ، مهما تكن ملته ومذهبه ؟

(١)

محمد والقرآن

وبهذا المنطق العلمى المحرر ، لقف أولا عند هذه العبارات عن محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، وقد قال فيها المؤلف — بعقيدته لا بعلمه — ما نصه :

« . . ومن الجلى أن محمداً كان رجلا أمياً . وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيراً ، لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد بطريق السماع » . صفحة ٤٥ فقرة ٢ .

« وهى فى مجموعها لا تكشف عن صعوبات خاصة ، ولكن تتبع مظانها ومصادرها والملابسات التى أحاطت بظهورها أمر جد عسير ، لأن المؤثرات التى عملت فى محمد وصقلت شخصيته متنوعة للغاية ، وأثرت فيه بطرق متعددة متضاربة » ٤٥ ف ٢ .

« والمادة الجغرافية فى القرآن طفيفة على وجه العموم ، أضف إلى هذا أنه لا يمكن اعتبارها دائماً انعكاساً لمادة عربية بحتة . . . غير أنه مما يزيد صعوبة تحليل هذه المادة بشكل خاص هو أن مغزى القصص الواردة فى القرآن لم يكن على الدوام واضحاً حتى لمحمد نفسه ، وهو قد التجأ عن قصد إلى العبارات الغامضة والأساليب المبهمة ، كما يتضح فى أكثر من موضع من القرآن » ٤٥ / ٣ .

« . . فإن مثل هذا التفسير — لآيات البحرين فى القرآن — يفترض فى محمد معرفة كافية بجنوب العراق ، وهو فرض لا يتفق مع الرواية التاريخية .

« ٥ . وهي فكرة متداولة بين الساميين الغربيين ، وعرفها محمد ولو بصورة مبهمة ؟

« ومما زاد فى اللبس أكثر ، أن هذه المسألة — المتعلقة بالبحرين — لم تكن واضحة لمحمد نفسه ، وأن ألفاظه فى عدد من المواضع تحمل طابع الغموض » . ص ٤٨

« وأخبار يأجوج ومأجوج ترجع إلى التوراة ، ولعلها وصلت إلى محمد عن طريق الأساطير السريانية المتعلقة بالإسكندر . » ص ٥٠ ف ١ .

بمثل هذا الإصرار ، يتحدث المؤلف عن القرآن الكريم ، متأثراً بعقيدته فى أنه كلام محمد عليه الصلاة والسلام . وقد جهد المستشرقون قبله فى الحديث عن صنع محمد — صلعم — لهذا القرآن ، لكن كان الظن بمثل « كراتشكوفسكي » أن ينأى ببحثه عن كل ما يتعلق بالدين ، وهو من قوم قد اطمأنوا منذ ثورتهم إلى إخراج المسألة الدينية من الحياة . وكتابه قد تم تأليفه عام ١٩٤١ بعد نحو ربع قرن من تلك الثورة ، ومع ذلك لم يبرأ منطقه من هذه اللوثة التى تسم عمل الجمهرة من المستشرقين ، وتعطى لمتهميهم كل الحق فى إنكار صنيعهم ، وعدم نزاهة بحوثهم ، بل فسادها منهجيا وعلميا .

وواضح كل الوضوح أن القضية فى هذا قضية دينية بحتة : نحن المسلمين نعتقد أن القرآن من وحى الله تعالى ، وهو وهُم ، يعتقدون أن القرآن من صنع محمد نفسه ، وليس البحث الجغرافى أو مثله فى القرآن الكريم مسألة دينية يشوش فيها على عقيدة المؤمنين بإلهية القرآن ، أو تُنصر فيها عقيدة منكريها . فأبسط ما يقضى به المنهج العلمى ترك القول فى هذه الناحية تركا تاما ، ولهم أن يقولوا فى النص الذى أمامهم ما يريدون أن يقولوا . ثم نناقشهم فيما قالوا مناقشة علمية محضة ، تبين صحة أقوالهم فى النص أو فسادها .

وعلى هذا الأساس الواضح الحر ، يبدو أن كل ما ساق « كراتشكوفسكى » من أقوال مكررة عن معارف محمد الجغرافية ، ومصادرها ، وألفاظه وأساليبه فى القرآن ، وما إلى ذلك . . . لا محل له فى البحث الجغرافى . ويجب استبعادها تماما ، وتقرير أنها ليست إلا من التجنى الذى يتهم بحث الباحثين وإخلاصهم العلمى .

وكما أننا لا نستطيع أن نلزم كراتشكوفسكي بعقيدتنا فى القرآن وحيا منزلا ، لا يستطيع هو أيضا أن يقحم على البحث عقيدته فى أن هذا القرآن من صنع محمد عليه الصلاة والسلام .

وإذن فقد كان ينبغى أن يتجرد للبحث الجغرافى فى النص القرآنى متحرراً من سيطرة

مذهبه ، يمكن أن نلتقي جميعاً على أصول منهج حر ، وضوابط علمية في النظر والمناقشة ، دون تدخل من عقيدة أو مذهب ، لا نلتقي عنده أبداً . . .

* * *

وهذا الإقحام للمسألة الدينية في البحث ، هو المسئول عن أخطاء علمية تورط فيها المؤلف من حيث يدرى ولا يدرى .

فاعتقاده أن القرآن من كلام محمد ، جره إلى محاولة الربط بين المادة الجغرافية في القرآن وبين الثقافة المتاحة لمحمد — صلعم في بيئته وعصره ، فلما تعذر عليه ذلك ، مضى يلتمس العلل ويتكلف الأسباب لرد هذه المادة الجغرافية إلى أصول يغلب عليها الوهم والافتعال على ما سوف نبينه بتفصيل .

ونفهم أن يجهل الأستاذ كراتشكوفسكي مهمة القرآن من حيث هو رسالة سماوية ، ولكنا لا نفهم كيف غاب عنه أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان في الواقع التاريخي . . ولا ألزمه بالعقيدة الإسلامية — نبيا داعيا إلى دين جديد . وهذه الصفة لا بد منها لفهم طبيعة النص القرآني ، كتاب نبي الإسلام ، لكيلا يتورط المؤلف فيما تورط فيه من أخطاء حين تناول القرآن وكأنه يناقش كتابا في الجغرافيا ، وراح يحاسبه على ما سماه نظريات جغرافية متناقضة فيه ، ولو أنه قدر الحق التاريخي الذي لم يعرف محمداً ، في الواقع الثابت ، إلا نبيا ، لما غابت عنه طبيعة النص القرآني ، من حيث هو رسالة نبي وكتاب دين ، وليس كتابا في الجغرافيا أو الفلك أو البيولوجيا !

إن دعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — حقيقة تاريخية لا يملك « كراتشكوفسكي » أو غيره أن يجحدها ، مهما يكفر به رسولا : وأعني بالحقيقة التاريخية ، ما ثبت في الواقع التاريخي بصرف النظر عن العقيدة الإسلامية . وإذا جاز أن يرفض « كراتشكوفسكي » أن محمداً رسول الله بدين الإسلام ، فغير متصور أن نختلف على أنه كان بالفعل ، نبي الإسلام !

* * *

وفي ضوء هذا البيان للخطأ الأساسي في منهج « كراتشكوفسكي » نناقش أقواله مناقشة منهجية ، ونعرضها على القواعد المقررة في البحث العلمي .

(٢)

الشعر الجاهلى والقرآن

وأول ما يلقانا من جناية القول بأن القرآن كلام محمد ، على سلامة البحث الجغرافى ، أن « كراتشكوفسكى » حين واجه الفرق الواضح بين تراث الشعر الجاهلى وبين القرآن ، اضطر لتبرير هذا ، إلى الزعم بأن الشعر الجاهلى كله هو تراث البدو وحدهم ، دون المراكز الحضرية التى عاش فيها محمد . . صلى الله عليه وسلم — وأخذ منها معارفه الجغرافية .

وانحرف به طريق البحث ، فإذا كل الكلام عن تصورات العرب الجغرافية فى الجاهلية ، يتعلق بالبدو وظروف حياتهم ، ومداركهم (ص ٤١) ومعرفة البدو بالأنواء والقمر والكواكب (ص ٤٢) وبعد أن يورد نصوصا من الشعر الجاهلى يختم هذا الكلام عن تصورات العرب الجغرافية إلى عصر ظهور الإسلام بقوله :

« هذا هو على وجه التقريب نوع المعلومات الجغرافية الموجود لدى بدو الجاهلية ، ولكن وُجدت إلى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة أرفع من الحضارة ويمكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعا ، ولا نقصد بهذا دولتى الغساسنة واللخميين إذ أنهما دخلتا فى محيط حضارتين متقدمتين هما البيزنطية والإيرانية ، ولم تخلفا مادة عربية يمكن أن تمس موضوع دراستنا . أما فيما يتعلق بالمراكز الحضارية الكبرى فى بلاد العرب نفسها ، حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى ، فإنه يمكن الاعتماد اعتمادا تاما على القرآن .

« إن المعلومات الأساسية منها التى كانت تحت تصرف محمد ، لم تكن غريبة على الوسط الذى عاش فيه ، أعنى وسط الحياة الحضرية بالحجاز . ومن الجلى أن محمداً كان رجلا أمياً ، وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيراً لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع ، وهى تمثل نموذجا عاماً لمستوى الثقافة العامة فى هذا المجال » ص ٤٥ .

وكما قلت آنفاً : من العبث العقيم أن نناقش أساس فكرته بالمنطق الدينى ، وإنما نأخذه بالمنطق العلمى فنراه أدار الكلام عن الجاهلية ، على فكرة خاطئة ، ثم رتب عليها نتائج فاسدة بفساد مقدماتها .

فما من عالم بتاريخ الأدب العربى ، يمكن أن يسلم له بأن تراث الجاهلية خاص بالبدو وحدهم دون

المراكز الحضرية فى بلاد العرب. والشواهد التى نقل منها «كراتشكوفسكى» معارف العرب وتصوراتهم الجغرافية فى الجاهلية ، تكفى وحدها للرد عليه :

جاء بأبيات لحسان بن ثابت قبل الإسلام (ص ٤٣) وحسان من الخزرج ، ومنزلهم كان بيثرب ، وهى من المراكز الحضرية الكبرى فى بلاد العرب بالجاهلية[1] . والمواضع التى ذكرها حسان الخزرجى فى أبياته المستشهد بها ، من ديار آل جفنة بالشام ، وليست من بادية الجزيرة !

وجاء بأبيات للشاعر الجاهلى «عبيد بن الأبرص» — ص ٤٣ — وفيها ذكر لمواضع التقت فيها قبيلته بالغساسنة !

ونقل معارف جغرافية من أبيات للشاعر المخضرم «لبيد بن ربيعة» وفيها ذكر جبل «أحد» ومواضع أخرى من الحجاز ، حول يثرب ، وليست من البادية !

كما أشار فى هذا المقام إلى النابغة الذبيانى والأعشى البكرى (ص ٤٤) ولم يقل أحد قبله إنهما من شعراء البدو ، وأولهما كان ملازماً للنعمان بن المنذر فى بلاط اللخميين بالحيرة ، والآخر طال تنقله بين المراكز الحضارية ، وتعددت رحلاته إلى الحيرة والشام وفارس .

فالقول بأن تراث الجاهلية ، يعطينا المعارف الجغرافية للبدو وحدهم دون الحجاز وبقية المراكز الحضارية فى بلاد العرب ، خطأ أساسى أقام عليه «كراتشكوفسكى» فكرته فى الربط بين القرآن الكريم وبين ثقافة الحجاز ، ليقول إن هذا القرآن هو جماع ما حصله محمد من تلك الثقافة المتاحة لبيئته !

وكان يكفى لرفض هذا ، وضوح الخطأ فى مقدماته ، لكننا نلفت كذلك إلى ما فى عبارته عن «المعارف التى حصل عليها محمد بطريق السماع ، وهى تمثل نموذجاً عاماً لمستوى الثقافة العامة فى هذا المجال» من فساد يكشفه أن تلك المعارف التى يقول إنها «كانت تحت تصرف محمد» كانت كذلك تحت تصرف أكثر شعراء العربية وخطبائها قبل المبعث !! فما دامت تمثل نموذجاً عاماً لمستوى الثقافة العامة فى هذا المجال ، فإن ما وصل إليه محمد «بطريق السماع» لم ينفرد به دون معاصريه ، وفيهم شعراء فحول . فلماذا كان القرآن المصدر «الذى يمكن الاعتماد عليه اعتماداً كلياً» فى معارف المراكز الحضارية ببلاد العرب ، حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى » ؟ !

و «كراتشكوفسكى» الذى يعترف بأن محمداً كان أمياً ، ليس بحيث يجهل أنه كان بين شعراء العرب

(١) انظر طبقات ابن سلام : شعراء القرى العربية ص ٥٢ وما بعدها ط بريل (ليدن) .

فى عصر المبعث وقبله ، عدد من غير الأميين ، ففيم اختصاص محمد بالسماع لمعارف عامة ، فى المراكز الحضارية ، وقد كان صُنَّاع القول وفيهم غير أميين ، أولى باستيعاب تلك المعارف « التى تمثل ثقافة عامة » من ذلك « الرجل الأمى » الذى لم يعرف له التاريخ مشاركة فى أى فن من فنون القول ، قبل أن يبعث برسالته فى الأربعين من عمره ؟

ويعرف المستشرق أيضاً ، أن من شعراء الجاهلية والخضرمة ، من كانوا يقيمون فى المراكز الحضارية « حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى » وأن من أولئك الشعراء ، من كانوا يهودا كالسموءل ، ونصارى كعدى بن زيد الذى عاش ما بين فارس والحيرة ، وكان يقوم بالترجمة بين الأكاسرة والمناذرة ، والمعارف التى كانت تحت تصرف محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بطريق السماع ، كانت متاحة لهؤلاء وأمثالهم بصفة أصيلة وطريقة مباشرة ، مما يبطل « افتراض أن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد بطريق السماع » والتى يقول إنها « تمثل نموذجاً عاماً ، لمستوى الثقافة العامة فى هذا الجيل » .

(٣)

القرآن والجغرافيا

وهو يمضى فى بحثه متأثراً بفكرته الخاطئة وواقعاً تحت سيطرتها ، فلا ينظر فى « المادة الجغرافية فى القرآن » نظرة الباحث الحر ، وإنما يتعثر منطقه فلا يكاد يسلم من خطأ .

لقد كان المنتظر ، مع القول بعمومية هذه المعارف الجغرافية فى بيئة محمد وعصره ــ أن يبين لنا الأستاذ « كراتشكوفسكى » أصداء هذه المعارف العامة فى شعر معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم . لكنه سكت عنهم جميعا فلم يشر إليهم من قريب أو بعيد . وواضح كل الوضوح ، أنه يئس من وجود شعراء من العرب يشاركون محمدا فى هذه « المعارف التى كانت تحت تصرفه » فلم يبق أمامه إلا أن يفترض مقدما ، أن هذه المعارف التى انفرد بها القرآن دون تراث العرب فى أخريات الجاهلية وصدر الإسلام ، مصادر خارجية أمدت محمداً وأثرت فى شخصيته (ص ٤٥) ومن ثم اتجهت محاولته إلى الربط بين المادة الجغرافية فى القرآن ، وبين قديم المعارف دينية وغير دينية ، مصرحا بأهمية تتبع مظان هذه المادة ومصادرها . قال :

« وبالطبع فإن مدى هذه المعلومات والمسائل المتعلقة بها ، كان أوسع بكثير مما هو عليه الحال مع البدو كما تردد فى أشعارهم . وهى فى مجموعها لا تكشف عن صعوبات خاصة ، ولكن تتبع مظانها

ومصادرها والملابسات التى أحاطت بظهورها جد عسير ، لأن المؤثرات التى عملت فى محمد وصقلت شخصيته متنوعة للغاية ، وأثرت فيه بطرق متعددة متضاربة . وجميع ما يتصل بها يحتاج إلى بحث خاص قائم بذاته ، ومثل هذه المهمة يستحيل تحقيقها فى عرض عام كهذا » ص ٤٥ .

وقد جهد – مع ذلك – فى التماس مصادر للمادة الجغرافية القرآنية ، فى تراث بابل وإيران واليهود والنصارى والسريان ، والزعم بأن هـذه النظرية أو تلك قد وصلت إلى محمد « وعرفها ولو بطريقة مبهمة » – صفحات ٤٦ سطر ١ ، ١٣ ، ٢٧ + ٩/٤٧ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٦ + ١٠/٤٨ ، ١٥ ، ٢٥ + ٣/٥٠ – وكأن هذا التراث كان دائرة مقفلة لا تباح لغير محمد ! وكأن الأعشى نفسه – وقد ذكره كراتشكوفسكى فى هذا المجال – لم يذكر فى شعره « الترك وكابل وبابل » وكأن عدى بن زيد والسموءل والربيع بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف وغيرهم من شعراء النصارى واليهود[1] ، كانوا بمعزل عن تراث النصرانية واليهودية والإيرانية ، ليستقل محمد – صلى الله عليه وسلم – بتلقيه عن طريق السماع !

هى إذن عثرة أسلمت إلى عثرة : عز على كراتشكوفسكى أن يجد فى تراث الشعر الجاهلى مثل ما فى القرآن ، فقصر هذا التراث على البدو وحدهم .

ثم عز عليه أن يجد مثل ذلك فى تراث شعراء الحجاز والمراكز الحضارية ببلاد العرب فى عصر الرسول ، فمضى يرد المعارف الجغرافية فى القرآن إلى مصادر خارجية !

ومع ذلك ، لم يصل إلى ما أراد التماسه منها إلا بمشقة واعتساف ، فاعترف بصعوبة هذا التتبع ، ثم أضاف إلى هذا الاعتراف – فى تبرير عجزه أمام تفرد القرآن الكريم . دعوى غموض ما فى القرآن من هذه المعارف ، قال :

« أضف إلى هذا أنه لا يمكن اعتبارها دائماً انعكاساً لمـادة عربية بحتة . . غير أنه مما يزيد فى صعوبة تحليل المادة بشكل خاص ، هو أن مغزى القصص الواردة فى القرآن لم يكن على الدوام واضحاً حتى لمحمد نفسه ، وهو قد التجأ عن قصد إلى العبارات الغامضة والأساليب المبهمة كما يتضح فى أكثر من موضع من القرآن » ص ٤٥ .

إلى مثل ذاك المدى ، انحرفت به عقيدته فى مصدر القرآن ، عن طريق البحث الحر ، فأضلته ضلالا بعيداً :

---

(١) انظر شعراء النصرانية للأب لويس شيخو وطبقات ابن سـلام : شعراء يهود المدينة ، ص ٧٠ وما بعدها ، ط بريل . وانظر مهما ما كتب « إسرائيل ولفنسون » عن شعراء اليهود فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » ص ٢٥ ط الاعتماد بالقاهرة ، سنة ١٩٢٧ .

لقد أعيا هذا المستشرق الروسى فهم النص القرآنى ، وأبهمت عليه أساليبه فلم يخطر على باله احتمال أن يكون هو نفسه عاجزاً عن فقه أسرار العربية وإدراك أسرار بيانها العالى ، وإنما أسرع يحكم بغموض المغزى على محمد نفسه ، ويقرر بأنه — صلى الله عليه وسلم — قد التجأ عن قصد إلى العبارات الغامضة والأساليب المبهمة !

ونسأل : فيم كل هذا العناء من « كراتشكوفسكى » لإثبات أن شيئاً مما فى القرآن الكريم قد جاء فى التوراة أو الإنجيل أو قديم الثقافات ؟ ! ! إن القرآن يصرح فى أكثر من موضع بأنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، ويصرح فى أكثر من موضع بأنه يقص على الرسول من أنباء الأولين ، ما هو عبرة وعظة !

* * *

ونفرغ الآن للنظر فى ما كتبه « كراتشكوفسكى » عن المادة الجغرافية فى القرآن الكريم ، أو كما قال : النظريات الجغرافية المنصوص عليها فى القرآن :

وأول ما ذكره منها يتعلق بالسماء فى القرآن ، ويستوقفنا منه قوله — ص ٤٦ — إن « صورتها مادية بشكل واضح ، ففى أكثر من موضع يرد الكلام ، ولو مجازاً ، بإمكان سقوط قطع منها — كِسف : ٩٤/١٧ ، ١٨٧/٢٦ ، ٩/٣٤ ، ٢ ٥٢/٤٤ — وأنها قد شيدت بناء أو سقفا — ٢ / ٣٠ » [1].

ووضوح الاستعمال المجازى فى آية البقرة (٢٢) المستشهد بها : « الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء » ينفى أن يراد بالبناء أصله الحسى المادى . ومثلها آيتا الطور : « والسقف المرفوع » والأنبياء ٣٢ : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون » .

ونحن نقول اليوم : بناء الوطن ، وبناء المستقبل ، فلا يتصور من له أدنى حظ من حس العربية ، أن المقصود بالبناء هنا مفهومه المادى . ولا نكتفى مع ذلك برد تأويل « كراتشكوفسكى » بوضوح الدلالة المجازية ، وإنما نلفت أيضا إلى ما غاب عنه ، وهو أن القرآن لم يستعمل قط مع السماء ، صيغة بنيان التى يضطرد استعماله لها بدلالتها الحسية المادية ، مفرقا بينها وبين صيغة (بناء) التى تأتى فيه بدلالة مجازية معنوية .

فلقد وردّ المصدر (بنيان) فى سبعة مواضع ، إما بصريح دلالتها الحسية فى الآيات :

الصف ٤ : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

الصافات ٩٧ ، فى سياق قصة إبرهيم :

---

(١) الأرقام هنا ، وفيما يلى — تشير إلى الآيات والسور ، كما نقلها المؤلف . . وفيها أخطاء استدركناها فى التعليق ، عند إيراد نصوص الآيات القرآنية التى أشار إليها .

« قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم » :

الكهف ٢١ : « إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً . »

وإما بطريق الاستعارة من البنيان المادى ، مع ترشيحها بشىء من خصائصه ، لفتاً إلى أصل استعماله الحسى ، فى آيات :

النحل ٢٦ : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

التوبة ١٠٩ ، ١١٠ : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تَقَطَّعَ قلوبهم والله عليم حكيم . »

وليس فى القرآن كله : جعل السماء بنياناً . وإنما يخص السماء بصيغة بناء التى لم تأت فيه قط ، فيما هو بنيان مادى محسوس . وذلك من عجيب الملاحظ البيانية فى دلالات الألفاظ القرآنية التى يفوت المستشرق الروسى ، وأىَّ مستشرق آخر ، لمحُها وإدراكها ، فيتصور أن بناء السماء مستعمل بدلالته الأصلية على البنيان ، ثم يحكم بأن صورة السماء فى القرآن مادية بشكل واضح ، مستشهداً بآية البقرة ، وبآيات أربع أخرى « يرد الكلام فيها بإمكان سقوط قطع من السماء ، كسف » .

ونقرأ الآيات المستشهد بها ، فلا نراها تقول بإمكان سقوط كسف من السماء على إطلاقه كما وهم كراتشكوفسكى ، وإنما يأتى القول بذلك نذيراً لجاحد وآية لمعتبر ، أو إنكاراً لضلال الكفار حين سألوا النبى — فيما سألوا — أن يسقط السماء عليهم كسفاً ، برهاناً على صدق نبوته .

والنذير فى آية سبأ ٩ :

« إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ، إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » .

ومجادلتهم للرسول فى آية الإسراء ٩٢ :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولا » .

ومن قبل قال قوم شعيب :

« وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين . فأسقِطْ علينا كِسفاً من السماء إن كنت من الصادقين . » الشعراء ١٨٧ .

والآية الرابعة المستشهد بها هي آية الطور ٤٤ :

« وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم » .

بياناً لضلال الكفار وإبطالا لحجتهم ، فلو أنهم رأوا السماء تسقط عليهم كسفاً – كما اقترحوا – لبلغ بهم عنادهم أن يغالطوا أنفسهم فيما رأوه عياناً ، فيقولوا : هو سحاب تراكم بعضه على بعض ، وليس بكسف ساقط من السماء .

ولا شيء من هذه الآيات بشاهد على الصورة المادية الحسية للسماء في القرآن ، وإنما هي في سياق مجادلة الكفار وبيان فحش عنادهم .

* * *

وفي الشمس والقمر ، قال كراتشكوفسكي :

« أما المهمة الأساسية للشمس والقمر فقد كانت في تحديد الوقت سواء اليومي أو السنوي . كما لوحظ الاختلاف أثناء الشتاء والصيف بين مواضع شروق الشمس ومواضع غروبها ، هذا إذا أخذنا بتفسير الآيات الغامضة (٢ !) عن المشرقين والمغربين – ٥/٣٧ ، ١٧/٥٥ – وقد ورد ذكر القمر مرتين ... ٥/١٠ ، ٣٩/٣٦ – أما تقسيم السنة إلى اثنى عشر شهراً فقد اعتبر أمراً بديهياً معروفاً من الجميع – ٣٦/٩ – ويلوح أن الاختلاف بين السنتين القمرية والشمسية كان معروفاً ، الأمر الذي يشير إليه معنى الشهر الكبيس . - أي المزدوج - في لفظ النسيء ، وهو لفظ لم يتضح معناه تماماً إلى الآن » ص ٤٦ .

أشار بالآيات الغامضة عن المشرقين والمغربين إلى آية الصافات ٣٥ : « رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » .

وآية الرحمن ١٧ : « رب المشرقين ورب المغربين » .

ونعذره - وليست العربية لغته – إذ يجد غموضاً في هذه الكلمات البينات التي يقرؤها العربي منا فلا يجد فيها أدنى ظل من غموض .

وليس صحيحاً أن القمر ورد في القرآن مرتين ، وإنما ورد سبعاً وعشرين مرة ، والفرق بين الرقمين جد بعيد .

ولا صلة على الإطلاق ، بين الشهر الكبيس وبين لفظ النسيء في القرآن ، كما وهم كراتشكوفسكي

وإنما قصد به ما اعتاد العرب فى الجاهلية كلما أرادوا قتالا فى الأشهر الحُرُم ، أن ينسأ لها ناسئوها هذه الحرمة فيؤجلوها إلى شهر أو شهور أخرى ، وذلك ما أبطله الإسلام بآية التوبة ٣٧ :

« إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله » .

ولفظ النسيء فيها ، من النسء بمعنى التأخير والتأجيل ، وهو واضح تماماً لأصحاب العربية . والناسئون من العرب هم الذين كانوا يقومون بوظيفة النسء ، فيحلون القتال فى الأشهر الحرم ، ناسئين حرمتها إلى شهور الحل . ويقول شاعرهم مفاخراً :

ألسنا الناسئين على معدٍّ   شهورَ الحِلِّ نجعلها حراما

وليس الغريب أن يبدو لفظ النسيء غامضاً على كراتشكوفسكى ، ولكن الغريب أن يحكم بأنه « لفظ لم يتضح معناه تماماً إلى الآن » ولو أنه التمسه فى أى معجم من معاجم العربية ، لوضح له معناه كل الوضوح ، ولأدرك أنه لا صلة له بسنة شمسية أو قمرية ، ولا بشهر كبيس أو غير كبيس[1] .

• • •

وانتقل المؤلف من السماء إلى الأرض ، فزعم أن فى القرآن نظرية رئيسية ، هى أن الأرض مسطح ثابت . قال :

« وإذا كانت نظرية السماوات تلعب الدور الرئيسى فى التصورات القرآنية عن السماء ، فإنه قد وجدت فيما يتعلق بالأرض نظريات ارتبط بها الأدب الجغرافى على مر تاريخه . وإحدى هذه الأفكار الرئيسية هى أن الأرض مسطح ثابت : ٦٣/٢٧ ، ٣٦/٧٨ ، ٧ . وهى فكرة سادت من قبل عند اليهود كما عرفها اليونان فى عهد هومير وهزيود والفلاسفة الأيونيين . وقد عبر القرآن عن هذا بمقارنات حسية مباشرة ، فالأرض تشبه الفراش : ٢٠/٢ ، ٤٨/٥١ ، والبساط : ١٨/٧١ ، والمهاد : ٦/٧٨ ، والمهد : ٩/٤٣ » ص ٤٧ .

ويخطئه هنا أيضاً حس التعبير الأدبى للعربية ، فى تشبيه الأرض بالقرار والمهاد والفراش والبساط ، على المشهود المألوف من استقرارنا عليها واطمئناننا فوقها . وإنا لنمارس عيشنا المستقر على هذه الأرض ونتخذ منها — دون البحار والفضاء — مهادنا وفراشنا ومقرنا ، ونعبر بهذا أساليب قولنا . وليس فينا من لم يتعلم من مبادئ الجغرافيا « أنها رغم ذلك تدور » !

---

(١) عاد الأستاذ المؤلف فأشار فى ص ٧٧ (فقرة أولى) إلى النسيء ، والقول بأنه « شيء أشبه بالشهر الكبيس » وأن المعنى الحقيقى لهذا اللفظ قد نسى تماما !!

وما من مسلم ذى ثقافة جغرافية ، يجد أدنى شعور بالقلق أو الحرج ، حين يتلو اليوم الآيات الخمس التى استشهد بها كراتشكوفسكى :

« أم من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً . » النمل ٦١ .

« ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً » . النبأ ٦ .

« والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلا فجاجاً » . نوح ١٩ .

« الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء » البقرة ٢٢ .

« الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون » الزخرف ١٠ :

لكن هذا الأسلوب البيانى الذى لا صلة له بالعلم الجغرافى ، صار عند المستشرق نظرية جغرافية منصوصاً عليها فى القرآن بصراحة ، وكأن أحدنا إذا قال اليوم : الأرض فراشى ، أو الأرض مهاد لى ومقر ، حوسب جغرافيا ، وعُدَّ من القائلين بأن الأرض مسطح ثابت !

* * *

وانتقل « كراتشكوفسكى » إلى البحر ، ففاجأنا بنظريات قرآنية حيّرته : قال :

« ولعل النظرية القائلة بوجود بحرين فى القرآن ، تكاد تكون أعسر مشكلة فى الأدب الجغرافى على الإطلاق . وقد وردت الإشارة إليها أكثر من مرة فى القرآن ، وأن هذين البحرين يفصل بينهما برزخ يمنع تمازجهما : ٦٢/٢٧ ، ١٩/٥٥ . وسرعان ما ظهرت الفكرة القائلة بأن المراد من هذا هو البحر المتوسط والمحيط الهندى بخليجه الذى يتمثل فى البحر الأحمر ، وأن البرزخ المقصود هو برزخ السويس : ولعله تحت تأثير الرواية الإيرانية تحولت هذه الفكرة إلى عقيدة ثابتة فى الجغرافيا والكارتوغرافيا العربية . . » ص ٤٧ .

ثم أشار إلى تفسير « بارتولد » للبحرين بأنهما نهر الفرات والخليج الفارسى ، ووهّنه « بأن القرآن ينص صراحة على أن البرزخ يمنع البحرين من الامتزاج ، الأمر الذى لم يحدث مطلقا بين الفرات والخليج الفارسى . وفضلا عن ذلك فإن مثل هذا التفسير يفترض فى محمد معرفة كافية بجنوب العراق ، وهو فرض لا يتفق مع الرواية التاريخية . وثمة تفسير جديد للمستشرق فنسنك ، فهو يلاحظ أن الآيات المتعلقة بهذين البحرين تفترض وجود محيط سماوى ، وهى فكرة متداولة بين الساميين الغربيين ، وعرفها محمد ولو بصورة مبهمة . . . ومما زاد فى اللبس أكثر ، أن هذه المسألة لم تكن واضحة لمحمد نفسه ، وأن ألفاظه فى عدد من المواضع تحمل طابع الغموض » ص ٤٨ .

ومع اعترافنا بأن من هذه التأويلات للبحرين ما ورد فى كتب مفسرينا ، إلا أننا نفرق بين القرآن وبين التفسير من حيث هو فهم المفسرين لكتاب الإسلام ، فهماً متأثراً ، ولا شك ، بعقلية مجتمعهم

ومستوى عصورهم وأنماط شخصياتهم ومذاهبهم[1] وكل ما أورده كراتشكوفسكى من تأويلات ، مقحم على النص القرآنى ، وليس صحيحاً أن ألفاظ القرآن عن البحرين ، تحمل فى أى موضع منها طابع الغموض ، اللهم إلا عند من لا يجدون ذوق العربية وحس البيان القرآنى .

ونحن نتلو الآيات التى وجدها كراتشكوفسكى غامضة :

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفُلك فيه مواخرَ لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فاطر ١٢ .

« أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسيَ ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون » النمل ٦١ .

« وهو الذى مرج البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أُجاجٌ وجعل بينهما برزخاً وحِجرا محجورا » الفرقان ٥٣

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان » . الرحمن ١٩ .

نحن العرب نتلوها فلا نجد فيها لبسا ولا غموضا ، ومألوف فى لغتنا أن تثنى الشيئين بتثنية أحدهما على التغليب ، فتطلق البحرين على البحر الملح والنهر العذب تغليبا ، كما تطلق الأبوين على الأب والأم ، والقمرين على الشمس والقمر ، تغليبا كذلك . ولا نقول فى هذه الآيات بنظرية جغرافية معقدة أو غير معقدة ، وإنما سياقها جميعا فى مقام الاستدلال لقدرة الله واللفت إلى آياتها فى الكون والحياة .

ولا وجه لتحديد البحرين بهندى وفارسى ، أو بالأبيض والأحمر ، والبيان القرآنى لم يتعلق بشئ من هذا التحديد الذى لا يتصل بمهمته من تبيان آية القدرة الإلهية فى البحرين يلتقيان وبينهما برزخ لا يبغيان ، وفى البحرين لا يستويان هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، ومن كل نأكل لحما طريا ونستخرج حلية ، ونرى الفلك فيه مواخر ...

واستطرد « كراتشكوفسكى » فى حديثه عن البحار ، فجاء بنظرية قرآنية أخرى عن « بحار سبعة » ! قال :

« وفى موضع آخر من القرآن ، غلب عليه الجانب البلاغى ، دفع إلى ظهور نظرية عن البحار السبعة : ٢٦/٣١ ، لم تلبث أن انعكست فى الأدب الجغرافى . ومن الواضح أن الإشارة إلى البحار السبعة فى هذه

(١) من أهم ما يشغلنا اليوم ، تحرير فهمنا للقرآن الكريم من شوائب الأويلات وبدع المذهبيات ومدسوس الإسرائيليات ، وذلك بالتزام منهج دقيق فى فهم النص القرآنى ، يأخذنا بضوابط صارمة لا تدع مجالا لأى تأويل مقحم . انظر كتاب (مناهج تجديد) للأستاذ أمين الخولى ط دار المعرفة ، وكتاب (التفسير البيانى للقرآن الكريم) لبنت الشاطئ ، ط المعارف ١٩٦٢ .

الآية — التى تمثل بدورها ترجمة دقيقة لحكمة عبرية — إنما ترد بطريقة رمزية . وهكذا فهم المقدسى الأمر ، بيد أن هذا لم يمنع بقية الجغرافيين ، بل وأحياناً العلماء الأوربيين ، من الكلام عن سبعة بحار مختلفة فى القرآن ، ولعلنا نجابه مرة أخرى تأثير المغزى السحرى للرقم سبعة ، كما هو الشأن مع الأرضين السبع . » ص ٤٩ .

ونص الآية المستشهد بها :

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله » لقمان ٢٧ .

وهو الموضع الوحيد الذى جاءت فيه « سبعة أبحر » فى القرآن كله . ومن بالغ الاعتساف وشطط التأويل أن تؤخذ شاهداً على قول القرآن بنظرية جغرافية عن « بحار سبعة مختلفة » والاستعمال البلاغى فيها واضح تماماً ، لم يفت كراتشكوفسكى ، وإن لم يفته كذلك أن يشير إلى حكمة عبرية بهذا المعنى ، وإلى ما نجابه من التأثير السحرى للرقم سبعة !

وغاب عنه أن كثيراً من الحكم والأمثال تتكرر فى عدد من اللغات ، فلا يكون هذا دليلا على أخذ إحداها من الأخرى ، وإنما هو دليل على فطرية الحكمة وإنسانيتها . ورقم سبعة قد يستعمل فى العربية للدلالة على مطلق التعدد دون قصد إلى الدلالة العددية المحددة بالرقم ، كما نستعمل رقم مائة أو ألف للدلالة على الكثرة ، ورقم اثنين للدلالة على القلة ، وتجرى بهذا أساليبنا دون أن يقال بتأثير سحرى لرقم أو لآخر .

ومع ذلك ، لو أننا أخذنا بالدلالة الرقمية المحددة ، لكان الذى فى الآية ثمانية أبحر لا سبعة : « والبحر يمده من بعده سبعة أبحر » وبهذا وحده تنهار كل التأويلات القائلة بوجود نظرية عن البحار السبعة فى القرآن الكريم !

* * *

ولا أطيل الوقوف عند قول كراتشكوفسكى : « . . . وعند ذكر ذى القرنين فى القرآن ، يرد الكلام على يأجوج ومأجوج . . . وأخبارهما ترجع إلى التوراة ولعلها وصلت إلى محمد عن طريق الأساطير السريانية المتعلقة بالإسكندر » ٥١ .

إلا أن ألفت إلى ما يتورط فيه كراتشكوفسكى من خطأ وتهافت ، تحت سيطرة فكرته فى مصدر القرآن وإنه من صنع محمد نفسه . وهذا هو يقرر أن أخبار يأجوج ومأجوج وردت فى التوراة ، ثم يقول باحتمال وصولها إلى محمد — صلعم — عن طريق الأساطير السريانية ، ولا يقول بوصولها إليه عن طريق التوراة ، وهى إليه أقرب !

فهل سكت عن التوراة هنا ، لعلمه أن القرآن لا يجرحه أن تكون فيه أخبار جاءت فى التوراة ، إذ هو بصريح آياته مصدق لها ولكل الكتب السماوية قبله ؟[١]

لا أملك أن أقطع فى هذا بيقين .

* * *

وأتجاوز عن إقحام كراتشكوفسكى لشتى التأويلات فى تحديد موضع « الجودى » الذى رسا عنده فلك نوح (ص ٤٦) فما أشار القرآن قط إلى مكانه ، ولا تعلق بتحديد تفصيلات غير جوهرية ، ليست مناط عبرة .

كما أتجاوز عن أخطائه الجزئية ، كقوله إن « فلسطين » وردت فى القرآن : ٢٤/٥ -- وليست الكلمة بلفظها من المعجم القرآنى إطلاقاً . ومثل قوله إن لفظ « العرب » لم يظهر إلا فى العهد المدنى ، مع أن الذى فى القرآن ، لفظ الأعراب لا العرب !

أتجاوز عن هذا ومثله لأقف عند قوله فى ختام حديثه عن القرآن والجغرافيا :

« وأخيراً إذا ما حاولنا المقارنة بين المادة الجغرافية فى كل من الشعر الجاهلى والقرآن ، لخرجنا دون عناء بنتيجة مؤداها أن الشعر يزخر بالواقعية والصحة ، أما القرآن فالمادة الجغرافية فيه قليلة ، ولكنه فى مقابل ذلك مفعم بالنظريات المأخوذ أغلبها من مصادر خارجية . وهى نظريات لم يستطع العلم الجغرافى العربى أن يتحمل دائماً عبء تفسيرها .

« وفى الأعوام العشرة الأولى للخلافة صادف اتساع المعلومات الجغرافية انعكاساً ضعيفاً فى الأدب . ومن المسلم به أن سيل الفتوحات العربية الجارف الذى حمل العرب بعيداً عن حدود جزيرتهم إلى مختلف الأقطار ، كان من شأنه أن يحدث تغييراً شاملاً فى تصورهم للعلم ويؤدى بلا ريب إلى اتساع أفقهم الجغرافى نتيجة للتجربة المباشرة ، غير أنه يلاحظ بشكل واضح أن النظرية اختلفت منذ البداية عن التجربة الواقعية . . . ولقد نشأ العلم وترعرع خاصة بالمدينة وكان حملته صحابة محمد والتابعين ، أما هدفه الأساسى فهو دراسة القرآن . . ومن الجلى أن مثل هذا العلم لن يفسح المجال لأى نوع من المعلومات الجغرافية التى تجمعت فى الأوساط العسكرية والإدارية ، ومن ثم فقد سار اتساع الأفق الجغرافى ، فى اتجاه مضاد تماماً ، إذ اقتصر على محاولات التفسير وتأويل الإشارات الجغرافية الغامضة والنظريات التى أتى بها القرآن . » ص ٥٠

واضح أنه فى تقريره إن القرآن مفعم بالنظريات المأخوذ أغلبها من مصادر خارجية ، متأثر بما افترضه — فى بدء حديثه — من أن القرآن « هو جماع المعارف التى حصل عليها محمد بطريق السماع » ،

---

(١) انظر فى تقرير القرآن الكريم ، أنه مصدق لما بين يديه من الرسالات السماوية ، آيات : البقرة ٩٧ ، آل عمران ٣ ، النساء ٤٧ ، المائدة ، فاطر ٣١ . . .

وبقى عليه أن يفسر لنا ، لماذا تأثر محمد – على رأيه – بالمصادر الخارجية ، ولم يتأثر بالشعر الجاهلى الزاخر بالواقعية والصحة ؟ لقد عاش صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية أربعين سنة ، كان الشعر فيها ينفرد بالسلطان الأكبر على الوجدان العربى ، وكانت أرجاء الجزيرة تتجاوب به ، وكانت أسواقها فى عكاظ والمجنة وذى المجاز – وكلها حول مكة – مواسم أدبية ، يفد إليها الشعراء من مختلف القبائل لينشدوا قصائدهم . وثابت فى السيرة النبوية أن محمداً قبل مبعثه كان يشهد هذه الأسواق ويصغى إلى ما ينشد فيها من شعر . ويصح مع ذلك عند كراتشكوفسكى ألا يتأثر محمد بشىء من « مادة جغرافية زاخرة بالواقعية والصحة » فى هذا الشعر الجاهلى ، وأن يتأثر فقط بنظريات أغلبها من مصادر خارجية ، بل أن ينفرد بهذا التأثر بها ، دون كل شعراء العرب فى الجاهلية وعصر المبعث !

وإذ قال إن العلم الجغرافى لا يستطيع أن يحتمل عبء تفسير هذه النظريات الجغرافية ، فإن لنا أن نقول : إن القرآن الكريم هو الذى لا يحتمل عبء تأويلات كراتشكوفسكى للآيات التى أخذ منها نظريات عن بحرين ، وبحار سبعة ، وأرض ثابتة مسطحة ، وسماء مبنية بنياناً حسيا ماديا ! ولا هو بالذى يحتمل عبء الخلط بين نصوص آياته البينات ، وبين ما أقحم عليه من بدع التأويلات وشطط الأوهام ومدسوس الإسرائيليات . .

ولا يضير القرآن الكريم أن تكون « المادة الجغرافية فيه طفيفة على العموم » فما هو كتاب جغرافيا وما ينبغى له . والذى فيه من « مادة جغرافية » لم يكن يقصد منها أن يكون النبى معلما للجغرافيا أو الكارتوغرافيا أو الفلك . . وإنما هى جميعا لافتة إلى آيات القدرة المدبرة لهذا الكون ، يدركها الإنسان السوى بفطرته السليمة إذا نظر وتأمل ، فيؤمن بأن شيئا من هذا النظام الكونى لا يمكن أن يكون عبثا .

وأحتكم إلى النص القرآنى ، وإلى الواقع التاريخى ، حين أسأل : كيف جاز لكراتشكوفسكى أن يقول إن اشتغال المسلمين بالقرآن الكريم ، سار باتساع الأفق الجغرافى للعرب فى اتجاه مضاد تماما ؟ إن الباحث المؤرخ مهما يكن رفضه للأديان ، مطالب علميا بألا يجهل أن هذا القرآن هو الذى أرهف حس العرب وأنار بصيرتهم وحرر عقولهم من أغلال العقم والتعطل ، وهو هو الذى أعلن رشد البشرية وجعل العقل مناط الإيمان وجوهر إنسانية الإنسان ، إذا تعطل أو جمد ، مُسخت بشريته أبشع المسخ وهبطت إلى دونية الدواب العجماء البكماء :

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ؟

وما يجوز لأى باحث مهما يجحد إلهية القرآن ، أن ينكر أنه الذى بدأ يقود البشرية على مراقى

طموحها إلى مثلها العليا ، ويبارك مسعاها إلى اقتحام آفاق المجهول والكشف عن أسرار الكون والحياة ، متحررة من وهم العداء بين الدين والعقل ، ومطمئنة إلى التأييد الإلهى الذى أضفى على العلم حرمة مقدسة ، منذ تلقت هذه البشرية كتاب الإسلام .

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

(٤)

الحديث والجغرافيا

إلى هنا نفرغ من كلام كراتشكوفسكى عن القرآن الكريم ، لننظر فيما كتب عن الأحاديث النبوية ، وقد قال بتوفر مادة هائلة منها للحكم على أن دراسة القرآن سارت باتساع الأفق الجغرافى للعرب ، إثر الفتوح الكبرى ، فى اتجاه مضاد تماماً ، إذ اقتصر على محاولات لتفسير وتأويل الإشارات الجغرافية الغامضة والنظريات التى أتى بها القرآن — ص ٥٠ .

والأمر فيما يتصل بالحديث ، من كتاب كراتشكوفسكى ، أشق وأعسر من أن يضبط : فلقد كنا فى كلامه عن القرآن الكريم نجد أمامنا آيات محددة نحتكم إليها فى مناقشته ، أما فى كلامه عن الأحاديث النبوية ، فالضوابط تكاد تكون ضائعة ، والمعالم مبهمة ، والحدود تائهة !

لقد بدأ فاعترف « بأن المتعمق فى دراسة الحديث لا يمكنه اعتبار جميع الأحاديث صادرة عن محمد » ص ٥٠ .

وكان مقتضى هذا الاعتراف ، وجوب تمييز ما هو منها حديث فعلا ، ثم تخريجه لبيان درجة صحته .

وذلك ما لم يحاول الأستاذ المؤلف شيئا منه ، وهو يستطرد من اعترافه ذاك ، إلى حشد مرويات مرسلة ، مركزاً اهتمامه بوجه خاص على « النمط الذى ازدهر فعلا وانتعش ، وهو الجغرافيا الأسطورية » ص ٥١ .

وقد ملأ ست صفحات بنماذج مختارة من « هذه الأسطوريات » وكأنها أحاديث نبوية صحيحة « نعلم منها مثلا كيف دخل محمد فى نضال ضد تصورات الجاهلية القائلة بأن الأنواء والنجوم هى المسئولة عن تساقط المطر » ص ٥٠ ، ونقرأ فيها أن « الحديث مفعم » بوصف جبل قاف ، وتحديد موضعه ، وتصدع سد يأجوج ، وقد اهتم المستشرق هنا بتقرير أنه « يعكس صدى التصورات اليهودية والإيرانية — ص ٥١ » . ولم يهتم بإيراد نصوص الأحاديث ، وإثبات أسانيدها ، وذكر مواضعها ومصادرها !

وتقرأ قوله :

« وفى هذه الأحاديث تقابلنا الإجابة على مختلف المسائل المتعلقة بنشأة الكون وشكله ، كالكلام على حجم الأرض ، وعن البحر المحيط ومنبع الأنهار من الفردوس ، وأعماق البحار والبحيرات ، وسلاسل الجبال . وطابع هذه الإجابات يمكن أخذ فكرة عنه من تحديد ابن عباس لطول الأرض وعرضها فى أربعة آلاف فرسخ . . ويروى عن « على » أنه قال إن امتداد الأرض خمسمائة سنة ، المعمور منها مائة سنة فقط . ويمكن أن تضيف إليها التعليقات الجغرافية الأخروية الموجودة بالحديث » ص ٥٠ ، ٥١ .

تقرأ هذا ، فيختلط فيه الأمر بين ما هو لابن عباس أو لعلى ؛ وبين ما هو للرسول صلى الله عليه وسلم إن كان . فالكلام عن الأحاديث ، وما يقابلنا فيها من إجابة عن نشأة الكون وشكله . والشواهد مختلطة : منها ما هو مأخوذ من تحديد ابن عباس لطول الأرض وعرضها ، وقول منسوب إلى الإمام « على » عن امتداد الأرض ! يضاف إليهما تعليقات جغرافية أخروية موجودة فى الحديث .

ويزداد هذا الخلط شططاً ، وأنت تتابع كلام « كراتشكوفسكى » عن الحديث ، فإذا فيه وصف لصورة الدنيا ، ينسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص (ص ٥٢) ورحلات من ذلك العهد « مشحونة بتفاصيل خرافية » كرحلة تميم الدارى ومغامرته مع الجن (ص ٥٣) ورحلة لعبادة بن الصامت إلى بلاد الروم (٥٤ ، ٥٥) .

وفى كل هذا تضيع الحدود وتتماحى ، فلا تتميز أحاديث عن مرويات ، ولا ينفصل ما ينسب إلى عبادة أو تميم أو عبد الله ، عما يسمى حديثاً .

وننظر فى المراجع التى أثبتها « كراتشكوفسكى » مصادر لمادته فى الحديث وما يتعلق به ، لكى نرجع إليها ونلتمس نصوصها وأسانيدها ، فإذا بنا نفاجأ بأن ليس بينها جميعاً ، أى مرجع من كتب الحديث الأمهات . وإذا بنا نقرأ مكان أسماء : البخارى وابن حنبل ومسلم وابن ماجه والترمذى والنسائى ، وابن هشام وابن سعد والطبرى ، أسماء نالينو وڤنسنك وفيشر ومچيك وهرشبرج وكارا دى ڤو وسالمارى وكيمبل وكريمس ودى جويه وجولدزيهر وليڤى ديلاڤيدا وشبرنجرا[1] .

وهذا وحده يعفينا من مناقشة ما كتبه « كراتشكوفسكى » عن الأحاديث النبوية ، التزاماً منا بأصول علم الحديث ، واحتراماً لضوابطه المقررة التى ترفض النظر فى أى حديث قبل فحص سنده وتخريجه :

---

(١) مما يلاحظ هنا ، أن كراتشكوفسكى لم يشر فى مراجعه إلى المستشرق الإيطالى « جويدى » الكبير ، وقد كان من المستشرقين الرواد فى موضوع الأدب الجغرافى عند العرب ، وله فيه محاضرات قيمة ، ألقاها فى الجامعة المصرية القديمة وطبعت بعنوان « أدبيات الجغرافيا والتاريخ عند العرب » ! ؟

والذى اختلط بالأحاديث النبوية — فى كلامه — من مرويات ورحلات « مشحونة بتفصيلات خرافية » لا يجوز علمياً أن يساق على هذا النحو الموهم بأنها كانت فى البيئة الإسلامية حقائق مسلمة ، وآثاراً معتبرة لا مجال لرفضها أو اتهامها . وكان ينبغى — أداء لحق الأمانة العلمية — أن يسجل كراتشكوفسكى مثل موقف الجغرافى العربى « ياقوت الحموى » من هذه المرويات[1] ، ما دام قد رجع إليه فى رحلة عبادة بن الصامت ، قائلا :

« أما رحلته فقد عرف عنها واقعتان فقط : حفظ الأولى منهما ياقوت واعتمد عليه القزوينى فى روايته . وهى تتعلق بزيارته للرقيم الذى يرقد فيه أهل الكهف على مقربة من القسطنطينية وقد شغل هذا الموضوع فيما بعد الأدب الجغرافى وتردد صداه فيه أكثر من مرة . والقصة معروفة جيداً وتوجد لها ترجمة فى اللغتين الروسية والأوكرانية » ٥٤ .

وياقوت ، لم ينقل هذه المرويات وأمثالها ، إلا بعد أن لفت إلى ما فيها « من أشياء كثيرة تأباها العقول » وتبرأ إلى القارئ من صحتها .

قال فى مقدمة معجم البلدان ما نصه :

« واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها ، حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول وتنفر عنها طباع من له محصول ، لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة . . . وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرئ إلى قارئها من صحتها . . »[2]

وعاد فكتب فى الباب الأول ، بعد أن نقل المرويات « فى صفة الأرض » . وبعضها مما تعلق به « كراتشكوفسكى » فى هذا المجال :

« وفى أخبار قصاص المسلمين أشياء عجيبة تضيق بها صدور العقلاء ، وأنا أحكى بعضها غير معتقد لصحتها[3] . .

« قد كتبنا قليلا من كثير ، مما حكى فى هذا الباب . وههنا اختلاف وتخليط لا يقف عند حد غير ما ذكرنا ، لا يكاد ذو تحصيل يسكن إليه ، ولا ذو رأى يعول عليه ، وإنما هى أشياء تكلم بها القصاص للتهويل على العامة على حسب عقولهم ، لا مستند لها من عقل ولا نقل »[4] .

---

(١) وكان يصح أن يشار هنا أيضاً إلى موقف العالم العربى « محمد بن موسى » من كهف الرقيم ، حيث رفض أن يرى فى الجثث المحنطة هناك ، أهل الكهف الوارد ذكرهم فى القرآن الكريم . (انظر ص ١٣٣) .

(٢) معجم البلدان : ص ٩ ط السعادة بالقاهرة ١٩٠٦ .

(٣ ، ٤) معجم البلدان : ص ٢١ ، ٢٢ .

بل إنه فى مادة (الرقيم) من معجمه الجغرافى ، نقل ما نقل من مرويات عن « رحلة عبادة ابن الصامت » نفسها ، ثم ختمه بقوله :

« والله أعلم بصحته » .

وهو ما يجب أن يذكره لياقوت ، من ينقل عنه هذه المرويات وأمثالها ، إبراء للذمة ، واحتراماً للضمير العلمى .

* * *

وبعد فلعلى فيما ناقشت من أقوال الأستاذ كراتشكوفسكى ، لم أحِدْ عما التزمت به من أخذه بمنطق البحث العلمى الحر . ومن حق الأستاذ الكبير أن أذكر له أنه ما كاد يعبر تلك المرحلة الحرجة المتصلة بعصر ظهور الإسلام ، حتى انطلق يتابع رحلته الشاقة عبر تاريخنا الجغرافى الطويل ، بجهد مخلص ، بعد أن تخلص من العقدة الدينية التى احتكمت فيه وهو ينظر فى تصورات العرب ومعارفهم الجغرافية ، ما بين الجاهلية وعصر الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٥)

الإســـلام والصليبية

والقسم الثانى من الكتاب ، يبدأ بجغرافيى العرب فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) أى بعد نحو سبعة قرون من تلك المرحلة الدقيقة التى أشرت إليها . ولكن الأستاذ المؤلف ، واجه هنا — من ناحية أخرى — عصر اتصال الغرب بالشرق دينياً وحربياً وفكريا ، وعلى قدر ما بذل الأستاذ من حرص وحذر فى عبور ذلك العصر الحرج المائج بصاخب التيارات ، وعلى قدر ما حاول من نزاهة وحياد علمى ، فى رصد انتقال المشعل الحضارى من الشرق الإسلامى إلى الغرب المسيحى ، لم يسلم الأمر من مواضع قلقة ، أخطأه فيها المعهود من حرصه ودقته .

فهو يرى أن « وجهة النظر الإسلامية — فيما يتعلق بفلسطين وتحريرها من الصليبيين — كانت مشابهة كل الشبه لوجهة النظر المسيحية التى تشكلت وأخذت قالبها فى عهد الصليبيين » — ٢/٥٠٦ .

وتعميم القول بهذه المشابهة ، كل الشبه ، بين وجهتى النظر الإسلامية والصليبية ، فيه من عدم الدقة ما لا يطمئن إليه النظر العلمى ولا يُسلِّم به الحق التاريخى الذى يفرق بين غزاة طامعين ، وبين محررين مجاهدين ؟

وقد أسلمه هذا إلى تعميم الحكم على الآثار الأدبية والمؤلفات الإسلامية لتلك المرحلة ، بأنها من أدب الدعاية « التي لم تقم على استثارة العواطف الدينية فحسب ، بل إن العلماء قد اهتموا أيضاً بتوضيح جانب آخر دنيوى يتعلق بفلسطين ، فأخذت تتشكل وتنمو الفكرة القائلة بأن الشام تمتلك تسعة أعشار ثروة العالم بأجمعه ، ولا يخفى ما تسوق إليه مثل هذه الأفكار من التزامات نفسية معينة ، فقد أحس المسلمون بأن عليهم أن يرتحلوا إلى تلك البلاد ، لا خضوعاً لتلك العواطف الدينية وحدها ، بل ليستغلوا خيراتها لأنفسهم ، سواء في مجال التجارة أو الزراعة . » — ٢/٥٠٧ .

واضح هنا أن التعميم الأول ، في الحكم بالمشابهة — كل الشبه — بين وجهتي النظر الإسلامية والمسيحية ، هو الذى جعل الأستاذ المؤلف يرى جهاد المسلمين لتحرير فلسطين من الغزو الصليبي ، قصداً إلى استغلال خيراتها . وهذا يصدق على الصليبيين ، لكنه لا يصدق على المسلمين الذين عرف التاريخ جهادهم ، فدائية باذلة مستبسلة .

وعذره واضح في التماس العوامل الاقتصادية والمادية ، وراء المقاصد الدينية . فهو في هذا يأخذ بمذهب « التفسير المادى للتاريخ » ولسنا ننكره ، لكنا لا نراه كافياً لتفسير تاريخنا الإسلامى ، ونحن شعب متدين بفطرته ، يبذل المال والنفس في سبيل عقيدته .

وختاماً أقول : إن جامعة الدول العربية بنشرها ترجمة هذا الكتاب ، قد أتاحت لنا واجب الاطلاع عليه وحق التعليق على ما فيه من مآخذ وأخطاء . وإني لأرجو أن تتولى الجامعة نقل ما في مكتبة الاستشراق من مؤلفات عن العربية والإسلام ، وأن تخطط لهذه المهمة الجليلة بحيث نستكمل علمنا بكل ما يقال عن تراثنا ويكتب عن عقيدتنا ، بعد أن يراجعه علماؤنا ، كل في مجال تخصصه ، ويعلقوا على ما قد يكون فيه من أخطاء .

والله ولى التوفيق ؟

د . عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)
أستاذة اللغة العربية وآدابها
بجامعة عين شمس

الفهـــــارس

فهرست الأعـــلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

فهرست الأماكن والقبائل والشعوب

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرست الكتب والرسائل

(الكتب الشرقية)

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

( )

(ز)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

(الكتب الروسية)

Arabskia Khrestomatia, Girgas & Rozen
(المختارات العربية لجرجاس وروزن) : ٣٥ .

Drevnie Arabskie Dorojniki po sredneaziatskim miestnostiam, N.F. Petrovski
(الطرق العربية القديمة بآسيا الوسطى لبتروفسكي) : ٣٤ .

Izevstia al - Bekri i drugikh avtorov o Rusi i Slavianakh, Kunik & Rozen
(روايات البكري وغيره عن الروس والصقالبة لكونيك وروزن) : ٢٧٤ .

Izvlechenie o tureiskoi Literature
(منتخبات من الأدب التركي) : ٦٥٣ .

Izobrajenie taktiki, ili iskusny obraz pravlenia voiskogo, pereved L. Levasheva
(توضيح التكتيك أو فن قيادة الجيوش ، ترجمه إلى الروسية ليفاشيوف) : ٦٥٢ .

Istoria Arabov i arabskoi Literatury, Krymski
(تاريخ العرب والأدب العربي لكريمسكي) : ٣٣٤ .

Istoria izuchenia Vostoka v Evrope i Rossii, V. Bartold
(تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا لبارتولد) ٣٤٠ .

O proiskhojdenii Russov, Senkovski
(أصل الروس لسنكوفسكي) : ١٦٠ .

Ocherk Arabskoi Literatury, V.F. Girgas
(عرض عام للأدب العربي لجرجاس) : ٣٤ .

Palestina ot zavoevania ee arabami do krestovykh pokhodov po arabskim istochnikam, N.A. Mednikov
(فلسطين من الفتح العربي إلى الحروب الصليبية وفقاً للمصادر العربية لمدنيكوف) : ٢٨ ، ٣٤ ، ٥١٨ ، ٥١١ .

Tserkovnia Jizn v Rusi v polovine XVIIv., A. Golosov
(تاريخ الحياة الكنسية في روسيا في منتصف القرن السابع عشر لغولوسوف) : ٧١٧ ، ٧٢١ .

(الكتب الغربية)

التصويبات

الصفحة	السطر	الصواب
٨	٥	مقدمة المؤلف
٥	١٥	الدوائر العلمية
٥	١٨	Arabskimi
٦	٨	فانتخب
٦	١٥	Nallino
٥	٢١	الدوائر العلمية
١١	١	العلمية
١٣	٧	مثال ذلك
١٥	٦	الإكمال
١٥	٧	تنفيذ هذه الفكرة
١٩	٤	كسرى
٢٠	١٤	والأعراض
٢١	١١	مقتضيات
٢٣	٦ من أسفل	Klimata
٢٤	١١	القرن
٢٤	١٧	وذلك
٢٤	٣ من أسفل	إهمال الحذر
٢٥	١٠ من أسفل	أكثر مما اشتهرت
٢٦	٥	لم تكن
٢٦	٩	الأوروبي
٢٦	٨ من أسفل	ئرولوفيوس
٢٧	١٣	لا يزالون
٢٨	على الهامش	28
٣٠	١	لنظرة عاجلة
٣٢	رقم الصفحة	٣٢ (بدلا من ٢٣)
٣٢	٧	كرامرس
٣٧	٤	مغايرة للغة
٤٠	٨ من أسفل	كانا لا يزالان
٤٤	١	وجبال وبلاد جزيرة العرب
٤٥	١٧	بطرق متعددة
٥٢	٢ من أسفل	عن أبي صالح
٥٣	١	عن نزار بن معد
٥٣	١٠ من أسفل	العناصر المسيحية
٥٤	١ من أسفل	بتمال مخصوفة

الصفحة	السطر	الصواب
٥٧	٢	ابن لسان الحمّرة
٥٨	١٦	فالأصمعي اللغوي المعروف (توفي حوالي عام ٨١٣) وذلك قبل خمسين عاماً من هذه الرواية التي مصدرها الدينوري ، يؤكد أن ابن القرية
٥٩	١	إن قلوا
٧١	٢ من أسفل	الفزاري
٧٤	٥	ومن الغرابة بمكان
٧٨	١٥	أرشميدس
٧٨	٣ من أسفل	Ptolemaeus
٨١	٦	أبي يحيى البطريق
٨٨	٢ من أسفل	90 إن الفاظ
٩٨	٩ من أسفل	باللفظ اليوناني
٩٩	١٤	أوروبا الغربية
١٠٠	٨	المستعرب المعروف ف . اسبتا W. Spitta
١٠٦	٧	بحر أقيانس
١٠٩	١٠ من أسفل	وفي كلا جدوليه
١٢٤	٣ من أسفل	٩٩١ (بدلاً من ٩٦١ هـ)
١٢٥	١٤	ويصفه ابن النديم
١٢٥	٢ من أسفل	راجع
١٢٦	١	أبو عبيد (بدلاً من أبوعبيدة)
١٢٦	١٣	هشام بن الكلبي
١٢٧	١٦	سعدان
١٢٨	٣	ابن لغذة
١٢٨	٨	آسين بلاثيوس
١٢٩	٤	زراعتهم في البلدين
١٣٢	١٧	أن أخا الخليفة
١٣٢	٦ من أسفل	أبو يوسف
١٣٤	٣ من أسفل	أحس بعض
١٣٧	٣	تطفلاً
١٣٧	١٨	بالمغرورين ، أو المغرّرين
١٣٩	٧	عاصمة التغزغز قامچو

الصفحة	السطر	الصــواب
١٤٠	٤ من أسفل	برحلة عبر فيها
١٤١	١١	بمضيق بالك Palk
١٥٥	٥	منذ 147
١٥٦	٥	كتاب « اللهو والملاهى »
١٥٧	١٠ من أسفل	أبحاث 150
١٥٨	٩	اليعقوبى وابن الفقيه
١٦٠	٩	فبيزنطة والشام
١٦١	٧	العديدون
١٦٤	٦ من أسفل	تنسب صناعتها إلى بليناس الطوانى
١٦٩	١٠ من أسفل	166 (على الهامش الأيسر)
١٦٩	٩ من أسفل	فى صفة قرطبة
١٧٩	٦ من أسفل	المذاهب والملل
١٨٥	٥ من أسفل	ثبت مؤلفاته
١٨٦	٤	بين روزن
١٨٩	٩	(١٩٣٧)
١٩٠	١٤	عالم أندلسى
٢٠٧	٥	Nallino
٢٠٧	١٢	الأخرويات
٢١٣	٣ من أسفل	لكتاب المقدسى
٢١٩	٦	آثاراً مدونة
٢٢١	١١	فى هذا
٢٢٣	١١	بمخطوطة طورمانسكى
٢٢٣	١٣	Facsimile
٢٢٤	٣	فيتلى المقدمة
٢٢٥	١ من أسفل	مرتين
٢٢٨	٦	نظرية الأدوار الكونية
٢٣٤	٨ من أسفل	بأقل من ذلك
٢٤٦	٩	فكان البيرونى يختلف إليه
٢٤٨	٦	وهما اللذان
٢٤٩	٥	والروم إلى أنطاكية وبينهما أرض الشام وفلسطين
٢٤٩	١ من أسفل	مضيق جبل طارق
٢٥٣	١٦	طبعة الكتاب(*) . [ثم أضيف فى أسفل الصفحة على الهامش : (*) طبع بأنقرا عام ١٩٦٢ على يد محمد بن تاويت الطنجى ، وبالقاهرة على يد بولغاكوف عام ١٩٦٣ . (المترجم)] .

الصفحة	السطر	الصــواب
٢٥٣	١٢	نتيجة لامتداد نطاق الحضارة الإسلامية كما يقول « فيما بين الأندلس غرباً وبين أطراف الصين وواسطة الهند شرقاً ، وفيما بين الحبشة والزنج جنوباً ، والترك والصقالبة شمالاً» .
٢٥٤	٧	فابن القفطى
٢٥٥	٩	الرواية الفارسية للكتاب(*) . [ثم أضيف فى أسفل الصفحة على الهامش : (*) طبع المتن الفارسى السيد جلال همائى بطهران . ويبدو من مقدمة الناشر أنه لا يوجد لديه أدنى شك فى أن المتن من تدوين البيرونى نفسه ؛ ويسوق فى تدعيم قوله ألفاظاً للعلامة الفارسى الكبير محمدعبدالوهاب قزوينى (المترجم)].
٢٥٧	٢ من أسفل	ليهود بالشرق
٢٥٩	١٣	قزوين وبتليس
٢٦٠	٥	وفى هذه الزيارة الرابعة
٢٦٢	٩ من أسفل	على أميرى الديار بكرى (١٨٥٧ – ١٩٢٤) .
٢٧٢	٢	بالمغرب(*) . [ثم أضيف فى أسفل الصفحة على الهامش : (*) قام بترجمة هذا الفصل إلى الفرنسية البروفسور ماريوس كانار M Canard ، وظهرت هذه الترجمة فى Annales de l'Institut des Etudes Orintales بجامعة الجزائر ، وذلك فى المجلد ١٨ – ١٩ الذى ظهر عام ١٩٦٠ - ١٩٦١ . (المترجم)]
٢٧٣	١	تحتفظ بجميع أبهتها كعاصمة للخلافة الغربية
٢٧٣	١	Jativa
٢٧٣	٩ من أسفل	تلميذا وأستاذاً
٢٧٤	١	معرفة جيدة للمؤلفين التالين وحفظت لنا منه شذور هامة
٢٧٤	٦	وأعمال المرية
٢٧٤	١ من أسفل	للطبع

الصفحة	السطر	الصواب
٢٧٧	٦ من أسفل	معيداً فى هذا الصدد ، ولو بصورة مخالفة بعض الشىء
٢٧٨	٨ من أسفل	أن يكون قد أخذ بعضها .
٢٨٣	٩ من أسفل	وثانيها خارطات على نسيج من القطن ، وثالثها هو الكتاب الذى يحمل العنوان الذى مر بنا
٢٨٤	١٧	المصرونى
٢٨٤	٦ من أسفل	Jaubert
٢٨٦	٧ من أسفل	والمرحلة اليومية تعادل أربعة وعشرين ميلاً (٣٧ كيلو متر ونصف) ، وفى حالة السير السريع ثلاثين ميلاً (٤٦ كيلو متراً) ؛ هذا بينما تبلغ المرحلة البحرية
٢٨٦	٦ من أسفل	Lewicki
٢٨٨	٧	إسحق بن الحسن المنجم
٢٩٠	٥	بأن هذه الخارطات تقف
٢٩٠	٦	294
٢٩١	٥	وإسكتولية وبريطانى ونورمندية
٢٩١	٦	ولا لنورباردية
٢٩١	١ من أسفل	تولير
٢٩٣	١٥	Saavedra
٢٩٥	٥	بنية مغادرته نهائيا فيما يبدو
٢٩٥	٧	يحيى بن هبيرة
٢٩٥	٩	نهر القلجا ، وكان لا يزال بأرض بلغار القلجا فى عام ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ . وتلى هذا أن قام بثلاث رحلات
٢٩٥	أسفل الصفحة	(يحذف التعليق بأكمله)
٢٩٥	١١	بسيدتين مسلمتين
٢٩٦	١٢	عام ٥٤٠ هـ = ١١٤٥.
٢٩٧	١٨	واستعمله ابن الوردى فى القرن الرابع عشر والمقريزى فى القرن الخامس عشر وابن إياس
٢٩٧	٩ من أسفل	الدميرى (القرن الرابع عشر)
٢٩٩	٣	١١٤٥
٣٠٠	١٠	موجودة بليدن
٣٠٢	١٠	وضمه ابن عاق
٣٠٢	١٨	فى أعلى مستوى

الصفحة	السطر	الصواب
٣١٧	١٦	التبصرة
٣١٨	الأخير	315
٣٢١	١٩	وبلاد العرب والعراق
٣٢٣	٦	والآثار ونحوها المذكورة
٣٣٦	١٧	أقل حجماً
٣٤٣	١٦	أسماء الأمكنة
٣٤٤	٥ من أسفل	Frederick
٣٥٠	٣	لبلاد العرب
٣٥٧	٦ من أسفل	Moritz
٣٦٤	١٤	العربية والفارسية
٣٧٤	١٦	الجاثاليق
٣٨٣	١٠	والرحلتان تمثلان فى جوهرهما الطراز
٣٨٧	١٠	السلطان بيبرس
٣٨٧	١٥	بناحية صفد
٣٨٧	٢ من أسفل	الزنج
٣٩٠	٢	وسيرة حياته
٣٩٦	الأخير	بمعهد الدراسات الشرقية
٣٩٧	٤ من أسفل	397
٣٩٨	١٦	398
٤١٠	٩ من أسفل	من حمى الربع Quartenfieber
٤١٩	٣ من أسفل	أن ثمة خلطاً
٤٢٠	١٧	عن تلك الأقطار
٤٢١	٤	420
٤٢٤	٧ من أسفل	نيف وعشرون
٤٢٤	٦ من أسفل	أبى الحسن
٤٢٨	٤	بقيمته من جديد (بحيلك وجب) أخذ
٤٢٩	٤ من أسفل	وفيما بين جاوه وشامبا
٤٣١	الأخير	فؤاد أفرام البستانى
٤٤١	٧	وجميع هذه الأبحاث
٤٤٧	١	لتكن
٤٥٥	١٧	لعله فى سبتة
٤٥٨	١٤	454
٤٧١	١٤	سلطنة الناصر محمد
٤٧٤	١٠	وأئمة الدين
٤٧٦	٦	وضعاً أشبه بوضع
٤٧٩	٥	benevolentiae
٤٧٩	١٧	وسمته به
٤٨٢	٢	جيداً ولا يكشف

الصفحة	السطر	الصواب
٤٨٢	١٠	سيراً لحياة
٤٨٣	١٤	مثلا أن النيل
٤٨٦	١٧	غست بما لا يقل عن
٤٨٧	٣	الذي حدا بنا
٤٩١	٤	التزام الحيدة
٤٩١	٨	في مقدمة كتابة
٥٠٠	١٣	بعض الإبهام
٥٠٥	١	اهتمامها قبل كل شيء
٥٠٦	٢	وأما تبويبه
٥٠٨	١٢	Lemming
٥٠٨	١٣	Mednikov
٥١١	١٨	وهؤلاء بدورهم
٥١٣	٥ من أسفل	العلماء الأوروبيين
٥١٤	٥	العلامة الكبير
٥١٦	١٦	عشرة أعوام من ذلك
٥٢٥	٢ من أسفل	في آخر الأقسام
٥٢٩	١	٨٢٤ هـ = ١٤٢١
٥٣٠	٢ من أسفل	بلاهور في قسمين
٥٣١	٩	فهو يقدم
٥٣١	٣ من أسفل	Niccolo
٥٣٦	٤	خالباليق
٥٣٧	٢	وشريكه الفهور في الدعوة إلى عقيدة دينية جديدة
٥٤٠	١٣	Barbier de Meynard
٥٤١	١٠	الجداول الفلكية
٥٤٤	١٦	خطاب بعث به
٥٤٤	٩ من أسفل	والده أخذه معه
٥٤٤	٨ من أسفل	زين العابدين
٥٤٧	٤	رحلاته الثلاث
٥٤٨	١١	بصفقة المغبون
٥٤٨	٥ من أسفل	Crusoe
٥٤٩	١٤	على مستوى رفيع
٥٥٠	٣	من الانطباعات المباشرة والحية عن
٥٥٠	٩	ويشتمل
٥٥٠	٧ من أسفل	ميرزا حسن شيرازي فسائي
٥٧١	٤ من أسفل	عن الشرق الأقصى كشف عن
٥٧٣	١١	رق الأسطورة
٥٧٤	١٢	تاريخ تدوينه
٥٧٥	١٠ من أسفل	أحد عشر فصلا
٥٧٥	٦ من أسفل	بمعدل متوسط سرعة يساوي
٥٧٨	٤	على المسائل البحرية
٥٧٨	٨	ماجد كتاب
٥٨٠	٨	بمصنفات ابن ماجد
٥٨٠	١ من أسفل	طبيعة الأرضاع
٥٨٢	١	اللائق به
٥٨٢	١٠	من ناحية أخرى
٥٨٢	١١	الشئون البحرية
٥٨٣	٣	على ريس
٥٨٤	١	البيزنطية
٥٨٤	٢ من أسفل	الاعتقاد بأن
٥٨٥	١٠ من أسفل	ترجمها ترجمة
٥٨٥	١ من أسفل	فستحتفظ على الدوام بأهميتها كاملة غير منقوصة
٥٨٦	١ من أسفل	معروفاً في المخطوطات
٥٨٧	٦ من أسفل	جعلهم يرون
٥٨٨	١٧	رجع إلى القرصنة
٥٩١	٦	بما لا يقل عن عشر خارطات
٥٩٥	٩ من أسفل	ولنعد إلى الأذهان
٥٩٦	١	١٤٩٨
٦٠٧	١٨	بابنجر
٦٠٧	١ من أسفل	لقد سبق
٦٠٨	١٨	على القوشجي
٦٠٩	١	في القرنين
٦١٢	١٥	تم تدوينه
٦١٦	٣	يلشنر
٦١٦	٤	eine
٦٢٠	١	عام ١٠٦٧ هـ
٦٢٠	١٣	المؤلفين الإسلاميين
٦٢٠	٣ من أسفل	وظهر
٦٢٠	٢ من أسفل	Türk
٦٢٩	١٤	عام ١٢٧٥ هـ
٦٣١	٧	الدقيق
٦٣٩	٣	واحداً وأربعين
٦٣٩	١٥	١٠٥٠ هـ = ١٦٤٠
٦٤٠	٥ من أسفل	مترجماً بذلك
٦٤٣	٣	وقد ظهر الأخيران بالأحرف اللاتينية

الصفحة	السطر	الصـــواب
٦٤٣	٦	ومن الغريب أن نجد
٦٤٦	٥	أطلس ميور
٦٥١	١٤	٦٢٩
٦٥٢	١٤	أن كلاهما
٦٥٣	٧ من أسفل	بل وجميع
٦٥٦	١٠	مجموعات المخطوطات
٦٥٦	١ من أسفل	إذا لم
٦٥٧	٣ من أسفل	ويمكن أن نختتم
٦٥٨	١٦	البلغارية
٦٥٨	١٦	لبولندا
٦٦١	١	لم يرد ذكر له
٦٦١	١٨	ازفن جغرافيا
٦٦٣	١	١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨
٦٦٣	١٤	من بين هذه الأخيرة
٦٦٤	١٠	الطوبوغرافية والإقليمية
٦٨٢	١٠ من أسفل	فى الجغرافيا الإقليمية
٦٨٢	٢ من أسفل	اقتطاف النور
٦٨٢	١ من أسفل	الجغرافيا الإقليمية
٦٨٣	١	الكم
٦٨٥	١٠	بدأ رحلته
٦٩٩	١٤	الجغرافيا الإقليمية
٧١٥	٢	الاتجاه الأدبي
٧٥٥	١٧	من عام ١١٤٣ هـ
٧٥٥	٨	فذكر أنه
٧٧٥	١	الجبرتى
٧٧٥	٦	الجبرتى

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٥

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكى

تاريخ
الأدب الجغرافى العربى

نقله إلى اللغة العربية

صلاح الدين عثمان هاشم

قام بمراجعته

إيغور بليايف

القسم الثانى

اختارته

الإدارة الثقافية

فى

جامعة الدول العربية

هذه ترجمة كتاب

IGNATI IULIANOVICH KRACHKOVSKI

ISTORIA ARABSKOI GEOGRAFICHESKOI LITERATURY

MOSKOVA - LENINGRAD
1957

محتويات الكتاب

القسم الثانى

الصفحة

الصفحة

تاريخ الأدب الجغرافي العربي

القسم الثاني

الفصل السابع عشر

المقريزى وجغرافيو مصر إلى الفتح العثمانى

---

459 أصبحت مصر فى القرن الخامس عشر كما رأينا مثابة للأدب العربى بأجمعه ، وظلت تشغل هذه المكانة إلى الفتح العثمانى. وفيما يتعلق بالتأليف الجغرافى فإن الأمر الجدير بالملاحظة هو أن جميع الأنماط الجغرافية المعروفة لنا بالتقريب قد نمت وترعرعت بها ؛ ويصدق هذا بصورة خاصة على نمط الموسوعات الذى بلغ الأوج فى بداية القرن الخامس عشر وكان أكثر آثار ذلك العهد إبداعاً وأصالة . وتسترعى النظر كما هو الحال من قبل الجغرافيا الإقليمية الإدارية (Administrative-regional Geography) التى نمت نمواً مطرداً فى أوساط عمال دولة المماليك ، أما الجغرافيا الإقليمية فتقدم لنا نمط « الخطط » التاريخى الطوبوغرافى الذى بلغ ذروته فى مصنف المقريزى المشهور. وإلى جانب هذا فإن المؤرخين أنفسهم لم يكتفوا بضم مادة جغرافية كبيرة إلى مصنفاتهم فى التاريخ العام أو التاريخ المحلى بل عالجوا أحياناً الكتابة فى الأنماط الجغرافية المختلفة .

وخير ممثل لهذا الصنف من المؤلفين فى بداية ذلك العصر هو صارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق المصرى الذى غلب عليه اسم ابن دقماق[1] ؛ وقد شغل لبعض الوقت أثناء سلطنة محمد الناصر منصب الوالى بدمياط ، غير أن اهتمامه الأكبر كما يبدو كان منصرفاً إلى كتابة التاريخ ، كما وأنه كان يعد فى مجال الفقه من غلاة الحنفية وهو أمر جر عليه بعض المتاعب فى مصر التى غلب عليها مذهب الشافعى . ومن مصنفاته سفر ضخم فى التاريخ فى إثنى عشر جزءاً وصل به إلى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ وأتمه فى عام ٧٨٤ هـ = ١٣٨٢ ، ولم يتبق منه سوى بضعة أجزاء بخط يد المؤلف نفسه موجودة بمكتبة غوتا Gotha بألمانيا ؛ كما عهد إليه الظاهر برقوق (توفى فى عام ٨٠١هـ = ١٣٩٨) بكتابة تاريخ ولاة مصر فوصل به إلى عام ٨٠٤هـ = ١٤٠٢ . أما مصنفه الجغرافى فكان على ما يظهر من أواخر آثاره العلمية ولعله لم يكمله ؛ ومن المحتمل أنه 460 حاول تحت تأثير نمط « الفضائل » القديم من جهة والجغرافيا الإقليمية الإدارية من جهة أخرى أن يصف الأمصار العشرة الكبرى فى العالم الإسلامى مولياً اهتمامه الأكبر إلى مدن مصر ومبيناً فضلها على بقية المدن ، ولهذا فقد أطلق على كتابه اسم «كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار»[2] . وقد حفظ لنا من هذا الكتاب الجزآن الرابع والخامس فى مخطوطة بدار الكتب المصرية بخط يد المؤلف ولم يكن قد انتهى من صياغتها فى صورتها النهائية . هذان الجزآن يعالجان الكلام على القاهرة والإسكندرية ويحملان فى بعض الأحيان عنواناً منفصلا أبعد من أن نرجع إلى المؤلف نفسه وهو « الدرة المضية فى فضل مصر والإسكندرية » .

والمصنف لايتمتع بأية ميزات أدبية بل يقتصر على تعداد جاف لمعالم المدينة الهامة مع الاكتفاء بتعليقات تختلف طولا وقصراً ، وهو يبدأ بالكلام على مدينة الفسطاط مفصلا القول على أحيائها وأسواقها وبركها ومساجدها ومعاهدها وأبنيتها وأديارها وكنائسها الخ . وابن دقماق يستشهد من وقت لآخر بالأشعار التى يرد فيها ذكر المواضع التى يعالج الكلام عليها ولو أنه لايبالغ فى ذلك كما هو الشأن مع المؤلفين الآخرين؛ ومن الطبيعى ألا تتساوى من حيث الأهمية جميع الموضوعات التى يتكلم عنها فجزيرة الروضة مثلا تحتل أهمية خاصة لديه وذلك لارتباطها بذكريات أدبية معينة . وهو يطبق الطريقة التى لجأ إليها فى وصف الفسطاط فى كلامه على بقية حواضر مصر فيبدأ بالقريبة من القاهرة مثل اطفيح وأسيوط الخ ويعقبها بالبعيدة؛ ثم يرجع إلى الكلام مرة أخرى على القاهرة قبل أن ينتقل إلى الإسكندرية ، ومن الملاحظ أن القسم الذى أفرده للكلام على هذه المدينة الثانية لايبدو أنه قد أتمه إذ يقتصر فى حقيقة الأمر على سرد للأساطير المتعلقة بها دون أن يتعرض لوصفها .

والكتاب يوحى بصورة عامة أنه لم يتمم إذ كثيراً ما نلتقى فى النسخة الموجودة بخط يد المؤلف ببياض فى الأصل يمس الأرقام بشكل خاص ، ومن حقنا أن نفترض أنه لم يقدر للمؤلف أن ينفذ خطته بالتمام لذا فلم يتمكن إلا من تدوين جزئين[٣] من العشرة التى كان ينوى كتابتها ؛ وقد وصل إلى نفس هذه النتيجة ناشر الكتاب العلامة فولرز Vollers عند فحصه لمسألة استعمال المقريزى لمصنف ابن دقماق فى كتابه فى « الخطط » . وكان المقريزى من تلامذة ابن دقماق[٤] فلاعجب أن عرف مؤلفاته جيداً ، غير أن الغريب فى الأمر هو أنه لايشير فى أى موضع إلى «كتاب الانتصار» بل ويصرح عند تعداده لمصادره أن آخر من كتب فى الخطط هو ابن المتوج المعروف[٥] . وبما أن المقريزى بدأ نشاطه العلمى بدراسة العلوم الشرعية فقد دفع ذلك فولرز إلى الافتراض بأنه اشتغل بالتاريخ عقب وفاة ابن دقماق[٦] وبذلك لم يتعرف على مصنفاته هذه ؛ ومن الممكن أنه قد أغفل ذكره عن عمد لأن المقريزى كان شافعياً متطرفاً . ووجود الكتاب فى مخطوطة وحيدة يدفع إلى الاعتقاد بأن نسخة المؤلف قد وقعت فى وقف أحد مساجد القاهرة وظلت مجهولة من الجميع[٧] ؛ وعلى أية حال فإن تاريخ تدوينه يقع بعد عام ٧٩٣هـ = ١٣٩١[٨] .

461

وكان ابن دقماق رجلا واسع الاطلاع إذا حكمنا من مصنفاته التاريخية ، وهو يستقى مادته الجغرافية من مؤلفين معروفين لنا فينقل عن الحوقلى (ابن حوقل) والمؤلفين الذين يعالجون الكلام بصورة خاصة على مصر كالكندى وابن عبد الحكم والقضاعى وابن زولاق كما ينقل أيضاً عن ابن سعيد والإدريسى[٩] . ويقرر فولرز أن ابن دقماق قد استعان بمصادر أفضل من تلك التى لجأ إليها المقريزى وأنه وقف منها موقفاً أكثر جدية فلم تجتذبه الغرائب والعجائب كما حدث مع الأخير[١٠] . هذا وتتعارض المصادر حول تاريخ وفاته ولكن أقربها إلى الواقع هو عام ٨٠٩ هـ = ١٤٠٧[١١] .

وعلى نقيض ابن دقماق كان إدارياً أكثر منه عالماً خليل بن شاهين الظاهرى (المتوفى فى عام ٨٧٢ هـ =

١٤٦٨)[١٢] أحد كبار رجال دولة المماليك ؛ وكان أبوه من مماليك السلطان الظاهر سيف الدين وإليه نسب الابن[١٣] . وقد ولد خليل الظاهرى بالقدس فعرفها معرفة مباشرة[١٤] ولكنه تلقى تعليمه بمصر وشغل منذ السنوات الثلاثينات للقرن الخامس عشر عدداً من المناصب الهامة فى حكومة المماليك فكان والياً على الإسكندرية لبعض الوقت وأميراً للحج لعام ٨٤٠هـ = ١٤٣٦ ، وأصبح فيما بعد والياً على نواح من فلسطين مثل الكرك وصفد وأخيراً تولى منصباً هاماً بدمشق . وكان لتقلبه فى مناصب الدولة المختلفة أن مكنه هذا من التعرف عن كثب على ولاياتها الكبرى وهى مصر والشام والحجاز أيضاً التى كانت تعترف بالتبعية السياسية لدولة المماليك ؛ ولعل نشاطه الإدارى هو الذى دفعه فى عهد السلطان جقمق (٨٤٢ هـ — ٨٥٧ هـ = ١٤٣٨ — ١٤٥٣)[١٥] إلى التفكير فى وضع مدخل من أجل عمال الدولة فبدأ عمله بكتابة مجلدين ضخمين فى أربعين باباً ولكنه لما أبصر ضخامة مؤلفه اختصره فى اثنى عشر باباً بعنوان « زبدة كشف الممالك فى بيان الطرق والمسالك[١٦] » . ومن العبث أن نحاول الاستقراء من عنوان الكتاب أن 462 المؤلف أراد أن يضع مصنفاً من نمط « المسالك » المعروف لنا جيداً ، فالأمر ليس كذلك ؛ ووجود لفظ « المسالك » اقتضاه العنوان المسجوع للكتاب وبخلاف هذا فإن الكتاب فى واقع الأمر يمثل شيئاً أقرب إلى تقويم حكومى لأراضى دولة المماليك الغرض منه أن يكون مرجعاً لموظفى الدولة وللمهتمين بالمسائل السياسية والدبلوماسية[١٧] ؛ وأقرب شبيه له فى هذا المضمار هو كتاب « التعريف » للعمرى ؛ ورغما من فقدان الصلة المباشرة بين الكتابين[١٨] إلا أن الشبه بينهما لم يأت عفواً كما أثبت ذلك هارتمان Hartmann الذى أخضعهما لتحليل دقيق .

ومما لاشك فيه أن المقارنة بين هذين الأثرين ليست فى صالح الظاهرى بأية حال ؛ وسبب ذلك أن الظاهرى لم يقصد بكتابه الفائدة والمعرفة فقط بل أراد به أيضاً المتعة والتهذيب[١٩] فخرج الكتاب كما يقول هارتمان مليئاً بالهراء من حيث أراد صاحبه التسلية والمتعة ومفعماً بالغث من حيث أراد منه التهذيب والتوجيه . ومن ثم فلا يمكن مقارنته فى أى شىء بكتاب العمرى[٢٠] لأن هذا الأخير جمع بجد واهتمام كل ما هو ضرورى من أجل كتاب الإنشاء ببلاط السلطان على عكس خليل الظاهرى الذى استهدف الإمتاع[٢١] وأراد من وقت لآخر إشباع نزعاته الأدبية رغماً عن افتقاره التام إلى الذوق الأدبى . وهو يورد فى كتابه عدداً كبيراً من الأقوال المأثورة وقصص التقى والورع[٢٢] ولكنه يسبغ على مضمونها طابعاً مميزاً من سماته الشخصية التى يوجد من بينها على حد تعبير هارتمان المغالاة فى إظهار التدين وفى الاهتمام بالدين وهى صفة تقرب كثيراً بين خليل الظاهرى وعدد من الكتاب المتأخرين كالرحالة المعروف عبد الغنى النابلسى ، وتدفعه إلى سرد أخبار لاتحصى عن المواضع المقدسة[٢٣] . كذلك من سماته الرضى عن النفس ويتمثل هذا فى الاقتباسات التى ينقلها من قصائد المدح التى قيلت فيه وأيضاً فى العدد الضخم من قصائده هو التى أضافها فى آخر الكتاب هذا بالرغم من افتقارها البين إلى الجودة[٢٤] . وهو لم يجهد فى استيعاب مادته

الحربية أو يتوخى الدقة فى روايتها[٢٥] ، مثال ذلك أنه لا يفصّل الكلام على نظام الإدارة فى دولة المماليك وأنه كثيراً ما ينقل إحصائياته لا من الوثائق الرسمية المعاصرة بل من مؤلفات قديمة طال عليها العهد[٢٦] ؛ وعلى خلاف العمرى فإنه لايقدم نماذج لصيغ المكاتبات الرسمية من ذلك الضرب الذى حفل به كتاب « التعريف »[٢٧] .

وأمام هذا التحليل القاسى فإن الحكم على مؤلفنا قد يبدو سلبياً للغاية ، غير أن خليل الظاهرى لحسن الحظ لا يفتقر إلى بعض 463 المميزات فهو قد جهد فى تقديم صورة متكاملة الجوانب للنظام الإدارى بمصر كما أن الباب الأول من كتابه الذى يعد أوسع فصوله جميعاً يعرض لنا تحليلا جغرافياً عاماً للحجاز وبعض فلسطين ومصر وسوريا ، وفى الباب الثانى ينتقل إلى الكلام على نظام السلطنة وما يتحلى به السلطان من الصفات ويصف الموكب الشريف والملبوس . . وفى الباب الثالث والأبواب التى تليه وهى أصغر بكثير من سابقتها من حيث الحجم يرد الكلام بالتوالى على الخليفة « أمير المؤمنين » وقاضى القضاة وأئمة الدين وعلى الوزارة وما يرتبط بها من مناصب ودواوين . وقد أفرد بعض الأبواب القصيرة للكلام على أولاد الملوك وعلى الأمراء ، كما يتعرض فيها للكلام على بعض المناصب مما لم يعالجه فى الأبواب السابقة . وفى الباب السابع يصف بعض دور الحكومة على حين يفرد الثامن للكلام على ملحقات الدور السلطانية والتاسع للكلام عن صيانة الجسور والطرق وعن تقسيم الولايات . وأغلب الظن أن الأبواب الثلاثة الأخيرة للكتاب قد أضيفت بالتدريج وهى تسوق العرض وفقاً لمنهج مغاير بعض الشىء ، فالباب العاشر أشبه بوصف لنظام الجيوش عند المماليك هذا بينما يعالج الحادى عشر الكلام على العربان والتركمان والأكراد خاصة من زاوية تزويدهم مصر بالمماليك . أما الباب الثانى عشر فيحمل طابعاً يسوده الخلط والصدفة إذ يضم أساطير عن شداد وفرعون ، كما يضم قصائد للأمراء المعاصرين للمؤلف . ورغما من التلون الذى يغلب على مادة الكتاب وعدم تمسك المؤلف بخطته فى الأبواب الأخيرة منه فإنه لا يمكن بأية حال إنكار أن المادة التى تحتويها الأبواب الأولى ضخمة وهامة ولو أنه يجب الاعتراف بأنها تتراوح من حيث أهميتها . وعلى أية حال فقد استطاع خليل الظاهرى بفضل منصبه الحكومى أن يفيد أحياناً من الوثائق الحكومية[٢٨] ، ويلاحظ هارتمان هذا بصورة خاصة فى القسم الذى أفرده للكلام على البريد وهو أقيم ما فى الكتاب بأجمعه[٢٩] ؛ ويكتسب أهمية خاصة تعداده لمنازل البريد ومحطاته لا لأنه يذكر أسماء مواضعها الرئيسية فحسب كما فعل معظم المؤلفين قبله بل لأنه يقدم لنا تفاصيل ذات أهمية كبرى ؛ ومما يؤسف له حقاً أن متن الكتاب فى هذا الموضع ليس فى حال تبعث كثيراً على الرضى[٣٠] . وإلى جانب المادة الإخبارية التى يوردها والتى كما رأينا لاتخلو من القيمة فإنه يجب الاعتراف بأن الكتاب لايخلو من أهمية فى حد ذاته لأنه ينتمى إلى عصر لم تصلنا منه مادة جغرافية وفيرة ، أضف إلى هذا أن المطبوع منها فى صورة مرضية أقل من ذلك بكثير[٣١] . وهو معروف حتى الآن فى الملخص الذى عمله المؤلف والذى أشرنا إليه فى حينه ؛ وأغلب

الظن أن المسودة الأصلية قد فقدت . وقد ظهر أكثر من مرة الرأى القائل بأنها هى التى رجع إليها فى القرن الثامن عشر الرحالة المعروف ڤولنى Volney فى وصف رحلته بمصر وسوريا (١٧٨٧) ، غير أن التحليل الذى قام به هارتمان أثبت أن المسودة التى وجدت بين يدى الرحالة هى نفس الملخص المعروف لنا[٣٢] . 464

لقد حدث وأن أشرنا إشارة عابرة أثناء كلامنا عن مصر فى القرن الرابع عشر إلى أحد معاصرى خليل الظاهرى ، وهو سليل أسرة من تلك الأسر القبطية التى اعتاد حكام مصر استخدامها فى وظائف الدولة الدولة آنذاك[٣٣] واسمه الشيخ أبو البقاء بن الجيعان[٣٤] ؛ وقد ساق التشابه فى الأسماء إلى الخلط بينه وبين سميه السابق له والذى كان من موظفى الديوان أيضاً[٣٥] . وحمل صاحبنا لقب « مستوفى ديوان الجيش »[٣٦] أى أشبه ما يكون برئيس لكتبة الإدارة العسكرية ؛ ومن المحتمل أنه قد وضع مصنفه فى البداية ليكون مرشداً للعاملين فى تلك الإدارة ؛ وهو كتاب جاف للغاية ولكنه لا يخلو من الفائدة وعنوانه « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » . ويقول المؤلف فى مقدمة كتابه « فهذا كتاب أذكر فيه ما بإقليم مصر من البلدان وعبرة * كل بلد وكم مساحتها من فدان ، أولا بذكر الإقليم على وجه الإجمال وأذكر عبرة الأقاليم المذكورة على ما استقر عليه الحال فى أيام الأشرف شعبان ، وإن تغيرت عبرة بلدة عما كانت عليه ذكرت عبرتها الآن »[٣٧] . والمؤلف كما يبصر من ألفاظه يستدرك بقوله إن مادته ترجع إلى عهد السلطان شعبان ، وكما رأينا من قبل فإن المرجع الرئيسى فى هذا الصدد هو « تقويم البلدان المصرية فى الأعمال السلطانية » الذى تم تأليفه بالديوان السلطانى حوالى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ ومما يقف دليلا على الأهمية العملية لكتاب ابن الجيعان فيما يتعلق بإدارة مصر هو أنه نقل إلى التركية[٣٨] .

ولابن الجيعان مؤلف آخر ذو طابع جغرافى يمثل بالنسبة لنا أهمية كبرى ، ففى عام ٨٨٢ هـ = ١٤٧٧ قام السلطان قايتباى برحلة فجائية إلى الشام أخفى الغرض من زيارتها حتى على من أخذوا طرفاً فيها ويلوح أن المقصود منها كان التأكد من أن التحصينات القائمة على الحدود مع آسيا الصغرى فى حالة جيدة تستطيع معها الوقوف ضد العثمانيين إذا ما فكروا فى مهاجمة الشام[٣٩] . وكان من بين رجال حاشيته ابن الجيعان الذى ترك لنا وصفاً لهذه الرحلة فى كتاب صغير بعنوان « القول المستظرف فى سفر مولانا الأشرف » أخرجه فى طبعة حجرية المستشرق الإيطالى لانزونى R. Lanzone فى عام ١٨٧٨ وله ترجمة إنجليزية بقلم ديڤونشير R. Devonshire (١٩٢٢) ؛ هذا وقد نسب الناشر سهواً تأليف الكتاب إلى ناسخه[٤٠] إبراهيم الطيبى[٤١] . وابن الجيعان يذكر نفسه ضمن الحاشية وقد جاء بألفاظه أنه وجد بينها « العبد أبو البقاء بن الجيعان »[٤٢] ، ومما يؤكد مشاركته فى هذه الرحلة أن المؤرخ ابن إياس يذكر ذلك بل ويضيف إلى هذا أن قايتباى ، قد حفظ أمرها سراً[٤٣] . 465

* عبر البلد أو عبرتها خراجها وغلتها . (المترجم)

وتكمن الميزة الأساسية لهذا الأثر فى بساطته وفى معلوماته المباشرة ، ويلوح أن ابن الجيعان قد دون الجزء الأكبر منه دون أن يعمل فيه بيد التنقيح لذا فقد كثرت فيه الألفاظ والعبارات المكررة مما يحمل على الاعتقاد بأنه قد كتبه فى الأصل على شكل يوميات لم يلبث أن ضم بعضها إلى بعض دون إضافات أو تعديلات ذات بال . وعلى نقيض كتابه « التحفة » فقد كان هدفه هنا وضع أثر أدبى إن لم يكن فى أسلوب رفيع على الدوام فهو قريب منه على الأقل ، لذا فإنه تقابلنا فى مواضع عديدة منه جمل مسجوعة وأشعار متكلفة ليست بذات قيمة تذكر . ونظراً لأنه قد شغل فى هذه الرحلة وصفاً أشبه بوضع مؤرخ للبلاط فقد وجد نفسه بطبيعة الحال خاضعاً لالتزامات معينة فكان من الضرورى عليه مثلا أن يفسح المجال لمدح ولى نعمته ولعل هذا هو السبب فى اختتامه الكتاب بمقارنة بين قايتباى والظاهر بيبرس (٦٥٨ هـ - ١٢٧٧) بصدد ما قام به كل منهما بالشام ، أخرج منها الأخير بصفقة المغبون[٤٤] وهو أمر لايقره عليه أحد . غير أن أسلوب الكتاب يجب ألا يقف حائلا دون الاعتراف بقيمته وبصحة معطياته ، فوصفه للطريق بين مصر والشام كان ذا فائدة كبرى للمستشرق هارتمان فى بحثه الخاص الذى أفرده لهذا الموضوع[٤٥] .

وقتل ابن الجيعان عام ٩٠٢ هـ = ١٤٩٧ فى أحد شوارع القاهرة بيد مملوك مجهول وهو فى سن الستين بحسب رواية ابن إياس[٤٦] . وكتابه « المستظرف » لايمثل بطبيعة الحال النموذج الوحيد لتدوين رحلة أمير كبير بقلم أحد رجال حاشيته إما بتكليف منه أو لنيل عطفه ؛ وقد استمر هذا الضرب من الرحلات مزدهراً لعدة قرون بل إننا نلتقى به فى القرن العشرين فى مصنف مشابه ولكنه يقوم على أساس يخالف كل المخالفة أعنى رحلة البتانونى التى رفعها إلى خديو مصر عباس حلمى .

لقد شهد عصر المماليك كما أبصرنا انتعاش وازدهار نمط الموسوعات ، ولكنه إلى جانب هذا بلغ فيه المقريزى القمة بنمط آخر هو نمط « الخطط » . وسنرى فيما يلى أن المقريزى وإن لم يكن آخر المؤلفين فى هذا الباب إلا أنه أعظمهم مكانة .

466

والمقريزى بوجه عام شخصية ضخمة بين مؤرخى مصر الإسلامية ليس فقط لدقة روايته التى لاتنفك دائماً فوق مستوى النقد بل قبل كل شىء لنشاطه الجم الذى لايعرف الكلل ولاتساع أفق دراساته واهتمامه الكبير بالجانب الاجتماعى والديموغرافى (Demographic) للتاريخ[٤٧] . ويمكن إلى حدما اعتباره أبا لتلك المدرسة التاريخية التى ازدهرت بمصر فى ذلك العصر وقدمت لنا أسماء لامعة كمعاصريه العينى وابن حجر وتلميذه ثم منافسه أبى المحاسن[٤٨] ، ومن ممثلى الأجيال التالية السخاوى الذى كان يضمر له بعض السوء ثم العلامة الكبير السيوطى ، وأخيراً المؤرخ ابن إياس الذى شهد الفتح العثمانى[٤٩] . وسنلتقى ببعضهم ممن عالجوا الكلام فى موضوعات جغرافية فى سياق هذا الفصل .

د . والمقريزى[٥٠] أو ابن المقريزى كما يدعى أحيانا هو تقى الدين أحمد بن على ؛ ولد بالقاهرة فى عام ٧٦٦هـ = ١٣٦٤ وأحس من نفسه دائماً مواطناً مصرياً غيوراً كما سنبصر هذا من مقدمته لكتابه « الخطط » . وكان

من أساتذته ابن خلدون ؛ وقد بدأ دراسته على ما يبدو بالتخصص فى العلوم الشرعية وكان من غلاة الشافعية على عكس أحد أساتذته وهو ابن دقماق الحنفى ؛ وكما لاحظ أحد معاصريه وهو أبو المحاسن[٥١] فإن بغضه للحنفية قد انعكس فى مؤلفاته . وقام المقريزى بتدريس الحديث فى سن مبكرة بالقاهرة ثم تقلب فى الوظائف فشغل منصب القضاء بها وولى الحسبة بعد ذلك . وانتقل إلى دمشق عام ٨١١ هـ = ١٤٠٨ فى مهام مشابهة جمع إليها التدريس وإدارة الوقف ؛ ورجع إلى القاهرة بعد عشرة أعوام ومنذ تلك اللحظة كرس حياته كلية للكتابة فى التاريخ الذى شعر دائماً بميل شديد نحوه كما سنرى من مقدمة كتابه . وقد أدى المقريزى فريضة الحج مع أسرته فى عام ٨٣٤ هـ = ١٤٣٠ واغتنم هذه الفرصة فأقام بعض الوقت بالحجاز وهناك استطاع أن يتعرف عن طريق الحجاج على بلاد العرب الجنوبية بل والحبشة أيضاً ، مما تردد صداه بالتالى فى مصنفاته التاريخية . ورجع من الحجاز فى عام ٨٣٩ هـ = ١٤٣٥ واستقر نهائياً بالقاهرة إلى وفاته بها فى عام ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ .

ويبدو أن التاريخ قد تملك على المقريزى فعلا شغاف قلبه ، وهو على نقيض غالبية العلماء العرب لم يترك بالتقريب مصنفاً فى ميدان آخر بخلاف التاريخ . ولكنه فى مقابل هذا فإن عدد مصنفاته التاريخية كبير للغاية ، أضف إلى هذا أن قسما كبيراً منها قد حفظ لنا أحياناً بخط يد المؤلف نفسه[٥٢] . ورغماً من مرور قرن من الزمن فلا نستطيع إلا أن نوافق كاترمير Quatremère فى حكمه الأساسى على المقريزى حينما قال : «إنه لمن دواعى الدهشة حقاً أن نتصور مدى وأهمية إنتاج المقريزى فهو قد ألقى ضوءاً ساطعاً فى أبحاثه الواسعة التى لاتعرف الكلال على كل ما يمس التاريخ السياسى والأدبى للشرق وبوجه خاص مصر»[٥٣]. 467
وإذا ألقينا نظرة إلى ثبت مؤلفاته العديدة بان لنا هدفه واضحاً تمام الوضوح ، فمركز الصدارة بالنسبة له يحتله تاريخ مصر الطبوغرافى (الخطط) والمحلى ولكنه فى ذات الوقت لايهمل جيرانها إلى حدود المغرب والحبشة وبلاد العرب الجنوبية ، كما يولى أهمية خاصة للمسائل التاريخية والحضارية المتصلة بالموازين والنقود[٥٤] ؛ ولعل هذا الموضوع الأخير يعكس تأثير وظيفة المحتسب التى شغلها لبعض الوقت . ولمصر كرس المقريزى سلسلة كبيرة من المصنفات تشمل جميع الأنماط التاريخية بالتقريب ، فقد كتب فى تاريخ الفاطميين وفى تاريخ الأيوبيين والمماليك (ساقه إلى عام ١٤٤٠) ووضع معجماً كبيراً فى السير لم يتمه هذا بخلاف عدد من الرسائل فى موضوعات مختلفة .

أما الموضوعات الجغرافية فقد مسها بطبيعة الحال فى مؤلفاته التاريخية ولكنه أفرد لها إلى جانب هذا مجهوداً خاصاً فنحن نعلم مثلا أنه قام بتعديل وتنقيح المسودة الأولى للمعجم الجغرافى للحميرى « الروض المعطار »[٥٥] الذى مر بنا الكلام عليه . بيد أن هذا ليس هو السبب الذى يجعلنا نقف للكلام عليه فى عرض عام للأدب الجغرافى ، بل إن السبب فى ذلك هو مصنفه الرئيسى الذى يكاد يكون الأثر الأكبر فى مجهود حياته العلمية أعنى كتابه المشهور « الخطط » الذى يرتبط بالتاريخ وبالجغرافيا التاريخية على حد السواء .

نشأ نمط الخطط بمصر وكان له فيها تاريخ مجيد معروف لنا جيداً بل وحدث أن لمسنا أكثر من مرة لحظات معينة فى تطوره الخلاق . ويقدم لنا المقريزى فى كتابه حصيلة هذا المجهود ويدفعه إلى الأمام بصورة ملحوظة محدداً فى ذات الوقت أهدافه وأغراضه وموقفه هو منه ؛ وقد عرض المقريزى أفكاره هذه فى مقدمة كتابه . فبعد أن حدد الدوافع التقليدية المعهودة التى كأنما يوردها « دفاعاً » عن نفسه أو ربما خضوعاً منه للالتزامات الأدبية المعمول بها يأخذ المقريزى فى توضيح الاعتبارات والعوامل الشخصية التى حدت به إلى تأليف الكتاب ويعكس خلال هذا حباً عميقاً لوطنه مصر وشغفاً كبيراً بتخليد آثارها[٥٦] . وأقل طرافة من هذا تلك الأقسام من مقدمته التى يسوق فيها[٥٧] الكلام المعهود فى تبرير الاشتغال بالعلوم التاريخية وبالجغرافيا وذلك عن طريق الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وبعد أن يورد الصيغ المعروفة والتى نلتقى بها عادة لدى جميع المؤلفين ينتقل المقريزى إلى جوهر موضوعه فيقول :

« وبعد فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً ، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً ، لما يحويه من المواعظ والإنذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ، والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها | ، واستعلام مذامّ الفعال ليرغب عنها أولو النُّهَى ، لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به وامقة ، والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة ، وقد صنف الأئمة فيه كثيراً ، وضمّن الأجلة كتبهم منه شيئاً كبيراً .

468

وكانت مصر هى مسقط رأسى وملعب أترابى ومجمع ناسى ، ومغنى عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤنى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره ، لازلت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الكثير من آثارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ، فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أو يحويها لعزتها وغرابتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتبة على منوال ، ولا مهذبة بطريقة واحدة ومثال ، فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم الماضية والقرون الخالية ، وما بقى بفسطاط مصر من معاهد غيرها أو كاد البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار القصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المبانى البديعة الأوضاع ، مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل ، وأنثر خلال ذلك نكتاً لطيفة ، وحكماً بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ، ولا إجحاف مخلّ بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين بين ، فلهذا سميته كتاب المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار .

وإنى لأرجو أن يحظى إن شاء الله عند الملوك ، ولا ينبو عنه طباع العامىّ والصعلوك ، ويجله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى ، وترضاه خلائق العابد الناسك ، ولا تمجه سمع الخليع الفاتك ، ويتخذه أهل الرفاهية والبطالة سمراً ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبراً ، يستدلون به على عظيم

قدرة الله تع فى تبديل الأبدال ، ويعرفون به عجائب صنع الله سبحانه من تنقل الأمور من حال بعد حال »(٥٨) .

470 من هذا يبدو جلياً كيف عمل المقريزى حساباً لاعتبارات تثقيفية تعليمية وسط المادة العلمية التى يصوغها وكيف يفسح عرضه العلمى أحياناً الطريق إلى اتجاهات بلاغية ، فعقب القطعة التى مرت بنا يجتذبه الدافع الأدبى قدماً فيحاول استدرار عطف القارئ (captatio benevolontine) باصطناع التواضع والمذلة وذلك بتصوير ضعفه والظروف القاسية التى تم فيها تأليف الكتاب(٥٩) ؛ وهو فى أثناء كلامه هذا يستشهد بأشعار معروفة على وجه العموم ولا تمثل بأية حال أهمية خاصة بالنسبة لنا ؛ ولكن يتلو هذا عبارات ، تكتسب أحياناً أهمية جوهرية ، من ذلك قوله :

« اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهى ، الغرض ، والعنوان ، والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أى صناعة هو ، وكم فيه من الأجزاء ، وأى أنحاء التعاليم المستعملة فيه .

فنقول ، أما الغرض فى هذا التأليف فإنه جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال ملكها كى يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر وهى التى إذا حصلت فى ذهن إنسان اقتدر على أن يخبر فى كل وقت بما كان فى أرض مصر من الآثار الباقية والبائدة ويقص أحوالها من ابتدأها من حلّها وكيف كانت مصاير أمورهم وما يتصل بذلك على طريق الأتباع لها بحسب ما تحصل منه الفائدة الكلية بذلك الأثر .

وأما عنوان هذا الكتاب أعنى الذى وسميته به فإنى لما فحصت عن أخبار مصر وجدتّها مختلفة متفرقة فلم يتهيأ لى إذا جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين لعدم ضبط وقت كل حادثة لاسيا فى الأعصر الخالية ولا أن أضعها على أسماء الناس لعلل أخر تظهر عند تصفح هذا التأليف فلهذا فرقتها فى ذكر الخطط والآثار فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر ولم أتحاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه بطريقة يستحسنها الأريب ، ولا يستهجنها الفطن الأديب ، كى يستغنى مطالع كل فصل منه بما فيه عما فى غيره من الفصول فلذلك سميته كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

وأما منفعة هذا الكتاب فإن الأمر فيها يتبين من الغرض فى وضعه ومن عنوانه أعنى أن منفعته هى أن يُشرف المرء فى زمن قصير على ما كان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة فتتهذب 471 بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالاجتناب عنها والإقبال على ما يبقى .

وأما مرتبة هذا الكتاب فإنه من جملة أحد قسمىْ العلم اللذَيْن هما العقلى والنقلى فينبغى أن يُتفرّغ لمطالعته ويُتدبّر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقلية والعلوم العقلية فإنه يحصل بتدبره لمن

أزال الله أكنّة قلبه وغشاوة بصره نتيجة العلم بما صار إليه أبناء جنسه بعد التخوّل فى الأموال والجنود ، من الفناء والبيود ، فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم النقلية والعقلية ليُعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل .

وأما واضع هذا الكتاب ومرتبه فاسمه سيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد ويُعرف بابن المقريزى رحمه ولد بالقاهرة المعزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبعمائة من سنى الهجرة المحمدية ورتبته من العلم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألفه .

وأما من رأى علم هذا الكتاب فإنه من علم الأخبار وبها عُرفت شرائع الله التى شرعها وحفظت سنن أنبياء الله ورسله ودُوّن هديهم الذى يقتدى به من وفقه الله إلى عبادته وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته وبها نُقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة وكيف حل بهم سخط الله لما أتوا ما نُهوا عنه وبها اقتدر الخليقة من أبناء البشر على معرفة مادونوه من العلوم والصنائع وتأتى لهم علم ماغاب عنهم من الأقطار الشاسعة والأمصار المتباينة وغير ذلك مما لا ينكر فضله ولكل أمة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم أخبار معروفة عندهم مشهورة ذائعة بينهم ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر ولو استقصيت ما صنف علماء العرب والعجم فى ذلك لتجاوز حد الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره .

وأما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة ، أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها(٦٠) ، وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس | أهلها(٦١) ، وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها(٦٢) ، ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وماكان لهم من الآثار(٦٣) ، وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال(٦٤) ، وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها(٦٥) ، وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر ، وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء عدة أقسام . 472

وأما أى أنحاء التعاليم قصدت فى هذا الكتاب فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهى ، النقل من الكتب المصنفة فى العلوم ، والرواية عمن أدركت من مشيّخة العلم وجلة الناس ، والمشاهد لما عاينته ورأيته ، فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلت منه لأتخلص من عهدته وأبرأ من جريرته فكثيراً ممن ضمنى وإياه العصر واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه فى معرفة مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لايعرفه ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ماتضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يُقطع عليه ولايُحتاج فى الشريعة إليه وحسبُ العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه ، وأما الرواية عمن أدركت من المشايخ والجلة فإنى فى الأكثر والغالب أصرح باسم من حدثنى إلا أن لايُحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقلّ مايتفق مثل ذلك ، وأما ماشاهدته

فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين ، وقد قلت فى هذه الرؤوس الثمانية ما فيه مقنع وكفاية ولم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت به وعزمى أن أجعل الكلام فى كل خط من الأخطاط وفى كل أثر من الآثار على حدة ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع وأكثر فائدة وأسهل تناولاً والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وفوق كل ذى علم عليم »[٦٦] .

وإذا ما تركنا جانباً العبارات البلاغية المتناثرة فى هذه المقدمة فإن المؤلف يوضح بجلاء كاف موقفه من فن التاريخ وآراءه الشخصية حول مصنفه والأهداف التى وضعها نصب عينيه ، | ثم مضمون الكتاب. 473
وبهذا يوفر علينا الكلام على هذه النقاط بحيث نقتصر على إيراد زيادات طفيفة ونركز بهذا اهتمامنا على سؤال أساسى هو إلى أى درجة وفق المقريزى فى تحقيق أهدافه ، وهل يوجد لديه اختلاف كبير بين النظرية والتطبيق كما حدث وأن لاحظنا ذلك لدى مفكر ممتاز كابن خلدون ؟

والمقريزى لايذكر فى مقدمته شيئاً عن تاريخ تدوينه للكتاب ولكن نستطيع أن نستنتج من خلال فصوله أن ذلك أخذ وقتاً طويلا وأن المؤلف لم يتوقف عن الإضافة إليه على مر الزمن . وتشير الدلائل على أن البدء فى تدوين المصنف قد حدث بين عامى ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ و٨٢٥ هـ = ١٤٢٢[٦٧] ، أما نهايته فيجعلها غست Guest عام ٨٤٠ هـ = ١٤٣٦[٦٨] ، ولكن كما بين محمد عبد الله عنان فإن المقريزى ظل يضيف إلى كتابه إلى عام ٨٤٣ هـ = ١٤٣٩[٦٩] أى إلى ما قبل وفاته بنحو عامين .

ومحتويات الكتاب خاصة قرب نهايته تختلف بعض الشىء عن خطة المؤلف الأولى كما فصل الكلام عليها فى المقدمة[٧٠] ، فهناك يذكر المقريزى أنه رتبه على سبعة أجزاء ولكننا نبصر فى الواقع أن الجزء السادس الذى أفرده للكلام عن القلعة يتداخل فى الجزء الخامس الذى يعالج فيه الأحداث المعاصرة له ؛ ويلى هذا قسم ليس بالكبير يتحدث فيه عن الأيوبيين والمماليك[٧١] ثم يفصل فيه الكلام على تاريخ المساجد والمنشآت الأخرى بمدينة القاهرة[٧٢] وكأنه بمثابة تتمة للجزء الخامس . ثم يختم الكتاب بفصول فى تاريخ اليهود والقبط مع تعداد الأديرة وكنائس هؤلاء الأخيرين[٧٣] . وإذا كان ترتيب الجزئين الخامس والسادس فى صلب الكتاب يختلف بعض الشىء عما وعد به المؤلف فى المقدمة فإن الجزء السابع الذى يشير إليه هناك والذى وعد بأن يعالج فيه أسباب « خراب إقليم مصر » لا وجود له البتة مع أن المؤلف قد مس هذا الموضوع فى مواطن كثيرة من كتابه[٧٤] وتناوله من وقت لآخر فى شذور موجزة ومن ثم فيجب الافتراض بأن هذا الجزء إما أنه لم يكتبه إطلاقاً أوفضل عدم ضمه إلى مصنفه . ومهما يكن من شىء فإن هذا يقف دليلا على أن المقريزى لم ينقح مقدمة كتابه بصورة نهائية ، كما يجب أن نضيف إلى هذا أن المقريزى لم ير من الضرورى أن يشير فى المقدمة إلى بعض الأقسام الصغرى من كتابه مثل ذلك العرض القصير الذى يلى المقدمة مباشرة والذى يعالج فيه الكلام على من سبقوه فى ميدان التأليف فى خطط

مصر[٧٥] ، وكبحثه القصير فى علم الجغرافيا الذى جعله بمثابة مدخل إلى الطوبوغرافيا التاريخية[٧٦]
474 والذى يتبع فيه المنهج القديم المعروف | لنا جيداً أولا يكشف عن أية أصالة .

ورغما من التزامه للتواضع كما هى شيمة المؤلفين المسلمين فإن للمقريزى فكرة عالية عن كتابه . وفى الواقع أن قيمة المادة التى جمعها بين دفتى هذا السفر قد نالت تقدير العلماء الأوروبيين الذين اتخذوا فى مقابل هذا موقفاً صارماً من منهجه . وفى عام ١٨٥٦ كتب واحد من خيرة العارفين بالمقريزى وهو المستشرق الفرنسى كاترمير Quatremère ، وذلك بمناسبة ظهور الطبعة الأولى (editio Princeps) « للخطط » فى عام ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ ، يقول إن المقريزى قد جعل هدفه التعريف تعريفاً مفصلا بكل ما يتصل بمسقط رأسه القاهرة وأنه قد حقق هذا الهدف فلم يترك أثراً أو مؤسسة إلا ووصفه بدقة متناهية وحكى بإسهاب تاريخ بنائه والتوسيعات التى زيدت عليه ، وإلى جانب هذا يروى سيراً حياة الأمراء والكبراء الذين باشروا بناءه أو أقاموا فيه كما يدون أيضاً الحوادث الهامة التى اقترنت بهذه الدور والتقاليد والعادات والمراسم المتعلقة بها فى صورة أو أخرى . وقد بين بحق كل من كاترمير والعلامة المعاصر مرجليوث Margoliouth أنه لا توجد مدينة شرقية يمكن أن تفخر بمؤلف يبلغ مرتبة كتاب « الخطط » من حيث الاكمال والطرافة كما هو الحال مع القاهرة[٧٧] ؛ غير أن كاترمير يستدرك على هذا بقوله إن وصف المقريزى لمصر كان بمثابة مقدمة لوصفه للقاهرة وأن المدن الأخرى لاتتمتع بمادة قيمة كالتى أفردها لمسقط رأسه . وكثيراً ما يبدو وصفه جافاً ويعكس مادة أسطورية صرفة ؛ حقاً إنه يورد مادة حافلة عن العصور القديمة ولكن معظمها من نسج الخيال[٧٨] وترجع كما رأينا من مثال ابن وصيف شاه لا إلى مصادر عربية بل إلى ذلك التاريخ الأسطورى الذى عرف فى الأوساط القبطية بمصر ونما وترعرع فى تربة « شعوبية » على ما يبدو .

وعندما أخذ المستشرق غست على عاتقه فى أواخر القرن التاسع عشر فحص مسألة مصادر « الخطط » اضطر إلى موافقة كاترمير فى رأيه مع بعض التحفظات ؛ وهو يعتقد أن نصيب الكوزموغرافيا والجغرافيا لدى المقريزى لاقيمة له وأن مادته فى التاريخ القديم أسطورية بأكملها . أما أكثر الأقسام قيمة فى الجزء الأول فهو وصف نظام الضرائب وجميع القسم الخاص بالفاطميين ؛ ويمكن أن يعتبر كلاسيكياً وصفه لخطط القاهرة ولآثار الفسطاط[٧٩] . ويجب أن نستدرك بهذه المناسبة أن مدينة الفسطاط التى درست آثارها بسرعة فى عهد المقريزى لم تحظ منه سوى بوصف موجز ناقص ، كما وأن وصفه لحوادث عصره يسوده خلط شديد ويهمل فيه ذكر تفاصيل هامة ؛ وأحد عيوبه الخطيرة هو إشارته إلى الجهات بصورة مشوشة تجعل من
475 تحديد مواقع الأماكن بشكل دقيق أمراً عسيراً | بل وضرباً من المستحيل أحياناً[٨٠] . ورغما من جميع هذه التحفظات فيجب موافقة هؤلاء العلماء فى أن اجتهاد المقريزى ومعرفته الواسعة شىء مذهل حقاً ، كما أن

بجانباً كبيراً من المادة التى حفظها لنا كان فى حكم المفقود لولا نقله إياه ؛ وهو فى العادة دقيق فى سرد مادته ويجهد ما أمكن فى نقلها عن الشخصيات المعاصرة للحوادث ، أما أسلوبه فيمتاز بالبساطة والوضوح وبأنه مقبول للنفس ، كما يتحاشى الإسهاب والعاطفية فى كتابته(٨١) .

أما من حيث المنهج فإن الكتاب أشبه ما يكون بمجموعة من المقالات المتفرقة منه بمصنف متماسك ، وفيه يختلط التاريخ بعلم الآثار (archaeology) بحيث لايمكن أحياناً كما يقول غست معرفة ما إذا كان الكتاب مؤلفاً فى التاريخ أم مصنفاً فى الطبوغرافيا . وكما هو الحال مع معظم المؤلفين العرب فإن روح النقد ضعيفة لديه كما يفتقر افتقاراً بيناً إلى الإحساس بالتناسق فهو يولى اهتمامه أحياناً بنسب متعادلة إلى الكلام على الهرم الأكبر ومقبرة صغيرة . وعندما تتناقض مصادره فى رواياتها فإنه يترك الحكم للقارئ ، أما رواياته فإنه فى كثير من الأحيان لم يمحصها بما فيه الكفاية بحيث تمثل فى مجموعها مواد فى تاريخ مصر وطوبوغرافيا مدينة القاهرة وليس تاريخاً أوطوبوغرافيا فى حد ذاتها(٨٢). ورغما من كل هذا فيجب أن نعترف له ببعض الأصالة ، وقد أبصرنا من خلال مقدمته أنه يطرح المنهج الزمنى (chronological) التقليدى تفادياً للخلط فى التواريخ ، ويوزع مادته بحسب « الخطط » والآثار المختلفة متبعاً فى ذلك منطقاً قائماً بذاته . ولا يمكن أن نحرمه من قدر معين من حب الاستطلاع فهو يبدى أحياناً اهتماماً غريباً بمسائل شتى من بينها مسائل جيولوجيه(٨٣) فيعتقد مثلا النيل كان يغطى جميع أرض مصر فى الأزمنة الغابرة وأن أهلها قبل إنشاء مدينة ممفيس كانوا يعيشون داخل الكهوف . والمقريزى يمتاز بمنهج واسع فى معالجته لتاريخ الشعوب التى قطنت مصر ، ولم يحدث أن جمع مؤرخ إسلامى قبله مادة مسهبة كالتى جمعها القزوينى عن القبط الذين يفرد لهم ثمانية فصول فى الجزء الثالث من كتابه . وهو يعالج فى هذه الفصول أيضاً تاريخ الكنيسة القبطية منذ أول بطريرك إلى حملة الاضطهاد التى تعرضوا لها فى عام١٣٥٤ ويورد تعداد ستة وثمانين ديراً قبطياً واثنين وسبعين كنيسة مسيحية مع سرد معلومات تاريخية وجغرافية وافرة عنها(٨٤). وحتى فى هذا الصدد تنعكس بجلاء شخصيته الفريدة فهو عندما يتحدث مثلا عن عيد الشهداء الذين يربط القبط بينهم وبين فيضان النيل لايستطيع أن يمنع نفسه من قدر معين من التهكم « جدير» كما يقول كارا دافو Carra da Vaux « بأفضل مؤلفى عصر النهضـــة الإيطالية »(٨٥) . ولايخلو من الطرافة أن نذكر أن المقريزى قد رجع فى صياغة هذا القسم من كتابه ليس فقط إلى كتاب معروف لنا جيداً هو « كتاب الديارات » للشابشتى بل وأيضاً إلى مؤلفات مؤرخ عربى مسيحى هو المكين .

476 لكل هذه الاعتبارات فقد اتفق الجميع بما لا يدع مجالا للتنازع على أن كتاب المقريزى كتاب [قيم جداً بالنسبة للمادة التى يحويها بين دفتيه . وقد استطاع المقريزى الرجوع إلى جميع المصادر السابقة له والتى هلك أكثر من ثلاثة أرباعها بالنسبة لنا ؛ وهو فى العادة ينقل منها بدقة(٨٦) ولكن فى حدود المنهج الذى سار عليه المؤلفون العرب عامة . غير أننا إذا فحصنا هذه المسألة عن كثب فسنصطدم بصورة جدية بمشكلة عويصة تتعلق بأمانة المقريزى فى استعماله لمصادره ؛ إذ يقع عليه عبء

الاتهام بالسرقة الأدبية من طرفين مختلفين . أحدهما مؤرخ عربي يكاد يكون من بين معاصرى المقريزى ويعبر عن اتهامه بصورة عنيفة ، أما الآخر فهو مستشرق أوروبى معاصر يعد من خيرة المتخصصين فى دراسة المقريزى . وأمام هذا فلا محيص لنا من الوقوف بالتفصيل أمام هذه المسألة ذات الأهمية الجوهرية .

أما صاحب الاتهام الأول فهو المؤرخ المصرى السخاوى (٨٣١ هـ — ٩٠٢ هـ = ١٤٢٧ — ١٤٩٧) الذى بالإضافة إلى وضعه معجماً ضخماً فى السير ومؤلفات تاريخية أخرى عرف أيضاً بمحاولة أصيلة لا تخلو من الفائدة لوضع مقدمة فى فن التوريخ عند العرب . وهو يشير فى مؤلفاته إلى المقريزى أكثر من مرة ولكن دائماً مع ميل لم يفلح فى إخفائه بمهارة للتقليل من شأنه ونسبة السرقة إليه . فى معجمه المذكور يختتم الكلام عن المقريزى بقوله :

« وأقام ببلده عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر ذكره وبعد فيه صيته وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائلة »[٨٧].

ويكرر السخاوى هذه التهمة فى مصنفه فى فن التوريخ الذى أشرنا إليه فيقول .

« وكذا جمع خططها المقريزى وهو مفيد . قال لنا شيخنا إنه ظفر به مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه »[٨٨] .

وأخيراً فى ترجمته للأوحدى فى نفس ذلك المعجم يرجع السخاوى مرة أخرى إلى هذه التهمة مع إضافة زيادات طريفة فيقول :

« وبرع فى القرآن والأدب وجمع مجاميع واعتنى بالتاريخ وكان لهجاً به وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأجاد وبيض بعضها فبيضها التقى المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات .. وفى ترجمته فى عقود المقريزى | فوائد واعترف بانتفاعه بمسوداته فى الخطط . . »[٨٩] .

477

والملاحظة الأخيرة التى ترد الإشارة فيها إلى معجم السير الذى وضعه المقريزى تخفف كثيراً من حدة التهمة التى وجهها إليه السخاوى إذ من الواضح أن المقريزى لم يحاول إخفاء ما يدين به للأوحدى وبهذا يضحى من العسير أن نبصر أين يقع الاتهام بعدم الأمانة هاهنا . بقيت الشذرتان الأوليان للسخاوى ؛ ولا يتضح منهما هل يحاول السخاوى التعبير عن آرائه الشخصية أم أنه يعتمد على شهادة شيخه الذى يشير إليه . وهو عادة عندما يتحدث عن شيخه فإنما يقصد بذلك ابن حجر العسقلانى (٧٧٣ هـ — ٨٥٢ هـ = ١٣٧٢ — ١٤٤٩) المحدث والمؤرخ الكبير ، معاصر المقريزى وصديقه . وهذا الرأى الذى ينسبه السخاوى إلى ابن حجر لم نعثر عليه فى مؤلفات هذا الأخير مع أنه تحدث عن المقريزى مراراً عبر فى كل واحدة منها منها عن احترامه وإجلاله له[٩٠] . ومن الواضح أن المقريزى لا يولى حقيقة استعماله للأوحدى أهمية أكبر مما يوليها لاستعماله للمصادر الأخرى ؛ ومما يخفف من حدة اتهام السخاوى اعتبار خاص ذو طابع

زمنى : فالأوحدى (٧٦١ هـ — ٨١١ هـ = ١٣٦٠ — ١٤٠٨) الذى لانعلم شيئاً عن وجود مصنفه إلا من هذه الشذرات قد توفى قبل المقريزى بزمن طويل ومن ثم فلم يكن بوسعه أن يسوق مصنفه إلى الفترة التى ساق فيها الأخير « الخطط » ، أضف إلى هذا أنه معلوم لدينا جيداً أن وصف أحوال مصر المعاصرة له يشغل أكثر من نصف كتاب المقريزى بحيث يضحى من غير المعقول أن يكون قد استعاره من الأوحدى[٩١]. ثم إن أخلاق السخاوى نفسه تجعلنا نقف موقف الحذر من كلامه عن المؤرخين الآخرين ؛ وقد تبين لنا من الشذرات التى سقناها عنف مهاجمته للمقريزى . وفى الواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره وانتقاصه لأقدارهم لم يقف عند المقريزى ؛ وقد جر هذا إلى معارك قلمية مع معاصره السيوطى تبادلا فيها الحملات والاتهامات[٩٢] . هذا وقد وجد رأى السخاوى عن المقريزى بعض التعضيد لدى غولد زهر Goldziher[٩٣] وبروكلمان Brockelmann[٩٤] بيد أن هذا لايعنى بأية حال اعتبار كتاب « الخطط » اختلاساً لكتاب الأوحدى . وقد أخضع جميع تلك المسألة لتحليل دقيق وفريد العلامة المصرى المعاصر محمد عبد الله عنان[٩٥] وخرج من ذلك بنتائج حازت القبول لدى الجميع .

ومما لاشك فيه أن طريقة تناول المقريزى لمصادره أبعد من أن تستوفى مطالب البحث العلمى المعاصر ، ورغما من ذلك فإننا لانستطيع موافقة غاستون ڤييت G. Wiet فى نقده المتشدد للمنهج الذى اتبعه المقريزى فى كتاب الخطط . وقد كتب ڤييت يقول « إن كل فصل من الخطط عبارة عن 478 أمشاج من النقول ألصقت جنباً إلى جنب دون ما أى تمحيص ؛ ولعل المؤلف لم يكلف نفسه مؤونة تبييضها من جديد »[٩٦]. لقد سنحت الفرصة لڤييت ليدرس جيداً عدداً من مخطوطات مصنفات المقريزى التى وصلتنا بخط يد المؤلف نفسه ، غير أن هذا لا يعطيه الحق ليرى فيها مسودات نهائية بدلا من تدوينات لم يكن قد جرى فيها بعد قلم المؤلف بالتصحيح والتبييض؛ ونحن نعلم تمام العلم أن معظم مؤلفات المقريزى تكاد تكون غير تامة أى أن مؤلفها لم يعطها صورتها النهائية . ولاشك أيضاً أن طريقة استعمال المقريزى لمصادره قد أثارت بعض الشىء سخط ڤييت ، وهو فى تحليله المفصل لعلاقة المقريزى بمؤرخ وجغرافى مصر المبكر الكندى الذى وقفنا عنده فى حينه قد خرج برأى يسترعى الانتباه حقاً حين يقول : « ولكنه أعمل يد النهب بصورة خاصة فى كتاب ولاة مصر ، ويتضح هذا بصورة جلية فى أن المقريزى قد نقل أكثر من نصف الكتاب حرفاً حرفاً أى ما يقرب من ثلاثين صفحة من القطع الكبير من طبعة بولاق دون أن يشير فى معظم الأحايين إلى اسم الكندى . . . ومن بين الأربعة آلاف وثمانمائة وست وستين سطراً التى تحتويها دفتا كتاب تاريخ ولاة مصر . . . أسقط المقريزى ثمانمائة وأربع وتسعين سطراً فقط ذات مضمون تاريخى صرف[٩٧]* .

---

* ولكن راجع مثلا قول ڤييت : " Ya — t — il malhonnêteté, plagiat dans le vrai sens du mot ? Je ne le crois pas : les auteurs Arabes écrivalent pour un nombre très restreint de lettrés, qui n'étaient pas susceptibles d'être trompés. Maqrizi se croit quitte envers un auteur en le citant une fois, même s'il doit lui emprunter des pages entières."

(راجع مقال O. Wiet : Kindi et Maqrizi الذى ظهر بصحيفة Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Tome XII, p. 63, Le Caire, 1915) (المترجم)

ومما يقف دليلا على أن هذه الحالة حالة استثنائية هو ضخامة حجم كتاب المقريزى والكمية الهائلة من النقول التى ضمنها إياه ، فلو كان قد سار على هذا النهج الذى طبقه على كتاب الكندى مع كل مؤلف آخر لنما كتابه بالتالى فبلغ العشرين جزءاً على الأقل .

لا مناص من التسليم بأن بعض أقسام « الخطط » تمثل فى بعض الأحايين نقلا صريحاً عن مؤلفين أخر ، غير أن هذه المواد المنقولة قد تم التأليف بينها بصورة لا تخلو من المهارة والإبداع ، واستخرجت من عدد هائل من الآثار الأدبية فقد بعضها تماماً بالنسبة لنا ، أضف إلى هذا أن المقريزى فى العادة لا يهمل الإشارة إلى مؤلفيها . وخير مثال لهذا الفصل القصير الذى أفرده للكلام على أهرامات مصر والذى أخضعه لبحث خاص غريفه Graefe ، ففيه يشير المقريزى إلى أكثر من عشرين مؤلفاً بخلاف من استشهد به من الشعراء[٩٨] ، ومن بين أولئك نلتقى بعدد من الجغرافيين ممن حدث وأن تعرفنا عليهم فيما مر من هذا الكتاب ، ولكن إلى جانب هذا نلتقى أيضاً بأسماء مؤلفات لم تصل إلينا مثل « أخبار الزمان » للمسعودى أو الكتاب المجهول المؤلف بعنوان « عجائب البنيان » الذى لايخلو من صلة ما « بوصف مصر » لعبد اللطيف البغدادى المعروف لنا جيداً .

وعدد المصادر التى يذكرها المقريزى هائل حقاً ولا شك أن دراستها تحتاج إلى بحث خاص فى المستقبل لن يخلو من الأهمية ، وإلى حين تحقيق هذا يمكننا الاعتماد بصورة مؤقتة على الخطوط العريضة التى بينها روثن غست R. Guest فى مقاله المسهب عن مصادر المقريزى ، ويشغل ثبت أسماء المؤلفين والمصنفات التى يشير إليها المقريزى أكثر من خمس عشرة صفحة من هذا المقال[٩٩] . فإذا ما اقتصرنا على محيط المادة الجغرافية ، فإننا نلتقى فى قائمة غست بلا أقل من ثلاثين مؤلفاً سبق وأن عالجنا الكلام على غالبيتهم العظمى . وإذا ما صنفناهم فى مجموعات بحسب العصور فيمكن أن نقرر أن المقريزى قد استعان فيما يخص الفترة الأولى من تاريخ مصر الإسلامية | 479 | بابن عبد الحكم فى مجال التاريخ والمسعودى فى مجال الجغرافيا والكندى فى مجال الطبوغرافيا[١٠٠] ، هذا إذا ما قصرنا أنفسنا على ذكر الأسماء الرئيسية . أما فيما يخص العهد الفاطمى فقد كان مرشده فى التاريخ ابن زولاق وفى الآثار القضاعى[١٠١] ، ولكن حتى فيما يتعلق بنقاط معينة فإن المقريزى عرف كيف يحصل على مواد ذات قيمة كبرى تقتصر معرفتنا بها فى أحايين كثيرة على ماحفظه لنا هو منها . وقد نال الشهرة منذ أمد طويل ذلك الفصل الذى أفرده لكنوز الفاطميين[١٠٢] بما يتصل به من تفاصيل حول مراسيم البلاط الفاطمى ؛ وقد كتب المستشرق الروسى اينوسترانسف Inostrantsev بحثاً قيما فى هذا الموضوع . ورواية المقريزى فى هذا الصدد تعتمد بصورة خاصة على مصنف آخر لم يصل إلينا لابن الطوير القيسرانى[١٠٣] . ويذكر المقريزى أن آخر من كتب فى نمط الخطط هو ابن المتوج المعروف[١٠٤] ، وقد حدث وأن توقفنا عند هذا حينما تساءلنا لماذا لم يستعن المقريزى بمصنف ابن دقماق . والمقريزى يفرد فصلا خاصاً للكلام على المؤلفين الذين عالجوا الكتابة فى الخطط قبله ويؤكد علاقته القوية بهم . ولانستطيع

إلا أن نوافقه فى هذا لأن المقريزى وإن كان مؤرخاً واقتصادياً وعالماً فى الآثار ومتخصصاً فى الآداب الشعبية (folklorist) إلا أن المكانة الأولى فى مصنفه هذا إنما تحتلها الجغرافيا التاريخية ، وهذا هو السبب الذى حدى بنا إلى إدخاله فى عرضنا للأدب الجغرافى بوصفه أكبر ممثل لنمط الخطط ، ذلك النمط الذى يمس الدين كما يمس الطوبوغرافيا والتاريخ والذى تمتع بحيوية فائقة فى مصر الإسلامية . وفى خلال القرن السابع عشر اختصر مصنف المقريزى ليس أقل من مرتين وزيد عليه(١٠٥)، بل إننا نلتقى حتى فى القرن التاسع عشر بمصنف يسير على منهج المقريزى ويتمم مذهبه أعنى بذلك كتاب « الخطط التوفيقية » لعلى باشا مبارك .

ولم يخل الأمر بين ممثلى المدرسة التاريخية المصرية من معاصرى المقريزى من اهتمام معين بالجغرافيا ولو أن ذلك لايبلغ المدى الذى بلغه لديه . ويمكن أن نسوق على سبيل المثال منافسه فى منصب الحسبة بدر الدين العينى (٧٦٢ هـ — ٨٥٥ هـ = ١٣٦٠ — ١٤٥١)(١٠٦). وفى الحقيقة لايوجد لدينا الكثير لنقوله عنه فيما يتعلق بالأدب الجغرافى ولكن شخصيته فى الواقع لا تخلو من بعض الطرافة لأنها توحى إلينا باقتراب عهد جديد وميلاد علاقات ثقافية جديدة تربط الأدب العربى باستنبول النائية . ولد مؤلفنا بعينتاب وهى مدينة صغيرة تقع بين حلب وأنطاكية ، وقد ساعده قرب مسقط رأسه من الحدود التركية على إجادة هذه اللغة منذ سن مبكرة وكان لها بالتالى تأثير غير يسير على مجرى حياته . وقد أقام العينى بالقاهرة ما يقرب من الثلاثين عاماً مرت عليه فيها لحظة من التصوف ، واشتغل لبعض الوقت بالتدريس وشغل مرة منصب القضاء ومرة أخرى كان محتسباً وطوراً ثالثا ناظراً للأوقاف ؛ وهى مناصب نافسه عليها معاصراه الشهيران المقريزى وابن حجر . وقد أفاد العينى كثيراً من معرفته بالتركية ؛ وهو قد أجاد الكتابة بالعربية والتركية على حد سواء فقربه هذا إلى سلاطنة المماليك الذين كانت معرفتهم بالعربية لاترتفع إلى المستوى المطلوب وكانوا يفضلون الإنصات إليه وهو يترجم لهم بمهارة إلى التركية تاريخه الذى وضعه آنذاك ، ولو أنه من المستبعد أن يكون بمقدورهم تقدير القصائد العربية التى رفعها إليهم . ولعل معرفته بالتركية كانت من أقوى الأسباب التى أدت إلى تكليفه ذات مرة برئاسة سفارة إلى استنبول .

480

واكتسب العينى الشهرة كمؤلف لعدد من الآثار التاريخية يشغل مكان الصدارة بينها « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » الذى يمثل فى جوهره كتاباً فى التاريخ العام يقع فى أربعة أجزاء ضخمة ويعالج تاريخ البشرية منذ بداية الخليقة إلى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ . والكتاب مبوب على الطريقة التقليدية للمصنفات التاريخية مع عرض متناسق للمادة ولكنه لايتمتع بأهمية ذات بال سواء من حيث الشكل أو الأسلوب ولو أن مادته الحافلة قد استرعت الأنظار منذ وقت طويل فأفاد منها كاترمير فى بحثه فى تاريخ المماليك كما وضح تيزنهاوزن Tiesenhausen قيمتها بعد ذلك بالنسبة لتاريخ الأردو الذهبى Golden Horde

وبين روزن Rosen أهميتها بالنسبة لتاريخ الخلافة؛ وإلى هذه اللحظة لم يهتم علماؤنا بشكل جدى بدراسة الأجزاء الثلاثة الأخيرة من تاريخه الموجودة لدينا بمعهد الدراسات الشرقية بلينينغراد . وقد رأى العينى لزاماً عليه أن يكتب مقدمة جغرافية قائمة بذاتها فى بداية الجزء الأول من تاريخه ، ومن العسير علينا أن نصدر حكماً مرضياً على هذه المقدمة أو حتى على الجزء الأول بأكمله وذلك لأن مخطوطته لا توجد فى متناول أيدينا . ويتضح من الخلاصة التى عملها أحمد زكى باشا لهذه المقدمة أنها تضم دراسة عن الأندلس مع تعداد لمدنها حسب حروف المعجم ، ويرجع العينى فى مادته إلى ابن عبد الحكم والرازى وابن عبد البر وابن سعيد[١٠٧] ، ويقف مثال العينى شاهداً على الاهتمام الكبير الذى أولاه المؤرخون فى ذلك العصر للموضوعات الجغرافية[١٠٨] . وثمة دليل على اهتمام الأتراك بالعينى أن الداماد إبراهيم باشا قد كلف لجنة كبيرة فى عهد السلطان أحمد (سنة ١١٣٨ هـ = ١٧٢٥) بترجمة تاريخه إلى اللغة التركية .

ويستحق مكانه بجدارة أكثر من العينى فى عرض عام للأدب الجغرافى العلامة الذى ضرب بسهم فى كل فرع من فروع العلم | 482 | جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (٨٤٩هـ — ٩١١ هـ = ١٤٤٥ — ١٥٠٥)[١٠٩] ، أكبر أدباء عصر التدهور قاطبة ؛ وهو إن كان لا يمثل أهمية تذكر من وجهة نظر الجغرافيا إلا أن شخصيته تعتبر مثالا لطراز العلماء فى ذلك العصر . وسيرة حياته التى كتبها بقلمه[١١٠] لا تحوى شيئاً ذا أهمية ؛ ويمكن أن نذكر من فضل القول أن أسرته من أصل فارسى عاشت طويلا ببغداد ثم استقر بها المطاف بأسيوط منذ عهد قريب . وإذا استثنينا فريضة الحج فإن السيوطى لم يغادر مصر على الإطلاق وأمضى حياته فى القاهرة تقريباً مشتغلا معظم وقته بالتدريس ؛ وتوفى السيوطى بالقاهرة ولا تزال مقبرته قائمة بها ووصفها لنا العلامة أحمد تيمور باشا فقضى بذلك نهائياً على أسطورة وجودها بموطنه أسيوط . بدأ السيوطى التأليف منذ سن السابعة عشر[١١١] ولم تلبث مقدرته أن تفتحت فى هذا المجال فاكتسب الشهرة سريعاً حتى أصبح أكثر المؤلفين قرباً إلى جمهرة القراء لأكثر من ثلاثة قرون ، لا فى البلاد العربية وحدها بل وفى العالم الإسلامى عامة . وبلغ عدد مصنفاته ، التى وضع لها فهرساً بنفسه ، السمائة تقريباً ، معروف لنا منها أكثر من ثلثمائة وخمسين ؛ ويوجد من بينها بالطبع مقالات قصيرة لاتتجاوز بضعة صفحات ولكن إلى جانب هذا نلتقى لديه أيضاً بمصنفات ضخمة من عدة أجزاء . ومن العسير تعيين فرع من العلوم لم يدون فيه السيوطى شيئاً فقد كان هذا بالنسبة له رياضة فريدة وموضعاً للاعتزاز ؛ وقد جهد عن قصد فى أن يترك فى كل فرع من فروع العلوم خلاصة من ذلك النوع الذى تطلبه العصر والذى خلد اسمه لدى الأجيال التالية ؛ ويجب الاعتراف بأنه حقق ذلك على وجه العموم وبلغ شأواً بعيداً فى بعضها . ولا تزال مؤلفاته تدرس حتى الآن بالشرق كما استرعى البعض منها انتباه العلماء الأوروبيين كمداخل مفيدة بالنسبة للعلوم التى تعالجها ، مثال ذلك مصنفاته فى علوم القرآن (« تفسيره » ومقدمته « الإتقان ») والحديث (« الجامع ») فى مختلف مسوداتها ، ودراساته اللغوية والأدبية (« المزهر ») والتاريخية (« تاريخ

الخلفاء ») . وبما أن الجغرافيا لم تكن من ضمن العلوم التى يمكن أن تحظى باهتمام دوائر واسعة من القراء فإن السيوطى لم يولها اهتماماً خاصاً ولم يترك لنا فيها مدخلا أوكتاباً جامعاً . غير أن هذا لايمنع وجود مصنفات جغرافية لديه لا تخلو من بعض الأهمية نذكر مثالا لها أنه عمل ملخصاً لمعجم ياقوت تم الكشف عن مسودته منذ وقت غير بعيد .

واثنتان من مقالات السيوطى مكرستان للحبش[١١٢] وتمسان بعض الشىء علم الأجناس (الاثنوغرافيا) ويجب ألا يفهم من هــذا بأية حال أن مقصده كان وضع دراسة أثنوغرافية إذ فى الواقع أن السيوطى أراد أن يسير على منوال تلك الآثار الأدبية التى دونت فى « فضائل » الشعوب البسيطة التى لم تبلغ درجة عالية من الحضارة ؛ ومثل هذه الرسائل قد اعتمد على الأحاديث النبوية | فى المساواة بين الشعوب 483 جميعها تحت راية الإسلام ، وخير مثال لهذا الحديث الذى ساوى فيه محمد بين « شريف قرشى » و « عبد حبشى » . وقد استطاع الكتاب ذوو الموهبة أن يطوروا هذا الموضوع بصورة ممتعة للغاية خاصة الجاحظ فى القرن العاشر وذلك فى رسائله عن الترك والسودان ؛ وفيما بعد لم ترتفع أمثال هذه الرسائل إلى المستوى الذى بلغه الجاحظ وانحصرت بصورة خاصة فى المصادر الفقهية . بيد أن سلسلتها لم تنقطع كما يبدو من خلال البحث الذى عمله فى هذا الصدد المستشرق ڤيسفيلر Weisveiler ؛ وقد خمن السيوطى بحق شوق الجماهير إلى هذا الضرب من الأدب فقرر أن يستجيب لرغبتهم بتدوين هذه الرسائل ذات الطابع النقلى الصرف . وقد حازت هاتان الرسالتان فعلا إقبال الجمهور ، بل إن مؤلفاً مجهولا أفاد منهما فى القرن السابع عشر وذلك فى رسالة له تعالج نفس الموضوع باللغة التركية ولو أنها ترتفع فى أغلب الظن إلى أصل عربى ؛ وهى موجودة فى مخطوطة فريدة بقصر كاترينا بپوشكين Pushkin[١١٣]* .

ويود بعض العلماء أن يبصر فى أحد مؤلفات السيوطى الكبرى علاقة ما « بخطط » المقريزى ، ذلك هو كتابه المعروف « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة »[١١٤]. غير أن هذا الرأى لن يثبت طويلا على محك النقد . والسيوطى قد أفاد بالطبع من كتاب « الخطط » وهو يذكره ضمن المراجع الثلاثين الأساسية التى قرأها من أجل تاريخه[١١٥] ؛ حقاً ان بعض أقسام كتاب السيوطى تحمل طابعاً جغرافياً ولكن أهداف الكتاب مغايرة لأهداف كتاب المقريزى فضلا عن أن مضمونه غير مترابط ويفتقر إلى الترتيب أكثر من كتاب « الخطط » . ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بين مقدمة المقريزى العميقة المفصلة وبين تلك الألفاظ الباهتة التى يقدم بها السيوطى عرضه التاريخى حيث يقول « أوردت فيه فوائد سنية وغرائب مستعذبة مرضية تصلح لمسايرة الجليس وتكون للوحيد نعم الأنيس » . وكان من المتوقع بعد قراءة هذه العبارة أن نجد بين أيدينا مصنفاً من طراز المنتخبات الأدبية ، غير أن الكتاب مفعم بروح الجدية وأقل إمتاعاً من أن يصلح

---

* على مقربة من ليننغراد وكانت تدعى قبل الثورة تسارسكوى سيلو Tsarskoe Sielo ، ثم أطلق عليها اسم پوشكين تخليداً للشاعر الكبير الذى تلقى العلم بمدرستها الشهيرة . (المترجم)

لهذا الغرض : وهو يبدأ بعرض عام لجغرافيا مصر وتاريخ فتحها ويلى هذا قسم السير[١١٦] الذى يمثل من ناحية الحجم الجزء الرئيسى من الكتاب . وفى عرض موجز للغاية تمر أمام أعيننا سير من دخل مصر من الصحابة والتابعين ثم سير الفقهاء والعلماء والأمراء كذلك يرد سرد موجز للقضاة[١١٧]، والوزراء[١١٨]، والكتاب[١١٩]؛ وفقط عقب هذا يبدأ القسم الطوبوغرافى الخاص بالمساجد[١٢٠] | والمدارس والخانقات[١٢١]. ولا يخلو من بعض الطرافة رغما من مضمونه التاريخى الصرف ، الفصل الذى يفرده للكلام عن « الحوادث الغريبة »[١٢٢] من قحط وغلاء ووباء وزلزال . والكتاب يفتقر إلى الترتيب حتى فى آخره ، فبعد وصفه للطريق بين مصر ومكة[١٢٣] يأتى فصل فى ختام الرسائل[١٢٤] وعندئذ فقط يبدأ كلامه عن مصر دون التزام لترتيب أو نظام فبعد أن يتحدث عن « لطائف » مصر[١٢٥] ينتقل إلى الكلام على النيل[١٢٦] وجزيرة الروضة[١٢٧] ومواضع متفرقة من القاهرة[١٢٨]؛ وقرب النهاية تغلب المادة الأدبية تماماً على العرض فيقدم لنا المؤلف مختارات شعرية فى الأنهار والأشجار[١٢٩] والزهر[١٣٠] والفواكه[١٣١] والخضروات[١٣٢] المعروفة بمصر . وليس من العسير أن نبصر من خاتمة الكتاب أنه لا ينتمى بأية حال إلى نمط الخطط ، فهو ينضم من ناحية إلى نمط تواريخ المدن التى تتحول أحياناً إلى مجموعة أدبية فى سير مشاهيرها وعلمائها ومن ناحية أخرى إلى المنتخبات الأدبية المقصود بها الإمتاع لا الفائدة . و« حسن المحاضرة » لا يعتبر من كتب السيوطى الجيدة فالعرض فيه يغلب عليه الإيجاز ولا يقدم شيئاً جديداً فى معظم الأحوال[١٣٣] كما وأن قيمته كتاريخ لا يمكن مقارنتها بمصنفات مؤرخين كالمقريزى وابن تغرى بردى . بالطبع لا تخلو الحال من أن يورد لنا السيوطى معلومات قيمة ترتفع إلى عهد سابق ولكن ذلك يحدث فى صورة مغايرة وموجزة للغاية ومع خروج واضح على المذهب القديم . وهو يميل فى أسلوبه إلى تبسيط المادة بحيث لا يخلو الأمر من حالات يعطى فيها فكرة مخالفة للأصل مما حدا بالمستشرق بيكر Becker إلى أن ينصح[١٣٤] بالتزام الحيطة والحذر عند استعمال « حسن المحاضرة » حينما ينقل مؤلفه أقوال المؤلفين الآخرين . ومن الملاحظ أن السيوطى عاد إلى معالجة بعض الموضوعات التى مسها فى كتابه هذا فى صورة رسائل منفصلة فلديه رسالة عن النيل وأخرى عن جزيرة الروضة وثالثة عن الأهرامات[١٣٥] ، وهى تتلخص فى العادة فى إيراد نقول مختارة من ميدانى النثر والشعر لا تمس الجغرافيا إلا بصورة غير مباشرة .

وقد خلف لنا أحد تلامذة السيوطى[١٣٦] مصنفاً عاماً فى الجغرافيا يمثل بالنسبة لنا أهمية خاصة لأن مؤلفه أتمه فى سبتمبر من عام ٩٢٢ هـ = ١٥١٦ ، أى قبل عام من فتح العثمانيين لمصر وبهذا يمكن اعتباره حصيلة لإنتاج ذلك العصر بأجمعه . أما المؤلف فهو محمد بن أحمد بن إياس الحنفى (٨٥٢ هـ - حوالى ٩٣٠ هـ = ١٤٤٨ - ١٥٢٤)[١٣٧] الذى عرف عادة فى الأوساط العلمية الأوروبية بابن إياس فقط ؛ والاسم يمكن نطقه على طريقتين كلاهما صحيحة فهو إما بكسر الهمزة أو فتحها غير أن النطق الأخير أى بفتح الهمزة أقرب إلى الدارجة ولو أنه من الممكن أن المؤلف نفسه قد فضل استعماله فى مخطوطات تاريخه

التى وصلتنا بخط يده ؛ وعلى أية حال فإن الشكل الأول هو الشكل المستعمل فى كتب الأدب ومن المستحسن أن نتمسك به[١٣٨] . وابن إياس سليل أسرة من المماليك الجراكسة ، وكان بمقدوره أن يستمر فى نشاطه العلمى دون أن تدفعه الحاجة ليشتغل بالتدريس أو بوظيفة حكومية يرتزق منها كما هو الحال مع بقية علماء ذلك الوقت[١٣٩] . وقد سمح له هذا الوضع إلى حد ما بالتزام الحياد فى تأليفه ولم يضطره إلى أن يعكس وجهات نظر الدوائر الرسمية ولو أنه حرمه من الوصول إلى الوثائق الحكومية ؛ بيد أن النتائج الإيجابية لهذا قد رجحت كفتها فى آخر الأمر فنال ابن إياس بجدارة الشهرة كمؤرخ كبير .

وصل ابن إياس بتاريخه إلى عام ٩٢٨هـ = ١٥٢٢ ، وهو يمتاز فى الأقسام الأخيرة بالإسهاب والإفاضة بحيث يتحول إلى حوليات تاريخية (Chronique) بل وإلى سجل للحوادث اليومية فى بعض مواضعه ؛ وبصرف النظر عن محتوياته فإن الكتاب يكتسب أهمية خاصة لأن ابن إياس هو المؤرخ العربى الوحيد الذى دون أخبار الفتح العثمانى وآخر مؤرخ لمصر المملوكية فهو بهذا يختتم سلسلة الآثار التاريخية الجيدة التى تقف شاهداً على انتعاش هذا الفرع من الأدب فى تلك العهود . وتاريخ مسودات ابن إياس حافل بما فيه الكفاية ، فقد وصلنا عدد كبير من الأجزاء بعضها بخط يد المؤلف نفسه وبعضها منقول من النسخ التى بخط يده ، كما وصلنا أيضاً ثلاث مسودات مختلفة لتاريخه هى المطولة والوسطى والمختصرة . ونتيجة لنشر الأقسام الأخيرة من تاريخه ، وهى أقيمها ، على يد باول كاله Paul Kahle فإنه يوجد بين أيدينا الآن أساس متين لدراسة تاريخ ابن إياس دراسة دقيقة تشمل لغته الكتابية التى تعكس أسلوب الكلام البسيط بل ولا تخلو من تأثير العامية أحياناً[١٤٠] . 486 وقد اعتمد الناشر فى طبعه لهذا القسم من تاريخ ابن إياس على المخطوطة الفريدة الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية .

وكما ذكرنا من قبل فإن ابن إياس قد انتهى من تدوين سفره فى الجغرافيا قبل سفره التاريخى وذلك فى الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٩٢٢ هـ = ١٢ سبتمبر ١٥١٦[١٤١] ، وهو يحمل عنوان « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولا يمكن بأية حال مقارنته بكتابه فى التاريخ . وتحدث قراءته خيبة أمل كبيرة لولا أنه يجب أن نأخذ فى حسابنا الأهداف التى وضعها المؤلف نصب عينيه والتى وضحها كما هى العادة فى مقدمته كتابه حيث ترتسم بوضوح أمام ناظرنا هذه الأهداف المشوشة التى يختلط فيها التاريخ بالجغرافيا دون نظام . فهو يقول فى مقدمته إنه سيتحدث فى كتابه عن « عجائب مصر وأعمالها وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء وما صنعوا من الأبنية المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد . . وأخبار النيل والأهرام وعجائب البلاد التى من أعمال مصر وخططها وأقطارها » ؛ وتضيف نسخة خطية موجودة بالقاهرة إلى هذا فى صفحة العنوان ما يلى : « وأخبار البلدان والبحار والأشجار والجزائر والجبال والعيون والأبيار والدور والكنائس والقصور»[١٤٢] . ولا يقتصر الأمر على مصر وحدها ولو أنه يفرد لها المكانة الأولى فى الأقسام المختلفة من الكتاب ؛ غير أن الخلط فى العرض يتفق اتفاقاً تاماً

مع الخلط الذى يسود مادة الكتاب . والكتاب يبدأ وفقاً للتقاليد بعرض موجز للجغرافيا الفلكية وتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ؛ ويبدأ وصف المناطق من المغرب الأقصى متدرجاً نحو المغرب الأوسط فالمغرب الأدنى . وهو يولى اهتماماً خاصاً للإسكندرية وخراج مصر والنيل والسودان . وفى وسط الكتاب يقحم نفسه وصف للطريق من مصر إلى الشام ؛ ويلى هذا محاولة من المؤلف ليلتزم بعض الترتيب حينما يأخذ فى الكلام على الشام تليها أرمينيا فأرض الجزيرة فالعراق ، ثم ينقطع حبل التسلسل عقب هذا . وحتى فى هذه الأقسام يرد ذكر المواضع الجغرافية تارة وفقاً لحروف المعجم وطوراً تتكرر داخل الأقسام المختلفة عدة مرات . بعد هذا يعالج المؤلف الكلام على موضوعات مختلفة ومتنوعة مثل المدن والأقطار والبحار والجزر والأنهار والجبال والأهرامات والأديرة والأعياد والتقويم القبطى . ويتناول ابن إياس فى كتابه طرفاً من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة التى يتحدث عن بعض آثارها وصروحها ، بل ولا ينسى الكلام عن الروس والبلغار . وبهذا نجد أنفسنا أمام مصنف يمثل أنموذجاً جيداً لذلك الضرب من التأليف الذى قصد به إمتاع الأدباء ، فهو بذلك ينتمى إلى تلك السلسلة التى بدأها ابن الفقيه بل ويختتمها فى واقع الأمر .

ومصنف ابن إياس فى الجغرافيا لم يطبع إلى الآن ولكن يمكن الحكم عليه بصورة وافية من القطع التى نشرها فى بداية القرن التاسع عشر لانجليه L. M. Langlès وارنولد F.A.Arnold ، ثم من مقال فون كريمر A. V. Kremer . وقد وصفه أمارى Amari فى منتصف القرن الماضى بأنه مصنف « نقلى ثانوى للغاية »[١٤٣] una mediocrissima compilazione ، 488 هذا مع اعترافه بأن ابن إياس ربما كان قد رجع إلى مسودة للإدريسى غير معروفة لنا . ونفس هذا الحكم يصدق على بقية أقسام الكتاب فمادته نقلية صرفة ولكن نجد طريقها إليه من آن لآخر ومضات مشرقة ؛ فهو مثلا فى وصفه لبلاد النوبة يرجع كالمقريزى إلى مصنف من القرن العاشر مفقود بالنسبة لنا هو كتاب الأسوانى[١٤٤] ، كما أنه يقدم لنا فى القسم الذى أفرده لمصر قائمة بمقاييس فيضان النيل على مر السنين تعتبر من أوسع ما عرف فى هذا المجال ؛ وقد لفت لانجليه الأنظار إلى هذه القائمة ونشرها فى كتابه المومأ إليه . بيد أن هذا لا يمنعنا بالطبع من أن نسلم بأن ابن إياس يعتمد فى جميع الأقسام الأخرى من مصنفه على مصادر كتابية لا يظهر مهارة خاصة فى اختياره لها . وطريف فى هذا الصدد القسم الذى يفرده للروس والبلغار ، فبالرغم من أنه كانت قد تجمعت معلومات جمة عن جنوبى روسيا فى عهد دولة المماليك نتيجة لتوطد العلاقات مع دولة الأوردو الذهبى وأن عدداً من المؤلفين المصريين قد أفاد منها كالعمرى والقلقشندى والعينى فإن ابن إياس يأبى إلا أن يورد معلومات قديمة ترجع إلى القرن العاشر مضيفاً إليها رواية الأقليشى ، أى أبى حامد الغرناطى ، عن البلغار دون أن يرى لزاماً عليه أن يستدرك على ذلك بقوله إنها ترجع إلى فترة تاريخية سابقة ؛ وهو كبقية المؤلفين السابقين عليه يقسم الروس إلى ثلاث طوائف[١٤٥]

ويصل بحر قزوين بالمحيط المتجمد الشمالى(١٤٦) . ولإعطاء فكرة عن تصور ابن إياس والوسط الذى عاش فيه للعالم آنذاك قوله بأن المحيط الأطلنطى لايُعلم عنه شىء « لأن أحداً لم يجرؤ على الضرب فيه »(١٤٧) . هذه الملاحظة قد تم تدوينها بعد قرن من كشف كولومبس للعالم الجديد وبعد مدة طويلة من طواف ڤاسكو داغاما حول الطرف الجنوبى للقارة الإفريقية وتمكنه من الوصول إلى الهند مستعيناً فى ذلك بملاح عربى . ويلوح أن ابن إياس قد فاته أيضاً إلى جانب هذا معلومات أقرب عهداً إليه كرواية المقريزى عن وصول سفارة صينية إلى مصر بطريق البحر فى عام ١٣٣٨ ـ ١٣٥٢(١٤٨) .

كل هذا يضطرنا بطبيعة الحال إلى ضم مؤلفه إلى الاتجاه القديم فى الجغرافيا العربية الذى يعتبر امتداداً للمذهب القديم الذى ساد من القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر ؛ وليس فى مصنفه ما يشير إلى أنه كان على علم بما حدث من اتساع كبير فى الأفق الجغرافى لدى أهل الغرب ، مما تردد صداه لدى بعض المشارقة أحياناً . وقد وجد إلى جانب الجغرافيين من طراز ابن إياس طراز جديد ممن يمكن اعتبارهم متممين للنماذج الغربية فى الجغرافيا وحدث أن التقينا ببعضهم من بين الجغرافيين المغاربة ؛ ويلوح أن نشاط الملاحة فى حوض البحر الأبيض المتوسط قد عاون كثيراً فى إيصال هذا التأثير من أوروبا . كما وأننا سنبصر فى الفترة التالية لهذه كيف نشطت الجغرافيا الملاحية بين العرب حتى أصبحت أكثر فروع الأدب الجغرافى تقدماً وإبداعاً ، وفى هذا الميدان الأخير ترتبط الآثار الجغرافية باللغتين العربية والتركية ارتباطاً وثيقاً بحيث يصعب أحياناً فصلها عن بعضها البعض دون إحداث خلل فى متابعة التطور العام لهذا الاتجاه . وسنبصر أيضاً من نشاط هذه الفترة كيف أنه إلى جانب المذهب التقليدى فى الأدب الجغرافى الذى ظلت جذوره ممتدة إلى القرن العشرين قد بدأ يرفع رأسه اتجاه جديد أخذ يسير بموازاة الاتجاه القديم ، ذلكم هو الاتجاه التجديدى الذى عكس التغيرات البعيدة المدى التى مرت عليها الحضارة البشرية فى تلك الآونة . ولكن قبل أن نلج هذا الموضوع يجدر بنا أن نلقى نظرة على حالة الأدب الجغرافى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالشام ، ثم أبعد من ذلك إلى الشرق فى الأقطار التى تستعمل اللغة الفارسية .

489

حوشى الفصل السابع عشر

(١) Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 199-200, No 457—Brockelmann, GAL, II, p. 50, No 10; SBII, p. 49-50 No 10a —Pedersen, EI, II, p. 397—Wiet, Manhal, p. 10, No 63—Sarkis, p. 103-104—Vollers, Ibn Doukmak –

راجع فى الفهرس : محمد البلادى

(٢) Vollers, Ibn Doukmak, p. 5 –

(٣) شرحه ، ص ٦

(٤) Pedersen, EI, II, p. 397 –

(٥) Vollers, Ibn Doukmak, p. 6 –

(٦) شرحه

(٧) شرحه ص ٧

(٨) Sarkis, p. 104 –

(٩) Vollers, Ibn Doukmak, p. 4 –

(١٠) شرحه

(١١) شرحه ، ص ٣ Pedersen, EI, II, p. 397

(١٢) Brockelmann, GAL, II, p. 135, No 6; SB II, p. 165-166—Hartmann, Halil – Ravaisse –

(١٣) Sarkis, p. 133 –

(١٤) Hartmann, Halil, p. 1 –

(١٥) شرحه ص ١ ، ٣ Ravaisse, p. ٤ ٣

(١٦) Ravaisse, p. ٤ –

(١٧) Hartmann, Halil, p. 3 –

(١٨) شرحه ، ص ٦

(١٩) شرحه ، ص ٣

(٢٠) Hartmann, ZDMG, 70, 1916, p. 8 –

(٢١) Hartmann, Halil, p. 6 –

(٢٢) شرحه ، ص ٣

(٢٣) شرحه ، ص ٢

(٢٤) شرحه

(٢٥) شرحه ، ص ٤ Hartmann, ZDMG, 70, 1916, p. 11 –

(٢٦) – Hartmann, Halil, p. 3-4

(٢٧) شرحه ، ص ٦

(٢٨) شرحه ، ص ٧

(٢٩) شرحه

(٣٠) شرحه ، ص ٦٨

(٣١) شرحه ، ص ٨٨

(٣٢) شرحه ، ص ٣

(٣٣) – Devonshire, BIFAO,XX, p. 5 – 6, Note 5

(٣٤) راجع : Brockelmann, GAL, II, p. 30, No 9; SB II, p. 26, No 9:

ولكن قارن Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 5 and SBII, p. 163, No 10 a - Moritz Ibn al-Gian, p. III - Kramess, EI, EB, p. 71 - Devonshie BIFAO, XX,

(٣٥) علم الدين شاكر القبطي المصري بن جيعان ولد بعد عام ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ .

راجع : Wiet, Manhal, p' 166, No 1102

(٣٦) – Moritz Ibn al - Gian, p. III

(٣٧) شرحه ، المتن ، ص ٢

(٣٨) – Taeschner, GLO, p. 40 - 41, note 1

(٣٩) – Devonshire, BIFAO, XX, p. 2

(٤٠) – Lanzone, p. 4

(٤١) شرحه ، المتن ، ص ٤٨

(٤٢) شرحه ، المتن ، ص ٤

(٤٣) – Devonshire, BIFAO, XXV, p. 2

(٤٤) راجع شرحه ، ص ١

(٤٥) – Hartmann, Die Strasse, p. 694 - 696

(٤٦) – Kalile, Ibn Ijas, III, p. 354 – Devonshire BIFAO, XX, p. 5 - 6, note 5

(٤٧) – Gibb, EI, EB, p. 258

(٤٨) – Quatremère, خطط المقريزي ، ص ٣٢٣

(٤٩) عنان ، ص ٤٤

(٥٠) ترجمة حياته راجع :

Brockelmann, GAL, II, p. 38 - 41, No 7; SBII, p. 36 - 37, No 7 – Brockelmann, Al - Makrisi, p. 190 - 191

(٥١) – Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 147.

(٥٢) راجع أنموذج خط المقريزي لدى :

(W. Wright, Palaeographical Society, No 72, – 1420-1421 ويرجع لعام)

(٥٣) خطط المقريزى ، ص ٣٢٥ – Quatremère

(٥٤) – Brockelmann, Al-Makrisi, p. 190.

(٥٥) شرحه ، ص ١٩١ .

(٥٦) ترجمة المقدمة ص ٣٢٧ – ٣٣٧ و خطط المقريزى و Quatremère, –

(٥٧) -- Wiet, El-Maqrisi, Khitat, I, p. 1—3

(٥٨) شرحه ، ص ٣ – ٥ .

(٥٩) شرحه ، ص ٥ – ٧ .

(٦٠) خطط المقريزى ، طبعة ١٢٧٠ هـ ، الجزء الأول ، ص ٥ – ١٢٨ .

(٦١) شرحه ، ص ١٢٨ – ٢٨٥ .

(٦٢) شرحه ، ص ٢٨٥ – ٣٤٧ .

(٦٣) شرحه ، ص ٣٤٨ – ٤٩٨ .

(٦٤) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ٢ – ٢٠١ .

(٦٥) شرحه ، ص ٢٠١ – ٢٣٠ .

(٦٦) .. Wiet, Él-Maqrisi, Khitat, I, p. 7-11

(٦٧) عنان ، ص ٤٧ – ٤٨ .

(٦٨) Ouest, El-Maqrisi, p. 103.

(٦٩) عنان ، ص ٤٨ – ٤٩ .

(٧٠) راجع : Ouest, p. 104-105 وعنان ، ص ٤٩

(٧١) المقريزى ، الخطط ، الجزء الثانى ، ص ٢٣٢ – ٢٤٤ .

(٧٢) شرحه ، ص ٢٤٤ – ٤٦٣ .

(٧٣) شرحه ، ص ٤٦٤ – ٥١٩ ؛ قارن : عنان ، ص ٤٩ – ٥٠ .

(٧٤) عنان ، ص ٥٠ .

(٧٥) . Wiet, El-Maqrisi, Khitat, I, p. 11-14.

(٧٦) شرحه ، ص ١٥ – ٥٠

(٧٧) خطط المقريزى ، ص ٣٢٦ ,Quatremère

قارن : Margoliouth, p 158

(٧٨) شرحه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٧٩) . Ouest, El-Maqrisi, p. 105

(٨٠) شرحه ، ص ١٠٦

(٨١) شرحه

(٨٢) شرحه ، ص ١٠٧

(٨٣) – Carra de Vaux, Les Penseurs, I, p. 153

(٨٤) – Bolotov, Lektsii, p. 205

قارن : Strothmann, kopt. Kirche, p. 106

(٨٥) – Carra de Vaux. Les Penseurs, I, p. 151

(٨٦) – Guest, El-Maqrisi, p. 107

(٨٧) عنان ، ص ٥٢ .

(٨٨) شرحه ، ص ٥٣

(٨٩) شرحه ، ص ٥٣ – قارن أيضاً ص ٥٨

(٩٠) شرحه ، ص ٥٧ – ٥٨

(٩١) شرحه ، ص ٥٥ – ٥٦

(٩٢) شرحه ، ص ٥٧

(٩٣) – Goldziher, Muh. Studien, II, p. 269

(٩٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 39. note — Brockelmann, Al-Makrisi, p. 190

(٩٥) عنان ، ص ٥٢ – ٥٩

(٩٦) – Wiet, BIFAO, XII, p. 62

(٩٧) شرحه ، ص ٦٣

(٩٨) – Graefe, p. XII-XIII

(٩٩) – Guest, El-Maqrisi, p. 108-121, 121-125

(١٠٠) شرحه ، ص ١٢٣ – ١٢٤

(١٠١) شرحه ، ص ١٢٤

(١٠٢) شرحه

(١٠٣) – Inostrantsev, p. 34, 47 — Guest, p. 117

(١٠٤) – Guest, p. 125.

(١٠٥) – Brockelmann, Al-Makrisi, p. 191 — عنان ص ٦٢ – ٦٤

(١٠٦) – Brockelmann, GAL, II, p. 52-53, No 14; SBII, p. 50-51 – Marçais, EI, I, p. 225-226

(١٠٧) – Ahmed Zaki, Homenaje, p. 462

(١٠٨) مخطوطة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم س ٣٥٠

(١٠٩) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 226-232, No 506 — Brockelmann, GAL, II, p 143-158, No 7; SBII, p. 178-198 — Brockelmann, Al-Suyuti, p. 620 622 — عنان ص ٦١

(١١٠) السيوطي ، حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، ص ١٨٨ – ١٩٥

(١١١) صورة شمسية لخط السيوطى لدى تيمور ، ص ٢٤

(١١٢) – Weisweiler, p. 7-10

(١١٣) – Krachkovski, DAN, V, 1929, p. 166-168

(١١٤) عنان ، ص ٦١

(١١٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، الجزء الأول ، ص ٢

(١١٦) شرحه ، ص ٩٩ – ٢٣٤ ؛ والجزء الثانى ، ص ١ – ١٠٨

(١١٧) شرحه ، الجزء الثانى ، ص ١١٣ – ١٤٦

(١١٨) شرحه ، ص ١٤٧ – ١٧١

(١١٩) شرحه ، ص ١٧١ – ١٧٥

(١٢٠) شرحه ، ص ١٧٦ ·· ١٨٤

(١٢١) شرحه ، ص ١٨٤ – ١٩٤

(١٢٢) شرحه ، ص ١٩٥ – ٢١٩

(١٢٣) شرحه ، ص ٢١٩

(١٢٤) شرحه ، ص ٢٢٠

(١٢٥) شرحه ، ص ٢٢٨ · ٢٣٦

(١٢٦) شرحه ، ص ٢٣٨ ·· ٢٦٣

(١٢٧) شرحه ، ٢٦٣ · ٢٧٠

(١٢٨) شرحه ، ص ٢٧١ · ٢٧٢

(١٢٩) شرحه ، ص ٢٧٣ ٢٨٠

(١٣٠) شرحه ، ٢٨١ – ٢٩٧

(١٣١) شرحه ، ص ٢٩٧ · ٣٠٤

(١٣٢) شرحه ، ص ٣٠٤ ·· ٣٠٨

(١٣٣) عنان ، ص ٦١

(١٣٤) – Becker, p. 82

(١٣٥) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 196, No 280-285, p. 198, No 320

(١٣٦) · Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 24

(١٣٧) – Reinaud, Introduction, p. CLXIV - CLXV -- Brockelmann, GAL, II, p. 295, No 1; SBII, p. 405-406 — Sobernheim, p. 414-415 — Amari (—Nallino), I, p. 62, No 29— عنان ص ٦١ – ٦٢ — Margoliouth, Lectures, p. 158-159 —Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 1-29 —Langlès, Cosmographie— Kremer, SBAW, V, p. 77 sui — Ferrand, Relations, II, p. 475-483 — F. A. Arnold, Chrestomathia, I, Ch. V, p. 54-76.

(١٣٨) – Kahle, Ibn Ijas, IV, p. 22-23

(١٣٩) شرحه ، ص ٢٥ – ٢٦

(١٤٠) – Devonshire, BIFAO, XXV, 1925, p. 117

(١٤١) – Langlès, p. 5

(١٤٢) عنان ، ص ٦١ – ٦٢ وقارن : حاجي خليفة ، الجزء السادس ، ص ٣٤٤ – ٣٤٥ ، رقم ١٣٧٩٣

(١٤٣) – Amari (—Nallino), I, p. 62, No 29

(١٤٤) – F. A. Arnold, Chrestomathia, p. 54

(١٤٥) شرحه ، ص ٧٤

(١٤٦) – Peschel-Ruge, p. 109, Note 2

(١٤٧) – Reinaud, Introduction, p. CLXV

(١٤٨) – Hennig, III, p. 187-190

الفصل الثامن عشر

الجغرافيا الإقليمية بالشام وفلسطين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

490 لم ينتعش الأدب الجغرافى بصورة تسترعى النظر فى الأقطار الواقعة إلى الشرق من مصر فى القرون التى سبقت الغزو العثمانى مباشرة ، ومن بين المصنفات ذات الطابع العام يمكن للشام أن تشير إلى مصنف واحد فى الكوزموغرافيا اكتسب فى الحقيقة رواجاً منقطع النظير ولو أنه يمثل فى واقع الأمر تدهوراً لهذا النمط أكثر مما يمثل تقدماً له . أما العدد غير القليل من المصنفات الذى ظهر فى هذا العصر فيدخل فى مجال الجغرافيا الإقليمية (regional) ويعالج الكلام بصورة خاصة على المدن الكبرى ، ويمكن لنا فى هذا الصدد أن نتتبع وجود سلسلة يكمل بعضها البعض لا بصورة آلية بل تتميز عن بعضها البعض فى اختلاف أغراضها . أما الأقطار الواقعة إلى الشرق من الشام فإنها لم تترك فى هذا العصر أى أثر فى الأدب العربى يستحق أن نقف عنده .

وبالرغم من أن المصنف الكوزموغرافى الذى أشرنا إليه يوجد فى عدد من الطبعات والمخطوطات وأنه لم يختلف أحد حول عنوانه وهو « خريدة العجائب وفريدة الغرائب[1] » إلا أن بعض الإبهام يحيط بشخص مؤلفه . وتتفق معظم الآراء فى الوقت الحاضر على أنه سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردى (توفى فى عام ٨٦١ هـ = ١٤٥٧[2] ، وفى رواية أخرى حوالى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦)[3]. وقد نسب تأليف الكتاب لمدة طويلة إلى سميه زين الدين ابن الوردى الذى عاش قبل ذلك بقرن من الزمان (توفى عام ٧٤٩هـ = ١٣٤٩)[4] . وقد نشأ هذا الخلط فى الوسط العربى نفسه وتردد صداه فى بعض المخطوطات والمصنفات البيبليوغرافية ومنها نفذ إلى الأوساط العلمية بأوروبا . وفيما يتعلق بابن الوردى الأول فإن معلوماتنا مفصلة أكثر ، من ذلك أنه عاش بالشام 491 وكان لبعض الوقت قاضياً بحلب وخلف عدداً من المؤلفات فى مجال الفقه والأدب كما نال الشهرة كشاعر ، ولعل ذيوع صيته هو المسئول أحياناً عن نسبة المصنف الكوزموغرافى إليه . وفى مقابل هذا فإننا لانعرف شيئاً عن ابن الوردى الأصغر ويلوح أنه سليل نفس الأسرة . وبما أن المصنف مرفوع إلى قائد قلعة حلب شاهين المؤيدى[5] فيوجد أساس متين للقول بأن المؤلف كان شامياً من أهل حلب[6] .

وينضم المصنف من حيث النوع إلى نمط الكوزموغرافيات المعروف لنا من مثال كوزموغرافيا القزوينى والدمشقى وغيرهما . وهو يورد فى البداية خارطة مستديرة للعالم مع وصف لها مفصل بما فيه الكفاية ، بعد هذا ينقسم العرض إلى أربعة عشر فصلا (خمسة عشر أحياناً)[7] ، وهذه الفصول وما بداخلها من تقسيمات

لاتتفق فى جميع مخطوطات الكتاب ولكن التركيب العام للكتاب لايتغير فى العادة ويشبه فى حقيقة الأمر تركيب معظم المؤلفات الكوزموغرافية الأخرى . فنى الفصل الأول وهو أوسع الفصول ويشغل أكثر من ثلث الكتاب بأجمعه يرد الكلام عن الأقطار والبلدان مع تعداد مدنها المختلفة ، وفى الفصل الثانى يتحدث عن الخلجان والبحار ، وفى الثالث عن الجزر[٨] ، وفى الرابع عن العجائب التى يراد بها العبرة ، وفى الخامس عن الأنهار المشهورة ، وفى السادس عن العيون والآبار ، وفى السابع عن الجبال الشاهقة ؛ وابتداء من الثامن الذى يتحدث فيه عن خواص الأحجار الكريمة يدخل الكتاب فى بعض التخصص فيلى هذا الفصل التاسع فى المعادن والجواهر ، ثم العاشر عن النبات والفواكه مع ذكر خواصها ، فالحادى عشر عن البقول ، والثانى عشر عن الحشائش المختلفة . وفى الفصل الثالث عشر يتكلم عن البذور ، ويفرد الرابع عشر للحيوانات والطيور . وفى مخطوطات الكتاب ومسوداته المختلفة كثيراً ما يلى هذا الفصل الأخير زيادات متنوعة لعلها من عمل النساخ ، مثال ذلك المسائل المشهورة التى سأل عنها عبد الله بن سلام النبى محمداً عليه الصلاة والسلام . وقد أضيف إلى الكتاب قسم كبير يبحث فى أصل العالم ويوم القيامة وتختتمه قصيدة طويلة لشاعر مغمور يصف فيها نهاية العالم[٩] . ولاشك أن المؤلف قد اعتمد فى هذا القسم الكوزمولوجى cosmological على «كتاب البدء» للمقدسى بل إنه يشير إليه فى خلال كلامه ؛ وهو يتحدث فى هذا القسم عن الزمان الذى انقضى منذ خلق العالم ومدته وعن الخلق الذى وجد قبل آدم ، وعن عدد العوالم وحساب الوقت من آدم إلى لحظة تأليف الكتاب . وبعض فقرات هذا القسم ينقل مادة المقدسى بحذافيرها وبعضها يدخل عليها تعديلات كبيرة أوصغيرة[١٠] .

492 ومحتويات الكتاب بوجه عام لاتختلف عما نجده فى الكوزموغرافيات ولكن لعله ليس من باب الصدفة أن يهتم العنوان بإبراز عنصر العجائب والغرائب فهى التى تجتذب منذ البداية اهتمام المؤلف وتترك طابعها المميز على الكتاب بأجمعه ، بل وهى المسئولة قبل غيرها عما تمتعت به كوزموغرافيا ابن الوردى من رواج فى الشرق وعن تسرب العدد الكبير من مخطوطات الكتاب إلى الغرب . ولنذكر بهذه المناسبة أنه ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر وإلى ما بعد قرن من ذلك كانت كوزموغرافيا ابن الوردى مقربة إلى نفوس المستشرقين الأوروبيين أيضاً ولكنها لم تلبث أن فقدت سحرها شيئاً فشيئاً وتراجعت إلى الصف الثانى مفسحة المجال لمؤلفات من هذا الطراز أكثر جدية منها . هذا وقد أحاطت الريبة بقيمة هذا الكتاب قبل ذلك بعهد طويل وفى محيط الأدب العربى نفسه ، ولايخلو من أهمية فى هذا الصدد رأى مؤرخ الكتب والعالم الببليوغرافى المشهور حاجى خليفة الذى كان له باع طويل فى الجغرافيا أيضاً . فنى تعليقه الطويل عن هذا المصنف نراه يخرج بعض الشىء عما عهدنا فيه من التحفظ والاعتدال ويعبر عن رأيه فيه بحدة وببعض التهكم فيقول :

« وهو مجلد نصف أوله فى ذكر أقاليم وبلدان والباقى فى بعض أحوال المعدن والنبات والحيوان ولكنه

أورد فى أوله دائرة مشتملة على صور الأقاليم والبحار زعما منه أنه كذلك فى نفس الأمر وهو الضلال البعيد عن الحق المطابق للواقع فإن الرجل ليس أهل فن جغرافيا وتصويره لايقاس على سائر النقوش والتصاوير ومع ذلك أورد أخباراً واهية وأموراً مستحيلة كما هو دأب أهل العربية والأدباء الغافلين عن العلوم العقلية ان هذا الكتاب متداول بين أصحاب العقول القاصرة كأمثاله أوله الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب الخ ، ولعل المصنف أشار إلى هذا التأليف وأمثاله من الذنوب »[١١] .

ولانستطيع إلا أن نوافق حاجى خليفة فى تقديره العام للكتاب فهو مدخل عادى للغاية فى الجغرافيا والتاريخ الطبيعى ولكن غفل من أية قيمة علمية ذات بال[١٢] . ثم إن ميله الصريح إلى الخرافات والعجائب[١٣] تجعل منه شبيهاً لحكايات « القصاص » ، تلك الحكايات التى كسبت لنفسها سمعة سيئة منذ الأيام الأولى للحضارة العربية ولو أن ذلك لم يحل دون رواجها بين العامة . ويغلب على القسم الأكبر من الكتاب القصص الخيالية | والعجائب والغرائب المختلفة[١٤] بينما لاتجد فيه الأخبار الواقعية سوى مجال محدود[١٥] . وهو يحتل مكانته لا بين الآثار الجغرافية الكبيرة بل بين المتوسطة العادية ولو أنه يجب ألا ننفى بصورة كلية كما فعل حاجى خليفة[١٦] وجود بعض الفائدة لديه .

فابن الوردى رغما من كل هذا قد حفظ لنا أحياناً مواد لم تصلنا فى مصادرها الأولى[١٧] ، وتعتبر « خريدة العجائب » فى العادة انتحالا لمصنف الحرانى من أهل القرن الرابع عشر[١٨] والذى حدث أن توقفنا عنده فيما مر من هذا الكتاب ، غير أن الفحص الدقيق للمسألة يحول دون قبول هذا الرأى على علاته . وابن الوردى نفسه يسرد مراجعه التى نجد من بينها بطلميوس والبلخى والمسعودى والمراكشى ونصير الدين طوسى وآخرين غيرهم[١٩] ، ونحن قد تعودنا بالطبع أن نندر أحياناً فى الإشارات إلى المؤلفين المختلفين ضرباً من الدفاع عن النفس ، وهذا يصدق بدوره على ابن الوردى . فمن الملاحظ أن أن اسم الحرانى لايوجد فى ثبت مصادره بينما يدين له ابن الوردى فى واقع الأمر بالكثير ولو أنه لا يدين له وحده ؛ ومما يؤسف له حقا أننا لسنا فى وضع يسمح لنا بمقارنة المتنين . ولعب دوراً ليس أقل من هذا تأثير القزوينى عليه[٢٠] . وقد عرف ابن الوردى مصنفه معرفة جيدة ولاشك ، ويؤكد هذا بالتالى المستشرق الروسى مدنيكوف N. A. Mednikov[٢١] فى فحصه للأقسام الخاصة بفلسطين . وبنفس الدرجة يمكن أن نبصر تأثير الدمشقى والإدريسى عليه ، والأخير قد استعمله ابن الوردى عند كلامه على مواضع متباعدة كصقلية[٢٢] وفلسطين[٢٣] ؛ كذلك عرف جيداً مؤلفين أقل شهرة من أولئك كالمقدسى صاحب « كتاب البدء »[٢٤] . كل هذا يضطرنا إلى التسليم بأن محيط اطلاعه كان واسعاً بما فيه الكفاية ولم يقتصر بأية حال على الحرانى وحده .

ونادراً ما نلتقى على صفحات كتابه بذكر لأوروبا أو آسيا الشمالية أو الهند ، أما أكثر مادته طرافة فهى تلك التى تخص إفريقيا وبلاد العرب والشام[٢٥] . وهو يعتمد فى كلامه عن الروس وأوروبا الشرقية

على المسعودى وسلام الترجمان[٢٦] ، ويلوح أن معرفته بابن فضلان كانت عن طريق مصدر آخر . 494
ونظراً لما يتميز به مصنفه من تنوع كبير فى المادة فإنه يمكن العثور على تفاصيل قيمة وسط أقسامه المختلفة ، وقد أثبت مؤرخ صقلية أمارى أنه الوحيد الذى يورد الرواية المتعلقة بوجود جسر كبير طوله مائة وخمسون متراً يصل ترابانى Trapani بأرض صقلية[٢٧] ؛ كما وأن تيشنر Taeschner فى دراسته عن القسطنطينية قبل الفتح العثمانى يبين أن أكمل رواية لوصف المدينة الذى تناقلته المصادر الإسلامية منذ عهد الإسلام الأول هى التى حفظها لنا ابن الوردى بالذات[٢٨] . ومن هذا نبصر مرة أخرى أنه حتى مثل ذلك الكتاب الذى تكونت لدينا عنه بوجه عام انطباعات سلبية لا يمكن اطراحه ظهرياً بشكل نهائى .

ويمكن أن نستشف بعض التحيز فى موقف حاجى خليفة من خارطة ابن الوردى ، وهى معروفة منذ بداية القرن التاسع عشر عندما نشرها يوهانسن Johanssen اعتماداً على مخطوطة باريس وتورنبرج Tornberg اعتماداً على مخطوطة ابسالا ، ثم تلاهما مجيك Mzik فنشر صورة فوتوغرافية لها عن مخطوطة بغوتا[٢٩] . وفى الآونة الأخيرة نشر ميلر Konred Miller سبعة عشر نموذجاً لهذه الخارطة فى مؤلفه الضخم معتمداً على عشرين مخطوطة[٣٠] . وجميع هذه النماذج تعكس خارطة العالم المستديرة المعروفة لنا جيداً وهى تلك الخارطة التى ثبتت صورتها فى ما اصطلح على تسميته « بأطلس الإسلام » والتى ترتفع بالتوكيد إلى طراز خارطة الاصطخرى[٣١] ؛ أما من الناحية الفنية فإن خارطة ابن الوردى ليست بأردأ من غيرها من الخارطات من نفس النوع ومن ثم فإن الحكم القاسى الذى أصدره عليها حاجى خليفة غير مفهوم لنا تمام الفهم . ويرى ميلر أن وجود عدد هائل من المخطوطات قد ساق إلى تنويع صور هذه الخارطة بحيث يمكن تصنيفها على مجموعات[٣٢] ، وهو محق فى افتراضه أن الاختلاف فيما بينها يرجع فى أغلب الظن لا إلى المؤلف نفسه بل إلى الناسخ[٣٣] الذى يستطيع بحسب ما أوتى من الخبرة أن يجرى فى الخارطة ما يعن له من إضافات أو تعديلات لا وجود لها فى النموذج الأصلى . هذا وقد حازت الخارطة نفس الرواج والانتشار الذى حازه المتن وزحمت جميع الخارطات الأخرى ، كما وأن النزعة إلى الموضوعات الأسطورية قد انعكست بدورها فى بعض التسميات الموجودة بها ولكن هذه الظاهرة ليست وقفاً على ابن الوردى وحده . ونحن نلتقى لديه بموضع جبل قاف وعرش إبليس وينبوع الحياة[٣٤] ، ولكن توجد أيضاً إلى جانب هذا حالات أغنى فيها المصطلح الجغرافى ، ففى أوروبا تظهر البلقان و« الألمان وغيرهم من شعوب النصرانية » وذلك لأول مرة على خارطة عربية[٣٥] ؛ ولنستدرك على هذا بقولنا إن تحليل ميلر لا يخلو فى بعض نقاطه من الإبهام ويحتاج إلى التثبت . وبخلاف خارطة العالم المستديرة فإن معظم مخطوطات مصنف ابن الوردى تحتوى على « خارطة للقبلة » مبين عليها اتجاهات القبلة باختلاف 495 مواقع البلاد[٣٦] .

وقد تجاوز صيت « خريدة العجائب » نطاق العالم العربى بحيث يمكن أن تنازع فى هذا الميدان « عجائب

المخلوقات » للقزويني ، وهي معروفة في ترجمة فارسية[٣٧] غير أن الرواج كان على ما يظهر من نصيب ترجماتها التركية[٣٨] التي يذكر تيشنر الخبير في تاريخ الجغرافيا عند الأتراك ليس أقل من خمس منها[٣٩] ؛ ومما يلفت النظر أن أقدمها قد ظهرت بعد قليل من ظهور الأصل العربي وذلك قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية[٤٠] أما الترجمات الباقية فيرجع معظمها إلى القرن السادس عشر[٤١] ؛ وقد ضمن محمد عاشق في حوالي عام ١٠٠٦ هـ — ١٥٩٨ الأخيرة منها في سفره الجغرافي الكبير « مناظر العوالم »[٤٢] الذي سنقف عليه طويلا فيما سيمر من هذا الكتاب .

وكان من جراء العدد الكبير من مخطوطات ابن الوردي الذي وجد طريقه إلى أوروبا أن لفت إليه هذا أنظار العلماء الأوروبيين في وقت مبكر خاصة المبتدئين من بينهم الذين اضطروا حين لم يجدوا مواد أخرى إلى استخراج موضوعات أبحاثهم منه . وهم بالطبع لم تجتذبهم تلك الجوانب التي عملت على رواج الكتاب في الشرق ، فالعلامة المشهور سلسيوس Celsius قد وجه الأنظار إلى أهمية قسم التاريخ الطبيعي خاصة الجزء منه الذي يعالج الكلام على النبات ؛ ومنذ اللحظة التي ترسم فيها خطاه أوريفليوس Aurivillius فنشر في عام ١٧٥٢ الفقرة عن النخيل فإن دراسة « فريدة العجائب » أصبحت إلى حد ما من تقاليد العلم السويدي فنشر عدداً من فصوله هيلاندر Hylander (١٧٨٤ — ١٨٢٣)[٤٣] وفكس Faks (١٧٨٦)[٤٤] وتورنبرج Tornberg (١٨٣٥ — ١٨٣٩)[٤٥] ؛ غير أن علماء الأقطار الأخرى قد أدلوا أيضاً بدلوهم فالعلامة كولر Koehler الذي وضع دراسة قيمة عن أبي الفدا نشر الجزء من مصنف ابن الوردي المتعلق بالشام (١٧٦٦[٤٦] و١٧٨٦) وقدم لنا دى غين De Guigne في عام ١٧٨٩ تحليلا عاماً للكتاب[٤٧] ساعد إلى حد ما في تدعيم صيته . ومن الملاحظ أن علامتنا الكبير فرين Frähn بدأ نشاطه العلمي بابن الوردي بالذات فقد ظهر أول بحث علمي له في سنة ١٨٠٤ وهو عبارة عن متن ابن الوردي عن مصر مع ترجمة وتعليقات[٤٨] . وعندما تم في أوروبا اكتشاف المصنفات الكبرى القيمة بدأ نجمه في الأفول منذ منتصف القرن التاسع عشر | 496 بحيث اقتصرت أهميته بالنسبة لنا في الوقت الحاضر في أنه يمثل آخر نموذج لنمط الكوزموغرافيا في الأدب العربي ، ذلك النمط الذي بلغ الأوج في كتاب القزويني وبدأت تظهر عليه علامات التدهور إن لبس السقوط في كتاب ابن الوردي .

لقد ظل التأليف في مجال الجغرافيا الإقليمية مزدهراً بغزارة في الشام وفلسطين طوال هذا العصر ولكن نماذجه اختلفت بعض الشيء من حيث الشكل عما عهدناه بمصر فلم يهتم بمسائل الإدارة ونشاط الدواوين الحكومية بالقدر الذي اهتم به المؤلفون المصريون ؛ ولا غرو فقد بقيت مصر على الدوام مقر الدولة أضف إلى هذا أن جميع المراجع الإدارية التي ظهرت فيها قد وجهت اهتماماً ليس بالضئيل للشام أيضاً . ونادراً ما ترسمت الآثار التي صنفت بالشام خطو « الخطط » المصرية أي وصف المدن والحواضر بحسب

أحيائها ، وكانت نقطة التقائهما الوحيدة هى أنه بقدر ما ركزت الخطط اهتماماً قبل كل شىء على القاهرة فإن المصنفات الشامية قد ركزت بدورها اهتمامها الأساسى على المدن الكبرى كدمشق والقدس وحلب بعض الشىء . وهى ترتبط أكثر مما ترتبط الخطط بذلك النمط القديم نمط « الفضائل » و« المحاسن » الذى تمتد جذوره إلى القرنين الثامن والتاسع ؛ ولم تكن هذه الصلة قد انفصمت بالطبع ولكن ظهور الأنماط الأخرى وازدهارها قد دفع أحياناً إلى تناسيها ولكننا نراها الآن لأسباب عديدة تجمع قواها من جديد بل وتحتل مركز الصدارة . وتكمن طرافة هـــذا النمط فى تشبثه الشديد بتقاليده الأدبية فهنا يتمم المصنفُ المصنفَ السابق عليه بل وقد يقتصر أحياناً على مجرد إدخال تجديدات بسيطة عليه . وفى القرن السادس عشر أى تحت سلطان العثمانيين كان هذا النمط أكثر أنماط الأدب الجغرافى قرباً إلى نفوس القراء .

وقد أبصرنا من قبل ، وذلك خلال فحصنا للآثار المحلية المرموقة ، كيف انعكس هذا الاهتمام بالجغرافيا الإقليمية لدى مؤرخ الشام فى القرن الثالث عشر عز الدين بن شداد الذى يحمل الجزء الثانى من مصنفه فى بعض الأحيان عنواناً قائماً بذاته هو « محاسن إقليم دمشق » كأنما ينوه بذلك إلى محور اهتمامه الرئيسى . ويمثل هذا النمط فى القرن الخامس عشر بصورة أكثر جلاء مصنف عبد الله بن محمد البدرى الدمشقى[٤٩] ولو أن قيمته الأدبية ليست بالكبيرة ؛ ونحن لا نعلم شيئاً عن المؤلف نفسه سوى أنه أتم مصنفه حوالى عام ٨٨٧ هـ = ١٤٨٢[٥٠] وأن له مصنفات أخرى يرجع تأليفها إلى الربع الأخير من القرن الخامس عشر وأن تاريخ وفاته ينسب أحياناً إلى عام ٩٠٩ هـ = ١٥٠٣[٥١] ، ويوجد أساس قوى للاعتقاد بأنه أمضى شطراً طويلا من حياته بدمشق وعرفها معرفة جيدة لأن هذا ينعكس بجلاء من تضاعيف مصنفه « نزهة الأنام فى محاسن الشام » الذى اجتذب أنظار العلماء منذ عهد دى ساسى[٥٢] وكاترمير[٥٣] 497 بفضل مخطوطته الباريسية ، كما وأن المستشرق الفرنسى سوڤير Sauvarie نشر مقتطفات منه مترجمة إلى الفرنسية[٥٤] . وقد ظهر الكتاب فى طبعة قاهرية منذ عهد ليس بالبعيد[٥٥] ؛ وتوجد له مخطوطة جيدة بمكتبة معهد الدراسات الشرقية[٥٦] .

يقدم لنا المؤلف فى كتابه هذا وصفاً لمشاهد دمشق الجديرة بالاهتمام ، أوكما يعبر هو بلفظه الخاص « محاسن » دمشق ، وللمواضع القريبة منها ؛ وفيه يعالج الكلام على مساجدها المختلفة وحماماتها ومتنزهاتها كما لايهمل الحديث عن قراها ومواضعها المشهورة بأزهارها ونباتها وأشجار فاكهتها . وفيما يتعلق بالمجموعة الأولى فهو يورد بعض التفاصيل التاريخية والمعمارية أما فيما يتعلق بالثانية فيفصل أحياناً الكلام على طرق جمعها ووسائل تسويقها . ويختتم المؤلف كتابه بالكلام عمن عاش بدمشق من الصحابة ومشاهير الرجال وعن مقابرها وجباناتها وما بها من قبور معروفة . أما توزيع مادة الكتاب فغير متجانس ويلوح أن المؤلف قد افتتن بصورة خاصة بالأشجار والأزهار والبقول والثمار التى تنمو بدمشق ونواحيها فخصص لهذا ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً ، وهو ينقل عن مصنفات مختلفة فى الطب والنبات ويقدم لنا من وقت

لآخر من التفاصيل مما قد يكون ذا أهمية للمتخصصين[٥٧] . أما أسلوبه الكتابى فلايخلو أحياناً من التكلف وتنتثر فيه الاستشهادات الشعرية وفقاً للموضوع الذى يعالجه ؛ أما تبويبه للمادة فبدائى للغاية وهو يبدأ كلامه دائماً بالصيغة الآتية تقريباً : « ومن محاسن (دمشق) الشام كذا وكذا . . . . »[٥٨] .

ولإعطاء فكرة عن منهجه فى التأليف بل ومنهج غيره نذكر أنه رغماً من إقامته بدمشق ومعرفته الجيدة بها على ما يبدو فإن هذا لم يمنعه فى وصفه لمسجدها الجامع من أن يفضل الرجوع إلى رواية الرحالة الأندلسى ابن جبير[٥٩] التى ترتفع إلى القرن الثانى عشر ؛ وهى ظاهرة كما نعلم موجودة لدى جميع الجغرافيين العرب . ويلوح أن وصف أبى البقاء قد اكتسب بعض الشهرة بالشام فى القرن السادس عشر أفاد منه البصروى[٦٠] عند معالجته لنفس الموضوع ، وسنلتقى بهذا الأخير فيما سيمر من هذا الكتاب .

وإذا حدث وأن لاحظنا بعض الحيوية فى ميدان الجغرافيا الإقليمية فيما يتعلق بدمشق والشام عامة فإنه لا يمكن | 498 | مقارنة ذلك بأية حال بالنشاط المفعم فيما يخص فلسطين والقدس بصورة خاصة ، فمن السهل علينا أن نعد فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ليس أقل من عشرة مؤلفين تركوا أحياناً مؤلفات ضخمة فى هذا الميدان . وهذه الظاهرة بطبيعة الحال ليست وليدة المصادفة لأنها تتصل فى الواقع بتقاليد موغلة فى القدم ترتبط بالاتجاهين الحديثى واللغوى للقرنين التاسع والعاشر ، وإلى جانب هذا فقد وجدت فيما يتعلق بفلسطين أسباب خاصة جعلتها فى فترات معينة من التاريخ محط أنظار العالم الإسلامى بأجمعه ؛ وهذا هو السر فى أن مؤلفى هذه المصنفات لم يكونوا من أهل فلسطين أو الشام وحدهما بل كانوا أيضاً من المصريين .

ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أن مصر والبلاد المرتبطة بها كانت تقف فى القرون الأخيرة السابقة لخضوعها للعثمانيين على رأس الحركة الرامية إلى تحرير فلسطين والمناطق المجاورة لها من أيدى الصليبيين . وتاريخ هذه الحركة قد تردد صداه فى عدد هائل من الآثار الأدبية ، ويستحق من وجهة النظر هذه بحثاً خاصاً يعالج الفترة بأجمعها منذ عهد صلاح الدين الأيوبى إلى عهد محمد الفاتح . ووجهة النظر الإسلامية فيما يتعلق بفلسطين كانت مشابهة كل الشبه لوجهة النظر المسيحية التى تشكلت وأخذت قالبها فى عهد الصليبيين فقد انبعث أدب دعايه ذو أصالة كبرى انصبت فكرته فى أن فلسطين بل وجميع أرض الشام إنما هى أرض المعاد بالنسبة للمسلمين لاينازعهم فى شرعيتها أى منازع . ولم تلبث مقابر الأنبياء القديمة الموجودة بها وأيضاً المعابد والمساجد العتيقة أن اكتسبت قداسة لاتفوقها سوى قداسة مكة والمدينة ؛ وفى العصور المتوسطة الأخيرة أصبح الحج إليها فريضة كالحج إلى مكة ودفع هذا بدوره إلى ازدهار المؤلفات المرتبطة بها والتى احتيج إليها لأغراض الدعاية من جهة وأغراض تعريف المسلمين بتلك البلاد نفسها من جهة أخرى .

وكان الدعاة يشيرون دائماً إلى أنه يجب ابتغاء مرضاة الله بزيارة تلك البلاد وإنفاق الصدقات على المؤسسات الموجودة بها كمؤسسات العبادة وفعل الخير والعلم .

ولم تقم الدعاية على استثارة العواطف الدينية فحسب بل إن العلماء قد اهتموا أيضاً بتوضيح جانب آخر دنيوى يتعلق بفلسطين فأخذت تتشكل وتنمو الفكرة القائلة بأن الشام تمتلك تسعة أعشار ثروة العالم بأجمعه ؛ ولا يخفى ما تسوق إليه مثل هذه الأفكار من التزامات نفسية معينة فقد أحس المسلمون بأن عليهم أن يرتحلوا إلى تلك البلاد لا خضوعاً لتلك العواطف الدينية وحدها بل وأيضاً ليستغلوا خيراتها لأنفسهم ولغيرهم سواء فى مجال التجارة أو الزراعة . ولعله لم يكن من قبيل الصدفة أن يولى أبو البقاء مثل ذلك الاهتمام لأزهار وفاكهة وادى دمشق مبيناً فى ذات الوقت ما يلقاه كل منها من إقبال فى البلدان الأخرى وفى أى صورة كان ذلك .

499 وجميع هذا الأدب الجغرافى ذو الطابع الدعائى وما اصطبغ به من أغراض دينية أو دنيوية | قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً على جميع مراحل تطوره بنمو الحركة التى أطلقنا عليها اسم حركة « التحرير » . وترجع بداية هذه الحركة إلى عهد صلاح الدين الأيوبى أو إلى ما قبل ذلك بقليل حينما مر ما يقرب من مائة عام على وجود بيت المقدس فى أيدى الصليبيين (٤٩٢ هـ – ٥٨٣ هـ = ١٠٩٩ – ١١٨٧)[٦١] وتنتهى الفترة الأولى لهذه الحركة باسترداد المسلمين لعكا وطرابلس فى عام ١٢٩١ . أما الفترة الثانية منها فتصل إلى عام ١٣٧٥ عندما قضى المماليك على مملكة أرمينيا وضموها إلى مصر فوجدوا بذلك أنفسهم وجهاً لوجه مع الأتراك العثمانيين الذين كما اكتشف المماليك بالتالى لم يكونوا أقل حماساً دينيا منهم أو ضراوة فى القتال . وقد كانت أنظار المماليك معلقة بحوض البحر الأبيض المتوسط حيث توقعوا على الدوام خطر الغزو من أوروبا يهدد سواحل مصر والشام لذا فإن الفترة الثالثة والأخيرة لحركة « التحرير » الإسلامى ضد الصليبيين تبدأ بالعمليات الحربية الموجهة ضد جزيرة قبرص فى عام ١٤٢٤ والتى ربما كانت بمثابة انتقام من الصليبيين لتخريبهم الإسكندرية فى عام ١٣٦٥ ، وتنتهى هذه الفترة بحملة المماليك الفاشلة للاستيلاء على جزيرة رودس حيث التقوا هناك بالأتراك العثمانيين الذين كان يحدوهم نفس الأمل . وحتى هؤلاء الأخيرين لم يحالفهم التوفيق بالإستيلاء على الجزيرة إلا فى عام ١٥٢٢ بالرغم عن أن عملياتهم العسكرية ضدها ترجع بصورة جدية إلى منتصف القرن الخامس عشر[٦٢] .

أمام هذه التحديدات الزمنية التى بيناها بوضوح كاف يضحى أكثر فهماً لنا سبب النمو غير العادى الذى تمتع به الأدب الجغرافى عن فلسطين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بالذات . ولا يجب بأية حال الاعتقاد بأن هذا الأدب يرجع فى نشأته إلى هذين القرنين إذ أنه يرتبط فى الواقع بتقاليد أدبية ضاربة فى القدم سنضطر إلى الوقوف على لحظات معينة منها ؛ وقد كشفت هذه التقاليد عن استعداد غريب للاستمرار والتماسك وسنرى كيف اشترك أحياناً علماء من أسرة واحدة أو من مدرسة واحدة فى معالجة موضوع واحد ، كما سنتبين كذلك النزعة للاحتفاظ بعنوان واحد لعدد من المصنفات . ومما يؤسف له أن ما يتميز به هذا الأدب من ناحية الكم لاتعادله ميزاته من ناحية الكيف فهو أدب نقلى بكل ما يحمله

هذا اللفظ من معنى ، وبهذا نرى لزاماً علينا الاقتصار على تلك المصنفات المبكرة التى هى بمثابة الأساس فى بنائه والتى تعتبر أنموذجاً للمؤلفات التى أعقبتها . وسنرى فيما يلى كيف أن هذا الطابع النقلى يغلب تماماً بحيث نلتقى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بمصنفات متشابهة يكرر بعضها البعض بصورة يمكن اعتبارها معها مسودات متعددة لمؤلف واحد ؛ وتكمن قيمة هذه المؤلفات فى المادة التى تحويها والتى تنتظم أحياناً مدى واسعاً فلا تقتصر على الموضوعات التى تمس الأغراض التى لفتنا النظر إليها بل تعالج إلى جانب ذلك مسائل هامة بالنسبة لنا من مجال التاريخ والجغرافيا بل ومن مجال الآثار والطبوغرافيا أحياناً .

هذا الأدب الواسع المدى لم ينشر منه إلى الآن إلا جزء ضئيل للغاية ، كما أن ما أخضع منه للدراسة أقل من ذلك بكثير . وبالرغم من أن نقاط معينة منه قد اجتذبت أنظار العلماء الأوروبيين أكثر من مرة إلا أنه لم تعمل حتى الآن محاولة لتقديم عرض موجز له تأخذ فى حسابها الاعتبارات التى أشرنا إليها منذ 500 قليل ؛ وقد مس هذه المسائل فى بداية القرن التاسع عشر وذلك فى بحث له عن مؤلف من أهل القرن الخامس عشر العلامة الدنمركى الشاب لمنغ Lemmnig (١٨١٧) ، وفى بداية القرن العشرين فقط تمكن المستشرق الروسى مدنيكوف Mednikiov (١٨٩٧ — ١٩٠٣) وذلك فى تحليله لآثار ثلاثة من مؤلفى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أن يلقى ضوءاً ساطعاً على المسألة المتعلقة بمصادرهم وبعلاقتهم ببعضهم البعض[٦٣] . وقد تجمعت منذ ذلك الوقت مادة ضخمة فى هذا الميدان ولو أن تحليلها لم يتقدم فى جوهره بأبعد من النتائج التى وصل إليها مدنيكوف .

ومن خصائص هذا الأدب « الفلسطينى » ، وذلك فى الفترة الأولى التى ترتفع إلى عهد سابق لعهد صلاح الدين ، أن فلسطين نفسها لاتنال فيه أهمية مستقلة بل تدخل ضمن الشام التى احتلت فيه المكانة الأولى . ومصنف أبى الحسن على الربعى الذى تم تأليفه حوالى عام ٤٣٥ هـ ١٠٤٣ يحمل عنوان « الاعلام بفضائل الشام ودمشق وذكر ما فيهما من الآثارات والبقاع الشريفة »[٦٤] ؛ وإذا لم يكن من المعروف لنا أنه قد رجع إليه المتخصصون فى الأدب « الفلسطينى » كبرهان الدين الفزارى من أهل القرن الرابع عشر أو كشمس الدين السيوطى من أهل القرن الخامس عشر[٦٥] لما استبان لنا من عنوانه أن الكلام يدور فيه عن فلسطين كذلك . وفى الفترات التالية من تطور هذا الأدب تبدأ القدس فى التمتع بحقوقها كاملة من حيث العناوين شأنها فى هذا شأن دمشق ؛ وخير مثال لهذا مؤلف نال الصيت فيما بعد وهو أبو المعالى المشرف بن المرجى بن إبراهيم المقدسى[٦٦] وليس لنا علم بالزمن الذى عاش فيه وقد حاول عبثاً مجير الدين[٦٧] فى القرن الخامس عشر أن يثبت تاريخ الفترة التى عاش فيها ولكنه لم يوفق فى ذلك ؛ غير أنه من الممكن إرجاعه إلى نهاية القرن الخامس الهجرى أى الحادى عشر الميلادى لأن ثمة إشارة وردت لدى ياقوت تفيد بأنه كان معاصراً لمكى بن ريان الذى قتل عند استيلاء الصليبيين على

بيت المقدس[٦٨] . ويحمل مصنف المقدسي عنوان « فضائل البيت المقدس والشام » ، ولايزال معروفاً إلى هذه اللحظة فى مخطوطة فريدة موجودة بتيبنغن Tübingen . ويبدأ العرض بتاريخ موجز لبيت المقدس القديمة وفتح العرب لها فى عهد عمر وبناء عبد الملك فى الحرم[٦٩] ؛ ويلى هذا الكلام على فضائل القدس وفضل الصلاة فيها ؛ وينصب العرض فى جوهره على سرد الأحاديث النبوية التى قيلت فى فضل القدس وهو منهج اكتسب رواجاً كبيراً لدى المؤلفين التالين فنسج على منواله برهان الدين الذى مر ذكره للتو وابن عساكر (الابن)[٧٠] وأحمد 501 المقدسى[٧١] . وأخيراً نلتقى بالعنوان منفرداً قائماً بذاته على هيئة « فضائل بيت المقدس » ، وذلك فى حوالى عام ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ لدى أبى بكر بن محمد بن أحمد الواسطى وهو أيضاً من المؤلفين الذين ورد ذكرهم لدى مجير الدين الذى لم يستطع التثبت من الزمن الذى عاش فيه على وجه الدقة[٧٢] .

هذا وقد حافظ الأدب « الفلسطينى » لأسباب مفهومة لنا كل الفهم على ازدهاره الأول إلى ما بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس واسترجاعها على يد صلاح الدين ، وأخذت طرفاً فيه أحياناً شخصيات كبرى كالمؤرخ الداعية المشهور أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (توفى فى عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠)[٧٣] . وإن نشاط دعوته التى نالت الحظوة لدى الجماهير حتى خرجت أحياناً إلى الشوارع ليساعدنا على تفهم الأسباب التى حدت بمثل هذا الرجل ليجعل من فلسطين موضوعاً لخطبه ولماذا اعتبرت أحياناً رسالته « فضائل القدس » مجرد فصل من مصنفه الكبير « مثير الغرام إلى ساكنى الشام[٧٤] » . ومما يثبت أن الأدب الجغرافى من هذا الطراز كان يرتبط ارتباطاً فعلياً بالدعوة « التحريرية » التى لم تقف عند حد القول فقط بل خرجت أحياناً إلى حد الفعل بحادث صغير فى حياة سبطه وتلميذه الذى نال الشهرة أكثر منه أعنى المؤرخ سبط ابن الجوزى (توفى عام ٦٥٤ هـ = ١٢٥٧) ؛ فهو لم يكتف بدعوة أهل دمشق إلى جهاد الفرنجة بل اشترك بنفسه على رأس حملة عسكرية موفقة على مدينة نابلس[٧٥] . وبعد قرن ونصف من هذا كان مصنف ابن الجوزى من مصادر رسالة مماثلة لكاتب كبير هو تاج الدين عبد الوهاب السبكى[٧٦] .

وفى وقت واحد مع ابن الجوزى وذلك فى الحد الفاصل بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر يأخذ طرفاً فى الأدب « الفلسطينى » اثنان من أسرة دمشقية اشتهرت بمؤرخيها هى بنو عساكر . وأحدهم وهو القاسم بن عساكر (توفى فى عام ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣) ابن لصاحب معجم السير المشهور[٧٧] وقد سلك سبيل والده فاشتغل بالوعظ بدمشق وزار القاهرة والقدس حيث قرأ فى عام ٥٩٦ هـ = ١٢٠٠ مصنفه عن المسجد الأقصى[٧٨] . ومن الممكن أن نتصور ما تمتعت به مثل هذه الموضوعات من رواج ولما ينقضى على تحرير المدينة من أيدى الصليبيين أكثر من عشرين عاماً . واسم مصنفه هو « الجامع المستقصى فى فضائل 502 المسجد الأقصى » ؛ وكان من مراجعه أبو المعالى المشرف[٧٩] الذى مر ذكره تواً ؛ كما أنه لايوجد

شك فى أن ابن عساكر أفاد من مؤلفات أبيه وهذا من شأنه أن يرفع من قيمة كتابه لأن الأب اشتهر بأمانته العلمية[٨٠] . هذا المصنف لابن عساكر الابن الذى لم يصلنا حتى فى المخطوطات قد تمتع بانتشار واسع وساعدت شهرة الأب فى أنه لم يكن من النادر نسبة المصنف إليه فى الأدب العربى ولدى الدوائر العلمية الأوروبية المبكرة ، ولكن يلوح أن اسم المؤلف الحقيقى قد ثبت الآن بصورة نهائية . ويوشك هذا المصنف أن يكون المصدر الأساسى لجميع من عالجوا الكتابة عن القدس إلى جمال الدين المقدسى فى القرن الرابع عشر [٨١] ؛ وقد استعمله على حد سواء كل من الفزارى[٨٢] والسبكى[٨٣] .وكما هو تقليد أسرتهم فقد شغل بنفس الموضوع أيضاً ابن عمه أمين الدين أحمد بن محمد الذى تقتصر معرفتنا بمصنفه «كتاب الأنس بفضائل القدس[٨٤] » أيضاً على ذكر الآخرين له ونقلهم منه . وهو قد قرأ مصنفه بدمشق فى عام ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦[٨٥] ويبدو من النقول أنه قد اعتمد فيه اعتماداً أساسياً على مصنف ابن عمه المشار إليه[٨٦] ، كما كان هو بدوره مصدراً للسبكى[٨٧] .

وإذا كانت الفترة الأولى لازدهار هذا الأدب الدعائى بفلسطين والشام ترتبط كما رأينا بمصير بيت المقدس وحروب صلاح الدين فإن الفترة الثانية الواقعة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر والتى تعتبر أكثر إنتاجاً فى هذا الميدان يمكن أيضاً تحليلها على ضوء وقائع من تاريخ حركة « التحرير » ، فتحرير الشام جميعها باستيلاء المسلمين على عكا وطرابلس فى عام ١٢٩١ قد خدم كثيراً قضية هذا الأدب ؛ ومما يثبت وجود صلة لهذا الأدب بمسائل الجدل والخلاف (Polemics) ضد الفرنجة أن بداية القرن الثالث عشر قد شهدت وصول الرسالة المسماة « بالمسائل القبرصية » إلى الشام وهى التى أخذ طرفاً فى تفنيدها لا الفقيه المشهور ابن تيمية وحده بل وأيضاً الكوزموغرافى الدمشقى كما نذكر جيداً[٨٨] . ومما يقف دليلا على حيوية هذا الاهتمام أن مخطوطات بعض مصنفات ذلك العصر قد حفظت إلى أيامنا هذه . 503

وأول مؤلفى القرن الرابع عشر من الناحية الزمنية هو برهان الدين إبراهيم بن الفركاح (توفى عام ٧٢٩ هـ = ١٣٢٩[٨٩]) الذى مر بنا اسمه أكثر من مرة ، وقد اشتغل بالتدريس بدمشق وزار مصر وتخصص إلى حد ما فى هذا الأدب الذى كرس لفلسطين كما يبدو من اثنين من كتبه حازا رواجاً لدى الجمهور أكثر من غيرهما . وأحد هذين الكتابين على ما يلوح ليس سوى تنقيح لكتاب الربعى الذى مر بنا الكلام عليه بل ويحمل نفس عنوانه وهو « الأعلام بفضائل الشام »[٩٠] ، وأما الكتاب الثانى والذى نال انتشاراً أكثر من سابقه فيحمل عنوان « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » ويوجد فى « عدد كبير من المخطوطات ؛ وقد قام دى غين De Guignes بتحليل محتويات المخطوطة الباريسية منذ عام ١٧٩٠[٩١] . ويبدو لنا من عنوان الكتاب نفسه أن الأمر لايتعلق بمصنف فى تاريخ القدس أو جغرافيتها بل بضرب من الدعاية الصريحة إلى زيارة ذلك المركز الدينى حتى يفوز العبد بحسن المثوبة والمكافأة فى الدار

الأخرى ؛ ولهذا السبب فإن الكتاب يحمل طابعاً شاعرياً* لايمكن إنكاره هذا إلى جانب فقرات معينة من تاريخ تغلب عليه الأسطورة(٩٢) ، ولو أنه لا يخلو من معطيات ذات قيمة من مجالى الجغرافيا التاريخية والآثار المختلفة . وهو يقع فى ثلاث عشرة فصلا(٩٣) تبدأ من لحظة بناء المسجد الأقصى ويتخلل العرض شواهد دينية فى فضل الحج إلى المسجد الأقصى والصلاة فيه وما فى الحج من بيت المقدس إلى مكة من مزايا وفى أهمية الزكاة فى بلد كبيت المقدس . وبعض فصول الكتاب تتناول الكلام على تفاصيل معينة من المسجد وبعض مواضع القداسة الأخرى بالمدينة ، أما الفصل الأخير فيعالج الكلام على فضائل الخليل (حبرون) التى ستنال كما سنرى اهتماماً خاصاً بها ومفرداً لها . ومما لاشك فيه أن الكتاب لايتمتع بأية أصالة فقد اعتمد المؤلف اعتماداً أساسياً على ابن عساكر وأبى المعالى(٩٤) ، بل هو نفسه لايخفى ذلك إذ يصرح فى مقدمة الكتاب بأنه قد اعتمد قبل كل شىء على المؤلف الأول وأقل من ذلك على الثانى(٩٥) . وقد أصبح مصنفه بالتالى مصدراً لعدد من المؤلفين الآخرين نخص بالذكر منهم السبكى(٩٦) .

ومن بين جميع الجغرافيين الذين تخصصوا فى المسألة الفلسطينية من منتصف القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر يسترعى النظر بشكل خاص ثلاثة هم المقدسى والسيوطى ومجير الدين العليمى ؛ وهؤلاء الثلاثة بالذات هم الذين رأى | أن يوجه إليهم عناية خاصة فى مصنفه الكبير لنهاية القرن التاسع عشر **504** وبداية القرن العشرين المستشرق الروسى مدنيكوف N. A. Mednikov ؛ ومما يؤكد صواب مدنيكوف فى هذا الاختيار أن واحداً من خيرة المتخصصين فى جغرافيا فلسطين وهو المستشرق الألمانى هارتمان R. Hartmann(٩٧) قد وصل إلى نفس هذه النتيجة مستقلا عنه ؛ ونحن بدورنا لا نستطيع إلا أن نترسم خطاهما . غير أنه يوجد إلى جانب هؤلاء الثلاثة مؤلفون من الدرجة الثانية (dii minorum gentium) ؛ وهؤلاء بدورهم لا نستطيع إسقاطهم فى عرض عام كهذا يتوخى الشمول ولكننا سنقف عندهم بإيجاز شديد . ومما يزيد فى صعوبة دراسة هؤلاء المؤلفين أنه لم يطبع من بين مؤلفاتهم سوى مصنف مجير الدين وذلك فى طبعة لاترضى مطالب النقد العلمى .

وأول هؤلاء الثلاثة يدعى أحمد بن محمد المقدسى (توفى فى عام ٧٦٥ هـ = ١٣٦٤)(٩٨) ، ولقبه مختلف عليه ولكن مدنيكوف يفضل جمال الدين(٩٩) . وهو لم يكن فلسطينى الأصل فحسب بل إنه يسوق نسبه إلى صحابى جليل هو تميم الدارى(١٠٠) بطل واحدة من أغرب الرحلات الأسطورية فى الأدب الجغرافى العربى ، وقد حدث أن عالجنا الكلام عليه فى الفصل الأول من كتابنا هذا ؛ ولعل مؤلفنا اعتمد على ما تواتر لدى أسرته من أخبار تميم فوضع كتاباً بعنوان « إفحام المارى بأخبار تميم الدارى »(١٠١) ، ويبدو من هذا العنوان أن المؤلف قصد بالكتاب إثبات حقيقة تلك الرحلة . وقد اشتغل المقدسى بالتدريس

---

* من المحتمل أن هذه غلطة مطبعية فى الأصل الروسى وأن المؤلف إنما أراد أن ذلك الكتاب إنما يحمل طابعاً تديلياً (Piety) وليس شاعرياً (poetical) . (المترجم)

لمدة طويلة بالقدس ولكنه توفى بالقاهرة ، ويحمل مصنفه الذى أتمه فى عام ٧٥٢ هـ = ١٣٥١[١٠٢] عنوان « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » وهو معروف إلى الآن من مخطوطاته فقط ومن المقتطفات التى نشرها لوسترانج Le Strange[١٠٣] والتى اعتمد عليها مدنيكوف فى وضع ترجماته الروسية[١٠٤] ؛ ومما يؤسف له أن الدراسة المسهبة التى قام بها كنيغ König « لمثير الغرام » لم تر النور بأكملها . والكتاب ينقسم إلى قسمين الأول فى فضائل الشام وفلسطين عامة والثانى فى فضائل المسجد الأقصى خاصة وفى سير بعض الشخصيات التى ارتبط اسمها به : وتقدم ترجمات مدنيكوف فكرة واضحة عن القسم الثانى بإيرادها لقطع مهمة من الفصول الخامس والسادس والسابع ، ويتضح من مضمون الكتاب أن المقدسى قد سار على تقاليد المصنفات التى تجمع فى مجال واحد بين فلسطين والشام بحسب ما بينا هذا فيما سبق من كلامنا .

505 والكتاب بالطبع ليس مصنفاً تاريخياً جغرافياً | بالمعنى الذى يفهم عادة من هذا بل هو مصنف لرجل من رجال الدين كان هدفه الأول كما بين كنيغ[١٠٥] هو الدعوة إلى الحج ، وهو فى هذا لايختلف عن بقية المؤلفات التى نعالج الكلام عليها الآن بل يمثل حلقة فى سلسلة تطورها . وأهميته ضئيلة من ناحية المصادر التى اعتمد عليها لأنه يستقى مادته من مصادر ثانوية[١٠٦] هى مصنفات المؤلفين الذين مر بنا الكلام عليهم للتو ؛ وهو يرتبط ارتباطاً أوثق بابن عساكر الذى يعتبر مصدره الأساسى[١٠٧] ولكنه ينقل أيضاً بشكل ملحوظ من أبى المعالى المشرف[١٠٨] وأبى بكر الواسطى[١٠٩] . وبنفس هذا القدر اعتمد عليه الأدباء التالون له فعرض السيوطى يتفق معه فى معظم الأحوال[١١٠] بينما ينقل مجير الدين تسعة أعشار مادته عن المقدسى بالحرف الواحد[١١١] . وقد نال المصنف فى مجموعه بعض الرواج ، ويوجد له مختصر يرجع إلى نهاية القرن الرابع عشر ومعروف فى إحدى المخطوطات[١١٢] .

وابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع عشر نبصر أن المسائل الفلسطينية لم تعد وقفاً على أهل الشام وحدهم أو أصحاب الجغرافيا والطبوغرافيا ، ويمكن أن نقدم مثالا لقولنا هذا الفقيه الكبير محمد بن بهادور التركى المصرى الزركشى (توفى فى عام ٧٩٤ هـ = ١٣٩٢)[١١٣] الذى يمكن الاستدلال على أصله وموطنه من اسمه هذا . وقد تلقى تعليمه بالقاهرة ودمشق وحلب ، ولعل إقامته بالشام هى التى أثارت فى نفسه الاهتمام بالمسائل المحلية ولو أنه يبدو أن فهمه لها كان قائماً على إلمام واسع . وإلى جانب مؤلفاته الفقهية العديدة توجد له رسالة بعنوان « إعلام الساجد بأحكام المساجد » وهى معروفة فى عدد قليل من المخطوطات[١١٤] ولكن بما أن معاصره السبكى قد رجع إليه كثيراً فى مصنفه عن فلسطين[١١٥] فمن الجلى أن القدس قد فازت بمكانة كبرى فى تلك الرسالة .

والسبكى هو تاج الدين عبد الوهاب من مواليد القاهرة ، ولكنه اشتغل بالتدريس بدمشق وبها توفى فى عام ٧٧٦ هـ = ١٣٧٠[١١٦] . وقد نال كسابقه شهرة عريضة كفقيه مع ميل واضح إلى التاريخ .

506 | انعكس فى مصنفه الكبير عن طبقات الشافعية . أما مؤلفه عن فلسطين فيمكن تحديد موضوعه

من العنوان وهو « الروض المغرس فى فضائل البيت المقدس » ؛ ولاعلم لنا بوجود أية مخطوطات له ، كما أن حاجى خليفة يشير إليه إشارة عابرة فى كلامه عن « الاتحاف » (لشمس الدين السيوطى)[١١٧] . بيد أن العدد الهائل من الاقتباسات المنقولة عنه فى أدب « فلسطين » يسمح لنا دون تردد بتحديد موضعه فى سلسلة المؤلفات التى نعالج الكلام عليها فى هذه اللحظة . أما مصادره فأوسع إذ نلتقى لديه من بين المؤلفين الذين مر ذكرهم بابن الجوزى وابن عساكر وأمين الدين والفزارى والزركشى[١١٨] ، كما كان بدوره مصدراً من مصادر « الاتحاف »[١١٩] المار ذكره ومنه وجد طريقه بالطبع إلى مجير الدين وغيره من المؤلفين . وهكذا فبالرغم من أن الكتاب غير معروف لنا معرفة مباشرة إلا أنه لعب دون شك دوره فى هذا الأدب المختص « بفلسطين » ويجب أن يحتل مكانه فى هذه السلسلة من المصنفات .

ونفس هذا الحكم يصدق على المؤلفين التاليين له من الناحية الزمنية رغما من أن مخطوطات مصنفاتهم موجودة فى متناول الأيدى . وكان أحدهما مصرياً أيضاً وهو شهاب الدين أحمد بن محمد الأقفهسى المصرى (توفى فى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥) واشتهر أيضاً بمؤلفاته الفقهية كالزركشى ولو أن شهرته لم تبلغ شهرة الأخير . ومؤلفه عن فلسطين ذو طابع عام على ما يبدو ويحمل عنوان « تسهيل المقاصد لزوار المساجد » وقد أتمه فى عام ٧٨٦ هـ = ١٣٨٤ وتقابل مخطوطاته فى الشرق بين آن وآخر ولكنها نادرة بأوروبا[١٢٠] ؛ وهو معروف لنا بشكل خاص بوصفه مصدراً من مصادر | « الإتحاف » التى يذكرها السيوطى فى مقدمة كتابه[١٢١] وهذا يجعلنا نفترض أن فلسطين قد احتلت أهمية خاصة لديه . أما المؤلف الثانى فكان أيضاً من بين المتخصصين فى المسائل الفلسطينية وعاون على ذلك مكان إقامته ، فإسحاق بن إبراهيم التدمرى الخطيب الخليلى (توفى فى عام ٨٣٣ هـ = ١٤٢٩)[١٢٢] أصله من تدمر كما تشير نسبته ولكنه عمل خطيباً بمسجد الخليل وهى حبرون القديمة التى اشتهرت بين المسلمين بمقام إبراهيم الخليل . ويحمل مصنفه العنوان التقليدى « مثير الغرام فى زيارة الخليل عليه السلام » ، وفيه يتحدث المؤلف عن هذا المقام المعروف له جيداً والذى كان على ما يبدو موضوعاً لخطبه ومواعظه بالمسجد . ومن الجلى أن الكتاب ينتمى إلى طراز أدب الدعاية القائم على أساس تاريخى جغرافى مع قدر معين من التخصص ؛ ولاشك أن مكانة حبرون الخليل لدى المسلمين تبرز بوضوح تام السبب فى احتلالها مركزها إلى جانب بيت المقدس . وهذا الأثر الذى تم تأليفه فى عام ٨١٤ هـ = ١٤١١ قد تمتع بشهرة كافية فى أوساط المتخصصين فى الشئون الفلسطينية ، إذ أمكن القول بهذا ؛ فقد ذكره السيوطى بين مصادره[١٢٣] كما عرفت مخطوطات له تضم زيادات إلى القرن السابع عشر[١٢٤] ؛ أما فى أوروبا فإن مخطوطاته نادرة للغاية ولهذا السبب فإن استعمال العلماء الأوروبيون له قد اقتصر على الشذور المتفرقة التى نقلها منه المؤلفون التالون له .

واثنان من بين هؤلاء الأخيرين اللذين ارتأينا أن نختتم بهما هذه السلسلة قرب نهاية القرن الخامس عشر كانا أغزر مادة من غيرهما وأوسع ذكراً فى الأدب الأوروبى عن فلسطين ؛ وقد التقينا مراراً بمصنف أحدهما فى الصفحات السابقة لهذه لما له من فضل فى حفظ معلومات ذات أهمية نقلها عن كتب لم تصل

إلينا وعنوانه الكامل هو « إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى » ؛ ورغماً من وضوح العنوان ودلالته ووجود عدد من مخطوطات الكتاب إحداها بمعهد الدراسات الشرقية (رقم B 1037)[١٢٥] فإنه يوجد جدل كبير حول شخص مؤلفه[١٢٦]. فقد نسب الكتاب أحياناً ، كما لدى حاجي خليفة وفي بعض المخطوطات ، إلى كمال الدين محمد بن أبي شريف (توفي في عام ٩٠٦ هـ = ١٥٠٠) ، وأحياناً أخرى ، | 508 وذلك بسبب اختلاط الأسماء إلى العلاقة الكبير جلال الدين السيوطي . غير أنه اعتماداً على أقدم مخطوطاته المؤرخة فإنه يوجد أساس قوي لنسبة الكتاب إلى شمس الدين محمد بن أحمد السيوطي ؛ وقد مال إلى هذا الرأي مدنيكوف ويمكن القول بأنه ثبت نهائياً في الآونة الأخيرة[١٢٧] . ولا نعلم عن سيرة حياته إلا ما يمكن استجلاؤه من صفحات كتابه ، أما نسبته فتشير إلى أنه من مصر التي أمضى فيها سني شبابه يحلم بالضرب في الآفاق ، وكانت أسهل وسيلة في ذلك الزمان لتحقيق هذا الهدف هي أداء فريضة الحج ففي عام ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ نراه بمكة حيث أمضى تسعة أعوام رجع بعدها إلى مصر . وقد اضطر مراراً إلى تأجيل حجته إلى فلسطين التي كانت تشوقه بصورة خاصة ، وأخيراً في عام ٨٧٤ هـ = ١٤٦٩ تمكن من السفر إلى بيت المقدس وما كاد يجد نفسه بها حتى بدأ مباشرة في تدوين مؤلفه الذي فرغ منه في عام ٨٧٥ هـ — ١٤٧٠ . ويمكن إرجاع الاختلاف الواضح بين مخطوطات كتابه إلى أن المؤلف قد أجرى قلمه فيه بالتعديل حوالي عام ٨٨٠ هـ = ١٤٧٦ فكان ذلك بمثابة إخراج طبعة ثانية للكتاب إذا جاز هذا التعبير الحديث . وهو وإن كان في جوهره تاريخاً ووصفاً لمسجد القدس كما يؤكد ذلك عنوانه إلا أن فصوله الثمانية أبعد من أن تقتصر على ذلك الموضوع الضيق وحده[١٢٨] ؛ وكما هو الحال مع غيره فإنه توجد به فصول في الدعاية الصرفة تدعو إلى زيارة فلسطين وإلى إنفاق الصدقات في المواضع المقدسة بها ، كما توجد به أقسام مخصصة للقصص الإسلامية المرتبطة ببيت المقدس كالإسراء والمعراج . وهو يتحدث بإسهاب عن الرسل المختلفين أو مشاهير الرجال الذين أقاموا بفلسطين ، كما وأنه يولي عناية خاصة لتاريخ إبراهيم الخليل وإقامته ببلاد العرب مع ابنه إسماعيل ، ولاشك أن معرفته بالحجاز قد أعانته على اختيار مادته لهذا الموضوع . أما أنبياء التوراة (العهد القديم) فيعرض تاريخهم عن طريق توضيح الأسطورة من الناحية الجغرافية ومن ثم فإنه يفرد أقساماً مسهبة للكلام على حبرون وقبر موسى ومسجد دمشق كما لا يهمل الكلام عن آثار ومواضع الشام المشهورة في الفصل الثاني عشر والأخير من كتابه . من هذا يتضح لنا أنه حتى في مصنف مثل هذا ترتبط فلسطين ارتباطاً وثيقاً بالشام خلال جميع صفحات هذا الأدب الجغرافي الذي يفيض بالدعاية .

ومما يكتسب أهمية خاصة بالنسبة لنا من وجهة نظر التأليف التاريخي (historiography) هو أن المؤلف قد أعطى في المقدمة تحليلا عاماً لمصادره وعرضاً سريعاً لكل الأدب « الفلسطيني » السابق له ؛ وقد حدث وأن أفدنا من عرضه هذا مراراً في كتابة هذا الفصل ، كما وأن لم نتغ نقل لعهده معلومات من هذه

509 المقدمة | صححها بالتالى مدنيكوف بعناية تامة[١٢٩]. ويتضح من ألفاظ السيوطى نفسه أن المصادر الرئيسية « للإتحاف » هم المؤلفون الخمسة المعروفون لنا بمؤلفاتهم ، أعنى الربعى والمقدّسى بكتابه « مثير الغرام » والسبكى والأقفهسى والتدمرى. غير أن الفحص الدقيق لمصنفه قد أحدث تعديلا أساسياً فى ألفاظه هذه إذ اتضح أن مصدره الرئيسى كان المقدسى قبل غيره ؛ وقد استطاع كينغ عند مقابلته للفصل العاشر من « الإتحاف » الذى نشره لمنغ مع متن « مثير الغرام » أن يثبت أنه من بين الصفحات الاحدى والأربعين تتفق سبع عشرة صفحة اتفاقاً حرفياً[١٣٠]. وإلى نفس هذه النتيجة بالتقريب كانت ستسوقه أيضاً مقابلته مع الترجمة القديمة من عمل رينولدز Reynolds[١٣١] ؛ وإذا حدث وأن امتنع عن إصدار حكم نهائى فى هذا الصدد بسبب رداءة تلك الترجمة فإن أبحاث مدنيكوف[١٣٢] قد ساقت إلى نتائج ليست أقل إدهاشاً من تلك ، فقد اتضح أن جميع القطع التى ترجمها مدنيكوف من « الإتحاف » قد نقلت حرفياً من « مثير الغرام » . وليس من السهل بالطبع القول بأن هذا كله كان من قبيل المصادفة أو وقوع الحافر على الحافر ، ومن ثم فيجب الاعتراف بأنه فى حالات التطابق بين الاثنين فإن السيوطى لم يفعل شيئاً سوى أن قدم لنا نسخة ثانية من كتاب المقدّسى . وكما لاحظنا غير ذات مرة فإن مثل هذه الظاهرة تتكرر كثيراً فى سلسلة هذا الأدب عن فلسطين وهى من بعض النواحى لا تخلو من الفائدة لأنها تقدم فرصة طيبة لتصحيح أصول المؤلفات الكبرى عندما يكون متنها فى حال غير جيدة . ومصنف السيوطى رغماً من أنه لايزال موجوداً فى المخطوطات إلا أنه معروف لنا بصورة مرضية عن طريق الدراسات القديمة العهد التى قام بها دى غين De Guignes (١٧٩٠) ولمنغ Lemming (١٨١٧) ورينولدز Reynolds (١٨٦٣) . ثم الأجد منها للسترانج Le Stranges (١٨٨٧) وكينغ König ومدنيكوف Mednikov . أما المؤلف الوحيد الموجود مصنفه فى طبعة شرقية ولو أنها ترتفع فى الواقع إلى عهد قديم (١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦) فهو آخر مؤلف عرفته هذه السلسلة ، أعنى بذلك مجير الدين عبد الرحمن بن أحمد العليمى العمرى (توفى فى عام ٩٢٨ هـ = ١٥٢٢)[١٣٣] الذى يحمل مصنفه عنوان « كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

وكما حدث مراراً فى تاريخ الأدب العربى فقد زحمت الآثار المتأخرة الآثار المتقدمة عليها وطردتها ووصلت إلى متناول الأيدى قبلها ، ونفس هذا القول يصدق على مصنف العليمى ، غير أنه مما أعان على ذلك فى هذه الحالة الأخيرة هو أن المصنف الذى نحن بصدده يعتبر أوسع وأحفل وصف تاريخى طوبوغرافى يعالج الكلام على القدس وحبرون وبقية مدن فلسطين . وهو من حيث طابعه النقلى لايختلف كثيراً عن المصنفات السابقة ، | أما مؤلفه العليمى فأصله من القدس ، ولكنه تلقى تعليمه بالقاهرة ثم تولى منصب 510 القضاء بمدن فلسطين المختلفة . وقد بدأ تأليف كتابه فى عام ٩٠١ هـ = ١٤٩٦ وأتمه فى خلال أربعة أشهر بالتقريب وذلك فى نفس العام ؛ ومثل هذه السرعة فى تصنيف مؤلف كبير الحجم كهذا تدعو إلى الوقوف موقف التحرز من المنهج الذى اتبعه فى التأليف ؛ وهو قد اهتم فيما بعد بإكمال القسم التاريخى فساقه إلى عام

٩١٤ هـ = ١٥٠٨[١٣٤] . والكتاب بصفته مصنفاً نموذجياً فى هذه السلسلة يمكن تقسيمه إلى أربعة أقسام : الأول منها فى وصف القدس ، والثانى فى وصف المسجد الأقصى والكلام على مدارس وأديرة فلسطين ومدنها ، والثالث يحوى تراجم السلاطين والعلماء بحسب المذاهب الأربعة ومشاهير القضاة والوعاظ والفقهاء ، أما القسم الرابع فيعالج الكلام على تاريخ الولاة ويختتمه بتاريخ سلطنة قايتباى . ومن هذا يتضح لنا أن الكتاب لايخلو من بعض المزج من حيث موضوعه فهو فى جوهره يرتبط بالجغرافيا الدينية وذلك على طراز الكتب التى تدعو إلى الحج ولكنه من ناحية أخرى يفسح المجال لتاريخ الشعوب على أساس معالجة سير مشاهير رجالها ؛ أما هيكله العام فيعتمد قبل كل شىء على ما نقله من مؤلفين اثنين هما المقدسى صاحب « مثير الغرام » والسيوطى صاحب « إتحاف الاخصاء » . ويلعب الدور الرئيسى بالنسبة له المؤلف الأول حيث تبلغ نقوله عنه فى بعض المواضع إلى ما يمثل تسعة أعشار المتن الأصلى[١٣٥]

ونظراً لوجوده فى عدد هائل من المخطوطات ولأنه من المؤلفات القليلة المطبوعة فقد اجتذب هذا الكتاب أنظار المستشرقين ، وتوجد مخطوطتان له بمعهد الدراسات الشرقية[١٣٦] . وهو معروف فى أوساط المستشرقين منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وقد قدم هامر Hammer مقتطفات منه منذ بداية القرن التاسع عشر لا تتميز كما هو الحال دائماً مع أعمال هذا المستشرق بأية قيمة ذات بال ولو أننا لا نستطيع أن نغمطه حقه فى الأسبقية . ومجير الدين هو المؤلف الوحيد من بين جميع حلقات هذه السلسلة الفاسطينية الموجود كتابه ولو بصورة مختصرة فى ترجمة أوروبية كاملة (١٨٧٦) ندين بها لعالم النُّميّات (Numismatics) والمؤرخ المشهور سوڤير Sauvaire الذى أثبت فى غضون عشرة أعوام من هذا أنه خبير كبير بالأدب الطوبوغرافى (الخطط) لمدينة دمشق وذلك فى مؤلف آخر له اعتمد فيه كثيراً على معرفته بالأدب الفلسطينى .

وتقدم فكرة جلية عن جميع هذه السلسلة فى أشخاص ممثليها الثلاثة الكبار تلك المقتطفات التى ترجمها إلى الروسية وعلق عليها مدنيكوف . ومما لاشك فيه أن هذه السلسلة من المؤلفات لا تمثل حدثاً مرموقاً أو جديداً من وجهة نظر التطور العام للأدب الجغرافى العربى ولكنها تعتبر من وجهة نظر التاريخ الحضرى شيئاً طريفاً خاصة على ضوء ظروف الحروب الصليبية ؛ وهى تمثل فى ضخامة عددها | واتساع مداها شيئاً متفرداً ترك طابعه الخاص على الأدب الجغرافى لهذه البلاد إلى الفتح العثمانى . وسنبصر فيما بعد تأثير جوانب معينة من هذا الأدب على أدب العصور التالية لذلك .

511

هذا وقد استمرت الجغرافيا الإقليمية عائشة بالطبع فى الأقطار الأخرى ولكنها حملت فى كل مكان طابعاً فقيراً شاحباً عند مقارنة ذلك بما كان عليه الحال مع الشام وفلسطين . ومن الطريف فى هذه المناسبة أن نذكر أن العلامة اللغوى المعروف الفيروز ابادى (توفى عام ٨١٧ هـ = ١٤١٤) ، الذى ينتمى أصلا إلى شيراز ولكن ضرب فى الآفاق حتى توفى بزبيد فى اليمن[١٣٧] ، قد ترك رسالتين معروفتين من عنوانيهما فقط هما « أحاسن اللطائف فى محاسن الطائف »[١٣٨] و « الوصل والمنى فى فضل منى »[١٣٩]

ينتميان دون شك إلى النمط المعروف لنا جيدا وهو نمط « الفضائل » ، ولو أنه من الممكن أن اهتمام المؤلف بالمسائل اللغوية قد ترك طابعه عليهما وأن وجود رباط بينهما وبين نمط المعاجم الجغرافية غير مستبعد . وسيبدولنا هذا بوضوح كبير عند الكلام على « تاج العروس » وهو شرح لقاموس الفيروزابادى يرجع إلى القرن الثامن عشر .

ولم تقدم الأقطار الواقعة إلى الشرق من الشام وفلسطين أية مصنفات ذات قيمة فى مجال الجغرافيا باللغة العربية على مدى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وثمة مسودة معدلة لجغرافيا القزوينى | ترجع 512 إلى تاريخ متأخر ويمكن ربطها بمدينة باكو النائية ، هذا فى حالة إذا ما وجدت أسس قويمة تبرر ذلك بما فيه الكفاية بخلاف اسم المؤلف الذى لا يمكن القول بأن قراءته قد ثبتت بصورة يقينية . فى حوالى عام ٨٠٦ هـ = ١٤٠٣ وضع عبد الرشيد بن صالح بن نورى الباكوى مصنفه « تلخيص الآثار وعجايب الملك القهار»[١٤٠] . ويبدو أنه يختبئ وراء هذا العنوان إشارة خفية إلى مصدره الأساسى « آثار البلاد » للقزوينى . ولانعلم عن المؤلف شيئاً ولو أن نسبته تشير إلى أنه هو أو أسرته على علاقة بمدينة باكو ؛ وكان فرين[١٤١] قد لفت الأنظار إلى أن إحدى مخطوطات مصنف حاجى خليفة تحدد بأنه توفى بالقاهرة ولكن لما كان تاريخ الوفاة الذى تورده وهوعام ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ غريباً للغاية فإن هذا يحول دون إعطاء الرواية بأجمعها أى وزن . هذا وقد احتفظ الباكوى بمنهج القزوينى فى توزيع المواضع الجغرافية بحسب الأقاليم ثم توزيعها داخل كل إقليم وفقاً لحروف المعجم ؛ أما مادته فستقاة بأجمعها تقريباً من القزوينى وهو يخالفه فقط فى إيراده لخطوط الطول والعرض ولو أنه يفعل هذا دون انتظام ويتبع المذهب القديم فى ابتداء حسابه من جزر الكنارى[١٤٢] . وفى مقدمته القصيرة يعرض المؤلف المادة الجغرافية العامة بالطريقة التى عهدنا من قبل فيتكلم عن شكل الأرض والأقاليم السبعة وتوزيع المحاصيل فى عالم الطبيعة[١٤٣] . وفى حوالى عام ١٧٩٠ قدم لنا دى غين De Guignes ترجمة موجزة لجميع محتويات الكتاب معتمداً فى ذلك على المخطوطة الباريزية ، هذا بالرغم من أنه لم يكن آنذاك فى وضع يسمح له بالتعرف على المؤلف . وليس بمقدورنا الآن أن نوافق على تقديره المبالغ للكتاب والذى يمكن تفسيره بعدم معرفة علماء ذلك العهد معرفة كافية بالمصنفات الجغرافية الأخرى للعلماء العرب ؛ مثال ذلك أنه يزعم أن الباكوى يقدم تفاصيل كثيرة عن محصولات البلاد المختلفة وعن سلع التجارة وعن المعادن مما لا يوجد فى مصنفات أخرى[١٤٤] . وعلى أية حال فإن دى غين لم يتنكب الصواب حينما ذكر أن أهمية المصنف هى فى أنه يعطى فكرة عامة عن مدى المعلومات الجغرافية التى كانت تحت تصرف الطبقة الوسطى من القراء فى ذلك العهد[١٤٥] . وفى بحثه عن ابن فضلان الذى رجع فيه مراراً إلى الباكوى بين فرين أنه يمكن استخراج بعض الفائدة من مصنفه حتى ولو اضطر القارئ إلى الرجوع إلى ترجمة غير مرضية كالتى يقدمها دى غين والتى تستلزم بعض الحذر عند استعمالها[١٤٦] . وقد أثبتت الدراسات التى قام بها ياكوب Jacob فيما بعد | أنه توجد 513

تفاصيل ذات قيمة لدى الباكوى حتى مع وجود متن القزوينى بل إنه يمكّن من تصحيح بعض القراءات المغلوطة فى مخطوطات الأخير أو التيقن من صحة المشكوك فيها[١٤٧] . ورغماً من هذا فيجب الاعتراف بأن كتابه ليس سوى حلقة فى سلسلة مختصرى القزوينى ولا يمكن له فى الوقت الحاضر أن يدعى لنفسه أهمية مستقلة ؛ وهو بلاشك قد نال بعض الرواج فى الشرق بل ومن الملاحظ أن عدد مخطوطات ترجمته الفارسية[١٤٨] لا يقل عن عدد مخطوطات الأصل العربى المعروفة لنا .

وجدير بنا ونحن بسبيل وضع خاتمة لهذا الفصل أن نلفت النظر ، كما حدث وأن فعلنا مع بقية الفصول ، إلى أنه توجد إلى جانب ما توردە لنا المصنفات الجغرافية مادة جغرافية متناثرة لدى المؤرخين ؛ ولعلنا لن نتنكب الصواب لو اختصصنا بالذكر من بين هؤلاء أحد أبناء دمشق وهو ابن عربشاه المشهور (توفى فى عام ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠) صاحب سيرة تيمور . فهو فى اقتفائه المتواصل لأثر حياة بطله يسوق مادة ليست بالضئيلة عن مختلف الشعوب والبلدان ، ومما يجعل مادته هامة بالنسبة لنا أنها تمس بلاداً وشعوباً تدخل الآن ضمن الاتحاد السوفيتى . ومادة ابن عربشاه تعتمد فى معظم الأحوال على انطباعاته الشخصية كشاهد عيان وتتمتع بقيمة كبرى كما اتضح من الأبحاث ؛ ولا شك أن أسلوبه المنمق المتكلف هو المسئول الأول على ما يبدو عن عدم وجود ترجمة جديرة به . ويجب بالطبع ألا يغيب عن الذهن أن ابن عربشاه مؤرخ أديب وليس بجغرافى ؛ هذا وسيتبين لنا بعد برهة أن عدداً من أهم المصنفات الجغرافية للقرن الخامس عشر لم يحفظها لنا الأدب العربى بقدر ما حفظها لنا الأدب الفارسى .

حواشي الفصـــل الثامن عشر

---

(١) Brockelmann, GAL, II, p. 131-132, No 8; SBII, p. 162-163 - Mohammed Ben Cheneb Ibn al-Wardi, p. 455 - Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 175-176, No 412 - Girgas, Ocherk, p. 212 - Kramers, EI, EB, p. 70 — Reinaud, Introduction, p. CLIV-CLV — Amari (Nallino), I, p. 60, No 26 — Mieli p. 278-279 — Ferrand, Relations, II, p. 408-425 — Mednikov, Palestina. Translation, p. 611-612, 1189-1193 –

(٢) Mohammed Ben Cheneb, Ibn al-Wardi, p. 455 –

(٣) Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 8 –

(٤) شرحه

(٥) De Guignes, Ebn al-Ouardi, p. 20 — Fraehn, Ibn al-Vardi, p. 17 –

(٦) قارن ; Freund, p. II

(٧) قارن مثلا : Freund, p. 12, note 1

(٨) لدى تورنبرج (Tornberg, Ibn el-Vardi)

ترتيب الفصول كالآتى : القسم الأول ، الفصل الأول ، الثانى ، الخامس ، السادس ، السابع .

(٩) نشر Freund

(١٠) Huart, le livre de la créatian, II, p. VIII –

(١١) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ١٣٢ – ١٣٣ ؛ رقم ٤٦٨٨ استعملت مخطوطة برلين لدى : Tornberg, Ibn el-Vardi. Pars Posterior, p. V-VI, (Text), p. IV-V (translation)

(١٢) Mohammed Ben Chedeb, Ibn al-Wardi, p. 455 –

(١٣) Fraehn, Ibn al-Vardi, p. 20-21 — Tornberg, Ibn al-Vardi. Pars Posterior, p. I-III –

(١٤) Freund, p. 18-19 –

(١٥) Taeschner, Bericht, p. 85 –

(١٦) Tornberg, Ibn al-Vardi, Pars Posterior, p. VI –

(١٧) شرحه ، ص ٧ – ٨

(١٨) Mohammed Ben Cheneb, Ibn al-Wardi, p 455 - Brockelmann, GAL, II, p. 131. Mzik, Ptolemaeus, p. 168, note 30 : راجع أيضا –

(١٩) De Guigres, Ebn al-Ouardi, p. 21 — Fraehn Ibn al-Vardi, p. 23-24 –

— Brockelmann, OAL, II, p. 131 — Kramers, EI, EB, p. 70

(٢٠) – Tornberg, Ibn al - Vardi. Pars Posterior p. III — Freund, p. 19 - 22

(٢١) -- Mednikov, Palestina. Translation, 1189, 1192 - 1193

(٢٢) -- Amari (—Nallino), I, p. 60, No 26

(٢٣) شرحه – Mednikov, Palestina. Translation,

(٢٤) -- Huart, Le Livre de la création, II, p. VIII sui

(٢٥) -- Fraehn, Ibn al - Vardi, p. 22

(٢٦) شرحه ، ص ٤٧

(٢٧) -- Amari (—Nallino), I, p. 60, No 26

(٢٨) -- Taeschner, Bericht, p. 85

(٢٩) – Mzik Ptolemaeus, Taf, VII, cf. p. 168, note 30

(٣٠) – Miller, V, p. 134 - 139; Beiheft, Taf. 73 - 79

(٣١) – Kramers, EI, EB, p. 70

(٣٢) – Miller, V, p. 135

(٣٣) شرحه ، ص ١٣٥ ... ١٣٦

(٣٤) شرحه ، ص ١٣٨

(٣٥) شرحه ، ص ١٣٩

(٣٦) شرحه ، ص ١٥٠ – ١٥١ مع صورتين

(٣٧) -- Brockelmann, OAL, SBII, p. 163

(٣٨) -- Tornberg, Ibn el - Vardi. Pars Posterior, p. XI - XIII – Brockelmann, OAL, II, p. 132; SBII, p. 163 — Taeschner, Geogr. Lit., p. 39

(٣٩) -- Taeschner, Bericht, p. 86 - 87

(٤٠) شرحه ، ص ٨٦

(٤١) شرحه ، ص ٨٦ ... ٨٧

(٤٢) شرحه ، ص ٨٧

(٤٣) -- Hylander, Ibn el Vardi

(٤٤) راجع : Fraehn, Ibn al - Vardi :

(٤٥) -- Tornberg, Ibn al - Vardi - Brockelmann, OAL, II, p. 131, No 8

(٤٦) -- Koehler, Tabulae Syriae ... ex Ibn el Vardi

(٤٧) – De guignes, Ebn al – Ouardi

(٤٨) – Fraehn, Ibn al - Vardi

(٤٩) -- Brockelmann, OAL, II, p. 132, No II; SBII, p. 163

(٥٠) – Ahlwardt, V, p. 394 -- Brockelmann, OAL, II, p. 132, No 11

(٥١) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 163,

ولكن يشير إلى عام ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ (ا) على أنه عام ميلاده . قارن : سركيس ص ٥٤٢

(٥٢) – De Sacy, Relation, p, 574-580

(٥٣) – Quatremère, Histoire d. Sultans Mamlouks, II, p. I, p. 277-285

(٥٤) – Sauvaire, JA, 9, III, p. 254; VII, p. 425-453; notes p. 454-459

(٥٥) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 163 (سنة ١٢٤١ هـ)

عنخوري ، ص ٣٢٧ – ٣٣٠ ، ٣٩٢ – ٣٩٩

(٥٦) – Rosen, Notices Sommaires, p. 185-187, No 239,2

(٥٧) شرحه ، ص ١٨٧

(٥٨) راجع : Ahlwardt, V, p. 393-394,No 6079-6080

(٥٩) – De Sacy, Relation, p. 577

(٦٠) شرحه ، ص ٥٧٤

(٦١) راجع : Mednikov, Palestina. Issled. p. 239

(٦٢) راجع ثبت المراجع ص ٥٤٥ – ٥٤٦ – Atiya, The Crusade, p. 468-476

(٦٣) راجع على الأخص :

Mednikov, Palestina, Issled., p. 236-237, Notes with corrections on Lemming

(٦٤) – Lemming, p. XXVII — Brockelmann, GAL, I, p. 330-331; SBI, p. 566

(٦٥) – Mednikov, Palestina. Issled, p. 237

(٦٦) – Brockelmann, GAL, SBI, p. 567, No 1a = p. 876, No 2a; cf: Sauvaire, Histoire de Jérusalem, p. 65

(٦٧) – Mednikov, Palestina. Issled., p, 234

(٦٨) ياقوت ، المعجم ، الجزء الأول ، ص ٧٧٩

(٦٩) – Buhl, Al-Kuds, p. 1179

(٧٠) – Mednikov, Palestina, Issled. p. 234-235

(٧١) – Koenig, p. 15, No 28

(٧٢) شرحه ، ص ١٦ – ١٧ ، رقم ٣٢

(٧٣) – Brockelmann, GAL, I, p. 499-506, No 5 ; SBI p. 914-920

(٧٤) شرحه ، الجزء الأول : ص ٥٠٥ – ٥٠٦ ، رقم ٧٨ ، ٧٩ ؛ SBI, p. 920

(٧٥) – Brockelmann, GAL, SBI., p. 589

(٧٦) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237, cf. also p. 236, 289

(٧٧) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 105, No 292 — Lemming, p. XXVI — Brockelmann, GAL, I, p. 331, No 1, SBI, p. 567-568 — Brockelmann, Ibn Asakir, p. 386 — Wüstenfeld, Stammtafel, p. 5-7, No 78

(٧٨) – Koenig, p. 13, No 19 — Mednikov, Palestina. Issled., p. 232

(٧٩) شرحه ، ص ٢٣٤ .. ٢٣٥

(٨٠) شرحه ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩

(٨١) شرحه ، ص ٢٣٥ [illegible] Koenig, p. 13, No 19

(٨٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 130, No 2; SBII, p. 161

(٨٣) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237

(٨٤) – Lemming, p. XXVI, A – Mednikov, Palestina. Issled., p. 293, 235-237, 239, 508 — Wüstenfeld, Stammtafel, p. 8, No 7

(٨٥) – Mednikov, Palestina' Issted., p. 234, 237, 508 — Wüstenfeld, Stammtafel, p. 8

(٨٦) – Mednikov, Palestina. Issled., p. 235-236

(٨٧) شرحه ، ص ٢٣٧

(٨٨) – Fritsch, p. 28 sui, 33 sui

(٨٩) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 160, No 394 — Brockelmann, GAL II, p. 130, No 2; SBII, p. 161 – Mednikov, Palestina, Issled., p. 236, 237, 239, 332 - 334, 341-342.

(٩٠) – Lemming, p. XXVII, E — Brockelmann, GAL, I, p. 330-331

(٩١) – De Guignes, Bourhaneddin, p. 605-609

(٩٢) شرحه ، ص ٦٠٥

(٩٣) المحتويات راجع : شرحه ص ٦٠٥ .. ٦٠٨

(٩٤) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 236, 237

(٩٥) – Steinschneider, p. 181

(٩٦) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237

(٩٧) – Hartmann, Halil, p. 8

(٩٨) – Brockelmann, GAL, II, p. 130-131, No 4; SBII, p. 162 — Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 180, No 425 — Mednikov, Palestina, Issled., p. 225-230 — Steinschneider, p. 168-169, No 1 – Koenig

(٩٩) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 225

(١٠٠) – Koenig, p. 24

(١٠١) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ٣٧١ ، رقم ١٠٠٨ – Bassst, Temim. p. 6

(١٠٢) – Koenig, p. 23.

(١٠٣) – Le Strange, JRAS, XIX, p. 258-305 –Mednikov, Palestina, Transl., p. 613

(١٠٤) – Mednikov, Palestina-Issled., p. 613-627

(١٠٥) – Koenig, p. 27

(١٠٦) شرحه ، ص ١٠ ، رقم ٩ Mednikov, Palestina – Issled., p. 225-229

(١٠٧) – Koenig, p. 13, No 19 – Mednikov, Palestina, Issled., p. 230,235

(١٠٨) – Koenig, p. 15, No 28; cf: Sauvaire, Hist. de Jéruslalem, p. 65

(١٠٩) – Koenig, p. 16-17, No 32

(١١٠) شرحه ، ص ١٨ – ١٩ Mednikov, Palestina. Issled, p. 237, note

(١١١) – Koenig, p. 20

(١١٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 131; SBII, p. 162

(١١٣) شرحه ، ص ٩١ – ٩٢ ، رقم ١٨ ؛ SBII, p. 108

(١١٤) شرحه ، ص ٩٢ ، رقم ٧

(١١٥) – Mednikov, Palestina. Issled., p. 237

(١١٦) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 182, No 431 –Brockelmann, GAL, II, p. 89-90, No 14; SBII, p. 105-107 –Mednikov, Palestina. Issled., p. 236, 237, 239.

(١١٧) حاجى خليفة ، الجزء الثالث ، ص ٤٩١ ، رقم ٦٥٩٩ .

(١١٨) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 236-237.

(١١٩) شرحه ، ص ٢٣٧

(١٢٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 93-94, No 22; SBII, p. 110-111

(١٢١) – Mednikov, Palestina. Issled., p. 237.

(١٢٢) – Brockelmann, GAL, II, p. 131, No 7; SBII, p. 162.

(١٢٣) – Mednikov, Palestina, Issled., p. 237

(١٢٤) – Brockelmann, GAL, SBII, p. 162

(١٢٥) – Rosen, Coll. scient., III, p. 21-22, No 42

(١٢٦) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 224 – Steinschneider, p. 170-173,180 – Koenig; p. 18, note 1 – Mednikov, Palestina. Transl., p. 1194-1195

(١٢٧) – Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 223-224, No 496 – Brockelmann, GAL, II, p. 132-133, No 13; SBII, p 163-164 – Koenig, p. 29-30 – Mednikov, Palestina. Issled., p. 283-290; Transl. p. 1194-1216 – Steinschneider, p. 169-176, No 2;

(١٢٨) المخطوطات لدى : De Guignes, Bourhaneddin, p. 611-614

(١٢٩) Mednikov, Palestina, Issled, p. 236-237, note 4 -

(١٣٠) Koenig, p. 18-19 -

(١٣١) شرحه ، ص ١٩

(١٣٢) Mednikov, Palestina. Issled, p. 283,286,288 -

(١٣٣) Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 235, No 512 — Brockelmann, GAL, II, p. 43, No 43 ; SBII, p. 41-42 — Steinschneider, p. 177-181, No 3 — Mednikov, Palestina. Issled., p. 239, 290-291 ; Transl., p. 1217-1304 — Brockelmann, Al-Olaimi, p. 1052-1053 — Buhl, Al-Kuds, p. 1182. -

(١٣٤) Brockelmann, Al-Olaimi, p. 1052 -

(١٣٥) Koenig, p. 20 — Mednikov, Palestina. Transl., p. 1217 — Hartmann, Halil. p. 15 -

(١٣٦) Rosen, Notices sommaires, p. 124, No 180 -

(١٣٧) Brockelmann, GAL, II, p. 181-182; SBII, p. 234-236 · Brockelmann, EI, II, p. 119-120 -

(١٣٨) حاجى خليفة ، الجزء الأول ، ص ١٦٣ ، رقم ١١٣
= Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 203, No 8

(١٣٩) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ، ص ١٥٢ ، رقم ٢٣١٧
= VI. p 446, No 14272 : = Wüstenfeld, Geschichtschreiber, p. 203, No 9

(١٤٠) Wüstenfeld, Erdbeschreibung, p. 36 (59), No 109 – Brockelmann, GAL I, p. 481, No 12, a ; II, p. 213; SBI, p. 883, a — Reinaud, Introduction, p. CLXI-CLXII – Streck, Al-Kazwini, p. 903 · Ferrand, Relations, II, p. 462-465 Amari (– Nallino), I, p. 61-62, No 28 ..

(١٤١) توجد الملاحظات التى دونها قرين على هامش مقال دى غون (De Guignes, Notices et Extraits, II) فى نسخة معهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية .

(١٤٢) De Guignes, Notices et Extraits, II, p. 388 ..

(١٤٣) شرحه ، ص ٣٩١

(١٤٤) شرحه ، ص ١٨٦

(١٤٥) شرحه ، ص ٣٩١

(١٤٦) راجع فهرس : Frähn, Ibn-Foszlan, p. 269

(١٤٧) Jacob, Studien, II, p. 43-44 -

(١٤٨) Brockelmann, GAL, SB, I, p. 883, a. -

الفصل التاسع عشر

الأدب الجغرافى الفارسى من القرن الخامس عشر إلى الآونة الحاضرة

سبق أن بينا مراراً أن المصنفات الجغرافية التى كتبت باللغة الفارسية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخطوط 514 الرئيسية لتطور الأدب الجغرافى العربى بل وتسير فى نفس اتجاه ذلك الأدب وتتمم مهمته ، فهى تارة تحفظ لنا مواد لم تصلنا فى أصولها العربية وطوراً تكوّن فى ذاتها مصدراً لآثار مدونة باللغة العربية . وبعد الغزو المغولى بدأ خط تطور الأدب الجغرافى الفارسى يسير فى اتجاه مستقل تماماً فلم يكد القرن الخامس عشر يشارف الانتهاء حتى انتهت به سلسلة الآثار التى كانت تمثل لأسباب عديدة أهمية خاصة بالنسبة لنا . وبالطبع فإن تطور هذا الأدب لم يتوقف عقب ذلك ، غير أن تتبعه فى جميع خطوات تطوره كما حدث وأن فعلنا مع الأدب العربى لايخدم أى غرض لأن هذا الأمر يحتاج إلى أبحاث خاصة يجب أن تخرج من أوساط المشتغلين بالدراسات الإيرانية ، أما فيما يختص بالعصور التالية لهذا وذلك ابتداء من القرن السادس عشر فسنكتفى بالإشارة العابرة إلى نماذج أدبية معينة لا لأنها تمثل أهمية خاصة فى حد ذاتها بل لمشابهتها لظواهر مماثلة نلتقى بها فى نفس تلك اللحظات فى الأدب العربى .

وقد ظل المذهب العربى فى الجغرافيا متمتعاً بكامل قوته فى القرن الخامس عشر نفسه ويبدو هذا بجلاء من تأثيره على مصنف المؤرخ النابه حافظ آبرو[1] ؛ واسمه كما أورده بارتولد[2] هو شهاب الدين عبد الله بن لطف الله الخوافى . ولد حافظ آبرو بهرات وتعلم بهمدان وتوفى بزنجان عام ٨٣٣ هـ = ١٤٣٠ ، وكان من رجال البلاط منذ عهد تيمور واكتسب بعض الشهرة أيضاً كلاعب للشطرنج ؛ وقد جعل منه حفيد تيمور شاهرخ الذى أخذه فى معيته خلال حملاته | العسكرية[3] بمثابة مؤرخ رسمى 515 لدولته وكلفه بمهام علمية مختلفة ، وإحدى هذه المهام ارتبطت بوضع مصنف جغرافى[4] لاعلم لنا بعنوانه ولو أنه يمثل أهمية خاصة بالنسبة لنا :

فنى عام ٨١٧ هـ = ١٤١٤ حُمل إلى شاهرخ كتاب فى الجغرافيا باللغة العربية لم يبين اسمه بتفصيل كاف فكلف حافظ آبرو بترجمته إلى الفارسية وإتمامه من المصادر الأخرى المعروفة له . وقد سار العمل ببطء ملحوظ فى البداية إلى أن اتخذ الكتاب صورته النهائية فى قسمين ؛ ويمكن أن نحكم على هذا من التواريخ الدقيقة الواردة فى آخر الاقتسام فمنها يتبين لنا أن المقدمة قد فرغ منها فى عام ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ والقسم الأول فى عام ٨٢٢ هـ = ١٤١٩ هذا فى حين انتهى القسم الثانى فى عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ . ومن المحتمل أن المؤلف

لم يتمه لانشغاله بتآليف أخرى فقد كلفه شاهرخ منذ عام ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ بمهمة وضع مصنف تاريخى مفصل وصلنا قسم كبير منه ، وأغلب الظن أنه هو أيضاً لم يتم . ولعل العمل فى مصنفين فى وقت واحد هو السبب فى أن مقدمة كتابه فى التاريخ بل وعناوين الكتاب نفسها قد وجدت سبيلها إلى مخطوطات مصنفه الجغرافى(٥).

ولايوجد ما يشير إلى الأثر الجغرافى الذى اعتمد عليه حافظ آبرو بالذات فى وضع مصنفه الجغرافى ، غير أنه لايحوم شك فى أنه كان من آثار المدرسة الكلاسيكية فى الجغرافيا من طراز البلخى - الاصطخرى. ومما يؤكد هذا طريقة ترتيب البلاد لديه التى تذكرنا بما سار عليه جغرافيو القرن العاشر ، فهو يبدأ كلامه ببلاد العرب فالمحيط الهندى فأفريقيا فالأندلس ، ويلى هذا جزر البحر الأبيض المتوسط فمصر فالشام فالشرق الأدنى وإيران ؛ ويسير الترتيب من الغرب إلى الشرق(٦) ؛ كما تبدو واضحة لنا بما فيه الكفاية المصادر الإضافية التى نقل عنها والتى يشير إلى بعضها فى خلال العرض . ويمكن أن نتبين لديه فكرة واضحة ليقدم مصنفاً تركيبياً ، واهتماماً بالتقاليد الجغرافية السائدة فى الأدبين العربى والفارسى سواء بسواء، ومن الطريف أن نلاحظ أن حافظ آبرو عرف الجغرافيين العرب المغاربة كما عرف أيضاً الإدريسى(٧) وابن سعيد(٨) . وهو قد حفظ لنا شذرات من مؤلف مفقود يرجع إلى العصر الفاطمى هو « الكتاب العزيزى» للمهلبى(٩) . أما من بين المؤلفين الفرس فيرد لديه بانتظام محمد نجيب بكران و محمد بن يحيى فى كتابه « صور الأقاليم »(١٠). ويرى كريمسكى Krymski أن حافظ آبرو قد ألف كتابه « على غرار » حمد الله قزوينى(١١) ، غير أن هذا الرأى محصور للغاية ولو أن اعتماد حافظ آبرو على قزوينى إلى جانب اعتماده على المصادر الفارسية الأخرى أمر ليس فى الوسع إنكاره(١٢) ؛ وهو يقترب كثيراً فى بعض أقسامه | من رشيد الدين(١٣) . من كل هذا يبدو لنا أن محيط مصادره واسع ومتين ، وهو إن دل على شىء فإنما يدل على أن تأثير الأدب الجغرافى العربى لم يقف عند المغرب والعلم الأوروبى وحدهما بل ضرب أيضاً فى الأقطار الإسلامية الواقعة إلى الشرق .

51

أما من حيث مضمونه فإن مصنف حافظ آبرو يعتبر مكملا لتقاليد الأوصاف العامة فى الجغرافيا المعروفة لنا جيداً ؛ ففى البداية توجد مقدمة ذات طابع كوزموغرافى تحوى التفاصيل المعهودة فى شكل الأرض والأقاليم والبحار والبحيرات والأنهار والجبال ، ويلى هذا القسم الأول الذى يعالج فيه وصف الأقطار المختلفة من الغرب إلى الشرق مبتدئاً من بلاد المغرب ومنتهياً بمقاطعة كرمان بإيران ، هذا بينما يحتوى الفصلان الأخيران المفردان لفارس وكرمان على إضافات تاريخية تصل إلى عصر المؤلف . أما القسم الثانى فكان من المفروض أن يشمل وصفاً أكثر تفصيلا لخراسان ولبلاد ماوراء النهر ولكن لم يتم الكشف عنه بتمامه(١٤) ؛ وينتهى العرض فى أكثر مخطوطات الكتاب عند عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ بخراسان ، وفى مخطوطة اكسفورد يلى هذا وصف لبلاد ما وراء النهر ووعد من المؤلف بأنه سيقدم عرضاً موجزاً لتاريخها . ولكن غير معروف لنا هل قام فعلا بكتابة هذا القسم التاريخى أم لم يفعل(١٥) .

ورغماً من أن مصنف حافظ آبرو فى الجغرافيا كان معروفاً فى مخطوطاته لعدد من العلماء أهل التخصص منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر[١٦] إلا أن المسئول عن كشف النقاب عنه بصورة شاملة من أجل العلم هو المؤرخ الكبير بارتولد Bartold ، فقد وضع الأساس لدراسة جدية لهذا المصنف فى مقاله الذى نشره ضمن مجموعة المقالات التى قدمت إلى فكتور روزن V. Rosen (١٨٩٧)[١٧] ؛ ورجع بارتولد مراراً إلى الكلام عن هذا الأثر فى أبحاث تالية ووضّح باستيفاء كاف أهمية هذا الكتاب وأهمية المادة التى يحويها بين دفتيه . هذا وقد أولى بارتولد عناية خاصة لروايات حافظ آبرو التى تؤكد أن نهر آمودريا (جيحون) كان يصب فى بحر قزوين فى الأزمنة التاريخية[١٨] . وبنفس الإسهاب والتفصيل يلقى ضوءاً على وصفه لبلاد ما وراء النهر ويقتطف شذرات هامة من المتن مع ترجمتها إلى اللغة الروسية[١٩] .

ومع اعتراف بارتولد فى حالات عديدة بقيمة مادته التى لا يضارعها شىء إلا أنه اضطر إلى التسليم بأن حافظ آبرو ليس غريبا على العيوب والنقائص المعهودة فى الأدب الجغرافى العربى ؛ فوصفه مثلا لغرائب بلاد ما وراء النهر ومعادنها ومنتجاتها مستعار بحذافيره بالتقريب من مؤلفى القرن العاشر[٢٠] ونادراً ما ينطبق مع واقع الأحوال فى العصر الذى عاش فيه المؤلف .

وصلة مصنف حافظ آبرو بتقاليد المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب ترجع علاوة على ماسبق ذكره إلى عامل إضافى ، وهو أنه كان من المفروض أن يحتوى الكتاب على خارطات تصور بلاد الإسلام المختلفة كما وردت الإشارة إلى ذلك أكثر من مرة | بالمتن . وأغلب الظن أن جميع الخارطات المعروفة 517 « لأطلس الإسلام » قد وجدت لديه بأكملها غير أنه لم يعثر فى المخطوطات الموجودة بين أيدينا إلا على خارطتين للعالم واثنتين أخريين لبعض الأقاليم وذلك فى مخطوطة بالمتحف البريطانى[٢١]. والخارطتان الأوليان[٢٢] تمثلان تعديلا طفيفاً لما يسمى « بخارطة العالم المستديرة » التى ترتفع إلى البلخى ، غير أن خارطتى حافظ آبرو تتميزان بخاصية غريبة على الخارطات الجغرافية العربية فقد بين عليهما فى الحالتين ولو بطريقة بدائية شبكة لخطوط الطول والعرض[٢٣] . والمدقق فى صورة الخارطة يتبين له أن هذه العملية قد عملت بصورة آلية بحتة عقب الفراغ من رسم الخارطة وربما لاتتصل فى شىء بالنموذج الأوّلى لها . غير أنه لإصدار حكم نهائى على هذه المسألة فإن الأمر يحتاج إلى دراسة باليوغرافية (paleographic) دقيقة للمخطوطة ولو أن هذا لا يمنع من القول منذ هذه اللحظة بأن توضيح خطوط الطول والعرض فى هذه الحالة أبعد من أن يكون من عمل حافظ آبرو أو الرسام الكارتوغرافى الذى خطط الأصل الأول للخارطة .

أما فيما يتعلق بالخارطات الإقليمية للأقطار فنحن نعرف حتى هذه اللحظة | اثنتين فقط إحداهما للبحر الأبيض 518 المتوسط والأخرى للخليج الفارسى[٢٤] ، وهما أيضاً بدورهما ترتفعان إلى أنموذجين من خارطات « أطلس الإسلام » غير أنه يلاحظ فى رسمهما تدهور واضح إن ليس سقوطاً تاماً . ومما يثبت أن الخارطات الأخرى قد وجدت فعلا أن ثمة إشارة إلى خارطة لما وراء النهر فى القسم الخاص بها غير أن هذه الخارطة لا وجود

لها فى الموضع المخصص لها من مخطوطة أكسفورد ، وهى المخطوطة الوحيدة التى حفظ لنا متنها القسم المخصص لبلاد ما وراء النهر من مصنف حافظ آبرو[٢٥] .

ولم يقتصر ما تركه لنا حافظ آبرو من آثار أدبية على مصنفه الجغرافى وحده بل توجد له أيضاً آثار تاريخية ليست أقل شهرة ؛ غير أن بارتولد يقف منها موقفاً أكثر صراحة مما فعل مع المصنف الجغرافى ويعتبرها « أقل قيمة منه وأكثر طابعاً نقليا »[٢٦] ، وهو يقرر بوجه عام وبما عرف به من ميل إلى الإيجاز والتركيز أن حافظ آبرو قد حفظ لنا بوصفه مؤلفاً نقالة كثيراً من المادة المفقودة وأنه يعد مصدراً من الدرجة الأولى بالنسبة لتاريخ عصره[٢٧] . وأحد البحاثة المعاصرين يعبر عن رأيه بحماس أكثر[٢٨] عندما يقرر أن حافظ آبرو يفوق رشيد الدين من حيث استكمال المادة ولو أنه اعتمد اعتماداً تاماً على منهجه وآرائه . ولعله من الضرورى أن نوكد بصورة خاصة أن عباراته بوجه عام بسيطة للغاية وهذا ما أعطاه ميزة على بقية المؤلفين الآخرين ، كما يصدق هذا أيضاً على الأقسام التى نقلها عنه عبد الرزّاق[٢٩] .

ونتيجة لنشاطه المزدوج فى مجالى التاريخ والجغرافيا فقد عاون هذا فيما يبدو على تسرب كمية كبيرة من المعطيات التاريخية بل وأحياناً أقسام بحالها إلى مصنفه الجغرافى ، كما يمكن أيضاً أن نلحظ الظاهرة المضادة وهى أن تاريخه قد حفظ لنا كمية كبيرة من المادة الجغرافية . وبحسب المنهج الذى اتبعناه فإننا لن نقف عندها ولكننا نستثنى قسما طريفاً منها هو وصفه للسفارة التى بعث بها شاهرخ إلى الصين فى عام ٨٢٢ هـ ــ ٨٢٥هـ = ١٤١٩ ــ ١٤٢٢ .

هذا الوصف معروف من قبل عهد كاترمير[٣٠] ، فقد ضمنه المؤرخ الفارسى عبد الرزّاق السمرقندى تاريخه المعروف وأصبح فى متناول الأيدى بفضل ترجمة فرنسية منذ عام ١٨٤٣[٣١] . غير أنه كما لاحظ بارتولد من قبل فإن عبد الرزّاق قد نقل هذا القسم بحذافيره كغيره من الأقسام عن كتاب حافظ آبرو[٣٢] ، وأنه لما يدعو إلى الأسف أن عدم وجود طبعة لمصنف هذا الأخير قد اضطر البحاثة إلى الرجوع إلى الوصف الذى حفظته لنا رواية عبد الرزاق[٣٣] كما كان عليه الحال من قبل ، رغما من أن مخطوطة اكسفورد | لمصنف حافظ آبرو تحوى تفاصيل قيمة أسقطها عبد الرزاق . ومما يضيف إلى طرافة هذه السفارة التى بعث بها شاهرخ وأحفاد تيمور فى صحبة الصينيين العائدين إلى بلادهم أن بايسنغر أدخل ضمن جماعتها نقاشاً يدعى غياث الدين كلفه بأن[٣٤] « يقيد على هيئة يوميات وذلك منذ لحظة مغادرته لعاصمة الدولة هراة إلى يوم رجوعه إليها كل ما يقع عليه بصره فى جميع المدن والولايات التى يمر بها مما يستحق التسجيل كطريق الرحلة ووصف البلاد والعمارات ونظم المدن وعظمة الملوك وطريقة حكمهم لبلادهم وسياستهم وعجائب تلك البلاد والديار ورسوم هؤلاء الملوك » .

غادرت السفارة هراة فى الرابع من ديسمبر عام ٨٢٢ هـ = ١٤١٩ [٣٥] ووجهتها سمرقند ، ثم خرجت من سمرقند فى فبراير عام ٨٢٣ هـ = ١٤٢٠ فوصلت إلى خانبالق فى ديسمبر من نفس العام

519

وأقامت بعاصمة الصين خمسة أشهر ثم أخذت طريق العودة فى مايو عام ٨٢٤ هـ = ١٤٢١ ، وبعد عام من هذا وذلك فى يوليوسنة ٨٢٥ هـ = ١٤٢٢ بلغت سواحل نهر سرداريا (سيحون) ووصلت إلى هرات فى اليوم الثانى من سبتمبر[٣٦] من نفس العام . والأمد الطويل الذى استغرقته الرحلة والطريق الطويل الذى قطعته يقف دليلا على أن غياث الدين قد وجد فرصة ذهبية لتدوين ملاحظاته ، وهو بخلاف ملاحظته للغرائب والعجائب يورد لنا كثيراً من الأشياء القيمة عن الصين وسكانها ويسوق تفاصيل شيقة عن أخلاقهم وعاداتهم ويصف لنا أيضاً نظام ومراسيم البلاط الإمبراطورى[٣٧] . ولا يخلو من أهمية بالنسبة لنا وصفه للمكانة الرفيعة التى نالها فى عهد حكم بغدیخان القاضى حاجى يوسف أحد كبار العسكريين فى حكومة الصين ورئيس المجلس الاستشارى بها[٣٨] ، وليس بأقل أهمية من ذلك ما يذكره عن وضع المسلمين الصينيين الذين كان عددهم كبيراً فى ذلك الوقت .

هذا وقد أصبحت قصة غياث الدين معروفة للدوائر العلمية الأوروبية بفضل الرواية التى نقلها عبدالرزاق عن حافظ آبرو . ويرتبط اسم ذلك المؤرخ ارتباطاً وثيقاً بهذه القصة ولكنه يستحق أيضاً الذكر فى كتابنا هذا لما أورده من معلومات جغرافية فى مصنفه التاريخى ؛ واسمه الكامل هو كمال الدين عبد الرزّاق بن إسحق السمرقندى[٣٩] . وقد ساق التشابه فى الأسماء إلى الخلط بينه وبين الفيلسوف والفقيه المشهور كمال الدين عبد الرزاق القاشانى الذى عاش قبل قرن ونصف منه (توفى عام ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠)[٤٠] ووضع رسالة فى الجبر والاختيار نشرها المستشرق غويار Guyard . أما عبد الرزاق الذى نعنيه فإنه ولد بهرات (فى سنة ٨١٦ هـ = ١٤١٣) وتوفى بها فى عام ٨٨٧ هـ = ١٤٨٢ ، ونسب إلى سمرقند لأنه أقام بها طويلا . وكان أبوه من المقربين إلى بلاط شاهرخ كإمام وقاض ، أما الابن الذى لم يبلغ ما بلغه أبوه من نفوذ فى البلاط فقد وجد الرعاية هناك بفضل معارفه العلمية والأدبية ولو أنه لم يتميز بشخصية تلفت النظر . وقد ظهر منه بلاشك استعداد للدبلوماسية فكلفه شاهرخ بمهام دبلوماسية فى الأقطار الأجنبية ، مثال ذلك أنه بعث به فى عام ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ إلى الهند فأمضى بها حوالى ثلاث سنوات[٤١] ، وفى عام ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ نجده بكيلان[٤٢] ، وفى العام التالى أرسل به إلى مصر . غير أن وفاة شاهرخ غيرت من هذا الوضع[٤٣] ، وابتداء من عام ٨٦٧ هـ = ١٤٦٢ إلى آخر أيام حياته تولى عبد الرزاق الإشراف على خانقاه شاهرخ بهرات[٤٤] .

واكتسب عبد الرزاق شهرته العلمية من مصنفه التاريخى الكبير الذى يقع فى جزئين وهو «مطلع السعدين ومجمع البحرين» الذى أتم تأليفه فى حوالى عام ٨٧٢ هـ - ٨٧٥ هـ = ١٤٦٧ - ١٤٧٠ والذى كرسه بصورة خاصة لتاريخ المغول وتيمور وشاهرخ . وليس واضحاً تمام الوضوح الغرض الذى استهدفه من هذا العنوان ، وأغلب الظن أنه يشير بذلك إلى بطلى روايته الرئيسيين ؛ ويرى البعض أن الإشارة ترتبط ببداية الكتاب ونهايته حيث يدور الكلام عن اثنين من الملوك حملا اسم أبى سعيد[٤٥] ، والمقدمة التى تعالج الكلام عن المغول يتلوها عرض منظم ومتناسق لتاريخ الفترة من عام ٧١٧ هـ = ١٣١٧

إلى عام ٨٧٥ هـ = ١٤٧١ ؛ وهو يصل بالجزء الأول فى سرده التاريخى إلى وفاة تيمور فى عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ بينما يفرد الجزء الثانى بصورة خاصة للكلام على شاهرخ ، وهذا هو المعروف منذ أكثر من مائة عام فى ترجمة كاترمير . وتاريخ عبد الرزّاق من الناحية الزمنية (Chronological) ينضم إلى كتاب رشيد الدين وكأنما يكمله ابتداء من عام ٧٠٤ هـ = ١٣٠٤ ، أما خاتمة الكتاب فتقف فى عهد الأمير التيمورى التاسع الذى ظل عبد الرزاق متمتعاً تحت ظله بنفس الرعاية التى لقيها فى عهد شاهرخ .

وفى تلك الأقسام من الكتاب التى تعزى إلى المؤلف نفسه يسير العرض فى أسلوب منمق للغاية فيغلب عليه السجع وتنتشر فيه الاستشهادات الشعرية ، ومن الطريف فى هذا الصدد إيراد رأى عالم لا ينتسب إلى فئة المستشرقين بل يعد من المتخصصين فى الأدب الروسى القديم وهو سرزنفسكى Sreznevski الذى درس بالتفصيل الأقسام التى كتبها عبد الرزاق عن الهند وذلك أثناء تحضير تعليقاته على رحلة افناسى نيكتين Afanasi Nikitin . فالمؤلف كما يبدو واضحاً من ألفاظه « لم يفكر فى إفادة قارئيه وسامعيه بقدر ما فكر فى إمتاعهم ، وهو فى محاولته لإثارة حب الاستطلاع فى نفوسهم يجهد فى ذات الوقت ليستولى على ألبابهم بعباراته | المنمقة من مجالى الشعر والنثر ؛ ولا شك أن هدفه الأول هو التأثير على «الخاقان السعيد» شاهرخ[٤٦] .

521

وفى أقسام كتابه التى نقلها عن مصادر أخرى يجهد عبد الرزاق عادة فى أن يورد لنا الأصل كما هو ، وتكتسب هذه الحقيقة أهمية جوهرية إذا ماعلمنا أن مصدره الرئيسى لتاريخ الفترة السابقة لعام ٨٣٠ هـ = ١٤٢٦ هو حافظ آبرو[٤٧] ؛ وبهذا فإن أقسام معينة من تاريخ حافظ آبرو لم تعرف إلى أيامنا هذه إلا عن طريق عبد الرزاق[٤٨] ، أما فيما يتعلق بتاريخ الفترة من عام ٨٣٠ هـ = ١٤٢٦ إلى ٨٧٥ هـ = ١٤٧١ فإنه يعتبر واحداً من أهم مصادرها الأولية . وعدم وجود طبعة كاملة لهذا الأثر* حالت بالطبع دون إمكان الحكم على المؤلف بصورة جامعة ولو أنه يجب ألا يفهم من هذا مطلقاً أن عبد الرزاق مؤلف مغمور . أما مادته الجغرافية فموزعة بحسب الموضوعات التى تمسها فى الأقسام المختلفة من الكتاب ؛ ولبعض الأقسام صلة مباشرة بتاريخ شعوب الاتحاد السوفيتى مثل روايته عن حملة تيمور فى سهوب القبجاق فى عام ٧٩٣ هـ = ١٣٩١ ، وهى معروفة منذ أكثر من مائة سنة بفضل بحث شارموا Charmoy (١٨٣٥)[٤٩] . ومن الممكن القول بأن أسفاره الشخصية قد شحذت من انتباهه إلى الأدب الذى من هذا الطراز ولعله لهذا السبب ضمن كتابه قصة غياث الدين عن سفارة الصين بأجمعها ، كما لا يقل أهمية عن ذلك وصفه هو لرحلته إلى الهند . وقد بدأ عبد الرزاق هذه الرحلة فى يناير من عام ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ فعبر ولاية كرمان حتى وصل إلى جزيرة هرمز بالخليج الفارسى فأقام بها لمدة شهرين وترك لنا وصفاً يفيض بالحماس عن حياتها التجارية التى كانت آنذاك فى عنفوان نشاطها . وتعداده للأمم التى يمكن الالتقاء بها

(*) نشر البروفسور محمد شفيع الجزء الثانى من « مطلع السعدين » بلاهور فى ثلاثة أقسام (١٩٤١ - ١٩٤٩) . وهى طبعة لا أعتقد أن قيمتها العلمية كبيرة . (المترجم)

هناك وللسلع التجارية التي تجلب إليها يقف دليلاً على أن هرمز كانت بحق إحدى مراكز التبادل التجارى العالمية فى ذلك العصر[٥٠]. ومن هرمز عبر البحر إلى الساحل الشرقى لبلاد العرب وأخذ السفينة من مرفأ قلهات فبلغ كاليكوت بعد ثمانية عشر يوماً فى أكتوبر من عام ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ وكانت آنذاك أكبر موانى الساحل الغربى للهند (« مليبار ») ، وهو يصفها لنا بنفس الحماس الذى وصف به هرمز ؛ ثم غادرها إلى بيجانكر Bijanagar بجنوبى الهند فبقى بها إلى ديسمبر من عام ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ ومنها ارتفع بطريق البحر إلى منكلور Mangalor متحاشياً مرفأ بندران Pandaran الذى حط به فيما بعد فاسكودا غاما . ولم يغادر الهند نهائياً إلا فى مارس من عام ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ فوصل مرة أخرى إلى مسقط[٥١] على شبه الجزيرة العربية ومنها إلى هرمز التى بلغها فى العشرين من أبريل عام ١٤٤٤[٥٢] ؛ ووصفه هذا على الرغم مما يحفل به من محسنات بديعية يعتبر من أهم أقسام كتابه من وجهة النظر الجغرافية | 522 ويقدم وصفاً مفصلا بما فيه الكفاية لنواحى الهند فى ذلك العصر يفيض بالحيوية فى بعض نقاطه ويعد جديراً بالثقة على وجه العموم . ويمثل القسم عن الهند أهمية خاصة بالنسبة لنا لأن عبد الرزاق زار الهند قبل فترة ليست بالبعيدة من رحلة التاجر الروسى افناسى نيكيتين Afanasi Nikitin (١٤٦٦ — ١٤٧٢) من أهل تفر Tver* ؛ وعلى الرغم من أن كلا منهما قد سلك طريقاً لا يتفق تماما مع الطريق الذى سلكه الآخر إلا أنهما يساعدان فى فهم بعضهما البعض . ويعود الفضل إلى سرزنفسكى Sreznevski الذى استطاع فى بحث له رجع فيه إلى الترجمة الفرنسية لهذا القسم من كتاب عبد الرزاق[٥٣] أن يثبت جوانب الشبه بين الأثنين ويؤكد أن وصف عبد الرزاق للهند يقارب وصف نيكيتين أكثر مما يقارب تلك الملاحظات المقتضبة التى دونها معاصرهما نقولا كونتى Niccolo Conti[٥٤] .

وعلى أية حال فيجب الاعتراف بأن أكثر أقسام كتاب عبد الرزاق السمرقندي شهرة ورواجاً يكاد يكون وصف الصين لغياث الدين الذى استعاره مؤلفنا من حافظ آبرو ، وعنه أخذه المؤرخ الفارسى خوندمير وانتقل منه إلى عدد من الكتاب الأتراك ومنهم إلى أوروبا الغربية حيث عرف منذ القرن الثامن عشر[٥٥]. وقد ترجم هذا الوصف بأكمله إلى التركية فى سنة ١١٤٠ هـ = ١٧٢٧ المؤرخ إسماعيل عاصم چلبى زاده (المتوفى فى سنة ١١٧٣ هـ = ١٧٦٠) بعنوان « عجائب اللطائف »[٥٦] ونشر هذه الترجمة فى القرن العشرين العلامة التركى على أميرى (توفى فى ٢٣ يناير ١٩٢٤)[٥٧]. ومما عاون على رواجه بين الأتراك أن ثمة مصنفا فارسياً آخر فى وصف الصين لمؤلف يدعى على أكبر تم تدوينه بعد مدة من ذلك قد اعتبر أحياناً مجرد تعديل لهذا القسم من كتاب عبد الرزاق مع أنه مستقل تماما عنه :

(*) رغماً من أن المعلومات الأولى التى حصلت عليها أوروبا عن الهند قد جلبها الإيطاليان ماركوبولو Marco Polo ونيقولا كونتى Niccola Conti إلا أن يوميات التاجر الروسى افناسى نيكيتين Afanasi Nikitin من أهل تفر Tver التى دونها بعنوان « رحلة وراء البحار الثلاثة Khojenie za tri moria » تتميز بالتفصيل وعمق الملاحظة وبما تحفل به من وصف للأحوال الاجتماعية بالهند . هذا وتوجد لها طبعة علمية جديدة قام بنشرها العلامة الروسى غريكوف Grekov . (المترجم)

وقد ظهر هذا المصنف الأخير فى وسط يختلف تماماً عن وسط عبد الرزاق ويرتبط ببلاد أخرى من العالم الإسلامى كانت قد بدأت فى ذلك الوقت تلعب دوراً رئيسياً فى مصير الشرق الأدنى أعنى بهذا الدولة العثمانية . والمؤلف على أكبر[٥٨] شخصية مغمورة وكان يريد رفع مصنفه الذى أتمه فى حوالى عام ١٥١٦ إلى السلطان سليم ولكنه بعد وفاة الأخير قدمه إلى السلطان سليمان القانونى (الذى ارتقى العرش فى عام ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠)[٥٩] ؛ وقد دون على أكبر مصنفه معتمداً على انطباعاته المباشرة عن الصين التى أقام بها مدة ليست بالقصيرة حوالى عام ١٥٠٦[٦٠] ، وقد استعمل فى تأليفه اللغة الفارسية وهو أمر يجب ألا ندهش له إذا ما تذكرنا دورها كأداة للثقافة الرفيعة بالدولة العثمانية وما تمتعت به من تقدير خاص بين سلاطنة آل عثمان أنفسهم . غير أن لهذا المصنف ترجمة تركية[٦١] ترجع إلى عهد السلطان مراد وعملت على ما يبدو فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ ؛ ‖ ومن الملاحظ أن معرفتى الدوائر العلمية بهذا الكتاب 523 ظلت حتى الآونة الأخيرة قائمة على أساس الترجمة التركية لا عن طريق الأصل الفارسى .

وذكره حاجى خليفة فى معجمه للكتب تحت عنوان « قانون نامه چين وختا* »[٦٢] ؛ وكما سنرى فإن هذا العنوان أبعد من أن يحيط بكل موضوع الكتاب . ولعل حاجى خليفة بذكره لاسم على القوشجى تحت هذه الملاحظة قد لعب أكبر دور فى إشاعة الزعم القائل بأن على القوشجى كان وراء تأليف هذا الكتاب وأنه هو الذى قدم بعض المعلومات للمؤلف على أساس ملاحظاته الشخصية[٦٣] ، وهذا الزعم يستحيل تماماً من الناحية الزمنية ولكنه لا يخلو على أية حال من طرافة مرجعها فى أنه يعكس ذكريات بعض أهل العلم عن العلاقات الثقافية فى ذلك العصر . وقد حدث أن ذكرنا من قبل أن على القوشجى (المتوفى عام ٨٧٩ هـ - ١٤٧٤)[٦٤] كان من أكبر معاونى ألوغ بيك فى مرصده بسمرقند وأنه عقب وفاة الأخير استقر فى آخر الأمر بالدولة العثمانية وهناك ساهم مساهمة فعالة فى تدعيم النشاط العلمى فى مجالى الرياضة والفلك . أما رحلته إلى الصين التى ربط البعض أحياناً بينها وبين « قانون نامه » فلا توجد لدينا أية معلومات بصددها ، غير أن اهتمامه بتلك الأقطار ليس موضعاً للتشكك ولعله هو مؤلف كتاب « تاريخ ختاى » الذى يشير إليه حاجى خليفة[٦٥] ؛ ويعتقد بابنجر Babinger أن مخطوطة هذا المصنف موجودة بين مخطوطات استنبول[٦٦] . ويلوح أن القوشجى حمل معه هذا الاهتمام والولع بالصين إلى أراضى الدولة العثمانية التى خرج منها فى رحلته إلى تلك البلاد رحالتنا المجهول على أكبر . وعلى أكبر يطلق على نفسه اسم قلندر (أى الدرويش المتجول) ، ولا نعلم شيئاً عن الظروف التى تمت فيها رحلته هذه ؛ وإقحام اسم

(*) يطلق على الصين فى المصنفات باللغة الفارسية اسم چين ولعله هو المسئول عن انتشار الرسم الأوروبى لاسم الصين Chin ؛ كما عرفت الصين لفترة ما من العصور الوسطى فى المصادر الإسلامية باسم بلاد الخطا أو ختاى وهو فى الأصل اسم لقبيلة من آسيا العليا استولت على مقاليد الأمور بالصين لبعض الوقت . وقد لاقى هذا الاسم الأخير رواجاً كبيراً فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ولايزال يقابلنا فى الآثار الشعرية فى صورة كاثاى Cathay . ومن الطريف أن الصين لاتزال معروفة لدى الروس باسم كيتاى Kitay . (المترجم)

على قوشجى فى هذه الرحلة يستند فى أغلب الظن على سوء فهم لألفاظ المؤلف نفسه كما عبر عنها فى مقدمة كتابه على ما سنرى . وقد خرج ياكوب Jacob فى الآونة الأخيرة برأى مؤداه أن على أكبر قد بعث به إلى الصين السلطان سليم نفسه الذى اهتم بالأوضاع السياسية السائدة فى شرق آسيا وأراد أن يحصل على معلومات وثيقة عن أحوالها العسكرية(٦٧) .

أما معرفة حاجى خليفة بالمصنف فهى معرفة واقعية ، أضف إلى هذا أن معلوماته عنه لا يستقيها من مصادر أخرى كما يحدث أحياناً فى كتابه ؛ وإلى جانب هذا فهو ينقل عنه مراراً فى مصنفه الجغرافى « جهاننما »(٦٨) . ومعرفة الدوائر العلمية الأوروبية مبكراً بهذا الكتاب ترجع إلى ما تمتع به من رواج فى الدولة العثمانية نفسها ، وقد رجع إليه منذ القرن الثامن عشر المستشرق السويدى نوربرج M. Norberg (١٧٤٧ — ١٨٢٦) فى بحثه عن « بلاد الصين » De Regno Chataja الذى يتكون من خمسة فصول عالج فيها الكلام على العاصمة خانبالق Kımbalu وعن رونق البلاط الإمبراطورى وفخامته ، وعن الدين والأدب ، وعن القوانين ، وأخيراً الأحوال العسكرية ؛ وهو قد أفاد فى هذا من وصف غياث الدين . وقد عاون وجود مخطوطتين للترجمة التركية بأوروبا (بدرسدن وبرلين)(٦٩) فى التعرف منذ منتصف القرن التاسع عشر على بعض أقسامه بصورة دقيقة فقدم لنا فليشر Fleischer إلى جانب معلومات ذات طابع عام ترجمة للفصل الرابع الذى يبحث فى الحاميات الموزعة على المدن المختلفة (١٨٥١)(٧٠) وتلاه تسنكر Zenker الذى أفاد من نسخة فليشر المأخوذة عن المخطوطة ليقدم عرضاً موجزاً للمادة على أكبر عن تلك البلاد وحكومتها ودياناتها وحضارتها (١٨٦١) . وفى حوالى ذلك الوقت (١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣) ظهرت طبعة حجرية للكتاب باستنبول ، وقد أصبحت نادرة للغاية ولم تجتذب الاهتمام بصورة خاصة(٧١) ؛ أما العلماء الأوروبيون فقد استمروا رغماً من ذلك فى الاعتماد على الترجمة التركية . ولم ينشر شيفير Schéfer الترجمة الفرنسية لثلاثة فصول (هى الأول والسابع والخامس عشر) إلا فى عام ١٨٨٣ معتمداً فى ذلك على الأصل الفارسى الموجود فى مخطوطة فريدة باستنبول اعتقد المستشرق الفرنسى خطأ(٧٢) أنها بخط يد المؤلف(٧٣) . هذا ولم يقدر لشيفير بالتالى أن يحقق مشروعه(٧٤) بإخراج طبعة كاملة للكتاب(٧٥) ، ولكن إلى جانب هذا أثبتت الدراسة الدقيقة التى عملها كاله Kahle للأصل فى الثلاثينيات من هذا القرن صحة ماذهب إليه شيفير من قبل(٧٦) ، وهو أن الترجمة التركية لا تتصف بعدم الدقة فحسب بل إنها أيضاً عرضة لتصحيحات كثيرة(٧٧) ، أضف إلى هذا أنها تحتوى على تواريخ أضافها المترجم سهواً مما أدى إلى بعض الخلط فيما يتعلق بتاريخ الكتاب(٧٨) . ومن هذا تتضح ضرورة الحاجة إلى الرجوع إلى الأصل الفارسى الذى لم ير النور إلى الآن(٧٩) فى كل ما يتعلق بدراسة هذا الأثر دراسة جدية ؛ غير أن المواد الموجودة حالياً تحت تصرفنا تساعد على تكوين فكرة عامة عن هذا الأثر الذى لا يخلو بأية حال من الأصالة .

ويجب قبل كل شيء أن نلاحظ أن هذا الأثر ليس بقصة رحلة كما يفهم عادة من هذا اللفظ بل هو عبارة عن وصف منتظم لبلاد الصين فى عشرين فصلا[٨٠] تعالج الكلام على أقسامها الأربعة وهى الخطا وختن وچين وماچين ، أى بلاد الصين الشمالية والجنوبية الغربية* (طرفان) والوسطى والجنوبية[٨١].

525 ويبدو من محتويات الفصول العشرين ، حتى فى الترجمة التركية ، أن موضوع الكتاب متكامل الجوانب فعلا ومتنوع ، وهو باستثناء فصوله الأخيرة منتظم وفقا لترتيبه الخاص به فالفصل الأول يبحث فى الحدود والتحصينات وطرق المواصلات من طبيعية وممهدة ، بينما يبحث الفصل الثانى فى الديانة وطقوس العبادة ، أما الثالث فعن الأبنية والمدن والقلاع والإدارة الداخلية والبريد واستقبال الأجانب ويبحث الرابع عن الجيش ، والخامس عن الخزينة والمستودعات الأميرية ، والسادس فى الإدارة العليا وشئون البلاط الإمبراطورى والإدارة المركزية للمقاطعات الاثنى عشر ، والسابع فى السجون ، والثامن فى الأعياد القومية . والتاسع فى تقسيم البلاد إلى اثنى عشرة مقاطعة ، والعاشر فى الاعتناء بالحدائق والمتنزهات ، والحادى عشر فى المطاعم وبيوت اللهو ، والثانى عشر فى العلوم والفن والحرف والألعاب ووسائل التسلية ، والثالث عشر فى أصل نظام الحكم لدى أهل الصين ومجتمعهم ، والرابع عشر فى مدارسهم ، والخامس عشر فى علاقتهم بالغرب وفى بلوغ الإسلام أرض الصين ، والسادس عشر فى علاقات الصين بأهل السهوب وبالتبت والهند ، والسابع عشر فى زراعة الأرض وما يتخذونه من احتياطات لمكافحة الجوع والحريق وفى الحصول على حجر المطر وفى طواحينهم كما يبحث فى معابدهم وحججهم وطرائق أهل الزهد فيما بينهم ، والثامن عشر فى سكتهم واستعمالهم لأوراق النقد وفى ألعابهم النارية ، والتاسع عشر فى قوانينهم وفى عقاب المجرمين بالإشراف المتبادل ، والعشرون فى صورهم ومجموعاتها وفى الدعوات من أجل الجمهور والترويح عنهم وفى أناقتهم فى الملبس وتزيينهم لقبورهم وفى حساب الوقت عندهم وعصور تاريخهم وفى سكان الصين وحرث الأرض لديهم وحروبهم مع سكان السهوب الغربية وموافقة المؤلف لأهل الصين فى اعتقادهم بتفوقهم على غيرهم فى القانون والنظم[٨٢] .

من هذا السرد يتبين لنا فى يسر ووضوح أن الفكرة الأساسية بالنسبة لعلى أكبر لم تكن ملاحظة الأحوال العسكرية فى الصين فحسب ، ومن ثم فمن العسير القول بما قاله البعض من أن الهدف الرئيسى من وصفه كان إقناع سلاطنه آل عثمان بضرورة غزو بلاد الصين ونشر الإسلام فيها . إن هدفه كان بلاشك أعرض من ذلك وهو التعريف ببلاد مشهورة من حيث الاسم ولكن مجهولة من حيث الواقع وأن يدلل من وراء ذلك التعريف على أنها يمكن أن تصبح قدوة لنظاما لحكم عند العثمانيين فى نواح معينة كالقانون والإدارة كما نستبين ذلك من الفصل الأخير فى كتابه[٨٣] . والمؤلف يشير إشارة صريحة فى موضع

(*) أليس من الأفضل قراءتها الشمالية الغربية ؟ (المترجم)

من مقدمة كتابه إلى أن هدفه الرئيسى هو الإعلام ؛ ويكتسب هذا الموضع من المقدمة أهمية بالنسبة لنا لسبب آخر ، ففيه يقول :

« أما الدافع الآخر (الذى حدا بى لوضع الكتاب) فهو أن المرحوم السلطان ألوغ بيك كان قد بعث إلى خطاى العالم مولانا على قوشجى وأرسل معه أسداً (هدية) وقال لهم دونوا كل ما ترونه وتعرفونه من غرائب أحوال تلك البلاد لأن ناقل الكفر ليس بكافر . وهذا العبد الفقير يذكر ما رآه رأى العين وجميعه فى الحقيقة من الغرائب »(٨١) .

وتشير جميع الاحتمالات إلى أن هذه السطور بعينها هى التى أوحت بالزعم القائل بأن رحلة على أكبر كانت من وحى على قوشجى ، 526 غير أن الأمر الآن وبعد توضيح التواريخ يجعلنا نجزم بأن هذه الفكرة مستحيلة تماماً . وشيفير يميل إلى الاعتقاد بأن رحلة على قوشجى إلى الصين قد وقعت فعلا وأنه ترك وصفاً لها عرفه على أكبر وأفاد منه فى تدوين كتابه(٨٥) ، وهو رأى غير مقبول لأنه من المستبعد ألا يوجد خبر عنها فى مصادر أخرى . أما الإشارة إلى ألوغ بيك فإنها تدل على أية حال على أن لعلى أكبر علاقة ما بآسيا الوسطى ولعل شيفير لم يتنكب الصواب فى هذه المرة حينما افترض أنه كان فى الأصل تاجراً من آسيا الوسطى استقر فيما بعد بالقسطنطينية(٨٦) ؛ ومما يؤكد وجاهة افتراضه هذا أن لغة المؤلف الفارسية ليس فيها ما يجتذب النظر ولعلها تعكس اللغات التركية لآسيا الوسطى التى اعتاد عليها المؤلف(٨٧) . أما أسلوبه فليس بالرفيع(٨٨) وهو يحمل طابعاً مملياً رغم أن المقدمة تغلب عليها الاستعمالات البلاغية المعروفة لنا ورغم أننا نلتقى فى الكتاب باستشهادات شعرية ليست من النوع الجيد(٨٩) ، هذا بالإضافة إلى أن المؤلف يختتم كتابه بمدح مسجوع فى حق السلطان سليمان القانونى(٩٠) .

أما القول بعد التعرف على الأصل الفارسى بأن وصف على أكبر ليس سوى نقول من المصادر الأخرى للقرنين الثالث عشر والرابع عشر ولايعتمد على ملاحظة واقعية ، كما افترض ولو ببعض الحذر فليشر(٩١) وتبعه فى ذلك تسنكر(٩٢) ، فهو قول مردود فى الوقت الحاضر لأنه يتعارض مع الاستقراءات الباطنية والمقارنات التى أجريت مع مصادر أخرى . والمؤلف يروى أساساً ما أبصره بعينه أو علمه من أهل البلاد ، وقد استغرقت رحلته داخل الصين أكثر من ثلاثة أشهر(٩٣) . ووصفه لمقابلته مع الإمبراطور يحمل جميع علامات الصحة شأنه فى هذا شأن وصفه لسجون الصين التى سنحت له فرصة التعرف عليها فى ظروف مؤلمة فقد أمضى ستة عشرين يوماً فى الحبس مع بقية رفاقه فى الرحلة وعددهم إحدى عشر لأن واحداً منهم قتل فى مشاجرة رجلا من أهل التبت(٩٤) . وكمسلم فلم يكن من الممكن ألا يثير دهشته مشاركة النساء فى الأعياد(٩٥) وفى الحياة الاجتماعية بل وفى الجهاز الحكومى حيث شغلن وظيفة « المراجعات » للشئون المتعلقة بالمقاطعات الاثنى عشرة للدولة فى الإدارة المركزية . وقد دفعه أحياناً شوقه إلى معرفة وضع المرأة فى المجتمع الصينى إلى حد بعيد بحيث يشعرنا 527 فى الفصل الحادى عشر الذى أفرده للكلام على المطاعم وبيوت اللهو ان مادته إنما تعتمد على تجربة شخصية .

وكان لعلى أكبر من بين السكان المحليين من يمده بالأخبار والمعلومات ، ويبدو أن هؤلاء كانوا على معرفة جيدة بالأوضاع ؛ ويفترض كاله أنه يدين بالكثير لإخوانه فى الدين من بين الخصيان الذين كانوا يلعبون دوراً كبيراً فى إدارة الدولة(٩٦) . وهذا أمر ممكن للغاية سواء اعتماداً على القصة التى يحكى فيها عن نفوذهم فى الجهاز الحكومى(٩٧) أو مما يذكره عن انتشار الإسلام فى الصين حتى أن العاصمة خانبالق وحدها كان بها أربعة مساجد . وأحياناً تؤكد مصادر أخرى صحة رواياته ، فقصته عن دور زعيم القالموق* المدعو اسان تايشى Esen Taichi فى أسر بخديخان فى عام ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ قد وكدته المصادر الصينية تماماً بما فى ذلك توافق التواريخ(٩٨) . أما اهتمام على أكبر بالمسائل التجارية فيبدو جلياً فى تركيز انتباهه على تجارة الصين مع البلدان الإسلامية ، وهو يفرد أهمية خاصة من بين السلع التى يذكرها للخيل والأنسجة والجوهرات(٩٩) . وقد اجتذب أنظاره بصورة خاصة الخزف الصينى الذى يصفه بالتفصيل ويقدره تقديراً عالياً ؛ ولعل هذا لم يكن من قبيل الصدفة إذ بدأت المصنوعات الخزفية الصينية فى هذه الآونة بالذات تظهر بكميات كبيرة فى قصور السلاطين باستنبول(١٠٠) .

ويمكن استناداً على أقسام كتابه الموجودة فى متناول الأيدى ، وأيضاً على الدراسات التى كرست له أن نقرر بثقة تامة أن العلم يدين له بوصف مفصل وهام للغاية لبلاد الصين فى عهد أسرة المنغ Ming عندما تولى العرش تشنغ – ته Cheng-te حوالى عام ١٥٠٦ ، أو بمعنى آخر فى ذلك العصر بالذات الذى ينفرد بعدم وجود أى شىء بصدده فى مصادر غير صينية . والوصف يعتمد من جهة على ملاحظات المؤلف الشخصية التى يمكن الاعتماد عليها ، أما من جهة أخرى فهو يعتمد على المعلومات التى جمعها داخل الصين ؛ ويمكن مقارنته من حيث سعة المادة وقيمتها بأفضل وأحفل ما عرف من أوصاف الصين(١٠١) .

وبالرغم من كل ما حظى به الأدب الفارسى من رعاية فى كنف سلاطين آل عثمان فإن مصنف على أكبر يمثل بالنسبة للأدب الفارسى فى حد ذاته حالة عرضية . أما إحدى المراكز الكبرى للأدب الفارسى فى القرن السادس عشر فكانت الهند حيث نلتقى فى أواخر ذلك القرن بأثر لايتمتع فقط بحق الانضواء إلى الآثار التى تعالج الجغرافيا بل إنه يحتل مركزاً ليس بالضئيل وسط المؤلفات ذات السمعة العالمية من نفس الطراز ، ذلكم هو « آئين أكبرى » المشهور لأبى الفضل .

528

كان أبو الفضل العلامى (٩٥٨ هـ – ١٠١١ هـ = ١٥٥١ – ١٦٠٢)(١٠٢) كاتماً لأسرار السلطان أكبر (١٥٤٢ – ١٦٠٥) ووزيره الأول . وهو ينحدر من أسرة عريقة اشتغلت بالأدب والعلم أصلها عربى ولكنها سكنت الهند منذ وقت بعيد . وقد اكتسب أخوه فيضى الشهرة كشاعر باللغة الفارسية وكانت له هو نفسه صلة وثيقة بالأدب وترك لنا ترجمة « لكليلة ودمنة » بالفارسية بعنوان « عيار

(*) قبيلة من المغول الغربيين تقطن حالياً الأراضى الروسية على حوض الفولجا الأدنى . (المترجم)

دانش»[١٠٣]. غير أن اهتمامه اتجه منذ سن مبكرة إلى الأبحاث الدينية ؛ وفى عام ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ قُدِّم إلى السلطان أكبر على أنه أديب شاب يرجّى منه الكثير فأصبح على الفور معاونه وشريكه الغيور فى تثبيت قواعد دين شامل ، بل إن المصادر الشرقية وبعض البحاثة الأوروبيين ينسبون إليه دوراً رئيسياً فى هذه الحركة أحياناً .

وبشخص أكبر يرتبط مؤلفه الأساسى وهو تاريخ « أكبر نامه » الذى يقع فى ثلاثة مجلدات كبيرة ؛ والمجلد الأول منها أتمه فى عام ١٥٦٥ وينقسم إلى قسمين أحدهما يعالج تاريخ الأسرة التيمورية خاصة بالهند كما يعالج أيضاً تاريخ سلاطنة الأسرة السابقين لأكبر خاصة بابر وهمايون . والمجلد الثانى خصصه لتاريخ السلطان أكبر وقد ساقه المؤلف إلى لحظة تأليفه للكتاب أى أنه يشتمل على أخبار ستة وأربعين عاماً . أما المجلد الثالث فيحمل عنواناً مستقلا هو « آئين أكبرى » وقد أتمه قبل وفاته بقليل ، أى فى حوالى عام ١٠١١ هـ = ١٦٠٢ ويمثل فى جوهره عرضاً كاملا لأحوال الهند فى ذلك العصر يعالج فيه مسائل الإدارة والإحصاء والاثنوغرافيا فى أوسع مفاهيمها ؛ وأبو الفضل باستعماله للمنهج الإحصائى بصورة جدية قد سبق بهذا كما يرى بعض البحاثة العالم الفيلسوف ليبنتز Leibniz[١٠٤] . وفى نهاية هذا المجلد ترجمة لحياة المؤلف بقلمه تمثل فى حد ذاتها أهمية ليست بالضئيلة . أما أهمية المصنف فى مجموعه فتكمن فى أن المؤلف قد استطاع أن يضم إلى المراجع الأدبية العديدة الوثائق الرسمية أيضاً والذكريات الشخصية ، هذا وقد أضاف أكبر نفسه زيادات خاصة إلى الكتاب الذى كانت تقرأ عليه فصوله كلما فرغ منها أولاً بأول .

وينقسم «آئين أكبرى» من حيث تبويبه إلى خمسة كتب متنوعة للغاية من حيث محتوياتها بصورة لا يمكن معها الإحاطة بها من مجرد ذكر العناوين القصيرة داخل كل كتاب . والكتاب الأول مخصص لشخص السلطان وداره وبلاطه والمراسيم المتعلقة بذلك وكيفية تطبيقها و ذلك بطريقة مسهبة للغاية ؛ أما الكتاب الثانى فيبحث فى الجهاز الضخم للحكومة بما فيه من موظفين عسكريين ومدنيين كما يتحدث عن الأدباء والموسيقيين المقربين إلى البلاط ، هذا بينما يبحث الكتاب الثالث فى النظم القانونية ويعطى جدولا بالدخل ، وفى الكتاب الرابع يتحدث عن الوضع الاجتماعى للهندوس وفلسفتهم وقانونهم وعن أشهر الغزاة وعن الرحالة والطوائف بالهند ، هذا بينما يخصص الكتاب الخامس للكلام على تعاليم السلطان أكبر وأقواله المأثورة . وجميع هذه العناوين لا تكفى لإعطاء فكرة متكاملة عن مضمون هذا المصنف المتنوع فى مادته ، ولعلنا نوفق فى إعطاء فكرة أدق عن الكتاب إذا أوردنا حكم رينو Reinaud عليه[١٠٥] عندما وصفه بأنه سفر جامع يقدم وصفاً شاملا للدولة من النواحى الجغرافية والطبيعية والتاريخية تصحبها جداول إحصائية مسهبة . ويقدم لنا المؤلف وصفاً مفصلا لكل واحدة من المقاطعات الستة عشر فيحدد مواضع المدن والأماكن المختلفة ويعطى قائمة بالمحاصيل الطبيعية والصناعية كما يورد أسماء الجماعات

الوثنية والمسلمة ؛ وهو يولى اهتماماً خاصاً كما رأينا إلى الوضع العسكرى للدولة ونظام بلاطها الخ . وفى الخاتمة يفرد قسماً للكلام على البراهمية Brahmanism وفلسفة الهندوس والفرق المحلية المختلفة . ويمكن إعطاء فكرة من تنوع مادة الكتاب من أقسامه تلك التى أدخلها فيران Ferrand فى مصنفه الجامع عن الشرق الأقصى(١٠٦) مثل تحضير العطور والمسائل البحرية ووصف بلاد البنغال وتوزيع المقاطعات بحسب الأقاليم .

أما من وجهة نظر المادة الجغرافية الصرفة فمن الملاحظ أن « آئين أكبرى » يقدم لنا جدولا مفصلا للأقاليم السبعة مع الإشارة إلى خطوط الطول والعرض فيما يتعلق بمواقع النقاط الجغرافية الرئيسية(١٠٧) وهو يعتمد فى هذا اعتماداً أساسياً على البيرونى(١٠٨) ؛ ولعله ليس دون تأثير هذا الأخير يرد لدى أبى الفضل ذكر قلعة كنكدز الأسطورية الواقعة فى الطرف الشرقى للمعمورة والتى مر بنا الكلام عليها من قبل(١٠٩) .
وعلاقة أبى الفضل بالبيرونى لم تأت عرضاً فهو قد أفاد منه كثيراً وبصورة منتظمة(١١٠) ، بل إن كتاب « الهند » للبيرونى هو أقرب النماذج « لآئين أكبرى » ، هذا إذا تركنا جانباً موسوعات عهد المماليك التى ربما لم يكن له علم بها . ويرى أحد المتخصصين فى دراسة « آئين أكبرى » ، وهو جاريت Jarrett ، أن أبا الفضل قد أخذ فكرة كتابه عن كتاب البيرونى بل واستعار منه طريقة تبويبه للمادة(١١١) ، غير أنه من الصعب فى الحقيقة المقارنة بين المؤلفين ناهيك بما يوجد بينهما من اختلاف هائل . ولا يكمن هذا الاختلاف فقط فى أن أبا الفضل على خلاف البيرونى لم يكن يعرف السنسكريتية(١١٢) أولم تكن له معرفة البيرونى العميقة بالعلم اليونانى ، كلا بل إن الاختلاف بين الاثنين يتركز بصورة خاصة فى أن مؤلف كتاب « الهند » كان بحاثة بمعنى الكلمة وقام شخصياً بفحص جميع المسائل التى كتب عنها هذا على حين كان أبو الفضل فى معظم الأحوال نقالة ولو أنه يجب الاعتراف بأنه كان أميناً ودقيقاً فى نقله(١١٣) ، وحفظ لنا إلى جانب ذلك كمية من المعلومات من مصادر مفقودة(١١٤) .

هذا وقد تم الاعتراف بأهمية هذا الأثر منذ القرن الثامن عشر كمصدر هام لاتقتصر أهميته بالنسبة لعصره وحده ، ولا يزال يتمتع إلى أيامنا هذه بتقدير كافة العلماء رغماً مما وجه إليه من نقد لايخلو من الصحة . ويرى ناشر الكتاب ومترجمه إلى الإنجليزية بلوتشمان Blochmann أن « أكبر نامه » فريد فى أهميته من بين جميع تواريخ الهند الإسلامية(١١٥) ويمتاز بالصدق والأمانة ويكشف عن معرفة متينة بالوثائق وبكافة فروع الإدارة الحكومية(١١٦) ؛ وفضلا عن هذا فإن الكتاب لانظير له بين المؤلفات الأخرى لأنه يعكس بصورة جلية صادقة حياة الشعب الهندى فى تلك الآونة التاريخية(١١٧) . وقد أضر بأبى الفضل بعض الشيء أسلوبه المتكلف المصنوع الذى يذكر بأسلوب النثر الفارسى المتأخر هذا إلى جانب ما يعتريه أحياناً من غموض يجعل فهمه عسيراً فى بعض الحالات ؛ ويعتقد جاريت أن ميزات أبى الفضل ككاتب قد بولغ فيها(١١٨) وجاء على لسانه مانصه حرفياً : « إن الميزة بل والميزة الوحيدة لآئين أكبرى تكمن فى المادة التى يرويها لا فى أسلوب عرضه لها الذى لايرتفع إلى درجة عالية . وهو جدير بالتخليد بين

الأجيال التالية بسبب منهجه الفريد فى جمع ما يتعلق بنظم الإدارة والإشراف فى دواوين الحكومة المختلفة فى دولة كبرى مسجلا إياها بأمانة فى أدق تفاصيلها ومدعماً عرضه بمجموعة هائلة من الأمثلة الواقعية التى تبين ضخامة هذه الدولة وسعة إمكانياتها وأحوال سكانها وصناعاتها الخ »[١١٩] .

ويمكن القول بكثير من الثقة أن قيمة « آئين أكبرى » لاتقتصر حتى فى أيامنا هذه على جانبه التاريخى وحده ، وقد عبر واحد من كبار مؤرخى التطور الحضارى للشرق الأدنى وهو كارا دى فو عن رأيه فى هذا الكتاب بما يأتى : « وبالاختصار فهذا أثر لا مثيل له ، وهو يفيض بالحياة والحركة وبالأفكار والمعرفة الجمة فقد بحثت فيه جميع مظاهر الحياة الاجتماعية وتم تنظيمها وتصنيفها بصورة مدهشة . وبهذا فهو يمثل وثيقة هامة يحق للحضارة الشرقية أن تفخر بها »[١٢٠] .

وبعد استماعنا لهذه الآراء السديدة فلسنا بحاجة إلى تبرير إدخال « آئين أكبرى » فى عرض عام للجغرافيا ؛ ولن يكون السبب الوحيد لذلك بالطبع علاقته بمؤلف البيرونى العظيم .

وثمة أثر آخر باللغة الفارسية ظهر فى حوالى ذلك الوقت وارتبط بعض الشىء بالوسط الذى ظهر فيه كتاب أبى الفضل يمكن أن يجتذب أنظارنا | بعنوانه وهو « هفت إقليم » (أى الأقاليم السبعة) رغما 531 من أنه ليس مصنفاً فى الجغرافيا العامة كما يمكن الاستنتاج بسهولة من عنوانه بل يمثل معجما فى السير وزعت مبادئه على أساس جغرافى ، فليس غريباً إذن أن يطغى عنصر السِّيَر على الكتاب[١٢١] . غير أن هذا الكتاب يحتوى على مادة جغرافية ضخمة جعلت البحاثة المعاصرين يعترفون بأهميته بالنسبة للسير وللجغرافيا على السواء[١٢٢] . ومؤلفه أمين أحمد رازى[١٢٣] غير معروف لنا جيداً ؛ وأصله من الرى وينحدر من أسرة غنية من أهل المناصب كان لبعض أفرادها صلة بالهند أيام السلطان أكبر ، ويلوح أن مؤلفنا نفسه قد زار الهند فى تلك الآونة . وقد أتم مؤلفه الضخم* فى عام ١٠٠٢ هـ = ١٥٩٤[١٢٤] بعد عمل دام ستة أعوام ، وهو يحتوى على ألف وخمسمائة وستين ترجمة لسير مشاهير الصوفية والكتاب والشعراء وعظماء التاريخ موزعة بحسب أماكن ميلادهم على المناطق المختلفة للأقاليم الجغرافية السبعة المشهورة ؛ ونحن نعلم جيداً أن كل إقليم كان يرتبط وفقاً للمذهب القديم بكوكب سيّار[١٢٥] . ويوجد فى البداية جدول يبين مواقع الأماكن الجغرافية فى الأقاليم المختلفة[١٢٦] ، ثم إن كل إقليم على حدة يحتوى على مقدمة تمهيدية موجزة ذات طابع عام من ميدانى الجغرافيا والتاريخ ، فبلاد هندستان مثلا يصحبها ملخص تاريخى عن فتوح المسلمين بها . ولا يخلو الحال مع مدينة أو منطقة من إيراد تاريخها وعجائبها ومحاصيلها الرئيسية[١٢٧] . ويبدأ العرض بالطبع بالإقليم الأول الذى يضم اليمن وبلاد الزنج والنوبة والصين (چين) وسرنديب (سيلان) وجابلسا ، وينتهى بالإقليم السابع الذى يضم بلغار وصقلاب وباطك وباطن الروم وجابلقا ويأجوج ومأجوج . ومن هذا السرد يتبين لنا أن ذكر البلاد الأسطورية ما زال باقياً ، مثل جابلسا أو جابلقا التى ورد ذكرها عند المفسر والمحدث المشهور ابن عباس فى القرن الثامن الميلادى اعتماداً على أساطير مرتبطة بالكتاب المقدس ،

(*) ظهر فى ثلاثة أجزاء بطهران فى طبعة غير علمية . (المترجم)

كما لايزال المذهب القديم فى توزيع البلاد الذى رسخ وثبتت جذوره لدى ممثلى الجغرافيا الكلاسيكية والرحالين منذ القرن العاشر محتفظاً بكامل قوته . وبالطبع فأحمد أمين رازى لم يورد أية سير لشخصيات ترتبط بهذه البلاد الأسطورية ؛ كما أن قائمة البلاد فى الأقاليم الأخرى تحمل طابعاً أكثر واقعية فالإقليم الثانى مثلا يرد فيه ذكر البلاد الآتية مع تقسيمها أحياناً إلى أجزاء أصغر : مكة والمدينة واليمامة وهرمز والدكن (بنواحيها السبع) وأحمد أباد وكنبال وسورات وسومنات وناكور والبنغال (مع عدد من النواحى) وأوريسا*. وهكذا تشغل الهند مكانة رئيسية بحيث تشاطر إيران فى ذلك فى بقية الأقاليم|. 532 وإلقاء نظرة على القائمة الكاملة للبلدان[١٢٨] خير دليل على ما تمتعت به النظرية القديمة للجغرافيا التقليدية من تماسك ومقاومة فى جميع تفاصيلها إلى نهاية القرن السادس عشر ، وذلك رغما من الاتساع غير المعهود الذى طرأ آنذاك على الأفق الجغرافى من وجهة النظر العملية .

هذا وترد السير داخل الأقاليم المختلفة وفقاً للتتابع الزمنى ، فتمر أمام ناظرينا أسماء من ولدوا فى كل منطقة من الشعراء والعلماء والمشايخ والأمراء الذين تولوا الحكم فى نقاطها المختلفة ؛ ويولى المؤلف اهتماماً خاصاً لكبار الصوفية ويحتل مركز الأهمية فى الكتاب بالطبع ممثلو الثقافة الفارسية ، وبما أن الكتاب تغلب عليه المادة الأدبية فإننا نجد أنفسنا بحسب ألفاظ باربييه دى مينار Barbier du Meynard [١٢٩] أمام « ضرب من الجغرافيا الأدبية يخلو من أية قيمة علمية ولكنه يحفل بتفاصيل هامة عن كبار الكتاب الفرس » . وفى الحقيقة فإن لكتاب أحمد أمين رازى أهمية غير عادية بالنسبة لتاريخ الأدب الفارسى خاصة الشعر[١٣٠] ، غير أن المؤلف لايكشف بصدد الموضوعات الأخرى عن أية معرفة كبيرة ويسوق فى معظم الحالات قصصاً عادية للغاية استقاها من مصادر متداولة[١٣١] . ورغما من هذا فإنه يمكن العثور لديه حتى فيما يخص موضوعات جغرافية صرفة على تفاصيل غير متوقعة . ويميل أحمد زكى وليدى إلى الاعتقاد بأن المؤلف كانت فى متناول يده جغرافيا رشيد الدين التى لم يعثر عليها حتى الآن** [١٣٢] . غير أنه يجب الاستدراك على هذا بقولنا إن إشارة أحمد أمين رازى إلى كتاب يرتفع إلى العصر المغولى بعنوان « صور الأقاليم » وهى التى استند عليها أحمد زكى وليدى فى استنتاجه هذا ، لايوجد ما يجعلها تقتصر بالضرورة على مؤلف رشيد الدين بالذات . ومهما يكن من شىء فإن مصنف أحمد أمين رازى ذو أهمية كبرى بالنسبة لموضوع دراستنا لأنه يقف دليلا على الحيوية الفائقة التى تمتعت بها نظرية قديمة هى نظرية تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة بما يتبعها من تقسيمات داخلية ، هذا بالرغم من أن وقائع الأحوال أخذت تتعارض مع مضمون هذه النظرية . وللبرهنة على هذا يجب ألا يعزب عن بالنا أن كتاب « هفت إقليم » قد تم تدوينه بعد مائة عام من اكتشاف أمريكا .

بل إنه بعد قرن من هذا عندما وجدت المادة الجديدة طريقها عرضاً إلى الجغرافيين الفرس ، فإنها

(*) فى النص المطبوع يرد كنايت وسورت بدلا من كنبال وسورات ، كما يرد اديسه بدلا من أوريسا (المترجم)

(**) من الأفضل مراجعة ملاحظتنا بصدد كلام المؤلف على مصنف رشيد الدين الجغرافى . (المترجم)

م تترك أثرها لا على مادة المؤلفات أو نمطها ولا على مضمونها العام ؛ وخير مثال لهذا مصنفان صغيران لميرزا أحمد صادق الأصفهانى الآزادانى (توفى حوالى عام ١٠٩١ هـ = ١٦٨٠)[١٣٣] ، وكلاهما معروف فى ترجمة إنجليزية منذ عام ١٨٣٢ يرجع الفضل فى ظهورها إلى أوزلى V. Ouseley[١٣٤] . ويبدو من نسبة الآزادانى أنه ينتمى إلى محلة صغيرة قرب اصفهان[١٣٥] ولكن يلوح أن لديه معرفة مباشرة بالهند[١٣٦] لأن مواضعها الجغرافية تكثر فى مصنفيه لدى مقارنة ذلك بالأقطار الأخرى باستثناء إيران بالطبع . وتنسب إليه مؤلفات أخرى معظمها فى مجال التاريخ نذكر من بينها مؤلفاً كبيراً فى التاريخ العام[١٣٧] يرجع تأليفه إلى حوالى عام ١٠٤٥ هـ = ١٦٣٥[١٣٨] . 583

ومصنفاه الجغرافيان ينتميان إلى طراز الجداول الفلكية ويبدو أنهما يرتبطان ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً . وعنوان أولها وهو « تقويم البلدان »[١٣٩] يذكرنا بأبى الفدا ، وهو يعتمد عليه اعتماداً كبيراً فى حقيقة الأمر[١٤٠] . والكتاب عبارة عن قائمة أبجدية لمختلف البلدان والمدن والأنهار وغير ذلك من الظواهر الجغرافية ، ويصحب هذا توضيحات موجزة مع الإشارة إلى خطوط الطول والعرض مبتدئا حسابها كما هى العادة من جزر الخالدات . أما الكتاب الثانى الذى كما يبدو قد حمل عنوان « تحقيق الاعراب فى أسماء البلاد »[١٤١] فإنه يقدم لنا بالتقريب نفس مادة الكتاب الأول وهدفه على ما يبدو هو ضبط الأسماء الجغرافية الموجودة بالقائمة الأولى ، وتوضيحاته فى هذا الصدد مفصلة بعض الشىء ولو أنه يخلو بطبيعة الحال من أى ذكر لخطوط الطول والعرض . وكما بين أوزلى Ouseley[١٤٢] فإن محمد صادق يضيف أحياناً إلى قائمته أسماء غير موجودة فى مصادر أخرى ، ولو أننا لانفهم ما المقصود من إقحامه لأسماء شخصيات تاريخية من وقت لآخر فى قائمة جغرافية (كاسم مزدك وططش)[١٤٣] .

ومن الملاحظ أن كلا الكتابين يخلو من مقدمة أو أية إشارة إلى المصادر ؛ غير أن مصادرهما واضحة بالنسبة لنا . فإلى جانب أبى الفدا يعتمد المؤلف اعتماداً أساسياً على الجداول الفليكة لنصير الدين طوسى ولألوغ بيك[١٤٤] ومن وقت لآخر على مصنف حمد الله قزوينى[١٤٥] . وقد اعتقد أوزلى عند نشره لترجمة الكتابين أن قائمتى محمد صادق تستطيعان من حيث الأهمية أن تقفا جنباً إلى جنب مع جداول طوسى وألوغ بيك ، غير أن هذا الرأى لم يكتب له القبول ، فقد كتب رينو بعد ذلك بسنوات قليلة يقول بأن هذين الأثرين ليسا على أهمية تذكر من الوجهة الجغرافية[١٤٦] لأن معلومات المؤلف فى مجال الجغرافيا الرياضية غير شاملة كما أن آراءه فى هذا الصدد لاتتمتع بقيمة ذات بال[١٤٧] .

ويمكن أن تحظى ببعض الطرافة بالنسبة لنا ملاحظة صغيرة وردت لديه ، فالموضع الأخير فى قائمة « تحقيق الاعراب » يحتلها لفظ « ينكى دنيا »[١٤٨] (أى الدنيا الجديدة ، يريد بذلك أمريكا) ؛ وهذه التسمية التى ترجع إلى أصل تركى وأيضاً الأسطر التى يعالج فيها الكلام عليها تبين لنا من أين وقع هذا الاسم الجديد إلى هذه القائمة العتيقة فى مجموعها . وهو يعلم تمام العلم عن اكتشاف ذلك الجزء الجديد من 534

العالم المدعو أمريكا ، ولكن متى تم هذا وكم مضى عليه من القرون فإن محمد صادق ليس بمقدوره أن يشبع رغبتنا فى هذا الصدد ولو أنه يعلم أن الأوروبيين أبحروا مراراً إلى تلك الجهات وأن خبر ذلك موجود لدى الأتراك العثمانيين . وعن هؤلاء الأخيرين بالطبع أخذ المؤلف هذا الخبر ، وسنرى فيما يلى من الكتاب أن الجغرافيا لدى الأتراك العثمانيين قد تفوقت بكثير على الجغرافيا عند الفرس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ليس ذلك فحسب بل إنهم تفوقوا فى نواح معينة على الجغرافيين العرب أنفسهم . هذا وقد ظلت الجغرافيا الفارسية حتى بعد عهد محمد صادق مشدودة إلى النظريات القديمة بحيث لم تستطع المعلومات الجديدة التى وجدت طريقها عرضاً إليها أن تخرجها من إطارها البالى . غير أن هذا لم يمنع من ظهور مؤلفات كبيرة فى خلال القرن السابع عشر نفسه ، ولو أن ذلك تم خارج حدود إيران فى مناطق أخرى انتعشت فيها الفارسية أيضاً . ولنقدم لهذا مؤلفاً عاش ببخارى هو محمد بن أمير ولى الذى ألف كتاباً فى التاريخ العام فى ستة أجزاء بعنوان « بحر الأسرار فى (معرفة) مناقب الأخيار » . وقد كلفه بذلك أمير بخارى من أسرة الجنيديين وهو نادر محمد (١٠٥١ هـ — ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٢ — ١٦٤٥) ، وبدأ تأليفه فى عام ١٠٤٤ هـ = ١٦٣٤ . والجزء الأول منه ينقسم إلى أربعة « أركان » ويعالج بإسهاب مسائل الكوزموغرافيا وذلك بحسب الطريقة التقليدية المعروفة لنا جيداً ، وأهم مصادره رشيد الدين وحافظ آبرو[١٤٩] . أما أهميته كمصدر تاريخى فقد انعكست بوضوح كاف فى أبحاث بارتولد وزكى وليدى .

وقد تم اطراح المذهب القديم السائد فى الأدب الجغرافى الفارسى شيئاً فشيئاً خلال القرن التاسع عشر فقط ، وبعض ظواهره تمثل طرافة معينة لدى مقارنتها بما سنقوله عن الأدب العربى فى نفس ذلك العصر*

ولكن حتى فى خلال تلك الفترة يمكن أن نلتقى أحياناً بعدد من الآثار التى تحتل أهمية بالنسبة للأدب الجغرافى لا من وجهة نظر الوقائع التى توردها فحسب بل أحياناً لمحاولتها الأصيلة فى الجمع بين الأنماط المختلفة . وبما أن القول بالقول يذكر فمن الملاحظ أن عدداً كبيراً من أوصاف الرحلات إلى الخارج قد ظهر بالفارسية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين (أى الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى) ؛ وكان اتجاه معظم هذه الرحلات كما كان الحال قديماً إلى الهند ، غير أن عدداً منها ليس بالضئيل اتجه إلى أوروبا بأغراض دبلوماسية أو تجارية ، وبعضها مس روسيا سواء بطريق مباشر أو غير مباشر[١٥٠]. 635

ومما يؤسف له أن جميعها معروف إلى أيامنا هذه فى مخطوطات متفرقة لم تمسها يد البحث إطلاقاً بالرغم من أن جميع الدلائل تشير إلى أن إخضاعها لدراسة خاصة سيعود بفوائد جمة سواء بالنسبة لدراسة الجغرافيا التاريخية للبلدان التى زارها هؤلاء المؤلفون أو بالنسبة لتحليل العصر الذى عاشوا فيه .

وتشهد بداية القرن التاسع عشر نفسه (١٢١٥ هـ — ١٢١٦ هـ = ١٨٠٠ — ١٨١٠) ظهور أثر

(*) مما يؤسف له حقاً أن الأجل لم يفسح للمستعرب الكبير ليتم مصنفه بعرض تاريخ تطور الأدب الجغرافى العربى الحديث والمعاصر ، فكتابه يقف عند الفصل الرابع والعشرين الذى يعالج الكلام على القرن الثامن عشر . (المترجم)

طريف عرف قسم منه فى طبعة حجرية ظهرت ببمباى فى عام ١٨٤٧ ، وهو ينتمى إلى طراز من المؤلفات سنلتقى به من وقت لآخر فيما بعد هو طراز من الجغرافيا الإقليمية المشوبة بوصف للرحلة مع معطيات عن حياة المؤلف وأسرته . وعنوانه « تحفة العالم »(١٥١) قد أفسح المجال لبعض الخلط لما يرتبط به من لعب بالألفاظ ؛ فاللفظ الثانى من العنوان توجد فيه إلى جانب معناه الأصلى إشارة إلى لقب « العَلَم » وكان يحمله وزير نظام حيدر أباد ميرعلم الذى رفع المؤلف مصنفه إليه*.

ومؤلف هذا الكتاب عبد اللطيف الشسترى (أو الششترى) ولد كما تشير النسبة بمدينة ششتر فى عام ١١٧٢ هـ = ١٧٥٨ وينتمى إلى أسرة محلية عريقة ؛ وقد ترحل كثيراً فزار أجزاء من إيران مثل شيراز وكرما نشاه كما زار بغداد أيضاً . وفى عام ١٢٠٢ هـ = ١٧٨٨ أخذ سفينة من ميناء البصرة فنزل بأرض البنغال وأمضى فترة طويلة بالهند ؛ ومما يثبت هذا تاريخ تصنيف الكتاب والشخص الذى رفعه إليه . ويبدأ المصنف بوصف مسهب لمسقط رأس المؤلف ششتر مورداً تفاصيل عديدة عن إنشائها ووصفاً هاماً لنظام الرى بها . وتحظى بنفس الوصف المفصل المدن القريبة منها ومنطقة الأهواز ودزفول والمدائن ؛ ويلى هذا استطراد مسهب يحتوى تراجم لأفراد أسرة نورى سيد التى ينتمى إليها المؤلف نفسه ، وفى القسم المضاف إلى هذا والذى يعالج الكلام على سيرة مؤلف الكتاب يرد الكلام عن تاريخ الهند ووصف لكلكتا والبنغال ولحيدر أباد والدكن . وفى خلال هذا يقدم لنا المؤلف معلومات مفصلة بما فيه الكفاية عن توطيد بريطانيا لأقدامها بالهند وعن الإنجليز أنفسهم كما يعالج الكلام عن أمريكا وبعض دول أوروبا معتمداً فى ذلك على المعلومات التى جمعها أثناء رحلته من أناس مختلفين كان من بينهم بعض الأوروبيين. وهكذا فالكتاب يقترب إلى حد ما من الأوصاف الجغرافية العامة للعالم ، مبرراً بهذا اختيار المؤلف للعنوان الذى أعطاه إياه . ومن المؤكد أن أهمية أقسامه الأخيرة تتركز فيما تقدمه لنا من معلومات عن المؤلف نفسه أكثر مما تقدمه عن الموضوعات التى يطرقها ؛ أما الأقسام الأولى التى تعالج الكلام بصورة خاصة على منطقة إيران الغربية فإنها تحتوى على مادة لابأس بها من مجال الجغرافيا التاريخية لتلك المنطقة .

وفى وقت واحد بالتقريب مع ظهور « تحفة العالم » ظهر بالهند وصف لرحلة إلى أوروبا اكتسب بالتالى رواجاً نسبياً فى الغرب بفضل الترجمات التى عملت له ؛ أما مؤلفه ميرزا أبو طالب خان بن حاجى محمد بيك خان فهو تركى الأصل ولكنه ولد بلكنو بالهند فى سنة ١١٦٥ هـ = ١٧٥٢ واتصل منذ وقت مبكر بالإنجليز وشغل معهم عدة وظائف فى الفترة مابين ١٧٩٥ و١٨٠٢ . ثم صحب أحد هؤلاء وهو الكابتن ريتشاردسون D. Richardson الذى أقام فترة طويلة بالهند فى رحلة إلى أوروبا فزار انجلترا وغيرها من البلاد ورجع إلى وطنه عن طريق القسطنطينية حيث تعرف فيها بفون هامر Hammer ؛ ومن المؤسف أن الأخير لا يذكر عنه شيئاً فى « ذكرياته » (Erinnerungen) باستثناء حكاية

536

(*) لابد وأن المستعرب الكبير قد التبس عليه الأمر ها هنا ، فخلط بين لفظى عالم وعلم . (المترجم)

تافهة[١٥٢] . وعقب رجوعه إلى كلكتا وضع فى عام ١٨٠٣ وصفاً لرحلته بعنوان « مسير طالبى فى بلاد افرنجى » ، طبع بكلكتا فى عام ١٨١٢ وذلك بعد وفاة المؤلف (توفى فى حوالى عام ١٨٠٦) . ويرجع الفضل إلى الإنجليز فى تعريف أوروبا سريعاً بهذه الرحلة ، فقد ظهرت ترجمة إنجليزية لها حوالى عام ١٨١٤ بلندن بقلم استوارت Stewart تلتها ترجمة أخرى مختصرة فى عام ١٨٢٧ بكلكتا بقلم ماكفرلين Macfarlane نقلها إلى الفرنسية منذ عام ١٨١٩ مالو Malo[١٥٣] .

ويقترب المصنف من حيث طرازه من أوصاف الرحلات التركية العديدة المعروفة باسم « سفارتنامه » التى ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وهى أوصاف للسفارات التى بعث بها الباب العالى إلى مختلف الحكومات الأوروبية . ويقدم لنا المؤلف فى مواضع من مصنفه لوحة حية لما رآه من البلاد ولمن قابلهم من الشخصيات ولو أن الوصف لا يخلو فى العادة من بعض السطحية ؛ وكما يحدث مراراً فى مثل هذه الأحوال فإن الكتاب أكثر قيمة لتفهم شخصية المؤلف نفسه مما بالنسبة للموضوعات التى يطرقها ؛ أما اهتمام أوروبا المعاصرة له بمثل هذه الأشياء فأمر مفهوم للجميع .

وأكثر أهمية من تلك الرحلة بل وأوسع مدى من وجهة النظر الجغرافية مع ميول أدبية واضحة وصف لرحلة بعنوان « بستان السياحة » تم تأليفه فى عام ١٢٤٧ هـ — ١٨٣١ — ١٨٣٢ ويوجد فى طبعة حجرية ترجع إلى عام ١٣١٠ هـ — ١٨٩٢ — ١٨٩٣[١٥٤] ؛ وأول من عرف الدوائر العلمية الأوروبية بهذه الرحلة (وذلك تحت عنوان « رياض السياحة ») هو المستشرق الروسى خانيكوف Khanikov وذلك فى خطاب بعث به إلى المستشرق دورن Dorn من نعمتاباد يحمل تاريخ ٤ — ١٦ سبتمبر ١٨٥٦[١٥٥] وكانت موجودة بين يديه مخطوطة تضم القسم الأول وحده . ومؤلفه زين العابدين الشروانى يمثل طرازاً من الناس نلتقى به كثيراً بين الفرس فى جميع العصور ، وهو الباحث عن الحقيقة المجردة الذى يدفعه شوق لا يكبح جماحه ليصير درويشاً متجولا يضرب فى الآفاق . والرجل يمثل أهمية خاصة بالنسبة لنا فى الاتحاد السوفيتى لأنه ولد فى عام ١١٩٤ هـ — ١٧٨٠ بشماخة والحق والده آخذه وهو فى سن الخامسة عندما قرر مغادرة القوقاز سنوات المحنة ليقيم بكربلاء معقل الشيعة . وهناك عاش زين العابدين إلى أن بلغ سن السابعة عشرة يدرس خلال ذلك العلوم الإسلامية المعهودة ؛ ولكن فى تلك السن ساوره الشك حول موضوع دراسته ووقع فريسة لقلق فكرى شديد فبدأ تجواله الذى امتد لسنوات طويلة كان يبحث فى خلالها عن العلم الصحيح والحقيقة . فزار العراق (بغداد) وعاش طويلا بكيلان وزار مسقط رأسه شروان ومر فى طريقه على مناطق عديدة فى القوقاز وآذربيجان ، ثم ضرب صوب الشرق فمر على خراسان فى طريقه إلى أفغانستان ثم إلى الهند فكشمير فبدخشان ، ومن هنالك انتقل إلى تركستان وبلاد ماوراء النهر ومنها اتجه جنوباً صوب الخليج الفارسى ثم زار اليمن والحبشة والحجاز ومصر وسيناء وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ؛ ويلوح أنه زار أيضاً جزر البحر الأبيض المتوسط ومراكش . ورجع عقب هذا إلى

إيران ماراً فى طريقه على أرمينيا وأقام بعض الوقت بطهران وهمدان واصفهان وشيراز وكرمان . واختار فى آخر الأمر مقراً له فى محلة صغيرة على مقربة من اصفهان تسمى قومش وهناك وافاه أجله فى فى الثلاثينيات من القرن الماضى . وهو بالطبع لم يعثر على الحقيقة التى كان يجرى وراءها ، لذا فإن خاتمة قصته التى دونها لسيرة حياته تفيض بالتشاؤم التام ويطغى عليها شعور بالحسرة وخيبة الأمل(١٥٦) ؛ إزاء هذا فلم يتبق له كما يقول هو سوى رغبة واحدة هى تدوين جميع ما مر به خلال خمس وعشرين سنة وإعطاء فكرة عن العدد الهائل من الناس الذين حادثهم فى المسائل التى أقلقت باله(١٥٧) . ويلوح أنه كان مخلصاً فى هذا الشعور ؛ وعلى أية حال فهو لم يتحرج عن التعبير بصراحة عن رأيه فى الفرق الإسلامية المختلفة الذى حدث له وأن التقى بها(١٥٨) . فهو إذن درويش متشكك جعل هدفه قبل كل شىء مقابلة العلماء والمتصوفين الذين كان ينهى محادثته معهم عادة بجدل وخصومة شديدين .

وكتابه بالطبع لا يمثل سرداً متتابعاً للرحلة ، كما أن ميله إلى الصنعة والتدبيق قد خيم على روح القصة خاصة استعماله لعناوين متكلفة مثل « سير » (نزهة) و« كلشن » (بستان الورد) و« بهار » (الربيع) . ويمكن أن نستبين من مادة الكتاب أنه ينقسم إلى أربعة فصول ، أحدها عن الأنبياء وأئمة الشيعة الاثنى عشر ، والثانى عن العلماء والمتصوفين والشعراء ، والثالث عن الطوائف والتعاليم الدينية المختلفة ، والرابع عن المدن التى زارها مع توزيعها بحسب حروف المعجم إلى ثمان وعشرين مجموعة . أما من وجهة النظر الجغرافية فإن المادة الأخيرة التى تتضمن إلى جانب الوصف الجغرافى عرضاً قصيراً لتاريخ كل مدينة فهى ذات أهمية كبرى خاصة وأنه استقى مادته فى كثير من الأحايين من مصادر غير معروفة لنا . وتكتسب روايته أهمية خاصة عندما تعالج الكلام عن تلك المناطق التى تعد بحسب تعبير خانيكوف « أراض مجهولة » Terrae Incognitae مثل كوهستان وزابلستان من جهة وجوف الجزيرة العربية والسودان والحبشة من جهة أخرى(١٥٩) . والمؤلف يتمتع بدرجة عالية من حب الاستطلاع ويخلو من الميل إلى التعصب الدينى على عكس غالبية الدراويش . وهو قد التقى فى طريقه ببعض الرحالة الأوروبيين وسألهم عن بلادهم . ومؤلفنا يقصد بلفظ افرنجى ثلاث مجموعات هم الفرنسيون والنمساويون والإنجليز ؛ وليس من النادر أن نلتقى لديه بآراء سطحية بالية مثال ذلك أنه يرى الروس مهرة كبقية الفرنجة (« مورتــكرى ») ولكنهم يفتقرون تماماً إلى الروح (« جان ندارند »)(١٦٠) . وليس ثمة ما يدعونا إلى التوكيد بصورة خاصة أن كتابه يحفل إلى جانب المادة الجغرافية الخالصة بمعلومات ذات قيمة كبرى عن الأدباء والطوائف الدينية المختلفة بآسيا(١٦١) ؛ وكتاب الشروانى وإن اعتبر وثيقة إنسانية طريفة إلا أنه ينتمى بأجمعه إلى العصور الوسطى للأدب الإسلامى .

538

ويمكن اعتبار الفترة الطويلة التى رقى فيها عرش إيران لمدة تقرب من نصف قرن الشاه ناصر الدين (١٨٤٨ — ١٨٩٦)(١٦٢) بمثابة فاتحة عهد جديد انتعش فيه التأليف الجغرافى بصورة منقطعة النظير ؛ حقاً ان الأنماط القديمة كالرحلة والمعجم والوصف الإقليمى (regional) لم يقل الاهتمام

بها ولكن أسلوب الكتابة قبل كل شيء طرأ عليه ولو بالتدريج تغير جوهرى فقد اطرح النثر المتكلف المشحون بالمحسنات البديعية الذى غلب على القرون السابقة وحلت محله لغة مبسطة ذات طابع عملى سادت بدورها على المجالات الأدبية والعلمية الأخرى وعلى المؤلفات التى قصد بها دوائر أوسع من القراء .

وواحد من أوائل هذه المصنفات التى بشرت بميلاد عهد جديد ندين به إلى قلم رجل من كبار رجالات هذا العصر وهو المؤرخ الأديب الشاعر رضاقلى خان (١٨٠٠ - ١٨٧١) أحد كبار معاونى الشاه ناصر الدين ومن المقربين اله ، وأول مدير لأول معهد عال بإيران « دار الفنون »[١٦٣] . وقد بعث به الشاه فى عام ١٨٥١ بسفارة إلى خيوه لتسوية بعض الخلافات الناشبة بين إيران وخانات خيوه فخلف لنا وصفاً لرحلته على هيئة يوميات تحفل بالكثير من الاستطرادات . وقد نشر الأصل والترجمة الفرنسية المستشرق شيفير Schefer وبهذا دخل الكتاب منذ السبعينات من القرن الماضى فى مجال تدريس اللغة الفارسية بالقارة الأوروبية .

ولاتقتصر مادة الكتاب على خيوه وحدها لأن رضاقلى خان يقدم إلى جانب هذا وصفاً عاماً لطبرستان ومازندران ، كما يصف فى القسم الأخير من كتابه بخارى وفرغانه وتركستان الصينية وهرات ومرو . ولكن خيوه تحتل بالطبع مركز الصدارة لديه فهو يتكلم عن المدينة والمقاطعة على السواء بمحالها والشخصيات الكبرى التى أقامت بها ، كما يولى عناية خاصة لتاريخ خانات خيوه بالذات ، ولكنه ليس أقل اهتماماً بعادات أهلها المعاصرين بل وبكل ما هو جدير بالاهتمام فيها ؛ وله فى هذا الصدد محادثات طويلة | مع الخان فى مسائل مختلفة تمس التاريخ الإسلامى . وفى الخاتمة يدون المؤلف بعض الحوادث التى تمس تاريخ العلاقات بين خيوه وإيران وجرت بعد حدوث الرحلة . 539

والكتاب إلى جانب أهميته بالنسبة لسيرة حياة مؤلفه يعتبر وثيقة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ خانات خيوه استقى منه المؤرخون المتأخرون وبالذات تلميذ رضاقلى خان المدعو محمد حسن خان الذى سيمر بنا الكلام عليه بعد لحظة وجيزة . وفضلا عن هذا فهو لا يقل قيمة فيما يتعلق بمعطياته التاريخية والجغرافية والأثرية ، كما أنه يساعد كثيراً على تفهم أخلاق وعادات تلك الفترة التاريخية بأجمعها ولا يقتصر على ما لاحظه المؤلف أثناء الرحلة فحسب . وفيه يرسم المؤلف لوحات واضحة للحياة المحلية بل ويعطى أوصافاً جميلة لمناظر الطبيعة[١٦٤] ؛ ويتخلل القصة جميعها أمانة شديدة فى السرد وميل إلى عدم التحيز عند إصدار حكمه ، أضف إلى هذا قوة ملاحظته النافذة . أما أسلوبه فبسيط وطبيعى ولكنه يتصف بالرشاقة ولايخلو أحياناً من اتجاه واضح نحو القديم ، ويمكن أن نتبين إعجابه بهذا القديم فى العدد الماثل من الاقتباسات الشعرية التى تنتشر فى كتابه والتى استقى معظمها من آثار سعدى أو من شعره هو[١٦٥] . أما من حيث المنهج فإن الكتاب يمثل أنموذجاً جيداً لطراز محبب إلى الجمهور هدفه المزج بين الجغرافيا الإقليمية التى تستند على قاعدة تاريخية وبين وصف الرحلة الذى تتخلله ترجمة شخصية لحياة المؤلف .

ومن العسير القول إلى أية درجة يمكن أن تنسب إلى الشاه ناصر الدين شخصيا تلك المؤلفات الجغرافية المرتبطة عادة باسمه[١٦٦] ، هذا ولو أن اهتمامه بالجغرافيا ، ولو فى مفهومها البدائى ، ليس موضعاً للشك . ويبدو هذا قبل كل شىء فى رحلاته العديدة التى قام بها فى إيران نفسها حيث زار مازندران[١٦٧] وخوزستان وكربلاء وخراسان ، كما ينعكس أيضاً فى رحلاته الثلاثة إلى أوروبا (١٨٧٣ ، ١٨٧٨[١٦٨] ، ١٨٨٩)[١٦٩] وهو شىء لم يكن ليفكر فيه أحد من حكام الشرق فى العهود السابقة . وكل رحلة من هذه الرحلات بالتقريب لها وصفها الخاص بها ، وقد كان وصف الرحلة الأولى أول كتاب يخرج من المطبعة الأميرية الجديدة وذلك فى عام ١٢٩١ هـ = ١٨٧٤[١٧٠] ؛ وجميعها طبع أكثر من مرة بالحجر بإيران وتحمل اسم الشاه كمؤلف كما أن عدداً منها قد ترجم إلى اللغات الأوروبية البعض فى ترجمات كاملة والبعض الآخر على شكل نصوص مختارة . ومن المعروف بوجه التحديد أن بعضها « حررته » أقلام شخصيات أخرى مثل رحلته إلى كربلاء التى ينسب تدوينها إلى محمد حسن خان أحد معاونى الشاه المقربين إليه والذى صحبه فى أكثر من رحلة . وقد لعبت هذه الشخصية دوراً ليس بالضئيل فى تطور التأليف الجغرافى فى العصر الحديث بإيران وسنقف للكلام عليه بعد لحظة وجيزة ، ومن الممكن القول بأنه لعب دوراً مشابهاً فى تحضير مسودات الأوصاف الأخرى لرحلات الشاه أو استعان فى هذا بمعاونيه العديدين.

ومهما يكن من شىء فإن أوصاف رحلات الشاه ناصر الدين من الظواهر المهمة فى الأدب الفارسى للقرن التاسع عشر ، وهى من وجهة النظر هذه قد استحقت تقدير الدوائر العلمية الأوروبية منذ عهد طويل . أما بالنسبة لنا فيهمنا قبل كل شىء رحلاته داخل إيران التى بدأت بها هذه السلسلة ؛ ويغلب على أسلوبها الرتابة والجفاف بعض الشىء ولكنها تقدم كمية هائلة من مختلف المعلومات فى محيط الاثنوغرافيا والحياة الاجتماعية والآثار والجغرافيا الطبيعية مصحوبة بملاحظات المؤلف الشخصية . وأغلب عنايته موجه بالطبع إلى مجالى الجغرافيا والطبوغرافيا فهو يبين بالتفصيل الطرق والمسافات بين المنازل وأسماء القرى والمحال والجبال والأنهار ، وكثيراً ما ترد لديه معلومات عن مواضع كان بلوغها مستحيلا على أى شخص بخلاف الزائر العظيم[١٧١] . ويتفق المتخصصون فى الدراسات الإيرانية بالإجماع على أن أسلوب هذه الأوصاف يتمتع بميزات عديدة فهى مكتوبة بلغة منتقاة تتصف بالبساطة والوضوح وتطرح المحسنات البديعة التى كانت ما تزال غالبة فى ذلك الوقت على لغة أدباء البلاط[١٧٢] ، كما أنها تخلو من آثار الصنعة فلا توجد بها التشبيهات والاستعارات بل يحس من خلالها ميل واضح إلى التعابير المتداولة وإلى الوضوح المطلق بحيث لا تفسح مجالا للغموض أو الإبهام[١٧٣] وجميع هذه الأوصاف مكتوبة باللغة المتداولة فى الحياة اليومية[١٧٤] وبهذا فقد ساهمت بنصيب وافر فى تبسيط النثر الفارسى فى القرن التاسع عشر[١٧٥] .

وجميع ما ذكرناه فى هذا الصدد يصدق بدوره على يوميات الشاه المتعلقة برحلاته إلى القارة الأوروبية . وقد كانت هذه الرحلات شيئاً جديداً بالنسبة للفرس فى ما يتعلق بمضمونها ، فدورها فى تعريفهم بأوروبا

كان كبيراً للغاية ، أما بالنسبة لنا فإنها تنضم إلى سلسلة طريفة أعنى رحلات ملوك الشرق إلى أوروبا التى سنلتقى بعدد كبير منها عندما نعالج الكلام على الأدب العربى فى هذا العصر . وأهميتها بالنسبة لنا ليست بالطبع فى وصفها للدول التى تتكلم عنها بقدر ما فى تصويرها للانطباعات التى حدثت فى نفسية مؤلفيها ؛ وبهذا فإن اليوميات تقدم لنا مادة حافلة وصلت إلى أيدى غير المتخصصين بفضل الترجمات المختلفة التى عملت لها باللغات الأوروبية[١٧٦] .

541 وقد لعب دوراً ليس أقل من هذا إن لم يكن أكبر فى تطوير الأدب الجغرافى الفارسى محمد حسن خان (توفى فى ٢١ مارس ١٨٩٦)[١٧٧] ، رغماً من أن الشك أحاط أحياناً بحقيقة تأليفه للمصنفات التى تحمل اسمه[١٧٨] . وهو قد شغل مناصب هامة فى الدولة وحمل ألقاباً مشرفة مثل « صنيع الدولة » و « اعتماد السلطنة » ، كما كان بلاشك القوة الدافعة المحركة وراء عدد من المؤلفين والمصنفات بل إن اسمه قد ظهر تحت عناوين مؤلفات ذات طابع جماعى . هذا وقد ترك لنا عالم الإيرانيات الروسى جوكوفسكى Jukovski الذى عرفه جيداً تحليلا لنشاطه الأدبى لا يخرج منه بصفقة المغبون ، أما مكانته الأدبية فلا يرقى إليها بالطبع أدنى شك .

كان محمد حسن خان بمثابة أول خريج لأعلى معهد بإيران وهو « دار الفنون » الذى تم افتتاحه فى عام ١٨٥٢ والذى التحق به محمد خان منذ السنة الأولى ؛ وقد لعب هذا المعهد دوراً كبيراً فى تطور الثقافة الإيرانية الحديثة وارتبط اسمه بنشاط أول مدير له وهو رضاقلى خان . ثم أمضى مؤلفنا بعد هذا ثلاثة أعوام ونصف يعمل بسفارة إيران بفرنسا[١٧٩] . وعقب رجوعه إلى وطنه صحب الشاه فى رحلته إلى خراسان وفى زيارته الأولى إلى أوروبا[١٨٠] ؛ وكما ذكرنا فى حينه فهو الذى يقف وراء تدوين وصف رحلة الشاه إلى كربلاء[١٨١]. وفى مؤلفاته العديدة تتجه عنايته الكبرى إلى المسائل المتعلقة بالجغرافيا التاريخية ؛ وقد كان لمعرفته باللغات الأجنبية واطلاعه على بعض المؤلفات الأوروبية[١٨٢] أن يسر عليه ذلك مهمة تبسيط الأفكار الجغرافية لبنى وطنه من ناحية ووضع دراسات خاصة بجغرافيا بلاده من ناحية أخرى . ومما تجدر الإشارة إليه مثلا أنه قد نشر فى عام ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ كتاباً فى تاريخ اكتشاف أمريكا[١٨٣] ، وفى عام ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ ـــ ١٩٠٠ كتاباً فى وصف رحلات استانلى Stanley فى جوف أفريقيا[١٨٤] ، كما أخذ طرفاً فى ترجمة حكاية أسفار الكابتن هتراس Le Capitaine Hatteras إلى القطب الشمالى[١٨٥] وملحمة أسفار روبنسون كروزو Robinson Crousoe[١٨٦]. وترتبط باسمه 542 أيضاً رسالة تاريخية طوبوغرافية عن جبال شروين (سوادكوه) بمازندران (« التدوين فى جبال شروين ») ظهرت فى طبعة حجرية فى عام ١٣١١ هـ = ١٨٩٣ ـــ ١٨٩٤)[١٨٧] . أما مؤلفاته الأكثر جدية فإنها كثيراً ما تعتمد على مواد لم تصل إلى متناول أيدى العلماء الأوروبيين[١٨٨] ، وهو يستعمل عدداً من الوثائق الأصلية[١٨٩] التى استطاع أن يصل إليها بفضل مركزه الحكومى . ومما يرفع من قيمة مؤلفاته أن محمد حسن خان يتمتع بأسلوب سهل للغاية ،

ولو أن آثاره المختلفة ، سواء العلمية منها أوتلك التى عملها من أجل جمهرة القراء ، لاتعكس لغة الحياة اليومية بالدرجة التى نلتقى بها فى يوميات الشاه[١٩٠] .

ومن بين مؤلفاته التى تهمنا والتى كانت لها قيمة كبيرة بالنسبة لعصره ومازالت محتفظة إلى حدما ببعض هذه القيمة إلى أيامنا هذه ، يجب أن تفرد مكانة خاصة لاثنين منها كلاهما يتمم سلسلة أنماط قد ة معروفة لنا جيدا : أحدهما وهو « مرآة البلدان »[١٩١] عبارة عن معجم جغرافى ضخم يقوم أساساً على فكرة واسعة و توزع المادة فيه وفقاً لحروف المعجم ؛ وهدف هذا المعجم ليس تقديم معلومات جغرافية فحسب بل وتاريخية أيضاً عن أهم الولايات والمدن والقرى الوارد ذكرها فيه . غير أن المؤلف لم يستطع تحقيق هذا المشروع الضخم ، وكأنما طغت المادة فانفجرت من الإطار الذى أحاطه بها فتوقف نشر الكتاب فى أواخر السبعينيات من القرن الماضى عند الجزء الرابع[١٩٢] ولما يتجاوز الحروف الخمسة الأولى من الأبجدية[١٩٣] . ولعل من العوامل التى تسببت فى تعطيل سير الكتاب أن المؤلف عند بلوغه إلى مدينة « تهران » فى الجزء الثانى من معجمه رأى من الضرورى أن يفرد المجال للكلام على تاريخ إيران فى السنوات المائة الأخيرة خاصة فى عهد ناصر الدين فشغل بذلك القسم الأساسى من الجزئين الثانى والثالث ، هذا إذا غضضنا النظر عن التقويم الذى ذيل به هذين الجزئين وأيضاً عن قائمة بحوادث الأعوام الأخيرة . وكمرشد عام فإن الكتاب فيما نشر منه يقف على مستو رفيع من حيث القيمة العملية خاصة فيما يتعلق بإيران ولو أن المؤلف يعتمد فى ذلك اعتماداً أساسياً على المادة التقليدية المعروفة لنا ، سواء استقاها من مصادرها العربية أو الفارسية . وهو فى حالات معينة يوسع من نطاق مادته بإضافة ملاحظاته الشخصية وبعض المعطيات المختلفة عن الوضع فى زمانه ؛ ولايخلو من الطرافة فيما يتصل بالطابع العام للكتاب أن نلاحظ أن المؤلف يدخل فى إضافاته | للجزء الرابع معلومات عن الدول الأوروبية والأمريكية موزعة بدورها وفقاً للطريقة الأبجدية . وهو يذكرنا فى هذا بما فعله أحد الناشرين العرب المعاصرين عندما أضاف ذيلا مشابهاً إلى طبعته التى أصدرها لمعجم ياقوت . 548

وفى منتصف السنوات الثمانينات[١٩٤] وذلك عقب الرحلة التى قام بها الشاه الى خراسان نشر محمد حسن خان أثراً ضخماً فى ثلاثة أجزاء بعنوان « مطلع الشمس »[١٩٥] ، وهو « مصنف أساسى » كما وصفه جوكوفسكى[١٩٦] ويمكن اعتباره إلى حدما تتمة لمعجمه الجغرافى «مرآة البلدان» . وبما أنه من المفروض أن تشغل خراسان مكاناً هاماً فى الأحرف الأولى للأبجدية فقد أفرد لها المؤلف جانباً خاصاً اعتمد فيه على رحلة الشاه إلى مزار مشهد[١٩٧] ، ونتيجة لهذا نجد أمامنا أثراً من طراز الجغرافيا الإقليمية يرتبط من ناحية بوصف الرحلة ومن ناحية أخرى بنمط المعاجم ويحوى وصفاً مفصلا لخراسان وتاريخها مع الاهتمام بصورة خاصة بمدينة مشهد التى تشغل الجزء الثانى بتمامه . أما المادة فيعالجها بالطريقة المعروفة لنا جيداً من المصنفات العربية المشابهة ، فيتلو وصف وتاريخ كل موضع جغرافى الكلام على مشاهير رجاله ،

وأحياناً قد يفسح هذا المجال لاستطرادات مطولة تتحول إلى مختارات أدبية إذا ما تعلق الأمر بشاعر ما[١٩٨].
ولقد أصبح هذا الكتاب مصدراً من الدرجة الأولى عن خراسان فى القرن التاسع عشر وذلك لاقتصاره على موضوع محدود عند مقارنته « بمرآة البلدان » ولإيراده لعدد عن الانطباعات المباشرة والحية من رحلة الشاه القريبة الأمد ، أضف إلى هذا أنه يقدم معلومات عن مواضع ليس فى مقدور الرحالة بلوغها ، وينعكس تأثير المنهج الجديد على المؤلف فى تزويده كتابه برسوم وتخطيطات للآثار التى يتحدث عنها كما نبصر من مثال مشهد ؛ وهو يصف فى الجزء الأول الطريق إلى مشهد ماراً بدماوند وفيروزكوه وبسطام وبجنرد Budjnurd وكوشان مع ذكر جميع المنازل الواقعة بينها . أما الجزء الثانى فكرس لوصف مفصل للغاية لمدينة مشهد وآثارها وتاريخها ابتداء من ٤٢٨ هـ = ١٠٣٦ إلى ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٥ ومشاهير رجالها وقائمة بأسماء الكتب الموجودة بمكتبتها ، ويشمل هذا الجزء إلى جانب ذلك على جميع سيرة حياة الشاه طهماسب التى كتبها بنفسه والتى يسوقها إلى عام ٩٦٩ هـ = ١٥٦١ . أما الجزء الثالث فيصف طريق عودة الشاه وهو طريق الحج المعهود الذى يمر بنيشابور وسبزور وشاهرود ودامغان وسمنان ؛ والمؤلف يترك لنا وصفاً مفصلاً لجميع الأماكن المأهولة وسير الشخصيات التى ارتبطت بها[١٩٩].
ورغماً عن جميع العيوب التى ترتبط بهذا الكتاب من جهة تبويبه فإنه لا يمكننا إلا أن نوافق جوكوفسكى فى تقييمه للمادة التى يحويها .

544

ولاشك أن نمو الاهتمام بالأدب الجغرافى فى إيران خلال هذه السنوات العشر يرجع إلى حد كبير إلى تأثير مؤلفات محمد حسن خان . وقد اشتد الطلب بصورة ملحة على المؤلفات الجغرافية من كل نوع بما فى ذلك التقاويم ، ففى عام ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧ — ١٨٨٨ نشر محمد تقى خان تحت عنوان « كنج دانش » شيئاً أشبه بدائرة معارف للأسماء الجغرافية الفارسية فى خمسمائة وأربع وسبعين صفحة ، ويمكن أن نحس بعض تأثير المذهب التجديدى من أن المؤلف قد ذيل كتابه بقائمة تشمل أسماء المؤلفين الذين رجع إليهم[٢٠٠].

وبعد عشرة أعوام من تأليف وصف خراسان لمحمد خان ظهر بإيران ثانى كتاب فى الجغرافيا الإقليمية لا يقل قيمة عن الكتاب السابق له . وهو مخصص لوصف ولاية فارس بعنوان « فارسنامه ناصرى » لحاجى ميرزا حسين فسائى . وقد وصف براون Browne هذا الأثر الضخم الذى يقع فى أكثر من سبعمائة صفحة[٢٠١] بقوله إنه « وصف مفصل وهام »[٢٠٢] . وهو ينقسم إلى قسمين ، الأول منهما يعالج فى جوهره التاريخ والثانى الجغرافيا . ويمكن أخذ فكرة عن أسلوبه فى العرض من الأوصاف المعهودة للمدن والولايات التى التقينا بها ، فيرد فيه فى البداية معلومات من محيط الجغرافيا العامة ويعقب ذلك ملاحظات مدخلية يليها وصف مفصل لمدينة شيراز يكاد يحظى بالنصيب الأوفر من الكتاب ؛ وبعد الوصف يترجم لعدد من علمائها وكتابها وشعرائها و« الأعيان » عامة ؛ وهو يطبق نفس هذا المنهج فى كلامه على مدن الولاية وأقسامها الأخرى . وإذا صرفنا النظر عن المظهر العام للكتب المطبوعة التى

ظهرت بإيران في ذلك العهد والتي خرجت من مطابع حجرية فإن هذا الكتاب يبدو عليه بوضوح تأثير المنهج الأوروبي ، فهو مزود بعدد كبير من الرسومات ولو أنها في الحقيقة بدائية بعض الشيء ومزود بفهارس مفصلة ومتنوعة للغاية . وقد ذيل الكتاب بخارطة فارسية كبيرة تبين النقاط المأهولة ومجارى المياه ، وقد قدرها تقديراً كبيراً لوسترانج Le Strange واقتنع أثناء دراسته « لفارسنامه » لابن البلخي بأن مجهود شيرازي يعد مجهوداً قيما ولا يقتصر على دراسة الأحوال المعاصرة بالولاية بل يعاون أيضاً في تحديد وتصحيح المواضع الجغرافية الواردة « بفارسنامه » ، سواء الموجودة حالياً أو التي اختفت بمرور الأيام وكر العصور[٢٠٣] . والكتاب يحدث أثراً قوياً بالنسبة لما يحفل به من مادة تاريخية ، وقد لاحظ المستشرق براون أكثر من مرة أنه يحتفظ بمعطيات هامة عن تاريخ المظفرية بكرمان[٢٠٤] .

545 من كل هذه الأمثلة يتضح لنا على وجه التحديد كيف أن الأدب الجغرافي لإيران الحديثة رغما من اتباعه للأنماط القديمة المعهودة في الأدب الجغرافي العربي قد حفظ لنا مادة قيمة تكمل بعض نواحي النقص الموجودة في الأخير ، بل إنه أسهم من ناحية أخرى بعض الشيء في استكمال المناهج التي سار عليها الأدب الجغرافي العربي . ولم يلبث أن أرغمته قوانين التطور التي أرغمت الأدب العربي كذلك على اطراح هذه التقاليد القديمة وإفساح الطريق لدخول المنهج الأوروبي الحديث ، ويمكن ملاحظة بداية هذا التغير في بعض مؤلفات القرن التاسع عشر ولكنه ما لبث أن غلب نهائياً في القرن العشرين . ولعبت دوراً هاماً في هذا المجال المعاهد الدراسية المختلفة التي احتاجت إلى الكتب الدراسية لمناهجها الحديثة ، وما مثال « دار الفنون » ببعيد عن أذهاننا ، وقد خرجت من أقلام المدرسين مؤلفات أساسية لعبت دوراً هاماً في دراسة إيران لا يقل عن دور المؤلفات الأوروبية المماثلة . ويمكن لإعطاء فكرة عن هذا الاقتصار على مثال واحد ، فعندما بدأ أحد مدرسي « دار المعلمين العالي » وهو مسعود كيهان ينشر في عام ١٣١١ هـ = ١٩٣٣ مؤلفه الكبير « جغرافياى مفصل إيران »[٢٠٥] تبين لأول وهلة أن الأنموذج الذي سار عليه لم يكن تلك المؤلفات المرتبطة بالمذهب العربي القديم بل المؤلفات الأوروبية الحديثة . فأجزاء الكتاب الثلاثة التي يتجاوز عدد صفحاتها الخمسمائة تعرض لنا في تسلسل منطقي مكتمل الجغرافيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية لإيران ، وجميعها مزود بعدد هائل من الرسوم والتخطيطات والخارطات والجداول الاقتصادية . وإذا كانت رسومها لا ترتفع إلى مستوى المؤلفات الأوروبية من نفس النوع من حيث القيمة الفنية فإن غناها بالتفاصيل وطريقة تبويبها ووضوح عناوينها لا يقل في شيء عن مستوى أرفع المداخل والكتب المنهجية الموجودة باللغات الأوروبية .

وبالكلام على هذا المصنف الأخير نختتم الحديث عن الأدب الجغرافي الفارسي في القرون الأخيرة ، وقد كانت أهمية هذا الأدب بالنسبة لنا أهمية جانبية (auxiliary) فقد مكننا من إلقاء ضوء على جوانبه التي وقعت تحت تأثير المذهب العربي ، ولم يكن هدفنا بالطبع تقديم قائمة مكتملة بأسماء المؤلفات

الفارسية فى هذا الميدان إذ من الضرورى ابتداء من القرن الخامس عشر الاكتفاء بالإشارة إلى بعض نماذجه الهامة فحسب : وإذا حدث أن لوحظ فى وسطها بعض الفجوات فلعل مرد هذا من ناحية إلى أنه لايوجد بين أيدينا الآن بحث جامع فى هذا الصدد أو حتى عرض تخطيطى عام مثل الذى عمله بالنسبة للأدب التركى المستشرق الألمانى تيشنر Taeschner . وبالإضافة إلى هذا فإن العصر الحديث للأدب الجغرافى الفارسى يحتاج إلى بحث منهجى قائم بذاته لايمثل بالنسبة لنا أهمية جوهرية ويجب أن يعمل فيه حساب لدراسة تأثير العامل الجغرافى فى مؤلفات أدبية صرفة مثل « سياستنامة ابراهيم بيك » (فى ثلاثة أجزاء ظهرت فى عام ١٩٠٥ و١٩٠٩)* ، وهى قطعة فكاهية (Satire) يسخر فيها المؤلف من النظم الإدارية والأوضاع الاجتماعية السائدة بإيران وذلك على | لسان مواطن إيرانى نشأ بمصر وقام بزيارة لإيران ؛ وتدور وقائع القصة الأساسية بمصر . ومؤلفها زين العابدين المراغى توفى عام ١٩١٦ وقد صاغ مؤلفه فى أسلوب سهل قوى وهو يعتبر من أوائل الكتب فى الأدب الفارسى المعاصر المشبعة بروح الثورة على التقاليد والأوضاع . والكتاب موجود فى ترجمة ألمانية غير كاملة ، ويمكن إجراء مقارنة طريفة بينه وبين المصنفات الأدبية المشابهة له فى الأدبين الأوروبى والعربى من طراز المذكرات والمقامات والأدب التى تستند على قاعدة جغرافية(٢٠٦) . غير أن فحص دور أثر الأدب الجغرافى على المؤلفات الأدبية من هذا الطراز يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها يقوم بها أحد المتخصصين فى الدراسات الإيرانية .

546

* The Persian text was printed in three volumes, the first at Cairo without date, the second ☆ at Calcutta in 1321/1905, though Publication was apparently delayed until 1907; the third at Constantinople in 1327/1909. The name of the author appears only on the title page of Vol. III. A german version of the first volume by Dr. Walter Schulz was Published at Leipzig in 1903 with the title Zustände im heutigen Persien wie sie das Reisebuch Ibrahim Begs enthüllt." (Browne, A Literary History of Persia, IV, p. 469-468). (المترجم)

حواشی الفصل التاسع عشر

(١) Bartold, Khafizi Abru, p. 1—28—Bartold, ZVO, XVIII, p. 0138 — 0144 — Bartold, Turkestan, p. 56—57 (= Barthold, Turkestan, p. 55 — 56) — Barthold, Hafizi Abru, p. 225 — 226 — Bartold, Iran, p. 81 — 83— Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 55 — 60 (Geography — p. 56, note 1) — Romaskevich, MITT, I, p. 56—57 — Volin, Orda, II, p. 104 — 105 — Browne, Literary History, III, p. 424—426 -

(٢) Barthold, Hafizi Abru, p. 225 (cf. Bartold, Khafizi Abru, p. 2, note 1; krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 55.) -

(٣) Barthold, Hafizi Abru, p. 225 -

(٤) Bartold, Iran, p. 82 -

(٥) Bartold, Khafizi Abru, p. 3, 24 — Bartold, ZVO, XVIII, p. 0138 -

(٦) Bartold, Iran, p. 82 -

(٧) Miller, V, p. 112 -

(٨) Bartold, Khafizi Abru, p. 3 -

(٩) شرحه ، ص ٣ – ٤

(١٠) شرحه

(١١) Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 56 -

(١٢) Validi, GZ, XL, p. 366, note 1 -

(١٣) Romaskevich, MITT, I, p .57 -

(١٤) شرحه ، ص ٥٦

(١٥) Bartold, Iran, p. 82 -

(١٦) Bartold, Khafizi Abru, p. 2—3 -

(١٧) شرحه

(١٨) شرحه ، ص ٤ – ١١

(١٩) شرحه ، ص ١٢ – ٢٤

(٢٠) شرحه ، ص ١٣

(٢١) Miller, V, p. 111-112, 122-123, 178 -

(٢٢) شرحه Beiheft, tabl. 72,1 and 82,1; legends on them : Ibid, V, p. 122-123

(٢٣) شرحه ، ص ١٧٨

(٢٤) فرسه Beiheft, Tabl. 72, 2-3

(٢٥) – Bartold, Khafizi Abru, p. 13

(٢٦) – Barthold, Hafizi Abru, p. 226

(٢٧) فرسه

(٢٨) – Romaskovich, MITT, I, 57

(٢٩) فرسه

(٣٠) – Reinaud, Introduction, p. CLXII — CLXIII, CDXXXII — CDXXXIV — Quatremère, Notices et Extraits XIV, p. 308-341 (text), 387-426 (transl.).

(٣١) – Rehatsek, p. 75-83 — Yule — Cordier, Cathay, IV2, p. 271-289 — Hennig, IV, p. 23-28

(٣٢) – Bartold, Khafizi Abru, p. 26-27 — Barthold, EI, I, p. 68

(٣٣) – Schefer, Notice, p. 26-28 — Browne, Literary History, III, p. 397

(٣٤) – Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 308 (text), 287 (transl.)

(٣٥) – Browne' Literary History, III, p. 397

(٣٦) فرسه

(٣٧) – Schefer, Notice, p. 27-28

(٣٨) فرسه ، ص ٢٧

(٣٩) – Reinaud, Introduction, p. CLXII — CLXIII — Quatrémère, Notice et extraits, XLV, p. 1-13 — Bartold, Abd al-Razzak, p. 67-68 — Bartold, Iran, p. 83 — Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 62-65 — Romaskevich, MITT, I, p. 59-60 — Volin, Orda, II, p. 190 — Schefer, Notice, p. 26-28 — Browne, Literary History, III, p. 389-390, 428-430

(٤٠) – Brockelmann, GAL, II, p. 204, No. 1; SBII, p. 280-281; cf.: Macdonald, Abd al-Razzak, p. 65

(٤١) – Krymski, Istoria Persii, III, 1, p. 60

(٤٢) – Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 6

(٤٣) فرسه ، ص ٦

(٤٤) فرسه ، ص ٧

(٤٥) – Krymski, Istoria Persii, p. 61 – Browne, Literary History, III, p. 429

(٤٦) – I. I. Sreznevski, Khojenie Afanasia Nikitina, p. 254, note 73

(٤٧) – Bartold, Khafizi Abru, p. 26 — Barthold, Abd al-Razzak, p. 68 — Minorsky, Les études, p. 287

(٤٨) – Barlold, Iran, p. 83

(٤٩) – Volin, Orda, II, p. 190

(٥٠) – Ferrand, Relations, II, p. 473-474 — Browne, Lilerary History, III, p. 397-398

(٥١) – Reinaud, Introduction, p. CLXIII, note 3

(٥٢) – Browne, Lilerary History, III, p. 397

(٥٣) – I. I. Sreznevski, Khojenie Afanasia Nikitina, p. 254, note 73

(٥٤) شرحه ، ص ٢٨١

(٥٥) - Quatremère, Notices et extraits, XIV, p. 10, 11-13 — Krymskii, Istoria Persii, III, 1, p. 64 — Babinger, GOW, p. 293-294

(٥٦) – Babinger, GOW, p. 293-294

(٥٧) اسماعيل عاصم چلبى زاده ، عجائب – Deny, J A, CCIV, p. 378 — Babinger, GOW, p. 404

(٥٨) – Fleischer, Chatai-name — Zenker, Das chin. Reich — Schefer, Khilay-Nameh — Schefer, Notice, p. 29-30 — Ali Akbar, Khitai, p. 305

(٥٩) – Kahle, Khitayname, p. 94

(٦٠) شرحه ، ص ١٠١

(٦١) شرحه ، ص ٩٢ – Taeschner, GLO, p. 40, note 3

(٦٢) حاجى خليفة ، الجزء الرابع ، ص ٥٠١ – ٥٠٢ ، رقم ٩٣٦٠ – Kahle, Khitayname, p. 59, note 2

(٦٣) – Fleischer, Chatai-name, p. 216 — Kahle, Khitayname, p. 95

(٦٤) – Brockelmann, GAL, II, p. 234-235; SB II, p. 329-330

(٦٥) حاجى خليفة ، الجزء الثانى ص ١٢٧ ، رقم ٢٢٠٩

(٦٦) – Babinger, GOW, p. 29, note 1

(٦٧) – Kahle, Columbuskarte, p. 5

(٦٨) – Fleischer, Chatai-name, p. 216 – Schefer, Khitay-Name, p. 37-38

(٦٩) – Fleischer, Chatai-name, p. 214-215 — Kahle, Khitayname, p. 92

(٧٠) – Fleischer, Chatai-name, p. 220-225

(٧١) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 37 – Kahle, Khitayname, p. 92

(٧٢) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 34-35

(٧٣) – Kahle, Khitayname, p. 93-94

(٧٤) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 41

(٧٥) راجع : Schefer, Notice, p. 30

(٧٦) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 37

(٧٧) – Kahle, Khitayname, p. 93

(٧٨) نفسه ، ص ١٠٠ ، رقم ١

(٧٩) المخطوطات الأخرى الموجودة بكيل Kiel ترتبط بالأول ، راجع :
Schefer, Khitay-Nameh, p. 92, note 1 ; 100

(٨٠) – Kahle, Khitayname, p. 94-95

(٨١) – Fleischer, Chatai-name, p. 215

(٨٢) نفسه ، ص ٢١٨ – ٢١٩

(٨٣) نفسه ، ص ٢١٧

(٨٤) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 39
قارن : Kahle, Khitayname, p. 96

(٨٥) – Schefer, Khitay-Nameh; p. 39-40

(٨٦) نفسه ، ص ٣٤، قارن : Fleischer, Chatai-Name, p. 215

(٨٧) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 40

(٨٨) نفسه ، ص ٤١

(٨٩) – Fleischer, Chatai-name, p. 217

(٩٠) – Schefer, Khitay-Nameh, p. 36-37

(٩١) – Fleischer, Chatai-name, p. 217

(٩٢) – Zenker, Das chin. Reich, p. 785

(٩٣) – Kahle, Khitayname, p. 96

(٩٤) نفسه ، ص ٩٧

(٩٥) نفسه

(٩٦) نفسه ، ص ٩٧ – ٩٨

(٩٧) – Schefer, Notice, p. 30

(٩٨) – Kahle, Khitayname, p. 99
قارن : Barthold, EI, II, p. 750

(٩٩) – Schefer, Notice, p. 29

(١٠٠) – Kahle, Khitayname, p. 106

(١٠١) نفسه ، ص ١٠٩

(١٠٢) – Reinanud, Introduction, p. CLXII – CLXIX — Beveridge, p. 89-90 — Carra de Vaux, Les penseurs, I, p. 318-330 — Krymski, Istoria persii, III, 1, p. 186 — 192 — Blochmann and Jarrett.

(١٠٣) – Horn, p. 215

(١٠٤) – Carra de Vaux, Les penseurs, I, p. 330

(١٠٥) – Reinaud, Introduction, p. CLXVII – CLXIX

(١٠٦) – Ferrand, Relations, II, p. 542-555

(١٠٧) – Blochmann and Jarrett, III, p. 46-105

(١٠٨) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 183

(١٠٩) – Blochmann and Jarrett, III, p. 20,49 - Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 140, note 3

(١١٠) – Blochmann and Jarrett, III, p. V — VII

(١١١) شرحه ، ص ٥

(١١٢) شرحه ، ص ٤

(١١٣) شرحه ، ص ٦

(١١٤) – Validi, OZ, XL, p. 369

(١١٥) – Blochman and Jarrett, I, p. V

(١١٦) شرحه ، ص ٥

(١١٧) شرحه ، ص ٤ – ٥

(١١٨) شرحة ، الجزء الثانى ، ص ٤

(١١٩) شرحه ، ص ٧

(١٢٠) – Carra de Vaux, Les penseurs, I, p. 329

(١٢١) – Browne, Literary History, IV, p. 448

(١٢٢) – Minorsky, Les études, p. 292

(١٢٣) – Reinaud, Introduction, p. CLXIX— Browne, Literary History, IV, p. 448 — Berthels, Razi, p. 1228 — 1229 — Abdul Muqtadir, p. IV — V

(١٢٤) – Browne, Literary History, IV, p. 448

التاريخ : ١٠٢٨ ه = ١٦١٩ غير صحيح

(١٢٥) – Reinaud, Introduction, p. CLXIX

(١٢٦) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 183

(١٢٧) – Abdul Muqtadir, p. IV

(١٢٨) – Berthels, Razi, p. 1229 (غير صحيح) — Abdul Muqtadir, p. IV - V

(١٢٩) – Barbier de Meynard, Dictionnaire, p. XX

(١٣٠) – Berthels, Razi, p. 1229

(١٣١) – Reinaud, Introduction, p. CLXIX

(١٣٢) – Validi, OZ, XL, p. 369 and note 3

(١٣٣) – Reinaud, Introduction, p. CLXXIII, note 1, CDLIV — Ferrand, Relations, II, p. 559 - 562

(١٣٤) راجع Ouseley

(١٣٥) – Quseley, p. VI

(١٣٦) نفسه – Ferrand, Relations, II, p. 559

(١٣٧) – Quseley, p. V - VI

(١٣٨) نفسه ، p. VI

(١٣٩) نفسه ، ص ١٠٦ – ١١٧

(١٤٠) – Reinaud Introduction, p. CDLIV

(١٤١) – Quseley, p. 1 - 57

(١٤٢) نفسه ، p. VIII

(١٤٣) نفسه ، p. X

(١٤٤) – Reinaud, Introduction, p. CDLIV

(١٤٥) – Quseley, p. V, VII

(١٤٦) – Reinaud, Introduction, p. CLXXIII, note 1

(١٤٧) نفسه ، ص CDLIV

(١٤٨) – Quseley, p. 56 - 57

(١٤٩) – Bartold, ZVO, XV, p. 232 - 260 — Validov, ZVO, XXII, p. 306-Validov, ZVO, XXIII, p. 255 - 257 — Validi, OZ, XL, p. 369

(١٥٠) – Rieu, Catalogue of the Pers. Manuscripts, I, p. 381, No Or. 1119; p. 387 - 388, No Add. 22, 034

(١٥١) راجع منه ؛ نفسه ، p. 383 - 384, No Add. 23, 533

(١٥٢) – Hammer, Erinnerungen, p. 138 - 139

(١٥٣) – References : EI, I, p. 115 - 116, with reference to : Elliot and Dowson, Hist. of India, VIII, p. 298 sui; Rieu, Catalogue of Pers. Manuscripts, I, p. 384, No. Add. 8145 - 8147. Transl. : Stewart, London, about 1814; D. Macfarlane, Calcutta, abridged, 1827, Malo, Mirza Aboul Taleb Khan

(١٥٤) – Browne, Literary History IV, p. 450-452

(١٥٥) – Khanikov, Mél. As., III, p. 50-59

(١٥٦) متن ترجمة زين العابدين الشرواني لسيرة حياته لدى : Khanikov, Mél. As., III, p. 56-58

(١٥٧) شرحه ، ص ٥٦ – ٥٧

(١٥٨) شرحه ، ص ٥٨

(١٥٩) شرحه ، ص ٥٩

(١٦٠) – Minorsky, Rus, p. 1278

(١٦١) – Browne, Literary History, IV, p. 452

(١٦٢) – Jukovski, ZVO, II, p. 280-281 — Bertels, Ocherk Ist. pers. lit., p. 107-108, 201 (bibliography) — Horn., p 213, 216-222

(١٦٣) – Schefer, Relation, IV, p. XVI — XIX (biography); same, p. XIX – XXI (opera) — Bertels, Ocherk Ist. pers. Lit., p. 110-113 — Massé, EI, III, p. 1245-1246

(١٦٤) – Massé, EI, III, p. 1246

(١٦٥) – Schefer, Relation, IV, p. XXIV

(١٦٦) – Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 108

(١٦٧) طبعة طهران ١٢٩٤هـ – الترجمة : Korlander, 1887

(١٦٨) الترجمة الانجليزية في عام ١٨٧٤ و ١٨٧٩ ؛ راجع : Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 201

(١٦٩) طبعة حجرية عام ١٨٩١ ؛ شذور منه لدى : Horn, p. 213, 216-222

(١٧٠) – Babinger, Stambuler Buchwesen, p. 286

(١٧١) – Jukovski, ZVO, II, p. 281

(١٧٢) – Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 108

(١٧٣) – Horn, p. 216

(١٧٤) شرحه ، ص ٢١٣

(٥٨١) شرحه ، ص ٢١٦

(١٧٦) من ترجمات اليوميات راجع : Bertels, Ockerk ist. pers. lit., p. 201
نماذج لدى : Horn, p 216-222

(١٧٧) – Jukovski, ZVO, X, p. 187-191 — Horn, p. 216 — Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 113-115 — Browne, press, p. 156, 164-166 (numbering 12 works; with Jukovski, ZVO, X, p. 189-190, rising to 15 works) — Browne, Literary History, IV, p. 453-456 — Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741-742

(١٧٨) Browne, Press, p. 156 – Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 114 — Browne, Literary History, IV, p. 454 — Minorsky, Muhammed Hasan, Khan, p. 741 –

(١٧٩) Browne, Press, p. 156 — Bertels, Ocherk ist. lit., p. 114 — Minorsky Muhammed Hasan Khan, p. 741 –

(١٨٠) Jukovski, ZVO, X, p. 188 –

(١٨١) شرحه ، ص ١٩٠

(١٨٢) شرحه

(١٨٣) شرحه ، ص ١٨٩

(١٨٤) ألفاظ A. A. Romaskevich من طبع كتاب محمد حسن خان عن رحلة استانل

(١٨٥) Jukovski, ZVO, X, p. 189, No 6 –

(١٨٦) شرحه ، ص ١٨٩ ، رقم ٧

(١٨٧) Browne, Press, p. 165, No 159 — Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741 –

(١٨٨) Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 115 –

(١٨٩) Jukovski, ZVO, X, p. 190 –

(١٩٠) Horn, p. 216 –

(١٩١) Browne, Press, p. 165, No 152 — Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 114 Browne, Literary History, IV, p. 454-455 — Minorsky, Muhammed Hasan Khan, p. 741 –

(١٩٢) محمد حسن خان ، مرآت البلدان ، الجزء الأول ، ١٢٩٣ ه = ١٨٧٦ ؛ الجزء الرابع ، جمادى الأول ١٢٩٦ ه = مارس ١٨٧٩ .

(١٩٣) أضيف كذيل الكتاب بجدول مواقيت (calendar) ولا فهرس (ا) . راجع :
Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 114 — Browne, Press, p. 165, No 152

(١٩٤) ١٣٠١هـ – ١٣٠٣ هـ = ١٨٨٤ – ١٨٨٦

(١٩٥) Browne, Literary History, IV, p. 455-456 — Minorsky, Muhammad Hassan Khan, p. 741 –

(١٩٦) Jukovski, ZVO, X, p. 189 –

(١٩٧) Browne, Literary History, IV, p. 455 –

(١٩٨) Bertels, Ocherk ist. pers lit, p. 115 –

(١٩٩) Browne, Literary History, IV, p. 455-456 –

(٢٠٠) الرسالة ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧

(٢٠١) شرحه الجزء الثالث ، ص ٣٥٧ ، رقم ١ - ٣٧٢ صفحة !

(٢٠٢) شرحه ، الجزء الثالث ، ص ٣٥٧ ، رقم ١

(٢٠٣) – Le Strange, Description of the Province of Fars, p. 16-17

(٢٠٤) – Browne, Literary History III, p. 162; 165, note ; 168, note ; 274, note ; 275, note ; 357

(٢٠٥) – Kramers, EI, EB, p. 74

(٢٠٦) – Browne, Literary History IV, p. 467-468 — Browne, Press, p. 22, 164, No 44 — Bertels, Ocherk ist. pers. lit., p. 139-140.

الفصل العشرون

الجغرافيا الملاحية لدى العرب والترك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

547 استنفد الأدب الجغرافى العربى طاقته الخلاقة بشكل نهائى خلال القرن الخامس عشر ؛ والرأى القائل بإرجاع تلك الظاهرة إلى القرن الثالث عشر وفترة الغزو المغولى لايستند على أسس وجيهة إذ أنه لا يمكن القول بأية حال إن الإنتاج الأدبى قد ضعف من حيث الكم بعد ذلك التاريخ فقد ظل متمتعاً خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بقوة كافية جعلته يرتقى إلى القمة بفن الكوزموغرافيا بل ويقدم نمطاً جديداً هو نمط الموسوعات الأدبية . ولكن كأنما قد جفت بهذا ينابيعه واستنفد قواه فلا يقابلنا بعد ذلك انتعاش لأنماطه كما كان عليه الحال من قبل ؛ وقد مرت عهود اقتصرت فيها النماذج على الجغرافيا الإقليمية ووصف الرحلات وحدهما وظل هذان النمطان يتمتعان على الدوام بمقاومة وصلابة شديدتين وبالرواج بين جمهرة القراء . وأكثر من هذا نلاحظ أن الأفق الجغرافى قد تجمد فى إطاراته التقليدية ولم تستطع أن تخرجه من ذلك النطاق تلك الأحداث التاريخية العظمى وتلك التطورات الماثلة التى كان مسرحها العالم الغربى فى ذلك العصر ؛ وليس ثمة ما يدعو بصورة خاصة إلى التذكير بأن أواخر القرن الخامس عشر قد شهدت نجاح البرتغاليين فى الطواف حول القارة الإفريقية وكشفهم الطريق البحرى إلى الهند، هذا إلى جانب كشف كولومبس الطريق إلى أمريكا . وجميع هذه الأحداث إما جرت دون علم العرب على الإطلاق أو أنهم لم يقدروها حق قدرها ؛ وفى هذه المرة أيضاً نلحظ ذلك النقص الجوهرى فى أدبهم الجغرافى وهو وجود فارق هائل يفصل بين النظرية والواقع ؛ ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك لديهم .

غير أن التجربة العملية التى كانت تحت تصرفهم فى تلك اللحظة ، أى لحظة انتقال السيطرة من الشرق إلى الغرب ، قد وقفت على مستو عال ، وهو شىء اضطر إلى الاعتراف به أهل الغرب أنفسهم عندما قدر لهم أن يتصلوا اتصالا مباشراً بمظاهر هذا النشاط . وعندما وضع فرا مورو Fra Mauro مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ذكر أن ملاحاً عربياً أبحر حوالى عام ١٤٢٠ من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى[1] ؛ وقد أبصر ڤاسكو دا غاما Vasco da Gama فى عام ١٤٩٧ . . ١٤٩٨ سفناً عربية إلى الشمال من موزمبيق تحمل البوصلة « بيت الإبرة » وخارطات بحرية ، وهو يذكر ذلك حرفيا بقوله « ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » ؛ وعلى

548 إحدى هذه السفن وجد ڤاسكو دا غاما مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك مانويل Manoel . أما مواطنه الشهير البوكرك Albuquerque فإنه يدين بفتوحاته فى منطقة عمان والخليج الفارسى ليس بالقليل

إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربى يدعى عمر[٢] ، بل ويقول فى مذكراته Commentarios إن ملاحاً مسلماً وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى «كان رباناً عظيماً ذا معرفة جيدة بهذا الساحل وقد أعطاه مرشداً للطرق البحرية (Routier) مبينة عليه جميع موانى مملكة هرمز وهو من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صحبه ذلك الربان فى البحر»[٣] . ومن تقرير للبوكرك رفعه إلى ملك البرتغال بتاريخ أول أبريل ١٥١٢ نعرف أنه قد بعث إلى الملك « بصورة منقولة عن خارطة كبيرة عملها ربان أصله من جاوه ويظهر فيها رأس الرجاء الصالح وأملاك البرتغال . . . والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر الملوكاس والطرق البحرية لأهل الصين وأهل فورموزا وقد بينت الخطوط والطرق التى تسلكها السفن كما بين عليها أيضاً الأجزاء الداخلية لتلك البلاد . . . وكتبت الأسماء بالحروف الجاوية وقد أرسلت فى طلب رجل من أهل جاوه يعرف القراءة والكتابة ليفسرها لى . . . »[٤] .

وسنبصر بعد وهلة أن ڤاسكو داغاما نفسه قد وفق فى الإفادة من تجربة العرب العملية ، فالمؤرخ البرتغالى باروش Barros يذكر فى كتابه «آسيا البرتغالية» Asia Portugueza أن ڤاسكو دا غاما التقى فى مالندى Malindi « بمسلم من كجرات يدعى المعلم كانا Malem Cana » وُجد لديه عدد كبير من الخارطات والآلات[٥] ، هذا وقد تمكن البحاثة فى بداية القرن العشرين من الكشف عن شخصية « المعلم كانا » هذا ، الذى دل ڤاسكو دا غاما على الطريق من مالندى إلى قاليقوت Calicut بالهند . هذا ما كان عليه الوضع فى أواخر القرن الخامس عشر عند ما تم الاتصال بين تينك الحضارتين .

غير أنه مضت مائة سنة على ذلك قبل أن يفطن أهل الشرق جيداً إلى أن السيادة قد انتقلت نهائياً من أيديهم إلى أهل الغرب الذين فاقوهم من الناحية النظرية ؛ وقد أرسل السلطان العثمانى مراد الرابع (١٦٢٣— ١٦٤٠) إلى المستعرب الهولندى المشهور غوليوس Golius ، الذى عرفه العثمانيون من زيارته لبلادهم ، يعرض عليه القيام بمسح جغرافى لأراضى الدولة ووضع خارطة لها[٦] . من هذا يتضح لنا أن الخلاف الضخم بين النظرية والخبرة العملية كان فى غير صالح العلم والأدب الجغرافى الإسلامى وأن أوروبا عرفت كيف تستغل هذا الموقف لصالحها .

وفى القرن الخامس عشر بالذات تغير الوضع بصورة جوهرية بحيث نجد أنفسنا أمام لوحة جديدة تماماً ، فقد تمكن علماء أوربا بفضل الرحلات البحرية والطواف حول العالم من التحرر سريعاً من النظريات التقليدية البالية للعصور الوسطى التى كانت تعتمد إلى حد كبير على ترجمات عملت فى القرن الثانى عشر لمصنفات عربية من محيط الجغرافيا الرياضية كمصنفات الفرغانى والبتانى . وفى العصر الذى نعالج الكلام عليه بالذات ظهرت أولى الخارطات البرتغالية والإيطالية مما أطلق عليه اسم « البورتولانات » Portolans* .

---

* بورتولان Portolan أو Portulan اسم يطلق على الأطالس الملاحية التى كانت تستعمل فى العصور الوسطى فى مقابل استعمال القدماء للبريلوس Periplus ، وكانت تشمل وصفاً للسواحل ومداخلها والتيارات والشعب . وقد أجمع البحاثة على أن اللفظ إيطالى الأصل . (المترجم)

وكان لاتساع الأفق الجغرافى بأوروبا والذى بخلاف ما عليه الحال فى العالم العربى قد انعكس فى الجانبين العملى والعلمى أن وضح سريعاً أن معظم الآثار الجغرافية سواء الموضوعة منها بأوروبا أو المدونة بالشرق لم تعد تفى بالمطلوب ؛ ولعل هذا كان من الأسباب التى دعت فى ذلك العصر بالذات إلى التوقف بشكل نهائى عن وضع مؤلفات فى الفلك والجغرافيا العامة تقوم على المذهب القديم(٧) ، ذلك أن الحاجة إليها قد سقطت فى الشرق والغرب معاً خاصة وأن الغرب لم يعد تلميذاً للشرق كما كان عليه الحال من قبل بل أخذ يسير فى اتجاهه الخاص به . 549

ورغماً من ذلك لقد وجد ميدان آخر فى هذا العصر بالذات ، أى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أبرز لنا فيه الأدب الجغرافى العربى مؤلفين كباراً ومصنفات ذات شهرة أعنى بذلك ميدان الجغرافيا الملاحية . ونظراً لأنها ظهرت فى المنطقة الجغرافية للمحيط الهندى والبحار والخلجان المتفرعة منه وذلك فى تلك اللحظة بالذات التى حدث فيها الاتصال بين أوروبا وآسيا فإنها تعكس ظروفاً مغايرة لتلك التى تم فيها الاتصال بين الغرب والشرق فى أزمنة سابقة على هذه . وفيها تتشابك المصنفات العربية بالمصنفات التركية فى وحدة متماسكة بحيث يضحى من المستحيل فصلها عن بعضها البعض دون أن يحدث ذلك خللا فى سير تطورها العام . ويجب ألا ندهش للازدهار الكبير فى هذا الميدان إذا ما تذكرنا إلى أى حد ارتبط ذلك بواقع الأحوال فى ذلك العصر وبطبيعة الحياة نفسها آنذاك ، بيد أن هذا لايعنى إطلاقا أن الجغرافيا الملاحية قد برزت فى تلك الظروف التاريخية فجأة وكأنها من العدم إذ على العكس من ذلك نجد لها جذوراً ممعنة فى القدم فى الأدب العربى ولو أن حلقات تطورها لم تحفظ لنا جميعها . وينبغى أن نبين باختصار الخطوط العريضة لهذا التطور حتى نتمكن من تقدير هذه الظاهرة تقديراً صحيحاً فهى تكاد تكون أهم ظاهرة فى الأدب الجغرافى للقرنين الخامس عشر والسادس عشر .

550 وفى خط من خطوط تطورها لاترتبط هذه الجغرافيا الملاحية بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب التى غلب عليها الطابع العلمى بعض الشىء بقدر ما ترتبط بتلك المجموعة من القصص والأسفار البحرية للقرنين العاشر والحادى عشر من أمثال قصص التاجر سليمان وأبى زيد السيرافى بل وحتى « عجائب الهند » لبزرج بن شهريار مما حدث وأن وقفنا عنده بالتفصيل . غير أن هذه كانت فى واقع الأمر مجرد حكايات ذات أهداف أدبية فنية فى بعض الأحيان ولم تكن مداخل علمية أو عملية مثل التى سيرد الكلام عليها ؛ ذلك أنه وجد فى وسط ملاحى الخليج الفارسى والمحيط الهندى والبحر الأحمر إلى جانب هذه القصص والأسفار أدب المرشدات البحرية وهى ما أطلق عليها اسم « الراهنامج » أو « الرهمانى » ، وكانت تحوى خبرة الربابنة فى جميع المسائل الملاحية بما فى ذلك دون ريب دلائل الطرق البحرية (Routier) .

ولا يمكن القول بأن هذا الضرب من الأدب كان فقيراً ، فابن ماجد الذى سيمر بنا الكلام عليه يشير مثلا إلى ثلاثة مؤلفين من العصر العباسى من السابقين له فى هذا المضمار وهم محمد بن شاذان وسهل بن أبان والليث بن كهلان[٨] . غير أنه لم يصلنا من هؤلاء المؤلفين أثر ما ، كما وأن معرفتنا بالفترة الأولى لهذا الأدب إنما مستقاة بأجمعها تقريباً من الآثار التى دونت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. أضف إلى هذا أن تأثير ذلك الأدب الأول على المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا وعلى الأدب الكوزموغرافى فيما بعد لم يكن شيئاً مذكوراً ؛ غير أنه لا يمكن إرجاع هذا إلى الجهل به بقدر ما يمكن إرجاعه إلى عامل جوهرى هو أن النظريات التجريبية لهؤلاء الملاحين قد سارت فى وجهة مضادة تماما لوجهات النظر العلمية التى سادت فى تلك الأزمنة والتى ترتفع أساساً إلى المذهب اليونانى أو إلى التصورات الموجودة بالتوراة . فكبار الجغرافيين قد عرفوا هؤلاء الملاحين وعرفوا آثارهم ، وهم لم يستطيعوا موافقتهم فى أحوال معينة على أهمية المعلومات التى يوردونها أو الاستقراءات الكارتوغرافية التى ينبغى استخراجها منها . ويقص علينا المقدسى بحيوية فائقة عن ملاحظاته على سواحل جزيرة العرب من القلزم إلى عبّادان وعن آثار مدونة كان يستعملها الملاحون وعن محادثة له مع شيخ عارف بصورة البحر[٩] ؛ ثم يخرج من كل هذا بنتيجة مؤداها أن هذه المعلومات مخالفة للتصورات الجغرافية المعروفة آنذاك . ولنستمع إليه يقول :

« وأما أنا فسرت فيه نحو ألفى فرسخ ودُرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبّادان سوى ما توّهت بنا المراكب إلى جزائره ولججه وصاحبت مشايخ فيه وُلدوا ونشئوا من ربّانيين وأشاتمة . . . ووكلاء وتجار ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعوّلون عليها ويعملون بما فيها فعلّقتُ من ذلك صدراً صالحاً بعدما ميزت وتدبرت ثم قابلته بالصور التى ذكرت وبينا أنا يوماً جالس مع أبى على ابن حازم أنظر فى البحر ونحن بساحل عدن إذ قال لى مالى أراك متفكراً ؟ قلت أيد الله الشيخ ، قد حار عقلى فى هذا البحر لكثرة الاختلاف فيه والشيخ اليوم من أعلم الناس به لأنه أمام التجار ومراكبه أبداً تسافر إلى أقاصيه فإن رأى أن يصفه لى صفة أعتمد عليها وأرجع من الشك إليها فعل ، فقال على الخبير بها سقطت ثم مسح الرمل بكفه ورسم البحر عليه لا طيلسان[١٠] ولا طير[١١] وجعل له معارج متلسنة وشعباً عدّة ثم قال هذه صفة البحر لا صورة له غيرها . وأنا أصوره ساذجاً وأدع الشعب والخلجان إلا شعبة وَبَلْة لشهرتها وشدة الحاجة إلى معرفتها وكثرة الأسفار فيها وأدع ما اختلفوا فيه وارسم ما اتفقوا عليه »[١٢] .

551

وهو يذكر عن قصد ولكن ليس دونه سخرية أن هذا الشيخ العارف بالبحر قد صور له البحر دون « طيلسان » أو « طير » . ولعله لم يغب عن ذاكرتنا أن اللفظ الأول أى « طيلسان » كان يستعمل فى مصورات الخوارزمى التى تطورت عن بطلميوس ، هذا فى حين ينبغى أن نبصر فى لفظ « الطير » إشارة إلى نظرية وجدت عند الأمم السامية وسردها عدد من الجغرافيين العرب وهى تصور الأرض فى صورة طائر ؛ وقد

حدث وأن وقفنا عند ذلك فيما مر من هذا الكتاب . ونفس موقف المقدسى هذا يقفه المسعودى أيضاً الذى وإن اعترف بأهمية المعرفة العملية فى هذا المجال إلا أنه يقرر أن معلومات « ربابنة » سيراف وعمان عن المحيط الهندى لاتتفق مع نظريات « الفلاسفة » ، بل ويضيف إلى ذلك أن هذا الحكم يصدق أيضاً على البحر الأبيض المتوسط وذلك وفقاً لما سمعه من ملاحى الشام الذين عرفوه جيداً والذين يذكر من بينهم اثنين . ونص متنه كالآتى[١٣] :

« ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين عن البحر الحبشى فى أغلب الأمور على خلاف ماذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة وأن ذلك لا غاية له فى مواضع منه وكذلك شاهدت أرباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة والنواتية وأصحاب الأرجل والروسا ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيها مثل لاوى المكنى بأبى الحارث 552 غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق وذلك بعد الثلاث ماية [= ٩١٢] يعظمون طول البحر الرومى وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشام ولم يبق فى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة أبصر منه بالبحر الرومى ولا أسن منه وليس فيمن يركبه من أرباب المراكب من الحربية والعمالة إلا وهو ينقاد إلى قوله ويقر له بالبصر والحذق وما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيه »[١٤] .

وأغلب الظن أن آراء المقدسى والمسعودى إنما تمثل فى هذا الصدد شيئاً أقرب إلى الاستثناء منه إلى قاعدة عامة يتفق عليها الجغرافيون أصحاب الكتب . وفى الواقع أن الاختلاف الهائل بين النظرية والتطبيق العملى يبدو جلياً هاهنا بصورة قاطعة ولم يكن فى صالح الأخير ، وجميع الأدب الذى ينتمى إلى هذا الميدان أى ميدان الجغرافيا الملاحية لم يجد طريقه إلى الأدب الواسع المدون ولهذا السبب فإنه لم يصل إلى أيدينا .

ويمكن القول بالكثير من الدقة أن موطن نشأة أدب المرشدات البحرية « الرهنامجات » ، بل وأيضاً موطن القصص البحرية التى سبق وأن أشرنا إليها ، هو سيراف وعمان . ويشير إلى هذا بوضوح من بين عوامل أخرى ورود ذكر « السيرافيين » و« العمانيين » فى نص المسعودى الذى مر بنا قبل قليل . ومن المعلوم جيداً أن سيراف كانت لعهد طويل مركزاً للتجارة البحرية ومنها كانت تخرج السفن إلى جنوبى آسيا والجزر الشرقية وإلى سواحل أفريقيا الشرقية ؛ ولما بدأ دور سيراف يضمحل بابتداء سيادة البويهيين (حوالى عام ٣٢٠ هـ = ٩٣٢) رحل جانب من سكانها إلى عمان خاصة عقب نكبة الزلازل الكبرى فى عام ٣٦٦ هـ — ٣٦٧ هـ = ٩٧٧* — ٩٧٨[١٥] .

* هذه القراءة أفضل من عام ٩٧٦ التى وردت فى الأصل الروسى . (المترجم)

وتواريخ المصنفات الأولى من طراز « الرهنامجات » غير معروفة لنا بطبيعة الحال ولكن يغلب الظن بأنها ظهرت فى وقت واحد مع القصص البحرية فى القرنين التاسع والعاشر ؛ ومعروف لنا إلى جانب هذا وصف رحلة خواشير بن يوسف الأركى الذى أبحر على سفينة دَبَوْكَرَه الهندى فى بداية القرن الحادى عشر[١٦] ، كما يمكن أن نرجع إلى نهاية ذلك القرن أوبداية القرن الثانى عشر تاريخ حياة المعلمين الثلاثة المشهورين[١٧] الذين يدعوهم ابن ماجد بأشياخه ؛ وقد وقع بصر هذا الأخير على « رهنامج » فى مخطوطة يمتلكها حفيد أحدهم يرجع تاريخها إلى عام ٥٨٠ هـ = ١١٨٤[١٨] . ولفظ « رهنامج » الذى أطلق على هذا النمط من المؤلفات قد اكتسب فى ذلك العهد انتشاراً واسعاً خرج به من الحدود الضيقة للأوساط الملاحية ، فهو يظهر فى صورة « رهنامه » لدى الشاعر الفارسى نظامى وذلك فى ملحمته المشهورة « اسكندرنامه » حوالى عام ٥٧٨ هـ = ١١٩١[١٩] . وكان ابن المجاور وهو مؤلف معروف لنا بما يقدمه | 553 | من معلومات قيمة عن سكان جنوب الجزيرة العربية (حوالى عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣) على معرفة جيدة بالجغرافيا الملاحية بل ويورد لنا شذرة نقلها عن « مؤلف كتاب الرهمانج» يدور فيها الكلام عن بعض طيور البحر التى تشير إلى قرب الساحل[٢٠] ؛ ولم يلبث هذا اللفظ أن تم الاعتراف به فى اللغة العربية نفسها وظل معمولا به إلى الوقت الحاضر ، وفى أواخر القرن السابع عشر يشرحه لنا إلى جانب اصطلاحات ملاحية أخرى مؤلف « تاج العروس »*[٢١] الذى يرجع أصله كما نعلم جيداً إلى زبيد فى جنوب الجزيرة العربية وعرف عنه ميل شديد إلى البحر . هذا وقد وضح المستشرق الفرنسى فيران[٢٢] بالتفصيل الأشكال المختلفة التى ورد فيها هذا اللفظ وبين أصلها ؛ وهو يرتفع أساساً إلى الفارسية الوسطى (البهلوية) « راهنمك » التى تحولت فى الفارسية الحديثة إلى «راهنامه» . أما فى الوسط العربى فإلى جانب الشكل العادى « راهنامج » يقابلنا أيضاً الشكل المقلوب (métathétique) « رهمانج » (وجمعه « رهمانجات ») ، والشكل الذى تطور عنه فيما بعد وهو « رهمانى » بل وحتى أيضاً « رمانى » . وجميع هذه الألفاظ كان يقصد بها فى عهد ابن ماجد ضرب من « المرشدات البحرية » أشبه « بالبورتولانات » Portulans[٢٣] .

إن هذه التسميات تقف خير دليل يشير إلى الوسط الذى ظهرت فيه هذه المرشدات البحرية وإلى أى حد كانت مشحونة بالألفاظ الفارسية فيما يتعلق بالاصطلاحات البحرية أوالمتصلة بالبحر ؛ وعدد هذه المصطلحات كبير للغاية بحيث نجد أنفسنا مضطرين إلى الاكتفاء بنماذج معينة منها . فإلى جانب «الراهنامج»

---

* جاء فى « تاج العروس فى شرح القاموس » للسيد مرتضى الزبيدى (ص ٥١ من الجزء الثانى) ما نصه : « الراهنامج بسكون الهاء وفتح الميم فارسية استعملها العرب وأصلها راه نامه ومعناه كتاب الطريق لأن راه هو الطريق ونامه الكتاب وهو الكتاب الذى يسلك به الربابنة جمع الربان كرمان العالم فى سفر البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها كالشعب ونحو ذلك » . بل إن القاموس نفسه يورد هذا اللفظ فقد جاء فيه « الراهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها » . (المترجم)

يقابلنا بنفس المعنى « راهدان » أو « راهدار »[٢٤] (أى « المرشد » أو « الدليل ») ، ثم لفظ نال رواجاً كبيراً هو « ناخدا »* (وجمعها « نواخذة » ، أى « سيد السفينة » أو « صاحبها »)[٢٥] الذى وجد إلى جانبه لفظ عربى ذا صيغة فريدة وهو « ربّان » (وجمعها « ربابنة » ، أى « القبطان » أو « قائد السفينة »)[٢٦] ولفظ آخر مجهول الأصل هو « إشتيام » (جمعها « أشاتمة »)[٢٧] . ويكثر عدد هذه الألفاظ عند التعرف على الاصطلاحات الفلكية فى مؤلفات ابن ماجد الذى سيرد الكلام عليه للتو ، وأهمها لفظ « خنّ » (وجمعها « أخنان » ، ويقصد بها منازل البوصلة أو أجزاؤها Les rumbs de vent)[٢٨] ، ولفظ « الجاه » (أى النجم القطبى)[٢٩] و « باشى » (أى ارتفاع النجم)[٣٠] الخ . وجميع هذه الألفاظ تقف دليلا قاطعاً على أن العرب قد استعاروا من الفرس جميع اصطلاحات الجغرافيا الملاحية تقريباً . وفى العصور القديمة عندما | 554 | اقتصرت الملاحة عند العرب على الملاحة الساحلية[٣١] فإنه لم تكن لهم معرفة بهذه الاصطلاحات ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا شيئاً فشيئاً من الفرس « وردة الرياح » (Rose de vent) التى عرفناها من قبل فى صورتها المعربة فقط ، كما أخذوا أيضاً « الراهنامجات » المختلفة التى مكنتهم بالتدريج من أن يصبحوا منافسين خطيرين للفرس فى الملاحة بالمحيط الهندى بأجمعه[٣٢] .

وتوجد بالطبع أسباب أخرى غير التى ذكرناها حالت دون بقاء هذه « المرشدات » البحرية » إلى أيامنا هذه رغماً من عددها الكبير . وعلى أية حال فواقع الأمر هو أننا نلتقى لأول مرة بمصنفات فى هذا الصدد فى حدود القرنين الخامس عشر والسادس عشر وندين بها على وجه التحديد لاثنين من المؤلفين ، وهى التى فتحت أنظارنا لأول مرة على هذا الأدب فى مضمونه الواسع .

وقد ورد اسما هذين المؤلفين من وقت لآخر لدى العلماء الأوروبيين من قبل وذلك اعتماداً على المصادر التركية ، غير أن معرفة الدوائر العلمية بآثارهما معرفة مباشرة إنما تدين بها إلى المستشرق الفرنسى غابرييل فران (Ferrand) وهو عالم ممتاز تركز نشاطه العلمى فى الثلث الأول من القرن العشرين ويعد من كبار المتخصصين فى الجغرافيا التاريخية للمحيط الهندى والجزائر الشرقية المنتشرة من ساحل أفريقيا الشرقى إلى سواحل الصين . ويعتمد نشاطه العلمى فى هذا المجال على تدريب بعيد المدى وسعة فى الأفق العلمى لا مثيل لها ؛ وقد كان فران فى بادئ الأمر من تلامذة رينيه باسيه R. Basset وتخرج عليه فى محيط الدراسات العربية والأفريقية ثم أمضى جميع حياته بالتقريب فى الخدمة الدبلوماسية بالمستعمرات الفرنسية بالمحيط الهندى من مدغشقر إلى الهند الصينية ؛ وتمثل أهمية كبيرة فى هذا الصدد دراساته عن اللغة الملغاشية وآثار مدغشقر القديمة . ولم يلبث أن اجتذبه هذا الاتجاه إلى الاهتمام بأرخبيل الملايو ودفعه لا إلى دراسة لغة الملايو وحدها بل ولغات الشرق الأقصى الأخرى وإلى التعرف على تاريخ تطور علم الفلك فى تلك النواحى ؛

---

* ناخذا وصورها المتعددة الأخرى ناخذاه وناخوذا وناخوذة ونارخذا بالذال أو الدال معرب الفارسية نارخدا أى سيد السفينة . (المترجم)

ولم يكتف بهذا بل ألم بجميع ما يمت بصلة إلى ذلك العالم القائم بذاته ، أعنى ذلك المحيط الحضارى الذى امتزجت فيه الحضارة العربية بالحضارتين الهندية والملايوية . وقد توج جانباً من مجهوده فى هذا الصدد بإخراج مؤلفه الأساسى الذى جمع فيه المادة العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالجغرافيا التاريخية للهند والشرق الأقصى بعنوان « قصص الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالشرق الاقصى من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر ، ترجمها وألف بينها وعلق عليها غ . فيران ، جزآن . باريس ١٩١٣ — ١٩١٤ » Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême — Orient du XIIIe au XVIIIe siècles, traduits, revus et annotés par G Ferrand, I — II, Paris. 1913 — 1914

وهو نفس ذلك السفر الضخم الذى رجعنا إليه مراراً فيما مر من هذا الكتاب . وقد حالف التوفيق فيران أثناء جمعه لمادة هذا الكتاب فى أن يكشف عن مصنفات لمؤلفَين عربيَّين من الذين دونوا فى محيط الجغرافيا الملاحية هما أحمد بن ماجد وسليمان المهرى . وإذا كان الكشف عن هذه المؤلفات وليد الصدفة البحتة إلا أن توضيح الأهمية الكبرى لهذه النصوص وإلقاء الضوء على محتوياتها ما كان ليتأتى إلا لعالم متعدد النواحى من طراز فيران الذى كرس جميع حياته العلمية لهذا الميدان ، بل إن آخر خطوة فى نشاطه العلمى كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه المصنفات الأخيرة | التى كشفت عن آخر صفحة مشرقة فى تاريخ الأدب 555 الجغرافى العربى .

وكما يحدث عادة مع الاستكشافات الكبرى فإن هذه أيضاً قد أحاط بها صعوبات ليست بالضئيلة ، بل إن تحديد شخصية المؤلف الأول استدعى تطبيق مناهج فى البحث معقدة ولا تخلو من الطرافة ؛ ولم يتحقق هذا إلا بعد مقارنة المصادر البرتغالية والعربية والتركية بعضها بالبعض .

لقد حدث وأن سقنا قبل لحظة روايات لبعض المؤلفين البرتغاليين تبين كيف دار ڤاسكو دا غاما حول الطرف الجنوبى لأفريقيا عند رأس الرجاء الصالح إلى أن وصل فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس عام ١٤٩٨ إلى ملندى على الساحل الشرقى لأفريقيا ، وهى تقع إلى الجنوب من خط العرض الثالث جنوبى خط الاستواء[٣٣] ؛ وفى خلال الشهر الذى أمضاه هناك تعرف ڤاسكو دا غاما بربان « مسلم من كجرات (بالهند) » يدعى « المعلم كاناكا » Malemo Canaqua ، وفى بعض الروايات « كانا » Cana[٣٤] ، ودله على طريق الهند وأوصل سفنه فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل من نفس العام إلى ميناء قليقوت[٣٥] على ساحل ملبار[٣٦] . وقد أخذ الكشف عن هذه الأسماء الغامضة بعض الوقت ، إذ ثبت أنها تشير إلى ألقاب احترام لا إلى أسماء أعلام . وقد أثبت فيران أن لفظ Malemo ليس سوى تحريف للفظ العربى « معلم » بلغة السواحيلى Swahili السائدة بأفريقيا الشرقية[٣٧] ؛ وقد دخل هذا اللفظ فى الاصطلاح الملاحى وأطلق فى الأدب الكلاسيكى على الشخص الذى نال خبرة عملية ونظرية فى المسائل البحرية (وجمعه « معالمة ») . وفى شكل مقارب لهذا هو Malim دخل هذا اللفظ فى لغة

الملايو[٣٨] ، وهو منتشر فى جميع بقاع المحيط الهندى[٣٩] بل وعرف منذ ذلك العهد فى اللهجة البرتغالية المستعملة فى آسيا[٤٠] . أما لفظ «كاناكا» فهو الشكل الذى استعمل فى ملبار[٤١] وفى لغة التامل[٤٢] ليؤدى اللفظ السنسكريتى ganika ويقصد به «الحاسب» و«المنجم» . وإلى بداية القرن السادس عشر نرى المؤلف البرتغالى دورات باربوسا Duarte Barbosa يتحدث عن طبقة (caste) الكاناكا بملبار الذين كانت مهنتهم التنجيم ويؤكد أن الملوك لم يكونوا ليتصرفوا فى شىء قبل معرفة رأيهم وأن التجار كانوا يستشيرونهم فى طالع تجاراتهم ورحلاتهم[٤٣]. أما فى ذلك النص الذى يتعلق برحلة فاسكو دا غاما 556 فيبدو أن المقصود بهذا اللفظ هو «الخبير بالشئون الملاحية والفلكية» ؛ وبهذا يمكن الجزم بأنه لاتوجد فى هذا اللفظ أية إشارة إلى اسم علم . غير أن الشخص الذى يختفى وراء هذه التسمية أمكن الكشف عنه بالرجوع إلى نص لمؤلف عربى واتضح أنه ملاح عربى معروف .

فقطب الدين النهروالى (٩١٧ هـ — ٩٩٠ هـ = ١٥١١ — ١٥٨٢) الذى مر بنا الحديث عنه كخبير بخطط مكة ، وسيمر بنا اسمه فيما بعد بصدد رحلته إلى استنبول ، والذى ترجع تآليفه إلى ما بعد خمسين عاما بالتقريب من ذلك الحادث الخطير أى كشف البرتغاليين لطريق الشرق ، أقول إن قطب الدين هذا قد حفظ لنا فى كتابه عن فتح العثمانيين لليمن «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» رواية هامة عن ظهور البرتغاليين فى المحيط الهندى* ؛ وكان هذا الحادث الخطير لا يزال عالقاً بأذهان المتقدمين فى السن فى عهد قطب الدين . وقد عُرف نص هذه الرواية منذ عهد طويل فى دراسة لسلفستر دى ساسى (١٧٩٤) ثم فى ترجمة أحدث من ذلك باللغة البرتغالية للعلامة داڤيد لوپيز David Lopes (١٨٩٢)[٤٤] ؛ غير أن فيران وحده هو الذى تمكن من تقديم ترجمة دقيقة لهذا النص وتزويده بتعليقات وافية . كتب قطب الدين يقول : «وقع فى أول القرن العاشر [ابتداء من عام ١٤٩٥] من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبتة [مضيق جبل طارق] فى البحر ويلجّون فى الظلمات [أو بحر الظلمات وهو المحيط الأطلنطى] ويمرون خلف جبال القمر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أى أبيض وهى مادة أصل بحر النيل ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى فى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج[٤٥] لا تستقر به سفاينهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولايخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص منهم غراب [سفينة صغيرة Caravelle] إلى (بحر) الهند فلازالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندى [الشكل العربى للفظ البرتغالى Almirante أى الأميرال] وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم لا تقربوا

* لا بد وأن ذكر الخليج الفارسى بدلا من المحيط الهندى لدى المؤلف كان من قبيل السهو . (المترجم)

الساحل من ذلك المكان [أى الساحل الأفريقى] وتوغلوا فى البحر ثم عودوا [أى إلى ساحل الهند] فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا كوة بضم الكاف العجمية وتشديد الواو بعدها هاء [Goa] اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن (و) من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا[٤٦] ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم 557 من البرتقال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ [٩١٧ هـ — ٩٣٢ هـ = ١٥١١ — ١٥٢٥] إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى [٩٠٦ هـ — ٩٢٢ هـ = ١٥٠١ — ١٥١٦] يستعين به على الافرنج »[٤٧].

يجب أن نطرح من هذا المتن الحكاية الخاصة « بسكر» الربان المسلم إذ من الواضح أن المؤلف إنما أراد بها على ما يبدو إيجاد تبرير لموافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجة ، كما ويجب أيضاً أن نطرح الأخطاء الصغيرة فى الوقائع التاريخية مثال ذلك أن هرمز قد فتحها البوكرك عام ١٥٠٧ أى قبل بناء جوا البرتغالية (Nova Goa)[٤٨] ؛ أما بخلاف هذا فإن الرواية تعكس بحق الوقائع التاريخية كما تصورها سكان سواحل المحيط الهندى والبحار المتفرعة منه . وتجتذب الأهمية بالنسبة لنا نقطتان ، فلفظ « الملندى» كما أثبت فيران إنما هو تحريف للفظ البرتغالى « الميرانتى » Almirante وهو اللقب الذى كان يحمله على ما يظهر ڤاسكو دا غاما . ومن الطريف أن نذكر فى هذا الصدد أن ذلك اللفظ قد ورد بهذا الشكل العربى لدى ابن خلدون من قبل[٤٩] ؛ ثم أهم من ذلك كله أن المتن يقدم لنا دليلا ذا قيمة كبرى إذ يعطى اسم الربان على أنه أحمد بن ماجد[٥٠]. وقد دفع هذا العلماء بالتالى لأن يتذكروا أن مصنفات شخص بهذا الاسم ذاته هى التى كانت المصدر الأساسى لمصنف فى الجغرافيا الملاحية وضعه أمير البحر التركى سيدى على ريس الذى قذف به مصيره إلى الخليج الفارسى والهند بعد خمسين عاماً بالتقريب من الحوادث التى نتكلم عنها . فهذا الأميرال التركى يذكر فى مقدمة كتابه الذى أشرنا إليه عدداً من مصنفات أحمد بن ماجد بعناوينها[٥١] ، وبفضل هذا وجد اسم ابن ماجد طريقه إلى الدوائر العلمية الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر؛ غير أن الكشف عن الأصول العربية لمصنفاته تأخر إلى عام ١٩١٢ .

وقد تم هذا الكشف بين جدران المنزل نفسه إذا جاز هذا التعبير ، وهو أمر ليس بالنادر فى تاريخ العلم . فبينما كان المستعرب المعروف غودفروا ديمومبين يبحث فى مخطوطات المكتبة الأهلية بباريس عن مواد لزميله فيران وذلك من أجل مؤلفه الضخم من الشرق الأقصى كشف من مخطوطتين تضمان مصنفات لأحمد بن ماجد ولسليمان المهرى[٥٢] . وقد بقى لغزاً حتى ذلك الوقت كيف أن حافظ المخطوطات بالمكتبة الأهلية المستشرق رينو Reinaud لم يفطن لوجودهما على الرغم من أنه يتكلم عن سليمان المهرى فى مؤلفه الجامع « مقدمة عامة لدراسة الجغرافيا عند المشارقة » Introduction Générale à la Géographie

des Orientaux مستقياً معلوماته فى هذا الصدد من المصنف التركى لسيدى على ريس . ولعله يمكن تفسير هذا بأن إحدى المخطوطتين قد اشترتها المكتبة الأهلية من أستاذ عربى كان يقيم بفرنسا هو سليمان الجزائرى[٥٣] فى عام ١٨٦٠[٥٤] أى فى السنوات الأخيرة من حياة رينو ؛ بيد أن المخطوطة الأخرى كانت موجودة بالمكتبة الأهلية منذ القرن الثامن عشر[٥٥] ؛ هذا وقد تم العثور بالتالى على مذكرة موجزة بخط يد رينو تشير إلى معرفته بهذه المخطوطة ولكن لم يقدر لتلك السطور أن ترى النور[٥٦] . ومن الغريب حقاً أن ذلك الكشف الضخم كان عليه أن ينتظر إلى عام ١٩١٢ رغماً من أن كلا المخطوطتين قد ورد ذكرها فى فهرس المكتبة الذى عمله دى سلان De Slane وتم طبعه فى عام ١٨٩٥[٥٧] . هذا وقد ساق الكشف عن هاتين المخطوطتين الفريدتين إلى الكشف شيئاً فشيئاً عن مخطوطات أخرى ومواد مماثلة ؛ ففى أوائل السنوات العشرينات من هذا القرن عُرفت مخطوطة دمشق[٥٨] التى اجتذبت بالتالى أنظار فيران ، كما ظهرت إشاعة بوجود مخطوطة أخرى بجدة[٥٩] . وقد تم الكشف فيما بعد عن مصنفات أخرى لابن ماجد لا وجود لها بمخطوطات باريس وذلك بالموصل[٦٠] وبمعهد الدراسات الشرقية بلنينغراد ؛ ولم يكتب لفيران أن يفحص هذه الكشوف الأخيرة ، كما وأن بعض أقسام مخطوطة الموصل تحتاج إلى فحص دقيق للتوكد من صحتها . هذا وقد عاجل الموت فيران دون أن يكمل دائرة البحث الذى بدأه وذلك بترجمة المصنفات التى نشرها والتعليق عليها ، ورغماً من ذلك فإن الطبعة المصورة للمتن التى نشرها فيران وأيضاً سلسلة الأبحاث والمقالات التى دبجها يراعه حول نقاط عامة وخاصة تتعلق بهذه المؤلفات ، كل هذا يمكننا من تكوين فكرة واضحة للغاية عن أهمية هذا الكشف بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العربى . ويمكن أن تمثل حصيلة لجميع دراساته فى هذا الصدد تلك الأبحاث المفصلة التى أسهم بها فيران فى « دائرة المعارف الإسلامية »[٦١] ، وبصورة خاصة أيضاً كتابه « مقدمة فى الملاحة الفلكية عند العرب » Introduction à l'Astronomie Nautique Arabe (١٩٢٨)[٦٢] الذى يحوى إلى جانب هذا أبحاثاً مستقلة تعالج مسائل ذات طابع تخصصى وندين بها إلى قلم العلامة السويسرى ليوبولد دى سوسير Léopold de Saussure (١٨٦٦ — ١٩٢٥)[٦٣] الخبير فى الفلك لدى الصينيين وفى المسائل البحرية ، وهو أخ للعالم اللغوى المشهور* .

هذا ولم يمكن العثور على أية معلومات عن سيرة حياة هذين المعلمين اللذين حفظت لنا مصنفاتهما مخطوطتا باريس فى أى مصدر آخر حتى الآن ، وكل ما استطاع أن يجمعه البحاثة عنهما كانت معلومات نزرة أمكن استقراؤها من اسميهما ومن بعض الإشارات النادرة فى مؤلفاتهما نفسها . فالأول يدعى

558

560

* يقصد فردينان دى سوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ — ١٩١٣) العلامة اللغوى الشهير صاحب كتاب « دروس فى علم اللغة العام » Cours de linguistique Générale (١٩١٦) الذى لعب دوراً كبيراً فى نشأة علم اللغة المعاصر . (المترجم)

شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى النجدى فهو بهذا ينتمى إلى نجد وهى حالة نادرة لأن الملاحين كانوا فى عهد ازدهار الحضارة العربية من بين الفرس عادة ؛ غير أنه ولد بجلفار على الساحل العربى لخليج عمان . وعندما تصفه المصادر البرتغالية بأنه « مسلم من كجرات » فينبغى أن نبصر فى هذا انعكاساً لصلته بالهند ليس إلا ، وربما كانت مركزاً لعملياته البحرية ؛ ويلوح أنه كان من الشيعة وهو أمر مفهوم على ضوء علاقاته الدائمة مع الفرس[٦٤]. وغير معروف لنا عام ميلاده أو عام وفاته ، ويمكن أن نستدل من تاريخ تأليف مصنفاته على أن نشاطه يقع فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ؛ وهو يذكر فى إحداها أن له تجربة أربعين عاماً فى الملاحة الشىء الذى دفع فيران إلى الافتراض بأن تاريخ ميلاده يرجع إلى السنوات الثلاثينات من القرن الخامس عشر[٦٥] . ومن هذا يتضح لنا أن إرشاده لسفن فاسكو دا غاما كان فى الغالب من أواخر أعماله الملاحية الكبرى .

وينحدر ابن ماجد من صلب أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن[٦٦] ، فجده وأبوه كانا «مُعَلِّمَيْن»[٦٧] أيضاً وخلفا اسميهما فى عالم الملاحة وفى الأدب بل وفى الأرسطورة كذلك . ويقص علينا الرحالة المشهور برتون Sir Richard Burton أن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ولى من أهل الشام يدعى الشيخ ماجد ويقرءون الفاتحة على روحه قبل ركوبهم البحر[٦٨] . ويحكى لنا ابن ماجد نفسه أن اسم « ظهرة* ابن ماجد » (reel) كان يطلق على موضع بالساحل الشرقى للبحر الأحمر قريباً من جزيرة المرما وذلك لأن أباه كان يربط سفينته فى ذلك الموضع[٦٩] ؛ وكان أبوه يلقب «بربّان البرين» (أى ساحلى البحر الأحمر)[٧٠] . ويذكر ابن ماجد فى موضع آخر كيف حدث وأن كتبت له السلامة أثناء ركوبه البحر الأحمر عند ساحله الغربى فى عام ٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ لاعتماده على قول أبيه بأنه لا يوجد ممر بين جزيرة أسما ومسند (إلى الجنوب من خط ١٧ درجة شمالا) وذلك على خلاف زعم بقية الربابنة[٧١] . هذا وقد دون الأب تجاربه البحرية فى مصنف ضخم هو « الأرجوزة الحجازية » التى كانت تضم أكثر من ألف بيت فى وصف الملاحة على سواحل البحر الأحمر[٧٢] ؛ وقد أمكن للابن أن يستدرك بعض التصحيحات على أبيه اعتماداً على ملاحظاته الشخصية ويضيف إليه بطريقة منتظمة[٧٣] .

561 غير أن الذى يستحق الفضل الأكبر من بين جميع أفراد هذه الأسرة هو بلا شك أحمد بن ماجد ، أو كما دعى نفسه « ناظم القبلتين مكة وبيت المقـــدس » و « حاج الحرمين الشريفين »

* لم أستطع العثور على هذا المعنى الاصطلاحى للفظ « ظهرة » حتى فى معجم محدث كمعجم الزبيدى ؛ غير أن اشتقاق اللفظ واستعماله فى هذا المعنى فيه الكثير من الصواب والتوفيق . وقد جاء فى لسان العرب أن الظهرة السلحفاه وأن الظواهر هى أشراف الأرض ، فليس ثمة ما يحول دون استعماله فى معنى الصخور التى لا يكاد يسترها الماء والتى تمثل خطراً كبيراً بالنسبة للملاحين . والإدريسى يستعمل فى هذا المعنى لفظ تروش . (المترجم)

و « أسد البحر الزخار » و« خلاف الليوث » و « المعلم العربي »[٧٤] ، و « رابع الثلاثة » و « رابع الليوث »[٧٥] ، ويمكن أن نؤكد الآن بأن مصنفاته تمنحه الحق لأن يفخر بنفسه بمثل هذه الطريقة . ورغماً من ندرتها فإن مخطوطات مصنفاته على جانب كبير من الجودة ، فالمخطوطة الرئيسية بباريس تمثل نسخة مأخوذة من الأصل وترجع إلى عام ٩٨٤ هـ = ١٥٧٦ [٧٦] ؛ أما مخطوطة دمشق فقد نسخت بمكة فى سنة ١٠٠١ هـ = ١٥٩٢[٧٧] ، كما وأن نسخ المصنفات الثلاث الموجودة بمعهد الدراسات الشرقية ترجع إلى منتصف القرن السادس عشر[٧٨] .

وآثار ابن ماجد كثيرة ويبلغ عدد الموجود منها فى الآونة الحاضرة الأربعين ، ومعظمها قد تمت صياغته شعراً وفقاً للمنهج التذكيرى (mnemotechnique) القديم . غير أن واحداً من مصنفاته الكبرى الهامة قد كتب بالنثر ويحمل عنوان «كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد» وفيه يفصل المؤلف الكلام على الجانبين النظرى والعملى للمسائل الملاحية معتمداً من جهة على من سبقوه فى هذا المضمار ومن جهة أخرى على تجاربه الشخصية بصورة خاصة . وميدان هذا الكتاب الرئيسى هو البحر الأحمر ، والخليج الفارسى والمحيط الهندى وأرخبيل الهند الشرقية (الملايو) ، أما تاريخ تدونه فيتأرجح بعض الشىء أثناء العرض مما يستدل منه على أن المؤلف قد أضاف إليه مرات عديدة وأعاد تنقيحه بصورة يمكن القول معها بأن الكتاب قد خضع لثلاث مسودات ، وذلك فى أعوام ٨٨٠ هـ = ١٤٧٥ و ٨٨٢ هـ = ١٤٧٨ و٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ بالتعاقب[٧٩] ؛ وهو ينقسم بحسب تبويبه إلى اثنى عشر قسما يطلق المؤلف على كل منها اسم « فائدة » ، كأنما يريد بهذا التذكير بعنوان الكتاب . فالفائدة الأولى تبحث فى نشأة الملاحة مع إيراد تفاصيل يغلب عليها الطابع الأسطورى كما يعالج فيها أيضاً الكلام على الإبرة الممغنطة ، أما الفائدة الثانية فهى ما يجب معرفته من الشئون البحرية « للمعلم » الأصيل ، هذا بينما تعرّف الفائدة الثالثة بمنازل القمر والرابعة بمنازل وردة الرياح الاثنين والثلاثين التى تظهر على البوصلة وتسمى « بالأخنان » (مفردها « خن »)[٨٠] ؛ ولعله لا يخلو من الفائدة لو أضفنا إلى هذا أن نفس تلك الطريقة لا تزال مستعملة إلى الآن فى نفس تلك النواحى فملاحو البحر الأحمر لايطبقون على البوصلة الأوروبية الحديثة نظام التقسيم المعهود بل | يقسمونها إلى اثنين وثلاثين قسما ترتبط بطلوع ومغيب نجوم معينة وتبينها هذه « الأخنان »[٨١] . 502

وأما الفائدة الخامسة فتعالج الكلام على الجغرافيين والفلكيين الأول ، بينما تفصل السادسة الكلام فى الطرق البحرية والسابعة فى الأرصاد الفلكية ، وكانت هذه تتم فى الغالب عن طريق قياس المسافات بين النجم القطبى (الجاه)[٨٢] واثنين من نجوم الدب الأصغر (الفرقدين) والنعش ا من نجوم الدب الأكبر[٨٣] . وهى نفس النجوم التى لاتزال تلعب نفس الدور لدى ملاحى البحر الأحمر حاليا[٨٤] . ولاتقاس العروض فى مصنفات ابن ماجد بالدرجات بل بواسطة ما يسمى فى مصطلحه « بالإصبع » ، ولعل هذه التسمية تشير إلى الطريقة البدائية للراصدين الأوائل ؛ وقد تمكن دى سوسير من أن يحدد مقاسه بالكثير من الدقة

بما يعادل درجة واحدة وسبع وثلاثين دقيقة(٨٥) . وكانت هذه الطريقة واسعة الانتشار ويبدو أنه وجدت اصطرلابات مقسمة لا بالدرجات بل بهذه الأصابع(٨٦) . وأصل هذه الطريقة غير معروف وفيران لم يستطع أن يتتبعه سواء بين اليونان أو بين الفرس أو لدى أهل الصين أو الهند أو فى اندونيزيا . وأحمد بن ماجد ومدرسته هو الجغرافى العربى الوحيد الذى لم يتبع مذهب بطلميوس فى تقسيم خطى الاستواء والزوال إلى ثلاثمائة وستين درجة ، فلديه يوجد مئتان وأربعة وعشرون* إصبعاً يمكن الوصول إليها عن طريقتين إحداهما أن كل بيت من بيوت وردة الرياح يحتوى على سبعة أصابع والأخرى هو أن كل منزل من المنازل القمرية الثمانية والعشرين به ثمانية أصابع ؛ ويشير الحاصل فى كلا الحالتين إلى أن الإصبع يعادل درجة وسبعاً وثلاثين دقيقة(٨٧) . أما القسم الباقى من «كتاب الفوائد» فيغلب عليه الطابع العملى التطبيقى ، فالفائدة الثامنة تبحث فى العلامات التى تشير إلى اقتراب اليابس وفى توجيه السفينة وقيادتها وفى مرافئ كجرات** التى شغلت مكاناً رئيسياً على ما يبدو فى نشاط ابن ماجد الملاحى . والفائدة التاسعة تعالج الكلام على السواحل ابتداء من رأس الحد فى الجزيرة العربية ، والعاشرة فى «الجزر الكبار المشهورات المعمورات وهى جزيرة العرب وجزيرة القمر وهى مدكسكر وشمطرة وجاوة والجور [فورموزا] وسيلان وزنجبار والبحرين وجزيرة ابن جاوان وسقطرة» . أما فى الفائدة الحادية عشرة فيرد الكلام على المواسم والسفر فى البحر ؛ ثم يختتم كتابه بالفائدة الثانية عشرة «فى صفة بحر القازم [البحر الأحمر] وجزره وشعبانه»(٨٨) .

أما بقية مصنفات أحمد بن ماجد فمنظومة شعراً وتحمل عادة اسم «الأراجيز» رغما من أنها لم تنظم فى كل الحالات ببحر الرجز ؛ وتتراوح أحجامها بين عشرين وثلاثمائة بيتاً . وفى معظم الأحوال تعالج كل واحدة منها الكلام على طريق بحرى معين ، أى أنها أشبه ما تكون بمرشدات بحرية بالنسبة لعصرها وأحياناً قد تمس الكلام على مسائل تخصصية ترتبط بالملاحة وعلم الفلك البحرى(٨٩) . وإحدى هذه الأراجيز قد تم تأليفها قبل «كتاب الفوائد» فهى بهذا أشبه ما تكون بمسودة مبدئية لمادته ؛ تلك هى أرجوزته الكبرى الواقعة فى ألف بيت بالتقريب والتى تحمل عنوان «حاوية الاختصار فى أصول علم البحار»(٩٠) التى فرغ منها بمسقط رأسه جلفار فى عام ٨٦٦ هـ = ١٤٦٢(٩١) . وهى تقع فى إحدى عشر فصلا يبحث الأول منها فى العلامات التى تشير إلى اقتراب اليابس ، والثانى فى منازل القمر وبيوت البوصلة وفى الأصابع و«الترفا» . وهذا اللفظ الأخير وفقاً لتحقيق دى سوسير(٩٢) هو المعادل (équivalent) الجغرافى للفظ الإصبع ويساوى سبعة وتسعين ميلا بحرياً بالتقريب ، أى رحلة يوم بحرى وذلك بمعدل سرعة متوسط يساوى أربعة أميال بحرية فى الساعة أو بعبارة أخرى أربع عقد (noeud) . ويعالج الفصل الثالث الكلام على مسائل التوقيت والرابع فى المواسم ؛ ومن الخامس إلى الثامن يرد وصف طرق الملاحة المختلفة فى المحيط الهندى وبحاره وخلجانه ؛ ثم يلى هذا الفصل التاسع فى الأرصاد والعاشر

* ورد فى الكتاب سهواً مئتان وأربعون بدلا من مائتين وأربعة وعشرين . (المترجم)

** يكتبها ابن ماجد دائماً جوزرات . (المترجم)

والحادى عشر فى مسائل مختلفة تتعلق بالملاحة من بينها تفسير لفظ يستعمل فى القياس هو « زام » (وجمعها أزوام) كان قد ورد من قبل فى كتاب « عجائب الهند » ؛ وكما وضح حالياً فهو يساوى ثُمن يوم بحرى بليلته أى ما يعادل ثلاث ساعات بالتقريب .

هذان المصنفان ، المنثور والمنظوم ، أعنى « كتاب الفوايد » و « حاوية الاختصار » ، هما أهم ما دونه يراع ابن ماجد من بين جميع مصنفاته الموجودة بين أيدينا سواء من حيث الحجم أو المضمون . وبعض مصنفاته الصغرى تعالج أحياناً مسائل متفرقة تتعلق بالملاحة أو توضح مصطلحات فنية خاصة ، غير أن غالبيتها تقدم لنا أوصافاً مفصلة للطرق البحرية ، أى أنها تمثل « مرشدات بحرية » . وخير مثال لهذا ثلاث أراجيز محفوظة بين مخطوطات معهد الدراسات الشرقية ولم تجد مكانها بالتالى بين المادة التى وصلت إلى يد فيران* ، إحداها (فى حوالى ستمائة بيت) تصف الطريق من ملبار إلى « سفالة الزنج » على الساحل الشرقى لأفريقيا فى حين تصف الثانية (فى مائتين وثمانين بيتاً) الطريق بين الهند وسيلان وجاوه ، أما الأخيرة وهى أصغرها (فى حوالى خمسة وخمسين بيتاً) فتتناول وصف الطريق فى البحر الأحمر بين جدة وعدن . وبهذا فإن تلك الأراجيز الثلاث ترسم لنا صورة حية لذلك الميدان الذى نشط فيه بشكل خاص « المعلم العربى » [٩٣] .

وبين التاريخين الذين أتم فيهما تأليف « حاوية الاختصار » و « كتاب الفوايد » أى بين عامى ١٤٦٢ و١٤٩٠ يمكن توزيع بقية مصنفات ابن ماجد الأخرى التى أمكن معرفة تواريخ تأليفها على وجه 504 التحديد[٩٤] . وتبقى أرجوزة واحدة فقط من بينها يرجع تاريخها إلى عام ٩٠٠ هـ ١٤٩٤ – ١٤٩٥[٩٥] ، فهى تقف بذلك دليلا آخر على أن نشاط حياته الملاحية لم يتجاوز حدود القرن الخامس عشر فيما يبدو . ونتيجة لهذا يمكن القول بأن « كتاب الفوايد » يتوج معرفته النظرية وتجاربه العملية ويمثل الأوج الذى بلغته خبرته فى الملاحة وتطبيقه العملى لنظرياتها .

وابن ماجد يقدر السابقين له فى هذا المضمار تقديراً عالياً خاصة الثلاثة الذين ذكرهم بأسمائهم[٩٦] مضافاً إليهم والده وجده ؛ ولكن هذا لم يمنعه على أية حال من توجيه النقد إليهم فهو يقول ما نصه[٩٧] :

« وقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدورهم رحمة الله عليهم بقولنا أنا رابع الثلاثة وربما فى العلم الذى اخترعناه فى البحر ورقة واحدة تقيم فى البلاغة والصحة والزايدة والهداية والدلالة بأكثر ماصنفوه ...

« وهم مولفين لا مجربين ولم أعلم لهم رابع غيرى وقد وقرتهم بقولى إنى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة

---

* نشر أحد تلامذة كراتشكوفسكى وهو شوموفسكى هذه الأراجيز الثلاث مع ترجمتها إلى الروسية وتزويدها بتعليقات وافية بعنوان « ثلاث مرشدات بحرية غير معروفة لأحمد بن ماجد الدليل العربى لفاسكو دا غاما ، موجودة فى مخطوطة فريدة بمعهد الدراسات الشرقية لأكاديمية العلوم السوفيتية ، موسكو - لينينجراد ١٩٥٧ » .

T.A. Shumovski. Tri neizvestnie lotsii Akhmada ibn Madjida arabskogo lotsmana Vasko da Gami, v unikalnoi rukopisi Instituta Vostokovedenia AN SSSR, M—L., 1957 (المترجم)

فقط وسيأتى بعد موتى زماناً ورجالا يعرفون لكل أحد منزلته ولما اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيف بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وصححتها وجربتها عام بعد عام فى نظم الأراجيز والقصايد . . . . »*(٩٨) .

وابن ماجد قارئ مطلع فى مجال الأدب ولايقتصر محيط قراءته على أهل الجغرافيا الملاحية « كالليوث الثلاثة »(٩٩) وغيرهم من ممثلى هذا الاتجاه الذين لم يكن عددهم بالقليل رغماً من أن « راهنامجاتهم » لم تصل إلينا وأن معرفتنا بمعظمهم ترجع إلى مصنفات ابن ماجد وحدها(١٠٠) . ومعرفة ابن ماجد بالأدب الجغرافى عامة ليست أقل من معرفته بالأدب الملاحى ، وتحتل المكانة الأولى بالنسبة له بطبيعة الحال الجغرافيا الرياضية فيرد لديه ذكر المجسطى والبتانى وعبد الرحمن الصوفى والمراكشى والطوسى وأولوغ بيك(١٠١) ، أى بالتقريب جميع حلقات تلك السلسلة التى عالجنا الكلام عليها من قبل . ومن ناحية أخرى تقابلنا لديه أسماء ابن حوقل وابن سعيد وياقوت(١٠٢) ، أضف إلى هذه أنه لايهمل إيراد أسماء مصنفات أدبية صرفة(١٠٣) كما يستشهد بأبيات لعدد من الشعراء ابتداء من العصر الجاهلى إلى القرن الخامس عشر(١٠٤) .

565 واطلاع ابن ماجد الواسع وتجربته العريضة يبرران إلى حد كبير الفكرة الرفيعة التى كونها عن نفسه وعن مصنفاته ؛ ولهذا السبب فإن فيران وهو خير خبير فى هذا النمط من الأدب لم يبالغ حين رأى فى « كتاب الفوايد » « أثراً يدعو إلى الإعجاب » (l'Oeuvre est admirable) واعتبره ذروة التأليف الفلكى الملاحى لعصره ، كما اعتبر ابن ماجد أول مؤلف للمرشدات البحرية Instructions Nautiqnes الحديثة . ووصفه للبحر الأحمر لم يفقه بل ولم يعادله ، باستثناء بعض التصحيحات فى العروض ، أى مرشد أوروبى فى الملاحة الشراعية (marine à voile) كما وأن معلوماته عن الرياح الموسمية والرياح المحلية وطرق الملاحة الساحلية (au cabotage) والبعيدة المدى تتميز بأقصى درجة من الدقة والتفصيل يمكن أن نتوقعها فى ذلك العصر . ومن الملاحظ أن معرفته بأندونيزيا كانت أقل من معرفته بسواحل المحيط الهندى وجزره ، ولسبب لاندرى كنهه تصور ابن ماجد جزيرة جاوة ممتدة من الشمال إلى الجنوب على نقيض اتجاهها الفعلى ، وتتكرر نفس هذه الغلطة لدى المؤلف التالى له سليمان المهرى بل ووجدت طريقها إلى الترجمة التركية لسيدى على ريس ، وهذا كما يعتقد فيران هو التصحيح الوحيد الهام الذى يمكن إجراؤه فى مؤلفاته(١٠٥) .

أما علاقته بالمذهب الهندى فكانت قوية للغاية وليست أقل من علاقته بالأدب العربى . وفى تحليله

* نقلنا النص حرفيا دون أن نجرى فيه أى تصحيح ، ولن يخفى على القارئ العربى أن ابن ماجد لم يحفل كثيرا القواعد اللغة أو النحو . (المترجم)

للصفات التى يجب أن يتحلى بها المعلم الماهر يسوق ابن ماجد فى هذا الصدد وفى القرن الخامس عشر نفس الألفاظ تقريباً التى وردت فى المصنف الهندى المشهور للقرن الأول للميلاد « جاتكا مالا » Jātaka - Māla[١٠٦] . وبعد قرن من ابن ماجد عندما عالج أبو الفضل العلامى وزير أكبر الكلام عن المسائل البحرية فى مصنفه « آئين أكبرى » عبر عن نفس تلك الآراء فيما يتعلق بصفات « المعلم » بل وبنفس الأسلوب تقريباً[١٠٧] . وبهذا نبصر أمام أعيننا كيف اندمجت عناصر مختلفة من الحضارات العربية والإيرانية والهندية على ممر قرون طويلة لتخرج لنا مزيجاً مركباً فى مجال الجغرافيا الملاحية[١٠٨] . وقد حفظت ذكرى ابن ماجد إلى عصرنا هذا ، ففى الثلاثينيات من القرن الماضى وجد فى يد أحد النواخذة سفر بعنوان « ماجد كتابى » محلى ببعض التصاوير ويمثل فى الغالب أحد مصنفاته . ولم يكن بوسع ذلك الملاح أن يستغنى عنه فى رحلته[١٠٩] .

أما الممثل العربى الثانى للجغرافيا الملاحية الذى أصبح معروفاً لنا بفضل أبحاث فيران فإنه لم يكن على ما يبدو فى نفس القدر من الأصالة والإبداع كزميله السابق له . وأصل سليمان المهرى من بلاد العرب أيضاً فهو من مدينة الشحر على الساحل الجنوبى لحضرموت ، وقد اشتهر سكان هذه المواضع منذ القدم بالمهارة فى الملاحة وكانت لهم صلات عن طريق البحر بسواحل أفريقيا الشرقية | وأرخبيل الهند الشرقية على السواء . ومن المؤسف أنه لا توجد لدينا أية تفاصيل تتعلق بسيرة حياة هذا الملاح العربى حتى فى مصنفاته نفسها ، وبهذا فإننا لانستطيع تحديد الفترة التى عاش فيها إلا اعتماداً على تعليلات ثانوية ، فإحدى مصنفاته يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧ هـ = ١٥١١[١١٠] ولكن عندما صنف سيدى على ريس كتابه « محيط » فى عام ٩٦١ هـ = ١٥٥٤ فإن سليمان المهرى لم يكن فى عداد الأحياء[١١١] . لهذا فإن فترة نشاطه تقع على ما يبدو فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، أى بعد مضى بعض الوقت على رسوخ قدم البرتغاليين بالمحيط الهندى* .

566

وعلى نقيض الحال مع ابن ماجد فإن جميع المصنفات الخمس التى تبقت لنا عن سليمان المهرى مكتوبة نثراً ومحفوظة بأجمعها فى إحدى مخطوطتى باريس المشار إليهما (رقم ٢٥٥٩)[١١٢] . وهى من حيث مضمونها تكرر إلى حد كبير مادة ابن ماجد ، وليس ثمة ما يدعو إلى الكلام عليها جميعها بالتفصيل ؛ وينقسم أكبرها وهو « العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية »[١١٣] الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧ هـ = ١٥١١[١١٤] إلى سبعة أبواب تنقسم بدورها إلى فصول . فالباب الأول يبحث فى أصول الفلك البحرى مع التعريف بمعظم الاصطلاحات التى مرت بنا ؛ وفى الباب الثانى يتحدث عن النجوم وجميع ما يتعلق بها من شئون الملاحة ، أما الباب الثالث ففى الطرق البحرية الواقعة « فوق الريح وتحت الريح »

* لا أدرى ما الذى دفع المؤلف مرتين إلى الكلام عن الخليج الفارسى بدلا من المحيط الهندى . وقد اعتمدت على سياق العبارة لأجرى هذا التصحيح . (المترجم)

أى إلى الغرب والشرق من رأس كومورين Comorin . ويبحث الباب الرابع فى الطرق المارة على الجزر الكبرى المختلفة ، بينما يبحث الخامس فى القياسات (latitudes) التى مرت بنا من قبل مثل قياس النجم القطبى (الجاه) والفرقدين (ب ، ج من الدب الأصغر) والنعش (ا ، ب ، ج ، د من الدب الأكبر) . وأما الباب السادس فيفصل فيه الكلام على الرياح الموسمية السائدة بالمحيط الهندى بينما يفرد السابع لوصف البحر الأحمر ويشفع ذلك بإعطاء وصف لحوالى الثلاثين من طرق الملاحة مبيناً فى ذات الوقت المخاطر التى ينبغى أن يتجنبها الملاحون .

وأما المصنف الثانى الكبير لسليمان المهرى فيحمل عنوان « كتاب المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر » وينقسم هو أيضاً إلى سبعة أبواب[١١٥] تسبقها مقدمة يفسر لنا فيها معنى الاصطلاحين « زام » و « ترفا » . أما الباب الأول فيصف فيه السواحل القارية للمحيط الهندى ، بينما يفرد الثانى للكلام على عروض الموانى الموجودة على السواحل المشهورة والمعمورة ، والثالث لوصف الجزر الكبار المعمورة المشهورة ، والرابع فى المسافات بين بلاد العرب وساحل الهند الغربى وموانى خليج البنغال من ناحية ، وبين ساحل أفريقيا الشرقى وموانى سومطرة وجاوة وبالى من ناحية أخرى . أما الباب الخامس فيفرد لذكر الرياح والعواصف والمخاطر التى تتعرض لها السفن ، والسادس يعالج الكلام على العلامات التى تشير إلى اقتراب الأرض على سواحل الهند الغربية وجزيرة العرب وأفريقيا الشرقية ، هذا بينما يبحث الفصل السابع فى حلول الشمس والقمر | منطقة البروج (Signes du zodiaque) ؛ وفى الخاتمة يقدم مرة أخرى وصفاً 567 لخمس طرق ملاحية .

ويلوح أن الرقم « سبعة » كان محبباً إلى سليمان ، وواحد فقط من مصنفاته وهو رسالة غير كبيرة فى حساب التقويم (القمرى والشمسى والرومى والقبطى والفارسى) ينقسم إلى ستة أبواب[١١٦] . وله رسالة أخرى غير كبيرة أيضاً ذات مضمون عام بعنوان « تحفة الفحول فى تمهيد الأصول » عمل لها شرحاً وافياً[١١٧] على طريقة العلماء القدامى فى مختلف فروع العلوم ؛ وتتداخل مادتها بوجه عام مع مضمون المصنفات السابقة ؛ فالباب الأول فى صفة الأفلاك والنجوم وفى المغناطيس وبيت الإبرة ، والثانى فى تقسيم الدائرة إلى اثنين وثلاثين جزءاً هى « الأخنان » ، والثالث يورد تحديداً مفصلا للفظ « زام » مع وصف لاستعماله ؛ أما الباب الرابع ففى الطرق البحرية الساحلية منها والتى فى عرض البحر ، والخامس فى تحديد ارتفاع النجوم ، والسادس فى المسافات بين الموانى ونقاط أخرى ، ويختم ذلك بالباب السابع فى الرياح خاصة الموسمية بالمحيط الهندى .

وسليمان المهرى يصل فى نهاية الشوط إلى نفس النتيجة التى وصل إليها ابن ماجد بالتقريب وهى أن المعرفة بالشئون البحرية إنما تقوم على أساس مزدوج من سلامة التفكير والخبرة العملية[١١٨] .

وقد زاول سليمان نشاطه بعد نصف قرن بالتقريب من أحمد بن ماجد ، ورغماً من ذلك فإنه لاينعكس

فى تآليفه أى أثر لنفوذ البرتغاليين الذين حدث له وأن التقى بهم دون شك خلال أسفاره البحرية ، لأن السيادة على المياه الغربية للمحيط الهندى كانت قد انتقلت إلى أيديهم منذ بداية القرن السادس عشر كما رأينا . وقد ظلت مصنفاته عربية صرفة[١١٩] ولكنها تقدم لنا بالطبع مزيجاً مركباً (synthesis) من تجربة عدد كبير من الشعوب إن لم يذكر من بينهم ممثلى العلم الغربى فقد ذكر على الأقل أهل التجربة العملية منهم ؛ فى كلام له عن بعض المعالمة نراه يشير إلى « معالمة البحر الهندى وهم العرب والمرامزة وأهل الهند والشوليان [cholas سكان ساحل كروماندل] والزنوج وكذا معالمة الغرب كالمغاربة والفرنج والروميين »[١٢٠] ، وذكر الأخيرين يقف دليلا على أن محيط تجربته العملية كان واسعاً للغاية رغما من أن مصنفاته تبدو قاحلة وفقيرة إذا ما قورنت بمصنفات ابن ماجد من وجهة نظر الاطلاع الأدبى والمستوى الثقافى العام .

ودراسة آثار ابن ماجد وسليمان لا تخلو من صعوبات معينة ، وقد أعرب دى سلان De Slane ، وهو أول من وصف هذه المخطوطات ، عن ريبته الشديدة فى إمكان فهم مادتها يوماً ما ؛ وهو يقول ما نصه « إن أسلوبها يحفل بالكثير من الحوشى الغريب وتكثر به الاصطلاحات الفنية التى لا يتسنى فهمها إلا للملاحى المحيط الهندى دون غيرهم »[١٢١] . ويجب فى البداية أن نقف موقف المعارضة من الشطر الأول لهذه القضية ذلك لأن لغة ابن ماجد وسليمان بسيطة على وجه العموم ، هذا إذا أخذنا فى حسابنا الحدود الضيقة التى أملاها الالتزام بالوزن الشعرى فى معالجة موضوع فنى كهذا ، وقد يلاحظ أحياناً لدى ابن ماجد رغماً من اطلاعه الواسع فى محيط الأدب وجود بعض الألفاظ العامية بل والخروج على الفصيح ، بيد أن هذه ظاهرة عادية بالنسبة للعصر والوسط الذى عاش فيه وأولى بنا أن نعجب لارتفاع مستوى أسلوبه فى الكتابة . وقد رأى فيران لزاماً عليه أن يصحح أيضاً الشطر الثانى من حكم دى سلان تصحيحاً جوهرياً[١٢٢] فهو يعتقد بأن هذه المرشدات والتعليمات الملاحية والفلكية إنما عملت بواسطة ملاحين من أجل ملاحين فلا محيص من أن تكتب باللغة الملاحية الفلكية الخاصة بذلك الوسط الملاحى ، وبما أن هذه اللغة قد بقيت إلى الآونة الحاضرة مجهولة تمام الجهل ولم تخضع بعد لدراسة دقيقة فن المنطقى أن يحتاج عدد من ألفاظها إلى إعمال الجهد وإلى البحث والتقصى ، وكما يبدو من مجهودات فيران ودى سوسير فإن هذه المهمة وإن كانت عسيرة للغاية إلا أنها أبعد من أن تكون مستحيلة بل كان نصيبها التوفيق فى حالات عديدة وأسهمت بهذا فى غنى المعجم العربى .

وبهما يكن من شىء فإن الكشف عن مصنفات ابن ماجد وسليمان وإن تم للأسف فى عهد متأخر إلا أنه يعتبر حدثاً كبيراً ليس بالنسبة لموضوع دراستنا وحده ، أعنى الأدب العربى الذى بدت لنا فيه صفحة مشرقة لم تكن معروفة من قبل ، بل وأيضاً لأن هذه المصنفات تحتل مكانة مرموقة فى تاريخ الحضارة البشرية جمعاء ؛ فهى تصور لنا بدقة كبرى طبيعية الأوضاع الملاحية الأوقيانوسية فى النصف الثانى

568

من القرن الخامس عشر وذلك فى المجال البحرى الممتد بين ساحل أفريقيا الشرقى ابتداء من رأس الرجاء الصالح بالتقريب وبين ميناء الزيتون الشهيرة بالصين* وهو يشمل البحر الأحمر والخليج الفارسى وجميع جزر المحيط الهندى وأرخبيل آسيا الشرقية باستثناء الفلبين واليابان وحدهما . والى جانب هذا فهى تمثل أهم مصدر للمعلومات الجغرافية التى كانت تحت تصرف العصور الوسطى المتأخرة عن البحار الجنوبية ؛ وكما اعترف ابن ماجد نفسه فهى تعتمد إلى حد ما على تلك المرشدات البحرية التى وصفها أبوه وجده من قبل وأيضاً على معلومات الملاحين عاشوا فى عهود سابقة لذلك ثم صححها وأضاف إليها ابن ماجد من أجل ملاحى القرن الخامس عشر . فهذه المصنفات يمكن اعتبارها إلى حد كبير جماعاً للمعارف التى وجدت تحت تصرف جميع ملاحى بحر الهند بما فيهم العرب والزنوج والهنود الغربيون والشوليان والاندونيزيون بل وحتى الصينيون ، وعلى هذا فهى تمثل أهم مصدر | لتاريخ الملاحة والتجارة فى البحار الجنوبية فى الفترة السابقة للفتح البرتغالى مباشرة(١٢٣) .

559

ومن الواضح أن ابن ماجد وسليمان المهرى قد اقتصرا فى مادتهما على المذهب الشرقى وحده ولا يوجد أى أثر للنفوذ البرتغالى عليهما البتة رغما من أن الثانى قد وقع نشاطه الملاحى فى عهد سيطرة البرتغاليين ؛ وعلى النقيض من هذا فإن النفوذ العربى يبدو قوياً على البرتغاليين الذين تعرفوا على التجربة العربية فى الملاحة منذ لحظة دورانهم حول رأس الرجاء الصالح ، بل إن أقدم مادونوه فى هذا المجال يحمل آثار النفوذ العربى بوضوح أضف إلى هذا أن بعض الاصطلاحات الفنية البرتغالية ليست سوى ترجمة صرفة لمثيلاتها العربية(١٢٤).
وإذا كان تأثير أدب الجغرافيا الملاحية العربية على أهل الغرب فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر جلياً بهذا القدر فقمين أن يكون تأثيره على أهل المشرق أوسع وأعمق ؛ ويمكن تتبع هذا بصورة خاصة على الجغرافيا الملاحية فى الأدب التركى التى مرت فى القرن السادس عشر على فترة من الازدهار والانتعاش تدين بها ليس قليلا إلى هذه المصنفات العربية التى فرغنا للتو من الكلام عليها .

لقد حدث وأن ذكرنا أن اسمى ابن ماجد وسليمان قد وجدا طريقهما إلى الدوائر العلمية الأوروبية فى بداية القرن التاسع عشر بفضل كتاب ألفه الملاح والشاعر والكاتب التركى سيدى على ريس ؛ فمصنفه فى « الأوقيانوغرافيا » Oceanography إذا جاز هذا التعبير ، قد اعتمد إلى حد كبير على آثار هذين المؤلفين العربيين بصورة يضحى معها من العسير فى الظروف الحاضرة موافقة رأى القائلين بأصالة كتابه هذا . وعلى مر الزمن الذى ظلت فيه هذه الآثار منزوية فى طى النسيان فإن مصنفه بقى متمتعاً بالإعجاب والتقدير الشديدين اللذين هو جدير بهما ؛ غير أنه حدث تبدل جوهرى فى الصورة بمجرد اكتشاف تلك الأصول إذ وضح أن جميع ذلك الثناء الذى أغدق عليه إنما ينبغى أن يكون فى الحقيقة من نصيب تلك المصادر العربية التى اعتمد عليها . ومن ثم فقد حدث نتيجة لهذا الكشف رد فعل معين ، إذ سقطت

* ورد بالكتاب سهواً الهند الصينية بدلا من الصين . (المترجم)

قيمته بعض الشيء ووضع فى المكان اللائق فيه كنقالة فحسب ؛ وسنرى فيما بعد أن هذا الحكم الأخير أبعد من أن يكون مقبولا من الجميع .

وقد حمل سيدى على بن حسين إلى جانب رتبته «كريس» أو «قبودان» لقب «چلبى» ، كما عرف أيضاً بمخلصه «كاتب رومى» أو «كاتبى» أو «رومى»[١٢٥] وكان يمهر بها أشعاره التى نالت بعض الشهرة فى الأدب الفنى العثمانى . وينسب إليه إلى جانب هذا ترجمة لرسالة فى الفلك أتمها بحلب فى عام ٩٥٦ هـ = ١٥٤٩ وهى من تأليف أحد معاونى أولوغ بيك العلامة على قوشجى المعروف لنا جيداً والذى لعب فى النصف الثانى | 570 من حياته العلمية دوراً كبيراً فى نشر العلوم الدقيقة بين الأتراك العثمانيين ، ويمكن الالتقاء بمخطوطة هذه الترجمة من آن لآخر مما يشير إلى أنها قد تمتعت يوماً ما بقدر من الرواج[١٢٦] . غير أن ما ناله سيدى على ريس من شهرة كبرى إنما يرجع فى الواقع إلى الدور الذى لعبه فى تاريخ الدولة العثمانية من ناحية وإلى ما دونه من آثار تجريبية ونظرية فى الشئون البحرية من ناحية أخرى .

وقد بلغ الاهتمام بالشئون البحرية والملاحية فى الدولة العثمانية درجة رفيعة فى ذلك العصر ، وسنلتقى فى هذا الفصل من كتابنا بعدد هائل من الشخصيات الكبرى التى لعبت دوراً آخر فى هذا المجال . ويرجع أصل سيدى ريس إلى أسرة من عمال الدولة لذا فإنه نال خبرة عملية جيدة فى شبابه واشترك فى عدد من الحملات البحرية فى أرخبيل بحر إيجه وفى الحملة العسكرية التى انتهت بإخضاع جزيرة قبرص فى عام ١٥٢٢ ، ثم أخذ طرفاً لبعض الوقت فى العمليات العسكرية التى قام بها خير الدين بربروسا الشهير على الساحل الشمالى لأفريقيا . وبعد أن اكتسب الشهرة اشترك فى حملة السلطان سليمان الثانية على بلاد الفرس وهى الحملة التى عبرت القوقاز وآذربيجان فى عام ١٥٤٨ . كما شارك أيضاً فى حملته الثالثة التى أمضى السلطان فى خلالها بعض الوقت بمدينة حلب وهناك أكمل مؤلفنا ترجمته لرسالة قوشجى التى أشرنا إليها . وفى حلب بالذات كلفه السلطان بأن يذهب لإحضار الأسطول العثمانى المصرى من البصرة إلى السويس بعد أن نكبه البرتغاليون[١٢٧] .

وكانت تلك آخر محاولة بالتقريب للعثمانيين لوضع حد لتفوق البرتغاليين فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، فقد أبحر الأسطول العثمانى إلى تلك المياه لأول مرة فى عام ١٥٣٨ بهدف كسر شوكتهم ولكن لم يكتب له التوفيق وكان المكسب الوحيد للعثمانيين من تلك المحاولة العسكرية هو أن ميناء جدة قد أصبحت منذ تلك اللحظة فى قبضتهم . وفى عام ١٥٥١ أبحر الأسطول العثمانى المصرى من السويس إلى عمان فاستولى على مسقط ولكن محاولته الاستيلاء على هرمز باءت بالفشل فلم يوفق فى الرجوع إلى مصر سوى سفينتين على حين التجأت خمس عشرة سفينة أخرى إلى ميناء البصرة ، وكانت تلك هى التى كلف على ريس بقيادتها من البصرة إلى السويس . وعلى الرغم مما أظهره من البطولة فقد منى هو أيضاً بالفشل إذ هزم البرتغال بتفوقهم الراسخ الأسطول العثمانى شر هزيمة ففقد عدداً من سفنه ولم تنجح فى الإفلات سوى تسع سفن

وصلت إلى سورات بكجرات فى حال يرثى لها ؛ وهناك اشتراها أمير سورات ووعد بإرسال ثمنها إلى القسطنطينية . ثم تم تسريح بحارتها واختار على ريس من بينهم خمسين فقط ليصحبوه فى العودة إلى أرض الوطن بطريق البر ؛ وقد قوبل على ريس باحترام كبير فى أحمد أباد عاصمة كجرات وأفاد من وقت فراغه هناك ، وذلك بعد ثمانية أشهر أمضاها فى كفاح عنيف فى البحر ، فأنهى كتابه الرئيسى فى المحرم من سنة ٩٦٢هـ = ١٥٥٤ وهو الكتاب الذى يهمنا هاهنا والذى اشتهر بعنوانه المختصر « محيط »[١٢٨] ، أو فى صورته الكاملة كما يبدو من مخطوطة ڤينا « المحيط فى علم الأفلاك والأبحر »[١٢٩]. | غير أن مسودته النهائية تم تدوينها 571 عقب ذلك لأن المؤلف ذكر فيها وصفاً لطريق عودته إلى أرض الوطن ، ويرجع هذا إلى عام ٩٦٤هـ = ١٥٥٦[١٣٠] . وهذا الكتاب لم ير النور إلى الآن فى صورته الكاملة . غير أن كلا مخطوطتيه المعروفتين لنا تتمتع بقيمة كبيرة ، فإحداهما وهى مخطوطة ڤينا نقلت عن أصل الكتاب بديار بكر فى عام ٩٦٦ هـ = ١٥٥٩ أى والمؤلف لايزال على قيد الحياة ؛ أما الثانية المحفوظة بنابلى فيرجع تاريخ تدوينها إلى عام ٩٧٩ هـ = ١٥٧١[١٣١] . هذا وقد نشر قسما كبيراً من كتاب « محيط » فى ترجمة إنجليزية وذلك فى النصف الثانى من السنوات الثلاثينات للقرن التاسع عشر المستشرق همر Hammer[١٣٢] وظلت هذه الترجمة إلى آخر ذلك القرن المصدر الوحيد للتعرف على الأثر وعلى مصادره العربية . ويمثل خطوة هامة فى دراسته ما تم نشره وترجمته من أقسامه على يد بونيللى Bonelli وبتنر Bittner فى منتصف السنوات التسعينات من القرن الماضى ، وأيضاً بشكل خاص ذلك البحث الجغرافى الجدى الذى ندين به لقلم الخبير الكبير بالجغرافيا التاريخية توماشك Tomaschck[١٣٣] . وكان كتاب على ريس قبل اكتشافات فيران يعد بالإجماع أتم وصف للبحار الجنوبية ، وليس هذا فحسب بل الأثر الوحيد حتى تلك اللحظة الذى يقدم لنا فكرة عما بلغته الجغرافيا الملاحية لدى المسلمين فى نهاية العصور الوسطى ؛ وإلى جانب هذا فقد وضح أن المؤلف لم يكن جاهلا بأخبار اكتشاف الأسبان والبرتغاليين للعالم الجديد كما تبين أن أبعد موضع يذكره فى الشرق الأقصى هو جور (كوريا أوفورموزا)[١٣٤] . وان نظرة عاجلة إلى فهرس موضوعات كتابه لتبين لنا دون حاجة إلى برهان أو دليل مدى اعتماده على مصادره العربية[١٣٥] :

ينقسم كتاب « محيط » إلى مقدمة وعشرة أبواب تنقسم بدورها إلى عدد من الفصول يختلف عددها من باب لآخر ؛ فنى المقدمة القصيرة يتكلم المؤلف عن الظروف التى وضع فيها كتابه ويذكر أنه اعتمد فى تأليفه على محادثات مثمرة طيلة ثمانية أشهر مع « المعالمة » المهرة الذين التقى بهم فى الخليج الفارسى ، وعلى تلك المصنفات العربية الخمس التى يذكرها بعناوينها ؛ واثنان من هذه المصنفات لابن ماجد أما الثلاثة الأخرى فلسليمان[١٣٦] وهى الموجودة غالباً فى متناول الأيدى فى الأصل الذى نشره فيران . ويبحث الباب الأول من كتاب « محيط » فى الاتجاهات الجغرافية وتقسيم القبة السماوية وأبعاد النجوم وارتفاعها ، وهنا يرد لأول مرة بالنسبة للعلم الأوروبى تفسير لفظ « إصبع » . أما فى الباب الثانى فيعالج

الكلام على حساب الوقت فيبحث فى أسس السنين الشمسية والقمرية كما يبحث أيضاً فى السنين البزيطية والقبطية والفارسية . وفى الباب الثالث يتناول الكلام على تقسيم بيت الإبرة وعلى منازلها وعلى « الترفا » ؛ ولم يصبح معنى هذه الألفاظ مفهوماً بتمامه إلا بعد تحليل المصادر | العربية . أما الباب الرابع فيصف الطرق 572 البحرية الساحلية إلى الغرب والشرق من رأس كومورين ، كما يتحدث فيه المؤلف عن « الدنيا الجديدة » أميريكا ؛ وهو يدين بمعلوماته فى صددها [١٣٧] إلى مسيحى من الذين دخلوا حظيرة الإسلام[١٣٨] ؛ وفى حديثه عنها يؤكد على ريس أن « الدنيا الجديدة » ليست من ضمن « الربع المعمور » من الأرض أو من « الأقاليم السبعة » كما أنه على علم باكتشاف البرتغاليين لها « منذ أكثر من خمسين عاما »[١٣٩] . ويفرد الباب الباب الخامس خاصة للكلام على الحساب والمصطلحات الفنية المستعملة بين الملاحين ، على حين يفرد الباب السادس للكلام على ارتفاع بعض النجوم التى تستعمل فى قياس (عرض) الموانى والجزر (كالنجم القطبى والفرقدين ونعش) ، والمقياس الرئيسى لديه هو الإصبع . ويبحث الباب السابع فى المسافات بين الموانى والطرق المستعملة فى تحديدها خاصة مقياس « الزام » ، ويليه الباب الثامن فى الرياح الموسمية مع تحديد مواقيت هبوبها ، ثم الباب التاسع فى وصف ثلاثين طريقاً بحرياً (القسم الجنوبى من البحر الأحمر والسواحل الأفريقية والآسيوية للمحيط الهندى) ؛ وأخيراً يأتى الباب العاشر الذى يتحدث فيه عن المخاطر التى يتعرض لها الملاحون خاصة الأعاصير (cyclones) . من هذا التعداد يتضح لنا إلى أى حد ارتبط « محيط » بمصادره العربية ارتباطاً وثيقاً ، وإلى أى حد كان بمستطاعه قبل الكشف عن تلك المصادر أن يحدث أثراً بالغاً فى نفس كل من قرأه بما يحفل به من مادة قيمة وما يمتاز به من طرافة وأصالة .

ويمكننا لتكوين فكرة عن هذا أن نكتفى بالتحليل الذى عمله له توماشك ، وهو علامة اشتهر بمعرفته الواسعة بالجغرافيا والتاريخ ولكنه لم يكن من المتخصصين فى الاستشراق بل كان بحاثة يهتم بفحص المسائل من وجهة نظر تاريخ الجغرافيا العامة . وهو يعتبر « محيط » أثراً نادراً بل يرى فيه الأثر الوحيد من نوعه فى الشرق الذى يبحث فى المسائل البحرية فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى ، كما يعتقد أيضاً أنه يجمع بين دفتيه مادة نقلية لا مثيل لها بحيث يمكن مقارنته بأفضل الآثار البرتغالية من هذا الطراز[١٤٠] ؛ أما مضمونه فحافل للغاية وهو أشبه ما يكون بمرشد شرقى للملاحة (Sailing Directory) فريد فى نوعه يفوق بكثير جميع ماعرف إلى تلك اللحظة ولايبلغ مرتبته إلا بضعة مصنفات أوروبية مثل مرشدات الملاحة (Seespiegel) التى كانت تصدرها مدن الهانزا[١٤١] ؛ وتتركز أهميته بصورة خاصة فى أنه يعاون على رسم خارطة لسواحل المحيط الهندى وجميع الأرخبيل الشرقى تفوق بشوط بعيد من حيث الدقة والصحة تلك الخارطات الخيالية لمصنفات العصر الكلاسيكى ولا تقل شأناً من خارطات البرتغاليين المعاصرة لها ، ويميل توماشك إلى الاعتقاد بأن هذه الأخيرة قد خضعت بعض الشىء لتأثير الخارطات الشرقية وهو أمر يوافقه عليه كونتى روسينى Conti Rossini[١٤٢] . وكتاب « محيط »

يمثل إلى حدما | انتقالا جوهرياً من مجال الملاحظات المتناثرة والإرصادات المبعثرة للعهود السابقة إلى مجال 573
المعرفة المدروسة للعصور الحديثة ، ويتدارك النقص فى معلوماتنا عن بلاد كبيرة وهامة كالهند ؛ هذا
وينتظم مجال بحثه جميع السواحل والجزر الممتدة من جدة إلى كوريا[١٤٣] . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً
أن تسجيل جميع تلك التفاصيل قد تم بتطبيق مناهج بدائية فى الرصد الفلكى ورثت عن العهود الأولى
لنشأة علم الفلك ولكن اعتمدت من ناحية أخرى على تجارب حافلة وخبرة طويلة لأجيال عديدة من
الملاحين الفرس والعرب والهنود . ويمكن القول بأنه لم يصلنا من العهود السابقة للعهد البرتغالى أى
شبيه لهذه الأرصاد التى تعتمد على مراقبة النجم القطبى ونجوم الدبين الأكبر والأصغر ، ولهذا السبب
فإن الخارطة التى تم تصويرها بناء على ملاحظات كتاب « محيط » تكتسب أهمية كبرى لأنها تمثل ذروة
ما بلغه فن الكارتوغرافيا فى الشرق . أما نقطة التحول التالية لهذه فى ذلك الميدان فيبصرها توماشك فى
الخارطات البرتغالية ، وهى تلك الخارطات الممتازة التى ظلت المرشد الأول للملاحة فى بحرالهند حتى
عام ١٦٤٨[١٤٤] .

وباكتشاف المصادر العربية « لمحيط » فقد ثبت أن ذلك التقدير والإطراء الذى تمتع به الكتاب وكان
له ما يبرره إنما ينبغى أن يتجه إلى ناحية أخرى ؛ وفى أبحاثه العديدة حول هذه المسألة ابتداء من
عام ١٩١٣ يصر فيران إصراراً شديداً يصل به أحياناً إلى درجة التطرف على أن « محيط » بأجمعه لا يمثل
سوى ترجمة ، بل وترجمة حرفية فى بعض الأحايين ، لمصنفات أحمد بن ماجد وسليمان المهرى حيث
لم يفعل سيدى على ريس شيئاً سوى أن نقل كلا مهما بحذافيره[١٤٥] . وفى خاتمة بحث من أبحاثه الأخيرة
يصرح بما نصه « لم يعد « محيط » يمثل بالنسبة لنا تلك الأهمية التى أثارها فى القرن الماضى ، وذلك منذ
اللحظة التى تم فيها الكشف عن أصوله العربية . وفى الواقع أن سيدى على ريس لم يفعل شيئاً سوى أن
ترجمها ترجمة حرفية مع إضافات تافهة أتت بنتيجة عكسية أحياناً »[١٤٦] .

إن رأى فيران هذا لا يخلو من التعسف ، وقد لاحظ توماشك أن سيدى على ريس قد أضاف إلى
مادة مصادره الكثير من معلوماته الشخصية ، مثال ذلك ملاحظاته عن المحاصيل الرئيسية للأقطار المختلفة
وعن الجهات المقابلة من الكرة الأرضية (antipodes) وعن اكتشافات الأسبان والبرتغاليين
فى « الدنيا الجديدة »[١٤٧] . وإلى هذا يضيف كاله P. Kahle زيادات هامة بفحصه لأوصاف الآلات
الفلكية الملاحية (nautische Instrumente) التى يعرضها بوضوح كتاب « محيط » وكانت
غير معروفة لدى العرب[١٤٨] ، ثم يبين كيف كان يعرفها المؤلف[١٤٩] | وكيف كان يجيد 574
استعمالها[١٥٠] . وكاله لا ينفى أن كتاب « محيط » قد فقد بوجه عام أهميته عقب العثور على مصادره العربية ،
غير أن الملاحظات التى بيناها تدل على أننا بإزاء ملاح ماهر استطاع الإفادة من مصادره بالكثير من الذكاء ؛
أما تلك الأقسام من كتابه التى لاتوجد فى المصادر العربية فستحتفظ على الدوام بأهميتها كاملة غير منقوصة ،

وبهذا فإن كتاب « محيط » لا يستحق فى هذه النقطة بالذات تلك الإدانة الشديدة التى وجهها إليه فيران ، وإن وجد ثمة ما يبررها.

وكتاب « محيط » لم يظفر برواج ما بين الأتراك أنفسهم ، ولعل مرد ذلك إلى أن مادته ذات لون تخصصى يحول دون تداولها إلا بين المتخصصين فى الشئون البحرية أو المهتمين بدراسة المسائل الجغرافية . وقد بدا هذا الاتجاه التخصصى فى الأسلوب نفسه فغلب عليه نتيجة لذلك طابع فنى (technical) صرف لا يمكن أن يحس منه اطلاقاً أن المؤلف كان كاتباً كبيراً على حد سواء ، ويصف توماشك لغته بأنها « مرهقة ومطنبة » (schleppened und weitshweifig) . أما من عنوا بتلك المسائل التى يعالجها فقد عرفوه جيداً ، فحاجى خليفة مثلا ينقل عنه فى كتابه فى الجغرافيا « جهانما » جميع القسم من الباب الرابع الذى يعالج الكلام على جاوه وسومطره وسيلان ، كما ينقل عنه بالحرف الواحد تقريباً وصفه لجزر نيكوبار وملديف(١٥١) .

وباسم سيدى على ريس يرتبط مصنف آخر ذو طابع جغرافى هو « مرآت الممالك » ، ولعله يمثل أهمية أكبر بالنسبة لجماهير القراء . وفيه يعرض المؤلف اوصف تجواله على مدى أربعة أعوام فى طريق عودته من الهند إلى وطنه بطريق البر حين حدث له أن اجتاز عدداً من الأقطار ومر بعدد كبير من المدن . فمن كجرات عبر سيدى على نهر السند إلى لاهور ومن هناك اتجه إلى دلهى حيث بلاط السلطان همايون ، وقد استقبله السلطان بالكثير من العطف فى نوفمبر من عام ١٥٥٤ بل وجهد فى إقناعه بالبقاء فى خدمته ، غير أنه رغما من جميع عروضه المغرية فإن سيدى على غادر دلهى إلى بلاده حاملا رسالة من همايون إلى السلطان سليمان القانونى لايزال أصلها محفوظاً إلى أيامنا هذه(١٥٢) ، ووصل سيدى على إلى كابل ثم اجتاز بدخشان وختلان وبلاد ما وراء النهر وخوارزم وكان قصده أن يجتاز سهوب (دشت) قبچاق ليصل إلى استراخان ، غير أن العمليات العسكرية لجنود دولة المسكوف فى تلك الأصقاع اضطرته إلى الرجوع القهقرى إلى خراسان ، وزاد فى تعقيد سير الرحلة وإبطائها اشتعال نيران الحرب آنذاك بين الدولة العثمانية وبلاد الفرس . وفى قزوين تشرف على ريس بمقابلة الشاه طهماسب ولكنه لم يشأ الانضمام إلى سفارته التى بعثها إلى السلطان سليمان بل حمل منه هو أيضاً رسالة خاصة إلى السلطان لا يزال أصلها محفوظاً إلى اليوم(١٥٣) . وبلغ سيدى على ريس القسطنطينية فى أبريل عام ٩٦٤ هـ - ١٥٥٧ ، ثم غادرها إلى أدرنه حيث رفع تقريره إلى السلطان سليمان ، وقد حظيت توضيحاته بالقبول لدى السلطان الذى لم يلبث أن عينه دفتردار لولاية دياربكر ، وقد توفى سيدى على ريس فى عام ٩٧٠ هـ = ١٥٦٢(١٥٤) .

57

وبفضل الترجمة القديمة الموجزة التى ندين بها للمستشرق الألمانى ديتس Dietz فإن هذا المصنف الذى كان معروفاً فى المخطوطات فقط قد اجتذب أنظار أوروبا منذ عام ١٨١١ ؛ ثم نقل موريس M. Morris

الترجمة الألمانية إلى الفرنسية فى عام ١٨٢٦ — ١٨٢٧ ؛ بيد أن الأصل التركى لم يطبع إلا فى عام ١٣١٣ هـ = ١٨٩٥(١٥٥) ، وذلك على يد الأديب التركى المعروف أحمد جودت . واعتماداً على هذه الطبعة ترجم ڤامبيرى A. Vambery الكتاب إلى الإنجليزيه (١٨٩٩) ؛ وحتى هذه الترجمة الأخيرة لاتقف عند المستوى المطلوب (١٥٦) . و « مرآت الممالك » هو النموذج الوحيد لوصف رحلة يصلنا عن العهد الكلاسيكى للأدب العثمانى(١٥٧) ، ويمكن الحكم من وصفه القصير على العدد الكبير من البلاد التى عبرها المؤلف والشخصيات الكبرى لعصره التى التقى بها . وأسلوبه فى هذا الكتاب يختلف اختلافاً أساسياً عن أسلوب مصنفه الآخر « محيط » ، فنحن هاهنا بإزاء مصنف حاول فيه مؤلفه أن يظهر نفسه كأديب بكل مايحمل هذا اللفظ من معنى ، ولعل هذا الاتجاه الأدبى للكتاب لم يكن فى صالح السرد الجغرافى من وجهة نظرنا إذ تتناثر فيه المقتطفات الشعرية من شعره هو ومن شعر الغير وتغلب على أسلوبه المحسنات البديعية والتشبيهات الشعرية مما يولد الإحساس بأن المادة الجغرافية إنما تشغل المكانة الثانية لدى المؤلف ؛ ولكن لا يمكن بأية حال إنكار أن الكتاب يتمتع فى بعض جوانبه بحيوية كبيرة ويقدم على وجه العموم تفاصيل كثيرة قيمة ذات طابع واقعى . أما بالنسبة للمناطق الواقعة على المجرى الأعلى لنهر أمودريا (جيحون) فإن معلوماته تتميز بأهمية خاصة كما وضح ذلك من دراسات فتشنكو Fedchenko(١٥٨) ومينايف Minaev(١٥٩) .

ويمكن أن نلاحظ لدى على ريس ظاهرة طريفة تقف دليلاعلى بقاء النظريات الجغرافية القديمة وصلابة مقاومتها من جهة وعلى استمرار الاختلاف القديم بين النظرية والتطبيق من جهة أخرى ، وهو شىء كان من العسير أن نتوقع وجوده لدى رجل ذى خبرة بالجغرافيا الملاحية كعلى ريس . فهو مثلا عندما وضح للسلطان همايون فى عام ١٥٥٦ السبب فى تلقيب السلطان العثمانى « بسلطان الأقاليم السبعة » نراه يفسر هذا بقوله إن سلطانه يمتد على مدن وأقطار تقع فى نطاق الأقاليم السبعة ففى الإقليم الأول توجد اليمن وفى الثانى مكة وفى الثالث مصر وفى الرابع حلب وفى الخامس استنبول وفى السادس كفا (فيودوسيا Feodosia) وفى السابع بودا Buda وڤينا(١٦٠) . إزاء هذا التقسيم الذى يرتفع إلى العصور الوسطى والذى أضحى مجرداً من كل صلة بالواقع فإنه لا يمكننا إلا أن نوافق توماشك فى ألفاظه وإن كان قد أصدرها فى مناسبة أخرى ، فهو يقول « لقد بلغ الأمر مع العلماء آنذاك حداً جعلهم يروا من الأفضل أن يحنوا هاماتهم للعلماء الأوائل بدلا من أن يفيدوا من التجارب العملية التى تجمعت فى عصرهم وبين ظهرانيهم ، ذلك أن العنجهية العلمية قد دفعت باتباع مذهب بطلميوس إلى الاعتقاد بأنه من العار عليهم أن ينزلوا إلى مستوى الجماهير فيأخذوا العلم من تجارب الملاحين »(١٦١) . وكما أبصرنا من قبل فقد اهتم على ريس بدور التجربة فى كتابه « محيط » وانعكس ذلك فى كتابته ، غير أن النظرية القديمة قد استطاعت ولو بطريقة غير شعورية أن تسيطر عليه وتبعث فيه أحياناً ضرباً من الإصرار على التمسك بالقديم وتكرار النظريات البالية . ورغما

من اعترافنا بما يدين به لمصادره العربية فلنا الحق كل الحق فى القول بأن كتاب على ريس يمثل ظاهرة كبرى فى الجغرافيا الملاحية لدى الأتراك ، هذا مع اعتقادنا أن تقدير العلامة التركى المعاصر ع . عدنان (اديڤار) له مبالغ فيه بصورة كبيرة[١٦٢] .

وما قام به سيدى على ريس بالنسبة للمحيط الهندى قام به بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه معاصر له لم تنته حياته نهاية سعيدة وهو پيرى ريس الذى استند بجهوده العلمى على قاعدة أوسع مما كان عليه الحال مع سيدى على ريس . وإذا كان الأخير قد اعتمد اعتماداً كلياً على النظرية والتجربة الشرقيتين فإن پيرى ريس قد أفاد من المادتين الشرقية والغربية على السواء ، زد على هذا أنه لم يكتف بالجمع بينهما جنباً إلى جنب بل مازج بينهما وتمثلهما فى تأليف عضوى متناسق . أما من حيث المنهج فهو قد فاق على ريس بشوط بعيد ، وتعتبر آثاره التى ظهرت فى القرن السادس عشر أقصى ما بلغته الجغرافيا والكارتوغرافيا الملاحية بين الأتراك فى عهد ازدهار قوتهم وسلطانهم .

وشخصية پيرى ريس نموذج جيد (typical) لهذه الفترة فى تاريخ الملاحة العثمانية ، فهو لا يقف نسيج وحده بل يكمل حلقات تلك السلسلة من الشخصيات الكبرى التى تولت قيادة الأسطول العثمانى آنذاك ، وهو كمعاصره الشهير خير الدين بربروسا أو كخاله كمال ريس الذى تدرب عليه فى الشئون البحرية لم يفرق دائماً فى نشاطه البحرى بين دور القرصان الغاشم وأمير البحر التركى الذى يعمل فى خدمة الدولة العثمانية ، ويلوح أن الدولة نفسها لم تستطع أن تفصل بدقة بين هذين الدورين ؛ وخير مثال لهذا خير الدين بربروسا Barbarossa (حوالى عام ١٤٨٣ – ١٥٤٦) بكلربك الجزائر وواضع أسس السيادة العثمانية على شمال أفريقيا ، فإنه قد رجح القرصنة أكثر من مرة[١٦٣] .

واسم پيرى ريس غير معروف لنا فى أصله على وجه الدقة ، ويبدو أنه كان يدعى محى الدين ابن محمد لأن پيرى كان مخلصه الأدبى[١٦٤] ، وهو كخاله كمال ريس الذى غرق فى يناير من عام ٩١٦ هـ = ١٥١٠[١٦٥] والذى عرفته وثائق وحوليات جمهورية البندقية[١٦٦] باسم Camalli كان على ما يبدو مسيحياً فى الأصل وربما من أصل يونانى[١٦٧] ؛ ويلوح أنه شارك فى المغامرات البحرية الكبرى لخاله فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط عندما أرسله السلطان العثمانى فى عام ٨٩٢ هـ = ١٤٨٧ لتقديم العون إلى آخر أمراء غرناطة من دولة بنى نصر ، غير أن محاولاته لم تسفر عن أية نتائج إيجابية[١٦٨] . ومما لاشك فيه أن پيرى ريس قد شهد استسلام الأسطول البندقى للأتراك عند ليبانتو Lepanto* فى عام ٩٠٥هـ = ١٤٩٩[١٦٩] ؛ وإلى حوالى هذا العهد ترجع بعض المصادر مغامرة معينة فى تاريخ حياته وهى نشاطه كجاسوس بالبندقية حوالى عام ١٥٠٢[١٧٠] . وهو يدين بالكثير لمدرسة كمال ريس ، وهذا الأخير لم يكن قائداً بحرياً من الطراز المقاتل ولكنه كان

* هذه ليست واقعة ليبانتو البحرية المشهورة لعام ١٥٧١ التى هزم فيها الأسطول المسيحى أسطول العثمانيين . (المترجم)

يتمتع فى مقابل ذلك ببراعة سياسية كبيرة حتى اضطر جمهورية البندقية إلى التراجع مراراً[١٧١] ومتن صلة الدولة العثمانية بشمال أفريقيا بشكل ملحوظ[١٧٢] ، فلا غرو أن أشاد الشعراء الأتراك بأعماله المجيدة فى قصائد خاصة تحتوى إحداها على عشرة ألف مثنوى[١٧٣]. ويلاحظ مؤرخ سيرة حياته (biographer) أن ما قام به پيرى ريس لم يكن ليتأتى دون رحلات كمال ريس وخبرته وأثره الكبير عليه ، بل إن نفس القول يصدق على ما ناله پيرى ريس من مكانة مرموقة[١٧٤] .

ولعل الفضل يرجع إليه أيضاً فى معرفة پيرى ريس الواسعة بمصر ، إذ أن صلة كمال ريس بها ترجع إلى عام ١٤٩٨[١٧٥] عندما قام بمهمة من أجل الدولة ؛ غير أن الحظ لم يبسم هناك بالتالى لابن أخته فقد حدث بعد ذلك بمدة طويلة أن شغل منصب قبودان مصر ثم كلفه السلطان بالمهمة التى أشرنا إليها من قبل وهى قيادة الأسطول العثمانى المصرى من السويس إلى الخليج الفارسى لقتال البرتغاليين . وفى طريقه أخضع پيرى ريس عدن فى عام ٩٤٥ هـ = ١٥٣٨ وانتهب مسقط فى عام ٩٥٩ هـ = ١٥٥١ ثم حاصر هرمز بيد أنه فشل فشلا كاملا أمام البرتغاليين الذين هزموه شر هزيمة فلم يستطع الإفلات إلا بثلاث سفن وصل بها إلى السويس . ثم قدم إلى المحاكمة فى القاهرة ولعب دوراً ليس بالضئيل فى إدانته شكوى والى البصرة مما جرى على يده من سبى ونهب على طول سواحل الخليج الفارسى ، فحكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ ذلك فى حوالى عام ٩٦٢ هـ = ١٥٥٤ أو قبل ذلك بقليل[١٧٦] .

هذه الحياة المتقلبة المليئة بالأحداث لم تمنعه على أية حال ، وذلك على النقيض من خاله ، أن يخلف صيتاً واسعاً فى الأدب الجغرافى يستند | بصورة خاصة على أطلس ملاحى كبير يعرف باسم « بحرية » وخارطة كبيرة للعالم ينعكس فيها بعض الشىء تأثير خارطة كولومبس التى لم تصل إلى أيدينا[١٧٧] . 578

ويحيط بالتاريخ الأدبى لوضع المصنف الأول تعقيد شديد لا يقتصر سببه فى أنه وجدت للكتاب مسودتان كما اتضح فى الآونة الأخيرة ، بل لأن المؤلف نفسه قد أحاطه ببعض الغموض . فهو يذكر أن الدافع إلى تأليف الأطلس كان مناسبة اعتلاء السلطان سليمان للعرش عندما حاول أهل كل مهنة أن يقدموا إليه هدية من مجال فنهم ، لهذا فقد بدأ المؤلف عمله فى عام ٩٢٧ هـ (ابتداء من ديسمبر عام ١٥٢٠) ورفع الأطلس كاملا إلى السلطان سليمان فى عام ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ [١٧٨] . غير أنه يبدو من أقسام معينة فى المقدمة أن پيرى ريس قد بدأ عمله فى الأطلس قبل ذلك بمدة طويلة أى فى عهد السلطان سليم وكان يريد رفعه إليه ولكن لما وافته منيته رفعه إلى السلطان سليمان القانونى[١٧٩] . وتشير جميع القرائن إلى أن العمل قد سار جنباً إلى جنب فى كل من الأطلس والخارطة المشار إليها وذلك بمدينة غليبولى التى كانت المركز الإدارى للأسطول العثمانى آنذاك ووجدت بها المادة اللازمة التى استعان بها المؤلف فى شكل واسع . وإلى جانب هذا فقد كانت وراء المؤلف تجربة عشرين أو ثلاثين عاما[١٨٠] من المران العملى فى الشئون البحرية بحيث تردد صدى ذلك فيما تميز به المصنف من نضج واكتمال .

وكتاب « بحرية » وإن كان يمثل فى أساسه أطلساً ملاحياً إلا أنه كان يستهدف ولو بقدر متواضع أن يكون دليلا للملاحة الشراعية ببحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط[١٨١] وأن يخدم فى نفس الوقت كمرشد فى معرفة المواضع المبينة على الخارطات ، ولهذا السبب فإن المصنف يقدم وصفاً مفصلا بما فيه الكفاية لجميع السواحل مع بيان التيارات والشعب والمراسى والخلجان والمرافئ والمضايق ومنابع المياه العذبة والمواضع المحصنة والقلاع والمبانى والخرائب[١٨٢] ، كما يتعرض خلال ذلك للحديث عن الجغرافيا السياسية والوضع الإدارى للأماكن المختلفة . ولا يخلو من طرافة فى هذا الصدد أن نلاحظ أن تعليقاته البدائية على الآثار القديمة تمثل رغماً من سذاجتها أهمية كبيرة فى بعض الأحايين[١٨٣] . ولنذكر على سبيل المثال أن البحوث الأثرية الحديثة التى أجريت فى منطقة ملطية وفى الجزر والسواحل المجاورة قد أثبتت أن پيرى ريس محل للثقة فمن بين جميع التفاصيل التى يوردها لا توجد واحدة لم تدعمها الأبحاث المعاصرة[١٨٤] .

580 وتشمل المسودة الأولى لكتاب « بحرية » مائة وثلاثين فصلا يعالج كل واحد منها الكلام على موضع جغرافى أو ناحية غير كبيرة وذلك بحسب ترتيب معين لا تتفق فيه جميع مخطوطات الكتاب . وكل قسم من هذه الأقسام تصوره فى العادة خارطة ويقف أشبه ما يكون مستقلا بنفسه بحيث يفتقد أى رباط عام داخل الكتاب باستثناء التتابع الجغرافى على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط ابتداء من غليبولى .

أما المسودة الثانية للمصنف فقد بدأ فيها بعد قليل من الأولى ، وكانت المناسبة التى دعت إلى ذلك هو أن السلطان سليمان القانونى كان قد بعث بالصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر فى أكتوبر عام ٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ ، وكان يقود الأسطول پيرى ريس الذى حمل معه نسخة من كتابه « بحرية » وكان قد انتهى من تأليفه قبل ذلك بقليل ولكنه كان يمثل « أوراق مبعثرة »[١٨٥] على حد قول مؤلفه . وقد رجع پيرى ريس أثناء اللحظات الحرجة من الرحلة إلى كتابه أكثر من مرة بحيث استطاع إبراهيم باشا أن يقدر قيمته ومن ثم فأشار عليه بأن يؤلف بين هذه الأوراق على صورة كتاب كامل فاستجاب پيرى ريس لرغبته وبدأ يعيد النظر فى المتن والخارطات[١٨٦] حتى انتهى من المسودة فى فى خلال عامين من ذلك ، أى فى عام ٩٣٢ هـ = ١٥٢٦[١٨٧] .

والتغيرات الأساسية التى طرأت على الكتاب والتى يمكن تتبعها من التحليل الذى قام به تيشنر Taeschner معتمداً فى ذلك أساساً على مخطوطات استنبول[١٨٨] قد قبلها فى جوهرها كاله Kahle رغماً من أنه أظهر فى البداية بعض التردد حول نسبة المسودة الثانية إلى المؤلف نفسه . ولا تزال بعض النقاط التى تمس تفاصيل معينة غير واضحة ولن يتم توضيحها إلا بعد دراسة دقيقة منظمة لجميع الأثر خاصة النماذج الموجودة باستنبول والتى لم تفحص بعد بصورة وافية .

والتعديل الذى أجرى فى المسودة الثانية للمصنف يمس قبل كل شىء الخارطات التى زيد فى عددها بشكل كبير ، ففى المسودة الأولى حظى كل قسم من الأقسام المائة والثلاثين بخارطته الخاصة به ، أما الآن

فإن عدد الخارطات ارتفع إلى مائتين وعشرة خارطة بخلاف خارطات أخرى ذات طابع مستقل(١٨٩) . وينمو عدد الخارطات فى المخطوطات التى ترجع إلى تاريخ متأخر عن ذلك ولعلها لاتقتصر فى هذا على مادة پيرى ريس وحده ، ويتضح هذا بصورة خاصة من مثال البحر الأدرياتيكى حيث تنفرد الفصول الستة المكرسة له (من الثامن والخمسين إلى الثالث والستين) باثنين وأربعين خارطة ، لعلها هى التى تبقت من أربع وأربعين(١٩٠) وتبدو هذه الزيادة أيضاً فى أقسام أخرى ، فالنيل مثلا (الفصلان الثامن والتسعون والتاسع والتسعون) يفوز هنا بلا أقل من عشر خارطات(١٩١) .

ولم يقتصر التعديل الذى أجرى فى المسودة الثانية على المادة الكارتوغرافية وحدها بل امتد إلى المتن أيضاً ، فالمقدمة قد غيرت معالمها تماماً | لأن المؤلف أضاف إليها رسالة منظومة فى خمسين فصلا تعالج 581 موضوعات شتى مما يحتاج إليه الملاحون(١٩٢) كالخبرة والاستعداد الفطرى فى هذه المهنة واستعمال البوصلة والخارطات والمعرفة بالجغرافيا الملاحية ، كما يرد عرض لبعض أقسامها مثل منابع النيل وزنزبار وبحر عدن والمحيط الهندى وبحر الصين والمحيط الأطلنطى والاكتشافات البرتغالية وتوضيح خطوط الزوال وخطوط العرض(١٩٣) . وتنتهى المقدمة بقصيدة طويلة أشبه بخاتمة فى مائة بيت يعرض فيها المؤلف للأسباب التى حدت به لوضع المسودة الثانية للكتاب(١٩٤) .

والتنوع الذى طرأ على هذه المسودة الثانية ، التى ترد بعض مادتها نثراً وذلك عند توضيحه للخارطات وبعضها شعراً ، يرجعه المؤلف إلى عوامل خارجية صرفة ؛ مثال ذلك أن الحاجة إلى استعمال الأطلس قد تطرأ ليلا فى لحظات خطر ماثل لذا فمن الضرورى أن تكون المعلومات فى متناول اليد سريعاً ولن يتأتى هذا بالنسبة لأثر شعرى(١٩٥) . وهذا القول لا يخلو بالطبع من وجاهة ، غير أننا إذا أمعنا النظر فى محتويات الفصول المنظومة شعراً فإنه لن يفوتنا ملاحظة الشبه فى بعض النقاط بين هذه المقدمة ورسائل أحمد بن ماجد بحيث يدعو الأمر إلى التساؤل أليس من الممكن أن يكون پيرى ريس قد اطلع خلال الفترة الزمنية بين المسودتين على أراجيز الربان العربى وأنه قد صاغ بالتالى مقدمته على منوالها . وبالطبع فإن الشبه بين الاثنين يقف عند هذا الحد ، ومن المستحيل تصور وجود علاقة أيا كانت بينهما لأن پيرى ريس ينتمى إلى مجموعة أخرى لا تمت بصلة ما إلى وسطسيدى على ريس . ويرى المتخصصون أن لغة « بحرية » سهلة ولو أنها لاتخلو من وقت لآخر من استعمال بعض الصيغ المهجورة مما يرفع من قيمتها لدى المشتغلين بدراسة اللغات التركية(١٩٦) .

أما فيما يتعلق بمصادره الكارتوغرافية فإن أطلس پيرى ريس يرتبط ارتباطاً كلياً بالمادة الغربية ، ويكفى مجرد إلقاء نظرة على أية واحدة من خارطاته ليقتنع المرء فوراً بعدم وجود أى أثر للتقاليد العربية المعروفة لنا جيداً . هذه الانطباعة الأولى قد وكدها بالتالى عدد من الأبحاث المتعلقة بالأقسام المختلفة والتى ساقت إلى نتائج ملموسة فى هذا الصدد ، ولو أنه يجب الاعتراف أن بعضها لايخرج بطبيعته عن محيط

الافتراضات نسبة لأن الأصول التى اعتمد عليها پيرى ريس لم تصل إلينا . وقد ثبت بوجه عام أنه قد سار فى الغالب على منوال النماذج التى عملها البنادقة والتى كانت تحت تصرفه بغاليبولى ؛ وتمثل هذه النماذج خارطات مستقلة وهى التى عملت على أساسها البورتولانات الغربية ولكنها أكثر قيمة منها بفضل أحجامها الكبيرة . | وپيرى ريس لم يكتف بالطبع بتقليدها تقليداً أعمى ؛ فمثلا نراه يجرى تصحيحاً جوهرياً فى رسم 582 بحر إيجه معتمداً فى ذلك على ملاحظاته الشخصية[١٩٧] . ونظراً لأن هذه الخارطات الخاصة لم تحفظ لنا فإن كتاب « بحرية » يكتسب بهذا أهمية مضاعفة بصفته مصدراً لامثيل له للتعرف على الكارتوغرافيا الأوروبية المبكرة[١٩٨] . ويمكن أحياناً تتبع المادة التى استقى منها پيرى ريس بالكثير من اليقين فقد ثبت أن لرسومه الجغرافية التى تصور بحر الأرخبيل علاقة بالأثر المعروف باسم « ايزولاريو Isolario » للإيطالى بارتولوميو دا لى سونتى Bartolomeo da li Sonetti المطبوع بالبندقية فى عام ١٤٨٥ أو بعد ذلك بقليل ؛ وتبدو صلة الرحم بين الاثنين واضحة بما لايدع مجالا للشك بمجرد وضعهما جنباً إلى جنب[١٩٩] ؛ ويرتفع أصل الاثنين على ما يبدو إلى الخارطات القديمة التى كان يستعين بها ربابنة السفن فى الملاحة ، ولكن مع فارق بسيط هو أن پيرى ريس يقدم لنا مجموعة كاملة من الخارطات لجميع سواحل البحر الأبيض المتوسط على حين يقتصر بارتولوميو على بحر إيجه وحده[٢٠٠] . ولعله يجب أبصار اسمه فى « بورتولوميه » الذى يذكره پيرى ريس فى الفصل السابع والأربعين من مقدمته الشعرية ؛ ومن الطريف أن كاله Kahle لسهو وقع فيه هاهنا قد جهد فى أن يرى فى هذا الشكل رسم بطلميوس[٢٠١] رغماً من أن الأخير يرد لدى پيرى ريس فى الشكل الذى استعملته العرب . ومن المحتمل أنه قد وجدت بين يديه مرشدات الملاحة الشراعية التى نالت انتشاراً واسعاً آنذاك والتى لم يصلنا شىء عنها من العصور الوسطى الأوروبية[٢٠٢] . ونظراً لأن مصنفه يعكس إلى حد ما المرشدات الإيطالية ، لا فى الخارطات وحدها بل وفى المتن أيضاً ، فإنه يمكن القول بأنه لم يحفظ لنا سر فرع واحد من الملاحة فقط بل قد حفظ لنا جميع علم البحار تقريباً[٢٠٣] .

ومما لاشك فيه أن پيرى ريس قد جمع معلومات شفوية من عدد من الملاحين ذوى التجربة ، فقد التقى بملاحين برتغاليين عرفوا الصين[٢٠٤] ، كما يغلب أنه التقى بأحد الذين أخذوا طرفاً فى رحلة ماجلان حول الأرض وهو المدعو انتونيو بيغافتا F. A. Pigafetta[٢٠٥] . وقد ثبت أن روايته عن مختلف الشعوب الغريبة فى بحار الشرق الأقصى إنما ترتفع إلى مصدر صينى وصله فى أغلب الظن عن طريق البرتغاليين[٢٠٦] .

واعتماداً على هذه المادة المتشاكلة المصادر والتى دون بعضها على ما يبدو بالإغريقية والإيطالية ، وهما لغتان عرف إحداهما جيداً بحكم مولده[٢٠٧] ، فقد استطاع پيرى ريس أن يخرج لنا مؤلفاً باللغة التركية مستقلا بذاته . ونظراً لمعرفته الجيدة بالبحر الأبيض المتوسط فقد عرف كيف يستعمل مصادره

بالكثير من الذكاء وحسن الفهم وأن يضيف إليها الكثير | مما حصل عليه عن طريق تجربته الشخصية : 583
وتتميز بأهمية خاصة وقيمة كبرى تلك الأقسام من كتابه التى تعتمد على معرفته المباشرة بنقاط جغرافية معينة ؛ وعلى أية حال فإنه لا يمكن الإحساس من تصفح المصنف بأنه مصنف نقلى بل يغلب أن يكون أثراً مستقلا قائماً بذاته[٢٠٨] . وكما لاحظ بلوشيه Blochet بالكثير من الصواب فإنه لا يمكن بأية حال مقارنة خارطاته بمدرسة الصفاقسى الذى لم يكن فى هذا المضمار سوى ملاح تافه اقتصر فى وصفه على السواحل[٢٠٩] . ويقف كتاب « بحرية » فى جميع الأدب التركى فريداً فى نمطه ، بل إن المؤلف نفسه يذكر فى فاتحة كتابه أنه يمثل بالنسبة لمواطنيه شيئاً لم يعهدوه من قبل ، كما وأن حاجى خليفة الذى كان خبيراً فى الجغرافيا الملاحية يؤكد بالتالى أنه لم يدون بعده شىء شبيه به فى هذا المضمار[٢١٠] . أما فى الأوساط الحديثة فقد قيل أحياناً فى وصف « بحرية » إنه « أهم ما دونه الأتراك فى محيط الجغرافيا »[٢١١] .

وخير دليل على تفوق پيرى ريس على معاصريه ومن خلفوه فى هذا الفن أنه لم يوجد بعده من يستطيع أن يجرى أى تجديد فى متنه ؛ وإذا كانت الخارطات كما لاحظنا قد زيد فى عددها وأضيف إليها الكثير فإن المتن لم تضف إليه سوى معلومات ضئيلة ليتفق مع الأوضاع السائدة فى عهود متأخرة هذا بينما بقيت مادته الأساسية كما هى لم يعتريها أى تغيير . ولعل هذا قد عاون بدوره على احتفاظ الترك بمرشداتهم البحرية المستعملة فى الملاحة الشراعية ، وذلك على عكس رصيفاتها الغربية التى لم تكن سوى توضيحات للجوانب العملية ولم يلبث أن بطل استعمالها سريعاً وطوتها زوايا النسيان ؛ أما « بحرية » فكان أثراً أدبياً مرموقاً كتب له البقاء[٢١٢] . أما بالنسبة للمتخصصين فقد كان الوضع على النقيض ، إذ أن الخارطات لعبت بالنسبة لهم دوراً جوهرياً على حين كانت أهمية المتن ثانوية[٢١٣] ؛ وهو لم يعتريه تغيير كبير وكان يدون تارة على المساحات الشاغرة فى الخارطات أو يهمل تماماً طوراً آخر[٢١٤] . وقد أثبت البحث أن الخارطات التركية للبحر الأبيض المتوسط التى ترجع إلى القرن السابع عشر إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعمل پيرى ريس[٢١٥] .

هذا وقد قدر العثمانيون المصنف حق قدره وأفادوا منه بصورة أوسع بكثير مما فعلوا مع كتاب سيدى على چلبى ، وهو أمر مفهوم بالنسبة لأهمية المنطقة التى يعالجها . وقد ورد ذكره لدى حاجى خليفة فى مرجعه الضخم « كشف الظنون » وفى مصنفه الجغرافى الكبير « جهاننما » وفى كتابه فى تاريخ الأسطول العثمانى « تحفة الكبار »[٢١٦] ؛ كما وأن أوروبا قد تعرفت عليه منذ بداية | القرن التاسع عشر وذلك بفضل 584
مجهود المستشرق ديتس Dietz ، وهو نفس البحاثة الذى قدم أول معلومات عن كتاب سيدى على ريس[٢١٧] ؛ ففى عام ١٧٨٩ وذلك عند ارتقاء السلطان سليم الثالث للعرش تمكن ديتس من الحصول على مخطوطة أنيقة ذات قيمة كبرى لأنها كانت ملكاً لسلاطنة آل عثمان أنفسهم ولعلها رفعت كهدية إليهم ، ثم انتقلت بمرور الزمان إلى الحرملك لتسلية الجنس اللطيف لأن خارطاتها قد تم تصويرها بمهارة

فائقة وفى ألوان متعددة . وانتقال هذا الأثر القيم من يد إلى أخرى لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى الحفاظ عليه ، فلما انتهى إلى يد ديتس لم يكن فى صورته الكاملة بل على شكل خارطات منفردة ومنزوعة ، فضلا عن أنه لم يكن معروفاً له لا اسم المؤلف ولا شكل المصنف العام . ورغماً من ذلك فإن مقاله الذى حلل فيه المصنف بشكل عام يمثل أهمية لاشك فيها بالنسبة لعصره ويلقى الضوء على دور الأتراك فى ميدان الكارتوغرافيا ، وهو أمر كانت المعرفة به ضئيلة آنذاك . ولايخلو من الطرافة اختياره للمصور الذى يبين جزيرة رودس مع وصفها ، وهو الذى تبدأ به المخطوطة فى الهيئة التى وجدها عليها ديتس ، وقد نشر متنه مع ترجمة ألمانية . هذا وقد فتح العثمانيون رودس فى عام ١٥٢٢ أى بعد بضعة أعوام من وضع پيرى ريس لأطلسه ويعتقد ديتس أن عمله هذا ربما ساعد بعض الشىء فى إنجاز تلك المهمة[٢١٨] . ولقد كان مقال ديتس بمثابة حجر الأساس لدراسات متفرقة لأقسام الأطلس فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، أما المخطوطة نفسها فقد وجدت طريقها فى آخر الأمر إلى المكتبة الأميرية بتركيا[٢١٩] . وليست أقل قيمة من ذلك المخطوطة الموجودة ببولونيا Bologna من مجموعة مارتشيلى Marcelli والتى وصفها لنا روزن V.R. Rosen ، ويرجع تاريخها إلى عام ٩٧٧ هـ = ١٥٧٠[٢٢٠] . ووجود عدد من مخطوطات هذا الأطلس ضمن مجموعات المخطوطات الكبرى مثل باريس[٢٢١] وبصورة خاصة درسدن التى ترتفع نسختها إلى عام ٩٦١ هـ = ١٥٥٤ ، أى والمؤلف على قيد الحياة[٢٢٢] ، قد عاون كثيراً على دراسة عدد من فصول الكتاب المختلفة المتصلة بمسائل معينة ، فمثلا تم نشر وترجمة الأوصاف والخارطات ، إما قسما منها أو بتمامها ، الخاصة بأثينا واسبوس وديلوس وملطية ولمنوس وبيروت وقبرص واستنبول وصقلية وألبانيا والبندقية[٢٢٣] هذا إلى جانب رودس كما ورد فى أعلاه . وقد تم من وقت لآخر فحص أقسام أخرى من الأطلس مع تحقيق فريد يستند على التجربة الواقعية ، فباوشيه مثلا قد قام مستعيناً بخارطاته برحلة بحرية صغيرة على ساحل فرنسا الجنوبى ، ومن الطبيعى أنه كشف أثناء ذلك عن بعض الأخطاء فى الأطلس[٢٢٤] . وكان ما أحاط بتركيب المصنف من تعقيد | أن لم يجرؤ أحد على إخراج طبعة كاملة له أو ترجمته إلى لغة أجنبية إلا فى السنوات العشرينات من هذا القرن . وقد تم ذلك على يد بول كاله Paul Kahle الذى اعتمد على مخطوطة بولونيا فنشر المتن فى عام ١٩٢٦ مع ترجمة ألمانية مزودة بالتعليقات وذلك لثمان وعشرين فصلا منه ، أى ما يعادل ربع الكتاب بالتقريب ، ومما يؤسف له حقاً أن الطبع وقف عند هذا .

586

وإذا كان كتاب « بحرية » قد عرف بهذه الطريقة مدة تقرب من القرن ونصف القرن للدوائر العلمية الأوروبية فإن الأثر الثانى لپيرى ريس لم يتم الكشف عنه إلا منذ عهد قريب وأثار ما يستحقه من تجديد الاهتمام بالمؤلف فظهر فى هذا الصدد عدد من الأبحاث لا باللغات الأوروبية وحدها بل وباللغتين التركية والعربية أيضاً[٢٢٥] . وتوجد فى كتاب « بحرية » إشارة لپيرى ريس نفسه يفهم منها أنه قد أكمل رسم

بخارطة كبيرة للعالم بغليبولى فى عام ١٥١٣ ورفعها بعد أربعة أعوام من هذا إلى أعتاب السلطان سليم فى عام ١٥١٧ وذلك أثناء وجوده بمصر . هذه الإشارة قد قفزت إلى الأذهان فى عام ١٩٢٩ عندما كشف عالم الآثار التركى المشهور خليل أدهم والبروفسور ديسمان Deissmann بمكتبة السراى باستانبول عن نصف ممزق لخارطة للعالم رسمت بدقة وزوقت بالألوان على رق (Pergame) ؛ وهى تمثل القسم الغربى من العالم شاملة للمحيط الأطلنطى وأمريكا والقسم الغربى من العالم القديم ومبينة عليها سواحل أوروبا الغربية وأمريكا ؛ أما التفاصيل الجغرافية فمكتوبة فيها بالتركية ولكن نطق الأسماء يرد على الطريقة الإيطالية وربما يمكن تفسير هذا بأنه استقى مادته الأساسية من مصادر إيطالية ، مكتوبة أو شفوية[٢٢٦] . وقد تتحول البيانات الجغرافية أحياناً إلى قوائم مفصلة فى أجزاء مختلفة من الخارطة .كنت البحاثة بالتدريج من إثبات تاريخها بالكثير من اليقين ، ويرجع الفضل الأكبر فى هذا المجال إلى الخبير الكبير بالكارتوغرافيا التركية پول كاله الذى عرف فى عدد من المقالات بهذا الكشف وقدم دراسة جامعة له فى عام ١٩٣٣ ؛ وقد ترجع صدى هذا الكشف بين عدد من الدوائر العلمية فى جميع أنحاء العالم ومن بينها الجمعية الجغرافية السوفيتية[٢٢٧] . ولم تلبث الخارطة أن أصبحت فى متناول أيدى الجميع عندما تم نشرها فى صورة فوتوغرافية ملونة أنيقة بواسطة الجمعية التاريخية التركية (١٩٣٥) .

هذا وقد تمكن پول كاله فى أبحاثه الدقيقة من أن يدال بسرعة فائقة ، آخذاً فى حسابه إشارة پيرى ريس التى ترتفع إلى عام ٩١٩ هـ=١٥١٣ ، على أن هذا النموذج يمثل نفس تلك الخارطة التى رفعها پيرى ريس إلى السلطان سليم عام ١٥١٧ . ويتضح من الطرف الممزق من الجانب الأيمن أن هذا القسم من الخارطة قد فصل بطريقة آلية وحشية عن القسم الشرقى الذى لم يلبث أن فقد بالتالى . ومن العسير بالطبع التخمين عن الدافع الذى جر إلى هذا ، ويرى البعض أن السلطان سليم نفسه هو الذى انتزع ذلك القسم من الخارطة الذى يضم الصين ليتمكن من استعماله بسهولة . إذ من المعلوم أن السلطان سليم كان يولى اهتماماً خاصاً لتلك البلاد يتفق مع أطماعه السياسية فيما يتعلق بالجزء الشرقى من آسيا ؛ ولنعيد إلى الأذهان مرة أخرى أن البعض قد ربط بين هذا وبين رحلة على أكبر كما بينا فى حينه[٢٢٨] . ومهما يكن من شىء فإن هذا الاكتشاف قد لعب دوراً هاماً للغاية فى إلقاء ضوء على شخصية پيرى ريس وعلى جميع الوضع الثقافى لذلك العصر . وتحليل العلماء للمصادر التى اعتمد عليها فى رسم خارطته قد أسبغ على هذه المسألة أهمية عالمية ، فپيرى ريس يذكر فى إحدى قوائم خارطته أنه قد أفاد من أربع عشر خارطة من بينها ثمانية بطلميوسية « يسميها العرب « جغرافيا » وواحدة عربية تبين الهند وأربع برتغالية تبين السند والهند والصين وواحدة كولومبسية»[٢٢٩] . والملاحظة الأخيرة تكفى فى حد ذاتها لإثارة قدر كبير من الاهتمام ، بيد أن وجود عامل آخر قد رفع من قيمتها إلى حد يفوق العادة ؛ فقد وضح بالتالى أن بيرى ريس اعتمد على أقدم خارطة لأمريكا كان قد عملها كولومبس نفسه أو أشار بعملها ليبين مسير الاستكشافات فى تلك النواحى

587

وأرسل بها فى عام ٤٩٨ من جزيرة هايتى إلى أسبانيا . وتوجد تفاصيل محددة عن هذه الخارطة فى الأدب الأوروبى القديم ، إلا أن نسختها نفسها قد اختفت تماماً ولايوجد أثر لها إلا فى عمل الكارتوغرافى التركى الذى وقع أصل خارطة كولومبس فى يده عند نهب سفينة مسيحية بالبحر الأبيض المتوسط عام ١٥٠١ ، فاستغل الخارطة فى رسم خارطته عام ١٥١٣[٢٣٠] ، ولاشك أن هذا الظرف يكفى فى حد ذاته ليضمن لاسم پيرى ريس مكانة مرموقة فى تاريخ الكارتوغرافيا العالمية . ويبدو أن پيرى ريس قد ظل مهتماً « بالدنيا الجديدة » إلى ما بعد هذا التاريخ ، بل ويوجد أساس للافتراض بأنه ترجع إليه خارطة أخرى رفعها إلى سليمان القانونى فى عام ٩٣٥ هـ = ١٥٢٩ ، أى بعد ثلاثة أعوام من إتمامه لمصنف « بحرية » ، ومبينة عليها الاستكشافات البرتغالية الجديدة فى أمريكا الجنوبية والوسطى وفى نيوفوندلاند ، وهى أيضاً بدورها محفوظة بالسراى وفى شكل ممزق أيضاً للأسف[٢٣١] .

وهكذا فالجغرافيا الملاحية عند الأتراك فى القرن السادس عشر قد ساقتنا فى آخر الأمر لا خارج حدود الشرق وحده بل وحدود أوروبا أيضاً ، ولاشك أن ارتباطها بالمذهب العربى قد ضعف بالتدريج ولكنه لم ينفصم كلية كما يمكن أن نتبين من مصادر الخارطة العالمية لپيرى ريس . غير أن ذلك الارتباط يختلف اختلافاً تاماً عن ارتباط الآثار العربية للقرن الخامس عشر بذلك المذهب ، فابن ماجد كما رأينا قد اعتمد اعتماداً كاملا على المذهب العربى وترسم خطاه فى هذا كل من سليمان المهرى والملاح التركى سيدى على چلبى رغم معرفتهما بالبرتغاليين واحتمال استفادتهما من التجربة العملية لهؤلاء الأخيرين . أما بالنسبة لپيرى ريس فإن المذهب العربى لايمثل سوى عنصر من العناصر العديدة فى مؤلفاته ، بل وعنصر من الدرجة الثانية إلى جانب ذلك ؛ ولعل مرجع هذا إلى حد كبير هو المناطق التى وجه إليها پيرى ريس اهتمامه الرئيسى . وقد أفاد پيرى ريس بمهارة من المراجع الأوروبية التى ارتفعت قيمتها فى ذلك العصر بالذات ، وبذل جهده فى أن يتمثلها بشكل عام حتى غدت جزءاً من تجربته الشخصية . ورغماً من الاختلاف الضخم بينهما من حيث المنهج والمادة فإن ابن ماجد وپيرى ريس يتبوءان عن جدارة مركز الصدارة فى الأدب الجغرافى الملاحى لدى العرب والترك فى عصرهما بصورة تجعلنا نقول إن ما بلغه هذا الأدب من عظمة ومجد إنما يرجع إليهما شخصياً .

588

ومن الطبيعى أن نتتبع فى هذا الفصل تطور الأدب الجغرافى الملاحى لدى العرب بتفصيل أكثر بحيث يمكن القول بأنه قد تم توضيح خطوطه الجوهرية بصورة متكاملة ، وهو يحتل المكانة الأولى فى الأدب الجغرافى العربى للقرنين الخامس عشر والسادس عشر ويمثل آخر تيار أصيل فى هذا الميدان إلى القرن العشرين . ومما لاشك فيه أنه بالنسبة للأدب التركى فى ذلك العصر أيضاً فإن الجغرافيا الملاحية تمثل صفحة من أنصع صفحاته ، وهى بالطبع لا يمكن فصلها عن التطور العام للأدب الجغرافى التركى . ذلك الأدب الذى بدأ ينتعش قبل قليل من هذا فى القرن الخامس عشر والذى يقدم لنا فى القرن السابع عشر شخصيات

كبرى فى ميدان الجغرافيا . وفى تتبعنا لهدفنا العام الذى جعلناه نصب أعيننا فى هذا الكتاب فإنه ليس بوسعنا أن نغض النظر عن هذا الأدب فى خطوطه العامة ، إذ من الضرورى بالنسبة لنا أن نبين أى الجوانب من المذهب التقليدى العربى تركت عليه أكبر الأثر ، وكيف تم تعديل وتحوير هذه الجوانب ، وفى أى مجال بالذات انتعشت وازدهرت الأصالة المستقلة للأتراك أنفسهم ، وأى الأنماط بالذات نال الرواج لديهم فى الغالب . وسنبصر بالتدريج كيف أخذ هذا الأدب يتجه أكثر فأكثر نحو المنهج والمراجع الأوروبية وكيف تم الانفصال نهائياً بينه وبين المنهج العربى بحيث لم يعد يلعب أى دور بالنسبة لعرضنا هذا باستثناء آثار منفصلة منه . وعندما نبلغ تلك النقطة فسنجد أنفسنا مضطرين إلى تركه نهائياً ، ولكن قبل هذا يجدر بنا أن نكرس الفصل التالى بأجمعه للكلام على الأدب الجغرافى لدى الأتراك العثمانيين مبينين العلاقة الحيوية التى ربطت بين الأدبين الجغرافى التركى والجغرافى العربى فى تلك العهود .

حواشي الفصل العشرين

(١) – Hennig, IV, p. 41

(٢) – Reinaud, Introduction, p. CLXVII

(٣) – Ferrand, Introduction, p. 235

(٤) شرحه، ص ٢٣٦ (مع الإحالة إلى المقالة عن الخارطة)

(٥) – Reinaud, Introduction, p. CDXXXIX - CDXLIV

(٦) قارن : – Juynboll, Arabisch in Nederland — Kramers, EI, EB, p. 72

(٧) – Kramers, EI, EB, p. 71

(٨) – Ferrand, EI, IV, p. 394 — Sarton, II, p. 221 — Ferrand, Introduction, p. 223, 225 — 227

(٩) المقدسي، BOA, III2، ص ١٠ – ١١

(١٠) قارن خارطات الخوارزمي

(١١) قارن صورة الأرض على شكل طائر

(١٢) المقدسي، BOA III، 1906، ص ١٠ – ١١. الترجمة إلى : Ranking and Azoo – p. 14 – الملاحظات إلى : Ferrand, Introduction, p. 234 – 235

(١٣) المسعودي مروج الذهب الجزء الأول، ٢٨١ – ٢٨٣

(١٤) شرحه .

(١٥) – Ferrand, L'Element persan, p. 250-257 : Le port de Siraf

(١٦) شرحه، ص ٢٠٧ و Ferrand, Introduction, p. 225

(١٧) – Ferrand, Introduction, p. 226

(١٨) – Ferrand, L'Element persan, Text, p 196, 208 Ferrand, Introduction p 223

(١٩) – Ferrand, Iranica, p. 124

(٢٠) – Ferrand, L'Element persan, p. 213-214, 257

(٢١) – T'A, II, p. 51, sul – Hess, p. 31 – Ferrand, L'Element person, p. 212

(٢٢) – Ferrand, L'Element persan, p. 209 215, 234 – Ferrand, Iranica, p. 123-124

(٢٣) – Ferrand, Introduction, p. 237

(٢٤) – Ferrand, Iranica, p. 125-126

(٢٥) Ferrand, L'Element persan, p. 238-239 — T'A, II, p. 581, 7 infra — Hess, p. 30-31

(٢٦) T'A, II, p. 51, 13 — Hess, p. 30-31

(٢٧) (المقدسى والجواليقى) Ferrand, Introduction, p. 235—Ferrand, Sayabidja, p. 215

(٢٨) Ferrand, L'Element persan, p. 221-222

(٢٩) شرحه ، ص ٢١٨

(٣٠) Ferrand, Introduction, p. 259

(٣١) Ferrand, L'Elément persan, p. 235

(٣٢) شرحه ، ص ٢٤٧

(٣٣) Ferrand, Introduction, p.183, 191 -- Ferrand, Annales, p. 289, note 1

(٣٤) Ferrand, Introduction, p. 183-184

(٣٥) شرحه ، ص ١٩٢

(٣٦) شرحه ، ص ١٩٤

(٣٧) Ferrand, Annales, p. 292, note 2 — Ferrand, Introduction, p. 182

(٣٨) Ferrand, Introduction, p. 179, 182

(٣٩) Ferrand, Annales, p. 292, note 2

(٤٠) Ferrand, Introduction, p. 182

(٤١) Ferrand, Annales, p. 292

(٤٢) Ferrand, Introduction, p. 196

(٤٣) Ferrand, Annales, p. 292 — Ferrand, Review in : JA, CCIV, p. 114 — Ferrand, Introduction

(٤٤) Ferrand, Introduction, p. 184

(٤٥) بحسب كتاب :

فإن المقصود فى أغلب الظن رأس الرجاء الصالح Ferrand, Introduction, 187, note 4,

(٤٦) القلمة بالسنسكريتية : Ferrand, Introduction, p. 186, note 2

(٤٧) Ferrand, Introduction, text, transl. and commentary, p. 185-190

(٤٨) شرحه ص ١٩٠ ، حاشية ٢ — Stübe, p. 346

(٤٩) Ferrand, Introduction, p. 188-189, note 3

(٥٠) كان أول من أثبت أن أحمد بن ماجد هو المرشد الذى تتكلم عنه المصادر البرتغالية هو أحمد زكى باشا ، وذلك فى عام ١٩١٧ ، قارن : Ferrand, Le Kouen — Louen, p. 492, note

(٥١) Ferrand, Introduction, p. 196-198

(٥٢) – Gaudefroy - Demombynes, Muhit, p. 547 - 550 — cf. Ferrand, Relations, II, p. 485, note 2 — Ferrand, Introduction, p. 255, note 1

(٥٣) عن سليمان الجزائري ، راجع : طرازي ، صفحة ١١٩ : ر Cheikho, La Littérature, I2 , p. 103 - 104

(٥٤) – Ferrand, Introduction, p. 199, 246

(٥٥) شرحه ، ص ٢٥٤ (نسخة ا. عسكري عام ١٧٣٢)

(٥٦) – Gaudefroy - Demombynes, Muhit, p. 549 — Ferrand, Introduction, p. 247

(٥٧) – Brockelmann, GAL, II, p. 179

(٥٨) سعيد الكرى ، ص ٣٣ – ٣٥ – Ferrand, Introduction, p. 199 - 200

(٥٩) – Ferrand, EI, IV, p. 396, note 2

(٦٠) د. چلبى ، مخطوطات ، ص ٢٨٠ – ٢٨٢ ، رقم ٦٧ – د. چلبى ، لغة العرب ، المجلد التاسع ، ١٩٣١ ، ص ٤٠١ – ٤١٢ – Brockelmann, GAL, SB II, p. 231 No No 7 - 8

(٦١) – Ferrand, Madagaskar, p. 68 - 80 — Ferrand, Sayabidja, p. 214 - 215 — Ferrand, Sofala, p. 507 - 510 — Ferrand, Zabag, p. 1279 - 1281

(٦٢) – Ferrand, Introduction,

(٦٣) – Saussure, Commentaire

(٦٤) – Ferrand, Introduction, p. 228 -- Ferrand, L'Elément persan, p. 194

(٦٥) – Ferrand, Introduction, p. 220

(٦٦) شرحه ، ص ٢٢١ – ٢٢٢

(٦٧) – Ferrand, L'Element persan, p. 197 - 200

(٦٨) – Ferrand, Introduction, p. 227 - 228

(٦٩) – Ferrand, L'Element persan, p. 207

(٧٠) شرحه ، ص ٢٠٥

(٧١) Ferrand, Annales, p. 299 - 300

(٧٢) – Ferrand, L'Elèment persan, p. 205 — Ferrand,Annales, p. 299

(٧٣) – Ferrand, Annales, p. 299

(٧٤) – Ferrand, Introduction, p. 220 - 221

(٧٥) تدرى سانلئ طارتان ، ابن ماجد ، ص ٦٢٣ – ٦٢٦ — Ferrand, Introduction, p. 224 –

(٧٦) – Ferrand, Introduction, p. 199, 246

(٧٧) شرحه ، ص ١٩٩ – ٢٠٠

(٧٨) – I. Iu. Krachkovski, Nad arbskimi rukopisiami, Izbrannye Sochinenia, I, p. 74-78 [- Shumovski, tri neizvestnye lotsii Akhmada ibn Madjida]

(٧٩) - Ferrand, Introduction, p. 201-202 — Taeschner, review of : G. Ferrand, Introduction, DI, XIX, 1930, p. 35 - 38 — Ferrand, L'Element persan, p. 195, 197, 208-209

(٨٠) قارن : Ferrand, L'Elment persan, p. 221-222

(٨١) - Gobbée, p. 144, 150

(٨٢) راجع : Ferrand, L'Elment persan, p. 218

(٨٣) - Saussure, p. 129-152 - Ferrand, Annales, p 303

(٨٤) - Gobbée, p. 145

(٨٥) - Saussure, p. 152-153

(٨٦) شرحه ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ، حاشية ١ (مع المراجع)

(٨٧) - Ferrand, Géographes arabes p. 132

(٨٨) - Ferrand, Annales, p. 294 — Ferrand, Introduction, p. 202

(٨٩) المحتويات لدى : Ferrand, Introduction p. 208-218 :

(٩٠) - Ferrand, Annales, p. 294-295 — Ferrand, Introdution, p. 203-206

(٩١) - Ferrand, Annales, p. 295 — Ferrand, Introduction, p. 206-207

(٩٢) - Saussure, p. 171

(٩٣) راجع : Krachkovski, Arabskie Geografy, p 760, مع الصورة p. 759

(٩٤) - Ferrand, L'Elèment persan, p. 193 — Ferrand, Introduction, p. 219

(٩٥) - Ferrand, Introduction, p. 212 (No VI)

(٩٦) شرحه ، ص ٢٢٣ — ٢٢٧

(٩٧) راجع : شرحه ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥

(٩٨) Ferrand, L'Elèment persan, p. 197

(٩٩) - Ferrand, Introduction, p. 223, 225 - 227

(١٠٠) شرحه ، ص ٢٢٣ — ٢٢٦ — Ferrand, L'Elèment persan, p. 196, 208

(١٠١) - Ferrand, Introduction, p. 230 - 232

(١٠٢) شرحه ، ص ٢٣٢

(١٠٣) شرحه ص ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣

(١٠٤) شرحه ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(١٠٥) شرحه ، ص ٢١٩ — ٢٢٠

(١٠٦) شرحه ، ص ١٨٠ — ١٨١

(١٠٧) شرحه ، ص ١٨١ — ١٨٢

(١٠٨) راجع عل وجه العموم : شرحه ، ص ١٧٧ - ١٨٣

(١٠٩) – Prinsep, p. 10 – Ferrand, Introduction, p. 227

(١١٠) – Ferrand, Introduction, p. 243

(١١١) شرحه ، ص ٢٣٧ .

(١١٢) شرحه

(١١٣) شرحه ، ص ٢٣٩ ٢٤٣

(١١٤) شرحه ، ص ٢٤٣

(١١٥) شرحه ، ص ٢٤٣ – ٢٤٤.

(١١٦) شرحه ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(١١٧) شرحه ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦

(١١٨) شرحه ، ص ٢٣٩ .

(١١٩) – Ferrand, Annales, p. 312

(١٢٠) – Ferrand, L'Element persan, p. 215-216 — Ferrand, Introduction, p. 39, note 2

(١٢١) – De Slane, Catalogue, 1883-1895, p. 401

(١٢٢) – Ferrand, Introduction, p. 246-247 — Ferrand, Annales, p. 294

(١٢٣) – Ferrand, Introduction, p. 247

(١٢٤) – Ferrand, Annales, p. 312

(١٢٥) – Süssheim, Ali (Sidi Ali), p. 301

(١٢٦) – Taeschner, OLO, p. 40, note 2

(١٢٧) – Ferrand Introduction, p. 248-250 Tomaschek, SBAW, VIII, p. 3

(١٢٨) – Tomaschek, Mohit, p 2-3 Ferrand, Introduction, p. 251 — Bonelli, p. 751

(١٢٩) – Bittner, WZKM, X, p. 21

(١٣٠) – Bonelli, p. 752

(١٣١) شرحه Ferrand, Introduction, p. 251

(١٣٢) – Hammer, Geschichte

(١٣٣) تناولها لدى : Ferrand, Introduction, p. 251-254

(١٣٤) – Süssheim Ali (Sidi Ali), p. 301

(١٣٥) – Tomaschek, Topographie, p. 7-8 - Ferrand, Introduction, p. 251-254

(١٣٦) – Tomaschek, Topographie, p. 5 — Bittner, Mohit, p. 53 — Ferrand شرحه ، ص ١٩٧ – ٢٠٢ .

(١٣٧) – Bonelli, p. 753 - 777 — Bittner, Mohit, p. 75 - 76

(١٣٨) – Conti Rossini, p. 447

(١٣٩) – Bittner, Mohit, p. 75-76

(١٤٠) – Tomaschek, Topographie p. 6

(١٤١) شرحه ، ص ٨

(١٤٢) – Conti Rossini, p. 450

(١٤٣) – Tomaschek, Topographie, p. 31

(١٤٤) شرحه

(١٤٥) – Ferrand, Relations, II, p. 485, note 2 — Ferrand, Introduction, p. 116, note 2, 198, 248

(١٤٦) – Ferrand, Introduction, p. 255

(١٤٧) – Tomaschek, Topographie, p. 6-7

(١٤٨) – Kahle, Nautische Instrumente, p. 176

(١٤٩) شرحه ، ص ١٨٢

(١٥٠) شرحه ، ص ١٨٣

(١٥١) – Tomaschek, Topographie, p. 7

(١٥٢) – Schefer, Chrestomathie persane, II, p. 222 and Text, p. ٢٠٩ – ٢٠٧

(١٥٣) شرحه ، ص ٢٢٣ و ص ٢٠٩ – ٢١٢

(١٥٤) – Ferrand, Introduction p. 249-250 (= Schefer, شرحه) — Tomaschek Topographie, p. 7 sui

(١٥٥) – Barbier de Meynard, review : JA, 9 Série, VII, p. 367-368

ملاحظات عامة فقط

(١٥٦) – Ferrand, Introduction, p. 250

(١٥٧) قارن : – Taeschner, OLO, p. 43; cf. Kramers, EI, EB, p. 73 :

(١٥٨) – Fedchenko, Ocherk geografii

(١٥٩) – Minaev, p. 80-81

(١٦٠) – Honigmann, Die Sieben Klimata, p. 108. نقلا عن : Vambery, Travels of Sidi Ali Reis, p. 52

(١٦١) – Tomaschek, Topographie, p. 27

(١٦٢) – Mieli, p 281

(١٦٣) – Yver, Khair al-Din, p. 934-936

(١٦٤) – Babinger, Piri Reis, p. 1156 – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XVI

(١٦٥) – Burski, p. 83; cf. p. 9, note 2 and p 75

(١٦٦) شرحه ، ص ٧٦ وما يليها

(١٦٧) شرحه ، ص ١٥ ، ٢٠ – Babinger, Piri Reis, p. 1155

(١٦٨) – Burski, p. 21-23

(١٦٩) Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VI

(١٧٠) Burski, p. 39-40, note 1

(١٧١) شرحه ، ص ٧٧ ، ٧٩

(١٧٢) شرحه ، ص ٨٠ .

(١٧٣) – Babinger, GOW, p. 49, No. 29

(١٧٤) – Burski, p. 62, note 2

(١٧٥) شرحه ، ص ٢٨ – ٣٢

(١٧٦) – Babinger, Piri Reis, p. 1156

(١٧٧) – cf : Krachkovski, Kolumbovskia karta, p. 184 — 186

(١٧٨) – Babinger, Piri Reis, p. 1156

(١٧٩) Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XVI – XVII

(١٨٠) شرحه ، p. VI

(١٨١) شرحه ، p. XIII

(١٨٢) – Babinger, Piri Reis, p. 1156 – Menzel, OLZ, 4, 1928, review, p. 280 – Herzog, cf : Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. V – VI

(١٨٣) – Herzog, cf : Kahle, شرحه , p.VI

(١٨٤) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VI

(١٨٥) – Kahle, Piri Reis, p. 61, 63

(١٨٦) شرحه ، ص ٦٣

(١٨٧) شرحه ، ص ٦٢ cf : review : Taeschner, DI, XVII, p. 115

(١٨٨) – Review : Taeschner, DI, XVII, p. 114 - 115

(١٨٩) – Kahle, Piri Reis, p. 63

(١٩٠) – Bräunlich, Islamica, p. 295

(١٩١) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXXIII

(١٩٢) – Kahle, Piri Reis, p. 60-61

(١٩٣) – Bräunlich, Islamica, p. 297

(١٩٤) – Kahle, Piri Reis, p. 61

(١٩٥) شرحه ، ص ٦٤

(١٩٦) – Bräunlich, Islamica, p. 299

(١٩٧) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. V, ألفاظ هرتسغ

(١٩٨) – Taeschner, GLO, p. 42

(١٩٩) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VII

(٢٠٠) شرحه ، p. VIII

(٢٠١) – Kahle, Piri Reis, p. 66

(٢٠٢) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. IX

(٢٠٣) شرحه ، p. X

(٢٠٤) – Kahle, Piri Reis, p. 68, 71

(٢٠٥) شرحه ، ص ٧٦

(٢٠٦) شرحه ، ص ٦٨ – ٦٩ ، ٧٢ – ٧٣ ، ٧٥

(٢٠٧) شرحه ، ص ٦٥

(٢٠٨) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. X

(٢٠٩) – Blochet, L'Etude, p. 25

(٢١٠) – Kahle Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. VII XII – Kahle, Piri Reis, p. 65

(٢١١) – Kahle, Columbus – Karte, p. 13

(٢١٢) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II Einleitung, p. X

(٢١٣) شرحه ، p. XII

(٢١٤) – Bräunlich, Islamica, p. 297

(٢١٥) – Taeschner, DI, XVII, p. 116, note 2

(٢١٦) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XIV - XV

(٢١٧) – Diez, Denkwürdigkeiten, I, p. 33-71 = Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXX – XXXIII

(٢١٨) – Diez, Denkwürdigkeiten, I, p. 66-68

(٢١٩) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXX – XXXIII

(٢٢٠) شرحه ، p. XXIV–XXVII

(٢٢١) لوصف مخطوطة باريس لپيرى ريس راجع : Blochet, L'Etude p. 21-26

(٢٢٢) – Kahle, Piri Reis, Bahriye, II, Einleitung, p. XXII — XXIV

(٢٢٣) – Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 185 Babinger, Piri Reis, p. 1156

(٢٢٤) – Blochet, L'Etude, p. 25-26, note 2

(٢٢٥) – Babinger, Piri Reis, p. 1157 — Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 184

(٢٢٦) – Babinger, Piri Reis, p. 1156 1157 — Brockelmann, GIV, p. 282 - Bräunlich, Zwei türkische Weltkarnte, p. 24

(٢٢٧) – Krachkovski, Kolumbovskia Karta

(٢٢٨) – Jacob, in : Kahle, Columbus - Karte, p. 5

(٢٢٩) – Bräunlich, Zwei türkische Weltkarten, p. 19

(٢٣٠) – Krachkovski, Kolumbovskia Karta, p. 186

(٢٣١) – Bräunlich, Zwei türkische Weltkarten, p. 24

الفصل الحادى والعشرون

الأدب الجغرافى التركى من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر

---

589 تحت يدنا بحث قيم جدير بالثقة يمكّننا من تتبع سير تطور الأدب الجغرافى لدى الأتراك العثمانيين بصورة يصعب توفرها لا بالنسبة للأدب الفارسى وحده بل وحتى بالنسبة لجوانب معينة من الأدب العربى نفسه . ففى عام ١٩٢٢ وقع اختيار الأستاذ فرانتس تيشنر F. Taeschner على هذا الموضوع ليحاضر فيه تلامذته ، ثم لم يلبث أن أجرى فيه قلمه بالتعديل وأضاف إليه زيادات هامة ونشره على هيئة مقال كبير يقع فى خمسين صفحة[1] . وقد كان هدفه الأساسى بالطبع هو أن يبين الخطوط العامة لتطور الأدب الجغرافى عند الأتراك ولكنه جهد فى ذات الوقت ليستوعب ما استطاع أسماء أهم المؤلفين وأهم الآثار وأن يجمع ثبتاً بأسماء المراجع الهامة فى هذا الصدد . ومجهوده من هذه الناحية بل ومن نواح أخرى يفوق بمدى كبير المحاولة القديمة المماثلة التى قام بها فستنفلد فيما يتعلق بالأدب الجغرافى العربى ، ويقدم لأول مرة عرضاً متتابعاً يمكن الاطمئنان إليه ويغنى الباحث عن فحص كل مسألة على حدة . وقد اعتمد كرامرس اعتماداً كبيراً على بحثه هذا حين معالجته الكلام على الجغرافيا لدى العثمانيين فى مقاله الذى ظهر « بدائرة المعارف الإسلامية » ، ذلك المقال الذى لا يخلو من أهمية كبرى بوصفه عرضاً عاماً لتطور الأدب الجغرافى فى الشرق الأدنى بأجمعه .

وقد تجمعت بالطبع خلال العشرين عاماً الأخيرة مادة جديدة وظهرت طبعات ودراسات جديدة حتى أصبح الأمر يستدعى قدراً ليس بالقليل من الزيادات إلى مقال تشنر المذكور ؛ وفى هذا الصدد لا يخلو من فائدة عامة بالنسبة لتاريخ الأدب الجغرافى العثمانى كتاب بنجر Babinger الضخم عن مؤرخى آل عثمان Die Geschichtsschreiber der Osmanen ، فقد كان من الطبيعى أن يعالج فيه المؤلف الكلام عن آثار جغرافية فى جوهرها[2]. وفى معرض الدراسات المستقلة المكرسة لمعالجة موضوعات خاصة يلفت النظر بشكل خاص عدد من المقالات لتشنر نفسه الذى ظل يعمل بجد وإخلاص فى هذا الميدان لإلقاء الضوء على مسائل جغرافية معينة فى هذا المجال . والأدب الجغرافى التركى كما بينه تشنر فى خطوطه العامة لن يحتل بالطبع مركز الصدارة فى بحثنا هذا إذ أن ما يهمنا فى هذا الصدد هو توضيح علاقته بالأدب الجغرافى العربى وتبيان الأنماط التى حظيت فيه بازدهار خاص . وتشنر قد مس هذه المسائل بالطبع ونحن أيضاً قد فصلنا القول فيها أحياناً بصورة وافية | 590 ، كما أننا سنعرض فيما يلى من هذا الفصل بالإيجاز لأهم نقاط ذلك الأدب :

لقد أسبق وأن عالجنا الكلام فى الفصل السابق لهذا على ما حظيت به الجغرافيا الملاحية من ازدهار

بين الأتراك العثمانيين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، ولكن من الملاحظ انبعاث ضرب من الحيوية والانتعاش فى ميدان الأدب الجغرافى بوجه عام حتى قبل تلك الفترة ؛ ويمكن ربط هذا بحركة تاريخية فريدة هى « إحياء العلوم الكلاسيكية » (Revival of classical learning) . وإذا كانت الثقافة اليونانية قد لعبت ذلك الدور بالنسبة لأوروبا اللاتينية فإن هذا الدور نفسه قد لعبته الثقافة العربية بالنسبة للأتراك ، حيث برزت هذه النهضة لديهم قبل كل شىء فى الاهتمام الخاص بالآثار الجغرافية وترجمتها إلى التركية بصورة منتظمة ؛

ولقد تجدد الاهتمام بالمصادر الجغرافية العربية لدى الأتراك العثمانيين منذ النصف الثانى للقرن الخامس عشر وذلك فى عهد السلطان محمد الفاتح (٨٥٥ هـ - ٨٨٦ هـ = ١٤٥١ - ١٤٨١) ؛ فترجمت جغرافيا بطلميوس فى ذلك العهد مرتين . وأغلب الظن أن اللغة التركية لم تكن قد اكتسبت مرونة كافية بعد لذا فقد نقل الكتاب إلى اللغة العربية وفقاً للمذهب القديم الذى كان سائداً فى القرنين الثامن والتاسع . ويمكن تكوين فكرة جيدة عن إحدى هاتين الترجمتين من الطبعة المصورة (facsimile) التى نشرها البحاثة المصرى الأمير يوسف كمال (١٩٢٩) المشهور بخبرته فى ميدان الجغرافيا التاريخية [٣]. وقد حظيت بنفس هذا القدر من الاهتمام أيضاً « المدرسة الكلاسيكية » للجغرافيين العرب للقرن العاشر ، فى عهد محمد الثالث فى نهاية القرن السادس عشر ترجم شريف أفندى إلى اللغة التركية كتاب الإصطخرى المعروف[٤] ، وفى نفس الوقت تقريباً فإن المؤرخ على چلبى الذى سيمر بنا الكلام عليه فى هذا الفصل قد ضم إلى كتابه «كنه الأخبار» ترجمة تركية مختصرة ومصلحة للنسخة الفارسية لكتاب الاصطخرى « صور الأقاليم »[٥] ؛ أما فى محيط الجغرافيا الرياضية الفلكية فإن هذه النهضة ترتبط ارتباطاً قوياً بنشاط عالم من علماء النصف الثانى للقرن الخامس عشر أيضاً وهو على القوشجى (توفى فى عام ٨٧٩ هـ = ١٤٧٤) الذى عرفناه كواحد من معاونى أولوغ بيك فى مرصده بسمرقند والذى التجأ إلى أراضى الدولة العثمانية عقب مصرع ولى نعمته ؛ وقد تمتعت رسالته فى الجغرافيا الرياضية والفلكية برواج كبير هنالك من بين جميع المصنفات التى على شاكلتها ونقلت إلى التركية أكثر من مرة ؛ وإحدى ترجماتها كما رأينا ندين بها لسيدى على ريس المعروف بينما قام بالترجمة الثانية بعد ذلك بثلاثين عاماً ملا ً پرويز (المتوفى عام ٩٨٧ هـ = ١٥٧٩)[٦] . من هذا يتبين لنا أن انبعاث الاهتمام بالجغرافيا لم يقف عند حد الجغرافيا الكلاسيكية وحدها بل تجاوزه إلى الاهتمام بالجغرافيا المعاصرة فى مختلف أنماطها . وفى عهد السلطان مراد الثالث فى نحو عام ٩٦٠ هـ = ١٥٨٢ تمت كما سبق أن ذكرنا ترجمة الوصف الفارسى للصين الذى دونه على أكبر[٧] ، كما ترجم فى القرن الخامس عشر إلى اللغة التركية الوصف الجغرافى لمصر ذو الطابع التخصصى وهو من عمل ابن الجيعان وذلك اعتماداً على المسودة التى ترجع إلى عام ٧٧٧ هـ = ١٣٧٥ ؛ وقد حدث أن بينا فى حينه أن هذا الكتاب لايتمتع فى الواقع بأهمية كبرى وأغلب الظن أن هذه الترجمة التركية التى توجد فى مخطوطة بفيينا بعنوان «ذكر

591

أقاليم ديار مصرية » كان مبعثها هو اهتمام العثمانيين بمصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ومن بين جميع فروع الأدب الجغرافى التى ازدهرت فى الفترة التالية للعصر الكلاسيكى أحس الترك كما أحس العرب من قبلهم بميل خاص نحو الكوزموغرافيا ، وهى تلك الأوصاف العامة لجميع العالم التى أفرد فيها مكان معين للجغرافيا إلى جانب الفلك والانثروبولوجيا والحيوان والنبات والمعادن وجميع ضروب الأساطير(٨) . وقد حظى القزوينى بمكانة خاصة فى هذا المجال وترجم مصنفه « عجائب المخلوقات » عدة مرات إلى التركية(٩) ولخصه المؤلف التركى أحمد بيجان منذ عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ وسنلتقى بهذا الأخير كمؤلف مستقل فى خلال هذا الفصل ؛ أما الترجمات الكاملة للكتاب فترجع إلى القرن السادس عشر(١٠) . وقد أثار أهمية أكثر من ذلك كتاب « خريدة العجائب » لابن الوردى فترجم إلى التركية لا أقل من خمس مرات ترجع أولاها إلى القرن الخامس عشر وتمت قبل استيلاء العثمانيين على القسطنطينية(١١) ، أما الترجمات الأخرى فيرجع معظمها إلى القرن السادس عشر وتحمل إحداها تاريخ ٩٦٣ هـ = ١٥٥٦(١٢) . ومحمود عاشق الذى سيرد الكلام عليه بعد قليل ، وهو أول مؤلف لأثر جامع فى الجغرافيا باللغة التركية ، قد ضمن مصنفه ترجمة ملخصة لمؤلف ابن الوردى فى الكوزموغرافيا وذلك حوالى عام ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٨(١٣) . وعلى غرار نمط الكوزموغرافيا تمتع بنفس هذه الدرجة من الرواج بين الأتراك العثمانيين مصنف أبى الفدا فى الجغرافيا ، وقد ذكرنا فى حينه أن سپاهى زاده (المتوفى عام ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨) قد أعاد صياغته بالعربية على هيئة معجم وزاد عليه إلى العصر الذى عاش فيه ، ثم لم يلبث أن عمل له ترجمة موجزة باللغة التركية(١٤) . أما مصنف أبى الفدا فى التاريخ فقد نقل إلى التركية منذ القرن الخامس عشر(١٥) كما أن الترجمات التركية العديدة لتاريخ الطبرى ، وهى تستند فى معظم الأحوال على ترجمته الفارسية من عمل البلعمى ، قد بدأت فى الظهور منذ السنوات العشر الأولى للقرن الخامس(١٦) عشر.

إن هذه الأسماء العديدة التى مرت سريعاً أمام ناظرينا تكفى لإعطاء فكرة عن النشاط الكبير الذى قام به العثمانيون لتمثل التراث العربى فى محيط الأدب الجغرافى القديم والحديث ، ولم يكن ليقدر لهذا النشاط أن يبلغ ذلك المدى لولا أن وجدت المخطوطات العربية طريقها فجأة فى ذلك العصر إلى الدولة العثمانية خاصة إلى العاصمة استنبول حتى أصبحت مجموعاتها فى المخطوطات تضارع ، إن لم تفق ، مثيلاتها فى البلدان العربية الأخرى . هذا وقد بدأت تركيا تمارس منذ القرن السادس عشر حقها كبلد فاتح فتم نقل المخطوطات بصورة منتظمة من مصر ، وبهذا وجدت طريقها إلى استنبول مجموعات كاملة من مختلف « الأوقاف » الحكومية والمخطوطات الشخصية لعدد من أمراء المماليك خاصة أولئك الذين حاق بهم لسبب ما سخط الدولة العثمانية . وقد سار هذا السيل من المخطوطات فى صورة منتظمة وسريعة حتى أنه توجد حالات تم فيها الكشف بعد قرون طويلة عن وجود مجموعات كاملة من المصنفات التى ألفت بمصر والتى افتقدها الباحثون عقب الغزو العثمانى لها ، مثال ذلك الموسوعات الكبرى لعهد المماليك التى أبنا عن أهميتها

592

بالنسبة للأدب الجغرافى العربى فيما مر من الكتاب : ويرجع معظم المخطوطات التى وجدت طريقها إلى استنبول إلى عهد المماليك ، ومن بينها عدد ليس بالقليل من النسخ التى رفعت هدايا إلى السلاطين والأمراء وكتبت بخط أنيق وزينت برسوم فنية رفيعة ، كما يوجد بينها أيضاً عدد من المخطوطات الأولى التى كتبت بيد المؤلفين أنفسهم والتى ترجع إلى عهود سابقة . ولم يقتصر وجود المخطوطات على المجموعات العامة الموجودة بالمساجد الكبرى بل وجدت أيضاً فى المجموعات الشخصية وبدكاكين الوراقين ؛ ونحن نذكر جيداً كيف تحدث الرحالة العربى التمجروتى فى حماس بالغ عما حفل به سوق الوراقين باستنبول من مخطوطات عربية متنوعة . ومنذ ذلك التاريخ نافست استنبول بمحتوياتها فى المخطوطات العربية أمهات الحواضر العربية الكبرى كالقاهرة ودمشق بل وفاقتها فى بعض الأحايين ، وكما عاون وصول المخطوطات اليونانية إلى إيطاليا على إحياء الثقافة الكلاسيكية القديمة فقد نشأ عن وصول المخطوطات العربية إلى تركيا قيام حركة مشابهة فى الأدب التركى خاصة فى ميدان الجغرافيا ؛ وقد ظلت هذه المخطوطات لعهد طويل مجهولة لدى الدوائر العلمية الأوروبية باستثناء القليل منها الذى وصل علمه إليها عن طريق المصادفة البحتة فى الغالب ؛ غير أن السنين العشرة الأخيرة قد وكدت احتمال العثور على مخطوطات مختلفة فى شتى فروع العلوم بين مجموعات المخطوطات هناك ، ويرجع الفضل الأكبر فى إلقاء الضوء على هذا إلى مجهودات المستشرق الألمانى ريتر Ritter . وكما وضح فيما بعد فإن عدداً كبيراً من هذه المخطوطات يدخل فى محيط الأدب الجغرافى بل إن بعضاً منها مما يتعلق بالعصر الكلاسيكى قد دفع إلى التفكير فى إعادة طبع بعض أجزاء « مكتبة الجغرافيين العرب » Bibliotheca Geographorum Arabicorum[١٧] ؛ أما فيما يتعلق بالعصور التالية لذلك فقد تم الكشف عن مواد فى غاية من الأهمية فيما يتصل بالإدريسى ، كما أن الكوزموغرافيات المختلفة تجد مكانها بصورة حافلة للغاية بين هذه المجموعات من المخطوطات . هذه النهضة الفريدة للأدب العربى التى دعمها ترجمة عدد كبير من آثاره إلى التركية ووصول عدد هائل من المخطوطات إلى أراضى الدولة العثمانية كان من شأنها أن تساهم فى خلق ونمو أدب أصيل باللغة التركية نفسها ، بالرغم من أن هذا الأدب لم يقدم لنا فى عهده الأول أية آثار ذات قيمة .

503 ويعد أول مؤلف لأثر من هذا النوع يازجى أوغلو أحمد بيجان الذى كما أسلفنا القول قد قام فى عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ بعمل مختصر « لعجائب المخلوقات » للقزوينى ؛ ومخطوطات هذا المختصر ليست بالنادرة[١٨] بل إن الكتاب نفسه قد طبع بقازان فى عام ١٨٨٨ ، وهى طبعة من العسير الحصول عليها الآن[١٩] ولكن مجرد الاهتمام بطبعه يقف دليلا واضحاً على انتشار هذا المختصر فى الماضى حتى بين شعوب الاتحاد السوفيتى . ومن المحتمل أن تكون معرفته بالمذهب الجغرافى هى التى دفعته لوضع رسالة مستقلة بعنوان « در مكنون » كثيراً ما نلتقى بمخطوطاتها هى أيضاً ؛ وعلى الرغم من هذا فإن صلته بالآثار الكلاسيكية العربية ضعيفة ، وهو يعالج موضوعه فى الغالب من الوجهة الأسطورية الشعبية ويحتل

العوامل الدينية لديه مكانة واضحة كما أنه لايعنى كثيراً بما يدور على الأرض بقدر عنايته بالآثار السماوية وجهنم وأدوار الخليقة وسير الأنبياء ويوم القيامة والإرهاصات التى تشير إلى اقتراب الساعة ؛ أما فى كلامه على الظواهر الأرضية فهو يفرد أهمية خاصة لكل أصناف الغرائب والخوارق[٢٠] . ولمصنف أحمد بيجان هذا ذيل على هيئة رسالة صغيرة مجهولة المؤلف بعنوان « مرآت العوالم » تنسب فى مخطوطة ڤينا إلى المؤرخ المشهور على (توفى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٩) وهى تنتمى إلى نفس تلك السلسلة من الكوزموغرافيات التى لم تكن غريبة على عالم الواقع فحسب بل وغلبت عليها المادة الأسطورية تماماً[٢١] .

وبعد فيجب القول بصورة عامة بأن الأدب الجغرافى التركى لم يقدم لنا خلال القرن الذى تلى أحمد بيجان سوى عدد قليل من الآثار التى يمكن أن توصف بالأصالة ؛ والاستثناء الوحيد فى هذا الصدد تمثله كما رأينا الجغرافيا الملاحية التى تقف برهاناً ساطعاً على النتائج القيمة التى يمكن الوصول إليها عن طريق مزج التجربة العملية بالأسس العلمية المستمدة من الاتجاهات النظرية القديمة[٢٢] ، وفيما عدا هذا فإن الأنماط الجغرافية الأخرى تبدو شديدة الهزال وشاحبة فالجغرافيا العلمية لم يكتب لها نجاح كبير بل اكتفت فى العادة بتلك الرسائل من طراز مؤلف على القوشجى الواسع الانتشار. ولم توجد إلى جانبه سوى بضعة قوائم جافة تحدد المواقع الجغرافية للمدن المختلفة وأوصاف الطرق العديدة التى تربط بين مختلف الأماكن ، كما وجدت فى بعض الأحايين رسائل صغرى تبحث فى تقسيم الأقطار أو فى الإحصائيات الحكومية المختلفة .

ويجب أن نولى عناية خاصة لليوميات السلطانية العديدة التى تتضمن وصف تنقلات سلاطنة آل عثمان وسير حملاتهم العسكرية وتحركاتهم فى أنحاء الإمبراطورية ؛ وقد أخذ عددها يزداد منذ عصر السلطانين سليم الأول[٢٣] وسليمان[٢٤] ، ويوجد قدر كبير منها فى ترجمات غير كاملة وملخصات باللغات الأوروبية المختلفة (خاصة الفرنسية والألمانية) منذ القرن السابع عشر ؛ ويمكن لهذه اليوميات أن تقدم مادة هامة بالنسبة للأوصاف الطبوغرافية والجغرافيا السياسية للدولة العثمانية ولكن لا يمكن بالطبع أن تعد أدباً جغرافياً[٢٥] : وليس ثمة ما يدعو إلى الزيادة فى القول بأن الآثار التاريخية العثمانية الأولى مثل « بهجة التواريخ » لشكر الله (توفى عام ٨٩٤ هـ = ١٤٨٩) لا تخلو أحياناً من بعض الأهمية بالنسبة للجغرافيا[٢٦] .

594

وقد نالت رواجاً خاصاً فى العهد الأول للأدب العثمانى تلك المصنفات التى تقف على الحد الفاصل بين الجغرافيا والتاريخ ، بل وفى كثير من الأحيان لاتخلو من عنصر الشعر والأسطورة ، وهى المتعلقة بوصف المدن والمواضع المختلفة : وهذه المصنفات تذكرنا أحياناً بنمط « الفضائل » القديم ، بل وأكثر من ذلك بتلك الأوصاف الأدبية لمدينة رومة التى نجدها عند الجغرافيين القدامى والتى قام بتحليلها المستشرق غويدى Guidi ، أو بوصف القسطنطينية الذى ورد بتفصيل أكثر فى كوزموغرافيا ابن الوردى ؛

وإلى هذه المدينة الأخيرة وإلى آثارها القديمة اتجهت بطبيعة الحال عناية المؤلفين والمترجمين العثمانيين . والمصنفات التي تحمل عنوان « تاريخ قسطنطينية » أو « تاريخ أيا صوفيا » والتي توجد في المخطوطات يبلغ عددها حداً بعيداً ، وهي نادراً ما تتشابهت في تبويبها وتمثل في العادة تاريخاً أسطورياً للمدينة ووصفاً لخططها قبل الفتح العثماني . بل إن أحد المصنفات من هذا الطراز يرتبط باسم على القوشجي المعروف لنا جيداً (توفي في عام ٨٧٩هـ - ١٤٧٤)[٢٧] وبعض هذه المصنفات كما بين موردتمان Mordtmann[٢٨] لا يمثل في واقع الأمر سوى تعديل طفيف للحكايات البيزنطية وعلى العكس من هـذا فإن بعضها يرتفع إلى مصادر أبعد من ذلك . وخير مثال للمجموعة الثانية مسودة بعنوان « تاريخ قسطنطينية » موجودة في مخطوطة بالمتحف البريطاني كان قد نشر قسماً منها ودرسها ف . اسميرنوف V. Smirnov في عام ١٨٩٨ ؛ وكلا المخطوطة والمصنف يرجعان إلى ما قبل القرن الخامس عشر أو كما يفترض ريو Rieu إلى بداية القرن السادس عشر[٢٩] . وقد أعرب الناشر عن أمله في أن يقدم الكتاب بعض المادة بالنسبة للتاريخ الطوبوغرافي للمدينة وآثارها في العصر القريب من عصر المؤلف ، غير أن التحليل الدقيق الذي قام به روزن Rosen[٣٠] والذي يكشف عن عمق وذكاء كما هو شأن هذا العالم دائماً قد أثبت أن هذا الأثر منقول برمته عن مؤلفات سابقة وأن أهميته لاتتعدى مجال التاريخ الأدبي حتى أنه لا يمثل أهمية بالنسبة للعصر الذي تم تدوينه فيه . وينبغي أن نلاحظ منذ البداية أن الكتاب لايتميز بالأصالة وأنه كما تم الافتراض من قبل إنما يرتفع إلى مصنف فارسي للقرن العاشر ثم تدوينه في عهد السامانيين[٣١] ؛ أما مادته الأساسية فمأخوذة من | أوصاف نصف أسطورية لمؤلفين عرب من طراز ابن الفقيه وابن رسته 505 كما يمكن أن تكون قد وجدت طريقها إليه تفاصيل ترجع إلى مصادر سريانية بيزنطية . ولعلنا نذكر جيداً كيف أمكن لغويدي Guidi أن يكشف عن هذا عند تحليله للمادة المشابهة لهذه في المصادر العربية في وصف أنطاكية وروما ؛ ومن الأوفق أن نضرب صفحاً عن أي أمل في العثور على معلومات بيزنطية ذات قيمة ترجع إلى عهود متأخرة في هذه المصنفات التركية في « تاريخ قسطنطينية » .

وقد ظهرت شيئاً فشيئاً آثار مشابهة وبنفس هذا الأسلوب عن حواضر ومواضع أخرى إما لأنها ارتبطت بنمو سلطان العثمانيين أو تقليداً للمذهب العربي القديم ، ويصدق هذا على بروسه المهد الذي نشأت فيه دولة آل عثمان ، أو دمشق حيث يشير عنوان الرسائل « فضائل الشام » إلى ارتباطها الوثيق بنمط سابق معروف لنا جيداً ، أو على مصر والنيل . وعدد الرسائل التي تحمل عنوان « فضائل الشام » كبير للغاية في اللغة التركية ، وهي تعرض لفضائل ذلك القطر خاصة مدينة دمشق بنفس الأسلوب المعروف لنا من النماذج العربية ، ويحظى بعناية خاصة في هذا الصدد وصف المسجد الأموي والكلام عن الأنبياء والعلماء والمتصوفين الذين توفوا ودفنوا بالشام ثم ذكر المواضع المشهورة بدمشق . وجميع المصنفات من هذا الطراز على وجه التقريب ترتفع إلى أصول عربية ولو أن علاقتها بعضها بالبعض غير واضحة لأنها

لاتزال محفوظة فى العادة على هيئة مخطوطات[٣٢] . وهذا الطابع نفسه تحمله أوصاف المدن المقدسة وهى مكة والمدينة والقدس التى تحتل مكانة كبيرة فى الأدب التركى الطبوغرافى والتاريخى لكافة ذلك العهد ؛ وهى ترتبط أحياناً بالعدد المتزايد من الحجيج التركى وقد صيغ وصفها فى أسلوب خاص سنعرض لتحليله فيما سيأتى من هذا الكتاب . وهذه المصنفات تحمل فى معظم الأحايين عنوان « الفضايل » وتوجد فى عدد كبير من المخطوطات التى تهمل أحياناً ذكر اسم المؤلف ، كما وأنه من العسير استجلاء مصادرها دون القيام ببحث خاص فى هذا الميدان . ولإعطاء فكرة عن رواج هذا النمط من الأدب نذكر أن هناك ثلاثة آثار متشابهة من حيث الصيغة ترجع إلى مؤلف واحد هو محمد يحيى أفندى (حوالى عام ١٠٢٠ هـ = ١٦١١) وهى « فضائل مكة مكرمة » و« فضائل مدينة منورة » و« فضائل قدس شريف» ؛ وهذه الآثار الثلاثة موجودة فى عدد كبير من المخطوطات إلا أنها ليست بذات أهمية كبيرة على وجه العموم من الناحيتين التاريخية والجغرافية[٣٣] .

ويلى هذا فى نحو عام ١٠٤٦ هـ = ١٦٣٦ ظهور رسالة مماثلة عن مدينة أدرنة بعنوان « أنيس المسامرين » تتمتع على النقيض من ذلك بأهمية لامثيل لها بالنسبة للجغرافيا المحلية ؛ ومؤلفها وهو عبد الرحمن بن حسين حبرى ، الذى يخلط اسمه أحياناً بأسماء مؤلفين آخرين مثل جورى وخيرى بل وحتى بروروى[٣٤] ، أصله من أدرنه واشتغل فيما بعد بالتدريس بها | وكان يحمل لمسقط رأسه حباً عميقاً . ويقدم لنا مصنفه تاريخ هذه المدينة ، التى كانت ذات يوم عاصمة للدولة العثمانية ، بين عامى ٧٦٠ هـ = ١٣٥٩ و ١٠٤٣ هـ = ١٦٣٣ فى أربعة عشر فصلا يطرق جزء كبير منها موضوعات جغرافية . فالفصل الأول يعالج الكلام على فتح أدرنة بواسطة العثمانيين يليه الفصل الثانى الذى يتحدث عن قلعتها وشوارعها وميادينها ، ثم الفصل الثالث عن مساجدها ومؤسسات البر فيها ، والرابع فى مدرستها وزوايا الدراويش بها ، والخامس فى منازل القوافل وأماكن الضيافة ، بينما يبحث الفصلان السادس والسابع فى الأنهار وفى بساتينها وجسورها وعيونها وآبارها . أما الفصل الثامن فيتحدث عن تحصينات أدرنه وضواحيها والريف المحيط بها ، بينما يتحدث التاسع عن مقابرها . وبهذا فإننا نلتقى إلى جانب الموضوعات التاريخية بدراسة نموذجية لحاضرة كبيرة تشبه إلى حد كبير نمط « الخطط » العربى ؛ هذا وقد أفاد حاجى خليفة من هذه الرسالة وأشاد بها كثيراً . وفى القرن التاسع عشر ظهر مواطن آخر من أهل أدرنه يكمل حبرى ذلك هو بادى أحمد (توفى عام ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨) الذى يقدم لنا وصفاً تاريخياً جغرافياً فيما لمدينته فى ثلاثة أجزاء بعنوان « رياض بلدة أدرنة » لايزال معروفاً من مخطوطاته فقط . ولايزال الغموض يكتنف حقيقة وضع « تاريخ » آخر ينسب لشخص اسمه « جورى چلبى » يتفق مع كتاب « أنيس المسامرين » من حيث مادته التاريخية والجغرافية[٣٥] .

وقد تلى المحاولات الأولى لوضع مصنفات كبرى ذات طابع دينى أسطورى فى الكوزموغرافيا ظهور مصنفات كوزموغرافية صغرى فى عهد السلطان سليمان يغلب على مضمونها الجانب العلمي وتتميز

عن تلك ببعض الرزانة . وإحدى هذه الكوزموغرافيات الصغرى وهي « تحفة الزمان وخريدة الأوان » قام بتأليفها شخص يدعى مصطفى بن علي وصلتنا عنه بعض رسائل في الرياضة والفلك وكان يعمل « موقتاً » بمسجد سليمية باستنبول ، ولا تزال تقابل في المخطوطات شذور من كتابه « تحفة المجالس » الذي يعالج فيه الكلام على مائة مدينة ومواقعها الجغرافية وذلك من بين المدن المحيطة باستنبول[٣٦] . وأغلب الظن أنه يرتبط بهذا الاتجاه مخطوطة موجودة بقينا لرسالة بعنوان « إعلام العباد بأعلام البلاد » تقدم قطعة موجزة في الجغرافيا الرياضية والوصفية ، وهي بدورها تم تأليفها في عهد السلطان سليمان إلا أن اسم مؤلفها لا يزال مجهولاً[٣٧] .

وربما ظفر بعناية أكبر ذلك العرض للجغرافيا الوصفية وفقاً للمذهب القديم الذي نلتقي به في مقدمة تاريخ « كنه الأخبار » لمؤرخ لايفتقر إلى بعض الشهرة هو علي مصطفى بن أحمد چلبي (توفى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٩)[٣٨] . 597 وقد أضاف هذا المؤلف إلى القسم الأول من كتابه « تذنيباً » يعرض فيه سريعاً لوصف الأرض معتمداً أساساً على ثلاثة مؤلفين معروفين لنا جيداً هم أبو الفدا ، وسباهي زاده التركي الذي قام بعمل مسودة جديدة لجغرافيا أبي الفدا كما سبق أن رأينا ، ثم كتاب « صورة الأرض » الذي يمكن أن نبصر فيه الترجمة الفارسية المصلحة لمصنف الإصطخري . ومؤلفنا يوافق المؤلفين العرب في فكرتهم التي تقول بأن الأوضاع الجغرافية القديمة التي عرضها لنا المؤلفون السابقون لما تزل صحيحة في أسسها إلى القرن السادس عشر ؛ أما عرضه الجغرافي هذا الذي احتوته المقدمة والذي يعد أشبه بالمدخل لمصنفه التاريخي الكبير فهو عرض موجز للغاية ولايتعدى إيراد ملاحظات ذات طابع عام دون أن يدخل في تفصيلات ما ، وهو بهذا لم يلعب أدنى دور في التطور العام للأدب الجغرافي التركي[٣٩] .

إلا أننا في نهاية هذا القرن السادس عشر نفسه نواجه بأهم مصنف جغرافي باللغة التركية يعرض لنا لأول مرة خلاصة عامة للمذهب العربي القديم وهو « مناظر العوالم » الذي فرغ مؤلفه محمد عاشق من تأليفه بدمشق عام ١٠٠٦ هـ - ١٥٩٨ معتمداً في ذلك على مواد أدبية وعلى معلومات جديدة جمعها أثناء تجواله بمناطق نائية[٤٠] والكتاب يتوج تاريخ الفترة الشرقية ، إن جاز هذا التعبير ، للأدب الجغرافي التركي ؛ بل إن المؤلف نفسه قد عبر عن أمله في أن يكون مصنفه فاتحة عهد جديد في ازدهار هذا الضرب من الأدب لدى الأتراك . وأول من حلل هذا المصنف وبين طابعه الأساسي على ضوء التطور العام للأدب الجغرافي هو المستشرق تيشنر الذي وإن قدر الكتاب حق قدره[٤١] إلا أنه قلل من أهميته حين اعتبره « آخر مسودة شرقية لبطلميوس » ، ذلك أن تيشنر في الواقع لا يرى في جميع الجغرافيا الوسيطة (Medieval) سوى حلقات متتابعة لتعديلات جديدة لبطلميوس[٤٢] . ومما لاشك فيه أن محمد عاشق كان يحس بارتباطه الوثيق ببطلميوس فهو يعترف بأنه قد وزع القسم الجغرافي من « كوزموغرافيته » بحسب « الأقاليم الحقيقية » لبطلميوس ، ثم وزع مادة هذه الأخيرة بحسب « الأقاليم العرفية » (أي المناطق الجغرافية Geographical Regions) وفقاً لطريقة أبي الفدا[٤٣] . ولعل حاجي خليفة لم يتنكب

الصواب عندما ذكر أنه قد أتم مسودة كتابه ولكنه لم يبيضها ؛ ومخطوطات الكتاب فى الواقع نادرة للغاية ولم تعرف فى أوروبا إلى عهد قريب سوى مخطوطة واحدة موجودة بفينا[٤٤] زد على هذا أن الكتاب لم ينشر منه سوى مقتطفات موجزة . أما المؤلف نفسه فإن معلوماتنا عنه لاتتعدى تلك الإشارات العارضة التى وردت فى مصنفه .

ولد محمد عاشق ابنا لمدرس بطربزون فى نحو عام ٩٦٢ هـ = ١٥٥٥ فيما يبدو[٤٥] ، وغادر مسقط رأسه منذ بلوغه سن العشرين 598 فبدأ تجواله الطويل الذى دام عدة أعوام وكان هدفه فيما يغلب على الظن أن يجمع المادة من أجل كتابه ؛ وقد تخللت هذا التجوال الطويل زيارات متقطعة إلى مسقط رأسه .

وهو قد أقام فى بعض المواضع فترات طويلة شغل خلالها عادة وظيفة كاتب صغير فى الشئون القضائية ؛ واستغرقت إقامته بالروملى والأناضول فترة أطول وكان هدفه من ذلك كما يفترض تيشنر أن يستكمل معلوماته عنها بالملاحظة المباشرة لأن المصادر المكتوبة عنها كانت قليلة ، خاصة فى اللغة العربية . وبلغ محمد عاشق فى تجواله مدينة دربند وذلك فى عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ ، وابتداء من عام ١٠٠٥ هـ = ١٥٩٦ استقر بدمشق نهائياً ؛ وليس فى كتابه أدنى ذكر لأدائه فريضة الحج . وقد أتم كتابه خلال عامين فى أثناء وجوده بدمشق ؛ ويبدو أنه قد توفى بعد ذلك بقليل ، هذا إذا ما أخذنا برأى حاجى خليفة من أن الكتاب ظل فى شكل مسودة[٤٦] .

وكتاب « مناظر العوالم » يمثل من حيث تبويبه نموذجاً جيداً لنمط الكوزموغرافيا كما عرفناه لدى القزوينى والدمشقى وحمد الله مستوفى قزوينى ، فالقسم الأول وهو قصير بعض الشىء إذ لا يزيد على العشرين صفحة يبحث فى « العالم العلوى »[٤٧] ويتضمن الكلام على السماء وسكانها والأجسام السماوية وعلى الجحيم . وباستثناء بعض المادة الفلكية فإن مضمون القسم الأول ليس فى واقع الأمر سوى مقدمة للقسم الثانى الذى يبحث فى « العالم السفلى » ، فالأرض وسكانها تشغل أكثر من نصف المصنف أى نحو مائتين وخمسين صفحة . ووفقاً للطريقة المتبعة عادة فى المصنفات الكوزموغرافية فإن المؤلف يقدم لنا وصفاً عاماً للأرض فيتحدث عن البحار والجزر والبحيرات والأنهار ومنابع المياه والجبال وأخيراً عن المدن التى يفرد لها أهمية خاصة . ويلى وصف الأرض الكلام على التاريخ الطبيعى وهو يشغل حيزاً يقرب من ذلك إذ يصل إلى نحو المائتى صفحة . ومعالجته لأقسامه يذكرنا بدوره بالكوزموغرافيات العربية فهو يتحدث عن المعادن فى صورها الصلبة والمائعة والغازية ثم عن الطيب والنباتات والحيوان والإنسان[٤٨] .

وجميع المادة الجغرافية موزعة لديه كما ذكرنا من قبل على الأقاليم السبعة البطلميوسية أو « أقاليم حقيقية » كما يدعوها المؤلف نفسه ، ثم إلى ثمانية وعشرين إقليما « عرفية » وفقاً لتقسيم أبى الفدا[٤٩] ؛ ومحمد عاشق يتبع هذا التقسيم الأخير حرفياً[٥٠] باستثناء حالات قليلة يعالج فيها الكلام على مواضع لم ترد عند أبى الفدا . وفى مقابل هذا فإن مصادره عديدة وتكاد تشمل الأسماء الرئيسية من بين مصنفات الأدب الجغرافى العربى المعروفة لنا ؛ وأكثر ما يقابلنا لديه أسماء ابن خرداذبه وابن الوردى والقزوينى

599 وياقوت وحمد الله مستوفى . غير أن المكانة الأولى عنده يحتلها « تقويم البلدان » لأبى الفدا | فهو لم يستق منه نظام تقسيم البلدان فحسب بل ومعظم مادته الجغرافية التى ضمنها جميع كتابه بحيث يمكن اعتبار مصنف محمد عاشق من هذه الناحية « مسودة موسعة باللغة التركية لأبى الفدا » كما يقول تيشنر (ein erweiterte türkische Ausgabe des Abulfida)[٥١] . ولكنه إلى جانب هذا لايهمل المصادر الأخرى بل يشير إليها بمنتهى الدقة ويضمن المادة المأخوذة عنها داخل الأقسام المختلفة التى أخذ تبويبها عن أبى الفدا كما رأينا ؛ وأما تلك المواضع التى لم يرد ذكرها لدى أبى الفدا فإنه يضيفها إلى داخل كل قسم «كذيل» قائم بذاته ، ومعظمها بالطبع يعالج الكلام عن المواضع الجغرافية الكائنة بالأناضول والروملى .

ويكمل المؤلف المادة النقلية بمعلوماته الشخصية التى تتميز بدورها بالتفصيل والدقة ويصحبها فى العادة ذكر الشخص الذى استقى منه هذه المعلومات ؛ وهى تمس فى الغالب تواريخ مدن معينة والكلام على أبنيتها وسكانها[٥٢] . ومن الملاحظ اختفاء أى أثر للنفوذ الأوروبى على كتاب محمد عاشق ، وكل ما يورده عن أوروبا ضحل للغاية ولايتجاوز فى العادة ما عرفه الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى ؛ وبنفس الطريقة نفتقد لديه أية إشارة إلى الاكتشافات الجغرافية الكبرى والرحلات الأوروبية التى تمت فى العهد القريب منه[٥٣] ، ولا يمكن بالطبع إرجاع هذا إلى محض المصادفة لأن قرائن الأحوال تشير إلى أنه قد فعل ذلك عن قصد ؛ ويقف مثال پيرى ريس دليلا بينا على توفر المادة والمعلومات عن ذلك بقدر واف فى نطاق الدولة العثمانية وذلك فى فترة تسبق الفترة التى عاش فيها محمد عاشق بعشرات السنين ؛ ولم يكن بوسع مؤلف « مناظر العوالم » بما عهد فيه من سعة الاطلاع وتعدد الميول أن يجهل هذا ، غير أن كتابه على ما يبدو يمثل رد فعل ما ضد الاتجاهات الجديدة الوافدة من الغرب فهو يحاول معارضتها بالتراث القديم الذى جهد فى جمعه فى مؤلف شامل يلم بجميع أطراف الموضوع . ونتيجة لهذا فإنه على الرغم من كل ما يتمتع به هذا الكاتب من مكانة بوصفه آخر ممثل للأدب الجغرافى للعصور الوسطى فى الشرق فى صورته العربية ، وعلى الرغم أيضاً من الأهمية التى تتمتع بها روايته فى بعض الأحيان ، فإن المصنف فى مجموعه أشبه ما يكون بشىء متقادم لايتفق مع واقع الأحوال التى وجد فيها بل يعكس عصوراً تاريخية سابقة (anachronism)[٥٤] ، وبهذا فلم يكن بمقدوره إرضاء مطالب معاصريه ولعل هذا هو السبب فى عدم انتشاره فى الشرق نفسه . والشخص الوحيد الذى عرفه جيداً هو حاجى خليفة ومن المحتمل أنه من آثار تلك المعرفة ودوافعها أن شرع فى وضع مؤلفه « جهانما » ولو أنه لم يكن يرجع إلى محمد عاشق بصورة منتظمة[٥٥] .

لقد وجد النفوذ الأوروبى طريقه إلى الدولة العثمانية فى عهد محمد عاشق دون أن يواجه أية مقاومة

600 تذكر وحمل معه أخبار الاكتشافات الجغرافية الجديدة بحيث لم يكن | من المستطاع تجاهلها أو ضرب صفح عنها . ففى نحو عام ٩٤٧ هـ = ١٥٤٠ ، وعقب وفاة خير الدين بربروسا التى حدثت فى عام ٩٥٣ هـ = ١٥٤٦ ، ظهر كتاب بعنوان « تاريخ الهند الغربى » كان الدافع إليه على ما يظهر الاستجابة للمطالب

المتزايدة من جانب القراء : وبالطبع فهو لايمثل فى واقع الأمر تاريخاً ما بل حكاية مشحونة بتفاصيل خرافية عن كشف الأوروبيين لجزر الهند الغربية مع وصف لعادات وطبائع سكانها[٥٦] ؛ وهو فى الحقيقة ترجمة لمصنف « فرنجى » قصد به تعريف الجمهور فى أوروبا باكتشاف العالم الجديد أمريكا[٥٧] ، وتشير قرائن الأحوال إلى أن الدولة العثمانية استطاعت أن تعرف خبر هذه الواقعة بعد لحظه وجيزة من انتشاره بين جيرانها الأوروبيين وذلك على يد أحد المسيحيين ممن دخلوا حظيرة الإسلام (renegade) : وقد ظل هذا المصنف متمتعاً بالرواج بين جماهير القراء حتى القرن الثامن عشر وكان من أوائل الكتب التى خرجت من مطبعة مؤسس الطباعة بتركيا ابراهيم متفرقة المشهور وذلك فى عام ١١٤٢ هـ = ١٧٢٩ ؛ وتمثل هذه الطبعة فى الآونة الحاضرة شيئاً نادراً وتعد من أشهر آثار الطباعة العربية فى الدولة العثمانية : هذه الطبعة من قطع الثمن (octavo) تضم إحدى وتسعين صفحة من الحجم المزدوج وهى مزودة بأربع خارطات وبجدول يبين النجوم ، هذا إلى جانب عدد من اللوحات المنقوشة (engraved) التى تصور سكان أمريكا وحيوانها ونباتها[٥٨] . وتاريخ تدوين هذا المصنف لم يثبت بصورة قاطعة فأحياناً يرجع إلى عهد السلطان مراد الثالث وذلك فى نحو عام ٩٩٠ هـ = ١٥٨٢ وينسب تأليفه إلى شخص غير معروف تماماً يسمى محمد بن يوسف الهروى[٥٩] . وقد وقع كارا دى ڤو Carra de Vaux فى خطأ كبير حين نسب تأليف هذا الكتاب إلى حاجى خليفة[٦٠] ، ووجد هذا الخطأ طريقه إلى مؤلفات أخرى حتى أيامنا هذه . ذلك أن المسألة المحيطة بشخص المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب يجب أن تظل مفتوحة ؛ ومخطوطة ليدن لمصنف حاجى خليفة الببلوغرافى الضخم والتى ترجع إلى عام ١٧٢٩ وتختلف أحياناً فى قراءتها مع النسخة المطبوعة[٦١] تضم زيادة كبيرة عند معالجتها الكلام على هذا المصنف[٦٢] ، فتحت عنوان واحد يرد ذكر كتابين أحدهما باللغة العربية لمؤلف يدعى محمد بن يوسف الهروى نقله إلى التركية وزاد عليه شخص غير معروف أيضاً هو أبو الخلف محمود بن يوسف المصرى ويرد فيه الكلام عن رحلات الهنود أولا إلى أمريكا ثم عن رحلات الأسبان . أما الرسالة الثانية والتى ترجع إلى عهد تال لهذا فقد ترجمها أحد الأتراك من اللغة « الفرنجية » وأضاف إليها تعليقاته من « تذكرة » ما . وإزاء هذا الخلط الواضح فإن من العسير أن نخرج بنتيجة ملموسة عن شخص المؤلف ، ليس ذلك فحسب بل ومن العسير أيضاً أن | نوضح طبيعة علاقة هذين المصنفين اللذين عرفهما حاجى خليفة بذلك المصنف الذى خرج فى طبعة 601 قشيبة منذ الفترة الأولى لظهور فن الطباعة بالدولة العثمانية .

ويمكن أن نعتبر نهاية القرن السادس عشر خاتمة فترة معينة فى تاريخ الأدب الجغرافى التركى عند ما قدم لنا محمد عاشق خلاصة المذهب العربى القديم . وقد رأينا كيف استطاعت الجغرافيا الملاحية فى بداية ذلك القرن أن تشق لنفسها مسالك جديدة وصل علمها إلى أهل الغرب وأدت شيئاً فشيئاً إلى ظهور فروع جديدة فى ميدان الجغرافيا : غير أن هذا بالطبع لايعنى أن المذهب القديم قد اختفى بدوره تماماً